

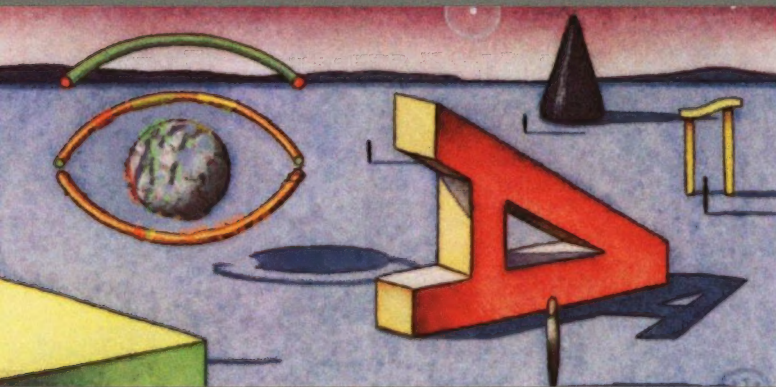
أوغدن ورتشاردز

عمل رياضي في علم الرمزية،
وفي كيفية تأثير اللغة في الفكر

مَعْنَى الْمَعْنَى

دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية

قدّم للكتاب وترجمه: د. كيان أحمد حازم يحيى



مع مقدمة جديدة لأمبرتو إيكو

C. K. OGDEN & I. A. RICHARDS
The Meaning of Meaning



"كتاب أصيل، تكمن مزيته في قوله أشياء،
مهيئة سابقة لزمناها بأشواط بعيدة" أمبرتو إيكو

مَعْنَى الْمَعْنَى

أوغدن ورتشاردز

مَعْنَى الْمَعْنَى

دراسةٌ لِأَثَرِ اللُّغَةِ فِي الْفِكْرِ وَلِلْعِلْمِ الرَّمْزِيَّةِ

مَعَ مَقَالَتَيْنِ مُلَحَقَتَيْنِ

لِلْإِنْفُوسِكِيِّ وَكِرُوكْشَانِكِ

وَمُقَدِّمَةً

لِلْأَمْبِرْتُو إِيكُو

قَدَّمَ لِلْكِتَابِ وَتَرَجَّمَهُ

الدُّكْتُورُ كِيَانُ أَحْمَدُ حَازِمُ يَحْيَى

دار الكتاب الجديد المتحدة

- تشارلز كئي أوغدين Charles Kay Ogden (1889-1957م). تَخَرَّجَ فِي كُليَّةِ ماغدالين التابعة لِجامعةِ كيمبرج. بَدَأَ فِي سَنَةِ 1909 عَمَلَهُ بِدِرَاسَةِ التَّوَاصُلِ العَالَمِيِّ وَأَثَرِ اللُّغَةِ فِي الفِكْرِ. وَزارَ المَدارسَ والجامعاتَ فِي أُوْرُتَا، والهند، والولاياتِ المُتَّحِدةِ مِن أَجْلِ دِرَاسَةِ مَنَاحِجِ تَعْلِيمِ اللُّغَةِ. ثُمَّ أَسَّسَ الدُّكْتُورَ أوغدين المَعْمَدَ الأورثولوجي⁽¹⁾. وَكانَ مُبتَكِرَ نِظامِ اللُّغَةِ الإنجليزِيَّةِ الأساسِيَّةِ، المُتَمَثِّلِ فِي مُفْرَدَاتِ قَوامِها 850 كَلِمَةً اختيرت لِتَكُونَ لُغَةً عَالِيَّةً. وَلِلدُّكْتُورِ أوغدين، زِيادَةٌ عَلى المُصَنَّفَاتِ الَّتِي أَنجَزَها بِمُشارَكَةِ رِتشاردز، مُؤَلَّفَاتٌ مِنها مَعْنَى عِلْمِ النَفْسِ The Meaning of Psychology (1926)، وَنِظامُ الإنجليزِيَّةِ الأساسِيَّةِ System of Basic English (1934)، وَالمُعْجَمُ العامُ لِلإنجليزِيَّةِ الأساسِيَّةِ General Basic English Dictionary (1942)، وَغَيرُها مِنَ الكُتُبِ.

- آيفر أرمسترونغ رِتشاردز Ivor Armstrong Richards (1893-1979م). تَخَرَّجَ فِي كُليَّةِ كَليفِتِن فِي بَرِستَل، وَفِي كُليَّةِ ماغدالين التابعة لِجامعةِ كيمبرج. فِي سَنَةِ 1922 أَصْبَحَ مُحَاضِرًا فِي اللُّغَةِ الإنجليزِيَّةِ وَعُلُومِ الأخلاقِ فِي كيمبرج، وَبَعْدَ أَرْبَعِ سَنَواتِ نالَ رَمالَةً كُليَّةً ماغدالين. وَفِي أَثناءِ هذِهِ المُدَّةِ شارَكَ أوغدين فِي تاليفِ أُسُسِ عِلْمِ الجَمالِ Foundations of Aesthetics (1921)، وَمَعْنَى المَعْنَى The Meaning of Meaning (1923). وَتَتَضَمَّنُ أَعمالُهُ المُتَأَخَّرَةُ مَبادِي النِّقْدِ الأدبيِّ Principles of Literary Criticism (1925)، وَالنِّقْدَ العَمَلِيَّ Practical Criticism (1929)، وَمَذَهَبَ كوليرج فِي الخَيالِ Coleridge on Imagination (1935)، وَفَلَسَفَةَ البَلَاغَةِ Philosophy of Rhetoric (1936)، وَكَيْفَ نَقْرَأُ صَفْحَةً How to Read a Page (1942)، وَأَدواتُ تَأَمُّلِيَّةٍ Speculative Instruments (1955). وَنَشَر، زِيادَةً عَلى ذَلِكَ، مَجْموعَتَيْنِ شِعْرِيَّتَيْنِ هُما وَداعا أَيُّها الأَرْضُ وَقَصائِدُ أُخَرى Goodbye Earth and Other Poems (1958)، وَالأَسْتارُ وَقَصائِدُ أُخَرى Screens and Other Poems (1960)، وَمَسْرُجِيَّةٌ شِعْرِيَّةٌ عُنوانُها عَدا فِي الصُّباحِ، يا فاوستوس! Tomorrow Morning, Faustus!. وَفِي سَنَةِ 1962 كَرَّمَهُ المَعْمَدُ القُومِيُّ لِلْفُنُونِ وَالآدَابِ بِمَنحِهِ جائِزَةَ لَوِينزَ لِلشَّعْرِ.

(1) الأورثولوجيا: قُنُ القَواعِدِ النُّحويَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَالاسْتِعْمالِ الصَّحِيحِ لِلكَلِماتِ. [المُترجم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْمُتَرْجِمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ اخْتِلَافَ الْأَلْسِنَةِ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ، وَجَعَلَ خَلْقَهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِيتَعَارَفُوا، وَلِيَتَلَفَّحَ عُقُولُهُمْ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ لَا عِمَارَةَ لِلْأَرْضِ إِلَّا بِتَوَاضُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبِمَعْرِفَةِ بَعْضِهِمْ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ خَضَارُهُ بَعْضٌ وَمَا تَجُودُ بِهِ قَرَائِحُ أَبْنَائِهَا. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ الَّذِي عَرَفَ لِللِّسَانِ عَظِيمَ شَأْنِهِ، فَكَانَ مِنْ مَظَاهِرِ ذَلِكَ أَنْ حَرَصَ كُلُّ الْحَرَصِ عَلَى أَنْ يُخَاطَبَ، مَا اسْتَطَاعَ، قَبَائِلَ الْعَرَبِ بِحَسَبِ مَا اعْتَادَتْهُ كُلُّ قَبِيلَةٍ مِنْ لَهْجَةٍ، وَأَنْ أَقَرَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بِلَهْجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَنْ حَصَّ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ تَوَسَّعَ فِيهِ الْمُكْنَةُ مِنْهُمْ عَلَى تَعَلُّمِ لُغَاتِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى لِيَكُونَ لَهُمْ ذَلِكَ مِرْقَاةً إِلَى مُعَامَلَتِهِمْ وَمَوَاضِلَتِهِمْ، تَحْقِيقًا لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ وَإِقَامَةً أُسُسِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهَا.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ شَغَلَنِي أَمْرُ كِتَابٍ (مَعْنَى الْمَعْنَى) رَدَحًا مِنْ دَهْرِي، وَلِي مَعَهُ قِصَّةٌ أَرْجُو أَلَّا أَنْقِلَ عَلَى قَارِئِي الْكَرِيمِ بِسَرْدٍ طَرَفٍ مِنْهَا، فَلَعَلَّهُ وَاجِدٌ فِيهَا مَا يَحْضُهُ عَلَى مُوَاضَلَةِ دَرْبِ طَرِيقٍ طَرَفًا يَسِيرًا، وَمَا زَالَ يَنْتَظِرُ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ.

فَقَدْ كَانَ بَدْءُ شَأْنِي مَعَ هَذَا الْكِتَابِ حِينَ كُنْتُ فِي مَرَحَلَةِ الدِّرَاسَةِ الْأُولَى لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِذْ كَانَ مِنْ مُفْرَدَاتِ مَنْهَجِ عِلْمِ اللُّغَةِ الْمُقَرَّرِ تَدْرِيسُهَا نَظَرِيَّاتٍ الْمَعْنَى، وَكَانَ الْكِتَابُ الَّذِي نَدْرُسُهُ فِي مَادَّةِ عِلْمِ اللُّغَةِ أَقْرَبَ إِلَى الْأَمْشَاجِ وَالْأَخْلَاطِ الْمُقْتَضِصَةِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ مِنْهُ إِلَى الْكِتَابِ الْمَنْهَجِيِّ الْمُنَظَّمِ، وَلَقَدْ تَبَيَّنَ لِي بَعْدَ أَنْ مُعَظَّمُ الْمَذْكُورِ فِيهِ مِنْ نَظَرِيَّاتِ الْمَعْنَى إِنَّمَا هُوَ مُسْتَمَدٌّ مِنَ الْكِتَابِ الرِّيَادِيِّ فِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ الَّذِي يَحْمِلُ غُنَوَانَ (عِلْمِ الدَّلَالَةِ) لِمُؤَلِّفِهِ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ مُخْتَارُ عَمَرٍ. وَمَا زِلْتُ أَذْكُرُ مَا أَثَارَهُ فِيَّ غُنَوَانُ مُؤَلِّفِ أَوْغِدِينَ وَرِثْشَارْدَزِ حِينَ جَبَهَنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ وَأَنَا أَطَالِعُ النُّظْرِيَّةَ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيْهِمَا فِي كِتَابَيْهِمَا هَذَا وَالتِّي

أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ (النَّظَرِيَّةِ الْإِشَارِيَّةِ)؛ إِذْ أَسَرَّنِي الْمُفَارَقَةُ الَّتِي يَنْطَوِي عَلَيْهَا هَذَا الْعُنْوَانُ (مَعْنَى الْمَعْنَى)⁽¹⁾، فِيهِ، وَإِنْ تَكُنْ مُفَارَقَةً سَهْلَةً غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ، تَنْمُّ عَلَى حِذْقٍ شَدِيدٍ وَقُدْرَةِ حَسَنَةٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ بِاقْصَرِ طَرِيقٍ وَبِأَجْمَلِ عِبَارَةٍ. وَلَا أَذْكَرُ الْآنَ، وَقَدْ بَعُدَ عَهْدِي بِتِلْكَ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الدِّرَاسَةِ، أَنِّي قَدْ اسْتَوْقَفَنِي غَيْرُ الْعُنْوَانِ، بَلْ أَذْكَرُ جَيِّدًا أَنِّي أَحَسَسْتُ تَجَاهَ الْكِتَابِ، رُبَّمَا بِسَبَبِ عُنْوَانِهِ فَحَسَبُ، بِتَعَاظِفِ غَرِيبٍ، وَكَأَنَّ شَيْئًا مَا يَهْمِسُ فِي أُذُنِي أَنَّ سَتَكُونُ لِي مَعَهُ جَوْلَاتٌ أُخْرَى فِي مَا سَأَسْتَقْبِلُ مِنْ أَيَّامٍ.

هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّقَاءِ الْأَوَّلِ. فَأَمَّا اللَّقَاءُ الثَّانِي فَكَانَ، عَلَى قَدْرِ مَا تُسَعِّفُنِي بِهِ ذَاكِرَتِي، أَقْلُ انْطِبَاعِيَّةً، وَأَكْثَرُ عِلْمِيَّةً. وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ إِثْبَانًا لِلْسَّنَةِ التَّحْضِيرِيَّةِ مِنْ مَرَحَلَةِ نَيْلِ شَهَادَةِ الدَّكْتُورَاهِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِذْ كَانَتْ مَادَّةُ عِلْمِ الدَّلَالَةِ وَمَا يَجِبُ عَلَى طَالِبِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ يَقْرَأَهُ وَيَجْتَازَ الْإِخْتِيَارَ فِيهِ. وَكَانَ مِنْ أَمَارَاتِ سَعْدِ طُلَّابِ تِلْكَ السَّنَةِ، وَأَنَا مِنْهُمْ، أَنْ كُتِلَفَ أَسَاتِذُ نَحْرِيرٍ لَا يُشَقُّ لَهُ عُبَارٌ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ بِتَدْرِيسِ هَذِهِ الْمَادَّةِ لَنَا، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَضَبْطِهِ الْمُنَهْجِيِّ الدَّقِيقِ، وَاقْتِدَارِهِ الْعِلْمِيِّ الْفَاتِقِ. وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ نَمَّةً مَوْقِفَتْ حَدَثَ وَنَحْنُ نُدْرُسُ نَظَرِيَّاتِ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ، أَعَادَ إِلَيَّ ذِكْرِي تَجَرِبَتِي الْأُولَى مَعَ كِتَابِ أَوْغِدِن وَرِتْشَارْدز، وَأَثَارَ فِيَّ مَرَّةً ثَانِيَةً ذَفِينِ إِحْسَاسِي الْقَدِيمِ بِأَنَّ قِصَّتِي مَعَ هَذَا الْكِتَابِ لَمَّا تَكْتَمِلُ فُصُولُهَا بَعْدُ. فَإِنَّ أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمًا دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ أَسَاتِذُنَا الْقَدِيرُ، وَشَرَعَ يَسْرُدُ بِتَمَكُّنٍ كَبِيرٍ نَظَرِيَّاتِ الْمَعْنَى فِي الْفِكْرِ اللُّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ، فَلَمَّا وَصَلَ بِهِ الْقَوْلُ إِلَى النَّظَرِيَّةِ الْإِشَارِيَّةِ لَخَّصَهَا بِقَوْلِهِ إِنَّهَا تُنْسَبُ إِلَى أَوْغِدِن وَرِتْشَارْدز اللَّذَيْنِ عُيِّنَا بِالْمَعْنَى وَعَالَجَاهُ عَلَى وَفْقِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ فِي كِتَابَيْهِمَا

(1) اِكْتَشَفْتُ بَعْدَ حِينٍ مُحَاوَلَتَيْنِ لَاسْتِثْمَارِ هَذِهِ الْمَفَارَقَةِ فِي عُنْوَانِ الْكِتَابِ وَالذَّهَابِ بِهَا إِلَى مَدَى أَبْعَدَ؛ إِحْدَاهُمَا لِيُوتِفَ Hotopf فِي كِتَابِهِ (اللُّغَةُ، وَالْفِكْرُ، وَالِاسْتِيعَابُ - دِرَاسَةٌ لِكِتَابَاتِ رِتْشَارْدز Language, Thought and Comprehension- A Case Study of the Writings of I. A. Richards)، إِذْ أُطْلِقَ عَلَى الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْهُ اسْمُ (مَعْنَى الْمَعْنَى) وَالْأُخْرَى لِأَمِيرْتُو إِيكُو فِي مَقْدَمِهِ لِطَبْعَةِ سَنَةِ 1989م مِنْ كِتَابِ (مَعْنَى الْمَعْنَى)، الَّتِي اصْطَلَفَى لَهَا عُنْوَانُ (مَعْنَى الْمَعْنَى الْمَعْنَى).

(مَعْنَى الْمَعْنَى)، وَإِنَّ حَاصِلَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ أَنَّ ثَمَّةَ ثَلَاثَةَ عَنَاصِرَ تُشَكِّلُ أَطْرَافَ مَا عُرِفَ عِنْدَهُمَا بِالْمُتَلَكِّثِ الدَّلَالِيِّ، هِيَ: الشَّيْءُ فِي الطَّبِيعَةِ، وَصُورَتُهُ فِي الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، وَرَمَزُهُ الْإِلْسَانِي. (فَالْجَبَلُ)، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، مَوْجُودٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: فِي الطَّبِيعَةِ، وَفِي الْعَقْلِ، وَفِي الْإِلْسَانِ، وَمَعْنَاهُ هُوَ الَّذِي فِي الطَّبِيعَةِ، اسْتِنَادًا إِلَى مُعْطَيَاتِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ طَفِقَ أَسَاتِذُنَا يَسُوقُ بَعْضُ مَا أُورِدَ عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ مِنْ اعْتِرَاضَاتٍ، كَانَ مِنْ أَهْمِّهَا، عَلَى مَا نَصَّ عَلَيْهِ الْأَسَاتِذُ الْجَلِيلُ، إِغْفَالُهَا الْمَعْنَوِيَّاتِ غَيْرَ الْمَادِّيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ انْطِبَاحِ صُورِ الْمَعْنَوِيَّاتِ فِي الْعَقْلِ. وَبَعْدَ أَنْ أَتَى الْأَسَاتِذُ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ لِلْمَعْنَى أَنَّهُى مُحَاضَرَتُهُ، عَلَى أَنْ نَلْتَقِيَ فِي الْمُحَاضَرَةِ الْقَادِمَةِ لِنَتَنَاوَلَ مَوْضُوعًا آخَرَ مِنْ مَوْضُوعَاتِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ. غَيْرَ أَنَّا لَمَّا التَقَيْنَا بَعْدَ أُسْبُوعٍ كَانَ أَوَّلَ مَا ابْتَدَرْنَا بِهِ قَوْلُهُ إِنَّهُ يَوَدُّ تَنْبِيْهَنَا عَلَى وَهْمٍ رُبَّمَا يَكُونُ قَدْ عَرَفَ طَرِيقَهُ إِلَى عُقُولِنَا بِسَبَبِ عَدَمِ فَهْمِنَا الدَّقِيقِ لِمَا كَانَ قَدْ بَيَّنَّهُ فِي الْمُحَاضَرَةِ الْفَاتِتَةِ بِشَأْنِ حَقِيقَةِ الْمَعْنَى فِي النَّظَرِيَّةِ الْإِشَارِيَّةِ. وَالتَّنْبِيْهُ الَّذِي رَمَى إِلَيْهِ أَسَاتِذُنَا هُوَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا إِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَ أَوْغِدِن وَرِثَارْدَزْ هُوَ الَّذِي فِي الطَّبِيعَةِ أَنَّهُمَا قَدْ أَغْفَلَا التَّصَوُّرَ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمَا يَذْهَبَانِ إِلَى أَنَّنا حِينَ نَلْفِظُ كَلِمَةً (جَبَلٌ) يَكُونُ مَعْنَاهُ هُوَ الَّذِي فِي الطَّبِيعَةِ، لَكِنْ كَيْفَ يَصِلُ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمُتَلَقِّي؟ فَصُورَةُ الْجَبَلِ الْمُتَنَبِّعَةُ فِي ذَهْنِهِ هِيَ الَّتِي حَضَرَتْ وَقَدَّمَتْ لَهُ الْمَعْنَى. ثُمَّ تَسَاءَلَ الْأَسَاتِذُ قَائِلِينَ: لَكِنْ هَلِ الْمَعْنَى عِنْدَهُمَا صُورَةُ الْجَبَلِ؟ الْإِجَابَةُ هِيَ: لَا، فَالْمَعْنَى هُوَ الَّذِي فِي الطَّبِيعَةِ، لَكِنْ إِيصَالُهُ يَكُونُ مِنْ طَرِيقِ صُورَتِهِ فِي الْعَقْلِ. فَالتَّصَوُّرُ وَسِيلَةٌ وَسَلَّمٌ لِإِيصَالِ الْمَعْنَى. أَمَّا الْمَعْنَى فِي النَّظَرِيَّةِ التَّصَوُّرِيَّةِ الَّتِي يَقْتَرِنُ اسْمُهَا بِالْفِيلَسُوفِ جُون لوك فَهِيَ الصُّورَةُ الْعَقْلِيَّةُ، إِذْ تَكُونُ ثَمَّ هِيَ الْغَايَةُ وَهِيَ الْمَعْنَى.

كَانَ هَذَا مَا اسْتَدْرَكَ بِهِ أَسَاتِذُنَا الْجَلِيلُ عَلَى مَا قَالَهُ مِنْ قَبْلُ. وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْاسْتِدْرَاكَ اسْتَوْفَقَنِي لِعِدَّةِ أُمُورٍ؛ أَوَّلُهَا: أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي رَأَيْتُ أَسَاتِذَنَا الْجَلِيلَ مُتَلَكِّثًا فِيهَا وَمُسْتَدْرِكًا عَلَى مَا كَانَ قَدْ صَرَّحَ بِهِ مِنْ قَبْلُ، فَأَمُرُّ كَهَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَأْنٌ؛ وَثَانِيهَا: أَنِّي اسْتَشْعَرْتُ شَيْئًا مِنْ عَدَمِ الْارْتِيَاكِحِ لِمَجْمَلٍ مَا عَرِضَ مِنْ رَأْيٍ بِشَأْنِ النَّظَرِيَّةِ الْإِشَارِيَّةِ، سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ عَلَى مُسْتَوَى

العرض الأول أم على مُستَوًى ما اسْتَدْرَكَ بِهِ عَلَيْهِ؛ إذ لم يَكُنْ في مَقْدُورِي استيعاب كيف يُمكن أن يُغْفَلَ مُنْظَرَانِ لُغَوِيَّانِ كَبِيرَانِ يُشَارُ إِلَيْهِمَا بِالْبَنَانِ شَطْرًا أَسَاسِيًّا مِنَ اللُّغَةِ هُوَ شَطْرُ الْمَعْنَوِيَّاتِ، فَيُسْقِطُهُ مِمَّا عُنِيتْ نَظَرِيَّتُهُمَا بِالنَّظِيرِ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَدِّمًا لِذَلِكَ تَسْوِيغًا أَوْ تَفْسِيرًا فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ؟ وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْنَعْنِي مَا أوردَهُ أَسَاتُذُنَا الْجَلِيلُ فِي اسْتِدْرَاكِهِ مِنْ أَنَّ الصُّورَةَ الذَّهْنِيَّةَ إِنَّمَا يُتَوَسَّلُ بِهَا لِإِصَالِ الْمَعْنَى، الَّذِي هُوَ مَا فِي الطَّبِيعَةِ، إِلَى الْمُتَلَقِّي؛ فَهَلْ يَقْتَصِرُ أَمْرُ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ عَلَى الْمُتَلَقِّي؟ وَمَا الَّذِي يُمَيِّزُ الْمُتَلَقِّي مِنَ الْمُرْسِلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؟ أَوْ لَيْسَا شَرِيكَيْنِ فِي عَمَلِيَةِ التَّوَاصُلِ، يَصِحُّ فِي أَحَدِهِمَا مَا يَصِحُّ فِي الْآخَرِ مِنْ حَيْثُ آيَةُ إِبْتِجَاعِ فَهْمِ الْمَعْنَى؟ وَثَالِثٌ مَا تَرَيْتُ أَمَامَهُ أَتَذَاكَ تَنْبِيهِ عَلَى حَقِيقَةٍ لَمْ أَكُنْ لِسَاعَتِي تَلْكَ قَدْ فَطِنْتُ لَهَا، هِيَ أَنِّي لَمْ أَفَظْ يَوْمًا مَا عَلَى مَنْ نَقَلَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ أَوْغِدِنَ وَرِتْشَارْدَزْ مُتَرَجِّمًا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَكُلُّ مَا رَأَيْتُهُ مَعْرُوفًا إِلَيْهِمَا إِنَّمَا كَانَ مُعْظَمُهُ، بَلْ يَكَادُ يَكُونُ كُلُّهُ، مُتَّكِئًا عَلَى تَرْجَمَةٍ قَصِيرَةٍ مُبْتَسِرَةٍ لِبَضْعَةٍ أُسْطَرِ مِنَ الْكِتَابِ لَا تُغْنِي مِنْ عَوَزٍ فِي فَهْمِ النُّظَرِيَّةِ وَلَا تُسَمِّنُ مِنْ تَثَبُّتٍ مِمَّا أُثِيرَ بِشَأْنِهَا مِنْ إِشْكَالَاتٍ، اضْطَلَعَ بِهَا الدَّلَالِيُّ الرَّائِدُ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ مُخْتَارُ عَمَرُ مُوردًا إِيَّاهَا فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ الدَّلَالَةِ).

وَلَقَدْ أَلْفَيْتُنِي، وَقَدْ قَادَتْنِي تَأْمَلَاتِي آتَنَذِ إِلَى مَا سَرَدْتُ فِيمَا مَضَى طَرَفًا مِنْهُ، أَرَا جُعْ مَا يُمكنُ أَنْ أَرَا جُعْهُ وَمِمَّا قَدْ يَقْنَعُنِي عَلَى حَقِيقَةٍ أَمْرٍ تَرْجَمَةٍ كِتَابٍ (مَعْنَى الْمَعْنَى) إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، فَتَأَكَّدُ لِي بَعْدَ طَوْلِ السُّؤَالِ وَاسْتِنْفَادِ وَسَائِلِ التَّقْصِي أَنْ لَا تَرْجَمَةَ قَدْ أُنْجِزَتْ لِلْكِتَابِ مِنْذُ صُدُورِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَنَةِ 1923م، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ الْكِتَابُ الْأُمُّ الَّذِي يُفَصِّحُ عَنْ مَضْمُونِ نَظَرِيَّةٍ تُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ النُّظَرِيَّاتِ الدَّلَالِيَّةِ فِي عَصْرِنَا هَذَا، إِنْ لَمْ تَكُنْ أَهْمَهَا طُرًّا! فَعَجِبْتُ مِنْ حَالِ أُمَّةِ الْعَرَبِ الَّتِي تَحْرِصُ الْجَرِصَ كُلَّهُ عَلَى تَرْجَمَةِ الْأَعْمَالِ الْبُولِيسِيَّةِ الْكَامِلَةِ لِأَغَانَا كِرْسْتِي، وَأَنَا هُنَا لَا أَقْلُلُ مِنْ أَهَمِّيَّتِهَا وَلَا أَغْضُ مِنْ قِيَمَتِهَا، وَتَقَعُدُّ بِهَا الْهِمَّةُ عَنْ تَرْجَمَةِ الْمُتَوْنِ الْأَصِيلَةِ وَالْمِهْمَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُبَصِّرَنَا بِحَقَائِقِ مَعَارِفِ الْعَرَبِ وَتَقْلِقَ لَنَا صُبْحَهَا.

غَيْرَ أَنَّ شَأْنِي مَعَ هَذَا الْكِتَابِ لَمْ يُجَاوِزْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هَذِهِ الْخَوَاطِرَ، وَلَمْ يُغَيِّبْ غَيْرَ تَحَسُّرٍ وَمَرَارَةٍ اسْتَشَعَرْتُهُمَا لِعَدَمِ مَنْ يَنْهَضُ بِمِهْمَةِ نَقْلِ الْكِتَابِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَلَمْ يَذُرْ فِي خَلْدِي وَقْتُهَا أَنَّ فَضْلًا جَدِيدًا طَوِيلًا مِنْ فُصُولِ قِصَّتِي مَعَ (مَعْنَى الْمَعْنَى) يُوشِكُ أَنْ يَبْدَأَ.

وكَانَتْ مَحَظَّتِي الثَّالِثَةُ الْحَاسِمَةُ مَعَ الْكِتَابِ بَعْدَ أَنْ أَكْمَلْتُ أُطْرُوحَتِي لِنِدْكَتُورَاهِ، الَّتِي كُنْتُ قَدْ اخْتَرْتُ لَهَا مَوْضوعًا أَحْسَبُهُ مُهِمًّا، بَلْ غَايَةً فِي الْأَهْمِيَّةِ، بَلْ تَبْلُغُ أَهْمِيَّتَهُ مَبْلَغَ أَنْ لَا أَهْمِيَّةَ لِمَا سِوَاهُ بِقَفْدِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ مَا يَنْظَرُ عَلَى التَّوَاضُّلِ اللَّغَوِيِّ بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ مِنْ اِحْتِمَالَاتٍ لِعَوِيَّةٍ تُخْلُ بِالْقَطْعِ بِمَا يُرَادُ مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ فِي أَثْنَاءِ التَّوَاضُّلِ، وَسُبُلِ الْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ الْمُخْلَلَاتِ وَالْفِكَاكِ مِنْ أَسْرِهَا. وَكُنْتُ قَدْ جَعَلْتُ مَقُولَاتِ الْأَصُولِيِّينَ قُطْبَ الرَّحَى فِي الْأُطْرُوحَةِ، وَإِنْ لَمْ أُغْفَلْ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَالْمُفَسِّرُونَ، وَاللُّغَوِيُّونَ؛ لِإِيمَانِي بِأَنَّ الْبَحْثَ فِي جُزْئِيٍّ مَّا مِنْ جُزْئِيَّاتِ ثِقَافَةٍ مَّا فِي عِلْمٍ مِنْ عُلُومِهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسْتَوْفَى الْكَلَامُ فِيهِ وَلَا أَنْ يُوصَلَ فِيهِ إِلَى نَظَرِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ مَا لَمْ تُجْمَعِ أَطْرَافُ خُيُوطِ جَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْأُخْرَى الَّتِي تَتَدَاخَلُ مَعَ الْجُزْئِيَّةِ الْمُبْحُوثِ فِيهَا. بَلْ قَدْ رَأَيْتُ فِي بَحْثِي أَنَّ مَنْ تَحَدَّثَ فِي جُزْئِيَّةٍ مَّا بِوَصْفِهِ أُصُولِيًّا، قَدْ يَكُونُ الشَّخْصَ عَيْنَهُ الَّذِي تَحَدَّثَ فِيهَا بِوَصْفِهِ مُتَكَلِّمًا، وَبِوَصْفِهِ مُفَسِّرًا، وَبِوَصْفِهِ لُغَوِيًّا، وَقَدْ تَنَاوَلَهَا مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ بِاخْتِلَافِ مَا تُعْنَى بِهِ الْعُلُومُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي يُعَالِجُ الْجُزْئِيَّةَ الْمَعْنِيَّةَ فِي كُلِّ مِنْهَا بِصِفَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَكِنْ تَخْصُلُ مِنْ ذَلِكَ رُؤْيَةٌ مُتَكَامِلَةٌ تَحْمِلُ سِمَاتِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي عَالَجَتْهَا، فَهِيَ تَنْوَعُ فِي وَحْدَةٍ وَوَحْدَةٍ فِي تَنْوَعٍ.

وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ تَجْرِبَتِي الْعِلْمِيَّةِ تِلْكَ بِحَصِيلَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا: أَنَّ مَوْضُوعَ فَسَادِ الْفَهْمِ وَإِسَاءَتِهِ مَا زَالَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى الْبَحْثِ وَالِاسْتِيفَاءِ، وَلَا سِيَّمًا فِي الْإِرْبِ اللَّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ الَّذِي أَصْبَحْتُ أَرْجُو أَنْ أَقِفَ عَلَى نَظَرِيَّةٍ فِيهِ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ نَدِيدًا لِنَظَرِيَّةِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي أَفْخَرُ بِأَنِّي قَدْ حَاوَلْتُ عَرْضَهَا فِي أُطْرُوحَتِي الْمَذْكُورَةِ آتِفًا، لِيُمْكِنَ مِنْ بَعْدُ تَلَمُّسُ مَنَاجِيِ الْإِلْتِقَاءِ وَالِافْتِرَاقِ بَيْنَ النَظَرِيَّتَيْنِ،

تَحْقِيقًا لِلتَّكَامُلِ الْمَعْرِفِيِّ وَالتَّوَاضُّلِ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْحَيَوِيِّ فِي حَيَاةِ بَنِي الْإِنْسَانِ.

وما إن وَصَلْتُ إِلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنَ التَّفَكُّيرِ حَتَّى قَفَزْتُ إِلَى ذَهْنِي ذِكْرِي كِتَابِ (مَعْنَى الْمَعْنَى) مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ لِذَلِكَ سَبَبًا وَاضِحًا؛ إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى دِرَافَةِ بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَادَّةٍ إِلَّا التَّزَرُّعَ الْيَسِيرَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثْتُ عَنْهُ؛ ذَلِكَ بِأَنِّي حَتَّى سَاعَتِنِذْ لَمْ أَكُنْ قَدْ أَطْلَعْتُ عَلَى النُّسَخَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مِنَ الْكِتَابِ. فَلَمَّا طَالَعْتُهَا هَالَنِي مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَبَاحِثٍ تَفْصِيلِيَّةٍ فِي مَوْضُوعِ الْمَعْنَى، وَمَا قَدَّمَهُ الْمُؤَلِّفَانِ مِنْ إِضَاحَاتٍ مُسَهِّبَةٍ بِشَأْنِ نَظَرِيَّتِهِمَا فِي الْمَعْنَى مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْاعْتِرَاضَاتِ عَلَيْهَا. وَالْحَقُّ أَنَّ أَكْثَرَ مَا رَاقَنِي فِي الْكِتَابِ أَمْرَانِ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَمَا صَرَّحَ بِهِ كَاتِبَاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْهُ مِنْ أَنَّ أَحَدَ أَهَمِّ الْبَوَاعِثِ الرَّئِيسَةِ عَلَى تَأْلِيفِ الْكِتَابِ الرَّغْبَةُ فِي إِيجَادِ كَلِمَاتٍ تُعِينُ عَلَى إِزَالَةِ حَالَاتٍ إِسَاءَةٍ فَهَمَّ مَعَانِي الْكَلَامِ الْوَارِدَةِ فِي أَثْنَاءِ التَّوَاضُّلِ الْبَشَرِيِّ، فَادْرَكْتُ أَنِّي قَدْ عَثَرْتُ عَلَى ضَالَّتِي الْمُنْشَوْدَةِ مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ وَبِمَا يُوَافِقُ هَوَى فِي نَفْسِي تَجَاهَ هَذَا الْكِتَابِ مُنْذُ أَزْمَانٍ؛ وَأَمَّا ثَانِي الْأَمْرَيْنِ فَمَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَعَدُّدِ أَوْجُهِ الشَّاطِطِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ أَوْغِدِينَ وَرِيتَارْدَ وَالَّذِي بَدَتْ آثَارُهُ ظَاهِرَةً فِي تَضَاعُيفِ صَفَحَاتِ (مَعْنَى الْمَعْنَى)، وَفِي سِوَاهُ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ مِمَّا اشْتَرَكَا فِي تَأْلِيفِهِ أَوْ انْفَرَدَ كُلٌّ بِتَصْنِيفِهِ؛ فَمِنْ تَطَوُّافٍ بَيْنَ مُخْتَلِفِ اتِّجَاهَاتِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ، إِلَى تَجَوُّالٍ فِي أَرْوَاقِ فَلَسَفَاتِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، إِلَى إِفَادَةٍ مِنْ مُعْطِيَاتِ عِلْمِ النَّفْسِ الْحَدِيثِ، إِلَى اسْتِمْدَادٍ مِنْ نَتَائِجِ الدِّرَاسَاتِ الْمِيدَانِيَّةِ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَّةِ، إِلَى عُبُورٍ إِلَى مِيدَانٍ رُبَّمَا لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ أَحَدٍ مِنَ الْمُهْتَمِّينَ بِالْمَعْنَى وَنَظَرِيَّاتِهِ إِمَّاكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَوْضِعٌ فِيهِمَا وَهُوَ عِلْمُ الطَّلَبِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي صِبَاغَةٍ مُوَحَّدَةٍ مُحْكَمَةٍ لَا تَضِيعُ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ، وَلَا تَضِيعُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ شَيْئًا يُمْكِنُ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ فِيهَا مِمَّا يُرْصَنُهَا وَيُمَدُّهَا بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ.

فَمَا رَأَيْتُنِي بَعْدَ كُلِّ مَا لَمَسْتُهُ مِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْكِتَابِ، زِيَادَةً عَلَى أَسْبَابِ الصَّلَةِ الْقَدِيمَةِ بَيْنَنَا، إِلَّا مُنْجَذِبًا نَحْوَهُ، أَعْبُ مِنْ عُلُومِهِ وَأَنْهَلُ مِنْ مَعَارِفِهِ. وَعَلَى

الرَّغْمِ مِمَّا عَرَفْتُهُ لَهُ مِنْ عُمَقِ التَّنَاقُلِ وَرِصَانَةِ الْحِجَاجِ فِي جَمِيعِ جَنَابَاتِهِ عَزَمْتُ
بَادِيَّ ذِي بَدْءٍ عَلَى الْاِكْتِفَاءِ بِتَرْجَمَةِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْهُ، وَهُوَ الْفَصْلُ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ
الْمُتَلَكُّ الْإِحَالِيُّ الَّذِي اشتهر أَوْعِدَنَ وَتَشَارَدَ بِهِ حَتَّى أَصْبَحَا يُعْرِفَانِ بِهِ وَيُعْرِفُ
بِهِمَا، وَالَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ نَظَرِيَّتُهُمَا الْإِحَالِيَّةُ فِي الْمَعْنَى. وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنِّي تَهْوِينًا
مِنْ شَأْنِ سَائِرِ الْفُصُولِ وَالْمُلَحَقَاتِ وَلَا زُهْدًا فِي مَا تَحْوِيهِ؛ كَيْفَ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ
الْمَسْأَلَةَ الْوَارِدَةَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابٍ لَا تَنْضَحُ تَمَامَ الْاِتِّضَاحِ مَا لَمْ تُتْلَمَسْ أَثَارُهَا
فِي سَائِرِ مَوَاضِعِ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ شَوَاعِلَ جَمَّةٍ مِنْ أَعْبَاءٍ مَهْنِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ أُخْرَى
جَعَلْتَنِي أَرَى رَأْيِي الْأَوَّلِيَّ ذَاكَ. فَمَا كَانَ مِنِّي، وَقَدْ وَطَّنْتُ النَّفْسَ، إِلَّا أَنْ عَكَفْتُ
عَلَى تَرْجَمَةِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ، فَاتَمَمْتُهُ بَعْدَ حِينٍ، وَقَدْ بَيَّتُ فِي نَفْسِي أَنْ أَنْشُرَهُ وَأَذِيعَ
ذِكْرَهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُنَاسِبَةٍ مُؤَاتِيَةٍ.

ثُمَّ كَانَ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ أُنْعَرَفَ الْأُسْتَاذَ الْمِفْضَالَ
سَالِمًا الزَّرِيْقَانِيَّ صَاحِبَ دَارِ النُّشْرِ الْمَرْمُوقَةِ (دَارِ الْكِتَابِ الْجَدِيدِ الْمُتَّحِدَةِ)، وَكُنَّا
ذَاتَ يَوْمٍ نَتَجَادَبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فِي الْكُتُبِ وَالتَّأْلِيفِ وَالنُّشْرِ، فَكَانَ مِمَّا جَرَى
عَلَى لِسَانِي فِي حَدِيثِي إِلَيْهِ أَنْ أَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ مِنِّي مِنْ شَأْنٍ مَعَ كِتَابٍ (مَعْنَى
الْمَعْنَى). فَاسْتَرَأْنِي طَالِبًا مِنِّي إِيضَاحًا مُفْصَلًا بِشَأْنِ مَوْضِعِ الْكِتَابِ وَأَهْمِيَّتِهِ فِي
بَابِهِ. فَاسْتَجَبْتُ لِذَلِكَ، وَأَسْعَفْتُهُ بِظُلْمَتِهِ وَأَنَا غَيْرُ دَارٍ بِمَا يَدُورُ فِي خَلْدِهِ. وَبَعْدَ
مُضِيِّ زَمَنِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ إِذَا بِهِ يُفَاجِئُنِي وَيُخَبِّرُنِي بِأَنَّهُ قَدْ ائْتَصَلَ بِالْدَّارِ الْأَجْنِبِيَّةِ
النَّاشِرَةِ لِلْكِتَابِ وَأَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ إِجْرَاءَاتِ شِرَاءِ حُقُوقِ تَرْجَمَةِ الْكِتَابِ وَطَبْعِهِ فِي دَارِهِ
الْعَامِرَةِ. وَأَشْهَدُ لَقَدْ أَثَارَ فِيَّ تَصَرُّفُهُ هَذَا شُعُورَيْنِ مُتَضَارِبَيْنِ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَارْتِبَاكُ
وَقَلْقُ لِعَدَمِ تَهَيُّي وَاحْتِشَادِي لِمِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ؛ وَأَمَّا الْآخَرُ فَقَرَحٌ غَامِرٌ خَفِيَ
اجْتِنَاحِي لِمَا فِي الْإِقْدَامِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ مِنْ مُوَافَقَةٍ لِهَوَى مُسْتَكْبِرٍ وَإِنْ تَنَكَّرْتُ لَهَا
سَابِقًا وَأَعْرَضْتُ عَنْهَا إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِي الْمَشْغُولَةِ بِمَا حَدَّثْتُ بِهِ آيَفًا. فَالْحَقُّ
يَقْتَضِي أَنْ أُقِرَّ بِأَنَّ دَفْعَ الْأُسْتَاذِ سَالِمٍ إِلَيَّ لِهَذَا الْعَمَلِ دَفْعًا، وَإِنْ وَافَقَ هَوَى
سَالِقًا فِي نَفْسِي، كَانَ عَامِلًا رَئِيسًا فِي إِنْجَاذِهِ وَإِخْرَاجِهِ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ فِي مَدَّةٍ
لَمْ أَكُنْ، لَوْ خُلِيتُ وَنَفْسِي الْمَوْزَعَةُ، لِأَتَخَيَّلَ إِنْجَاذَهُ فِيهَا، فَلَهُ مِنِّي جَزِيلُ الشُّكْرِ،

وفائق الاحترام، لا على هذا الموقف فحسب، بل على مواقف أخرى أعد منها ولا أعددها. فاسأله جل ذكره أن يوفقه للمزيد من التألي والتأليف في نشر كل ما هو نافع وأصيل في مجالات الفكر الإنساني كافة.

وقد كنت عَزَمْتُ في بذء أمري على أن أُعْمِلَ قَلَمِي في مُقَدِّمَةِ دراسيَّةٍ لهذا الكتابِ تَكْشِفُ عن بَعْضِ ما قَدْ يُلْبِسُ فِيهِ عَلَى الْقَارِئِ الْمُتَخَصِّصِ فَضْلاً عَنْ مُطَالِعِهِ مِنْ غَيْرِ دَوِي الاختصاص، وتُجَلِّي بَعْضَ غَوَامِضِهَا الَّتِي قَدْ يُعْزَى بَعْضُهَا إِلَى تَدَاخُلِ حُقُولِ الاختصاص في الكتابِ بِسَبَبِ التَّنَوُّعِ الهائلِ في ثِقَافَةِ مُؤَلِّفِيهِ وَسَعَةِ دائِرَةِ اسْتِمْدَادَاتِهِمَا الثَّقَافِيَّةِ، وَتُضِيءُ مَسَالِكَ فِي الكتابِ تَبْدُو حَالِكَةً الظُّلْمَةِ لِمَنْ يُوَاجِهُ (مَعْنَى الْمَعْنَى) خَالِي الذَّهْنِ وَيَقْصِدُ قِرَاءَتَهُ غَيْرَ مُزَوَّدٍ بِعُدَّةٍ تَهْدِيهِ تَيْسُرُ لَهُ خَوْصَ عِمَارِهِ وَقَطَفَ غِرَاسِهِ. لَكِنِّي حِينَ سَرَعْتُ أَكْتُبُ مَا كُنْتُ مُزِمِعاً جَعَلُهُ مُقَدِّمَةً لِهَذَا الْكِتَابِ أَحْسَسْتُ شَيْئاً فَشَيْئاً أَنَّ مَا أَكْتُبُهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَا اعْتَادَ الْقُرَّاءُ تَلْقِيَهُ بِوصفه مُقَدِّمَةً لِكِتَابٍ مُتَرْجِمٍ؛ فَالْمَعْلُومَاتُ الَّتِي يَشْمَلُ عَلَيْهَا كَبِيرَةٌ يَضِيقُ بِهَا تَقْدِيمُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ؛ وَالْحَجْمُ الَّذِي قَدْ يَبْلُغُهُ رَبُّمَا يُنَافِسُ الْمَتْنَ الْمُتَرْجِمَ نَفْسُهُ؛ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقُرَّاءِ قَدْ يَضِيقُ دَرْعًا بِسَوَى الْمَتَنِ الْمُتَرْجِمِ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِرَاءَتِهِ الْمَتْنَ أَيُّهُ قِرَاءَةٌ أُخْرَى مَهْمَا تَكُنْ مَوْضُوعِيَّةً.

فَلَمَّا تَوَافَرَتْ لَدَيَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا اتَّجَهْتُ صَوْبَ أَنْ أَكْتُفِيَ فِي التَّقْدِيمِ لِتَرْجَمَةِ الْكِتَابِ بِمَا سَطَّرْتُهُ أَيْفًا مِنْ أَسْبَابٍ دَفَعْتَنِي إِلَى تَرْجَمَتِهِ وَإِضَاحِ لِبَعْضِ مُفَارَقَاتِهَا، أَمَّا الْجُهْدُ النَّقْدِيُّ الَّذِي أَشْرُتُ إِلَى ضَرُورَتِهِ وَإِلَى أَنَّ قِرَاءَةَ الْمَتَنِ الْمُتَرْجِمِ فِي ضَرِّهِ كَوَاشِفُهُ الْهَادِيَّةُ وَمُحَلِّيَاتُهُ الْمُبْصُرَةُ لَا شَكَّ مُغْنِيَةٌ لِلْقِرَاءَةِ الْبَيَّضَاءِ الْخَالِيَةِ الذَّهْنِ، فَعَزَمْتُ أَنْ أُفَرِّدَ لَهُ دِرَاسَةً مُسْتَقْلَلَةً أَتَبَسَّطُ فِيهَا مَا شِئْتُ، وَأَسْلَطُ فِيهَا الْأَضْوَاءَ عَلَى كُلِّ مَا فِي الْكِتَابِ مِمَّا أَقْدَرُ أَنَّهُ قَدْ يَغْمُضُ شَيْئاً مَا عَلَى الْقَارِئِ الْعَرَبِيِّ؛ مِنْ إِجْمَالٍ شَدِيدٍ فِي مَتَنِ الْكِتَابِ الْمُتَرْجِمِ لِسِيرَتِي مُؤَلِّفِيهِ يُفْنِغُ الْقَارِئَ الْمُتَبَلِّغَ لِكِنَّهُ لَا يُطْفِئُ ظَمَأَ الْمُطَالِعِ الْمُتَعَطِّشِ⁽²⁾؛ أَوْ ذِكْرٍ سَرِيعٍ لِمَذَهَبٍ فَلَاسِفِيٍّ أَوْ

(2) أَوْرَدَ نَاشِرُ الْكِتَابِ وَصَفَيْنِ مُتَقَضِّبَيْنِ لِسِيرَتِي مُؤَلِّفِي الْكِتَابِ الْعِلْمِيَّتَيْنِ. لَكِنَّ =

سايكولوجيٍّ أو نقديٍّ؛ أو سرِّدٍ خاطِيفٍ لِوِجْهَةٍ نَظَرٍ يَفْتَرِضُ مُؤَلِّفَا الْكِتَابِ أَنَّ الْقَارِئَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أبعادِها؛ أو ظُهورٍ مُتَعَدِّدٍ لِكِنَايَاتٍ وَاسْتِعَارَاتٍ مألُوفَةٍ فِي ثِقَاةِ اللُّغَاتِ الَّتِي كُتِبَ (مَعْنَى الْمَعْنَى) فِي جَوْهَا وَمُحِيطِهَا، لِكِنَّهَا تَغْسُرُ عَلَى فَهْمِ مُتَلَقِّيها مِنْ غَيْرِها مِنَ الثَّقافاتِ.

على أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ تَزْوِيدِ تَرْجُمَةِ الْكِتَابِ بِهَوَامِشَ كَثِيرَةٍ كَثِيرَةٍ يَسْتَطِيعُ الْقَارِئُ فِي هَدْيِهَا تَلَمُّسَ طَرِيقِهِ فِي خِصْمٍ بَحْرٍ (مَعْنَى الْمَعْنَى) الْمُتَلَاظِمِ الْأَمْوَاجِ. فَهَذِهِ الْهَوَامِشُ الْكَثِيرَةُ أَرَدْتُ لَهَا أَنْ تَكُونَ أَشْرِعَةً لِمَرْكَبِ مُطَالِعِ الْكِتَابِ ثَمَكْنُهُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، مِنَ الْعُبُورِ الْأَمِينِ مِنْ مَحْطَةٍ فِي الْكِتَابِ إِلَى مَحْطَةٍ أُخْرَى، أَمَّا مَنْ رَامَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى الشُّعُورِ بِالْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ عِنْدَ مُطَالَعَةِ الْكِتَابِ إِحْسَاسًا بِالْمُنْعَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَبِانْفِتَاحِ آفَاقِ رَحْبَةٍ أَمَامَهُ تَسْلُكُ بِهِ مَسَالِكَ جَانِبِيَّةٍ لِيَتَّعِدَّ بِهِ بَعْدَ إِلَى الْمَصْصَبِ الرَّئِيسِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَزَوَّدَ بِزَادٍ عَقْلِيٍّ إِضَافِيٍّ، ففِي وَسْعِهِ الرَّجُوعُ إِلَى الدِّرَاسَةِ النَّقْدِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ، فَعَسَى أَنْ يَجِدَ فِيهَا مَا يُشْبِعُ نَهْمَهُ وَيُرْوِي عَطْشَهُ.

وَلَا أُرِيدُ فِي هَذِهِ الْمُعْجَالَةِ أَنْ أَكْرُرَ عَلَى مَسَامِعِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ مَا اعْتَادَهُ مِنْ مُتَرْجِمِي كُتُبِ اللُّغَةِ، أَوْ غَيْرِهَا، مِنْ صُعُوبَةٍ مَاتَاهُمْ وَوُعُورَةٍ مَسَعَاهُمْ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَادٍ لَا تَكَادُ صَفْحَةٌ مِنْ صَفْحَاتِ الْكِتَابِ تَخْلُو مِنْ شَاهِدٍ عَلَيْهِ. لَكِنِّي أَوَدُّ أَنْ أَشِيرَ إِشَارَةً سَرِيعَةً إِلَى نُقْطَتَيْنِ رُبَّمَا لَا تَعْرِضَانِ فِي كُلِّ تَرْجُمَةٍ، فَمَا لَمْ يُحَدِّثْ عَنْهُمَا فَقَدْ يَضِيعُ جُهْدٌ رُبَّمَا لَا يَقِلُّ صُعُوبَةً وَوُعُورَةً عَنْ مَهْمَةِ التَّرْجُمَةِ نَفْسِهَا.

أَمَّا إِحْدَاهُمَا فَتَتَعَلَّقُ بِمَا كُنْتُ قَدْ أَشَرْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ سَعَةِ دَائِرَةِ اسْتِمْدَادَاتِ أَوْغِدِنَ وَرِثَارْدَزَ فِي مُؤَلَّفِهَا؛ إِذْ كَانَتْ لَهَا صَوْلَاتٌ وَجُولَاتٌ فِي مَيَادِينِ إِنْسَانِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كَاللِّسَانِيَّاتِ بِجَمِيعِ فُرُوعِهَا، وَالْأَدَبِ بِشُعْرِهِ وَنَثَرِهِ وَبِتَغَايِرِ الْمَذَاهِبِ فِيهِمَا، وَالْفَلَسَفَةِ بِاخْتِلَافِ تَوَجُّهَاتِهَا، وَعِلْمِ النَّفْسِ بِتَنَوُّعِ مَدَارِسِهِ،

= أَوْغِدِنَ وَرِثَارْدَزَ أَغْنَيَا هَاتَيْنِ السِّيرَتَيْنِ بِمَعْلُومَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِمَا أَلْفَاهُ بَعْدَ (مَعْنَى الْمَعْنَى) وَبِأَخْبَارٍ عَنْ نَشَاطَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ لَهَا بَثْنَاهَا فِي تَضَاعِيفٍ تَصْدِيرَاتِهَا لِلطَّبْعَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِلْكِتَابِ. وَسَيَجِدُ مُطَالِعُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ كُلُّ ذَلِكَ مَنْقُولًا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فِي مَوْضِعِهِ الْمَحْدَدِ.

والأنثروبولوجيا وعلم الأعراق البشريّة بامتداداتهما، والفنون الجميلة بأقسامها، والتاريخ بقدومه ومعاصرته. بل كان للمؤلفين إشارات غير قليلة إلى مذاهب اقتصاديّة، ومدارس سياسيّة. بل بَلَغَ بهما أمرُ سَعَةِ الاستِمْدَادِ مَبْلَغَ أن دَيَّلا كِتَابَهُمَا بِمُلْحَقٍ لِطَبِيبٍ، رَأَى فِيهِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَزَّزَ مَا قَدْما مِنْ نظريّةٍ لِلْمَعْنَى فِي كِتَابِهِمَا. ولا شَكٌّ فِي أَنَّ سَعَةَ دائِرَةِ الاستِمْدَادِ هَذِهِ تَفْرِضُ عَلَى الْمُتَرْجِمِ عِبْثًا جَدِيدًا يُقِلُّهُ وَيَنْوِّهُ بِهِ؛ إِذْ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْمُعْجَمَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَلا يُمَكِّنُهُ الْاِكْتِفَاءُ بِالْمُعْجَمَاتِ الْعَامَّةِ وَلا الْاِقْتِصَارُ، مَعَ الْمُعْجَمَاتِ الْعَامَّةِ، عَلَى الْمُعْجَمَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ فِي عُلُومِ اللُّغَةِ. وَضَعُوبَةُ هَذَا الْأَمْرِ وَمَشَقَّتُهُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا مَنْ عَانَى تَرْجُمَةً مِثْلَ هَذِهِ الْكُتُبِ الْمَوْسُوعِيَّةِ التَّخْصُّصَاتِ.

أَمَّا النُّقْطَةُ الْأُخْرَى فَتَتَعَلَّقُ بِهَوَامِشِ التَّرْجُمَةِ الَّتِي قَدْ يُظَنُّ أَنَّهَا مِنْ قِبَلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، وَأَنَّ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي يُرَادُ إِثْبَاتُهَا فِيهَا مَبْذُولَةٌ سَهْلَةٌ الْقِطَافِ يَسِيرَةُ الْجَنَى لِمَنْ رَامَهَا وَطَلَبَهَا. وَالْحَقُّ خِلَافُ هَذَا كُلِّهِ، وَلا سِيَّما مَعَ كِتَابِ كَ(مَعْنَى الْمَعْنَى) حُشِدَ بِأَسْمَاءِ الشَّخْصِيَّاتِ، وَبِالْإِشَارَاتِ التَّارِيخِيَّةِ أَوْ الْأُسْطُورِيَّةِ، وَبِمَوَاضِعَ عَرَضَتْ عَرَضًا سَرِيعًا خَاطِفًا لِفِكْرَةٍ لَا يُمَكِّنُ مَعَهُ أَنْ يُتَابَعَ مُعْظَمُ الْقُرَّاءِ مِنَ الْعَرَبِ، بَلْ مِنْ أَصْحَابِ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ نَفْسِهِ، مُطَالَعَةَ الْكِتَابِ مِنْ غَيْرِ تَوْضِيحٍ مُجْمَلٍ لِمَضَامِينِهَا. وَلِلْقَارِئِ أَنْ يَتَخَيَّلَ مَا رَاجَعْتُهُ مِنْ كُتُبٍ وَبُحُوثٍ وَمَوَاقِعَ عَلَى شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَوْمَنَ قِرَاءَةً نَافِعَةً لِلْمَنْثَنِ وَتَوَاضَعًا لَا تَعُوقُهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَمُتَلَفِيهِ. وَيَكْفِي أَنْ يَعْلَمَ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ أَنَّ جُلَّ مَا جَاءَ فِي هَوَامِشِ الْكِتَابِ إِنَّمَا كَانَتْ مَصَادِرُهُ بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى تَرْجُمَةِ مَا فِيهَا وَمَا يَنْفَعُ فِي مَوَاضِعِهِ، فَكَانَ هَذَا عِبْثًا إِضَافِيًّا، لَكِنَّهُ ضَرُورِيٌّ، لَا أَشْبَهُهُ إِلَّا بِالْجُنْدِيِّ الْمَجْهُولِ الَّذِي رُبَّمَا تُرَوَّى عَنْهُ الْأَعْيُنُ، وَلا تَأْبَهُ لَهُ الْمُطَالَعَةُ السَّرِيعَةُ، لَكِنَّ الْجَهْدَ الْمَوْدَعَ فِيهِ وَمَا نَالَهُ مِنْ سَهَرٍ وَضَعْفٍ بَصَرٍ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُمَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي أَحْتَسِبُ مَا صَنَعْتُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُ وَارْجُوهُ وَلا أَرْجُو سِوَاهُ أَنْ يَجْزِيَنِي بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

ثُمَّ إِنَّ ثَمَّةَ أَمْرًا لَا يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أَكْشِفَ عَنْهُ وَأُبَوِّحَ بِسِرِّهِ، وَهُوَ لَا شَكَّ يُمَثِّلُ صُعُوبَةً أُخْرَى كَبِيرَةً وَاجْهَتْ تَرْجَمَةَ هَذَا الْكِتَابِ الْبَاقِعَةِ. تَلَكُّمُ هِيَ مُشْكِلَةٌ إِيْرَادِ الْمُؤَلِّفَيْنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْكَلِمَاتِ، وَالْعِبَارَاتِ، وَالْجُمَلِ، بَلِ النَّصُوصِ الطَّوِيلَةِ نِسْبِيًّا، بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَكَانَتْ اللُّغَاتُ الَّتِي هَمِمْتُ عَلَى هَذِهِ الْمَنْقُولَاتِ هِيَ اللَّاتِينِيَّةُ، وَالْفَرَنْسِيَّةُ، وَالْأَلْمَانِيَّةُ، مَعَ بَعْضِ الْمَنْقُولَاتِ الْقَلِيلَةِ الْأُخْرَى بِلُغَاتِ أَوْرُوبِيَّةٍ غَيْرِهَا. وَالْحَقُّ أَنَّ صُعُوبَاتِ التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الْمَنْقُولَاتِ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً؛ فَاسْلَسُهَا قِيَادًا كَانَتْ الْكَلِمَاتِ الْمُفْرَدَةُ أَوْ الْعِبَارَاتِ الْمَوْجِزَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ الْوُقُوفُ عَلَى تَرْجُمَاتِهَا فِي الْمُعْجَمَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ لِللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ، وَفِي شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ؛ وَأَصْعَبُهَا مِرَاسًا كَانَتْ الْجُمَلُ الْمُعَقَّدَةُ وَالنَّصُوصُ الطَّوِيلَةُ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ التَّوَصُّلُ إِلَى مُعَالَجَةٍ نَاجِعَةٍ لَهَا بِالْاِكْتِفَاءِ بِمُرَاجَعَةٍ مَا ذَكَرَ مِنْ مَصَادِرَ.

وَأَلْفَيْتُنِي فِي ضَوْءِ هَذِهِ الْمَشْكِلَةِ أَمَامَ خِيَارَيْنِ:

أَحَدُهُمَا أَنْ أَعْمَدَ إِلَى إِسْقَاطِ مَا يَصْعُبُ التَّوَصُّلُ مَعَهُ إِلَى مُعَالَجَةٍ مُقْنِعَةٍ، وَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ لِحِدَّةِ تَعَلُّقِ الْمَنْقُولَاتِ الْمَذْكُورَةِ بِسِيَاقِ الْكِتَابِ، كَالنَّصِّ الْمَطْوَلِ الَّذِي أَوْرَدَهُ أَوْغِدِن وَرِيتْشَارْدَز بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ فِي التَّنْذِيلِ A الْمُلْحَقِ بِالْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ حَوْلَ مَوْضُوعِ النَّحْوِ، إِذْ كَانَ هَذَا النَّصُّ مُنْظَلَقًا أَسَاسِيًّا لَهُمَا اسْتِنْدَا إِلَيْهِ فِي تَبْيَانِ بَعْضِ أَوْجُهِ النَّقْصِ وَالْقُصُورِ فِي الدِّرَاسَاتِ النَّحْوِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. عَلَى أَنَّ إِسْقَاطَ بَعْضِ النَّصُوصِ غَيْرِ الْمُؤَثَّرَةِ تَأْثِيرًا بِالْعَا، وَإِنْ كَانَ مَظْهَرُ نَقْصٍ فِي التَّرْجَمَةِ، لَهُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِ وَيُمَارِسُهُ فِي حَقْلِ التَّرْجَمَةِ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلُّ مَنْ اسْتَهْوَاهُ أَنْ يُرَاجِعَ بَعْضَ الْكُتُبِ الْمُتَرْجَمَةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ بِلُغَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ.

أَمَّا الْخِيَارُ الْآخَرُ، وَهُوَ الَّذِي قَرَّرْتُ الْمُضِيَّ فِيهِ وَعَزَمْتُ عَلَى تَبْنِيهِ مَعَ عِلْمِي بِوُعُورَةِ مَسْلَكِهِ، فَهُوَ أَنْ أَثْقَلَ كُلَّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ أَوْرَدَهَا الْمُؤَلِّفَانِ فِي الْمَتْنِ أَوْ فِي الْهَامِشِ، لِئَلَّا أَقْوَتْ عَلَى الْقَارِئِ الْكَرِيمِ فُرْصَةُ الْاطَّلَاعِ عَلَى مَا قَدْ يُغْنِي رُؤْيَتَهُ وَيُنِيرُ دَرَبَهُ. لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ غَايَةً فِي الصُّعُوبَةِ؛ إِذْ أَلْجَأَنِي إِلَى اسْتِشَارَاتِ كَثِيرَةٍ وَمُرَاجَعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِكُتُبٍ، وَأَشْخَاصٍ، وَمَوَاقِعَ عَلَى شَبَكَةِ الْمَعْلُومَاتِ، أَخَذُ

من ذا ذاك، ومن ذي وتلك، ثُمَّ أوازنُ بينَ مُخْتَلِفٍ ما تَجَمَّعَ لَدَيَّ مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَلَّني بِذَلِكَ أَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ قُرْثٍ وَدَمٍ بَلَّيْنِ خَالِصٍ سَانِعٍ لِلشَّارِبِينَ. عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ الْأَوَّلَ وَالْمُسْتَشَارَ الْأَكْبَرَ فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ الشَّاقَّةِ كَانَ وَالِدِي أَعَزَّهُ اللَّهُ وَحَبَاهُ بِخَيْرِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْبُو بِهِ عَبْدًا لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَهُوَ، يَحْفَظُهُ اللَّهُ، مَعْلَمَةٌ لُغَوِيَّةٌ وَثَقَافِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا، أَفَدْتُ مِنْهَا وَنَهَلْتُ مِنْ مَعِينِهَا الْفَيَاضِ، فَكَانَتْ خَيْرَ مَوْنٍ فِي الْمُلِمَّاتِ، وَكَاشِفٍ لظُلْمَةِ الْحَيَرَةِ عِنْدَ اسْتِدَادِهَا. فَجَزَّاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرَ مَا يَجْزِي الْإِدَا عَنْ وَلَدِهِ، وَمُعَلِّمًا عَنِ تَلْمِيذِهِ، وَمُرَبِّيًا عَمَّنِ اسْتَرْعَى.

وَقَبْلَ أَنْ أَضَعَ قَلَمِي أَوْدُ أَنْ أُبَيِّنَ لِقَارِئِ هَذِهِ الْكِتَابِ الْأُمُورَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي التَّرْمِثُهَا فِي تَرْجَمَتِهِ حَتَّى يَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ حِينَ يُطَالَعُ:

(1) اعْتَمَدْتُ فِي تَرْجَمَةِ (مَعْنَى الْمَعْنَى) الطَّبْعَةَ الْإِنْجَلِيزِيَّةَ الْآخِرَةَ لَهُ الصَّادِرَةَ فِي سَنَةِ 1989م، وَهِيَ الْمُصَدَّرَةُ بِمُقَدِّمَةِ النَّاقِدِ الْإِيطَالِيِّ الْمُعَاصِرِ الْأَشْهُرِ أَمِيرَتُو لِيكو.

(2) حَاوَلْتُ تَرْجَمَةَ الْكِتَابِ عَلَى نَحْوِ يُحَافِظُ، قَدَرِ الْمُسْتَطَاعِ، عَلَى دَقَّةٍ عِبَارَاتِهِ وَعِلْمِيَّةِ أَطْرُوحَاتِهِ، مُتَجَنِّبًا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الْإِنْشِيقَ وَرَاءَ الثَّقَلِ الْحَرْفِيِّ الَّذِي قَدْ يَفُوتُ الْغَرَضَ وَيُذْهَبُ الْقَصْدُ.

(3) حَرَضْتُ عَلَى تَرْجَمَةِ جَمِيعِ مَا بَيْنَ دَفْتَيْنِ (مَعْنَى الْمَعْنَى)، فَلَمْ أَغَادِرْ مِنْهُ شَيْئًا الْبَتَّةَ وَإِنْ بَدَأَ غَيْرُ ذِي نَفْعٍ لِلْقَارِئِ الْعَرَبِيِّ أَوْ مُخَالَفًا لِمُتَبَنِّيَاتِي الْفِكْرِيَّةِ؛ لِإِيمَانِي بِأَنَّ مَهْمَةَ الْمُتَرْجِمِ نَقْلُ مَضْمُونِ ثَقَافِيٍّ مِنْ لُغَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَهَمَّ مَا يُشْتَرَطُ فِي النَّاقِلِ أَمَانَتُهُ. لِذَلِكَ أَرَى مِنْ نَافِلَةِ الْقَوْلِ أَنْ أَذْكَرَ بِأَنَّ جَرْصِي عَلَى نَقْلِ جَمِيعِ مَا وَرَدَ فِي تَضَاعِيفِ الْكِتَابِ وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ أَطْرُوحَاتُهُ لَا يَغْنِي التَّزَامِي الْفِكْرِي لِكُلِّ مَا فِيهِ. وَقَدْ بَلَغَ بِي تَوَخُّي الدَّقَّةَ فِي الثَّقَلِ مَبْلَغٌ أَنْ التَّرْمِثُ تَرْجَمَةٌ قَائِمَةٌ مُحتَوِيَّاتِ الْكِتَابِ الَّتِي أَثْبَتَهَا مُؤَلِّفَاهُ وَلَمْ أَعْمِدْ إِلَى اصْطِنَاعِ قَائِمَةٍ جَدِيدَةٍ. وَمِمَّا زَادَنِي جَرْصًا عَلَى ذَلِكَ أَنِّي رَأَيْتُ إِبداعَ الْكَاتِبَيْنِ غَيْرَ مَحْصُورٍ فِي تَأْلِيفِ مَادَّةِ فُصُولِ الْكِتَابِ وَتَذْيِيلَاتِهِ وَفِي انْتِقَاءِ مُلَحَقَتِهِ الْمُتَمَيِّزِينَ، بَلْ إِنَّهُ امْتَدَّ لِيَسْمَلَ، عَلَى نَحْوِ لَا يُعْهَدُ كَثِيرًا، قَائِمَةٌ مُحتَوِيَّاتِهِ الَّتِي أَرَعُمُ أَنْ مُطَالَعَهَا يُمَكِّنُ أَنْ

يَخْرُجُ بِخُلَاصَةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ لِلْأَفْكَارِ الْمَرْكَزِيَّةِ فِي الْكِتَابِ. وَكَذَلِكَ اكْتَفَيْتُ بِتَرْجَمَةِ مَسْرَدِي الْمُصْطَلَحَاتِ وَالْأَعْلَامِ اللَّذَيْنِ أَثْبَتَهُمَا الْمُؤَلِّفَانِ فِي نِهَايَةِ كِتَابَيْهِمَا، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَفْسِدَ عَلَيْهِمَا حَتَّى إِنْجَارَهُمَا الصَّغِيرَ هَذَا بِاصْطِنَاعِ مَسْرَدَيْنِ جَدِيدَيْنِ؛ رَغْبَةً مِنِّي فِي نَقْلِ صُورَةٍ كَامِلَةٍ لِحُجَّتِهِمَا الْإِبْدَاعِيَّ الَّذِي طَالَ هَذَيْنِ الْمَسْرَدَيْنِ أَيْضًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَمَلُهُمَا فِي مَسْرَدِ الْمُصْطَلَحَاتِ بِخَاصَّةٍ مَقْصُورًا عَلَى الثَّقَلِ الْحَرْفِيِّ لِلْمُصْطَلَحَاتِ مِنْ مَتْنِ الْكِتَابِ، بَلْ أَعْمَلًا فِكْرُهُمَا فَصَاغًا فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا صِبَاغَاتٍ مُصْطَلَحِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تُمَثِّلُ نَتِيجَةَ اسْتِقْرَاءِ لِحَالَاتٍ وَرُودِهَا، أَوْ اسْتِنْبَاطِ لِفِكْرَةٍ اقْتَرَنَتْ بِهَا.

(4) التَزَمْتُ فِي النَّصِّ الْمُتَرْجَمِ تَقْطِيعَ أَوْغِدِن وَرِثَارْدَزْ فَقَرَاتِ كِتَابَيْهِمَا التِّزَامًا تَامًّا؛ فَكُنْتُ أَبْتَدِئُ مِنْ حَيْثُ ابْتَدَأَ الْأَصْلُ، وَأَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى. ذَلِكَ بِأَنِّي أَوَّلُ مَنْ بَانَ تَفْصِيلَ نَصٍّ مَا وَتَقْطِيعَ فَقَرَاتِهِ يَعْكُسُ سَبْرُورَةَ فِكْرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي ذَهْنِ مُنْشِئِهِ، وَأَنْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ بِانْتِهَاجِ تَفْصِيلٍ وَتَقْطِيعِ جَدِيدَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يُقَوِّتَ شَيْئًا مِنْ قَصْدِ الْكَاتِبِ وَغَرَضِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبِيلًا خَفِيَّةً مِنْ سُبُلِ الْخِيَانَةِ فِي التَّرْجَمَةِ.

(5) عَمَدْتُ إِلَى إِبْطَابِ أَرْقَامِ صَفَحَاتِ النُّسخَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ فِي مَتْنِ تَرْجَمَتِي الْعَرَبِيَّةِ، لِيَسْتَنِيَ لِمَنْ أَرَادَ مُرَاجَعَةَ شَيْءٍ مَا فِي الْأَصْلِ الْعَوْدَةَ إِلَيْهِ بِسَهُولَةٍ وَمِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ. وَقَدْ جَعَلْتُ أَرْقَامَ صَفَحَاتِ الْأَصْلِ مَحْصُورَةً بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ تُمَيِّزَانِ لَهَا مِمَّا قَدْ يَرُدُّ فِي النَّصِّ الْمُتَرْجَمِ مِنْ أَرْقَامٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِهَا.

(6) عَرَفْتُ بِجَمِيعِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي مَتْنِ (مَعْنَى الْمَعْنَى)، وَأَثْبَتْتُ ذَلِكَ فِي هَوَامِشٍ فِي أَسْفَلِ الصَّفَحَاتِ الَّتِي يَرُدُّ فِيهَا ذِكْرُ تِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ، مُعْقِبًا إِيَّاهَا قَوْلِي: [الْمُتَرْجِمُ]؛ تُمَيِّزًا لَهَا مِنَ الْهَوَامِشِ الَّتِي يُورِدُهَا الْمُؤَلِّفَانِ. وَكَانَ مَنَهْجِي فِي ذَلِكَ هُوَ التَّعْرِيفُ بِالشَّخْصِيَّةِ عِنْدَ أَوَّلِ ذِكْرِ لَهَا ابْتِدَاءً بِالْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ وَإِنْتِهَاءً بِآخِرِ مُلْحَقٍ فِيهِ. أَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ مِنْ ذِكْرِ لِشَخْصِيَّةٍ مَا فِي مَا قَبْلَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ، أَيْ فِي تَصْدِيرَاتِ الْمُؤَلِّفَيْنِ لَطَبَعَاتِ الْكِتَابِ الْمُخْتَلِفَةِ أَوْ فِي مَا سَبَقَهَا مِنْ مُقَدِّمَةٍ لِأَمِيرَتُو إِيكُو، فَإِنْ كَانَ لِتِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ ذِكْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي فُصُولِ الْكِتَابِ أَوْ تَذْيِيلَاتِهِ أَوْ مُلْحَقِيهِ فَإِنِّي أَرْجِي التَّعْرِيفَ بِهَا إِلَى حِينِ ذَلِكَ، وَإِلَّا عَرَفْتُ بِهَا عِنْدَ أَوَّلِ مَجِيئِهَا فِي التَّصْدِيرَاتِ أَوْ الْمُلْحَقِ قَبْلَهَا. ثُمَّ إِنِّي أَثْبَتْتُ

في المتن المقابل الأجنبي لاسم الشخصية المعروف بها عند أول ذكر لها على التهج المذكور آنفاً.

(7) أثبت هوامش توضيحية للأفكار التي عليها مدار كلام المؤلفين، والتي أرى أن النص لا يسلم نفسه لفهم متلقيها إلا بإعانات مرشدة وإضاءات هادية. وقد أخذ ذلك من جهدي ووقتي كل ما أخذ وبلغ كل مبلغ، لكن لم يكن بد منه؛ إذ إن الاستغناء عنه قد يمضي بالقارئ في بعض المواطن إلى طريق مسدود، أو يقضي به إلى خيرة وشتات.

(8) أوردت المقابلات الأجنبية لعدد من المصطلحات والتعبيرات والجمل في الترجمة، مما رأيت أنه مهم لتمثيله حصيلة لسانية أو فلسفية أو سايكولوجية أو أنثروبولوجية أو طبية أو سوى ذلك مما قد يهم ذوي الاختصاص أو الترجمة أو المثقفين الاطلاع عليه.

ولم يبق لي في الختام إلا أن أقول لمطالع ترجمة هذا الكتاب: هذا عملي بين يديك، لم أتعمد التقصير في أي حرف من حروفه، فضلاً عن كلماته، وجمله، ونصوبه، وقد أخذ مني ما أخذ من قوتي ومن بصري، وصرفني عن متابعة الكثير من شؤوني الخاصة وشؤون أهل بيتي الذين احتملوا صابرين محتسبين إخراج هذا الجهد إلى الناس، مما أسأل الله أن يجعله في موازين حسناتهم وأن يثبتهم عليه الثواب الجزيل. فغاية ما أرجوه أن يغتفر قارئ هذه الترجمة زلاتي فيها، وأن يتحفني بما يظن أنني أخفقت في إيصال المراد منه. وأسأله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجه الكريم، وألا يجعل لأحد فيه شيئاً، وأن يثبتني عليه، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

المترجم

الدكتور كيان أحمد حازم يحيى

المُقَدِّمَة

مَعْنَى مَعْنَى الْمَعْنَى

يَقْلَمُ أَمِيرْتو إيكو⁽¹⁾

أَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الدَّارِسِينَ الْجَادِبِينَ لِلْسَّانِيَّاتِ، وَعِلْمِ الدَّلَالَةِ، وَفَلَسَفَةِ
اللُّغَةِ، وَالسِّمِّيَّوِيَّاتِ، قَدْ أَفَادُوا فِي مُسْتَهْلَ حَيَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِ مَعْنَى

(1) أَمِيرْتو إيكو (1932م-...). مُنْظَرٌ، وَنَاقِذٌ أَدَبِيٌّ، وَبَاحِثٌ فِي الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمِ الْجَمَالِ
وَالشُّعْرِ وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ وَالتَّرْجُمَةِ، وَعَالِمٌ بِالرَّمُوزِ وَالْعَلَامَاتِ، وَرِوَاثِيٍّ، وَفِلَسُوفٌ،
وَمُؤَرِّخٌ، وَصَحْفِيٌّ، وَأَسَاتِذٌ جَامِعِيٌّ، وَنَاشِرٌ كُتُبٍ لِلْأَطْفَالِ، وَمُؤَلِّفٌ قَصَصٍ مَصْوَرةٍ،
وَمُؤَسَّسٌ مَجَلَّاتٍ أَدَبِيَّةٍ، وَأَخِيرًا أَحَدُ أَرْبَعِ رَمُوزِ السِّمِّيَّوِيَّاتِ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. وُلِدَ فِي
الْأَنْدَرِيَا بِإِيْطَالِيَا. وَدَرَسَ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ الْفَلَسَفَةَ، فَحَصَلَ عَلَى إِجَازَةٍ فِيهَا مِنْ جَامِعَةِ
تورينو سَنَةَ 1954 عَنْ بَحْثٍ عَنَوَانُهُ (الْقَضِيَّةُ الْجَمَالِيَّةُ عِنْدَ الْقَدِيسِ تِوْمَا الْأَكُونِيَّةِ). ثُمَّ
وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ إِلَى الشُّعْرِ الطَّبِيعِيِّ وَالثَّقَافَةِ الْجَمَاهِيرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ أَسَاتِذًا لِعِلْمِ الْجَمَالِ
فِي جَامِعَةِ تِورِينو سَنَةَ 1961. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَخَصَّصَ فِي السِّمِّيَّوِيَّاتِ وَالْأَبْحَاطِ الْمُتَعَلِّقَةِ
بِنَظَرِيَّةِ الْأَدَبِ. وَمِنْذُ سَنَةِ 1975 أَصْبَحَ أَسَاتِذًا جَامِعِيًّا فِي السِّمِّيَّوِيَّاتِ بِجَامِعَةِ بُولُون. وَفِي
أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمَسِيرَةِ أَلَّفَ إِيْكَو مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَعْمَالِ الرَّوَاثِيَّةِ الَّتِي لَفَتَتْ الْإِنْتِبَاهَ وَطَرَحَتْ
الْأَسْئَلَةَ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ النِّقْدِيَّةِ: الْعَمَلُ الْمَفْتُوحُ، وَالْبِنْيَةُ الْغَائِبَةُ، وَتَارِيخُ الْجَمَالِ،
وَالْعَلَامَةُ- تَحْلِيلُ الْمَفْهُومِ وَتَارِيخُهُ، وَالسِّمِّيَّوِيَّاتِ وَفَلَسَفَةُ اللُّغَةِ، وَحُدُودُ التَّأْوِيلِ، وَسَبْطُ
رِحَالَتِ فِي أَدْغَالِ السَّرْدِيَّةِ، وَالْقَارِئُ فِي الْحِكَايَةِ. أَمَّا فِي مَجَالِ الرُّوَايَةِ فَقَدْ نَشَرَ رِوَايَتَهُ
الْأُولَى (اسْمُ الْوَرْدَةِ) الَّتِي أَمْضَى فِي كِتَابَتِهَا خَمْسَ عَشْرَةِ سَنَةً، وَكَانَ نَجَاحُهَا الْعَالَمِيُّ
مُفَاجَأَةً بِكُلِّ الْمَقْيَاسِ؛ إِذْ لَمْ يَسِقْ أَنْ أَصْدَرَ مُتَخَصِّصٌ فِي أَحَدِ أَصْعَبِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
الْحَدِيثَةِ عَمَلًا أَدَبِيًّا مِثْلًا. وَنَشَرَ لَاحِقًا رِوَايَتَهُ الثَّانِيَّةَ (بَنْدُولُ فُوكِر)، وَكَذَلِكَ: جَزِيرَةُ الْيَوْمِ
السَّابِقِ، وَبَاوَدُولِينو، وَاللَّهَبُ الْغَائِضُ لِلْمَلِكَةِ لَوَانَا، وَمَقْبَرَةُ بَرَاغ. [الْمُتَرْجِمُ]

المَعْنَى (المَطْبُوع في سَنَةِ 1923، لَكِنَّ أَصْلَهُ سِلْسِلَةُ مَقَالَاتٍ لِلْمُؤَلِّفَيْنِ بَدَأَتْ بِالظُّهْرِ فِي سَنَةِ 1910). وَإِنِّي عَلَى عِلْمٍ، كَذَلِكَ، بِأَنَّا نَادِرًا مَا نُلْقِي هَذَا الْكِتَابَ فِي قَوَائِمِ مَرَاجِعِ أَيِّ مُؤَلَّفٍ مُعَاصِرٍ فِي اللِّسَانِيَّاتِ، أَوْ عِلْمِ الدَّلَالَةِ، أَوْ فِلْسَفَةِ اللُّغَةِ، أَوْ السِّمِّيوطِيكَا. هَذَا الْغِيَابُ يُمَكِّنُ أَنْ يُشِيرَ إِمَّا إِلَى أَنَّ الْمُؤَلَّفَ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الْكِتَابِ (وَكَثِيرًا مَا يَقِفُ الْقَارِئُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ)، وَإِمَّا إِلَى أَنَّهُ يَتَقَيَّدُ بِالْمَبْدِإِ الْمُرِيبِ الَّذِي مَفَادُهُ أَنَّ ضَمَانَ جَوْدَةِ قَائِمَةِ الْمَرَاجِعِ وَظُهُورِهَا بِمَظْهَرِ حَدَائِثِي يَقْتَضِي أَلَّا تَشْتَمِلَ إِلَّا عَلَى الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ إِلَى الْوُجُودِ فِي الْعَقْدِ الْأَخِيرِ. عَلَى أَنَّهُ مِنَ الشَّائِعِ أَنْ تَكُونَ ثَمَّةُ قَوَائِمٍ لِلْمَرَاجِعِ تُورِدُ اسْمَ مُؤَلَّفٍ يَرْجِعُ إِلَى سَنَةِ 1923 لَكِنَّ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ فَقَطْ، ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي مُؤَلَّفٍ يَرْجِعُ إِلَى سَنَةِ 1983.

وَإِنِّي لَأَعْتَقِدُ أَنَّ كِتَابَ مَعْنَى الْمَعْنَى مَا زَالَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُورَدَ، مِنْ أَجْلِ بَعْضِ فُصُولِهِ فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ. وَإِنَّهُ لَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْرَأَ، عَلَى أَيَّةِ حَالٍ.

إِنَّ كِتَابًا أَكَادِيمِيًّا مِثْلَ كِتَابِنَا، كُتِبَ فِي مُسْتَهْلِ الْقَرْنِ، تَجَدُّدُ قِرَاءَتِهِ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ؛ أَوَّلُهَا: أَنَّهُ أَثَرٌ كِلَاسِيكِيٌّ مُعْتَرَفٌ بِهِ؛ وَثَانِيهَا: أَنَّهُ كَانَ كِتَابًا أَصِيلًا أَثَرٌ عَلَى نَحْوِ مَا فِي الدِّرَاسَاتِ الْمُتَأَخَّرَةِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا فِي الدَّهْنِ إِذَا مَا أَرَدْنَا فَهَمَّ مَا جَاءَ بَعْدَهُ؛ وَثَالِثُهَا: أَنَّ قِرَاءَتَهُ مَا زَالَتْ مُثِيرَةً، وَإِنْ يَكُنْ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ قَدْ أَصْبَحَ بَالِيًا.

وَأَنَا أَقُولُ قَوْلًا إِنَّ كِتَابَ مَعْنَى الْمَعْنَى يَنْتَمِي، بِإِلَاحَاةٍ، إِلَى الْخَانَةِ الثَّالِثَةِ، مَا دَامَ يُقَدِّمُ تَجَرِبَةً مُمْتِعَةً مُثِيرَةً حَتَّى لِلْقَارِئِ غَيْرِ الْمُرتَبِطِ بِالْبَحْثِ الْمُتَخَصِّصِ فِي مَيْدَانِ اللُّغَةِ. إِنَّهُ [v] لَيْسَ أَثَرًا كِلَاسِيكِيًّا بِالْمَعْنَى الَّذِي تَكُونُ بِهِ كَذَلِكَ أَعْمَالُ فَرِيحَةٍ، أَوْ سَوْسِيرٍ، أَوْ فِتْنِشْتَاينَ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ انْتِقَائِيًّا وَتَبْسِيطِيًّا. وَهُوَ إِلَى طَرَقِ الْمُشْكِلَاتِ، وَاسْتِشْرَافِ مَوْضُوعَاتِ الْخِلَافِ، أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى تَأْسِيسِ نَظَرِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ. لَكِنَّ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ كَانَ كِتَابًا أَصِيلًا تَكْمُلُ مَزِيَّتُهُ فِي قَوْلِهِ أَشْيَاءَ مُعَيَّنَةً سَابِقَةً لَزِمَ مِنْهَا بِأَشْوَاطٍ بَعِيدَةٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ إِمْلَاءَاتِهِ لَمَّا يَحْظُ بَعْدُ

بِالْقَبُولِ التَّامِّ عِنْدَ الدَّارِسِينَ⁽²⁾. فَاَلْمُتَخَصُّصُونَ أَيْضًا يُمَكِّنُ أَنْ يُعِيدُوا قِرَاءَتَهُ لِيَتَفَعَّلُوا بِهِ.

واقترحني الذي أقدّمه للشخص الاعتيادي أو للطالب الذي يهوى نفسه لمواجهة مشكلات اللغة هو أن يستحضر في ذهنه أن هذا الكتاب قد صيغ في العقود الأولى من هذا القرن. وقد جدت أحداث كثيرة منذ ذلك الوقت: كانبشار الوضعيّة المنطقيّة، والفلسفة التحليليّة، واللسانيات البنيويّة، والسيميوطيقا، والهيرمنيوطيقا، وتطبيقي النماذج المنطقيّة على اللغة الاعتياديّة، والبراغماتيّات، واللسانيات الاجتماعيّة، واللسانيات النفسيّة، زيادة على الدور المركزي الذي تؤدّيه الآن مسألة المعنى في البحث في مجال الذكاء الاصطناعي. ولم يكن في وسع أوغدن ورتشاردز معرفة أي من هذه الأشياء. لذلك كان على القارئ أن يتذكّر أن هذا الكتاب بمنزلة التمهيد لهذه التطورات. وبطريقة يعدها متخصصو اليوم غير كافية تقيًا يقدّم لنا هذا الكتاب عدّة إحساسات سبقيّة بما سيحدث فيما بعد، وعدّة توقعات عبقرية.

فإذا ما استحضر القارئ ذلك بقوة في ذهنه استطاع إدراك سحر هذا الكتاب، وقدرته على فتح الآفاق.

فظوال حياتنا كلها نحن نعامل الأشياء بوصفها علامات. وكل تجربة، بالمعنى الأوسع إمكانًا للكلمة، قد يستمتع بها، أو تؤؤل (أي تعامل بوصفها علامة)، أو يفعل بها كلا الأمرين، والقليل جدًا منها لا تطوله درجة معيئة من التأويل. لذلك كان تقديم وصف لعملية التأويل هو المفتاح لفهم الحال العلامية، وكان من ثم بداية الحكمة. ومن المدهش أنه على الرغم من أن الحاجة إلى وصف كهذا [vi] كان أمرًا مألوفًا في علم النفس مدة طويلة، نجد المعنيين بالنقد وتنظيم معارفنا يفعلون تمامًا عواقب إهماله إلا قليلًا منهم. (ص 131-132)

(2) للتنبؤ من أهميّة الكتاب لا نحتاج إلا إلى إلقاء نظرة على تصديراته الخمسة: فالكتاب الذي حظي بهذا العدد من الطبعات والتحديثات لا بد أن يكون قد أثار اهتمامًا بالغًا.

كَانَتْ هَذِهِ صَفْحَةً وَاحِدَةً مِنْ عِدَّةِ صَفَحَاتٍ مَا زَالَتْ تَبْدُو مُعَاَصِرَةً تَمَامًا. وَالْحَقُّ أَنَّ النَّظَرَ إِلَى خَبَرِنَا كُلِّهَا عَلَى أَنَّهَا تَفَاعُلٌ مَعَ الْعَلَامَاتِ، وَإِلَى هَذَا التَّفَاعُلِ عَلَى أَنَّهُ فَعَالِيَةٌ تَأْوِيلِيَّةٌ، يُعَدُّ الْيَوْمَ إِحْدَى الْقَضَايَا 'السَّاخِنَةِ' فِي الْخِلَافِ السِّمِّيَّوْطِيْقِيِّ.

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْفَقْرَةَ تَكْشِفُ كَذَلِكَ عَنْ جَانِبٍ آخَرَ مِنَ الْكِتَابِ كَانَ، بِحَقِّ أَوْ بِبَاطِلٍ، مُصَدِّرًا لِلْسُّخْرِ: إِذْ تَعُمُّ كِتَابَ مَعْنَى الْمَعْنَى حِمَاسَةً تَبْشِيرِيَّةً وَافِرَةً. وَسَأُطْلِقُ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ، بِشَيْءٍ مِنَ الْقَسْوَةِ، اسْمَ 'الْمُغَالَطَةِ الْعِلَاجِيَّةِ'.

وَالْمُغَالَطَةُ الْعِلَاجِيَّةُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْاِعتِبَارَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالْحَتْمِيَّةِ؛ أَوَّلُهَا: أَنَا كَثِيرًا مَا نَسْتَعْمِلُ كَلِمَاتٍ ذَوَاتِ مَعَانٍ مُخْتَطِطَةٍ وَمُلْبَسَةٍ، وَمِنْ هَذَا اللَّبْسِ يُمَكِّنُ أَنْ يَنْشَأَ عَدَدٌ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ؛ وَثَانِيهَا: أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ هَذِهِ الْإِشْكَالَاتِ يُمَكِّنُ اجْتِنَابَهُ إِذَا مَا ثَبَّتْنَا بِدَقَّةٍ تَامَّةٍ مَعَانِيَ التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا؛ وَثَالِثُهَا: أَنَّ هَذَا الْمَنْهَجَ قَدْ أَثَبَّتَ أَنَّهُ نَاجِعٌ فِي الْعُلُومِ الْمُنْضَبِطَةِ، وَعَالَمِ الْقَانُونِ، وَصِيَاغَةِ الْعُقُودِ، وَالْاِتِّصَادِ، وَالْحَيَاةِ الْعَسْكَرِيَّةِ؛ وَرَابِعُهَا: أَنَّ الْعِلْمَ اللَّغَوِيَّ الَّذِي يُمَكِّنُهُ تَوْسِيعُ هَذِهِ الْمَعَايِيرِ أَيْضًا إِلَى اللُّغَةِ الْاِعتِبَادِيَّةِ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ الْاِجْتِمَاعِيَّةَ، وَالْعِلَاقَاتِ الْفَرْدِيَّةَ، وَالْمُشْكِلاتِ الْأَخْلَاقِيَّةَ أَقْلًا لَبَسًا وَأَكْثَرَ ضَبْطًا.

وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِنْ تَكُنِ الْمُلْحُوظَتَانِ الْأُولَى وَالثَّالِثَةُ دَقِيقَتَيْنِ وَغَيْرَ قَابِلَتَيْنِ لِلدَّخْصِ فَإِنَّ الْمُلْحُوظَةَ الرَّابِعَةَ فِي نَفْسِهَا مُلْبَسَةٌ. فَصَحِيحٌ أَنَّ فِي إِمْكَانِ النَّظَرِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ الْجَيِّدَةِ أَنْ تَجْعَلَنَا أَكْثَرَ وَعِيًا لَوْظِيَّةِ اللُّغَةِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا وَالْفَخَاحِ الَّتِي تَنْصِبُهَا لَنَا: فَالَّذِي يَعْرِفُ لُغَةً مَا مَعْرِفَةً جَيِّدَةً يُمَكِّنُهُ أَنْ يَكُونَ أَدَقَّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ يُمَكِّنُهُ حَتَّى أَنْ يَكْذِبَ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ إِتْنَاعًا- تَمَامًا كَمَا أَنَّ الْكَاتِبَ الَّذِي يَقْرَأُ الْأَعْمَالَ الْكَلَّاسِيكِيَّةَ بِعَيْنٍ نَاقِدَةٍ يَتَعَلَّمُ تَقْنِيَّاتٍ كِتَابِيَّةً أَكْثَرَ تَهْذِيبًا. وَصَحِيحٌ أَيْضًا أَنَّهُ، فِي أَثْنَاءِ الْمُحَادَثَةِ الْيَوْمِيَّةِ، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَسْأَلَ مُحَادِثَنَا عَمَّا أَرَادَ قَوْلُهُ حَقِيقَةً وَعَنِ الْمَعْنَى الَّذِي كَانَ يَمْنَحُهُ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً يَسْتَعْمِلُهَا. لَكِنْ يُسَاوِي ذَلِكَ صِحَّةَ أَنَّ اللُّغَةَ الْاِعتِبَادِيَّةَ تَعِيشُ عَلَى اللَّبْسِ، وَالْفَرْقِ الدَّقِيقِ، وَالتَّلْمِيحِ، وَ[vii]أَنَّ النَّاسَ يَسْتَعْمِلُونَهَا مِنْ غَيْرِ مُبَالَاةٍ، وَكَثِيرًا مَا يُفْلِحُ بَعْضُهُمْ فِي

الفهم عن بعض على الرغم من وجود الكلمات غير الدقيقة، والمحذوفات، وإساءات الفهم. وما من معالجة لغوية يمكنها أن تمحو هذه العيوب التي في اللغة الاعتيادية، ما دامت تمثل كذلك مظهر ثرائها وقوتها. ويمكن محوها فقط في نطاق مساحات مخصوصة تحت ظروف مختبرية: واللغة التي نستعملها لغرض إرسال برفية عمل، أو التي نستعملها في التحدث إلى حاسوبنا الشخصي، مثالان للغة المختبرية. لكن اللغة المختبرية لا تعمل إلا في المختبر الذي صيغت من أجله. ولو أننا، في أي تفاعل تواصل في الحياة اليومية، مارسنا الصرامة التي يجب أن تكون سمة المنطقي والمُعْجَمِي لَعَدَت الحياة جحيمًا، أو لتحوّلنا إلى شيء ما يشبه سكان جزيرة لابوتا Laputa⁽³⁾.

إن فكرة المعالجة اللغوية قديمة: إذ كان لوك Locke يمتلك في ذهنه معالجة لغوية في ذلك القسم الرابع من كتابه مقالة في الفهم الإنساني *Essay on Human Understanding*، وعنوان هذا القسم هو "في الكلمات On Words". وبمرور القرون أسس الكثير من النظريات التي استهدفت إما بناء لغة كاملة، وإما معالجة اللغة الاعتيادية منجزة بواسطة نظرية دلالية صارمة. وبعد ريتشاردز وأوغدن كان النموذج الأكثر لفتًا للنظر في الولايات المتحدة مشروع علم الدلالة العام

(3) جزيرة لابوتا: موضع قصص خيالي مأخوذ من كتاب (رحلات غليفر Gulliver's Travels) للاديب الإنجليزي جوناثان سويت Jonathan Swift (1667-1745م). وهي جزيرة أو صخرة طائرة يبلغ قطرها نحو أربعة أميال ونصف الميل، بقاعدة صلبة، يستطيع سكانها التحرك في أي اتجاه باستعمال القوم المغناطيسي في الهواء. وهؤلاء السكان هم عرق من الشواذ الذين تنجّه رؤوسهم دومًا إلى اليمين أو الشمال، ولا تنجّه أعينهم البتّة إلى العالم من حولهم. وهم مولعون بشيئين: الرياضيات، والموسيقى، فهم متقدمون جدًا في هذين المجالين، لكنهم لا يستطيعون استعمالهما لتحقيق غايات عملية؛ إذ ليس في إمكانهم بناء مساكن بزوايا قائمة، ولا خياطة الملابس المناسبة لهم. وسبب ذلك أنهم يرفضون أخذ القياسات من واقع الحياة، ويفضلون بدلًا من ذلك استعمال المعادلات الرياضية لإثبات ما ينبغي أن يكون صحيحًا. فهم أناس مذهولون ونطاق اهتمامهم محدود جدًا. [المترجم]

ليكورزبسكي Korzybski⁽⁴⁾. وكثيراً ما استسلم مؤلفا كتاب معنى المعنى، اللذان انشغلا فيما بعد بنشر اللغة الإنجليزية الأساسية، لهذه الطوباوية.

فمن الواضح، إذا ما نظرنا من زاوية علمية، أن المغالطة العلاجية تُعاني الطوباوية. إذ لا يمكن إصلاح المجتمع بإصلاح اللغة؛ ذلك بأن اللغة كائن حي يتكيف على وفق تطوّر مجمل المجتمع واتجاهاته. ويتفاعل أعضاء المجتمع مع كل تحجّر في اللغة باللجوء إلى الشعر، أو بابتكار أشكال لغوية جديدة، غير دقيقة، مؤثّرة، في اللهجة العامية، أو في اللعب، أو في عبارات التّحجّب.

وللمغالطة، على الرغم من ذلك، جانب أصيل ومهم اجتماعياً. فالذي أقوله هو أنه إن ثبت عدم كفاية المغالطة العلاجية في اقتراح العلاجات فما زالت دقيقة في تشخيصاتها على نحو دراماتيكي. وربما لن يكون البشر قادرين على أن يتكلموا لغة دقيقة، لكن من [viii] المهمّ لهم أن يعرفوا إلى أي مدى يمكن أن تكون لغتهم غير دقيقة.

وهذا هو مبعث السّخر والفوّة في كتاب معنى المعنى: ويكفي أن نقرأ الفصل الذي يدور حول معنى كلمة جمال والفصل المُخصّص للبحث في معنى لفظ معنى اللّذين كانت النقاشات الفلسفية مادّتهما، لنشعر بجاذبيته وبأننا غارقون في رُبِّيَّة اللغة التي نستعملها، حتّى حين نتكلّم بلغة نعلّمها صارمة. وإن لم تكن المُعالجات الميكانيكية موجودة فما زال في الإمكان أن يوجد الموقف الوقائي؛ كاليقظة، والصّرامة، والشك، الذي هو على الدوام -في اللغة، كما هو في كل شيء- شرط الصّحة الجيدة.

(4) ألفريد هاباندك شاريك كورزبسكي (1879-1950م). فيلسوف وعالم بولندي-أمريكي. يقترن اسمه بتطوير نظرية علم الدلالة العام. إذ ذهب إلى أن المعرفة الإنسانية للعالم محدودة بمرتين: النظام العصبي البشري، وبنية اللغة. ورأى أن الناس لا يملكون منفذاً إلى المعرفة المباشرة للواقع، لكنهم يملكون منفذاً إلى إدراكات ومجموعة من الاعتقادات خلط المجتمع البشري بينها وبين معرفة الواقع. أشهر مؤلفاته هي: رجولة العالم، والعلم والرّشد. [المترجم]

فراءة معنى المعنى، إذن، لا تعني تعلم 'الكمال' في التكلم، بل بالأحرى تعلم ما الذي يعنيه التكلم بطريقة لا تعرف الكمال.

إن الكتاب الذي ما زال في إمكانه أن يقول كل هذه الأشياء للقارئ الاعتيادي قد يكون لديه بعض ما يقوله للقارئ المتخصص. ولا اعتقد أن مهمة هذه المقدمة التي أكتبها تقويم معنى المعنى من وجهة نظر الفلسفة، والسيميوطيقا، واللسانيات في الزمن الحاضر. لكن قد يكون مما يجدر ذكره كفيته أداء الكتاب وظيفته ريادية.

فليس من غير المعتاد في أيامنا هذه أن نجد مؤلفات للسانيين لا يعرفون سوى ما تشتمل عليه بليوغرافية اللسانيات، أو لفلاسية في اللغة لا يتطرقون إلى غير الفلسفة التحليلية، أو لسايكولوجيين لا يعرفون سوى علم النفس. وما يأسرنا في الكتاب هو ما يتوفر عليه مؤلفاه من وعي واسع متعدي التخصصات. فقد عرفا علم الدلالة عند بريال Bréal، ولسانيات سوسير Saussure، وسابير Sapir، وجيسبرسن Jespersen. وتمكنا أيضا من مزج مشكلات اللسانيات بالمشكلات الخاصة بالأنثروبولوجيا الثقافية، على ما يشير إليه الملحق الذي دبحه يرأغ مالنوفسكي Malinowski. وحقيقته أن ثمة وشائج متينة بين دراسة اللغة ودراسة علم الأعراق تكاد تكون الآن، بعد بنويوية براغ⁽⁵⁾ وليفني ستروس Levi-Strauss⁽⁶⁾، مفروغا منها. لكن في سنة 1923 لم تكن هذه معلومة مبدولة.

(5) حلقه براغ اللغوية: مدرسة لغوية خرجت إلى الضوء سنة 1926م. وكان رئيسها فيلم ماثيوس، وضمت أعلام اللغويين في تشيكوسلوفاكيا، وكان أساس الحلقة ثلاثة لغويين تشيكيين هم: ماثيوس، وترنكا، وهافرا نيك، وثلاثة من الروس المهاجرين هم: تروبتسكوي، وجاكوبسن، وكارسيفسكي. واتفق أعضاء الحلقة على اتخاذ فكرة الوظيفة أساسا في الدراسة اللغوية، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل. وأعلنت حلقة براغ برنامجها سنة 1929م في أول عدد من نشرتها. [المترجم]

(6) كلود ليفي ستروس (1908-2009م). أنثروبولوجي فرنسي، وأحد أعمدة الفكر البنوي. بدأ مسيرته العلمية بدراسة الفلسفة، غير أن النظريات المجردة البعيدة عن الواقع الاجتماعي ما لبثت أن خيبت آماله، فسافر إلى البرازيل، حيث درس علم الاجتماع =

وَلَمْ يُغْفَلْ أَوْغِدِنْ وَرِتشاردز تَارِيخُ الْفِكْرِ الْمَنْطِقِي-اللُّغَوِي- السِّيمِيوطِيقي، وَقَدْ أَحَالَ عَلَى سَكستوس أمْبِرِقوس Sextus Empiricus، وَلوك، وَلِكِنز Wilkins، وَذَلْغارنو Dalgarno، زِيَادَةً عَلَى هوسِيرل Husserl، وَفْرِيجَة Frege، وَرِسِل Russell، وَكَاسِيرِر Cassirer. وَقَطْنَا لِلدَّوْرِ الْأَسَاسِي [ix] الَّذِي يُؤَدِّيهِ الْبَحْثُ فِي الْحُبْسَةِ فِي نَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ قَبْلَ جَاكوبسن Jakobson⁽⁷⁾ وَهَالِي Halle⁽⁸⁾

= واكتشفت أعمالَ الأنثروبولوجيين الأمريكيين التي لم تكن معروفة آنذاك في أوربا. وبعد عودته إلى فرنسا سنة 1948 انتخب أستاذاً في كولييج دو فرانس، وشغل كرسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وقد كان لأعماله أثرٌ بالغٌ في مجال الأنثروبولوجيا والبحث الإثنولوجي الميداني. من مؤلفاته: البنى الأولية لعلاقات القرابة، والأنثروبولوجيا البيئية، ومدارات حزية. [المترجم]

(7) رومان أوسيفتش جاكوبسن (1896-1982م). لسانِي، وَمُنْظَرُ أَدْبِي رُوسِي-أمْرِيكِي. وُلِدَ فِي مُوسْكُو، وَاهْتَمَّ مِنْذُ وَقْتٍ مُبَكَّرٍ بِاللُّغَةِ وَاللَّهْجَاتِ وَالْفَنِّ الشَّعْبِي، وَأَطْلَعَ عَلَى أَعْمَالِ سوسِير وهوسِيرل. وَفِي سَنَةِ 1915 أَسَّسَ مَعَ سِتَّةِ طُلُوبَةِ النَّادِي اللَّسَانِي بِمُوسْكُو، الَّذِي انْتَبَهَتْ مِنْهُ مَدْرَسَةُ الشُّكْلَانِيَّيْنَ الرُّوس. وَفِي سَنَةِ 1920 انْتَقَلَ إِلَى نِيكُولسُولفَاكِيَا، حَيْثُ أَعَدَّ اطْرُوحَةَ الدِّكْتَوْرَاهِ سَنَةَ 1930 بَعْدَ أَنْ أَسَهَمَ فِي تَأْسِيسِ نَادِي بَرَاغِ اللَّسَانِي الَّذِي احْتَضَرَ مَخَاضَ الْمَنَاحِجِ الْبِنْيَوِيَّةِ وَبَحُوثَ وَظَائِفِ الْأَصْوَاتِ. وَفِي خِصْمِ هَذِهِ الْحَقَبَةِ تَبَلَّوْرَتْ أَهْمُ الْمَنْطَلَقَاتِ الْمَبْدِئِيَّةِ فِي عِلَاقَةِ الدِّرَاسَةِ الْأَتِيَّةِ بِالدِّرَاسَةِ الزَّمَانِيَّةِ لِذِيهِ. وَفِي سَنَةِ 1941 رَحَلَ إِلَى الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، فَدَرَسَ فِي نِيُورُوكَ، وَالتَقَى لِيْفِي سْتِرُوس. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى جَامِعَةِ هَارْفَرْدَ وَمَعْهَدِ مَاسْتَشُوسْتَس لِلتَّكْنُولُوجِيَا، وَهَنَّاكَ رَسَخَتْ قَدْمُهُ فِي التَّنْظِيرِ اللَّسَانِي، حَتَّى غَدَتْ أَعْمَالُهُ مَعِينًا لِكُلِّ التِّيَارَاتِ اللَّسَانِيَّةِ. مِنْ أَشْهَرِ مُصَنَّفَاتِهِ: مُحَاوَلَاتٌ فِي اللَّسَانِيَّاتِ الْعَامَّةِ، وَمُحَاضَرَاتٌ فِي الصَّوْتِ وَالْمَعْنَى. [المترجم]

(8) مَورِس هَالِي (1923-...). لِسَانِي لَاتِفِي-أمْرِيكِي. دَرَسَ الْهِنْدَسَةَ فِي نِيُورُوكَ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى جَامِعَةِ شِيكََاغُو الَّتِي حَصَلَ فِيهَا عَلَى دَرَجَةِ الْمَاجِسْتِر فِي اللَّسَانِيَّاتِ سَنَةَ 1948، ثُمَّ دَرَسَ فِي جَامِعَةِ كُولُومْبِيَا عَلَى يَدِ رُومَانِ جَاكُوبْسِن، ثُمَّ أَصْبَحَ أَسْتَاذًا فِي مَعْهَدِ مَاسْتَشُوسْتَس لِلتَّكْنُولُوجِيَا سَنَةَ 1951، ثُمَّ حَصَلَ عَلَى الدِّكْتَوْرَاهِ مِنْ جَامِعَةِ هَارْفَرْدَ سَنَةَ 1955. تَقَاعَدَ مِنْ مَعْهَدِ مَاسْتَشُوسْتَس لِلتَّكْنُولُوجِيَا سَنَةَ 1996، لَكِنَّهُ مَا زَالَ نَشِيطًا فِي مَجَالِ الْبَحْثِ وَالنَّشْرِ. يُجِيدُ الْأَلْمَانِيَّةَ، وَالْبِيْدِيَّةَ، وَاللَّاتِفِيَّةَ، وَالرُّوسِيَّةَ، وَالْعِبْرِيَّةَ، وَالْإِنْجِلِيزِيَّةَ. وَيُقِيمُ حَالِيًا فِي كِيمْبِرِج. أَشْهَرُ مَا يُعْرِفُ بِهِ عَمَلُهُ الرِّيَادِي فِي الْفُونُولُوجِيَا التَّوَلِيدِيَّةِ؛ إِذْ كَتَبَ (فِي الثَّبَرِ وَالْوَقْفِ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ) فِي سَنَةِ 1956 بِمُشَارَكَةِ نَوَامِ تَشُومْسْكِي وَفَرِيدِ لُوكُوف، وَ(الْتَّمَطُ الصَّوْتِي فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ) فِي سَنَةِ 1968 بِمُشَارَكَةِ =

بأكثر من ثلاثين سنة. واستشرفا الكثير من الخلافات المتأخرة بشأن أفعال الكلام، زيادة على مواجهة مشكلة التعريف استنادا إلى التقابل التحليلي-التركيبى. وقدما للدارسين المتأخرين أنموذج المثلث السيمبوتيقي (الرمز-الإحالة-المرجع) الذي ثبتت إفادة الكثيرين منه فيما بعد في فحوصهم- في التثابهاة وفي الاختلافات- لمختلف نظريات المعنى، وعلم دالة شروط الصدق، منذ زمن أرسطو Aristotle حتى يومنا هذا.

وكان المؤلفان من أوائل من اهتم بكتاب فغنشتاين Wittgenstein الذي عنوانه رسالة Tractatus⁽⁹⁾. وقد نشر هذا العمل في سنة 1921 في حولة الفلسفة الطبيعية *Annalen der Naturphilosophie* وفي هذه السنة نفسها أصبح أوغدين مدير تحرير المكتبة العالمية لعلم النفس والفلسفة والمنهج العلمى للتأثير كيعن باول Kegan Paul. ونيطت بأوغدين (بمعونة من رامسى Ramsay⁽¹⁰⁾)، وريل، وفغنشتاين نفسه) مهمة إنجاز الترجمة الإنجليزية الأولى لكتاب رسالة في سنة 1922.

وقد اقترح المؤلفان في كتابهما معنى المعنى (ص 89) وجوب تحرير بعض تقريرات كتاب رسالة من 'الحجاب الصوفى' (وليس المؤلفان مخطئين في ذلك تماما)؛ وفي سنة 1923 كتب فغنشتاين رسالة إلى أوغدين لا يبدو فيها راضيا عن معنى المعنى؛ إذ يقول فيها: "أعتقد أننا لم ندركا تماما المشكلة التي -على سبيل المثال- كنت أرمي إليها في كتابي" (*Letters to C.K.Ogden*).

= تشومسكي. وكتب كذلك بمشاركة صامويل جي كير في النظرية القنمى لعلم القروض التوليدي. [المترجم]

(9) اسم الكتاب كاملا هو (رسالة منطقية فلسفية)، وسيأتي الحديث عنه وعن مؤلفه لاحقا في الكتاب. [المترجم]

(10) فرانك بلمين رامسى (1903-1930م). عالم رياضيات، وفيلسوف، واقتصادي بريطاني متميز، توفي وعمره ست وعشرون سنة. كان صديقا مقربا للوديع فغنشتاين، وكان له دور فاعل في ترجمة كتابه (رسالة منطقية فلسفية) إلى اللغة الإنجليزية، وفي إقناعه بالعودة إلى الفلسفة وإلى كيمبرج. من آثاره: المسلمات، وحقائق ومقترحات، ومسلمات القانون والواقع. [المترجم]

(Oxford; Blackwell, 1973). ولا شك في أن فتغنشتاين القديم، بموقفه المنطقي الصارم، لم يكن في إمكانه تقدير الاهتمامات الانتقائية السايكولوجية، واللغوية، والتوسولوجية، لمؤلفينا. ولربما كان في إلحاحهما على فكرة الفخاخ اللغوية ما كان يمكن أن يجد في شخص فتغنشتاين صاحب كتاب بحوث فلسفية *Philosophical Investigations* قارئاً أكثر تعاطفاً. لكن الأمر المهم الذي ينبغي أن نلاحظ هنا هو القورية التي تعامل بها كتاب معنى المعنى مع أكثر القضايا سخونة وأصالة في الجدال المتعلق باللغة.

ويتجلى أوضح مثال على هذا الحيال الربادي في الطريقة التي عالج بها أوغدن ورتشاردز موضوع بيرس Peirce. إذ لم يكن بيرس أعظم عالم سيميوطيقي معاصر فحسب، بل كان أيضاً على ما أراه في أقل تقدير - [x] أعظم فيلسوف أمريكي في أواخر القرن ومن غير شك أحد أعظم مفكري زمانه. وعلى الرغم من ذلك لم يدرس فكر بيرس إلا حديثاً، في الولايات المتحدة، خارج نطاق مجموعة محدودة جداً من المتخصصين. وفي سنة 1923 لا يكتفي أوغدن ورتشاردز بتخصيص اثنتي عشرة صفحة لنظرية بيرس في العلامات، يمكن أن ينصح بمراجعتها، حتى في يومنا هذا، الطلاب الذين يرغبون في مقاربة هذا المفكر، ولا يقتصر أمرهما على إدراك خضب سيميوطيكية بيرس قبل خمس عشرة سنة من تأليف تشارلز مورس Charles Morris⁽¹¹⁾ كتابه أسس نظرية

(11) تشارلز وليم مورس (1901-1979م). سيميوطيقي، وفيلسوف أمريكي. أكثر ما يعرف به كتابه الذي أوردته أمبرتو إيكو في المتن وهو (أسس نظرية العلامات Foundations of the Theory of Signs)، وهذا هو العنوان الدقيق له، فقد وقع اختلاط يسير في العنوان الوارد في المتن هنا؛ إذ جاءت الأداة بدلاً من الأداة the. وقد نُشر هذا الكتاب سنة 1938، ليكون الجزء الأول من مشروع كبير لمورس عنوانه الموسوعة العالمية للعلم الموحد. وقسم مورس السيميوطيقا في هذا الكتاب على ثلاثة أقسام هي: التركيب Syntax، وعلم الدلالة Symantics، والبراغماتيات Pragmatics. ومن مؤلفاته الأخرى: العلامات واللغة والسلوك، والحركة البراغماتية في الفلسفة الأمريكية، وكتابات في النظرية العامة للعلامات. [المترجم]

العلامات *Foundations of a Theory of Signs* (إيذانا بمُقارَبَةِ مورِس السُّلوكِيَّةِ يُمَشْكِلَةُ الْمَعْنَى - بِكُلِّ مَا فِي الْمُحَاوَلَةِ مِنْ أَوْجُو قُصُورٍ وَلَكِنْ أَيْضًا بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ جِدَّةٍ)، بَلْ إِنَّهُمَا يَسْتَعْمِلَانِ أَيْضًا مَقُولَةَ 'التَّأْوِيلِ' عَلَى النَّحْوِ الَّذِي طَوَّرَهَا بِهِ بِيرِسُ بِوصْفِهَا الْمَفْهُومَ الْمَرْكَزِيَّ لِنَظَرِيَّتِهِمَا فِي الْمَعْنَى.

وهذه نُقْطَةُ مُهِمَّةٌ حَقًّا، وَقَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَصَالَةً، وَلَا بَيِّمًا إِنْ اسْتَحْضَرْنَا أَنَّ نَظَرِيَّةَ التَّأْوِيلِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لَدَى مُؤَلِّفَيْنَا نَظَرِيَّةٌ لِمُسَبِّحَاتٍ، وَأَنَّهَا تَضَعُهُمَا فِي مُوَاجَهَةِ الْمَشْكِلَةِ - الَّتِي هِيَ غَايَةُ فِي الْحَدَاثَةِ - الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ وَالْمَعْنَى الْإِدْرَاكِيِّ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَضَمَّنَ الْكِتَابُ اقْتِيَّاسَاتٍ كَثِيرَةً لَهَا ذَلَالَتُهَا مِنْ كَلَامِ اللَّيْدِيِّ فَيكتورِيَا وَيَلْبِي Victoria Welby الَّتِي كَانَ لِإِبَادِلِهَا الرِّسَالَتِ مَعَ بِيرِسِ أَهْمِيَّةٌ أُسَاسِيَّةٌ فِي تَطَوُّرِ نَظَرِيَّةِ الْمَعْنَى. وَقَدْ أَظْهَرَتِ الْوُثَاقُ الْآنَ أَنَّ أَوْغِدِينَ كَانَ عَلَى صِلَةٍ وَثِيقَةٍ بِاللَّيْدِيِّ وَيَلْبِي.

هَذِهِ، إِذَنْ، بَعْضُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى إِعَادَةِ قِرَاءَةِ كِتَابِ مَعْنَى الْمَعْنَى: فَلَا يُبَحِثُ فِيهِ عَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِ، بَعْدُ، قَوْلُهُ أَوْ عَمَّا قَالَهُ عَلَى نَحْوِ لَا يَبْقَى بِالْغَرَضِ، بَلْ تُلَحَّظُ فِيهِ عِدَّةُ إِمْلَاءَاتٍ مَا زَالَتْ إِلَى حَدِّ مَا لَمْ تَحْظَ بِالْقَبُولِ التَّامِّ. [xi]

ميلان

أغسطس / أيلول 1988

أمبرتو إيكو

تَرْجَمَهَا عَنْ الْإِيطَالِيَّةِ وَتِيمَ وَيْفَر (12)

(12) وَلِيمَ فِينِسَ وَيْفَر (1923-...م). مَتَرَجِّمٌ أَمْرِيكِيُّ لِلْأَدَبِ الْإِيطَالِيِّ إِلَى اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. أَكْثَرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ تَرْجَمَاتُهُ لِمُؤَلَّفَاتِ أَمْبِرْتُو إِيكُو وَإِتَالُو كَالْفِينُو، زِيَادَةً عَلَى تَرْجَمَتِهِ نُصُوصًا لِكِتَابِ إِيْطَالِيَّيْنِ آخَرَيْنِ عَلَى مَدَى خَمْسِينَ سَنَةً قَضَاهَا فِي التَّرْجُومَةِ. مِنْ أَهَمِّ تَرْجَمَاتِهِ لِمُؤَلَّفَاتِ إِيكُو الْقِصَصِيَّةِ: اسْمُ الْوَرْدَةِ، وَجَزِيرَةُ الْيَوْمِ السَّابِقِ، وَبَاوَدُولِينُو. [المُتَرَجِّم]

تَضْدِيرُ الطَّبْعَةِ الْأُولَى

إِنَّ مُعْظَمَ مَا سَيَأْتِي مِنْ صَفَحَاتِ هَذَا الْكِتَابِ، الَّتِي يَرْجِعُ زَمَنُ كِتَابَةِ بَعْضِهَا إِلَى سَنَةِ 1910، كَانَ قَدْ ظَهَرَ عَلَى نَحْوِ دَوْرِيٍّ بَيْنَ سَنَتَيْ 1920 و 1922، مَدْفُوعًا بِمُحَاوَلَةِ التَّعَامُلِ مُبَاشَرَةً مَعَ الصُّعُوبَاتِ النَّاجِمَةِ عَنْ تَأْثِيرِ اللُّغَةِ فِي الْفِكْرِ. وَالْأُطْرُوحَةُ الْمُدَّعَاةُ هِيَ أَنَّ عِلْمَ الرَّمْزِيَّةِ⁽¹⁾، الَّذِي هُوَ دِرَاسَةُ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ،

(1) لِكَلِمَةِ الرَّمْزِيَّةِ ارْتِبَاطَاتٌ تَارِيخِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ مِنْ خِلَالِ الْمَعْنَايِ الْمُعْجَمِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ لِكَلِمَةِ 'رَمَزٌ' تَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ. فِزِيَادَةُ عَلَى مَعْنَاهَا الْأَسَاسِيِّ الثَّابِتِ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ أَوْ الْأَمَارَةُ (شَيْءٌ مَا 'مَجْمُوعٌ') كَانَتْ قَدْ نَعِمَتْ بِمَعْنَيَيْنِ يَرْجِعَانِ إِلَى حَقِيقَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ؛ إِذْ يَرْجِعُ أَحَدُهُمَا إِلَى سَايِرِينَ Cyprian، وَيُسْتَعْمَلُ لِلتَّبْعِيرِ عَنِ الْعَقِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ 'عَلَامَةً' لِلْمَسِيحِيِّ تُمَيِّزُهُ مِنَ الْوُثْنِيِّ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ هِنْرِي الثَّامِنِ عَنْ 'الْعَقَائِدِ الثَّلَاثِ أَوْ الرُّمُوزِ الثَّلَاثَةِ'. وَثُمَّ تَحْرِيفُ أُسْطُورِيٍّ لِلْأَصْلِ [أَيِ الْإِغْرِيقِيِّ قَبْلَ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ]. (الْمُتَرَجِّمُ) [الْخِطَابُ هُنَا مُوجَّهٌ إِلَى مَرِيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ. (الْمُتَرَجِّمُ)] نَدَعُوها الرَّمْزِيَّةَ، أَيْ أَنَّهَا مَجْمُوعَةٌ مِمَّا هُوَ مُتَعَدَّدٌ؛ وَاجِدٌ مِنْهُ لِكُلِّ مِنْ الْحَوَارِيِّينَ الْاِثْنَيْنِ عَشَرَ [سَاقِ الْمُؤَلَّفَانِ النَّصَّ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. (الْمُتَرَجِّمُ)]. وَيُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَى تَفْصِيلَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ أُخْرَى فِي كِتَابِ شَلِسِينْغَرِ Schlesinger الَّذِي عُثِرَ عَلَيْهِ تَارِيخُ الرُّمُوزِ *Geschichte des Symbols* (1923).

وَالْآخَرُ هُوَ الْاسْتِعْمَالُ الْوَاسِعُ لِلصِّفَةِ رَمَزِيٍّ Symbolist فِي التَّسْعِينِيَّاتِ لِوُصْفِ الشُّعْرَاءِ الْفَرَنْسِيِّينَ الَّذِينَ ثَارُوا عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ الْكِتَابَةِ الْوَاقِعِيَّةِ وَالْوَصْفِيَّةِ، وَالَّذِينَ أَحَقَّقُوا مَعْنَايَ رَمَزِيَّةً أَوْ خَفِيَّةً بِمَوْضُوعَاتٍ، أَوْ بِكَلِمَاتٍ، أَوْ بِأَصْوَاتٍ مَخْصُوصَةٍ. عَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ يُحِيلُ نِقَادُ الْفَنِّ بِقَضَائِيَّةٍ عَلَى الرُّسَائِمِينَ الَّذِينَ آثَرُوا 'الْإِبْهَاءَ' مَوْضُوعًا لَهُمْ عَلَى 'التَّمثِيلِ' أَوْ 'الْبِنَاءِ'، كَمَا هِيَ الْحَالُ لَدَى الرَّمْزِيِّينَ.

عَلَى أَنَّ فِيمَا يَأْتِي مِنْ صَفَحَاتِ الْكِتَابِ إِشَارَةً إِلَى وَجْهَةِ النَّظَرِ الَّتِي يُمَكِّنُ عَلَى أَسَاسِهَا أَنْ يُحَدَّدَ مَوْضِعُ كُلِّ مِنْ هَذَيْنِ الْعُنَوَانَيْنِ الْغَائِضَيْنِ فِي نِظَامِ الْعَلَامَاتِ وَالرُّمُوزِ؛ =

يَنْطَوِي عَلَى مَسَلِكٍ جَدِيدٍ لِمُقَارَبَةِ الْمُشْكِلَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا حَكْرًا عَلَى الْفَلَسَفَةِ وَالْمِيتافِيزِيْقِيَّيْنَ. وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْبَحْثِ فِي هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ مُطَابِقٌ لِمَنَاهِجِ الْعُلُومِ الْخَاصَّةِ الَّتِي مَكَّنَتْ إِسْهَامَاتُهَا الدِّرَاسَةَ الْجَدِيدَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ [xiii] مُتَمَيِّزَةً مِنَ التَّأْمَلَاتِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ غَمُوضًا وَالَّتِي قَدْ تَبَدُّو مُرْتَبِطَةً بِهَا.

وَقَدْ هَيَّمَنَ عَلَى التَّحْوِيْنِ بِخَاصَّةِ نَوْعٍ مِنَ الْقَلَقِ. إِذْ سَادَ شُعُورٌ بِأَنَّ دِرَاسَةَ اللُّغَةِ عَلَى النُّحُوِّ الْمَعْمُولِ بِهِ حَتَّى الْآنَ بِالْمَنَاهِجِ التَّقْلِيدِيَّةِ قَدْ أَخْفَقَتْ فِي مُوَاجَهَةِ الْقَضَايَا الْأَسَاسِيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَوْقِعِهَا الْمَرْكَزِيِّ فِي كُلِّ اتِّصَالٍ بَشَرِيٍّ. وَقَدْ تَوَاصَلَتِ الْجُهُودُ لِاسْتِدْرَاكِ هَذَا الْإِهْمَالِ طَوَالَ الْقَرْنِ الْحَالِي، لَكِنَّ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي اضْطَلَعَتْ بِتَالِيفِهَا فِيلُولُوجِيُونَ مُجْتَهِدُونَ وَالَّتِي تَحْمِلُ عُتُونَاتٍ مِنْ قَبِيلِ فِلَسَفَةِ اللُّغَةِ *The Philosophy of Language*، وَمَبَادِي النُّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ *Principes de Linguistique Théoretique* ⁽²⁾ وَشُرُوطِ أُسُسِ نَقْدِ النُّحُوِّ الْعَامِّ وَفِلَسَفَةِ اللُّغَةِ *Voraussetzungen zur Grundlegung einer Kritik der allgemeinen Grammatik und Sprachphilosophie*، كَانَتْ، فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، خُلُوعًا مِنَ الْاِقْتِرَاحَاتِ الْمُثْمَرَةِ. إِذْ لَمْ تَضَعْ يَدَهَا عَلَى الْمُشْكِلَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَلَمْ تَفْتَحْ أَفَاقًا لِلْبَحْثِ مُثْمِرَةً لِلْاِهْتِمَامِ وَلَوْ كَانَتْ ثَانَوِيَّةً، إِلَّا اسْتِثْنَاءَاتٍ قَلِيلَةً مِثْلَ كِتَابِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ *Semantics* لِبرِيَال Bréal. "إِنَّ سَعَةَ الْأَقْفِ لَيْسَتْ سِمَةً وَاضِحَةً فِي الْإِنْسَانِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةِ"، هَذَا مَا يَقُولُهُ فِي آخِرِ مُؤَلَّفَاتِهِ شَخْصٌ مَرَجِعِيٌّ لَهُ مِنْ سَعَةِ الْاطْلَاعِ حَظٌّ وَافِرٌ، هُوَ جِيسْبِرْسِن Jespersen، عَازِيًا هَذِهِ النُّظَرَةَ الضَّيِّقَةَ إِلَى "حَقِيقَةٍ أَنَّ اللُّغَوِيَّيْنَ قَدْ أَهْمَلُوا جَمِيعَ الْمُشْكِلَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِتَقْوِيمِ اللُّغَةِ". وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّ تَوْصِيَّاتِ

= وَتَشْدِيدًا عَلَى تِلْكَ الْجَوَابِ مِنَ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي تَسَبَّبَ إِهْمَالُهَا فِي ظُهُورِ عَدَدٍ كَبِيرٍ جَدًّا مِنْ الْمُشْكِلَاتِ الرَّافِقَةِ، فِي كُلِّ مِنْ عِلْمِ الْجَمَالِ وَالْفِلَسَفَةِ.

(2) عُنْوَانُ لِكِتَابِ أَلْفَةِ الْإِنْسَانِيِّ الْفِيلُولُوجِيِّ الْفَرَنْسِيِّ غُوسْتَاَفْ غِيُومِ Gustave Guillaume (1883-1960م). وَهُوَ مُبْتَكِرُ النُّظَرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ (السَّايَكُومِيكَانِيكَا psychomechanics). أَهَمُّ مُؤَلَّفَاتِهِ كِتَابُ (أُسُسُ لِيَعْلَمِ لِلُّغَةِ). [الْمُتَرَجِمُ]

جيسبرسن الشَّخصيَّة بِشأنِ إيجادِ مُقارَبَةٍ مُعياريَّة، أي الاسئَلَةُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَحُثُّ
فيلولوجيَّينَ على النَّظَرِ فيها-

والتي أوَّلُها: ما المِعيَارُ الَّذِي بِمُقْتَضَاهُ تُفْضَلُ كَلِمَةٌ أَوْ صِيغَةٌ على أُخْرَى؟

وثانيها: أُنْتَعِدُ التَّغْيِراتُ الَّتِي نَرَاهَا تَحْدُثُ تَدْرِيجِيًّا في اللُّغَاتِ نَافِعَةً في
مُجْمَلِها، أَمْ تُعَدُّ عَكْسَ ذَلِكَ؟

وثالثُها: هَلْ يُمَكِّنُ إِنْشاءُ لُغَةٍ عَالَمِيَّةٍ؟-

لا تَكادُ تَمَسُّ المُشْكِلَةَ المَرْكَزِيَّةَ لِلْمَعْنَى، أَوْ عَلاَقَاتِ الفِكرِ واللُّغَةِ، ولا
يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَفِعَ الفِيلولوجيُّونَ بِمُناقَشتِها مِنْ غَيْرِ فَحْصٍ شامِلٍ لِهَذِهِ الخُطوةِ الْأَوَّلِيَّةِ
المُعَقَّلَةِ. وَسَنَرَى في الفَصْلِ التَّاسِعِ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا أَنَّ الفَلاسِفَةَ وَعُلَماءَ النَّفْسِ،
[xiv] الَّذينَ كَثِيرًا ما يُفْتَرَضُ أَنَّهُمْ عاكِفونَ على مِثْلِ هَذِهِ الأَبْحاثِ، لَمْ يَفْعَلُوا
لِمُساعدَتِهِمْ إِلَّا القَلِيلَ لِلأسَفِ.

وَمِمَّا مَنْ يَجِدُونَ صُعُوبَةً في النَّظَرِ في أَيِّ أَمْرٍ ما لَمْ يَتِمَّكَّنُوا مِنْ تَمييزِهِ
بوصْفِهِ يَنْتَمي إلى ما يُدْعَى 'مَوْضوعًا a subject'، وَمَنْ يُمَيِّزُونَ المَوْضوعَ بِوصْفِهِ
شَيْئًا ما يُقَدِّمُ فِيهِ، في مَكَانٍ ما في أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، الأَساتِذَةُ دَرَسَهُمْ، وَرُبَّما نَحْتارُ
الاختِياراتِ. فَهؤلاءُ بِهِمْ حَاجَةٌ إلى أَمْرٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنْ يُذَكِّرُوا بِأَنَّهُ في زَمَنِ ما لَمْ
تَكُنْ ثَمَّةَ مَوْضوعاتٍ، وَحَتَّى زَمَنِ مُتَأَخِّرٍ لَمْ يُوجَدَ مِنْها سِوَى خَمْسَةٍ. لَكِنَّ ما
أَجَسَ بِهِ مِنَ القَلَقِ بِدُخُولِ مِياذِينِ البَحْثِ الَّتِي لَمْ تُؤَلَّفْ كَثِيرًا قَلَقَ حَقِيقِي. ففِي
المَوْضوعاتِ الَّتِي تَكُونُ أَكْثَرَ تَكَرُّرًا تَكُونُ الطُّرُقُ الرَّئِيسَةُ، سِواءُ أَكانَتْ في
الأَماكِنِ الصَّحِيحَةِ أَمْ لَمْ تَكُنْ، مُعَلِّمَةً على نَحْوِ جَيِّدٍ، وَيَكُونُ المُسافِرُ الذَّهْنِيُّ
مُطْمَئِنًّا بِما يَكْفِي إلى الوُصولِ إلى بُقْعَةٍ مَعْلُومَةٍ، سِواءُ أَكانَتْ تَسْتَحِقُّ الزِّيَارَةَ أَمْ
لَمْ تَكُنْ، وَعَادَةً ما يَجِدُ نَفْسَهُ مَعَ صُخْبَةٍ مُحْتَرَمَةٍ وَمُعْتَمَدَةٍ. أَمَّا المَوْضوعُ الجَدِيدُ
أَوْ المُتَوَسِّطُ الجَدِّةَ فَيَتَطَلَّبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ اعْتِمادًا على نَفْسِهِ، وَأَنْ يُقَرَّرَ لِنَفْسِهِ
مَكَمَّنَ ما هُوَ أَكْثَرُ إِثارةً وَأَهَمِّيَّةً وَالتَّائِجِ المُتَوَقَّعَةِ. فَهُوَ في مَوْضِعِ الرَّائِدِ. فَإِنْ وُجِدَ
في المُغامَرَةِ المُسَجَّلَةِ هُنا ما يَمُدُّ يَدَ العَوْنِ إلى أَيِّ مِنَ الآخِرِينَ في دِراسَةِ الرُّمُوزِ

فذلك يَكْفِي لِيُعَدَّهَا الْمُؤَلَّفَانِ مُسَوَّغَةً. وَمِنْ نَافِلَةِ الْقَوْلِ أَنْ يُذَكَّرَ أَنَّهُمَا يَعْتَقِدَانِ أَنَّ أَهَمِّيَّتَهَا أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تُقْصَرَ عَلَى ذَلِكَ.

وَمِنْ أَجْلِ عَدَمِ الْإِخْفَاقِ فِي تَحْقِيقِ الْهَدَفِ الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ تَوَاضُّعًا، فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، وَالَّذِي يَتِمُّثَلُ فِي لَفْتِ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى مَجْمُوعَةِ مُغْفَلَةٍ مِنَ الْمُسْكِلاتِ، الْحَقُّ الْمُؤَلَّفَانِ بِكِتَابَيْهِمَا عِدَدًا مِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَلَامِجِ الرَّئِيسَةِ لِمَشَارِيعِ مُشَابِهَةٍ لِكُتَابِ آخَرِينَ فِي الْمَاضِي.

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِإِسْهَامَاتِهِمَا فِي وَضْعِ الْأُسُسِ لِيَعْلَمَ لِلرُّمُزِيَّةِ فَمَا يَأْتِي يَبْدُو لَهُمَا غَايَةً فِي الْأَهَمِّيَّةِ:

(1) أَنْ تَكُونَ ثَمَّةُ أَطْرُوحَةٍ بِشَأْنِ التَّأْوِيلِ مِنْ زَاوِيَةِ سَبَبِيَّةٍ تُصَبِّحُ بِوَسَاطَتِهَا مُعَالَجَةَ اللُّغَةِ بِوَصْفِهَا نِظَامًا مِنَ الْعَلَامَاتِ قَابِلَةً لِلنَّتَائِجِ الَّتِي قَدْ تُلَحَظُ مِنْ بَيْنِهَا بِدَايَةِ التَّقْسِيمِ الْمَبْنِيِّ عَلَى مَا لَا يُمَكِّنُ التَّحَدُّثَ عَنْهُ بِوُضُوحٍ وَمَا يُمَكِّنُ فِيهِ ذَلِكَ. [xv]

(2) تَقْسِيمُ وَظَائِفِ اللُّغَةِ عَلَى مَجْمُوعَتَيْنِ: الرُّمُزِيَّةِ، وَالْإِنْفِعَالِيَّةِ. فَالكَثِيرُ مِنَ الْخِلَافَاتِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْعُلُومِ يُعْتَقَدُ إِمْكَانَ بَيَانِ أَنَّ مَصْدَرَهَا الْخَلْطُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْوَظِيفَتَيْنِ؛ إِذْ تُسْتَعْمَلُ الْكَلِمَاتُ أَنْفُسُهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لِتَكُونِ جُمْلُ تَقْرِيرِيَّةٍ وَلِإِثَارَةِ الْمَوَاقِفِ. وَمَا مِنْ خَلَاصٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْإِخْتِلَافَاتِ الزَّائِفَةِ الْمُتَوَلِّدَةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَّا بِفَهْمِ وَظَائِفِ اللُّغَةِ. إِذْ يُعْتَقَدُ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ كَفِيلٌ بِإِزَالَةِ الْخِلَافَاتِ الَّتِي مِنْ قَبِيلِ الْخِلَافِ بَيْنَ الْحَيَوِيَّةِ وَالْآلِيَّةِ، وَبَيْنَ الْمَادِّيَّةِ وَالْمِثَالِيَّةِ، وَبَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، بَلْ بِإِحْيَاءِ الشُّرُوطِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِمُقْتَضَاهَا إِحْدَاثَ تَجْدِيدٍ عَامٍّ فِي الشُّعْرِ.

(3) أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ تَشْرِيحٍ لـ 'الْمَعْنَى' وَإِخْرَاجٍ لَهُ إِلَى الْهَوَاءِ الطَّلَقِيِّ؛ فَهُوَ قُطْبُ الرَّحَى فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَفِي كُلِّ نِقَاشٍ.

(4) أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ فَحْصٍ لِمَا يُعْرَفُ عَلَى نَحْوِ تَخْلِيطِيٍّ بِ'الْمَسَائِلِ اللَّفْظِيَّةِ'. فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ أَكْثَرُ شُبُوحًا فِي النِّقَاشِ مِنْ سَمَاعِنَا وَصَفَ نَقْطَةً مَا خِلَافِيَّةً بِأَنَّهَا

لَفَظِيَّةٌ عَلَى نَحْوِ خَالِصٍ أَوْ فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْهَا. إِذْ يَسْتَعْمِلُ الْمُخْتَلِفُونَ أحيانًا الْكَلِمَاتِ أَنْفُسَهَا لِأَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ، وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلْأَشْيَاءِ أَنْفُسِهَا أحيانًا أُخْرَى. وَوُجُودُ آيَةٍ لِلتَّعْرِيفِ تُكَيِّفُ بِحُرِّيَّةٍ كَفِيلٌ بِمُوَاجَهَةِ الصُّعُوبَةِ فِي كُلِّتا الْحَالَتَيْنِ. وَلَكِنْ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمِلُ الْمُخْتَلِفُونَ الْكَلِمَاتِ أَنْفُسَهَا (أَوْ الْمُخْتَلِفَةَ) لِغَيْرِ شَيْءٍ، وَهُنَا يُبْصَحُ بِتَوَاضُعٍ أَكْبَرَ مَصْدَرُهُ إِدْرَاكَ أَكْثَرُ حَيَوِيَّةٍ لِحَالِ اللَّغَةِ.

وَمَا مِنْ عِلْمٍ، حَتَّى الْآنَ، اسْتَطَاعَ التَّعَامُلَ مَعَ الْقَضِيَّةِ مُبَاشَرَةً؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الطَّرَفَ الْأَسَاسِيَّ فِي الْقَضِيَّةِ هُوَ نَظَرِيَّةُ الْعَلَامَاتِ إجمالاً وَتَأْوِيلُ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ. وَهَذَا الْمَوْضُوعُ بِخَاصَّةٍ يَصْلُحُ لِأَنْ يَتَعَاضَلَ عَلَيْهِ الدَّارِسُونَ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَحْدَهَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ أَمَلٍ مَعْقُولٍ فِي أَنْ يُؤْتَى إِلَى حَيَزِ التَّنْفِيزِ الْعَمَلِيِّ بِمَشْرُوعٍ كَانَ قَدْ هَجَرَهُ يَأْسًا الْكَثِيرُ مِنَ الْبَاحِثِينَ الْمُغَامِرِينَ لَكِنْ الْمُتَفَصِّلِينَ، وَفِي أَنْ يَبْذُلَ الشُّكُّ الْمُتَعَلِّقُ بِالْغَرَابَةِ الَّتِي يُثِيرُهَا الْمَوْضُوعُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا. وَيُظْهِرُ الْبَحْثُ التَّأْرِيخِيَّ أَنَّهُ مِنْذُ زَمَنِ الْمُؤَلَّفِ الْمَفْقُودِ لِأَنْتِسْتِينِس Antisthenes⁽³⁾ وَمُحَاوَرَةِ أَقْرَاطِيلُوس Cratylus لِأَفْلَاطُونِ وَجِدَتْ سَبْعَةٌ [xvi] مَنَاهِجَ رَئِيسَةٍ لِلْمُعَالَجَةِ-النَّحْوِيَّ (أَرِسْطُو، وَدِيُونِيسِيُوس ثِرَاكْس Dionysius Thrax⁽⁴⁾)، وَالْمِيتَافِيزِيْقِي (الْأَسْمِيُون، وَمَايْنُونِغ Meinong)، وَالْفِيلُولُوجِي (هَوْرَن تُوْك Horne Tooke، وَمَاكْس مُلَر Max Müller)، وَالسَّايِكُولُوجِي (لُوكْ Locke، وَسْتَاوْت Stout)، وَالْمَنْطِيقِي (لَايْبْنِيز Leibnitz، وَرَسِيل Russell)، وَالسُّوسِيُولُوجِي (سْتَايْنْتَال Steintal، وَفُونْت Wundt)، وَالْأَصْطِلَاجِي (بَالْدُون Baldwin، وَهوسِيرْل Husserl). فَمِنْ هَذِهِ الْمَنَاهِجِ، وَمِنْ الدَّرَاسَاتِ الْمُسْتَقْلَةِ أَيْضًا كَدِرَاسَاتِ اللَّيْدِي وَيَلْبِي، وَمَارْتِي Marty، وَبِيرْس، وَمِنْ كِتَابِ مَآوْثَر Mauthner الَّذِي عُنْوَانُهُ

(3) أَنْتِسْتِينِس (445-365 ق.م). فِيلَسُوفٌ إِغْرِيقِيٌّ، وَتَلْمِيزٌ لِشُقْرَاط. اعْتَنَقَ الْجَانِبَ الْأَخْلَاقِيَّ مِنْ تَعَالِيمِ شُقْرَاطِ وَطَوَّرَهُ، وَنَبَى فِكْرَةَ وَجُوبِ أَنْ تَحْكَمَ الْفَضِيلَةُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ. عُدَّ فِيمَا بَعْدَ مُؤَسَّسَاتِ الْفَلَسَفَةِ الْكَلْبِيَّةِ Cynicism. وَقَدْ أَلَفَّ عِدَدًا مِنَ الْكُتُبِ، لَكِنَّهَا قُعِدَتْ جَمِيعًا عَلَى الْعَكْسِ مِنْ مَوْلَافَاتِ أَفْلَاطُونِ. [المُتَرَجِّم]

(4) دِيُونِيسِيُوس ثِرَاكْس (170-90 ق.م). نَحْوِيٌّ إِغْرِيقِيٌّ. دَرَسَ فِي رُودَسَ وَرُومَا، وَأَلَفَّ كِتَابًا فِي النَّحْوِ الْإِغْرِيقِيِّ سَمَّاهُ (فَنَ النَّحْوِ). [المُتَرَجِّم]

دراسة نُقِدِيَّةٌ لِللُّغَةِ *Kritik der Sprache*، وكتاب إيردمان Erdmann⁽⁵⁾ الذي عنوانه معاني الكلمات *Die Bedeutung des Wortes*، وكتاب تين Taine الذي عنوانه في العقل *De l' Intelligence*، استمدَّ الكاتبانِ التَّوجِيهَ وأحيانًا المُتَعَة.

ومؤلفا هذا الكتابِ مَدِينَانِ على نَحْوِ خاصٍّ لِلدُّكْتُور مالِنوْفُسْكِي. فَقَدْ مَكَّنَتْهُمَا عَوْدَتُهُ إِلَى إِنجَلْتِرَا حِينَ كَانَ مُؤَلَّفُهُمَا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَطْبَعَةِ مِنْ اسْتِثْمَارِ فُرْصَةِ قَضَائِهِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ تَأْمُلُ فِي الْعَمَلِ الْمَدِينَانِي فِي عِلْمِ الْأَعْرَاقِ فِي الْمُنْطَقَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ الْمُمَيَّزَةِ الصُّعُوبَةِ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعِلْمِ النَّفْسِ. وَإِنَّ مَرْجَهُ الْفَرِيدَ لِلتَّجَرِبَةِ الْعَمَلِيَّةِ بِالْفَهْمِ الشَّامِلِ لِلْمَبَادِيِ النَّظَرِيَّةِ يَجْعَلُ مُوَافَقَتَهُ لِلكَثِيرِ مِنَ الْاسْتِثْنَائَاتِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ ابْتِدَاعًا وَالَّتِي تَوْصَلُ إِلَيْهَا هَذَا الْكِتَابُ مُشْجَعَةً عَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ. وَالْمُؤَلَّفَانِ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ إِسْهَامَ قَلَمِهِ فِي مُعَالَجَةِ دِرَاسَةِ اللُّغَاتِ الْبَدَائِيَّةِ، الَّذِي يَظْهَرُ فِي صُورَةٍ مُلْحَقٍ، سَيَكُونُ ذَا نَفْعٍ لَا يَقْتَصِرُ أَثَرُهُ عَلَى عُلَمَاءِ الْأَعْرَاقِ بَلْ يَعُمُّ جَمِيعَ مَنْ لَدَيْهِمْ اهْتِمَامٌ فَعَالٌ بِالْكَلِمَاتِ وَمَسَالِكِهَا.

إِنَّ الْأَهْمِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ لِعِلْمِ الرُّمُزِيَّةِ حَتَّى فِي شَكْلِهِ غَيْرِ الْمُطَوَّرِ الْحَالِي تَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّأَكِيدِ. فَأَكْثَرُ الْأَشْكَالِ تَطَوُّرًا لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ تَتَأَثَّرُ كُلُّهَا بِالتَّغْيِيرَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي مَوْقِفِنَا مِنَ الْكَلِمَاتِ، وَاسْتِعْمَالِنَا لَهَا. وَعَادَةً مَا تُعَدُّ كَيْفِيَّةُ عَمَلِ الْكَلِمَاتِ أَمْرًا نَظَرِيًّا، وَذَاتِ أَهْمِيَّةٍ قَلِيلَةٍ لِلْأَشْخَاصِ الْعَمَلِيِّينَ. صَحِيحٌ أَنَّ الْبَحْثَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَطَرَّقَ أحيانًا إِلَى مَسَائِلَ عَوِصَةٍ شَيْئًا مَا، لَكِنْ عَدَمَ اعْتِدَادِ الْأَشْخَاصِ الْعَمَلِيِّينَ بِهِ، مَعَ ذَلِكَ، قُصُورُ نَظَرٍ. فَوِجْهَةُ النَّظَرِ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ اللُّغَةَ تُؤَدِّي وَظِيفَتُهَا جَيِّدًا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَبَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ يَقْتَصِرُونَ فِي اسْتِعْمَالِهَا عَلَى الشُّؤُونِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُدَارَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهَا - كَعَمَلِ مُوزِعِ الْجَرَائِدِ، [xviii] أَوِ الْجَزَّارِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، حَيْثُ يَكُونُ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُحَالَ عَلَيْهِ مُسَاوِيًا تَمَامًا لِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْيَدِ. وَمَا مِنْ أَحَدٍ يُمَكِّنُهُ ادِّعَاءُ أَنْ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ فَحْصٍ نُقْدِيٍّ لِأَكْثَرِ أَدَوَاتِ الْحَضَارَةِ أَهْمِيَّةً، سِوَى

(5) كارل أوتو إيردمان (1858-1931م). لِسَانِيٌّ أَلْمَانِيٌّ. أَهَمُّ مُؤَلِّفَاتِهِ كِتَابُهُ (مَعَانِي الْكَلِمَاتِ) الَّذِي تَأَثَّرَ فِيهِ بِفَيْغِنر وَبِرِيال، وَالَّذِي حَاوَلَ فِيهِ الْإِجَابَةَ عَنِ السُّؤَالِ الْآتِي: مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ تُنْجِزَ اللُّغَةُ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لِلتَّوَاصُلِ؟ [المُتَرْجِم]

وَلَنْكَ الَّذِينَ يُغْمِضُونَ أَعْيُنَهُمْ عَنْ رُؤْيَا إِعَادَةِ التَّكْيِيفِ السَّرِيعَةِ تَبَعًا لِلظُّرُوفِ الْجَدِيدَةِ تَعَامًا الَّتِي سَعَى الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّابِقِ سَعْيًا حَثِيثًا مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِهَا. فَعَلَى مَلَائِينَ جُدِيدٍ مِنَ الْمُشَارِكِينَ فِي ضَبْطِ الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ أَنْ يُحَاوِلُوا الْآنَ تَكْوِينَ آرَاءِ شَخْصِيَّةٍ بِشَأْنِ أُمُورٍ كَانَتْ فِيهَا مَضَى مَوْكُولَةٌ إِلَى فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ قَدْ زِدَادَتْ تَعْقِيدًا عَلَى نَحْوِ هَائِلٍ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. وَإِنَّ لِلنَّظَرَةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَرَى أَنَّ نَمْدَخَلَ الْوَحِيدَ إِلَى مَوْضُوعٍ مَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ دَرْسٍ مَطْوَلٍ لَهُ، إِنْ صَحَّحَتْ، عَوَاقِبُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ الَّتِي لَمَّا تُوَاخِجُهُ بَعْدُ. وَالْبَدِيلُ هُوَ رَفْعُ مُسْتَوَى التَّوَاصُلِ مِنْ خِلَالِ دِرَاسَةٍ مُبَاشِرَةٍ لِشُرُوطِهِ، وَمَحَاضِيرِهِ، وَضُعُوبَاتِهِ. وَيُمَثِّلُ التَّعْلِيمُ الْجَانِبَ الْعَمَلِيَّ مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ، إِنْ أُخِذَ التَّوَاصُلُ بِمَعْنَاهُ الْوَاسِعُ.

وَقَدْ أَثَّرَ الْمُؤَلِّفَانِ نَشَرَ هَذَا الْكِتَابِ بِصُورَتِهِ الْحَالِيَّةِ عَلَى الْإِنْتَظَارِ، رُبَّمَا إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى، رَيْبًا يَتَجَمُّعُ مَا يَكْفِي مِنْ أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ، فِي أَزْمَانٍ تُشْغَلُ عَلَى مَا يَنْبَغِي بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى، لِإِعَادَةِ كِتَابَتِهِ لِيُظْهَرَ فِي صُورَةٍ أَكْثَرَ اكْتِمَالًا وَمَنْهَجِيَّةً؛ لَا قِتْنَاعَهُمَا بِالْحَاجَةِ الْمُلِحَّةِ إِلَى فَحْصِ لُغَةٍ أَكْثَرَ صَرَامَةً مِنْ زَاوِيَةِ نَظَرٍ لَا تَلْقَى أَيَّاهُ عِنْتَامَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ. وَهُمَا يَعْتَقِدَانِ أَنَّ وَعَيْهُمَا لِمَوَاطِنِ الْإِخْفَاقِ فِيهِ أَكْبَرُ مِمَّا يَقْتَرِضُهُ مُعْظَمُ النُّقَادِ، وَلَا سِيَّامَا الْمَوَاطِنَ النَّاجِمَةَ عَنِ الصُّعُوبَاتِ الْمَخْصُوصَةِ الَّتِي يُحْتَمُّ إِظْهَارُهَا النَّدَى الْجَوْهَرِيُّ لِلُّغَةِ لِلْمُفَسِّرِينَ لَهَا.

وَتَمَّةُ سَبَبَانِ لَا عِتْقَادٍ أَنَّهُ قَدْ حَانَتْ اللَّحْظَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُوَازَرَ فِيهَا مُحَاوَلَةٌ جَذِبِ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى الْمَعْنَى. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَوُجُودُ اسْتِعْدَادٍ مُتَنَامٍ فِي أَوْسَاطِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ لِلْإِقْرَارِ بِأَهَمِّيَّةِ الْمُسْكِلَةِ. إِذْ يَقُولُ الْبَرْوفيسُورُ بِير Pear⁽⁶⁾ فِي كِتَابِهِ (التَّذَكُّرُ وَالنَّسْيَانُ Remembering and Forgetting، 1923، [xviii ص 59]: "لَوْ كَانَ اكْتِشَافُ الطَّبِيعَةِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ لِلْمَعْنَى قَدْ كُتِبَ لَهُ النَّجَاحُ التَّامُّ لَكَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَضَعَّ ذَلِكَ حَدًّا لِيَعْلَمَ النَّفْسُ تَمَامًا". وَأَمَّا السَّبَبُ الْآخَرُ فِدِرَاكُ أَنَّ الْأَشْخَاصَ الْمُتَقَفِّينَ وَالْمُخْلِصِينَ هُمْ، عَلَى نَحْوِ يُرْتَى لَهُ، تَحْتَ رَحْمَةِ أَشْكَالٍ مِنَ الْكَلَامِ لَا

(6) ت. هـ بِير T. H. Pear (1886-1972 م). أَحَدُ مُؤَسِّسِي عِلْمِ النَّفْسِ فِي بَرِيطَانِيَا. حَصَلَ عَلَى زِمَالَةِ دِرَاسِيَّةٍ فِي جَامِعَةِ مَانِسْتَر سَنَةَ 1909، وَاصْبَحَ أَوَّلَ أَسَاتِذِ عِلْمِ النَّفْسِ فِي سِنِّ الثَّلَاثِينَ فِي بَرِيطَانِيَا سَنَةَ 1919. أَهَمُّ آثارِهِ كِتَابُ (التَّذَكُّرُ وَالنَّسْيَانُ). [المُترجم]

يُمْكِنُ الصَّبْرُ عَلَيْهَا طَوِيلًا، حِينَ نَجِدُ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، اللورد هَنغ سِيْسِل Hugh Cecil⁽⁷⁾ يَنْتَهِي إِلَى بَيَانِ حَصِيفٍ لِمَوْقِفِهِ مِنَ الطَّلَاقِ بِقَوْلِهِ: "يَبْدُو لِي أَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُضْطَرُّ الْمَسِيحِيُّونَ، بِوَصْفِهِمْ مَسِيحِيَّينَ، إِلَى مُقَاوَمَتِهِ، هُوَ أَيُّ مُقْتَرَحٍ لِإِطْلَاقِ اسْمِ الزَّوْاجِ عَلَى مَا تُعَدُّهُ تَعَالِيمُ الْمَسِيحِ سِفَاحًا" (The Times, Jan. 2, 1923). وَالْخُطُوطُ الْمَائِلَةُ مِنْ صُنْعِنَا.

وَمِمَّا يَتَعَذَّرُ اجْتِنَابُهُ فِي مِثْلِ عَمَلِنَا هَذَا تَأْكِيدُ بَعْضِ مَا قَدْ يَبْدُو لِبَعْضِهِمْ وَاضِحًا، وَاسْتِخْدَامُ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي تَجْعَلُ قِسْمًا مِنَ الْبَحْثِ أَقْلًا سُهولةً مِنْ غَيْرِهِ، بِسَبَبِ تَغْيِيرِ زَاوِيَةِ النَّظَرِ إِلَى الْمَوْضُوعِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَمِنَ الْمُؤَمَّلِ، فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، أَنْ يَتِمَّكَنَ حَتَّى الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ سَابِقُ عِلْمٍ بِمَوْضُوعَاتِ الْكِتَابِ، بِقَلِيلٍ مِنَ الصَّبْرِ، مِنْ مُتَابَعَةِ الْبَحْثِ كَامِلًا، وَإِنْ يَكُنْ قَدْ كُتِفَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ أَجْلِ إِبْقَاءِ الْعَرَضِ فِي الْإِطَارِ الْمَرْسُومِ لَهُ. لِذَلِكَ أَثْبَتْنَا قَائِمَةً كَامِلَةً لِلْمُحْتَوَيَاتِ، صُمِّمَتْ لِتُقْرَأَ بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْكِتَابِ.

وَصُمِّمْنَا إِلَى الْكِتَابِ مُلَخَّصًا، وَبَعْضَ التَّذْيِيلَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمُسْكِلاتِ خَاصَّةٍ، وَعَدَدًا مِنَ الْإِحَالَاتِ الْمُتَبَادَلَةِ Cross-references⁽⁸⁾، لِيَنْتَفِعَ بِهَا الْقُرَّاءُ الَّذِينَ لَمْ تَنْحَ لَهُمْ فُرْصَةٌ إِلَّا بِإِلَاءِ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْمِيدَانِ الْمَبْحُوثِ قَدْرًا مُتَسَاوِيًا مِنَ الْاهْتِمَامِ، أَوْ الَّذِينَ يَرْعَبُونَ فِي مُلاحَقَةِ الدِّرَاسَةِ إِلَى مَدَى أَبْعَدَ.

أَوْغِدِن وَرْتشاردز

كُلِّيَّةُ مَاغْدالين كِيمبرج
يَنَايِر/ كَانُونُ الثَّانِي 1923

[xix]

(7) هَنغ رْتشارد هيثكوت غاسكوين سِيْسِل (1869-1956م). سِيَاسِيٌّ بَرِيطَانِيٌّ كَانَ عُضْوًا فِي جُزْبِ الْمُحَافِظِينَ الْبَرِيطَانِيِّ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْحُرِّيَّةُ وَالسُّلْطَةُ، وَالْمَسْأَلَةُ الْإِيرْلَنْدِيَّةُ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْوَطَنِيَّةُ وَالْكَاثُولِيكِيَّةُ. [المُتَرَجِم]

(8) الْمَقْصُودُ بِالْإِحَالَاتِ الْمُتَبَادَلَةِ: تَنْبِيهُ الْقَارِئِ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ يُعَالِجُ الْمَوْضُوعَ نَفْسَهُ، ثُمَّ تَنْبِيهُهُ فِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ؛ مِنْ أَجْلِ رِبْطِ نَوَاحِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. [المُتَرَجِم]

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

إنَّ الاستقبالَ المُمَيَّزَ الذي تَلَقَّى بِهِ أَشْخَاصٌ ذَوُو مَبُولٍ مُخْتَلِفَةٍ جِدًّا الطَّبْعَةَ لأوَّلَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ؛ وَحَقِيقَةً أَنَّهُ بَعْدَ مُرُورِ سَنَتَيْنِ عَلَى نُشْرِهِ اسْتَعْمِلَ رَسْمِيًّا فِي عَدَدٍ مِنَ الْجَامِعَاتِ، وَمِنْهَا جَامِعَةُ كُولومبِيَا؛ وَالْاهْتِمَامَ الْمَلْحُوظَ الَّذِي أَثَارَهُ فِي أَمْرِيكََا، عَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ، أَدَّتْ إِلَى الْبَقَاءِ الْمُؤَلَّفَيْنِ، فِي نِيُيُورْكَ، فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ مِنْ سَنَةِ 1926، مِنْ أَجْلِ الْمُنَاقَشَةِ وَالْمُرَاجَعَةِ. وَأَمَكْنَ، نَتِيجَةً لِذَلِكَ، أَنْ تُرَاعَى مُتَطَلِبَاتُ جُمْهُورٍ أَكْبَرَ مِنَ الْجُمْهُورِ الَّذِي وَجَّهَ الْكِتَابُ إِلَيْهِ فِي الْبَدْءِ. وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ الطَّبْعَةِ عَلَى تَعْدِيلِ بَعْضِ الْإِشَارَاتِ الْمَوْضِعِيَّةِ، بَلْ أُدْخِلَتْ تَحْسِينَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ عَلَى مُسْتَوَيِ التَّأَكِيدِ وَالتَّأْسِيسِ نَأْمُلُ أَنْ تُنِيرَ ذَرْبَ الْقَارِي.

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَمْ نَجِدْ ضَرُورَةَ لِأَحْدَاثٍ تَغْيِيرٍ فِي الْمَوَاقِفِ السَّابِقَةِ. عَلَى أَنَّ الْكَسَلَ لَمْ يَجِدْ لَهُ إِلَى الْمُؤَلَّفَيْنِ سَبِيلًا، وَعَسَى أَلَّا تَكُونَ بَعْضُ الْإِحَالَاتِ عَلَى أَعْمَالٍ إِضَافِيَّةٍ اضْطَلَعَا بِإِنْجَازِهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا. فَكِتَابُ رِثَارْدِزِ مَبَادِي النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ *Principles of Literary Criticism* يَسْعَى إِلَى أَنْ يَمْنَحَ الْوُظِيفَةَ الْإِنْفِعَالِيَّةَ بِلُغَةٍ الْأَسَاسِ النَّقْدِيَّةِ نَفْسَهُ الَّذِي يُحَاوِلُ هَذَا الْكِتَابُ مَنَحَ الْوُظِيفَةَ الرَّمْزِيَّةَ إِثَارَهُ. وَيُقَدِّمُ كِتَابُ أَوْغِدِنِ سِخْرُ الْكَلِمَةِ *Word Magic* الْعُدَّةَ التَّأْرِيخِيَّةَ وَالْفِيلُولُوجِيَّةَ الَّتِي بِالِاسْتِعَانَةِ بِهَا وَحْدَهَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرَ الْعَادَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الرَّاهِنَةِ - وَقَدْ أَمَكْنَ تَقْلِيلُ الطُّوْلِ الْمُبَالَغِ فِيهِ لِلْفَصْلِ الثَّانِي الْأَصْلِيِّ بِسَبَبِ وُجُودِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ الْمُسْتَقْلَةِ. وَيُمَكِّنُ الْوُقُوفُ عَلَى مَدْخَلِ عَامٍّ إِلَى الْمَشْكِلَاتِ السَّايْكُولُوجِيَّةِ لِإِدْرَاسَةِ اللَّغَةِ فِي كِتَابِ أَوْغِدِنِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْسِ *The Meaning of Psychology*، فِي حِينِ يُنَاقِشُ كِتَابُ رِثَارْدِزِ الْعِلْمَ وَالشُّعْرَ *Science and Poetry* مَكَانَةَ الْأَدَبِ وَمُسْتَقْبَلَهُ فِي حَضَارَتِنَا. [xx]

غير أنَّ هذه الأعمال الإضافية ما زالت تُتيح اكتشافَ قَدَرٍ كبيرٍ من الأرضِ
البكرِ التي بادَرَ افتِضاؤها كِتَابُ مَعْنَى الْمَعْنَى. ومن بين تلك الرِّغائبِ الأساسيةِ
تَطْوِيرُ آليَّةِ تَعْلِيمِيَّةٍ يُمكنُ بِهَا مَدُّ يَدِ الْعَوْنِ لِلْأَطْفَالِ وَالْبَالِغِينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ
لِتَحْقِيقِ اسْتِعْمَالِ أَفْضَلِ لِلُّغَةِ، وَالبَحْثُ فِي الْمَبَادِيِّ الْعَامَّةِ لِتَدْوِينِ الرُّمُوزِ وَارْتِباطِهِ
بِمُسْكِلةِ اللُّغَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَالْمِهْمَةُ التَّحْلِيلِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِاكتِشافِ نَمَطٍ مِنَ النُّحُو
يُمْكِنُ مِنَ التَّحْكُمِ بِالتَّرْجُمَةِ مِنْ نِظَامٍ لِلرُّمُوزِ إِلَى آخَرَ. وهذه مَشَارِيعُ تَقْتَضِي إنشاءَ
مُؤَسَّسَةٍ لِلْبَحْثِ اللَّغَوِيِّ مَقَرَّاتُهَا الرَّئِيسَةُ فِي جَنيفَ، وَنيويوركَ، وَبِكينَ.

أوغْدِن ورتشاردز

كِيمْبِرِجَ،

يونيو / حَزِيرَانِ، 1926

تصديرُ الطبعةِ الثالثة

نُتِيحُ لَنَا الحاجةُ الْمُلِحَةُ إلى طَبْعَةِ ثَالِثَةٍ لِلْكِتَابِ فُرْصَةً تَصَحِيحِ عَدَدٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ وَالتَّعَارُضَاتِ الْبَسِيطَةِ. أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالرُّغَائِبِ الَّتِي أُحِيلَ عَلَيْهَا أَيْضًا فَإِنَّ ثَانِيَتَهُمَا وَثَالِثَتَهُمَا كَانَتَا مَوْضِعَ الْإِهْتِمَامِ فِي كِتَابِ أَوْغِدِنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ *Basic English*، وَهِيَ نِظَامٌ لِلُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مُكَيَّفٌ فِي ضَرْوٍ مُتَطَلِّبَاتِ اللُّغَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ وَصْفٌ لِلرُّغَبِيَّتَيْنِ فِي الْمَجْلَدَيْنِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ مِنْ دَوْرِيَّةِ *Psyche* (1930-1928)؛ أَمَّا الرُّغْبِيَّةُ الْأُولَى فَعُنِيَ بِهَا كِتَابُ رِثَارْدِزِ النُّقْدِ الْعَمَلِيِّ *Practical Criticism* الَّذِي هُوَ تَطْبِيقٌ تَعْلِيمِيٌّ لِلْفَضْلِ الْعَاشِرِ، وَإِنَّ الْخَبْرَةَ الَّتِي اكْتَسَبَهَا الْمُؤَلَّفُ بِوَصْفِهِ أَسْتَادًا زَائِرًا فِي بَكِينٍ بَيْنَ سَنَتَيْ 1929 وَ1930 تَجْعَلُ الْحَاجَةَ إِلَى إِنْجَازِ عَمَلٍ إِضَافِيٍّ بِشَأْنِ جَمِيعِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ يَبْدُو بَعْدَ أَكْثَرِ الْحَاحَا.

أَوْغِدِنِ وَرِثَارْدِزِ

كَيْمِرج،
يَنَايِرُ / كَانُونِ الْأَوَّلِ، 1930

تَضْدِيرُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ

عَمَدْنَا فِي هَذِهِ الطَّبْعَةِ إِلَى إِزَالَةِ بَعْضِ التَّضَارُّبَاتِ وَالْإِبْهَامَاتِ الَّتِي لَحِظْنَاهَا عِنْدَ تَرَاوُلِنَا مَعَ الدُّكْتُورِ إِشِيْبَاشِي Ishibashi الَّذِي تَرَجَّمَ الْكِتَابَ إِلَى اللُّغَةِ الْيَابَانِيَّةِ فِي سَنَةِ 1936 .

وَبَعْدَ صُدُورِ الطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَجَّهَ كِتَابُ أَوْغِدِنِ نَظَرِيَّةُ التَّخَيُّلاتِ عِنْدَ بِيْنْتَامِ Bentham's Theory of Fictions الْإِهْتِمَامَ صَوَّبَ إِسْهَامَ فِي الْمَوْضُوعِ مُهْمَلٍ تَجَاوَزَ أَهْمِيَّتُهُ الْأَهْمِيَّةَ التَّارِيخِيَّةَ. وَيَقْصُصُ كِتَابُ رِشَارْدَزِ مَذْهَبُ مِينْشِيُوسِ فِي الْعَقْلِ Mencius on the Mind الصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ طَرِيقَ الْمُتَرْجِمِ وَيَكْتَشِفُ آلِيَّةَ التَّعْرِيفِ الْمُتَعَدِّدِ، الَّتِي حَظَّيْتُ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِبْضَاحِ فِي كِتَابِ رِشَارْدَزِ قَوَاعِدُ التَّفَكِيرِ الْأَسَاسِيَّةِ Basic Rules of Reason . أَمَّا كِتَابُ رِشَارْدَزِ مَذْهَبُ كُولِيرِجِ فِي الْخَيَالِ Coleridge on Imagination فَيَعْرِضُ تَقْوِيمًا جَدِيدًا لِنَظَرِيَّةِ كُولِيرِجِ فِي ضَوْءِ تَقْوِيمٍ أَكْثَرَ كِفَايَةً لِلُّغَةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ. وَأَمَّا كِتَابُ أَوْغِدِنِ التَّقَابُلِ Opposition فَيَقْدِّمُ تَحْلِيلًا لِجَانِبٍ مِنَ التَّعْرِيفِ ذِي أَهْمِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي التَّيْسِيرِ اللَّغَوِيِّ.

أَوْغِدِنِ وَرِشَارْدَزِ

كَيْمِيرِجِ ،
مَآيُوسِ ، 1936

تَضْيِيرُ الطُّبْعَةِ الثَّامِنَةِ

إِنَّ الْفُضُولَ الَّذِي أَثَارَهُ كُلُّ مِنْ الْإِحَالَاتِ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ فِي عَدِيدٍ مِنَ التَّطْبِيقَاتِ الشَّائِعَةِ لِمَبَادِئِ الْمُعَالَجَةِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي لَقِيَتْ تَأْيِيدًا فِي كِتَابِنَا، وَالتَّبَنِّيِ الْوَاسِعِ لِلْإِنْجَلِيزِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ بِوَصْفِهَا مَنَهْجًا تَعْلِيمِيًّا، أَخَوَجَ إِلَى طَبْعَاتٍ أُخْرَى لِلْكِتَابِ. وَكُنَّا فِي الطَّبْعَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَاضِيَةِ قَدْ أَدْخَلْنَا قَلِيلًا مِنَ التَّغْيِيرَاتِ الْإِضَافِيَّةِ، وَوَسَّعْنَا أَجْزَاءَ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْفَصَلَيْنِ الثَّانِي وَالْعَاشِرِ فِي مُؤَلَّفَاتٍ مُسْتَقْلَةٍ - فِي مَقَالَاتٍ أَوْغِدِنَ فِي الْمَجْلَدَيْنِ السَّادِسَ عَشَرَ وَالثَّامِينَ عَشَرَ مِنْ دَوْرِيَّةِ *Psyche*، وَكِتَابَيْنِ رِتْشَارْدَزِ التَّأْوِيلُ فِي التَّعْلِيمِ *Interpretation in Teaching*، وَكَيْفَ تَقْرَأُ صَفْحَةً *How to Read a Page*.

أَوْغِدِنَ وَرِتْشَارْدَزِ

كَيْمِجِرْجْ،
مَآيُو / مَآيسَ، 1946

المُختَوَيَات

تَضْيِيرُ الطَّبْعَةِ الْأُولَى 31-38

تَضْيِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ 39-40

تَضْيِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ 41

تَضْيِيرُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ 42

تَضْيِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّامِنَةِ 43

الفَصْلُ الْأَوَّلُ

الأفكار، والكلمات، والأشياء

المَعْنَى، المُشكِكَةُ المَرْكَزِيَّةُ فِي اللُّغَةِ، يَلْقَى إِهْمَالاً مِنْ أَكْثَرِ العُلُومِ صِلَةً بِهِ، 57-58. مُعَالَجَتُهُ عِنْدَ الفَلَسَافَةِ تُفَصَّلُ بِتَقْدِيمِ التَّحْلِيلِ، وَلَا سِيَّما فِي الفَصْلِ الثَّامِنِ. المُقَارَنَةُ الفِيلُولُوجِيَّةُ - صِبَاغَةُ البروفيسور بوسْتَعَيْتِ الوَاضِحَةِ، 58-59. إِخْفَاقُ عِلْمِ الدَّلَالَةِ؛ بَرِيال، 59-61. فَرْدِينَانْدُ دُو سُوْسِيرِ وَاللِّسَانِ، 61-64. عُلَمَاءُ الأَعْرَاقِ البَشَرِيَّةِ؛ بُوَاز، 65-66. تَطَوُّرُ عِلْمِ النَّفْسِ يَجْعَلُ المُعَالَجَةَ العِلْمِيَّةَ لِلرُّمُوزِ مُمَكِّنَةً، 67.

أَهْمِيَّةُ الرُّمُوزِ فِي كُلِّ نِقَاشٍ وَبَحْثٍ - الرُّمُوزِيَّةُ دِرَاسَةُ أَثَرِ الرُّمُوزِ فِي الفِكْرِ، 67. الوُظَائِفُ المُتَعَدِّدَةُ لِلرُّمُوزِ - وَظِيفَتُهَا بِوصْفِهَا مُنَظَّمَةٌ وَمُوصَلَةٌ لِلإِحَالَةِ أَوَّلُ مَا يُعْنَى بِهِ، 67-68. وَظِيفَتُهَا الانْفِعَالِيَّةُ مُؤَجَّلَةٌ إِلَى الفَصْلِ السَّابِعِ. مُحَظَّظٌ مُلَانِمٌ لِلرُّمُوزِ، وَالإِحَالَةُ، وَالْمَرْجِعُ، 69. عِلَاقَةُ الكَلِمَاتِ بِالأَشْيَاءِ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ؛ مِنْ خِلَالِ التَّأْوِيلِ، 69-70. مَحَاضِيرُ الاِخْتِرَازِ اللِّفْظِيِّ، 71. تَقَدُّمُ العِلْمِ مِنْ خِلَالِ رَفْضِهِ - النِّسْبِيَّةُ؛ التَّحْلِيلُ النَّفْسِيُّ، 71-72.

إِسَاءَةُ التَّأْوِيلِ، 73. التَّعْقِيدَاتُ النَّاجِمَةُ عَنْ إِسَاءَةِ التَّوْجِيهِ؛ الكَذِبُ، 75-76. مُشْكِلَاتُ فَرَعِيَّةِ دَوَاتِ أَهْمِيَّةٍ ثَانَوِيَّةٍ، 79-80.

الحَاجَةُ إِلَى نَظَرِيَّةٍ لِلتَّأْوِيلِ تَرْتَكِزُ عَلَى مُلَاخَظَتِنَا لِلآخَرِينَ، 80. مَسْأَلَةُ الاسْتِبْطَانِ

المشكوك فيها. - استحالة الأطروحة التوافقية الأناوحدية؛ بالذون، 80-81. تنوع الأحوال العلامية وكثيئة حضورها، 81-84. المكانة المميزة للرموز، 85.

الفصل الثاني

سلطة الكلمات

الرموز بوصفها مصدرًا دائمًا للأعاجيب والأوهام. شيوع عبادة الرموز في أوساط الأميين، 87-88. اللغة ناقلة لأكثر أفكار البشر وعواطفهم يدائية، 88-89. الاسم بوصفه نفسًا. - الأسماء السرية، 90-92. [xxiii]

الخرافة اللفظية ما زالت سائدة. - أسباب انتشارها الواسع. - البناءات اللفظية الخالصة في الفلسفة المعاصرة، 94-95. عالم الوجود المزعوم؛ برتراند رسل بوصفه أفلاطونيًا جديدًا، 96-97.

النظرة الإغريقية إلى اللغة. - الأفلاطونية بوصفها مفرزًا من مفرزات سحر الكلمة البدائي، 97-98. هيراقليطس، وفيثاغورس، 99-100. بارمينيدس. - "مثل" أفلاطون المطورة عن النفس الاسمية عند الفيثاغوريين. - إهمال محاورة أقراتيلوس لأفلاطون، 101-102. اعتماد أرسطو على الكلمات؛ إذ يتركز منطقها على النحو. - شهادة هيوبل وغومبيرز. - الجيل اللغوي المميزة للجدل الإغريقي، 103-104. نقد ماوتنر للفظية الأرسطية. - كتاب في التأويل (العبارة)، 104-105. الخرافات اللفظية في روما، 106-108. إثبات أن الإغريق أدركوا الأثر المضلل للغة، 108-109. بل إن البوذية أكثر صراحة في ذلك. - غير أن أينسديموس والشككيين وحدهم في العصور القديمة قاربوا مشكلة العلامات مقارنة علمية، 109-110.

الشرق هو الموطن الحقيقي للخرافة اللفظية. - التعويذات: السحر اللفظي والطب اللفظي، 112-113. السحر اللفظي ما زال يُمارس بحريّة اليوم. - لكن بأشكال جديدة. - المناطق بوصفهم صوفيين، 113. رينانو والفرقة اللفظية. - الرنين الوجداني في الميتافيزيقا، 114-116. سحر الكلمة في الطب المعاصر، 117-118.

لا يمكننا التخلص من هذه التأثيرات إلا بتحليل العلامات والأحوال الرمزية. - لم يُدرك وجود المشكلة إلا في الأزمنة الحديثة. - رواد المعالجة العلمية من ولیم الأوكامي إلى ماوتنر، 118-120.

الخطوة اللاحقة. لا غنى عن نظرية العلامات من أجل تحليل معاني الرموز. - تسليط الضوء على السحر اللفظي بواسطة هذه النظرية، 121-126.

الفضل الثالث الأحوال العلائقية

نظريته المعنى تعتمد على نظريته العلامات. - الإحالة، أي العلاقة بين الفكرة وما تتعلق به، ليست قريضة، 127-128. العلاقة المباشرة المزعومة لمعرفة 'القضايا'؛ كينز، وليس، وهوسيرل، وفان جنيكين، 128-130. أطروحات سايكولوجية سابقة بشأن المعرفة - من زوايا الترابط، والإدراك الواعي، والإيحاء - دابنميكية على نحو غير كاف. - تطوّر من زاوية التعليل التذكري؛ سيمون، 131-132. إيضاحات وتفسيرات؛ يرقانة لويد مورغان، 133-134.

غيوب اللغة السببية، 136-137. إعادة صياغة المسألة من زاوية السياقات المتكررة، 137-138. أمثلة للسياقات السايكولوجية والخارجية، 138-139. تعريف السياقات، 140-141. كيف تتكرّر السياقات؟ - عمومية السياقات واحتماليتها، 141-142.

غيوب الأطروحات المستندة إلى التخيل. - الصور بوصفها رفايات للحياة العقلية، 142-143. محاذيرها، 143-144. رسل. - النظرية السياقية للإحالة موصّحة من خلال مسألة التوقّع الصعبة. - صدق الإحالة أو كذبها ما هو إلا تكرّر السياق أو عدم تكرّره. - امتداد هذه النظرة إلى [xxiv] التوقعات التي تكون علاماتها في أنفسها اعتقادات، وأكثر من ذلك إلى جميع حالات التأويل من حالة إلى أخرى، 144-145. التوسّع إلى الإحالات العامة، 145-146. عمومية الإحالات البدائية وخصوصيتها لا عمومية المنطق وخصوصيته الرمزيّتان. - شروط الإحالات العامة، 146-147. الإحالات الشاملة وغير الشاملة، أي إحالات الكل والبعض، 148. البحث التفصيلي في السياقات مهمة علم النفس المستقبلية، 149.

مراجع الاعتقادات الكاذبة، 149. القضايا بوصفها إحالات، أي خصائص علائقية لعمليات ذهنية. 'الشكل المنطقي' بوصفه بنية الإحالات. - شمولية الإحالات في الإحالات المركبة، 151. جميع الإحالات المعقدة قابلة للتحليل إلى إحالات بسيطة، أي إلى أفكار أو مفاهيم تكون غير محدّدة وصادقة، 152. الأفكار والاعتقادات لا تختلف إلا في التعقيد والخصائص التأثيرية-الإرادية. - لا يحرز تحديد الإحالة إلا من خلال التعقيد، 153. الإحالة الكاذبة التي تتألف من إحالات بسيطة صادقة، 154. إيضاحات للاعتقادات الكاذبة المركبة، 155.

انسجام النظرية السياقية للإحالة مع المواقف العلمية المعاصرة. - اعتمادها على نظرية

لِلإحتمالِ، 156-157. اقتراحاتٌ من أجلِ التَّوَصُّلِ إلى نظريَّةٍ لِلإحتمالِ، 158-159. إساءةُ التَّأويلِ، والمُلاءمةُ، والتَّدَاخُلُ العاطفيُّ، 160-161.

الفصلُ الزَّابعُ

العلاماتُ في الإدراكِ الحسِّيِّ

نظريَّةُ التَّأويلِ مُطَبَّقةٌ على الإدراكِ الحسِّيِّ، 163-164. صُعوباتُ السُّؤالِ الآتي: 'ما الذي نَراه؟' نَاجِمةٌ عن إهمالِ الأحوالِ العلامِيَّةِ المُتَضَمِّنَةِ؛ هيلمهولتز، 165-166. وعن إجراءِ رمزيٍّ سَمِيٍّ، 167.

تَعْدِيلاتُ أعضائنا الحسِّيَّةِ بِوصفِها العلاماتِ الأَوَّلِيَّةِ التي نُؤوِّلُها، 168. الوَعْيُ المُباشِرُ بِوصفِهِ حَدَثًا عَصَبِيًّا. - رَفَضُ تُهْمَةِ المادِّيَّةِ، 168-169. هَذِهِ النَّظَرَةُ ما هِيَ إِلَّا تَيَمُّةٌ لِنِظامِ الإحالاتِ المُحَقَّقَةِ الذي هُوَ أَشْمَلُ الأنظَمَةِ المُحَرَّزَةِ حَتَّى الآنَ. على ذلكَ لا تَمُكِنُ مُهاجَمَتُها في الوَقْتِ الحاضِرِ، 169-170. إِزَالَةُ بَعْضِ التَّنَاقُضاتِ المَشهُورَةِ بِاستِعْراضِ الأحوالِ العلامِيَّةِ الحاضِرَةِ، 170-171. تَوْسِيعُ الرُّمُوزِ بِوصفِهِ مَنَهْجًا مُضادًّا لِلْمِيتافيزيقا عَامًّا، 173-174.

الفصلُ الخامسُ

قَوَانِينُ الرُّمُوزِيَّةِ

مُسْلَماتُ التَّوَصُّلِ. - المَنْطِقُ بِوصفِهِ عِلْمُ التَّرْمِيزِ النِّظامِيِّ، 175-176.

قانونُ الأحاديَّةِ. رُمُوزُ الرِّياضِيَّاتِ مُمَيَّزَةٌ. - طَبِيعَةُ الرِّياضِيَّاتِ، 176-177. فِتْنِشْتاين، وِرْنِيانو، [xxv] وَجِيمْس مِل، 178-179. تَساوي الإحالاتِ، 179-180. اسْتِبدالُ الرُّمُوزِ، 180-181.

قانونُ التَّعْرِيفِ. تَطابُقُ الإحالةِ وَتَطابُقُ المَرَجِعِ. - صُعوباتُ في البَحْثِ، 181-183.

قانونُ التَّوسِيعِ. مَصْدَرُ 'الْفَلَسَفَةِ'. - مُسْتَوِياتُ الإحالةِ. - التَّوسِيعُ يَجِبُ أَنْ يُظْهَرَ الْأَحْوالَ العلامِيَّةِ المُتَضَمِّنَةِ، 183. إفراطاتُ التَّمَوُّ والتَّقْلِيصاتِ الرَّمْزِيَّةِ. - 'الكَلِماتُ' هِيَ تَسِيراتُ رَمْزِيَّةٌ. - وَهُمْ عَالَمُ 'الْوُجُودِ'، 184-185. رَمِيل، 186. اللُّغَةُ بِوصفِها آلَةٌ، 188-189. تَمْيِيزُ الرُّمُوزِ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الرُّمُوزِ الكاذِبَةِ. - عَالَمُ الخِطابِ، 193-194.

قانونُ الفِعْلِيَّةِ. اكْتِشافُ المَرَجِعِ. مَراجِعُ زانَقَةٌ، 195-196. نَمادِجُ إِجرائِيَّةٍ، 196-197.

قانونُ الانسِجامِ. تَجَنُّبُ الهَرَاءِ وَالتَّنَاقُضاتِ. 'قَوَانِينُ الْفِكْرِ'، 197.

قانونُ القُرُونِيَّةِ. 'مَوْضِعُ' المَرْجِعِ. 'المَوْضِعُ' يَوْصِفُهُ مُكْمَلًا رَمَزيًا، 198. تَحْوِيلُ الْقَضَايَا الكَاذِبَةِ وَتَوْسِيعُهَا. - أَهْمِيَّةُ التَّوْسِيعِ فِي التَّعْلِيمِ وَالْجَدَلِ، 198-199.

الفصل السادس

التعريف

أَرْبَعُ صُعُوبَاتٍ تُوَاكِهُ نَظَرِيَّةُ التَّعْرِيفِ، 201-202. (1) التَّعْرِيفَاتُ اللَّفْظِيَّةُ وَالْوَاقِعِيَّةُ، 202-203. (2) التَّعْرِيفَاتُ وَالتَّقْرِيرَاتُ. (3) التَّعْرِيفَاتُ الْمَصْوَغَةُ لِأَغْرَاضٍ خَاصَّةٍ. - 'عَالَمُ الْخِطَابِ'. (4) التَّعْرِيفُ الْمُكْتَفٍ وَالتَّعْرِيفُ الْمَوْسَعُ، 203-204.

آيَةُ التَّعْرِيفِ. - اخْتِيَارُ نِقَاطِ الْإِنْطِلَاقِ الَّتِي يُوصَلُ بِهَا بَيْنَ مَرَاجِعَ مَشْكُوكٍ فِيهَا. - أَنْمَاطُ الْإِرْتِبَاطِ الْأَسَاسِي قَلِيلَةُ الْعَدَدِ. - أَسْبَابُ ذَلِكَ، 206. مَعَايِيرُ نِقَاطِ الْإِنْطِلَاقِ، 207. سِمَاتُ اللَّغَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، 208. الْعَلَقَاتُ الْمُعَقَّدَةُ وَغَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ، 209-210. سَرْدُ الْمَسَالِكِ الشَّانِعَةِ لِلتَّعْرِيفِ، 210-214.

تَطْبِيقُ هَذِهِ الْآلِيَّةِ فِي النُّقَاشِ. - مُعَاظَلَةُ الْبَحْثِ عَنِ التَّعْرِيفِ لِلرَّمْزِ. - التَّعْرِيفَاتُ النِّظَامِيَّةُ وَالتَّعْرِيفَاتُ الْعَرَضِيَّةُ، 214-216. الْأَفْظَاظُ غَيْرُ الرَّمْزِيَّةِ، أَيْ غَيْرُ الْقَابِلَةِ لِلتَّعْرِيفِ، 216-217. وَمِثَالُ ذَلِكَ كَلِمَةُ 'حَسَنٌ'، 218-219. أَثَرُ الْهَدَفِ فِي الْمَفْرَدَاتِ، 220. خَطَأُ الْبَحْثِ عَنْ غُضْرٍ مُشْتَرَكٍ فِي اسْتِعْمَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. أَسْبَابُ هَذِهِ الْعَادَةِ، 222-223. صُعُوبَةُ تَقْدِيمِ أَفْظَاظٍ جَدِيدَةٍ، 224-225. مَنَهْجُ الْفَضْلِ، 226. قَوَاعِدُ التَّجَرِبَةِ. - تَسْمِيَةُ الْجَبَلِ الْجَدَلِيَّةِ. - اقْتِرَاحُ شَوْبِنَهَاوَر، 226-227. تَمْيِيزُ ثَلَاثِ خُدَعٍ: الْخُدْعَةُ الصُّوْنِيَّةُ (حَالَةٌ مِل)؛ وَخُدْعَةُ إِضْفَاءِ الصِّفَةِ الْمَادِّيَّةِ؛ وَالْخُدْعَةُ الْأَوْتَرَاكُوسِيَّةُ، 227-229. إِجْرَاءَاتُ وَقَائِيَّةٌ إِضَافِيَّةٌ بِالضَّدِّ مِنَ الْمُمَارَسَاتِ السَّيِّئَةِ الْجَدَلِيَّةِ. كَلِمَاتٌ خَطَرَةٌ: الْمُهْيَجَةُ، وَالْمُنْحَلَةُ، وَالْمُسْتَجْدِيَّةُ (مَانِيو آرَنولد)، وَالبَدَوِيَّةُ (لوك)، 230-234. قِيَمَةُ الْآلِيَّةِ الْقَابِلَةِ لِلثَّقَلِ، 235-236. [xxvi]

الفصل السابع

معنى الجمال

الْبَحْثُ الدَّائِمُ فِي الْجَمَالِ مِيدَانٌ مُنَاسِبٌ لِاخْتِيَارِ نَظَرِيَّةِ التَّعْرِيفِ. - الْفَوْضَى فِي عِلْمِ الْجَمَالِ، 237-238. رُوبِرْتُ بْرُوكْ؛ وَبِينِيدِيُو كَرُوتْشَة، 239-240. اسْتِقْلَالُ اسْتِعْمَالَاتِ الْكَلِمَةِ، 241. الْعَلَقَاتُ الْمُتَبَادَلَةُ بَيْنَ هَذِهِ الْاسْتِعْمَالَاتِ، 242-244. التَّعْبِيرَاتُ الْمُتَشَابِهَةُ وَالْمُتَّحِدَةُ، 245.

الْوِظَانُفُ الْمُتَعَدَّدَةُ لِلْغَةِ. - كَثَرَةُ الْهَرَاءِ الظَّاهِرِ عِنْدَ أَفْضَلِ النُّقَادِ؛ لُونْجِينُوسُ، وَكُولِيرْجُ،

وبرادلي، ومَكِيل، 247-249. الاستعمال الرمزي والاستعمال الانفعالي للكلمات. -
التقريرات والاستيمالات. - المتكلم والمستمع، 249-250. الوظيفتان الرمزية
والانفعالية متميزتان. - ادعاء الصديق بوصفه اختياراً. - محاذير تطبيق الاختيار، 251.

إهمال التحويلات لهذا التعدد؛ فون دير غابيلينتز، وفندريس، 252-254. المقارنة
الفكرية، 254-255. برغسون، وستيفن، 255-256. الحل العقلي بإزاء مشكلة
الحذس، 257. "المعرفة الافتراضية" بوصفها تقويماً جمالياً، 257. الراحة والرضا في
انسجام البواعث المختلفة. - التداخلات بين استعمالات اللغة، 258-259. د. هـ
لورنس والشمس، 260-261.

الفصل الثامن

المعنى عند الفلاسفة

افتقار الفلاسفة إلى الاهتمام بالمعنى، 263-264. خلاصة الحلقة النقاشية في دورية
Mind؛ شلر، وريسل، ويواكيم، وسيدغوك، وسترونغ، 264-266. نقاش مزامن
للحصة في دورية *Brain*. - عدم قدرة علم النفس الحالي على مد يد العون إلى أطباء
الأعصاب؛ بارسنز، 267.

الإسهامات الأمريكية الحديثة. - الواقعيون التقديرون، 268. الحضور الكلي لمصطلح
"معنى" في نقاشاتهم. - دريك، ولفجوي، وبرات، وروجرز، وسانتيانا، وسيلرز،
وسترونغ. الرباط الأساسي الذي يوحدهم هو استعمالهم غير الممحص للكلمة "معنى"،
268-276. إسهام ليمونشربيرغ يستحق التوييح بخاصة، 276-280. تقويم مونشربيرغ؛
البروفيسور مور، 280-281. مفردات الأخير، 281-285.

أمثلة نموذجية أخرى؛ برود، ونييلشيب، وهالدين، ورويس، 285-287. كثير، 287-
288. علم النفس الرسمي؛ سبعة أساتذة، 288-290. التحليل النفسي؛ بونام.
البراغماتيون، 290-292. المؤرخون. حتى أكثر المفكرين وضوحاً؛ مور، 292-293.
القانون، واللاهوتيون، وغيرهم، 294. تصعيد الإقرار المغلط العاطفي، 295-296.

الفصل التاسع

معنى المعنى

الرغبة في تحسين الممارسة المعنوية للفلاسفة. - إطار لقائمة من التعريفات كما في
الفصل السابع، [xxvii] 297-298. استنباط ستة عشر تعريفاً رئيساً، 298-299.

مُنَاقَشَةُ هَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ الْوَاحِدِ تَلَوَّ الْآخِرِ. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ خَاصَّةٌ جَوْهَرِيَّةٌ لِلْكَلِمَاتِ (1) وَبِوَصْفِهِ عَلاَقَةٌ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّحْلِيلِ (2) مَرْفُوضٌ. اِعْتِبَارُ الْمَعْنَى الْمُعْجَمِيِّ (3) مُؤَجَّلٌ. الْإِيْحَاءُ (4) وَالتَّغْيِينُ بِوَصْفِهِمَا نَتَاجِئِنِ مَنطِقِيَّيْنِ؛ جُونَسْن، وَرَسِلْ، وَمِلْ، 299-301. الْمَعْنَى الْجَوْهَرِيَّةُ (5) بِوَصْفِهِا إِيْحَاءَاتٌ مُضْفَى عَلَيْهَا طَائِعٌ مَادِّيٌّ، 301-303. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ فَعَالِيَّةٌ مُنْقَطَعَةٌ (6) يَكُونُ اسْتِعَارَةٌ، شِلْرُ. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ قَضْدًا (7) يَكُونُ مُحْلَلًا؛ جُوزِيْف، وَغَارْدُونَر، 303-307. تَعْقِيْدَاتٌ سَبَبُهَا إِسَاءَةُ التَّوْجِيهِ، 307-308. جَوَابُ نَاطِرِيَّة-إِرَادِيَّةٌ، 308-309. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ مَوْضِعًا فِي نِظَامٍ (8)، 309-310. اسْتِعْمَالُ غَامِضٌ. يُضَيِّقُ هَذَا أَحْيَانًا إِلَى الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ نَتَاجِئِ عَمَلِيَّةٍ (9)، 311. وَلَيْمَ جِيْمَسْ وَالْبِرَاغْمَاتِيُون. أَوْ إِلَى الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ مَا هُوَ لَازِمٌ (10). الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ مُصَاحِبَاتٍ عَاطِفِيَّةٌ (11)، 311-312. أَوْرِن، 312-313.

مَذْهَبُ الْعَلَامَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ (12).- أَمِثْلَةٌ، 313. 'الْمَعْنَى' فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ بِوَصْفِهِ 'سَبَابٌ'. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ سِبَاقًا سَايْكُولُوجِيًّا (13) فِي النَّظَرِيَّةِ السِّبَاقِيَّةِ لِلْإِحَالَةِ. إِضَاحَاتٌ إِضَافِيَّةٌ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، 313-315. أَمِثْلَةٌ وَاعْتِرَاضَاتٌ. ضَرُورَةٌ فَخَصَ دَلِيلُ الْإِسْتِطَانِ، 315-316. عَدَمُ حَسْمِ الْاِقْتِنَاعِ الْمُبَاشِرِ، 316. لِمَ يَجِبُ عَلَيْنَا الْاِعْتِمَادُ عَلَى الرُّمُوزِ فِي التَّفْكِيرِ التَّجْرِيْدِيِّ، 317-318. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ مَرْجَعًا (13ب) فِي النَّظَرِيَّةِ السِّبَاقِيَّةِ لِلْإِحَالَةِ. عَدَمُ ضَرُورِيَّةِ نَظَرِيَّةِ مُنَاطَرَةِ الصُّدْقِ. الْمُتَكَلِّمُ وَالْمُسْتَمِعُ مَرَّةً أُخْرَى، 318-319. تَعْيِينُ السِّبَاقَاتِ مُشْكَلَةٌ فِي طَرِيقِ نَظَرِيَّةِ التَّوَاصُلِ. الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُتَكَلِّمُ مُحْيِلًا عَلَيْهِ (14)؛ الْاِسْتِعْمَالُ الْجَيِّدُ، 319-320. الْمُعْجَمَاتُ بِوَصْفِهَا مُؤَثِّرَةٌ لِلتَّدَاخُلَاتِ بَيْنَ إِحَالَاتِ الرُّمُوزِ، 321. تَعْقِيْدَاتٌ فِي الْمَعْنَى مَنَشُؤُهَا الْأَحْوَالُ الرُّمُوزِيَّةُ (15 وَ 16)، 321.

الفصلُ العاشرُ

الأحوالُ الرُّمُوزِيَّةُ

تَطْبِيقُ النَّظَرِيَّةِ السِّبَاقِيَّةِ لِلْإِحَالَةِ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ.- النَّظَرُ فِي حَالَةِ الْمُسْتَمِعِ أَوَّلًا، 323. تَمْيِيزُ الْأَصْوَاتِ بِوَصْفِهَا كَلِمَاتٍ مَرَحَلَةً أَوَّلِيَّةً. لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَدَاءً وَاعِيًا. هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتُ عِنْدَ الْأَطْفَالِ، 323-325. مُسْتَوِيَّاتُ التَّأْوِيلِ، 325-326.

لَا وُجُودَ لَارْتِبَاطٍ صَارِمٍ بَيْنَ تَعْقِيدِ الرُّمُوزِ وَتَعْقِيدِ الْإِحَالَاتِ، 326. السِّبَاقَاتُ الْمَطْلُوبَةُ فِي اسْتِعْمَالِ أَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ أَبْسَطُ مِنْهَا فِي اسْتِعْمَالِ الْعِبَارَاتِ الْوَصْفِيَّةِ.- أَسْبَابٌ وَإِضَاحَاتٌ، 326. اسْتِعْمَالُ الرُّمُوزِ لِتَقْرِيْبِ التَّجْرِيْدِ.- اِكْتِسَابُ الْكَلِمَاتِ مِنْ خِلَالِ كَلِمَاتٍ أُخْرَى. الْاِسْتِعَارَةُ بِوَصْفِهَا التَّرْمِيزُ الْبِدَائِيُّ لِلتَّجْرِيْدِ، 327.

عَمَلِيَّاتُ التَّرْمِيزِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ. الْفُرُوقُ الْمُؤَشِّرَةُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ بِهَذَا الشَّانِ، 329. دَرَجَاتُ مُخْتَلِفَةِ لَاعْتِمَادِ الْإِحَالَةِ عَلَى الرَّمْزِ، 330-333. الْأَهَمِّيَّةُ الْعَمَلِيَّةُ الْكَبِيرَةُ لِهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ، 330-331. الْمُتَكَلِّمُ [xxviii] يَكُونُ أحيانًا فِي حَالَةٍ خُرْيَةٍ كَلَمِيَّةٍ، وَأحيانًا فِي حَالَةٍ تَبَعِيَّةٍ كَلَمِيَّةٍ، 332-333. تَسْلِيطُ عِلْمِ الْأَمْرَاضِ الضُّوءَ عَلَى هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ. - الْحُبْسَةُ، 333-334. مُسْتَوَيَاتُ مُخْتَلِفَةِ لَاحْتِمَالِ حُدُوثِ الْإِخْفَاقِ. - صِلَةُ ذَلِكَ بِالنَّحْوِ. - النَّحْوُ يَوْصِفُهُ تَارِيخًا طَبِيعِيًّا لِأَنْظِمَةِ الرُّمُوزِ. - الْاسْتِعْمَالُ الْجَيِّدُ يَوْصِفُهُ مُعْتَمِدًا عَلَى عَوَالِمِ الْخِطَابِ، 334-336. الْمَهْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلنَّحْوِ يَوْصِفُهُ عِلْمًا مَعْيَارِيًّا، 337-338. دِرَاسَةُ الرُّمُوزِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الْوُظُفِيَّاتِ الْإِحَالِيَّةِ وَالْإِنْفِعَالِيَّةِ مَا هِيَ إِلَّا إِضَاعَةٌ لِلزَّمَنِ، 339-340.

تَعُدُّ وَظَائِفُ اللَّغَةِ. (1) التَّرْمِيزُ الضَّارِمُ. (2) الرُّمُوزُ يَوْصِفُهَا عِلَامَاتٌ لِمَوْقِفِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ مُسْتَعْبِيهِ، 340-341. (3) يَوْصِفُهَا عِلَامَاتٌ لِمَوْقِفِهِ مِنْ مَرْجِعِهِ. (4) يَوْصِفُهَا أَدَوَاتُ لِإِنْشَاءِ الْأَغْرَاضِ. (5) يَوْصِفُهَا عِلَامَاتٌ يُسَرِّ أَوْ تُعَسِّرُ فِي الْإِحَالَةِ، 341-342.

احْتِمَالُ شُمُولِيَّةِ هَذِهِ الْوُظَائِفِ. شَكْلُ الْجُمْلَةِ يَوْصِفُهُ تَوْفِيقًا بَيْنَ التَّرْمِيزِ وَالْعَوَامِلِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ، 342-343. إِيضَاحَاتٌ لِتَفَاعُلِهِمَا، 343-344. مُشْكِلَاتُ التَّرْجَمَةِ، 344-347. إِهْمَالُ النَّحْوِيِّينَ لِهَذَا التَّعَدُّدِ. - تَمَيِّزُ وَظِيفَتَيْنِ أحيانًا، 347. مَا يُدْعَى مِنْ إِهْمَالِ الْمُسْتَمِعِ. اسْتِعْمَالُ قُوَّةِ اللَّتَعْبِيرِ. دِيْتَرِتْش، وَفُونْ هَمْبُولْت، وَدُو سوسِير، وَمَارْتِنَاك، وَآخَرُونَ بِشَأْنِ الْمُسْتَمِعِ، 347-350. مَنَهْجُ بَرُونُو، 350-351.

إِيضَاحَاتٌ لِلتَّوْفِيقَاتِ بَيْنَ وَظَائِفِ اللَّغَةِ، 351-353. الثَّانَوِيَّةُ - اللَّغَةُ الشَّعْرِيَّةُ هِيَ الْمِثَالُ الْأَسَاسِيُّ لِذَلِكَ. - مَوَارِدُ الشَّاعِرِ اللَّفْظِيَّةُ. - وَصَفُ لَافَكَادِيُو هِيرِنَ لِلْكَلِمَاتِ، 353-354. شِلِي وَالْقُبْرَةُ، 357. التَّأثيرَاتُ الْإِيقَاعِيَّةُ وَالْعَرُوضِيَّةُ وَالتَّأثيرَاتُ الْأُخْرَى لِلْكَلِمَاتِ، 358-359. الْاسْتِعْمَالُ الْعَاطِفِيُّ لِلْإِسْتِعَارَةِ. أَنْتَرُ هَذِهِ التَّأثيرَاتِ فِي التَّرْمِيزِ الضَّارِمِ، 359. التَّخْلِيطَاتُ النَّاجِمَةُ عَنْ سُوءِ فَهْمِ هَذَا الْأَثَرِ، 360-361.

الْعَوَاقِبُ السَّرْسِيُولُوجِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ لِفَهْمِ أَفْضَلِ لِلُّغَةِ عُمُومًا. - الْحَاجَةُ الْمَاسَّةُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْبُحُوثِ، 361. الْفُرْصَةُ مُتَاحَةٌ الْآنَ. ظُهُورُ عِلْمٍ مُسْتَقِلٍّ. - مَدَاهُ وَإِمْكَانَاتُهُ، 361.

مُلَخَّصُ الْكِتَابِ 363-370.

التَّيْلِيلَاتُ -

A. فِي النَّحْوِ 371-387

B. في السِّياقاتِ 389-391

C. نَظَرِيَّةُ العَلَامَاتِ عِنْدَ أَيْنِسْدِيموس 393-398

D. مَعَ عَدَدٍ مِنَ المُعَاصِرِينَ-

1. هوسيرل 399-404

2. رَسِل 405-406

3. فريجة 406-408

4. غومبيرز 408-411

5. بالدون 412-414

6. بيرس 415-435

E. في الوَقَائِعِ السَّالِيَةِ 437-444

[xxix]

المُلَحَقَاتُ

1. مُشْكِلَةُ المَعْنَى فِي اللُّغَاتِ البِدَائِيَّةِ، بِقَلَمِ برونسلاف مالينوفسكي أستاذ الأنثروبولوجيا
الاجتماعية المشارك في مَدْرَسَةِ لَنْدَنِ لِلاَقْتِصَادِ 445-503

2. أَهَمِّيَّةُ وُجُودِ نَظَرِيَّةٍ لِلْعَلَامَاتِ وَنَقْدُ لُغَةٍ فِي دِرَاسَةِ الطَّبِّ، بِقَلَمِ كَرُوكْشَانَك
[xxx] 505-536

مَعْنَى الْمَعْنَى

مَرَدُّ الْحَيَاةِ كُلِّهَا إِلَى كَلَامِنَا - وَسِيلَةٌ تَوَاضَّلْنَا * - Henry James هنري جيمس

أَصَبْتُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ إِزَالَةُ الْخَطِّ حِينَ تَكُونُ جُذُورُهُ لُغَوِيَّةً * - Bentham بينثام

عَلَيْنَا الْانْتِفَاعُ بِاللُّغَةِ، الَّتِي شَكَلَتْ بِالضَّرُورَةِ مِنْ أَفْكَارٍ مُتَّصِرَةٍ سَلَفًا. وَهَذِهِ الْأَفْكَارُ الْمَقْبُولَةُ فِي اللاَّوِيِّ هِيَ أَخْطَرُ الْأَفْكَارِ * - Poincaré بوانكاري

بِالاعْتِمَادِ عَلَى الْبِنَاءِ التَّخَوُّيِّ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ كُلِّ شَيْءٍ يَجْرِي بِسَلَاسَةٍ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّظَامِ الْفَلَسْفِيِّ، فِي حِينٍ أَنَّ الطَّرِيقَ يَكُونُ، إِنْ جَارَ التَّعْبِيرُ، مَسْدُودًا أَمَامَ إِمْكَانَاتٍ مُعَيَّنَةٍ أُخْرَى * - Nietzsche نيتشه

لَيْسَ فِي إِمْكَانِ الْإِنْجِلِيزِيِّ وَلَا الْفَرَنْسِيِّ وَلَا الْأَلْمَانِيِّ وَلَا الْإِيطَالِيِّ أَنْ يَحْمِلُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى التَّفَكِيرِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا تَمَامًا، فِي الْأَقْلَى فِي الْمَوْضِعَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَيُّ قَدَرٍ مِنَ الْعُمُقِ الْعَاطِفِيِّ: إِنَّهُمْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى الْوَسِيلَةِ اللَّفْظِيَّةِ * - Prof. J. S. Mackenzie البروفيسور ماكينزي

فِي الْفِكْرِ الْبِدَائِيِّ يَكُونُ الْأَسْمُ وَالْمُسَمَّى مُرْتَبِطَيْنِ عَلَى نَحْوٍ يُعَدُّ أَحَدُهُمَا عَلَى وَفْقِهِ جُزْءًا مِنَ الْآخَرِ. وَإِنَّ الْفَضْلَ غَيْرَ التَّامِّ لِلْكَلِمَاتِ عَنِ الْأَشْيَاءِ لَيْمَّا يُعَيِّرُ الْفِكْرُ الْإِغْرِيقِيَّ عُمُومًا * - Herbert Spencer هربرت سبنسر

كَانَ عَلَى الدَّوَامِ ثَمَّةٌ مُبْلَغُ قُوَّيٍّ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِتَلْقَى اسْمًا مَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَيَانًا أَوْ وُجُودًا، لَهُ وُجُودٌ ذَاتِيٌّ مُسْتَقِلٌّ: فَإِنْ لَمْ يُعْتَزَّ عَلَى كَيَانٍ وَاقِعِيٍّ يَسْتَجِيبُ لِلْاسْمِ لَمْ يَفْتَرِضِ النَّاسُ، لِهَذَا السَّبَبِ، عَدَمَ وُجُودِهِ، بَلْ تَصَوَّرُوا أَنَّهُ شَيْءٌ مُبْهَمٌ وَغَامِضٌ عَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ، وَأَرْقَى بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا جَسَدِيًّا * - J. S. Mill جون ستيورت ميل

لَيْسَ ثَمَّةُ مَا هُوَ أَكْثَرُ اعْتِيَادِيَّةً مِنْ أَنْ يَتَطَلَّلَ الْفَلَايِفَةُ عَلَى عَالَمِ التَّخَوُّيِّينَ، وَأَنْ يَخُوضُوا فِي جِدَالَاتٍ كَلِمِيَّةٍ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتَصَوَّرُونَ فِيهِ أَنَّهُمْ يُعَالِجُونَ خِلَافَاتٍ لَهَا أَهَمِّيَّةٌ وَشَأْنٌ * - Hume هيوم

يُفْنِغُ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَلِمَاتِ أَنْفُسَهَا الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا النَّاسُ، كَمَا لَوْ أَنَّ الصُّوْتَ الْوَاحِدَ يُحْمَلُ بِالضَّرُورَةِ الْمَعْنَى نَفْسَهُ * - Locke لوك

قَدْ يَكُونُ التَّنَاقُشُ اللَّفْظِيُّ مُهِمًّا أَوْ غَيْرَ مُهِمٍّ، لَكِنْ مِنَ الْمَرْغُوبِ فِيهِ، فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَفْظِيٌّ * - Sir G. Cornwall Lewis السير كورنول لويس

إِنَّ الْخِلَافَاتِ الْعِلْمِيَّةَ تَتَكَشَّفُ عَلَى الدَّوَامِ عَنْ أَنَّهَا اخْتِلَافَاتٌ بِشَأْنِ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ * - Prof. A. Schuster البروفيسور شوستر

الفصلُ الأوَّلُ

الأفكارُ، والكلماتُ، والأشياء

لِنَرَدِّدْ قُرْبًا مِنَ النَّارِ حَتَّى نَسْتَطِيعَ رُؤْيَةَ مَا نَقُولُ .

- بوبس فرناندو بو

The Bubis of Fernando Po

إِنَّ أَثَرَ اللُّغَةِ فِي الْفِكْرِ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى اهْتِمَامِ عُقْلَاءِ النَّاسِ وَحَمَقَاهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، مِنْذُ أَنْ اسْتَنْجَحَ لَو تْسِي ⁽¹⁾ Lao Tse فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ "أَنَّ الَّذِي يَعْلَمُ لَا يَتَكَلَّمُ، وَأَنَّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ لَا يَعْلَمُ" .

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعُقْلَاءَ قَدْ أَثْبَتُوا أحيانًا أَنَّهُمْ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حُمْقًا؛ أَلَمْ يُعْلِنِ بَنْتَلِي Bentley ⁽²⁾ الْعَظِيمُ، عَمِيدُ كُلِّيَّةِ تَرِنْتِي Trinity التَّابِعَةِ لِجَامِعَةِ كِيمْبْرِج Cambridge، وَرئيسُ شِمَامِسَةِ بَرِسْتَل Bristol، الَّذِي لَهُ مَنْصِبَانِ آخَرَانِ أَيْضًا "أَنَّ أَسْمَاءَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَمَاكِينِ الْمَذْكُورَةَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَ الطُّلُوفَانِ، إِذَا مَا تَجَاوَزْنَا دَلَائِلَ أُخْرَى، نَجْعَلُنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْعِبْرِيَّةَ كَانَتْ اللُّغَةُ الْبِدَائِيَّةَ لِلْبَشَرِ" ؟ وَفِي الصَّفْحَةِ الْمُقَابِلَةِ انْتَقَيْنَا تَعْلِيقَاتٍ أُخْرَى تَعْلُقُ بِمَوْضُوعِ

(1) لَو تْسِي (604-531 ق.م). فِيلَسُوفٌ صِينِي قَدِيمٌ، وَيُعَدُّ إِلَهًا فِي الطَّاوَوِيَّةِ. وَتَعْنِي الْكَلِمَةُ السَّيِّدُ الْقَدِيمُ، وَتُعَدُّ لَقَبَ نَفْخِيمِ. [المُتَرَجِّمُ]

(2) رِنْشَارْد بَنْتَلِي (1662-1742م). لَاهُوتِيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ، وَعَالِمٌ كَلَّاسِيكِيٌّ، وَنَاقِدٌ. كَانَ عَمِيدًا لِكُلِّيَّةِ تَرِنْتِي فِي جَامِعَةِ كِيمْبْرِجِ. [المُتَرَجِّمُ]

اللغة وَمَعْنَاهَا، وَسَوَاءٌ أُوَسِّمَتْ هَذِهِ التَّعْلِيْقَاتُ بِالْحُكْمَةِ أَمْ بِالْحَقِّ فَإِنَّهَا، فِي الْأَقْلَ، قَدْ أَثَارَتْ تَسْأُلَاتٍ يَنْبَغِي أَنْ يُجَابَ عَنْهَا عَاجِلًا أَوْ أَجَلًا. وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ أُقِرَّ عُمُومًا بِوُجُودِ مُشْكِلَةِ الْمَعْنَى وَأَهْمِيَّتِهَا، بَيِّدَ أَنَّ سُوءَ الْحِظِّ لَاحَقَ مَنْ حَاوَلُوا التَّوَصُّلَ إِلَى حَلِّ بِشَانِ ذَلِكَ مُجْبِرًا لِإِتَاهِمِ عَلَى التَّخَلِّي عَنْ طُمُوحِهِمْ - إِمَّا بِسَبَبِ التَّقَدُّمِ فِي السَّنِّ كَحَالِ لَإِبْنِتْز Leibnitz⁽³⁾، وَإِمَّا بِسَبَبِ الْفَقْرِ الْمُذْفِعِ كَحَالِ بِيرْسِ C. S. Peirce⁽⁴⁾، وَإِمَّا بِسَبَبِ الْأَمْرَيْنِ مَعًا. بَلْ إِنَّ الْمَنَاهِجَ الْمَفْتَرَضَةَ لِمُعَالِجَةِ الْمَشْكِلَةِ السَّابِقَةِ ظَلَّتْ مُوَضِّعَ شَكٍّ. وَجَنَحَ كُلُّ عِلْمٍ إِلَى أَنْ يَقْوَضَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الْمِهْمَةِ غَيْرِ السَّارَةِ. [1] إِنَّ مَا أَخْطَأَ فِيهِ الْمِيتَافِزِيْقِيُونَ وَمَا أَغْفَلُوهُ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَنَّا عَلَى إِيْلَاءِ الْمَشْكِلَةِ مَزِيدًا مِنَ الْإِهْتِمَامِ، وَعَلَى الْفِيلُولُوجِيَّيْنَ تَحْمُلُ قِسْطَهُمْ مِنَ الْوِزْرِ. عَلَى أَنَّ مَنْ قَدْ يَكُونُ أَدْرَكَ بِوُضُوحٍ شَدِيدٍ ضَرُورَةَ التَّهْوِضِ بِمُعَالِجَةِ أَشْمَلِ لِلْمَوْضُوعِ فِي السَّنَوَاتِ الْقَرِيبَةِ كَانَ فِيلُولُوجِيًّا.

إِذْ كَتَبَ الرَّاحِلُ الذُّكُورُ بَوَسْتَعَيْتِ Postgate⁽⁵⁾ يَقُولُ: 'عَلَى مَدَى تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ الطَّوِيلِ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَسْئَلَةٌ تَسَبَّبَتْ فِي الْمَزِيدِ مِنَ الْمُعَانَاةِ، وَالْاضْطِرَابَاتِ، وَالذَّمَارِ كَتَلِكَ الْأَسْئَلَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِمُنَاطَرَةِ الْكَلِمَاتِ لِلْوَقَائِعِ. وَيَكْفِي مُجَرَّدُ الذِّكْرِ لِكَلِمَاتٍ نَحْوِ 'دِينٍ' وَ'وَطَنِيَّةٍ' وَ'مِلْكِيَّةٍ' بُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ. إِنَّ الْبَحْثَ فِي طَبِيعَةِ التَّنَاطُرِ بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَالْوَاقِعَةِ، بِالْمَعْنَى الْأَوْسَعِ لِهَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ، يُمَثِّلُ

(3) غوتفريد فلهلم لايبنتز (1646-1716م). فيلسوف، وعالم طبيعة، وعالم رياضيات، ودبلوماسي، ومكتبي، ومُحَامٍ، ألماني. أَسَسَ عِلْمَ التَّفَاضُلِ وَالتَّكَامُلِ مُسْتَقِلًا عَنْ نِيوتن. عَاشَ فِي عَصْرِ الْعَقْلَانِيَّةِ وَالتَّنْوِيرِ. مِنْ مَوْقَافَيْهِ: مَقَالَةٌ فِي الْمِيتَافِزِيْقَا، وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ فِي الْفَهْمِ الْإِنْسَانِيِّ. [المُتَرْجِم]

(4) تشارلز ساندروز بيرس (1839-1914م). سيميائي، وفيلسوف أمريكي. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ الْبِرَاغْمَاتِيَّةِ مَعَ وِلْيَمِ جِيمْس. وَيُعَدُّ كَذَلِكَ أَحَدَ مُؤَسِّسِي السِّمِيَاثِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةِ مَعَ دُو سوسير. مِنْ آثَارِهِ: الْمَصَادَفَةُ، وَالْحُبُّ، وَالْمَنْطِقُ - مَقَالَاتٌ فِلْسَفِيَّةٌ، وَابْحُوثُ الْكَامِلَةُ لِتشارلز ساندروز بيرس. [المُتَرْجِم]

(5) جون بيرسفال بوستغيت (1853-1926م). كلاسيكي بريطاني، وأستاذ اللغة اللاتينية في جامعة لُقْرَبُولِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1909 و1920م. [المُتَرْجِم]

المشكلة الخاصة والكبرى في علم المعنى. ومما لا يمكن إنكاره أن لكل كلمة حية جذورها في وقائع وغينا وتأريخنا العقليين، غير أن تحديد ماهية تلك الوقائع أمرٌ مختلفٌ تمامًا. ولا شك في أن التصور البدائي يفيد أن الاسم يشير إلى الشيء أو يصفه. وهذا يستتبع على الفور إمكان الاستدلال على وجود الشيء بحضور الاسم. هذا هو التصور البسيط للأقوام البدائية.

تحت وطأة مثل هذه الحاجة الملحة إلى تحليل واضح للعلاقة بين الكلمات والوقائع بوصفه أساس النظرية المعنوية بالمعنى كان الدكتور بوسغيت نفسه يعي تمامًا أنه في مرحلة ما لا يمكن تجنب التواحي الفلسفية والنفسية لتلك النظرية. حين كتب ذلك في عام (1896م) لم يكن اضطلاع علم الدلالة Semantics بمهمة راب الصنوع أملاً غير معقول. لكن على الرغم من لفت أبحاث السيد بريال Bréal⁽⁶⁾ الانبعاث إلى عدد من الظواهر الرائعة في تاريخ اللغة وإنارتها اهتماماً متجدداً بالإمكانات التعليمية لعلم تاصيل الكلمات Etymology، كانت النتيجة النهائية مخيبة للآمال. وحنينة خيبة الأمل تلك يمكن الوقوف عليها إذا ما نظرنا في الموقف من [2] اللغة المتضمن في النص اللاحق. إن استعمال الكلمات وكأن معانيها ثابتة، واستمرار اللجوء إلى الاستعارات الطليقة، وإضفاء الصفة المادية على المصطلحات الرئيسية، كل أولئك يشير إلى موقف غير مناسب لمقاربة موضوع البحث:

"الأسماء علامات ملحقه بالأشياء: إنها تستعمل تماماً على ذلك القدر من الحقيقة الذي يمكن أن يستعمل الاسم عليه، ذلك القدر الذي يكون بالضرورة، قليلاً بالإضافة إلى حقيقة الشيء. إن أكثر الأسماء ملاءمة لأشياءها إنما هي الأسماء المجردة؛ ذلك بأنها تمثل عملية ذهنية يسيرة.

(6) ميشال جول ألفريد بريال (1832-1915م). فيلولوجي فرنسي. غالباً ما يوصف بأنه مؤسس علم الدلالة الحديث. من آثاره: دراسة أصول ديانة المجوس، وأسطورة أوديب، ومقالة في علم الدلالة. [المترجم]

فَإِذَا مَا اسْتَعْمَلْتُ الْكَلِمَتَيْنِ الْآتِيَتَيْنِ: الْقَابِلِيَّةُ لِلانْضِغَاطِ، وَالْخُلُودُ، فَكُلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ فِي إِحْدَاهُمَا مِنَ الْفِكْرَةِ idea إِنَّمَا يُوجَدُ كَذَلِكَ فِي الْكَلِمَةِ word. لَكِنْ إِذَا مَا تَنَاوَلْتُ كَيْانًا حَقِيقِيًّا، أَيْ شَيْئًا مَوْجُودًا فِي الطَّبِيعَةِ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ مُحَالًا عَلَى اللُّغَةِ أَنْ تُودِعَ الْكَلِمَاتِ كُلَّ الْأَفْكَارِ الَّتِي يُثِيرُهَا هَذَا الْكَيْانُ أَوْ الشَّيْءُ فِي الدَّهْنِ. فَاللُّغَةُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، مُجْبَرَةٌ عَلَى الْاِخْتِيَارِ؛ فَمِنْ بَيْنِ كُلِّ الْأَفْكَارِ تَسْتَطِيعُ اخْتِيَارَ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَط. وَهِيَ، بِذَلِكَ، تَخْلُقُ اسْمًا يَكُونُ عَمَّا قَرِيبٍ مُجَرَّدَ عِلَامَةٍ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْظَى هَذَا الْاسْمُ بِالْقَبُولِ لَا بُدَّ مِنْ امْتِلَاكِهِ، فِي الْأَصْلِ، خَصِيصَةً حَقِيقِيَّةً وَلَا فِتَّةً لِلنَّظَرِ مِنْ جَانِبٍ أَوْ مِنْ آخَرَ؛ إِذْ يَجِبُ أَنْ يُرْضِيَ عُقُولَ الَّذِينَ يُعَرِّضُ عَلَيْهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. غَيْرَ أَنَّ هَذَا الشَّرْطَ لَا يَلْزَمُ إِلَّا فِي الْبِدَايَةِ؛ فَمَا إِنْ يُقْبَلِ الْاسْمُ حَتَّى يَتَخَلَّصَ سَرِيعًا مِنْ دَلَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ هَذِهِ الدَّلَالََةَ قَدْ تُصْبِحُ مَدْعَاةً إِلَى الْإِحْرَاجِ. فَتَسْمِيَاتُ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ دَقِيقَةٍ؛ إِمَّا بِسَبَبِ جَهْلِ الْكُتَّابِ الْأَصْلِيِّينَ، وَإِمَّا بِسَبَبِ تَغْيِرَاتِ طَائِفَةٍ تُفْسِدُ التَّنَاعُمَ بَيْنَ الْعِلَامَةِ وَالشَّيْءِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ تُؤَدِّي الْكَلِمَاتُ الْغَرَضَ نَفْسَهُ كَمَا لَوْ أَنَّهَا دَقِيقَةٌ عَلَى نَحْوِ لَا يَقْبَلُ الْخَطَأَ، حَتَّى إِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُفَكِّرُ فِي تَنْقِيحِهَا. فَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ إِنَّمَا تُقْبَلُ بِمُوَافَقَةٍ ضَمْنِيَّةٍ لَا تَدْخُلُ فِي نِطَاقِ شُعُورِنَا". (Bréal's *Semantics*, pp. 171-2).

مَا الَّذِي يُمَكِّنُ فَعْلُهُ حَقِيقَةً بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي "تَشْتَمِلُ عَلَى" الْحَقِيقَةِ، ذَلِكَ الْقَدْرُ مِنَ الْحَقِيقَةِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَيْهِ اسْمٌ مَا؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ "كُلُّ مَا يُوجَدُ فِي الْفِكْرَةِ أَنْ يُوجَدَ كَذَلِكَ فِي الْكَلِمَةِ"؟ إِنْ تَصَوَّرَ اللُّغَةَ بِوَصْفِهَا "مُجْبَرَةٌ عَلَى اخْتِيَارِ فِكْرَةٍ مَا"، وَبِذَلِكَ تَخْلُقُ "اسْمًا يَكُونُ عَمَّا قَرِيبٍ عِلَامَةً مَا"، لَهَا تَصَوُّرٌ غَرِيبٌ، فِي حِينِ أَنَّ "الدَّقَّةَ" وَ"التَّنَاعُمَ" يُعَوِّزُهُمَا الْوُضُوحُ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهِمَا فِي التَّسْمِيَةِ وَفِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْعِلَامَةِ وَالشَّيْءِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ عَلَى التَّوَالِي. وَمَا مَضَى مِنَ النَّقْدِ لَيْسَ مَحْضٌ قَدَحٌ؛ فَالْعِبَارَاتُ الْمَعْتَرَضُ عَلَيْهَا [3] تُخْفِي الْوَقَائِعَ أَنْفُسَهَا الَّتِي يُعْنَى عِلْمُ اللُّغَةِ the science of language بِإِضَاحِهَا. إِنَّ الْمَهْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِهَذَا

نعلم لا يمكن إنجازها بنجاح ما لم يتوافر الإدراك الناقد للمحاذير التي يتطوي عليها تعبير السائب؛ فمحال معالجة قضية علمية بتعبيرات استيعابية. ولم ترق خبرات نغفلولوجيين في أغلب الأحيان إلى زيادة سيطرتهم على اللغة التحليلية والتجريدية. وقد يكون المناطق مهيتين أكثر من غيرهم في هذا المجال لولا أن مكنتهم اللغوية تنحو إلى أن تخفي عنهم ما يتحدثون عنه، وتجعلهم ميالين إلى قبول البناءات اللغوية المحضّة التي ثلاثم أغراضهم الخاصة، بوصفها حالات نهائية.

إن استياد اللغة العظيم بأولئك الذين يقصدون البحث في ميادينها يتجلى واضحاً في تأملات الراحل دو سوسير F. de Saussure⁽⁷⁾، وهو الكاتب الذي زبما يعدّه جمهور من الطلبة الفرنسيين والسويسريين أول من وضع اللغة على قاعدة علمية. هذا الكاتب يبدأ بالسؤال: "ما موضوع اللسانيات الذي هو في آن واحد متكامل وملموس؟". وهو لا يسأل عن حقيقة امتلاك اللسانيات شيئاً من ذلك، وإنما يطبع إطاعة عمياء الدافع الفطري إلى أن يستنتج من الكلمة شيء ترمز إليه، ثم ينطلق عازماً على العثور عليه. غير أنه يتابع قائلاً: إن اللغة *speech* (*le langage*)⁽⁸⁾ وإن كانت ملموسة بما فيه الكفاية، بوصفها مجموعة أحداث، فهي ليست متكاملة؛ فأصواتها تتضمن حركات كلامية، ولكون الأصوات

(7) فرديناند دو سوسير (1857-1913م). لسانى سويسري. يعد الأب والمؤسس للبنىوية في اللسانيات، ومن أشهر علماء اللغة في العصر الحديث. أتجه نحو دراسة اللغات دراسة وصفية بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية، وقد كانت تدرس من قبل دراسة تاريخية. وكان السبب في هذا التحول الخطير في دراسة اللغة اكتشاف اللغة السنسكريتية. أهم آثاره: دروس في الأنسبة العامة. [المترجم]

(8) في كتاب سوسير (دروس في الأنسبة العامة) ثلاثة مصطلحات كان لها شأن كبير في مجمل الدراسات اللسانية اللاجقة، توجه كلام أوغدين ورتشاردز في المتن إلى اثنين منها هما *la langue* و *le langage*، وأوردنا ثالثها في الهامش وهو *parole*. وقد التزمنا فيها جميعاً إثبات المقابل الإنجليزي الذي أوردته أوغدين ورتشاردز للأصول الفرنسية زيادة على إثبات المقابل العربي لها، بغية تنبيه القارئ العربي على ما قد يعرض من إشكالات بسبب اختلاف أفهام المترجمين العرب عن اللغة الأصلي وتباين أمزجتهم، فضلاً عما قد تسببه الترجمة بالواسطة عبر لغة وسيطة، هي الإنجليزية في مثالنا هذا، من إشكالات. =

والحركات الكلامية جميعاً آلاتٍ للفكرِ فهي تتضمن أفكاراً. وبمضي قائلًا إنَّ للأفكار جانبًا اجتماعيًا كما أنَّ لها جانبًا فرديًا، وفي كُلِّ لحظةٍ تطوُّرٍ للغةٍ على أمرين: نظامٌ مُستقرٌّ، وتطوُّرٌ، "وبذلك، فَمِنْ أيِّ جانبٍ قاربنا السؤالَ لَنَ نَعثرَ في مكانٍ ما على الموضوعِ المُتكامِلِ لِللسانياتِ". ولا يتوقَّفُ دو سوسير عند هذه النقطة لِيَسألَ نفسه: عَمَّ أبحاثُ؟ أو: أَنتُمْ ما يدعُو إلى وجوبِ وجودِ ما أبحاثُ عنه؟ ولكنَّه، بدلًا من ذلك، يُواصلُ السَّيرَ بِطريقةٍ مألوفةٍ في بداياتِ العلومِ جميعًا، فيختَرُ موضوعًا مناسبًا هو ما يُسمِّيه 'la langue' اللسانُ the language، في مقابلِ اللُّغَة. [4] إذ يقولُ: "ما اللسانُ؟ ما نراه هو وجوبٌ عَدَمُ الخلطِ بينه وبين اللُّغَة. إِنَّهُ يُعدُّ الجزءَ المُحدَّدَ منها، وهو جزءٌ أساسيٌّ والحقُّ يُقالُ. إِنَّهُ في آنٍ واحدٍ نتاجُ اجتماعيٍّ لِلملَكَةِ اللُّغَوِيَّةِ ومجموعةٌ مِنَ المُواضعاتِ الصُّروريَّةِ الَّتِي أَقرَّها الكيانُ الاجتماعيُّ لِيُمكنَ الأفرادَ مِنْ مُمارَسَةِ هذهِ الملَكَةِ ... إِنَّهُ كُلُّ في حَدِّ ذاتِهِ ومَبْدَأُ لِلتَّصنيفِ. وما إنْ نَجعلُهُ في المقامِ الأوَّلِ بينَ حقائقِ اللُّغَة حَتَّى نَكُونَ قَدْ أَدخلنا نظامًا طبيعيًا في مجموعةٍ لا تُسلِّمُ نفسها لأيِّ تصنيفٍ آخرَ". واللسانُ، بعدُ، "مجموعُ الصُّورِ اللَّفْظِيَّةِ المُختَزَنةِ لَدَى جَميعِ الأفرادِ ... إِنَّهُ كَثُرَ يَدخِرُهُ الأفرادُ الَّذينَ يَتَمَوَّنَ إلى مجموعةٍ واحدَةٍ مِنْ خلالِ مُمارَسَةِ اللُّغَة. إِنَّهُ نظامٌ نَحويٌّ لَهُ وجودٌ فِعْليٌّ في كُلِّ عَقْلٍ، أو على نَحْوِ أدقِّ في عَقولِ مجموعةٍ مِنَ الأفرادِ؛ إذ إنَّ اللِّسانَ لا يوجَدُ كامِلًا لَدَى أيِّ مِنْهُمْ، بَلْ إنَّ وجودَهُ الكاملَ لا يَكُونُ إلَّا لَدَى المجموعِ".⁽⁹⁾

= وقد اختَرَتِ المُقابِلاتِ العربيَّةُ (اللُّغَة)، و(اللسانُ)، و(الكلامُ)، لِلأصولِ الفرنسيَّةِ le langage، و la langue، و parole، على التَّوالي، لِسَبَبَيْنِ؛ أحدهما: أنَّ مُرادَ سوسيرِ يَتَضَيَّحُ تَمَامًا بِها؛ والآخرُ: أَنَّها اختِيارٌ عَدِيدٌ مِنْ لِسانيِّ المِغْرِبِ العربيِّ المُتَحَصِّينَ مِمَّنْ يَتَّبِعُونَ اللُّغَة الفرنسيَّةَ، وَهِيَ لُغَةُ كِتَابِ سوسيرِ، كالذَّكُورِ عبدِ السَّلامِ المِسدِّيِّ في كِتَابِهِ (قاموسِ اللِّسانياتِ): ص 196، 208، والذَّكُورِ مُصطفى غلفانِ في كِتَابِهِ (اللِّسانياتِ البنيويَّة- مَنهجيَّاتِ وانجَاهاتِ): ص 156. وَلِيَلْحَظْ أنَّ المُقابِلَيْنِ الإنجليزِيَّينِ المُبْتَنِيَّينَ في نَصِّ الكِتَابِ لـ le langage و la langue هُما على التَّوالي speech و language، لِانْفِجارِ اللُّغَة الإنجليزِيَّةِ إلى مُقابِلِ دَقِيقٍ يَقي بِما يَسْتَجِبُ عَلَيْهِ المُصْطَلَحُ الفرنسيُّ la langue. [المُترجم]

ولا شك في أنه قد يتوصل إلى بناء باذخ كاللسان بمنهج اللشنتيت المكثف Method of Intensive Distraction مشابه لذلك الذي يرتبط به اسم الدكتور وايتهيد Whitehead⁽¹⁰⁾، ولكنه مذهش إذا ما نظر إليه بوصفه مبدأ يستأر به في علم ناشئ. وقد ثبت، زيادة على ذلك، أن الإجراء نفسه الذي يقوم على اختراع بيانات لفظية خارج مجال البحث الممكن ذو تأثير كارثي في نظرية العلامات اللاحقة⁽¹¹⁾. [5]

ولم يستطع دو سوسير، بوصفه فيلولوجيا ذا احترام متطوّر للمواضعة اللغوية، أن يحتلّ التلاعب بما تصوّره معنى ثابتاً، جزءاً من اللسان. هذه النظرة

(10) ألفريد نورث وايتهيد (1861-1947م). عالم رياضي، وفيلسوف إنجليزي، كتب في الجبر والمنطق وأسس الرياضيات، وفي فلسفة العلوم والفيزياء والميتافيزيقا والتعليم. أشرف على أطروحة الدكتوراه لبرتراند رسل، وأثر في الفلسفة التحليلية. شارك رسل في تأليف كتاب (مبادئ الرياضيات). [المترجم]

(11) العلامة (sign) عند دو سوسير ثنائية مكونة من مفهوم concept (signifié) وصورة سمعية acoustic image (signifiant)، وكل منهما كيان نفسي. ويؤكد أنه في حال فقدان المفهوم لن تكون الصورة السمعية علامة (ص100). وضرر هذه الأطروحة يكمن، على ما سنرى، في أن عملية التأويل تكون متضمنة في تعريف العلامة. والحق أن دو سوسير فخر بأنه إنما "عرّف الأشياء لا الكلمات". وذكر أن التعريفات المؤسسة بهذه الطريقة "لا يخشى عليها من مصطلحات غامضة معينة لا توافق لغة أو أخرى؛ وهكذا فإن كلمة *sprache* في الألمانية تعني 'اللسان' و'اللغة'... أما في اللاتينية فكلمة *sermo* تدلّ، على الأصح، على اللغة والكلام *parole*، في حين أن كلمة *lingua* تدلّ على 'اللسان'، ولملم جراً. وليست كلمة تناظر تماماً أيّاً من الأفكار المحددة المذكورة آنفاً، وهذا هو السبب في أن أي تعريف يُصاغ ليلائم كلمة ما يكون تافهاً، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء منهج سيئ" (المصدر نفسه: ص32). إن وجهة التعريف المتبناة هنا تتضمن، على ما سيبيّن لاحقاً، إغفالاً مدهشاً للإجراء الطبيعي - أي استبدال رموز مفهومة جيّداً بأخرى غامضة. وعتة أخرى ليمثل هذه السداجة نجدها في رفض مصطلح 'الرمز' *symbol* دالاً على العلامة اللغوية (ص103). 'الرمز' خصيصاً عدم الاعتيادية التامة. إنه ليس فارغاً؛ فهناك بداية لرباط طبيعي بين الدال والمندول عليه. فرمز العدالة والمقاييس لا يمكن استبدال شيء آخر بها على نحو اعتباطي، كأن يكون غربة، على سبيل المثال.

المُتَوَرَّعَةُ لِلاِسْتِعْمَالِ الْخَيَالِيَّةِ 'المقبولة' للكلمات مِيزَةً مألوفةً عند الفيلولوجيين، تَضْرِبُ جُذُورُهَا فِي أَعْمَاقِ سَحِيقَةٍ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، عَلَى مَا سَنَرَى فِي الْفَصْلَيْنِ الْلاحِقَيْنِ. وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ بِخَاصَّةٍ أَنَّ الْعُدَّةَ الثَّقِيَّةَ، وَإِنْ تَكُنْ مُمْتَازَةً فِي الْأَحْوَالِ الْأُخْرَى، ضَعِيفَةٌ جِدًّا فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ التَّمْيِيزَ الْأَوَّلِيَّ لِعِلْمٍ عَامٍّ لِلْعَلَامَاتِ 'السِّمِّيُولُوجِيَا' Semiology⁽¹²⁾، وَهُوَ الَّذِي سَتَكُونُ اللِّسَانِيَّاتُ قَرَعًا لَهُ، وَهِيَ أَهَمُّ فُرُوعِهِ، كَانَ مُحَاوَلَةً قَدْذَةً جِدًّا فِي الْاِتِّجَاهِ الصَّحِيحِ. وَبِسَبَبِ الْإِهْمَالِ التَّامِّ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَيْهَا الْعَلَامَاتُ كَانَتْ نَظَرِيَّةُ الْعَلَامَاتِ هَذِهِ، لِسَوْءِ الْحِظِّ، مَبْتَوًى الصَّلَاةِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ بِكُلِّ مَا يُمْتُّ بِسَبَبٍ إِلَى مَنَاجِجِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيَّةِ. عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْدُو أَنَّ دُوسُويرَ قَدْ تَابَعَ الْمَسْأَلَةَ بَعِيدًا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَجْعَلُ هَذَا الْحَلَّلَ وَاضِحًا. وَالْإِهْمَالُ نَفْسُهُ يَجْعَلُ الْبَحْثَ الْأَحْدَثَ لِلْبَرْوفيسُورِ دِيلاكْرُوا Delacroix⁽¹³⁾ الَّذِي عُنَوَانُهُ اللُّغَةُ وَالْفِكْرُ *le langage et la pensée* غَيْرَ فَعَالٍ كَذَلِكَ بِوَصْفِهِ دِرَاسَةً لِأَثَرِ اللُّغَةِ فِي الْفِكْرِ.

فَقَدْ مُنِنَتْ مُحَاوَلَاتُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْفِيلُولُوجِيِّينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ بِالْإِخْفَاقِ. وَتَبَقِيَ مَجْمُوعَةٌ ثَالِثَةٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ الْمَهْتَمِّينَ بِالنَّظَرِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَهُمْ عُلَمَاءُ الْأَعْرَاقِ الْبَشَرِيَّةِ الَّذِينَ ائْتَجَّهَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى مَوْضُوعِهِ بَعْدَ تَدْرِيبٍ أَوَّلِيٍّ فِي عِلْمِ النَّفْسِ. إِنَّ تَقْدِيمَ بَيَانٍ وَافٍ عَنِ الْأَقْوَامِ الْبِدَائِيَّةِ مُحَالٌ مِنْ غَيْرِ تَبَصُّرٍ بِأَسَاسِيَّاتِ لُغَاتِهِمْ، وَهَذَا

(12) يُسْتَعْمَلُ مُصْطَلَحُ (السِّمِّيُولُوجِيَا)، أحيانًا، لِلإِشَارَةِ إِلَى دِرَاسَةِ الْعَلَامَاتِ عِنْدَ الْمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ يَنْتَمُونَ إِلَى تَرَاثِ دُوسُويرِ الْخَاصِّ بِهَذَا الشَّانِ، وَمِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: رُولَانْ بَارْت، وَلِيْفِي سَتْرُوس، وَجُولِيَا كْرِيسْتِيْفَا. أَمَّا مُصْطَلَحُ (السِّمِّيُولُوجِيَا) فَيُسْتَعْمَلُ أحيانًا لِلإِشَارَةِ إِلَى الْمُفَكِّرِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ دَاخِلَ تَرَاثِ بِيرْسِ الْخَاصِّ، وَمِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: مَورِس، وَأَوَغْدِينْ وَرْتشارْدَز، وَسِيُويُوك. وَيُسْتَعْمَلُ مُصْطَلَحُ (السِّمِّيُولُوجِيَا) أحيانًا لِلإِشَارَةِ إِلَى الدِّرَاسَاتِ الْمَعْنِيَّةِ أَسَاسًا بِتَحْلِيلِ النُّصُوصِ، فِي حِينِ أَنَّ مُصْطَلَحُ (السِّمِّيُولُوجِيَا) يُسْتَعْمَلُ لِلإِشَارَةِ إِلَى الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَتَّخِذُ وَجْهَةً فِلْسَفِيَّةً عَلَى نَحْوِ أَكْبَرِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى نَحْوِ كَبِيرٍ بِوَصْفِهِ مُصْطَلَحًا شَامِلًا يَقْضُمُ كُلًّا مِنَ السِّمِّيُولُوجِيَا وَمَا أَسْمَاهُ بِيرْسُ السِّمِّيُولُوجِيَا. [المُتَرْجِم]

(13) هَنْرِي دِيلاكْرُوا (1873-1937م). سَايْكُولُوجِيٌّ فَرَنْسِيٌّ، وَأَحَدُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ الْفَرَنْسِيِّينَ إِنتَاجًا. مِنْ أَشْهُرِ أَعْمَالِهِ: اللُّغَةُ وَالْفِكْرُ، وَالذِّينُ وَالْإِيمَانُ. [المُتَرْجِم]

ما لا يُمكنُ اكتسابُهُ بِالاقتِصارِ على نقلِ المُمَيَّزَاتِ النَّحْوِيَّةِ الهِنْدُوأُورُوبِيَّةِ الْحَالِيَّةِ، وهو إجراءٌ كَثِيرًا ما يَكُونُ مُضَلِّلًا جَدًّا. في مِثْلِ هذه الظُّروفِ يُفْتَرَضُ أن يُعِيدَ كُلُّ باحِثٍ مِيدَانِيَّ بِنَاءِ النَّحْوِ لِلإِنْسَانِ ما يَدَانِيَّ مُسْتَعِينًا بِمُتَابَعَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ لِسُلُوكِهِ مُتَحَدِّثٍ ما في سِيَاقٍ مُعَيَّنٍ. وهذا، لِسُوءِ الحِظِّ، نَادِرًا ما يُفْعَلُ؛ [6] ذَلِكَ بِأَنَّ ضُعُوبَاتِهِ جَمَّةٌ، وَرُبَّمَا تَسَبَّبَ ما يَغْرِضُ في المِصْطَلَحِ السَّايكُولُوجِيَّ في مِثْلِ اعْمَالٍ في هذا المِجَالِ إلى إِهْمَالِ بِيئَةِ المُتَحَدِّثِ المِلْمُوسَةِ والاقتِصارِ على اعْتِبَارِ 'الأفكارِ' الَّتِي يُنْظَرُ إِلَيْهَا بِوَصْفِهَا 'مُعَبَّرًا عَنْهَا'. وهكذا فإنَّ الدُّكْتُورَ بَوَاز Boas⁽¹⁴⁾، وهو الأَكْثَرُ إِيحَاءَ وَثَائِرًا في مَجْمُوعَةِ عُلَمَاءِ الأَعْرَاقِ البَشَرِيَّةِ المَعْنِيَّةِ بِمَوْضُوعِ البَحْثِ الكَبِيرِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ اللُّغَاتُ الأَمْرِيكِيَّةُ-الهِنْدِيَّةُ، يَصُوغُ ثَلَاثَ نِقَاطٍ يُثَلَّثُ إِلَيْهَا في البَحْثِ المَوْضُوعِيِّ لِلُّغَاتِ:

النُّقْطَةُ الأُولَى: العِناصِرُ الصَّوْتِيَّةُ المُكوِّنَةُ في اللُّغَةِ.

وَالنُّقْطَةُ الثَّانِيَّةُ: مَجْمُوعَاتُ الأَفْكَارِ الَّتِي تُعَبَّرُ عَنْهَا مَجْمُوعَاتٌ صَوْتِيَّةٌ.

وَالنُّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: مَنَهْجُ تَوْحِيدِ المَجْمُوعَاتِ الصَّوْتِيَّةِ وَتَعْدِيلِهَا.

ويقولُ الدُّكْتُورُ بَوَاز: "كُلُّ الكَلَامِ يُقْصَدُ بِهِ أن يُؤَدِّيَ مَهْمَةً تَوْصِيلِ الأَفْكَارِ". على أَنَّ الأَفْكَارَ يَبْعُدُ أن يَصِلَ إِلَيْهَا مَنْ يَطْلُبُهَا مِنَ الخَارِجِ، وَنَحْنُ بِنا حَاجَةً إلى نَظَرِيَّةٍ تَصِلُ الكَلِمَاتِ بِالأَشْيَاءِ مِنْ خِلَالِ الأَفْكَارِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَيْهَا، إن وَجَدَتْ هَذِهِ الأَخِيرَةُ. أَيْ إِنَّ الأَمْرَ يَتَطَلَّبُ تَحْلِيلَاتٍ مُنْفَصِلَةً لِعِلَاقَاتِ الكَلِمَاتِ بِالأَفْكَارِ وَلِعِلَاقَاتِ الأَفْكَارِ بِالأَشْيَاءِ. ثُمَّ إِنَّ القِسْمَ الأعْظَمَ مِنَ اللُّغَةِ، وَلا سِوَمَا اللُّغَةُ البِدَائِيَّةُ، لا يُعْنَى ابْتِدَاءً بِالأَفْكَارِ البَتَّةَ، إِلَّا إذا ضُمَّنَتْ 'الأَفْكَارُ' الانْفِعَالَاتِ وَالْمَوَاقِفَ- وهذا إِجْرَاءٌ يَسْتَلْزِمُ إِشْكَالَاتٍ مُصْطَلَحِيَّةً. إِنَّ إسْقَاطَ جَمِيعِ المَعَالِجَاتِ

(14) فرانز بواز (1858-1942م). أنثروبولوجي ألماني الأصل أمريكي الجنسية. رائدُ الأنثروبولوجيا الحديثة. طَبَّقَ المَنَهْجَ العِلْمِيَّ في دِراسَةِ الثَّقَافَاتِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ. مِنْ أَثَارِهِ: صِلَةُ دَارُون بِالْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا، وَعَقْلُ الرُّجُلِ البِدَائِيَّ، وَالْفَنُّ البِدَائِيَّ، وَالْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا وَالْحَيَاةُ المَعَاصِرَةُ. [المُتَرَجِّم]

المنفصلة للطرائق التي يكون بها الكلام، زيادة على كونه ناقلاً للأفكار، مُعَبِّرًا عن المواقف والرغبات والمقاصد⁽¹⁵⁾ فهو نقطة أخرى ما زال عمل هذه المدرسة النسيطة متخلفاً فيها. [7]

ثم إن هؤلاء المتخصصين جميعاً يخفقون، من وجوه أخرى، في إدراك أوجه النقص في النظرية اللغوية الحالية؛ فبسبب انهماكهم، أي انهماك علماء الأعراق البشرية بتسجيل تفصيلات اللغات المختفية سريعاً، والفيلولوجيين بتقنية مُحَكِّمَةِ اللِّقَوَانِ الصَّوْتِيَّةِ ومبادئ الاشتقاق، والفلاسفة بـ'الفلسفة'، أهملوا جميعاً الحاجة الماسة إلى فهم أفضل لما يحدث في النقاش. إن تحليل عملية التواصل

(15) ليس نقص التعريفات هو ما يسبب تضمين غير الأفكار هنا. وهكذا في واحدة من أكثر الدراسات اللغوية الحديثة اقتداراً وإمتاعاً، وهي التي نهض بها ساير E. Sapir رئيس قسم الأنثروبولوجيا، والمسح الجيولوجي في كندا، وعالم الأعراق البشرية الشديد القرب من المدرسة الأمريكية، تُعرَّف اللغة بأنها 'طريقة إنسانية خالصة وغير عريضة لتوصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز المنشأة طوعاً' (language, 1922, p. 7). ولكن العنصر الانفعالي قليلاً ما يلتفت إليه، حتى أننا نجد من المقرر في دراسة للشكل التحويلي، على ما يظهره التسوُّع الكبير في ترتيب الكلمات في اللاتينية، أن التحوُّل من 'hominem femina videt' إلى 'femina hominem videt' يُحدث 'فرقاً ضئيلاً أو فرقاً زائلاً لا يتعدى الفرق البلاغي أو الأسلوبى'. (ص 65). وما كُتِبَ بالخط المائل إنما هو من فعلنا، أما الكاتب نفسه فليُحْصِ دراسته للرمز المُعَقَّد: المزارع يقتل البطيخة، بقوله: 'هذه الجملة القصيرة ذات الكلمات الثلاث [هي خمس في الإنجليزية. المترجم] تُعبِّر عن ثلاثة عشر مفهوماً متميِّزاً'. (ص 93). إن استعمال مصطلح المفهوم 'concept'، على ما سيلحظ في مرحلة لاحقة، غير مُوقفي بإخاطة في مثل هذا التحليل، وإن المفردة المُعبَّأة كثيراً بالاضطرابات الميتافيزيقية الحالية لا بد من أن تقود إلى نقص في المعالجة.

وبعد أن أصبح ساير مُجَبِّراً على أن يدرج في 'المفاهيم' كلاً من المفاهيم الملموسة- 'الأغراض المادية'، و'المفاهيم العلائقية المحضة' (الطرائق التجريدية للإحالة)، لم يُعَدِّ قَائِداً في عمله هذا- الذي لم يُلْحَق قَطُّ لِسُوءِ الحظِّ بما كان قد حَظَّطَ له من كتاب في الليسانيات- على أن يُنَجِّزَ ولو التمييزات الأساسية في اللغة الرُّمُوزِيَّة (يُنظر: الفصل الخامس، ص 192، فما بعدها)، وسنجد، عند مُعَالَجَتِنَا لِلترجمة (الفصل العاشر، ص 344-345)، أن هذه المفردة قد بُتت عَدَمُ نفعها له هو أيضاً.

سايكولوجي في جُزءٍ مِنْهُ، وقد بَلَغَ عِلْمُ النَّفْسِ الآنَ مَرَحَلَةً تُمَكِّنُ مِنَ الاضْطِلَاعِ بِهَذَا الْجُزْءِ بِنَجَاحٍ. وإلى حِينِ حَدُوثِ ذَلِكَ يَبْقَى عِلْمُ الرَّمْزِيَّةِ science of Symbolism بِالصَّرُورَةِ مُعْطَلًا، وَلَكِنْ لَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ عُذْرٍ لِلْحَدِيثِ الْغَامِضِ عَنْ نَمَعْنَى، وَلِجَهْلِ الطَّرَاقِقِ الَّتِي تَخْدَعُنَا بِهَا الكَلِمَاتُ.

وَمِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْغَرْبِيِّ وَعَرَضِهِ أَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَلْتَمِثُوا كَثِيرًا، وَأَنَّ حَدِيثَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لَيْسَ مَقْبُولًا فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ اللَّطْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ قَوْلَ شَيْءٍ مَا حَتَّى حِينَ لَا يَكَادُ يُوجَدُ مَا يُقَالُ. يَقُولُ الرَّاجِلُ البروفيسور ماهافي Mahaffy⁽¹⁶⁾، الَّذِي نَقُلُ هَذِهِ الْمَلْحُوظَةَ مِنْ كِتَابِهِ مَبَادِئُ فَنِّ الْجَوَارِ Principles of the Art of Conversation: "كُلُّ إِنْسَانٍ مُتَحَضِّرٍ يَشْعُرُ، أَوْ يَجِبُ أَنْ يَشْعُرَ، بِهَذَا الْوَاجِبِ. إِنَّهُ الْإِنْجَازُ الْكُونِي الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُمَارَسَهُ الْجَمِيعُ"، وَالَّذِينَ يُخْفِقُونَ فِي ذَلِكَ يُعَاقَبُونَ بِكُرْهِ الْمَجْتَمَعِ لَهُمْ أَوْ بِإِهْمَالِهِ إِيَّاهُمْ.

لَا شَكَّ فِي أَنَّ ثَمَّةَ فَنًّا مَا فِي قَوْلِ شَيْءٍ مَا حِينَ [8] لَا يُوجَدُ مَا يُقَالُ، غَيْرَ أَنَّهُ يَمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَيْضًا أَنَّ ثَمَّةَ فَنًّا لَا يَقِلُّ عَنْ ذَاكَ أَهْمِيَّةً، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الشَّخْصُ بِوُضُوحٍ مَا يَرَعْبُ فِي قَوْلِهِ عِنْدَ وُجُودِ وَفَرَةٍ مِنَ الْمَادَّةِ، وَنَادِرًا مَا يُخْرِجُ الْجَوَارُ وَلَوْ مُسْتَوَى التَّسْلِيَةِ الذَّهْنِيَّةِ فِي حَالِ عَدَمِ تَوَافُرِ مَتَاهِجِ التَّأْوِيلِ الْكَافِيَةِ كَذَلِكَ.

إِنَّ الرَّمْزِيَّةَ هِيَ دِرَاسَةُ الدَّوَرِ الَّذِي تُؤَدِّيهِ اللُّغَةُ وَالرُّمُوزُ بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا فِي شُؤُونِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا أَثَرُهَا فِي الْفِكْرِ. إِنَّهَا تُفَرِّدُ بِبَحْثِ خَاصِّ الطَّرَاقِقِ الَّتِي تُعِينُنَا بِهَا الرُّمُوزُ عَلَى التَّفَكُّيرِ فِي الْأَشْيَاءِ وَتَعُوِّقُنَا عَنْهُ.

الرُّمُوزُ تُوجِّهُ وَتُنَظِّمُ، تُسَجِّلُ وَتُوصِّلُ. وَبِتَقْرِيرِنَا مَا الَّذِي تُوجِّهُهُ وَتُنَظِّمُهُ، وَتُسَجِّلُهُ وَتُوصِّلُهُ يَنْبَغِي أَنْ نَمَيِّزَ دَائِمًا الْأَفْكَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ⁽¹⁷⁾. إِنَّ الْفِكْرَةَ thought

(16) جون بنتلاند ماهافي (1830-1919م). كلاسيكي إيرلندي. من أشهر آثاره: تاريخ الأدب اليوناني الكلاسيكي، والعصر الفيضي للعالم اليوناني، ومبادئ فن الحوار. [المترجم]

(أو الإحالة *reference*، على ما سَنَعْبُرُ بِهِ عَادَةً)، هي الَّتِي تُوجَّهُ وَتُنْظَمُ، وإِنَّمَا كَذَلِكَ الَّتِي تُسَجَّلُ وَتُوصَّلُ. وَلَكِنْ كَمَا نَقُولُ: البُستَانِي يَحْصِدُ الْحَقْلَ، مَعَ عَلِمِنَا أَنَّ الآلَةَ الْحَاصِدَةَ هي مَا يَقُومُ بِالْقَصِّ، فَكَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَلِمِنَا أَنَّ الْعَلَاةَ الْمَبَاشِرَةَ لِلرُّمُوزِ إِنَّمَا هي بِالفِكْرَةِ نَقُولُ أَيْضًا: إِنَّ الرُّمُوزَ تُسَجَّلُ الْأَحْدَاثَ، وَتُوصَّلُ الْحَقَاقِقَ.

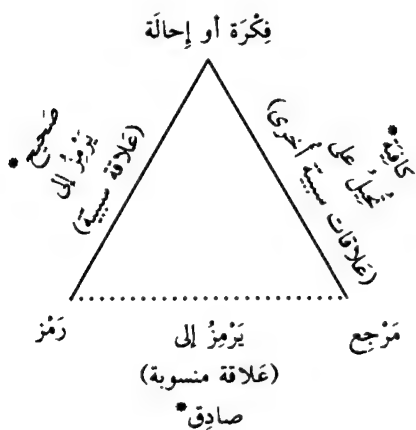
إِنَّ تَحْلِيلَنَا عَنْ عَنَاصِرٍ أَسَاسِيَّةٍ فِي الْحَالِ اللُّغَوِيَّةِ يُسَهِّلُ إِثَارَتَنَا مُشْكِلَاتٍ وَضُعُوبَاتٍ تَتَلَشَّى حِينَ يُرَاعَى الْإِجْرَاءُ كُلُّهُ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ. فَالْكَلِمَاتُ، عَلَى مَا هُوَ مَعْلُومٌ الْآنَ، لَا 'تَعْنِي' شَيْئًا فِي أَنْفُسِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اعْتِقَادَ كَوْنِهَا [9] فَاعِلَةً لِكذلك، عَلَى مَا سَتَرَى فِي الْفَصْلِ الْلاحِقِ، كَانَ فِي زَمَنِ مَا شَانَعَا كَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ. إِنَّ الْكَلِمَاتِ لَا تَرْمِزُ إِلَى شَيْءٍ مَا، أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ: لَا يَكُونُ لَهَا 'مَعْنَى'، إِلَّا حِينَ يَسْتَعْمِلُهَا الْمَفْكُرُ. إِنَّهَا أَدَوَاتٌ فَحَسْبُ. لَكِنْ زِيَادَةً عَلَى هَذَا الِاسْتِعْمَالِ الْإِحَالِيِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ النِّصِيبُ الْأَعْظَمُ فِي كُلِّ اسْتِعْمَالٍ تَأْمُلِيٍّ فِكْرِيٍّ لِللُّغَةِ، لِلْكَلِمَاتِ وَظَانِفُ أُخْرَى يُمَكِّنُ وَضْعُهَا فِي مَجْمُوعَةٍ وَاحِدَةٍ بِوَصْفِهَا وَظَانِفُ انْفِعَالِيَّةٍ. وَأَفْضَلُ اخْتِيَارٍ لِهَذِهِ الْوُظَانِفِ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْصَلَ حِينَ

(17) إِنَّ كَلِمَةَ 'شَيْءٍ' *thing* غَيْرُ مُلَاطَمَةٍ لِلتَّحْلِيلِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ هُنَا؛ لِأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ الشَّانِعِ عَلَى الْأَجْسَامِ الْمَادِّيَّةِ- وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ أَدَّتْ إِلَى إِثَارِ الْفَلَايِفَةِ مُصْطَلَحَاتِ 'كَيَانٍ' *entity*، أَوْ 'كَيْنُونَةٍ' *ens*، أَوْ 'مَوْضُوعٍ' *object*، لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا هُوَ اسْمٌ عَامٌّ لِأَيِّ شَيْءٍ. عَلَى أَنَّهُ بَدَأَ مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ تَقْدِيمُ تَعْبِيرٍ اصْطِلَاحِيٍّ يَرْمِزُ إِلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُفَكِّرَ فِيهِ أَوْ نُحِيلَ عَلَيْهِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا هُوَ الِاسْتِعْمَالُ الْأَصْلِيُّ لِلْفِعْلِ 'مَوْضُوعٍ' *object*، إِنَّ لَهُ تَارِيخًا غَيْرَ سَارٍ. لِذَلِكَ أَفَرَّتْ كَلِمَةُ 'مَرْجِعٍ' *referent* عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ صِيغَتَهَا النَّاصِلِيَّةَ عُرْضَةً لِلتَّسَاوُلِ إِذَا مَا نُظِرَ إِلَيْهَا مُتَعَلِّقَةً بِمُسْتَقَاتٍ تَشَارِكِيَّةٍ أُخْرَى نَحْوِ الْفَاعِلِ *agent* أَوْ الْكَاشِفِ *reagent*. وَلَكِنْ حَتَّى فِي اللَّاتِينِيَّةِ يُبْدِي اسْمُ الْفَاعِلِ أحيانًا (عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ *vehens in equo* [ترجمتها في الإنجليزية *carrying on a horseback*]. الْمُتَرْجِمُ) تَوَعَّا فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْإِحَاحُ عَلَى مُشَابَهَةِ الْأَسْمَاءِ، كَمَا فِي نَحْوِ: 'كَاشِفٍ' *reagent*، وَ'امْتِدَادٍ' *extent*، وَ'وَاحِدَةٍ' *incident*. وَهَكَذَا لَا يَنْبَغِي لِحَقِيقَةِ أَنَّ كَلِمَةَ 'مَرْجِعٍ' *referent* تَرْمِزُ فِيمَا سِيَاتِي إِلَى شَيْءٍ مَا لَا إِلَى شَخْصٍ فَاعِلٍ أَنْ تُسَبَّبَ خَلْطًا.

يَبِينُ إطارُ مُشكِلتِي التَّقريرِ الصَّارِمِ والتَّواصلِ الفِكْريِّ. إِنَّ أَهْمِيَّةَ التَّوَّاحِي الانْفِعَالِيَّةِ بِنِغَةِ لَا تَتَقَلَّصُ بِذَلِكَ، وَكُلُّ مَنْ هُوَ مَعْنِيَّيْ أَساسًا بِكَلَامِ الْعَامَّةِ أَوْ الْبِدَائِيَّيْنَ قَدْ يُنْحَى بِهِ إِلَى أَنْ يَعْكِسَ نِظَامَ الْمَقَارَبَةِ هَذَا. وَالْحَقُّ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَشْكِلاتِ نَتَاجِمَةٍ عَنِ سُلُوكِ الْكَلِمَاتِ فِي أَثْنَاءِ النِّقَاشِ، حَتَّى بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، يُجْبِرُنَا فِي مَرَحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ عَلَى أَنْ نَضَعَ نُصَبَ أَعْيُنِنَا هَذِهِ التَّأثيرَاتِ 'غَيْرِ الرَّمْزِيَّةِ'. وَلَكِنْ مِنْ نُحُلِ تَحْلِيلِ اتِّجَاهَاتِ 'الْمَعْنَى' الَّذِي نَحْنُ مَعْنِيُونَ بِهِ أَصَالَةً هُنَا يُسْتَحْسَنُ الْبَدْءُ بِعَلَاقَاتِ الْأَفْكَارِ thoughts، وَالكَلِمَاتِ words، وَالأشياء things، عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي حَالَاتِ الْكَلَامِ التَّأْمِيلِيِّ الَّتِي لَمْ تُعَقِّدْهَا الْإِزْعَاجَاتُ الْانْفِعَالِيَّةُ أَوْ نَذْلُومَاسِيَّةُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ. وَإِنَّ عَدَمَ الْمَبَاشَرَةِ فِي الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ وَالأشياء هُوَ السَّمةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ الْانْتِبَاهَ أَوَّلًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتِلْكَ الْعَلَاقَاتِ.

وَيُمْكِنُ إِيضَاحُ هَذَا بِسَهُولَةٍ بِمُخَطَّطٍ، تَكُونُ فِيهِ الْعَوَامِلُ الثَّلَاثَةُ، الْحَاضِرَةُ كُلَّمَا أُنْشِئَ كَلَامٌ تَقْرِيرِيٌّ أَوْ فَهْمٌ، مَوْضُوعَةٌ فِي زَوَايَا مُثَلَّثٍ، وَالْعَلَاقَاتُ الَّتِي تَصِلُ بَيْنَهَا مُمَثَّلَةٌ بِأَضْلَاعِهِ. وَالنَّقْطَةُ الَّتِي كُنَّا أَنْفًا بِصَدْدِهَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَادَ صَوْغُهَا بِالْقَوْلِ: إِنَّ قَاعِدَةَ الْمَثَلَّثِ تَكُونُ، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، مُخْتَلِفَةٌ جِدًّا فِي تَرْكِيبِهَا عَنْ كُلِّ مِنَ الضَّلْعَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

فَالْعَلَاقَاتُ بَيْنَ الْفِكْرَةِ thought وَالرَّمْزِ symbol تَكُونُ سَبَبِيَّةً. فَالرَّمْزُ الَّذِي نَسْتَعْمِلُهُ حِينَ نَتَكَلَّمُ تُسَبِّبُهُ جُزْئِيًّا الْإِحَالَةَ الَّتِي نُنْشِئُهَا، وَجُزْئِيًّا الْعَوَامِلُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالتَّنْفِيسِيَّةُ - الْغَرَضُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نُنْشِئُ الرَّمْزَ، وَالْأَثَرُ الْمُفْتَرَضُ [10] لِرُمُوزِنَا فِي الْآخَرِينَ، وَمَوْقِفُنَا نَحْنُ. وَحِينَ نَسْمَعُ مَا يُقَالُ تُسَبِّبُ الرُّمُوزُ لَنَا أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَدَاءُ فِعْلٍ إِحَالِيٍّ، وَالْآخَرُ: اتِّخَاذُ مَوْقِفٍ يَكُونُ، اسْتِنَادًا إِلَى الظُّرُوفِ، مُشَابِهًا تَقْرِيْبًا لِفِعْلِ الْمَتَكَلِّمِ وَمَوْقِفِهِ.



وثمة علاقة أيضًا بين الفكرة thought والمرجع referent مباشرة تقريبًا (كما في حالة تفكيرنا في سطح ملوّن نراه أو شهودنا له)، أو غير مباشرة (كما في حالة 'تفكيرنا' بنابوليون أو 'إحالتنا' عليه)، وفي هذه الحالة قد تكون هناك سلسلة طويلة جدًا من الأحوال العلامية التي تتخلل بين الفعل ومرجعه، نحو: كلمة- تاريخي- سجل معاصر- شاهد عيان- مرجع (نابوليون).

أما بين الرّمز symbol والمرجع referent فلا توجد علاقة ذات صلة سوى العلاقة غير المباشرة التي تكمن في أنّ شخصًا ما يستعمله لتمثيل مرجع ما. أي إنّ الرّمز والمرجع غير مرتبطين ارتباطًا مباشرًا (وحيث نستعمل ضميرًا هذه العلاقة لأسباب نحوية لن تكون إلا علاقة منسوبة⁽¹⁸⁾ [11] في مقابل العلاقة الحقيقية)، وإنما ارتباطهما غير مباشر حول ضلعي المثلث⁽¹⁹⁾.

* يُنظر: الفصل الخامس، ص 193-194.

(18) يُنظر: الفصل السادس، ص 210.

(19) ثمة حالة استثنائية، وذلك حين يكاد الرّمز المستعمل يكون مماثلًا على نحو مباشر للمرجع الذي يستعمل من أجله، ويمكن أن يحدث ذلك، مثلاً، حين يكون كلمة دالة =

قد يبدو غير ضروري الإصرار على أن لا ارتباط مباشرًا بين كلمة 'كَلْب'، مثلاً، وأشياء شائعة معينة في شوارعنا، وأن الارتباط الوحيد الذي يصح هو الذي يكمن في استعمالنا للكلمة عند إحالتنا على الحيوان. على أننا سنجد أن نمط التبسيط الذي يمثله ما كان حيناً من الدهر نظرية شاملة لعلاقات المعنى المباشرة بين الكلمات والأشياء هو مُضدُّ كل الصعوبات تقريباً التي يواجهها الفكر. إن القدرة على العرقلة والتعويق التي تنطوي عليها مثل هذه التبسيطات سببها الأساسي، على ما سيظهر في مرحلة لاحقة، ظروف التواصل؛ فلكي تستعمل اللغة لا بُدَّ من أن تكون آلة جاهزة، وقرب تناول العبارة وسهولتها أهم دائماً من دقتها عند تقدير إمكان استعمالها استعمالاً واسعاً.

وهكذا فإن الاختزال المتمثل في كلمة 'يعني' means يستعمل دائماً لتضمين علاقة مباشرة مُبسَّطة بين الكلمات والأشياء، والعبارات والأحوال. وإذا ما أُقرَّت مثل هذه العلاقات فمن المؤكَّد أنه لن تكون هناك أية مشكلة بشأن طبيعة [12] المعنى، وأن الجمهور العريض من المعنيين بها سيكون مُحققاً في رفضه مناقشتها. غير أن الكثير من التطورات المثيرة للاهتمام قد حدثت في العلوم من خلال نبذ

= صوتياً، أو صورة، أو لِمَاءة، أو رَسْمًا، فحينئذٍ يكتُمِلُ المثلث؛ إذ يَزُوْدُ بِقَاعَدَتَيْهِ، ويحصلُ تَبْسِيطٌ عَظِيمٌ لِلْمُشْكَلَةِ الْمَعْنِيَّةِ. من أجل ذلك جَرَتْ مُحَاوَلَاتٌ كَثِيرَةٌ لَتَقْلِيصِ حَالِ اللُّغَةِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ إِلَى هَذَا الشَّكْلِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ أَكْثَرُ بَدَائِيَّةً. إِنَّ كَوْنَهُ أَكْثَرُ اكْتِمَالاً يُعْلِلُ، بِلا شَكٍّ، الْأَفْضَلِيَّةَ الْهَائِلَةَ فِي الْكِفَايَةِ لِللُّغَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي حَقْلِهَا الْمَلَامِ عَلَى اللُّغَاتِ الْأُخْرَى غَيْرِ الْمَعْرُوزَةِ بِالْإِيمَاءِ فِي حَقُولِهَا. مِنْ هُنَا يَكُونُ عَلَمُنَا بِحَادِثٍ مَا بِإِعَادَةِ تَمَثِيلِهِ جَيِّدًا أَكْمَلَ بِكَثِيرٍ مِنْهُ بِمَجْرَدِ وَصْفِهِ. وَلَكِنْ فِي الْحَالَةِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ يَبْنِي أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ مُثَلَّثَنَا مُجَرَّدٌ مِنْ قَاعَدَتَيْهِ، وَأَنْ لَا عِلَاقَةً مُبَاشِرَةً نَصَحُّ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالْمَرْجِعِ، بَلْ إِنَّ مُعْظَمَ مُشْكِلَاتِ اللُّغَةِ يَنْشَأُ مِنْ هَذَا النِّقْصِ. إِنَّ اللُّغَاتِ الْمَحَاكِيَّةَ وَغَيْرَ الْمَحَاكِيَّةَ مُتَمَايِزَةٌ تَامًّا مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ، فَالرَّمْزُ إِلَى شَيْءٍ مَا وَتَمَثِيلُهُ عِلَاقَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ. عَلَى أَنَّ مِنَ الْمَرِيجِ التَّحَدُّثُ أَحْيَانًا كَمَا لَوْ أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ مُبَاشِرَةٍ نَصَحُّ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالْمَرْجِعِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَقُولُ، قِيَاسًا عَلَى آلَةِ جَزِّ الْمُثَنَّبِ، إِنَّ رَمَزًا مَا يُحِيلُ عَلَى مَرْجِعٍ مَا. وَإِذَا مَا اشْتَرَطَ عَدَمَ نِسْبَانِ الطَّبِيعَةِ الْمُتَرَاكِبَةِ لِلْعِبَارَةِ فَلَنْ يَتَحَتَّمُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ خَلْطٍ. وَيُقَدَّمُ الذُّكُورُ مِنَ الْوَسْطِيِّ مَالِ الْوَسْطِيِّ فِي الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْمُلْحَقِ الْأَوَّلِ، فَمَا بَعْدَهُ، لِهَذَا الْكِتَابِ تَقْرِيرًا قِيمًا عَنْ تَطَوُّرِ الْحَالَةِ الْكَلَامِيَّةِ فِي ضَوْءِ الْمَخْطُطِ الْمُبَيَّنِ آتِيًا.

الترميزات اليومية والسعي إلى إحيال البيانات الدقيقة محلها، إلى الحد الذي لم يمكن معه أن تشيع في ذلك الحين أية نظرية ساذجة فحوها أن 'المعنى' هو 'المعنى' فحسب. والحقائق الجديدة التي تكون على خلاف هائل مع التفسيرات المقبولة لحقائق أخرى، عادة ما يحتاج إليها قبل القيام بالتحليلات النقدية لما يُعد، عموماً، أفكاراً سهلة مُفنيعة. وهذا ما حدث في الثورات الحديثة في الفيزياء. ولكن زيادة على ذلك كانت الحاجة إلى مقاومة عظيمة للتسليم بما هو نسيجٌ وحيو، مما لا يمكن تبين ضروريته⁽²⁰⁾، قائمة قبل أن تُصبح فكرة التزامن simultaneity الطبيعية السهلة، مثلاً، بوصفها علاقة ذات طرفين، موضع شك. على أن النظرية النسبية كانت نتيجة لتساؤلات كهذه. إن الباعثين أنفسهم، أحدهما الحقائق الجديدة المتعارضة، والآخر كراهة استعمال الأنواع الغامضة من الكيانات في الاحتمال للتفسيرات، أدباً إلى اضطرابات في علم النفس، وإن لم تكن البيانات المعدلة المطلوبة قد جهزت بعد. ولما تحدث بعد ثورة كوبرنيكية، وإن كانت الحاجة قائمة إلى عدد منها إذا ما أُريد جعل علم النفس على خط واحد مع ما هو صنو له من العلوم.

على أن مما يجدر أن يلاحظ أن النشاطات الحديثة في علم النفس غيّت أساساً، إن لم تقل تماماً، بالشعور والإرادة. إن النجاح العام للتحليل النفسي مال إلى صرف الانتباه عن مشكلة التفكير القُدَمى. ومع ذلك، فيقدر تعلق الأمر بما للتقدم هنا من نتائج ظاهرة في كل العلوم الأخرى وفي آلية البحث كلها في علم النفس نفسه، ربّما كانت مشكلة المعرفة أو 'المعنى' المركزية هذه أجدر بأنعام النظر، وأكثر احتمالاً لتأسيس توجهات جديدة من كل ما قد يقترح في هذا المجال. وهذه القضية، على ما أشار إليه السلوكيون أيضاً بدقّة كبيرة، [13] وثيقة الارتباط باستعمال الكلمات.

غير أن ما تقتضيه مقارنة المعنى من بحث مُستقص في اللغة أكبر بكثير مما تقتضيه مقارنة مشكلات كمشكلات الفيزياء. إن أي تقدم عظيم في الفيزياء كان

(20) تمثل الأمكنة والازمنة حالات نموذجية للكيانات ذات الأصول اللفظية.

على حسابِ جُزْءٍ مَقْبُولٍ عُمُومًا مِنْ تَفْسِيرٍ مِيتافِيزِيْقِي حَافِظٌ عَلَى نَفْسِهِ فِي اخْتِزَالِ زَمَنِيٍّ مُرِيحٍ يُمارِسُهُ الْعَالَمُ أَجْمَعُ. لَكِنَّ التَّخْلِيْطَ وَالتَّعْوِيْقَ النَّاشِئَيْنِ مِنْ تَعْبِيرَاتِ اخْتِزَالِيَّةٍ كَهَذِهِ وَمِنْ النِّظَرِيَّاتِ السَّادِجَةِ الَّتِي تَحْمِيهَا وَتُبْقِيهَا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ أَعْظَمُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ، وَلَا سِيَّما فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَمَا هُمَا عَلَيْهِ فِي أَيِّ مَجَالٍ آخَرَ؛ إِذْ مَا مِنْ مُشْكِلَةٍ مُلَوَّنَةٍ بِمَا يُدْعَى صُعُوبَاتِ مِيتافِيزِيْقِيَّةٍ كَمَا هِيَ الْحَالُ هُنَا- وَهِيَ نَاشِئَةٌ هُنَا، عَلَى مَا هُوَ مُعْتَادٌ، مِنْ مُقَارَبَةٍ لِسُؤَالٍ مَا مِنْ خِلَالِ الرُّمُوزِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ مَبْدُئِيٍّ فِي وَظَائِفِهَا.

عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نَنْظُرَ بِمَزِيدٍ مِنَ الدَّقَّةِ فِي مَا هِيَ الْأَسْبَابُ وَالتَّنَاتِجُ لِلرُّمُوزِ⁽²¹⁾؛ فَهَمَا تَكُنِ الْمَنَافِعُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا التَّرْمِيزُ، غَيْرُ مُهِمَّةِ الْحَافِظَةِ وَالاحتِجَازِ، فَكُلُّ مَا لَدَيْنَا مِنْ خَبْرَةٍ يُظْهِرُ أَنَّ لَهُ أَضْرَارًا أَيْضًا. فَقَدْ شَخَّصَتْ صُورٌ أَشْنَعُ لِلتَّخْلِيْطِ اللَّفْظِيِّ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، لَكِنَّ اهْتِمَامًا أَقَلَّ قَدْ وُجَّهَ إِلَى الصُّوَرِ الَّتِي هِيَ أَدْقُ وَأَكْثَرُ تَكَرُّرًا. وَسَيَقْدَمُ عَدَدٌ مِنَ الْأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ فِي الْفُصُولِ الْلاحِقَةِ، اخْتِيارٌ مُعْظَمُهَا مِنْ حُقُولِ الْفَلَسَفَةِ؛ فَفِيهَا تُصْبِحُ مِثْلُ هَذِهِ التَّخْلِيْطَاتِ، بِمَرُورِ الزَّمَنِ، ظَاهِرَةً جَدًّا. وَسَنَسْتَبِيعُ جُذُورَ الْمَشْكِلَةِ وَصُولاً إِلَى خُرَافَةِ أَنَّ الْكَلِمَاتِ، عَلَى نَحْوِ مَا، أَجْزَاءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْ تَتَضَمَّنُ دَائِمًا الْأَشْيَاءَ الَّتِي نُنَاطِرُهَا، مُقَدِّمِينَ شَوَاهِدَ تَارِيخِيَّةٍ مِنْ عِدَّةِ مَصَادِرَ لِهَذَا الْاِعْتِقَادِ الَّذِي مَا زَالَ غَرِيزِيًّا فَعَالًا. [14] أَيِ إِنَّ الْمُغَالَطَةَ الْأَسَاسِيَّةَ مِنْ بَيْنِ الْمُغَالَطَاتِ وَأَكْثَرُهَا خِصْبًا هِيَ أَنَّ قَاعِدَةَ الْمَثَلِ الْمُبْتَدِ أَنْفًا مَمْلُوءَةٌ.

إِنَّ اكْتِمَالَ آيَةٍ إِحَالَةٍ يَتَفَاوَتْ؛ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاضِحٌ تَقْرِيْبًا، وَهُوَ "يَمْسِكُ" بِمَوْضُوعِهِ بِدَرَجَةٍ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ. وَالتَّرْمِيزُ الْمَصَاحِبُ لَهُ- كَالصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ،

(21) إِنَّ تَحْدِيدَ مَدَى ضَرُورَةِ الرُّمُوزِ، بِشَكْلٍ أَوْ بِآخَرَ، لِلْفِكْرِ نَفْسِهِ مُشْكِلَةٌ صَعْبَةٌ، وَهَذَا مُنَاقَشٌ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ كِتَابِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْسِ *The Meaning of Psychology*، وَفِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا كَذَلِكَ. لَكِنْ مِنَ الْمَوْكَّدِ أَنَّ تَوْثِيقَ الْفِكْرِ وَتَوْصِيلَهُ (إِذَا وَضَعْنَا التَّخَاظُرَ telepathy جَانِبًا) يَتَطَلَّبَانِ رُمُوزًا. وَيَبْدُو أَنَّ فِي إِمْكَانِ الْفِكْرِ، بِقَدْرِ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِكُونِهِ نَشَاطًا مُتَعَدِّيًا وَلَيْسَ فِي هَيَاةٍ جَوَارٍ دَاخِلِيٍّ، الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الرُّمُوزِ، وَأَنَّ الرُّمُوزَ لَا تَظْهَرُ إِلَّا حِينَ تَتَّخِذُ الْفِكْرَةَ شَكْلَ هَذِهِ الْمَنَاجَاةِ الذَّائِيَّةِ. وَفِي الْحَالَةِ الْاِعْتِيَادِيَّةِ يَكُونُ الطُّورُ الْفَعْلِيُّ لِلْفِكْرِ وَثِيقَ الْاِرْتِباطِ بِالتَّرْمِيزِ الْمَصَاحِبِ لَهُ.

والكَلِمَاتِ، والجُمْلِ التَّامَّةِ والمَجْزُوءَةِ- غَيْرِ مُرْتَبِطِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا مَلْحُوظًا بِتَفَاوُثِ اكْتِمَالِ الإِحَالَةِ. لِذَلِكَ مَا دُمْنَا غَيْرَ قَادِرِينَ فِي أَيِّ نِقَاشٍ عَلَى أَنْ نُحَدِّدَ مَبَاشَرَةَ رَأْيِ شَخْصٍ مَا مِنْ خِلَالِ تَعْلِيقَاتِهِ فَإِنَّ بِنَا حَاجَةً إِلَى آلِيَّةٍ تُبْقِي أَطْرَافَ النِّقَاشِ مُتَّصِلَةً وَتُزِيلُ الأَخْطَاءَ فِي الفَهْمِ- أَوْ، بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، إِلَى نَظَرِيَّةٍ لِلتَّعْرِيفِ. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُبَدِّلَ بِمِثْلِ هَذِهِ الآلِيَّةِ إِلَّا نَظَرِيَّةٌ لِلْمَعْرِفَةِ، أَوْ لِلإِحَالَةِ، تَتَجَبَّبُ، كَمَا لَا تَفْعَلُ النَّظَرِيَّاتُ الْحَدِيثَةُ، عَزَوْ قُدْرَاتِ إِلَى الْعَارِفِ قَدْ يَسْرُهُ افْتِرَاضُهُ امْتِلَاقَهَا، لَكِنَّهَا فِي غَيْرِ مُتَنَاوَلِ النُّوعِ الْوَحِيدِ مِنَ الْبَحْثِ الْمَتَابِعِ بِفَائِدَةٍ حَتَّى الْآنَ، وَهُوَ النُّوعُ الْمَعْرُوفُ عُمُومًا بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ.

مِنْ الْمُعْتَادِ أَنَا كُلَّمَا سَمِعْنَا شَيْئًا مَا يُقَالُ فَقَرْنَا تَلْقَانِيَا إِلَى اسْتِنْتَاجِ قَوْرِيٍّ، هُوَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُجِيلُ عَلَى مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نُجِيلَ عَلَيْهِ لَوْ كُنَّا نَحْنُ أَنْفُسُنَا مَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ. فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ قَدْ يَكُونُ هَذَا التَّأْوِيلُ صَحِيحًا، وَيَبُتُّ أَنَّ هَذَا هُوَ مَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ يُجِيلُ عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ فِي مُعْظَمِ النِّقَاشَاتِ الَّتِي تُعَالِجُ مَا هُوَ أَعْظَمُ دِقَّةً مِمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَالَجَ فِي لُغَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ. إِنَّ افْتِرَاضَ خِلَافِ ذَلِكَ يَعْنِي إِهْمَالَ لُغَاتِنَا الْإِيْمَانِيَّةِ الْفَرَعِيَّةِ الَّتِي هِيَ، فِي إِطَارِ عَوَالِمِهَا الْمَحْدُودَةِ، أَكْثَرُ دِقَّةً بِكَثِيرٍ مِمَّا قَدْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ حَتَّى الْآنَ أَيُّ نِظَامٍ لِلرُّمُوزِ الْمَنْطُوقَةِ أَوْ الْمَكْتُوبَةِ، مَا عَدَا الْحَالَةَ الْخَاصَّةَ وَالْمُمَيَّزَةَ جِدًّا لِلرُّمُوزِ الرِّيَاضِيَّةِ⁽²²⁾، وَالْعِلْمِيَّةِ، وَالْمُوسِيقِيَّةِ. وَمَا دَامَتِ الْكَلِمَاتُ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى أَنْ تَتَحَالَفَ مَعَ الْإِيْمَانِيَّاتِ وَعَلَى أَنْ تُعَزِّزَ أَنْفُسَهَا بِهَا فَهِيَ، فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ، وَسِيلَةٌ تَوَاضَعُ نَاقِصَةٌ جِدًّا. وَحَتَّى عِنْدَ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِالتَّفَكُّيرِ الشَّخْصِيِّ [15] فَإِنَّ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا مَا تَكُونُ مُهَيَّأَةً لِلتَّقَدُّمِ، وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا خِيَانَتُهُ رَمَزِيَّتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ، وَلَأَغْرَاضِ الْحَوَارِ يَعْرِضُ النُّطَاقُ الْمَكْتُسَبُ نَفْسَهُ دَائِمًا لِكُلِّ مَنْ يَأْتِي بِمُحَاوَلَاتٍ جَادَّةٍ لِلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْأَرَءِ.

وَلَيْسَ فِي مَنَظُونِنَا هُنَا الطَّرَائِقُ الْمَأْلُوفَةُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا الَّتِي قَدْ تُسْتَعْمَلُ الْكَلِمَاتُ بِوَسَاطِئِهَا لِلتَّضْلِيلِ. وَفِي فَصْلِ لَاحِقٍ، عِنْدَ الْمُنَاقَشَةِ الْكَامِلَةِ لِمَوْظِيفَةِ اللُّغَةِ

(22) نِسْبَةً إِلَى عِلْمِ الرِّيَاضِيَّاتِ mathematical . [الْمَرْجَمُ].

يُوصِفُهَا آلَةٌ لِإِنْشَاءِ الْأَغْرَاضِ أَكْثَرَ مِنْهَا وَسِيلَةً لِلرَّمْزِ إِلَى الْإِحَالَاتِ، سَتَرَى كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يُعَقَّدَ قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ الْحَالَةَ. لَكِنْ رُبَّمَا لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ الْمُحْتَرَمُ مُهَيَّأً لِلْمَدَيَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُسَاقَ إِلَيْهَا الْبَرَاعَةُ اللَّفْظِيَّةُ. وَقَدْ اسْتَعْلَلَ هَذِهِ الْإِمْكَانَاتِ إِلَى الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ مُؤَوَّلُو الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ التَّقْيِضِينَ. هُنَا، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، عَيْنَةُ تَفْسِيرِيَّةٍ لِلرَّاحِلِ الدُّكْتُورِ لِيْمَانِ أَبُوتِ Lyman Abbott⁽²³⁾ الْقَسْ، وَالْحَبِيرِ فِي الْقَانُونِ الدَّوْلِيِّ، وَالنَّاشِرِ، وَقَدْ أَصْحَبَ الْآنَ بِفَضْلِ جُهُودِ السَّيِّدِ أُوبْتُونِ سِنْكَلِيرِ Upton Sinclair⁽²⁴⁾ أَثَرًا كِلَاسِيكِيًّا. هَلْ تُؤَدِّي الْمَسِيحِيَّةُ أَسَالِيبَ تَدْبِيرِ الْمَوَارِدِ الْمَالِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؟ لَا شَكَّ فِي وُجُودِ بَضْعِ كَلِمَاتٍ صَعْبَةٍ الْمِرَاسِ فِي الْأَنَاجِيلِ، لَكِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ 'التَّأْوِيلِ' هُوَ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ.

لَمْ يَقُلِ الْمَسِيحُ: 'لَا تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا عَلَى الْأَرْضِ'، بَلْ قَالَ: 'لَا تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزًا عَلَى الْأَرْضِ، حَيْثُ يُفْسِدُ الشُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ'،⁽²⁵⁾. وَلَكِنْ مَا مِنْ أَمْرِيكِيٍّ عَاقِلٍ يَقَعْلُ ذَلِكَ. إِنَّ الشُّوسَ وَالصَّدَأَ لَا يَعْرِضَانِ لِأَبَارِ السَّيِّدِ رُوكَفِلَرِ Rockefeller⁽²⁶⁾

(23) لِيْمَانِ أَبُوتِ (1835-1922م). فِيلَسُوفٌ وَلاهُوتِيٌّ. ابْنُ الْكَاتِبِ وَالْمُؤَرِّخِ يَعْقُوبِ أَبُوتِ. أَنْهَى سَنَةَ 1853 دِرَاسَةَ الْقَانُونِ فِي جَامِعَةِ نِيُيُورِكِ، وَحَصَلَ عَلَى إِجَازَةٍ فِي الْقَضَاءِ سَنَةَ 1856، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى دِرَاسَةِ الْإِلَاهُوتِ، فَتَخَرَّجَ سَنَةَ 1860. مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِهِ: التَّعْلِيقُ الْمَوْضُوعُ عَلَى الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، وَمَا النَّصْرَانِيَّةُ؟، وَحَيَاةُ الْمَسِيحِ، وَمُشْكِلاتُ الْحَيَاةِ. [الْمُتَرَجِمُ]

(24) أُوبْتُونِ بِيْلِ سِنْكَلِيرِ الْابْنِ (1878-1968م). مُؤَلِّفٌ أَمْرِيكِيٌّ، رُشِّعَ مَرَّةً وَاحِدَةً لِمَنْصِبِ حَاكِمِ كَالِفُورْنِيَا. كَتَبَ مَا يُقَرَّبُ مِنْ أَلْفِ كِتَابٍ فِي مُخْتَلِفِ الْمَجَالَاتِ. حَقَّقَ شَعْبِيَّةً فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ مِنْ خِلَالِ رَوَايَتِهِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ الَّتِي عَنَوَانُهَا (الْأَدْعَالُ)، وَالَّتِي تَسَبَّبَ كَشْفُهَا عَنْ أَوْضَاعٍ فِي قِطَاعٍ تَعْبَثُ لِلْحُومِ فِي غَضَبٍ فِي أَوْسَاطِ الشَّعْبِ أَسَهَمَ فِي إِقْرَارِ قَانُونِ الْأَطْعَمَةِ وَالْعَقَاقِيرِ النَّقِّيَّةِ وَقَانُونِ فَحْصِ اللَّحْمِ سَنَةَ 1906 بَعْدَهَا بِيضَعَةً أَشْهُرًا. [الْمُتَرَجِمُ]

(25) إِنْجِيلُ مَتَّى: 6 / 19. [الْمُتَرَجِمُ].

(26) جُونِ دَبْيُفِدَسْنِ رُوكَفِلَرِ (1839-1937م). يُعْرَفُ أَيْضًا بِجُونِ د. رُوكَفِلَرِ الْأَبِ تَمْيِيزًا لَهُ =

النَّفْطِيَّةِ، وَلَا يَعْمَدُ السَّارِقُونَ كَثِيرًا إِلَى نَقَبِ سِكَّةِ الْحَدِيدِ وَسَرِقَتِهَا. فَمَا أَدَانَهُ الْمَسِيحُ إِنَّمَا هُوَ ادِّخَارُ الثَّرْوَةِ*.

لِذَلِكَ كَانَ فِي الْإِمْكَانِ الْحُكْمُ عَلَى أَيِّ اسْتِثْمَارٍ وَعَلَى كُلِّ كَسْبٍ عَالَمِيٍّ، اسْتِثْنَاءً إِلَى وَاحِدٍ مِنْ قَادَةِ كُهُنِ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ، مِنْ خِلَالِ مِيزَاتِهِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ قَانُونٍ قَاسٍ وَمُتَّعَجِّلٍ. وَإِذَا مَا تَخَلَّصَ الْعِلْمُ مِنَ السُّوسِ وَالصَّدَا فِيهِ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَلَّا يَكُونَ لَدَى الْمُسْتَمْتِرِ الْمَسِيحِيِّ مُشْكِلَةً، وَلَكِنْ فِي غُضُونِ ذَلِكَ يَبْدُو أَنَّ النَّفْطَ الْمَعَالِجَ بِالْكَافُورِ يُنْجِزُ مُعْظَمَ الْمَتَطَلِّبَاتِ الْإِجْمَالِيَّةِ تَقْرِيْبًا، فَالْلُّصُوصُ غَيْرُ مُوَلَّعِينَ [16] بِهِ، وَهُوَ لَعْنَةٌ عَلَى السُّوسِ، وَخَطَرُ الصَّدَا مَعَهُ مَامُونٌ تَمَامًا.

وَيَتَّصِلُ بِهَذَا اتِّصَالًا وَثِيقًا مَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ الْبَرَاعَةِ اللَّفْظِيَّةِ، هُوَ اسْتِعْمَالُ الرُّمُوزِ الْمُتَعَمِّدِ فِي تَضْلِيلِ الْمُسْتَمِعِ. وَثَمَّةُ أَعْدَادٌ مَعْرُوفَةٌ لِهَذِهِ الْمُمَارَسَةِ فِي حَالَةِ الْمَجْنُونِ الَّذِي نَرَعُبُ فِي أَنْ نُخْفِيَ عَنْهُ مَكَانَ مُوسَى الْجِلَافَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ ثَمَّةَ مُحَاوَلَاتٍ لِتَسْوِيقِ أَوْسَعِ لِلْأَمْرِ. فَنَحْنُ نَسْمَعُ فِي الْعَهْدِ الْمَسِيحِيِّ عَنْ "تَزْيِيفَاتٍ لِيُونَانِيٍّ، وَاخْتِلَافَاتٍ لِأَسَاطِيرَ، وَتَزْوِيرَاتٍ لِكُلِّ وَصِفٍ جَعَلَ الْكَنِيسَةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ مَقْرَأً حَقِيقِيًّا لِلْكَذِبِ"⁽²⁷⁾. وَرُخِّصَ فِي اللَّعِبِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْمُتَكَلِّمُ عَلَى مَعْنَى مُعَيَّنٍ، وَيَقْصِدُ بِهَا مَعْنَى آخَرَ لِلْمُسْتَمِعِ⁽²⁸⁾. وَالْحَقُّ أَنَّ أَلْفُونْسُو دِي لِيغُورِي Alfonso de Liguori⁽²⁹⁾، الَّذِي أُنْزِلَ مَنَازِلُ

= مِنْ ابْنِهِ جُون د. روكفلر الابن (1874-1960م). كَانَ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَاعِيِّينَ فِي أَمْرِيكََا، وَأَدَّى دَوْرًا مَحُورِيًّا فِي تَأْسِيسِ صِنَاعَةِ النَّفْطِ. وَوَعْدُ بِلَا جِدَالٍ أَمَّهُ رَجُلُ أَعْمَالٍ فِي تَارِيخِ صِنَاعَةِ النَّفْطِ مِنْذُ أَطْلَاقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ سَنَةَ 1859 حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا. [المُتَرَجِم]

Westermarck, *The origin and development of moral ideas*, Vol. II., P. 100. (27)

Alagona, *Compendium Manualis D. Navarri* XII., 88, P. 94. (28)

(29) أَلْفُونْسُو مَارِيَا دِي لِيغُورِي (1696-1787م). أَسْقَفٌ كَاثُولِيكِيٌّ إِيْطَالِيٌّ، وَكَاتِبٌ رُوحَانِيٌّ، وَفِيلَسُوفٌ مَدْرَسِيٌّ. مِنْ أَمَمِ أَعْمَالِهِ: الْوَسِيلَةُ الْعُظْمَى لِلصَّلَاةِ، وَمُمَارَسَةُ حُبِّ يَسُوعِ الْمَسِيحِ. [المُتَرَجِم]

القديسين في القرن التاسع عشر، كان قد ميّز ثلاثة أنواع من المراوغات التي يُمكن استعمالها في حال وجود سبب وجيه⁽³⁰⁾، وهو "أيّ عرض صادق، كمُحافظتنا على مصالحنا، وبنية كانت أو دنيوية"⁽³¹⁾. وفي القرن العشرين زاد اشتداد النزعة الوطنية القتالية 'سببا وجيها' آخر؛ ذلك بأن القانون العسكري يتضمن كل الإجراءات مع المعادي من الدول أو الأفراد بوصفها جزءا من عملية المحافظة على المصالح الدنيوية والدنيوية. وفي زمن الحرب تغدو الكلمات جزءا طبيعيا من آلية الخداع، وقد لحّص اللورد وولسلي Wolseley⁽³²⁾ أخلاقيات الحالة على نحو مُلائم بقوله: "سنظل نردّد إيماننا بأنّ 'الصدق خير سياسة'، وبأنّ الغلبة تكون دوماً للصدق على المدى البعيد. فلهذه الجملة الجميلة فغلها الحسن في دفتر الطفل، لكنّ الرجل الذي يتصرّف بموجيها في الحرب يحسن به أن يُعيد سيفه إلى الأبد"⁽³³⁾. [17]

وكان الإغريق، على ما سنرى، غير بعديين، بطرائق شتى، عن موقف الرجل البدائي من الكلمات. وليس بمستغرب أن نقرأ أنّ الآليات اللفظية للسلام بعد الحرب البيلوبونيزية Peloponnesian war⁽³⁴⁾ أصبحت عاطلة تماماً، ولم تُمكن إعادتها للاستعمال على ما يقول ثوسيديديس Thucydides⁽³⁵⁾؛ إذ إنّ

(30) Alfonso de Liguori, *Theologia Moralis*, III., 151, Vol. I., P. 249.

(31) Meyrick, *Moral and devotional theology of the church of Rome*, V. I. P. 3. Cf. further Westermarck, loc. Cit.

(32) الفيلد مارشال غارنت جوزيف وولسلي (1833-1913م). ضابط أنغلو-إيرلندي في الجيش البريطاني. خدّم في بورما وحرب القرم والصين وكندا، وشارك في قمع ثورة الهند سنة 1875، وفي حملات بريطانية متعددة في إفريقيا. تولى منصب القائد العام للقوات البريطانية بين سنتي 1895 و1900. [المترجم]

(33) *Soldier's pocket book for field service*, P. 69.

(34) الحرب البيلوبونيزية: اندلعت بين سنتي 431 و403 ق.م بسبب التوسعات الاستعمارية والتجارية لأثينا على حساب كورنث حليفة إسبارطة. وما كتبه ثوسيديديس هو أكبر مرجع يُعتمد عليه لهذه الحرب. [المترجم]

(35) ثوسيديديس (460-395 ق.م). مؤرّخ إغريقي مشهور، صاحب كتاب (تاريخ =

"معاني الكلمات لم تعد لها العلاقة نفسها بالأشياء، وإنما بدلها الناس على النحو الذي رأوه ملائماً". فلم يكن للإغريق قبل بمواجهة مثل هذه الحالة. ويبدو أننا، بما أوتينا من حكمة، قد أوجدنا أغرافاً نجعلنا بعد أكثر عجزاً⁽³⁶⁾.

وبمقياس أقل ضخامة يمكن أن تُدرس آلية التضميل المتعمد دراسة تنظر في مقاييس التصحيح. ومن خلال إيضاح مرامي كتاب نيومان Newman⁽³⁷⁾ الذي عنوانه قواعد التصديق Grammar of assent⁽³⁸⁾ كان للدكتور أبوت E. A. Abbott⁽³⁹⁾ فرصة ليصف عملية 'التزيت'، أي فن تزيت النزول من المقدمات

= الحرب البيلوبونيسية)، ويُعد أول المؤرخين الإغريق الذين أولوا العوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة. وقع عليه عبء الكتابة عن حقبة شاذة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها. وكان أول من وصف المناعة؛ إذ أصيبت أثينا بالطاعون ولحظ الذين أصيبوا به وشقوا منه أن المرض لم يعد إليهم. [المترجم]

(36) عُبِّرَ عن هذا جيّد الرّاجلُ مونتاغ C. E. Montague بقوله (Disenchantment, P. 101): "إن الشيء الجديد الوحيد بشأن الخداع في الحرب هو ما لدى الإنسان المعاصر من وسيلة أكمل لممارسته. فقد أصبح الشيء في يده بوقاً أكثر فاعلية من بوق جيديون Gideon... وفي مُتناوله ما أرادَ له أن يكون ندّاً لمدفع لويس Lewis الذي يُطلق به الآن حمّة الصلدة، وهي الصحافة يُطلق بها على رأس العدو ما لا يلمس أو يحس به". لكن، هل كان هذا استعمالاً مؤقّتاً لآلية التضميل المعاصرة، وبعودة السلم فُقدت هذه العادة؟ يجيب السيد مونتاغ بأن الأمر ليس كذلك؛ إذ "إن أي سلاح تستعمله في حرب ما يُخلف فائزاً ليشدد في السلم، وسلاح الدعاية له تكلفته كأى سلاح آخر". إن عودة مستغلي المايكة اللغظية إلى مناصبهم المذبذبة لتهي عودة انتصار، وسئلتم نتائجها عدة سنوات في جميع الدول التي تبقى فيها سلطة الكلمة وسط الجماهير هي الغلبا.

(37) جون هنري نيومان (1801-1890م). شخصية مهمة في التاريخ الديني لإنجلترا في القرن التاسع عشر. عُرف على الصعيد الوطني بحلول منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر. ولما كان في الأصل أكاديمياً إنجيلياً في أوكسفورد، وكاهناً في كنيسة إنجلترا، كان رائداً للتقدم في حركة أوكسفورد. من مؤلفاته: مقالات في المعجزات، والربح والخسارة، ومقالة في تأييد قواعد التصديق، وتطور الغلط الديني. [المترجم]

(38) الاسم الكامل للكتاب هو (مقالة في تأييد قواعد التصديق An Essay in Aid of Grammar of Assent). [المترجم]

(39) إدوين أبوت أبوت (1838-1926م). ناظر مدرسة ولاهوتي إنجليزي، وهو الابن =

المنطقية إلى الاستنتاج، الذي يستعمله بطريقة ملائمة جدًا سميّه المشار إليه آيفاً⁽⁴⁰⁾. فمن أجل تزييت جيد لا بدّ من توافر شروط مختلفة:

«أولها: تمييز جيد للكلمات يُمكنك من تشكيل سهل وطبيعي لعدد كبير من القضايا propositions المتدرجة جيدًا، التي تتحوّل تدريجيًا، إن جاز التعبير، من الجزم بأن 'X هو أبيض' إلى الجزم بأن 'X هو أسود'. وثانيها: ازدياد داخلي ومطلق للمنطقي والكلمات... فهل الكلمات سوى لعب وحلويات للصغار البالغين الذين يسمون أنفسهم رجالاً؟»⁽⁴¹⁾.

ولكن حتى حيث تكون المراجع الحقيقية غير مشكوك فيها قد يضعُ إدراك المَدَى الذي تنتشر فيه [18] عادة استعمال سلطة الكلمات غير مقتصرة على التواضلات الصادقة وإنما بوصفها أسلوب تضليل. وفي عالم كعالم اليوم يُحتمل أن يُضلل المؤول الساذج تضليلًا خطيرًا في مناسبات كثيرة إن أغفل وجود هذه الميزة غير السارة التي تسود الطبقات والجمهير على حد سواء من غير تمييز ليعرق، أو عقيدة، أو جنس، أو لون.

على أننا في كل كتابنا هذا إنما نعالج التواضل الصادق فحسب، ما عدا القدر الذي رأينا من الضروريّ معه أن نناقش في الفصل التاسع الاستعمال الفرعي للمعنى الذي يسببه التضليل. أما ما يتعلق بغير ذلك فإن الخداع اللفظي الذي يعيننا يقتصر على ما يدخل في استعمال الرموز على هذا النحو. وإذا ما واصلنا فحص ظروف التواضل فسرى سبب كون أية عُدّة رمزية عامّة الاستعمال عرضة للنقص والخلل.

= الأكبر لإدون أبوت. درس وتعلّم في كمبرج. أشهر مؤلفاته: رواية (الأرض المسطحة)، وكتاب (فيلوميثوس - الثرياق المضاد لسرعة التصديق: مناقشة لِمَقَالَةِ الكاردينال نيومان في المعجزات الكنسية). [المترجم]

(40) أي: الدكتور ليمان أبوت Lyman Abbott. [المترجم].

لَكِنْ إِنْ تَكُنْ عُدَّتَا اللُّغَوِيَّةُ عَرَّازَةً فِيهِ، مَعَ ذَلِكَ، لَا غِنَى عَنْهَا، وَكَذَلِكَ لَنْ تَتَحَسَّنَ الْأُمُورُ، بِالصَّرُورَةِ، بِوُجُودِ عُدَّةٍ أُخْرَى كَامِلَةٍ وَلَوْ كَانَ كَمَالُهَا مُضَاعَفًا عَشْرَ مَرَّاتٍ. وَلَيْسَتْ الْكَلِمَاتُ الْجَدِيدَةُ هِيَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ دَائِمًا، وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى وَسِيلَةٍ لِضَبْطِهَا بِوَصْفِهَا رُمُوزًا، وَسِيلَةً لِلْكَشْفِ الْقَوْرِيِّ عَمَّا تُحِيلُ عَلَيْهِ عَادَةً فِي الْعَالَمِ فِي آيَةٍ مُنَاسِبَةٍ، وَهَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ تُمَدَّنَا بِهِ نَظَرِيَّةُ تَعْرِيفٍ وَافِيَةٍ.

بَيَدَ أَنَّ نَظَرِيَّةَ التَّعْرِيفِ يَجِبُ أَنْ تَلْبِي نَظَرِيَّةَ الْعَلَامَاتِ لَا أَنْ تَسْقِهَا، وَقَلِيلًا مَا يُدْرِكُ كَمْ هُوَ وَاسِعُ الْمَحَلِّ الَّذِي تَشْغُلُهُ الْأَحْوَالُ الْعَلَامِيَّةُ فِي الْفِكْرِ التَّجْرِيدِيِّ وَفِي الشُّوْنِ الْعَمَلِيَّةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. لَكِنْ إِنْ أُريدَ لِأَطْرُوحَةِ بِشَانِ الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ أَنْ تَكُونَ عِلْمِيَّةً فَيَنْبَغِي أَنْ تَأْخُذَ مَلْحُوظَاتِهَا مِنْ أَكْثَرِ الْأَمْثِلَةِ مُنَاسِبَةٍ، وَأَلَّا تَسْتَمِدَّ مَبَادِئَهَا الْعَامَّةَ مِنْ حَالَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ. إِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي يُؤَوِّلُ الْعَلَامَةَ فِعْلًا لَا يَقِفُ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ الَّذِي يُتِيحُ لَهُ أَنْ يَلْحَظَ مَا يَحْدُثُ. لِذَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُثْنِي نَظَرِيَّتَنَا لِلْعَلَامَاتِ اسْتِنَادًا إِلَى مَا نَلْحَظُهُ فِي الْآخَرِينَ، وَأَلَّا نَقْبَلَ الدَّلِيلَ الْمُسْتَقَى مِنَ الْإِسْتِطْطَانِ⁽⁴²⁾ إِلَّا حِينَ نَعْلَمُ كَيْفَ نُقَوْمُهُ. إِنَّ تَبْنِي الطَّرِيقَةِ الْأُخْرَى عَلَى أُسَاسٍ أَنَّ كُلَّ مَا نَعْرِفُهُ عَنْ [19] الْآخَرِينَ مُسْتَنْبَطٌ وَمِمَّا نَعْرِفُهُ عَنْ أَنْفُسِنَا يُمَكِّنُ أَنْ يُؤَدِّيَ فَقَطْ إِلَى مَا زَوِيَ الْأَنَاوَحِدِيَّةِ solipsism⁽⁴³⁾ الَّذِي يَنْبَغِي لِلْفِكْرِ

(42) الْإِسْتِطْطَانُ: طَرِيقَةٌ ذَاتِيَّةٌ فِي فَهْمِ الْأَحْدَاثِ أَوْ الظَّوَاهِرِ وَتَفْسِيرِهَا، كَانَتْ تُمَثَّلُ الْمَنْهَجَ السَّائِدَ حَتَّى مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، إِذْ كَانَ الْقَرْدُ يَتَأَمَّلُ مَا يَجْرِي فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ مِنْ عَمَلِيَّاتٍ شُعُورِيَّةٍ. فَهَذَا الْمَنْهَجُ يَعْتَمِدُ عَلَى دِرَاسَةِ الْمَرءِ مَشَاعِرَهُ وَذَاتَهُ وَتَأَمُّلِ مَا يَدُورُ فِيهَا مِنْ عَمَلِيَّاتٍ. [الْمُتَرْجِمُ]

(43) الْأَنَاوَحِدِيَّةُ solipsism: كَلِمَةٌ مَنْحُوْتَةٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ لَا تَبِينَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا solus ومعناها (مُفْرَدٌ)، وَالْأُخْرَى ipse ومعناها (ذَاتٌ). وَهِيَ الْفِكْرَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي فَحَوَاهَا أَنَّ عَقْلَ الْفَرْدِ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الْمَوْكَّدُ الْوُجُودِ. وَتَذَعُّبُ الْأَنَاوَحِدِيَّةِ، بِوَصْفِهَا مَوْقِفًا مَعْرِفِيًّا، إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ أَيِّ شَيْءٍ خَارِجَ عَقْلِ الْفَرْدِ غَيْرُ مَوْكَّدَةٍ. فَالْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ وَالْعُقُولُ الْأُخْرَى لَا تُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا، وَرَبَّمَا لَا يَكُونُ لَهَا وَجُودٌ خَارِجَ عَقْلِ الْفَرْدِ. وَهِيَ تَذَعُّبٌ، بِوَصْفِهَا مَوْقِفًا مِيتَافِيزِيْقِيًّا، إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ تَرَى أَنَّ الْعَالَمَ وَالْعُقُولَ الْأُخْرَى لَا وَجُودَ لَهَا. فَعَلَى ذَلِكَ تَكُونُ، بِمَا تَذَعُّبُ هِيَ نَفْسُهَا، الْمَوْقِفَ الْمَعْرِفِيَّ الْوَحِيدَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ تَفْنِيدَهُ وَلَا إِثْبَاتَهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. [الْمُتَرْجِمُ]

المعاصر أن ينكص عنه. والذين يتقبلون من غير جدال فكرة أن ثمة أناسا مثلهم مؤولين للعلامات كذلك ومنفتحين للبحث لن يجدوا صعوبة في الإقرار بأن مراقبتهم سلوك الآخرين قد يهين، في الأقل، إطارا يمكن أن يودع فيه استيطانهم الشخصي، تلك الحالة الخاصة والمضلة. وكون ما سبق هو ما تمارسه العلوم جميعا لا يكاد يحتاج إلى أن يلفت النظر إليه؛ فحين يبتلى أي طبيب عاقل بالمرض لا يثق بتشخيصه الاستيطاني الشخصي ويطلب مشورة زميل له.

والحق أن ثمة أسبابا وجيهة تفسر لِم يتوارى عنا جزئيا ما يحدث في دواخلنا، وأنا، في العموم، حكاما على ما يفعله الآخرون خير منا حكاما على ما نفعله نحن أنفسنا. وقبل أن نعيم النظر في ما في رؤوس الآخرين كان الاعتقاد السائد هو أن ثمة كيانا يدعى النفس يسكنها، تماما كما يعتقد الأطفال عادة أن في داخل الجمجمة رجلا صغيرا ينظر عند الأعين، نوافذ الروح، ويسمع عند الأذان. ويمتلك الطفل الدليل الاستيطاني الأقوى لذلك الاعتقاد الذي لولا المباحض والمجاهر لصعبت رزحته. إن الافتراض الأنا وحيي الضمني الذي مفاده أن هذه المقاربة على نحو ما ضرورة منهجية ليجرد معظم الأبحاث الفلسفية والسايكولوجية من حقيها في التأويل. فلو أننا قصرنا موضوع البحث على 'الأفكار' والكلمات، أي: على الجانب الأيسر من مثلثنا، وأغفلنا كل تمييز صريح للعالم الخارجي، لقدّمنا، حثما، تخطيطا في موضوعات نحو: المعرفة في الإدراك الحسي، والتحقق، والمعنى نفسه⁽⁴⁴⁾. [20]

ولو أننا وقفنا في جوار مفترق طرقي، وراقبنا أحد المشاة وهو يواجه بلافتة مكتوب فيها: إلى غرانتشستر *To Granchester* موضوعة على عمود، لميزنا، عادة، ثلاثة عوامل مهمة في هذه الحال. فلا شك في أن ثمة (1) علامة، (2)

(44) تُلحظ هذه النزعة بخاصة في أعمال كرسالة بالدون Baldwin المفصلة في الأفكار والأشياء، حيث يصعب التوفيق بين جهاز سايكولوجي لـ 'التحكمات' و'المحتويات'، والمطالبة السابقة بمناقشة التواصل. إن الانعطاف في التحليل التحوي الذي سببه إغفال أرسطو المشابه للإحالة معالج في التذييل A.

تُجِلُّ عَلَى مَكَانٍ، وَ(3) يُؤَوَّلُهَا شَخْصٌ مَا. وَجَمِيعُ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُرَاعَى فِيهَا الْعَلَامَاتُ مُشَابِهَةٌ لِهَذَا. إِذْ يُقَالُ عَنِ الطَّيِّبِ الَّذِي يَلْحَظُ أَنَّ مَرِيضَهُ مُصَابٌ بِالْحُمَى وَمَا إِلَيْهَا إِنَّهُ شَخْصٌ مَرَضُهُ بِأَنَّهُ التَّرْلَةُ الْوَافِدَةُ influenza. وَكَلَامُنَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَا يَتَضَيَّحُ مِنْهُ أَنَّ الْعَلَامَاتِ طَرَفٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كَذَلِكَ. بَلْ إِنَّمَا، حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَعْرَاضِ symptoms⁽⁴⁵⁾، كَثِيرًا مَا لَا نُفَكِّرُ فِيهَا عَلَى أَنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَجْمُوعَاتٍ أُخْرَى مِنَ الْعَلَامَاتِ. لَكِنْ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الطَّيِّبَ يُؤَوِّلُ الْحُمَى، وَمَا إِلَيْهَا، بِأَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلتَّرْلَةِ الْوَافِدَةِ، فَإِنَّمَا، عَلَى آيَةٍ حَالٍ، نَضَعُ أَنْفُسَنَا عَلَى طَرِيقِ التَّسْأُلِ: أَلَمْ تَهْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ السُّلُوكِ الَّذِي عَامِلٌ بِهِ الْمَاشِي الشَّيْءَ الَّذِي عِنْدَ مُفْتَرِقِ الطُّرُقِ، وَالسُّلُوكِ الَّذِي عَامِلٌ بِهِ الطَّيِّبُ مِحْرَارُهُ وَالْمَحْيَا الْمُتَوَرِّدُ؟

فَالْفَحْصُ الدَّقِيقُ يَبَيِّنُ أَنَّ الْكَثِيرَ جِدًّا مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي لَا نَعُدُّهَا فِي الْعَادَةِ أَحْوَالًا عِلْمِيَّةً إِنَّمَا هِيَ، أَسَاسًا، ذَوَاتُ طَبِيعَةٍ مُمَازِلَةٍ لَهَا. فَالْكِيمِيَاءِيُّ يَغْمِسُ وَرَقَةً عَبَادِ الشَّمْسِ فِي أُنْبُوبَةٍ الْاِخْتِبَارِ ثُمَّ يُؤَوِّلُ عَلَامَةَ اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ أَوْ عَلَامَةَ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ بِأَنَّهَا تَعْنِي الْحَامِضِيَّةَ أَوْ الْقَاعِدِيَّةَ. وَيَلْحَظُ نَبِيٌّ عِبْرَانِيٌّ غَيْمَةً سَوْدَاءَ صَغِيرَةً، فَيَعْلَقُ بِقَوْلِهِ: "سُتْمِطِرُ السَّمَاءُ". وَنُتِمُّعُ لِيْسِنِغ Lessing⁽⁴⁶⁾ النَّظَرَ فِي لَأُكُوْنِ Laocoön⁽⁴⁷⁾، فَيَسْتَتِجُ أَنَّ قَسَمَاتِ لَأُكُوْنِ الْأَبِ فِي حَالَةٍ اسْتِرْخَاءٍ. وَتَنْظُرُ تَلْمِيزَةُ نِيوزِلَنْدِيَّةٌ فِي حُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ فِي صَفْحَةٍ فِي نُسَخَتِهَا مِنَ الْمُقَرَّرِ التَّارِيخِيِّ لِلْمَرَاكِزِ

(45) الْأَعْرَاضُ هُنَا جَمْعُ (عَرَضٍ). [الْمُتَرَجِّمُ].

(46) غُوتُولِدُ إِفْرَايِمُ لِيْسِنِغ (1729-1781م). كَاتِبٌ، وَفِيلَسُوفٌ، وَكَاتِبٌ مَسْرُوحِيٌّ، وَنَاقِذُ الْمَنَانِيِّ. أَحَدُ مُمَثِّلِي عَصْرِ النُّوْبَرِ. أَثَّرَتْ مَسْرُوحِيَّاتُهُ وَكُتَابَاتُهُ النَّظَرِيَّةُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي تَطَوُّرِ الْأَدَبِ الْأَلْمَانِيِّ. مِنْ أَتَارِهِ: لَأُكُوْنُ - مَقَالَةٌ فِي حُدُودِ الرَّسْمِ وَالشُّعْرِ، وَالْمُفَكِّرُ الْحُرُّ، وَالْيَهُودُ، وَتَعْلِيمُ الْبَشَرِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(47) لَأُكُوْنُ: شَخْصِيَّةٌ فِي الْأَسَاطِيرِ الْإِغْرِيقِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ. وَكَانَتْ قِصَّةُ لَأُكُوْنِ مَوْضُوعَ مَسْرُوحِيَّةٍ سُوْفُوكْلِيْسِ (ضَاعَتِ اللَّعْبَةُ الْآنَ)، وَذَكَرَهَا كُتَّابُ إِغْرِيقِيٍّ آخَرُونَ. وَقَدْ قِيلَ لَأُكُوْنُ كَاهِنٌ طُرُودَةٌ فِي الْقِصَّةِ بَعْدَ مُحَاوَلَةِ لِفْضَحِ حِيلَةٍ حِصَانِ طُرُودَةٍ بِضَرْبِهِ بِالرُّمَحِ؛ إِذْ أُرْسِلَ بُوْسِيدُونُ الشَّعَابِينِ الَّتِي عَذَّبَهَا الطُّرُودَاثِيُونَ بُرْهَانًا عَلَى أَنَّ الْحِصَانِ كَانَ كَائِنًا مَقْدَسًا. وَالْوَصْفُ الْأَكْثَرُ شُهْرَةً لِهَذِهِ الْأَحْدَاثِ هُوَ فِي (الْإِنْبَاءَةِ) لِغِيرْجِيل. لَكِنْ هَذَا بَدَأَ عَلَى الْأَرْجَحِ بَعْدَ أَنْ اكْتَمَلَ عَمَلُ التَّمَثَالِ النَحْتِيِّ الرُّخَامِيِّ الْكَلَّاسِيكِيِّ الَّذِي يُظْهِرُ =

الابتدائية، فتعلم أن الملكة آن Anne ميتة.

إنّ منهج تمييز السمة المشتركة في التأويل العلاميّ⁽⁴⁸⁾ له محاذيره، غير أنّه

= لاكون وابناءء وهم يهاجمهم ثعبان بحر مخيف. وفي الوقت الذي يبدو فيه الألم واضحاً على مُحَيّا لاكون، أعيد تقويم تفسير قسمايه على مرّ الزمن وعلى نحو متواصل من وجهات نظر تاريخية مختلفة. أما علاقة ليسنج بهذه الشخصية الأسطورية فتمثل في كتابه الأشهر (لاكون- مقالة في حدود الرسم والشعر) الذي تجلّت فيه أهميّة ليسنج بوصفه ناقدًا أدبيًا؛ إذ يفت في هذا الكتاب بالصّد من الميل إلى اتّخاذ أثر هوراس (ينطبق على الرسم ما ينطبق على الشعر) بوصفه منظورًا للدّيب. أي إنّهُ عبارة أخرى اعترض على محاولة كتابة الشعر باستعمال الإجراءات أنفسيها التي تُنتج في الرسم. فقد تبّى بدلاً من ذلك وجهة النظر التي ترى أن لكلّ من الشعر والرسم طابعه الخاص؛ فامتداد الشعر في الزمان، وامتداد الرسم في المكان. وقد يكون مرّد ذلك إلى انعطاف ليسنج من الكلاسيكية الفرنسيّة إلى المُحاكاة الأرسطيّة. أما سبب إثبات ليسنج اسم لاكون في عنوان كتابه فقد بيّنه بما ذكره من أنّه لَمّا كان قد استشهد به في غير موضع من الكتاب أحبّ أن يكون له من العنوان نصيب. [المترجم].

(48) في جميع هذه الحالات أُولّت علامة ما صوابًا أو خطأ، أي أنّ شيئًا ما لم يُكتَف بتجربته أو الاستمتاع به، وإنّما فهم بوصفه مُجَيلاً على شيء آخر. فكلّ ما أمكنت تجربته أمكن فهمه على هذا النحو كذلك، أي أمكن كذلك أن يكون علامة. ومن المهمّ أن نتذكّر أنّ عمليّة التأويل أو ما يحدث للمؤوّل ما (أو في ذهنيّه) مُتَمَيّز تمامًا من كلّ من العلامة ومما ترمز إليه العلامة أو تُجَيّل عليه. فإذا ما تحدّثنا، إذن، عن معنى علامة ما فَيَجِب علينا ألا نخلط، على ما يميل إلى فعله الفلاسفة وعلماء النفس والمناطق، العلاقة المُنسوبة بين علامة ما وما تُجَيّل عليه، إمّا بالمُرجع (ما يُحال عليه)، وإمّا بعملية التأويل (الـ'ماجريات' في ذهنيّ المؤوّل). وهذا النوع من الخلط هو الذي جعل العمل السابق الكثير في موضوع العلامات ومعناها غير مُثْمِر. وباستعمال الفلاسفة مُصطلح 'المعنى' نفسه بِخاصّة في كلّ من الـ'ماجريات' في داخل رؤوسهم (الصوّر، والتّصاحيات، وما إليها، التي مكّنتهم من تأويل العلامات)، والمراجع (الأشياء التي تُجَيّل عليها العلامات)، أُجبروا على أن يَضَعُوا غرائشيستر، والزُّكام، والملكة آن، والكون كلّهُ حقًا، على حدّ سواء في داخل رؤوسهم- أو، إذا ما أفرغهم مشهد الاكتظاظ الدماغي 'في عقولهم' في الأقلّ، على النحو الذي نصّح به كلّ هذه الأغراض 'ذهنيّة' على نحو مُلائم. فلذلك ينبغي أن نكون على حذرٍ شديد عند استعمال مُصطلح 'المعنى' ما دامت تداعياته خطيرة.

يَفْتَحُ [21] الطَّرِيقَ لِمُعَالَجَةِ جَدِيدَةِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ اخْتِلَافًا وَاسِعًا.

وَيُمْكِنُ الْاسْتِشْهَادُ بِالْمَوْضُوعِ الْمُعَالَجِ فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ مِثَالًا لِمُنَاسَبَةِ تَكُونُ فِيهَا نَظَرِيَّةُ الْعَلَامَاتِ ذَاتِ نَفْعٍ خَاصٍّ. وَإِذَا مَا عَلِمْنَا أَنَّ الْأَحْوَالَ الْعَلَامِيَّةَ تَدْخُلُ فِي كُلِّ إِدْرَاكِ حِسِّيٍّ، بِوَصْفِهِ مُمَيِّزًا مِنْ مُجَرَّدِ الرَّغْبِيِّ، كَانَ لَدَيْنَا مِنْهَجٌ جَدِيدٌ لِمُقَارَبَةِ الْمَشْكَلَاتِ الَّتِي يَنْشَأُ فِيهَا إِخْفَاقٌ لَفْظِيٌّ تَامٌّ؛ فَنَحْنُ كُلُّ حِينٍ 'نَتَصَوَّرُ' فِيهِ مَا نُسَمِّيهِ 'كُرْسِيًّا' نَكُونُ مُؤَوَّلِينَ لِمَجْمُوعَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْمُعْطَيَاتِ (تَعْدِيلَاتِ الْأَعْضَاءِ الْحِسِّيَّةِ)، وَمُعَالِجِينَ إِيَّاهَا بِوَصْفِهَا عِلَامَاتٍ لِمَرْجِعٍ. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ يُوجَدُ، حَتَّى قَبْلَ تَأْوِيلِ كَلِمَةٍ مَا، مَا يَقْرُبُ مِنَ التَّأْوِيلِ الْآلِيِّ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الصَّوْضَاتِ أَوْ الْحُرُوفِ الْمُتَابِعَةِ بِأَنَّهَا كَلِمَةٌ. وَبِمَكْنَا بِوَسَاطَةِ آلِيَّةٍ جَدِيدَةٍ أَنْ نَسْتَكْشِفَ أَيْضًا، زِيَادَةً عَلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، الْأَحْوَالَ الْعَلَامِيَّةَ اللَّازِمَةَ مِنَ الْأَحْدَاثِ الذَّهْنِيَّةِ، الَّتِي هِيَ 'مَاجَرِيَاثُ' 'goings on' التَّأْوِيلِ، أَوْ عَمَلِيَّاتُهُ أَنْفُسُهَا. وَلَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى التَّعْميمَاتِ الْاِعْتِبَاطِيَّةِ لِلْاِسْتِبطَانِ سَيْرًا عَلَى دَرْبِ عِلْمِ النَّفْسِ الْكَلَّاسِيكِيِّ، وَلَا إِلَى إِنْكَارِ وُجُودِ صُورٍ وَأَحْدَاثٍ 'ذَهْنِيَّةٍ' أُخْرَى لِعِلَامَاتِهَا مُتَابَعَةً لِمُتَطَرَفِي السُّلُوكِيِّينَ⁽⁴⁹⁾. إِنَّ فَرْضِيَّةَ اللُّغَةِ الْمَزْدُوجَةِ الَّتِي اقْتَرَحَتْهَا نَظَرِيَّةُ الْعَلَامَاتِ وَأَيَّدَهَا التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ سَتَجْعَلُ الدُّكْتُورَ وَاطْسَن⁽⁵⁰⁾ Watson وَمُتَابِعِيهِ [22] فِي حِلٍّ مِمَّا تَسْتَلْزِمُهُ نَظَرِيَّتُهُمْ اسْتِلْزَامًا ضَرُورِيًّا مِنْ اِفْتِعَالِ فَقْدَانِ الْحِسِّ الْعَامِّ anaesthesia. فَالْصُّورُ، وَمَا إِلَيْهَا، كَثِيرًا مَا تَكُونُ عِلَامَاتٍ نَافِعَةً جِدًّا لِسُلُوكِنَا

(49) كَوْنُ الْمَشْكَلَةِ الْعَقْلِيَّةِ-الْجَسَدِيَّةِ نَاشِئَةً عَنْ اِزْدَوَاجِيَّةٍ فِي الْآلَةِ الرُّمُزِيَّةِ سُبُؤْكَدٌ فِي الصَّفْحَةِ الْحَادِيَةِ وَالْثَّمَانِينَ مِنَ الْفَصْلِ الرَّابِعِ. وَيُنْظَرُ أَيْضًا الْفَصْلُ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ أَوْغِدِنِ مَقْنَى عِلْمِ النَّفْسِ *The Meaning of Psychology* (1926)، إِذْ أُيِّدَتْ وَجْهَةُ النَّظَرِ هَذِهِ مَعَ الْإِحَالَةِ عَلَى الْمَرَاجِعِ الْمَعَاصِرَةِ الَّتِي تَمَسُّكُ بِهَا.

(50) جُونُ بَرُودْسِ وَاطْسَن (1878-1958م). عَالِمُ نَفْسٍ أَمْرِيكِيٌّ، يُعَدُّ مُؤَسَّسَ الْمَدْرَسَةِ النَّفْسِيَّةِ السُّلُوكِيَّةِ. أَحْدَثَ تَغْيِيرًا فِي عِلْمِ النَّفْسِ مِنْ خِلَالِ مُحَاضَرَتِهِ الَّتِي حَمَلَتْ عِنَانِ (عِلْمِ النَّفْسِ كَمَا يَرَاهُ السُّلُوكِيُّونَ)، وَالَّتِي أَلْقَاهَا فِي جَامِعَةِ كُولُومْبِيَا سَنَةَ 1913. [الْمُتَرْجِمُ].

الحاضر والمستقبل - ولا سيما في تأويل الأحلام المعاصر⁽⁵¹⁾. وسيكون لدى النظرية السلوكية المحسنة الكثير مما تقوله بشأن المحاولات الفوضوية في التأويل والبناء الرمزيين التي يُضعف بها المحللون النفسيون الثقة بجهودهم القيمة.

إنَّ المشكلات التي تنشأ متصلةً بآية 'حالٍ علامية' ذوات شكل عام واحد. ولا شك في أنَّ العلاقات التي بين العناصر المعنوية مختلفة، إلا أنها من نوع واحد. لذلك يمكن أن يتوقع من تصنيف شامل لهذه المشكلات في ميدان واحد كميدان الرموز أن يسلط الضوء على مشكلات متشابهة في صعيد تبدو ذات نظام مختلف جدًا بادي الرأي.

وحين ننظر في الأنواع المختلفة من الأحوال العلامية الممثلة آنما نجد العلامات التي يستعملها الناس في تواصلهم ويوصفها أدوات فكر تتبوأ مكانًا مميزًا. ومن المريح أن نجعلها تحت اسم مميز، وأن نستعمل للكلمات، وتنظيمات الكلمات، والصور، والإيماءات، والتشيلات كالرسوم أو أصوات المحاكاة مصطلح الرموز. إنَّ تأثير الرموز في حياة الإنسان وفكره في ما لا يحصى من الطرائق غير المتوقعة لما يدرك تمامًا، وهذا هو الفصل من التاريخ الذي نشره الآن فيه. [23]

(51) مما يصطلح عليه كتابنا الحاضر أنه لا شك في أنَّ عدداً من 'رموز' المحلل النفسي إنما هي علامات فحش، ولا تستعمل لأغراض التواصل. ولكن في أدبيات التحليل النفسي الحاج كبير جداً على الحاجة إلى أشكال أوسع للتأويل، ولا سيما ما يتعلق منها بالغلز الشعوري. يُنظر، على سبيل المثال، بحث الراحل الدكتور جيليف Jelliffe الموسوم بـ 'الرمز مكنماً للطاقة' *The Symbol as an Energy Condenser* في (دورية الأمراض العصبية والعقلية *Journal of Nervous and Mental Diseases*, December 1919)، وإن كان هذا المجاز، شأنه شأن عددٍ من تعبيرات التحليل النفسي، مما يجب عذم التوسع فيه كثيراً لما قبل سابقاً ولما سيأتي بعد. (تنظر الصفحات 194-195، و313 فما بعدها).

الفصلُ الثاني

سُلْطَةُ الْكَلِمَاتِ

الْكَلِمَةُ، جِئْنَ نَعْرِفُهَا، كَانَتْ حَيٌّ... الْكَلِمَةُ هِيَ الْكَيْنُونَةُ، وَالْكَيْنُونَةُ هِيَ اللَّهُ - فِكْتور هوغو Victor Hugo.

أَيُّهَا الْإِنْسَانِيَّونَ، أَرَأَيْتُمْ عَلَى مُخْتَلِفِ أَحْوَالِكُمْ شَدِيدِي التَّبَجُّلِ لِلْإِلَهَةِ - بولس الطرسوسي Paul of Tarsus.

مَنْ يُرَاعِ هَذِهِ الْأُمُورَ عَلَى مَا يَنْبَغِي يَجِدُ فِي الْكَلِمَاتِ سِحْرًا مَا أَوْ جَادِبِيَّةً مَا تَجْعَلُهَا تَعْمَلُ بِقُوَّةٍ تَفُوقُ مَا يُمَكِّنُ تَقْدِيرُهُ فِي الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ - ساوث ساوث South.

منذُ العصورِ القديمةِ كانتِ الرموزُ التي استعملَها البشرُ لُتُعِينَهُمْ عَلَى التَّفَكِيرِ وَلِتُسَجِّلَ مُنْجَزَاتِهِمْ مَصَدَرًا مُسْتَمَرًّا لِلْأَعَاجِيبِ وَالْأَوْهَامِ. فَقَدْ أَثَّرَتْ خَصَائِصُ الْكَلِمَاتِ، بِوَصْفِهَا أَدَوَاتِ ضَبْطٍ لِلْأَشْيَاءِ، فِي الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ أَخَذَ يَعْزُو إِلَيْهَا فِي كُلِّ عَصْرِ قُوَى خَفِيَّةٍ. وَمِنَ النَّظَرَةِ الْأُولَى لَنْ يُحَسَّ إِلَّا بِفَرْقِ ضَنْبِلٍ بَيْنَ مَوْقِفِ الْمِصْرِيِّ الْقَدِيمِ مِنْ ذَلِكَ وَمَوْقِفِ الشَّاعِرِ الْمَعَاصِرِ. يَقُولُ الْوَلْت وَثْمَانُ Walt Whitman⁽¹⁾: "كُلُّ الْكَلِمَاتِ رُوحِيَّةٌ"، "وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ أَشَدُّ رُوحِيَّةً مِنْ

(1) الْوَلْت وَثْمَانُ (1819-1892م). شَاعِرٌ أَمْرِيكِيُّ عَاشَ فِي بْرُوكْلِينَ وَتَلَقَّى تَعْلِيمَهُ فِيهَا. كَانَ يَقْرَأُ كُلَّ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدَاهُ مِنَ الْإِنْجِيلِ، وَأَعْمَالِ هُومِيرُوسَ، وَشِيكسبيرِ، وَدَانْتِي، وَأَثَّرَتْ هَذِهِ الْقَرَاءَاتُ فِي شِعْرِهِ مِنْ حَيْثُ الْإِيقَاعُ وَالْمَضْمُونُ، وَلَا سَيِّمًا فِي مَرَاكِزِهِ =

الكلمات. من أين جاءت؟ كم من آلاف السنين وعشرات الآلاف من السنين استغرق انتقالها إلينا؟". وما لم ندرِك تمامًا ما للخرافة من أثر عميق في ما يتعلق بالكلمات فلن نفهم سبب رُسوخ عددٍ من العادات اللغوية الواسعة الانتشار، التي ما زالت تعود على أكثر أنماط التفكير تأنيًا بالفساد والبطلان.

في الأغلب، وفي أمور النقاش الاعتيادي، يُمُّ أثر ذلك الإرث اللغة كما يُعْمُ المجالات الأخرى. "ولو كان في استطاعتنا أن نفتَح رأسي رجلين ينتميان إلى جيل واحد وبَلَد واحد لكنهما على طَرَفَي نقيض في المستوى الذهني، لنُطْلَع على أفكارهما، [24] لرُبَّمَا أَلْفَيْنَا عَقْلَيْهِمَا مُخْتَلِفَيْنِ كما لو أَنَّهُمَا ينتميان إلى صِنْفَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ... إِنَّ الخرافات تَظَلُّ حَيَّةً لَأَنَّهَا في الوقت الذي تَصْدُمُ فيه وَجْهاتِ نظرِ أفرادِ المجتمعِ المتَوَرِّينَ تَظَلُّ مُتَنَاعِمَةً وأفكارَ الآخرين وَمُشَاعِرَهُمْ، أولئك الذين يَبْقَوْنَ في أعماقهم بَرَبْرِيَّينَ أو هَمَجِيَّينَ على الرغمِ من أن أفاضلَهُمْ يُحاولونَ تَلْقِيْنَهُمْ ما يَجْعَلُهُمْ يَظْهَرُونَ بِمَظْهَرِ حضاري"⁽²⁾.

إنَّ أرقى الناسِ مُستَوًى تعليميًا لا يَعُونُ البَتَّةَ المدى الذي تَظَلُّ فيه تلكَ المَوروثاتُ حَيَّةً، وهُم أَكثَرُ عَمَى بِشأنِ إدراكِ كَيْفِيَّةِ صَوغِ يَدِ الماضي الخَفِيَّةِ لِسُلُوكِهِم الشخصي. يَقُولُ الدكتورُ فَرِيْزَرُ Dr Frazer⁽³⁾: "إنَّ الذينَ قاذَبَهُمُ دراسائُهُم إلى البَحْثِ في الموضوعِ هُم وَحْدَهُم الذينَ يَعُونُ العُمقَ الذي جَعَلَتْ قُوَى خَفِيَّةُ الأرضِ تَهْوِي إليه مِن تَحْتِ أَقدامِنَا، إن جازَ التَّعبيرُ".

= المتأخّرة. هاجَمَ كُلُّ أنواعِ التَّعَصُّبِ والفاسِيَّةِ والدكتاتوريَّةِ مُؤَكِّدًا أن لا ازدهارَ لَأَمٍّ إِلَّا بترسيخِ الديمقراطيةِ فيها. لَقَّبَ بأبي الشَّعْرِ الحُرِّ وعدَهُ النُّقَادَ فيلسوفًا. من أشهرِ أعمالِهِ: كتاباتُ والتِ وثمانِ الشَّعْرِيَّةِ والثَّرِيَّةِ، والرُّوَاد. [المُترجم]

J. G. Frazer, *Psyche's Task*, P. 169.

(2)

(3) جيمس جورج فَرِيْزَرُ (1854-1941م). أنثروبولوجيٌّ أسكتلنديٌّ كبيرٌ. عُرِفَ بِكتابهِ المشهورِ والصَّخْمِ (القُصْنُ الذَّهَبِيّ)، وهوَ دراسةٌ في السَّحَرِ والَّذِينَ أَوْضَحَ فيها أَنَّ الكَثِيرَ من الأساطيرِ والطُّلُوسِ الدِّينِيَّةِ ترجِعُ أصولُها إلى أَيَّامِ ظُهورِ الزَّراعةِ في عصرٍ ما قبلِ التَّاريخِ. مِن كُتُبِهِ الأخرى: الطُّوطُمِيَّةُ، والزَّوْاجُ بِغَيْرِ ذَوِي القُرْبَى. [المُترجم]

وَيَقَرَّرُ الأَنْثُرولوجِي أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ سَطْحُ الْمُجْتَمَعِ، شَأْنُهُ شَأْنُ سَطْحِ الْبَحْرِ، دَائِمَ الْحَرَكَةِ، فِي حِينٍ تَبْقَى أَعْمَاقُهُ، شَأْنُهَا شَأْنُ أَعْمَاقِ الْمَحِيطِ، شِبْهَ سَاكِنَةٍ. وَلَا يُمَكِّنُنَا التَّوَاضُّلُ مَعَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ إِلَّا بِالْعَوَاصِفِ كُلِّ يَوْمٍ نَحْوَ تِلْكَ الْأَعْمَاقِ، كَمَا لَا يُمَكِّنُنَا، فِي الْحَالَةِ الْمُتَمَيِّزَةِ لِللُّغَةِ فَقَطْ، أَنْ نُشَارِكَ أَفْرَادَ مُجْتَمَعِنَا الْحَيَاةِ إِلَّا بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْإِمْتِيَازَاتِ الَّتِي يُهَيِّئُهَا هَذَا النِّظَامُ الْعِلْمِيُّ مِنَ الرُّمُوزِ أَوْ ذَاكَ، وَبِالتَّهْلِيلِ مِنَ الْمَجْرَى غَيْرِ الْمَظْهَرِ نَفْسِهِ. وَلَثْنٌ تَفَجَّرَتْ مِنْ فَوْقِنَا عُمَاقُ رُكَامِ التَّقَالِيدِ اللَّفْظِيَّةِ عِلَانِيَةً- فِي السَّعْيِ إِلَى التَّوَاضُّلِ، وَفِي مُحَاوَلَةِ التَّأْوِيلِ- لَيْسَ مِنَّا إِلَّا الْقَلِيلُ حَتَّى الْآنَ مِمَّنْ أَنْشَأَ حَتَّى أَوَّلِيَّاتِ الدِّفَاعِ.

فُسْلُطَةُ الْكَلِمَاتِ هِيَ أَكْثَرُ الْقُوَى مُحَافَظَةً *conservative* فِي حَيَاتِنَا. وَفِي الْأَمْسِ الْقَرِيبِ فَقَطْ بَدَأَ دَارِسُو الْأَنْثُرولوجِيَا يَقْرَءُونَ بِوُجُودِ تِلْكَ الْأَسْلَافِ اللَّفْظِيَّةِ الْحَتْمِيَّةِ الَّتِي تُطَوِّقُ الْكَثِيرَ مِنْ تَفَكِيرِنَا. "إِنَّ الْخُطَّةَ الْعَامَّةَ الْمُرَوِّثَةَ لِلتَّصَوُّرِ الَّتِي تُحِيطُ بِنَا، وَتَأْتِينَا طَبِيعِيَّةً وَغَيْرَ قَابِلَةٍ لِأَنْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهَا كَالهَوَاءِ الطَّبِيعِيِّ، هِيَ، مَعَ ذَلِكَ، [25] مَفْرُوضَةٌ عَلَيْنَا، وَتُحْجَمُ نَشَاطَاتِنَا الذِّهْنِيَّةُ بِطَرَائِقَ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى- وَزَيْدُهَا تَوَطَّدًا وَعَدَمَ قَابِلِيَّةٍ لِأَنْ تُقَاوَمَ أَنَّ كَوْنَهَا مُنَاصِلَةً فِي اللُّغَةِ نَفْسِهَا الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَسْتَعْمِلَهَا لِلتَّبْعِيرِ عَنْ أَيْسَرِ الْمَعَانِي يَجْعَلُهَا مُتَبَيِّنَةً وَمُتَمَثِّلَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْتَطِيعَ الْبَدْءَ بِالتَّفَكِيرِ لِأَنْفُسِنَا مُطْلَقًا"⁽⁴⁾. أَمَّا بَيْنَهُ لُغَتِنَا فَلَا نَكَادُ نَسْتَطِيعُ مُجَرَّدَ التَّفَكِيرِ فِي الْإِفْلَاقِ مِنْ قُبْضَتِهَا. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُضِيِّ عَشْرَاتِ الْأَلْفِ مِنَ السِّنِينَ عَلَى تَخْلُصِنَا مِنْ أَذُنَانَا مَا زِلْنَا نَتَوَاضَلُ بِوَسِيلَةِ مَصْوَغَةٍ لِيُتَلَبَّى حَاجَاتُ سَاكِنِ الْأَشْجَارِ. وَإِذَا كَانَتْ أَصَوَاتُ اللُّغَةِ وَمَعَالِمُهَا شَاهِدَةً عَلَى بِدَائِيَّةِ أَصُولِهَا فَإِنَّ تَدَاعِيَاتِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ وَالْمَعَالِمِ، وَعَادَاتِ التَّفَكِيرِ الَّتِي نَمَتْ بِالِاسْتِعْمَالِ وَبِالْبِنَاءِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهَا آبَاؤُا الْبَشَرِيَّةِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدَةً بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ ذَاتِ مَغْزَى.

وَقَدْ تَحْمِلُنَا أَوْهَامُ الرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ لِللُّغَوِيَّةِ عَلَى الْإِبْتِسَامِ، وَلَكِنْ هَلْ فِي وَسْعِنَا أَنْ نُنْكِرَ أَنَّهُ هُوَ مَنْ أَنْشَأَ الْمَاكِتَةَ اللَّفْظِيَّةَ الَّتِي تَطْيِبُ نُفُوسَنَا تَمَامًا

باعتقادها، والتي ما زالَ ميتافيزيقينا يُؤمنون بِسَبَرِ طبيعة الوجودِ بها، وقد تكونُ مسؤولةً عن أوهامٍ أخرى رُبما لَيْسَتْ أَقلَّ جسامَةً ولا أيسَرَ استتصالاً؟ وقد يكفي هنا أن نندكّرَ تَفْشِي المَفْرَدَاتِ المَقْدَّسَةِ أو السَّرِّيَّةِ، والكلماتِ الممنوعةِ على اختلافِ أنواعِها. فَمَا زالَ في وَسْعِ جُلِّ البلدانِ الأورَبِيَّةِ أن تُقدِّمَ نماذجَ لِلْحِكَايَةِ التي ينبغي لاسمِ مَا فيها (كَأن يكونَ، مثلاً: Tom-Tit-Tot، أو Vargaluska، أو Rumpelstiltskin، أو Finnur، أو Zi) أن يُكْتَشَفَ قَبْلَ أن يُزَوَّجَ أميرٌ ما، أو يُحَبَّطَ غُولٌ ما⁽⁵⁾. فَمَنْ الواضِح، استنادًا إلى الأساسِ السِّيَاقِي لِلإحالةِ، الذي هو مُفَرِّزُ التطوُّراتِ المعاصرةِ لِلتَّزَعُّعِ التَّرابُطِيَّةِ associationism⁽⁶⁾، بِتَشْدِيدِهَا الهائلِ على الدَّورِ الذي تُوَدِّعُهُ اللُّغَةُ في الذاكرةِ والخيالِ، أَنَّهُ في الزَّمَنِ الذي سَبَقَ التَّمَكَّنَ مِنَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لا بُدَّ مِن أن الدَّلِيلَ على وجودِ عالَمٍ خاصٍّ مِنَ الكَلِمَاتِ [26] ذَوَاتِ السُّلْطَةِ، على أَسْمَاءِ تَقَوْمٍ مَقَامِ الآلِهَةِ، قَدْ بَدَأَ دَائِمًا.

وفي مِصرَ القَدِيمَةِ اتَّخَذَتِ التَّدَابِيرُ لِمَنْعِ انقِراضِ الثَّامِنِ أو النَّفْسِ الأَسْمِيَّةِ Name-soul، ولاسْتِمْرَارِ بَقَائِهِ مَعَ أَسْمَاءِ الآلِهَةِ⁽⁷⁾. وَذَكَرَتِ النُّصُوصُ التي عُثِرَ عَلَيْهَا فِي الهَرَمِ إِلَهَا يُدْعَى كِيرَن Khern، أي الكَلِمَةُ؛ فَقَدْ كَانَتْ لِلْكَلِمَةِ شَخْصِيَّةً كَشَخْصِيَّةِ الكائِنِ البَشَرِيِّ. وَغَرِيَّ خَلْقِ العَالَمِ إِلَى تَأْوِيلِ تحوت Thoth⁽⁸⁾ لِكَلِمَاتِ

J. A. Macculloch, *The Childhood of Fiction*, pp. 26-30.

(5)

وهذا هو آخِرُ كِتَابٍ جَمَعَ تلكَ الإحالاتِ وَغَزَاهَا، كَمَا فَعَلَ السَّيِّدُ كلود Mr Clodd فِي قِصَّتِهِ Tom-Tit-Tot، إِلَى المُمَارَسَةِ العَامَّةِ لِلشَّحْرِ اللفْظِيِّ.

(6) التَّرابُطِيَّةُ: النَّظَرُ إِلَى التَّعَلُّمِ بِوَصْفِهِ نَاجِمًا عَنِ الحَدُوثِ التَّرابُطِيَّةِ لِلْمُتَّبِعِ والاستِجَابَةِ. [المُترجم]

Budge, *The Book of the Dead*, pp. lxxxvi-xc.

(7)

(8) تحوت: إِلَهُ الحِكْمَةِ عِنْدَ الفِرَاعَةِ، وَاحِدُ أَرْبَابِ ثَامُونِ الأَشْمُونِيينَ الكُونِيِّ، وَيُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ الآلِهَةِ المِصْرِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَيُصَوَّرُ بِهَيَاةِ رَجُلٍ بِرَأْسٍ مَنجَلٍ. نَظِيرُهُ الأَنْشُؤِيُّ مَاعَت. كَانَ ضَرِيحُهُ الأَسَاسِيُّ فِي أَشْمُونِ إِذْ كَانَ المَعْبُودَ الأَسَاسِيَّ هُنَاكَ. عَدَّهُ قُدَمَاءُ المِصْرِيِّينَ مَنْ عَلَّمَهُمُ الكِتَابَةَ وَالحِسَابَ. وَهُوَ يُصَوَّرُ دَائِمًا مُمِيسًا بِقَلَمٍ وَلَوْحٍ يَكْتُبُ فِيهِ. وَلَهُ دَوْرٌ أَساسِيٌّ فِي مَحْكَمَةِ المَوْتِ؛ إِذْ يُؤْتَى بِالمِيتِ بَعْدَ البَعثِ لِإِجْرَاءِ عَمَلِيَّةٍ وَزِنَ قَلْبِهِ أَمَامَ رِيشَةِ الحَقِّ مَاعَت، فَيُسَجَّلُ تحوتُ نَتِيجَةِ المِيزَانِ؛ فَإِنْ كَانَ قَلْبُ المِيتِ أَثْقَلَ مِنْ رِيشَةِ الحَقِّ =

نُعْبَرُ عَنْ إِرَادَةِ الْهِيَةِ. وَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْجَنَسِ الْبَشَرِيِّ كَانَ قَدْ آمَنَ
يَوْمًا مَا بِأَنَّ الْأِسْمَ هُوَ ذَلِكَ الْجُزْءُ الْمَتَمُّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يُنَاطِرُ النَّفْسَ، أَوْ أَنَّهُ
ذَلِكَ الْجُزْءُ الْمِهْمُّ جِدًّا مِنْهُ الَّذِي قَدْ يَقُومُ مَقَامَ الْكُلِّ، عَلَى حَدِّ مَا يُعْبَرُ بِهِ
مُسْتَخْدِمُو عَمَالِ الْمَصَانِعِ عَنْهُمْ بِـ'الْأَيْدِي' الْعَامِلَةِ. وَنَقَرَأُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ:
'وَقِيلَ بِالرَّزَلَةِ أَسْمَاءٌ مِنَ النَّاسِ سَبْعَةُ آلَافٍ' (9)، وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ جَاءَ فِي رِسَالَةٍ
إِلَى كَنِيسَةِ سَارْدِسِ Church of Sardis: "ثَمَّةٌ قَلِيلٌ مِنَ الْأَسْمَاءِ فِي سَارْدِسَ وَمِمَّنْ
نَمُ تَدْنُسُ أَثَوَابَهَا". وَالْوَحْشُ الْقَادِمُ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى رَأْسِهِ 'أَسْمَاءٌ كُفْرِيَّةٌ'. وَمَا
نُكْفِرُ نَفْسَهُ إِلَّا مِثَالًا لِذَلِكَ؛ إِذْ افْتَرَضَ أَنَّ الْإِلَهَ مُسْتَاءً شَحْصِيًّا مِنْ تَدْنِيسِ اسْمِهِ،
بَلْ بَلَغَ الْأَمْرُ مَبْلَغَ أَنَّ صَبِيًّا حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ حَرْقًا فِي عَهْدِ حُكْمِ هَنْرِي الثَّامِنِ
Henry VIII بسببِ كَلِمَاتٍ تَافِهَةٍ تَتَعَلَّقُ بِأَسْرَارِ دِينِيَّةٍ صَادَفَتْ أَنَّ التَّقَطُّطَهَا أَذْنَاهُ-
فَرَدَّتْهَا، فِي غَفْلَةٍ، شَفَّتَاهُ (10).

وَفِي سِفْرِ الْقَضَاةِ book of Judges يَقُولُ مَلِكُ الرَّبِّ لِمَنْوَحَ Manoah (11):
'لِمَ تَسْأَلُ عَنْ اسْمِي وَهُوَ عَجِيبٌ؟' (12) (أَوْ 'لَا يُوصَفُ'، عَلَى مَا جَاءَ عِنْدَ
الْبَرْوْفِيسُورِ مَوْرِ G. F. Moore (13)). وَجَمِيعُ الشُّعُوبِ الْبِدَائِيَّةِ، تَقْرِيبًا، يُبْدُونَ
كِرَاهِيَةً عَظِيمَةً لِذِكْرِ أَسْمَائِهِمْ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا كَانَ اسْمُ أَحَدِ زُعَمَاءِ نِيوزِيلَنْدَا وَيِ
Wai، الَّذِي يَعْنِي الْمَاءَ، أَصْبَحَ لِزَامًا أَنْ يُخْتَارَ اسْمٌ جَدِيدٌ لِلْمَاءِ، وَيَجْمَعُ كِتَابُ

= أَيْ كَانَ مِنَ الْخَاطِلَيْنِ الْعَاصِيَيْنِ- أَلْقَى بِقَلْبِهِ إِلَى وَحْشٍ مُفْتَرَسٍ مُتَخَيِّلٍ اسْمُهُ عَمْعَمُوت
لِيلِنَهْمَ، وَتَكُونُ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ الْأَبْدِيَّةُ لِلْمَيِّتِ؛ وَإِنْ كَانَ الْقَلْبُ أَخَفَّ مِنْ رِيشَةِ الْحَقِّ
(مَاعَت) فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَيِّتَ كَانَ صَالِحًا فِي الدُّنْيَا، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ لِيَعِيشَ فِيهَا مَعَ
زَوْجَتِهِ وَأَحِبَّائِهِ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ أَوْزِيرِيس. [الْمُتَرْجِمُ]

(9) سِفْرُ الرُّؤْيَا 13: 11. [الْمُتَرْجِمُ]

(10) Pike, History of Crime in England, Vol.II, p.56.

(11) مَنْوَحُ: شَخْصِيَّةٌ تَظْهَرُ فِي سِفْرِ الْقَضَاةِ مِنَ التَّوْرَةِ. وَيَعْنِي اسْمُهُ 'الرَّاحَةُ' أَوْ 'الْهَادِئُ'. [الْمُتَرْجِمُ]

(12) سِفْرُ الْقَضَاةِ 13: 18. [الْمُتَرْجِمُ]

(13) جُورْجُ فُوت مَوْر (1851-1931م). بَاحِثٌ مُبَرِّزٌ فِي الشُّؤُونِ الْأَسْبُؤِيَّةِ، وَمُؤَرِّخٌ دِينِيٌّ،
وَكَاتِبٌ، وَمُدَرِّسٌ بَارِعٌ. وُلِدَ فِي بِنْسَلَفَانِيَا. مِنْ أَشْهُرِ أَعْمَالِهِ: أَدَبُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَوِلَادَةُ
الدِّينِ وَنُمُوهُ. [الْمُتَرْجِمُ]

فَرِيْزَرُ الْغُصْنُ الذَّهَبِيُّ Frazer's Golden Bough عِدَّةُ امْثَلَةٍ لِلْمَحْظُورَاتِ الْكَلِمِيَّةِ word taboos تُظْهِرُ عَالَمِيَّةَ الْمَوْقِفِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ مَقْصُورًا عَلَى الرُّعَمَاءِ بَلْ إِنَّ مِنْ ضَحَايَا هَذَا الرُّهَابِ النُّطْقِيَّ logophobia الْآلِهَةَ، فَضْلًا عَنِ الْقَسِّ الَّذِي افْتَرَضَ أَنَّ الْآلِهَةَ [27] تَسْكُنُهُ (وَهُوَ اعْتِقَادُ أَغْرَى الْكَانْتُونِيَّيْنِ Cantonese⁽¹⁴⁾ بِإِطْلَاقِ مُصْطَلَحٍ 'صَنَادِيقِ الْآلِهَةِ' god boxes عَلَى شَخْصِيَّاتٍ مُفَضَّلَةٍ كَهَذِهِ). وَنَحْنُ نَعْلَمُ كَيْفَ رَفَضَ هِيرُودُوتُسُ Herodotus⁽¹⁵⁾ (II. 132, 171) أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ أَوْزِيرِيسَ Osiris⁽¹⁶⁾. وَالاسْمُ الْحَقُّ الْأَعْظَمُ لِلَّهِ Allah اسْمٌ خَفِيٌّ⁽¹⁷⁾⁽¹⁸⁾، وَالْأَمْرُ نَفْسُهُ

(14) نِسْبَةً إِلَى الْكَانْتُونِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ أَحَدَ الْفُرُوعِ الرَّئِيسَةِ لِلُّغَةِ الصِّينِيَّةِ. يُقَدَّرُ عَدْدُ مُتَحَدِّثِيهَا بِنَحْوِ 71 مِلْيُونٍ نَسْمَةً، وَلَا سِوَا فِي مَآكَو وَهُونْغْ كُونْغ. [الْمُتَرْجِمُ]

(15) هِيرُودُوتُسُ: مُؤَرِّخٌ إِغْرِيْقِيٌّ عَاشَرَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ (484- نحو 425 ق.م.). اشْتَهَرَ بِالْأَوْصَافِ الَّتِي كَتَبَهَا لِعِدَّةِ أَمَاكِنَ زَارَهَا وَلِأَنَاسٍ قَابَلَهُمْ فِي رِحَالَتِهِ، وَبِكُتُبِهِ عَنِ السِّيطَرَةِ الْفَارْسِيَّةِ عَلَى الْيُونَانِ. عُرِفَ بِأَبِي التَّأْرِيخِ. مَعْرُوفٌ بِفَضْلِ كِتَابِهِ (تَارِيخُ هِيرُودُوتُس) الَّذِي يَصِفُ فِيهِ أَحْوَالَ الْبِلَادِ وَالْأَشْخَاصِ فِي تَرْحَالِهِ حَوْلَ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ. وَمَوْضُوعُ كِتَابِهِ الرَّئِيسُ هُوَ الْحُرُوبُ بَيْنَ الْإِغْرِيْقِيِّ وَالْفَرَسِيِّ أَوْ الْمِيدِيَّيْنِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(16) أَوْزِيرِيسُ: إِلَهُ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَرَئِيسُ مَحْكَمَةِ الْمَوْتِ عِنْدَ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ، وَمِنْ أَكْهَدِ النَّاسُوعِ الْمُقَدَّسِ الرَّئِيسِ فِي الدِّيَانَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. كَانَ أَخَا لِإِيرِيسَ وَنِيفْتِيسَ وَسَتَ، وَتَزَوَّجَ لِإِيرِيسَ، وَكَانَ أَبَوَاهُمَا جَبَ إِلَهَ الْأَرْضِ وَنَوْتَ إِلَهَةَ السَّمَاءِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(17) Sell, *The Faith of Islam*, p. 185.

(18) يُشِيرُ الْمُؤَلِّفَانِ إِلَى مَا وَرَدَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُتُبِ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ زَوَاهِ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ: ح 1493، 1494، كِتَابُ الْوُثْرِ، بَابُ (الدُّعَاءِ)، وَالتَّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ- وَاللَّفْظُ لَهُ- : ح 3475، كِتَابُ الدُّعَوَاتِ، بَابُ (مَا جَاءَ فِي جَامِعِ الدُّعَوَاتِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ: ح 3857، كِتَابُ الدُّعَاءِ، بَابُ (اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَالَ: فَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ بِهِ إِذَا سُئِلَ بِهِ أَغْطَى". وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ مَا وَرَدَ بِشَأْنِ الْاسْمِ الْأَعْظَمِ لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ الْحَالَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي سَرَدَهَا أَوْغِدِنْ وَرِثَارْدَزْ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَصَّ عَلَى =

يَصِحُّ فِي آلِهَةِ الْبَرَهْمِيَّةِ⁽¹⁹⁾ Brahmanism⁽²⁰⁾ والاسم الحقيقي لكونفوشيوس⁽²¹⁾
 Confucius⁽²²⁾. ومن الواضح أَنَّ اليهودَ الأورثودوكسيين Orthodox jews⁽²³⁾
 يتجنَّبونَ تمامًا اسمَ يَهُوَه⁽²⁴⁾ Jahweh⁽²⁵⁾. ويُمكنُ أَنْ نُلْحِقَ بِذَلِكَ قَوْلَنَا: 'Thank

= أَنَّ الاسمَ الأعظمَ قَدْ ذُكِرَ ذِكْرًا صَرِيحًا فِي دُعَاءِ الرَّجُلِ، وَهَذَا يَنْفِي عَنْهُ سِمَةَ الْخَفَاءِ
 وَالسَّرِيَّةِ الْمُتَمَيِّزَةَ لِسَائِرِ مَا أوردَهُ المؤلفانِ. ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَنِي عَلَى اخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ فِي
 تَعْيِينِ الاسمِ الأعظمِ مَوْقِفَ اعْتِقَادِيٍّ مَخْصُوصٍ يَطْبَعُهُمْ بِطَائِعِ دِينِيٍّ مُعَيَّنٍ أَوْ يُمَيِّزُهُمْ مِنْ
 سَائِرِ الْجَلَلِ الْأُخْرَى. وَقَدْ رَجَّحَ جَمْعٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الاسمَ الأعظمَ المُشارَ إليه
 فِي الْحَدِيثِ هُوَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ (الله)؛ إِذْ إِنَّهُ الاسمُ الوحيدُ الَّذِي يُوجَدُ فِي جَمِيعِ النُّصُوصِ
 الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اسمَ اللهِ الأعظمَ قَدْ وَرَدَ فِيهَا.
 [المُترجم]

(19) الْبَرَهْمِيَّةُ: هِيَ التَّوَارِخِيَّةُ لِلْهِنْدُوسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ عَنْهَا كَثِيرًا. تَنْتَجِ الْعِبَادَةُ
 فِيهَا إِلَى عِبَادَةِ الْعُنَاصِرِ مِثْلِ النَّارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَعِبَادَةِ آلِهَةِ الْبَطْلَةِ كَأَنْدَرَا، وَتَقْدِيمِ
 الْقَرَّائِينَ. [المُترجم]

Hopkins, *Religions of India*, p. 184. (20)

(21) كُونْفُوشْيُوسُ: أَوَّلُ فِيلَسُوفٍ صِينِيٍّ يُفْلِحُ فِي إِقَامَةِ مَذَهَبٍ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ الثَّقَالِيدِ الصِّينِيَّةِ
 الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسُّلُوكِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ. تَقُومُ فِلَسَفَتُهُ عَلَى الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ،
 وَعَلَى أَنَّ تَكُونَ نَفْسَ حُكُومَةٍ تَخْدُمُ الشَّعْبَ تَطْبِيقًا لِمَثَلِ أَخْلَاقِيٍّ سَامٍ. لُقِبَ بِنَبِيِّ الصِّينِ.
 [المُترجم]

Friend, *Folk-Lore Record*, IV., p. 76. (22)

(23) الْيَهُودِيَّةُ الْأُورْثُودُوكْسِيَّةُ: مِنْ أَهَمِّ طَوَائِفِ الْيَهُودِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. وَلَا يَجُوزُ الْخَلْطُ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأُورْثُودُوكْسِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ؛ فَلَفْظَةُ (الْأُورْثُودُوكْسِيَّةُ) تَعْنِي فِي الْيُونَانِيَّةِ الرَّأْيَ
 الْقَرِيبَ، وَتُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الطَّوَائِفِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَمَسِّكَةِ بِالْقَوَالِبِ الْقَدِيمَةِ أَوِ الْأَصْلِيَّةِ
 لِلدِّينِ. [المُترجم]

(24) يَهُوَه: أَحَدُ أَسْمَاءِ اللهِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّوْرَةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذِكْرِ الاسمِ فِي التَّوْرَةِ
 الْغَيْرِيَّةِ يَحْرُمُ عَلَى الْيَهُودِ التَّلَفُّظُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، إِذْ تُسْتَعْمَلُ بَدَلًا مِنْهَا كَلِمَةُ (أَدُونَاي) أَوْ
 (هَاشِيم) فِي الْغَيْرَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ. وَيُسَمَّحُ لِرَأْسِ الْكَهَنَةِ بِتَطْوِئِهَا عِنْدَ قِرَاءَتِهِ التَّوْرَةَ فِي يَوْمِ
 الْغُفْرَانِ فَقَطْ فِي أَثْنَاءِ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ. [المُترجم]

Herzog-Plitt, *Real-Encyclopadie*, VI., p. 501. (25)

فَلِذَلِكَ يُقْرَأُ الاسمُ أَدُونَاي Adonai بَدَلًا مِنَ الاسمِ الَّذِي لَا يُوصَفُ، وَالَّذِي يُؤَدُّ مِنْهُ الاسمُ
 يَهُوفا Jehovah بِإِدْخَالِ أَحْرَفِ الْجِلَّةِ لِلاِسْمِ أَدُونَايِ فِي الاسمِ يَهُوَه tetragrammaton.

'Goodness' (26) و 'Morbleu' (27) - ومُعْظَم العبارات التَّلطيفية euphemisms. ومن المعتاد عند الهندوس أنه إذا قُفِدَ لهم طفلٌ سُمِّيَ الطفلُ الذي يليه ببعض الأسماءِ المُحَقَّرَةِ. فَالذَّكْرُ مِنَ الأَطْفَالِ يُدْعَى كُوريا Kuriya، أو دَنْغِيل Dunghill - والرُّوح، لا شَكَّ، تعرِفُ النَّاسَ بِأَسْمَائِهِمْ وَسُتَهْمَلُ التَّافِهِينَ. كَذَلِكَ يَعْرِفُ اللَّهُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِاسْمِهِ - "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: 'لَأَنَّكَ وَجَدْتَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيَّ، وَعَرَفْتُكَ بِاسْمِكَ' (28)". وَكَانَ لِكُلِّ مِصْرِي قَدِيمٍ اسْمَانِ اثْنَانِ - أَحَدُهُمَا لِلْعَالَمِ، وَالْآخَرُ تَعْرِفُهُ بِهِ الْقُوَى الْعُلُويَّةُ. وَالاسْمُ الثَّانِي لِنَصَارَى الْحَبَشَةِ الَّذِي مُنَحُوا إِيَّاهُ عِنْدَ التَّعْمِيدِ مَا كَانَ لِيُفَسِّى الْبَتَّةَ. وَتَمَتَّعَ الْإِلَهُ الْحَارِسُ فِي رُومَا بِاسْمٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، وَفِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْيُونَانِ الْقَدِيمَةِ حُفِرَتْ أَسْمَاءُ الْآلِهَةِ عَلَى الْوِجِ مِنَ الرِّصَاصِ ثُمَّ غُطِّسَتْ فِي الْبَحْرِ لِضَمَانِ عَدَمِ تَدْنِيْسِهَا.

وَكَثِيرًا مَا يَسْتَوِي الأَطْفَالُ فِي حِرْصِهِمْ عَلَى إِخْفَاءِ أَسْمَائِهِمْ، وَمِثْلَمَا يَتَسَاءَلُ الأَطْفَالُ دَوْمًا عَنْ اسْمِ شَيْءٍ مَا (وَلَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ الْبَتَّةَ إِنْ كَانَ لَهُ اسْمٌ) وَيَعْدُونَ الْاسْمَ كَسِبًا ثَمِينًا، نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ النُّجُومَ جَمِيعًا لَهَا أَسْمَاءٌ. "إِنَّهُ يَعْلَمُ عَدَدَ النُّجُومِ، وَيَدْعُو كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِاسْمِهِ". وَهَذَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَلَحَظَ الْمَثَلَ الْمُبْهِجَ الَّذِي قَدْ يَظْهَرُ عَلَى صَفْحَةِ الْعُنْوَانِ لِكُلِّ عَمَلٍ يُعَالِجُ الرُّمُوزَ: "إِنَّ الْإِلَهَ يُدْعَى عَلَى هَذَا النَّحْوِ بِحَقٍّ". [28]

وَمَا يُعَانِيهِ الْقَرْنُ الْعِشْرُونَ مِنْ تَخْرِيْبَاتِ تِلْكَ الْخِرَافَاتِ اللَّفْظِيَّةِ أَكْبَرُ، عَلَى نَحْوِ مَا، مِمَّا عَانَاهُ أَيُّ عَصْرِ سَابِقٍ. عَلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ التَّطَوُّرَاتِ الْحَاصِلَةَ فِي مَنَاجِحِ التَّوَاصِلِ، وَخَلَقَ عِدَّةَ أَنْظِمَةٍ رَمْزِيَّةٍ خَاصَّةٍ، تَغَيَّرَ شَكْلُ الْمَرَضِ بِوُضُوحٍ، وَبِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الثَّبَاتِ الْغَرِيبِ لِلْمُنَافَحَاتِ الدِّبْنِيَّةِ أَصْبَحَ يَتَّخِذُ أَشْكَالًا أَكْثَرَ مَكْرًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي. إِنَّ التَّأَثِيرَاتِ الَّتِي تُخْدِتُ الْإِنْتِشَارَ الْوَاسِعَ لِهَذَا الْمَرَضِ هِيَ: التَّعْقِيدُ الْمُحْيِرُ فِي الْمَنْظُومَةِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي تَحْتَ تَصَرُّفِنَا الْآنَ؛ وَامْتِلَاكُ

(26) وَتَعْنِي: شُكْرًا لِلَّهِ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ. [الْمُتَرْجِم]

(27) وَتَعْنِي: الزَّمَةُ لِلَّهِ الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ. [الْمُتَرْجِم]

(28) سِفْرُ الْخُرُوجِ 33: 17. [الْمُتَرْجِم]

الصُّحُفِيِّينَ وَالْأَدَبَاءَ مُفْرَدَاتٍ لُغَوِيَّةً شَبَّهَ اصْطِلَاحِيَّةً هَائِلَةً مَعَ عَدَمِ تَوَافُرِ الْفُرْصَةِ أَوْ الرَّغْبَةِ لَدَيْهِمْ لِلاِسْتِفْسَارِ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا الْلاَّتِقِ؛ وَنَجَاحِ الْمَفْكَرِينَ التَّحْلِيلِيِّينَ فِي مَجَالَاتٍ مُتَاخِمَةٍ لِلرِّيَاضِيَّاتِ حَيْثُ يَكُونُ الطَّلَاقُ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالْوَاقِعِ صَرِيحًا جَدًّا وَالْمِيلُ إِلَى إِضْفَاءِ الصِّفَةِ الْمَادِّيَّةِ مُغْرِبًا جَدًّا؛ وَالتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ أَشْكَالِ أَكْثَرِ بَسَاطَةٍ لِلْمَوَاضِعِ الرَّمْزِيَّةِ (الرَّاءَاتِ الثَّلَاثِ the three R's⁽²⁹⁾)، وَارْتِبَاطُ ذَلِكَ بِاتِّسَاعِ الْفُجْوَةِ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالتَّفَكُّيرِ الْعِلْمِيِّ لِلْعَصْرِ؛ وَأَخِيرًا اسْتِغْلَالُ آلَاتِ الطَّبَاعَةِ وَذَلِكَ بِنَشْرِ الْقَوَالِبِ اللَّفْظِيَّةِ الثَّابِتَةِ clichés وَتَكَرُّرِهَا لِأَغْرَاضٍ سِيَاسِيَّةٍ وَتِجَارِيَّةٍ.

إِنَّ الْحُضُورَ الْمُبْلَغَ لِوَجْهِهِ النَّظَرِ اللَّغَوِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ فِي أَعْمَالِ أَكْثَرِ الْمَفْكَرِينَ عُمَمًا فَضْلًا عَنْ عُمُومِ الْعَالَمِ الدِّينِيِّ هُوَ، حَقًّا، وَاحِدَةٌ مِنْ أَكْثَرِ السَّمَاتِ لَفَتَا لِلنَّظَرِ فِي الْفِكْرِ الْمُعَاوِرِ. فَقَدْ سَيَّطَرَ عَلَى فِلَسَفَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ تَقْلِيدٌ مِثَالِيٌّ اسْتَبْدَلَ فِيهِ التَّوَسُّعُ فِي الْمَنْظُومَةِ الرَّمْزِيَّةِ الْهَائِلَةِ (يُقَدَّمُ الدِّيَالَكْتِيكُ الْهِيْغَلِيّ⁽³⁰⁾ Hegelian Dialectic⁽³¹⁾ مِثَالًا لَفَتَا لِلنَّظَرِ بِهَذَا الشَّانِ) بِالْبَحْثِ الْمُبَاشِرِ، وَكَانَ

(29) تُشِيرُ إِلَى بَرْنَامِجِ التَّعْلِيمِ الْمُوْجَّهٍ لِلْمَهَارَاتِ الْآسَاسِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ، الَّذِي يَشْمَلُ: الْقِرَاءَةَ

/reading، وَالْكِتَابَةَ w/riting، وَالحِسَابَ a/rithmetic. [المُترجم]

(30) كَلِمَةُ (دِيَالَكْتِيك) الَّتِي تُتَرْجَمُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ بِـ(جَدْلِيَّة) مُسْتَقْتَفًى مِنَ الْفِعْلِ الْيُونَانِيِّ dialegein الَّذِي يَعْنِي تَحْدِيدًا الْكَلَامَ 'عَبْرَ' الْمَجَالِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْمُتَحَاوِرِينَ بِوَصْفِهِ طَرِيقَةً اسْتِقْصَاءٍ وَضَعَهَا زَيْنُونُ الْإِيلِي، قَبْلَ أَنْ تَسْتَكْمِلَ شَكْلَهَا عَلَى يَدِ أَفْلَاطُونِ الَّذِي تَعْنِي الْكَلِمَةُ عِنْدَهُ أَيْضًا التَّقْسِيمَ الْمُنطَقِيَّ الَّذِي يُوصِلُ الْمَرَّةَ عَبْرَ الْمَقَارَبَةِ إِلَى اكْتِشَافِ الْمَعَانِي الْآسَاسِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ (أَوْ الْمُثَلِّ). وَعَازَتْ الْجَدْلِيَّةُ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ لِنَكْتِسَبِ عَلَى يَدِ الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ هِيْغَلِ (1770-1831م) مَعْنَى فِلَسْفِيًّا جَدِيدًا وَعَمِيقًا مَا زَالَ سَائِدًا حَتَّى السَّاعَةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ مُؤَسَّسَ الْمَنَالِيَّةِ الْمَطْلَقَةِ جَعَلَ مِنْهَا قَانُونًا يَحْدُدُ مَسِيرَةَ الْفِكْرِ وَالْوَاقِعِ عَبْرَ تَفَاعُلَاتِ النَفْسِ الْمُتَتَالِيَةِ لِلْأَطْرُوحَةِ these، وَالنَّقِضَةِ antithese، وَحُلَّ لِشَكَالِيَّاتِ الْمُتَنَاقِضَاتِ الْقَائِمَةِ مِنْ خِلَالِ الْارْتِقَاءِ إِلَى التَّرْكِيبِ synthese، الَّذِي سَرَعَانِ مَا يَتَجَاوَزُ هُوَ أَيْضًا، مِنَ الْمُنْتَظَلِّيِ نَفْسِهِ. وَهَكَذَا يَتَحَوَّلُ 'الْفِعْلُ السَّلْبِيُّ' لِيُصْبِحَ جُزْءًا مِنَ الصِّيُورَةِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُهُ عِنْدَ هِيْغَلِ مُحَرِّكًا لِلتَّأْرِخِ وَالطَّبِيعَةِ وَالفِلَسَفَةِ. [المُترجم]

(31) يُوَارِثُ بِيُوتِ Jowett بَيْنَ دِيَالَكْتِيكِي هِيْغَلِ وَأَفْلَاطُونِ يَقُولُ: 'رُبَّمَا لَيْسَ ثَمَّةَ غَيْبٍ فِي مَنْظُومَةِ هِيْغَلِ أَكْبَرُ مِنْ افْتِقَارِهَا إِلَى نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ سَلِيمَةٍ'. - The Dialogues of Plato,

بُورَةُ الْاهْتِمَامِ. وَاسْتَهْلَ الْقَرْنُ الْعِشْرُونَ بِتَحْلِيلٍ دَقِيقٍ لِأَسْرَارِ الرِّيَاضِيَّاتِ اسْتِنَادًا إِلَى 'أَفْلَاطُونِيَّةٍ' [29] أَكْثَرَ صِرَاحَةً مِنْ أَفْلَاطُونِيَّةٍ وَأَقْبَعِيْن نَقْدِيَيْنِ Critical Realists⁽³²⁾ مُعَيَّنَيْنِ فِي عَامِ 1921م⁽³³⁾. وَبِذَلِكَ أَصْبَحْنَا نَقْرَأُ الْآتِي:

*أَنَا أَطْلُقُ اسْمَ الْحَدِّ term على كُلِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا لِلْفِكْرِ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوْجَدَ فِي آيَةٍ قَضِيَّةٍ صَادِقَةٍ أَوْ كَاذِبَةٍ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَدَّ كَذَلِكَ... فَكُلُّ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَاللَّحْظَةِ، وَالرَّقْمِ، وَالطَّبَقَةِ، وَالْعَلَاقَةِ، وَالْكَائِنِ الْخُرَافِيِّ، وَأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ يُمَكِّنُ ذِكْرَهُ، لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ حَدٌّ، وَإِنْكَارُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّيْءُ أَوْ ذَاكَ حَدًّا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا... فَلِلْحَدِّ جَمِيعُ الْخَصَائِصِ الَّتِي تُعْزَى عَادَةً إِلَى الْمَوَادِّ وَالْأَسْمَاءِ... وَكُلُّ حَدٍّ غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ وَلَا لِلتَّحْطِيطِ. الْحَدُّ هُوَ الْحَدُّ، وَلَا يُمَكِّنُ تَخِيلُ تَغْيِيرٍ مَا فِيهِ لَا يُحْطَمُ هَوِيَّتُهُ وَلَا يُحِيلُهُ حَدًّا آخَرَ... وَهُمُكِّنُ تَمْيِيزَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحُدُودِ هُمَا عَلَى التَّوَالِي: الْأَشْيَاءُ، وَالْمَفَاهِيمُ⁽³⁴⁾.

وَبِمُسَاعَدَةِ ذَلِكَ السَّيْفِ اللَّفْظِيِّ الْغَرِيبِ أَدْعَيْتُ عِدَّةَ فَرَقَاتٍ مَلْمُوسَةٍ. وَهَكَذَا فَإِنَّ نَظَرِيَّةَ 'الْصِّفَاتِ أَوْ التَّعْوِثِ أَوْ الْأَشْيَاءِ الْمَثَالِيَّةِ' الَّتِي هِيَ عَلَى نَحْوِ مَا أَقُلُّ مَادِّيَّةٌ وَأَقُلُّ بَقَاءٌ ذَاتِيًّا وَأَقُلُّ مُطَابَقَةٌ ذَاتِيَّةٌ، مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ، تَغْدُو مُخْطِئَةً تَمَامًا⁽³⁵⁾؛ وَاسْتَبْعَدَتْ مِنْظُومَاتٍ فِلْسَفِيَّةً بِتَمَامِهَا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ 'السَّمَاخَ (الْمَتَضَمَّنَّ

(32) الْوَاقِعِيَّةُ النَّقْدِيَّةُ هِيَ النَّظَرِيَّةُ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ بَعْضَ مُعْطَيَاتِنَا الْجِسْمِيَّةِ (كَالْمَتَعَلِّقِ مِنْهَا بِالْصِّفَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ) يُمَكِّنُهَا أَنْ تُثَمَّلَ، بَلْ إِنَّهَا تُثَمَّلُ بِدِقَّةٍ مَا فِي الْخَارِجِ مِنْ أَشْيَاءٍ، وَخَوَاصٍّ، وَأَحْدَاثٍ، فِي حِينِ أَنَّ بَعْضًا آخَرَ مِنْ مُعْطَيَاتِنَا الْجِسْمِيَّةِ (كَالْمَتَعَلِّقِ مِنْهَا بِالْصِّفَاتِ الثَّانَوِيَّةِ وَالْأَوْهَامِ النَّصُورِيَّةِ) لَا تُثَمَّلُ بِدِقَّةٍ آيَةً أَشْيَاءً، وَلَا خَوَاصٍّ، وَلَا أَحْدَاثٍ. وَبِعِبَارَةٍ بَسِيطَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْوَاقِعِيَّةَ النَّقْدِيَّةَ تُسَلِّطُ الضُّوءَ عَلَى الْجَانِبِ التَّابِعِ لِلْعَقْلِ مِنَ الْعَالَمِ، الَّذِي يُفْضِي إِلَى فَهْمِ الْعَالَمِ الْمُسْتَقِلِّ عَنِ الْعَقْلِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(33) يُنْظَرُ: الْفَصْلُ الثَّامِنُ، الصَّفْحَةُ (164) فَمَا بَعْدَهَا.

(34) B. Russell, *The Principles of Mathematics* (1903), Vol. I., pp. 43- 44.

(35) *Ibid.*, P. 46.

في ذكرِ *mention* الإنسانِ أو الكائنِ الخُرَافِيِّ بِعِدَّةِ حُدُودِ *terms* يُحَظَّمُ
الوَاحِدِيَّةُ⁽³⁶⁾؛ وَشِدَّتْ مُجَدِّدًا أَفَلَاطُونِيَّةُ مُعَاصِرَةُ أُعِيدَ بِوَسَاطِئِهَا تَاهِيلُ عَالَمٍ يَقِينِي
مِنْ 'الْأَشْيَاءِ *things*' 'الْمَذْكُورَةِ *mentioned*' بِوَسَاطَةِ 'حُدُودِ *terms*'، عَالَمِ
النُّكَلِيَّاتِ. هُنَا يَبْنِي الْعَقْلُ مَسَكَّنًا، 'أَوِ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ يَجِدُ مَسَكَّنًا سَرْمَدِيَّ
الْبَقَاءِ، تُشْبِعُ فِيهِ كُلَّ مُثُلِنَا، وَلَا تُحْبِطُ أَفْضَلُ أَمَانِيْنَا. وَلَنْ نَسْتَطِيعَ إِدْرَاكَ الْأَهْمِيَّةِ
الْعَمِيقَةِ لِجَمَالِهِ إِدْرَاكًا كَافِيًا مَا لَمْ نَفْهَمْ فَهْمًا شَامِلًا الْإِسْتِقْلَالَ التَّامَّ لِأَنْفُسِنَا الَّذِي
يَنْتَمِي إِلَى ذَلِكَ الْعَالَمِ الَّذِي يَجِدُهُ الْعَقْلُ'⁽³⁷⁾. فَكُلُّ شَيْءٍ هُنَا 'غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ،
وَصَارِمٌ، وَدَقِيقٌ، وَمُبْهَجٌ لِعَالَمِ الرِّيَاضِيَّاتِ، وَلِعَالَمِ الْمُنْطَقِ، وَلِمُشِيدِ الْأَنْظَمَةِ
الْمِيتَافِزِيْقِيَّةِ، وَلِكُلِّ مَنْ حُبَّهُ لِلْكَمَالِ أَكْبَرُ مِنْ حُبِّهِ لِلْحَيَاةِ'. وَقَدْ رُكِّيَ هَذَا الْعَالَمُ
لِلْإِنْسَانِ الْكَادِحِ، فِي مُقَابِلِ [30] عَالَمِ الْوُجُودِ 'السَّرِيعِ، الْمُبْهَمِ، الَّذِي لَا حُدُودَ
صَارِمَةً لَهُ، وَالَّذِي لَا مُحَظَّظَ وَلَا تَرْتِيبَ وَاضِحِينَ لَهُ'، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ 'يَحْوِي
جَمِيعَ الْأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ'. وَكِلَا الْعَالَمَيْنِ مَوْجُودٌ بِالْقَدْرِ نَفْسِيهِ، وَمُسْتَحَقٌّ لِلتَّأَمُّلِ
بِالْقَدْرِ نَفْسِيهِ، وَ"تَفْضِيلُنَا لِلتَّأَمُّلِ أَحَدِهِمَا أَوْ الْآخَرِ مَرَّةً إِلَى أَمْرَجَتِنَا"⁽³⁸⁾.

وَمِنَ الْمُؤَسِّفِ أَنَّ الْأَفَلَاطُونِيِّينَ الْمُعَاصِرِينَ يَنْدُرُ جِدًّا أَنْ يُتَابِعُوا أَفَلَاطُونَ فِي
مَحَاوَلَاتِهِ أَنْ يَدْرُسَ الرُّمُوزَ دِرَاسَةً عِلْمِيَّةً، وَلَكِنْ مِنَ الْمُثِيرِ أَنْ يُلْحَظَ إِدْرَاكُهُمْ
اتِّصَالَ نَظَرِيَّتِهِمْ بِأَوْتَقِ اسْبَابِ النَّسَبِ بِالْفِكْرِ الْإِغْرِيقِيِّ؛ إِذْ إِنَّ لِكُلِّهِمَا أَصْلًا فِي
الْعَادَاتِ اللَّغَوِيَّةِ أَنْفُسُهَا. إِنَّ أَصَالََةَ الْمُنْطَقِيِّيِّ الْمُعَاصِرِ تَجَنُّحٌ إِلَى إِخْفَاءِ الْأُسُسِ
الْلَفْظِيَّةِ لِبِنَائِهِ، فِي حِينِ تَظْهَرُ هَذِهِ الْأُسُسُ وَاضِحَةً فِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ. وَكَانَتْ

Ibid., P. 44. (36)

Mysticism and Logic (1918), p.69. (37)

B. Russell, *The Problems of Philosophy*, Home University Library, p. 156. (38)

وَالذَّهَابُ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ أَجْزَاءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، الَّذِي قَدْ يُمَيِّزُهُ السَّيِّدُ رَسِيلَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُ ذُو
أَسَاسٍ لُغَوِيٍّ بَحْثٍ، مَا زَالَتْ مُلْتَصِفَةً بِالْكَوْنِ الْمَتَصَوِّرِ فِي كِتَابِهِ تَحْلِيلُ الْعَقْلِ *Analysis of Mind*
الْمَنْشُورِ فِي سَنَةِ 1921، يُمَكِّنُ الرُّقُوفَ عَلَيْهِ فِي الصَّفْحَةِ 54 مِنْهُ. وَمِنْ الْمُمْكِنِ
مَعْرِفَةُ آخِرِ إِقْرَارَاتِهِ فِي الصَّفْحَةِ 688 مِنْ كِتَابِ فِلْسَفَةِ بَرْتَرَانْدِ رَسِيلَ *The Philosophy of Bertrand Russell* (1944)، وَفِي الصَّفْحَةِ 34 مِنْ دَوْرِيَّةِ *Polemic* 2 (1946).

كِتَابَاتِ الْكُتَّابِ الْأَوَّلِ مَمْلُوءَةٌ بِمُخْلَفَاتِ سِحْرِ الْكَلِمَةِ الْبِدَائِي. إِنَّ تَصْنِيفَ الْأَشْيَاءِ يَعْنِي تَسْمِيَتَهَا، وَيَقْدِرُ تَعْلُقُ الْأَمْرِ بِالسَّحْرِ فَإِنَّ اسْمَ شَيْءٍ مَا أَوْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَعْنِي نَفْسُهُ؛ فَمَعْرِفَةُ أَسْمَائِهَا تَعْنِي امْتِلَاكَ السَّيْطَرَةِ عَلَى نَفْسِهَا. فَمَا مِنْ شَيْءٍ، سِوَاءِ أَكَانَ بَشَرِيًّا أَمْ فَوْقَ مُسْتَوَى الْبَشَرِ، يُعْجِزُ سُلْطَةَ الْكَلِمَاتِ. وَاللُّغَةُ نَفْسُهَا مَا هِيَ إِلَّا نُسخَةٌ طَبَقَ الْأَصْلُ أَوْ نَفْسٌ ظِلٌّ لِنَبِيَةِ الْوَاقِعِ جُمْلَةً. وَمِنْ هُنَا نَشَأُ مَبْدَأُ اللُّوْغُوسِ Logos⁽³⁹⁾ الَّذِي مِثْلُ مَفَاهِيمِ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا أَنَّ هَذَا الْوَاقِعَ الْأَسْمَى، الْمَادَّةُ الرُّوحِيَّةُ الْمُقَدَّسَةُ، وَأَنَّهُ 'مَعْنَى' كُلِّ شَيْءٍ أَوْ عِلَّتُهُ، وَأَنَّهُ 'مَعْنَى' الْاسْمِ أَوْ جَوْهَرُهُ⁽⁴⁰⁾.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْإِرْتِ الْدِينِيَّ الَّذِي أَذْمَجَهُ فَلَاسِفَةُ الْإِغْرِيْقِ الْأَوَّلُونَ فِي أَنْظِمَتِهِمُ الْخَاصَّةِ أَسْهَمَ فِي تَقْبُلِ الْإِغْرِيْقِ لِفِكْرَةِ عَالَمٍ آخَرَ لِلْوُجُودِ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، عَدَّ طَالِيْسُ Thales⁽⁴¹⁾ طَبِيعَةَ الْأَشْيَاءِ، أَيْ وَجُودَهَا الطَّبِيعِيَّ *physis*، مِمَّا لَا يَقَعُ فِي مُتَنَاقِلِ الْحَوَاسِّ، وَمَادَّةٌ أَوَّلِيَّةٌ ضَعِيفَةٌ تُغْزَى دَوْمًا إِلَى النَّفْسِ وَالْأَشْبَاحِ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَنِ الْجَسَدِ [31] إِلَّا فِي كَوْنِهَا غَيْرَ مَلْمُوسَةٍ وَغَيْرَ مَرْتَبِيَّةٍ.

(39) اللُّوْغُوسُ: مِنْ أَشَدِّ الْكَلِمَاتِ أَهْمِيَّةً وَأَكْثَرَهَا غُمُوضًا فِي الْفِكْرَيْنِ الْغَرِبَيْنِ الدِّينِيَّ وَالْفَلَسَفِيَّ؛ إِذْ تَدُلُّ فِي سِيَاقَاتٍ شَتَّى عَلَى مَدْلُولَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَالْخِطَابِ، وَاللُّغَةِ، وَالْعَقْلِ الْكُلِّيِّ، وَكَلِمَةِ الْإِلَهِ. بَدَأَ ظَهُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعَ هِيرَاقْلِيْطُسَ (535-475 ق.م) الَّذِي اسْتَعْمَلَهَا لِلتَّبْعِيْرِ عَنِ مَبْدَأِ النِّظَامِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَاسْتَعْمَلَ الْفَلَاسِفَةُ الْقَدَمَاءُ الْكَلِمَةَ بِطَرَائِقَ مُخْتَلَفَةٍ؛ فَالْسُوفِسْتَائِيُونَ اسْتَعْمَلُوهَا لِلذَّلَالَةِ عَلَى الْخِطَابِ، وَاسْتَعْمَلَهَا أَرِسْطُو لِلذَّلَالَةِ عَلَى الْخِطَابِ الْمُعْقَلَنِ أَوْ (الْحُجَّةِ) فِي مَجَالِ الْبَلَاغَةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

Cornford, *op. cit.*, *From Religion to Philosophy*, pp.141, 186, 248. (40)

(41) طَالِيْسَ (634-543 ق.م). أَحَدُ فَلَاسِفَةِ الْإِغْرِيْقِ قَبْلَ سُقْرَاطِ، وَأَحَدُ الْحُكَمَاءِ السَّبْعَةِ. يَعُدُّهُ الْكَثِيرُونَ الْفِيلَسُوفَ الْأَوَّلَ فِي الثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَأَبَا الْعُلُومِ لِأَنَّهُ حَاولَ تَفْسِيرَ الْعَالَمِ تَفْسِيرًا عَقْلِيًّا بِرَدِّهِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى الْمَاءِ، أَيْ بِذَهَابِهِ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ جَوْهَرُ أَصْلِيِّيَّ شَيْعٍ فِي الطَّبِيعَةِ، وَأَنَّهُ أَصْلُ جَمِيعِ الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَقَالَ إِنَّ الْعَالَمَ حَاقِلٌ بِالنَّفْسِ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ فِعْلٍ مَصْدَرُهُ النَّفْسُ، وَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ يَمُوجُ بِالْحَرَكَةِ، فَالنَّفْسُ إِذَنْ مُنْبَتَّةٌ فِي كُلِّ الْعَالَمِ، وَكُلُّ مَا فِيهِ لَهُ نَفْسٌ، حَتَّى الْجَمَادُ. وَضَرَبَ مَثَلًا حَجَرَ الْمَغْنَطِيسِ؛ إِذْ يُحَرِّكُ الْحَدِيدَ، فَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ لَهُ نَفْسٌ. فَمَبْدَأُ الْحَرَكَةِ هُوَ النَّفْسُ، وَالْحَرَكَةُ كُلِّيَّةٌ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ النَّفْسُ كُلِّيَّةً. [الْمُتَرْجِمُ]

وبذلك كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِعَالَمِ الْوُجُودِ، الَّذِي تَسْكُنُهُ الْكِيَانَاتُ الرَّائِفَةُ، الْقَدَرُ الْأَدْنَى مِنَ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي لَوْلَاهَا لَمْ يَكُنْ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ مَا تَحْتَ التَّصَوُّرِ. وَلَكِنْ بِنُتْوَظَرِ عِلْمِ الْمُنْطَقِ، وَبِتَعَاظُمِ الْاهْتِمَامِ بِسُلْطَةِ الْكَلِمَاتِ فَقَدَتِ تِلْكَ الْمَادِّيَّةُ تَدْرِيجِيًّا، حَتَّى أَنْشَأَ أَفْلَاطُونُ ⁽⁴²⁾ Plato فِي مُحَاوَرَةِ الْمَادِّيَّةِ Symposium 211⁽⁴³⁾، وَفِي مُحَاوَرَةِ فِيدُونِ Phaedo 80⁽⁴⁴⁾، عَالَمًا مِنَ الْمَثَالِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَصِفَتْ كَذَلِكَ بِالْوُجُودِ الطَّبِيعِيِّ physis، الَّذِي تَسْكُنُ النُّفُوسُ الْأَسْمِيَّةُ فِيهِ نَفْيَةً، وَمُقَدَّسَةً، وَخَالِدَةً، وَجَلِيَّةً، وَمُتَسَيِّقَةً، وَغَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّحْلُلِ، وَلَا لِلتَّغْيِيرِ.

وَهَذَا التَّطَوُّرُ نَاجِمٌ، إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ، عَنْ تَأْثِيرِ الْفِيثَاغُورِيَّةِ Pythagoreanism⁽⁴⁵⁾، وَإِنَّ الْمَرَا حَلَ الَّتِي تَخَلَّلَتْهُ ذَوَاتُ أَهْمِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي

(42) أَفْلَاطُونُ (428-427/348-347 ق.م). فِيلَسُوفٌ يُونَانِيٌّ كَلَّاسِيكِيٌّ. يُعَدُّ مُؤَسَّسَ أَكَادِمِيَّةٍ أَيْنَا الَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَعْهَدٍ لِلتَّعْلِيمِ الْعَالِي فِي الْعَالَمِ الْغَرْبِيِّ. مُعَلِّمُهُ سُقْرَاطُ وَتَلْمِيذُهُ أَرِسْطُو. وَيُعَدُّ وَاضِعَ الْأَسْسِ الْأَوَّلَى لِلْفَلَسَفَةِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْعُلُومِ. انْتَضَحَ نُبُوغُهُ وَأَسْلُوبُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهِ السُّقْرَاطِيَّةِ (نَحْوُ ثَلَاثِينَ مُحَاوَرَةً) الَّتِي تَنَاوَلَتْ مَوْضُوعَاتٍ فِلَسْفِيَّةً شَتَّى، كَالْمَعْرِفَةِ، وَالْمُنْطَقِ، وَاللُّغَةِ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ، وَالْمِيتَافِيزِيْقَا، وَالْأَخْلَاقِ، وَالسِّيَاسَةِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(43) غُتُونُ مُحَاوَرَةٍ مَشْهُورَةٍ لِأَفْلَاطُونِ فِي الْحُبِّ، أَجْرَى فِيهَا الْحَوَارِ بَيْنَ سُقْرَاطُ وَبَعْضِ مُعَاصِرِيهِ مِنَ الْفَلَسَفَةِ وَالْأَطْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ وَالسُّوْفِسْطَاطِيِّينَ وَرِجَالِ السِّيَاسَةِ. وَالْمُحَاوَرَةُ تُصَوِّرُ فِي مَجْمُوعِهَا مَذْهَبَ سُقْرَاطُ فِي الْحُبِّ، وَمُلَحَّضُهَا أَنَّ الْحُبَّ يَبْعُثُ فِي الْإِنْسَانِ الْإِحْسَاسَ بِالشَّرَفِ وَيُنْمِي فِيهِ الْإِيثَارَ وَرُوحَ التَّضْحِيَّةِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحُبِّ: نَوْعٍ دَنِيٍّ وَضَيْعٍ يُلَبِّي النِّزَاعَاتِ الْجَنْسِيَّةَ، وَهُوَ حُبُّ النِّسَاءِ وَالْحُبِّ الشَّادِّ لِلْغِلْمَانِ؛ وَنَوْعٍ نَبِيلٍ شَرِيفٍ يَخْلُو خَلْقًا تَامًا مِنْ كُلِّ نَزْعَةٍ جَسَدِيَّةٍ وَشَهْوَةٍ بَهِيمِيَّةٍ، وَهُوَ الْحُبُّ النَقِيُّ الْبَرِيءُ الَّذِي يَرْتَفِعُ عَنِ الصِّغَاثِرِ وَيَنْتَرِهُ عَنِ الدُّنَايَا وَيُكَيِّسُ صَاحِبَهُ الْمَعْرِفَةَ وَالْحِكْمَةَ وَالْفَضِيلَةَ، كَالْحُبِّ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ الْأُسَاتِذِ وَتَلَامِيذِهِ أَوْ مُرِيدِيهِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(44) غُتُونُ مُحَاوَرَةٍ مَشْهُورَةٍ لِأَفْلَاطُونِ تَدُورُ وَقَاتِعُهَا فِي السَّجْنِ الَّذِي قَبِعَ فِيهِ سُقْرَاطُ بَطْلُ الْمُحَاوَرَةِ، الَّذِي تَحَدَّثَ فِي السَّاعَاتِ الْآخِرَةِ قَبْلَ مَوْتِهِ عَنِ النَّفْسِ وَمَاهِيَّتِهَا وَالدَّلَائِلِ عَلَى خُلُودِهَا وَمَصِيرِهَا. وَالْمُحَاوَرَةُ مَرْوُتَةٌ مِنْ مَنْظُورِ أَحَدِ تَلَامِيذِ سُقْرَاطُ، وَيُدْعَى فِيدُونُ الْأَلِسِيِّ، فَالِيهِ تُنْسَبُ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(45) الْفِيثَاغُورِيَّةُ: مَدْرَسَةٌ فِلَسْفِيَّةٌ وَأَخَوِيَّةٌ دِينِيَّةٌ يُعْتَقَدُ أَنَّ فِيثَاغُورِسَ أَنْشَأَهَا فِي جَنُوبِ إِيطَالِيَا. وَفِيثَاغُورِسَ (570-495 ق.م) فِيلَسُوفٌ إِغْرِيقِيٌّ اِهْتَمَّ بِالرِّيَاضِيَّاتِ اِهْتِمَامًا كَبِيرًا =

تأريخ الرموز. وكان هيراقليطس Heracleitus⁽⁴⁶⁾ أوّل من احتكّم إلى الكلمات بوصفها مُجسّدة لطبيعة الأشياء، وتأثيره في أفلاطون جليّ في مُحاورَة أقراطيلوس Cratylus⁽⁴⁷⁾. لقد رأى هيراقليطس اللغة الشّيء الأكثر ثباتًا في عالم دائم التغيّر، وتعبيرًا عن الحكمة المشتركة عند البشر جميعًا، وبنية الكلام الإنساني، عنده، تعكسُ بنية العالم الخارجي. إنَّها تجسيدٌ لتلك البنية - واللّوغوس مُحتوى فيها، كما يُمكن أن يُحتوى معنى ما في عدّة رموزٍ مختلفةٍ خارجيّة⁽⁴⁸⁾.

ومن جهةٍ أخرى، سيّث رموزُ الأعدادِ خيرةٌ كبيرةٌ للفيثاغوريين. إذ قال أرسطو⁽⁴⁹⁾

= ولا سيّما بالأرقام، واهتمّ بالموسيقى أيضًا وذكر أن الكون يتألف من التمازج بين العدد والنعم. ويعتقد فيثاغورس وتلاميذه أن كلّ شيءٍ مرتبطٌ بالرياضيات، فمن ثمّ يُمكن التنبؤ بكلّ شيءٍ وقياسه على شكل حلقاتٍ إيقاعيّة. واشتهر بمبرهنته في الرياضيات التي مفادها: أنّه في المثلث القائم الزاوية يكون مربع طول الوتر مساويًا لمجموع مربعي طولي الضلعين المحاذيين للزاوية القائمة. [المُترجم]

(46) هيراقليطس (535-475 ق.م). فيلسوف يوناني قبل سقراط، قال بالتغيّر الدائم، وعبر عن ذلك بقوله: كلّ شيءٍ في جريانٍ دائم. والقول المشهور الذي يُعبّر به هيراقليطس عن هذا المبدأ هو: لا تستطيع أن تنزل في النهر نفيه مرتين. ويُضيف إليه فلوطرخس التفسير الآتي: لأنّ مياهًا جديدةً تندفق فيه. [المُترجم]

(47) عنوان مُحاورَة مشهورة لأفلاطون تُمثل إحدى الكتابات الأولى له وربما الاستثناء الوحيد بين مُحاوراته الأولى من حيث موضوعها الرئيس؛ ذلك بأنّ هذه المحاورات قد غلب عليها عمومًا المضمون الأخلاقي، في حين أنّ الموضوع الأساسي لهذه المحاورَة هو أصل اللغة والأسماء، وإن كانت قد تطرّقت عَرَضًا إلى موضوعاتٍ مُتنوّعة. وأقراطيلوس أثينيّ عاصر سقراط، لكن يبدو أنّه كان أصغر منه سنًا، وكان من أتباع هيراقليطس، وارتبط به أفلاطون في شبابه. وقد صوّره أفلاطون في مُحاورَة (أقراطيلوس) وهو يطرّح فلسفته في الأسماء التي مفادها أن كلّ شيءٍ له اسم، وأنّ الطبيعة قد أضفت هذه الأسماء على الأشياء، وأنّها تصف طبيعة هذه الأشياء. [المُترجم]

Cornford, op. cit., p.192.

(48)

(49) أرسطو (384-322 ق.م). فيلسوف يوناني. تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وأحد عظماء المفكرين. تناولت كتاباته عدّة مجالات كالفيزياء، والميتافيزيقا، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق، والبلاغة، واللغويات، والسياسة، والحكومة، والأخلاق، وعلم الأحياء، وعلم الحيوان. ويُعدّ أحد أهمّ مؤسسي الفلسفة الغربية. [المُترجم]

Aristotle⁽⁵⁰⁾: "لَمَّا بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ مُنَمَّطًا بِتَمَامِ طَابَعِهِ عَلَى أَسَاسِ الْأَعْدَادِ، وَكَانَتْ الْأَعْدَادُ هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمَطْلُوقَةُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، بَاتُوا مُقْتَنِعِينَ بِأَنَّ عَنَاصِرَ الْأَعْدَادِ هِيَ عَنَاصِرُ كُلِّ شَيْءٍ". والحقُّ أَنَّ الفِثاغوريَّةَ فِي مَرَاحِلِهَا الْآخِرَةِ عَبَّرَتْ مِنْ مَذْهَبِ أَنَّ الْعَالَمَ انْتِشَاقٌ لِلْأَعْدَادِ مِنَ الْفَرْدِ the One إِلَى بَنِيَّةِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُنْبَيِّقٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْعَدَدِيَّةِ، وَكُلُّ يَدْعِي وَجُودًا خَالِدًا مُسْتَقِلًّا⁽⁵¹⁾. [32]

وَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بَارْمِينِيدِسُ Parmenides⁽⁵²⁾ الَّذِي شَعَلَتْهُ وَطَائِفُ الرُّمُوزِ السَّالِيَّةِ؛ فَإِذَا لَمْ يَعْزِ "بَارِدٌ" سِوَى مَا يَعْزِيهِ "غَيْرُ حَارٍّ"، وَلَمْ يَعْزِ "مُظْلِمٌ" سِوَى مَا يَعْزِيهِ "غَيْرُ مُضِيٍّ"، فَكَيْفَ يُمَكِّنُنَا التَّحَدُّثُ عَنْ غِيَابَاتِ الْأَشْيَاءِ؟ وَيَقُولُ: "نَمَّةٌ جِسْمَانِ قَرَّرَ الْبَشَرُ تَسْمِيَتَهُمَا، وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْعُوا تَسْمِيَةً أَحَدَهُمَا، وَهَذَا مَا ضَلُّوا طَرِيقَهُمْ فِيهِ". لَقَدْ سَمَّوْا أَشْيَاءَ هِيَ لَيْسَتْ بِأَشْيَاءَ، هِيَ غَيْرُ أَشْيَاءَ (μῆρόν). لَكِنْ زِيَادَةٌ عَلَى مُشْكَلَةِ الْوَقَائِعِ السَّالِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ أَفَلَاطُونَ يَنْهَضُ بِمَهْمَةِ الْفَحْصِ الْجَادِّ الْأَوَّلِ لِعِلَاقَاتِ الْفِكْرِ وَاللُّغَةِ (Sophist, 261)، أَوْرَثَ بَارْمِينِيدِسَ أَفَلَاطُونَ أَحَاجِيَّةَ الْمِبْهَمَةِ بِشَأْنِ الْفَرْدِ the One وَالتَّمَعَّدِ the Many الَّتِي كَانَتْ لَهَا هِيَ

Metaphysics, A.5; trans. A. E. Taylor.

(50)

(51) يَزُودُنَا الدُّكْتُورُ أَلِيْنْدِي R. Allendy فِي كِتَابِهِ زَمْرِيَّةُ الْأَعْدَادِ، مَقَالَةٌ فِي الْأَرْتِمُوصُوفِيَا Le Symbolisme des Nombres, Essai d'Arithmosophie، 1921، بِسَجَلٍ عَامٍّ عَنِ الْفِثاغوريَّةِ وَالْأَرْتِمُوصُوفِيَا. وَكَانَ غَرَضُ الْمُؤَلِّفِ "فَحْصَ بَعْضِ جَوَانِبِ الْمِفْتَاحِ الْعَدَدِيِّ الَّذِي يُمْوجِبُهُ أَخْفَتُ الْفَلَسَفَةِ الدِّينِيَّةِ وَالسُّرِّيَّةِ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ وَكُلِّ الْمَدَارِسِ تَعَالِيْمَهَا ... وَانْطِلَاقًا مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ وَجِبَ عَلَى دَرَاةِ الْأَعْدَادِ أَنْ تُنْشِئَ الْأَسَاسَ لِكُلِّ الْعُلُومِ السُّرِّيَّةِ Occultism وَلِكُلِّ الْفَلَسَفَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ Theosophy". وَسَيَجِدُ الْفُضُولِيُّ فِي الْمَزِيْجِ الْمَحَالِّ الَّذِي سَيُخْضَلُ دَلِيلًا كَافِيًا عَلَى أَنَّ سِحْرَ الْأَعْدَادِ لَمْ يَكُنْ يَقِلُّ شَيْعًا عَنْ سِحْرِ الْكَلِمَاتِ.

(52) بَارْمِينِيدِسُ: فِيلَسُوفٌ يُونَانِيٌّ وُلِدَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ فِي إِيلِيَا، وَهِيَ مَدِينَةُ يُونَانِيَّةٌ عَلَى السَّاحِلِ الْجَنُوبِيِّ لِإِيْطَالِيَا. ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ تَلْمِيذَ كَرِيْنُوفَانِسِ. وَيُعَدُّ أَحَدَ أَهَمِّ الْفَلَسَفَةِ قَبْلَ سِقْرَاطَ. ذَهَبَ إِلَى أَنَّ طَرِيقَةَ إِدْرَاكِتِنَا الْيَوْمِيَّةَ لِلْوَاقِعِ مُخْطِئَةٌ، وَأَنَّ وَاقِعَ الْعَالَمِ كَيُونَةٌ وَاحِدَةٌ غَيْرُ مُتَغَيِّرَةٍ وَغَيْرُ مُتَوَالِدَةٍ وَغَيْرُ قَابِلَةٍ لِلْإِنْهَارِ. وَهُوَ أَوَّلُ فِيلَسُوفٍ يَبْحَثُ بَحْثًا حَقِيقِيًّا فِي مَا وَرَاءَ الظَّاهِرِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ وَالْوُجُودِ الثَّابِتِ، عَلَى أَسَاسِ تَنَاطُرِ الْحَقِيقَةِ وَالْوُجُودِ. [المُتَرْجِمُ]

أَيْضًا جُذُورُهَا فِي اللُّغَةِ. وَلِذَلِكَ كَانَ لِأَفْلَاطُونِ كُلِّ الْعُذْرِ لِيَنْشَغَلَ بِالنَّظَرِيَّةِ
اللُّغَوِيَّةِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ تَمَامًا عَنِ الصُّعُوبَاتِ النَّاجِمَةِ عَنْ عَالَمِهِ الْمَثَالِيِّ الَّذِي كَانَ
مَسْكَنًا لِلنَّفُوسِ الْإِسْمِيَّةِ، وَعَلَاقَاتِهِ بِعَالَمِ الطَّيْنِ وَالدَّمِّ (الَّذِي تَرَدَّدَ، لِأَسْبَابِ
جَمَالِيَّةٍ، فِي إِدْخَالِ 'المُثَلِّ' ideas في كِيَانَاتِهِ، كَمَا جَادَلَ اللاهَوْتِيُّونَ فِي أَنَّ
لِلرُّنُوجِ نَفْسًا).

لِذَلِكَ كَانَ مِمَّا زَادَ الْحَظَّ سُوءًا إِهْمَالُ الْمَعَاصِرِينَ تَمَامًا مُحَاوَرَةَ أَفْرَاتِيلُوس
Cratylus التي أَوْدَعَهَا آرَاءُهُ فِي اللُّغَةِ. لَقَدْ قَبِلَ الْفِيثَاغُورِيُّونَ نَظَرِيَّةَ أَفْلَاطُونِ فِي
الْمُثَلِّ أَوْ النَّفُوسِ الْإِسْمِيَّةِ، وَلَكِنَّ عِلْمِيَّتَهُ جَعَلَتْهُ دَائِمَ الْمَقَارَبَةِ لِمُسْكَلَةِ الْأَسْمَاءِ
وَمَعْنَاهَا يَوْصِفُهَا وَاحِدًا مِنْ أَصْعَبِ مَا يُوَاجَهُ مِنَ الْبُحُوثِ. وَالتَّحْلِيلُ الَّذِي خَرَجَ بِهِ
إِنْجَازًا فَائِقًا، وَلَا سِيَّمًا أَنَّهُ جَاءَ فِي زَمَنِ لَمْ يَعْرِفْ أَهْلُوهُ شَيْئًا عَنِ الْفِيلُولُوجِيَا
الْمَقَارَنَةِ، وَلَا النَّحْوِ، وَلَا عِلْمِ النَّفْسِ، وَلَكِنَّهُ عَجَزَ عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَى تَفْرِيقِ مَتَبِنِ
بَيْنَ الرُّمُوزِ وَالْأَفْكَارِ الْمَرْمُوزَةِ. [33]

وظَلَّ التَّقْلِيدُ الرَّئِيسُ لِلْفِكْرِ الْإِغْرِيقِيِّ وَفِيًّا لِلْمَقَارَبَةِ اللَّفْظِيَّةِ. وَكَتَبَ الدُّكْتُورُ
هِيُوِيل Dr Whewell⁽⁵³⁾ قَائِلًا: ثَمَّة طَرِيقَتَانِ لِفَهْمِ الطَّبِيعَةِ؛ "تَقُومُ إِحْدَاهُمَا عَلَى
اِخْتِبَارِ الْكَلِمَاتِ وَحَدِّهَا وَالْأَفْكَارِ الَّتِي تَسْتَدْعِيهَا، وَالْأُخْرَى عَلَى الْإِهْتِمَامِ
بِالْوَقَائِعِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُخْرِجُ هَذِهِ الْأَفْكَارَ إِلَى حَيَازِ الْوُجُودِ... وَاتَّبَعَ الْإِغْرِيقِيُّ
الطَّرِيقَةَ الْأُولَى، أَيْ: الْوِجْهَةَ اللَّفْظِيَّةَ أَوْ الْفِكْرِيَّةَ، فَأَخْفَقُوا". وَنَقُولُ هُنَا مَرَّةً
أُخْرَى إِنَّ "النُّزُوعَ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْمَبَادِي الْكَامِنَةِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الشَّائِعَةِ
لِللُّغَةِ زَمَنًا كَانَ قَدْ اكْتَشِفَ فِي مَرَحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ جِدًّا... إِذْ نَجِدُ عِنْدَ
أَرِسْطُو تَحْقُقًا لِهَذَا التَّوَجُّهِ الْفِكْرِيِّ"⁽⁵⁴⁾. وَمُنْذُ زَمَنِ تَرِينْدِيلِينْبِرْغِ⁽⁵⁵⁾

(53) وِلْيَمْ هِيُوِيل (1794-1866م). إِنْجِلِيزِيٌّ مُوسِعِي الثَّقَافَةِ، وَعَالِمٌ، وَكَاهِنٌ أَنْجِلِيكَانِيٌّ،
وَفِيلَسُوفٌ، وَلاهُوتِيٌّ، وَمُؤَرِّخٌ لِلْعُلُومِ. كَانَ عَمِيدَ كَلِيَّةِ تَرِنْتِي فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِج. مِنْ آثَارِهِ:
تَارِيخُ الْعُلُومِ الْإِسْتِقْرَائِيَّةِ، وَفِلَسَفَةُ الْعُلُومِ الْإِسْتِقْرَائِيَّةِ. [المُتَرَجِم]

History of the Inductive Sciences, I, pp. 27,29.

(54)

(55) فَرِيدْرِشْ أَدُولْفُ تَرِينْدِيلِينْبِرْغِ (1802-1872م). فِيلَسُوفٌ وَفِيلُولُوجِيٌّ أَلْمَانِيٌّ. أَشْهُرُ آثَارِهِ:
عَنَاصِرُ الْمُنْطَقِ الْأَرِسْطِيِّ، وَالتَّحْقِيقَاتُ الْمُنْطَقِيَّةُ. [المُتَرَجِم]

Trendelenburg⁽⁵⁶⁾ بَاتَ مَقْبُولًا عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ عَدَمُ إِمْكَانِ دِرَاسَةِ الْمَقُولَاتِ، وَالْعَلَامَاتِ الْفَارِقَةِ الْمُشَابِهَةِ الَّتِي تُؤَدِّي دَوْرًا كَبِيرًا فِي نِظَامِ أَرِسْطُو، بِمَعْرِزِلٍ عَنْ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ. يَقُولُ غُومْبِيرِز Gomperz⁽⁵⁷⁾: "إِنَّ أَرِسْطُو كَثِيرًا مَا يَسْمَحُ لِنَفْسِهِ بِالْإِنْقِيَادِ لِأَشْكَالِ اللُّغَةِ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ دَائِمًا عَنْ عَدَمِ قُدْرَةِ عَلَى التَّحَرُّرِ مِنْ تِلْكَ الرِّوَابِطِ، وَلَكِنْ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ، فِي الْأَقْلَى، بِسَبَبِ أَنَّ مَطَالِبَ الدِّيَالَكْتِيكِ لَمْ تَكُنْ لِيَسْمَحَ لَهُ بِمُغَادَرَةِ مُعْتَرَكِهِ... وَهَكَذَا انْتَزَعَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ إِجْمَالًا وَالْعُلُومِ الْمَخْصُوصَةِ، الَّذِي كَانَ مُسْتَنَدُهُ الْوَحِيدُ حَقِيقَةً أَنَّ أَغْرَاضَ الْعُلُومِ الْمَخْصُوصَةِ مُضْمَنَةٌ فِي أَسْمَائِهَا... وَكَثِيرًا مَا يَحْكُمُ تَصْنِيفَهُ لِلْمَقُولَاتِ اعْتِبَارَاتُ الْمُلَآمَةِ لِلُّغَوِيَّةِ، وَلَا بُدَّ أَنَّ ذَلِكَ، وَيَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ (كَذَا)، جَعَلَهُ يُحْجِمُ عَنْ تَطْبِيقِهِ فِي الْأَغْرَاضِ الْإِنْطُولُوجِيَّةِ"⁽⁵⁸⁾.

لَقَدْ كَانَتْ مُمَارَسَةُ الْجَدَلِ الدِّيَالَكْتِيكِيِّ فِي زَمَنِ أَرِسْطُو تَسْتَنِدُ إِلَى فِكْرَةٍ أَنَّ لِكُلِّ لَفْظٍ مَعْنَى بَسِيطًا مُحَدَّدًا، وَهَذَا مَا نَرَاهُ فِي تَعْلِيلَاتِ أَمُونِيُوس Scholia of Ammonius⁽⁵⁹⁾ عَلَى كِتَابِ فِي التَّأْوِيلِ (الْعِبَارَةِ)

(56) *Kategorienlehre*, p. 209، حَيْثُ الْإِقْتِنَاعُ بِأَنَّ الْإِعْتِبَارَاتِ لِلُّغَوِيَّةِ 'وَجَّهَتْ' التَّصْنِيفَ، 'لِكِنَّهَا لَمْ تَحْدُدْهُ'. وَمُنْذُ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ بَعْدَ الْمِيلَادِ أَكَّدَ مُخْتَلِفُ الْمَشَائِيْنِ التَّوْفِيقِيْنَ أَنَّ الْمَقُولَاتِ كَانَتْ مُهْتَمَّةً جَدًّا بِالْكَلِمَاتِ، مَعَ أَنَّ الدَّكْتُورَ رُوتَا P. Rotta يَرَى فِي كِتَابِهِ (فَلَسَفَةُ اللُّغَةِ عِنْدَ الْأَبَاءِ الْيُسُوعِيِّينَ وَالْفَلَسَفَةِ الْمَنْزُوسِيِّينَ *La Filosofia del Linguaggio* nella Patristica e nella Scholastica, p. 56) أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُتَأَتِيًا مِنْ زَاوِيَةِ ثَنَائِيَّةِ الْأَسْمَى-الْوَاقِعِيِّ nominalist-realist.

(57) تِيودُورُ غُومْبِيرِز (1832-1912م). فِيلَسُوفٌ وَعَالِمٌ كَلَّاسِيكِيٌّ نِمَاوِيٌّ. دَرَسَ فِي فِينَا، وَتَخَرَّجَ فِيهَا سَنَةَ 1867، وَأَصْبَحَ أَسَازُ الْفِيلُولُوجِيَا الْكَلَّاسِيكِيَّةِ سَنَةَ 1873. وَانْتَخِبَ سَنَةَ 1882 عَضْوًا فِي أَكَادِمِيَّةِ الْعُلُومِ. نَالَ دَرَجَةَ الدَّكْتُورَاهِ فِي الْفَلَسَفَةِ مِنْ جَامِعَةِ كُونَزِبِرْغ، وَالدَّكْتُورَاهِ فِي الْأَدَبِ مِنْ جَامِعَتَيْ دِيلْنِ وَكِيمْبِرْج. مِنْ أَهَمِّ أَثَارِهِ: الْمُفَكَّرُونَ الْإِغْرِيقِيُّ-تَارِيخُ الْفَلَسَفَةِ الْقَدِيمَةِ، وَالشَّعْرَةُ عِنْدَ أَرِسْطُو. [الْمُتَرَجِّمُ]

(58) T. Gomperz, *Greek Thinkers*, IV., pp.40-41.

(59) تَعْلِيلَاتٌ عَلَى مَقَالَاتِ أَرِسْطُو كَتَبَهَا أَمُونِيُوسُ هِيرِمِيَا (440-520م)، وَهُوَ فِيلَسُوفٌ إِغْرِيقِيٌّ وَابْنُ فِيلَسُوفِي الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ هِيرِمِيَاْسَ وَأَيْدِيْسِيَا. دَرَسَ عَلَى يَدِ بَرُوكْلِيُوسِ =

De Interpretatione ⁽⁶⁰⁾ وبذلك استَفْهَمَ السائلُ قائلًا [34]: "هل البلاغةُ جديرةٌ بالاحترام؟"، وفي إحدى صيغِ اللعبة، على أيّة حالٍ، يُتَوَقَّعُ أن يُجيبَ المجيبُ بِمَجَرَّدِ قولٍ نَعَم أو لا. وعُدَّتْ كَلِمَاتُ مُعَيَّنَةٍ في المُفْرَدَاتِ الدارجةِ مُلَبَّسَةً نَتِجَةً لِدَراسَةِ 'أضدادها'. وَيَسْرُدُ أرسطو في كتابِهِ طوبيقا (الجدل) *Topics* ⁽⁶¹⁾ عِدَّةَ قَوَاعِدَ تتعلّقُ بِاللِّبْسِ وإِجْراءاتٍ أُخْرَى مُتَّصِرَةً بِاعْتِها جَرُّ الخَصْمِ إلى شَكْلِ مِنْ أَشْكالِ التَّنَاقُضِ اللَّفْظِيِّ.

وخاضَ ماوثر Mauthner ⁽⁶²⁾ في نقاشٍ مُفَصَّلٍ لِيُظْهِرَ أَنَّ التَّعاليمَ الأرسطيَّةَ المتعلّقةَ بِالنَّفْيِ والمَقولاتِ "جَعَلَتْ أَشْكالَ الكَلَامِ الحَيَّةَ مُحالًا لِعِبَادَةِ خُرَافِيَّةٍ، كما لو كانتَ مَعْبوداتٍ حَقِيقِيَّةٍ"، ثُمَّ علقَ قائلًا: "إنَّ أرسطو مَيِّتٌ لِأَنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا على نَحْوِ خُرَافِيٍّ لِلْكَلِمَاتِ، رُبُّما أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ كاتِبٍ مَعْرُوفٍ في تاريخِ الفَلَسَفَةِ كُلُّهُ. واعْتَمَدَ حَتَّى في مَنطِقِهِ على أَعْراضِ اللُّغَةِ اعْتِمادًا تامًّا، على أَعْراضِ لُغَتِهِ الأُمِّ. ولم يَكُنْ تَجْهِيلُهُ الخُرَافِيٍّ لِلْكَلِمَاتِ في غَيْرِ أَوَانِهِ البَتَّةَ" ⁽⁶³⁾. ومَرَّةً أُخْرَى:-

= في أثينا، ودُرِّسَ في الإسْكَندريَّةِ مَعْظَمَ حَيَاتِهِ، كاتِبًا تَعليقاتٍ على أَفلاطون، وأرسطو، وفلاسِفَةٍ أُخَرِينَ. [المُترجِم]

(60) كِتَابُ لَأَرسطو يُعَدُّ أَحَدَ أَقْدَمِ الأَعْمَالِ الفَلَسَفِيَّةِ الباقيةِ في التِراثِ العَرَبِيِّ الَّتِي تُعالِجُ العَلاقَةَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْمَنطِقِ على نَحْوِ مَفْهُومٍ، ووَاضِحٍ، وَشَكْلِيٍّ. [المُترجِم]

(61) عُنْوانُ أَحَدِ الكُتُبِ الَّتِي تُؤَلِّفُ أَوْرْغانونُ أرسطو، وفيهِ يَتناولُ الحُجَجَ والجدليَّاتِ. وَيَسْجِلُ الأَوْرْغانونُ على خَمْسَةِ كُتُبٍ أُخْرَى غَيْرِ الطوبيقا (الجدل)، هِيَ: المَقولاتُ، والعبارةُ، والتَّحليلاتُ الأولى، والتَّحليلاتُ الثانية، والأغاليطُ. [المُترجِم]

(62) فِرْتز ماوثر (1849-1923م). رِوائِيٌّ هِنْغارِيٌّ نِمْساوِيٌّ، وَناقِدٌ مَسْرُوحِيٌّ، وَكاتِبٌ هِجائِيٌّ، وَمُناصِرٌ لِمَذْهَبِ الشُّكِّ الفَلَسَفِيِّ المُسْتَمَدِّ مِنْ نَقْدِ المَعْرِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ. مِنْ مَوْلاَئِهِ: سِينوزا، وَنَقْدُ اللُّغَةِ، وَشَوْبِنهاوَر. [المُترجِم]

(63) Mauthner, Aristotle, English Translation, pp.84, 103-4. وَيُنْظَرُ لِلْمُؤَلِّفِ نَفْسِهِ كِتَابُ نَقْدِ اللُّغَةِ *Kritik der Sprache*، الجُزءُ الثالِثُ، ص4، إِذْ قالَ: "لو أَنَّ أرسطو كانَ يَتَكَلَّمُ الصِّينِيَّةَ أوِ الدَاكوتاِيَّةَ لَكانَ عَلَيهِ أَنْ يَتَبَنَّى مَنطِقًا مُخْتَلَفًا تَمامًا، أوِ على أَيِّ حالٍ نَظَرِيَّةَ مَقولاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تَمامًا".

رَجَّحَ الْفِكْرُ الْبَشَرِيُّ طَوَالَ أَلْفِي سَنَةٍ بِتَمَامِهِمَا تَحْتَ تَأْثِيرِ شِعَارَاتِ هَذَا الرَّجُلِ، ذَلِكَ التَّأْثِيرِ الَّذِي كَانَتْ تَتَأَنَّهُ مُؤَذِيَةً تَمَامًا. وَلَيْسَ نَمَّةً أُنْمُوذَجَ لِنِظَامِ كَلِمَاتٍ ذِي فَاعِلِيَّةٍ دَائِمَةٍ كَأُنْمُوذَجِهِ⁽⁶⁴⁾.

وَمِمَّا يَلْفُتُ النَّظَرَ أَنَّ أَرِسْطُو قَدَّمَ فِي كِتَابِهِ فِي التَّأْوِيلِ (الْعِبَارَةِ) *De Interpretatione* آراءً يَصْعُبُ التَّوْفِيقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مِثْلِ هَذِهِ الْمَقَارِبَةِ اللَّفْظِيَّةِ؛ إِذْ يُؤَكِّدُ هُنَاكَ أَنَّ الْكَلِمَاتِ عِلَامَاتٌ لِلْمَيُولِ الْعَقْلِيَّةِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَلِلْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ لَهَا فِي الْمَقَامِ الثَّانِي⁽⁶⁵⁾. [35] وَهُوَ يَطْوُرُ نَظْرِيَّةً لِلْفَرَضِيَّةِ الَّتِي تُشِيرُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُصُورِهَا وَكَوْنِهَا مَصْدَرًا لِتَخْلِيطٍ دَائِمٍ، إِلَى مَوْقِفٍ نَقْدِيٍّ مِنَ اللُّغَةِ أَبْعَدَ مِمَّا قَدْ تُوْحِي بِهِ عُدَّتُهُ الْمُنَظِقِيَّةُ جُمْلَةً. إِذْ لَا يَجِدُ أَرِسْطُو هُنَا صُعُوبَةً فِي مُعَالَجَةِ السُّؤَالِ الرَّئِيسِ الَّذِي أَثَارَهُ أَفْلَاطُونُ فِي مُحَاوَرَةِ أَقْرَاطِيلُوسَ. وَهُوَ يَقُولُ إِنَّ كُلَّ كَلَامٍ دَالٌّ إِنَّمَا يَسْتَمِدُّ دَلَالَتَهُ مِنَ الْمَوَاضِعَةِ فَحَسْبُ، لَا مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَلَا بِوَصْفِهِ آلَةً طَبِيعِيَّةً - مُهْمَلًا بِذَلِكَ مَلْحُوظَاتُ أَفْلَاطُونِ الدَّقِيقَةِ بِشَأْنِ الدَّوْرِ الَّذِي أَدَّاهُ الْمَحَاكَاةُ الصَّوْتِيَّةُ *onomatopœa* فِي الْأَصُولِ اللَّفْظِيَّةِ. وَفِي كِتَابِ فِي التَّأْوِيلِ (الْعِبَارَةِ) *De Interpretatione* اسْتَبْعِدَتْ عَمْدًا عِدَّةَ تَفَرُّعَاتٍ لِلْكَلامِ الدَّالِّ، وَنَحْنُ مَدْعُوُونَ هُنَاكَ إِلَى أَنْ نَنْظُرَ فَقَطْ فِي ذَلِكَ النَّوعِ الْمَعْرُوفِ بِوَصْفِهِ إِخْبَارِيًّا، الَّذِي لَا يَنْتَمِي مِنْهُ إِلَى الْمُنَظِقِ إِلَّا إِخْبَارُهُ بِالْصِّدْقِ أَوِ الْكُذْبِ. أَمَّا أَسَالِيبُ الْكَلَامِ الْأُخْرَى، نَحْوُ الرَّجَاءِ، وَالْأَمْرِ، وَالِاسْتِفْهَامِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، فَقَدْ عُدَّتْ، عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ طَبِيعِيَّةٍ، مِنْ أَقْسَامِ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ أَوِ الشَّعْرِيَّةِ⁽⁶⁶⁾.

(64) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ: ص 19. وَيُنْظَرُ أَيْضًا: التَّنْذِيلُ A لِلاِتِّلَاعِ عَلَى مُنَاقَشَةِ لِتَأْثِيرِ أَرِسْطُو فِي النَّحْوِ.

(65) *De Interpretatione*, 16, a. 3. وَمِمَّا يَجْدُرُ أَنْ يُلْحَظَ أَنَّ أَنْدُرُونِيكُوسَ الرُّودِسِيَّ (Andronicus of Rhodes)، الَّذِي حَرَّرَ الطَّبْعَةَ الْكَامِلَةَ الْأُولَى لِأَعْمَالِ أَرِسْطُو حِينَ جُلِيتْ مَكْتَبَةُ ثيوفراستوس Theophrastus مِنْ أَثِينَا إِلَى رُومَا بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ غَنِيمَةٍ سَلَا Sulla، أَشَارَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ زَائِفَةٌ. عَلَى أَنَّ الْحُجَجَ الَّتِي سَاقَهَا مَايَرُ Maier فِي تَعْضِيدِ الرِّسَالَةِ أَقْتَنَتِ الدَّارِسِينَ بِقَبُولِهَا عَمَلًا أَرِسْطِيًّا.

(66) فِي كِتَابِ الشَّعْرِيَّةِ *Poetics* (1456 b. Margoliouth, p. 198) يُلْمِجُ أَرِسْطُو ثَانِيَةً =

وَرُبَّمَا كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ يَقَوْمَ الْأَدَبُ الْإِغْرِيقِيُّ شَاهِدًا فِي جُمْلَتِهِ عَلَى تَأْدِيَةِ الْخُرَافَةِ اللَّفْظِيَّةِ دَوْرًا وَاسِعًا فِي الْفَلَسَفَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ، وَيَرَى فَارَار ⁽⁶⁷⁾Farrar ضَرُورَةً افْتِرَاضِ أَنَّ أَسْخِيلُوسَ ⁽⁶⁸⁾Æschylus وسُوفُوكْلِسَ ⁽⁶⁹⁾Sophocles، عَلَى سَبِيلِ الْإِثْبَاتِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَا قَدْ آمَنَّا بِالْمُحَاكَاةِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ دَوْمًا بِسِحْرِ الْكَلِمَاتِ الْبِدَائِيَّةِ، عَلَى مَا سَنَرَى. وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ حَتَّى الرُّومَانُ الْعَمَلِيُّونَ كَانُوا ضَحَايَا تِلْكَ الْإِعْتِقَادَاتِ، وَكُلُّهُمْ كَانَ سَيَرَدُّ لُغَةً أَوْسُونِيوسَ ⁽⁷⁰⁾Ausonius: -

= إلى "العمليات التي آلتها الكلام، الذي تقسيماته: الإثبات والتفنيد، وتأجج العواطف كالإشفاق، والخوف، والغضب، وما إلى ذلك، والمبالغة والتقص". وعند التعليق على الاستعمال الإخباري أو "الإعلامي" للغة (D. I. 17 a. 2) يُحِيلُ أُمُونِيوسُ عَلَى فِقْرَةٍ فِي أَحَدِ مُؤَلَّفَاتِ ثيوفراستوس Theophrastus الضائعة، حَيْثُ تُمَيِّزُ اللُّغَةُ "الِإِعْلَامِيَّةُ" الَّتِي تُعْنَى بِالْأَشْيَاءِ مِنْ سَائِرِ تَوَعَّاتِ اللُّغَةِ الْآخَرَى الَّتِي تُعْنَى بِالْأَثَرِ فِي الْمُسْتَمِعِ وَتَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ الْمُخَاطَبِينَ. هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنَ الْقَضَايَا، وَعَدُّهَا خَمْسَةٌ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ عِنْدَ الْمَشَائِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ، شَهَدَتْ مَزِيدًا مِنَ التَّفْصِيلِ عَلَى أَيْدِي الرُّوَايَةِ. Cf. Prantl (Geschichte der Logik, Vol. I., p. 441), Steinthal (Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Römern, Vol. I., p. 317), H. Maier, Psychologie des Emotionalen Denkens, pp. 9-10..

(67) فَرِيدِكُ وَلِيمُ فَارَار (1831-1903م). رَجُلُ دِينٍ فِي الْكَنِيسَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ (الْأَنْجَلِيكَانِيَّةِ)، وَمُدْرَسٌ، وَكَاتِبٌ. مِنْ أَهَمِّ أَثَارِهِ: حَيَاةُ الْمَسِيحِ، وَتَارِيخُ التَّأْوِيلِ، وَالظُّلْمَةُ وَالْفَجَرُ. [المُتَرَجِمُ]

(68) أَسْخِيلُوسُ (525-452 ق.م). كَاتِبٌ مَسْرُوحِيٌّ يُونَانِيٌّ، يُعَدُّ مِنْ مُؤَسِّسِي اللَّوْنِ التَّرَاجِيدِيِّ فِي الْأَدَبِ الْيُونَانِيِّ. كَتَبَ عِدَّةَ مَسْرُوحِيَّاتٍ جَسَّدَتْ التَّارِيخَ الْيُونَانِيَّ، يُقَدَّرُ عَدْدُهَا بِنَحْوِ سَبْعِينَ مَسْرُوحِيَّةً لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْهَا بِرُوى سَبْعَ مَسْرُوحِيَّاتٍ، هِيَ: الْفَرْسُ، وَسَبْعَةُ فَيْدُ طَبِيَّة، وَبِرُومِيثْيُوسَ مُضَفَّدًا، وَالضَّارَعَاتِ، وَأَغَامْمَنُونِ، وَحَامِلَاتِ الشَّرَابِ، وَرَبَّاتُ الْقَضَبِ. يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ كُتَابِ الْمَاسَاةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ، وَهُوَ مُؤَسَّسُهَا بِالْمَعْنَى الْفَنِّيِّ وَأَقْدَمُ فِرْسَانِهَا الْمَعْرُوفِينَ. [المُتَرَجِمُ]

(69) سُوفُوكْلِسُ (496-405 ق.م). أَحَدُ أَكْبَرِ ثَلَاثَةِ كُتَابِ الْمَاسَاةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ، وَالْآخَرَانِ هُمَا أَسْخِيلُوسُ وَبُورِيْدَيْسُ. مِنْ مَسْرُوحِيَّاتِهِ: أَنْتِيغُونِي، وَأَوْدَيْبُ مَلِكًا، وَالْكَتْرَا. [المُتَرَجِمُ]

(70) دِيسِيمِيُوسُ مَآغُنُوسُ أَوْسُونِيُوسَ (نَحْوَ 310 - نَحْوَ 395م). شَاعِرٌ لَاتِينِيٌّ، وَمُعَلِّمٌ بَلَاغِيٌّ فِي بُورْدُو فِي فَرَنْسَا. كَانَ مُعَلِّمًا لِإِمْبَرَاطُورِ الْمُسْتَقْبَلِ غِرَاتِيَانِ. يُعْرَفُ بِقَصِيدَتِهِ مَوْسِيَلَا =

إِذْ إِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ التَّكْهَنِ أَنْ يُجْعَلَ مِثْلُ هَذَا الْأَسْمِ مُمَثَّلًا
لِكَثِيرٍ مِنَ الْإِشَارَاتِ، أَوْ لِصِفَةٍ، أَوْ لِلْمَوْتِ. [36]

وَيُخْبِرُنَا شيشرون⁽⁷¹⁾ Cicero بأنهم اهتموا في قوائيمهم لخدمة التجنيد بأن يكون أول ما يدرج فيها أسماء نحو فيكتور⁽⁷²⁾ Victor، وفيليكس⁽⁷³⁾ Felix، وفاوستوس⁽⁷⁴⁾ Faustus، وسيكندوس⁽⁷⁵⁾ Secundus، وحرصوا على ابتداء قائمة إحصاء السكان بكلمة توجي بفال سعيدي نحو سالفوس فاليريوس Salvius Valerius⁽⁷⁶⁾. وكان قيصر Caesar قد سلم قيادة إسبانيا لشخص مغمور اسمه شيبو Scipio⁽⁷⁷⁾، لا لشيء إلا لما انطوى عليه اسمه من فال. وبعث شيبو جنوده

= التي يصف فيها نهر موسى، وبقصيدة التقويم الفلكي التي يصف فيها يوماً اعتيادياً في حياته. وتظهر قصائده الأخرى اهتمامه بأسرته، وأصدقائه، ومدريسيه، ومعارفه. [المترجم]

(71) ماركوس توليوس شيشرون (106-43 ق.م). فيلسوف، وسياسي، ومحام، وخطيب روماني مُمَيَّز. صاحب إنجاز ضخم يُعد أنموذجاً مرجعياً للتعبير اللاتيني الكلاسيكي، وصل إلينا منه لحسن الحظ قدر كبير. من آثاره: طبيعة الآلهة، والنبوءة، والقدر. [المترجم]

(72) كلمة لاتينية الأصل، تعني (الفاهر). [المترجم]

(73) كلمة لاتينية الأصل، تعني (المحظوظ). [المترجم]

(74) كلمة لاتينية الأصل، تعني (المحظوظ). [المترجم]

(75) كلمة لاتينية الأصل، تعني (الثاني)، وكذلك (المفضل) أو (المحظوظ). [المترجم]

(76) سالفوس: كلمة لاتينية الأصل، تعني (الصبور)، و(الشديد التدقيق). وفاليريوس: كلمة لاتينية الأصل، تعني (القوي). [المترجم]

(77) كلمة لاتينية الأصل، تعني (القضيب)، أو (الصولجان). والمقصود بشيبو هنا: كورنيليوس شيبو 'سالفيتو' (وقد منح لقب 'سالفيتو' لشبهه بفنان للتمثيل الصامت يحمل هذا الاسم)، الذي عاش في أواخر عصر الجمهورية الرومانية، وكان أحد ذوي قرابة شيبو الأفريقي، الجنرال الروماني الذي هزم هانيبال. وكان سالفيتو شخصاً مُزدري لا يُذكر، حتى ألحقه يوليوس قيصر في سنة 46 ق.م بحملته في شمال إفريقيا لمقاتلة قُلُول قُوات بومبي، تحت قيادة كورنتوس ميتيلوس بيوس شيبو ناسيكا. وبسبب اعتقاده متأصل مفاده أنه لا يمكن أن ينتصر في إفريقيا سوى من يحمل اسم شيبو، ولأن يوليوس =

المتمردين على مُتَابَعَتِهِمْ شَخْصًا اسْمُهُ أُتْرِيوس أومْبَر Atrius Umber وهو قَائِدُ مَقِيَّتِ السُّمَعَةِ، لِكَوْنِهِ، عَلَى مَا يَدْعُوهُ دِي كُونْسِي De Quincey⁽⁷⁸⁾، 'خَشَوُ الظَّلَامِ'. وَوَأَسَى الإِمْبَرَاطُورُ سِيفِيرُوس Severus نَفْسَهُ فِي خِيَانَاتِ زَوْجَتِهِ الإِمْبَرَاطُورَةِ جُولِيَا Julia؛ بِكَوْنِهَا حَمَلَتْ اسْمَ ابْنَةِ أَوْغُسْطُس Augustus الْخَلِيعَةِ نَفْسُهُ⁽⁷⁹⁾، وَلَمَّا أَصْبَحَ أَدْرِيَانُ السَّادِسُ Adrian VI. أَسْقَفًا أَفْتَعَهُ كَرَادِلَتُهُ بِعَدَمِ الْاِحْتِفَازِ بِاسْمِهِ الْأَصْلِيِّ، بِحُجَّةِ أَنَّ كُلَّ الْأَسَاقِفَةِ الَّذِينَ فَعَلُوا ذَلِكَ مَاتُوا فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ وِلَايَتِهِمْ⁽⁸⁰⁾.

وَإِذَا مَا تَأَمَّلْنَا مَلِيًّا التَّأثيرَاتِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ وَجَّهَتْ اِهْتِمَامَ الْمَفْكِرِينَ الْإِغْرِيْقِي وَالرُّومَانِ إِلَى الْمَشْكِلاتِ اللَّغَوِيَّةِ، فَإِنَّ مَا يَفْجَأُنَا أَوَّلَ وَهْلَةٍ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَنَاءَتْهُمْ لَفْظِيَّةً إِلَى خُذُودٍ بَعِيدَةٍ جَدًّا كَانُوا كَذَلِكَ فِي جَوَانِبِ مَعْنِيَّةٍ مُدْرِكِينَ تَمَامًا الطَّبِيعَةَ الْمُضَلَّلَةَ لَوْسَطِهِمْ. وَإِنَّ انْجِذَابَ الْهِيْرَاقْلِيْطِيِّينَ إِلَى اللَّغَةِ بِوَصْفِهَا شَاهِدًا لِمَذْهَبِ التَّغْيِيرِ الْمُسْتَمِرِّ، عَلَى مَا عَلِمْنَاهُ مِنْ مُحَاوَرَةِ أَقْرَاطِيلُوس، عَارِضَهُ بِشِدَّةٍ الْمَنَاطِقَةُ الْبَارْمِينِيْدِيُونُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِالْمَثَلِ كَذَلِكَ. وَأَبْدَى أَفْلُوطِين Plotinus⁽⁸¹⁾

= قِيَصَرُ كَانَ يُوَاجِهُ شَخْصًا اسْمُهُ شِيْبِيُو، جَعَلَ يُولِيُوسُ قِيَصَرَ سَالْفِيْتُو فِي مَقْدَمَةِ جَيْشِهِ؛ بِوَصْفِهِ تَمَوِيْنَةً لِحَظٍّ سَعِيْدٍ؛ أَوْ لَتَهْدِيَةِ قَوَاتِيهِ الْمُتَوَثِّرَةِ؛ أَوْ لِإِثْبَاتِ اِزْدِرَائِهِ شِيْبِيُو نَاسِيكًا. [المُتَرْجِم]

(78) توماس بينسن دي كونسى (1785-1859م). كَاتِبُ مَقَالَاتٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ. أَشْهَرُ مَا عُرِفَ بِهِ كِتَابُ (اعْتِرَافَاتُ مُدْمِنٍ إِنْجِلِيزِيٍّ لِلْأَفْيُون). وَشِيرُ الْكَثِيرِ مِنَ الدَّارِسِينَ إِلَى أَنَّ دِي كُونْسِي قَدْ افْتَتَحَ يَنْشُرُهُ هَذَا الْكِتَابُ ثَرَاتِ أَدَبِ الْإِدْمَانِ فِي الْغَرْبِ. [المُتَرْجِم]

(79) F. W. Farrar, *Language and Languages*, pp. 235-6.

(80) Mervoyer, *Etude sur l'association des idées*, p. 376.

(81) أَفْلُوطِين (205-270م). فِيلَسُوفٌ مَشْهُورٌ مِنَ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. يُعَدُّ مَعَ اسْتَاذِهِ أَمُونِيُوسُ سَاكْسُ مُؤَسَّسَ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي الْعَصُورِ الْوُسْطَى. وَجَمِيعُ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي لَدَيْنَا عَنْهُ مُسْتَقَاةٌ مِنْ تَلْمِيْزِهِ فُورْفُورِيُوسُ الَّذِي جَمَعَ تَعَالِيْمَهُ فِي سِتَّةِ أَجْزَاءٍ تُدْعَى التَّاسُوعَاتِ لِاسْتِمَالِ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ عَلَى تِسْعِ مَقَالَاتٍ، وَلَوْلَا هَذَا الْعَمَلُ لَضَاعَتْ تَعَالِيمُ أَفْلُوطِينِ. وَلِكِتَابَاتِ أَفْلُوطِينِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي عِدَّةِ أَدْيَانِ وَفَلَسَافَاتِ الْكَالِيهَوْدِيَّةِ، وَالْمَسِيحِيَّةِ، وَالصُّوفِيَّةِ. [المُتَرْجِم]

استعدادًا مُماثلًا لِلإِقْرَارِ بِأَنَّ الْافْتِرَاضَاتِ الْمَسْبَقَةَ لِلْعَةِ تَحِبُّ مُقَاوَمَتَهَا بِعُنفٍ. وَاللُّغَةُ، مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ Neo-Platonic⁽⁸²⁾، 'لا يُمَكِّنُ أَنْ نَجْعَلَهَا تُعَبِّرُ عَنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ إِلَّا بِقُضْرِهَا عَلَى أَغْرَاضٍ لَا يُفَكِّرُ مُعْظَمُ النَّاسِ فِي اسْتِخْدَامِهَا مِنْ أَجْلِهَا'، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ 'لا يُمَكِّنُ وَصْفُ النَّفْسِ الْبَتَّةَ إِلَّا بِعِبَارَاتٍ قَدْ تَغْدُو بِلا مَعْنَى فِي حَالِ تَطْبِيقِهَا عَلَى الْجَسَدِ أَوْ صِفَاتِهِ، أَوْ عَلَى تَحْدِيدَاتِ أَجْسَامٍ مَخْصُوصَةٍ'⁽⁸³⁾. [37]

وَذَهَبَ الْكُتَّابُ الْبُودِيُونُ إِلَى أْبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي رَفْضِهِمْ أَشْكَالَ اللَّغَةِ الْمُضَلَّلَةِ، عِنْدَ مُعَالِجَتِهِمْ 'النَّفْسَ'. فَسَوَاءُ كَانَ اسْمُهَا *satta* (الْوُجُودُ)، أَوْ *attā* (النَّفْسُ)، أَوْ *jīva* (الْمَبْدَأُ الْحَيُّ)، أَوْ *puggāla* (الشَّخْصُ)، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُهِمًّا:

'فإنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا أَسْمَاءً، وَتَعْبِيرَاتٍ، وَانْعِطَافَاتٍ كَلَامِيَّةً، وَتَسْمِيَّاتٍ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ فِي الْعَالَمِ. وَمَنْ ظَفَرَ بِالْحَقِيقَةِ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِفَادَةِ مِنْهَا حَقًّا، عَلَى أَنَّهَا لَنْ تُضَلَّلَ'⁽⁸⁴⁾.

وَكَانَ الْبُودِيُونُ ذَوُو الْمَوْقِفِ الْاسْتِثْنَائِيِّ مِنَ اللَّغَةِ عَلَى أَنَّهُمُ الْاسْتِعْدَادُ لِاسْتِعْمَالِ الْعِبَارَاتِ الْعُرْفِيَّةِ فِي الْبَيَانَاتِ الشَّعْبِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْوَاضِحِ: أَحْصَلَ لَدَيْهِمْ أَيُّ تَطْوِيرٍ لِمُقَارَنَةِ دَقِيقَةِ الْمُسْكِلاتِ الْخَيَالِيَّةِ؟⁽⁸⁵⁾.

(82) الْأَفْلَاطُونِيَّةُ الْمُحَدَّثَةُ: مَدْرَسَةُ فِلَسْفِيَّةٌ تَشَكَّلَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِلْمِيلَادِ بِنَاءً عَلَى تَعَالِيمِ أَفْلَاطُونِ وَالْأَفْلَاطُونِيِّينَ، لَكِنَّا اشْتَمَلَتْ عَلَى تَفْسِيرَاتٍ يَرَاهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ مُخْتَلَفَةً عَنْ فِلَسْفَةِ أَفْلَاطُونِ الْأَصْلِيَّةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَفْلَاطُونِيِّينَ الْمُحَدَّثِينَ يُغْدُونَ أَنْفُسَهُمْ أَفْلَاطُونِيِّينَ وَمُدَافِعِينَ عَنْ أَفْكَارِ أَفْلَاطُونِ يَرَى كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِلَسْفَتَهُمْ مُحَاوَلَةً لِلْجَمْعِ بَيْنَ مَدْرَسَتَيِ الْيُونَانِ الْأَسَاسِيَّتَيْنِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ وَالْأَرِسْطِيَّةِ. وَقَدْ وَضِعَ الشَّكْلُ الْأَسَاسِيُّ لِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى يَدِ أَفْلُوطِينِ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ تَلَقَّى التَّعَالِيمَ الْأَفْلَاطُونِيَّةَ مِنْ أَمُونِيُوسِ سَاكْسِ أَحَدِ أَهْمِ فِلَاسَفَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

Whittaker, *The Neo-Platonists*, p. 42.

(83)

Digha N. I. 263; cf. C. A. F. Rhys Davids, *Buddhist Psychology*, p. 32.

(84)

(85) لِلْوُقُوفِ عَلَى دِرَاسَةٍ مُوسَّعَةٍ عَنِ الْمَدَارِسِ الْفِكْرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ وَسُلُوكِهَا مَعَ الْكَلِمَاتِ، يُنْظَرُ:

op. cit., *Word Magic*, by C. K. Ogden.

ولِكنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كُلَّ مَا بَعْدَ الْأَرِسْطِيَّةِ مِنْ مَدَارِسَ، وَلَا سِيَّما الْمَدْرَسَةُ الرَّوَاقِيَّةُ⁽⁸⁶⁾ الَّتِي كَانَ لِوُجْهِتِهَا اللَّغَوِيَّةِ أَثَرُهَا الْبَالِغُ فِي الْحُقُوقِيِّينَ الرَّومَانِ⁽⁸⁷⁾، أُولَئِكَ النَّظَرِيَّةُ اللَّغَوِيَّةُ قَسْطًا مِنَ الْاهْتِمَامِ، لَا نَجِدُ فِي الْأَزْمَنَةِ الْقَدِيمَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ قَادَ إِلَى دِرَاسَةٍ لِلرُّمُوزِ كَتِلْكَ الَّتِي بَدَأَ أَحْيَانًا أَنَّ أَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو قَدَ قَارَبَاهَا. وَمَرَدُّ ذَلِكَ، عَلَى مَا سَنَرَى، إِلَى الْإِفْتِقَارِ إِلَى آيَةٍ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْعَلَامَاتِ بِمَا هِيَ، وَمِنْ ثَمَّ لِإِدْرَاكِ وَظَانِفِ الْكَلِمَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ عُمُومِيَّةٍ وَالَّتِي يَتَعَمَّدُ عَلَيْهَا الْفِكْرُ كُلُّهُ. عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَ الْمَسِيحِيَّةُ الرُّوحَ النَّقْدِيَّةَ بِقَلِيلٍ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، ظَهَرَتْ دِرَاسَاتٌ قَدَّةً فِي الْعَالَمِ الْإِغْرِيقِيِّ-الرُّومَانِيِّ، وَأَخْضَعَتْ الْمَشْكِلَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِفَحْصٍ فِيهِ مِنْ الدَّقَّةِ مَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُودَ إِلَى تَطَوُّرٍ عِلْمِيٍّ حَقِيقِيٍّ. وَأَدْرَكَ الْقَادَةُ الدِّينِيُونَ حَجَمَ الْخَطَرِ، [38] حَتَّى إِنَّ ثَمَّةَ فِقْرَةٍ عِنْدَ غَرِيغُورِيِّ النَّزِينِزِيِّ St Gregory of Nazianzus⁽⁸⁸⁾، يُتَذَمَّرُ فِيهَا مِنَ الْإِشْكَالِ الْحَاصِلِ مُنْذُ 'أَنْ أُتِيحَ لِلْسَكْسْتُونِيِّينَ

(86) الرَّوَاقِيَّةُ: مَدْرَسَةُ فِلَسْفِيَّةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ مُعَاَصِرَةٍ لِلْأَبِيْقُورِيَّةِ. انْتَشَرَتْ فِي إِطَارِ الثَّقَافَةِ الْيُونَانِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِتَأْثِيرِ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْمَوَاطَنَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَالتَّزَعُّعِ الْفَرْدِيِّ وَالْمَعْرِفَةِ الرِّيَاضِيَّةِ. وَقَدْ وَضَعَ أَصُولُهَا زِينُونَ. وَسَمِّيَتْ بِالرَّوَاقِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى الرَّوَاقِ الْمُصَوَّرِ بَائِنًا، مَكَانِ اجْتِمَاعِ الشَّعْرَاءِ، الَّذِي اتَّخَذَهُ زِينُونَ مَقْرَأً يَجْتَمِعُ فِيهِ بِأَصْحَابِهِ. وَأُطْلِقَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامِيُّونَ اسْمَ أَصْحَابِ الْمِظَلَّةِ، وَحُكَمَاءِ الْمِظَالِ، وَأَصْحَابِ الْأَصْطُوانِ. وَالْغَايَةُ الرَّئِيسَةُ مِنَ الْفِلَسْفَةِ عِنْدَهُمْ أَنْ تَكُونَ فِلَسْفَةً عَمَلِيَّةً أَخْلَاقِيَّةً. وَقَدْ غَنُوا بِالنَّاحِيَةِ الشَّكْلِيَّةِ الصَّرْفَةِ، أَيْ نَاحِيَةِ الْأَلْفَاظِ وَالْحُدُودِ، أَكْثَرَ مِمَّا غَنُوا بِالْبَحْثِ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْمُنْطَقِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ. [الْمُتْرَجِمُ]

Lersch, *Die Sprachphilosophie der Alten*, Vol. III., pp. 184-6 (87) وَبُسْتَشْهَدُ بِأَلْيُوسِ غَالُوسِ Aelius Gallus لِتَعْرِيفِهِ النَّهْزَ بِأَنَّهُ 'الْمَاءُ الَّذِي يَتَذَقُّ'. وَاسْتِنَادًا إِلَى مَا ذَكَرَهُ جِيلْيُوسُ Gellius كَانَ أَنْتِسْتِيُوسُ لَابِيُوسِ Antistius Labeo مُغْرَمًا بِالنَّحْوِ وَالذِّبَالِكْتِيكِ، 'وَأَصُولِ الْكَلِمَاتِ اللَّاتِينِيَّةِ وَتَكْوِينِهَا، وَتَطْبِيقِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ عَلَى نَحْوِ خَاصٍّ فِي حُلِّ الْكَثِيرِ مِنَ الثَّقَاطِ الْمُعَقَّدَةِ فِي الْقَانُونِ'.

(88) غَرِيغُورِيُّ النَّزِينِزِيِّ (329-389 أو 390م). رَئِيسُ أَسَاقِفَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَيُعَدُّ أَكْثَرَ الْلَاهُوتِيِّينَ بَرَاعَةً فِي أَسْلُوبِهِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْعَصْرِ الْآبَانِيِّ. وَهُوَ خَطِيبٌ وَفِيلَسُوفٌ أَيْضًا، أَدْخَلَ مَفْهُومَ الْهَيْلِيَّةِ ذَاتِ الْوَلَاءِ لِلْفِكْرِ الْإِغْرِيقِيِّ إِلَى كَنِيسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُولَى، وَاضِعًا بِذَلِكَ أَنْمُودَجًا لِلْبِيْزَنْطِيِّينَ الْلَاهُوتِيِّينَ وَالْمَسْؤُولِينَ فِي الْكَنِيسَةِ. [الْمُتْرَجِمُ]

Sexti⁽⁸⁹⁾ والبيرونيين Pyrrhoneans⁽⁹⁰⁾ وروح التناقض التَّطَقُّلُ بِحُبِّهِ عَلَى كُنَائِسِنَا، كَوْبَاءِ شِرِيرٍ حَاقِدٍ⁽⁹¹⁾. والحقُّ أَنَّ نظريَّةَ العَلَامَاتِ جُمْلَةً كَانَتْ قَدْ خَصَّصَتْ لِفَحْصِ كُلِّ مِنْ أَيْنِسِيدِيمُوس Aenesidemus⁽⁹²⁾ مُجَدِّدِ الْبِيرُونِيَّةِ Pyrrhonism في الإسكندرِيَّة، وَطَبِيبِ إغريقي يُدْعَى سَكْتُوس Sextus⁽⁹³⁾ بَيْنَ الْمِنَةِ وَالْمِثْنَيْنِ وَالْخَمْسِينَ بَعْدَ الْمِيلَادِ. وَكَانَ مَا قُدِّمَ مِنْ تَحْلِيلٍ أَكْثَرَ جَوْهَرِيَّةً مِنْ كُلِّ مَا ظَهَرَ حَتَّى الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ عَشَرَ⁽⁹⁴⁾.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ هَذِهِ النَّظَرَةَ الْعَامَّةَ الْمَخْتَصِرَةَ لِلْمُقَارَبَةِ اللَّغَوِيَّةِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ-

(89) نِسْبَةً إِلَى سَكْتُوسِ أَمِيرْقُوس (160-260م)، وَهُوَ طَبِيبٌ وَفِيلَسُوفٌ، تَذَكُرُ الْمَصَادِرُ أَنَّهُ عَاشَرَ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ أَوْ رُومَا أَوْ أَيْنَا عَلَى خِلَافٍ. يُمَثَّلُ كِتَابُهُ (مَعَالِمُ الْبِيرُونِيَّةِ) وَ(الرُّدُّ عَلَى الْجَزْمِيِّينَ) أَكْمَلَ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ مَذْهَبِ الشُّكِّ الْفِلَسُفِيِّ الْإِغْرِيْقِيِّ وَالرُّومَانِيِّ. [المُتَرْجِمُ]

(90) نِسْبَةً إِلَى الْبِيرُونِيَّةِ، وَهِيَ مَدْرَسَةُ شَكِّيَّةٍ أَسَّسَهَا الْفِيلَسُوفُ الْيُونَانِيُّ أَيْنِسِيدِيمُوس فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَدَوَّنَهَا سَكْتُوسُ أَمِيرْقُوس فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّانِي بَعْدَ الْمِيلَادِ أَوْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ بَعْدَ الْمِيلَادِ. أُطْلِقَ عَلَيْهَا هَذَا الْأَسْمُ نِسْبَةً إِلَى الْفِيلَسُوفِ الْيُونَانِيِّ بِيرو (360-270 ق.م) وَاتَّبَاعِيهِ. وَمَا زَالَتْ أَصْدَاءُ هَذَا الْمَذْهَبِ تَتَرَدَّدُ فِي فِلَسَفَاتِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. [المُتَرْجِمُ]

(91) يُنْظَرُ كَذَلِكَ: N. Maccoll, *The Greek Sceptics* (p. 108). إِذْ أَشِيرَ إِلَى أَنَّهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا، حِينَ وُجِّهَتْ السُّلْطَةُ بِالتَّحْدِيِّ مَرَّةً أُخْرَى، اسْتَقْطَبَ بَقَايَا هَؤُلَاءِ الْمَفْكَرِينَ الْإِهْتِمَامَ حَالًا. وَكَتَبَ فُوشِيَر Foucher تَارِيخًا لِلْأَكَادِيمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَتَرْجَمَ سَورْبِيَر Sorbière فَرَضِيَّاتِ سَكْتُوسِ Hypotheses of Sextus.

(92) أَيْنِسِيدِيمُوس: فِيلَسُوفٌ يُونَانِيٌّ عَاشَرَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْمِيلَادِ. كَانَ تَلْمِيذًا لِلْفِيلَسُوفِ بِيرو، وَمِنْ أَتْبَاعِ أَكَادِيمِيَّةِ أَفْلَاطُون. دَعَا إِلَى التَّرْعَةِ الشَّكِّيَّةِ، وَلَمْ يَزِ إِمْكَانَ قَبُولِ التَّأَكِيدِ؛ إِذْ إِذْ نَمَّةٌ تَأَكِيدًا مُضَادًّا عَلَى الدَّوَامِ. تُسَمَّى مَدْرَسَتُهُ بِالْبِيرُونِيَّةِ، وَكَذَلِكَ بِالْمَدْرَسَةِ الشَّكِّيَّةِ الثَّالِثَةِ. أَثَرُهُ الرَّئِيسُ هُوَ (الْبِيرُونِيَّةُ)، وَقَدْ نَاقَشَ فِيهِ أَرْبَعَ أَفْكَارٍ رَئِيسَةٍ، أَوَّلَاهَا: أَسْبَابُ الشُّكِّ وَالْإِرْتِيَابِ؛ وَثَانِيَتُهَا: الْحُجَجُ الْمُضَادَّةُ لِلْسَّبَبِيَّةِ وَالصَّدَقِ؛ وَثَالِثُهَا: النَّظَرَةُ الْمَادِّيَّةُ؛ وَرَابِعُهَا: النَّظَرَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ. [المُتَرْجِمُ]

(93) هُوَ سَكْتُوسُ أَمِيرْقُوس، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ تَرْجُمَتُهُ قَبْلَ قَلِيلٍ. [المُتَرْجِمُ]

(94) يُنْظَرُ: R. D. Hicks, *Stoic and Epicurean*, p. 390 ff., on Aenesidemus; and *infra*.

الرُّومَانِيَّةُ كَافِيَةٌ لِتَمَثِيلِ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْمَرَحَلَةِ الَّتِي سَبَقَتْ الْعِلْمَ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، كَانَ تَأْثِيرُهَا فِي الْفِكْرِ الْأُورُوبِيِّ الْمَعَاصِرِ أَكْبَرَ حَتَّى مِنْ تَأْثِيرِ التَّطَوُّرِ الْخِصْبِ لِلنَّظَرِيَّاتِ الشَّرْقِيَّةِ. وَيَبْدُو أَنَّ الْجَوْ الْلفْظِيَّ الَّذِي نَشَأَتْ فِي كَنْفِهِ مُعْظَمُ الْفَلَسَفَةِ الْهِنْدِيَّةِ كَانَ أَكْثَرَ كَثَافَةً حَتَّى مِنْ ذَلِكَ الَّذِي عَاشَ فِي ظِلِّهِ الْفَلَاسِيفَةُ الْمَدْرَسِيُّونَ⁽⁹⁵⁾، أَوِ الْجَدَلِيُّونَ الْإِغْرِيقِيُّونَ. وَفِي هَذَا الْمَجَالِ لَا يَكَادُ كُلُّ مَنْ جَدَلَ الْإِمَامَ مَسَا-نِيَايَا Mimāṃsā-Nyāya، وَفَلَسَفَةَ الْيُوغَا، وَمَقُولَاتِ الْفِجْنَانَا فَا دَا Vijnānanavāda، وَالْبَرَاهْمَاكَارَا مِمَامَسَاكَاس Prābhākara Mīmāṃsakas⁽⁹⁶⁾، يُعَدُّ أَقْلٌ تَأَلَّفًا مِنْ مَذَهَبِ الْكَلِمَةِ الْمُقَدَّسَةِ AUM⁽⁹⁷⁾ وَالْإِنْتِشَاءَاتِ الْلفْظِيَّةِ لِلتَّأَمُّلَاتِ الصُّوفِيَّةِ⁽⁹⁸⁾، الَّتِي جَدَّدَتْ جُزْءًا مِنْ آلِيَّتِهَا الدُّكْتُورُ كُوي COUÉ⁽⁹⁹⁾.

(95) نِسْبَةٌ إِلَى الْفَلَسَفَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ أَوِ السُّكُولَاسْتِيَّةِ، وَهِيَ الْفَلَسَفَةُ الْمَسِيحِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى. انْبَنَتْ مِنَ الْمَدَارِسِ الَّتِي أُنْشِئَتْ فِي عَهْدِ شَارْلَمَان، وَفِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ لِلْمِلَادِ، وَظَلَّتْ مُسَيِّطَرَةً عَلَى الْفِكْرِ الْمَسِيحِيِّ حَتَّى أَوَائِلِ عَصْرِ النَهْضَةِ. بُنِيَ عَلَى مَنَظَرِ أَرِسْطُو وَمَفْهُومِهِ لِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْأُورُوبِيُّونَ كُتُبَهُ مِنْ طَرِيقِ الْفِيلَسُوفِ الْعَرَبِيِّ ابْنِ رُشِيدٍ. اسْتَهْذَفَتْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِضْفَاءَ صِفَةِ عَقْلَانِيَّةٍ عَلَى اللَّاهُوتِ الْمَسِيحِيِّ، وَإِقَامَةَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ. أَشْهُرُ رَجَالِهَا تُوْمَا الْأَكُوْبِيْنِي صَاحِبُ الْمَذَهَبِ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ (التُّومَانِيَّةِ). وَيُطْلَقُ اسْمُ السُّكُولَاسْتِيَّةِ أَيْضًا عَلَى السُّكُولَاسْتِيَّةِ الْمُحَدَّثَةِ، وَهِيَ حَرَكَةٌ كَاتُولِيكِيَّةٌ حَدِيثَةٌ ظَهَرَتْ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ النَّاسِخِ عَشَرَ، وَاسْتَهْذَفَتْ تَعْدِيلَ طَرَايِقِ الْفَلَسَفَةِ السُّكُولَاسْتِيَّةِ بِحَيْثُ ثَلَاثُ حَاجَاتِ الْعَصْرِ الْفِكْرِيَّةِ وَمُكْتَشَفَاتِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. [الْمُتْرَجِمُ]

(96) Keith, *Indian Logic*, chapter V.; Dasgupta, *History of Indian Philosophy*, Vol. I., pp. 148-9, 345-54; Rama Prasad, *Self-Culture or the Yoga of Patanjali*, pp. 88, 148, 152, 156, 215; Vedānta Sūtras, *Sacred Books of the East*, Vol. XLVIII., p. 148.

(97) رَمَزٌ مُقَدَّسٌ فِي الْهِنْدُوسِيَّةِ وَالْبُودِيَّةِ وَالْجَيْنِيَّةِ، يَوْضَعُ عَادَةً فِي بَدَايَةِ النُّصُوصِ الْهِنْدُوسِيَّةِ بِوَصْفِهِ عِنَوَانًا مُقَدَّسًا يُقْرَأُ قَبْلَ قِرَاءَةِ نُّصُوصِ الْفِيدَا أَوْ بَعْدَهَا، أَوْ يَسْبِقُ آيَةً صَلَاةً، وَيُسْتَعْمَلُ فِي خِتَامِ التَّضَرُّعِ إِلَى الْإِلَهِ الَّذِي يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ لِيُمَثِّلَ دَعْوَةَ لِهَذَا الْإِلَهِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي الْقُرْبَانِ. [الْمُتْرَجِمُ]

(98) *The Science of the Sacred Word* (translated by Bhagavan Das); R. A. Nicholson, *Studies in Islamic Mysticism*, pp. 6-9.

(99) إِمِيلُ كُوي (1857-1926م). عَالِمُ فِلْسَافَةٍ وَصِيْلَةٌ فَرَنْسِيٌّ، قَدَّمَ طَرِيقَةً مَشْهُورَةً فِي =

إِنَّ تَارِيخَ التَّعْوِيدَاتِ، وَالسَّحَرِ اللَّفْظِيِّ، وَالطَّبِّ اللَّفْظِيِّ، سَوَاءٌ كَانَ مَنْ يُمَارِسُ ذَلِكَ مُشْعَوَذَ التُّرُوبِرِيَانْدِ⁽¹⁰⁰⁾ Trobriand⁽¹⁰¹⁾، أَوْ كَاهِنٌ نُصُوصِ الْأَهْرَامِ الْمِصْرِيِّ، أَوْ عَالِمٌ الْمِيتَافِزِيْقَا الْمُعَاصِرِ، هُوَ مَوْضُوعٌ يَحْدُ ذَاتِهِ [39] وَقَدْ عُولِجَ عَلَى نَحْوِ مُفْصَّلٍ فِي كِتَابِ سِحْرِ الْكَلِمَةِ *Word Magic*، الَّذِي صُمِّمَ لِيَكُونَ تَوْسِيعًا لِهَذَا الْفَصْلِ.

وَلَا يَنْكَشِفُ الْمَدَى الَّذِي مَا زَالَ الْفَطْنُ يَبْلُغُهُ فِي اسْتِغْلَالِ الْمَوَاقِفِ الْبِدَائِيَّةِ تَجَاةَ الْكَلِمَاتِ تَمَامَ الْإِنْكَشَافِ إِلَّا عِنْدَ انْسِجَامِ إِنْجَازَاتِ بَلَإِغِيٍّ سَاخِرٍ مَعَ أَضْوَاءِ قَاعَةِ الْعَدْلِ، أَوْ حِينَ تَكُونُ سَخَافَةٌ مُتَأَلِّفَةً مُعَيَّنَةً بَدِيلًا مِنْ أَكْثَرِ أَسَالِيبِ الْإِيْحَاءِ تَأْنِيًا الَّتِي تُفَضِّلُهَا الصَّحَافَةُ التَّكْرَارِيَّةُ. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَوَاقِفَ أَنْفُسَهَا عَامَّةً عِنْدَ الْأَطْفَالِ، وَتَقْوِيهَا التَّرْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ الطَّاعِيَةُ تَقْوِيَّةً لَا تَمْلِكُ مَعَهَا حَتَّى الدَّرْزَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْفَائِئَةُ الدَّقَّةُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْ حَيْثُ جَعَلَ الْبَالِغُ أَقْلًا خُنُوعًا لَوَسْطِهِ. وَالْحَقُّ أَنَّ أَمَهَرَ الْمَنَاطِقَةِ، عَلَى مَا قَدْ رَأَيْنَا، هُمْ، عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ سَيَقُومُوا لِاسْتِنْبَاطِ أَكْثَرِ الْأَنْظِمَةِ رَوْعَةً بِمَعُونَةِ آلِيَّتِهِمُ اللَّفْظِيَّةِ. وَفِي الْأَزْمِنَةِ الْقَادِمَةِ قَدْ يُعَدُّ الْمُنَاطِقِيُّ الْمُعَاصِرُ الصُّوفِيَّ الْحَقِيقِيَّ، حِينَ يَخْضَعُ الْأَسَاسُ الْعَقْلَانِيَّ لِلْعَالَمِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لِلْفَحْصِ الْعِلْمِيِّ.

وَإِذَا مَا انْعَظَفْنَا نَحْوَ جَوَانِبِ أَكْثَرِ عَاطِفِيَّةٍ فِي الْفِكْرِ الْمُعَاصِرِ فَلَنْ يُفَاجِنَنَا وَجُودُ طُقُوسٍ عَرِيذَةٍ حَقِيقِيَّةٍ لِهَوَسِ الْأَلْفَاظِ *verbomania*. وَالْعَمَلِيَّةُ الَّتِي اكْتَسَبَتْ بِهَا الْأَنْظِمَةُ اللَّفْظِيَّةُ الْخَالِصَةُ، الَّتِي أَكْثَرُ مَا يَسْمُهَا هُوَ التَّأْمُلُ الْأَصِيلُ، أَبْعَادًا

= الْعِلَاجُ النَّفْسِيُّ وَالتَّحْسِينُ الذَّاتِيُّ نَعْتَمِدُ عَلَى الْإِيْحَاءِ الذَّاتِيِّ التَّفَاؤُلِيِّ. وَقَدْ عَالَجَ الْكَثِيرُ مِنَ الْمَرْضَى مِنْ غَيْرِ تَقَاضِيٍّ أَيْ أَجْرٍ. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ: كَيْفِيَّةُ مُمَارَسَةِ الْإِيْحَاءِ وَالْإِيْحَاءِ الذَّاتِيِّ. [المُتَرْجِمُ]

(100) التُّرُوبِرِيَانْدُ: جُزُرٌ تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْمِ جُزُرِ كِيرِيُونَا. وَهِيَ 450 كِيلُومِتْرًا مَرْتَبَعًا مِنَ الْجُزُرِ الْمَرْجَانِيَّةِ الْمُقَابِلَةِ لِلْسَّاحِلِ الشَّرْقِيِّ مِنْ غِينِيَا الْجَدِيدَةِ. مُعْظَمُ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ الْبَالِغُ عِدَدُهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا يَعِشُونَ فِي جَزِيرَةِ كِيرِيُونَا الرَّئِيسَةِ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الْجُزُرُ مَنَاطِقَ مُهِمَّةً مِنَ الْغَابَاتِ الْإِسْتَوَائِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُحَافَظَ عَلَيْهَا. [المُتَرْجِمُ]

هائلة كهذه أخضعها رنيانو Rignano⁽¹⁰²⁾ حديثاً للاختبار⁽¹⁰³⁾. فالنُعوْت التي كُشِفَت التَّجَارِبُ عَنْ تَنَاقُضِهَا كَانَتْ تُجَرَّدُ مِنَ الطَّابِعِ المَادِّي تَدْرِيجِيًّا، وَيُوضَعُ محلُّهَا "ظُرُوفٌ لَفْظِيَّةٌ خَاوِيَةٌ مِنْ أَيْ مَضْمُونٍ مَفْهُومٍ؛ مِنْ أَجْلِ اسْتِثْصَالِ التَّنَاقُضِ المُتَبَادَلِ وَالتَّثْبِيْطِ اللَّذَيْنِ سَتُوْلَدُهُمَا هَذِهِ النُّعُوْتُ حَتَّى إِذَا مَا سُمِحَ لَهَا بِأَنْ تُقَدَّمَ مَادَّةٌ لِلْحَيَالِ وَلَوْ بِنِسْبَةِ ضَمِيلَةٍ". وبِمُوَازَاةِ هَذَا التَّجْرِيدِ مِنَ الطَّابِعِ المَادِّي شَدِيدٍ صَرَحَ دِيالكْتِيكِيُّ هَانْلُ نَحْوُ مَا كَانَ لِلْفَلَسَفَةِ المَدْرَسِيَّةِ، مِنْ أَجْلِ إقْنَاعِ العَقْلِ البَشَرِيِّ بِغِيَابِ التَّعَارُضِ المنطقيِّ فِي أَكْثَرِ السَّخَافَاتِ سُخْفًا⁽¹⁰⁴⁾. [40]

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، قُلِّصَتْ فِكْرَةُ الأُلُوْهِيَّةِ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، إِلَى "خَلِيطٍ مِنَ النُّعُوْتِ لَفْظِيٍّ خَالِصٍ أَوْ يَكَادُ". وَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ أَخِيرًا، عَلَى حَدِّ قَوْلٍ وَلَيْم جيمس William James⁽¹⁰⁵⁾، "أَنَّ مَجْمُوعَةَ النُّعُوْتِ المِيتافِيزِيْقِيَّةِ الَّتِي يَتَخَيَّلُهَا اللَاهُوتِيُّ" (كَوْنُ اللّهِ هُوَ الْعِلَّةُ الأَوَّلَى يَجْعَلُهُ يَمْتَلِكُ وَجُودًا بِنَفْسِهِ؛ وَهُوَ ضَرُورِيٌّ وَمُظْلَقٌ، لَا يَحْدُهُ شَيْءٌ البَتَّةُ، كَامِلٌ كَمَالًا لَا نِهَايَةَ لَهُ؛ وَهُوَ وَاحِدٌ وَوَجِيدٌ، رُوحَانِيٌّ، بَسِيطٌ مِيتافِيزِيْقِيًّا، ثَابِتٌ، أَبَدِيٌّ، كُلُّي القُدْرَةِ، كُلُّي العِلْمِ، كُلُّي الوجودِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ) "لَيْسَتْ سِوَى خَلِيطٍ وَمُزَاوَجَةٍ بَيْنَ صِفَاتٍ مُعْجَمِيَّةٍ مُتَحَدِّلِقَةٍ. وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيْشَعُرُ بِأَنَّهَا وَهِيَ تَحْتَ تَصَرُّفِ اللَاهُوتِيِّينَ مَا هِيَ إِلَّا

(102) يوجينو رنيانو (1870-1930م). فِلَسُوفٌ يَهُودِيٌّ إِيْطَالِيٌّ. حَرَّرَ مَجَلَّةَ Scientia، وَأَثَرُ كِتَابُهُ (سَايْكُولُوجِيَّةُ التَّفَكُّيرِ) (1923) فِي الأَنْثُرُوبُولُوجِيِّ الاجْتِمَاعِيِّ إِدْرَدُ إِيْفَانَزُ بَرِتْشَارْدُ، وَأَلَّفَ جُوزِفُ نِيدَهَامُ كِتَابَهُ (الإنْسَانُ آلَةٌ) (1927) بَعْدَ أَنْ نَشَرَ رِنْيَانُو كِتَابَهُ (الإنْسَانُ لَيْسَ بِآلَةٍ) (1926). [المُتَرَجِّمُ]

(103) The Psychology of Reasoning, Chap. XI. on Metaphysical Reasoning.

(104) Cf. Guignebert, " Le dogme de la Trinité ", Scientia, Nos. 32, 33, 37 (1919.14)

(105) وَلَيْم جيمس (1842-1910م). فِلَسُوفٌ وَعَالِمٌ نَفْسٍ أَمْرِيكِيٌّ. يُعَدُّ هُوَ وَتشارلز ساندروز بِيرْسُ وَجون دِيوِي أَعْظَمَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ أَسْمَاؤُهَا بِالمَدْرَسَةِ المُسَمَّاةِ بِالْبَرَاغْمَاتِيَّةِ، وَبَعْدُ أَحَدُ مُؤَسِّسِي عِلْمِ النَّفْسِ الوُظَيْفِيِّ. أَثَّرَ فِي عِدَدٍ مِنَ عَمَالِقَةِ الفِكْرِ مِثْلَ إِمِيلِ دُورْكَهَيْمِ، وَإِدْمُونْدِ هُوسْطِرِلِ، وَبِرْتْرَانْدِ رَيْسِلِ، وَلُودَوِيْغِ فِتْغِنْشْتَايْنِ. مِنْ أَكْثَرِ مُؤَلَّفَاتِهِ نَاقِشَةً: مَبَادِي عِلْمِ النَّفْسِ، وَتَنَوُّعَاتُ التَّجْرِيبَةِ الدِّيْنِيَّةِ. [المُتَرَجِّمُ]

مَجْمُوعَةُ عُنَوَانَاتٍ اكْتَسَبَتْ بِمُعَالَجَةِ مِكَانِيكِيَّةِ الْمُتَرَادِفَاتِ؛ فَالنَّزْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ حَلَّتْ مَحَلَّ الرُّؤْيِيَّةِ، وَالاحْتِرَافِيَّةُ مَحَلَّ الْحَيَاةِ⁽¹⁰⁶⁾.

وعلى نَحْوِ مُشَابِهِ، تَكُونُ الْوُظَيْفَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْغَةِ فِي التَّفَكِيرِ الَّذِي يُتَحَدَّثُ عَنْهُ عَادَةً بِوَصْفِهِ مِيتَافِيزِيْقِيًّا تَقْدِيمَ "إِسْنَادٍ لَفْظِيٍّ مَكِينٍ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُ اسْتِدْعَاءَ الْمَفَاهِيمِ غَيْرِ الْمُنْضَبِطَةِ، وَغَيْرِ الْوَاضِحَةِ، وَالْمُتَقَلِّبَةِ، إِلَى الذَّهْنِ عِنْدَ الْحَاجَةِ، مِنْ غَيْرِ أَيْ إِضْرَارٍ بِمُرُونَةِ الْمَفَاهِيمِ"؛ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي التَّعْبِيرِ الْمُتَبَتَّى "مَا أَمَكَّنَ مِنَ الضَّبَائِيَّةِ وَالْعُمُوضِ. فَمِنْ هُنَا يَنْشَأُ مَا يُسَمَّى بِالتَّعْبِيرَاتِ 'الْمَكْتُوبَةِ بِعُمُقٍ'، الَّتِي يُحِلُّ عَلَيْهَا رِيْبُو Ribot⁽¹⁰⁷⁾، وَالْأَثِيرَةُ عِنْدَ الْمِيتَافِيزِيْقِيِّينَ جَمِيعًا، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهَا صِيغَتْ بِبِرَاعَةٍ لِتَحْوِي كُلَّ مَا يُرْعَبُ أَنْ تَتَضَمَّنَهُ، وَلِتُخَفِّيَ كَذَلِكَ تَنَاقُضَاتِ الْمَذَاهِبِ وَسَخَافَاتِهَا الْمُسْتَنَدَّةَ إِلَى الْمَفَاهِيمِ ذَاتِ الشَّانِ... مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ مَهْمَةُ الرِّمَزِ اللَّفْظِيِّ إِبْقَاءَ التُّعَوُّتِ الْمُتَنَافِرَةِ مُتَّحِدَةً اتِّحَادًا قَسْرِيًّا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ اسْتِحْضَارُهَا جَمِيعًا فِي الذَّهْنِ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا لِسَبَبٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ بَعْضَهَا يَنْفِي بَعْضًا؛ مَعَ أَنَّ مِنَ الْمُهْمِ أَنْ تَكُونَ تَحْتَ تَصَرُّفِ الْمِيتَافِيزِيْقِيِّ لِيَسْتَنْبِطَ مِنَ الْمَفْهُومِ، مِنْ مَجْمُوعِهَا، حُرْمَةً مِنَ الْاسْتِتِجَاجَاتِ أَحْيَانًا، وَحُرْمَةً غَيْرَهَا أَحْيَانًا [41] أُخْرَى، بِحَسَبِ مَا يُرْعَبُ فِيهِ مِنْ عَرْضٍ لِلَوَاقِعِ".

وَفِي النِّهَايَةِ، حَلَّتِ الْكَلِمَةُ مَحَلَّ الْفِكْرَةِ كُلِّيًّا- وَعَلَّقَ مِيفِسْتُوفِيلِس Mephistopheles⁽¹⁰⁸⁾ بِقَوْلِهِ: حَيْثُ يَضَعُ الْفَهْمُ إِذَا بِكَلِمَةٍ تُظْهِرُ نَفْسَهَا فِي الْوَقْتِ

(106) W. James, *The Varieties of Religious Experience*, pp. 439-46.

(107) تِيودُول أَرْمَانْد رِيْبُو (1839-1916م). عَالِمُ نَفْسٍ فَرَنْسِيٌّ. أُلْقِيَ فِي سَنَةِ 1885 مُحَاضَرَاتٍ فِي جَامِعَةِ السُّورْبُونِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ التَّجْرِبِيِّ، وَغَيَّرَ فِي سَنَةِ 1888 أَسْتَاذًا لِلْمَادَّةِ فِي الْكُولِيجِ دُو فَرَانْسِ. صَرَّفَ اهْتِمَامًا مَخْصُوصًا لِلْعُنْصُرِ الْمَادِّيِّ لِلْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ، مُهْمِلًا جَمِيعَ الْعَوَامِلِ الرُّوحِيَّةِ أَوْ غَيْرِ الْمَادِّيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ. مِنْ أَعْمَالِهِ: فِلَسْفَةُ شُوبِنَهَاور، وَعِلْمُ النَّفْسِ الْمُعَاوِرِ فِي أَلْمَانِيَا. [الْمُتَرَجِمُ]

(108) مِيفِسْتُوفِيلِس: اسْمٌ يُعْطَى غَالِبًا الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ الشَّيْطَانَ. وَعَلَى الْعَكْسِ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُمَثِّلُ عَادَةً فِي الْمُخَيَّلَةِ الْغَرْبِيَّةِ فِي صُورَةِ شَيْءٍ حَيَوَانِيَّةٍ بِحَوَافِرٍ وَقُرُونٍ يَبْدُو مِيفِسْتُوفِيلِس أَكْثَرَ إِنْسَانِيَّةً؛ إِذْ يَظْهَرُ فِي هَيَاؤِ رَجُلٍ طَوِيلٍ مُسْرَبِلٍ بِالسَّوَادِ، يَحْمِلُ =

الْمُنَاسِبِ. وَكَمْ هُوَ مُلَانِمٌ تَشْبِيهُ رِنْيَانُو لِهَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ بِطَرَحِ حَيَوَانٍ قِشْرِيٍّ ذِرْعُهُ. "فَعَدَمٌ وَجُودٌ هَذَا الدَّرَجِ اللَّفْظِيَّ يَجْعَلُ اخْتِفَاءَ كُلِّ الْمَضْمُونِ الْفِكْرِيِّ يَسْتَلْزِمُ اخْتِفَاءَ كُلِّ أَثَرٍ لِلْوُجُودِ الْمَاضِي لِذَلِكَ الْمَضْمُونِ. لَكِنَّ الدَّرَجَ يَصُونُ شَيْئًا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَلِّكَ فِي عِدَادِ الْمَوْجُودَاتِ لِسَبَبٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ ذَلِيلُ الْوُجُودِ الْمَاضِي لِفِكْرَةٍ كَانَتْ لَهَا سَابِقًا حَيَاةٌ حَقِيقِيَّةٌ. لِذَلِكَ، يُشَكِّلُ هَذَا الشَّيْءُ دَوْمًا، عَلَى خَوَائِهِ مِنْ أَيْ مَضْمُونٍ فِكْرِيٍّ، نَقْطَةً رَبِطَ وَإِسْنَادٍ ثَمِينَةً لِلْعَاطِفَةِ الْمُنَاطَرَةِ لَهُ، الَّتِي تَبْلُغُ مِنَ الشَّدَّةِ مَا يَجْعَلُهَا لَا تَذُرُّكَ أَنَّ مَوَاطِنَ الشَّبهِ الْمَحْبُوبَةِ لَمْ تُعَدِّ تَرْتِيدِي الشَّيْءَ الْحَبِيبَ". (109).

بَيِّنْدُ أَنَّ الدَّرَجَ، أَيْ الْقِشْرَةَ اللَّفْظِيَّةَ، لَيْسَ مُجَرَّدَ مُرْتَكِّزٍ وَدَاعِيٍّ، بَلْ إِنَّ لَهُ طَاقَةً رَنْبِيَّةً، أَيْ "رَنْبًا وَجْدَانِيًّا" يُمَكِّنُ مُعَالِجَ الرُّمُوزِ الَّذِي قَدْ يُمَثِّلُهُ الْمُطْلَقُ Absolute مِنْ ظَمَانَةِ نَفْسِهِ بِأَنَّ جُهِودَهُ لَمْ تَذْهَبْ سُدَى تَمَامًا. يَقُولُ بَارْكَلِي Berkeley⁽¹¹⁰⁾: "مَتَى مَا أَصْبَحَتْ اللُّغَةُ مَالُوفَةً فَإِنَّ سَمَاعَ الْأَصْوَاتِ أَوْ رُؤْيَا الْخَصَائِصِ كَثِيرًا مَا يَكُونَانِ مَصْحُوبَيْنِ مُبَاشَرَةً بِالْعَوَاطِفِ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْمُعْتَادِ فِي الْبَدْءِ أَنْ يُنْشِئَهَا تَحْلُلُ الْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ الْآنَ مُطَّرَحَةٌ تَمَامًا"⁽¹¹¹⁾. وَهَكَذَا نَجَاوِزُ الْإِسْتِعْمَالَ الرَّمَزِيَّ لِلْكَلِمَاتِ إِلَى الْإِسْتِعْمَالِ الْإِنْفِعَالِيِّ. وَلِرَبِيبِ تَعْلِيلٍ حَسَنٍ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ كَمَا فِي الشُّعْرِ، يَرَى فِيهِ "أَنَّهَا لَمْ تُعَدِّ تَعْمَلُ

= كِتَابًا أَحْمَرُ يُوقَعُ فِيهِ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَبِيعُونَهُ أَرْوَاحَهُمْ. وَغَالِيًا مَا يَظْهَرُ فِي هَيَاةِ رَاهِبٍ فِرَانْسِيكَانِيٍّ، وَيَكُونُ يَهْدُو الصُّورَةَ فِي نَصْنِ كْرِسْتوفرْ مَارْلُو 1616 الَّذِي عَنَوَانُهُ (تَارِيخُ الدُّكْتُورِ فَاوَسْتوسِ الْمَاسَاوِيِّ)، وَيُوهَانُ فُولْفغانغِ غُوتَةُ 1725 الَّذِي عَنَوَانُهُ (فَاوَسْتُ)، وَالَّذِي اقْتَبَسَ مِنْهُ النُّصُّ الَّذِي أَوْرَدَهُ أُوغْدِينُ وَرِشَارْدُزْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. [الْمُتَرَجِمُ]

Rignano, *op. cit.*, Chap. XI.

(109)

(110) جورج بَارْكَلِي (1685-1753م). فِيلَسُوفٌ إِنْجِلِيزِيٌّ إِيرْلَنْدِيٌّ، وَأَسْقَفٌ أَنْجِلِيكَانِيٌّ. يُعَدُّ مِنْ مُسَانِدِي الرُّؤْيَا الْجَوْهَرِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ؛ إِذْ ادَّعَى عَدَمَ وَجُودِ شَيْءٍ اسْمُهُ مَادَّةٌ، وَأَنَّ مَا يَرَاهُ الْبَشَرُ وَيُعَدُّونَهُ عَالَمَهُمُ الْمَادِّيَّ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ فِي عِلْمِ اللُّهُ. وَلَهُ أَيْضًا مَوْلُفَاتٌ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَعِلْمِ الْمَعْرِفَةِ. مِنْ آثَارِهِ: بَحْثٌ لِمَبَادِي الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَقَالَةٌ نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي الرُّؤْيَا، وَالْمُحَلَّلُ. [الْمُتَرَجِمُ]

Treatise, Introduction, § 20.

(111)

يُوصِفُهَا عِلَامَاتٍ، بَلْ يَوْصِفُهَا أَصْوَاتًا، وَأَنَّهَا نَعَمَاتٌ مُوسِيقِيَّةٌ تَحْتَ تَصَرُّفِ عِلْمِ نَفْسٍ عَاطِفِيٍّ⁽¹¹²⁾. لِذَلِكَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التَّفَكِيرَ الْمِيتَافِيزِيْقِيَّ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ التَّطَرُّفِ [42] قَدْ يَكُونُ غَيْرَ قَابِلٍ لِلِاسْتِيعَابِ الْعَقْلِيِّ، أَيْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ يُصْبِحُ حَقًّا "يَعْبَرُ عَنْهُ بِالْكَلامِ وَلَا يَتَصَوَّرُهُ الْعَقْلُ"، يَكْتَسِبُ بِطَرِيقَةِ التَّعْوِضِ، كَمَا يَقُولُ رِنَانُو، "ذِلَالَةٌ انْفِعَالِيَّةٌ مُمَيَّزَةٌ لَهُ، أَيْ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ اللُّغَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْمُثِيرَةِ لِلْعَوَاطِفِ وَالْانْفِعَالَاتِ". وَيَرْجِعُ نَجَاحَهُ كُلِّيًّا إِلَى السَّلْسِلَةِ الْمُتَنَاعِمَةِ مِنَ الْأَصْدَاءِ الْعَاطِفِيَّةِ الَّتِي يَسْتَجِيبُ لَهَا الْعَقْلُ السَّادِجُ- وَالْمُنطِقَةُ الْبَرَبْرِيَّةُ الَّتِي تُرَدِّدُ صَدَى الدَّوِيِّ الصَّاخِبِ.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ التَّأثيرَاتُ بِأَقْلَ فَاعِلِيَّةٍ فِي الشُّؤُونِ الْعَمَلِيَّةِ، وَتَكُونُ أَكْثَرَ كَارِثِيَّةً بِكَثِيرٍ. وَكُلُّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ التَّمْثِيلُ بِمَا رَعَمَهُ الرَّاحِلُ الدُّكْتُورُ كُروكْشَانِك Crookshank⁽¹¹³⁾، مُعَزِّزًا بِوَفَرَةٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ التَّفْصِيلِيَّةِ، مِنْ أَنَّهُ "فِي ظِلِّ تَأثيرِ مَدَارِسَ فِكْرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَعَادَاتِ تَعْبِيرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَصْبَحْنَا مُعْتَادِينَ أَنْ نَتَكَلَّمَ وَنَكْتُبَ كَمَا لَوْ أَنَّ الْمَرَضَ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ"؛ وَأَنَّهُ تَجِبُ مُقَاوَمَةُ هَذِهِ الْعَادَاتِ اللفظِيَّةِ الْكَارِثِيَّةِ؛ إِذْ "لَا اِحْتِمَالَ لِحُصُولِ أَيْ تَقَدُّمٍ كَبِيرٍ فِي مِيدَانِ الطَّبِّ حَتَّى يُهَجَرَ اعْتِقَادُ وُجُودِ حَقِيقَتِي لِلْأَمْرَاضِ"؛ وَأَنَّهُ تَجِبُ مُوَاجَهَةُ الْمَشْكِلَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الْحَالِ؛ إِذْ "لَنْ يُنَجَرَ أَيْ قَدْرٌ مِنَ الْاِتِّفَاقِ النَّافِعِ مَا لَمْ نَكُنْ مُنْسَجِمِينَ أَوَّلًا مَعَ مَبَادِيِ الْمُنْهَجِ وَالْفِكْرِ"⁽¹¹⁴⁾. وَلَا يُمَكِّنُنَا بِسُهُولَةٍ أَنْ نَرْفُضَ تَأْيِيدًا لِمُقَارِبَاتِنَا لِإِفْتَا لِلنَّظَرِ

(112) *La Logique des Sentiments*, p. 187. cf. Erdmann, *op. cit.*, p. 120.

حَيْثُ تُرَاعَى مَنَاجِجُ حَظَبِ "فُزْرَةِ الْإِعْجَابِ أَمَامَ مَا هُوَ مُشْرِقٌ مَصْفُوفٌ وَيَخْلُو مِنَ الْفِكْرَةِ، نَارٌ تَشْتَعِلُ مِنَ الْفَشِّ".

(113) إدغار مارتنز كُروكْشَانِك (1858-1928م). طَبِيبٌ بَرِيطَانِيٌّ، وَعَالِمٌ أَحْيَاءٌ مِجْهَرِيَّةٌ كَذَلِكَ. دَرَسَ فِي كَلِيَّةِ الْمَلِكِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَعَمِلَ طَبِيبًا فِي الْجَيْشِ الْبَرِيطَانِيِّ فِي مِصْرَ فِي حَقْبَةِ ثَوْرَةِ عُرَابِي، وَقَلَّدَ وَسَامًا لخدمتهِ فِي مَعْرَكَةِ التَّلِّ الْكَبِيرِ. وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ مِصْرَ جَابَ أَنْهَاءَ أَوْزُنًا لِلْحُصُولِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْخَبَرَةِ الطَّبِيبِيَّةِ. وَتَعَلَّمَ فِي بَرَلِينَ كَيْفِيَّةَ فَصْلِ السَّلَالَاتِ الْبَكْتِيرِيَّةِ مِنْ أَجْلِ فَحْصِ الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَّةِ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: تَارِيخُ التَّطْعِيمِ وَمَرْضِيَّتُهُ، وَالْمُقَرَّرُ فِي عِلْمِ الْبَكْتِيرِيَا. [الْمُتَرْجِمُ]

Influenza, 1922, pp. 12, 61, 512.

(114)

كهذا، ولا سيَّما أنَّ مَصْدَرَهُ شَخْصٌ لَهُ خِبْرَةٌ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي قَنْ الْعِلَاج. وَفِي صَفْحَةٍ أُخْرَى يُقَدِّمُ الدَّكْتُورُ كُروكشانك نَفْسَهُ حُجَجًا أُخْرَى لِعَدِّ ذَلِكَ الرَّفْضِ مِمَّا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرْتَكِزَ إِلَّا عَلَى الْإِخْفَاقِ فِي تَقْدِيرِ الْحَقَائِقِ⁽¹¹⁵⁾.

وَلَمْ نَشْهَدْ حَتَّى الْأَزِمَّةِ الْمُتَأَخَّرَةِ جُهِودًا لِاخْتِرَاقِ اللَّغْزِ إِلَّا هُنَا وَهُنَاكَ، وَذَلِكَ بِمُهَاجَمَةِ مُبَاشِرَةِ لِلْمُشْكِلَةِ الرَّئِيسَةِ. وَفِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ ظَهَرَ التَّحْلِيلُ الْأَسْمِيُّ لِوَلِيمِ الْأَوْكَامِيِّ William of Occam⁽¹¹⁶⁾، وَفِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ كَانَ نِتَاجُ بَيْكِن Bacon⁽¹¹⁷⁾ وَهوبز Hobbes⁽¹¹⁸⁾. وَبَلُّغُ الْبَحْثِ ذِرْوَتَهُ مَعَ [43]

(115)

Infra, Supplement II, pp. 344-5.

(116) وَلِيلِمِ الْأَوْكَامِيِّ (1287-1347م). أَخَوِيٌّ فَرَانِسْكَانِيٌّ، وَفِيلَسُوفٌ مَدْرَسِيٌّ، وَلَاهُوتِيٌّ إنْجِلِيزِيٌّ مِنْ أَوْكَامٍ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ فِي سُرِّي. يُعَدُّ مَعَ تَوْمَا الْأَوْكَونِيّ وَدَنْزْ سَكُونْسْ وَابْنِ رُشْدٍ مِنْ عَظَمَاءِ الْمُفَكِّرِينَ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى. كَانَ لَهُ اثْنُ فِكْرِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ فِي مَجْرَى الْأَحْدَاثِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ. كَانَ رَائِدَ الْمَذْهَبِ الْأَسْمِيِّ، وَيَعُدُّهُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ أَبَا عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ الْمُعَاوِرِ. وَكَانَ يَرَى أَنَّ الْمَعْرِفَةَ حَدِيثِيَّةٌ، وَأَنَّ الْمَعْنَى لَا تُوجَدُ إِلَّا فِي الْعَقْلِ، وَأَنَّهَا تَقُومُ مَقَامَ كَثَرَةِ الْأَفْرَادِ (إِنْسَانٍ، مَثَلًا)، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ كُلِّيَّةٌ بِذَاتِهَا بَلْ بِمَا تُحْمَلُ عَلَيْهِ، أَيْ أَنَّ الْأَسْمَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى يُطْلَقُ عَلَى الْأَفْرَادِ بِوَصْفِهِ زَمَرًا لِلْجُزْئِيَّاتِ لَا لِلْمَعْنَى نَفْسِهَا، فَالْمَفَاهِيمُ الْعَامَّةُ الَّتِي تُنْشِئُهَا أَفْكَارُنَا عَنْ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ لَا تَنْفَصِلُ عَنْهَا، بَلْ إِنَّهَا لَا تُعْتَبَرُ عَنْ جَمِيعِ خَصَائِصِهَا وَصِفَاتِهَا. فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ الْمَذْهَبُ الْأَسْمِيُّ مَادِّيًّا يَقُولُ بِأَوَّلِيَّةِ الْأَشْيَاءِ وَثَانَوِيَّةِ الْمَفَاهِيمِ، وَيَكُونُ أَوَّلَ تَعْبِيرٍ عَنِ الْمَادِّيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى. وَكَانَتْ لِأَوْكَامٍ فِكْرَةٌ فِلَسْفِيَّةٌ تُدْعَى نُضَلْ أَوْكَامٍ، مَفَادُهَا أَنَّ التَّعَدُّدَ لَا يَنْبَغِي افْتِرَاضَهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَمَا يُمَكِّنُ شَرْحَهُ بِفُرُوضٍ قَلِيلَةٍ لَا يَتَّبِعِي شَرْحَهُ بِفُرُوضٍ كَثِيرَةٍ. وَتُقَسَّمُ كِتَابَاتُهُ عَلَى كِتَابَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ وَكِتَابَاتٍ فِلَسْفِيَّةٍ، وَمُعْظَمُ كِتَابَاتِهِ الْفِلَسْفِيَّةِ شُرُوحٌ لِكُتُبِ أَرِسْطُو، وَأَهْمُهَا: الْمَجْمُوعَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ، وَالْعَرَضُ الذَّهَبِيُّ، وَمِنْتَا قَضِيَّةٌ لَاهُوتِيَّةٌ. [المُتَرَجِّم]

(117) فَرَانِسِسْ بَيْكِن (1561-1626م). فِيلَسُوفٌ، وَرَجُلٌ دَوْلَةٌ، وَكَاتِبٌ، وَخَطِيبٌ إنْجِلِيزِيٌّ، مَعْرُوفٌ بِقِيَادَتِهِ لِلثَّوْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِفِلَسْفِيَّتِهِ الْجَدِيدَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ وَالتَّجْرِبِ. كَانَ مِنْ الرُّوَادِ الَّذِينَ تَنَبَّهُوا إِلَى عَدَمِ جَدْوَى الْمَنْطِقِ الْأَرِسْطِيِّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الْقِيَاسِ. مِنْ آثَارِهِ: تَارِيخُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَأَطْلَانَا الْجَدِيدَةِ. [المُتَرَجِّم]

(118) تَوْمَسْ هُوبز (1588-1679م). عَالِمٌ رِيَاضِيَّاتٍ، وَفِيلَسُوفٌ إنْجِلِيزِيٌّ. يُعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ فِلَاسِفَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ فِي إنْجِلْتَرَا وَأَكْثَرِهِمْ شُهْرَةً وَلَا سِيَّامًا فِي الْمَجَالِ الْقَانُونِيِّ؛ إِذْ =

الكتاب الثالث من مؤلف لوك ⁽¹¹⁹⁾Locke الذي عنوانه مَقَالَةٌ ⁽¹²⁰⁾Essay وفي اهتمام لايبنتز Leibnitz بإيجاد لَعْمَةٍ فَلَسَفِيَّةٍ - ذات سِمَةٍ عَالَمِيَّةٍ. أما باركلي وكوندياك ⁽¹²¹⁾Condillac فأبقيا القضية حَيَّةً. ونَصِلُ مَعَ هورن توك Horne

= كَانَ زِيَادَةً عَلَى اشْتِغَالِهِ بِالْفَلَسَفَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالتَّارِيخِ فَقِيهَاً قَانُونِيًّا أَسهَمَ عَلَى نَحْوِ كَبِيرٍ فِي بُلُورَةٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَطْرُوحَاتِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا هَذَا الْقَرْنُ عَلَى الْمُسْتَوَيْنِ السِّيَاسِيِّ وَالْحَقُوقِيِّ. وَعُرِفَ أَيْضًا بِإِسْهَامِهِ فِي تَأْسِيسِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَفَاهِمِ كَمَفْهُومِ الْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ. وَبُعْدُ كَذَلِكَ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي وَظَّفُوا مَفْهُومَ الْحَقِّ الطَّبِيعِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْكَثِيرِ مِنَ الْقَضَايَا الْمَعْرُوضَةِ فِي عَصْرِهِمْ. مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: دَرَاةٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَرِسَائِلُ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالضَّرُورَةِ. [المُتَرْجِم]

(119) جون لوك (1632-1704م). فيلسوف تجريبي، ومفكر سياسي إنجليزي. لم ينخرط في سلك رجال الدين لكرهته عدم التسامح الديني البيوريتاني عند اللاهوتيين، فدرس بدلاً من ذلك الطب ومارس التجريب العلمي حتى عُرف باسم الدكتور لوك. دَعَبَ إِلَى أَنَّ الْمَعْرِفَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا تَمَنَحُنَا إِيَّاهُ التَّجَرُّبَةُ، وَأَنَّ لَوْ كَانَتْ لَدَيْنَا حَاشَةٌ زَائِدَةٌ أَوْ نَقْصَتْ حَاشَةٌ مِنْ حَوَاسِنَا، لَاخْتَلَفَتْ تَجَرُّبَتُنَا وَمَعْرِفَتُنَا لِلْعَالَمِ زِيَادَةً أَوْ نَقْصَانًا. وَرَأَى أَنَّ الْأَفْكَارَ الَّتِي نَكُونُهَا لَيْسَتْ صُورًا مُطَابِقَةً لِلْأَشْيَاءِ، وَلَيْسَتْ أَشْبَاهًا لَهَا، لَكِنَّهَا عَلَامَاتٌ تَذُلُّ عَلَيْهَا، شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْأَلْفَاظِ؛ فَهِيَ لَا تُشَبِّهُ الْمَعْنَى الَّتِي تَقُومُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ سَمَاعِهَا، وَلَكِنَّهَا تَذُلُّ عَلَيْهَا. وَرَأَى أَنَّ وَظِيفَةَ اللُّغَةِ التَّوَاضُّلُ بَيْنَ النَّاسِ وَالْإِنْفِصَاحُ عَمَّا يَحْتَمِلُ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ أَفْكَارٍ وَمَعَانٍ، وَأَنَّ الْأَلْفَاظَ تَذُلُّ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَادِّيَّةٍ، وَإِلَانِيَّاتٍ إِلَى الْخَصَائِصِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْجُزْئِيَّاتِ وَقَصْلِهَا عَنِ الْخَصَائِصِ الذَّائِيَّةِ لِكُلِّ جُزْئِيٍّ تَحْصُلُ عَلَى مَعَانٍ كُلِّيَّةٍ تُخَصَّصُ لِكُلِّ مِنْهَا اسْمًا يُغْنِينَا عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى كُلِّ جُزْئِيٍّ. وَأَطْلَقَ لُوكَ عَلَى هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ اسْمَ التَّجْرِيدِ، وَقَالَ إِنَّ الْمَعْنَى الْكُلِّيَّ نَاقِصٌ، يَحْتَوِي بَعْضَ خَصَائِصِ الْأَشْيَاءِ، وَكَلِمَا أَزْدَادَتْ كُلِّيَّتُهُ أَزْدَادَ نَقْصِهِ، وَإِنَّ الْمَعْنَى الْكُلِّيَّةَ يَصْنَعُهَا الْفِكْرُ وَلَيْسَتْ صُورًا لِلْأَشْيَاءِ وَلَا تُشِيرُ إِلَى أَصُولِهَا أَوْ جَوَاهِرِهَا، وَلَيْسَتْ مَعْرِفَةً وَاقِعِيَّةً لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مَعْنِيَّةٌ بِالْوُجُودِ مُبَاشَرَةً: مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: فِي التَّسَامُحِ، وَمَقَالَتَانِ فِي الْحُكُومَةِ، وَمَقَالَةٌ فِي الْفَهْمِ الْإِنْسَانِيِّ. [المُتَرْجِم]

(120) عنوانه الْكَامِلُ هُوَ: مَقَالَةٌ فِي الْفَهْمِ الْإِنْسَانِيِّ. [المُتَرْجِم]

(121) إيتيان بونو دو كوندياك (1715-1780م). فيلسوف، ومعرفي فرنسي مشهور، من فلاسفة عصر التنوير. دَرَسَ سَايْكُولُوجِيَّةَ الْعَقْلِ وَفَلَسَفَتَهُ، وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِ التَّجْرِيبِ عَلَى طَرِيقَةِ لُوكَ. وَبَعْدَ أَذَاعِ أَهَمِّ مَوْلَافَاتِهِ (رِسَالَةٌ فِي الْإِحْسَاسَاتِ) اسْمُهُ؛ إِذْ نَحَا فِيهِ مَنَحَى لُوكَ فِي إِعَادَتِهِ الْأَفْكَارَ إِلَى الْأَحَاسِيسِ، وَزَادَ عَلَيْهِ رَدُّهُ قُوَى الْعَقْلِ نَفْسِهِ إِلَى الْأَحَاسِيسِ =

Tooke⁽¹²²⁾ ومُتَابِعِيهِ إِلَى حَرَكَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ الَّذِي شَهِدَ جُهِدًا ذَا أَهَمِّيَّةٍ خَاصَّةً لِكُلِّ مَن بِيْنْتَام Bentham⁽¹²³⁾، وَتَيْن Taine⁽¹²⁴⁾، وَمَاوْتِر⁽¹²⁵⁾.

وَلَا حَاجَةَ بِنَا هُنَا إِلَى أَن نُعْنَى بِالْإِنْجَازَاتِ الْمُحَبَّبَةِ لِلْفِيلُولُوجِيَا الْمُقَارِنَةِ

= وَإِنْ طَرَأَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ التَّحَوُّرَاتِ. فَوَصَفَ الذَّاكِرَةُ، مَثَلًا، بِأَنَّهَا إِحْسَاسٌ قَوِيٌّ قَدْ تَرَكَ أَثَرًا فِي الْإِمْكَانِ اسْتِدْعَاؤُهُ، وَوَصَفَ الْإِنْبِيَاءَ بِأَنَّهُ انْصَرَفَتْ لِلْوَعْيِ بِإِحْسَاسٍ وَاحِدٍ يَعْزِلُهُ عَنِ بَاقِي الْأَحْسَاسِيْنَ. وَقَالَ كُونْدِيَاكُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَكْمُلُ بِاللُّغَةِ بِوَصْفِهِ إِنْسَانًا، وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَرَحَلَةِ الْإِحْسَاسَاتِ الْبَسِيطَةِ إِلَى الْجَدَلِ الْفِكْرِيِّ وَإِقْنَاعِ الْآخَرِينَ. وَأَنْزَلَ اللُّغَةَ مِثْلَةً خَاصَّةً مِنَ التَّفَكُّيرِ، وَرَأَى أَنَّ التَّفَكُّيرَ الْفَلْسَفِيَّ لَا يَقُومُ إِلَّا بِلُغَةٍ وَاضِحَةٍ مَضُوعَةٍ جَيِّدًا. وَذَهَبَ إِلَى أَنَّا إِنْ أَرَدْنَا أَن نَكُونَ لَنَا لُغَةً وَاضِحَةً كَانَتْ عَلَيْنَا أَنْ نَبْلُغَ بِمَعَانِيهَا أَبْسَطَ حَقَائِقِهَا بِمَنْهَجٍ تَحْلِيلِيٍّ، ثُمَّ أَنْ نَقَارَنَ بَيْنَ الْمَعَانِي الْمُشَابِهَةِ بِمَنْهَجٍ رِيَاضِيٍّ عَلَى مِثَالِ: إِذَا كَانَ أ=ب، وَب=ج، فَلِذَلِكَ أ=ج. [المُتَرْجِم]

(122) جون هورن توك (1736-1812م). سياسي، وفيلولوجي إنجليزي. دَرَسَ الْقَانُونُ وَفَقَهُ اللُّغَةَ. أَهَمُّ أَثَارِهِ: الْفَلْسَفَةُ الْاِرْتِقَائِيَّةُ لِتَشُونْسِي رَايت، وَمُحَاكَمَةُ جُون هورن توك، وَخِلَافَاتُ مَتَاخَرَةٍ فِي مَذَهَبِ الْأَدَائِيَّةِ. [المُتَرْجِم]

(123) جيرمي بينثام (1748-1832م). عَالِمُ قَانُونٍ، وَفِيلَسُوفٌ، وَمُصْلِحٌ قَانُونِيٌّ وَاجْتِمَاعِيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ. كَانَ الرَّائِدَ فِي فِلْسَفَةِ الْقَانُونِ الْاِنْغِلُو-أَمْرِيْكِي، وَاشْتَهَرَ بِدَعَوَاتِهِ إِلَى التَّفْعِيَّةِ وَحَقُوقِ الْحَيَوَانِ. وَشَمِلَتْ مَوَاقِفُهُ الْحُجَجَ الْمُؤَيَّدَةَ لِلْفَرْدِ وَالْحُرِّيَّةِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْكَنِيسَةِ وَالْدَوْلَةِ وَحُرِّيَّةِ التَّعْبِيرِ وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْحَقُوقِ، وَطَالَبَ بِإِلْغَاءِ الرُّقِّ وَعُقُوبَةِ الْإِعْدَامِ، وَبِإِلْغَاءِ الْعُقُوبَاتِ الْبَدْنِيَّةِ. وَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَثِيرَ مِمَّا نَتَحَدَّثُ بِهِ لَا مَعْنَى لَهُ فِي الْوَاقِعِ، مِثَالُ ذَلِكَ كَلِمَاتُ (الْوَاجِبِ) وَ(الْحَقِّ) وَ(السُّلْطَةِ)، فَهِيَ كَلِمَاتٌ غَيْرُ مَفْهُومَةٍ مَا لَمْ نُجَلِّهَا عَلَى الْوَاقِعِ. مِنْ أَثَارِهِ: مَقْدَمَةُ لِمَبَادِي الْأَخْلَاقِ وَالتَّشْرِيعِ، وَكُتَابَاتُ مُخْتَارَةٍ، وَنَظَرِيَّةُ التَّشْرِيعِ. [المُتَرْجِم]

(124) هِيُولَايت تَيْن (1828-1893م). نَاقِذٌ، وَعَالِمُ تَارِيخٍ فَرَنْسِيٌّ. كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي الْأَدَبِ الْفَرَنْسِي، وَلَهُ خَطٌّ ثَابِتٌ مِنَ الشَّكِّيَّةِ. مِنْ أَشْهُرِ أَعْمَالِهِ: لَافُونْتِينِ وَالْخِرَافَاتِ، وَفِلْسَفَةُ الْفَنِّ، وَتَارِيخُ الْأَدَبِ الْإِنْجِلِيزِي. [المُتَرْجِم]

(125) لِلْوَقُوفِ عَلَى مُنَاقَشَةِ تَفْصِيلِيَّةٍ لِلْإِنْجَازَاتِ اللَّغَوِيَّةِ لِكُلِّ مَن يَتَّكِنُ، وَهَوْبِز، وَبَارْكَلِي يُنْظَرُ:

Jermy 1934, pp. 9-87. *Psyche*، وَالْإِسْهَامُ الْأَسَاسِيُّ لَكِنِ الْمُغْفَلُ لِجِيرْمِي بِيْنْتَام

Bentham الَّذِي يَسْبِقُ التَّطَوُّرَاتِ الْمَعَاصِرَةَ سَبَقًا رَائِعًا، قَدْ تَنَاوَلَهُ أَوْغِدِن فِي كِتَابِهِ نَظَرِيَّةُ بِيْنْتَام فِي الشَّخْصِيَّاتِ (International Library of

التي طالما كانت مركزَ الاهتمام العامِّ ممثلةً في جهودِ شتاينثال (Steinthal)⁽¹²⁶⁾، وماكس مُلر Max Müller⁽¹²⁷⁾، وآخرين. وما زالتِ المُقارَباتُ الفيلولوجيةُ والسوسولوجيةُ لا تُبدُ المشتغلينَ في الميدانِ بأسبابِ الهداية. وفي التَّذليلِ A حديثٌ مُنصبٌّ على فَوْضَى التَّحْوِينِ، أما التَّذليلُ D فَيَشْتَمِلُ، زِيَادَةً عَلَى مُلْخَصٍ لِمَا قَدَّمَهُ بيرس C. S. Peirce، على نَمَازِجٍ لِمَا أَنْجَزَهُ الْآخَرُونَ الَّذِينَ بَحَثُوا فِي عِلْمِ الْمَنَظِقِ عَنِ حُلِّ، وكذلك الَّذِينَ يَدُو أَنَّهُمْ اعْتَمَدُوا عَلَى الْمُصْطَلَحِ اعْتِمَادًا كُلِّيًّا. وفي سائرِ فُصولِ الْكِتَابِ سَنَشْغَلُ أَنْفُسَنَا كَثِيرًا بِالْكِتَابِ الْمَعَاصِرِينَ الَّذِينَ أَفَادُوا مِنَ الطَّرِيقَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ (لِمَنَاهِجِ الْمُقَارَبَةِ السَّبْعَةِ الرَّئِيسَةِ)، وَهُمْ الْمِيتَافِزِيقِيُّونَ، وَالسَّايَكُولُوجِيُّونَ. أما غَيْرُهُمْ فَقَدْ جَهَدْنَا فِي الْإِشَادَةِ بِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا - ابْتِدَاءً بِعَمَلِ أَنْسِلِمِ Anselm⁽¹²⁸⁾ الذي عُنوانُهُ فِي التَّحْوِ De Grammatico، ومُروِّرًا بِدَلْغَارَنُو Dalgarno⁽¹²⁹⁾ (1661)، وَلِوَلِكِنز Wilkins⁽¹³⁰⁾

(126) هيرمان شتاينثال (1823-1899م). فيلسوف ألماني. دَرَسَ فِي جَامِعَةِ بَرَلِين وَأَقَامَ فِي بَارِيسَ بَيْنَ سَنَتَيْ 1852 وَ1855، إِذْ سَخَّرَ جَهْدَهُ لِدِرَاسَةِ اللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ. مِنْ أَهَمِّ

مُؤَلَّفَاتِهِ: فُونِ هَمْبُولْتِ وَالفَلَسَفَةُ الْهَيْغَلِيَّةُ. [المُتَرَجِّمُ]

(127) فريدريش ماكس مُلر (1823-1900م). عالِمُ أَلْمَانِيٍّ اِهْتَمَّ عَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ بِاللُّغَةِ السَّنْسَكْرِيتِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. أَسْهَمَ فِي الدِّرَاسَةِ الْمُقَارَبَةِ فِي مَجَالَاتِ اللُّغَةِ وَالَّذِينَ وَالْأَسَاطِيرِ، وَإِنْ كَانَ عِلْمَاءُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ قَدْ نَبَذُوا الْكَثِيرَ مِنْ نَظَرِيَّاتِهِ. مِنْ مَقُولَاتِهِ: إِنَّ فِكْرَةَ التَّعْبُدِ مِنَ الْغَرَائِزِ الَّتِي قُطِرَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا مِنْذُ نَشَأَتِهِ الْأُولَى. مِنْ آثَارِهِ: مُحَاضَرَاتُ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، وَمُقَدِّمَةٌ لِعِلْمِ الدِّينِ، وَدِرَاسَاتُ فِي الْبُودِيَّةِ، وَالَّذِينَ الطَّبِيعِيِّ. [المُتَرَجِّمُ]

(128) أَنْسِلِمُ أَسْقَفُ كَانْتَرِبَرِي (1033-1109م). لَاهُوتِيٌّ وَفِيلَسُوفٌ إِيطَالِيٌّ مِنْ أَوَائِلِ الْفَلَسَفَةِ الْمَدْرَسِيِّينَ. كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ بِالْعُ فِي الْلَاهُوْتِ الْغَرْبِيِّ، وَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِيمَانَ يَجِبُ أَنْ يَسْبِقَ الْمَعْرِفَةَ؛ فَيَجِبُ أَنْ تُؤْمِنَ لِتَعْرِفَ، وَمَعَ ذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ يُبْنَى الْإِيمَانُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ. اِشْتَهَرَ بِكِتَابَتَيْهِ (الْمُنَاجَاةُ) وَ(التَّهْمِيدُ). [المُتَرَجِّمُ]

(129) جُورْجُ دَلْغَارَنُو (1616-1687م). مَفْكَرٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ غَنِيٌّ بِالْمُشْكَلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ. أَصْلُهُ مِنْ أِبْرَدِينِ، وَعَمِلَ لَاحِقًا مُدَرِّسًا فِي جَامِعَةِ أُوَكْسْفُورْدَ بَرَفَقَةِ جُونِ وَلِكِنز. أَهَمُّ مُؤَلَّفَاتِهِ (مُعَلِّمُ الصُّمِّ وَالْبُكْمِ) الَّذِي اقْتَرَحَ نِظَامًا لُغَوِيًّا جَدِيدًا لِيَسْتَعْمِلَهُ الصُّمُّ وَالْبُكْمُ، وَالَّذِي مَا زَالَ مَعْمُولًا بِهِ فِي أَمْرِيكََا إِلَى الْيَوْمِ. [المُتَرَجِّمُ]

(130) جُونُ وَلِكِنز (1614-1672م). قَسٌّ، وَفِيلَسُوفٌ طَبِيعِيٌّ، وَمُؤَلِّفٌ، وَعَالِمٌ مُوسِعِيٌّ =

(1668)، وفريك Freke⁽¹³¹⁾ (1693)، وانتهاء سيلبيرر Silberer⁽¹³²⁾ (1917)، وكتاب كاسيرر Cassirer⁽¹³³⁾ الذي عنوانه فلسفة الأشكال الرُّمُزِيَّة *Philosophie der symbolischen Formen* (1923) - في المنح العام لتقدم الإنسان نحو تحقيق الاستقلال اللفظي الذي كان يظهر على نحو متقطع في دُورِيَّة *Psyche* منذ سنة 1927⁽¹³⁴⁾.

ونتيجة لكل هذه الجهود بات ممكناً وجود علم للرُّمُزِيَّة، غير أنه من الضروري على الدوام ألا تغيب عن الذهن الأشكال الخاصة التي يمكن أن تُعَرَّبَ بها سلطة الكلمات عن نفسها في الزمن الحاضر. [44]

-
- = إنجليزي. أسس الكلية السريّة، وكان أحد مؤسسي الجمعية الملكية، وأسفت شيستر منذ سنة 1668 إلى وفاته. يُعدّ من القليلين الذين رأسوا كلية في كل من جامعتي أوكسفورد وكيمبرج. وهو أحد مؤسسي اللاهوت الطبيعي الموافق للعلم في زمانه. أشهر مؤلفاته (مقالة نحو طابع حقيقي ولغة فلسفيّة)، وقد تضمن اقتراح لغة عالميّة ونظامٍ عشريّ للقياس لا يختلف عن النظام المتري الحديث. [المترجم]
- (131) وليم فريك (1662-1744م). كاتبٌ صوفيّ إنجليزيّ. غالباً ما يُذكر بوصفه أحد المؤخّلين السوسينيّين الذين عانوا الاضطهاد على يد البرلمان سنة 1694 بسبب المعتقدات المُكرّرة للثلاث، لكنّه رجّع عن ذلك فيما بعد. أهم آثاره: مقالات في توحيد اللاهوت والفضيلة، والعقل أو الدين الطبيعي والوحي. [المترجم]
- (132) هريوت سيلبيرر (1882-1923م). مُحلّل نفسيّ نمساويّ، ارتبط اسمه بالحلقه المهنيّة المُحيطه بسيغموند فرويد التي تضمنت رُؤاذاً آخرى في الدراسة السايكولوجيّة مثل كارل يونغ والفريد أدلر وغيرهما. وله مشاركة سابقة في الرياضيّة والصّحافة الرياضيّة. وكان لديه اهتمام كبير بالأحلام، ونشر في سنة 1909 بحثاً يُفضّل فيه بحثه في الحالة الذهنيّة التي يكون فيها الفرد بين اليقظة والنوم. [المترجم]
- (133) إيرنست كاسيرر (1874-1945م). فيلسوف، ومؤرّخ ألمانيّ، ينتمي إلى ما يُسمّى بمدسة ماربورج في الفلسفة الكانتيّة الجديدة. اشتهر بكونه المَع شراح الفلسفة الكانتيّة في القرن العشرين. من أشهر مؤلفاته: الجوهر والوظيفة، والحرية والشكل، وفلسفة الأشكال الرُّمُزِيَّة. [المترجم]
- (134) يُنظر بِخاصّة Vol. XVIII (1946)، حيث يُمكن، أخيراً، أن تبدو ملامح نواة بحث تأخّر أو أنّه بشأن "سحر الكلمة Word Magic".

مُتَمَازًا، فَإِنَّ اسْمَهُ الَّذِي يُوجِي بِمَقْبُولِيَّتِهِ يَتَحَلَّلُ مَا بَيْنَ إِحْسَاسِي وَشُعُورِي، وَقَدْ أَعْتَقَدُ أَنَّ نَكْهَتَهُ تُمْتَعِنِي فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُثْبِتُ فِيهِ قَلِيلٌ مِنَ الْإِنْتِبَاهِ عَكْسَ ذَلِكَ. (139).

وما لم نُدرك طبيعة سُلْطَةِ الْكَلِمَاتِ، فَإِنَّهَا قَدْ تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَغْرَاضِنَا بِطَرَائِقَ دَقِيقَةٍ لَا يُحْصِيهَا الْعَدُّ. فَهِيَ تُؤَدِّي فِي عِلْمِ الْمَنْطِقِ، عَلَى مَا قَدْ رَأَيْنَا، إِلَى خَلْقِ الْكِيَانَاتِ الزَّائِفَةِ، وَالْكَلِّيَّاتِ، وَالْخَوَاصِّ، الَّتِي سَيَكُونُ لَنَا مَزِيدُ بَحْثٍ فِيهَا فِي الْخَاتِمَةِ. وَيُؤَدِّي اسْتِقْطَابُ الْكَلِمَاتِ الْإِهْتِمَامَ إِلَى ذَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ إِلَى تَشْجِيعِ الدِّرَاسَةِ غَيْرِ الْمُجْدِيَةِ لِلْإِشْكَالِ الَّتِي فَعَلَتِ الْكَثِيرَ لِيُثَقِّدَ الثَّقَّةَ بِالنَّحْوِ؛ فَيَسَبِّبُ الْإِثَارَةَ الَّتِي تَهْجِئُهَا بِجَبَرُوتِهَا الْعَاطِفِي يَغْدُو الْقِسْمُ الْأَعْظَمُ مِنَ النِّقَاشِ عَقِيمًا؛ وَبِسَبَبِ الْأَنْمَاطِ الْمُنْتَوَعَةِ لِهَوَسِ الْأَلْفَاظِ وَهَوَسِ الْكِتَابَةِ يَغْدُو الرِّضَا بِالتَّسْمِيَةِ مَفْهُومًا، وَالْإِحْسَاسُ بِالْقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ مُعَزِّزًا عَلَى نَحْوِ مُتْكَلِّفٍ. [45]

وَلَا غَرَابَةَ فِي أَنَّ مُرَاعَاةَ الطَّرَائِقِ الَّتِي عَلَى وَفْقِهَا جُعِلَتِ اللَّغَةُ خَادِمَةً لِلْبَشَرِيَّةِ فِي الْمَاضِي كَثِيرًا مَا تُؤَدِّي إِلَى رَدِّ فِعْلٍ شَكِّيٍّ. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ كَاتِبٌ قَدِيرٌ، لَكِنَّهُ مَغْمُورٌ⁽¹⁴⁰⁾، بِقَوْلِهِ: -

"افْتَرَضْ أَنَّ شَخْصًا مَا يُؤَكِّدُ قَائِلًا: *The gostak distims the doshes*، فَلَا

= تلك المرحلة. وقد حاول إنقاذ القيم التي أطاح بها المذهب المادي، وتأكيد إيمان بالروح لا يتزعزع. من مؤلفاته: مقالة في المعطيات المباشرة للوجدان، والمادة والذاكرة، والتطور الخلاق. [المترجم]

Time and Free-Will, p. 131.

(139)

(140) الإشارة هنا إلى أندرو إنغراهام (1841-1905م)، الذي كان مدير مدرسة سوين قبل سنة 1903. يُنسب إليه ابتكار مفهوم غوستاك *Gostak concept*، وهو اسم لا معنى له استعمله في عبارة: *The gostak distims the doshes*، وهي مثال لكيفية اشتقاق معنى من نظم جملة، على الرغم من كون مراجع التعبيرات فيها مجهولة تمامًا. وقد ابتكر العبارة أندرو إنغراهام سنة 1903، لكنها اشتهرت حين اقتبسها أوغدن ورتشاردز سنة 1923 في كتابهما (معنى المعنى)، ومنذ ذلك الحين أحيل عليها في عدة سياقات ثقافية. أهم آثار أندرو إنغراهام كتاب (محاضرات مدرسة سوين). [المترجم]

أَنْتَ وَلَا أَنَا نَعْرِفُ لِذَلِكَ مَعْنَى. لَكِنْ إِنْ افْتَرَضْنَا أَنَّ لُغَةَ هَذَا الْقَوْلِ هِيَ
الْإِنْجِلِيزِيَّةُ فَسَنَعْرِفُ أَنَّ *the doshes are distimmed by the gostak*. وَنَحْنُ
نَعْرِفُ كَذَلِكَ أَنَّ *one distimmer of doshes is a gostak*. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ،
إِنْ كَانَتْ لَفْظَةُ *doshes* تَعْنِي الزَّرْكَشَاتِ، فَسَنَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ الزَّرْكَشَاتِ *are*
distimmed by the gostak. وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَمِرَّ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ، بَلْ إِنَّا
كَثِيرًا مَا نَسْتَمِرُّ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ".

وَنَسَاءُلُ مَرَّةً أُخْرَى: إِلَامَ تَرْمِزُ الْكَلِمَاتُ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ؟
"نَحْنُ لَا يُتَاحُ لَنَا دَوْمًا أَنْ نَتَحَدَّثَ، بِطَرِيقَةِ النَّظَرِ إِلَى الشَّيْءِ بِوَصْفِهِ كَلًّا لَا
يَتَجَرَّأُ، عَنْ مَجْمُوعَةِ الظَّوَاهِرِ الدَّاخِلَةِ أَوْ الْمُرْتَبِطَةِ بِمُجَرَّدِ زَنْجِيٍّ فَوْقَ سِيَّاحِ ذِي
قُضْبَانٍ وَتَحْتَ ذِرَاعِهِ بِطَيْخَةٍ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي بَدَأَ فِيهَا الْقَمَرُ بِالتَّوَارِي خَلْفَ
السَّحَابِ. لَكِنْ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ الْمُتَصَاحِبَةُ مُتَكَرِّرَةً الْخُدُوثِ، وَأَتَيْحَتْ لَنَا
فُرْصَةُ التَّحَدُّثِ عَنْهَا كَثِيرًا، وَكَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ خُدُوثُهَا ذَا أَثَرٍ فِي السُّوقِ
الْمَالِيَّةِ، لَكَانَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ اسْمٌ مَا نَحْوُ 'wousin' نُشِيرُ بِهِ إِلَيْهَا. وَأَتَنَذِرُ سَيَتَنَارَعُ
النَّاسُ: هَلْ يَسْتَلْزِمُ وُجُودُ wousin مَا أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ سِيَّاحٍ ذُو قُضْبَانٍ؟ وَهَلْ يُمَكِّنُ
اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي حَالِ أَنْ الْعُبُورَ كَانَ لِرَجُلٍ أَبْيَضِ الْبَشَرَةِ فَوْقَ حَائِطِ
صَخْرِي؟" (141).

A. Ingraham, *Swain School Lectures* (1903), pp. 121-182, on "Nine Uses of Lan- (141) guage".

- والاستعمالات التسعة التي تطرَّق إليها الكاتب هي:
1. تَبْدِيدُ الزَّائِدِ وَالْعَاقِبِ مِنَ الطَّاقَةِ الْعَصِيَّةِ.
2. تَحْدِيدُ اتِّجَاهِ حَرَكَةِ الْآخَرِينَ، مِنَ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانِ.
3. تَبَاذُلُ الْأَفْكَارِ.
4. وَسِيلَةٌ لِلتَّعْبِيرِ.
5. لِأَغْرَاضِ التَّوْبِيحِ.
6. تَحْرِيكُ أَمْرِ مَا (السَّحَرِ).
7. بِمَنْزِلَةِ آلَةٍ تَفْكِيرٍ.
8. إِضْفَاءُ الْبَهْجَةِ بِوَصْفِهَا صَوْتًا فَحْشَبُ.
9. إِمْدَادُ الْفِيلُولُوجِيِّينَ بِشُغْلٍ مَا.

وكثيراً ما تَقُودُ دراسةُ الصُّعوباتِ اللفظيَّةِ الَّذِينَ يُواجهونها أَوَّلَ مَرَّةٍ إلى استنتاجاتٍ، مِنْ قَبيلِ "أَنَّ الأمرَ كُلَّهُ لا يَغْدُو أَنْ يَكُونَ كَلِمَاتٍ"، أو "أَنَّا لا يُمكنُ أَنْ نُصلَّ إلى نتيجةٍ - فأنَّتْ تَصوِّغُ الأمرَ بِطريقةٍ وأنا أصوِّغُهُ بِطريقةٍ أُخْرَى، وما يُدرينا أَنَّا نتحدَّثُ [46] عن الأمرِ نَفْسِهِ؟". غَيْرَ أَنَّ الفَهمَ العميقَ لِلطَّرائِقِ التي تُنشأُ بِهَا تلكَ الصُّعوباتُ - والحالتانِ المذكورتانِ عَيْنَتانِ مُناسبتانِ - لا يَفْسَحُ مَجَالاً لِلْعَدَمِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ.

إِنَّ أَفْضَلَ وَسِيلَةَ لِلتَّخْلُصِ مِنْ نَزَعَةِ شَكِّ كَهَذِهِ وَمِنْ التَّأثيراتِ المُنَوِّمَةِ مُغنَاطيسيًّا التي كُنَّا بِصَدْدِهَا، تَكْمُنُ فِي التَّمْيِيزِ الواضِحِ لِلطَّرِيقَةِ التي تَنْتَهِجُها الرُّمُوزُ فِي مُمارَسَةِ سُلْطَةِ كَهَذِهِ، وَلِمُخْتَلِفِ الأَوَجهِ التي يُقالُ إِنَّها تَحْمِلُ مَعْنَى مِنْ خِلالِها. وَأَوَّلُ ما يُواجهُنا، بِوصْفِهِ إِجراءٌ تَمهيدِيًّا أَساسِيًّا، هُوَ الحاجَةُ الماسَّةُ إلى بَيانٍ لأَبْسطِ أنواعِ الحالِ العَلَامِيَّةِ، يُمكنُنا مِنْ إدراكِ: كَيْفَ 'نَعْلَمُ' أو 'نُفَكِّرُ' مُظَلَّقًا.

وَسَنَرَى أَنَّ النَّظَرِيَّةَ السِّيَاقِيَّةَ لِلْعَلَامَاتِ، التي هي أَوَّلُ ما تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، تُسَلِّطُ الضُّوءَ على الفِكرَةِ البِدائِيَّةِ التي تَذَعِبُ إلى أَنَّ الكَلِماتِ والأشياءَ مُتَّصِلَةٌ بِرِباطٍ سِحْرِيٍّ؛ فَالْحَقُّ أَنَّ حَدُوثَ الرُّمُوزِ والأشياءِ مَعًا، وارتِباطُ بَعْضِهما بِبَعْضٍ فِي 'سِيْاقٍ' ما، هُما ما يَجْعَلُ الرُّمُوزَ تُؤدِّي ذلكَ الدَّورَ المُهمَّ فِي حَيَاتِنَا الَّذِي لَمْ يَجْعَلْها غَرَضًا مَشْرُوعًا لِلإِعْجابِ فَحَسْبُ، بَلْ مَصْدَرٌ كُلُّ سَطَوَتِنَا على العالَمِ الخارِجِيِّ. [47]

الفصل الثالث الأحوال العلامية

إنَّ دراسة لغات العالم تكون في بدء الأمر مهمة تَعَسَّ وجاجدة، لكن إن تَلَبَّنا على الصُّعوباتِ الأولى فيها أمكننا، مع حَماسَةٍ كَبيرة، الاستِخفافَ بِالعملِ الشاقِّ، وأُظْهَرنا بَعْدَ ذلكِ بَوَاطِلَ مِنَ الْمَنَافِعِ. - فالكَثيرُ Valcknaer

الْمَعْنَى، ذَلِكَ الْمُصْطَلَحُ الْمَرْكَزِيُّ فِي كُلِّ نَظَرِيَّةٍ لِلْعَمَلِ، لَا تُمكنُ مُعَالَجَتَهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرِيَّةٍ مُقْنِعَةٍ لِلْعَلَامَاتِ. وَمَعَ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهِ (التي يَسْتَوِي فِيهَا 'المَعْنَى' الذي أَقْصَدُهُ، و'ما أَفَكَّرُ فِيهِ') يَكُونُ السُّؤَالُ الذي تَنْبَغِي إجابَتُهُ هُوَ، بِاخْتِصارٍ: "ما الذي يَحْدُثُ حِينَ نَحْكُمُ عَلَى شَيْءٍ مَا، أَوْ نَعْتَقِدُهُ، أَوْ نُفَكِّرُ فِيهِ: مِمَّ يَتكوَّنُ هَذَا الشَّيْءُ؟ وما عَلاقَتُهُ بِالْحَدِثِ الذَّهْنِيِّ الذي هُوَ حُكْمُنَا، وَاِعتِقادُنَا، وَتَفَكُّيرُنَا؟". إنَّ الْمُقَارَظَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ لِهَذَا السُّؤَالِ كَانَتْ مِنْ خِلالِ الْاسْتِبطانِ وَالتَّحْلِيلِ الْمُنطَوِقِيِّ لِلْحُكْمِ، وَكَانَتْ النَّتِيجَةُ أَنَّ جَمِيعَ الْإِجاباتِ الْمُتَعَدِّدَةِ التي قُدِّمَتْ مِنْ هَذِهِ الزَّاويَةِ اكْتَشِفَتْ أَنَّهَا، بِالضَّدِّ مِنْ تِلْكَ التي سَنُوجِزُها لَاحِقًا، تَنَوَّعَاتٌ لِرَأْيٍ واحِدٍ. أَيُّ إِنَّهَا تَتَّفِقُ فِي أَتَا حِينَ نُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ مَا يَكُونُ لَدُنْنا مَعَهُ (أَوْ، أحيانًا، مَعَ شَيْءٍ آخَرَ) عَلاقَةً مِنْ نَوْعِ فَرِيدٍ جَدًّا. بِعِبارَةٍ أُخْرَى، يُمكنُ الْقَوْلُ إِنَّ التَّفَكُّيرَ يُعَدُّ حَدَثًا لَا نَظِيرَ لَهُ. وَهَكَذَا تُناقَشُ مُشْكِلاتُ التَّرْمِيزِ وَالْإِحالَةِ عَلَى جِدَةٍ، كَأَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ مِياذِبِينَ بَحْثٍ مُتَّحِدَةٍ.

هذا الافتراضُ لِفَرادَةِ الْعَلاقَةِ بَيْنَ الذَّهْنِ وَمَوْضوعَاتِهِ يُشْكَلُ الْعَقِيدَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ فِي الْآراءِ التي لَا تَتَّفِقُ فِي شَيْءٍ عَلَى الصُّعْدِ الْأُخْرَى. وَهَكَذَا يَتَمَسَّكُ بَعْضُهُمْ

على نَحْوِ مَعْقُولٍ ظَاهِرِيًّا بِأَنَّهُ حِينَ نَعْتَقِدُ (مَثَلًا) أَنَّنَا أَحْيَاءُ، نَكُونُ عَلَى عِلَاقَةٍ مُبَاشِرَةٍ [48] مِنْ نَوْعِ فَرِيدٍ بِكَيَانٍ خَارِجٍ عَنْ نِطَاقِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، يُدْعَى افْتِرَاضُ 'أَنَّنَا أَحْيَاءُ'. وَيُدْعَى آخَرُونَ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، بَلْ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، نَكُونُ حِينَئِذٍ مُرْتَبِطِينَ بِعِلَاقَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْ نَوْعِ فَرِيدٍ كَذَلِكَ، وَذَاتِ تَنَوُّعٍ فِي الْكَيَانَاتِ- الَّتِي (رُبَّمَا) نَكُونُ نَحْنُ أَنْفُسُنَا مِنْ ضِمْنِهَا، وَبِلا شَكٍّ شَيْءٌ مَا يُدْعَى 'مَفْهُومًا' (أَوْ 'كُلِّيَّةً' أَوْ 'خَاصِّيَّةً')، أَيْ الْحَيَاةُ أَوْ أَنْ تَكُونَ حَيًّا. وَعَلَى كِلَا الرَّائِيَيْنِ فَإِنَّ قِرَادَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْفِكْرَةِ بِوَصْفِهَا حَدَثًا ذَهْنِيًّا وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ 'بِهَا'، مَهْمَا تَكُنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ، هِيَ مِنَ الْوُضُوحِ بِحَيْثُ لَا يُشَكُّ فِيهَا.

وَيَجْدُرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نُثَوِّهَ بِكَيْنَز Keynes⁽¹⁾ بِوَصْفِهِ مُثَلًّا لِلْمَدْرَسَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّهَا قَدْ تَمَثَّلَتْ وَجْهَةً النَّظَرِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ؛ إِذِ تَبَنَّى الرَّايُّ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ عَلَيْنَا مِنَ الْوَجْهَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ أَنْ نَبْدَأَ مِنْ أَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَنَا اِطْلَاعٌ مُبَاشِرٌ عَلَيْهَا. فَهَوَ يَقُولُ: 'إِنَّ أَهَمَّ أَصْنَافِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَنَا اِطْلَاعٌ مُبَاشِرٌ عَلَيْهَا: إِحْسَاسَاتُنَا الذَّائِيَّةُ الَّتِي يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّا نُعَانِيهَا، وَالْأَفْكَارُ وَالْمَعَانِي الَّتِي نَمْلِكُ تَجَاهَهَا أَفْكَارًا وَالَّتِي يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّا نَفْهَمُهَا، وَالْوَقَائِعُ، أَوْ الْخِصَائِصُ، أَوْ عِلَاقَاتِ الْمُعْطِيَّاتِ الْحِسِّيَّةِ أَوْ الْمَعْنَانِي، الَّتِي يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّا نَذَرُكُهَا إِدْرَاكًا حِسِّيًّا... وَسَاصْطِلَحُ عَلَى أَغْرَاضِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِعْتِقَادِ- فِي مُقَابِلِ أَغْرَاضِ الْاِطْلَاعِ الْمُبَاشِرِ الَّتِي أَصْطِلَحُ عَلَيْهَا بِالْأَحَاسِيسِ، وَالْمَعْنَانِي، وَالْإِدْرَاكَاتِ الْحِسِّيَّةِ- بِالْفَضَايَا'. مِثَالُ الْاِطْلَاعِ الْمُبَاشِرِ هُوَ مَا نُخْبِرُ بِهِ مِنْ أَنَّ مَعْرِفَتِي لِلْإِحْسَاسِ بِاللُّونِ الْأَصْفَرِ 'يُمَكِّنُنِي مِنَ الْعُبُورِ مُبَاشَرَةً إِلَى مَعْرِفَةِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي مَفَادُهَا 'أَنَّ لَدَيَّ إِحْسَاسًا بِاللُّونِ الْأَصْفَرِ'.'⁽²⁾ وَلَوْلَا أَنْ

(1) جون مينارد كَيْنَز (1883-1946م). اقْتِصَادِيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ. اشْتَغَلَ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ فِي الْهِنْدِ وَأَلَّفَ كِتَابًا عَنِ الْإِصْلَاحِ فِيهَا. يُعَدُّ مُؤَسَّسَ النَّظَرِيَّةِ الْكَيْنِزِيَّةِ مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ (النَّظَرِيَّةُ الْعَامَّةُ فِي التَّشْغِيلِ وَالْفَائِدَةِ وَالنَّقُودِ)، وَعَارَضَ النَّظَرِيَّةَ الْكِلَاسِيكِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مِنَ الْمُسَلِّمَاتِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: النَّاتِجُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ لِلسَّلَمِ، وَرِسَالَةٌ فِي الْاِخْتِمَالِ. [المُتَرَجِم]

A Treatise on Probability (1921), pp. 12-13.

(2)

يُفْتَرَضُ أَنَّ هذا المذهبَ الغريبَ، لكن السائدَ جدًّا، مُمَيِّزٌ لِمَدْرَسَةٍ مَا لَأَحْلَنَا عَلَى تَسْوِيعِ الْحُكْمِ *das Urteil* ⁽³⁾ "غَيْرِ الْمَكَانِي، وَغَيْرِ الزَّمَانِي، وَغَيْرِ الشَّخْصِي"، وَهُوَ الْمَوْضُوعُ الدَّقِيقُ لِلْبَحْثِ الْمُنْطَقِي الَّذِي فَصَّلَ فِيهِ لَيْس ⁽⁴⁾ Lipps ⁽⁵⁾؛ [49] وعلى المذهبِ المُشَابِهِ الَّذِي يُبْطِلُ الْكَثِيرَ مِنْ تَحْلِيلِ هوسيرل ⁽⁶⁾ Husserl

(3) الْحُكْمُ هُوَ قُطْبُ الرَّحَى فِي مَذَهَبِ الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ تِيودور لَيْس الَّذِي سَتَأْتِي تَرْجَمَتُهُ. وَحَاصِلُ مَا أَتَى بِهِ أَنَّ قَوَانِينَ الْفِكْرِ هِيَ أَنْفُسُهَا قَوَانِينُ طَبِيعَتِنَا النَّفْسِيَّةِ، وَأَنَّ الْمُنْطَقَ هُوَ عِلْمٌ فِيزِيَاءِ التَّفَكِيرِ. وَالْحُكْمُ عِنْدَهُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى الصَّحَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ حِينَ يُؤْلَفُ بَيْنَ تَمَثُّلَاتٍ عَلَى نَحْوِ ضَرُورِيٍّ. لَكِنْ لَيْسَ يُقَسَّرُ هَذِهِ الضَّرُورَةُ تَفْسِيرًا فِيزِيائيًا؛ إِذْ إِنَّهَا عِنْدَهُ الْإِزَامُ نَفْسِيٌّ يُجْبِرُنَا عَلَى أَنْ نُوْلَفَ بَيْنَ الْأَفْكَارِ عَلَى نَحْوِ مَا (أَحْكَامٌ مُوجِبَةٌ) وَنَمْتَعُنَا مِنْ أَنْ نُوْلَفَ بَيْنَهَا عَلَى نَحْوِ آخَرَ (أَحْكَامٌ سَالِيَّةٌ). فَالضَّرُورَةُ عِنْدَهُ، كَمَا هِيَ عِنْدَ هَيْوم، شُعُورٌ بِالضَّرُورَةِ. وَيَتَقَدَّمُ تَفَكِيرٌ لَيْسَ ظَهَرَ لَدَيْهِ التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَضْمُونِ (content) الْحُكْمِ، الَّذِي يُعَيِّرُهُ بِوَصْفِهِ الْأَحْدَاثَ النَّفْسِيَّةِ (الإِدْرَاكَاتِ، وَالضُّوَرُ، وَمَا إِلَيْهَا)، وَمَوْضُوعِ (object) الْحُكْمِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْحُكْمِ وَالْمُفَكَّرُ بِهِ فِيهِ. وَيُوكِّدُ لَيْسُ أَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْآخِرِ؛ فَتَحْنُ نَنْشِئُ أَحْكَامًا لَا بِشَأْنِ صُورِنَا بَلْ بِشَأْنِ الْمَوْضُوعَاتِ. وَيَذْهَبُ لَيْسُ إِلَى أَنَّ الضَّرُورَةَ الَّتِي تَنْشِئُ إِلَى الْأَحْكَامِ الصَّحِيحَةِ مَوْضُوعِيًّا تَنَاقُ مِنَ الْمَطْلَبِ (demand) الَّذِي تُمَارِسُهُ الْمَوْضُوعَاتُ عَلَيْنَا. وَبِذَلِكَ نَحْكُمُ بِصَحَّةٍ: $12=5+7$ ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ يَطْلُبُ أَوْ يَقْتَضِي إِقْرَارَنَا. فَإِذَا مَا فُكِّرَ فِي الْمَوْضُوعِ جُرِّبَ هَذَا الْمَطْلَبُ، وَكَانَ رَدُّ فَعْلِنَا لِهَذَا التَّجْرِبِ إِقْرَارًا يُنْشِئُ فَعْلًا حُكْمِيًّا. [المُتَرْجِم]

(4) تِيودور لَيْس (1851-1914م). فِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِيِّ. كَانَ أَحَدَ أَكْثَرِ أَسَاتِذَةِ الْجَامِعَةِ تَأْثِيرًا فِي زَمَانِهِ؛ إِذْ جَذَبَ إِلَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الطُّلَّابِ مِنْ مُخْتَلِفِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ. كَانَ لَدَيْهِ اِهْتِمَامٌ كَبِيرٌ بِمِفَاهِمِ الْفَنِّ وَالْجَمَالِ. وَكَانَ سِيْغْمُونْدُ فَرُودِ مِنْ بَيْنِ مُعْجِبِيهِ الْمُتَحَمِّسِينَ لَهُ؛ إِذْ كَانَ لَيْسَ الْوَلِيُّدُ الرَّئِيسُ لِفِكْرَةِ الْعَقْلِ الْبَاطِنِ. وَفِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ تَبَنَّى بَعْضَ أَفْكَارِ هُوسِيرْل. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ: الْاِنْسَجَامُ وَالتَّنَاقُرُ فِي الْمَوْسِيقَى، وَدِرَاسَاتُ سَايْكُولُوجِيَّةٍ. [المُتَرْجِم]

(5) *Psychologische Untersuchungen*, Vol. II., section 1, "zur 'Psychologie' und 'Philosophie'", pp. 4-10.

(6) إِدْمُونْدُ هُوسِيرْل (1859-1938م). فِيلَسُوفُ مِثَالِي الْأَلْمَانِيِّ مِنْ أَصْلِ يَهُودِيٍّ. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ الْمَدْرَسَةِ الْفِينُومِينُولُوجِيَّةِ (الظَّاهِرَاتِيَّةِ). وُلِدَ فِي مَوْرَافِيَا حِينَمَا كَانَتْ تَابِعَةً لِأَلْمَانِيَا، وَدَرَسَ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْفِيزِيَاءَ وَالْفَلَكَ فِي جَامِعَةِ لَايْبَزْغ. تَنَصَّرَ عَلَى الْمَذْهَبِ الْبِرُوتِسْتَانْتِيٍّ وَهُوَ شَابٌّ مِثْلَ الْكَثِيرِ مِنْ أَقْرَائِهِ الْيَهُودِ. اِزْدَادَ اِهْتِمَامُهُ بِالْفَلَسَفَةِ فِي فَيْتَا بَثَائِيرِ بَرْنَتَانُو. دَرَسَ فِي جَامِعَةِ هَال بَيْنَ سَنَتَيْ 1887 وَ1901، ثُمَّ فِي جَامِعَتَيْ غُونْتِنْغِن وَفْرَايبُورْغ بَيْنَ =

لِللُّغَةِ⁽⁷⁾؛ وعلى خيالات فان جينكين van Ginneken⁽⁸⁾ التي هي بَعْدُ أَكْثَرُ غَرَابَةٍ، وهو عالمٌ نفسٍ لِسَانِيٍّ نَاقِبُ الْفِكْرِ، يُقَدِّمُ وَجْهَةَ النَّظَرِ نَفْسَهَا بِوَصْفِهَا نَظَرِيَّةً لِـ'الالتصاق' 'adhesion'، مُتَأَثِّرًا فِي ذَلِكَ، بِلا شك، بِمايونغ Meinong⁽⁹⁾ وَيَعْلَمُ

- = سَتَتِي 1906 و1916. كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الفِلسَفَةَ الفِينومِينولوجِيَّةَ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا سَتَكُونُ شَيْئًا جَدِيدًا تَمَامًا؛ فَالْأَنْطُولُوجِيَا الْغَرْبِيَّةُ تَسْتَنِدُ إِلَى ثُنَائِيَّةِ الْذَاتِ وَالْمَوْضُوعِ، أَمَّا هُوَ فَكَانَ يَرْمِي إِلَى تَأْسِيسِ أَنْطُولُوجِيَا جَدِيدَةٍ تَفْتَرِضُ ارْتِبَاطَ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ، بَلْ تَجَسَّدَ أَحَدُهُمَا مِنْ خِلَالِ الْآخَرِ؛ فَالطَّبِيعَةُ (الْمَوْضُوعُ) لَا تَعْنِي عِنْدَهُ شَيْئًا إِلَّا إِذَا ارْتَبَطَتْ بِالْوَعْيِ الْإِنْسَانِيِّ (الذَاتِ). مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: فِلسَفَةُ عِلْمِ الْحِسَابِ، وَبُحُوثٌ مَنَظُومَةٌ، وَأَفْكَارٌ: نَحْوُ ظَاهِرِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَفِلسَفَةٍ ظَاهِرِيَّةٍ، وَتَأْمَلَاتٌ دِيكَارْتِيَّةٌ. [المُتَرَجِم]
- (7) يُنْظَرُ التَّفْصِيلُ D، حَيْثُ يُوجَدُ رَأْيٌ مُشَابِهٌ لِلشَّيْءِ رَسِلِ Russell (1903).
- (8) جَاكُوبِسْ جُوانِزْ أَنْطُولُونِيُوسْ فَاِنْ جِينِكِينْ (1877-1945م). لِسَانِيٌّ، وَكَاهِنٌ يَسُوعِيٌّ هُولَنْدِيٌّ. كَانَ أَسَاطِدًا فِي الْجَامِعَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ فِي نِيْمِغِنْ مِنْذُ بِدَايَتِهَا سَنَةَ 1923. دَرَسَ اللُّغَةَ وَالْأَدَبَ الْهُولَنْدِيَّيْنِ، وَاللِّسَانِيَّاتِ الْمُقَارَنَةَ لِللُّغَاتِ الْهِنْدُوأُرُوبِيَّةِ وَالسَّنْسْكْرِيتِيَّةِ. مِنْ آثَارِهِ: مَبَادِئُ اللِّسَانِيَّاتِ السَايْكُولُوجِيَّةِ، وَأَسْبَابُ تَغْيِيرِ اللُّغَةِ. [المُتَرَجِم]
- (9) أَلِكْسِيُوسْ مَايُونِغْ (1853-1920م). فِيلَسُوفٌ نِمَسَاوِيٌّ. دَرَسَ عَلَى بَرِتَانَوِ بِجَامِعَةِ فِينَا، وَعَلِمَ بِجَامِعَةِ غِرَاتْسْ، وَأَسَّسَ بِهَا أَوَّلَ مَعْمَلٍ لِعِلْمِ النَّفْسِ التَّجْرِبِيِّ بِالنِّسَاءِ، لَكِنْ مُعْظَمَ مُؤَلَّفَاتِهِ لَا تَدْخُلُ فِي بَابِ عِلْمِ النَّفْسِ التَّجْرِبِيِّ، بَلْ فِي بَابِ عِلْمِ النَّفْسِ الْوَصْفِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ التَّوَجُّهَ نَحْوَ الْأَشْيَاءِ هُوَ السَّمَةُ الْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ الْحَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ. وَيُفَرِّقُ بَيْنَهَا بِحَسَبِ الْفِعْلِ وَالْمَضْمُونِ. فَأَمَّا الْفِعْلُ فَهُوَ كَالْفَرْقِ بَيْنَ التَّفَكِيرِ فِي الشَّيْءِ مَثَلًا وَاعْتِقَادِ وُجُودِهِ. وَأَمَّا الْمَضْمُونُ فَهُوَ كَالْفَرْقِ بَيْنَ التَّفَكِيرِ فِي الْأَشْيَاءِ وَالتَّفَكِيرِ فِي الشَّيْءِ. وَيَتَنَبَّهُ مَايُونِغْ فِلسَفَتَهُ عَلَى تَقْسِيمِ بَرِتَانَوِ حَالَاتِ الْعَقْلِ عَلَى صُورٍ تَمثِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ وَمَوَاقِفٍ عَاطِفِيَّةٍ. لَكِنَّهُ قَسَمَ الصُّورَ التَّمثِيلِيَّةَ عَلَى صُورٍ تَتَطَلَّبُ إِدْرَاكًا حَسِّيًّا سَالِيًّا، وَأُخْرَى تَتَطَلَّبُ إِنْتِاجًا مُوجِبًا لِمَوْضُوعَاتٍ لَا تَدْرُكُ بِالْحِسِّ، وَلَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِعْلِيٌّ بَلْ وُجُودُهَا افْتِرَاضِيٌّ. فَهِيَ افْتِرَاضَاتٌ، وَتُسَمَّى وُجُودُهَا وُجُودًا ضَمْنِيًّا، وَهِيَ تُشَبِّهُ الْأَحْكَامَ لَكِنْ تَنْقُصُهَا الْإِقْتِاعُ، وَلَا يَتَوَقَّعُ كَوْنُهَا مَوْضُوعَاتٍ أَوْ افْتِرَاضَاتٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهَا أَوْ التَّفَكِيرِ فِيهَا. وَقَدْ تَنَاوَلَهَا مَايُونِغْ فِي كِتَابِهِ (عَنِ الْافْتِرَاضَاتِ)، وَيَتَنَبَّهُ نَظَرِيَّتُهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ عَلَى التَّفَرِيقِ بَيْنَ طَبِيعَةِ الشَّيْءِ وَوُجُودِهِ، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضُوعٌ لِلتَّفَكِيرِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لِأَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ؛ فَكَوْنُهُ غَيْرَ قَابِلٍ لِأَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ يَصِفُهُ فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ بِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِأَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ. فَالْمُرْتَبِعُ الْمُسْتَدِيرُّ، مَثَلًا، لَهُ طَبِيعَةٌ أَنَّهُ مُرْتَبِعٌ وَمُسْتَدِيرٌّ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ وُجُودُهُ فِي الْوَاقِعِ لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ تَخْرِقُ قَانُونََ الثَّالِثِ الْمَرْفُوعِ. وَلَيْسَ قَوْلُنَا إِنَّ وُجُودَهُ ضَمْنِيٌّ يَعْنِي أَنَّ =

الأديان كذلك. ويُقرّر هذا الكاتب أن آية أطروحة بشأن عملية التفكير تتوسّل بلغة الصّور اللفظية وتمثيلات الأشياء ستكون غير وافية. فد نحن نجد أنفسنا في مواجهة قوّة جديدة: شيء لا يقع في متناول الحس، ولا يبلغ إدراك البشر... يكون فهمنا وعلمنا من خلاله على نحو جديد، وأكثر كمالاً ممّا يكون عليه من خلال طبيعتنا الحيوانية. فنحن... نلتصق بالواقع الحاضر، بالذي هو موجود واقعا وفعلا... وكذلك بالذي هو ممكن، الجوهر⁽¹⁰⁾. ومن الواضح أن الوصف العلمي لعملية التفكير مستبعد من أول الأمر في آية وجهة نظر كهذه.

"ما الذي يحدث حين نفكر؟": سؤال ينبغي أن يكون مثيرا لاهتمام كل مفكر. وقد تُعِين الإجابة المبدلة "حين نفكر نحن نفكر"، التي تقدّمها وجهات نظر كهذه، على تفسير ضالّة الاستثارة المبداءة. وسنحاول في الصفحات القادمة أن تقدّم وصفا موجزا للتفكير بتعبيرات سببية خالصة، من غير آية مقدّمة عن علاقات فريدة مخترعة لأغراض خاصّة. وبهذه الخاتمة لوجهة النظر، أي تقديم نظرية طبيعية للتفكير بإزاء أخرى مصطنعة له، نبدأ النظر في العلامات.

فظوال حياتنا كلها نحن نُعامل الأشياء بوصفها علامات. وكل تجربة، بالمعنى الأوسع إمكانا للكلمة، قد يستمتع بها، أو تؤوّل (أي تُعامل بوصفها علامة)، أو يُفعل بها كلا الأمرين، والقليل جدا منها لا تطوله درجة معينة من التأويل. لذلك كان تقديم وصف لعملية التأويل هو المفتاح لفهم الحال الغلامية، وكان من ثمّ بداية [50] الحكمة. ومن المدهش أنه على الرغم من أن الحاجة إلى وصف كهذا كان أمرا مألوقا في علم النفس مدة طويلة، نجد المعنيين بالتقيد

= له وجودا في الواقع من أي نوع، بل يعني أن له طبيعة يمكن وصفها ولا صلة لها بكونه موجودا في الواقع أو غير موجود. وتؤدي هذه الافتراضات دورا مهما في الفنون والألعاب والفروض العلمية والخيال. ولا يعني وضوح بعض هذه الفروض صحتها. من آثار ماينونغ: دراسات عن هيوم، ونحو تقويم معرفتي للذاكرة، وفي سايكولوجية الطابع والعلاقات. [المترجم]

وَتَنْظِيمِ مَعَارِفِنَا يُغْفَلُونَ تَمَامًا عَوَاقِبَ إِهْمَالِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

وقد ظَهَرَتْ مُحَاوَلَاتٌ لِتَقْدِيمِ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةِ فِي مُفْرَدَاتٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَقَدْ أَوْجَدَتْ تَعَالِيمُ عِلْمِ النَّفْسِ التَّرَايُطِيَّ⁽¹¹⁾، وَالْإِدْرَاكِ الْوَاعِي⁽¹²⁾، وَالْإِيحَاءِ⁽¹³⁾، صِيَاجَاتٍ جَدِيدَةً تَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالْمَضْمُونِ: إِذْ تُحَلُّ "التَّابِعَاتُ الْعَرِيزِيَّةُ"⁽¹⁴⁾، مَحَلَّ "الكِيمِيَاءِ الذَّهْنِيَّةِ"، فِي أَفْضَلِيَّةٍ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرِ جَوْهَرِيٍّ فِي وَجْهَاتِ النَّظَرِ الْمُتَبَتِّاءَةِ. وَاحْدَتْ شَكْلٍ اتَّخَذَتْهُ الْأَطْرُوحَةُ هُوَ الَّذِي تَبَنَاهُ سِيمُون Semon⁽¹⁵⁾ الَّذِي بَدَأَ أَنَّ جِدَّةَ مُفْرَدَاتِهِ أَعَادَتْ جَذَبَ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى اعْتِبَارَاتِ كَانَتْ، بِلا شَكٍّ، مَأْلُوفَةً إِلَى حَدٍّ لَا يُظَنُّ مَعَهُ أَنَّ لَهَا أَهْمِيَّةً مَا.

(11) D. Hartley, *Observations on man*, Prop. X.

(12) G. C. Lange, *Apperception*, Part I, §§ 1, 2.

(13) I. Miller, *The Psychology of Thinking*, P. 154.

(14) C. Lloyd Morgan, *Instinct and Experience*, P. 194.

(15) رِشَارْد فُولْفغانغ سِيمُون (1859-1918م). عَالِمٌ حَيَوَانٍ وَأَحْيَاءِ الْمَانِي. تَبَنَّى مَفْهُومَ تَوَارُثِ الصُّفَاتِ الْمَكْتَسَبَةِ، وَطَبَّقَهُ عَلَى التَّطَوُّرِ الثَّقَافِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَافْتَرَضَ تَوَارُثًا سَايَكُوفْسِيولوجِيًّا تُنَاطَرُ كُلُّ حَالَةٍ سَايَكُولوجِيَّةٍ اسْتِنَادًا إِلَيْهِ تَغْيِيرَاتٍ فِي الْأَعْصَابِ. وَقَدْ طَوَّرَ سِيمُونُ أَفْكَارَهُ فِي الذَّاكِرَةِ فِي بَدَايَاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؛ إِذْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الذَّاكِرَةَ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا اسْتِرْجَاعِيَّةٌ. وَقَدَّمَ مَفْهُومَ (الإنْغْرَام engram)، وَهُوَ وَحْدَةُ الذَّاكِرَةِ، أَوْ بِالْأَحْرى النَّمْطُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي تَشْفِيرِهَا (أَثَرُ الذَّاكِرَةِ). ثُمَّ قَدَّمَ مَفْهُومًا آخَرَ هُوَ (المُثِيرُ الْمُنْشَطُ ecphoric stimulus)، وَهُوَ إِشَارَةٌ تُسَاعِدُ فِي اسْتِرْجَاعِ ذِكْرَى خَاصَّةٍ. وَلِحَظَ أَنَّ احْتِمَالَ الْعُثُورِ عَلَى ذِكْرَى مُعَيَّنَةٍ يَعْتَمِدُ أَيْضًا عَلَى الْإِشَارَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ لِاسْتِرْجَاعِهَا (النَّمْطُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي حَلِّ شَفَرَتِهَا)؛ فَنَحْنُ كَثِيرًا مَا نَكُونُ مُجْبِرِينَ عَلَى تَذَكُّرِ شَيْءٍ مَا لَا لِيَشِيءَ إِلَّا لَأَنَّا وَاجَهْنَا كَلِمَةً مَا، أَوْ رَأَيْنَا شَيْئًا مَا ذَكَّرْنَا بِشَيْءٍ آخَرَ. صَحِيحٌ أَنَّ ذَلِكَ جَرَى فِي لِحْظَةٍ خَاطِفَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ كَافٍ لِاسْتِدْعَاءِ الذِّكْرَى لِشَيْءٍ مَا أَوْ لِشَخْصٍ مَا. وَقَدْ أَدْرَكَ سِيمُونُ سُلْطَةَ الْإِشَارَةِ؛ فَصَحِيحٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا جُزْءًا مِنَ الْإِنْغْرَامِ، لَكِنَّهَا كَافِيَةٌ لِاسْتِرْجَاعِ الْإِنْغْرَامِ كَامِلًا. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِ سِيمُونِ كِتَابُهُ الَّذِي نَشَرَهُ سَنَةَ 1904 بِعِنَاوَانِ (الْأَحَاسِيسُ التَذَكُّرِيَّةُ فِي عِلَاقَاتِهَا بِالْأَحَاسِيسِ الْأَصْلِيَّةِ)، وَقَدْ تُرْجِمَ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِعِنَاوَانِ Mneme، وَهُوَ تَحْوِيلٌ لِلْكَلِمَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ الْأَصْلُ تَعْنِي الْإِلَهَةَ الذَّاكِرَةَ، وَهِيَ إِحْدَى الْإِلَهِاتِ الْأَصْيَالِ الثَّلَاثِ عِنْدَ الْإِغْرِيقِ، وَالثَّانِيَةُ الْإِلَهَةُ الْغِنَاءِ، وَالثَّالِثَةُ الْإِلَهَةُ التَّأْمُلِ. [الْمُتَرْجِمُ]

ومناهج المقاربات هذه المختلقة العالية القيمة تميل إلى فصل معالجة القوانين الأساسية للعملية الذهنية عن تلك الخاصة بتأويل العلامات، ولا يصب هذا في مصلحة علم النفس. ولم يقتصر أمر تلك المناهج على أنها أدت إلى أن يكون البحث في معزلة عن مشكلات مماثلة جوهرياً، بل كذلك إلى العجز عن تمييز حدود الأرضية التي تحرك فيها المفكرون الأوائل.

ولما كانت الصياغة تقدم على الدوام بتعبيرات سببية، كان استعمال تلك المنظومة المصطلحية ملائماً. واستعمالها لأغراض الوضوح يكاد يكون ممكناً لا مفر منه، وإذا ما كان التوسع الصحيح حاضراً في أذهاننا فلن يكون تضليلها ضربة لازب. وبذلك يكون عملنا في هذه الأطروحة التمهيدية مقصوراً على استعمال اللغة السببية بوصفها تيسيراً إيضاحياً لإيجازها ولما فيها من أفعال verbs. وتتجنب الأطروحة اللاجئة التي هي أكثر اكتمالاً أي ذكر للأسباب، والنتائج، والتبعية، [51] ولا تتعامل إلا مع الارتباطات المشاهدة أو الاتساقات السياقية بين الأحداث.

إن التأثيرات في الكائن التي تحدثها العلامة، التي قد تكون مثيراً خارجياً أو عملية ما تحدث في الداخل، إنما تعتمد على السجل الماضي لذلك الكائن، على نحو عام وعلى آخر أكثر تحديداً. ولا ريب في أن السجل الماضي كله، بمعنى من المعاني، وثيق الصلة، لكن من بين أحداث الماضي في ذلك السجل ما يحدد طبيعة الإثارة الحاضرة على نحو أكثر مباشرة مما يحدده غيره. فإذا ما أشعلنا غود ثقاب، على سبيل المثال، فإن الحركات التي نقوم بها وصوت الكشط هي مثيرات حاضرة. لكن الإثارة الحاصلة مختلفة عن تلك التي كانت ستحصل في حال أنا لم نشعل غود ثقاب من قبل. لقد خلفت الإشعالات الماضية في منظومتنا إنغرامات engrams⁽¹⁶⁾، أي آثاراً

Semon's terminology: *Die Mneme*, particularly Part II. (English translation, p. 16) 138 ff.).

ولقراءة نقدية لنظرية سيمون ينظر: *op. cit.*, *Principles of Literary Criticism*, Chapter

XIV., and *op. cit.*, *The meaning of Psychology*, Chapter IV.

بَاقِيَةً⁽¹⁷⁾، تُعَيَّنُ عَلَى تَحْدِيدِ مَا سَتَكُونُ عَلَيْهِ الْعَمَلِيَّةُ الذَّهْنِيَّةُ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ الذَّهْنِيَّةُ مِنْ بَيْنِ الْعَمَلِيَّاتِ الْآخَرَى تُمَثَّلُ وَغَيَا لِكُونِنَا نُشْعِلُ عُودَ ثِقَابٍ. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَحْصُلَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْوَعْيِ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِمَعَزِلٍ عَنْ نَتَائِجِ الْأَحْوَالِ الْمُشَابِهَةِ السَّابِقَةِ. وَلَوْ ذَهَبْنَا أْبَعَدَ مِنْ ذَلِكَ فَافْتَرَضْنَا أَنَّ هَذَا الْوَعْيَ يَصْحَبُهُ تَوَقُّعٌ لِحَصُولِ اتِّقَادٍ، لَكَانَ مَرَدُّ هَذَا التَّوَقُّعِ كَذَلِكَ إِلَى نَتَائِجِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَ إِشْعَالُ عُودِ الثَّقَابِ فِيهَا قَدْ أَعْقَبَهُ اتِّقَادٌ. إِنَّ التَّوَقُّعَ هُوَ إِثَارَةٌ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ مُرَكَّبٍ إِنْغَرَامِيٍّ، يَسْتَدْعِيهِ مُثِيرٌ (هُوَ الْكَشْطُ) يُشَبِّهُ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْحَالِ الْإِثَارِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ فَحَسْبُ.

وَلَعَلَّ تَقْدِيمَ مِثَالٍ آخَرَ يَزِيدُ هَذَا الْأَمْرَ وَضُوحًا. فَكَثُرَ يَرْقَانَاتِ الْفَرَاشِ شُهْرَةً، وَهِيَ الَّتِي قَدْ وَتَّقَ تَارِيخُهَا جُزْئِيًّا الرَّاحِلُ الْبَرْوفِسُورُ لُويْدُ مَوْرَغَانِ Lloyd Morgan⁽¹⁸⁾ فِي كِتَابِهِ الْعَادَّةُ وَالْغَرِيزَةُ *Habit and Instinct* ص 41، كَانَتْ مُخَطَّطَةً بِاللَّوْنَيْنِ الْأَصْفَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَكَانَتْ إِحْدَى دَجَاجَاتِ الْبَرْوفِسُورِ قَدْ اقْتَنَصَتْهَا. وَلَمَّا لَمْ يَرُقِ الدَّجَاجَةُ مَذَاقُهَا لَفَظَتْهَا. وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ كَفَّتِ الدَّجَاجَةُ عَنْ مُهَاجَمَةِ الْيَرْقَانَاتِ الْمُشَابِهَةِ. فَمَا عَلَّةُ ذَلِكَ؟ السَّبَبُ هُوَ أَنَّ رُؤْيَا يَرْقَانَةٍ كَهَذِهِ، [52] وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِيَاقِ الرُّؤْيَا-الْاِقْتِنَاصِ-الْمَذَاقِ الْكُلِّيِّ لِلتَّجَرِبَةِ الْأَصْلِيَّةِ، تُثِيرُ الدَّجَاجَةَ الْآنَ عَلَى نَحْوِ يُشَبِّهُ إِلَى حَدٍّ لَا بَأْسَ بِهِ⁽¹⁹⁾ الْإِثَارَةُ الَّتِي كَانَ السِّيَاقُ الْكُلِّيُّ يُسَبِّبُهَا؛ ذَلِكَ بَأَنَّ الْاِقْتِنَاصَ، فِي أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، لَنْ يَحْدُثَ، سَوَاءً أَكَانَ ثَمَّةَ تَذَوُّقٍ (فِي الْخَيَالِ) أَمْ لَمْ يَكُنْ.

(17) الْإِنْغَرَامُ: هُوَ الْبَصْمَةُ الدَّائِمَةُ فِي الْفَيْسِيُولُجِيَا الْعَصَبِيَّةِ وَعِلْمِ النَّفْسِ، وَهِيَ بَصْمَةٌ غُضُوئِيَّةٌ فِي النَّسِيجِ الْعَصَبِيِّ لِلدِّمَاغِ يُؤَلِّدُهَا أَيُّ مُثِيرٍ ذِهْنِيٍّ، مُفَسِّرًا بِذَلِكَ إِلْحَاحَ الذِّكْرِ. وَكَانَ الْبَايُولُوجِيَّ الْأَلْمَانِيَّ رِثْشَارْدُ سِيْمُونِ قَدْ قَدَّمَ مَفْهُومَ الْإِنْغَرَامِ بِوَصْفِهِ وَحْدَةَ الِذَاكِرَةِ، أَوْ بِالْآخَرَى النَّمْطَ الْمُسْتَعْمَلُ فِي تَشْفِيرِهَا (أَثَرُ الِذَاكِرَةِ). [الْمُتَرَجِّمُ]

(18) كُونُوِي لُويْدُ مَوْرَغَانِ (1852-1936م). عَالِمٌ فِي السَّلُوكِ الْحَيَوَانِيِّ، وَعَالِمٌ نَفْسٍ بَرِيْطَانِيٍّ. أَكْثَرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ مُقَارِبَتُهُ التَّجْرِبِيَّةُ لِسَايْكُولُوجِيَّةِ الْحَيَوَانِ الَّتِي تُعْرَفُ الْآنَ بِقَانُونِ مَوْرَغَانِ. مِنْ أَشْهُرِ مَوْثِقَاتِهِ: الْعَادَّةُ وَالْغَرِيزَةُ، وَمَقْدَمَةٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْمُقَارَنِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(19) دَرَجَةُ الشَّبِّهِ الْمَطْلُوبَةُ مُوضَعٌ خِلَافٍ. وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ لَوْنُ الصُّفْرَةِ وَالسَّوَادِ عَلَامَةً لِلْمَذَاقِ الْكَرِيهِ.

وهذه الحالة البسيطة نَمَطِيَّة في كُلِّ تأويل؛ ذلك بِأَنَّ حُصُوصِيَّةَ التَّأْوِيلِ تَكْمُنُ في أَنَّهُ إِذَا مَا أَثَّرَ فِينَا فِي الْمَاضِي سِيَّاقٌ مَا فَإِنَّ تَكَرُّرَ جُزْءٍ مِنْ ذَلِكَ السِّيَّاقِ فَحَسْبُ سَيُؤَلِّدُ لَدَيْنَا رَدَّ فِعْلٍ مُمَازِلًا لِرَدِّ فِعْلِنَا السَّابِقِ⁽²⁰⁾. فالعلامةُ هي على الدَّوامِ مُثِيرٌ مُشَابِهٌ لِحُزْءٍ مَا مِنْ مُثِيرٍ أَصْلِيٍّ، وهو كافٍ لاسْتِدْعَاءِ الْإِنْغْرَامِ⁽²¹⁾ الَّذِي كَوْنُهُ ذَلِكَ الْمُؤَثِّرُ.

والإِنْغْرَامُ هُوَ الْأَثَرُ الْبَاقِي لِتَكْيِيفِ adaptation⁽²²⁾ الْكَائِنِ لِلْمُؤَثِّرِ. وَالْعَمَلِيَّةُ الذَّهْنِيَّةُ⁽²³⁾ النَّاجِمَةُ عَنْ اسْتِدْعَاءِ الْإِنْغْرَامِ هِيَ تَكْيِيفٌ مُشَابِهٌ: فَيَقْدِرُ مَا يَكُونُ هَذَا التَّكْيِيفُ إِدْرَاكِيًّا يَكُونُ مَا هُوَ مُكْيِيفٌ لَهُ مَرَجَعُهُ، وَهُوَ مَا تُمَثِّلُهُ الْعَلَامَةُ الْمُثِيرَةُ أَوْ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَلَفْظُ 'مُكْيِيفٌ adapted'، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ مَلَانِمًا، يَنْبَغِي تَوْسِيعُهُ إِذَا مَا أُريدَ لِهَذِهِ الْأَطْرُوحَةِ أَنْ تَكُونَ وَاضِحَةً - وَمَا بَقِيَ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ سَيُخَصَّصُ لِهَذَا التَّوْسِيعِ. فَلْنَعُدْ إِلَى مِثَالِنَا، وَلْنَفْتَرِضْ أَنَّ عُدُودَ الثَّقَابِ قَدْ اشْتَعَلَ وَأَنَا كُنَّا نَتَوَقَّعُ

(20) يُمكنُ أَنْ نَسْتَعْمِلَ مُصْطَلَحَاتِ الْمَدْرَسَةِ الْجِسْتَالْتِيَّةِ 'Gestalt school' فنقولُ إِنَّهُ إِذَا مَا كَانَ ثَمَّةُ 'جِسْتَالْت' 'gestalt' أَوْ 'هَيْئَةً configuration' قَدْ كُونَتْ فَإِنَّ النُّظَامَ الَّذِي قَدْ أَقْلَقَ سَمِيلُ نَحْوِ 'حَالَةِ النِّهَايَةِ end-state' الَّتِي حَدَدَتْهَا حَوَادِثُ سَابِقَةٌ. وَوَجْهَةُ النَّظَرِ هَذِهِ وَمُصْطَلَحَاتُهَا قَدْ نَوَقِشْتُ فِي كِتَابِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْسِ *The Meaning of Psychology*، فِي الصَّفَحَاتِ 108-111، وَ 114-115 مِنْهُ، حَيْثُ نَجِدُ فِقْرَةً تَحْوِي سِتَّ عِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةً يُمكنُ أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّهَا جَمِيعًا كَلِمَةُ جِسْتَالْتِ عِنْدَ الرَّغْبَةِ (عَلَى أَنَّ الْفِقْرَةَ تَبْدُو أَكْثَرَ وَضُوحًا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ).

(21) إِنْ كَانَ لَدَى الْقَارِئِ شَكٌّ بِشَأْنِ الْبَصَمَاتِ الدَّائِمَةِ فَبِمُكَانِيَةِ أَنْ يَفْرَأَ مَا ذُكِرَ عَلَى وَفْقِ الْآتِي: "لِاسْتِدْعَاءِ الْإِثَارَةِ الْمُشَابِهَةِ لِئَلَّا تَكُونُ سَبَبًا لِلْمُؤَثِّرِ الْأَصْلِيِّ".

(22) لَيْسَ هَذَا التَّكْيِيفُ بِالضَّرُورَةِ صَحِيحًا أَوْ لَافَقًا. وَنَحْنُ هُنَا لَا نَتَنَاوَلُ التَّكْيِيفَ إِلَّا بِقَدْرِ كَوْنِهِ إِدْرَاكِيًّا، وَقَدْ نَعَضُّ الطَّرْفَ عَنِ الصِّفَةِ التَّأْثِيرِيَّةِ-الْإِرَادِيَّةِ لِلْعَمَلِيَّةِ.

(23) الْأَطْرُوحَةُ الْمَقْدَمَةُ هُنَا تُمكنُ قِرَاءَتَهَا بِوَصْفِهَا مُحَايِدَةً فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوَازِي النَّفْسِيِّ-الْعَصْبِيِّ، وَالتَّغَاغُلِ، وَالْفَرَضِيَّةِ الْمُرَدَّوَجَةِ الْمَطْهَرِ، مَا دَامَتْ مُشْكِلَةً الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْجَسَدِ - بِقَدْرِ مَا أَنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ نَفْسُهَا مُشْكِلَةً وَهَيْئَةً - مُشْكِلَةً لَاحِقَةً. Cf. Chapter

الِاتِّقَادَ. فَالِاتِّقَادُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ هُوَ مَا نَحْنُ مُكَيِّفُونَ لَهُ. [53] وَعَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ اكْتِمَالٍ تُشَابِهُ الْعَمَلِيَّةُ الذَّهْنِيَّةُ، الَّتِي هِيَ التَّوَقُّعُ، عَمَلِيَّاتٌ سَبَّبَتْهَا اتِّقَادَاتٌ فِي الْمَاضِي، بَلْ إِنَّهَا 'مُوجَّهَةٌ شَطْرَ' الْمُسْتَقْبَلِ. وَإِذَا مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَكْتَشِفَ مَا تُمَثِّلُهُ هَذِهِ الـ'مُوجَّهَةٌ شَطْرَ شَيْءٍ مَا' فَسَنَكُونُ قَدْ انْتَهَيْنَا مِنَ الْجُزْءِ الرَّئِيسِ مِنْ وَصْفِنَا لِلتَّأْوِيلِ.

وَزِيَادَةٌ عَلَى كَوْنِ تَوَقُّعِنَا 'مُوجَّهَهَا شَطْرَ' الْمُسْتَقْبَلِ، يَكُونُ 'مُوجَّهَهَا شَطْرَ' الْإِتِّقَادِ كَذَلِكَ. غَيْرَ أَنَّ كَوْنَهُ 'مُوجَّهَهَا شَطْرَ شَيْءٍ مَا' هُنَا لَا يُمَثِّلُ سِوَى كَوْنِهِ 'مُشَابِهًا لِمَا سَبَّبَ وَجُودَهُ شَيْءٌ مَا'. فَالْفِكْرَةُ تَكُونُ 'مُوجَّهَةٌ شَطْرَ' الْإِتِّقَادِ حِينَ تُشْبِهُ مِنْ جَوَانِبِ مُعَيَّنَةٍ أَفْكَارًا سَبَّبَهَا الْإِتِّقَادُ. وَلَا يَنْبَغِي لَنَا، عَلَى مَا بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ، أَنْ نَسْمَحَ لِغُيُوبِ اللُّغَةِ السَّبَبِيَّةِ بِأَنْ تُضَلِّلَنَا هُنَا وَلَا بِأَنْ تَجْعَلَنَا، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، نَهْجُرُ مِنْهَجَ الْمُقَارَبَةِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ. وَإِذَا مَا طَوَّرْنَا هَذِهِ اللُّغَةَ فَسَيَظْهَرُ لَنَا أَمْرَانِ، أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْبَدِيلِ لِـ'الْمُوجَّهَةِ شَطْرَ شَيْءٍ مَا' سَيَقْدِرُ غَرَابَتَهُ، وَالْآخَرُ أَنَّ النَّوعَ نَفْسَهُ مِنَ الْإِسْتِدَالِ سَيَلْتَمُ حَالَةَ 'الِاتِّجَاهِ شَطْرَ الْمُسْتَقْبَلِ' وَسَيُفْسَرُ فِي الْوَاقِعِ 'اتِّجَاهُ' عَمَلِيَّاتِ التَّفَكُّيرِ أَوْ إِحَالَتِهَا عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ.

إِنَّ فِكْرَةَ السَّبَبِ الْفَجْأَةِ مُضِلَّةٌ فِي هَذَا الْإِرْتِبَاطِ بِخَاصَّةٍ مَا دَامَتْ قَدْ جَعَلَتْ حَتَّى أَكْثَرَ الْمُفَكِّرِينَ جُرْأَةً⁽²⁴⁾ يَنْكَبِشُونَ مِنْ مُنَاطَرَةٍ [54] 'أَنْ تُفَكَّرَ فِي' لِـ'أَنْ

(24) الْمُسْتَنْتَوْنَ مِنْ ذَلِكَ، كَالسِّيْدَيْنِ هَوْلْتِ E. B. Holt وَرَسِلِ Russell اللّٰذَيْنِ تَبَنَّى كُلُّ مِّنْهُمَا عَلَى انْفِرَادِ نَظَرِيَّةٍ سَبَبِيَّةٍ لِلْحَالَةِ، لَمْ يُفْلِحُوا فِي تَقْدِيمِ تَحْدِيدٍ لِوَجْهَةِ النَّظَرِ هَذَا. فَالسِّيْدُ هَوْلْتِ الَّذِي يَذْهَبُ فِي كِتَابِهِ (الرُّغْبَةُ الْفَرْوِيَّةُ The Freudian Wish, p. 168) إِلَى أَنَّ فِي السُّلُوكِ 'إِحَالَةً مَوْضُوعِيَّةً حَقِيقِيَّةً عَلَى الْبَيْتَةِ'، مَعَ ذَلِكَ يُتَابَعُ قَوْلُهُ- إِنَّهُ "حَتَّى حِينَ يَعْنِي الْمَرْءُ أَشْيَاءَ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ، كَمَا فِي الْهَلُوسَةِ، يُكَيِّفُ جِسْمَهُ عَلَى وَفْقِهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ مَوْجُودَةً"، أَوْ يَتَسَاءَلُ بِقَوْلِهِ (ص 202): "لِمَ يَذْهَبُ الْعُلَامُ إِلَى صَيِّدِ السَّمَكِ؟ ... لِأَنَّ سُلُوكَ الْجِسْمِ الَّذِي فِي طَوْرِ النُّمُو مُتَكَامِلٌ بِالْقَدْرِ الَّذِي يَسْتَجِيبُ بِهِ اسْتِجَابَةً مُحَدَّدَةً لِمَوْضُوعٍ يَبْنِي كَالصَّبِيِّ فِي الْبَرَكَةِ ... فَالْفِكْرَةُ (الْمَضْمُونُ) الَّتِي لَدَى الْعُلَامِ هِيَ السَّمَكَةُ". وَسَرَى أَنَّ النَّظَرِيَّةَ السِّيَاقِيَّةَ لِلْحَالَةِ الَّتِي يُوجِّزُهَا هَذَا الْفَصْلُ تُقَدِّمُ بَيَانًا لاسْتِجَابَةِ مُحَدَّدَةٍ تَنْطَبِقُ، كَمَا لَا تَنْطَبِقُ عِنْدَ السِّيْدِ هَوْلْتِ، عَلَى السُّلُوكِيِّينَ الْخَطَأَ وَالْمَكْتَبِ بِصِدْقٍ عَلَى =

تَكُونُ مُسَبِّبًا عَنْ، إِذْ إِنَّ فِكْرَةَ أَنْ يَكُونَ قَوْلِي: 'أَنَا أَفَكَّرْتُ فِي 'A' مُسَاوِيًا لِقَوْلِي: 'فِكْرَتِي مُسَبِّبَةٌ عَنْ 'A' سَتُسَبِّبُ صَدَمَةً لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ. وَمَعَ ذَلِكَ سَنَجِدُ، حِينَ نَسْتَبْدِلُ بِكَلِمَةِ 'مُسَبِّبٍ' أَطْرُوحَةً مُوسَّعَةً، أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْغَرِيبَةَ هِيَ الْحُلُّ.

والْحَقُّ أَنَّ التَّنَظَرَ إِلَى السَّبَبِ بِوَصْفِهِ شَيْئًا مَا يُجِبِرُ شَيْئًا مَا آخَرَ يُدْعَى نَتِيجَةً عَلَى الْحُدُوثِ، هُوَ وَهْمٌ بَلَّغٌ مِنَ الْوُضُوحِ مَبْلَغٌ أَنْ جَعَلَ حَتَّى الْمِيتَافِيزِيقِيِّينَ يَرْفُضُونَهُ. وَمِنْ نَاجِيَةٍ أُخْرَى، لَيْسَتْ الْأُطْرُوحَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْحَالِيَّةُ، الَّتِي تَخْتَرِلُ السَّبَبَ فِي الْإِرْتِبَاطِ، بِمُثَلَّثَةٍ لِأَغْرَاضِ التَّفْسِيرِ، مَا دَامَ الْإِطْنَابُ الْمُتَوَاصِلُ لَا يُمَكِّنُ تَفَادِيهِ فِي ظِلِّ غِيَابِ الْمُفْرَدَاتِ 'التَّضْرِيفِيَّةِ'. وَلَوْ أَنَا أَدْرَكْنَا، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ أَسَاسَ هَذِهِ الْأُطْرُوحَةِ هُوَ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّجَرِبَةَ لَهَا صِفَةُ التَّكَرُّرِ، أَيْ أَنَّهَا تَأْتِيْنَا فِي

حَدَّ سِوَايَ. أَمَّا السَّيِّدُ رَيْسِل، الَّذِي هَجَرَ الْآنَ، شَأْنَهُ شَأْنَ السَّيِّدِ هَوْلَت، نَظَرِيَّةَ عِلَاقَاتِ
 الْمَعْرِفَةِ الْمُبَاشِرَةِ بَيْنَ الْأَذْهَانِ وَالْأَشْيَاءِ، فَيَتَّبِعُ صِيَاغَةَ الْأَطْرُوحَةِ السَّبَّبِيَّةِ فِي كِتَابِهِ تَحْلِيلُ
 الْعَقْلِ *Analysis of Mind* بِتَقْدِيمِ اعْتِبَارَاتٍ تَنْشَأُ مِنْ مُعَالَجَةِ هِيَ غَايَةٍ فِي عَدَمِ الْإِنْجِسَامِ.
 إِذْ يَقُولُ (ص 235): "إِنَّهُ لَشَيْءٌ قَرِيدٌ جِدًّا أَنْ يُوكَّدَ الْمَعْنَى الْمُفْرَدُ إِحَالَةَ مَوْضُوعِيَّةٍ
 مُرَدُّوَجَةٍ، أَيْ صَادِقَةٍ وَكَادِبَةٍ". وَسَتَرَى حِينَ تُحَلَّلُ الْإِحَالَاتُ الْمَعْقَدَةُ كَيْفَ يَخْتَفِي هَذَا
 الشُّلُودُ. إِنَّ التَّمْيِيزَ الْمُفْتَرَضَ لِـ'الْمَعْنَى' مِنَ الْإِحَالَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ عَلَى وَفْقِ هَذَا التَّقْدِيرِ هُوَ
 عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ التَّعْقِيدِ تُؤَكِّدُهَا الْمَوَاضِعَاتُ الرَّمْزِيَّةُ. وَلْيَحْظَ كَذَلِكَ أَنَّ الْأَطْرُوحَةَ السَّبَّبِيَّةَ
 لِلْمَعْنَى عِنْدَ السَّيِّدِ رَيْسِل، وَلَا يَسِيْعَا فِي ص 197 قَمَا بَعْدَهَا، وَص 231 قَمَا بَعْدَهَا،
 تُخَالِفُ تِلْكَ الْمَطْوَرَةَ هُنَا فِي الْأَهْمِيَّةِ الْمَنْطُوقَةِ بِالصُّورِ؛ لِكُنُوقِ الْمَعْنَى أَوِ الْإِحَالَةِ يُعْرَفُ
 إِمَّا مِنْ خِلَالِ مُشَابَهَةِ الصُّورِ لِمَا تَعْنِيهِ، وَإِمَّا مِنْ خِلَالِ 'فَعَالِيَّيْهَا السَّبَّبِيَّةِ'، أَيْ 'مُلَآءَمَةٍ'
 نَتَائِجِهَا. وَأَهْمُ الْاَعْتِرَاضَاتِ عَلَى وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ هِيَ: عُمُوضُ 'الْمُلَآءَمَةِ'، وَمُغَايِرَةُ
 'الْفَعَالِيَّةِ السَّبَّبِيَّةِ' لِهُيُوتِ الْمَعْنَى، وَالتَّعْقِيدَاتُ الْحَاصِلَةُ بِشَأْنِ مُشْكِلَةِ الصَّدْقِ. وَيَتَبَنَّى
 الْبِرُوفِسُورُ إِيْتَنِ EATON فِي كِتَابِهِ الرَّمْزِيَّةُ وَالصَّدْقُ *Symbolism and Truth* (1925)،
 ص 23، وَجْهَةً نَظَرٍ تُشَبِّهُ إِلَى حَدِّ مَا وَجْهَةً نَظَرِ السَّيِّدِ رَيْسِل، إِذْ يَقُولُ: "إِنَّ الْحُلَّ الْأَيْسَرَ
 لِأَعْرَاضِ التَّوَصُّلِ إِلَى نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ يَكْمُنُ فِي قَبُولِ فَعَالِيَّةِ الْمَعْنَى بِوصْفِهَا مَتَرَدِّدَةً...
 فَلِكُلِّ مَوْضُوعٍ فَعَالِيَّاتٍ مُعَيَّنَةٌ ثَلَاثُهُ". وَالتَّرَاقُ فِي هَذَا الْفَصْلِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، يَدُورُ
 حَوْلَ إِمْكَانِ الشَّرِّ خَلْفَ هَذِهِ 'الْمُلَآءَمَةِ' وَجَذْوَى ذَلِكَ.

وَيُقَرِّ شَرْحُ السَّيِّدِ رَيْسِلِ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ عَنِ الْمُتَأَوَّلِ فِي الصَّفَحَاتِ 117-119 مِنْ عَدَدِ دُورِيَّةِ *The Dial* الصَّادِرِ فِي أَغْطُس/آبِ بِأَنَّ الصُّورَ لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهَا لِيُفَسِّرَ الْمَعْنَى .

سِيَّاقَاتٍ شَبِيهٍ مُنْتَظِمَةٍ، لَكَانَ لَنَا فِي هَذَا كُلُّ مَا يَتَطَلَّبُهُ تَكْوِينُ نَظَرِيَّةٍ لِلْعَلَامَاتِ، وَكُلُّ مَا كَانَتْ النَّظَرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ لِلْأَسْبَابِ مُؤَمَّلَةً لِأَن تَحَافِظَ عَلَيْهِ. وَبَعْضُ هَذِهِ السِّيَّاقَاتِ أَقْرَبُ زَمَانًا وَمَكَانًا مِنْ سِوَاهُ؛ فَالسِّيَّاقَاتُ الَّتِي يَبْحَثُ فِيهَا عِلْمُ الْفِيزِيَاءِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، تَتَقَلَّصُ إِلَى دَرَجَةِ الْاسْتِشْهَادِ بِالْمُعَادَلَاتِ التَّفَاضُلِيَّةِ. أَمَّا السِّيَّاقَاتُ الَّتِي نَجِّحَ عِلْمُ النَّفْسِ حَتَّى الْآنَ فِي الْكَشْفِ عَنْهَا فَوَاسِعَةٌ؛ فَالْأَحْدَاثُ الْمُنْتَظِمَةُ التَّرَابُطُ كَثِيرًا مَا تَكُونُ مُفَصَّلَةً زَمَنِيًّا إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ. عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لَوْلَا هَذِهِ السِّيَّاقَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ، وَهَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ بِهِ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ جَدًّا، [55] لَكِنْ لَوْ مُحْصًى لَاكْتَشِفَ أَنَّهُ أَكْثَرُ جَوْهَرِيَّةٍ بِكَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يُظَنُّ بِهِ. فَالْحَقُّ أَنَّ إِبْخَارَنَا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ بِأَنَّهُ تَأْوِيلٌ يَعْنِي أَنْ نُخْبِرَ بِأَنَّهُ غَضُوٌّ فِي سِيَاقٍ سَايَكُولُوجِيٍّ مِنْ نَوْعٍ مُعَيَّنٍ. فَالتَّأْوِيلُ نَفْسُهُ إِنَّمَا هُوَ تَكَرَّرٌ.

وَيُمْكِنُ، عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ مِنَ الْبَحْثِ، الْإِتْيَانُ بِمِثَالٍ تَوْضِيحِيٍّ مَلْمُوسٍ. فَتَمَّةُ كَلْبٍ مَشْهُورٍ فِي مُعْظَمِ الْكُتُبِ الَّتِي تُعَالِجُ سُلُوكَ الْحَيَوَانِ، يَجْرِي عِنْدَ سَمَاعِهِ جَرَسَ الْعِشَاءِ بِاتِّجَاهِ غُرْفَةِ الطَّعَامِ، وَلَوْ كَانَ فِي أَجْزَاءٍ مِنَ الدَّارِ بَعِيدَةٍ تَمَامًا عَنْ مَصْدَرِ الرِّوَايَاتِ وَالنَّكْهَاتِ؛ لَعَلَّهُ يَحْطِى بِجُلْسَةٍ مُنَاسِبَةٍ، فِي حَالٍ تَوَلَّدَ لَدَى مُتَنَاولِي الْعِشَاءِ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْفِكَارِ الْمُتَعَاطِفَةِ تَجَاهَهُ. فَهَذَا الْكَلْبُ إِنَّمَا يُؤَوِّلُ صَوْتَ الْجَرَسِ بِوصْفِهِ عَلَامَةً. فَكَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ؟ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ثَمَّةُ خِلَافٍ فِي الْإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، وَهِيَ أَنَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ مِنْ خِلَالِ تَجَرِبَةِ الْكَلْبِ الْمَاضِيَّةِ. إِذْ تَشْتَمِلُ هَذِهِ التَّجَرِبَةُ الْمَاضِيَّةُ، عَلَى لَفَائِفِ مُتَكَرِّرَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ، إِنَّ جَارَ التَّعْبِيرِ، تَنَالَفَ إِحْدَاهَا، عَلَى نَحْوِ تَقْرِيْبِيٍّ، مِمَّا يَأْتِي: جَرَسِ قُرْصِيٍّ، وَرَاحَةِ ذَاتِ نَكْهَةٍ، وَتَأْمَلِ مُتَشَوِّفٍ لَا لِهَتَامٍ مُتَنَاولِي الْعِشَاءِ لِلْأَطْعِمَةِ، وَهَبَاتٍ، وَشَبَعٍ. وَسَنَدَعُو مِثْلَ هَذِهِ اللَّفِيفَةِ الَّتِي يَتَكَرَّرُ حَدُوثُهَا مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرٍ سِيَاقًا خَارِجِيًّا. وَفِي مُنَاسَبَةٍ مَخْصُوصَةٍ قَدْ يُسْمَعُ صَوْتُ الْجَرَسِ الْقُرْصِيٍّ بَعِيدًا عَنْ مَصْدَرِ النَّكْهَاتِ. لَكِنْ بِسَبَبِ خِبْرَةِ الْكَلْبِ الْمُؤَوِّلِ الْمَاضِيَّةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى أَصْوَاتِ الْجَرَسِ الْقُرْصِيِّ وَالنَّكْهَاتِ مَعًا، يَرْتَبِطُ صَوْتُ الْجَرَسِ الْحَالِي بِعِلَاقَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِمَا مَضَى مِنَ الْأَصْوَاتِ وَالنَّكْهَاتِ، وَالتَّشَوُّفَاتِ، وَمَا إِلَيْهَا، بِمَا يَجْعَلُهُ يَتَصَرَّفُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي وُصِفَ مِنَ الْخَصَافَةِ، وَيَكُونُ حَاضِرًا فِي وَجَبَةِ الطَّعَامِ. وَسُنْطَلِقُ

على مثل هذه المجموعة الذهنية من الأحداث- سماعه الحالي لصوت الجرس الفُرصِي، وسماعاته الماضية لأصوات مُشابهة، ونكهايته الماضية مع أجراس فُرصِيَّة، وما إلى ذلك، وعملِيَّته الذهنيَّة الحاليَّة أيضاً التي يجري بمقتضاها إلى عُرفة الطَّعام- اسم السِّياق السايكولوجي. ومن الواضح أنَّ هذا النوع من السِّياق يُمكنُ تَكَرُّرُ حدوثه فيما يتعلَّق بِسماته التي هي أَكْثَرُ عُموميَّة. وواضح كذلك أنَّ عناصِرَه قد تَكَثَّرَ كثرة غيرَ محدودة وقد يَفْصِلُ بَعْضُها عن بَعْضٍ زَمَنٌ واسع، وأنَّه من خلالِ هذه الفواصلِ الزَّمَنِيَّة يُمكنُ أن يَرِبطَ هذا السِّياقُ السايكولوجي بينَ السِّياقاتِ الخارجيَّة، من اللِّفائفِ المُتَكَرِّرةِ الحُدُوثِ من الخِبراتِ [56] ذَوَاتِ الطَّابعِ الجَرَسِي-النَّكهيِّ المذكورة آنفاً. وعلى نحوٍ مُشابهٍ سَيُوضِحُ كُلُّ تَعَلُّمٍ بِوَساطَةِ الخِبرة أنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ فَعَلًا تَأوِيلًا لا يَعْنِي إِلَّا أن يَكُونَ عُضْواً مُمَيِّزًا⁽²⁵⁾ في سِياقٍ سايكولوجيٍّ مِنْ نَوْعٍ مُعَيَّنٍ؛ لِكَوْنِ السِّياقِ السايكولوجيِّ مَجْموعَةً مُتَكَرِّرةً الحُدُوثِ لأحداثٍ ذَهْنِيَّةٍ يَرْتَبِطُ بَعْضُها بِبَعْضٍ على نَحْوِ مُمَيِّزٍ لِيَتَكَرَّرَ حُدُوثُها، فيما يتعلَّق بِسماتها الرِّئيسة، في اتِّساقٍ جُزئيٍّ.

سَيُشْعَرُ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّرَدُّدِ في التَّسْلِيمِ بِأنَّه ما لم يَكُنْ ثَمَّةُ تَكَرُّرٍ حُدُوثٍ أو اتِّساقٍ جُزئيٍّ فَلَنْ يُمكنُ حُدُوثُ أيِّ تَنْبُؤٍ، ولا اسْتِدْلالٍ، ولا تَعَرُّفٍ، ولا تَعْمِيمٍ اسْتِقْرَائِيٍّ، ولا مَعْرِفَةٍ أو رَأْيٍ مُحْتَمَلٍ فيما يتعلَّقُ بِما لَيْسَ مُعْطًى مُباشرةً. وما هُوَ أَصْعَبُ في الفَهِمِ أنَّ سَبَبَ ذلكَ لَيْسَ إِلَّا أنَّ هذه العَمَلِيَّاتِ، أو التَّعَرُّفاتِ، أو الاستدلالاتِ، أو الأفكارِ أَعْضاء في سِياقاتٍ سايكولوجيَّةٍ مُعَيَّنة مُتَكَرِّرة الحُدُوثِ. فَقُولِي إِنِّي أُمَيِّزُ شَيْئًا ما أَمَامِي بِوصْفِهِ ثَمَرَةً فِراولة، مَثَلًا، وَاتَوَقَّعْ أن يَكُونَ طَيِّبَ المَذاقِ، يُساوِي قَوْلِي إنَّ ثَمَّةَ عَمَلِيَّةٍ ما حَالِيَّةٍ في داخِلِي تَنْتَهِي إلى كُلِّ من سِياقٍ سايكولوجيٍّ مُحَدِّدٍ وعَمَلِيَّةٍ ماضِيَّةٍ مُعَيَّنة (تَصَوُّراتٍ والْتِهَاماتٍ ماضِيَّةٍ لِإِشْمارِ الفِراولة). هذه السِّياقاتُ السايكولوجيَّةُ يَتَكَرَّرُ حُدُوثُها كُلِّما مَيَّزْنَا أو اسْتَدَلَّلْنَا. وعادةً ما تَرْتَبِطُ مَعَ (أو تُشكِّلُ سِياقاتٍ أَوْسَعَ مَعَ) السِّياقاتِ

(25) ثَمَّةُ مَزِيدٍ مِنَ التَّحْلِيلِ لِلتَّمَيِّزِ فِي التَّذْيِيلِ B.

الخارجية⁽²⁶⁾ بطريقة مميزة⁽²⁷⁾. وما لم يحدث ذلك فحينئذ يقال إننا مخطئون.

وأبسط صيغة مُصطلحية يُمكن أن يُعرض بها هذا النوع من الارتباط هي صيغة العلامات. فواء كل تأويل تكمن حقيقة أنه حين يتكرر حدوث جزء من سياق خارجي ما في التجربة يكون هذا الجزء أحياناً علامة على سائر ما في السياق الخارجي، من خلال ارتباطه بعضو ما في سياق سايكولوجي ما (أي في مجموعة من الأحداث الذهنية المترابطة سببياً التي كثيراً ما تكون بينها قواصل زمنية واسعة).

وثمة نقطتان تحتاجان إلى إيضاح إذا ما أريد لهذه الأطروحة الموجزة أن [57] تكون وافية؛ تتعلق إحداهما بالسياقات⁽²⁸⁾، والأخرى بالوجه الذي تكون على وفقه مطردة.

(1) السياق هو مجموعة كيانات (أشياء أو أحداث) مترابطة بطريقة معينة،

(26) إذا لم ننظر إلى الأمر من زاوية سايكولوجية أمكن أن يُقرأ 'خارجي' على أنه 'فيزيائي'.

(27) يُنظر: ص 145 فما بعدها، والتذييل B.

(28) يُستعمل لفظ السياق حينما ورد في كتابنا هذا بالمعنى الاصطلاحي الصارم المحدد في ما يأتي، الذي يختلف عن الاستعمال المعتاد. فالسياق الأدبي مجموعة من الكلمات، والحوادث، والأفكار، إلخ، تضح في مناسبة معينة أي شيء يقال إن له هذا السياق أو تحيط به، في حين أن السياق المحدد هو نوع من المجموعات التي يتكرر حدوثها والتي إن كان أحد أعضائها في الأقل محددًا حدد سائر أعضائها الآخرين. ويبدو أن البروفيسور بالدون Baldwin قد بنى استعمالاً مشابهاً إلى حد ما لكنه أكثر غموضاً في كتابه (الفكر والأشياء Vol. I., p. 48)، وإن كان قد أصبح واضحاً بتقديم شرحه (يُنظر كذلك التذييل D) أن هذا الشبه وهمي ما دامت الصورة، على سبيل المثال، (Vol. I., p. 81) 'يُمكن تحويلها إلى سياق'، ونقرأ حديثاً عن 'التطور الحاصل في مضمون بعينه للسياق الموسع للمعاني الإنسانية والضمينية' (Vol. II., p. 246). وتشترك هذه الاستعمالات على نحو أكبر مع استعمال البروفيسور تيتشنر Titchener الذي يقول بعد الفقرة الثانية التي سنتبها في الفصل الثامن: 'أنا أفهم من السياق أنه ليس سوى عملية ذهنية أو مركب من العمليات الذهنية يحصل للفكرة الأصلية من خلال الحال التي يجد الكائن نفسه فيها'.

وكل من هذه الكيانات له خصيصة على نحو تحدث معه مجموعات الكيانات الأخرى حاملة الخصائص أنفسها ومترابطة بالطريقة عينها، وتحدث هذه على نحو يكاد يكون مطلقاً. في مثالنا بشأن حادثة كشط عود الثقاب وحادثة الانقراض يتضح تضمّن العلاقة الموحدة تقارباً في الزمان والمكان - فلن يكون كشط ما في أمريكا وانقراض ما في الصين نحو هذا السياق -، غير أنّ من المهم أن يدرك أنّه ليست ثمة حاجة إلى أن نفرض ابتداءً تحديداً لنوع العلاقة التي يمكن حدوثها بوصفها العلاقة الموحدة في سياق ما، ما دُنا لن نكتشف أنواع العلاقات الحادثة فعلاً إلا بالخبرة وخذها. وقد يكون للسياقات، فضلاً عن ذلك، أي عدد من الأعضاء، ويبدو أنّ السياقات المزدوجة التي تشتمل على عضوين فقط نادرة، مع أنّه من المريح افتراض حدوثها لأغراض إيضاحية. وثمة صعوبة معينة تتعلق بالخصائص التأسيسية الداخلية. ففي مثالنا بشأن حادثة كشط عود الثقاب وحادثة الانقراض قد يُعبر عنهما بـ 'حدث كشط' و 'حدث انقراض'، غير أنّ هذين التعبيرين اسمان مختزلان لمجموعات من الخواص واسعة جداً. فنحن لا نتوقع حدوث انقراض عند كل كشط، وسفاجاً إذا ما اتقّد عود ثقابنا كما يتقّد شريط المغنيسيوم. [58]

(2) أما النقطة الأخرى فالصعوبة التي تتعلق فيها باختيار الخصائص التأسيسية مرتبطة بمشكلة 'الوجه الذي تحدث السياقات على وفقه حدوثاً يكاد يكون مطلقاً'. ومن الواضح أنّه إذا ما كان لدينا ما هو على قدر كافٍ من العموم من الخصائص والعلاقات الموحدة فليس صعباً أن نقف على سياقات مطلقاً على نحو تام لا تقريبي. مثال ذلك السياق الذي يؤسسه كيانات لكلٍ منهما خصيصة 'أن يكون حدثاً'، وتربط بينهما علاقة 'التتابع' ⁽²⁹⁾. وإذا ما حددنا، من جهة أخرى، الخصائص التأسيسية والعلاقة الموحدة تحديداً كبيراً فلن يصبح تكرّر الحدوث

(29) وما يجدر التنبيه عليه أنّه ليس ضرورياً في الخصائص التي تؤوّل علامة ما على وفقها أن تكون 'مغطاة'، أي لنا، لندرك أنّها تنتمي إليها. وتجلّى أهميّة هذه الحالة عند النظر في عمليات التأويل التي تقوّننا إلى تعرف كيانات أخرى غير الأحاسيس. ويتّبعني أن يلحظ زيادة على ذلك أنّ الخصيصة التأسيسية قد تكون من نمط 'أن تكون A، أو B، أو C، وما إلى ذلك'.

أكيداً. لِيَذْكَ عَلَيْنَا أَنْ نَصَوِّغَ أَطْرُوحَتَنَا بِلُغَةٍ احْتِمَالِيَّةٍ. فَإِنْ نَقُولُ، فِي مِثَالِنَا، إِنَّ السِّيَاقَ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ 'الْكَشْطُ' وَ'الْإِتْقَادُ' خَصِيصَتَيْنِ تَأْسِيسِيَّتَيْنِ مُتَكَرِّرُ الْحُدُوثِ (أَوْ إِنَّهُ سِيَاقٌ) يَعْنِي: -

أَنَّهُ كُلَّمَا حَدَثَ كَشْطٌ كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ حُدُوثُ إِتْقَادٍ لَهُ الْعَلَاقَةُ الْمَطْلُوبَةُ بِالْكَشْطِ.

أَوْ أَنَّهُ كُلَّمَا حَدَثَ إِتْقَادٌ فَلَزُمًا كَانَ قَدْ حَدَثَ كَشْطٌ لَهُ الْعَلَاقَةُ الْمُعَاكِسَةُ لِلْإِتْقَادِ. أَوْ مَزِيحًا مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ مَعًا.

فَمَا أَوْلَى الْحَالَاتِ فَيُقَالُ عَنِ السِّيَاقِ فِيهَا إِنَّهُ مُحَدَّدٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخَصِيصَةِ الْإِتْقَادِ؛ وَأَمَّا ثَانِيَّتُهَا فَيُقَالُ عَنْهَا فِيهَا إِنَّهُ مُحَدَّدٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخَصِيصَةِ الْكَشْطِ، وَأَمَّا ثَالِثُهَا فَيُقَالُ عَنْهَا فِيهَا إِنَّهُ مُحَدَّدٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكِلْتَا الْخَصِيصَتَيْنِ.

وَقَدْ لَجَّأْنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى سِيَاقِ مُزْدَوِجٍ لِعَرَضِ التَّبْسِيطِ، وَهَذَا يُظْهِرُ الْأَطْرُوحَةَ بِصُورَةِ الْمُصْطَنَعَةِ. وَلَا تَسْتَلْزِمُ السِّيَاقَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ أَوْ أَكْثَرَ مُشْكِلَاتٍ إِضَافِيَّةً. إِذْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُحَدَّدَةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِحْدَى الْخَصَائِصِ التَّأْسِيسِيَّةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَيِّ عَدَدٍ مِنْهَا.

لَقَدْ حَرَّضْنَا فِي أَطْرُوحَتِنَا هَذِهِ عَلَى اجْتِنَابِ أَيِّ ذِكْرِ [59] لِلصُّورِ - تِلْكَ الْإِحْيَاءَاتِ أَوْ النُّسَخِ لِلتَّجَارِبِ الْحِسِّيَّةِ الَّتِي تَشْخَصُ شَخْوصًا ظَاهِرًا جَدًّا فِي مُعْظَمِ مَا يُؤَلِّدُهُ التَّفَكِيرُ. وَتَمَّةُ أَسْبَابٍ وَجِيهَةٌ تُظْهِرُ لِمَ كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ عَلَى الْمُحَاوَلَاتِ الَّتِي تَسْعَى إِلَى بِنَاءِ نَظَرِيَّةٍ لِلتَّأْوِيلِ مُسْتَنِدَةً إِلَى الصُّورِ أَنْ تَكُونَ مَحْفُوقَةً بِالْخَطَرِ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْمَشْكُوكِ فِيهِ جَدًّا أَنْ تَحْدُثَ هَذِهِ الصُّورُ فِي بَعْضِ الْأَذْهَانِ أَوْ أَنْ تَكُونَ قَدْ حَدَثَتْ فِيهَا أَصْلًا. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُ فِي عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي لَا يَكُونُ لِلْكَلِمَاتِ فِيهَا دَوْرٌ وَاضِحٌ يُخَفِّقُ الْإِسْتِطَانُ فِي إِظْهَارِ أَنَّ الصُّورَ حَاضِرَةً، مَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْإِسْتِطَانُ مُفْرِطًا فِي دِفْتِهِ وَهَذَا مَا يَسْتَدْعِي الشُّكَّ فِي قِيَمَتِهِ بِوَصْفِهِ ذَلِيلًا. وَأَوَجَّهُ مِنْ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أَنَّ الصُّورَ تَبْدُو إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ تَرْقِيَاتٍ ذَهْنِيَّةً. فَقَبْلَ ظُهُورِ صُورَةٍ مَا، صُورَةٍ وَخَشٍ بُحَيْرَاتٍ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يُمَكِّنُ أَنْ يُلْحَظَ حُدُوثُ شَيْءٍ مَا كَثِيرًا مَا يَوْصَفُ وَصْفًا مُضِلًّا بِأَنَّهُ

‘قَصْدٌ لِتَخِيلٍ’ وَخَشِ بُحَيْرَاتٍ. غَيْرَ أَنَّ التَّامُّلَ يُظْهِرُ بِوَضُوحٍ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مُجَرَّدَ قَصْدٍ. فَحِينَ تَتَحَدَّثُ عَنْ قَصْدٍ عَلَى هَذَا النِّحْوِ إِنَّمَا تَتَحَدَّثُ عَنْ خَصَائِصٍ تَأْثِيرِيَّةٍ- إِرَادِيَّةٍ، خَصَائِصٍ تَتَحَوَّلُ بِسَبَبِهَا، عَلَى نَحْوِ تَقْرِيْبِيٍّ، حَالَةً فِي الذَّهْنِ مِنْ وَضْعِ ابْتِدَائِيٍّ نِسْبِيًّا إِلَى آخَرٍ مُنَظَّمٍ وَوَاضِحٍ نِسْبِيًّا. فَوُجُودُ قَصْدٍ بِمُفْرَدِهِ مُسْتَحِيلٌ اسْتِحَالَةً وَجُودٍ إِثَارَةً بِمُفْرَدِهَا. إِذْ لَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ مُثَارٍ مَا، وَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ شَيْءٍ مَا يَنْتَمِي إِلَيْهِ الْقَصْدُ. فَمَا يَكُونُ هَذَا الشَّيْءُ فِي الْحَالَاتِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدِهَا؟

مَهْمَا يَكُنْ هَذَا الشَّيْءُ فَإِنَّ لَهُ تِلْكَ الْخَصِيصَةَ الْمُمَيَّزَةَ لِلتَّوَجُّهِ شَطْرَ أَحَدِ الْأَشْيَاءِ دُونَ غَيْرِهِ، وَهَذَا مَا نُطْلِقُ عَلَيْهِ هُنَا اسْمَ الْإِحَالَةِ reference. وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْإِحَالَةُ غَيْرَ أَكِيدَةٍ وَغَامِضَةٍ، لَكِنْ تَبْدُو مُمَائِلَةً فِي التَّوَجُّهِ لِلْإِحَالَةِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي حَالَاتٍ مِنَ التَّفَكِيرِ أَوْضَحَ وَأَكْثَرَ تَحْدِيدًا، حَيْثُ تَوْجَدُ رُمُوزٌ فِي هَيَاةِ صُورٍ أَوْ كَلِمَاتٍ. وَمِنْ الصَّعْبِ أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ الصُّورَ تُؤَدِّي أَيَّ دَوْرٍ رَئِيسٍ فِي الْمَرَاكِزِ الْأَوَّلِيَّةِ لِمَثَلِ هَذِهِ الْإِحَالَاتِ. فَأَيَّةُ صُورَةٍ تَنْشَأُ تَخَضَعُ قَوْرًا لِلْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ بِنَاءً عَلَى انْسِجَامِهَا مَعَ الْإِحَالَةِ أَوْ عَدَمِهِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْانْسِجَامِ تَطَابُقَ الصُّورِ، أَوْ التَّشَابُهَ فِي أَيَّةِ خَصَائِصٍ جَوْهَرِيَّةٍ. وَإِنْ كَانَتْ ثَمَّةُ صُورٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ دَاخِلَةٌ [60] فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ مُنْذُ بَدَأَ التَّفَكِيرُ بِالْأَشْيَاءِ، فَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا لَا تَدْخُلُ عَلَى الدَّوَامِ بِوَصْفِهَا صُورًا، أَيْ بِوَصْفِهَا تَنْسَخُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا الْإِحَالَةُ وَتُمَثِّلُهَا، بَلْ، بِقَابِلِيَّةٍ أَكْثَرَ تَحَرُّرًا لِأَنَّ تَكُونَ مُجَرَّدَ عِلَامَاتٍ لَا بِقَابِلِيَّتِهَا لِأَنَّ تَكُونَ عِلَامَاتٍ مُحَاكَاةٍ أَوْ تَقْلِيدٍ.

وَالْحَقُّ أَنَّهُ قَدْ يُتَسَاءَلُ: أَلَيْسَتْ التَّخِيلَاتُ الْمُحَاكِةُ نِتَاجًا مُشْتَقًّا مُتَأَخِّرًا فِي التَّطَوُّرِ الذَّهْنِيِّ؟ لَقَدْ بَلَغَ اعْتِيَادُنَا بَدَأَ عِلْمِ النَّفْسِ بِمَعْيَةِ الصُّورِ مَبْلَغًا يَجْعَلُنَا نَمِيلُ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ الْأَذْهَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ بَدَأَتْ بِمَعْيَتِهَا أَيْضًا. لَكِنْ لَيْسَ مِنْ سَبَبٍ وَجِبِ لَافْتِرَاضِ عَدَمِ إِمْكَانِ الذَّهْنِ أَنْ يَعْمَلَ بِالْكِفَايَةِ نَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الصُّورِ. نَعَمْ، إِنَّ لَهَا اسْتِعْمَالَاتٍ مُعَيَّنَةً مُحَدَّدَةً تَحْدِيدًا ضَيِّقًا كَالْاِقْتِصَادِ فِي الْجَهْدِ فِي مَيَادِينِ مُعَيَّنَةٍ مُحَدَّدَةٍ. فَالْفَنَّانُ، وَلَا عِبُّ الشَّطْرَنْجِ، وَعَالِمُ الرِّيَاضِيَّاتِ يَرَوْنَهَا وَسِيلَةً مُرِيحَةً. لَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يُقَالَ عَمَّا يُمَارِسُهُ هَؤُلَاءِ إِنَّهُ أَعْمَالٌ ذَهْنِيَّةٌ أَوَّلِيَّةٌ. وَيَنْدُرُ أَنْ يَسْتَشِيرَ الْجَوْعُ الصُّورَ الْمَذَاقِيَّةَ؛ فَسَيَلَانُ اللَّعَابِ يَحْصُلُ مَعَ عَدَمِ وَجُودِهَا.

والرُّكُونُ إِلَى جِسِّ الْإِتْجَاءِ وَالتَّصَوُّرِ فَحَسْبُ خَيْرٍ وَسِيلَةٍ لِلْإِهْتِدَاءِ فِي غَيْرِ الْمَطْرُوقِ مِنَ الْبَرِّيَّاتِ وَضَوَاحِي الْحَوَاضِرِ. وَإِجْمَالُ الْقَوْلِ أَنَّ الْعَلَامَةَ الْمُحَاكِئَةَ لَيْسَتْ مِمَّا يَعْظُمُ انْتِفَاعُ الْعَقْلِ الْبِدَائِيَّ بِهَا. وَيَصْلُحُ سَائِرُ أَصْنَافِ الْعَلَامَاتِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ لِمُعْظَمِ الْأَغْرَاضِ، وَكَيْفَةُ الْمَزَايَا الْقَلِيلَةِ لِلصُّورِ سَتَطِيشُ إِذَا مَا تَذَكَّرْنَا مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْرَضَ مُسْتَمْعِلُو الصُّورِ أَنْفُسَهُمْ لَهُ مِنْ 'مُظَنَّةِ الْخَطَرِ'. إِذْ إِنَّ وُجُودَ الصُّورِ غَيْرِ الدَّقِيقَةِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ الصَّلَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْ عَذِيبِهَا أَصْلًا. وَإِنَّهُ لَيَصْعُبُ تَقْوِيمُ الْحُجَجِ الَّتِي تُعَزِّزُ جَانِبَ الصُّورِ بِوَصْفِهَا مُفَرَّزَاتٍ أَوَّلِيَّةً وَأَسَاسِيَّةً جِدًّا، كَحُجَّةِ الْأَحْلَامِ، مَثَلًا، أَوْ السَّيْطَرَةِ الْمَزْعُومَةِ لِلصُّورِ عَلَى الْأَطْفَالِ وَالْأَقْوَامِ الْبِدَائِيَّةِ. وَقَدْ يَكُونُ لِلتَّخَيُّلاتِ حُضُورُهَا الْقَوِيَّ وَإِنْ لَمْ تُوَدَّ، بِالصَّرُورَةِ، وَطِيفَةُ مُهِمَّةٍ؛ فَلَيْسَ مَا تُسَبِّبُهُ مِنْ إِشْبَاعَاتٍ شُعُورِيَّةٍ فِي أَحْلَامِ الْيَقِظَةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْإِحَالَاتِ الْمَعْنِيَّةَ مَا كَانَتْ لَتَحْدُثَ لَوْلَاهَا. وَتُشَبِّهُ ذَلِكَ حَالَةَ الَّذِينَ يُؤَلِّدُونَ صُورًا مُسْتَقْصِيَةً لِمَائِدَةِ إِفْطَارِهِمْ، فَكَثِيرًا مَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا كُلَّ شَيْءٍ عَنْهَا مِنْ غَيْرِ بَارِقَةٍ [61] لِصُورَةٍ مَا، مَا لَمْ يَكُنِ الْإِنْعِمَاسُ الشَّدِيدُ فِي الصُّورِ قَدْ أَفْسَدَ قُدْرَتَهُمُ الطَّبِيعِيَّةَ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ لَأَيَّةٍ نَظَرِيَّةٍ فِي التَّأْوِيلِ بِمَقْدُورِهَا أَنْ تَتَأَيَّ بِنَفْسِهَا عَنْ جَعْلِ الصُّورِ حَجَرَ زَاوِيَةٍ فِيهَا أَفْضَلِيَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي لَيْسَتْ كَذَلِكَ. وَتُمَثِّلُ هَذِهِ النِّقْطَةُ مَوْضِعَ الْاِخْتِلَافِ الرَّئِيسِ بَيْنَ وَجْهِةِ النَّظَرِ الْمُطَوَّرَةِ هُنَا وَمَا قَدَّمَهُ السَّيِّدُ رَسِيل⁽³⁰⁾ Russell⁽³¹⁾ بِشَأْنِ الْمَعْنَى، الَّذِي يَنْبَغِي، مَعَ ذَلِكَ، أَنْ

(30) برتراند آرثر وليم رَسِيل (1872-1970م). فِيلَسُوفٌ، وَعَالِمٌ مَنْطِقِيٌّ، وَرِیَاضِيٌّ، وَمُؤَرِّخٌ، وَنَاقِذُ اجْتِمَاعِيٍّ بَرِیْطَانِيٍّ. حَازَ سَنَةَ 1950 جَائِزَةَ نُوبَلٍ لِلْأَدَبِ. وَكَانَ فِي مَرَاجِلَ مِنْ حَيَاتِهِ لِبِرَالِيًّا وَاشْتِرَاقِيًّا وَدَاعِيَّةً سَلامٍ، إِلَّا أَنَّهُ أَقَرَّ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَيًّا مِنْ هَؤُلَاءِ بِالْمَعْنَى الْعَمِيقِ. قَادَ الثَّوْرَةَ الْبَرِیْطَانِيَّةَ الْمُضَادَّةَ لِلْمَثَالِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. يُعَدُّ أَحَدَ مُؤَسِّسِي الْفَلَسَفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ مَعَ سَلْفِهِ غُولُوب فَرِيْجَة وَتَلْمِيزِهِ لُودْفِيْغ فِتْغِنِشْتَايْن، وَأَحَدَ أَهَمِّ عُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. أَلَفَّ مَعَ وَايْتِهِيْد كِتَابَ (مَبَادِئِ الرِّیَاضِيَّاتِ)، وَهُوَ مُحَاوَلَةٌ لِشَرْحِ الرِّیَاضِيَّاتِ بِالْمَنْطِقِ. وَتُعَدُّ مَقَالَتُهُ الْفَلَسَفِيَّةُ (فِي الدَّلَالَةِ التَّعْبِیْئِيَّةِ) أَنْمُودَجًا فِكْرِيًّا فِي الْفَلَسَفَةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(31) يُنْظَرُ كِتَابُهُ تَحْلِيلُ الْعَقْلِ *The Analysis of Mind*، وَلَا سِیَّمَا ص 207-210. وَثَمَّةُ =

يُراجِعُهُ أولئك الذين يُفَضِّلُونَ على وَصْفِنَا المُوجِزِ نِقَاشًا أيسَرَ لِمَا تُؤَدِّيهِ السَّبِيَّةُ التَّذَكُّرِيَّةُ مِنْ دَوْرٍ مَعْرِفِيٍّ.

فَلَنَفْتَرِضِ الآنَ أَنَا أَشْعَلْنَا عُودَ الثَّقَابِ وَتَوَقَّعْنَا حَدُوثَ اتِّقَادٍ. فلا بُدَّ لَنَا مِنْ وَسِيلَةٍ لِلْحُكْمِ عَلَى تَوَقُّعِنَا بِالصِّدْقِ أَوْ بِالْكَذِبِ. والذي نَفْعَلُهُ فِي الواقعِ هُوَ أَنَّنَا نَنْظُرُ لِنَرَى: أَكَانَ اتِّقَادٌ أَمْ لَمْ يَكُنْ؟ لَكِنَّ السُّؤَالَ الذي يَنْبَغِي أَنْ نُجِيبَ عَنْهُ هُوَ: كَيْفَ لَنَا أَنْ نَنْتَجِبَ، مِنْ بَيْنِ كُلِّ الْأَحْدَاثِ الْمُمَكِّنَةِ الْأُخْرَى الَّتِي كَانَ يُحْتَمَلُ أَنْ نَخْتَارَهَا، هَذَا الاتِّقَادَ الْمَخْصُوصَ بِوَصْفِهِ الْحَدَثِ الذي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ صِدْقُ تَوَقُّعِنَا أَوْ كَذِبُهُ؟⁽³²⁾. فَتَحْنُ نَنْتَجِبُهُ بِوَسَاطَةِ سِيَاقَاتٍ خَارِجِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يَنْتَمِي إِلَيْهَا، أَيْ إِنَّهُ ذَلِكَ الْحَدَثُ الذي، إِنْ يَكُنْ، يُكْمِلُ السِّيَاقَ الذي يُمَثِّلُ الْكَشْطَ غُصَّوَهُ الْآخَرَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، وبِذَلِكَ يَكُونُ مُهَيِّئًا لِلرَّابِطِ بِالتَّوَقُّعِ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ السَّايِكُولُوجِيِّ الذي يُشِئُهُ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ والخَبْرَاتُ الْمَاضِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِأَحْدَاثِ الْكَشْطِ وَالْإِتِّقَادِ.

فَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ حَدَثٍ يُكْمِلُ السِّيَاقَ الْخَارِجِيَّ الْمَعْنِيَّ فَاِلْإِحَالَةَ صَادِقَةً وَالْحَدَثِ الْمَذْكُورُ هُوَ مَرَجِعُهَا. أَمَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ نَحْنُ هَذَا الْحَدَثِ فَاِلْإِحَالَةَ كَاذِبَةً وَالتَّوَقُّعَ خَائِبًا.

وَالْأُطْرُوحَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ تَشْمَلُ اعْتِقَادَاتٍ عَلَى نَحْوِ 'سَيَعْقُبُ هَذَا الْكَشْطُ اتِّقَادًا' يُحَدِّثُهَا إِحْسَاسٌ حَاضِرٌ. [62] وَقَدْ يَحُلُّ اعْتِقَادًا مَا بِنَفْسِهِ مَحَلًّا إِحْسَاسٍ مَا حَاضِرٍ لِيَكُونَ عَلَامَةً لَاعْتِقَادٍ آخَرَ يَكُونُ حِينَئِذٍ تَأْوِيلًا لِهَذَا الْإِعْتِقَادِ. وَالْحَالَاتُ الْوَحِيدَةُ مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا تَحْدُثُ هِيَ الْإِعْتِقَادَاتُ الْإِسْتِطْبَائِيَّةُ الَّتِي عَلَى نَحْوِ 'أَعْتَقِدُ أَنِّي أَعْتَقِدُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ' وَالتِّي مِنَ الْمُهِّمِ أَنْ يَدْرَكَ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً

= نَقْطَةً فِي مُعَالَجَتِهِ هُنَا عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ. يَقُولُ السَّيِّدُ رَيْسَل: 'الْمَسْأَلَةُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ مَسْأَلَةٌ دَرَجَتِي' (ص 209). وَلَا يَبْدُو أَنَّ ثَمَّةَ اسْتِنْتَاجَا غَيْرِ هَذَا يُسْهِمُ فِي إِبْجَادِ نَظَرِيَّةِ سَبَبِيَّةِ الْإِحَالَةِ. فَالْخُصُوصِيَّاتُ الْمُطْلَقَةُ وَالْعُمُومِيَّاتُ الْمُطْلَقَةُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُعْتَبَرَةٍ وَمِمَّا لَا يَسْتَحِقُّ النِّقَاشَ.

(32) يُمَكِّنُ الْوُقُوفُ عَلَى بَيَانٍ أَكْثَرَ مَهْجِيَّةً وَتَفْصِيلًا لِهَذِهِ الْخَطَرَةِ الْحَاسِمَةِ فِي نَظَرِيَّةِ التَّأْوِيلِ فِي التَّذْيِيلِ B الذي يُوضِي بِهِ أولئك الذين يَعْلَمُونَ قَدْرَ مَا فِي الْمَوْضُوعِ مِنْ تَعْقِيدٍ.

بِقَدْرِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ اعْتِقَادَاتٍ أُخْرَى كَذَلِكَ، أَوْ بِأَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ. وَعَادَةً مَا يَتَطَلَّبُ الِاعْتِقَادُ الَّذِي يَنْشَأُ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْإِحْسَاسِ عِدَّةً مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ الْمُتَمَازِمَةِ أَوِ الْمُتَعَاوِيَةِ لِتَكُونَ عَلَامَاتِهِ. إِنَّ الِاعْتِقَادَيْنِ 'سَيَكُونُ ثَمَّةُ انْقَادٍ' وَ'أَنَا فِي مَصْنَعِ بَارُودٍ' سَيَكُونَانِ لِمُعْظَمِ الْمُعْتَقِدِينَ عَلَامَتَيْنِ يُؤَوَّلُهُمَا مَعَا الِاعْتِقَادُ 'الْمَوْتُ وَشَيْئٌ'. وَبِذَلِكَ يَكُونُ أَحَدُ السِّيَاقَيْنِ السَّايَكُولُوجِيَّيْنِ مُحَدَّدًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخَصِيصَةٍ هَذَا الِاعْتِقَادِ الْآخِرِ⁽³³⁾. وَتَعْتَمِدُ صِدْقُ الِاعْتِقَادِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدِّهِ أَوْ كَذِبُهُ عَلَى وُجُودٍ، أَوْ عَدَمِ وُجُودٍ، كَيَانٍ مَا يُكُونُ هُوَ وَمَرْجِعَا الِاعْتِقَادَيْنِ الْعَلَامِيَّيْنِ، اسْتِنَادًا إِلَى خَصَائِصِهِ وَخَصَائِصِهِمَا وَإِلَى عِلَاقَةِ مُرَكَّبَتِهِ، سِيَاقًا مُحَدَّدًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِخَصَائِصِهِمَا. وَبِتَبْعِيْرِ آخَرَ- يَتَعَمَّدُ عَلَى انْفِجَارِ الْمَكَانِ فِعْلًا.

عَلَى هَذَا النِّحْوِ يُمَكِّنُ أَنْ تُوسَّعَ الْأُطْرُوحَةُ الْمَذْكُورَةُ أَيْضًا لِتَشْمَلَ جَمِيعَ حَالَاتِ التَّوَقُّعَاتِ الْمَخْصُوصَةِ. ثُمَّ إِنَّ كَوْنَ الْعِلَاقَاتِ الْمُوَحَّدَةِ لِلْسِّيَاقَاتِ غَيْرِ مَقْصُورَةٍ عَلَى التَّعَاوِيَاتِ يَجْعَلُ الْأُطْرُوحَةَ تَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ حَالَاتِ الِاسْتِدْلَالِ أَوْ التَّأْوِيلِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أُخْرَى. لِذَلِكَ سَتَكُونُ الْخُطْوَةُ التَّالِيَةُ الِاسْتِفْهَامَ عَنْ نَوْعِ الْأُطْرُوحَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ تَقْدِيمُهَا فِي حَالَةِ الْإِحَالَاتِ الْعَامَّةِ.

إِنَّ اللُّغَةَ التَّجْرِيدِيَّةَ الضَّرُورِيَّةَ لِالِاسْتِعْمَالِ تُسَبِّبُ صُعُوبَاتٍ مُعَيَّنَةً. وَسَيَتَضَمَّنُ فَصْلٌ لَاحِقٌ حُجَجًا تُؤَيِّدُ عَدَّ رُمُوزٍ جَلِيلَةٍ نَحْوِ 'خَصِيصَةٍ'، وَ'عِلَاقَةٍ'، وَ'خَاصِيَّةٍ'، [63] وَ'مُفْهُومٍ'، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، مَقْصُورَةٌ عَلَى أَنْ تَرُمِزَ (عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ) إِلَى الْأَفْرَادِ الَّذِينَ تُطَبَّقُ عَلَيْهِمُ الْخَصِيصَةُ الْمَزْعُومَةُ. وَأَهَمُّ هَذِهِ الْحُجَجِ مَا جَبَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ عَدَمِ التَّصَدِيقِ بِوُجُودِ سُكَّانٍ كُلِّيَّيْنِ لِعَالَمِ الْوُجُودِ. وَسَرَرَى أَنَّ هَذِهِ

(33) يَلْزَمُ هُنَا افْتِرَاضُ إِضَافِيٍّ هُوَ أَنَّ نَتَاجَ اعْتِقَادٍ مَا كَثِيرًا مَا تُشَبِّهُ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالِاعْتِقَادَاتِ الثَّانَوِيَّةِ، نَتَاجَ الْإِحْسَاسِ الْمُتَحَقِّقِ. فَلَنْ يُنْكَرَ إِلَّا الْقَلِيلُ أَنَّ اعْتِقَادَ وُجُودِ رَجُلٍ مُتَخَفٍ بِشَجَرَةٍ يَصُوبُ نَحْوِي سَتَكُونُ لَهُ نَتَاجُ مُشَابَهَةٍ (فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالِاعْتِقَادَاتِ الثَّانَوِيَّةِ نَحْوِ أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ أَكُونَ فِي مَكَانٍ غَيْرِ الَّذِي أَنَا فِيهِ) لِتِلْكَ الَّتِي كَانَتْ رَأْيُهُ هَذَا الرَّجُلِ مُصَوَّبًا سَتُفْضِي إِلَيْهَا. وَنَحْوُ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا اعْتِقَادُ حَدُوثِ A وَحُدُوثِ A نَفْسُهُ عَلَامَتَيْنِ بَدِيلَتَيْنِ لِتَأْوِيلَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي هَذِهِ الْجَوَانِبِ، تَكُونُ رَاسِخَةً رُسُوحَ آيَةٍ سِيَاقَاتٍ أُخْرَى فِي عِلْمِ النَّفْسِ.

الرُموزُ الجليَّةُ آليَّةٌ لا غنى عنها، لذا قد تُحتمَلُ سَدَاجَةُ التَّصديقِ هذه لأغراضٍ مُعيَّنة. غيرَ أنَّ هذه الاعتقادات التي لا أساسَ لها (أو التي أساسُها رمزيٌّ خالصٌ) عَوائِقُ خَطَرَةٌ في أغراضٍ أُخرى. وبذلك يكونُ أحدُ المَوَانِعِ الرَّئيسيةِ لِتوسيعِ الأطروحةِ المُوجَّزةِ هنا لِتَشْمَلَ الإحالاتِ العامَّةَ صُعوباتٍ وَهَميَّةٌ مَنْشُؤها الإيمانُ بِذلك العالمِ الآخرِ.

ويمكِنُ تشكيلُ نحوِ هذه الإحالاتِ بِطرائقٍ مُتنوعةٍ، يُفَضَّلُ منها: - 'كُلُّ S هو P '، و $\Psi(X) : \phi(X)$. وَنَحْتَاجُ إلى أن نَكْتَشِفَ ماذا يَحْدُثُ حينَ يكونُ لدينا اعتقادٌ يُمْكِنُ تَرميزُهُ بِهذه الطَّرائقِ. فإذا أَخَذنا مِثَالاً لِذلك اعتقادَ أنَّ 'كُلَّ أحداثٍ كَشِطٍ عِيدانِ الثَّقَابِ تَعَقُّبُهَا اتِّقاداتٌ'، فَإِنَّ لَدُنَا سَبَباً وَجِهاً لِافتراضِ أنَّ مِثْلَ هذه الاعتقاداتِ إِنَّمَا هِيَ تَطَوُّراتٌ سايكولوجيَّةٌ تالِيَّةٌ لِاعتقاداتٍ على النِّحوِ الذي تناوَلْنَاهُ. وَمِنِ الافتراضاتِ المَقْبُولَةِ أنَّ لِبَعْضِ الحيواناتِ والأطفالِ تَوَقُّعاتٍ مَخْصوصةً، لِكِنَّهُمْ يَفْتَقِرُونَ تَمَاماً إلى الاعتقاداتِ العامَّةِ. ويُقالُ إِنَّ الاعتقاداتِ العامَّةِ إِنَّمَا تَنشَأُ بِتَأَمُّلِ الاعتقاداتِ المَخْصوصةِ. إِذا قَدْ تَوَقَّعَ أن نَجِدَ أنَّ الاعتقاداتِ العامَّةِ تَنشَأُ مِن رَجَمِ الاعتقاداتِ الخاصَّةِ بِطريقَةٍ ما. لَكِن ما مِن شَكٍّ في أنَّ العُمومَ والخُصوصَ المَعْرُوفَيْنِ إلى إحالاتٍ بَسيطةٍ أو بِدائيَّةٍ لا يُمْتَلِانِ ما تَسعى الصِّياغةُ المنطقيَّةُ جَاهِدةً إلى تَقديمِهِ. ولا يَنْبَغِي كذلك افتراضُ مَرَحَلَةٍ أو حَقَبَةٍ لِإحالةٍ مَخْصوصةٍ تَسْبِقُ نَشأتها التَّفكيرَ العامَّ. فالأَصَحُّ أن نَمَّةَ مِثْلَيْنِ حاضِرَيْنِ في جَميعِ العَمَلِيَّاتِ الفِكرِيَّةِ، أَحَدُهُما المِثْلُ إلى المَزِيدِ مِنَ التَّحديدِ والتَّدقيقِ، والآخرُ إلى مَجالٍ وَمَدَى أَرَحَبَيْنِ. واهْتِمائنا هُنا مُنصبٌّ على الشُّروطِ التي يَكُونُ المِثْلُ الثاني بِمُوجِبِها هُوَ المؤَثَّرُ.

فَلنَسْتَهْدِ هذه الفِكرةَ في مُحاولَةٍ تَثْبِيَتِ بَعْضِ [64] الشُّروطِ التي قَدْ يَنشَأُ الاعتقادُ العامُّ بِمُقْتَضَاهَا مِنِ إحالاتٍ مَخْصوصةٍ نَحْوِ ما تناوَلْنَاهُ. وَلِنَفْتَرِضْ بِدَايةً لِذلك:

(1) أنَّ عَدَدًا مِنَ الإحالاتِ الصَّادِقةِ والمُحَقَّقةِ مِن أحداثٍ كَشِطٍ أَعوادٍ الثَّقَابِ قَدْ حَدَثَ في الكائِنِ نَفْسِهِ، و

(2) أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ فِي نَشْوءِ الْإِعْتِقَادِ الْعَامِّ أَيُّ تَأْوِيلٍ أَظْهَرَ كَذِبَهُ انْعِدَامُ الْإِحْسَاسِ فِي الصَّلَةِ بِخَصِيصَةِ الْإِتْقَادِ الْمُتَوَقَّعِ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ ثَانِي الشَّرْطَيْنِ أَهَمُّ مِنْ أَوَّلِهِمَا. وَيَبْدُو أَنَا كَثِيرًا مَا نَعْبُرُ إِلَى الْإِعْتِقَادَاتِ الْعَامَّةِ مِنْ خِبَرَاتٍ مُفْرَدَةٍ وَأَنْ لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةٌ إِلَى التَّعَدُّدِ، وَلَكِنَّا (بِضَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الْمُفَكِّرِينَ الْكِبَارِ جِدًّا) لَا نُؤَسِّسُ الْإِعْتِقَادَاتِ الْعَامَّةَ عَلَى دَلِيلٍ مُتَنَاقِضٍ فِي الْحَالِ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُمَكِّنُنَا اسْتِيفَاءُ الشَّرْطِ الثَّانِي، لَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاجِعَ الْأَوَّلَ. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ التَّوَقُّعَاتِ الْمُحَقَّقَةَ الْمُتَكَرِّرَةَ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ تُحَدِّدُ التَّوَقُّعَ الْعَامَّ، لَكِنَّهَا تُحَدِّدُ دَرَجَتَهُ لَا إِحَالَتَهُ. وَقَدْ يُحْتَاجُ، مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، إِلَى تَجْرِبَةٍ ذَاتِ طَبَاعٍ تَكَرَّرِيٍّ. وَمِنَ الصَّغَبِ أَنْ تَكُونَ الْفِكْرَةُ الْأُولَى لِعَقْلِ بَدَائِيٍّ فِكْرَةً عَامَّةً بِالْمَعْنَى الْمَذْكُورِ هُنَا. وَيَبْدُو أَنَّ مِنَ الْمُسَوِّغِ افْتِرَاضَ وَجُوبِ أَنْ يَشْتَمِلَ سِيَاقُ الْإِعْتِقَادِ الْعَامِّ عَلَى سِلْسِلَةٍ تَأْوِيلَاتٍ مُحَقَّقَةٍ مُتَشَابِهَةٍ، وَإِنْ يَكُنْ مِنَ الْوَاجِبِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَدَمُ الْجَزْمِ بِمَدَى ارْتِبَاطِ هَذِهِ الْحَاجَةِ بِالتَّأْوِيلِ الْمَخْصُوصِ الَّذِي يَخْضَعُ لِلتَّعْمِيمِ.

وَمِمَّا شَرَطَ آخَرَ لَا يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ التَّعْمُودِ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِشُمُولِيَّةِ الْإِحَالَةِ الْعَامَّةِ. وَلَا يَبْدُو أَنَّ التَّضَامَّ الدَّاجِلَ فِي إِحَالَةِ كَهَذَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى أَيَّةِ خَوَاصٍّ فِي 'عَقْلِ' مَا سِوَى تِلْكَ الْخَوَاصِّ الْمُفْتَرَضَةِ وَالْمُثَبَّتَةِ سَلَفًا، لَكِنْ قَدْ تَنَشَأُ بِسَبَبِ الشُّمُولِيَّةِ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ. عَلَى أَنَّهُ لَا يَضَعُبُ اكْتِشَافُ نَوْعِ التَّجْرِبَةِ الْمَطْلُوبَةِ. وَيَقْدَرُ تَعَلُّقُ الْأَمْرِ بِالْمُثِيرَاتِ الْمُحَقَّقَةِ لَا يَهْمُ فِي مُنَاسَبَاتٍ كَثِيرَةٍ: [65] أَفَكَّرْنَا فِي مَجْمُوعَةِ الْأَغْرَاضِ الْمُعْطَاةِ كُلِّهَا أَمْ فَكَّرْنَا فِي كُلِّ مِنْهَا تَبَاعًا. فَالظُّفُلُ الَّذِي يَجِدُ جَمِيعَ أَصَابِعِهِ دَقِيقَةً قَدْ يَجِدُ كُلًّا مِنْهَا دَقِيقًا بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ. وَرُبَّمَا لَنْ نَحْتَاجَ أَصَابِعَهُ الصُّغْرَى فِي مُنَاسَبَاتٍ أُخْرَى إِلَى أَنْ تُغْسَلَ. وَبِذَلِكَ يُؤَلَّدُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَجْمُوعَاتِ الشُّمُولِيَّةِ وَغَيْرِ الشُّمُولِيَّةِ مِنَ الْأَغْرَاضِ الَّتِي تُثَمِّلُ الْمَرَاجِعَ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ 'بَعْضٍ' وَ'كُلِّ' الْإِحَالَاتِ، عَلَامَاتٍ مُنَاسِبَةٍ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ. وَقَدْ يَوْجَدُ مِنَ الْأَفْرَادِ مَنْ 'يَفَكِّرُونَ' طَوَالَ أَعْمَارِهِمْ فِي هَذِهِ الْفُرُوقِ بِوَسَاطَةِ صُورٍ كَهَذِهِ، أَيْ إِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ صُورًا كَهَذِهِ بِوَصْفِهَا عَلَامَاتٍ مُسَاعِدَةٍ فِي تَأْوِيلَاتِهِمْ. وَلَا يَوْجَدُ، فِي حَالَاتٍ أُخْرَى، شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ التَّخَيُّلَاتِ، وَلَا اسْتِعْمَالًا لِكَلِمَتَيْنِ 'كُلٌّ'،

وَبَعْضُ، ولا ما يُعَادِلُ ذَلِكَ الْبَيِّنَةُ. وَلَكِنْ حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ قَدْ يُفْتَرَضُ، عَلَى نَحْوِ مَعْقُولٍ، أَنَّ الْأَثَرَ الْبَاقِي لِفِعْلِ إِنْغْرَامِي⁽³⁴⁾ سَبَبُهُ أَحْوَالٌ مِنْ هَذَا النَّحْوِ مُحَدَّدٌ لِلتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي 'تُستَخْدَمُ هَذِهِ الْأَفْكَارُ'. لِذَلِكَ، إِذَا حَاوَلْنَا تَحْدِيدَ نَوْعِ نِسْبَةِ السَّايكولوجي الَّذِي يَتَأَلَّفُ مِنْهُ السِّيَاقُ الْعَامُّ فَإِنَّ الْأَلْفَاظَ الْمُثَمِّلَةَ لِذَلِكَ تَنْقُضِي الشُّمُولَ.

هَكَذَا نَجِدُ الْأَطْرُوحَةَ الْإِبْتِدَائِيَّةَ جِدًّا تَنْطَوِي عَلَى الْأَطْرُوحَةِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا نَظَرِيَّةُ السَّبَبِيَّةِ لِلْحَالَةِ بِشَأْنِ الْإِعْتِقَادَاتِ الْعَامَّةِ. وَإِنَّ الْبَحْثَ التَّفْصِيلِيَّ فِي سِيَاقَاتِ كَهَذِهِ مُهِمَّةٌ يَجِبُ عَلَى عِلْمِ النَّفْسِ أَنْ يَعْكُفَ عَلَيْهَا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، عَلَى أَنَّ مَنَاهِجَ الْمَطْلُوبَةِ لِذَلِكَ مِنَ النَّوعِ الَّذِي لَمْ يَبْدَأِ الْعِلْمُ بِالتَّمَايُزِ إِلَّا حَدِيثًا. وَنُوقِمْ الْكَثِيرَ فِي هَذَا الْمَجَالِ حِينَ تَنَالُ نَظَرِيَّةُ بَافِلُوفِ Pavlov⁽³⁵⁾ فِي الْإِنْغِرَامِ مَشْرُوطَ الْمَزِيدِ مِنَ التَّطْوِيرِ⁽³⁶⁾.

وَمَا زَالَ عَلَيْنَا أَنْ نُنَاقِشَ: بِأَيِّ وَجْهِ يَكُونُ لِلْإِعْتِقَادِ الْكَاذِبِ، إِنْ وَجِدَ، مَخْصُوصًا كَانَ أَوْ عَامًّا، مَرْجِعٌ مَا؟ يَتَضَحُّ وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّعْرِيفَاتِ أَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي يُقَالُ بِهِ عَنْ الْإِعْتِقَادِ الْكَاذِبِ إِنَّ لَهُ مَرْجِعًا، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ذَلِكَ الَّذِي يُقَالُ بِهِ إِنَّ لِلْإِعْتِقَادِ الصَّادِقِ مَرْجِعًا. لِذَلِكَ لَنْ يَكُونَ لِلْحُجَجِ الَّتِي سَتَقْدِّمُ الْآنَ مِنْ جُلِّ اسْتِعْمَالِ أَكْثَرِ سَعَةٍ لِلْفِظِ تَأْثِيرُ الْبَيِّنَةِ فِي مَا قَدْ قِيلَ، وَسَيَكُونُ اسْتِعْمَالُنَا لِلْفِظِ مَعَ الْإِعْتِقَادَاتِ الْكَاذِبَةِ خَالِصًا لِأَغْرَاضِ التَّيْسِيرِ. [66]

(34) نِسْبَةً إِلَى (الْإِنْغْرَامِ)، وَهُوَ الْأَثَرُ الدَّائِمُ فِي الْفَسْيُولُوجِيَا الْعَصَبِيَّةِ وَعِلْمِ النَّفْسِ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْفَصْلِ. [المُترجم]

(35) إِيْفَانِ بَتْرُوفِشْ بَافِلُوفِ (1849-1936م). فُسْيُولُوجِي رُوسِيٍّ حَصَلَ عَلَى جَائِزَةِ نُوبَلِ فِي الطَّبِّ سَنَةَ 1904 لِأَبْحَاثِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ. مِنْ أَشْهُرِ مَا عُرِفَ بِهِ نَظَرِيَّةُ الْإِسْتِجَابَةِ الشَّرْطِيَّةِ الَّتِي يُفَسِّرُ بِهَا التَّعَلُّمَ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: عَشْرُونَ عَامًّا مِنَ الدِّرَاسَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ لِلنَّشَاطِ الْعَصْبِيِّ الْأَعْلَى عِنْدَ الْحَيَوَانِ، وَمُحَاضَرَاتُ فِي عَمَلِ نِصْفِي الْكُرَةِ الْمُخَيَّةِ. [المُترجم]

(36) لِلْمُقَوِّفِ عَلَى بَيَانِ لِهَذَا الْمَنْهَجِ وَتَطْبِيقَاتِهِ يُنْظَرُ الْفَصْلُ الرَّابِعُ مِنْ كِتَابِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْسِ

ومن الواضح، بادئ ذي بدء، أنَّ الإحالات، الصادقة والكاذبة على حد سواء، تتفق في وجه لا تتفق معها فيه عمليات مثل الإحساس، والتنفُّس، وتقليص العضلات، والإفراز، والرغبة، وما إلى ذلك. ومن المريح أن يكون ثمة لفظ، مثل الإحالة، يُمثل هذا الوجه الذي تتفق فيه. أما لفظ 'اعتقاد' الذي قد يبدو الالتيقُّ بادئ الرأي فإنه أقلُّ ملاءمةً لسببين؛ أما أحدهما فارتباطه بمذاهب من نحو ما بحثنا آنفاً نُسلم بوجود علاقة فريدة هي 'التفكير في'، وأما الآخر فالازدياد المتواصل لاستعماله محيلاً إحالة خاصة على الصفات التأثيرية-الإرادية للعملية. وثمة سبب آخر أقوى ينشأ مما يمكن أن ندعوه تحليل الإحالات. فإذا ما وازنا، مثلاً، بين الإحالتين اللتين يرمز إليهما قولانا: 'سيكون ثمة وميض قريباً'، و'ستكون ثمة ضوضاء قريباً'، فسيكون مقبولاً، في الأقل، افتراض أنهما مرَّكبان يستملان على أجزاء بعضها متشابهة وبعضها مختلف. فاما ما يمكن عدّه مختلفاً منها فالجزآن اللذان ترمز إليهما كلمتا 'وميض' و'ضوضاء'، وأما سائر الأجزاء فتعدُّ متشابهة في الحاليتين. فثَّارُ، حينئذٍ، السؤال الآتي: "ما هذه الأجزاء التي قد يبدو ترْكُبُ الإحالات منها ممكنًا؟".

فالإجابة التي نُقدِّمها هي أنَّ هذه الأجزاء أنفُسها إحالات، وأنَّ كلَّ إحالة مرَّكبة إنما تكونها إحالات بسيطة متَّحدة على نحوٍ يمنع الإحالة المرَّكبة التي تكونها بنيتها المطلوبة. لكن علينا ونحن نحاول تنفيذ هذا التحليل أن نكون على حذرٍ من عقبة خاصة. إذ يجب ألا نفترض أنَّ بنية الرَّمز الذي ترمز به إلى الإحالة المطلوب تحليلها تعكس بنيتها على أيِّ نحوٍ مُنتظم. فحديثنا السابق عن الجزأين اللذين ترمز إليهما كلمتا 'وميض' و'ضوضاء' لا يخلو إذن من مجازفة. فالتحليلات غير المشروعة للرموز تكاد تكون مصدر كلِّ العقبات في هذه الموضوعات. [67]

وثمة نقطة أخرى يجب إيضاحها تتعلق بالوجه الذي على وفقه يمكن ترْكُبُ الإحالات. فالحديث عن إحالة ما يعني الحديث عن السياقات السايكولوجية والخارجية التي تصلُ العلامة بمرجعها. وبذلك يكون نقاش ترْكُبُ الإحالات نقاشاً لعلاقات السياقات بعضها ببعض.

وإذا ما استندنا إلى وجهة النظر المتبناة هنا فسيكون ما اعتدنا أن ندعوه 'الأشكال المنطقية' للقضايا، وما يمكن أن ندعوه أشكال الإحالات، أشكالا أو بنى للسياقات المحددة للتأويلات. ويقاربها في الوقت الحاضر المناطقة، ووسيلتهم الرئيسة في ذلك هي دراسة العملية الرمزية. على أن توافر مقارنة أكثر مباشرة يبدو ممكنا، لكنه حتى الآن صعب. وبذلك لا تكون خارج دائرة الظن، إن تكن لا تزال ظنية، الأقسام الباقية لنظرية السياقات الكاملة للإحالة، أي أوصاف إحالات الأشكال 'p أو q'، و'p و q'، و'ليس p'، والفرق بين 'كل S' و'بعض S'، بوصفها معنية بتحابك السياقات.

فلذا استصحينا هذه الفقرة الشرطية أمكننا استئناف النظر في مراجع الاعتقادات الكاذبة، وفي تحليل الاعتقادات المركبة.

فقد رأينا أن الاعتقادات الصادقة والكاذبة أعضاء في أنواع السياقات السايكولوجية أنفسها، وأنها لا تختلف إلا في السياقات الخارجية⁽³⁷⁾. [68] فلننظر في هذا الاختلاف ثانية، متوسلين بحالة الاعتقادات المخصوصة توخيا للسهولة. ولنفترض أن ثمة اعتقادين ممكنين، أحدهما 'سيكون هنا شيء ما أخضر بعد لحظة'، والآخر 'سيكون هنا شيء ما أحمر بعد لحظة'، وأن الأول صادق

(37) قد يُطلق على المركب من الأشياء المتحدة في سياق ما اسم 'واقعة fact'. ولا يلزم من ذلك ضرر، لكن عادة ما تغلب العادات اللفظية المحفزة على هذا النحو الجس الواقعى حتى عند أفضل الفلاسفة. إذ يؤخذ من رجم الوقائع 'وقائع سالية'؛ فألا يحدث اتقاد يصح واقعة سالية يخفق توفقنا في مناظرتها حين نكون مخطئين. لذلك كان من الطبيعي افتراض أن ثمة متحيين للإحالة؛ إذ تتجه صوب واقعة ما في الإحالة الصادقة، وتبتعد عنها في الإحالة الكاذبة. على هذا النحو يمكن أن نجعل نظريته الإحالة غاية في التعقيد والصعوبة، كما هي عليه، مثلاً، عند السيد رسل في كتابه تحليل العقل *Analysis of Mind*، ص 271-278. وقد استطاع السيد رسل، فيما يتعلق بالوقائع السالية، المحافظة على نظرياته المبكرة من أن تفيدها دراسته الحديثة للمعنى. وستناقش مسألة 'الوقائع السالية' العامة في التذليل E، وسترى، حين تأتي لتميز الوجهة المختلفة للمعنى، أن إثارة مسألة مناظرة الاعتقاد للواقعة تعني أن نحاول النظرية السببية للإحالة حل المشكلة مرتين. فعين نحل مشكلة الإحالة نحل مشكلة الصدق كذلك.

وَالثَّانِي كَاذِبٌ. لَكِنَّ الثَّانِي، إِنْ أَمَكْنَ الِاعْتِدَادُ بِهِ، بِاحْتَوَائِهِ أَوْ تَضَمُّنِهِ الِاعْتِقَادَ 'سَيَكُونُ هُنَا شَيْءٌ مَا بَعْدَ لَحْظَةٍ' سَيَكُونُ قَدْ تَضَمَّنَ اعْتِقَادًا صَادِقًا وَمُشَابِهًا لِعَقِيدَةٍ مُتَضَمِّنٍ فِي الِاعْتِقَادِ الْأَوَّلِ. فَلْنَعُدِ الْآنَ إِلَى تَعْرِيفِنَا لِلْسِّيَاقِ لِتَرَى: عَلَى أَيِّ وَجْهِ يَكُونُ هَذَا الِاعْتِقَادُ مُتَضَمِّنًا، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا؟

فَنِي حَالَةٍ كَهَذِهِ قَدْ يَتَأَلَّفُ السِّيَاقُ الْخَارِجِيُّ مِنْ كِيَانَيْنِ اثْنَيْنِ، نَحْوُ: (عَلَامَةٌ (sign) وَ (شَيْءٌ مَا أَخْضَرُ green)، لَهُمَا الْخَصِيصَتَانِ S وَ G، وَتَتَّصِلَانِ بِعِلَاقَتِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ اللَّتَيْنِ يُمَكِّنُ تَنَاوُلَهُمَا مَعًا. غَيْرَ أَنَّ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ كُلًّا مِنْ S وَ G سَتَكُونُ لَهُ خَصَائِصُ أُخْرَى غَيْرُ S وَ G. فَقَدْ تَلَا S، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، كِيَانَاتٍ أُخْرَى وَقَدْ يُؤَوَّلُ فِي ضَوْءِ هَذِهِ الْخَصِيصَةِ زِيَادَةً عَلَى تَأْوِيلِهِ فِي ضَوْءِ الْخَصِيصَةِ S، وَتَأْوِيلُهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ⁽³⁸⁾ يُؤَلِّدُ الِاعْتِقَادَ 'سَيَكُونُ هُنَا شَيْءٌ مَا بَعْدَ لَحْظَةٍ'، أَمَّا تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ فِي ضَوْءِ الْخَصِيصَةِ S فَيُؤَلِّدُ الِاعْتِقَادَ الْمُعَقَّدَ 'سَيَكُونُ هُنَا شَيْءٌ مَا أَخْضَرُ بَعْدَ لَحْظَةٍ'، أَوْ الِاعْتِقَادَ الْمُعَقَّدَ 'سَيَكُونُ هُنَا شَيْءٌ مَا أَحْمَرُ بَعْدَ لَحْظَةٍ'، أَيِ اعْتِقَادًا صَادِقًا وَكَاذِبًا لِـ S بِهَذَا الِاعْتِبَارِ الْإِضَافِيِّ، مَهْمَا يَكُنِ الْأَمْرُ. وَلَكِنْ فِي كُلِّتَا الْحَالَتَيْنِ سَيَكُونُ الِاعْتِقَادُ الْمُتَضَمِّنُ 'سَيَكُونُ هُنَا شَيْءٌ مَا بَعْدَ لَحْظَةٍ' صَادِقًا إِنْ وُجِدَ شَيْءٌ مَا (نَحْوُ g) يُشْكِلُ مَعَ S، بِمُقْتَضَى خَصِيصَةٍ أَنْ يَكُونَ S تَالِيًا (أَوْ خَصَائِصُ مُؤَقَّتَةٍ أُخْرَى) وَخَصَائِصُ g الْمُؤَقَّتَةِ، سِيَاقًا مُحَدَّدًا لِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ لِـ S. وَبِسَبَبِ عُمُومِ هَذِهِ الْخَصَائِصِ لَا يَتَعَدَّرُ الْبَيِّنَةُ تَكَرَّرُ حَدُوثِ مِثْلِ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ، وَهَذَا مَا يُعَلِّلُ سَهُولَةَ مَا يُمَكِّنُ إِجْرَاؤَهُ مِنَ التَّنَبُّؤَاتِ الصَّادِقَةِ الَّتِي مِنْ هَذَا النَّوعِ غَيْرِ الْمُحَدَّدِ. [69]

وَيَبْدُو حِينَئِذٍ أَنَّ الِاعْتِقَادَ قَدْ يَحْوِي اعْتِقَادَاتٍ أُخْرَى أَقْلَ تَحْدِيدًا، وَأَنَّ الِاعْتِقَادَ الْمُحَدَّدَ الْمُرَكَّبَ يَتَأَلَّفُ مِنْ اعْتِقَادَاتٍ أَبْسَطَ وَأَقْلَ تَحْدِيدًا تَرِبُّطُ بَيْنَهَا عِلَاقَاتٌ تُثْمِرُ الْبَيِّنَةَ الْمَطْلُوبَةَ⁽³⁹⁾.

(38) لَيْسَ ضَرُورِيًّا فِي هَذَا الْإِيجَازِ الْمُخْتَصَرِ لِلنَّظَرِيَّةِ أَنْ يُرَاعَى: أَتَكْفِي هَذِهِ الْخَصِيصَةُ لِإِجْرَاءِ التَّأْوِيلِ؟

(39) سَعَالِجُ الْمَشْكِلَاتِ الْمُهِمَّةِ وَالْمُعَقَّدَةِ الَّتِي تُشِثُّهَا هَذِهِ الْعِلَاقَاتُ عَلَى نَحْوِ مَا عُولِجَتْ بِهِ =

وأخذ الاعتراضات على وجهة النظر هذه منشؤه اللغة. فمن المعتاد قصر لفظ الاعتقاد على العمليات التي ترمز إليها الإخبارات على نحو طبيعي، وعلى العمليات التي حولها والتي لها خصائص تأثيرية-إرادية زيادة على خصائصها بوصفها إدراكات. وناوذاً ما تُسلم الحالات البسيطة المطلوبة في حال تبني التحليل المقترح أنفسها للصبغة الإخبارية وعادة ما تُفتقد في ما يُصاحب من اعتقاد، ومشاعر، وحث على الفعل. لذلك كثيراً ما يكون لفظاً 'فكرة' و'تصور' أكثر ملاءمة لعمليات كهذه. ويتوسّعنا لاستعارة بانث مألوفة، يُمكن أن نعد هذا النوع من الحالات إحالات 'إلكترونية'. غير أن ما نغنى به هنا من أفكار أو تصور ينبغي تمييزه بوضوح من 'مفاهيم' الميتافيزيقيين الذين يؤمنون بعالم من الكليات. وستناول هذه المسألة بإسهاب أكبر في الفصل الخامس.

وإذا نظرنا في ما يتعلق بالخضرة من فكرة أو تصور وجذناه ينشأ عند القارئ في هذه القضية من خلال حدوث كلمة 'أخضر'. وفي مناسبات كثيرة صحت هذه الكلمة إظهارات لأشياء خضرة. على هذا النحو يسبب له حدوث الكلمة عملية معينة يُمكن أن ندعوها فكرة الخضرة. لكن هذه العملية ليست فكرة أي شيء أخضر محدّد، وستكون هذه الفكرة أكثر تعقيداً، وستحتاج إلى علامة (أو إلى رمز في حالتنا هذه) لها المزيد من الخصائص ليؤوّلها- ولن تكون له فكرة محدّدة إلا بهذه الطريقة. [70] والسياق السايكولوجي الذي تنتمي إليه هذه الفكرة غير مهمّ لربط أي شيء أخضر محدّد بالعلامة دون غيره مما سواه. ولو استبدلنا بما سبق عبارة 'شيء أخضر' لحدّثت العملية نفسها- ما لم يكن القارئ منطقياً أو فيلسوفاً يحمل نظريات خاصّة (أي سياقات لغوية متميّزة). في كلتا الحالتين يُمكن القول عن الفكرة إنها 'تتعلّق' بإحساس شبيه بإحساسات معينة صحت في الماضي حدوث الإحساس الذي اتّخذ علامة. وفي حال موازنة هذا

= مشكلة عموم الحالات، التي هي في الحقيقة نموذج فحسب. إن السؤال الخطير ما الشكّل المنطقي؟ الذي لا يعالجُه الآن إلا المناطق الذين لا منهج لهم إلا الشعيرة الخرافية 'الفحص المباشر'، يجب أن يُخصّص للبحث في الوقت المناسب.

بِالاعتقاد غير المحدّد الذي يُرمزُ إليه بِ'ثَمَّةِ أَشْيَاءٍ خُضِرَ' سَنَجِدُ فِي هَذَا الْآخِرِ أَنَّ كُلَّ إِحْسَاسٍ مِنْ مَجْمُوعَةِ الْإِحْسَاسَاتِ نَفْسِهَا الَّتِي قِيلَ عَنِ الْفِكْرَةِ إِنَّهَا 'تَتَعَلَّقُ' بِهِ يَكُونُ مُحَقَّقًا لِلْإِعْتِقَادِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا مَا كَانَ ثَمَّةَ كِيَانٍ أَوْ أَكْثَرُ مِمَّا يُشْبِهُ كِيَانَاتٍ مُعَيَّنَةً هِيَ أَعْضَاءُ فِي سِيَاقِهِ السَّايكُولُوجِيّ، حُكِمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ، وَإِنْ كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ حُكِمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ كَاذِبٌ. فَلِذَلِكَ، يُمَكِّنُنَا أَنْ نُوَسِّعَ لَفْظَ 'الْمَرْجِعِ' لِيَشْمَلَ هَذِهِ الْكِيَانَاتِ، إِنْ وَجَدَ شَيْءٌ مِنْهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْاسْتِعْمَالُ إِلَى تَخْلِيطٍ.

وَسَيُلْحَظُ أَنَّ الْإِعْتِقَادَاتِ غَيْرَ الْمُحَدَّدَةِ الْمُفْرَطَةِ الْبَسَاطَةِ (الْمُمَثَّلَةَ بِ'ثَمَّةِ أَشْيَاءٍ خُضِرَ' بِإِزَاءِ 'ثَمَّةِ أَشْيَاءٍ خُضِرَ الْآنَ') لَا يَحْتَاجُ إِثْبَاتَ صِدْقِهَا إِلَّا إِلَى شَرْطٍ حَاضِرٍ وَسَطٍ سِيَاقَاتِهَا السَّايكُولُوجِيَّةِ. هَذِهِ الْحَالَةُ الْمُؤَقَّتَةُ لِلْأَشْيَاءِ لَهَا مَا يُوَازِيهَا فِي حَقِيقَةِ أَنَّ الْأَفْكَارَ الْمُفْرَطَةَ الْبَسَاطَةِ لَا تُؤَدِّي إِلَى مُوَاجَهَةِ مُشْكَلَةٍ: أَهِيَ أَفْكَارٌ 'تَتَعَلَّقُ' بِأَيِّ شَيْءٍ أَمْ هِيَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ؟ أَمَّا الْأَفْكَارُ الْمُعَقَّدَةُ كَالْجِبَالِ الرَّجَاجِيَّةِ، وَالْعَقَاوَاتِ، وَالْمُرَبَّعَاتِ الدَّائِرِيَّةِ، وَالْمُثَلَّثَاتِ الْمُسْتَقِيمَةِ فَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مُحْفُوفَةً بِمُشْكِلاتٍ كَهَذِهِ. عَلَى أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفِكْرَةِ وَالْإِعْتِقَادِ فَرْقٌ مُحَدَّدٌ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يَبْدُو أحيانًا صَعْبَ التَّذْلِيلِ فِي الْمَوَاضِعَاتِ الرُّمُزِيَّةِ.

وَيُمْكِنُنَا الْآنَ تَحْدِيدُ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ 'الْمَرْجِعِ' فِي الْإِعْتِقَادَاتِ الْكَاذِبَةِ. فَالْإِعْتِقَادَاتُ كُلُّهَا، صَادِقُهَا وَكَاذِبُهَا، يُمَكِّنُ تَحْلِيلَهَا نَظْرِيًّا إِلَى مُرَكَّبَاتٍ مُكَوَّنَاتِهَا إِحَالَاتٌ بَسِيطَةٌ، مُحَدَّدَةٌ أَوْ غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ، مُتَّجِدَةٌ بِعَلَاقَاتٍ تَهْبُ لِلْإِحَالَةِ 'شَكْلُهَا الْمَنْطِقِيّ'.

وَلَيْسَتْ الْإِحَالَاتُ الْبَسِيطَةُ الْمُحَدَّدَةُ شَائِعَةً كَثِيرًا. [71] وَيَبْدُو أَنَّا نَحُورُهَا حِينَ نَقُولُ: 'هَذَا!'، 'هُنَاكَ!'، 'وَالْآنَ!'. وَلَكِنْ عَادَةً مَا يُمَكِّنُ التَّحْلِيلُ حَتَّى فِي حَالِ كَوْنِ إِحَالَتِنَا لَهَا مَرْجِعٌ وَاحِدٌ فَقَط. بَلْ إِنَّ الْإِحَالَاتِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُ لَهَا رُمُوزًا بَسِيطَةً (أَسْمَاءً)، دُستويفسكي Dostoevski⁽⁴⁰⁾ مَثَلًا، قَدْ تَكُونُ عَلَى الدَّوَامِ مُرَكَّبَةً؛

(40) فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي (1821-1881م). رِوَايَتِي، وَكَاتِبُ قِصَّةٍ قَصِيرَةٍ =

إذ تُضَمَّنُ السِّيَاقَاتُ الْمُتَمَايِزَةُ مَا هُوَ مُحَدَّدٌ إِفْرَادِيًّا مِنْ الْخَصَائِصِ الْمُمَيِّزَةِ لِلْمَرْجِعِ⁽⁴¹⁾. وما هُوَ أَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً فَهْمُ التَّشْتِيبِ الْمُمَيِّزِ الَّذِي يَحْدُثُ فِي الْإِحَالَةِ الْكَاذِبَةِ. وقد نَفَى الشُّرُوحُ بِإِيضَاحٍ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الْحُجَجِ.

فإذا ما قُلْنَا: 'هَذَا كِتَابٌ'، وَكُنَّا مُخْطِئِينَ فِي ذَلِكَ، فَسَتَكُونُ إِحَالَتُنَا مُؤَلَّفَةً مِنْ إِحَالَةٍ غَيْرِ مُحَدَّدَةٍ بَسِيطَةٍ عَلَى أَيِّ كِتَابٍ، مُغَايِرٍ لِأَيِّ شَيْءٍ مَوْجُودٍ الْآنَ، مُغَايِرٍ لِأَيِّ شَيْءٍ قَدْ يَوْجَدُ هُنَا، وَهَلُمَّ جَرًّا. هَذِهِ الْمُكَوِّنَاتُ سَتَكُونُ كُلُّهَا صَادِقَةً، لَكِنَّ الْإِحَالَةَ الْكُلِّيَّةَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ الَّتِي تُؤَلَّفُهَا مُجْتَمِعَةٌ (بِشَطْبِ جَمِيعِ الْمَرَاجِعِ، إِنْ جَازَ التَّعْيِيرُ، سِوَى الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ كِتَابًا، وَهُنَا، وَالْآنَ) سَتَكُونُ كَاذِبَةً، إِذَا مَا كُنَّا مُخْطِئِينَ وَكَانَ الْمَوْجُودُ حَقًّا هُوَ صُنْدُوقًا أَوْ شَيْئًا مَا يُخْفِقُ فِي إِتْمَامِ السِّيَاقَاتِ الثَّلَاثَةِ: كِتَابٍ، وَهُنَا، وَالْآنَ. وَفِي مِثَالٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا بِقِلِيلٍ، قَدْ يَقُولُ لِاعِبِ الْغُولَفِ: 'ضَرِبَةُ مُؤَفَّقَةٍ!'، وَقَدْ يَكُونُ وَاضِحًا لِلْمُشَاهِدِ أَنَّ إِحَالَتَهُ تَنْصَرِفُ إِلَى قَلَاعَةِ الْعُشْبِ وَطَيْرَانِهَا، وَإِلَى ضَرَبَتِهِ، وَإِلَى شَرِكِ كُرَةِ الْغُولَفِ، وَإِلَى كُرَةِ. عَلَى أَنَّ الْكُرَةَ تَبْقَى ثَابِتَةً، وَهَذِهِ الْإِحَالَاتُ الْمُكَوِّنَةُ أَوْ الْمُرَكَّبَةُ الَّتِي يَفِي كُلُّ مَعْنَاهَا بِالْمُرَادِ بِنَفْسِهِ مُوَحَّدَةً فِي إِحَالَتِهَا الْمُعَقَّدَةِ عَلَى نَحْوِ مُخَالَفٍ لِمَا عَلَيْهِ حَالُ مَرَاجِعِهَا الْمُتَنَفِّصَةِ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنْ لَا وَجُودَ لِإِحَالَةٍ عَدَمِ حَدُوثِ طَيْرَانٍ لِكُرَةِ الْغُولَفِ بِوَصْفِهِ مَوْضُوعًا لَاعْتِقَادِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ كَانَ يُحِيلُ عَلَى الْإِحْسَاسِ بِضَرَبَتِهِ، أَوْ عَلَى صُورَةِ كُرَةِ عَابِرَةٍ. وَنَبْغِي لَنَا فِي هَاتَيْنِ

= ومَقَالَاتٍ، وَفِيلَسُوفِ رُوسِيٍّ. أَحَدُ أَكْبَرِ الْكُتُبِ الرُّوسِيَّةِ، وَمِنْ أَفْضَلِ كُتُبِ الْعَالَمِ. شَخْصِيَّاتُهُ عَلَى الدَّوَامِ فِي أَفْصَى حَالَاتِ الْيَأْسِ وَعَلَى حَاقَةِ الْهَآوِيَةِ، وَتَنْطَوِي رَوَايَاتُهُ عَلَى فَهْمٍ عَمِيقٍ لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَقْدُمُ تَحْلِيلًا ثَاقِبًا لِلْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ لِرُوسِيَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْإِخْوَةُ كَارَامَازُوفَ، وَالْجَرِيمَةُ وَالْعِقَابُ، وَالْأَبْلَه. [المُتَرْجِم]

(41) هَذِهِ الْجُمْلَةُ قَضَايَا، شَأْنُهَا شَأْنُ جَمِيعِ الْجُمْلِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى كَلِمَاتٍ نَحْوِ كَلِمَةِ 'خَصِيصَةٍ'، وَالْأَوَّلَى أَنْ تُقْرَأَ عَلَى النُّحْوِ الْآتِي ...: 'إِذْ تُضَمَّنُ السِّيَاقَاتُ الْمُتَمَايِزَةُ الْإِفْرَادِيَّةُ غَيْرُ الْمُحَدَّدِ مِنَ التَّحْدِيدِ لِلْمَرْجِعِ'. لَكِنَّ هَذَا التَّشْدِيدَ لِفَضَافِيَّتِهَا قَدْ يُؤَدِّي إِلَى تَعَدُّرِ وَطَيْفَتِهَا التَّوَاصُلِيَّةِ. يُنْظَرُ: ص 185، فَمَا بَعْدَهَا.

الْحَالَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّهُ يَقْصُرُ سِلْسِلَتُهُ التَّأْوِيلِيَّةَ بَدَلًا مِنْ أَنَّهُ يُلَوِّدُ بِالْفِرَارِ وَيُغَامِرُ فِي الذَّهَابِ بَعِيدًا جِدًّا [72] بِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْعَى تَأْوِيلًا قَفْزِيًّا. إِنَّ لَعْنَتَهُ (يُنْظَرُ أَيْضًا الْقَانُونُ الرَّابِعُ ص 195، فَمَا بَعْدَهَا) لَا تُشَدُّنَا إِلَى أَيِّ مِنَ الْبَدِيلَيْنِ. وَهَكَذَا نَرَى فِي إِيْجَازِ كَيْفٍ يُمَكِّنُ أَنْ تُحَلَّلَ الْإِعْتِقَادَاتُ الْكَاذِبَةُ الْمُرَكَّبَةُ.

فَمَرْجِعُ الْإِعْتِقَادِ الْكَاذِبِ الْمُرَكَّبِ هُوَ مَجْمُوعَةُ الْمَرَاجِعِ الْمُبَعَثَةِ لِلْإِعْتِقَادَاتِ الْبَسِيطَةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا. وَسَنَتَحَدَّثُ فِي مَا يَأْتِي عَنْ الْإِعْتِقَادَاتِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ، صَادِقِهَا وَكَاذِبِهَا، وَعَنِ الْأَفْكَارِ الَّتِي، بِوَصْفِهَا إِحَالَاتٍ، تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ لَهَا مَرَاجِعُ عَلَى الْأَوْجُو الْمُحَدَّدَةِ آتِفًا.

وَبِذَلِكَ نَرَى كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تُوسَّعَ النَّظَرِيَّةُ السِّيَاقِيَّةُ لِلْإِحَالَةِ لِتَشْمَلَ جَمِيعَ الْإِعْتِقَادَاتِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ، وَمَا يُفَكَّرُ فِيهِ، وَتَبْقَى تَفْصِيْلَاتُ تَطْبِيقِهَا عَلَى حَالَاتٍ خَاصَّةٍ وَمِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فِي وَسْعِ الْمَنَاطِقَةِ اقْتِرَاحَ عِدَّةٍ أَحْجِيَابٍ⁽⁴²⁾، يُهْمُّ حُلُّهَا تَمَرِينًا صِغِيًّا لِلْسَّايَكُولُوجِيِّينَ. عَلَى أَنَّ عَلَى الْفَرَضِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ التَّفَكِيرَ، أَوْ الْإِحَالََةَ، مُنْخَصِرٌ فِي الْعَلَقَاتِ السَّبَبِيَّةِ أَنْ تُسَوِّقَ نَفْسَهَا أَكْثَرَ فَاكْثَرَ لَدَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ (أَحْيَانًا فِي الْأَقْل) مَوْقِفًا عِلْمِيًّا مِنَ الْعَالَمِ. وَلَمَّا كَانَ 'الْمَعْنَى'، مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ إِحَالَةً، مُعَرَّضًا لِاسْتِثْنَاءِ إِحْوَاضٍ مِنْ تَقْدِيمِ أَطْرُوحَةٍ مُقْنَعَةٍ بِشَأْنِ الْإِحْتِمَالِ، أَصْبَحَ عَلَى وَفْقِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ مُنْفَتِحًا عَلَى الْمَنَاجِجِ التَّجْرِبِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ الْأَطْرُوحَةَ الْمُقْنَعَةَ بِشَأْنِ الْإِحْتِمَالِ، وَإِنْ تَكُنْ مَرْغُوبًا فِيهَا بِشِدَّةٍ، لَا يَبْدُو إِمْكَانُهَا وَشَيْكَائِهَا فِي ظِلِّ الْمَنَاجِجِ الْحَالِيَّةِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِحْدَاثِ تَغْيِيرٍ فِي الْمُعَالَجَةِ. إِنَّ رِسَالَةَ *Treatise* الرَّاحِلِ اللُّوردِ كَيْنَزِ Keynes⁽⁴³⁾، الَّتِي تَبْدَأُ

(42) مِثَالُهُ: إِذَا كَانَ أَحَدُ الْإِعْتِقَادَاتَيْنِ الْعَلَامِيَّيْنِ فِي الْمِثَالِ الْمَذْكُورِ آتِفًا أَوْ كِلَاهُمَا كَاذِبًا، وَمَعَ ذَلِكَ انْفَجَرَتِ الْعُرْفَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا لِأَسْبَابٍ أُخْرَى، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُنَا صَادِقًا؟ وَسَهْلُ حُلِّ هَذِهِ الْمُشْكَلَةِ إِذَا مَا لَحِظْنَا أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَذِبِ الْإِعْتِقَادِ الَّذِي يُرْمَزُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ، قَدْ يَكُونُ الْإِعْتِقَادُ الْمَحْرُصُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُسْتَمْعِ صَادِقًا.

(43) عُنْوَانُ الرِّسَالَةِ كَامِلًا هُوَ (رِسَالَةٌ فِي الْإِحْتِمَالِ)، لِجُونِ مِينَارْدِ كَيْنَزِ (1883-1946م) =

في الحقيقةِ بِعلاقةٍ منطقيَّةٍ غيرِ قابلةٍ لِلتَّحليلِ تُدعى الاحتمالَ تَحْدُثُ بَيْنَ كِياناتٍ مُستَوِيَّةٍ في غُمُوضِها وعدمِ قَبُولِها لِلْمُقارَنةِ تُدعى قَضايَا، تَحْوِلُ طَائِعًا مُغْرِقًا في وَسِيطَتِهِ يَصْعُبُ مَعَهُ الانْتِفَاعُ بِهَا؛ وما زالَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ في إِمكانِ إفادَةِ العُلَماءِ مِن كِتَابِ نظريَّةِ الاحتمالِ *Wahrscheinlichkeitslehre* لِرايشتباخ ⁽⁴⁴⁾،
الَّذِي هُوَ أَكْثَرُ اعْتِمَادًا عَلَى التَّجْرِبِ.

= الَّذِي نَشَرَهَا سَنَةَ 1921 حِينَ كَانَ فِي جامِعَةِ كيمبرج. وقد هاجَمَتْ هذه الرِّسالةُ النظريةَ الكلاسيكيةَ لِلاحتمالِ، واقتَرَحَتْ بَدَلًا مِنْهَا نظريةَ منطقيَّة-علاقِيَّة. ومُلَخِّصُ مَفْهُومِ كِينز لِلاحتمالِ أَنَّهُ عَلاقةٌ منطقيَّةٌ صارمةٌ بَيْنَ البُرْهانِ والفَرْضيَّةِ، ودرجةٌ مِنَ اللزومِ الجُزئيِّ. وقد نَظَرَ كِينز إِلَى الاحتمالاتِ المُتعدِّدةِ عَلَى أَنَّها حالاتٌ خاصَّةٌ لِلاحتمالِ الَّذِي لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قابِلًا لِلقياسِ أَوْ حَتَّى لِلْمُقارَنةِ. واسْتَعْمَلَ مِثالَ اتِّخاِذِ مِظْلَةٍ في حالَةِ المَطَرِ للتعبيرِ عَنِ فِكْرَةِ (الشَّكِّ غَيْرِ القابِلِ لِلتَّقْليلِ)، وَهِيَ نَمَطٌ مِنَ الاحتمالِ لَا يَقتَصِرُ عَلَى كَوْنِهِ غَيْرَ مَعْدُودٍ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ أَصْلِيٍّ كَذَلِكَ- أَيْ غَيْرُ قابِلٍ لِلْمُقارَنةِ. إِذ يَقُولُ في الصَّفحةِ 30 مِنْ رِسالَتِهِ هذِهِ: "أَيَكُونُ تَوْفُّعُنَا لِاحتمالِ نزولِ المَطَرِ، حِينَ نَنْطَلِقُ لِلشَّمْسِ، أَكْبَرُ عَلَى الدَّوامِ مِنْ تَوْفُّعُنَا لِاحتمالِ عَدَمِهِ، أَمْ يَكُونُ أَقَلَّ مِنْهُ، أَمْ يَكُونُ مُساوِيًا لَهُ؟ أَنَا مُستَعِدٌّ لِلْمُجادَلَةِ في أَنَّهُ في بَعْضِ المَناسِبَاتِ لَا يَحْدُثُ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الأَبْداِلِ، وَأَنَّ قَرارَ اتِّخاِذِ المِظْلَةِ أَوْ عَدَمِ اتِّخاِذِها سَيَكُونُ قَرارًا اعْتِباطِيًّا. وَإِنْ كَانَتْ دَرَجَةُ حَرارَةِ المِحرارِ مُرتَفَعَةً، لَكِنَّ الغُيُومَ كَانَتْ سَوْدًا، فَلَيْسَ مِنْ دَواعِي التَّعَقُّلِ دَوْمًا أَنْ يَغْلِبَ أَحَدُ الاحتمالَيْنِ الأَخَرِ في عَقولِنَا، أَوْ حَتَّى أَنْ نُوازِنَ بَيْنَهُما، وَإِنْ كَانَ مِنْ دَواعِي التَّعَقُّلِ أَنْ نَسْمَحَ لِهَوَى النُّفْسِ بِأَنْ يُقَرَّرَ لَنَا، وَالْأَ تَضِيعُ الوَقْتُ في الجَدَلِ". [المُترجم]

(44) هانز رايشنباخ (1891-1953م). عالِمُ المَانيِّ مُتَخَصِّصٌ في فلسفَةِ العُلُومِ، ومُربِّ، وأَحَدُ المُناوِينَ بِالتَّجْرِبِيَّةِ المنطقيَّةِ. تَعوَّدَ شَهرَتُهُ إِلَى إنْشاءِ حَلَقَةٍ بِرلينَ، وتَأليفِ كِتابِ (نِشاةُ الفِلسَفَةِ العِلْمِيَّةِ). وَقَدْ رَفَضَ نظريَّةَ صِدْقِ المَعْنَى الَّتِي تَبَنَّاها المَناطِقَةُ الوَضِيعِيَّةُ، مُفَضِّلًا عَلَيْها نظريَّةَ في اِحتماليَّةِ المَعْنَى تَكُونُ القَضِيَّةُ فيها ذاتِ مَعْنَى إِذا أَمكِنَ تَحَقُّقُها بِدَرَجَةٍ مِنَ الاحتمالِ، وَيَكُونُ لِلْقَضِيَّتَيْنِ المَعْنَى نَفْسَهُ إِذا كَانَتْ لهُما دَرَجَةُ اِحتماليَّةِ التَّحَقُّقِ نَفْسَها. وَمِنْ ثَمَّ قالَ إِنَّ العِباراتِ العِلْمِيَّةَ بِشأنِ العالَمِ لَا تُساوِي في المَعْنَى العِباراتِ الجِسيَّةِ الَّتِي تَصِفُهُ، لَكِنَّها تَرْتَبِطُ بِها بِرِباطٍ اِحتماليٍّ. وَقَدْ بَنى عَلَى ذَلِكَ إِمكانَ اسْتِباطِ وُجُودِ حالاتٍ فيزيقيَّةٍ لِلْعالَمِ مُستَقْلَةً بِدَرَجَةٍ مِنَ الاحتمالِ عَنِ انطِباعاتِنَا عَنِ العالَمِ، لَكِنَّها مَسْؤُولَةٌ في الوَقْتِ نَفْسِها عَنِ هَذِهِ الانطِباعاتِ. وَعرِفَ رايشنباخ بِإِسهاماتِهِ في دِراسةِ الاحتمالِ والاستقراءِ والمكانِ والزَّمانِ والهندسةِ النِّسيَّةِ وميكانيكا الكَمِّ والقوانينِ العِلْمِيَّةِ. وَالاسْمُ =

ويبدو مُمكنًا، استنادًا إلى النظرية السياقية للإحالة، [73] اقتراح توسيع لهذا النوع من الاختزال الغامض ومن ثم الاقتراب أكثر من صياغة القضية المركزية للإحتمال، التي لما تُكتشف بعد. وما يتحدث عنه المناطق بوصفه قضايا إنما هو، استنادًا إلى هذه النظرية، خصائص علاقة لأفعال إحيائية- وهي الخصائص العلاقة التي يستعمل لفظ 'إحالات' للتعبير عنها. وبذلك يكون معنى أن تعتقد، أو أن تستمتع، أو أن تفكر في قضية، على وفق هذه النظرية، ليس سوى أن تحيل، ولا تعد القضية بوصفها كيانًا منفصلًا سوى خيال لغوي تفرسه علينا الخدعة الأوتراكوسيتية⁽⁴⁵⁾⁽⁴⁶⁾. إن عمليتي 'تفكير في' 'القضية' نفسها هما تفكيران لهما الإحالة نفسها، والخاصية العلاقة نفسها، أي كونهما مرتبطتين سياقياً على النحو نفسه بالمرجع نفسه. وسيلحظ أنه يجب، استنادًا إلى هذا العرض للقضايا، أن تعالج العلاقات المنطقية للقضايا بعضها مع بعض بقدر من الاختصار والشكلية أقل بكثير مما عليه الحال حتى الآن.

= الكامل لكتابته الذي أورده أوغدين وريتشاردز في المتن هو (نظرية الاحتمال- بحث في الأسس المنطقية والرياضية لحساب تغاير الاحتمال). [المترجم]

(45) يُنظر: الفصل السادس ص 229.

(46) الأوتراكوسيتية: كلمة مشتقة من العبارة اللاتينية *sub utraque specie* التي تعني (في كلا النوعين). ويمكن رد الكلمة إلى الكلمتين اللاتينيتين (*uter + und*) اللتين تقابلهما في الإنجليزية (*either + and*). وتمثل كلمة (الأوتراكوسيتية) العقائد والممارسات الخاصة بالكالكستيين، وهم مجموعة من الهوسيين الذين هم أتباع رجل الدين التشيكي يان هوس (1369-1415م) الذي حاول إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الفساد والشور بالرجوع إلى الكتاب المقدس وأخلاق السيد المسيح ووصاياه. وقد ذهب الهوسيون إلى أنه ينبغي أن يدار الخبز والبيذ كلاًهما على الشعب في أثناء قربان المقدس، وجاهدوا في القرن الخامس عشر من أجل ذلك. وقد طوّز أوغدين وريتشاردز في هذا الكتاب عبارة (الخدعة الأوتراكوسيتية) لتصف استعمال لفظ يمكن أن يحيل إما على مرجع الفيزيائي وإما على مرجع الذهني، ويبقى هذا الإبهام مفتوحاً لتأويل القارئ أو المستمع. وقد قدّمنا مثلاً لذلك تعبير (الإدراك الحسي)، وسيُمرُّ بنا هذا كله في الفصل السادس من هذا الكتاب. [المترجم]

واستناداً إلى هذا الفهم للقضايا ثمة وجه يمكن به بوضوح أن يقال عن قضية منفردة وحدها لا تربطها علاقة بالقضايا الأخرى إنها مُحتملة. وما زال لإحتمال هنا جانب علاقي، وما كان للقضايا (أي الحالات) أن يقال عنها إنها مُحتملة لولا علاقيتها. وهذا الوجه الأساسي جداً هو الذي على وفقه يُحتمل اتساق السياق الذي يعتمد عليه صدق الإحالة.

وقد لاحظنا أن في وسعنا الحصول على سياقات بأعلى احتمالية ممكنة باتخاذ خصائص تأسيسية وعلاقة موحدة عامة جداً. فكذلك تتضاءل احتمالية السياق حتى لا يعود ممكناً أن ندعوه سياقاً باتخاذ خصائص وعلاقة محدّدة جداً. وبذلك تتوقفت احتمالية سياق ما على درجة عموم خصائصه التأسيسية وعلاقته الموحدة، وعلى عدد أعضائه، والسياقات الأخرى التي تنتمي إليها، وهلمّ جراً... فهي لا تتوقف [74] على سمة واحدة للسياق بل على عدّة سمات. فمن الممكن دوماً، على سبيل المثال، زيادة احتمالية سياق ما بزيادة أعضاء مناسيبه. لكن على الرغم من كون هذه الملحوظة الأخيرة طبيعية تُعاني فضفاضة لغوية تُعزى إليها أساساً صعوبات المشكلة. والاحتمالية بالوجه الأساسي الذي يكون على وفقه سياق ما مُحتملاً هي رمز اختزالي لجميع سماته التي تعتمد عليها درجة اتساقه.

ولا ينبغي لنا عند اعتبار عمليات التأويل الواعية والحيوية أن نغفل عن إدراك أن كل هذه الفعالية، التي من النوع الذي ناقشناه في نظرية الاستقراء، ترتكز على التأويلات 'الغريزية'. وإذا أدركنا كيف يكون التأويل 'الغريزي' الأساسي في كل مكان استطعنا متابعة أبحاثنا من غير أن نزعجنا شكوك الصفاثيين purists⁽⁴⁷⁾ التعليليين، ولا مماظلة الرياضيين في تفعيل معادلاتهم

(47) نسبة إلى الصفاثية، وهي مذهب ثقافي يميل إلى تثبيت مرحلة من مراحل تطوّر اللغة أو الفن بوصفها مثلاً يُطلب السير على منواله. وقد ظهر هذا المذهب في اللغة الفرنسية وآدابها في عشرينيات القرن السابع عشر، واستعمل جان شابلان تسمية (صفاثيين) أول مرة للإشارة إلى مجموعة من علماء اللغة الباحثين في أسس صفاء اللغة الفرنسية. ووضع =

التَّافُضَلِيَّة. ذَلِكَ بِأَنَّ إِعْمَالَ الْمُعَادَلَةِ التَّافُضَلِيَّةِ نَفْسِهَا الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ عَمَلِيَّاتِ التَّأْوِيلِ عَقْلَانِيَّةٌ سَيَوُولُ إِلَى الْإِخْفَاقِ مَا لَمْ يُفْلِحْ تَنْفِيزُ الْكَثِيرِ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ 'الْعَرَبِيَّةِ' الَّتِي لَا يُمَكِّنُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ إِخْضَاعُهَا لِأَيَّةٍ مُعَالَجَةٍ رِیَاضِيَّةٍ.

وَيُسَرُّ الْمَنَاهِجُ التَّجْرِبِيَّةُ أحيانًا بِقَدْرِ كَبِيرٍ اكْتِشَافَ مَا تُجِيلُ عَلَيْهِ عَمَلِيَّةُ التَّفَكُّيرِ. فإِذَا مَا سَأَلْنَا شَخْصًا مَا أَنْ 'يُفَكِّرُ فِي' اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ الْأَرْجَوَانِي، وَعَرَضْنَا عَلَيْهِ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً، فَسَكَتَ شَيْءٌ أَنَّهُ فِي أَغْلَبِ الْمَرَّاتِ يُفَكِّرُ فِي لَوْنٍ آخَرَ. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِعْتِبَارِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ عِبَارَةً 'مُكَيِّفٌ لـ' مُكَافِئًا مُلَانِمًا جِدًّا لِإِعْبَارَةٍ 'يُجِيلُ عَلَى'، وَإِذَا مَا اسْتَضَحَّنَا أَنَّ 'التَّكْيِيفَ لـ' شَيْءٍ مَا إِنْ هُوَ إِلَّا رَمَزٌ اخْتِزَالِيٌّ لِلْإِرْتِبَاطِ بِهِ عَلَى النَّحْوِ الْمَذْكُورِ مِنْ خِلَالِ سِيَاقَاتٍ خَارِجِيَّةٍ وَسَايَكُولُوجِيَّةٍ، فَقَدْ يُمْكِنُنَا اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُؤَدِّيَ بِنَا إِرْتِبَاطَاتُهُ الْقَصْدِيَّةُ وَالْبَايُولُوجِيَّةُ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ.

وَمَا زَالَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ بَيَانًا لِإِسَاءَةِ التَّأْوِيلِ، وَأَنْ نُفَسِّرَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَنْشَأَ الْإِعْتِقَادَاتُ الَّتِي لَا أُسَاسَ لَهَا. أَمَّا [75] أَوَّلُ الْأَمْرَيْنِ فَكَثِيرًا مَا يُقَالُ عَنْ الشَّخْصِ الَّذِي إِسَاءَ تَأْوِيلَ عِلَامَةٍ مَا إِنَّهُ قَدَّمَ إِعْتِبَارَاتٍ أَوْ أَفْكَارًا غَيْرَ ذَوَاتِ صِلَةٍ بِالْمَوْضُوعِ، أَوْ إِنَّهُ أَسْقَطَ مِنْهَا مَا لَهُ صِلَةٌ بِهِ. وَلِمَفْهُومِ الصِّلَةِ أَهْمِيَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْنَى. إِذْ يَكُونُ الْإِعْتِبَارُ (الْمَفْهُومُ)، أَوْ الْفِكْرَةُ، أَوْ التَّجْرِبَةُ ذَا صِلَةٍ بِتَأْوِيلِ مَا حِينَ يُشَكَّلُ جُزْءًا مِنَ السِّيَاقِ السَّيَاكُولُوجِيِّ الَّذِي يَرِبُطُ سِيَاقَاتٍ أُخْرَى مَعًا عَلَى النَّحْوِ الْمُمَيِّزِ الَّذِي يَرِبُطُهَا بِهِ التَّأْوِيلُ⁽⁴⁸⁾. فَالْإِعْتِبَارُ غَيْرُ ذِي الصِّلَةِ غَضُوٌّ غَيْرُ رَابِطٍ

= كلود فافر دو فوغلاس الأُسُسُ النَّظَرِيَّةُ لِمَذْهَبِ الصَّفَائِيَّةِ فِي كِتَابِ (مُلْحُوظَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ)، وَأَصْبَحَ الْكِتَابُ دَلِيلًا لِلْأَخْلَاقِيَّاتِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي عَلَى أَفْرَادِ الطَّبَقَةِ الْأَرِسْطَقْرَاطِيَّةِ التَّزَامُهَا فِي تَعَامُلَاتِهِمْ. وَفِي سَنَةِ 1635 حَقَّقَتْ الصَّفَائِيَّةُ أَهَمَّ انْتِصَارٍ لَهَا بِتَأْسِيسِ الْأَكَادِمِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي كَلَّفَتْ بِمَهْمَةِ اسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدِ سَلِيمَةِ لِلُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِتُصَبِّحَ لُغَةً صَافِيَةً وَأَنْبَقَةً وَقَادِرَةً عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مُجْمَلِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ. وَكَانَ أَنْصَارُ التَّرْعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَشَدَّ أَعْدَاءِ الصَّفَائِيَّةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(48) لَا تُخْتَلِفُ الرُّوَاطِ السَّيَاكُولُوجِيَّةُ الْأُخْرَى لِلْسِّيَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ اخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا عَنْ التَّأْوِيلِ، لَكِنَّا لَا نَعْنِي هُنَا بِغَيْرِ الْجَانِبِ الْإِدْرَاكِيِّ لِلْعَمَلِيَّةِ النَّعْنِيَّةِ. وَسَيَكُونُ هَذَا الْوَجْهُ =

في السياقي السايكولوجي. وقد يُظنُّ أنَّ حَقِيقَةَ حُصُولِ اعتِقاداتٍ 'لا أساسَ لها' مما يَقِفُ في طريقِ وَجْهَةِ نظَرِ التَّفَكِيرِ المُتَبَنِّاةِ هُنا. على أنَّ تَفْسِيرَ هذا يُمَكِّنُ الوُقُوفَ عليه في حَقِيقَةِ أنَّ العَمَلِياتِ الذَّهْنِيَّةَ لا تُحَدِّدُ تحديداً سايكولوجياً خالِصاً، وإنَّما، على سبيلِ المِثَالِ، بِوَساطَةِ ضَغْطِ الدَّمِ أيضاً. وَلَوْ لَمْ يَعتَمِدِ تأويلُنا إلاَّ على السِّياقاتِ السايكولوجيَّةِ الخالِصَةِ لَكَانَ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ تَكُونَ اعتِقاداتُنا مُسَوَّغَةً على الدَّوامِ، صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كاذِبَةً. وَتَحَدُّثُ إِساءَةِ التَّأويلِ التَّمَوِّذِجِيَّةِ عِنْدَ التَّوَمِّ والإِعياءِ. فَمَرَدُّ إِساءَةِ التَّأويلِ، إِذَنْ، إلى التَّضارُبِ مَعَ السِّياقاتِ السايكولوجيَّةِ، أي إلى 'الأخطاءِ' ولا تَسْتَقِلُّ السِّياقاتُ السايكولوجيَّةُ، مِنْ جِهَةِ أُخْرَى، بِتَقْرِيرِ صِدْقِ تأويلِ ما أَوْ كَذِبِهِ- ما لَمْ يَكُنْ بَحْثُنا في عِلْمِ النَّفْسِ. وقد يَكُونُ لَنَا كُلُّ الحَقِّ في تَوَقُّعِ اتِّقَادِ ما حِينَ نُشْعِلُ عُوْدَ الثَّقَابِ، لَكِنَّ ذلكَ، لِلأسَفِ، لَنْ يَجْعَلَ حَدُوثَ الاتِّقَادِ أَكِيداً. إِذْ يُعَوَّلُ في ذلكَ على السِّياقِ الفيزيائيِّ، لا على السِّياقِ السايكولوجيِّ. [76]

= نَفْسُهُ لِمَا لَهُ صِلَةٌ مُلائِمَةٌ في مُناقَشَةِ النُّزوعِ؛ إِذْ إِنَّ لِلْمَنْهَجِ السِّياقِيَّ في التَّحْلِيلِ القُدْرَةَ على تَسْلِيطِ الكَثِيرِ مِنَ الضُّوءِ على مُشْكِلاتِ الرُّغْبَةِ والدَّافِعِ.

الفصل الرابع العلامات في الإدراك الحسي

الطبيعة مَعْبَدٌ تَنْطَلِقُ فِيهِ أحيانًا كَلِمَاتٌ مُخْتَلِطَةٌ، مِنْ أَعْمَدَةٍ حَيَّةٍ، يَمُرُّ مِنْ
خِلَالِهَا الْإِنْسَانُ عَبْرَ غَابَاتٍ مِنَ الرُّمُوزِ، تَرْمُقُهُ بِنَظَرَاتٍ مَأْلُوفَةٍ - بودلير
. Baudelaire

على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنَا، بِتَنَامِي مَعَارِفِنَا، قَدْ أَصْبَحْنَا أَقَلَّ تَبَقُّنًا مِنْ أَسْلَافِنَا بِشَأْنِ
مَاهِيَةِ الْكَرَاسِيِّ وَالْمَنَاصِيدِ، لَمَّا يُفْلِحِ الْفِيْزِيَاثِيُونَ وَالْفَلَّاسِيفَةُ بَعْدُ فِي جَعْلِ الْمَسْأَلَةِ
خَارِجَةً عَنْ نِطَاقِ الشُّكِّ. فَلَا أَحَدٌ يُجَادِلُ فِي أَنَّ الْكَرَاسِيَّ وَالْمَنَاصِيدَ أَشْيَاءَ حَسَنَةً
تَمَامًا - فَهِيَ مَوْجُودَةٌ هُنَا وَيُمْكِنُ لَمْسُهَا - لَكِنَّ كُلَّ مَنْ هُوَ مُؤَهَّلٌ لِتَكْوِينِ رَأْيٍ لَا
يُجَادِلُ كَذَلِكَ فِي أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ مَا نَرَاهُ فَهُوَ لَيْسَ إِنْيَاها يَقِينًا. فَمَا الَّذِي يُمَكِّنُ فِعْلَهُ
إِذَا ذَلِكَ؟

سَيُضِخُ فَوْرًا سَبَبُ اتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَالْآخَرِينَ عَلَى أَنَّ مَا نَرَاهُ لَيْسَ كَرَاسِيَّ
وَلَا مَنَاصِيدَ إِذَا مَا رَاعَيْنَا مَا نَرَاهُ حِينَ نَنْظُرُ إِلَى نَحْوِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. عَلَى أَنَّ
الِإِسْهَامَاتِ الْمُقَدَّمَةَ بِشَأْنِ مَا نَرَاهُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، لَمْ تَسِرْ بِالْأَمْرِ إِلَى مَدَى
أَبْعَدَ؛ بِسَبَبِ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُكُونُهَا فِي سَنَوَاتِ عَدَمِ النُّضْجِ بِالْخَطَا فِي تَسْمِيَةِ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَسْتَهْوِينَا. وَفِي الْآتِي، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، مَنَهِجُ إِجْرَائِيٍّ شَائِعٍ يُوضِحُ
طَرِيقَةَ نُشُوءِ هَذِهِ الْعَادَاتِ :-

‘أَذْكُرُ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنِّي احْتَجَجْتُ إِلَى كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْمِنْصَدَةِ. كَانَ مِنْ حَوْلِي
خَمْسَةُ أَوْلَادٍ أَوْ سِتَّةٌ، فَفَرَعْتُ الْمِنْصَدَةَ بِسَبَابَتِي مُتَسَائِلًا: ‘مَا هَذِهِ؟‘ فَقَالَ

أَحَدُهُمْ إِنَّهَا *dodela*، وَقَالَ آخَرُ إِنَّهَا *etanda*، وَبَيَّنَ ثَالِثٌ أَنَّهَا *bokali*،
وَرَابِعٌ أَنَّهَا *elamba*، وَ[77] قَالَ خَامِسٌ إِنَّهَا *meza*. فَكُنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ
الْمُخْتَلِفَةُ فِي دَفْتَرِ الْمُلْحُوظَاتِ، وَغَبَطْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى عَمَلِنَا وَسَطَ أَنْاسٍ بَلَّغُوا
مِنْ غِنَى اللُّغَةِ مَبْلَغَ حَيَاةٍ خَمْسِ كَلِمَاتٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ⁽¹⁾.

إِنَّ مَا افْتَرَضَهُ السَّيِّدُ الْمُحْتَرَّمُ⁽²⁾ هُوَ أَنَّهُ إِذَا مَا سَأَلَ سُؤلاً مُحَدَّداً أَجِيبَ
إِجَابَةً مُحَدَّدةً. وَرُبَّمَا كَانَ الْقَلِيلُ مِنَ التَّأَمُّلِ فِي حَقِيقَةِ مَا رَأَى أَوْ طَرَفَهُ سَيَكْفِيهِ
مَوْوَنَةٌ أَنْ يَكْتَشِفَ فِي مَرَحَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ أَنَّ أَحَدَ الْأَوْلَادِ فَكَّرَ فِي أَنَّ بِنَا حَاجَةً إِلَى
كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَآخَرَ ظَنَّنَا نَبَحْتُ عَنْ كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْمَادَّةِ الَّتِي صُنِعَتْ
مِنْهَا الْمِنْضَدَّةُ، وَآخَرَ فَكَّرَ فِي احتِاجِنَا إِلَى كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الصَّلَابَةِ، وَآخَرَ ذَهَبَ
إِلَى أَنَّنَا نَنْشُدُ اسْمًا لِذَلِكَ الَّذِي يُعْطِي الْمِنْضَدَّةَ، وَآخِرَهُمْ، الَّذِي رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ فِي
وُسْعِهِ التَّفَكُّيرُ فِي شَيْءٍ آخَرَ، قَدَّمَ لَنَا كَلِمَةً *meza*، مِنْضَدَّةٌ - وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْفِعْلِيَّةُ
الَّتِي كُنَّا نَبْحَثُ عَنْهَا.

وَيَنْتَظِرُ الْخُبْرَاءُ اكْتِشَافَ مُشَابَهَةٍ، وَرُبَّمَا لَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ الْمُلَامِثِ الْإِشَارَةُ إِلَى
السَّمَاتِ الرَّئِيسَةِ لِهَذَا التَّقَدُّمِ الْمَعْرِفِيِّ الْوَشِيكِ. وَمِمَّا يُثِيرُ الْاسْتِغْرَابَ بِادِي الرَّأْيِ
أَنْ يَنْتَظِرَ الْبَاحِثُونَ الْمُعَاصِرُونَ هَذَا الْوَقْتَ الْمَدِيدَ لِيَتَبَوَّأَ تَحْلِيلَ الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ
الَّذِي ابْتَدَأَهُ أَيْنِسِيدِيمُوسُ Aenesidemus وَأُوْكَامُ Occam⁽³⁾. لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ فَلَقَهُمْ
بِشَأْنِ الْأُمُورِ الَّتِي افْتَرَضُوا وَقُوعَهَا فِي نِطَاقِ تَخْصُّصِ 'الْمِيتَافِيزِيْقِيِّينَ' كَانَ كَافِيًا
لِلْجَمِّ فُضُولَهُمْ بِشَأْنِ مَبَادِي التَّأْوِيلِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِبِ عَمَلِهِمْ.

Among Congo Cannibals, by J. H. Weeks, p. 51.

(1)

(2) الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُوَ جُونُ هِنْرِي وَيَكْسُ (1861-1924م)، وَهُوَ مُبَشِّرٌ، وَأَنْثُرُوبُولُوجِيٌّ،
وَمُسْتَكْشِفٌ بَرِيطَانِيٌّ. مَكَثَ فِي الْكُونْغُو بَيْنَ سَنَتَيْ 1882م وَ1912م. عُتَابَ مُؤَلِّفُ الرِّئِيسِ
هُوَ (وَسَطَ أَكْلِي لُحُومِ الْبَشَرِ الْكُونْغُولِيِّينَ: التَّجَارِبُ، وَالْإِنْطِبَاعَاتُ، وَالْمُغَامَرَاتُ مَدَّةَ
ثَلَاثِينَ عَامًا وَسَطَ قِبَائِلِ الْكُونْغُو)، وَقَدْ أَلْفَهُ وَسَطَ أَكْلِي لُحُومِ الْبَشَرِ الْكُونْغُولِيِّينَ، وَهُوَ
يُرَوِّي قِصَصَ مُغَامَرَاتِهِ وَتَجَارِبِهِ وَإِنْطِبَاعَاتِهِ وَسَطَ قَبِيلَةِ الْبُولُوكِيِّينَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقِبَائِلِ،
وَيَصِفُ خَصَائِصَهَا الْمُمَيَّزَةَ، وَعَادَاتِهَا، وَدِينَهَا، وَقَوَائِمَهَا. [الْمُتَرْجِمُ]

(3) هُوَ وَلِيمُ الْأُوْكَامِي، وَقَدْ سَبَقَتْ تَرْجُمَتُهُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي. [الْمُتَرْجِمُ]

وفي الإمكان، زيادةً على ذلك، تحقيق قدرٍ عظيمٍ من الإنجاز من غير معرفة أنه لا يمكن التعامل مع الإدراك الحسي علمياً إلا حين تُحلل خصائصه بوصفها حالاً علامية، ما أمكن اجتناب التناقض مع المُتخصِّصين في الحقول الأخرى.

من أجل ذلك كان ما انفرد هيلمهولتز Helmholtz⁽⁴⁾ بقوله مما تتعاضم أهميته؛ إذ لم يكن واحداً من أعمق المُفكرين العلميين في الأزمنة الحديثة فحسب، [78] بل تكشف مراسلاته عما كان لديه من اهتمام حيوي طوال حياته بالخلافات الفلسفية. بل إننا لنراه يُشير في عام 1856 إلى مشكلة الطريقة التي تُنفذ بها من الإحساسات البسيطة إلى أحكام الإدراك الحسي، وهذا ما لم يُعهذ أن يوليئه أحد من الفلاسفة المعاصرين اهتماماً جاداً. وكان شديد التأثير بكانت

(4) هيرمان فون هيلمهولتز (1821-1894م). طبيب، وعالم فيزياء ورياضيات، وفيلسوف ألماني. درس فلسفة عمل العين والأذن، وله إنجازات مهمة في مجالي الطب والفيزياء، ولا سيما الكهرباء المغناطيسية. تُنسب إليه طاقة هيلمهولتز الحرة. حاول أن يُخضع إلى البحث المُختبري القدرة على تحليل الافتراضات الفلسفية، وكان هذا مُرتكزاً للكثير من جوانب العلم في القرن التاسع عشر، وقد فعل ذلك بوضوح ودقة. ويمكن رد الفكرة العامة التي تسري في معظم أعمال هيلمهولتز، إن لم نقل فيها جميعاً، إلى رفضه فلسفة الطبيعة المُستمدّة من الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت الذي ذهب إلى أن مفاهيم الزمان والمكان والعلّة ليست نتائج للتجربة الحسية، بل هي صفات ذهنية يمكن بواسطتها إدراك العالم. فعلى الرغم من تأثير هيلمهولتز الكبير بكانت حتى إنه نُسب إليه، عارض هذه النظرة بتأكيدِه أن المعرفة كلها إنما يتوصل إليها بالحواس. وزيادة على ذلك يمكن، بل يجب، اختزال العلم كله إلى قوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي رأى أنها تشمل المادة، والقوّة، والطاقة، بوصفها الواقع كله. ورأى أن معرفة الواقع تقوم في الشعور نتيجة لتغيرات في أعضاء الجسم تستحدثها مسببات خارجية، وأن هذه التغيرات تنقل إلى الأعصاب فالمُخ تُصبح إحساسات شعورية أولاً، ثم يترجمها المُخ ويربط بينها بعمليات يُسميها هيلمهولتز استدلالات لاشعورية تُشبه ما يحدث للطفل عند تعلّمه لغته الأم. ودعّب إلى أن الأحاسيس تُماثل مُماثلة تامّة خواص الشيء المُسبب لها بفعل مبدأ الطاقات العصبية المُتخصصة، بحيث يمكن القول إن الأحاسيس تُسببها الموضوعات الخارجية، وإنها علامات ذاتية لهذه الموضوعات وخواصها، لكنها ليست صوراً لها. من مؤلفاته: حقائق الإدراك، ودليل البصريات الفسيولوجية، وفي حفظ الطاقة. [المترجم]

Kant⁽⁵⁾ الذي، على الرَّغْمِ مِنْ تَقْيِينِيَّتِهِ الْمُرْبِكَةِ، يُوشِكُ دَوِّمَا أَنْ يُقَارِبَ قَضَايَا التَّأْوِيلِ الْمُرْكُزِيَّةَ، وَالَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ أَكْثَرُ الْبَاحِثِينَ اقْتِنَاعًا بِالْمَذْهَبِ الْإِسْمِي Nominalist فِي الْأَزْمَةِ الْحَدِيثَةِ⁽⁶⁾. غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ كَانَتِيَّ مَخْصُوصٌ فِي نَظَرِيَّةِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ كِتَابَاتِ هِيلْمهولتز⁽⁷⁾. وَقَدْ أَكَّدَ أَنَّ مَعَارِفَنَا تَتَّخِذُ شَكْلَ الْعَلَامَاتِ، وَنَحْنُ نُؤَوِّلُ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ بِوَصْفِهَا دَالَّةً عَلَى الْعَلَاقَةِ الْمَجْهُولَةِ لِلْأَشْيَاءِ فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ. إِنَّ الْإِحْسَاسَاتِ الْكَامِنَةَ فِي أَصْلِ جَمِيعِ الْإِدْرَاكَاتِ الْحِسِّيَّةِ هِيَ عِلَامَاتٌ ذَاتِيَّةٌ لِمَوْضُوعَاتٍ خَارِجِيَّةٍ⁽⁸⁾. وَلَيْسَتْ صِفَاتُ الْإِحْسَاسَاتِ هِيَ صِفَاتُ الْمَوْضُوعَاتِ. فَالْعَلَامَاتُ لَيْسَتْ صُورًا لِلْوَاقِعِ.

"وَلَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ تُشَبِّهَ الْعَلَامَةُ عَلَى أَيِّ نَحْوٍ مَا تَذُلُّ عَلَيْهِ. وَالْعَلَاقَةُ إِنَّمَا تَكْمُنُ فِي حَقِيقَةٍ أَنَّ الْمَوْضُوعَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَعْمَلُ فِي ظُرُوفٍ مُتَشَابِهَةٍ يُنْشِئُ الْعَلَامَةَ نَفْسَهَا، وَلِذَلِكَ يَحْدُثُ عَلَى الدَّوَامِ مُنَاطَرَةُ الْعَلَامَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْإِحْسَاسَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ"⁽⁹⁾.

وَكَانَتْ لِهِيلْمهولتز فُرْصَةٌ، فِي أَثْنَاءِ مُنَاقَشَتِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُؤَوِّلُ بِهَا الْإِحْسَاسَاتِ مِنْ زَاوِيَةِ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ تَعَدُّدَ الْعَلَامَاتِ الْبَصَرِيَّةِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا هُوَ عَلَى نَحْوٍ لَا يَنْبَغِي لَنَا مَعَهُ أَنْ نَعْجَبَ مِنْ التَّنَوُّعِ وَالتَّعْقِيدِ فِي الْأَخْبَارِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لَنَا. إِنَّ الْعَلَامَاتِ الْمَبْدِئِيَّةَ لِلُّغَةِ هِيَ 26 حَرْفًا فَقَط. فَإِذَا مَا

(5) إيمانويل كانت (1724-1804م). فِيلْسُوفُ أَلْمَانِيٍّ مِنْ بَرُوسِيَا. كَانَ آخِرَ فِيلْسُوفٍ مُؤَثِّرٍ فِي أَوْرَبِيَا الْحَدِيثَةِ فِي التَّسْلُسِ الْكَلَّاسِيكِيِّ لِنَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ فِي عَصْرِ التَّنْوِيرِ الَّذِي بَدَأَ بِجُون لُوكَ، وَجُورْجِ بَارْكْلِي، وَدِيْفِيدِ هِيوم. أَشْهُرُ آثَارِهِ: (نَقْدُ الْعَقْلِ الْعَمَلِيِّ) الَّذِي كَانَ جُلُّ أَهْتِمَامِهِ فِيهِ مَوْضُوعُ الْأَخْلَاقِ، وَ(نَقْدُ الْحُكْمِ) الَّذِي اسْتَقْصَى فِيهِ الْجَمَالَ وَالْغَائِيَّةَ. [المُتَرْجِم]

H. Wolff, *Neue Kritik der reinen Vernunft*, p. 17. (6)

Collated by Kühnmann, *op. cit.*, p.66. (7)

Vortge und Reden, I., 393. (8)

Die Tatsachen in der Wahrnehmung, p. 39. (9)

استطعنا أن نستخرج من هذه الحروف الستة والعشرين كل ما يتصل بالأدب والعلم، فإن في وسعنا الاعتماد على الألياف البصرية البالغ عددها مئتين وخمسين ألفاً للحصول على معرفة أكثر نراءً وأحسن تصنيفاً. [79]

فما الذي نراه حين ننظر إلى منضدة؟ الإجابة هي أنا نرى، أكثر من أي شيء آخر، منطقة مضادة تحوي بعض الهواء، نضيئها أشعة بعضها قادم من صوب المنضدة، وبعضها الآخر من مصادر أخرى؛ ثم نرى الحدود الأخرى لهذه المنطقة، وسطوح الأشياء وفي ضمنها جزء من سطح المنضدة. فإذا ما أشرنا الآن إلى ما نرى وسميناه هذا فسكون معرضين لخطر القول: هذا منضدة، في حال توجيه انتباهنا إلى المنضدة. لذا ينبغي لنا أن نكون يقطين. ثم أين موقع اللون من هذا المخطط؟ في مكان ما في العين، وسيكتشف ذلك كل من يطبق عينيه.

وما وصفناه ليس هو المنضدة، مع أن جزءاً مما وصفناه هو جزء من المنضدة. وكل ما نقوله تحت هذه الظروف مما يتضمن المنضدة يجب أن يتضمن التأويل *Interpretation* أيضاً. نحن نؤول العلامة، التي يغطي جزء منها⁽¹⁰⁾، بوصفها تدل على شيء ما غير نفسها، وهو المنضدة في هذه الحالة.

(10) لقد أدرك زمناً طويلاً أن ثمة غلطا في لفظ *Datum* معطى كثيراً ما يكون

الاصعب قبولاً من بين الأشياء جميعاً.

(أ) يمكن أن يكون شيء ما 'مغطى' بمعنى أنه ما يكون حاضراً فعلياً بكل خصائصه، سواء أعليناه ما هيئها أم لا، وسواء أدركناها على الوجه الصحيح أم لا.

(ب) وبمعنى أضيق لا يقال عن شيء أنه مغطى - مغطى مباشرة *Datum datissimum*، إلا عن الكيانات التي ندرك مباشرة، أي التي هي تعديلات لأعضائنا الحسية، وما حائزها المزعوم، أو سببها البعيد، المناخض، والذرات، وما إليها، إلا مغطى على أنه حاضراً، أو أن جزءاً منه حاضراً بالمعنى (أ).

وبذلك يمكن أن يقال عن مغطى بالمعنى (أ) إن له 'ظهوراً' هو مغطى بالمعنى (ب). فـ'المخروط المرئي الكلي' مغطى بالمعنى (أ)، وما هو شيء ما يضيئ الشكل مغطى بالمعنى (ب).

لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ، وَيَبْدُو أَنَّ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يُقَالَ هُنَا شَيْءٌ جَدِيدٌ تَمَامًا. سَيَكُونُ غَرِيبًا أَنْ يُقَالَ إِنَّا نَرَى شَيْئًا لَيْسَ أَمَامَ أَعْيُنِنَا، أَوْ لَا يُلْقَى صُورًا عَلَى شَبَكِيَّةِ الْعَيْنِ، كَمَا فِي حَالَةِ الذَّبَابَةِ الطَّائِرَةِ *musca volitans*⁽¹¹⁾. فَعَلَى الصِّفَاتِيِّينَ، إِذَنْ، أَنْ يَتَبَنَّوْا عَدَمَ رُؤْيَيْنَا الْأَلْوَانِ الْبَتَّةَ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْأَلْوَانَ وَالْكِياناتِ الْمُدْرَكَةَ مُبَاشَرَةً هِيَ الْعَلَامَاتُ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي يَرْتَكِزُ عَلَيْهَا كُلُّ تَأْوِيلٍ، وَكُلُّ اسْتِدْلَالٍ، وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ. وَمَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ نَعْرِفَهُ بِالتَّأْوِيلِ؟ إِنَّهُ مَا هُوَ حَاضِرٌ- الْكُلُّ الَّذِي يُؤْلَفُهُ، عَلَى مَا سَنَعْرِفُ بِمُرُورِ الْوَقْتِ، [80] الْمُنْطَقَةُ الْمَضَاءَةُ، وَالْهَوَاءُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، مِمَّا قَدْ أَلْمَحْنَا إِلَيْهِ آتِفًا، لَكِنَّهُ الَّذِي لَا نُمِيزُ فِيهِ إِلَّا هَذِهِ الْمَكُونَاتِ الَّتِي تُمَكِّنُ تَسْمِيَتَهَا بَعْدَ عَمَلِيَّةِ تَأْوِيلٍ طَوِيلَةٍ تُدَارُ عَلَى وَفْقِ مَنَاهِجِ تَجْرِيئِيَّةٍ- "الْظُّفْلُ يَعْلَمُ أَوَّلًا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ".

فَمَا هَذَا الْإِدْرَاكُ الْمُبَاشِرُ الَّذِي يُنَاطُ بِهِ هَذَا الدَّورُ الْمُهِمُّ جِدًّا؟ وَعَادَةً مَا تُرْفَضُ الْإِجَابَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ؛ لِمُنَاقَضَتِهَا الشَّدِيدَةِ لِبَعْضِ عَادَاتِنَا اللَّفْظِيَّةِ الْمُفَضَّلَةِ. فَمَعْنَى أَنْ يُدْرَكَ الشَّيْءُ مُبَاشَرَةً هُوَ أَنْ يُسَبِّبَ أَحْدَاثًا مُعَيَّنَةً فِي الْأَعْصَابِ لَا يَمْلِكُ عُلَمَاءُ الْأَعْصَابِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ أَنْ يَذْهَبُوا مَعَهَا إِلَى أْبَعَدَ مِنْ تَأْكِيدِ حَدُوثِهَا. بِذَلِكَ يَكُونُ مَا يُدْرَكَ مُبَاشَرَةً تَعْدِيلًا لِعُضْوٍ حِسِّيٍّ، وَإِدْرَاكُهُ تَعْدِيلًا إِضَافِيًا لِلنِّظَامِ الْعَصَبِيِّ الَّذِي نَتَوَقَّعُ تَطَوُّرَ مَعَارِفِنَا تَجَاهَهُ فِي بَعْضِ قَابِلِ أَيَّامِنَا⁽¹²⁾.

(11) الذَّبَابَةُ الطَّائِرَةُ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا عَوَائِمُ الْعَيْنِ، أَوْ الْأَجْسَامُ الطَّائِفَةُ، أَوْ الْأَجْسَامُ الْعَائِمَةُ floaters: هِيَ تَرْسِبَاتٌ فِي دَاخِلِ الْجِسْمِ الرَّجَاجِيِّ لِكُرَّةِ الْعَيْنِ، لَهَا أَحْجَامٌ وَأَشْكَالٌ وَمُعَامِلَاتٌ انْكِسَارٍ مُخْتَلَفَةٌ. وَفِي السَّنِّ الصَّغِيرَةِ يَكُونُ الْجِسْمُ الرَّجَاجِيُّ شَفَافًا تَمَامًا، لَكِنْ مَعَ تَقَدُّمِ الْمُعْرِ تَبْدَأُ هَذِهِ الشَّوَابِتُ بِالظُّهُورِ تَدْرِيجِيًّا عِنْدَ الْكَثِيرِينَ. وَتَتَكَوَّنُ الْأَجْسَامُ الطَّائِفَةُ غَالِبًا بِسَبَبِ التَّغْيِرَاتِ التَّنَكُّبِيَّةِ فِي الْجِسْمِ الرَّجَاجِيِّ، وَتُرَى بِسَبَبِ الظِّلِّ الَّذِي تَلْقِيهِ عَلَى شَبَكِيَّةِ الْعَيْنِ، أَوْ بِسَبَبِ انْكِسَارِ الضَّوِّ الْمَارِّ خِلَالَهَا. وَلِهَذَا الْأَجْسَامُ أَشْكَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ؛ فَقَدْ تَكُونُ بَقْعًا أَوْ خِيوطًا، وَتَطْفُو عَادَةً يُنْظَرُ أَمَامَ عَيْنِ الشَّخْصِ الْمُصَابِ. [المُتَرَجِّم]

(12) مِنَ الْإِعْتِرَاضَاتِ الْمُبَاشِرَةِ عَلَى هَذَا مَا يُثَارُ كَثِيرًا مِنْ أَنَّ 'الْمُعْطَى الْحِسِّيَّ' لَا يَبْدُو مُشَابِهًا لِلشَّيْءِ لِتَعْدِيلِ لِمَشَبَكِيَّةِ الْعَيْنِ، لَكِنْ عَلَى التَّحَوُّ نَفِيهِ لَا يُشْبِهُ عُبُورَ مَحَلَّةٍ فِي قِطَارٍ مَا يَرَاهُ نَازِلُ الْمَحَلَّةِ. وَلَا يُوْجَدُ شَيْءٌ هُنَا سِوَى حَدِيثٍ وَاحِدٍ، هُوَ عُبُورُ الْقِطَارِ، لَكِنَّ الْعَلَامَاتِ مُخْتَلَفَةٌ جِدًّا. وَالْأَمْرُ نَفْسُهُ يَصْدُقُ عَلَى 'الْمُعْطَى الْحِسِّيَّ'؛ إِذْ يَنْبَغِي أَنْ نَتَوَقَّعَ اخْتِلَافًا =

لَكِنْ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ مَادِّيَّةٌ مَحْضَةٌ؟ وَالْإِجَابَةُ هِيَ: بَلَى، إِذَا مَا أَسِيءَ فَهْمُهَا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ. عَلَى أَنَّهَا فِي نَفْسِهَا لَيْسَتْ أَكْثَرُ مِنْ خُطْوَةٍ مُحْتَمَلَةٍ جِدًّا فِي أَكْثَرِ عَرَضٍ نِظَامِيٍّ لِـ 'الْمَعْرِفَةِ' مَعْقُولِيَّةٍ يُمَكِّنُ تَقْدِيمَهُ. وَفِي سَائِرِ مَا يُقْتَرَحُ عَرَضُهُ حَتَّى الْآنَ تُوجَدُ، فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، فِكْرَةٌ وَاحِدَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّحْدِيدِ يَنْبَغِي تَقْدِيمُهَا فِي نَقْطَةٍ مَا، وَفِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ كَيَانٍ وَاحِدٍ إِضَافِيٍّ تَأْمُ الْعُمُوضِ وَمُطْلَقُهُ يَنْبَغِي التَّسْلِيمُ بِهِ - عِلَاقَةُ 'مَعْرِفَةٍ مُبَاشِرَةٍ' وَأُمُورٍ أُخْرَى مُلْحَقَةٌ بِهَا يَتَعَذَّرُ تَفْسِيرُهَا. وَمِنَ الْمُسَلَّمِ بِهِ فِي غُضُونِ ذَلِكَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ أَنَّنَا نَعْرِفُ الْكَثِيرَ. فَلَدَيْنَا الْعُلُومَ، وَنُؤَكِّدُ هُنَا أَنَّا نَمْلِكُ سَلَفًا مَادَّةَ عَرَضِ الْمَعْرِفَةِ نَفْسِهَا - عَلَى أَنْ يَسْبِقَ ذَلِكَ اخْتِرَاقَ لِأَحَابِيلَ رَمَزِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ إِزَالَةَ لَهَا. [81]

وَتَرْتَكِزُ الْأَحْوَالَةُ الرَّئِيسَةُ مِنْهَا عَلَى سُوءِ فَهْمٍ لِطَبِيعَةِ التَّعْبِيرِ. فَإِنْ شَاءَ عِبَارَةً مَا يَعْنِي أَنْ نَرْمِزَ إِلَى إِحَالَةٍ مَا. وَقَدْ وَقَفْنَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ عَلَى الْمُرَادِ بِالْإِحَالَةِ. وَمَهْمَا حَاوَلْنَا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ الذَّهَابَ فِي طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْإِحَالَةِ. وَالْإِحَالَةُ الصَّادِقَةُ هِيَ الْإِحَالَةُ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَرَاجِعِ الْمُتَرَابِطَةِ. أَمَّا الْإِحَالَةُ الْكَاذِبَةُ فَالْإِحَالَةُ عَلَيْهَا حَالٌ كَوْنُهَا مُرْتَبَّةٌ تَرْتِيبًا آخَرَ لَا تَكُونُ فِيهِ مُتَرَابِطَةً بِالْفِعْلِ. وَيَكْمُنُ تَطَوُّرُنَا الْمَعْرِفِيُّ فِي ازْدِيَادٍ قُدْرَتِنَا عَلَى الْإِحَالَةِ عَلَى الْمَرَاجِعِ حَالٌ كَوْنُهَا مُتَرَابِطَةً بِالْفِعْلِ. وَهَذَا كُلُّ مَا فِي وَسْعِنَا فَعْلُهُ. وَلَنْ يُمَكِّنَنَا الْادِّعَاءُ الْبَتَّةَ مِنْ اكْتِشَافِ مَا هِيَ الْمَرَاجِعُ. وَكُلُّ مَا يُمَكِّنُنَا اكْتِشَافَهُ هُوَ الْكَيْفِيَّةُ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا مَذْهَبٌ عَتِيقٌ وَمَأْلُوفٌ، لَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى تَأْكِيدِهِ تَتَجَدَّدُ كُلَّمَا تَدَخَّلَ الْمِيتَافِيزِيقِيُّ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ بِوَصْفِهِ مَادِّيًّا، أَوْ رُوحِيًّا، أَوْ ثَنَوِيًّا، أَوْ وَاقِعِيًّا أَوْ بِوَصْفِهِ يَحْوِلُ إِبَاجَةً مِنْ مَصْدَرٍ آخَرَ لِسُؤَالٍ مُعْجِزٍ. عَلَى أَنَّ لَدَيْهِ، لِسُوءِ الْحِظِّ، فُرْصَةً سَائِحَةً لِإِقَامَةِ عَوَاقِقَ لَا سَبِيلَ ظَاهِرَةٍ إِلَى اخْتِرَاقِهَا، بِسَبَبِ جَهْلِنَا الْحَالِي لِآلِيَةِ اللُّغَةِ. وَمَا مِنْ

= عَظِيمًا بَيْنَ الْإِحَالَاتِ الْمُتَضَمِّنَةِ - وَالْمَرَاجِعِ وَاحِدَةٍ - مَا دَامَ ثَمَّةُ إِدْرَاكٍ مُبَاشِرٍ وَاحِدٌ بَسِيطٌ بِالْقَدْرِ الْمُمَكِّنِ، هُوَ إِحَالَةُ أَوَّلِيَّةِ الرُّتَبَةِ، وَإِحَالَةُ أُخْرَى لِتَعْدِيلِ غُضْوٍ جَسَدِيٍّ، هِيَ غَايَةُ فِي التَّعْقِيدِ وَلَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ سِلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ. إِنَّهَا رُتَبَةٌ أُخْرَى لِلْإِحَالَةِ. وَفِي الْفَصْلِ الْلاحِقِ (ص 183-184) مَزِيدٌ يُقَاشَى لِهَذِهِ الْمَشْكَلَةِ الْعَظِيمَةِ الْأَهْمِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرُتَبِ الْإِحَالَاتِ وَالْعَلَامَاتِ أَوْ مُسْتَوَيَاتِهَا.

سَبِيلٍ لِنَفَادِي ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِنْطِلَاقِ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَعْرُوفَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِكَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ. ثُمَّ بِوُجُودِ أَطْرُوحَةٍ لِلتَّأْوِيلِ عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ مُحَظَّظٌ هُنَا يُصْبِحُ الطَّرِيقُ مَفْتُوحًا أَمَامَ تَنْظِيمِ جَمِيعِ مَا يُعْرَفُ، وَلِكُلِّ مَا سَوْفَ يُعْرَفُ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ⁽¹³⁾.

فَلْنَسْتَأْنِفْ مُحَظَّظَنَا الْمُوجَزَ لِلْعَرَضِ التَّنْظِيمِيِّ لِلإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَكُونُ تَعْدِيلَاتِ الشَّبَكِيَّةِ الْمُدْرَكَةُ مُبَاشِرَةً كَالْأَلْوَانِ مِثْلًا عِلَامَاتٍ أَوَّلِيَّةٍ لِمَوْضُوعَاتٍ وَ'الْأَحْدَاثِ' (أو عَلَى النَّحْوِ الَّذِي نَتَّفِقُ عَلَيْهِ لِلرَّمْزِ إِلَى [82] الْمَرَاكِجِ)، وَتَكُونُ خُصَائِصُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَكْتَشِفُهَا بِالتَّأْوِيلِ كَأَشْكَالِ الْمَخَارِيطِ وَالْمَنَاصِيدِ عِلَامَاتٍ ثَانَوِيَّةٍ أَوْ ثَالِثِيَّةٍ عَلَى التَّوَالِي. أَمَّا أَشْكَالُ الْعِلَامَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ، فَتَعُدُّ عِلَامَاتٍ أَوَّلِيَّةً.

وَإِذَا جُرِّبْتَ أَنْ تَضَعَ قِطْعَةً مَعْدِنِيَّةً جَدِيدَةً مِنَ التِّكَلِ عَلَى رَاحَةٍ يَدِكَ مَادًّا ذِرَاعَكَ أَفْقِيًّا، فَسَيَصِفُ الشَّخْصُ الصَّادِقُ شَكْلَهَا بِأَنَّهُ بَيَضِيٌّ. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا عَمُودِيًّا مِنَ الْأَعْلَى رَأَيْتَهَا مُسْتَدِيرَةً. فَمَا حَقِيقَةُ شَكْلِ الْقِطْعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ: أَدَائِرِيٌّ هُوَ أَمْ بَيَضِيٌّ؟ يَالَهَا مِنْ مُعْضِلَةٍ لَا حَلَ لَهَا!

إِذَا مَا قُلْنَا إِنَّ الْمُعْطَى لَنَا فِي كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ سَطْحُ الْقِطْعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَتَكُونُ الْإِجَابَةُ أَنَّهَا دَائِرِيَّةٌ وَبَيَضِيَّةٌ مَعًا. وَالْهَزْلِيُّ فِي الْأَمْرِ أَنَا 'نَعْلَمُ' كَمَا يَعْلَمُ كُلُّ فِيزِيَائِيٍّ عِلْمًا مُتَيْنًا⁽¹⁴⁾ أَنَّهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ تَغْيِيرًا قَابِلًا لِلْقِيَاسِ، وَأَنَّهَا مُسْتَدِيرَةٌ فِي

(13) يَشْبَعُ إِحْسَاسٌ بِالْقَشْعِرِيرَةِ أَوْ خِيَبَةِ الْأَمَلِ عِنْدَ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ وَجْهَةَ النَّظَرِ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. عَلَى أَنَّ الْإِنْكَارَاتِ الَّتِي تَبْدُو مُتَضَمِّنَةً بِسَبَبِ قَضَرِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى الْإِحَالَةِ، تَبْدَأُ بِالنَّاقِصِ حِينَ يُضَرَفُ الْإِهْتِمَامُ اللَّازِمُ إِلَى الْإِسْتِعْمَالَاتِ الْآخَرَى 'غَيْرِ الرَّمْزِيَّةِ' لِللُّغَةِ الَّتِي تُنَاقَشُ فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ. وَكَثِيرًا مَا يُقَالُ إِنَّ الْمِيتَافِزِيْقَا مَجِينٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالشُّعْرِ؛ إِذْ إِنَّهَا تَحِيلُ الْكَثِيرَ مِنْ أَمَارَاتِ الْهَجِينِ، فَهِيَ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، عَقِيمٌ. إِنَّ الْفَصْلَ الْمُلَانِمَ لِهَذِهِ الْأَزْوَاجِ السُّيُوفِ التَّصْنِيفِ هُوَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَهَمِّ نَتَائِجِ الْبَحْثِ فِي الرَّمْزِيَّةِ.

(14) يَذْكُرُ رُوجِيَرُ Rougier فِي كِتَابِهِ (المُفَالَطَاتِ Paralogismes، ص 408) أَنَّ نَظَرِيَّةَ الصِّفَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ الَّتِي بَدَأَ أَنْ حُجِّجَ بَارْكَلِي Berkeley قَدْ دَخَضَتْهَا أَخَذَتْ تَسْتَقْطِبُ الْإِهْتِمَامَ مَرَّةً أُخْرَى. وَ'لَيْسَ فِي مُعْطِيَاتِنَا أَيُّ دَافِعٍ مُهِمٍّ يَدْفَعُنَا لِأَنْ نُفَكِّرَ بِأَنَّ الْأَحَاسِيسَ الَّتِي تَبْعَثُهَا أَيُّ شَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ الْهَنْدَسِيَّةِ لَيْسَتْ وَاقِعِيَّةً'. عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْفِي أَنْ نَرْفُضَ =

الواقع. فلنا الخيار، من جهة، في أن نرى الكون مملوءاً بالتناقضات كما يراه الميتافيزيقيون، وغريباً جداً كما يراه كاتبو المقالات المهذبون، ورائعاً جداً كما يراه الأساقفة؛ أو في أن نقول، من جهة أخرى، إنَّ السطح ليس هو المغطى في كلتا الحالتين.

إنَّ كلَّ مَنْ شاهد إجراءنا مع القطعة المعدنيّة، ممَّن يُستعان به في هذه النقطة، سيقول إنَّ ما كان حاضراً في كلتا الحالتين هو كُلُّ يحوي أجزاء، هي مخاريط⁽¹⁵⁾ قممها في العين، وقواعدها حدود رؤيتنا، أو حدود السطوح إذا ما كانت حولنا أغراض كقطع المعدن. وثمة مخروطان هنا مع قاعدة هي سطح القطعة المعدنيّة الدائري. ففي الحالة الأولى كان المخروط بيضياً [83] في مقطعه العرضي، وسطح القطعة المعدنيّة مقطّعا مائلاً؛ أمّا في الحالة الثانية فكان المخروط دائرياً، وسطح القطعة المعدنيّة مقطّعا عرضياً دائرياً أيضاً. إنَّ ما أخذنا هنا على أنّه شكل قطعة المعدن الواضح، من المقبول جداً أن يقال عنه إنّه مقطّع المخروط العرضي. وهذا هو العلامة التي نؤولها بوصفها السطح، وليس هذا السطح 'datum datissimum' البتّة - أي مُعطى مباشراً. ويحرّزنا هذا التطبيق البسيط لنظريّة العلامات من التناقض، والغرابيّة، وما يروغ، ويُعيد إلينا إيماننا بالفيزيائيين، وممكننا من التقدّم في عملنا، أي في عرض ملامح لإدراك طبيعيّة الأشياء.

إنَّ المنهج الذي أزيلت به أسباب هذه الفضيحة القديمة يُمكن أن يلقي النجاح نفسه في كلِّ 'المشكلات الأساسيّة' الأخرى. وكلّما اكتشف العقل

= الأمر مُعلّقين بقولنا إنَّ مفارقة العصا المنحنيّة 'لا وجود لها إلا عند مَنْ لا يعرفون شيئاً عن قوانين انكسار الضوء'. ويصرف النظر عن نظريّة وإيقية للعلامات فإنَّ قوانين انكسار الضوء تظهرُ بمظهرٍ سَمِيٍّ بإزاء إبداع الأنطولوجيين.

(15) كلمة 'مخروط' إنما تُستعملُ هنا لِمَلءِ فجوة لغويّة وعلى نحوٍ استيعاري. إنَّها اختزالٌ لِمِنطقة المُخللّة بين السطح وشبكيّة العين التي تكون في مُعظم الحالات ذات شكلٍ مخروطيٍّ أو هرميٍّ.

الْعَبْرِيُّ تَنَاقُصًا ذَاتِيًّا (نَحْوَ "هَذِهِ الْقِطْعَةُ الْمَعْدِنِيَّةُ نَفْسُهَا الَّتِي أَرَاهَا هِيَ دَائِرِيَّةٌ وَبَيْضِيَّةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهَا"، أَوْ "هَذِهِ الْعَصَا نَفْسُهَا الَّتِي أَرَاهَا مَغْمُورَةٌ بِالْمَاءِ هِيَ مُسْتَقِيمَةٌ وَمُنْحَنِيَّةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهَا") ظَهَرَ تَرْمِيزُ سَيِّئٍ، وَوَجَبَ عَلَيْنَا تَوْسِيعُ الرَّمْزِ السَّقِيمِ⁽¹⁶⁾ إِلَى حِينِ اكْتِشَافِنَا الْحَالَ الْعَلَامِيَّةَ الْغَامِضَةَ الَّتِي سَبَّبَتِ الْمُشْكِلَةَ. ثُمَّ نُسَجِّلُ هَذَا الْعُمُوضُ، وَنُحَسِّنُ تَرْمِيزَنَا لِتَنْتَافِدَى الْهَرَاءِ الَّذِي نَصِيرُ إِلَيْهِ فِي حَالِ عَدَمِ فِعْلِنَا ذَلِكَ. وَبِذَلِكَ نَقُولُ فِي حَالَةِ الْقِطْعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ: "قَاعِدَةُ هَذَا الْمَخْرُوطِ الَّتِي هِيَ عَلَامَتِي مَائِلَةٌ وَدَائِرِيَّةٌ، وَهِيَ سَطْحٌ قِطْعَةِ الْمَعْدِنِ الَّتِي أَرَاهَا، لَكِنَّ الْمَقْطَعَ الْإِعْتِيَادِيَّ لِهَذَا الْمَخْرُوطِ بَيْضِيٌّ. كَذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ عَنِّي إِنِّي أَرَى قِطْعَةَ الْمَعْدِنِ أَوْ إِنِّي أَرَى أَيَّ جُزْءٍ مِنَ الْمَخْرُوطِ، لَكِنْ لَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ مُغْطَى مُبَاشَرَةً. بَلْ إِنَّ الْمَخْرُوطَ الْكُلِّيَّ الَّذِي تُشَكِّلُ تِلْكَ أَجْزَاءَهُ مُنْتَحَبٌ مِنَ الْمَخْرُوطِ الْأَوْسَعِ الَّذِي يَقْضُمُ زِيَادَةً عَلَى الْمَخْرُوطِ الْمَعْدِنِيِّ مَخَارِيطَ كُلِّ مَا أَرَاهُ، الْمُغْطَى الْكُلِّيَّ الَّذِي هُوَ مَجَالُ رُؤْيَايَ".

وَهَذَا الْإِنْتِخَابُ لِلْمَخَارِيطِ الْجُزْئِيَّةِ مِنَ الْمَخْرُوطِ الْكُلِّيِّ [84] الَّذِي هُوَ مَجَالُ الرُّؤْيَا يُنَجِّزُ مِنْ غَيْرِ خَطَلٍ فِي الظُّرُوفِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَوْ لَا حَالَةُ 'الصُّورِ الْمَزْدَوِجَةِ' لَكَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَلَّا يَكُونَ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي فَاعِلِيَّةِ التَّأْوِيلِ هُنَا أَيْضًا. فَلِكُلِّ عَيْنٍ مَخْرُوطٌ كُلِّيٌّ مُسْتَقَلٌّ، لَكِنَّا نَتَعَلَّمُ عَلَى نَحْوِ إِعْتِيَادِيٍّ مُمَاهَاةَ مَخَارِيطَ جُزْئِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الْمَخَارِيطِ الَّتِي لَهَا الْقَاعِدَةُ نَفْسُهَا. فَإِذَا مَا أُفِيدَ التَّنَاطُرُ الشَّبَكِيُّ الَّذِي نَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِهِ (كَمَا فِي تَوْسِيعِنَا مُقَلَّةَ الْعَيْنِ قَلِيلًا، أَوْ نَظَرْنَا إِلَى شَيْءٍ بَعِيدٍ مُتَجَاوِزِينَ مَا هُوَ قَرِيبٌ) أَخَفَقْنَا فِي الْحَصُولِ عَلَى التَّطَابُقِ الصَّحِيحِ، وَقَلْنَا إِنَّا نَرَى قِطْعَتَيْنِ مَعْدِنِيَّتَيْنِ (الصُّورِ الْمَزْدَوِجَةِ). مَرَّةً أُخْرَى نَسْمَحُ لِلْعَيْنِ هُنَا بِأَنْ تَخْذَعَنَا. فَالْمَوْجُودُ هُنَا، كَمَا هُوَ مُعْتَادٌ فِي الرُّؤْيَا الثَّنَائِيَّةِ الْعَيْنِ،

(16) فِي حَالَةِ قِطْعَةِ الْمَعْدِنِ يُوسَّعُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ "هَذَا الْمَخْرُوطَ الَّذِي أَرَاهُ وَالَّذِي قَاعِدَتُهُ الْقِطْعَةُ الْمَعْدِنِيَّةُ هُوَ دَائِرِيٌّ وَبَيْضِيٌّ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهَا". فَهُنَا الْعَلَامَةُ، أَيِ الْمَخْرُوطِ، قَدْ تَوَوَّلَ بِوَصْفِهَا دَالَّةٌ إِنَّمَا عَلَى مَقْطَعٍ عَرْضِيٍّ بَيْضِيٍّ، أَيِ مَقْطَعٍ إِعْتِيَادِيٍّ، وَإِنَّمَا عَلَى مَقْطَعٍ مَائِلٍ دَائِرِيٍّ.

مخروطان دَوَا قاعدة مشتركة. وبسبب التغير في شبكية العين يتعطل منهج المطابقة اللإرادي الاعتيادي، فنرى 'قطعة المعدن كما لو أنها في مكانين اثنين؛ ونؤوّل مخروطين ذوي قاعدة مشتركة كما لو أنهما مخروطان دَوَا قاعدتين منفصلتين. الانعكاس والانكسار - لغزائ من ضمن ما تكتظ به نظرية الرؤية الكلية من 'الغاز' نتظر أن تحلها نظرية العلامات المذكورة آنفاً⁽¹⁷⁾.

فهمة نظرية العلامات هذه لا تقتصر إذن على إزالة التناقضات النموذجية السابقة لمرحلة العلم، بل إنها تهئ قاعدة جديدة يقوم عليها علم الفيزياء. إذ إن مما يشيع افتراضه مناقضة الأشياء التي نراها للأشياء التي نتخيلها، التي هي غير حقيقية على نحو ما. فهذا التفريق بين الرؤية والخيال مضلل، وإن الأشياء التي ندعي الرؤية بحق لأجزائها التي لا نراها لا تقل حقيقة عن تلك التي نراها. [85] فالجانب الآخر من القمر الذي لا نراه البتة لا يقل حقيقة عن الجانب الذي ندرکه أبصارنا. وإذا ما عزز الجهد التأويلي لعالم الفيزياء فلن تكون الذرات التي تُصوّر مسالكها ضوئياً، والألكترونات التي لا 'نراها'، أقل حقيقة من العلامات التي يُعطاها الإدراك الذي يبتدئ الفيزيائي بحثه منها. فحين ننظر إلى كراسينا ومناضيدنا 'نرى' مُعطى مباشراً، فمخاريط، فسطوحاً، فكرسياً، فظهراً

(17) مما يتصل بالأحوال العلامية نمة ما يُقال بشأن أشد المحاولات عزماً على معالجة المعطيات من زاوية العلامات منذ بحث زيد Reid - وهي المحاولة التي طوّرها البروفيسور جون لايرد John Laird في الصفحة 24 فما بعدها من كتابه دراسات في الواقعية *Studies in Realism*. إذ يقول البروفيسور لايرد: 'إن المُعطى الحسي البصري هو علامة يُقدر ما هو واقعة، وأنه ليدرك دوماً على هذا النحو'. ويواصل كلامه مؤكداً أننا ندرك دوماً الدلالة (العلاقة التي يسببها تدلّ العلامة)، أننا ندرك دوماً وقائع علامية لا معطيات تخلو من الدلالة. فإذا فهمنا 'المعنى' الوارد في قوله بعد: 'إن المعنى يدرك مباشرة، تماماً كاللون أو الصوت' على أنه 'الدلالة' فلن يكون هذا التقرير متناقضاً بالقدر الذي كان سيكون عليه في حالة خلط 'المعنى' بـ 'ما يُعنى'. وينظر ما ذكره أويرنليه Hoernlé إذ يقول في دورية *Mind*، 1907، ص 86: 'أنا أعُدّ الشعور بالمعنى أولياً وأساسياً، وتمييز العلامة من المعنى إنتاج التأمل'. أما نوع هذا 'المعنى' فربما يمكن استنتاجه من الفصل الثامن.

وَمَقْعَدًا وَقَوَائِمَ، فَخَشَبًا، فَخَيْزُرَانًا، فَأَلْيَاقًا، فَخَلَايَا، فَجُزَيْنَاتٍ، فَذَرَاتٍ، فَأَلِكْتَرُونَاتٍ... فِي أَوْجِهٍ كَثِيرَةٍ لـ'الرُّؤْيَةِ' تَتَوَاصَلُ فِي تَدْرُجٍ مُتَرَاتِبٍ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ. وَإِذَا مَا حَدَثَ تَبَدَّلَ فِي وَجْهَةِ النَّظَرِ، وَالْاهْتِمَامِ، وَالْأَلِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ هَدَفِ الْبَحْثِ فَسَتَغَيَّرُ الْمُسْتَوَيَاتُ الَّتِي تُمَثِّلُهَا هَذِهِ الْإِحَالَاتُ تَبَعًا لِذَلِكَ. [86]

الفصل الخامس

قوانين الرمزية

لَمَنْظُومَةٌ تَسَمَّى مُوقَّعَةٌ أَقْدَرُ مِنَ الْمَنْطِقِ الضَّارِمِ أحيانًا على الإذن لِسلسلةٍ
فِكْرٍ جَدِيدَةٍ بِسُرْعَةٍ الْقَبُولِ وَعُمُومِهِ. - البروفيسور شوستر Prof. A. Schuster

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِسَائِرِ الْأُمُورِ فَلَنْ أَكُونَ مُسْتَاءً، سَيِّدِي، إِنْ تَقَحَّضْتَ أَبَعَدَ قَلِيلًا
فِي تَفْصِيلاتِ انْعِطَافَاتِ الْعَقْلِ الَّتِي تَظْهَرُ مُدْهِشَةً عِنْدَ اسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ. -
لايبنتز Leibnitz

إِنَّ أَسَاسَ كُلِّ تَوَاصُلٍ مُسَلَّمَاتٍ أَوْ لَوَازِمُ- افْتِرَاضَاتٍ مُوجَّهَةٌ لَا يُمَكِّنُ إِنْ
عُدِمَتْ أَنْ يَتَطَوَّرَ نِظَامُ الرَّمُوزِ، وَلَا عِلْمٌ، وَلَا حَتَّى مَنْطِقٌ. وَلَيْسَ بِمُسْتَعْرَبٍ إِهْمَالُ
الْمَنَاطِقَةِ إِنَّمَا هِيَ إِذْ لَمْ يُعَنَّ أَحَدٌ بِالْبَحْثِ فِيهَا حَتَّى الْيَوْمِ. وَقَدْ شُغِلَ الْمَنْطِقُ، الَّذِي
قَدْ يُعَدُّ عِلْمًا لِنَتْظِيمِ الرَّمُوزِ، إِنَّمَا بِالْأَحْكَامِ الَّتِي هِيَ سَايْكُولُوجِيَّةٌ، وَإِنَّمَا بِ'الْقَضَايَا'
الَّتِي عُمِلَتْ بِوَصْفِهَا مَوْضُوعَاتٍ لِلْفِكْرِ مُتَمَيِّزَةٌ مِنَ الرَّمُوزِ وَغَيْرِ سَايْكُولُوجِيَّةٍ. أَمَّا
عُلَمَاءُ الرِّيَاضِيَّاتِ الْمُعَاصِرُونَ الَّذِينَ فَعَلُوا الْكَثِيرَ مِنْ أَجْلِ إِحْدَاثِ تَطْوِيرٍ شَكْلِيٍّ
لِلْمَنْهَجِ الرَّمْزِيِّ فَيَسْلُكُونَ أَحَدَ مَسْلَكَيْنِ؛ فَإِنَّمَا أَنْ يَفْتَرِضُوا هَذِهِ الْقَوَانِينَ ضَمْنِيًّا،
وَإِنَّمَا أَنْ يُقَدِّمُوا تَعْقِيدَاتٍ خَاصَّةً ⁽¹⁾إِضَافِيَّةً فِي أَنْظِمَتِهِمْ حِينَ تُوَاكِفُهُمْ صُعُوبَاتُ
بِسَبِّ إِهْمَالِهِمْ. وَالْحَقُّ أَنَّهَا أَسَاسِيَّةٌ لِكُلِّ خِطَابٍ كَأَسَاسِيَّةِ الْكِيمَاءِ لِعِلْمِ الْفَلَسَفَةِ،

(1) مِثَالُ ذَلِكَ نَظَرِيَّةُ الْأَنْمَاطِ- التَّعَامُلِ مَعَ أَيْمِينِيدِس Epimenides وَكَذِبِ الْكَرَيْتِيِّنِ الْمَزْعُومِ؛
أَوْ نَظَرِيَّاتِ الْوُجُودِ عِنْدَ تَاوِيلِ "الْعَقَاوَاتِ لَهَا وَجُودٌ".

أو الديناميكا لِيَعْلَمَ الْقَذَائِفِ، أَوْ عِلْمِ النَّفْسِ لِيَعْلَمَ الْجَمَالَ. فِدِرَاسَةُ هَذِهِ الْقَوَانِينِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ لَيْسَ صُورِيًّا خَالِصًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ [87] مُخْلَصٌ لِتَفْصِيلِ إِمْكَانَاتِ التَّلَاعُبِ بِالرُّمُوزِ⁽²⁾، هِيَ أَوَّلَى الْأَسَاسِيَّاتِ، وَمُرَاعَاتُهَا الصَّارِمَةُ كَفِيلَةٌ بِجَعْلِ جَمِيعِ مَسَالِكِ الْمُعَالَجَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ عَدِيمَةً الْفَائِدَةِ.

وَمِنْ الْمُنَاسِبِ عَرْضُ عَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ بِلُغَةِ الرُّمُوزِ وَالْمَرَاجِعِ. وَتَجَدُّرُ هَاهُنَا مُعَاوَدَةُ النَّظَرِ فِي الْمُثَلَّثِ الْإِحَالِيِّ الْمُثَبَّتِ أَنْفَاءً. وَفِي الْآتِي الْقَانُونُ الْأَوَّلُ لِلرُّمُوزِيَّةِ، قَانُونُ الْأَحَادِيَّةِ Singularity:

1. - الرَّمْزُ الْوَاحِدُ يَرْمِزُ إِلَى مَرَجِعٍ وَاحِدٍ لَا غَيْرِ.

وهذا المَرَجِعُ الْوَاحِدُ قَدْ يَكُونُ مُعَقَّدًا فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ. فَكُلُّ الْمَعْتَوِيَّاتِ الْمَنْغُولِيَّاتِ، مَثَلًا، رَمَزٌ لَهُ مَرَجِعٌ وَاحِدٌ. فَكَذَلِكَ يَكُونُ لـ (x أو y) مَرَجِعٌ وَاحِدٌ. عَلَى أَنَّ رُمُوزَ الرِّيَاضِيَّاتِ مُتَمَيِّزَةٌ فِي أَنَّهَا رُمُوزٌ إِمَّا لِرُمُوزٍ أُخْرَى وَإِمَّا لِعَمَلِيَّاتٍ ذَوَاتِ رُمُوزٍ. هَذَا التَّمْيِيزُ هُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ كَثِيرًا بِالْقَوْلِ إِنَّ الرِّيَاضِيَّاتِ الْخَالِصَةَ تَجْرِيدِيَّةٌ، أَوْ شَكْلِيَّةٌ، أَوْ إِنَّهَا لَا تَذْكُرُ أَيَّ شَيْءٍ الْبَتَّةَ. وَقَدْ تَحْوِي الرُّمُوزُ أَجْزَاءَ

= [يُشِيرُ الْمُؤَلِّفَانِ بِحَدِيثِهِمَا عَنْ أَبِيْمِينِيدِسٍ وَكَذِبِ الْكْرِيتِيِّينَ الْمَزْعُومِ إِلَى مَا يُعْرَفُ بِمُفَارَقَةِ أَبِيْمِينِيدِسٍ، الَّتِي سُمِّيَتْ بِهَذَا الْأَسْمِ نِسْبَةً إِلَى الْفِيلَسُوفِ الْكْرِيتِيِّ أَبِيْمِينِيدِسٍ (كَانَ حَيًّا فِي نَحْوِ الْقَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ الْمِيلَادِ) الَّذِي أَطْلَقَ مَقُولَتَهُ الْخَالِدَةَ: "جَمِيعُ الْكْرِيتِيِّينَ كَاذِبُونَ"؛ إِذْ تَتَوَلَّدُ مُفَارَقَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْإِحَالَةِ الذَّاتِيَّةِ حِينَ يُنْظَرُ: أَيْمُكُنْ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَهُ أَبِيْمِينِيدِسُ صَادِقًا؟ وَيَقَرَّرُ توماس فاولر (1869) هَذِهِ الْمُفَارَقَةَ عَلَى النِّحْوِ الْآتِي: "يَقُولُ أَبِيْمِينِيدِسُ الْكْرِيتِيُّ إِنَّ جَمِيعَ الْكْرِيتِيِّينَ كَاذِبُونَ، لَكِنْ أَبِيْمِينِيدِسُ نَفْسُهُ كْرِيتِيٌّ، فَهُوَ نَفْسُهُ إِذَنْ كَاذِبٌ. لَكِنْ إِنْ كَانَ كَاذِبًا كَانَ مَا قَالَهُ غَيْرَ صَادِقٍ وَكَانَ الْكْرِيتِيُّونَ مِنْ ثَمَّ صَادِقِينَ. لَكِنْ أَبِيْمِينِيدِسُ كْرِيتِيٌّ، فَمَا قَالَهُ إِذَنْ صَادِقٌ، وَيَقُولُهُ إِنَّ الْكْرِيتِيِّينَ كَاذِبُونَ يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ كَاذِبًا وَيَكُونُ مَا قَالَهُ غَيْرَ صَادِقٍ. وَهَكَذَا يُمَكِّنُنَا الْاسْتِمْرَارُ بِالتَّنَاقُوبِ فِي إِثْبَاتِ الصُّدْقِ وَالْكَذِبِ لِأَبِيْمِينِيدِسٍ وَالْكَرَيْتِيِّينَ. الْمُرْتَجِعُ]

(2) يُعَالِجُ البروفيسور إيتن R. M. Eaton فِي كِتَابِهِ الرَّمُوزِيَّةُ وَالصُّدْقُ Symbolism and Truth (ص 92، و 224، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ) قَوَاعِدَ النَّحْوِ الْمَنْطِقِيِّ عَلَى نَحْوِ مُثْبِتٍ لِلْإِهْتِمَامِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ شَبِيهِ تَقْلِيدِيَّةٍ.

ضرورية، كالتفقي، وكلمات نحو 'ال'، و'الذي'، وهي ليس لها في أنفسها مراجعٌ محدَّدة. ودراسةُ نحوِ هذه العناصرِ البنائيةِ غيرِ الرُّمُزِيَّةِ تقعُ على عاتقِ النُّحويِّ.

وتُظهِرُ هذه الإشاراتُ البنائيةُ في اللغةِ الاعتياديةِ في تنوعِ شكليِّ مُحْبِرٍ. فالنَّصْرِيَّاتُ، والرَّوَابِطُ، والمُوزَّعَاتُ، والأفعالُ المُسَاعِدَةُ، وبعضُ حُرُوفِ الجَرِّ، والاستعمالُ الرَّئِيسُ لِلْفِعْلِ الرَّابِطِ، وما إلى ذلك، كلُّ أولئك له هذه الوظيفَةُ. وتَقْلُصُ هذه العناصرُ البنائيةُ إلى أَقَلِّ ما يُمكنُ في عِلْمِ الرِّياضِيَّاتِ بِسَبَبِ بَساطَةِ تَوْجِيهِهِ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الرُّمُوزَ التي في العَمَلِيَّاتِ الإحصائيةِ كالاثْنَيْنِ والثَّلَاثَةِ، أو رُمُوزِ الرُّمُوزِ كالتَّعْبِيرَاتِ الجَبْرِيَّةِ، لا تُمكنُ مُعالَجَتَها نِظَامِيًّا. وتُظهِرُ وَجْهَاتُ النَّظَرِ الحَدِيثَةُ في الرِّياضِيَّاتِ رَدَّ فِعْلٍ مُتَجَدِّدًا تَجَاةَ التَّصَوُّفِ المنطقيِّ أو [88] أَرِثِمُوصُوفِيَّةِ⁽³⁾ فريجة Frege⁽⁴⁾، وكوتورا Couturat⁽⁵⁾، وآخرينَ، مِمَّا كَانَ سائِداً

(3) أَرِثِمُوصُوفِيَّا: هو عِلْمُ الأَعْدَادِ الرُّمُزِيِّ. والترجمةُ الحرفيَّةُ لهذه الكلمة تعني (حِكْمَةُ الأَعْدَادِ). والمقصودُ بالأَعْدَادِ هنا الأَعْدَادُ المُستَعْمَلَةُ في العدِّ، المتضمَّنةُ للأَعْدَادِ (صفر، 1، 2، 3، ...). فهل لهذه الأَعْدَادِ المُفْرَدَةِ مَعَانٍ ضِمْنِيَّةٌ؟ من الواضح أَنَّهُ إِنْ جَاءَ العدْدُ في سِيَاقٍ جِسَابِيٍّ عَمَلِيٍّ، كما في حالةِ قِيَاسِ حَجْمِ غُرْفَةٍ، فليسَ مِنْ سَبَبٍ يَدْعُو إلى افْتِراضِ أَنَّ العدْدَ يُنبِئُ بِشَيْءٍ، ما عدا أَنَّ الغُرْفَةَ صَغِيرَةٌ إلى دَرَجَةٍ لا يُمكنُ معها وَضْعُ السَّرِيرِ فيها. فمعْنَى عددٍ ما يَعْتَمِدُ على ما يُسْتَعْمَلُ لِعَدِّهِ؛ ففي ما طَوَّلُهُ سَبْعَةُ سَتَمِراتٍ، على سَبِيلِ المِثَالِ، ليسَ لِلعدَدِ 7 دَلَالَةٌ أَرِثِمُوصُوفِيَّةٌ؛ إِذْ إِنْ السَّتَمِراتُ وَحْدَةٌ اعْتِيَابِيَّةٌ، أَمَّا في ما مَدَّدَتْهُ سَبْعَةُ أَيَّامٍ فينطوي العدْدُ 7 على دَلَالَةٍ؛ ذلكَ بَأَنَّ اليَوْمَ وَحْدَةٌ طَبِيعِيَّةٌ. وأحدُ أَشْهُرِ الأمثلةِ لذلكَ هو ارتباطُ العدَدِ 13 بِالْحِظِّ السَّيِّيِّ، الذي يُعَدُّ من قَبِيلِ الخُرَافَاتِ. على أَنَّ بعضَ الباحثينَ قد طَوَّرَ مُخَطَّطًا نِظَامِيًّا لِتَأْوِيلِ الأَعْدَادِ، ابتداءً بِالعدَدِ 1 الذي يُعْمَلُ (الوَحدة)، فالعدَدِ 2 الذي يُعْمَلُ (التَحْلِيلُ)، فالعدَدِ 3 الذي يُعْمَلُ (التَرَكيبُ). [المُتَرَجِّم]

(4) فريدريش لودفيغ غوتلوب فريجة (1848-1925م). عالِمُ رِياضِيَّاتٍ، وَمَنْطَقِيٍّ، وفيلسوفُ المَاني. يُعَدُّ أبا الفِلسَفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ الحَدِيثَةِ لِكُتَابَاتِهِ في فِلسَفَةِ اللُّغَةِ والرِّياضِيَّاتِ. دَرَسَ دَوْرَ اللُّغَةِ في الفِكرِ الإنسانيِّ والعِلاقَةِ بَيْنَ المَعْنَى والحَقِيقَةِ. أَهمُّ مَولُفاتِهِ: أَسْأَسُ عِلْمِ الحِسابِ. [المُتَرَجِّم]

(5) لويس كوتورا (1868-1914م). مَنْطَقِيٍّ، وعالِمُ رِياضِيَّاتٍ، وفيلسوفُ، وِلِسانِيٌّ فرنسِيٌّ. =

في بداية القرن. ويسود شعور واضح بأن الأطروحة التي لا تستند إلى كيانات ما وراء الحس يجب أن تخلص لما يخلص علماء الرياضيات له أطروحتهم.

واستطاع بعضهم، مثل فِتنشتاين Wittgenstein⁽⁶⁾، إقناع نفسه بأن "قضايا الرياضيات هي المعادلات، فليذلك هي قضايا زائفة"، وبأن "المنهج الذي يتوصل إلى علم الرياضيات به إلى معادلاته هو منهج الاستبدال. ذلك بأن المعادلات تُعبر عن القابلية الاستبدالية لتعبيرين، وأنا نطلق من عدد من المعادلات إلى معادلات جديدة، مُستبدلين بتعبيرات تعبيرات أخرى طبقاً للمعادلات"⁽⁷⁾. وفي الإمكان تقديم وجهة نظر كهذه من غير الحلفية الصوفية ولا الستار اللذين يُقدّمهما هذا الكاتب. وإن أقسام الرياضيات التي لا يبدو أنها معيّنة بالمعادلات فحسب، ومنها على سبيل المثال نظرية المجموعات النقطة⁽⁸⁾، ما زالت تحتاج إلى تعليل.

ويذهب آخرون مع رينانو⁽⁹⁾ إلى أن الرياضيات كلها ليست إلا تنفيذاً لتجارب فيزيائية مُحَيَّلَة، تُسَجَّل وتُمَثَّل برموز. وعلى الرغم من أن هذا التوضيح

= نشر في سنة 1901 كتابه (منطق لايبنتز)، وهو دراسة مُفَصَّلة للمنطقي لايبنتز. [المترجم]
(6) لودفيغ فِتنشتاين (1889-1951م). فيلسوف نمساوي. يُعدّ أحد أكبر فلاسفة القرن العشرين. حظي بالتقدير بسبب كتابيه (رسالة منطقية فلسفية)، و(بحوث فلسفية). عَمِلَ في المقام الأول في أسس المنطق، والفلسفة، والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة. [المترجم]

Tractatus Logico-Philosophicus, 6.2 and 6.24.

(7) نظرية المجموعات: إحدى أهم الركائز في الرياضيات الحديثة، وهي النظرية التي تصف المجموعات الرياضية المؤلفة من كائنات رياضية مجردة والعمليات المطبقة عليها. وتضم المجموعة عدّة عناصر، وقد تكون مُنتَهية أي أن عدد عناصرها عدد صحيح طبيعي معلوم كمجموعة الأعداد المحصورة بين العددين 7 و 11 ومجموعة أيام الأسبوع؛ وقد تكون غير مُنتَهية كمجموعة الأعداد الطبيعية التي يرمز إليها بالحرف N : $N = \{0, 1, 2, \dots\}$. ومن أمثلة العمليات المطبقة على المجموعات: عملية الاتحاد، وعملية التقاطع، وعملية الفرق. [المترجم]

The Psychology of Reasoning, Chapters VII. And VIII.

(9)

لِوَجْهَةِ نَظَرِ جِيمْس مِل (10) James Mill (11) وَتَيْن Taine يُلَانَمُ بَعْضُ أَقْسَامِ الرِّيَاضِيَّاتِ بِمَا يَكْفِي، هُوَ أَقَلُّ مُلَاءَمَةٍ لِأَقْسَامٍ أُخْرَى. وَلَا يَعْزُو رِنْيَانُو إِلَى الرُّمُوزِ، فِي تَطْوِيرِهِ لِهَذِهِ النُّظَرَةِ، إِلَّا النَّزَرَ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ، أَمَّا مَجْمُوعَاتُ الرُّمُوزِ الْعَالِيَةِ التَّنْظِيمِ كَالَّتِي فِي الرِّيَاضِيَّاتِ فَلَيْسَتْ، عِنْدَهُ، مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِتَمَثِيلِ أَدَاءِ اتِّنَا الذَّهْنِيَّةِ. لَكِنَّهَا تُصَبِّحُ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ، فَادِرَّةً عَلَى الْأَدَاءِ بِسَبِيلِهَا. إِنَّهَا تُصَبِّحُ مَا كُنَاتِ تَفْكِيرٍ إِذَا مَا أَحْسِنَ التَّعَامُلُ مَعَهَا [89] أَثْمَرَتْ نَتَائِجَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَّبَعَ بِهَا أَيُّ عَمَلِيَّةٍ تَجَارِبَ فِيزِيَايَّةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ.

وَقَمَّةُ مَدْرَسَةٍ ثَالِثَةٍ لَمْ تُقَدِّمِ الرِّيَاضِيَّاتِ بِوَصْفِهَا آلَةً تَفْكِيرٍ، بَلْ بِوَصْفِهَا مَجْمُوعَةً تَوْجِيهَاتٍ تَحْتَ تَصَرُّفِ هَذِهِ الْآلَةِ، الَّتِي هِيَ الْعَقْلُ. وَتَرَى هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ أَنَّ الرِّيَاضِيَّاتِ لَا تَشْتَمِلُ عَلَى أَيِّ تَقْرِيرٍ، بَلْ عَلَى أَوَامِرٍ وَإِعْزَازَاتٍ فَحَسْبُ. وَتَكْمُنُ الْمُسْكَكَةُ حِينَئِذٍ فِي مَا يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ مِنْ عُلَمَاءِ الرِّيَاضِيَّاتِ فَعْلُهُ.

وَقَدْ يُوقَفُ عَلَى أَنَّ الْإِجَابَةَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْمَكْرُورِ بِشَأْنِ طَبِيعَةِ الرِّيَاضِيَّاتِ تَتَأَلَّفُ مِنْ مَزِيجٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ سَبَبٍ وَجِيهٍ لِافْتِرَاضِ أَنَّ الرِّيَاضِيَّاتِ عِلْمٌ مُتَجَانِسٌ فِي أَصْلِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ امْتِلَاقَهَا

(10) جِيمْس مِل (1773-1836م). مُؤَرِّخٌ، وَاقْتِصَادِيٌّ، وَمُنْظَرُ سِيَاسِيٌّ، وَفِيلَسُوفُ اسْكُتْلَنْدِيٍّ. أَسَّسَ مَعَ دَبِيفِد رِيكَاردو عِلْمَ الْاِقْتِصَادِ الْكَلَّاسِيكِيِّ، وَهُوَ وَالِدُ فِيلَسُوفِ الْلِيبَرَالِيَّةِ الْمُؤَثِّرِ جُونِ سِتُورْت مِل. أَهَمُّ أَثَارِهِ: تَحْلِيلُ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتَارِيخُ الْهِنْدِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَعُنَاصِرُ الْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ. [الْمُتَرْجِمُ]

(11) فِي كِتَابِ تَحْلِيلِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ *The Analysis of the Human Mind*، ج 2، ص 9: 'فَالْأَعْدَادُ لَيْسَتْ أَسْمَاءً لِلْأَشْيَاءِ. إِنَّهَا أَسْمَاءٌ لِعَمَلِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، عَمَلِيَّةِ الْجَمْعِ ... فَالْوَاحِدُ اسْمٌ لَهَا حَالٌ تَفْذِيحًا، أَوْ لِلْجَمْعِ الْمُتَبَدِّلِ بِهِ، وَالْاِثْنَانِ اسْمٌ لَهَا حَالٌ تَفْذِيحًا مَرَّةً أُخْرَى'. وَيَذْهَبُ مِل الْاِبْنَ فِي مَلُحُوظَاتِهِ بِشَأْنِ هَذَا النَّصِّ الْمُدَوَّنَةِ فِي مَقَالَاتِهِ الْاِفْتِخَاحِيَّةِ إِلَى أَنَّ 'أَكْثَرَ مَا يُلَانَمُ وَصِفَ الْأَعْدَادُ هُوَ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ لِلْأَشْيَاءِ. فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْاِثْنَيْنِ اسْمٌ لِلشَّيْئَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا اِثْنَانِ، أَصْبَحَانِ اِثْنَانِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَمَا يَفْعَلُهُ الْاِسْمُ اِثْنَانِ هُوَ أَنْ يَدُلَّ دَلَالَةً اِيحَاطِيَّةً عَلَى عَمَلِيَّةِ جَمْعٍ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ لِتَكْوِينِ الْاِثْنَيْنِ، لَا أَنْ يَدُلَّ دَلَالَةً تَعْيِينِيَّةً عَلَيْهَا'. وَيَكْتَفِي الْعُمُوضُ هَذَا التَّعْلِيْقُ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا لَيْسَ حَتَّى اسْتِعْمَالُ جُونِ سِتُورْت مِل J. S. Mill الْمُعْتَادَ لِـ 'الدَّلَالَةِ الْاِيحَاطِيَّةِ'.

نِظَامَ رُومُوزٍ مُفْرَدَةٍ يَجْعَلُهَا تَبْدُو كَذَلِكَ. عَلَى أَنَّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَنَا مُهَيَّيْنَ لِتَقْبُلِ هَذَا الْإِمْكَانِ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ كُلُّ أَنْظِمَةِ الرُّومُوزِ لَا الرُّومُوزُ الْمُفْرَدَةُ وَحْدَهَا مِنْ اسْتِعْدَادٍ مَعْرُوفٍ لَا كِتْسَابٍ الْمَزِيدِ مِنَ الْاسْتِعْمَالِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ بَعْضَ أَقْسَامِ الرِّيَاضِيَّاتِ مَعْنِيٌّ عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ بِالْبَحْثِ فِي الْأَقْسَامِ الْأُخْرَى مِنْهَا. وَ"قَدْ يُوقَفُ الْمَنَاطِقَةُ إِلَى تَأْسِيسِ نَحْوٍ خَاصٍّ بِاللُّغَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ حِينَ يَتَخَلَّصُ الْمَنْطِقِيُّ تَمَامًا مِنَ الْمِيتَافِزِيْقَا. وَرُبَّمَا يُسَمَّوْهُ حَيْثُذِ نَحْوِ الْمَنْطِقِي، وَيُطْلَقُونَ عَلَى اللُّغَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ اسْمَ الْمَنْطِقِ. وَكُلُّ مَا هُوَ وَجِيبُهُ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ يَظَلُّ عَنَاصِرَ مُكُونَةٍ لِلنَّحْوِ- نَحْوِ عِلْمِ التَّفَكِيرِ بِاللُّغَةِ"⁽¹²⁾.

وَمِنْ الْمُهْمِّ، بَعْدَ هَذَا الْاسْتِطْرَادِ، أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ الْإِحَالَةَ، عَلَى مَا بَيَّنَّ آتِفَا، هِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ السِّيَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ وَالسَّايَكُولُوجِيَّةِ الَّتِي تَصِلُ الْعَمَلِيَّةَ الذَّهْنِيَّةَ بِالْمَرْجِعِ. فَلِذَا لَا يُحْتَمَلُ الْبَتَّةُ وَجُودُ إِحَالَتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ تَمَامًا. وَإِنَّا لَنُثِيرُ سُؤَالَ لَهُ مَدَاهُ حِينَ نَتَسَاءَلُ: أَيْسْتَعْمَلُ رَمَازَانِ لِإِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ- وَلَا سَيِّمَا حِينَ يَكُونُ الْمُسْتَعْمِلَانِ شَخْصَيْنِ ذَوَيْ خَلْفِيَّتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ-؟ [90] وَالْأَوَّلَى أَنْ يُتَسَاءَلَ: أَتُوجَدُ إِحَالَتَانِ مُتَشَابِهَتَانِ بِالْقَدْرِ الَّذِي يُتَبَيَّنُ نِقَاشًا مُثْمِرًا؟ فَإِذَا مَا كَانَ نَحْوُ هَذَا النِّقَاشِ مُمَكِّنًا قَبْلَ عَنِ الْإِحَالَتَيْنِ إِنَّهُمَا 'مُتَسَاوِيَتَانِ'. وَلَا وَسِيلَةَ مُتَاحَةً الْآنَ لِمَوَازَنَةِ مُبَاشِرَةٍ بَيْنَ الْإِحَالَاتِ. لِذَا كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَحْكُمَ بِالذَّلِيلِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ الْمُسْتَمَدِّ عَلَى نَحْوِ رَأْيٍ مِنْ مُرَاقِبَةِ السُّلُوكِ الْإِضَافِيِّ لِلْأَطْرَافِ الْمَعْنِيَّةِ. إِذْ نَلْحَظُ: أَيْنَشَأَ الشُّكُّ وَالْيَقِينُ فِي الْمَوَاضِعِ أَنْفُسُهَا؟ أَوْ يَسْمَحُ كِلَاهُمَا بِالْأَبْدَالِ فِي الْمَوَاضِعِ أَنْفُسُهَا؟ وَهَلُمَّ جَرًّا. غَيْرَ أَنَّ نَمَّةَ حَاجَةٍ مُلِحَّةً إِلَى اخْتِيَارِ أَسْهَلِ تَطْبِيقٍ مِنْ أَجْلِ الْإِجَابَةِ عَنْ عِدَّةِ تَسَاؤُلَاتٍ مُهِمَّةٍ فِي نَظَرِيَّةِ النَّحْوِ، وَلَا سَيِّمَا حِينَ تُنَاقَشُ دَرَجَةُ تَدَاخُلِ الْوُظُفِيَّتَيْنِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ وَالْإِحَالِيَّةِ لِلُّغَةِ. وَلَمْ يَبْقَ أَمَلٌ إِلَّا فِي التَّحْلِيلِ الْإِضَافِيِّ لِلْسِّيَاقَاتِ الْفَعَالَةِ فِي الْإِحَالَةِ، مَعَ مُرَاعَاةِ اخْتِيَابِ الْمُحَدِّدِ مِنْ بَيْنِ الْعَوَامِلِ السِّيَاقِيَّةِ الْكَثِيرَةِ، وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ قَدْ يَكْفُلُ تَوَافُرُ إِدْرَاكِ وَاضِحٍ لِلتَّعْقِيدَاتِ الْمَتَّصِمَةِ مَنْعَ جَزْمِيَّةٍ نَحْنُ فِي غَنَى عَنْهَا.

وإذا ما بدا أنَّ قِمَّةَ رَمَزَا يَرْمِزُ إِلَى مَرَجِعَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ وَجَبَ عَدُّهُ رَمَزَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، يَنْبَغِي تَمْيِيزُ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ، أَوْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَهَذَا الْقَانُونُ يَتَرَبَّصُ بِأَوْضَحِ أَنْوَاعِ اللَّبْسِ، كَالَّذِي فِي كَلِمَةِ top الَّتِي تَصُدِّقُ عَلَى (الْجَبَلِ)، وَعَلَى (اللُّعْبَةِ الدَّوَّارَةِ)⁽¹³⁾، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ. وَنَحْنُ نُمَيِّزُ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّمَزَيْنِ مِنَ الْآخَرِ بِمَعُونَةِ قَانُونٍ ثَانٍ يُعْنَى بِمَا اعْتَادَ النَّاسُ تَسْمِيَتَهُ تَعْرِيفًا، وَهُوَ كَذَلِكَ غَايَةٌ فِي الْأَهَمِّيَّةِ.

وإذا ما واجهنا رَمَزًا لَا نَفْهَمُهُ وَكُنَّا مِمَّنْ يُهْمُهُ الْأَمْرُ شَرْعًا نَتَّخِذُ رَمَزًا آخَرَ لَنَا الْقُدْرَةَ عَلَى تَأْوِيلِهِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ. حِينَئِذٍ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ: 'أَنَا أَعْلَمُ مَا يَعْنِيهِ الرَّمَزُ A، إِنَّهُ يَعْنِي عَيْنَ مَا يَعْنِيهِ الرَّمَزُ B'. (فَإِذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ إِنَّ 'chien' يَعْنِي 'dog'⁽¹⁴⁾)، كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ 'chien' و'dog' يَعْنِيَانِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ. كَذَلِكَ إِذَا كَانَ الرَّمَزُ طَوِيلًا أَوْ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلِاسْتِعْمَالِ، أَوْ يُحْتَمَلُ أَنْ يُسَاءَ فَهْمُهُ، اتَّخَذْنَا رَمَزًا مُلَانِمًا جَدِيدًا لِنَسْتَعْمِلَهُ بَدَلًا مِنْهُ. وَتَحَدَّثَ عَمَلِيَّةُ التَّعْرِيفِ نَفْسُهَا فِي الْحَالَتَيْنِ كِلْتَابِيَّتَيْهِمَا. وَتَسْتَدْعِي تَفْصِيْلَاتُ [91] آلِيَّةُ التَّعْرِيفِ الَّتِي يَتَطَلَّبُهَا الْبَحْثُ بِاسْتِمْرَارٍ دِرَاسَةً خَاصَّةً، وَسُتَعَالَجُ فِي الْفَصْلِ السَّادِسِ الْقَادِمِ. وَنُنَزِّلُ الْقَانُونَ الثَّانِي لِلرَّمْزِيَّةِ، أَيِ قَانُونِ التَّعْرِيفِ Definition، مَنَزَلَةً حَجَرِ الْأَسَاسِ:-

2. - الرَّمَزَانِ اللَّذَانِ يُمَكِّنُ اسْتِبْدَالَ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ يَرْمِزَانِ إِلَى إِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

يُمْكِنُنَا هَذَا الْقَانُونُ مِنْ أَنْ نَسْتَبْدِلَ بِالرَّمَزِ الْغَامِضِ 'top' الْمُرَادِفَ 'قِمَّةَ الْجَبَلِ mountain top' أَوْ 'اللُّعْبَةِ الدَّوَّارَةِ الْمُسَمَّاةَ بِهَذَا الْأَسْمِ 'spinning top'، فَيُزَوِّلُ الْعُمُوضُ بِذَلِكَ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ الْفَائِدَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَجْنِيهَا مِنْ هَذَا

(13) كَلِمَةُ top فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ قَدْ يُرَادُ بِهَا قِمَّةُ الْجَبَلِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا اللَّعْبَةُ الَّتِي تُسَمَّى بِهَذَا الْأَسْمِ، وَهِيَ لَعِبَةٌ مُصَمَّمَةٌ لِتَدَوَّرَ بِسُرْعَةٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَتُسَبِّبُ حَرَكَتَهَا بَقَاءَهَا مُتَوَازِنَةً بِدِقَّةٍ عَلَى ظَرْفِهَا بِسَبَبِ الْقُصُورِ الذَّائِفِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(14) الْكَلْبُ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ chien وَفِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ dog. [الْمُتَرَجِّمُ]

القانون. والذي يَحْبُبُ أَهْمِيَّتَهُ هو قَرُطُ بَسَاطَتِهِ. فَهُوَ الضَّامِنُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ. وَتَطْبِيقُهُ يُحَقِّقُ تَنْظِيمَ رُمُوزِنَا (الذي يُمكنُ أَنْ تُسْتَبَدَلَ بِهِ عِبَارَةٌ "نِظَامُنَا الْفِكْرِي"). فَمِنَ الْوَاضِحِ، مَثَلًا، أَنَّ الرُّمُوزَيْنِ 'مَلِكُ إِنْجِلْتِرَا' و'مَالِكُ قَصْرِ بَكْنِغْهَام' مَرَجُهُمَا وَاحِدٌ. وَهُمَا، مَعَ ذَلِكَ، لَا يَرْمِزَانِ إِلَى الْإِحَالَةِ نَفْسِهَا؛ لِإِلْخْتِلَافِ الشَّدِيدِ فِي السِّيَاقَاتِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي كُلِّ مِنَ الْحَالَتَيْنِ. فَهُمَا، اسْتِنَادًا إِلَى ذَلِكَ، لَا يَحُلُّ أَحَدُهُمَا مَحَلَّ الْآخَرِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ هَذَا الْقَانُونُ. فَالرُّمُوزُ الْبَدِيلَةُ الَّتِي يُمكنُ اسْتِعْمَالُهَا كَمَا "يُعَرَفُ"⁽¹⁵⁾ بَعْضُهَا بَعْضًا لَا يَكْفِي فِيهَا أَنْ يَكُونَ لَهَا مَرَجٌ وَاحِدٌ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَرْمِزَ إِلَى الْإِحَالَةِ نَفْسِهَا. وَعَادَةً مَا يُقَالُ عَنْ نَحْوِ هَذِهِ الرُّمُوزِ إِنَّ لَهَا 'الدَّلَالَةَ الْإِيحَائِيَّةَ' connotation، نَفْسَهَا، وَهِيَ تَعْبِيرٌ مُضَلَّلٌ وَخَطِرٌ، يَقْبَعُ تَحْتَ غِطَائِهِ خَلْطٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ بَيْنَ مَسْأَلَتَيْنِ مُتَمَازِيَتَيْنِ هُمَا اسْتِعْمَالُ الْإِحَالَاتِ وَصِحَّةُ التَّرْمِيزِ (يُنْظَرُ: ص 194، لَاحِظًا). وَاسْتِخْصُصَ الدَّلَالَةُ الْإِيحَائِيَّةُ لِمَزِيدٍ مِنَ النِّقَاشِ فِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ.

عَلَى أَنَّ اللُّغَةَ تَنْطَوِي عَلَى الْغَامِ مُفَخَّخَةً أَخْطَرَ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ الْمُلْبِسَةِ الْوَاضِحَةِ، وَ"مِنَ الْمُؤَكَّدِ"، عَلَى مَا يَقُولُ بَيْكِن، "أَنَّ كَلِمَاتٍ مِثْلَ قَوْسِ الثَّارِي"⁽¹⁶⁾ [92] تُصِيبُ الْفَهْمَ فِي مَقْتَلٍ وَتَوْقِعُ الْحُكْمَ فِي شَرَكِهَا وَتُفْسِدُهُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ". وَهَذِهِ الرُّمُوزُ الْمُعَقَّدَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْقَضَايَا، الَّتِي "تُمَوِّضُ" الْمَرَاجِعَ (يُنْظَرُ

(15) سَنَرَى فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ الضَّارِمَ لِلتَّعْرِيفِ يَنْفَعُ أَسَاسًا فِي بِنَاءِ أَنْظِمَةِ الرُّمُوزِ الْاسْتِدْلَالِيَّةِ. أَمَّا أَشْكَالُ التَّعْرِيفِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ حُرِّيَّةً وَالَّتِي يَكْفِي فِيهَا تَطَابُقُ مَرَجَيْ الرُّمُوزَيْنِ فَلَا يَنْبَغِي عَنْهَا فِي النِّقَاشِ الْعَامِّ.

(16) كَانَ الْغَزْوُ الْأَخِيرُ وَالْأَنْطَحُ لَأَوْرُبَا عَلَى يَدِ الثَّارِ أَوْ الْمَغُولِ الَّذِينَ قَهَرُوا كُلَّ مَنَ الصِّينِ وَرُوسِيَا فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ. وَأُطْلِقَ الْأَوْرُيُّونَ عَلَيْهِمْ اسْمَ الثَّارِ الْفَرَسَانِ، إِذْ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِهِمْ شَيَاطِينَ مِنْ مَنَاطِقَةِ تَارْتَارُوسِ الْجَهَنَّمِيَّةِ. وَقَدْ جَاءَتْ عِبَارَةُ (قَوْسِ الثَّارِي Tartar's Bow) فِي الْمَشْهُدِ الثَّانِي مِنَ الْفَصْلِ الثَّالِثِ فِي مَسْرُوحِيَّةِ شِيكْسْبِير (حُلُمُ لَيْلَةِ صَيْفِ A Midsummer Night's Dream) مُضْمَنَةً فِيمَا يَأْتِي: "إِنِّي أَمْضِي، إِنِّي أَمْضِي، انْظُرْ إِلَيَّ وَأَنَا أَمْضِي
أَسْرَعُ مِنَ السَّهْمِ الْمُتَطَلِّقِ مِنْ قَوْسِ الثَّارِي". [الْمُتَرْجِمُ]

القانونُ السَّادِسُ الْآتِي (ذَكَرُهُ) قَدْ تُضَيِّقُ أَوْ تُوسِّعُ. فَـ 'هَامَلِتْ كَانَ مَجْنُونًا' رَمَزُ مُضَيِّقٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُوسَّعَ قَبْلَ أَنْ يُخَضَّعَ لِلْبَحْثِ. أَمَّا 'هَامَلِتْ كَانَ مَجْنُونًا عَلَى الْمَسْرَحِ' أَوْ 'فِي تَاوِيلِي لِلْمَسْرَحِيَّةِ' فَقَدْ يَكُونَانِ رَمَزَيْنِ مُوسَّعَيْنِ لِمَا يُحَالُ عَلَيْهِ. وَتَتَأْتِي أَهَمِّيَّةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ كَوْنِهَا مَصْدَرٌ تَمَيِّزُ الصَّدَقِ مِنَ الْكَذِبِ. وَهِيَ تَأْخُذُ بِأَيْدِينَا إِلَى قَانُونِ الرَّمْزِيَّةِ الثَّالِثِ، قَانُونِ التَّوْسِيعِ Expansion :-

3. - مَرْجِعُ الرَّمَزِ الْمُضَيِّقِ هُوَ مَرْجِعُهُ مُوسَّعًا.

يُطْلَقُ أحيانًا عَلَى مَا يَنْشَأُ بِسَبَبِ مُخَالَفَةِ هَذَا الْقَانُونِ اسْمُ الْفَلْسَفَةِ، عَلَى مَا سَيُظْهِرُ شَيْئًا فَنَشِئًا.

وَمِنْ النَّتَائِجِ الْوَاضِحَةِ لِهَذَا الْقَانُونِ أَنَّ الْخَطْوَةَ الْأُولَى الَّتِي يَنْبَغِي اتِّخَاذُهَا عِنْدَ مُوَاجَهَةِ رَمَزٍ مُتَنَازِعٍ فِيهِ هِيَ تَوْسِيعُهُ، إِنْ أَمَكَنَّ، إِلَى شَكْلِهِ الْكَامِلِ - إِلَى شَكْلِ يُشِيرُ إِلَى الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ الْكَامِنَةِ وَرَاءَ الْإِحَالَةِ الَّتِي يَرْمِزُ إِلَيْهَا. وَأَمِثْلُهُ هَذَا التَّوْسِيعُ تَخْصُلُ بِاسْتِمْرَارٍ فِي كُلِّ نِقَاشٍ عِلْمِيٍّ. وَقَدْ سَنَحَتْ لَنَا فِي الْفَصْلِ الْأَخِيرِ فُرْصَةً تَوْسِيعِ 'مِنْصَدَّة' وَ'يَرَى'، وَسَنُحَاوِلُ جَهْدَنَا فِيمَا بَعْدُ أَنْ تُوسَّعَ 'الْمَعْنَى' بِكُلِّ الْأَتِّجَاهَاتِ الْمُمَكِنَةِ. وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّهُ فِي ظِلِّ غِيَابِ آيَةٍ نَظَرِيَّةٍ نِظَامِيَّةٍ لِلتَّأْوِيلِ لَمَّا يُنْجَزْ حَتَّى الْآنَ تَرْتِيبٌ مُحَدَّدٌ لِلْمُسْتَوَيَاتِ الَّتِي نُحِيلُ عَلَيْهَا. بَلْ إِنَّ فِكْرَةَ وُجُودِ مُسْتَوَى إِحَالِيٍّ مَا زَالَتْ غَامِضَةً. مَعَ أَنَا حِينَ نُحِيلُ عَلَى 'ذَلِكَ الْحَيَوَانِ'، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى 'ذَلِكَ الْوَشَقِ' (17)، رُبَّمَا بَعْدَ دَرَاةٍ إِضَافِيَّةٍ لِأَثَارِ أَقْدَامِهِ، سَتَكُونُ إِحَالَتُنَا عَلَى الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ لَكِنْ بِمُسْتَوَيْنِ تَاوِيلِيَّيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ [93] عَلَى وَجْهِ مُحَدَّدٍ يَتَضَمَّنُ عِدَّةَ تَطْبِيقَاتِ الْعَمَلِيَّاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ وَدَرَجَةَ تَعْقِيدِ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ. وَفِي نَحْوِ هَذِهِ الْحَالَاتِ الْبَسِيطَةِ نَسْبِيًا يَسْهُلُ وَضْعُ الْأُمُورِ فِي نِصَابِهَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي حَالَاتٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا - حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْحُكُومَةِ، وَالسُّمَعَةِ، وَالْوَطَنِيَّةِ،

(17) يَعْظُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِآلِيَّةِ تَنْظِيمِ الْجِنْسِ وَالنَّوْعِ لِهَذَا الْغَرَضِ فِي مَرَاجِلَ مُعَيَّنَةٍ فِي عُلُومٍ مُعَيَّنَةٍ كَعِلْمِ الْحَيَوَانِ، وَعِلْمِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ، وَعِلْمِ الثِّبَاتِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. لَكِنَّ هَذِهِ الْآلِيَّةَ لَا تَكُونُ بِنَاكِ الْفَائِدَةِ فِي مَرَاجِلَ أُخْرَى سَابِقَةٍ أَوْ لَاحِقَةٍ، أَوْ خَارِجَ تِلْكَ الْعُلُومِ.

والإيمان، والجمال، والعاطفة، وما إلى ذلك. وكل ما اعتدنا أن نناقشه من موضوعات يشيع الاهتمام بها يعاني عَدَمَ يَقين يَضُعبُ تحديده بشأن مُستوى تأويل الإحالة التي ترمز إليها. وجميع المعنيين بالتعليم يعلمون ما الذي ترمز إليه 'مستويات الإحالة' وثمة حاجة ماسة إلى تحليل للمسألة أكثر اكتمالاً. وقد سبقت في الفصل الرابع محاولة في هذا الاتجاه. على أن من المؤسف أن يكون الأشخاص أنفسهم الذين يُحتمل احتمالاً كبيراً أن ينجحوا بفضل قدرتهم التحليلية من أشد الناس كراهة لمعالجة المشكلات إلى حين صياغتها صياغة مفصلة.

وفي غضون ذلك يستمر تخليط الجهاز الرمزي عموماً؛ بدلاً من التوسيعات لا يُقدّم إيضاح الرموز المشكوك فيها عادةً إلا إفراطات نمو رمزية، بما يؤدي إلى تخليط أكبر من ذلك الذي كان يمكن أن تؤدي إليه التضيقات التي تحل محلها. وفي الفقرة التالية ما يكفي من الأمثلة لذلك. ولكل من التضيقات والتوسيعات الزائفة النتيجة نفسها - ملء العالم بكيانات زائفة، وظن الآليات الرمزية مراجع. والعلاج الدائم الوحيد يكمن في اكتشاف التوسيع المناسب، وذلك بالبحث في الحال العلامة التي تقود إلى الإحالة التي قد رُمز إليها على نحو مشكوك فيه⁽¹⁸⁾.

والحق أنه يمكن أن يدرك بسهولة أنه إلى حين تحقق ذلك لن تجدي إثارة تساؤلات إضافية بشأن حقيقته أو علاقته بالرموز الأخرى؛ ذلك بأن الرمز المضيق لا يجعل 'موضع' مرجعه واضحاً، ومن ثم لا يمكن بحثه. إن تمييز صديق الرموز من كاذبها أمر [94] لا يمكن أن يكون النقاش فيه مثمراً باستعمال ألفاظ عامة، أي بواسطة تضيقات أو اختزال لغوي. فالصحيح أن يوكل الأمر في كل قضية إلى المختص الذي يستطيع بفضل طول إلفه الأحوال العلامة الفعلية المتضمنة أن يُقرّر في ضمن مجاله الخاص للإحالة أي الرموز صادق وأيها كاذب. ولم ينشأ ما يُعرف بمشكلة الصدق إلا بسبب نحو هذا النقاش في الرموز

(18) يُعبّر عن ذلك بكلمات بسيطة لكنها فضفاضة، بأننا لا نكون على يقين مما يقال إلا حين نعلم لم قيل، وإن كان واجباً علينا ألا نفجّم الدوافع في 'لم'.

المُضَيِّقَةِ. فَبَدَلًا مِنْ مُعَالَجَةِ كُلِّ حَالَةٍ كِفَايَةً بِحَسَبِ مَا فِيهَا مِنْ مِيزَاتٍ، يَرَى
الْإِسْتِمُولُوجِيُونَ أَنَّهُمْ مَا دَامُوا قَادِرِينَ عَلَى اسْتِعْمَالِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَوْصِفُهَا اخْتِزَالًا
عَلَامِيًّا مُرَبِّحًا لِلِحَالَةِ عَلَى جَمِيعِ الرُّمُوزِ الصَّادِقَةِ فَلَا بُدَّ أَنَّ ثَمَّةَ مَا هُوَ مُنَاحٌ لَهُمْ
لِلْبَحْثِ فِيهِ بِصَرَفِ النَّظَرِ عَنِ الْقَضَايَا الصَّادِقَةِ وَالكَاذِبَةِ. وَلَا تَنْشَأُ أَيُّهُ مُشْكَلَةٌ بِسَبَبِ
أَيَّةِ قَضِيَّةٍ صَادِقَةٍ حِينَ تُمَيِّزُ يَوْصِفُهَا كَذَلِكَ، وَلَيْسَ ضَرُورِيًّا هُنَا إِثَارَةُ مُشْكَلَةٍ زَائِفَةٍ
كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ ضَرُورِيًّا افْتِرَاضُ 'حُمْرَةٍ' عَامَّةٍ بِسَبَبِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْحُمْرَ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنْهَا أَحْمَرُ. وَتُمَيِّزُ الْأَصْنَافُ الْآنَ عَلَى أَنَّهَا تَحْتِلَاتٌ رَمْزِيَّةٌ، وَلَنْ يَكُونَ الْمَنَاطِقَةُ
الرَّمْزِيُونَ مَنْطِقِيَّيْنَ إِلَّا حِينَ يَقْرُونَ بِأَنَّ الْكَلِمَاتِ تُمَثِّلُ تَسِيرًا تَنَاطُرِيًّا. وَمِنْ الْمُحْتَمِّ
حِينَئِذٍ أَنْ يُجَرَّدَ عَالَمُ الْوُجُودِ الْخَالِصِ مِنْ قَاطِنِيهِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَانَتْ نَظَرِيَّةُ
الْكَلِمَاتِ مُحَاوَلَةً لِتَقْدِيمِ تَفْسِيرٍ لَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُلْحَظَ أَنَّ آلِيَاتِنَا الرَّمْزِيَّةَ (التَّشَابُهَ،
وَمَا إِلَيْهِ) تَعْمَلُ قِيَمَتَهَا وَيَسْهَلُ فَهْمُهَا حِينَ يَتَلَاشَى هَؤُلَاءِ الْأَسْلَافُ الْمُحْتَطُونَ.

وقد تُضَافُ بَعْضُ الْاِعْتِبَارَاتِ مِنْ خِلَالِ تَفْسِيرِ هَذِهِ التَّسِيرَاتِ الرَّمْزِيَّةِ.
فَتَكْيِيفَاتُ أَعْضَاتِنَا الْحِسِّيَّةِ، وَالْأَشْيَاءُ عَلَى مَا شَرَعْنَا نَعْرِفُهَا مِنْ خِلَالِ تَأْوِيلِ هَذِهِ
الْعَلَامَاتِ، هِيَ عَلَى الدَّوَامِ مُرَكَّبٌ أَوْ أَجْزَاءٌ لِمُرَكَّبٍ. بَلْ إِنَّ الْبُقْعَةَ الْبَالِغَةَ الصَّغِيرَ
الَّتِي تَبْسَبُ اضْطِرَابَ جِهَازِ اللَّوْنِ فِي الْعَيْنِ فِي أَنْ نَدْعُوَهَا النُّجْمَةَ الَّتِي لَا تَكَادُ
تُرَى، يُحِيطُ بِهَا مَجَالٌ مُظْلِمٌ. وَكُلُّ مَا فِي هَذِهِ الْعَلَامَةِ مِمَّا يُمْكِنُ الْحَدِيثُ عَنْهُ هُوَ
هَذَا الْمُرَكَّبُ، وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَدُّثَ عَنْهُ بِأَسَالِبَ مُخْتَلِفَةٍ. فَبِمَاكَانَا أَنْ نَقُولَ:
"الْبُقْعَةُ فِي الْمَجَالِ" أَوْ "يُحِيطُ بِهَا الْمَجَالُ" أَوْ "جُزْءٌ مِنَ الْمَجَالِ" أَوْ "مُرْتَبِطَةٌ
بِالْمَجَالِ" [95] بِعَلَاقَةٍ كَوْنِيَّهَا مَحْصُورَةٌ، أَوْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: "هَذِهِ الَّتِي لَهَا
خَاصِيَّةٌ أَنْ تَكُونَ بُقْعَةً مُرْتَبِطَةٌ بِذَاكَ الَّذِي لَهُ خَاصِيَّةٌ أَنْ يَكُونَ مَجَالًا بِعَلَاقَةٍ
الْانْضِواءِ". هَذِهِ عِبَارَاتٌ بَدِيلَةٌ، وَمُتَسَاوِيَةٌ فِي الصِّدْقِ. فَ"بُقْعَةٌ فِي مَجَالٍ" اسْمٌ،
كَمَا أَنَّ "بُقْعَةً" اسْمٌ أَيْضًا. عَلَى أَنَا نُفَضِّلُ فِي مُنَاسَبَاتٍ أُخْرَى أَنْ نَرْمِزَ إِلَى
الْإِحَالَاتِ فِي ظُرُوفٍ تَصِحُّ فِيهَا إِعَادَةُ اسْتِعْمَالِ الْأَسْمَاءِ أَنْفُسِهَا. وَيَجْدُرُ بِنَا أَنْ
نَقْتَصِدَ فِي مَادَّةٍ رَمُوزِنَا؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نُعِيدَ اسْتِعْمَالَهَا مِرَارًا وَتَكَرَّرًا، عَلَى نَحْوِ
نِظَامِيٍّ، مُعَرِّضِينَ أَنْفُسَنَا لِعَاقِبَةِ الْإِخْفَاقِ فِي التَّوَاصُلِ. فَإِذَا مَا اسْتَبَدَّلْنَا بِالْاسْمِ
'هَذِهِ الْبُقْعَةُ' نُمَوِّزُهَا أَكْثَرَ ثَرَاءً هُوَ 'هَذِهِ الَّتِي لَهَا خَاصِيَّةٌ أَنْ تَكُونَ بُقْعَةً'

فسيُغرينا هذا بأن نَفْتَرِضَ أَنَّ الـ'هذه' تَرْمِزُ إلى مَرَاجِعَ مُخْتَلِفَةٍ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْمُنَاسَبَاتِ، أَمَّا 'خَاصِيَّةُ' أَنْ تَكُونَ 'بُقْعَةً' فَلَا تَرْمِزُ إِلَّا إلى مَرَجِعٍ وَاحِدٍ هُوَ الْمَرَجِعُ نَفْسُهُ.

على هذا النَّحْوِ تَنشَأُ 'الصِّفَاتُ' الْكُلِّيَّةُ، وَهِيَ أَوْهَامٌ تُسَبِّبُهَا الْقُوَّةُ الْإِنْكِسَارِيَّةُ لِلْوَسْطِ اللَّغَوِيِّ، وَجِبَتْ إِلَّا تَعَامَلْ هَذِهِ بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ أَثَاثِ الْكَوْنِ، لَكِنَّهَا مُفِيدَةٌ بِوَصْفِهَا مُكْمَلَاتٍ رَمَازِيَّةً symbolic accessories ثُمَّ كُنَّا مِنَ الْاِقْتِصَادِ فِي مَادَّتِنَا الْكَلَامِيَّةِ. وَتَنشَأُ 'العَلَاقَاتُ' الْكُلِّيَّةُ عَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ تَمَامًا، وَهِيَ تَنْطَوِي عَلَى الْإِغْرَاءِ نَفْسِهِ. إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ تُعَدَّ تَنْسِيرَاتٍ رَمَازِيَّةً عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ. أَمَّا دَعْوَانَا 'الْمُشَابَهَةُ' وَ'عَدَمُ الْمُشَابَهَةِ' اللَّتَانِ كَثِيرًا مَا يُفْتَرَضُ تَمَيُّزُهُمَا اسْتِنَادًا إِلَى حُجَجِ رَمَازِيَّةٍ خَالِصَةٍ (يُنْظَرُ: كِتَابُ رِسَلٍ مِنْ مُشْكِلَاتِ الْفَلَسَفَةِ *Some Problems of Philosophy*, ص 150) فَلَا تَخْتَلِفَانِ فِي شَيْءٍ الْبَتَّةَ.

وَلَيْسَ مِنَ الْمَشْرُوعِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ، بَلْ فِي حَالَةِ الْمُشَابَهَةِ هَذِهِ أَيْضًا، اخْتِلَاقُ كِيَانَاتٍ عَدَمِيَّةٍ مِنْ أَجْلِ تَعْلِيلِ الْاسْتِعْمَالِ النَّظَامِيِّ لِلرُّمُوزِ. أَمَّا أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ دَلِيلٍ آخَرَ يَشْهَدُ لَهَا غَيْرُ نَاجٍ مِنْ ضَرُورَاتِ رَمَازِيَّةٍ فَحَسْبُ⁽¹⁹⁾، فَهَذَا [96] أَمْرٌ

(19) أَيِ مُفْتَضِيَّاتٍ نَحْوِيَّةٍ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مَا سَنَذْكُرُهُ قَدْ يَكُونُ مُحِيطًا، لَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسَى أَنَّهُ لَيَكُونُ انْعِكَاسُ بَنِيَّةِ الْعَالَمِ بَعِيدًا جَدًّا مِنَ النَّحْوِ - بَنِيَّةِ النَّظَامِ الرَّمْزِيِّ - يَزْدَادُ احْتِمَالُ أَنْ تَكُونَ أَثَرُهُ بَنِيَّةً مُفْتَرَضَةً لِلْعَالَمِ انْعِكَاسًا لِلنَّحْوِ الْمُسْتَعْمَلِ. وَهُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْحَاءِ الْمُمَكِّنَةِ الَّتِي تَخْتَلِفُ فِيهَا بَيْنُهَا اخْتِلَاقًا جَوْهَرِيًّا. وَتَطَوُّرَاتُهَا الْمُتَعَدِّدَةُ إِنْ تَعَكَّسَتْ تَعَكَّسَتْ سِمَاتِ التَّجَارِبِ الْمُبَكَّرَةِ لِلْأَقْوَامِ الَّذِينَ خَذَلَتْ فِيهِمْ، وَاهْتِمَامَاتِهِمُ الرَّئِيسَةَ، وَأَنْظَمَتُهُمُ الْفَعَالَةَ، وَرُبَّمَا بَنِيَّةُ أَنْظَمَتِهِمُ الْعَصَبِيَّةِ الْمَرْكَزِيَّةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِحَّةِ مَا يُذَكِّرُ مِنْ أَنَّ النَّحْوَ قَدْ يَعْكِسُ احْتِيَاجَاتِ قَوْمٍ مَا وَجْهَةً نَظَرِهِمْ، وَأَنَّهُ بِسَبَبِ تَشَابُهِ هَذِهِ الْاِحْتِيَاجَاتِ قَدْ تَكُونُ ثَمَّةَ بَنِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ الْبَدَائِيَّةِ وَالْقَدِيمَةِ، لَا يَسْتَنْبِغُ ذَلِكَ (مَعَ إِمْكَانِهِ بِلَا شَكٍّ) أَنَّ اللُّغَةَ الثَّامَّةَ الْإِنْجِسَامِ الَّتِي تُلَبِّي احْتِيَاجَاتِ الْعِلْمِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ تَحْتَفِظُ بِأَيِّ قَدَرٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ، أَوْ أَنَّهَا بِنَفْسِهَا تَجْعَلُ بَنِيَّتَهَا مُنَاطَرَةً لِبَنِيَّةِ الْعَالَمِ عَلَى نَحْوِ مُبَاشِرٍ. وَافْتِرَاضُ أَنَّ الْأَمْرَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ يَعْنِي الْغَفْلَةَ عَنْ كَوْنِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَفْكَارِ وَالْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، عَبْرَ الْإِحَالَةِ. وَفِي التَّذِيلِ A الْمَخْصَصِ لِلنَّحْوِ مَزِيدٌ يُقَاسَى لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

مُخْتَلِفٌ. وَالْحَقُّ أَنَّهَا رَاسِخَةٌ رُسُوحٌ مَلَكَةٌ الْمَعْرِفَةِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ. إِنَّ حُصُولَ الْمُتَشَابِهَاتِ لَا يَقْسُرُنَا عَلَى إدْرَاكِ 'التَّشَابُه'، وَهُوَ مِنَ الْكَلِّيَّاتِ، عَلَى نَحْوِ أَعْظَمَ مِمَّا يُجْبِرُنَا حُصُولَ الْمَعْرِفَةِ عَلَى إدْرَاكِ مَلَكَةِ الْمَعْرِفَةِ. إِنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَفْعَلُهُ هُوَ قَسْرُنَا عَلَى إدْرَاكِ حُصُولِ الْمُتَشَابِهَاتِ. وَوُجُودُ أَشْيَاءَ مُتَشَابِهَةٍ مَعْلُومَةٍ طَبِيعِيَّةٌ. وَلَا مُسَوِّغٌ لَجَعْلِهَا، بِاسْتِغْلَالِ الْاِقْتِصَادِ فِي الرُّمُوزِ، قَاعِدَةً لِلْمَعْرِفَةِ الْمِيتَافِيزِيْقِيَّةِ- بُرْهَانًا عَلَى وُجُودِ عَالَمٍ آخَرَ مِنَ الْوُجُودِ الْخَالِصِ حَيْثُ 'تَكُونُ' الْكِيانَاتُ، لَكِنْ بِلَا وُجُودٍ. وَلَا تَصِحُّ آيَةٌ حُجَّةٌ بِشَأْنِ الْعَالَمِ لَا تَسْتَنِدُ إِلَّا إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَصَرَّفُ عَلَى وَفْقِهَا نِظَامُ الرُّمُوزِ⁽²⁰⁾. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُثَمِّرَ مِثْلُ هَذِهِ

(20) ظَرِيفٌ أَنْ يُؤَاوِزَ هَذَا الْبَحْثُ الْمُضَادُّ لـ 'الْكَلِّيَّاتِ' بِوَجْهَةٍ نَظَرِ السَّيِّدِ رَامْسِي F. P. Ramsey مِنْ كَلْبِيَّةِ الْمَلِكِ فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِج (فِي دَوْرِيَّةِ *Mind*، أَكْتُوبَر، 1925، ص 404-405)، إِذْ يَقُولُ: "فِي قَوْلِنَا: 'سُقْرَاطُ حَكِيمٌ': سُقْرَاطُ هُوَ الْمَوْضُوعُ subject [الْمُسْتَدُّ إِلَيْهِ، أَوِ الْمُبْتَدَأُ. الْمُتَرْجِمُ]، وَحَكِيمٌ هُوَ الْمَحْمُولُ predicate [الْمُسْتَدُّ، أَوِ الْحَبْرُ. الْمُتَرْجِمُ]. فَلَوْ عَكَسْنَا الْقَضِيَّةَ فَقُلْنَا: 'الْحِكْمَةُ خَصِيصَةٌ لِسُقْرَاطُ' لَأَصْبَحَتِ الْحِكْمَةُ مَوْضُوعًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَحْمُولًا. وَمِنْ أَوْضَحِ الْأُمُورِ الْفَلَسَفِيَّةِ عِنْدِي أَنَّ كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ 'سُقْرَاطُ حَكِيمٌ' وَ'الْحِكْمَةُ خَصِيصَةٌ لِسُقْرَاطُ' تُؤَكِّدُ الْحَقِيقَةَ نَفْسَهَا ... لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمَا لَيْسَتَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، لَكِنْ لُهُمَا الْمَعْنَى نَفْسُهُ، كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْجُمْلَتَيْنِ بِلَغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ الْمَعْنَى نَفْسُهُ. أَمَّا اخْتِيَارُ إِحْدَى الْجُمْلَتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى فَيَتَّبِعُ إِنَّمَا الْأَسْلُوبَ الْأَدَبِيَّ وَإِنَّمَا وَجْهَةَ النَّظَرِ الَّتِي تُقَارِبُ الْحَقِيقَةَ بِهَا ... وَلَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ الْمُنْطَقِيَّةِ لِسُقْرَاطُ أَوِ الْحِكْمَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنٌ نَحْوِيٌّ خَالِصٌ".

وَيَرْغُمُ السَّيِّدَ رَامْسِي أَنْ "الْحُجَّةُ الْمَذْكُورَةُ أَيْضًا تَبَعْتُ عَلَى الشَّكِّ فِي مُجْمَلِ قَاعِدَةٍ تَمَيِّزُ الْجُزْئِيَّ مِنَ الْكَلِّيِّ"، وَ"أَنَّ جَمِيعَ الْفَلَسَافَةِ تَقْرِيبًا، وَبِضْمَنِهِمُ السَّيِّدَ رَيْسِلَ، قَدْ ضَلَّلْتُهُمُ اللَّغَةُ عَلَى نَحْوِ أَبْعَدَ مَدَى" مِنْ افْتِرَاضِ أَنْ كُلَّ الْقَضَايَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى صُورَةِ الْمَوْضُوعِ- الْمَحْمُولِ، وَ"أَنَّ نَظَرِيَّةَ الْجُزْئِيَّاتِ فِي جُمْلَتِهَا مَرَّثَهَا إِلَى الْخَطَأِ فِي تَبْيِيهِ الصِّفَةِ الْمُمَيِّزَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلوَاقِعِ، الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ بِوَسْطَى الصِّفَةِ الْمُمَيِّزَةِ لِلْغَةِ". مَعَ ذَلِكَ، كَانَ قَدْ كَتَبَ قَبْلَ ذَلِكَ بِنَحْوِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا فِي الدَّوْرِيَّةِ نَفْسِهَا (*Mind*)، يَنَابِرَ، 1924، ص 109)، بِوَصْفِهِ مُؤَمَّنًا بِالْكَلِّيَّاتِ، عَنِ الْكِتَابِ الْحَاضِرِ أَنَّ الْمُؤَلِّفَيْنِ "يَعْمَازَانِ عَنِ رُؤْيَا وَوُجُودِ الْمُشْكِلَاتِ الْمُنْطَقِيَّةِ، وَيَقْتَرِحَانِ أَنْ يُسْتَبَدَّلَ بِالْفَلَسَفَةِ 'عِلْمُ الرُّمُوزِيَّةِ' وَعِلْمُ النَّفْسِ". عَلَى أَنَّ إِحَالَةَ الْمُشْكِلَاتِ عَلَى النُّحْوِيِّينَ لَا يَسْتَوِي وَالْعَجْزُ عَنِ رُؤْيَا وَوُجُودِهَا.

الحُجَج [97] معرفةً إلّا ما يتعلّق منها بنظامِ الرموزِ المعنويّ. وكثيراً ما تكونُ هذه المعرفةُ عظيمةَ القيمةِ. وجميعُ المناهجِ التي تميّزُ الرموزَ الخاصّة، أي الأسماءَ names، من المُكَمَّلَاتِ الرّمزيّةِ مناهجٌ مهمّةٌ.

قد تحدّثنا آنفاً عن الانعكاسِ والانكسارِ عبرِ الوَسَطِ اللغويّ. وإذا ما رُويَتْ هاتانِ الاستيعارتانِ بِتَأْنٍ فَلَنْ تَكُونَا مَصْدَرِ تَضْلِيلٍ. على أَنَّ أَفْضَلَ وَصْفٍ لِلْغَةِ، وَإِنْ ذُكِرَتْ كَثِيرًا عَلَى أَنَّهَا وَسِيلَةٌ تَوَاضَلُ، هُوَ أَنَّهَا آلَةٌ، وَجَمِيعُ الْآلَاتِ مَا هِيَ إِلَّا تَوْسِيعَاتٌ، أَوْ تَهْذِيبَاتٌ لِأَعْضَائِنَا الْحِسِّيَّةِ. فَالْمِقْرَابُ، وَالْهَاتِفُ، وَالْمِجْهَرُ، وَمُكَبِّرُ الصَّوْتِ، وَالْمِقياسُ الكَلْفَانِي، شَأْنُهَا شَأْنُ النَّظَارَةِ الْأَحَادِيَّةِ الرَّجَاجَةِ أَوِ الْعَيْنِ نَفْسِهَا، قَادِرَةٌ عَلَى تَمْوِيهِ، أَيْ تَقْدِيمِ، أَعْضَاءٍ مُلَانِمِينَ جُدِّدَ إِلَى سِيَقَاتٍ عِلَامَاتِنَا. وَمِثْلَمَا تَوْسَعُ الْآلَةُ الاسْتِيقْبَالُ أَعْضَاءُنَا تَوْسَعُ الْآلَةُ الْمُعَالَجَةِ الْيَدَوِيَّةِ الْبَارِعَةُ مَجَالَ الْفَعَالِيَّاتِ الْحَرَكَتِيَّةِ. فَإِذَا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُشِيرَ فِعْلِيًّا إِلَى الدَّبِيَّةِ الَّتِي قَتَلْنَاهَا أَخْبَرْنَا أَصْدِقَاءَنَا عَنْهَا أَوْ رَسَمْنَاهَا، فَإِنْ أُتِيحَتْ لَنَا آلَةٌ أَفْضَلُ قَلِيلاً مِنَ الْغَةِ قَدَّمْنَا صُورَةً فُوتُوغْرَافِيَّةً لَهَا. وَالْمِقياسُ نَفْسُهُ يَصْدُقُ عَلَى الاسْتِيعْمَالَاتِ الْانْفِعَالِيَّةِ لِلْغَةِ: فَالْكَلِمَاتُ يُمكنُ اسْتِيعْمَالُهَا بِوَصْفِهَا هَرَاوِي وَدَبَابِيْس. غَيْرَ أَنَّهُ يَشِيعُ فِي التَّصْوِيرِ الْفُوتُوغْرَافِي أَنْ يُخْطِئَ الْهُوَاءُ فِي تَمْيِيزِ نَتَائِجِ عَمَلِيَّاتِ الْمُعَالَجَةِ مِنْ سِمَاتِ الْأَشْيَاءِ الْمُصَوَّرَةِ. وَاسْتَغْلَّ الْخُبْرَاءُ بَعْضُ هَذِهِ النَّتَائِجِ لِأَغْرَاضٍ أَهْمُهَا اخْتِيارُ الرَّاجِلِ السَّيْرِ آرْتُر كُونان دويل Sir Arthur Conan Doyle⁽²¹⁾ وَمَنْ يَرَى رَأْيَهُ⁽²²⁾. فَكَذَلِكَ الْغَةُ

(21) آرْتُر كُونان دويل (1859-1930م). أديبٌ، وطبيبٌ بريطانيٌّ. مُبتدِعُ شَخْصِيَّةِ شرلوك هولمز الْخَيَالِيَّةِ، الَّتِي عَاشَ مَعَهَا فِي حَالَةِ صِرَاعٍ؛ إِذْ اعْتَقَدَ أَنَّهَا حَارَتْ مِنَ الشَّهْرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا حَارَ هُوَ نَفْسُهُ. وَقَدْ كَانَ رُوحَانِيًّا يُؤْمِنُ أَنَّ الْأَشْيَاحَ وَالْأَرْوَاحَ يُمكنُ الْاِتِّصَالُ بِهَا بِاسْتِيعْمَالِ وَسِيطٍ. وَمِنْ أَجْلِ اقْتِنَاعِ الْآخَرِينَ بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ اخْتَارَ أَنْ يَحِثَّ شَخْصِيًّا فِي إِنتَاجِ صُورِ الْأَشْيَاحِ مِنَ الْوَسْطَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مَهَرَّةً فِي تَوْلِيدِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ. وَقَدْ نُشِرَتْ اكْتِشَافَاتُهُ بِهَذَا الشَّانِ سَنَةَ 1923 فِي كِتَابِ عِنَاؤُهُ (الْحُبَّةُ الْمُؤَيَّدَةُ لِتَصْوِيرِ الْأَرْوَاحِ). وَنُشِرَ بَاتَرِكُ وَوَيْلِي سِمْثُ كِتَابًا أَسْمَاؤُهُ (الْحُبَّةُ الْمُضَادَّةُ لِتَصْوِيرِ الْأَرْوَاحِ). [المُترجم]

Cf. *The Case against Spirit Photographs*, by W. Whately Smith and C. V. Patrick, pp. 33-36. Cf., now (1946) *Mind*, July, 1945, p.225.

مَمْلُوءَةٌ بِعَنَاصِرَ لَا وَظِيفَةً تَمَثِيلِيَّةً أَوْ رَمْزِيَّةً لَهَا، مَرَدُّهَا إِلَى مُعَالَجَةِ اللُّغَةِ فَحَسْبُ، يُسِيءُ كَذَلِكَ الْمِيتَافِزِيقِيُونَ وَمَنْ يَرَى رَأْيَهُمْ تَأْوِيلَهَا أَوْ اسْتِغْلَالَهَا لِأَغْرَاضٍ أَهْمُهَا اخْتِيَارُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا - وَيَضْدُقُّ ذَلِكَ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلِإِصْغَاءِ إِلَيْهِمْ.

وَتُشَكِّلُ الْكِيَانَاتُ الْخَيَالِيَّةُ الَّتِي تُقَدِّمُهَا اللُّغَةُ عَلَى هَذَا النُّحُو [98] ضَرْبًا خَاصًّا مِمَّا يُدْعَى تَخَيُّلاتِ fictions. لَكِنَّ هَذَا الْمُصْطَلَحَ غَامِضٌ جَدًّا عَلَى مَا يُظْهِرُهُ اسْتِعْمَالُ فَايَهِنْغَرِ Vaihinger⁽²³⁾ لَهُ، وَهَذِهِ التَّخَيُّلاتُ الْمَزْعُومَةُ لَا يُمَكِّنُ تَمَيِّزُهَا كَثِيرًا مِنَ الْفَرَضِيَّاتِ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ سِوَى إِحَالَاتٍ غَيْرِ مُثَبَّتَةٍ. وَبَعْضُ الْمُجَرَّدَاتِ، كَالرَّجُلِ الْاِقْتِسَادِيِّ 'economic man'⁽²⁴⁾، لَهَا هَذِهِ الطَّبِيعَةُ، مَعَ أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِهَا لِمَنْهَجِيَّتِهَا الْخَالِصَةِ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى قَدْ يُوقَفُ يَوْمًا مَا عَلَى مَرَاجِعٍ لِلْكَثِيرِ مِنَ التَّمَثَّلَاتِ الذَّهْنِيَّةِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْخَيَالِيَّةِ كَدُونِ جَوَانِ Don Juan⁽²⁵⁾ وَإَوْبَرْمِينَش

(23) هَانز فَايَهِنْغَر (1852-1933م). فِيلَسُوفُ الْمَانِي، وَصَاحِبُ نَظَرِيَّةِ (كَأَنَّ) (as if). كَانَ جَمَّ النِّشَاطِ، لَكِنَّ بَصَرَهُ الْكَلِيلَ أَقْعَدَهُ عَنْ هَمَّتِهِ وَأَجْبَرَهُ عَلَى اعْتِزَالِ التَّدْرِيسِ الْجَامِعِيِّ. وَجَاءَتْ فِلَسَفَتُهُ وَلِيْدَةً ظُرُوفِهِ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ التَّخَيُّلِيَّةِ (أَوْ الْاِخْتِلَاقِيَّةِ) fictionalism، وَشَرَحَهَا فِي كِتَابِهِ الرَّئِيسِ (فِلَسَفَةُ كَأَنَّ) سَنَةَ 1911 الَّذِي تَرَجَّمَهُ أَوْغِدِنُ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَنُشِرَ سَنَةَ 1924. وَخُلَاصَةُ فِلَسَفَتِهِ هَذِهِ أَنَّ الْوَاقِعَ يَقْصُرُ عَنِ الْوَفَاءِ بِطُمُوحِ الْإِنْسَانِ، فَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ حَاجَتُهُ الدَّائِمَةُ إِلَى اخْتِلَاقِ عَالَمٍ يَسْتَكْمِلُ بِهِ هَذَا الْوَاقِعَ. وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ تَخَيُّلَاتِهِ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنْ هَذَا الْوَاقِعِ، لَكِنَّهُ يَتَمَسَّكُ بِهَا لِأَنَّهَا مُفِيدَةٌ عَمَلِيًّا. [الْمُتَرَجِّمُ]

(24) الرَّجُلُ الْاِقْتِسَادِيُّ: مَفْهُومٌ خَيَالِيٌّ تَنْظُويٌّ عَلَيْهِ بَعْضُ النِّظَرِيَّاتِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الْإِنْسَانِ بِوَصْفِهِ عَقْلَانِيًّا تَمَامًا وَمُهْتَمًّا بِنَفْسِهِ عَلَى نَحْوِ صَبِيٍّ، وَلَدِيهِ الْقُدْرَةُ عَلَى إِنْجَازِ الْأَحْكَامِ بِشَأْنِ غَايَاتِهِ الْمُحَدَّدَةِ ذَاتِيًّا. إِذْ يُحَاوِلُ الرَّجُلُ الْاِقْتِسَادِيُّ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ الْعَقْلَانِيَّةِ مِنْ أَجْلِ تَعْظِيمِ انْتِفَاعِهِ بِوَصْفِهِ مُسْتَهْلِكًا، وَرِنَجِهِ الْاِقْتِسَادِيِّ بِوَصْفِهِ مُنْتِجًا. وَيَقِفُ هَذَا الْمَفْهُومُ بِالْقُدْرَةِ مِنَ الْمَفْهُومِ الَّذِي يَقَرُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَدْفَعُهُ ابْتِدَاءً رَغْبَتُهُ فِي التَّعَاوُنِ وَفِي تَحْسِينِ بَيْنَتِهِ. وَأَوَّلُ اسْتِعْمَالٍ لِمُصْطَلَحِ (الرَّجُلِ الْاِقْتِسَادِيِّ) ظَهَرَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْتَاسِعِ عَشَرَ عَلَى يَدِ نَقَادٍ مَا كَتَبَهُ جُونِ سْتِوَرْتِ مِلْ فِي الْاِقْتِسَادِ السِّيَاسِيِّ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(25) دُونِ جَوَانِ: شَخْصِيَّةٌ أُسْطُورِيَّةٌ مِنَ الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ الْإِسْبَانِيِّ. ذَاغَ صِبْتُهُ فِي أَوْرُبَا فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلَ شَهْرَتُهُ إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ. تُنسَبُ صِنَاعَةُ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى الْكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ الْبَارُوكِيِّ تِيرْسُو دِي مَوْلِينَا، وَبِالْتَّحْدِيدِ فِي رِوَايَتِهِ (مَاجِنْ إِيْشْبِيلِيَّة). [الْمُتَرَجِّمُ]

Übermensch⁽²⁶⁾. ولا يَظْهَرُ هَامِلِتْ Hamlet⁽²⁷⁾ وأورتيير Urtier⁽²⁸⁾ عِنْدَ غُوتْ Goethe⁽²⁹⁾ بِمَظْهَرِ الْفَرَضِيَّاتِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمَا قَدْ أُرْخَ لَهُمَا وَوَضِعَا حَيْثُ لَا يَمْلِكُ التَّارِيخُ لَهُمَا مَوْضِعًا. إِنَّهُمَا خَيَالِيَانِ بِمَعْنَى أَنَّ فِكْرَةَ شَيْكْسْبِيرِ أَوْ غُوتْ لَيْسَ لَهَا مَرَجِعٌ مُفْرَدٌ. وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ فِي إِمكَانِنَا الْإِحَالَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ، عَلَى أَنَا أَكْثَرُ اعْتِيَادًا لِمُحَاوَلَةِ إِعَادَةِ إِتْنَاجِهَا فَحَسْبُ. لَكِنْ يَجِبُ أَنْ تُمَيِّزَ جَمِيعَ التَّخِيلَاتِ الَّتِي مِنْ هَذَا النَّوعِ تَمْيِيزًا وَاضِحًا مِنْ تِلْكَ النَّاجِمَةِ عَنْ مُعَالَجَاتِ اللَّغَةِ نَفْسِهَا. وَلَمْ يُؤَكِّدْ فَايْنِغَرُ هَذَا التَّمْيِيزَ تَأَكِيدًا كَافِيًا، وَقَدْ يَعُودُ ذَلِكَ إِلَى النَّقْصِ فِي تَحْلِيلِ عِلَاقَاتِ اللَّغَةِ وَالْفِكْرِ- الَّذِي يَظْهَرُهُ اسْتِعْمَالُهُ لَفْظِي 'مَفْهُوم' Begriff 'وَيَفْهَم' begreifen 'عِنْدَ مُنَاقَشَتِهِ الْمُجَرَّدَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ'⁽³⁰⁾. وَتَحَدَّثُ التَّخِيلَاتُ اللَّغَوِيَّةُ بِإِحْدَى طَرِيقَتَيْنِ؛ فِيمَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ سُوءِ فَهْمٍ لِيُوظِفَةِ الْمُكْمَلَاتِ الرَّمْزِيَّةِ نَحْوِ 'الْحُرِّيَّةِ' وَالْحُمْرَةِ، حَتَّى إِنْ مَنْ يَسْتَعْمِلُهُمَا يَفْتَرِضُ بِإِنْشَائِهِ إِحَالَةَ

(26) الصِّبْغَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ لِلْسُورِمَانِ أَوْ الرَّجُلِ الْخَارِقِ. وَهُوَ مَفْهُومٌ فِي فِلَسَفَةِ فَرِيدِرِشْ نِيْتْشَةَ الَّذِي جَعَلَ مِنْهُ هَدَفًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ نَسَى إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْأَشْهَرِ (هَكَذَا تَكَلَّمَ زُرَادِشْت) الَّذِي نَشَرَهُ سَنَةَ 1883. وَلَيْسَ ثَمَّةَ إِجْمَاعٍ عَلَى الْمَعْنَى الْمُحَدَّدِ لِلْسُورِمَانِ، وَلَا عَلَى أَمْعِيَّةِ هَذَا الْمَفْهُومِ فِي فِكْرِ نِيْتْشَةَ. [الْمُتَرْجِمُ]

(27) الْأَمِيرُ هَامِلِتْ: هُوَ الشَّخْصِيَّةُ الرَّئِيسَةُ فِي مَسْرَحِيَّةِ (مَاسَاةُ هَامِلِتْ) الَّتِي أَلْفَهَا شَيْكْسْبِيرِ. كَانَ أَمِيرَ الدَّنِمَارِكِ، وَكَانَ يُكَافِحُ طَوَالَ الْمَسْرَحِيَّةِ مِنْ أَجْلِ مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْإِنْتِقَامِ لِمَقْتَلِ وَالِدِهِ. وَتَنْتَهِي الْمَسْرَحِيَّةُ بِمَقْتَلِهِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(28) أَوْرْتِير: مُصْطَلَحٌ اسْتَعْمَلَهُ الْأَدِيبُ الْأَلْمَانِيُّ الْكَبِيرُ غُوتْ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتَرْجَمَ بِ(الْحَيَوَانِ الْأَصْلِيِّ)، لَكِنَّ هَذِهِ التَّرْجُمَةَ لَا تُعَبِّرُ عَنْ مَقْصُودِ غُوتْ؛ إِذْ إِنَّ الْأَوْرْتِيرَ عِنْدَهُ يَعْنِي فِي التَّحْلِيلِ النِّهَائِيَّ 'فِكْرَةَ الْحَيَوَانِ'، فَهُوَ لَيْسَ السَّلَفُ الْمُشْتَرَكُ لِلْأَشْكَالِ الْمَوْجُودَةِ، بَلْ هُوَ فِكْرَةُ النَّمِطِ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي يَكُونُ أَساسَ جَمِيعِ الْأَشْكَالِ، أَيْ أَنَّهُ صُورَةٌ عَامَّةٌ تَكُونُ أَشْكَالُ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ مُتَضَمِّنَةً فِيهَا بِالْقُوَّةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(29) يُوْهَانُ فُولْفْغَانْغُ غُوتْ (1749-1832م). أَحَدُ أَشْهَرِ أَدْبَاءِ أَلْمَانِيَا الْمَتَمَيِّزِينَ. تَرَكَ إِرْثًا أَدْبِيًّا وَثَقَافِيًّا ضَخْمًا لِلْمَكْتَبَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ، وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي الْحَيَاةِ الشَّعْرِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ وَالْفِلَسَفِيَّةِ. تَنَوَّعَ أَدْبُهُ بَيْنَ الرِّوَايَةِ وَالْمَسْرَحِيَّةِ وَالشَّعْرِ، وَاهْتَمَّ بِالثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ الشَّرْقِيِّينَ. مِنْ أَشْهَرِ آثَارِهِ: أَلَامُ فِيرْتِرْ، وَفَاوَسْت. [الْمُتَرْجِمُ]

على الأفعال الحرة أو الأشياء الحمر أنه يُجِبُّ على شيء ما خارج عن نطاق الزمان والمكان؛ وإما أن يكون ذلك من خلال إضفاء صفة مادية على الأدوات البنائية الرابطة نحو 'أو'، و'إن'، و'ليس'، وما إليها مما لا يستهوي إلا المناطق.

إن استعمال لفظ 'مفهوم concept' مُضَلَّلٌ في التحليل اللغوي بخاصة. فثمة مجموعة من الكلمات نحو 'التصور conception'، و'الإدراك الحسي perception'، و'الإثارة excitation'، كانت مصدر جدل دائم منذ أن ميز أول مرة بوضوح ما يحدث في داخل الجسم مما يحدث في خارجه. وقد شاعت تسمية عمليات الإدراك الحسي التي تحدث عند المؤول بفعل وقَعَ الموضوعات الخارجية عليه [99] 'إدراكات حسية'، وبهذا الاسم أيضًا سُميت تلك الموضوعات أنفسها بفعل خلط واضح سناقشهُ في الفصل القادم بوصفه 'المغالطة الأوتراكوستية utraquistic fallacy'. وعلى نحو مشابه أُطلق اسم 'تصورات conceptions' على عمليات أخرى، على إحالات أكثر تجريدًا أو مسببة على نحو أقل ووضوحًا. لكن في الوقت الذي لا يتضمّن فيه المعنى المزدوج لتعبير 'الإدراك الحسي' إلا خلطًا بين مرجعين ممكنين أو مجموعتين من المراجع، إحداهما في داخل الرأس والأخرى في خارجه، كان جعل لفظ 'مفهوم concept' لفظًا مزدوجًا باعثًا خاصًا على خلقي كيانات زائفة. وكثيرًا ما افترض أنه ما دامت مراجع هذه العمليات التي هي أكثر تجريدًا تبدو بسيطة فهي مختلفة تمامًا عن مراجع العمليات الذهنية التي تحدث حين تكون المراجع 'مغطاة' في التصور. فحين تمّ تصوّر الفلاسفة عالمًا متعاليًا قوامه 'المفاهيم'، في حين أن علماء النفس الذين فضلوا أن يُسموا أنفسهم 'تصوريين conceptualists' بإدراكهم أن مجال المفاهيم هو العقل - بإزاء الأطروحة المتعالية ('الواقعية' المدرسية) أو غير السايكولوجية (الاسمية) - كثيرًا ما قاذفهم منظومتهم المصطلحية إلى تَبَنِي وجهه نظر غير دقيقة بشأن الأحوال الرمزية.

لا شك في أن 'المفاهيم' أو الإحالات المجردة أنفسها يمكن أن تحدث عنها في الدراسات المتعلقة بالمنهج أو بالعمليات الذهنية، وفي هذه الحالة

الخاصة يُمكن القول إنَّ الكلمات ترمزُ إلى الأفكار على نحوٍ مُلائم. غير أنَّه لا يصحُّ القولُ إنَّا بذلك نُحيلُ في التَّواصلِ الاعتياديِّ على آليتنا الذهنيَّة أكثرَ من إحالينا على المراجع التي نتحدَّثُ 'عنها' بوساطة تلك الآليَّة. فالكلمات، على ما رأينا، ترمزُ (يُنظر: ص 70) إلى الأفكار على الدَّوام، والتَّصوُّريُّ مَبَالٍ إلى أن يُلمحَ إلى إمكانِ تعميمِ الحالة الخاصَّة جدًّا المتعلِّقة بالبنية أو المفهوم الذي جرى تَحْيَلُهُ للوصول إلى حالةٍ أو تصنيفٍ علميٍّ قد جُرِّبَ، ثُمَّ اخْتَبِرَ هو نفسه بَعْدَ ذلك. ثُمَّ يُقرُّ بَعْدَ ذلك أنَّ الكلمةَ لَيْسَتْ مُجرَّدَ كلمةٍ على ما يرى الاسميُّونَ، بل إنَّها تُمثِّلُ رمزًا تصوُّريًّا. وقد نَحْكُمُ عليه بأنَّه مُحَقِّقٌ في مَذْهَبِهِ هذا إذا ما نظرنا إليه بِإزاء مَنْ يُؤمنُ [100] بالكيانِ المُفْرَدِ القابلِ للاكتشافِ الذي ترمزُ إليه الكلمات التي ترمزُ إلى الإحالات العامَّة، على أنَّه رُبَّما يُسيءُ فهمُ مُفْرَدَاتِهِ أولئك الذين لا يُقرُّونَ بأنَّهم لا يتحدَّثونَ 'عَنْ' شيءٍ البتَّة حينَ يبدو أنَّهم يُحيلونَ على كياناتٍ غيرِ مُسوَّعة⁽³¹⁾.

ويُمكن أن يكونَ استعمالُ هذه المُكَمَّلَاتِ اللُّغويَّة غيرَ خطيرٍ، على أن تُدرَكَ ماهيَّتها. إنَّها تيسيراتٌ في الوصفِ، لا ضروراتٌ في بنية الأشياء. يتَّضحُ هذا في أنَّ نمَّةً أبداً مُتنوِّعةً مُتاحةٌ لنا لوصفِ أيِّ مرجعٍ؛ فإمكاننا استعمالُ نحوِ قوامه 'الاسماء' substantives و'التَّعْضُوتُ' attributes⁽³²⁾ (nouns and adjectives)، أو

(31) فقد افترضَ أنَّ كروكشانك Crookshank، على سبيلِ المثالِ، بتقريره أنَّ التَّزَلُّةَ الوافدةَ "حالةٌ كُلِّيَّةٌ لا غير" في كتابهِ التَّزَلُّةَ الوافدةَ *Influenza* (1922)، ص 3، مُنْكَرٌ لحدوثِ المَرَضِ، على الرَّغمِ من أنَّه في الخاتمةِ يجعلُ مضامينَ مُهاجَمَتِهِ 'واقعيِّ' الطَّبِّ واضِحَةً جِدًّا. ويُنظرُ أيضًا المُلاحِظُ الثاني. ويُلحَقُ حُفْنُ هذه المنظومةِ المُصطلحيَّة، في غيرِ مُقاومةٍ أكثرِ فلسفاتِ التَّعالِي فَجاجةً، مَبْلَغُ تلك التي أجبرتْ ساير (في كتابهِ اللغة *Language*، ص 106. ويُنظرُ أيضًا الفصلُ الأوَّلُ ص 66) على أن يتكلَّمَ على المفاهيمِ الملموسة، والاشتيقاقيَّة، والمُلاقيَّة الملموسة، والمُلاقيَّة الضادَّة، في حينَ أنَّ وجودَ أطروحةٍ تُقومُ على الاسماء، والمُكَمَّلَاتِ اللُّغويَّة، والمراجع، من شأنِهِ أن يُمكنَ من المُحافظةِ على التَّفريقِ الأساسيِّ بينَ الأفكارِ، والكلماتِ، والأشياء.

نَحْوِ قَوَائِمِ 'الْأَحْدَاثُ' وَ'الْأَشْيَاءُ' (33)، أَوْ نَحْوِ قَوَائِمِ 'الْمَكَانُ' وَ'الْمَرْجِعُ' (34)، تَبَعًا لِتَفْضِيلِنَا التَّوَجُّعَ الْأَرْضِيَّ، أَوْ تَوَجُّعَ الْفِيزِيَاءِ الْحَدِيثَةِ، أَوْ الْعَرْضَ التَّصْوِيرِيَّ لِوُجْهَاتِ النَّظَرِ الْمُدَافِعِ عَنْهَا هُنَا. وَمِمَّا لَا يُجَدِّي شَيْئًا إِلَّا إِضَاعَةُ وَقْتِنَا وَرُبَّمَا وَقْتُ الْآخَرِينَ مُنَاقَشَةُ مَسَائِلَ كِهَذِهِ بِرُوحِيَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَفْصِلُ بِهَا بَيْنَ مِيزَاتِ مُخْتَلِفِ الْعَوَامِلِ الْكِيمِيَاءِيَّةِ الَّتِي تُتْلَفُ النَبَاتَاتِ وَتَمْنَعُ نُموَهَا weed killers .

وَتَشَأْ، عَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، مُشْكَلَةٌ لَا حَلَّ لَهَا ظَاهِرًا مِنْ سُؤَالِنَا: مَا الصُّدُقُ؟ عَلَى أَنَا وَقَفْنَا فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ عَلَى حَلِّ لِهَذِهِ الْمُسْكَلَةِ بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ نَظَرِيَّةِ التَّأْوِيلِ. [101] وَمِنَ الْمُلَانِمِ هُنَا أَنْ نَعْرِفَ الرَّمْزَ الصَّادِقَ بِتَمَيِّزِهِ مِنَ الْإِحَالَةِ الصَّادِقَةِ. وَالتَّعْرِيفُ هُوَ الْآتِي: الرَّمْزُ الصَّادِقُ = الرَّمْزُ الَّذِي تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَى إِحَالَةٍ كَافِيَةٍ صَحِيحَةٍ (35). وَعَادَةً مَا يَكُونُ مَجْمُوعَةٌ كَلِمَاتٍ فِي صُورَةٍ قَضِيَّةٍ أَوْ جُمْلَةٍ. إِنَّهُ يَكُونُ ذَا دَلَالَةٍ صَحِيحَةٍ عَلَى إِحَالَةٍ كَافِيَةٍ حِينَ يَتَسَبَّبُ فِي حَدُوثِ إِحَالَةٍ مُشَابِهَةٍ لَدَى مُؤَوِّلٍ مُنَاسِبٍ. وَيَكُونُ كَاذِبًا حِينَ يُسَجَّلُ إِحَالَةٌ غَيْرَ كَافِيَةٍ.

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ تَمَيِّزُ الْقَضَايَا الْكَاذِبَةِ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ ذَا أَمِّمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ.

Whitehead, *The Concept of Nature*, pp. 77, 169.

(33)

(34) ص 197، فَمَا بَعْدَهَا. وَمِنَ الطَّرِيفِ أَنْ يُلْحَظَ فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّ الْمَدَارِسَ الْفَلَسَفِيَّةَ الْهِنْدِيَّةَ، كَالْفَايَسِيكَا VaiÇesika، طَوَّرَتْ فِي مُدَدٍ مُخْتَلِفَةٍ أَلِيَّةَ مَنْطِقِيَّةٍ لَا تُشَبِّهُ مُعْظَمَ مَا أَتَتْ بِهِ مَدَارِسُ النُّحُو الْعَرَبِيَّةِ كَمَا لَا تُشَبِّهُ إِحْدَاهَا الْآخَرَى. فَالْبِرَاسَاسْتَابَادَا PraÇastapada، عَلَى سَبِيلِ الْوِثَالِ، اقْتَرَحَتْ نَظَرِيَّةً لِلْخُصُوصِيَّةِ بِوَصْفِهَا وَاقِعًا مُسْتَقِلًّا يَسْتَقِرُّ فِي الْمَوَادِّ السَّرْمَدِيَّةِ وَيُمَيِّزُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ. وَيَسْهُلُ الْوُقُوفُ عَلَى تَقْسِيمَاتٍ أُخْرَى لَا تَكَادُ تُحْمَرُ شَيْئًا بِلُغَةٍ مَفْهُومَةٍ.

(35) مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ يَكُونُ فِي الْإِنْجَلِيزِيَّةِ لَفْظٌ كَلْفِظُ 'الْكَفَايَةِ' adequacy الَّذِي يُبَيِّنُ بِهِ الْوَجْهَ الَّذِي قَدْ يَكُونُ بِهِ الرَّمْزُ صَادِقًا مِنْ ذَلِكَ الَّذِي تَكُونُ بِهِ الْإِحَالَةُ صَادِقَةً. فَالْإِلْتِبَاسَاتُ وَاضِحَةٌ فِي جُمْلَةٍ مِنْ قَبِيلِ "مَا قَالَهُ كَانَ كَاذِبًا"، إِذْ لَا يَتَبَيَّنُ لَنَا الْكَاذِبُ مِنَ الْإِثْنَيْنِ: الرَّمْزُ أَمْ الْإِحَالَةُ؟ أَمَّا الْحَالَاتُ الَّتِي تَكُونُ أَذَقُ وَالَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا كَلِمَةُ 'قَضِيَّةٍ' عَرَضًا فَكَثِيرًا مَا تَنْشَأُ فِيهَا تَخْلِيطَاتٌ لَا يُمْكِنُ التَّخْلُصُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ هَذَا التَّمْيِيزِ. وَلِلْفِظِ 'الْكَفَايَةِ' الْفَصْلُ فِي طَرِحِ السُّؤَالِ الصَّعْبِ: أَيْكُونُ لِلْإِحَالَةِ مَدَى؟ وَإِنْ يَكُنْ، فَعَلَى أَيِّ وَجْهِ؟

فالرمز غير الصحيح هو الذي يظهر في عالم خطاب معطى⁽³⁶⁾ فيُنشئ عند مؤول مناسبة إحالة مختلفة عن الإحالة التي يرمز إليها عند المتكلم. فإذا ما قلنا: "توَلَّى تشارلز الأول في فراشه وهو يُعلّق تعليقات ذكية"، فاحتمال أن يكون رمزنا غير صحيح أكبر من احتمال أن تكون إحالتنا كاذبة؛ إذ ليس من التهور أن يقال إن المرجع هو موت تشارلز الثاني في فراشه *in his bed*. غير أنه لا مسوغ لمثل هذا التأويل المتهور في كثير من الحالات، وستزداد حينئذ صعوبة تحديد: أيها الذي يحدث. وفي مقابل ذلك حين نقول، على سبيل المثال: "تحاول الشمس أن تخرج"، أو "ينهض الجبل"، فمن الواضح أننا ربما لا نكون قد كوّنا إحالتين مختلفتين عما كنا سنقدّمه وصفاً علمياً للحالة، لكن قد يكون قصدنا أن تؤخذ هذه التقارير أخذاً "حرفياً". وأخذ تقرير ما أخذاً حرفياً معناه تأويل رموزنا بوصفها رموزاً أولية، أي بوصفها أسماء مستعملة مع إحالة يُنبئها عالم خطاب معطى. وإذا لم يكن ثمة رمز في متناول اليد لسبب ما، كفقر اللغة، فيمكننا أن نختار رمزاً يُمثّل مرجعه [102] مرجعاً ثم ننقل هذا الرمز. فإذا عجز المتكلم عن رؤية أن مثل هذه الرموز استعارية أو تقريبية فحسب، أي أخذها أخذاً حرفياً، فحينئذ ينشأ الكذب، أي الترميز الصحيح لإحالة كاذبة يمكن أن تُضلل المؤول. من جهة أخرى، إذا أنشأ المتكلم إحالة صادقة، لكنه استعمل رموزاً تجعل مؤولاً مناسباً، يؤول على نحو صحيح، يُنشئ إحالة كاذبة، فالرمز حينئذ غير صحيح.

ومن الواضح أن عدم الصحة قد يكون على درجات؛ ذلك بأنني إذا قلت حين يكون لديّ غليون تدخين منطقي: "غليوني مُستعمل"، كان هذا الرمز "غليوني مُستعمل" صحيحاً بما يكفي لتمييز مرجعه لا للحلول محلّه. وبتعبير آخر، جيّد أن يكون الباحث قادراً على البحث عن مرجع هذا الرمز بين الأحداث،

(36) عالم الخطاب مجموعة مناسبات تتواصل فيها بواسطة الرموز. ويكفي في الحصول على عوالم خطاب مختلفة أن تكون ثمة درجات دقة متباينة، (ينظر الفصل السادس، ص 203-204) قد يتطلب الأمر تعريفات جديدة.

وعلى استيعاده بِحُجَّةٍ أَنَّ الحَيَرَ الذي يَدَّعِيهِ قد شَغَلَهُ المَرَجُعُ 'غليوني مُنْطَفِئٌ'. واستنادًا إلى السِّيَاقِ الفِعْلِيِّ، قد يَكُونُ جَيِّدًا أَيْضًا لَهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ وَسَطَ أَنْظِمَةٍ مَرَاجِعٍ مُحْتَمَلَةٍ أُخْرَى، كَانَ تَكُونُ أَحَاسِيسَ ذَوْقِيَّةٍ، أَوْ شَمِيَّةٍ، أَوْ حَرَارِيَّةٍ، أَوْ ضُورًا، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَعُثُورُهُ عَلَيْهِ قد يُمْكِّنُهُ مِنْ تَوْسِيعِ الرَّمْزِ غَيْرِ الصَّحِيحِ، بِتَغْيِيرِ مُمَكِّنٍ لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِي الْعَمَلِيَّةِ. فَكَذَلِكَ إِذَا مَا اقْتَنَعْتُ بِأَنَّ غليوني مُنْطَفِئٌ، فَقَدْ أَمْتَكَّنْتُ بِنَفْسِي مِنْ تَوْسِيعِ رَمْزِي لِيَكُونَ 'يَدُو غليوني' وَكَأَنَّهُ مُشْتَغِلٌ.

وَتَتَبَقُّ مِنْ هَذَا الْمِثَالِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمَسَائِلِ تَتَطَلَّبُ قَانُونًا رَابِعًا، هُوَ قَانُونُ الفِعْلِيَّةِ Actuality، لِيُوضَحَ الْحَالَةُ :-

4. - الرَّمْزُ إِنَّمَا يُجِيلُ عَلَى مَا اسْتَعْمِلَ الرَّمْزُ فِعْلِيًّا لِيُجِيلَ عَلَيْهِ، وَلَا يُجِيلُ بِالضَّرُورَةِ عَلَى مَا يَحِبُّ أَنْ يُجِيلَ عَلَيْهِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْجَيِّدِ، أَوْ عَلَى مَا يَقْصِدُهُ الْمُؤَلِّفُ، أَوْ عَلَى مَا يَقْصِدُ الْمُسْتَعْمِلُ أَنْ يُجِيلَ عَلَيْهِ.

إِنَّ الرِّزْمَ الْمُعَالَجَ أَنِفًا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَحَالَ أَوْ لَمْ يُجَلِّ عَلَى مَرَجِعٍ كَالَّذِي يُسْتَعْمَلُ لَهُ عَلَى نَحْوِ صَحِيحٍ. فَقَدْ أَقِرُّ أَوْ أَنْكَرُ أَنَّ مَرَجِعِي كَانَ شُعُورًا مَا لَا تَبَغًا مُشْتَغِلًا. اسْتِنَادًا إِلَى هَذَا يَكُونُ لَدَيْنَا هُنَا، بِوَسَاطَةِ الْقَانُونِ الْأَوَّلِ، مَجْمُوعَةٌ رُمُوزٍ [103] تَبْدُو فِي صُورَةِ رَمْزٍ وَاحِدٍ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا انْتِخَابَ الرَّمْزِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِعْلِيًّا. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَنْتَخِبَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُمْكِنُ فَعْلُهُ سِوَى تَهْيِئَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الرُّمُوزِ غَيْرِ الْغَامِضَةِ لِلِاسْتِعْمَالِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ فِي الْحَالَاتِ الْمُشَابِهَةِ⁽³⁷⁾. لَكِنْ لَوْ افْتَرَضْنَا أَنَا قَدْ انْسَقْنَا إِلَى أَنْ نُقَرَّرَ، مُتَابِعِينَ فِي ذَلِكَ الْمَنَاطِقَةِ الصُّورِيِّينَ، أَنَّ مَرَجِعًا مِثْلَ 'الاحتراق المَعْدُومِ لِلتَّبْعِ' مُتَضَمِّنٌ، لَبَدَا أَنَا نَوَاجِهَ مُشْكِلَةً بِشَأْنِ كَيْفِيَّةِ إِمكَانِ الْإِحَالَةِ عَلَى مَا لَيْسَ مَوْجُودًا لِيُحَالَ عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الْمُسْكِلَةُ الَّتِي لَا أَهَمِّيَّةَ لَهَا فِي نَفْسِهَا إِنَّمَا تُذَكِّرُ هُنَا لِكُونِهَا حَالَةً نَمُودَجِيَّةً

(37) خُصِّصَ الْفَصْلَانِ السَّادِسُ وَالسَّابِعُ لِلْأَلِيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ، وَالطَّرَائِقُ الْمُطَوَّرَةُ فِي الْفَصْلِ التَّاسِعِ مُخْلِصَةً لِلْبَيْسِ الرَّئِيسِ، الْمَعْنَى.

للصعوبات الناتجة عن معاملة نظام غير مكتمل من الرموز الناقصة كما لو أنه نظام مكتمل من الرموز الكاملة. فإذا نشأت تناقضات كهذه في نظام رموز ثانوي على درجة عالية من التعقيد من معالجة بارعة مشروعة للرموز، فإنها تكون إشارة مفيدة إلى أن ثمة نقصاً ما زال باقياً. مثال ذلك: الرياضيات؛ فإذا واجه عالم الرياضيات تناقض كهذا فإنه يواصل تحسين منظومة رموزه، وأولى لنا أن نحذو حذوه من أن نفترض أننا قد أثبتنا شذوذاً ما غريباً في الكون.

وثمة سؤالان آخران ينبغي أن يُجاب عنهما. أحدهما: 'كيف لنا أن نعرف أن عبارة 'الغليون مشتعل الآن' تستحق الموضع نفسه لعبارة 'الغليون منطفيء الآن'، في حين أن عبارة 'الغليون مسدود الآن' لا تستحقه؟'. فإذا أردنا التحدث بلغة الخرافة كانت الإجابة: 'نحن نعرف ذلك بالخبرة'. ونحن نمتلك في المجالات المألوفة تراكمات كبيرة لمعرفة كهذه. فنحن نعلم، على سبيل المثال، أن عبارات 'x أخضر' و'x أحمر' و'x أزرق' كلها تستحق الموضع نفسه لمراجعتها، كما هو شأن عبارتي 'x غامق' و'x فاتح'. ونحن نعلم أيضاً أن عبارات 'x أخضر' و'x غامق' و'x مشرق' ليست استحقاقات متعارضة. أما المجالات غير المألوفة فالصعوبة الرئيسية فيها تكمن تحديداً [104] في اكتساب معرفة كهذه. فنحن نحتاج إلى هذه المعرفة لتكميل رموزنا، كما نحتاج إلى رموز مكتملة لنطور معرفتنا.

والسؤال الآخر هو: 'لِمَ لا يقال: ما دُمنا لم نقف على مرجع لـ'غليون منطفيء' حيث دُللنا للبحث عنه، فليس ثمة مرجع إذن؟'. لكن ثمة إحالة - وإن لم تكن خاصة بالمرجع المتبادر إلى الذهن أول وهلة. إن مشكلة العثور على المرجع الفعلي هنا، كما هي عادة، تنحصر في تتبع الارتباطات السببية أو السياقات المتضمنة بالطريقة المشار إليها في الفصل الثالث.

على أن ثمة مشكلة خاصة تتعلق بالرموز المعتقد تستلزم قانوناً قد تكون وظائفه غير واضحة بادي الرأي، لكنه ضروري لتجنب الهراء في خطابنا. إنه يتعلق بإنشاء رموز معتقد من رموز بسيطة أو أقل تعقيداً. ومن الواضح أنه إذا

أَدْمَجْنَا فِي رَمَزٍ وَاحِدٍ عِلَامَاتٍ تَسْتَحِقُّ الْمَوْضِعَ نَفْسَهُ، سَوَاءُ أَكَانَتْ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَوْنًا (أَحْمَر - أَصْفَر)، أَمْ شَكْلًا (مُسْتَدِيرًا - مُرَبَّعًا)، فَإِنَّ رَمَزَنَا الْمُقْتَرَحَ سَيَكُونُ فَارِغًا. وَيُدْعَى هَذَا الْقَانُونُ الْخَامِسُ قَانُونُ الْإِنْسِجَامِ Compatibility :-

5. - لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْوِيَ رَمَزٌ مُعَقَّدٌ رُمُوزًا تَأْسِيسِيَّةً تَسْتَحِقُّ 'الْمَوْضِعَ' نَفْسَهُ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مُهِمًّا أَنْ يُبَيَّنَ فِي الْحَالِ مَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ حِينَ 'يُמוَضِعُ' الرَّمْزُ الْمَرْجِعَ. وَنَمَّةٌ صِيغٌ ثَلَاثٌ يَرْجِعُ عَهْدُهَا إِلَى زَمَنِ أَرِسْطُو تُعَرَّفُ فِي الثَّقَالِيدِ بِاسْمِ قَوَانِينِ الْفِكْرِ قَدْ أُولَاهَا الْمَنَاطِقَةُ اهْتِمَامًا بِالْعَا، بِكِيَاسَةٍ وَبَعِيرِ كِيَاسَةٍ. وَقَدْ تَنَوَّعَتْ أَوْجُهُ تَأْوِيلِهَا، فَأَوَّلَتْ عَلَى أَنَّهَا قَوَانِينُ يَمْتَثِلُ لَهَا الْعَقْلُ لَكِنْ لَا يَلْزَمُ أَنْ تَمْتَثِلَ لَهَا الْأَشْيَاءُ، أَوْ عَلَى أَنَّهَا قَوَانِينُ تَمْتَثِلُ لَهَا الْأَشْيَاءُ لَكِنْ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَمْتَثِلَ لَهَا الْعَقْلُ، أَوْ عَلَى أَنَّهَا قَوَانِينُ تَمْتَثِلُ لَهَا جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ (وَيَضْمِنُهَا الْعَقْلُ)، أَوْ عَلَى أَنَّهَا قَوَانِينُ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَمْتَثِلَ لَهَا أَيُّ شَيْءٍ لَكِنَّ الْمَطْلَقَ يَرَى فِيهَا، عَلَى نَحْوِ غَرْبٍ، نَفْعًا. وَتَرَى الرَّمْزِيَّةَ فِيهَا ثَالوثًا لِقَوَانِينِ ثَانَوِيَّةٍ تُعِينُ عَلَى حِفْظِ كَاتِدْرَائِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي نِظَامٍ مُنَاسِبٍ. أَوَّلُ هَذِهِ الْقَوَانِينِ قَانُونُ التَّطَابُقِ (الْهُوِيَّةُ) identity - المَصْنُوعُ بِطَرَفَاةٍ عَلَى وَفْقِ الْآتِي 'A هُوَ A'، فَالرَّمْزُ هُوَ مَا هِيَئُهُ، أَيُّ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ رَمَزٍ [105] مِنْ مَرْجِعٍ. وَثَانِيهَا قَانُونُ التَّنَاقُضِ Contradiction - 'A لَيْسَ عَدَمُ A'، فَمَا مِنْ رَمَزٍ يُجِيلُ عَلَى مَا لَا يُجِيلُ عَلَيْهِ، أَيُّ أَنَّهُ مَا مِنْ مَرْجِعٍ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ مَوْضِعٍ فِي نِظَامِ الْمَرَاجِعِ الْكُلِّيِّ. وَثَالِثُ الْقَوَانِينِ قَانُونُ الْوَسْطِ الْمَرْفُوعِ Excluded Middle - 'A إِمَّا أَنْ يَكُونَ B وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ'، فَالرَّمْزُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَرْجِعٌ مُعْطَى أَوْ آخَرُ غَيْرُهُ، أَيُّ أَنَّ كُلَّ مَرْجِعٍ لَهُ مَوْضِعٌ ثَابِتٌ فِي نِظَامِ الْمَرَاجِعِ الْكُلِّيِّ. وَبِمَكْنَتِنَا، بِوَسَاطَةِ الْقَانُونِ الثَّانِي، اسْتِيدَالُ هَذَا الثَّالُوثِ بِالصِّيغَةِ الْآتِيَةِ الَّتِي هِيَ قَانُونُ الرَّمْزِيَّةِ السَّادِسُ: قَانُونُ الْفَرْدِيَّةِ Individualism -

6. - كُلُّ الْمَرَاجِعِ الْمُمْكِنَةِ تُشْكَلُ مَعًا نِظَامًا يَكُونُ لِكُلِّ مَرَجٍ فِيهِ مَوْضِعٌ وَاحِدٌ فَقَطْ.

وقد يكون من المفيد التعليق على صعوبة واحدة تتعلق بـ 'الموضع'، وهو إلى أن يكون من الكمالات الرمزية (ينظر: ص 184، التي مرّت آنفاً) أقرب منه إلى أن يكون رمزاً فعلياً. وقد ألمحنا إلى أن ثمة أمرين يجب تمييزهما بوضوح في أي تقرير كاذب، أحدهما المرجع الذي نُحِيلُ عليه فعلياً، والآخر مرجع مزعوم نعتقد أننا نُحِيلُ عليه. وأول المرجعين وحده له 'موضع' في نظام المراجع الكلي.

ويمكننا أن نقول بدلاً من ذلك إننا في حالة التقرير الكاذب إما أن نعتقد أن المرجع في 'موضع' هو ليس فيه فعلاً، وإما أن نعتقد أننا نُحِيلُ على مرجع مختلف عن المرجع الذي نُحِيلُ عليه فعلاً. إذ يمكننا في التقريرين المتناقضين، مثلاً، إما أن نقول إننا نُحِيلُ على المرجع نفسه لكننا نعين له 'موضعين' مختلفين، وإما أن نقول إننا نُحِيلُ على مرجعين مختلفين ونعين لهما 'الموضع' نفسه. وتتضمن هاتان العبارتان البديلتان تحوّلين خفيين في المرجعين اللذين يستعملان 'المرجع' و'الموضع' معاً، وتؤكدان الاعتبار المهم وهو أن التفريق بين إحالتي هذين اللفظين مصطنع لا غير. إذ ليس ثمة فرق بين المرجع وموضعه. فمن غير الممكن وجود مرجع خارج عن نطاق المكان، ولا وجود مكان يفتقر إلى مرجع ما. فإذا ما عرف مرجع ما عرف موضعه أيضاً، ولا يمكن تعريف موضع ما [106] إلا بمرجعه الذي يشغله. أي إن 'الموضع' مجرد رمز مقدّم بوصفه تيسيراً لوصف غيوب الإحالة التي تولّد الكذب.

وقد بيّنا أنه يتخلّل كلّ الإحالات على الدوام أحوالٌ علاميّة بين المرجع والفعل. ورُبّما لا تنطوي أبسط حالة، وهي المتعلقة بالحكم الصادق المباشر للإدراك الحسي، إلا على حالٍ علاميّة واحدة (قد نوقشت في الفصل الثالث). أما القضية الكاذبة ففيها سلسلة علاميّة مشابهة، لكن الاختلاف الذي يظهر هنا هو حدوث إساءة تأويل. على أنه ليس ضرورياً على الدوام أن نكتشف مكمّن حدوث إساءة التأويل من أجل تحويل قضية كاذبة إلى أخرى صادقة؛ فبإمكان سلسلة علاميّة جديدة مجاورة للمرجع نفسه أن تكون

البديل. على أن مثل هذا الاكتشاف ضروري في التوسيع، والصعوبة تُفسر سبب تفضيلنا التحويل على التوسيع. وعادة ما يكون اكتشاف إساءة التأويل في التعليم والجدل أكثر الخطوات أساسية.

وتمثل هذه القوانين الستة: الأحادية، والتعريف، والتوسيع، والفعلية، والانسجام، والفردية، البديهيات الأساسية التي تُحدد الاستعمال الصحيح للكلمات في التفكير المنطقي. فقد أصبح لدينا الآن بوصلة يمكننا بها أن نستكشف حقولاً جديدة مؤملين تفادي الحركة الدائرية. ويمكننا البدء بترتيب المستويات الرمزية والبحث في عملية التأويل، 'الماجريات' في أذهان المؤولين. ومما يمكن الآن بإحصاء، وإن لم يكن سهلاً على الدوام، أن يبين متى يكون الرمز مجرد اختصار، وأن تُحدد أنواع التعريف المختلفة الملائمة للمناسبات المختلفة. ولا يُحتمل في هذه الأثناء أن يبدو غير عقلاني إعلان الدراسات المتأثرة بهذه الاكتشافات-

"أحكم إغلاق فوهة الغضب مدة من الزمن حتى نستطيع

استجلاء هذه الالتياسات، ونعرف منبعها، ورأسها،

وأصلها الحقيقي". [107]

وتضبط هذه القوانين نظام الرموز المعروف بالنثر. فإن لم تثبت كفايتها في أنفسها في منع كلامنا من أن يضللنا فكل ما سواها مما قد يكون مطلوباً لن يختلف عنها في ذلك. ولن يحسن انتظام مجموعة ما من الرموز، أو إنها لن تشكل أسلوباً نثرياً جيداً، إلا إذا احترمت هذه القوانين. وهذه المجموعة هي الوحيدة التي نتيج لنا تنفيذاً أميناً لتحويلات الرموز وإبدالاتها التي تسعى لغة العلم بوساطتها إلى أن تظهر علاماتها الفارقة واستنتاجاتها وأن تُسجلها- تلك العمليات التي بينا أن الإنسان البدائي بدا له أنها تُشاطر السحر طبيعته. وهذه المجموعة، زيادة على ما سبق، هي الوحيدة التي تمكن الفيلسوف من مناقشة أمور أكثر أهمية من مميزات تعبيره أو تعبير أقرانه. [108]

الفصل السادس

نظرية التعريف

إنني لأعزو السبب الأول للاستنتاجات السخيفة إلى غياب المنهج؛ إذ لا ينطلق الاستدلال المنطقي حينئذ من التعريفات. - هوبز Hobbes.

"أرجو، أيها اللورد دارلنغتن Darlington، أن ترحم عقلي المسكين، فتبين لي ما تغنيه حقًا". - "أفضل ألا أفعل ذلك، أيها الدوق؛ ففي أيامنا هذه، أن تكون واضحًا يعني أن تُكشَف". -

مزوَحَه الكيدي ونذر مير Lady Windermere's Fan.

لا نوجد في الوقت الحاضر نظرية للتعريف قابلة للتطبيق العملي في الظروف الاعتيادية. ولم تحقق النظرية التقليدية إلا القليل من التقدم، بالقدر الذي لم تضع فيه في متاهات التفصيلات العميقة للنوع والصفة المميزة، وفي الاضطراب الذي يسببه مصطلح "الدلالة الإيحائية Connotation" - والسبب الرئيس في ذلك هو الخرافات البربرية⁽¹⁾ المتعلقة باللغة التي تجمعت عند [109]

(1) كثيرًا ما يكمن سحر الأسماء في آجر ما يُتَوَقَّع من الأماكن، والكرب الذي أصاب ساكس Sachs عند اكتشافه كوكب أورانوس Uranus، الذي غيّر عنه في تساؤله: "ما الذي يضمن لنا أن الكوكب الذي يتعارف الفلكيون أنه أورانوس هو أورانوس حقًا؟"، ليس أكثر بدائية إلا بدرجته واحدة من زعم هربرت سبنسر Herbert Spencer أنا "نعرف المعنى الأساسي لكلمة ما بمقارنة معانيها في ارتباطات مختلفة، وبملاحظة ما يثير فيهِ ... وبذلك يمكننا تأكيد معنى كلماتٍ مثل 'حسن'، وما إلى ذلك". =

تُخَوِّمُ الْمَنْطِقَ مُنْذُ الْأَزْمِنَةِ الْأُولَى. إِذْ وَقَفَتْ أَرْبَعُ صُعُوبَاتٍ حَجَرَ عَشْرَةٍ، فَلَمْ يَكْ بُدٌّ مِنْ إِزَالَتِهَا أَوَّلًا.

فَأَمَّا أُولَى الصُّعُوبَاتِ فَتَكْمُنُ فِي السُّؤَالِ الْآتِي: مَا الَّذِي نَعْرِفُهُ، أَلْأَشْيَاءُ أَمْ الْكَلِمَاتُ؟ فَمِنْ أَجْلِ تَحْدِيدِ هَذِهِ النُّقْطَةِ مَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَلْحَظَ أَنَا حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ تَعْرِيفِ الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا نُحِيلُ عَلَى شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا عَمَّا يُحِيلُ عَلَيْهِ 'تَعْرِيفُ الْأَشْيَاءِ' أَوْ يَغْنِيهِ. فَحِينَ نَعْرِفُ الْكَلِمَاتِ نَتَنَاولُ مَجْمُوعَةً أُخْرَى مِنَ الْكَلِمَاتِ قَدْ تُسْتَعْمَلُ مَعَ الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْأُولَى، أَيْ أَنَا نَعُوْضُ بِرَمَزٍ يُفْهَمُ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ فِي حَالَةِ مَغْطَاةٍ. أَمَّا الْأَشْيَاءُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَلَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرُ مَعَهَا مِثْلَ هَذَا التَّعْوِضِ. فَالتَّعْرِيفُ الْمَرْعُومُ لِلْفَرَسِ بِإِزَاءِ تَعْرِيفِ كَلِمَةِ 'فَرَس' إِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ فِيهَا تَعْدَادُ لِحَوَاصِهِ الَّتِي قَدْ يُقَارَنُ مِنْ خِلَالِهَا بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى وَيُمَيَّزُ مِنْهَا. فَلَيْسَ ثَمَّةُ تَنَافُسٍ بَيْنَ التَّعْرِيفَاتِ 'اللفظية' و'الواقعية' (2).

= وإمالة الكلمتين في النص المذكور من صنعا، ولا أحد ممن لا يؤمن مع نانسن Nansen في كتابه إسكيمو غرينلاند Greenland Eskimos "بأن ثمة صلة روحية بين شخصين يحملان الاسم نفسه" يُخْفِقُ فِي رُؤْيَةٍ عَبَثِيَّةٍ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ لِلتَّعْرِيفِ بِاسْتِعْمَالِ الْجَوْهَرِ. وَمَصْدَرُ هَذَا الْمَذْهَبِ وَجْهَ النَّظَرِ الَّتِي أَحَلَّنَا عَلَيْهَا آتِفًا وَهِيَ أَنَّ الْكَلِمَاتِ عَلَى نَحْوِ مَا أَجْزَأَ مِنَ الْأَشْيَاءِ (وَهِيَ ثَمَّةٌ وَجْهًا تَوْجِيهًا لِنَفْثِ لِلنَّظَرِ سَيَسَّرُ نَفْسُهُ إِلَى الْفِكْرِ الْإِغْرِيقِيِّ بِعَامَّةٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ). فَإِنْ كَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى مَا هُوَ مُفْتَرَضٌ، اسْمُهُ الْخَاصُّ، فَإِنَّ وُجُودَ اسْمٍ مَا يُمَكِّنُنَا مِنَ الْبَحْثِ بِثِقَةٍ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ 'الْفِكْرَةِ' اللَّذَيْنِ يَنْتَمِي إِلَيْهِمَا، وَسَيَكُونُ، عُمُومًا، بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَمْتَلِكُ الْأَسْمَ نَفْسَهُ شَيْءٌ مَا مُشْتَرَكٌ يَجِبُ عَلَى عَمَلِيَّةِ التَّعْرِيفِ أَنْ تُحَاوَلَ جَهْدًا أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ. إِنَّ الْبَحْثَ عَنْ جَوْهَرِ الْأَشْيَاءِ، haecceitas كما يُسَمِّيهِ دَنْزْ سَكُوتْسْ Duns Scotus، قَدْ يَكُونُ لَهُ جُذُورٌ فِي الْمَوْقِفِ مِنَ الْكَلِمَاتِ نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُتَصِفِ أَنْ تُعْزَى إِلَى أَرِسْطُو سَخَافَاتٍ أَتْبَاعِهِ اللَّغَوِيَّةِ. وَبَعْضُ مَضَامِينِ هَذِهِ الثَّقَالِيدِ الْأَكْثَرُ لَفْنًا لِلنَّظَرِ فِي كُلِّ مَنْ تَارِيخِ الْفَلَسَفَةِ وَأَحْدَثَ تَطَوُّرَاتِ الْمَنْطِقِ بَرَعَ فِي مُعَالَجَتِهَا الْبَرْوفيسُورُ رُوجِيِيرُ Rougier فِي كِتَابِهِ مُغَالَطَاتُ الْعَقْلَانِيَّةِ Paralogismes du Rationalisme، ص 146 فما بعدها، و 368 فما بعدها، و 386 فما بعدها.

(2) لِلْوُقُوفِ عَلَى مِثَالٍ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ بِهَا التَّمْيِيزُ يُنْظَرُ:

ولا شك في أنّ الكلمات التي تُعَدُّ هذه الحواصُّ من خلالها تَمُنَحنا رَمَزًا بديلاً - إمّا تحليلاً مُكْتَمِلاً، وإمّا مُختَصراً بوسائل تصنيفيّة (من نَمَطِ 'النوع والصفة المُميّزة' المُعتاد) - مع المَرَجِ نَفْسِهِ (الأفراس) الذي لِلرَّمزِ الأصلي، لكن بِوصفه نتيجةً طَبِيعِيَّةً أَكْثَر من أن يَكُونَ بِوصفه غَرَضُ التَّحْلِيلِ الرَّئِيس. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، لَا يُمَكِّنُ إِجْرَاءُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ إِلَّا عَلَى الْأَشْيَاءِ الْمُعَقَّدَةِ الَّتِي عَكَفَ عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ عَلَى دِرَاسَتِهَا رَمَازًا طَوِيلًا. أَمَّا الْأَشْيَاءُ الْبَسِيطَةُ، أَوِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ أَنَّهَا قَابِلَةٌ لِلتَّحْلِيلِ بِسَبَبِ نَقْصٍ فِي الْبَحْثِ، شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ كُلِّ شَيْءٍ لَمَّا تُطَبَّقُ عَلَيْهِ بَعْدَ مَنَاجِجِ التَّصْنِيفِ، فَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ غَيْرُ مُتَاحَةٍ مَعَهَا، وَأَنَّهُ يَجِبُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِيجَادُ رُمُوزٍ أُخْرَى تَكُونُ هِيَ الْأَبْدَالُ الَّتِي يَسْمَى تَعْرِيفُ الرُّمُوزِ إِلَى تَهْيِئَتِهَا. وَمَا مَرَّ إِنَّمَا هُوَ مُوجَزُ الْحَلِّ لِلنِّزَاعِ الْمُمتدِّ بَيْنَ أَنْصَارِ التَّعْرِيفَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ وَأَنْصَارِ التَّعْرِيفَاتِ الرَّمْزِيَّةِ. [110]

وَالصُّعُوبَةُ الثَّانِيَّةُ وَثِيقَةُ الصَّلَةِ بِالْأُولَى. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِ التَّعْرِيفِ تَعْوِضًا رَمَازِيًّا، عَادَةً مَا تُعَرَّضُ التَّعْرِيفَاتُ، لِأَسْبَابٍ نَحْوِيَّةٍ، فِي صُورَةٍ تَجْعَلُهَا تَبْدُو مُوجَّهَةً صَوْبَ الْأَشْيَاءِ. مَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى مَا اعْتَدَنَاهُ مِنْ اخْتِصَارِ رُمُوزٍ مِثْلِ 'كَلِمَةُ 'نار' تُحِيلُ عَلَى الْمَرَجِ نَفْسِهِ الَّذِي تُحِيلُ عَلَيْهِ كَلِمَتَا 'مَا يُحْرِقُ' إِلَى 'النَّارُ هِيَ مَا يُحْرِقُ'، أَوْ مَا اعْتَدَنَاهُ مِنْ قَوْلِنَا: "Chien يعني 'كَلْبًا'، حِينَ يَكُونُ وَاجِبًا أَنْ نَقُولَ: "كَلِمَةُ Chien وكَلِمَةُ 'كَلْب' كِلَاهُمَا تَعْنِي الْحَيَوَانَ نَفْسَهُ" (3).

أَمَّا الصُّعُوبَةُ الثَّلَاثَةُ فَهِيَ أَنَّ كُلَّ التَّعْرِيفَاتِ صِيغَتِ أَسَاسًا لِأَغْرَاضٍ خَاصَّةٍ. فَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِغَرَضٍ مَا أَوْ حَالَةٍ مَا، لِذَا لَا يُمَكِّنُ تَطْبِيقُهَا إِلَّا عَلَى حَقْلٍ أَوْ 'عَالَمٍ

(3) قَدْ يُلْحَظُ أَنَا حِينَ نَقُولُ 'النَّارُ تُحْرِقُ' نَبْدُو نَاقِلِينَ لِمَعْرِفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالنَّارِ لَا بِالرَّمْزِ، أَمَّا مَعَ مُرَكَّبٍ تَرَادُفِيٍّ مِثْلِ "Chien يعني 'كَلْبًا' فَنَبْدُو غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى تَقْدِيمِ مَعْرِفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِأَيٍّ مِنْهُمَا. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَا حِينَ نَقُولُ: 'النَّارُ تُحْرِقُ' إِنَّمَا نَسْتَعْمِلُ 'النَّارَ' وَتُحْرِقُ' بِتَعْرِيفَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ. وَلَوْ أَنَا عَرَفْنَا Chien بِأَنَّهُ 'حَيَوَانٌ أَلْبَسُ يَشْبَهُ الذَّنْبِ'، وَ'الْكَلْبُ' بِأَنَّهُ 'ذُو أَرْبَعِ نَاصِحٍ'، لَأَمَكَّنَا أَنْ نَقُولَ: "Chien هُوَ 'كَلْب' " (= 'الْكَلَابُ تَنْبُحُ')، وَلَنَقْلَ إِلَيْنَا هَذَا مَعْرِفَةً.

خطابٍ مُحدّد. وفي بعض التعريفات، كتعريفات الفيزياء مثلاً، يكون هذا النطاق واسعاً جداً. فلنفظ 'طاقة' عند الفيزيائي أوسع منه عند المدرّس، ما دام الفيزيائي يعلم أن تقرير الطالب المعلم بعلامة 'بلا طاقة' يملك الطاقة بأشكالٍ متنوّعة. وكلّما اقتطع لفظ ما على هذا النحو من عالم الخطاب الذي حدّد له استحالة استعارة، وربما احتاج إلى تعريف جديد. وعلى الرغم من أن الاستعارة لا تقتصر على ذلك لدينا هنا سمة أساسية للغة الاستعارية الرمزية. وسناقش الفرق بين هذه اللغة واللغة الاستعارية الانفعالية لاحقاً في الصفحتين 358-359.

وأما رابعة الصعوبات فتتصل بمشكلة التعريف 'المكثف' intensive، بإزاء التعريف 'الموسع' extensive⁽⁴⁾ التي تبلّغ ذروتها عند استعمال مصطلحي 'يدلّ دلالة تعيينية' denote و'يدلّ دلالة إيحائية' connote. وستلقى اصطناعية هذه التفريقات في الفصل التاسع مزيداً من التأكيد. أما هنا فمن الضروري أن يُشار إلى أنه قد يقال عن رمزين إن لهما الدلالة الإيحائية نفسها حين [111] يرمزان إلى الإحالة نفسها. وسيكون التعريف المكثف أو الدالّ دلالة إيحائية هو الذي لا ينطوي على تغيير في خصائص المرجع التي بمقتضاها يكون سياقاً مع علامته الأصلية. أما التعريف الموسع فقد ينطوي على مثل هذا التغيير. بعبارة أخرى،

(4) للدكتور سمير شريف استيتية كلام مفيد يسلط الضوء على ما جاء في هذا الموضع من حديث عن التعريف المكثف أو المضيق والتعريف الموسع، إذ قال في كتابه (اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج): 270-271: 'الأصل أنه قد يكون للمعنى كلمة تعبّر عنه أو جملة تفصّل عنه أو تُقرّبه إلى أذهان الناس. ويسمى القدر الذي يُعبّر عن هذا المعنى من الكلمات مجالاً. وتقوم العلاقة بين المجال في أدنى حدود قدره على أساس مساواتيه للمعنى في أوسع حدود قدره. وبيان ذلك، مثلاً، أن كلمة 'رجل'، وهي كلمة واحدة، تتسع من جهة المعنى لتشمل كل ما يوصف بأنه 'رجل' دون تعيين أو تخصيص أو تحديد أو استثناء. فإذا وسعنا المجال بأن جعلناه من ثلاثة مورفيمات، مثلاً، كاسم الإشارة 'هذا' و'ال تعريف' و'رجل'، فقلنا: هذا الرجل، خرجت كلمة 'رجل' من عمومها إلى أن تكون دالة على المشار إليه فقط'. [المترجم]

حين نَعْرِفُ تعريفاً مُكْتَفَاً نَحْنُ نَلْتَزِمُ الحالَ العَلَامِيَّةَ نَفْسَهَا لِلْمُعْرِفِ والمُعْرِفِ، أما حين نَعْرِفُ تعريفاً مُوسَّعاً فقد يَتَغَيَّرُ ذلك.

فنحن الآن في وَضْعٍ يَجْعَلُنَا نَتَشَبَّثُ بِالْفَرْقِ بَيْنَ التَّعْرِيفَاتِ والتَّقْرِيرَاتِ الاعْتِيَادِيَّةِ. فَعِبَارَتَا "الغوريلاَتُ حَيَوَانَاتٌ" و"الغوريلاَتُ أَنْيَسَةٌ" تَخْتَلِفُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْآخَرَى فِي أَنَّ أُولَاهُمَا تَبْدُو صَادِقَةً يَقِينًا بِقَدْرِ فَهْمِنَا لَهَا، فِي حِينِ أَنَّ الثَّانِيَّةَ قَدْ يُشَكُّ فِيهَا. ذَلِكَ بِأَنَّ عِبَارَةَ "هَذِهِ غُورِيلَا" تَعْقُبُهَا مُبَاشَرَةٌ عِبَارَةُ "هَذِهِ حَيَوَانٌ"، لَا أَنَّهَا حَيَوَانٌ أَنْيَسٌ. وَإِذَا مَا رُخْنَا نَبَحْتُ عَنْ فَرْقٍ فِي الصَّلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ بَيْنَ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالْغُورِيلِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ الْغُورِيلِيَّةِ وَالْأَنْسِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَلَنْ نَجْنِي مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِزْجَاءَ لَاهِيَا لَوَقْتِ قَرَاغِنَا. لَكِنْ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْفَرْقِ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ، أَيِ بَيْنَ الْإِحَالَتَيْنِ أَوْ فِيهِمَا⁽⁵⁾، فَسَنَكْتَشِفُ أَنَّ التَّعْرِيفَ الْمُسْتَعْمَلَ فَعْلِيًّا فِي الْحَالَةِ الْأُولَى يَتَضَمَّنُ الْحَيَوَانَ، فَيَحْدِثُنَا عَنِ الْغُورِيلَا نَكُونُ قَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْ الْحَيَوَانِ، وَنَكُونُ بِذَلِكَ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُجِيلَ مَرَّةً أُخْرَى بِلا تَرَدُّدٍ عَلَى مَا سَبَقَ أَنْ أَحَلْنَا عَلَيْهِ، فِي حِينِ أَنَّ الْأَنْسَ لَمْ يَكُنْ مُتَضَمَّنًا عَلَى هَذَا النَحْوِ. فَالْحَقُّ أَنَّ التَّعْرِيفَ الْمُنَاسِبَ هُوَ التَّعْرِيفُ الْمُسْتَعْمَلَ فَعْلِيًّا⁽⁶⁾. [112]

(5) سِئَالُ السُّوَالِ الرَّافِعِ التَّمْطِي هُوَ: أَيْنَ يَكُونُ مَكْمَلُ الْفَرْقِ؟

(6) لِهَذِهِ النُّقْطَةِ صِلَةٌ بِالْخِلَافِ بِشَأْنِ الْعَلَاqَاتِ، كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا: أَدَاخِلِيَّةٌ هِيَ أَمْ خَارِجِيَّةٌ؟ فَالْعَلَاqَةُ الدَّاخِلِيَّةُ تَبْدُو عِلَاqَةً تَعْرِيفِيَّةً، وَكُلُّ عِلَاqَةٍ تُسْتَعْمَلُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ تَبْدُو دَاخِلِيَّةً. فَكُلُّمَتَا 'دَاخِلِيَّةٌ' وَ'تَعْرِيفِيَّةٌ' إِذْنِ مُتَرَادِفَتَانِ، وَعِلَاqَةُ الْكُلِّ بِالْجُزْءِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، عِلَاqَةُ دَاخِلِيَّةٌ مَا دَامَ الْكُلُّ يُعْرَفُ مُبَاشَرَةً بِاشْتِمَالِهِ عَلَى أَجْزَائِهِ، وَكَذَلِكَ عِلَاqَةُ الْجُزْءِ بِالْكُلِّ إِذَا مَا عُرِفَ الْجُزْءُ بِوَصْفِهِ مُتَضَمَّنًا فِي الْكُلِّ. أَمَّا الْعِلَاqَةُ الْخَارِجِيَّةُ فَهِيَ أَيُّهُ عِلَاqَةُ مِوَى الْعِلَاqَةُ التَّعْرِيفِيَّةُ. وَلَوْ كَانَتْ عِلَاqَةُ الْبَرُوفيسُورِ مُورِ G. E. Moore وَهِيَ يُسْتَلْزَمُ 'entails' (Philosophical Studies, p. 291) عِلَاqَةُ اسْتِدْالٍ جُزْئِيٍّ أَوْ كُلِّيٍّ بَيْنَ الرُّمُوزِ، مُرْتَبِكَةٌ عَلَى تَطَابُقِ الْإِحَالَةِ، مَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَطْرُوقَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعِلَاqَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ لِتَخْتَلِفَ كَثِيرًا حِينَئِذٍ عَنِ الَّتِي قَدَّمَهَا الْبَرُوفيسُورُ مُورِ. عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ ضَعُوفَةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ فِي اكْتِشَافِ مَا نَقَرُّهُ الْأَطْرَافَ الْمُتَعَدِّدَةَ لِهَذَا الْخِلَافِ، وَكُلُّ يَمِيلُ حَقًّا إِلَى التَّوْجُّعِ عَلَى عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى فَهْمِ الْآخَرِينَ.

فَلْنُحَاوِلِ الْآنَ مُعَالَجَةَ جَدِيدَةٍ لِلْمُشْكِلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِكَيْفِيَّةِ التَّعْرِيفِ،
أَوْ إِحْرَازِ الرَّمُوزِ الْبَدِيلَةِ الْمَطْلُوبَةِ فِي أَيِّ نِقَاشٍ. فَتَحْنُ نَعْلَمُ⁽⁷⁾ أَنَّ 'الرَّمْزُ' إِنَّمَا
يُحِيلُ عَلَى مَا اسْتَعْمِلَ الرَّمْزُ فِعْلِيًّا لِجَحْلٍ عَلَيْهِ؛ فَيَنْبَغِي لَنَا إِذْنُ الْكَثِّ عَنْ افْتِرَاضِ
أَنَّ النَّاسَ يُحِيلُونَ عَلَى مَا كَانَ 'يَجِبُ' أَنْ يُحِيلُوا عَلَيْهِ، وَأَلَّا نُرَاعِيَ إِلَّا مَا يُحِيلُونَ
عَلَيْهِ فِعْلِيًّا. وَالنَّقْطَةُ الَّتِي تُوجِّهُنَا فِي كُلِّ نِقَاشٍ هِيَ النَّقْطَةُ الَّتِي فِي الْمَقْدَمَةِ حَقًّا،
وَالَّتِي يَجِبُ أَنْ تُفْهَمَ أَوَّلًا. وَهِيَ أَنَّ عَلَيْنَا فِي كُلِّ الْحَالَاتِ أَنْ نَجِدَ الْمَرْجِعَ.
فَكَيْفَ يُمَكِّنُ فِعْلُ ذَلِكَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ؟

إِنَّ الْإِجَابَةَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ سَهْلَةٌ وَوَاضِحَةٌ. وَذَلِكَ بِأَنْ نَجِدَ أَوَّلًا مَجْمُوعَةً
مَرَاجِعَ تَكُونُ مُشْتَرَكَةً بَقِيَّةً بَيْنَ جَمِيعِ الْمَغْنِيِّينَ، يُمَكِّنُ أَنْ يُضْمَنَ الْإِتْفَاقُ عَلَيْهَا،
ثُمَّ نَعَيِّنَ الْمَرْجِعَ الْمَطْلُوبَ مِنْ خِلَالِ عِلَاقَتِهِ بِهَذِهِ الْمَرَاجِعِ.

وَمِنْ حُسْنِ الْحِظِّ أَنَّ أَنْمَاطَ الْارْتِبَاطَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي تُعْنَى بِهَا النِّقَاشَاتُ
قَلِيلَةٌ الْعَدَدِ، وَإِنْ كُنَّا نَمِيلُ إِلَى أَنْ نَعْتَقِدَ، وَعَلَى هَذَا النُّحُوِّ يَتَنَوَّعُ تَعْقِيدُ كَلَامِنَا،
أَنَّ الْأَشْيَاءَ مَرْتَبُطَةٌ بِأَيِّ عَدَدٍ مِنَ الظَّرَائِقِ. وَلَا حَاجَةَ بِنَا هُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي سَبَبِ
هَذَا الْفَقْرِ: أَهْوَى الْأَثَرِ الْمُقَيَّدُ لِللُّغَةِ؛ إِذْ إِنَّ وُجُودَ عَدَدٍ أَكْبَرَ مِنَ الْارْتِبَاطَاتِ يَجْعَلُ
قِيَادَةً يَتَعَذَّرُ عَلَى بُسْطَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ تَعَذُّرًا تَامًا لَا تَعَذُّرًا جُزْئِيًّا، أَمْ هُوَ بِنْيَةُ الْعَقْلِ،
أَمْ هُوَ الْبَسَاطَةُ الْفِعْلِيَّةُ فِي الْكَوْنِ؟ وَلِلْأَغْرَاضِ الْعَمَلِيَّةِ تُخَصَّرُ الْارْتِبَاطَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ
الَّتِي يُمَكِّنُ اسْتِعْمَالُهَا فِي التَّعْرِيفِ فِي تِلْكَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَتَبَادَرَ إِلَى الذَّهَنِ
الْإِعْتِيََادِيَّ عِنْدَ تَسْمِيَّتِهَا مُبَاشَرَةً. فَلْنَنْظُرْ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، فِي نُشُوءِ التَّجْرِيدِ
الَّذِي نُسَمِّيهِ الْعِلَاقَةَ الْمَكَائِيَّةَ. فَفِي كُلِّ إِحَالَةٍ عَلَيْنَا عَلَى الْمَوْضُوعَاتِ الْمَكَائِيَّةِ ثَمَّةً
عَنَاصِرُ أَوْ خُبُوطَ مُشْتَرَكَةً مُعَيَّنَةً تَكُونُ فَعَالَةً. فَلَوْ أَرَدْنَا التَّفَكِيرَ أَصْلًا فِي الْمَكَانِ
مُقَابِلًا لِلْمَوْضُوعَاتِ الْمَكَائِيَّةِ لَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُفَكِّرَ فِي تَتَابُعِ سَرِيعٍ فِي تَنَوُّعٍ مِنْ
الْمَوْضُوعَاتِ الْمَكَائِيَّةِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَظْهَرَ الْعَنَاصِرُ الْمُشْتَرَكَةُ فِي الْإِحَالَاتِ. وَقَدْ
أَصْبَحْنَا قَادِرِينَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ عَلَى اسْتِعْمَالِ هَذِهِ [113] الْإِحَالَاتِ

(7) بِوَسَاطَةِ الْقَانُونِ الرَّابِعِ الْمَذْكُورِ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ.

المُشْتَرَكَّةُ، أي العامَّةُ، على نَحْوِ مُسْتَقِلٍّ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى بِنَائِهَا مِنْ جَدِيدٍ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ. وَنَحْنُ قَادِرُونَ الْآنَ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا عَلَى وَفَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْإِنَارَةُ الْبَدِيلَةُ لِلرَّمْزِ 'عِلَاقَةُ مَكَانِيَّةٌ'. عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ الْاِعْتِيَادِيَّ مَا زَالَ، إِلَّا فِي الْحَالَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي تَكُونُ لِيُمَثِّلَ هَذِهِ التَّجَرِيدَاتِ فِيهَا قِيَمَةً عَامَّةً، يَسْتَعِينُ بِالْأُمَثِلَةِ، وَالنَّشَاطَاتِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ. وَقَوْلُهُ هَذِهِ التَّجَرِيدَاتِ هِيَ مَا يُنْقِذُ الْحَالَةَ اللَّغَوِيَّةَ. فَلَوْ أَنَا اسْتَخْدَمْنَا نَحْوَ مِثْلٍ مِنْ أَنْمَاطِ الْارْتِبَاطَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ جَذْرِيًّا (وَمَا زَالَ هَذَا رَقْمًا مُتَوَاضِعًا) لَكَانَ مِنَ الْمُحَالِ حَصْرُ حَالَاتِ سُوءِ الْفَهْمِ النَّاجِمِ عَنْ تَنَوُّعِ إِحَالَاتِنَا.

فَلَمَّا كَانَتْ الْارْتِبَاطَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ بِهَذِهِ الْقِلَّةِ قَصَّرَتْ مُهِمَّةُ إِنْشَاءِ نَظَرِيَّةٍ لِلتَّعْرِيفِ نَفْسَهَا عَلَى تَأْطِيرِ قَائِمَةٍ مِنَ الْقَوَائِمِ. وَجَمِيعُ الْمَرَاجِعِ الْمُمَكِّنَةِ مُرْتَبِطَةٌ بِوَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّرَاقِي الْأَسَاسِيَّةِ أَوْ بَعْدِيٍّ مِنْهَا مَعَ مَرَاجِعٍ يُمَكِّنُنَا جَمِيعًا أَنْ نَنْجَحَ فِي تَعْيِينِهَا. وَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَا بِإِحَالَاتِنَا عَلَى آيَةٍ نَقْطَةٍ اتِّفَاقٍ ثَابِتَةٍ مُعَيَّنَةٍ نَجِدُ أَنْفُسَنَا قَادِرِينَ عَلَى الْانْطِلَاقِ مِنْهَا - نَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنَ الْاِتِّفَاقِ عَلَى تَعْيِينِهَا. وَيَجِبُ أَنْ نَكُونَ عَلَى حَذَرٍ مِنْ تَقْدِيمِ نِقَاطِ انْطِلَاقِنَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ لِئَلَّا تُوَلَّدَ مُشْكِلَاتٌ جَدِيدَةٌ بِسَبَبِهَا. أَيُّ إِنَّا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَخِبَهَا بِالإِحَالَةِ عَلَى الْعَالَمِ الْمَخْصُوصِ لِلْخُطَابِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ تَعْبِيرَاتُنَا الْمَعْرُفَةُ. فَلِذَا رَغَبْنَا، بِذَلِكَ، فِي الْإِشَارَةِ إِلَى مَا نُحِيلُ عَلَيْهِ حِينَ نَسْتَعْمِلُ كَلِمَةً 'جَمَالٌ' كَانَ عَلَيْنَا الْبَدْءُ بِاِنْتِخَابِ نِقَاطِ انْطِلَاقٍ مُعَيَّنَةٍ، كَالطَّبِيعَةِ، أَوِ الْمُتَعَةِ، أَوِ الْعَاطِفَةِ، أَوِ الصِّدْقِ، ثُمَّ قَوْلُنَا إِنَّ مَا نُحِيلُ عَلَيْهِ بِكَلِمَةِ 'جَمَالٌ' هُوَ أَيُّ شَيْءٍ يَقَعُ فِي عِلَاقَةٍ مُعَيَّنَةٍ (تَقْلِيدِ الطَّبِيعَةِ، وَالتَّسَبُّبِ فِي الْمُتَعَةِ أَوِ الْعَاطِفَةِ، وَالكَشْفِ عَنِ الصِّدْقِ) بِهَذِهِ النِّقَاطِ. أَمَّا تَفْصِيلُ كَيْفِيَّةِ فِعْلِ ذَلِكَ فَمَوْضِعُهُ الْفَصْلُ الْقَادِمُ.

وَإِذَا سَأَلَ شَخْصٌ مَا عَنْ مَكَانِ مِيدَانِ كِيمْبِرِجِ Cambridge Circus⁽⁸⁾ كَانَتْ إِجَابَتُنَا: "أَنْتَ تَعْرِفُ مَكَانَ الْمُتَحَفِ الْبَرِيطَانِيِّ، وَتَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى شَارِعِ

(8) مِيدَانِ كِيمْبِرِجِ: تَقَاطُعُ مَرُورِيٍّ فِي مَنَاطِقِ شَارِعِ شَانْتِسْبِيرِي وَمُفْتَرَقِ شِيرِنِجِ فِي مَرْكَزِ مَدِينَةِ لَنْدُنْ. [الْمُتَرْجِمُ]

شافتسبري Shaftesbury Avenue⁽⁹⁾. فإذا ذَهَبْتَ إلى شارعِ شافتسبري رأيتَهُ هناك^{*}. [114] وثُمَّ أَمْرَانِ يُمكنُ أَنْ يُلَحَظَا-

(1) أَنَّ نَقْطَةَ الانْطِلاقِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَالُوفَةً، وَلَا يُمكنُ ضَمَانُ ذَلِكَ فِي المُمَارَسَةِ إِلَّا حِينَ تَكُونُ شَيْئًا نَحْنُ مُلْثَمُونَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مُبَاشِرٍ لَا عَلَى نَحْوِ رَمْزِيٍّ (أَيَّ أَنَّ مَعْرِفَتَنَا لَهُ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى مَعْرِفَةِ اسْمِهِ)، أَوْ شَيْئًا ذَا امْتِدَادٍ وَاسِعٍ وَمُبْهَمٍ لَا يَتَضَمَّنُ أَيَّ غُمُوضٍ فِي السِّيَاقِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِيهِ. فعلى ذَلِكَ إِنْ كَانَ ثَمَّةَ شَخْصٍ مَا فِي حَدَاقِ كِينِسِنْغَتْنِ Kensington Gardens⁽¹⁰⁾ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنَ الزَّمَنِ إِلَّا رُبْعُ سَاعَةٍ، وَهُوَ يَرْعَبُ فِي مُشَاهَدَةِ مَيْدَانِ كِيمْبِرِج، فَأُخْبِرَ أَنَّ المَيْدَانَ المَذْكُورَ يَقَعُ خَلْفَ سَاحَةِ لَيْسِيَسْتَرِ Leicester Square⁽¹¹⁾، فَإِنَّهُ سَيُوجَلُ زيارَتُهُ بِالسَّرعَةِ نَفْسِهَا الَّتِي كَانَ سَيَكُونُ عَلَيْهَا لَوْ أَنَّهُ أُخْبِرَ (بِالْغُمُوضِ نَفْسِهِ وَلِغَرَضٍ آخَرَ) أَنَّهُ يَقَعُ فِي سُوهُو Soho⁽¹²⁾.

(2) أَنَّ حَاجَتَنَا فِي الْأَغْرَاضِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ صِرَامَةً شُبْنَةً دَائِمَةً إِلَى نِقَاطِ انْطِلاقٍ تُؤْخَذُ مِنْ خَارِجِ الْحَالِ الْكَلَامِيَّةِ، أَيْ أَشْيَاءَ نَسْتَطِيعُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا أَوْ تَجَرِبَتَهَا. وَنُمكنُ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ أَنْ نُفِيدَ فِي رُمُوزِنَا مِنْ إِيْجَابِيَّاتِ اللُّغَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ آفَقًا. وَبِذَلِكَ تَكُونُ الْإِشَارَةُ إِلَى غِطَاءٍ وَاقٍ لظَهَرِ كُرْسِيِّ أَسْهَلٍ مِنْ وَصْفِهِ عِنْدَ وُجُودِ أَحَدٍ هَذِهِ الْاحْتِرَازَاتِ.

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَّا أَهْمِيَّةَ نِقَاطِ الانْطِلاقِ، أَيْ أَنْ تَنْصَرَّفَ تَصَرَّفَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي

(9) شارعُ شافتسبري: شارعُ رَيْسٍ فِي النِّهَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِمَدِينَةِ لَنْدُن. [المُتَرْجِم]

(10) حَدَاقِ كِينِسِنْغَتْنِ: حَدَاقِ مَلَكِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي قَصْرِ كِينِسِنْغَتْنِ فِي مَدِينَةِ لَنْدُن. تَقَعُ إِلَى الْغَرْبِ مِنْ حَدِيقَةِ هَايد بَارِك. وَتُشَكِّلُ الْمَسَاحَاتِ الْمَفْتُوحَةَ فِي حَدَاقِ كِينِسِنْغَتْنِ، وَهَايد بَارِك، وَغَرِين بَارِك، وَسِينْت جِيمْس بَارِك 'الرُّوَّةُ الْخَضِرَاءُ' فِي قَلْبِ لَنْدُن. [المُتَرْجِم]

(11) سَاحَةُ لَيْسِيَسْتَرِ: سَاحَةُ لِلْسَّابِلَةِ فِي النِّهَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ لِمَدِينَةِ لَنْدُن. [المُتَرْجِم]

(12) سُوهُو: مَنطَقَةٌ مِنْ مَنَاطِقِ مَدِينَةِ لَنْدُن، وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ النِّهَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ لَهَا. يَحْدُهَا مِنَ الْجَنُوبِ مَيْدَانُ بِيكَادِيلِي وَشَارِعُ شافتسبري وَمَيْدَانُ كِيمْبِرِج، وَمِنَ الشَّرْقِ مَفْتَرَقُ تَشِيرِنغ، وَمِنَ الشَّمَالِ شَارِعُ أوكسفورد، وَمِنَ الْغَرْبِ شَارِعُ رِيْجَنْت. [المُتَرْجِم]

يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْمَرَاجِعِ الْمَطْلُوبَةِ، يُمَكِّنُنَا الْآنَ أَنْ نُعَدِّدَ بَعْضَ الْمَسَالِكِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي تُفِيدُنَا فِي الْإِهْتِدَاءِ إِلَى مَجَالِ الْإِحَالَةِ. وَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْسَى أَنَّ الْأَحْوَالَ الْعَلَامِيَّةَ الْمُتَضَمِّنَةَ هُنَا لَا تَنْشَأُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ تَأْوِيلَاتٍ أُخْرَى أَبْسَطُ هِيَ مِنَ النَّوعِ الَّذِي نَاقِشُنَاهُ فِي الْفُصُولِ السَّابِقَةِ. وَمِنَ السَّهْلِ رَمْزِيًّا أَنْ نَجْعَلَ الْحَالَ الَّتِي تَنْشَأُ عِنْدَ التَّعْرِيفِ تَبْدُو بَسِيطَةً، لَكِنْ إِذَا أَدْرَكْنَا دَقَّةَ الْعَمَلِيَّاتِ وَالتَّكْيِيفَاتِ الْمَطْلُوبَةِ فَلَنْ نَفِرَّطَ فِي الثَّقَةِ بِالْمُقَارَنَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ لِلرَّمُوزِ (الْمَنْهَجِ الْمُعْتَادِ)، بَلْ سَنُحَاوِلُ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، أَنْ نَنْظُرَ فِي مَا يَحْدُثُ فِعْلِيًّا.

وَإِذَا سُنَلْنَا فِي نِقَاشٍ مَا: 'هَلْ نَسْتَطِيعُ تَعْرِيفَ أَلْفَاظِكَ؟'، أَوْ تَذَمَّرَ أَحَدُنَا قَائِلًا: 'أَنَا لَا أَفْهَمُ مَا تَعْنِيهِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا'، فَلِنَا نَسْعَى إِلَى اكْتِشَافِ مَسَلِكٍ مَا نَسْتَطِيعُ بِوَسَاطَتِهِ ضَمَانُ فَهْمٍ، أَيْ تَعْيِينٍ، لِلْمَرَاجِعِ.

إِنَّ الشَّخْصَ الْمُلِمَّ إِمَامًا تَامًا بِمَوْضُوعِهِ [115] وَبِأَلْيَةِ التَّعْرِيفِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الرَّجُلِ الْمُرتَفِعِ عَالِيًا فِي مَتَاهَةٍ، عَلَى تَوْجِيهِ الْمُسَافِرِينَ الْقَادِمِينَ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَمَاكِينِ إِلَى آيَةِ نُقْطَةٍ يَرْعَبُونَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، وَقَدْ يَزَادُ عَلَى ذَلِكَ بِالْقَوْلِ إِنَّ ارْتِقَاءَ السَّلْمِ وَالْإِطْلَالَ عَلَى الْمَتَاهَةِ هُمَا إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ الْأَسْلُوبُ الْأَمْتَلُ لِلتَّمَكُّنِ مِنَ الْمَوْضُوعِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ وَمَا رَأَيْنَاهُ آيَفًا مِنْ أَنَّ الْعِلَاقَاتِ لَا تُعَدُّ الْبَيِّنَةُ جُزْءًا مِنْ مَادَّةِ الطَّبِيعَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَا حِينَ نَظْهَرُ بِمَظْهَرٍ مَن يَتَحَدَّثُ عَنْهَا إِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهَا بِوَصْفِهَا أَدَوَاتٍ، وَهَذَا لَا يَتَضَمَّنُ مَرَاجِعَ حَقِيقَتِهِ مُنَاطَرَةً لَهَا - حِينَ تَسْتَعْمَلُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ تَكُونُ ثَمَّةَ عِلَامَاتٍ فَارِقَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَحْسُنُ أَنْ تُجْعَلَ مَسْأَلَةً تَيْسِيرٍ. وَقَدْ وَصَفْنَا فِي بَدْءِ بَحْثِنَا الْعِلَاقَةَ الَّتِي يُقَالُ إِنَّهَا تَحْدُثُ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالْمَرْجِعِ بِأَنَّهَا عِلَاقَةٌ مَنُوبَةٌ. وَلَوْ أَنَا قَدْ اكْتَفَيْنَا بِوَصْفِهَا بِأَنَّهَا عِلَاقَةٌ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ لَكُنَّا قَدْ أَسْقَطْنَا الْفَرْقَ الْمُهِّمَ بَيْنَ الْعِلَاقَاتِ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ الْمُدْرَكَةِ بِوَصْفِهَا غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ وَتِلْكَ الَّتِي تُعَامَلُ خَطَأً عَلَى أَنَّهَا عِلَاقَاتٌ مُبَاشِرَةٌ. وَبِذَلِكَ تَكُونُ عِلَاقَةُ الْجَدِّ بِحَفِيدِهِ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ عَلَى نَحْوِ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنْهَا فِي عِلَاقَةِ الْأَبِ بِابْنِهِ، وَيُمْكِنُ تَحْلِيلُهَا إِلَى عِلَاقَتَيْنِ أَبَوِيَّتَيْنِ - 'أَنْ تَكُونَ أَبَا لِأَبٍ (أَوْ لِأُمٍّ) لـ' وَلَنْ يَفْتَرِضَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ

غير مباشرة مُتَضَمِّنَةٌ هُنَا، مَا دَامَتْ كُلُّ الْعَلَاqَاتِ الْأَسْرِيَّةِ غَيْرَ مُبَاشِرَةٍ عَلَى نَحْوِ كَبِيرٍ. عَلَى أَنَّ مِمَّا يَشِيْعُ كَثِيرًا التَّحَدُّثُ عَنِ الْحُبِّ، وَالْكُرْوَ، وَالصَّدَاقَةِ، وَالتَّعَاطُفِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، عَلَى أَنَّهَا عِلَاقَاتٌ مُبَاشِرَةٌ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْاِخْتِيَارَ يُظْهَرُ فَوْرًا عَدَمِ مُبَاشَرَتِهَا. عَلَى أَنَّ السَّايكُولُوجِيَّةَ الْاِجْتِمَاعِيَّةَ بِأَجْمَعِهَا مُبْتَلَاةٌ بِعِلَاقَاتٍ مَنَسُوبَةٍ مِنْ هَذَا النَّمَطِ، وَمِنْ أَجْلِ تَفْسِيرِهَا اسْتُحْدِثَتْ فِي الْغَالِبِ قَرَضِيَّاتٌ كَفَرَضِيَّةِ الْوَعْيِ الْجَمْعِيِّ.

عَلَى أَنَّ تَمَيِيزَ الْعِلَاقَاتِ الْبَسِيطَةِ مِنَ الْمُعَقَّدَةِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، مُخْتَلِفٌ شَيْئًا مَا. فَعَدَمُ الْمُبَاشَرَةِ نَوْعٌ وَاحِدٌ فَقَطْ مِنَ التَّعْقِيدِ، وَلَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ تَكُونَ الْعِلَاقَاتُ الْمُبَاشِرَةُ بَسِيطَةً. فَعِلَاقَةُ 'أَنْ تَكُونَ عَمَّا كَرِيمًا لـ'، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، مُعَقَّدَةٌ؛ فَهِيَ مَزِيْعٌ مِنْ عِلَاقَتِي 'أَنْ تَكُونَ كَرِيمًا تَجَاهُ' وَالْعَمِيَّةُ. وَمُشَابَهَةٌ بَعْضِ حَبَاتِ الْبَازِلَاءِ [116] بَعْضًا عِلَاقَةً مُعَقَّدَةً؛ ذَلِكَ بِأَنَّهَا مَزِيْعٌ مِنْ مُشَابَهَاتٍ مِنْ حَيْثُ الْخُضْرَةُ، وَالصَّلَابَةُ، وَالصَّلَاحِيَّةُ لِلْأَكْلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْاِعْتِبَارَاتُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَبْدُو أَوَّلِيَّةً، ذَاتُ نَفْعٍ فِي كُلِّ حِينٍ يَكُونُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَامَلَ فِيهِ مَعَ الْعِلَاقَاتِ.

فَالْمَسَالِكُ الَّتِي نَبْحَثُ عَنْهَا فِي سَعِينَا إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْمَرْجِعِ الْمَطْلُوبِ هِيَ الْعِلَاقَاتُ الْوَاضِحَةُ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا هَذَا الْمَرْجِعُ بِإِزَاءِ مَرْجِعٍ مَا مَعْرُوفٍ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ عَدَدَ الْعِلَاقَاتِ الْمُمَكِّنَةِ كَبِيرٌ، لَكِنْ، لِحُسْنِ الْحِظِّ، مَا يُنْتَفَعُ بِهِ عَمَلِيًّا مِنْهَا يُقَسَّمُ، عَلَى مَا بَيَّنَّا سَابِقًا، عَلَى مَجْمُوعَاتٍ قَلِيلَةٍ الْعَدَدِ. لِذَا، فَإِنَّ لَدُنَا فِي مَا يَأْتِي قَائِمَةٌ تُثَمِّلُ تَصْنِيفًا تَمْهِيدِيًّا⁽¹³⁾.

1. الترميز Symbolization

هُوَ أَسْهَلُ طَرَائِقِ التَّعْرِيفِ وَأَكْثَرُهَا أَسَاسِيَّةً. فَإِذَا سُئِلْنَا: عَلَامٌ يُحِيلُ 'بُرْتُقَالِي'؟ فَبِمَاكَانَا تَنَاوُلُ شَيْءٍ مَا بُرْتُقَالِي وَأَنْ نَقُولَ: "بُرْتُقَالِي" رَمَزٌ يَزُمُّ إِلَى

هذا'. والعلاقة التي نَسْتَعْمِلُهَا هُنَا هِيَ الَّتِي نَاقَشْنَاهَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ بِوَصْفِهَا تُشَكِّلُ قَاعِدَةً مُثَلَّثًا. وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهَا عِلَاقَةٌ مَنَسُوبَةٌ يُمَكِّنُ تَقْلِيصُهَا إِلَى عِلَاقَةٍ بَيْنَ رَمَزٍ وَفِعْلٍ إِحَالِيٍّ وَعِلَاقَةٍ بَيْنَ فِعْلٍ إِحَالِيٍّ وَمَرْجِعٍ. وَنُقْطَةُ انْطِلَاقِنَا هِيَ كَلِمَةُ 'بُرْتُقَالِيٍّ'، وَمَسَلِّكَ تَعْرِيفِنَا هُوَ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ. أَمَّا الْمَرْجِعُ الْمَطْلُوبُ فَهُوَ (هَذَا). وَحَقِيقَةُ مَا نَفْعَلُهُ هُنَا هُوَ التَّسْمِيَةُ مُبَاشَرَةً.

عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُقَالُ إِنَّ (هَذَا) إِنَّمَا يُخْبِرُنَا أَنَّ 'بُرْتُقَالِيٍّ' قَابِلٌ لِلتَّطْبِيقِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ، وَمَا نَرَعُبُ فِي مَعْرِفَتِهِ هُوَ كَيْفِيَّةُ تَطْبِيقِهِ عُمُومًا؛ فَتَحْنُ نَرَعُبُ فِي تَوْسِيعِ التَّعْرِيفِ لِيَشْمَلَ كُلَّ الْمَرَاجِعِ الَّتِي يَكُونُ 'بُرْتُقَالِيٍّ' رَمَزًا مُنَاسِبًا لَهَا. وَيُمْكِنُ تَنْفِيزُ هَذَا التَّعْمِيمِ فِي كُلِّ أَنْمَاطِ التَّعْرِيفَاتِ عَلَى النَّحْوِ نَفْسِهِ بِاسْتِعْمَالِ عِلَاقَاتِ الْمُشَابَهَةِ. فَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ: 'بُرْتُقَالِيٍّ' يَنْطَبِقُ عَلَى هَذَا وَعَلَى كُلِّ الْأَشْيَاءِ الْمُشَابَهَةِ فِي اللَّوْنِ لِهَذَا'. وَتَمَيِّيزُ إِحْدَى عِلَاقَاتِ الْمُشَابَهَةِ مِنَ الْأُخْرَيَاتِ عِنْدَ الْمُمَارَسَةِ يَتَطَلَّبُ عُمُومًا اسْتِعْمَالُ [117] أَمْثَلَةٍ مُتَنَاطِرَةٍ، تَشَابُهَاتِ فِي الْحَقِيقَةِ، بِأَبْسَاطٍ رُتَبَةٍ.

2. المُشَابَهَةُ Similarity

بِذَلِكَ قَدْ تَسْتَعْمَلُ الْمُشَابَهَةُ نَفْسَهَا بِوَصْفِهَا عِلَاقَةً تَعْرِيفِيَّةً. فَمَرْجِعُنَا الْمَطْلُوبُ يُشْبِهُ مَرْجِعًا يَقَعُ عَلَيْهِ الْاِخْتِيَارُ. فَإِذَا سَأَلْنَا: عَلَامَ يُحِيلُ الرَّمْزُ 'بُرْتُقَالِيٍّ'؟ فَبِمَاكَانِنَا تَعْرِيفُ هَذَا الرَّمْزِ يَتَنَاوَلُ شَيْءًا مَا بُرْتُقَالِيٍّ وَأَنْ نَقُولَ: 'الرَّمْزُ 'بُرْتُقَالِيٍّ' يَنْطَبِقُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُشْبِهُ هَذَا الشَّيْءَ فِي اللَّوْنِ'. فَقَدْ أَخْلَلْنَا هُنَا 'يُشْبِهُ هَذَا فِي اللَّوْنِ' مَحَلًّا 'بُرْتُقَالِيٍّ'، وَمَرْجِعُ الرَّمْزَيْنِ وَاحِدٌ. فَتُقْطَعُ انْطِلَاقِنَا هِيَ (هَذَا) وَالْعِلَاقَةُ هِيَ الشَّبَهُ، وَكُلُّ مَنْ يَعْرِفُ مَا يَرْمِزُ إِلَيْهِ 'هَذَا' (أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَ أَعْمَى) وَيَعْرِفُ مَا يَرْمِزُ إِلَيْهِ 'الشَّبَهُ' سَيَكُونُ حَلِيفُهُ النَّجَاحُ.

3. العِلَاقَاتُ الْمَكَائِيَّةُ Spatial Relations

مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْوَاضِحَةِ لَهَا: عَلَى، وَفَوْقَ، وَبَيْنَ، وَبِجَانِبِ، وَإِلَى الْيَمِينِ مِنْ،

وَقُرْبَ، وَأَكْبَرَ مِنْ، وَجُزْءٍ مِنْ. و"بُرْتُقَالِي" رَمَزٌ لِلْوَنِ الْمُنطَقَةِ الَّتِي بَيْنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ فِي الطَّيْفِ (وَلَايَ لَوْنٍ كَهَذَا). وَيُلْحَظُ أَنَّ عِلَاقَةَ التَّسْمِيَةِ مُتَضَمِّنَةٌ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي كُلِّ تَعْرِيفٍ، وَأَنَّ التَّعْرِيفَ قَابِلٌ لِلتَّوْسِيعِ عَلَى الدَّوَامِ بِوَسَاطَةِ عِلَاقَةٍ مُشَابِهَةٍ. وَمِنَ اللَّافِتِ لِلنَّظَرِ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الرُّمُوزِ الْخَاصَّةِ بِعِلَاقَاتِ الْمُشَابَهَةِ غَيْرُ مُتَمَاثِلَةٍ. فَبِذَلِكَ يَكُونُ لَدَيْنَا 'عَلَى' = 'فَوْقَ وَبِتَمَاسٍ مَعَ'، لَكِنْ لَيْسَ ثَمَّةَ اخْتِصَارٍ لـ 'تَحْتَ وَبِتَمَاسٍ مَعَ' إِلَّا نَحْنُو هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْغَامِضَةَ 'سَائِدٌ'. وَقَدْ نَلَحَظُ كَذَلِكَ أَنَّ مُعْظَمَ الْاسْتِعْمَالَاتِ الشَّائِعَةِ لـ 'عَلَى' اسْتِعَارِيَّةٌ عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ جِدًّا بِحَيْثُ بَاتَ يُتَسَاءَلُ فِي شَكِّ: أَلَيْسَ ثَمَّةَ عِلَاقَةٍ بَسِيطَةٍ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّحْلِيلِ لَمَّا تُلْحَظُ بَعْدُ. وَسَوْفَ يُتَطَرَّقُ لِاحِقًا فِي هَذَا الْفَصْلِ إِلَى الْمُقَارَبَةِ الصَّحِيحَةِ لِمُشْكِلَاتِ التَّوْسِيعِ الْاسْتِعَارِيِّ.

4. الْعِلَاقَاتُ الزَّمَانِيَّةُ *Temporal Relations*

'أَمْسٍ' هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَسْبِقُ يَوْمَنَا هَذَا، وَ'الْأَحَدُ' [118] هُوَ أَوَّلُ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ، وَ'نِهَآيَةُ الْحَرْبِ' هِيَ x أَشْهُرٌ بَعْدَ الْحَدَثِ y ، وَ'وَقْتُ الْإِضَاءَةِ' هُوَ x دَقَاقَتَيْنِ بَعْدَ الْغُرُوبِ.

5. السَّبَبِيَّةُ : الْفِيزِيَايَّةُ *Causation : Physical*

'الرَّعْدُ' هُوَ مَا يُسَبِّهُ (لَيْسَ اصْطِدَامَ غَيْمَتَيْنِ بَلْ) اضْطِرَابَاتُ كَهْرَبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ. وَ'نُشَارَةُ الْخَسْبِ' هِيَ مَا يُتَّجَعُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

6. السَّبَبِيَّةُ : السَّايْكُولُوجِيَّةُ *Causation : Psychological*

'الْلاشْعُورُ' هُوَ الَّذِي يُسَبِّبُ الْأَحْلَامَ، وَحَالَاتِ الشُّرُودِ، وَحَالَاتِ الذُّهَانِ، وَالْمِزَاجِ وَسَائِرَ ذَلِكَ. أَمَّا 'الشُّرُورُ' فَهُوَ 'المُصَاحَبَةُ الْوَاعِيَةُ لِلْفَعَالِيَةِ النَّفْسِيَّةِ النَّاجِحَةِ'.

7. السببية : السايكوفيزيائية *Causation : Psycho-physical*

زيادةً على النماذج المتّصلة بِالجمالِ التي سَتَقَدَّمُ في الفصلِ القادمِ يُمكنُنا تعريفُ 'إدراكِ ما لِلبرّتقاليّ' بِأنّه 'ما يُخلّفهُ سُقوطُ اهتزازاتٍ مُعيّنة على شَبَكِيّةِ العينِ من أثرٍ في الوُغْيِ'.

وقد تكونُ العلاقاتُ السَّبَبِيّةُ أَكْثَرَ مَسالِكِ التَّعْيِينِ شُيوعاً في الاستِخدامِ في النقاشِ العامِّ، وفي العِلْمِ أيضاً. وعلى هذا الأساسِ عَرَفَتْ وَجْهَهُ نَظَرِ ذاتِ أَهْمِيّةٍ تَارِيخِيّةٍ عَظِيمَةٍ الإلهِ بِأنّه سَبَبُ الكَوْنِ، في حينِ تُعزَى أَهْمِيّةُ عِلْمِ الأَجِنَّةِ في التَّصْنِيفِ الحَيَوانِيّ إلى العلاقاتِ التَّعْرِيفِيّةِ السَّبَبِيّةِ التي يُقدِّمُها.

8. أن يكونَ موضوعَ حالةٍ ذهنيّةٍ *Being the Object of a Mental State*

إنَّ الجانِبَ الأيْمَنَ مِن مُثْلَيْنَا، أي الإحالة، هو إحدَى هذهِ الحالاتِ، وكذلكِ الرِّغْبَةُ، والمَشِيئَةُ، والشُّعُورُ، وما إليها. وبذلكِ يُمكنُ تعريفُ 'الأشياءِ التي يُرَى لها' بِأنّها الأشياءُ التي نَشْعُرُ تَجاهاها بِالشَّفَقَةِ، و'الأشياءِ الحَسَنَةِ' بِأنّها الأشياءُ التي نَسْتَحْسِنُ اسْتِحسانَها.

9. العلاقاتُ المُعَقَّدَةُ المُشْتَرَكَةُ *Common Complex Relations*

تُصاغُ بعضُ التَّعْرِيفاتِ في صُورَةٍ مُعَقَّدَةٍ على نَحْوِ مُلائِمٍ جِدًّا. ففي الوَقْتِ الذي تكونُ فِيهِ قابِلَةً لَأَن تُحَلَّلَ إلى مَجموعاتٍ لِعَلاقاتٍ بَسِيطَةٍ تَنْدَرِجُ تحتَ أَحَدِ العُنواناتِ المذكورةِ آنَفاً، هي أَكْثَرُ اسْتِعْداداً لَأَن تُطَبَّقَ بِوصفِها مُرَمَّزَةً على نَحْوِ شائعٍ. [119]

وأمثِلُها هي 'النَّفْعُ' (قابِلٌ لِلتَّحْلِيلِ إلى الرَّمَمَيْنِ 7 و8)، و'المُحاكاةُ' (2 و7)، و'التَّضَمُّنُ' (1 و8).

10. العلاقات القانونية Legal Relations

يَتَكَرَّرُ كَثِيرًا اسْتِخْدَامُ هَذِهِ الْعَلَاqَاتِ وَتَضْمِينُهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُتَخَفِّفَةً كَثِيرًا، لِذَا اسْتَحَقَّتْ أَنْ يُفْرَدَ لَهَا عُنْوَانٌ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا، فَوْقَ ذَلِكَ، خَاصِصَةٌ لِاخْتِيَارِ الْاَعْتِيَاظِي- إِقْنَاعِ مَنْ يَحْكُمُ فِي أَمْرِ مَا.

وَأَمِثْلُهَا هِيَ: 'يَنْتَمِي إِلَى' (حِينَ يَكُونُ مُسَاوِيًا لِمَمْلُوكٍ لِي)، وَمَوْضُوعُ لِي، وَ'عُرْضَةً لِي، وَ'دَلِيلٌ عَلَى'. وَكُلُّ التَّعْرِيفَاتِ الْقَانُونِيَّةِ مُعَقَّدَةٌ جِدًّا، لَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ نَافِعَةٌ.

إِنَّ الْعَلَاqَاتِ الْمَذْكُورَةَ أَيْنًا هِيَ الَّتِي أَظْهَرَتِ التَّجَرِبَةُ الْكَثِيرَةُ شُبُوعَ اسْتِخْدَامِهَا فِي التَّعْرِيفَاتِ. وَآيَةُ عِلَاqَاتٍ أُخْرَى قَدْ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَغْرَاضٍ خَاصَّةٍ لَا تَقِلُّ اسْتِحْقَاقًا أَنْ تُضَمَّنَ فِي قَائِمَةٍ مُتَكَامِلَةٍ- كَالشَّكْلِ، أَوِ الْوُظِيفَةِ، أَوِ الْغَرَضِ، أَوِ التَّقَابُلِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ. لِذَلِكَ لَا نَدْعِي أَنَّ الْمَجْمُوعَاتِ الثَّمَانِيَةِ الْأُولَى تَسْتَوْعِبُ الْعَلَاqَاتِ الْأُولِيَّةَ ذَوَاتِ الصَّلَةِ، وَلَا أَنَّ تِلْكَ الْعَلَاqَاتِ الْمُعَقَّدَةَ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا يُمَكِّنُ اخْتِزَالُهَا مِنْ غَيْرِ سَائِرِ الْعَلَاqَاتِ الَّتِي عَلَى هَذِهِ الْأَنْمَاطِ. وَمُجْمَلُ التَّصْنِيفِ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى أُسَاسٍ بَرَاغِمَاتِي، وَعَلَى مُسْتَوًى أَكْثَرِ مَا يُعْتَادُ مِنْ عَوَالِمِ الْخِطَابِ فَحَسْبُ.

وَقَدْ ثَبَتَ كَذَلِكَ عَدَمُ ضَرُورَةِ مُنَاقَشَةٍ: أَيْمَكِنُ اخْتِزَالُ جَمِيعِ الْعَلَاqَاتِ مَنْطِقِيًّا فِي عِلَاqَةٍ مُطْلَقَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ أَكْثَرَ؟ وَعَلَى أَيِّ نَحْوٍ يَكُونُ ذَلِكَ؟⁽¹⁴⁾؛ إِذْ لَنْ يُسَبِّبَ أَيُّ اخْتِزَالٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ اخْتِلَافًا فِي قِيَمَةِ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي تَنَاقَلْنَاهَا فِي مَجَالِهَا الْمُلَانِمِ. بَلْ إِنَّ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ التَّعْقِيدِ، لِانْطَوَائِهَا عَلَى نَظَرِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، يُمَكِّنُ اخْتِزَالُهَا مِنْ غَيْرِ صُعُوبَةٍ إِلَى مَقَادِيرَ صَغِيرَةٍ قَابِلَةٍ لِلتَّنَاقُشِ، إِذْ يُفْضَلُ اخْتِيَارُ صَحِّحِهَا بِوصفِهَا أَبَدَالًا. وَفِي هَذَا مَزِيدٌ إِضْحَاحٍ لِحَقِيقَةِ أَنَّ التَّعْرِيفَاتِ

(14) وبذلك، استنادًا إلى قَرَضِيَّةِ أَلِكْسَانْدَرِ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ (فِي كِتَابِهِ الْمَكَانُ، وَالزَّمَانُ، وَاللَّهُ Space, Time, and Deity، 1، ص 239)، "يُمَكِّنُ اخْتِزَالُ الْعِلَاqَةِ، فِي نِهَائِيَةِ الْأَمْرِ، فِي الْجَانِبِ الْمَكَانِي-الزَّمَانِي".

كثيراً ما تكون على مراحل، كما في حالة السائل عن ميدان كيمبرج حين لم يكن [120] المتحف البريطاني مالوفاً لديه، فاحتاج إلى أن يوجّه إلى هناك أولاً من طريق نفق السكّة الحديدية من قوس الرّخام Marble Arch⁽¹⁵⁾.

ولا تنشأ صعوبة في هذا الصّدّد بسبب العلاقات المتعدّدة. فالعلاقة المتعدّدة تكون بين أكثر من اثنين من الألفاظ. وبذلك يكون الإدراك الحسي، على ما أكّد الدكتور وايتهيد Whitehead حديثاً، علاقة متعدّدة تنشأ بين مدرك، وموضوع، وشروط؛ والعطاء علاقة متعدّدة تنشأ بين محسّن، ومنح، ومستفيد. ونحن نسلّك عند تعريف أيّ من هذه الألفاظ أو عند اتّخاذنا أيّاً منها نقطة انطلاقٍ لمسلّك تعريفٍ، سلوكنا نفسهُ الذي نسلّكه مع العلاقات المزدوجة - خلا أن الأوجه يجب أن تؤخّذ من أكثر من معلّم واحد، حين يقتضي عالم الخطاب مستوى مُتميّزاً من الدقّة. وبخلاف ذلك لا يمكن الوصول إلى المعرف. وبذلك، قد يكون ضرورياً في بعض المناسبات، عند تعريف موضوع ما بوصفه ما رآه فلان، أن يَنْصَ على الشروط - كما في جلسة استحضار الأرواح، إذ يُحتاج إلى معرفة صرامة الاختيار؛ أو كما في الحكم على قطارٍ عابرٍ بأنّه قطارٌ سريع، إذ علينا أن نُنظر في سرعة قطارنا نحن. على أنّه يمكن أن يباشِر نقاش كبيرٌ على نحوٍ مفيدٍ من غير أن تنشأ هذه الأحوال المعقّدة.

إنّ الجانب العمليّ في قائمة مسالك التعريف المذكورة آنفاً ليس تحقّق التأكيد. إذ إنّ الغاية من مُطلق استعمال التعريفات غايةً عمليّة. فنحن نستعملها لجعل النقاش أكثرَ نفعا، وللاخذ بيدٍ مختلف المُفكرين إلى صريح موافقة بعضهم بعضاً أو اختلافهم. صحيح أن ثمة استعمالاً للتعريف أكثر إبهاماً مستمداً من هذا الاستعمال الأوليّ البسيط. وللتعريفات أهميّة عظيمة في بناء الأنظمة العلميّة الاستدلاليّة، التي هي ماكنات التفكير الأوتوماتيكيّة التي يكون المنطق والرياضيات، إن جاز التعبير، قواعد أو تعليمات لها. ففي نظام استدلالٍ

(15) قوس الرّخام: قوسٌ لِلنصرِ أبيضٌ يُمثّل معلّماً من معالم القرن التاسع عشر في لندن.

كالميكانيكا، على سبيل المثال، إِنَّمَا تَلْتَحِمُ أَجْزَاءُ النِّظَامِ الرَّمْزِيِّ مَعًا مِنْ خِلَالِ التَّعْرِيفَاتِ الْمُسْتَخْدَمَةِ، [121] لِتُوَلَّدَ الْمُعَالَجَةُ الْمُقَدَّمَةُ الْبَارِعَةُ لِلرُّمُوزِ نَتَاجُ قَابِلَةٍ لِلْمُوَازَنَةِ حَتَّى حِينَ لَا يَكُونُ الْمُعَالِجُ قَدْ تَنَبَّأَ بِطَبِيعَتِهَا الْمُحَدَّدَةِ. وَهَكَذَا، يَكُونُ لِهَذِهِ الْأَنْظِمَةِ مَا يُعَدُّ أَلْ تَعْرِيفَ لِرَمَزٍ مُخْصُوصٍ. وَإِذَا مَا رُوعِيَ النِّظَامُ فَلَنْ يَكُونَ لِلرَّمْزِ سِوَى تَعْرِيفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ هُوَ التَّعْرِيفُ الصَّحِيحُ أَوْ الْمُلَانِمُ، أَيْ أَنَّ عَمَلَ النِّظَامِ يَعْتَمِدُ عَلَى اسْتِخْدَامِ هَذَا التَّعْرِيفِ.

وَلِلْمُتَخَصِّصِينَ الْمَعْنِيِّينَ كَثِيرًا بِأَنْظِمَةٍ كَهَذِهِ مِثْلُ طَبِيعِيٍّ إِلَى النَّظَرِ إِلَى التَّعْرِيفَاتِ جَمِيعًا بِمَنْظَارٍ وَاحِدٍ. عَلَى أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ مَوْضُوعَاتِ النِّقَاشِ الْمُثِيرَةِ جِدًّا لِلْإِهْتِمَامِ لَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى تَفْضِيلٍ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ تَمَامًا مِنْ مَوْقِفٍ أَوْ عَادَةٍ عَقْلِيَّةٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّعْرِيفَاتِ، بَلِ الْحَقُّ أَنَّ ذَلِكَ ضَرُورِيٌّ فِيهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ النِّقَاشُ مُثْمِرًا. وَلَمَّا يُتَوَصَّلُ فِي عُلُومِ الْجَمَالِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالنَّفْسِ، وَالْاجْتِمَاعِ وَغَيْرِهَا إِلَى مَرَحَلَةِ التَّرْمِيزِ النِّظَامِيِّ بِتَعْرِيفَاتِهِ الثَّابِتَةِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلتَّغْيِيرِ. وَلَمَّا تَبْلُغْ بَعْدُ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ عِنْدَ أَيِّ مِنَ الْبَاحِثِينَ مُسْتَوًى عَالِيًا مِنَ التُّضْجِ يَبْشُرُ لَهُ تَحْدِيدُ النِّظَامِ الْأَكْثَرِ نَفْعًا وَالْأَقْلُ احْتِمَالًا لَا اسْتِيعَادَ الْجَوَابِ الْمُهْمَةِ. وَإِنَّ أَعْلَى الْعُلُومِ نِظَامِيًّا هِيَ الَّتِي تَتَعَامَلُ مَعَ أَبْسَطِ جَوَابِ الطَّبِيعَةِ. وَمَا زَالَتْ الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي هِيَ أَصْعَبُ مِنْ غَيْرِهَا، وَالَّتِي يَرَاهَا الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ بِالطَّبَعِ أَكْثَرَ مِنْهَا جَادِيَّةً، فِي مَرَحَلَةٍ تَنْظُويٍّ عَلَى سُؤَالٍ مُفْتَوَحٍ هُوَ: أَيُّ تَرْمِيزٍ يُسْتَحْسَنُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ؟ وَالْأَمْرُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي يَنْبَغِي تَفَادِيهِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ هُوَ النِّزَاعُ الْمَسْتَوْرُ وَالْمَخْفِيُّ بَيْنَ الْأَنْظِمَةِ الْمُتَنَافِسَةِ فِي صُورِهَا الْأَوَّلَى، الَّذِي يَعُوقُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ الْفَهْمَ الْمُتَبَادَلِ حَتَّى بَيْنَ الَّذِينَ قَدْ يَكُونُونَ مُتَّفِقِينَ. إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي النِّقَاشَاتِ الَّتِي يَرِدُ فِيهَا بِاسْتِمْرَارٍ 'الْإِيمَانُ'، وَ'الْجَمِيلُ'، وَ'الْحُرِّيَّةُ'، وَ'الْحَيَرُ'، وَ'الْعَقْدَاةُ'، وَ'الطَّاقَةُ'، وَ'الْعَدْلُ'، وَ'الدَّوْلَةُ'، إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ إِحَالَةٍ بَيِّنَةٍ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ إِنَّمَا تَتَحَكَّمُ بِهِ عَادَاتُ لُغَوِيَّةٍ وَإِيمَانٌ بَسِيطٌ بِالْجِيَازَةِ الْوَاسِعَةِ لِهَذِهِ الْعَادَاتِ. مِنْ هُنَا يَأْتِي مَنْظَرُ الْغَضَبِ الشَّائِعِ الَّذِي يُثِيرُهُ مَا فِي الْمُسْتَوِجِ مِنْ بِلَادَةٍ وَعِنَادٍ وَاضِحِينَ [122] 'حَيْثُ يَكُونُ الْأَمْرُ بِدِيهًا بِكُلِّ تَاكِيدٍ'.

على أنه حتى في هذه النقاشات التي هي أكثر نُدرة والتي يستطيع فيها المتكلمون أن يكونوا أكثر وضوحاً، كثيراً ما يكون الميل الفطريُّ الغريب إلى اعتقاد أن للكلمة استعمالها الحقيقي أو الخاص، وقد لَمَسْنَا جذوره في السحر، مانعاً لهذه القدرة على إنتاج التعريفات من أن تكون ذات أثر فاعلي. ولا شك في أن ثمة عوامل أخرى مُتَضَمِّنة. فمما يسهم في ذلك الافتقار إلى المراقبة المطلوبة، والطقوس الأدبية المتعلقة بأنافة الأسلوب، وكرهه الظهور بمظهر المتحذلق، والتحقُّق الدفاعي، واستعمالات لغوية وقائية أخرى. لكن ما يفوق ذلك كله مراجع الموقف الغريزي من الكلمات بوصفها أوعية طبيعية للسلطة، وهو الموقف الذي افترضه البشريَّة، على ما قد بينّا، منذ مولد اللغة، وما زالت جميع مراجع التعليم الأولى تؤيده وتحت عليه.

إنَّ الطريق إلى تصحيح هذا الميل المُستَحْكِم يكون من خلال مزيد من الألفة مع مسالك تعريف أكثر شيوعاً، وإحساس أكثر حيوية، وهو ما تسهِّلُ إثارته بوصفه جزءاً من التعليم، بأنَّ استعمالنا لأية كلمة مُقدَّمة لتميُّز إلى مرجعنا في أية مناسبة ليس ناجحاً عن مُلاءمة مخصوصة للكلمة لذلك المرجع المخصوص، وإنما يحدِّده جميع أنواع الحوادث الغريبة في تاريخنا الشخصي. ويتبغى لنا أن نعدَّ التواصل أمراً صعباً، والتناظر الكبير في الإحالة عند مُختلف المُفكرين حَدَثاً نادراً نسبياً. ويجب عَدُّ الرُّكون إلى افتراض أنه مضمون ما لم يُعلم كلٌّ من نقاط الانطلاق ومسالك التعريف اللذين بواسطتهما يتوصَّل، في الأقل، إلى معظم الرموز المُستخدمة.

ونحن في هذا الفصل إنما نقصُر اهتمامنا على الإحالة وحدها تَوَخُّياً للسهولة. ففي النقاش الفعلي يكون استعمال الألفاظ من أجل تأثيراتها الإقناعية والانفعالية يوازي، في أقل تقدير، استعمالها من أجل قيمتها الرمزية الصارمة. فأبي بديل لـجَمِيل، على سبيل المثال، سوف يُخفِق إخفاقاً تاماً وكبيراً بحيث [123] يُفضِّل الكثير من الناس استعمال التعبير بكلِّ محاذيره على اللجوء إلى المُصطلح السايكولوجي الذي قد يُقروَن بأنه أكثر إقناعاً من وجهة النظر العلمية بإزاء وجهة النظر الانفعالية.

والحقُّ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَسْتَحِيلُ تَحْدِيدُ أَوَّلِ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ الاسْتِعْمَالُ الْمَخْصُوصُ لِلرُّمُوزِ: أَرْمِزِيٌّ هُوَ أَمْ انْفِعَالِيٌّ؟ وهذا ما يَحْدُثُ، بِالصَّبْطِ، مَعَ أَنْوَاعِ مَخْصُوصَةٍ مِنَ الاسْتِعَارَةِ. فَحِينَ يَصْرُحُ دَاوُدُ النَّبِيُّ شَاكِيًا أَعْدَاءَهُ قَائِلًا: 'سَنَوُا أَلَسْتَهُمْ كَحَيَّةٍ. حُمَةُ الْأَفْعَوَانِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ' ⁽¹⁶⁾، يَصْعُبُ أَنْ نُحَدِّدَ: أَثَمَّةٌ شَبَهٌ وَهَمِيٌّ بَيْنَ الْحَيَّةِ وَالْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَصِفُهُمْ يَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَقُولَ شَيْئًا عَنْهُمْ عَلَى نَحْوِ اسْتِعَارِيٍّ، أَمْ إِنَّ الْغَايَةَ الْوَحِيدَةَ لِقَوْلِهِ هِيَ أَلَّا يُبْدِيَ مَقْنَى لَهُمْ وَأَنْ يُنْشِئَ لَدَى مُسْتَمِعِيهِ مَوَاقِفَ مُشَابِهَةٍ نَحْوَهُمْ. وَمُعْظَمُ تَعْبِيرَاتِ السَّبَابِ وَالتَّحْبِيبِ تُؤَلِّدُ هَذِهِ الْمُسْكَلَةَ الَّتِي، لِحُسْنِ الْحِظِّ، لَا يُبْهَمُ فِي الْعَادَةِ حَسْمُهَا. أَمَّا الْفَرْقُ الْمُهْمُ فَهُوَ الَّذِي بَيْنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تَكُونُ الْوُظُفَةُ الرُّمُزِيَّةُ فِيهَا تَابِعَةً لِلْفِعْلِ الْانْفِعَالِيِّ، وَالْأَقْوَالِ الَّتِي يَصِحُّ فِيهَا عَكْسُ ذَلِكَ. أَمَّا الْحَالَةُ الْأُولَى فَمَهْمَا بَلَغَتْ الْإِحَالَاتُ التَّوَاصُلِيَّةُ فِيهَا مِنَ التَّحْدِيدِ وَالتَّفْصِيلِ فَإِنَّهَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ حَاضِرَةً بِطَاقَةِ الْكَلِمَةِ أَسَاسًا، بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لِلتَّأَثِيرَاتِ الْانْفِعَالِيَّةِ. وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ فَمَهْمَا بَلَغَتْ التَّأَثِيرَاتُ الْانْفِعَالِيَّةُ فِيهَا مِنَ الْقُوَّةِ فَإِنَّهَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ حَصَائِلَ ثَانَوِيَّةٍ لَا وَظِيفَةٍ جَوْهَرِيَّةٍ لَهَا فِي الْإِجْرَاءِ الْكَلَامِيِّ. إِنَّ تَمَيُّزَ الْعِبَارَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَهِيَ التَّطَوُّرُ الْجَدِيدُ الْحَدِيثُ لِلْفَعَالِيَّةِ اللَّغَوِيَّةِ، يَكْمُنُ فِي اقْتِصَارِهَا عَلَى الْوُظُفَةِ الرُّمُزِيَّةِ.

فإذا ما أَبْقِيَ عَلَى هَذَا الْاِقْتِصَارِ، وَإِذَا مَا وَسَّعَ نِطاقَ مَنَهِجِ التَّعْبِيرِ الْعِلْمِيَّةِ لِيَشْمَلَ مَيَادِينَ كَالَّتِي يُعْنَى بِهَا الْفَلَاسِفَةُ عَادَةً، فَمِنْ الْوَاجِبِ إِعْدَادُ الْعُدَّةِ لِمُوَاجَهَةِ مُحَاضِرٍ دَقِيقَةٍ جِدًّا. مِنْ هَذِهِ الْمَحَاضِرِ ظُهُورُ كَلِمَاتٍ، لَا يُعْرَفُ لَهَا عَدَدٌ حَتَّى الْآنَ، عُدَّتْ خَطَأً ذَوَاتٍ وَظِيفَةً رَمُزِيَّةً مِنْ غَيْرِ أَدْنَى شَكٍّ. مِثَالُ ذَلِكَ كَلِمَةُ 'حَسَنٌ' good. [124] فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي أُسَاسِهَا مَجْمُوعَةً مُشْتَرَكَاتٍ لَفْظِيَّةٍ عُمِدَ مِنْذُ الْقَدَمِ نَظْفُهَا مُرْتَبِطَةٌ بِمَجْمُوعَةِ أَشْيَاءَ، عَلَى نَحْوِ تَقْرِيْبِيٍّ، (سَرِيرٌ حَسَنٌ، رَكْلَةٌ حَسَنَةٌ، طِفْلٌ حَسَنٌ، إِلَهٌ حَسَنٌ) لَا وَجُودَ لِصِفَةٍ مُمَيَّزَةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَهَا. غَيْرَ أَنَّ ثَمَّةَ اسْتِعْمَالًا آخَرَ لِلْكَلِمَةِ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ظُهُورُهُ مُؤَكَّدًا، يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَا أَوْرَدْنَاهُ فِي الْأَقْلَمِ مَظَاهِرَ تَحْلِيلٍ لَهُ، حَيْثُ يُزَعَمُ أَنَّ كَلِمَةَ 'حَسَنٌ'

تَرْمِزُ إِلَى مَفْهُومٍ قَرِيدٍ غَيْرِ قَابِلٍ لِلتَّحْلِيلِ. وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ هُوَ مَوْضُوعُ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ⁽¹⁷⁾. وَنَحْنُ نَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هَذَا الِاسْتِعْمَالَ الْأَخْلَاقِيَّ الْمُمَيِّزَ إِنَّمَا هُوَ اسْتِعْمَالٌ انْفِعَالِيٌّ خَالِصٌ. وَإِذَا اسْتُعْمِلَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فَإِنَّهَا لَا تَرْمِزُ إِلَى شَيْءٍ الْبَتَّةَ، وَلَا تَكُونُ لَهَا وَظِيفَةٌ رَمَزِيَّةٌ. وَبِذَلِكَ، حِينَ نَسْتَعْمِلُهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي جُمْلَةٍ 'هَذَا حَسَنٌ' إِنَّمَا نُجِيلُ عَلَى هَذَا، أَمَّا الزِّيَادَةُ 'حَسَنٌ' فَلَا تُحْدِثُ فَرْقًا فِي الْإِحَالَةِ الْبَتَّةَ. فِي حِينِ أَنَا إِذَا قُلْنَا: 'هَذَا أَحْمَرٌ' فَإِنَّ زِيَادَةَ 'أَحْمَرٌ' عَلَى 'هَذَا' تَرْمِزُ إِلَى امْتِدَادٍ فِي إِحَالَتِنَا، أَيِ إِلَى شَيْءٍ مَا أَحْمَرَ آخَرَ. أَمَّا 'حَسَنٌ' فَلَيْسَتْ لَهُ وَظِيفَةٌ رَمَزِيَّةٌ مُشَابِهَةٌ؛ فَهَوَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَامَةً انْفِعَالِيَّةً تُعَبِّرُ عَنْ مَوْقِفِنَا مِنْ هَذَا، وَرَبَّمَا تُثِيرُ مَوَاقِفَ مُشَابِهَةٍ عِنْدَ أَشْخَاصٍ آخَرِينَ، أَوْ تُحْنِتُهُمْ عَلَى أَفْعَالٍ مِنْ نَوْعٍ أَوْ آخَرَ.

وَمَعْرِفَةُ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ أَعْظَمَ مَوْضُوعَاتِ النِّقَاشِ شُبُوحًا مُبْتَلَى بِكَلِمَاتٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ فَارِعَةٍ رَمَزِيًّا لَكِنَّهَا نَشِيطَةٌ انْفِعَالِيًّا خَطْوَةٌ تَمْهِيدِيَّةٌ أُسَاسِيَّةٌ عَلَى طَرِيقِ امْتِدَادِ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ إِلَى هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ. وَخَطْوَةٌ أُخْرَى هِيَ اتِّخَاذُ الْإِلَهَةِ مَا يُتَقَنَّ بِوَسَاطَتِهَا: أَيُّ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَهَا هَذِهِ الطَّبِيعَةُ، وَمَا الْمُنَاسَبَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا كَذَلِكَ؟ وَقَدْ يُشَكُّ فِي إِمْكَانِ أَنْ يُقَدَّمَ الْمَنْهَجَانِ التَّجْرِبِيُّ وَالْفِيسُولُوجِي فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ آيَةً نَتِيجَةً، غَيْرَ أَنَّ الْحَسَمَ التَّهَانِيَّ لِلْأَمْرِ لَا يَكَادُ يُمَكِّنُ تَوَقُّعَهُ حَتَّى نَحُورَ اخْتِيارَاتٍ مُسْتَقَلَّةً، عَلَى نَحْوِ مَا، [125] عَنْ رَأْيِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَسَنَجِدُ فِي كُلِّ النِّقَاشَاتِ أَنَّ مَا يُقَالُ لَا تُحَدِّدُهُ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُجِيلُ عَلَيْهَا الْمُتَكَلِّمُ إِلَّا جُزْئِيًّا. إِذْ يَخْتَرُونَ النَّاسُ، مِنْ غَيْرِ وَعِيٍ مِنْهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ،

Cf. G. E. Moore, *Principia Ethica*, Chap. I.

(17)

وَلَا شَكَّ فِي أَنَا إِذَا عَرَّفْنَا 'الْحَسَنَ' بِأَنَّهُ 'الَّذِي نَسْتَحْسِنُ اسْتِحْسَانَهُ'، أَوْ قَدَّمْنَا مِثْلَ هَذَا التَّعْرِيفِ الَّذِي نَقُولُ فِيهِ: 'هَذَا حَسَنٌ'، فَإِنَّا نَكُونُ قَدْ أَنْشَأْنَا تَقْرِيرًا. إِنَّ مَا نَفْتَرِخُ إِلَّا يَكُونُ إِلَّا عَلَامَةً انْفِعَالِيَّةً خَالِصَةً هُوَ كَلِمَةُ 'حَسَنٌ' غَيْرُ الْقَابِلَةِ لِلتَّعْرِيفِ. وَإِنَّ مَا يُزَعَمُ عَدَمُ اسْتِثْمَالِ أَيِّ تَعْرِيفٍ لـ 'حَسَنٍ' عَلَيْهِ مِنْ نَحْوِ 'شَيْءٌ مَا أَكْثَرُ' أَوْ 'شَيْءٌ مَا غَيْرُهُ' إِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْغَيْبِ الْعَاطِفِيِّ لِلْكَلِمَةِ.

اهتمامات سابقة تُحدّد استعمالهم للكلمات. فإن لم نكن مُطّلعيّن على أهدافهم واهتماماتهم في تلك اللحظة فلن يكون في وسعنا أن نعلّم: عمّ يتحدثون؟ أو ثمائلُ مراجعتهم مراجعتنا أم تُخالِفُها؟

إنّ الهدفُ يُؤثّرُ في المفرداتِ بطريقتين؛ إذ يُملِي أحياناً خياره من الرموز التي ثلاثُ المناسبة على نحوٍ خاص، من غير أن يُؤثّر في الإحالة. وهكذا، قد تَخْتَلِفُ لُغَةُ المُدْرَسِ عندَ وَصْفِهِ المِطْطِيفِ لِطِفْلِ عن لُغَتِهِ التي يَصِفُهَا بِهَا لَزِمِيهِ أو لِمَخْطُوبَتِهِ، من غير أن يكون ثَمَّةُ اخْتِلَافِ البَتَّةِ في إحالته. أو قد يُجْرِي كَاتِبٌ مَا مُتَأَنِّقٌ كُلَّ التَّنَوُّعَاتِ المُمَكِّنَةِ في كِتَابَتِهِ عِبْرَ سِلْسِلَةٍ مِنَ المُتَرَادِفَاتِ⁽¹⁸⁾ من غير تَغْيِيرٍ في إحالته. من جِهَةٍ أُخْرَى، يَسْتَعْمِلُ الفيزيائيُّ لُغَةً مُخْتَلِفَةً عن التي يَسْتَعْمِلُهَا دَلِيلُهُ المُرْشِدُ لِلْحَدِيثِ عن طَيْفِ الجَبَلِ بروكين Spectre of the Brocken⁽¹⁹⁾؛ إذ يُؤثّرُ تَغَايُرُ هَدَفَيْهِمَا في لُغَتَيْهِمَا في هذه الحالة من خلال تَغْيِيرِ إحالَتَيْهِمَا.

ومن الواضح أن حالات النوع الأول أبسط بكثير من حالات النوع الثاني؛ فهذه الأخيرة وحدها هي التي قد تُؤدّي إلى خلافاتٍ عَقِيمَةٍ. وهكذا، قد يُحِيلُ أَحَدُ المُتَجَادِلِينَ عندَ حَدِيثِهِ عن الرَّأْيِ العامِّ على ما يَدْعُوهُ الآخَرُونَ وَجِهَاتِ نَظَرٍ لِمَالِكِي صَحِيفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فحينئذٍ سَيَمِيلُ التَّرَاغُ بِشَأْنِ إِمكَانِ تَأْثِيرِ الصَّحَافَةِ في الرَّأْيِ العامِّ إلى أن يَكُونَ غيرَ حَاسِمٍ في ظِلِّ غِيَابِ طَرَفٍ ثَالِثٍ مُتَمَرِّسٍ في آليَةِ التَّعْرِيفِ. مثلاً هذه الجِدالاتُ تَحْدُثُ على نَحْوِ مُتَوَاصِلٍ حَتَّى في أَكْثَرِ الأَوْسَاطِ دُكَاءً، مَعَ أَنَّهَا إِذَا مَا سُلْطَتْ عَلَيْهَا الأَضْوَاءُ النُّقْدِيَّةُ الكَاشِفَةُ كَثِيرًا مَا يَظْهَرُ أَنَّهَا أَكْثَرُ حَقِّقًا مِنْ أَنْ تَكُونَ مُمَكِّنَةً.

(18) زُبْنًا لَا يَكُونُ ثَمَّةُ مُتَرَادِفَاتٍ تَامَّةً، أَي كَلِمَاتٍ مُتَمَاثِلَةٍ فِي جَمِيعِ وَظَائِفِهَا. أَمَّا المُتَرَادِفَاتُ الجُزْئِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِلإِحَالَةِ نَفْسِهَا فَشَاعَةً.

(19) هُوَ الظِّلُّ المُكَبَّرُ وَالْهَائِلُ لِلشَّخْصِ، الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى السُّطُوحِ العُلُويَّةِ لِلغَيُومِ المُقَابِلَةِ لِلشَّمْسِ. وَيُمْكِنُ أَنْ تَبْدُو هَذِهِ الظَّاهِرَةُ فِي أَيِّ جَانِبٍ ضَبَائِي لِلْجَبَلِ أَوْ فِي كُتْلَةٍ غَيْمِيَّةٍ أَوْ حَتَّى مِنَ الطَّائِرَةِ، لَكِنَّ الضَّبَابَ الْمُتَكَرِّرَ وَالْمَنْفَذَ الْمُنْخَفِضَ الْارْتِفَاعَ اللَّذَيْنِ يَمْتَارُ بِهِمَا الْبُرُوكِن، وَهُوَ قِمَّةٌ فِي جِبَالِ هَارْتز فِي أَلْمَانِيَا، كَانَا قَدْ خَلَقَا أُسْطُورَةً مُحَلِّيَةً اسْتَمَدَّتْ مِنْهَا الظَّاهِرَةُ اسْمَهَا. [المُترجم]

لَكِنْ كَيْفَ تُمْكِنُ إِدَارَةُ نِقَاشٍ هَذِهِ [126] إِزَالَةُ الشَّكِّ بِشَأْنِ الشَّيْءِ الَّذِي يُحِيلُ عَلَيْهِ أَطْرَافُ هَذَا النِّقَاشِ: أَوَّاحِدٌ هُوَ أَمْ مُتَعَدِّدٌ؟

مَا يَجِبُ أَوَّلًا هُوَ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ خَلْفِيَّاتُ الْأَفْرَادِ الْمَاضِيَةِ مُخْتَلِفَةً إِلَّا فِي جَوَانِبٍ مُعَيَّنَةٍ يَسِيرَةً جِدًّا كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَخْتَلِفَ رُدُودُ أَفْعَالِهِمْ تَجَاهَ أَيَّةِ كَلِمَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ يَخْتَلِفَ اسْتِخْدَامُهُمْ لَهَا. فَسَيَكُونُ ثَمَّةُ مَنْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ عِنْدَهُمْ مُجَرَّدَ مُشِيرٍ لِإِطْلَاقِ كَلِمَاتٍ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ ظُهُورٍ لِأَيَّةٍ إِحَالَةٍ - الْبَبْغَاثِيُّونَ psittacists⁽²⁰⁾، أَيِ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِلْكَلِمَاتِ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ الَّذِي قَدْ يَسْتَجِيبُونَ بِهِ لِلنَّعْمَاتِ الْأُولَى لِقِطْعَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ يُوَاصِلُونَ إِكْمَالَ التَّرْتُّمِ بِهَا عَلَى نَحْوِ الْكَلِمَةِ تَقْرِيبًا. وَسَيَكُونُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مَنْ تَرْمِزُ كُلُّ كَلِمَةٍ مُسْتَعْمَلَةٍ عِنْدَهُمْ إِلَى إِحَالَةٍ مُحَدَّدَةٍ وَوَاضِحَةٍ تَمَامًا. وَنَحْنُ غَيْرُ مُعَيَّنِينَ هُنَا بِمَنْ يُمَثِّلُونَ الْحَالَةَ الْأُولَى، أَمَّا الْآخَرُونَ فَمَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا دَلِيلٌ مُعْتَبَرٌ يُفِيدُ الْعَكْسَ فَعَلَيْنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَفْكَارَهُمْ قَدْ تَكُونُ وَاضِحَةً رُبَّمَا لَنْ تَكُونُ أَفْكَارًا لِلْأَشْيَاءِ أَنْفُسِهَا. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّا لَا نَسْتَطِيعُ تَغْيِينَ الْمَرَاجِعِ إِلَّا مِنْ خِلَالِ الْإِحَالَاتِ الْمُخَصَّصَةِ لَهَا. لِذَلِكَ قَدْ نَعُودُ إِحَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً إِلَى مَرَجِعٍ وَاحِدٍ، وَيَجِبُ ذَلِكَ فِي حَالِ تَوَافُرِ الشَّبهِ الْكَافِي بَيْنَهَا، وَضَمَانِ الشَّبهِ فِي الْإِحَالَةِ هُوَ وَحْدَهُ مَا يَضْمَنُ لَنَا تَغْيِينَ مَرَاجِعِنَا. وَمِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ يُفَضَّلُ أَنْ يَرْمَزَ إِلَى الْإِحَالَاتِ بِوَسَاطَةِ مَسَالِكِ التَّعْرِيفِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي تَطْرُقُنَا إِلَيْهَا أَيْفًا، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَخْتَارَ نِقَاطَ انْطِلَاقٍ إِمَّا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَسْتَطِيعُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا، وَإِمَّا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَظْهَرُ بِخُرَيَّةٍ فِي التَّجَرِبَةِ الْاِعْتِيَادِيَّةِ. وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمَسَالِكُ الَّتِي نَرِيبُ بِهَا نِقَاطَ الْانْطِلَاقِ هَذِهِ بِمَا نَرَعُبُ فِيهِ مِنَ الْمَرَاجِعِ مَالُوفَةً تَمَامًا، وَهَذَا مَا يَجْعَلُنَا مُحَدِّدِينَ فِي الْمُمَارَسَةِ بِأَرْبَعَةِ مَسَالِكٍ وَبِمُرَكَّبَاتٍ

(20) الْبَبْغَاثِيُّونَ هُمُ الْمَنْسُوبُونَ إِلَى الْبَبْغَاثِيَّةِ psittacism، وَالْأَصْلُ الْيُونَانِيُّ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ (psittakos)، وَالْأَصْلُ اللَّاتِينِيُّ لَهُ هُوَ (psittacus)، وَيَعْنِي الْبَبْغَاثَاءُ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْفِيلَسُوفُ لَايبِنِيزَ هَذَا الْمُصْطَلَحَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَرْدِيدِ الْفَاطِظِ لَا تَقَابُلِهَا مَوْضُوعَاتٍ، إِذْ قَالَ: "غَالِيًا مَا نَعْتَكَرُ بِالْأَلْفَافِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ ذَاتُهَا حَاضِرَةً فِي أَذْعَانِنَا. إِنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ لَا تُؤَثِّرُ فِي الْقَلْبِ ... إِنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْبَبْغَاثِيَّةِ الَّتِي تُؤَلَّدُ شَيْئًا فِي الذَّهْنِ". [المُترجم]

منها. وهي تلك التي يَجِبُ علينا أن نَعْرِفَهَا وَنُمَيِّزَهَا مِنْ غَيْرِ خَطَأٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَبْقَى أَحْيَاءَ - الْمُشَابِهَةُ، وَالسَّيِّئَةُ، وَالْمَكَانُ، وَالزَّمَانُ. عَلَى أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكْفِي فِي الْمُمَارَسَةِ الْبَدَأُ مِنْ نِقَاطٍ أَقْلٍ أَوْ لَوِيَّةٍ وَبِدَائِيَّةٍ، وَاتِّبَاعُ مَسَالِكِ أَكْثَرِ خَطَرًا وَتَعْقِيدًا. وَهَكَذَا يَكُونُ 'الْمُوسَى' مُسَاوِيًا لِـ 'آلَةٍ تُسْتَعْمَلُ لِلِحَلَاقَةِ' عَلَى نَحْوِ لَا غُمُوضَ فِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدِ اخْتِرَالٍ لِـ 'تُسْتَعْمَلُ لِـ' بِوَسَاطَةِ التَّحْلِيلِ. [127]

وَيَجِبُ أَنْ يُتْرَكَ لِلْفُرْصَةِ الْمُنَاسِبَةِ أَمْرُ تَقْرِيرِ النُّقْطَةِ الَّتِي تَكُونُ تَعْرِيفَاتُنَا عِنْدَهَا شَامِلَةً بِمَا يَكْفِي. وَلَا يُؤْمَلُ مِنَ التَّفَاقُشِ الشَّفَوِيِّ، مَا لَمْ يَكُنْ مُطَوَّلًا وَمُتَوَاصِلًا بِإِفْرَاطٍ، إِلَّا الْقَلِيلُ مَا عَدَا الدَّوَافِعَ وَالتَّلْمِيحَاتِ الَّتِي تَكُونُ نَافِعَةً فِي جُهِودِ أَكْثَرِ جِدِّيَّةٍ. وَلَكِنْ حَيْثُمَا وَجَدَ سَبَبٌ لَافْتِرَاضٍ أَنَّ ثَمَّةَ لَفْظًا زَبَقِيًّا يُسْتَخْدَمُ، فَمِنْ دَوَاعِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُلْجَأَ إِلَى جَمْعٍ أَوْسَعٍ مَدَى مُمَكِّنٍ مِنْ اسْتِعْمَالَاتِهِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ عَنْ غُنْصُرٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَهَا. وَإِنَّ الْمُعْجَمَ الْجَيِّدَ لَيُحَاوَلُ فِعْلَ ذَلِكَ فِي كَلِمَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، لَكِنَّ ذَلِكَ عَادَةً مَا يَكُونُ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ تَارِيخِيَّةٍ وَمِنْ غَيْرِ مَبْدَأٍ تَنْظِيرِيٍّ. وَالخُطْوَةُ التَّالِيَةُ تَكُونُ بِتَرْتِيبِ هَذِهِ الْاسْتِعْمَالَاتِ مِنْ أَجْلِ اكْتِشَافِ مَسَالِكِ التَّعْيِينَ الرَّئِيسَةِ الْمُتَبَتِّةِ لِلْمَرَاجِعِ الْمَعْنِيَّةِ. وَلَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ تَكُونَ التَّعْرِيفَاتُ الْمُسْتَقْلِلَةُ الْمَصُوغَةُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ حَاصِرَةً عَلَى نَحْوِ تَبَادُلِيٍّ؛ فَكَثِيرًا مَا تَشْمَلُ الْمَرَاجِعُ أَنْفُسَهَا لَكِنَّ بِحَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَقَدْ تَوَاجَهْنَا فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ مُشْكِلةٌ مُسْتَوِيَّاتِ الْإِحَالَةِ الْمُشَارِ إِلَىهَا آتِفًا. فَـ 'حَيَوَانٌ' فِي الْحَدِيثِ الدَّارِجِ، وَ'نَذِييٌّ' فِي عِلْمِ الْحَيَوَانِ يَرْمِزَانِ تَقْرِيبًا إِلَى مَرَجِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، أَمَّا الْإِحَالَتَانِ فَتَخْتَلِفَانِ اخْتِلَافًا كَبِيرًا فِي تَحْدِيدِ السَّلَاسِلِ الْعَلَامِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ وَتَعْقِيدِهَا. فَهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتُ يَنْبَغِي، إِنْ أُمَكِّنَ، أَنْ يُشَارَ إِلَىهَا فِي صِيَاجَةِ التَّعْرِيفَاتِ. فَالْمَطْلُوبُ هُوَ أَنْ يُبَدِيَ كُلُّ تَعْرِيفٍ بَوُضُوحٍ مَدَى مُعَيَّنًا مِنَ الْمَرَاجِعِ. وَلَوْ أَبْدَى تَعْرِيفَانِ الْمَدَى نَفْسَهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ بَاسٌ؛ فَالْمُهْمُ هُوَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَدَى مُسْتَقْلَلًا بَوُضُوحٍ عَنِ الْمَدَيَّاتِ الْأُخْرَى مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِلْمُعَالَجَةِ عَلَى أُسَاسِ مِيزَاتِهِ الدَّائِيَّةِ.

وَيَتِمَثَّلُ الْمَثَلُ الطَّبِيعِيُّ لِمَنْ اعْتَادُوا الْإِجْرَاءَ التَّقْلِيدِيَّ فِي تَوَقُّعِ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَا يَظْهَرُ أَنَّهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مَعْرُفًا كَانَتْ الرُّمُوزُ الْبَدِيلَةُ التَّنَاوُبِيَّةُ تَرْمِزُ إِلَى مَرَاجِعِ

تَشْتَرِكُ فِي خَصِيصَةٍ ذَاتِ طَبِيعَةٍ تَكَادُ تَكُونُ مُبْهَمَةً. وَهَذَا قَدْ يَحْدُثُ أَحْيَانًا، أَمَّا الْبَحْثُ عَنْ إِجَابَةِ لِسْوَالٍ: أَتَمَّةٌ خَصِيصَةٌ مُشْتَرَكَةٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَيَنْبَغِي تَأْجِيلُهُ إِلَى مَرَحَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ جَدًّا عَمَّا نَحْنُ فِيهِ. إِنَّ أَبْسَطَ دِرَاسَةٍ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي تَكْتَسِبُ بِهَا الْكَلِمَاتُ فِي الْحَدِيثِ الْاعْتِيَادِيّ الْاسْتِعْمَالَاتِ الثَّانَوِيَّةَ الْعَرَضِيَّةَ [128] وَالْوَفِيرَةَ مِنْ خِلَالِ تَحَوُّلَاتِ اسْتِعَارِيَّةٍ بِدَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الدَّقَّةِ، وَمِنْ خِلَالِ مَا بِالْإِمْكَانِ تَسْمِيَّتُهُ عَوَارِضَ لُغَوِيَّةٍ، كَافِيَةٌ لِتُظْهِرَ أَنَّ مِنْ غَيْرِ الْمُحْتَمَلِ تَمَامًا لِعُنْصُرٍ مُشْتَرَكٍ مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهُ أَوْ أَهَمِّيَّتُهُ أَنْ يَسْرِيَ فِي جَمِيعِ الْاسْتِعْمَالَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِلْكَلِمَةِ. وَلَا شَكَّ فِي اعْتِمَادِ كُلِّ تَحَوُّلٍ اسْتِعَارِيٍّ عَلَى عُنْصُرٍ مُشْتَرَكٍ تَقْتَسِمُهُ الْإِحَالَةُ الْأَصْلِيَّةُ وَالْإِحَالَةُ الَّتِي تَسْتَعِيرُ الرَّمْزَ. وَيَجِبُ أَنْ تَسْتَوِيَ الْإِحَالَتَانِ فِي جُزْءٍ مَّا مِنْ سِيَاقِيهِمَا. غَيْرَ أَنَّ التَّدَاخُلَاتِ الْمُمَكِّنَةَ بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلْعَدِّ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يَدْعُو إِلَى تَوْفُّعٍ دِيمُومَةٍ اسْتِعَارَةٍ آيَّةٍ كَلِمَةٍ خَصَبَةِ السِّيَاقِ اسْتِنَادًا إِلَى تَسَاوِي الشَّبَهِ أَوْ التَّدَاخُلِ. وَبِذَلِكَ، قَدْ يَرْمِزُ (A الْجَمِيلُ) وَ(B الْجَمِيلُ) إِلَى إِحَالَتَيْنِ تَشْتَرِكَانِ فِي شَيْءٍ مَّا، وَكَذَلِكَ (B الْجَمِيلُ) وَ(C الْجَمِيلُ)، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا يَسْتَتِيعُ الْبَتَّةَ تَسَاوِي هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الْمَشْتَرَكَةِ، أَوْ أَنْ تَرْمِزَ الرُّمُوزُ الثَّلَاثَةُ إِلَى مَرَاجِعٍ تَقْتَسِمُ أَيُّ شَيْءٍ مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهُ. مَعَ ذَلِكَ فَالْقَلِيلُ مِنَ الْكُتَابِ الْمَعْنِيَّ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْجَوَالَةِ مَنْ يُقَاوِمُ إِغْرَاءَ بَدْءِ دِرَاسَتِهِ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَعَانِي الْأَسَاسِيَّةِ أَوْ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلِاخْتِرَالِ.

وَقَدْ تَعَاظَمَ هَذَا الْإِغْرَاءُ بِمِثْلِ الْمُعْجَمَاتِ إِلَى عَزَلِ نَوَاقِظِ اعْتِبَاطِيَّةٍ مِنَ الْاسْتِعْمَالَاتِ رَغْبَةً فِي الْإِيجَازِ، وَإِلَى مُعَامَلَةِ الْمَعَانِي الَّتِي يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرٌ إِشْكَالٍ كَبِيرٍ فِي النُّقَاشِ بِوَصْفِهَا 'مَيْتَةً' أَوْ 'عَرَضِيَّةً'. وَفِي بَعْضِ الْحَالَاتِ يُمَكِّنُ أَنْ تُمَيِّزَ حَالًا التَّغْيِيرَاتِ التَّأْرِيخِيَّةَ وَالتَّعْدِيلَاتِ الصَّوْتِيَّةَ فِي الرَّمْزِ نَفْسِهِ. وَهَكَذَا يُمَكِّنُ تَمْيِيزُ التَّحَوُّلَاتِ فِي *persona - person - parson* مِنْ نَظَرَةٍ إِلَى الْمُخَطِّطِ الْآتِي (21) :-

1. A قناع
2. B + A خَصِيصَةٌ يُشَارُ إِلَيْهَا بِقِنَاعٍ
3. B .. خَصِيصَةٌ أَوْ دَوْرٌ فِي مَسْرَحِيَّةٍ
4. C + B شَخْصٌ يُمَثِّلُ خَصِيصَةً
5. C مُمَثِّلٌ عَلَى الْعُمومِ
6. D + C .. مُمَثِّلٌ لِلْكَنِيْسَةِ فِي الْأَبْرَشِيَّةِ
7. D قَسٌّ [129]

كُلُّ هَذَا التَّطَوُّرِ حَدَثَ فِي اللَّاتِينِيَّةِ، لَكِنْ حِينَ افْتَرَضَتِ الْكَلِمَةُ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِصِيغَةِ *persoun*، الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا تَشَوْسَرُ Chaucer⁽²²⁾، تَسَبَّبَ تَحْوِيلُ وَتَلَاشٍ لِلِاسْتِعَارَةِ فِي B فِي إِنتَاجِ B1، أَيْ التَّحْوِيلِ إِلَى 'personage'؛ وَ *parson* هِيَ التَّهْجِيئةُ الصَّوْتِيَّةُ لِهَذِهِ الصِّيغَةِ الْقَدَمَى. وَكَثِيرًا مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوقَفَ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةُ عَلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ اسْتِعْمَالًا لِلْكَلِمَةِ، وَحَيْثُمَا كَانَ الْفَصْلُ التَّأْرِيخِيُّ أَوْ الصَّوْتِيُّ غَيْرَ وَاضِحٍ التَّحْدِيدِ كَانَ حَدُوثُ الْخَلِطِ حَتْمِيًّا، إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْمَوْضوعاتُ الْمُحَالُ عَلَيْهَا قَائِلَةً لِلتَّمْيِيزِ تَمَامًا بِحَيْثُ تُشْجَعُ الْمَوْلَعِينَ بِالتَّوْرِيَّةِ.

وَإِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نَكُونَ وَسَطِيَّينَ فِي تَعَاطِينَا مَعَ وَجْهَاتِ النَّظَرِ الْمُتَنَافِسَةِ فَأَوَّلَى لَنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ الْمُتَنَازِعِينَ مُسْتَقِلُّونَ مُصْطَلِحِيًّا مِنْ افْتِرَاضِنَا أَنَّهُمْ يَجِبُ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا كَلِمَاتِهِمْ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا فِي جَمِيعِ الْوُجُوهِ. ففِي الْإِجْرَاءِ الْأَوَّلِ، إِنْ كَانَ ثَمَّةُ عُنْصُرٍ مُشْتَرَكٍ مُتَضَمِّنٌ حَقًّا كُنَّا فِي وَضْعٍ مُنَاسِبٍ لِكِتْشَافِهِ. وَفِي الْإِجْرَاءِ الثَّانِي، لَا بُدَّ أَنْ نَنْحُو نَحْوَ إِسَاءَةِ تَأْوِيلِ وَجْهَاتِ النَّظَرِ الْمَعْنِيَّةِ وَأَنْ نُفْلِلَ مُعْظَمَ سِمَائِهَا الْعَالِيَةِ الْقِيَمَةِ وَالْمُتَمَيِّزَةِ حَقًّا. وَيَجِبُ إِرْجَاءُ الْقِيَامِ بِتَوْلِيْفَةٍ مِنَ الْآرَاءِ

(22) جيفري تشوسر (1343-1400م). شاعرٌ إنجليزيٌّ من سُعْرَاءِ الْمُصَوِّرِ الْوُسْطَى. يُلقَّبُ بِأَبِي الشُّعْرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ، وَبَعْدَ مِنْ أَقْدَمِ الشُّعْرَاءِ الْإِنْجِلِيزِ الْمَعْرُوفِينَ. يُعْرَفُ بِعَمَلِهِ الْمَشْهُورِ (جُكَايَاتُ كَانْتَرْبُري). وَمِنْ أَعْمَالِهِ الْأُخْرَى الْمَعْرُوفَةِ: كِتَابُ الدَّوْقَةِ، وَتَرْوِيلْسُ وَكْرِيسِيد.

الْمُتَنَوِّعَةِ، إِنْ كَانَتْ ثَمَّةُ مُحَاوَلَةٍ فِي هَذَا الْاِتِّجَاهِ، إِلَى حِينَ إِجْرَاءِ اخْتِيَارِ مُتَكَايِلِ قَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ لِكُلِّ وَجْهَةٍ نَظَرٍ عَلَى جِدَةٍ. فَالْجُهْدُ الْمُبْتَسِّرُ، الَّتِي يَتَوَاطَأُ عَلَى إِغْرَانِهَا بِهَا جَمِيعُ مَوَاقِفِنَا الطَّبِيعِيَّةِ مِنَ الرُّمُوزِ، مَعِينٌ تَخْلِيْطٌ لَا يَنْضُبُ.

وَكثِيرًا مَا يَصْعُبُ عَلَى الَّذِينَ يُقَارِبُونَ الرُّمُوزَ بِطَيْشٍ أَنْ يُصَدِّقُوا أَنَّ كَلِمَاتٍ مُرَبِّحَةً مِثْلَ 'الْجَمَالِ' أَوْ 'الْمَعْنَى' أَوْ 'الصِّدْقِ' لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ كَلِمَاتٍ مُفْرَدَةً الْبَتَّةَ، بَلْ هِيَ مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الرُّمُوزِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلتَّمْيِيزِ ظَاهِرِيًّا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَارِضَةٌ كُلِّيًّا. عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ صَعْبًا تَبَيُّنُ أَسْبَابِ ذَلِكَ. فَاللُّغَةُ، الَّتِي تَطَوَّرَتْ أَسَاسًا لِإِرْضَاءِ ضَرُورَاتِ التَّعَامُلِ الْعَمَلِيِّ الْيَوْمِيِّ، تُبْدِي تَفَاوُتًا كَبِيرًا فِي كَشَافَةِ تَوْزِيعِ وَحْدَاتِهَا حِينَ نَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ مِيزَانِ حَاجَاتِنَا النَّظَرِيَّةِ. وَهَكَذَا كَثِيرًا مَا يَكُونُ عَلَى كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ أَنْ تُؤَدِّيَ وَظَائِفَ لَوْ قُبِضَ لِأَدَانِهَا مِنْهُ كَلِمَةٌ مَا كَانَ ذَلِكَ بِالْكَثِيرِ. فَمَا السَّبَبُ فِي تَمَنُّعِ اللُّغَةِ كَثِيرًا عَنِ الثَّمْوِ عِنْدَ هَذِهِ النُّقَاطِ؟ تِلْكَ مُشْكَلَةٌ مُحِيرَةٌ. [130] إِذْ إِنْ مِنَ الْمُمَكِنِ مُعَالَجَةِ نَقْصِ الْأَلْفَاظِ فِي الْعُلُومِ الرَّاسِخَةِ مِنْ غَيْرِ صُعُوبَةٍ بِتَقْدِيمِ أَلْفَاظٍ جَدِيدَةٍ. أَمَّا إِنْ كَانَتْ الْعُلُومُ فِي مَرَاكِزِهَا الْأَوَّلِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ تَتَطَوَّرَ لِتُصْبِحَ مِنْ شَأْنِ دَوِي الْأَخْصَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ بَعْدَ مِمَّا يَهْمُ عَامَّةَ النَّاسِ، فَإِنَّ مَقَاوِمَهَا لِلْأَلْفَاظِ الْجَدِيدَةِ تَكُونُ كَبِيرَةً جِدًّا. وَقَدْ يُفَسِّرُ ذَلِكَ الْإِفْتِقَارُ إِلَى الْقُوَّةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ الَّتِي هِيَ السَّمَةُ الْمُمَيِّزَةُ لِجَمِيعِ الْآلِيَّاتِ.

وَنَجْمٌ عَنْ هَذِهِ النُّدْرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ أَنَّ آيَةَ إِحَالَةٍ، مَهْمَا تَكُنْ، عَلَى هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُتَضَوَّرَةِ جُوعًا تَكُونُ مُجْبِرَةً عَلَى الْإِفَادَةِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمُتَوَافِرَةِ، وَلَا تَهْمُ دَرَجَةٌ تَمَيِّزٍ مَرَاغِبِهَا مِنْ مَرَاغِبِ الْإِحَالَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي تَسْتَعْمِلُ هِيَ أَيْضًا الْكَلِمَاتِ أَنْفُسَهَا. وَهَكَذَا تَجَنُّحُ كُلِّ إِحَالَةٍ عَلَى الْفَعَالِيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ غَيْرِ النَّظَرِيَّةِ وَلَا الْعَمَلِيَّةِ إِلَى أَنْ تَرْمِزَ إِلَيْهَا كَلِمَةٌ 'جَمَالِيَّةٌ'، وَتَجَنُّحُ كُلِّ مَا لَا يَهْمُنَا مُجَرَّدُ مَعْرِفَتِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ إِلَى أَنْ يُوصَفَ اسْتِثْقَائِيًّا بِأَنَّهُ جَمِيلٌ. وَهَذَا مِمَّا قَدْ نَسْتَطِيعُ تَمْيِيزُهُ، مَهْمَا تَكُنِ الْمَوَاقِفُ تَجَاهَ الْأَشْيَاءِ مُخْتَلِفَةً جَذْرِيًّا. وَيَضَعُ هَذَا أَيْدِيَنَا عَلَى سَبَبِ اللَّبْسِ الْمُفْرِطِ الَّذِي تُسَبِّبُهُ جَمِيعُ الْكَلِمَاتِ الشَّدِيدَةِ الْأَهْمِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي النِّقَاشِ الْعَامِّ، وَهُوَ يُتِمُّ عَمَلِيَّاتِ التَّحَوُّلِ الْإِسْتِعَارِيِّ الْمُعَالَجَةِ قَبْلَ قَلِيلٍ وَيُقَوِّمُهَا.

فَعَلَيْنَا قَبْلَ الْبَدْءِ بِأَيِّ اخْتِبَارٍ جَادٍ لِهَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ أَنْ نُرَوِّدَ أَنْفُسَنَا بِقَائِمَةٍ تَحْوِي مَا أَمَكَّنَ مِنَ الاسْتِعْمَالَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ لِلْكَلِمَاتِ الرَّئِيسَةِ. وَسَبَبُ جَعْلِ هَذِهِ الْقَائِمَةِ مُتَكَامِلَةً قَدَرُ الْمُسْتَطَاعِ، وَخَاضِعَةً بِلا شَكٍّ لِلْفَهْمِ الْمُشْتَرَكِ وَلِلْاجْتِهَادِ الْإِعْتِيَادِيِّ، سَبَبٌ مُهِمٌّ. فَمِنْ الصُّعُوبَةِ الْبَالِغَةِ فِي مَيَادِينِ كَهَذِهِ الْمُحَافَظَةُ بِإِطْرَادٍ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْعَى 'الْإِحْسَاسُ بِالْمَوْضِعِ'، وَتَضَمُّنُ عَمَلِيَّةِ الْاسْتِقْصَاءِ قَدْرًا كَبِيرًا وَمِمَّا يَظْهَرُ لِلْمُسْتَفْصِي أَنَّهُ وَمَضَاتُ بَصِيرَةٍ، وَلَمَحَاتُ فُجَائِيَّةٍ لِلصَّلَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَوَعْيُ فُجَائِيٍّ لِلْمَزَايَا وَالْفُرُوقِ. وَمِنْ أَجْلِ الْإِحْفَاطِ عَلَى هَذِهِ جَمِيعًا يَنْبَغِي أَنْ يَرْمَزَ لَهَا، مَا لَمْ تَظْهَرْ أَصْلًا، كَمَا هِيَ الْحَالُ كَثِيرًا، [131] فِي حَالَةٍ مُرَمَّزَةٍ سَلَفًا.

وَمَا لَمْ تَتَوَافَرَ هَذِهِ الْخَرِيطَةُ لِلْمَيَادِينِ الْقَابِلَةِ لِلْفَصْلِ الَّتِي يَشْمَلُهَا الْاسْتِقْصَاءُ فَسَيَكُونُ أَيُّ افْتِرَاضٍ مُبْتَكَّرٍ غُرْصَةً لِلِاخْتِلَافِ بِغَيْرِهِ، لِيَتَضَرَّرَا مَعًا، أَوْ لِيُؤْلَدَا تَنَاقُضًا وَاضِحًا ذَا أَصْلٍ لَفْظِي خَالِصٍ. عَلَى أَنَّا لَوْ اسْتَطَعْنَا فِي الْحَالِ أَنْ نَضَعَ الْفِكْرَةَ فِي مَوْضِعِهَا الْمُنَاسِبِ لَجَرَدْنَا الْحَادِثَ الْعَرَضِيَّ الْقَاضِيَّ بِاسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ أَنْفُسِهَا بِوصفِهَا رُمُوزًا مُتَمَازِيَةً كُلِّيًا مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى إِقْلَاقِ تَوْجِيهِنَا. وَلَا يَكْفِي مُجَرَّدُ التَّفْرِيقِ لِأَعْرَاضٍ خَاصَّةٍ بَيْنَ مَعْنَيْنِ أَوْ رُبَّمَا ثَلَاثَةٍ مَعَانٍ لِكَلِمَةٍ اصْطُنِعَتْ اسْتِجَابَةً لِمُقْتَضَيَاتٍ جَدَلِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ. وَلَا يُمْكِنُنَا الْبَتَّةُ التَّنَبُّؤُ بِالْجُزْءِ التَّالِيِ الَّذِي سَيَسْلُطُ عَلَيْهِ الضُّوءُ مِنَ الْمِيْدَانِ الْكُلِّيِّ، وَمَا لَمْ نَعْرِفْ بِإِيجَازِ الْإِمْكَانَاتِ الْمُتَاحَةِ فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ نَبْقَى جَاهِلِينَ حَقِيقَةً مَا كَانَتْ لَنَا بِهِ بَصِيرَةٌ.

وَلَيْسَ كُلُّ الْكَلِمَاتِ يَسْتَحِقُّ كُلَّ هَذَا الْعَنَاءِ. إِذْ يَسَعُنَا أَنْ نَفْتَرِضَ، إِلَى حَدِّ مَا، أَنَّ ثَمَّةَ مَوْضُوعَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تَسْتَحِقُّ الْإِهْتِمَامَ، لَكِنَّ النَّظَرَ الْمُدَقَّقَ يُوحِي بِأَنَّ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ، الَّتِي يُمَثِّلُ عِلْمُ الْأَدْيَانِ أَنْمُودَجًا جَيِّدًا لَهَا، مَا هِيَ فِي أَنْفُسِهَا إِلَّا أَنْظُمَةٌ كَلِمِيَّةٌ. لَكِنَّ حَتَّى أَكْثَرَ الْمَيَادِينِ عُقْمًا لَهَا أَهْمِيَّتُهَا السَّايَكُولُوجِيَّةُ، وَالَّذِينَ يُقَارِبُونَ الْبَحْثَ مُسَلِّحِينَ بِاللَّيَّةِ رَمْيَّةٍ وَلَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَطْبِيقِ مَبَادِيٍّ عَلَى شَاكِلَةِ الْقَوَانِينِ الْمُعَالَجَةِ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَأْمُلُوا كُلَّ يَوْمٍ وَبِكُلِّ طَرِيقَةٍ أَنْ يَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ أَفْضَلَ وَأَفْضَلَ.

وحتى الذين يَنكَمِشُونَ مِنْ تَشَدُّدَاتِ الْقَوَانِينِ السَّتَّةِ يُمَكِّنُهُمْ إِنْجَاؤُ شَيْءٍ مَا. فقد ذَكَرَ شوبنهاور Schopenhauer⁽²³⁾ فِي كِتَابِهِ قَوْلَ الْجَدَلِ *Art of Controversy*، الَّذِي قَالَ بِشَأْنِهِ: "أَنَا لَا أَعْلَمُ أَنَّ شَيْئًا مَا قَدْ أُنجِزَ فِي هَذَا الْاِتِّجَاؤِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِقْصَاءِ اتِي الْبَعِيدَةِ وَالْوَاسِعَةِ"، مَا يَأْتِي: "لَوْ أُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ حِيلَةٍ اسْمٌ قَصِيرٌ وَوَاضِحٌ الْمُنَاسِبَةِ لَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا جَيِّدًا جِدًّا؛ فَإِذَا اسْتَعْمَلَ شَخْصٌ مَا هَذِهِ الْخُدْعَةُ الْمَخْصُوصَةُ أَوْ تِلْكَ وَبُحَّ حَالًا عَلَى فَعْلِهِ هَذَا". وَعَزَّزَ هَذَا الْاِفْتِرَاحَ نَعْتُ البروفيسور ديوي Dewey⁽²⁴⁾ [132] الْعَلَامَةُ اللَّفْظِيَّةُ بِالسِّيَاحِ، وَالْبِطَاقَةِ، وَالنَّاقِلِ: أَيِ أَنَّهَا تَنْتَقِي الْمَعَانِي وَتَمَيِّزُهَا مِنَ الْفَرَاغِ، وَتَجْعَلُ مَا كَانَ مُعْتِمًا وَغَامِضًا شَاخِصًا كَالْكِيَانِ الْوَاضِحِ؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ تَحْتَفِظُ بِالْمَعْنَى الْمُثَبَّتِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِلِاسْتِعْمَالِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ؛ ثُمَّ إِنَّهَا أَخِيرًا تَجْعَلُهُ قَابِلًا لِلتَّطْبِيقِ وَالتَّنْقِلِ إِلَى سِيَاقٍ جَدِيدٍ وَحَالٍ جَدِيدَةٍ. وَإِنْ شِئْنَا فَلَنَّا بَلَّغُوا أَقْلًا مِتَافِيزِيَّةً إِنَّ الرَّمْزَ يُعَيِّنُنَا عَلَى فَصْلِ إِحَالَةٍ عَنْ أُخْرَى، وَعَلَى تَكَرُّرِ إِحَالَةٍ سَبَقَ أَنْ اجْتَرَحْنَاهَا، وَعَلَى اصْطِنَاعِ إِحَالَاتٍ ذَوَاتِ شَبَهٍ جُزْئِيٍّ فِي سِيَاقَاتٍ أُخْرَى. وَيُفَضَّلُ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الطَّرَاقِ أَنْ نُلَحَظَ الْإِجْرَاءَاتِ الَّتِي يَصْطَرِّعُهَا الْجَدَلِيُّونَ.

هَكَذَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحَدَّدَ فِي الْحَالِ ثَلَاثُ حِيَلٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. أَوَّلَى هَذِهِ الْحِيَلِ، وَهِيَ الْخُدْعَةُ الصَّوْتِيَّةُ *Phonetic subterfuge*، سَتْعُدُّ بِسَيْطَةً بِحَيْثُ لَا تَكُونُ خَطَرَةً مَا لَمْ يَحْمِلِ التَّأْرِخُ شَهَادَةً عَلَى آثَارِهَا. إِنَّهَا تَكْمُنُ فِي مُعَامَلَةِ الْكَلِمَاتِ

(23) آرثر شوبنهاور (1788-1860م). فيلسوف ألماني معروف بفلسفته التشاؤمية؛ إذ رأى الحياة شرًا مطلقًا، وبَجَلِ الْعَذَمِ. أَلَفَ كِتَابَ (العالم إرادة وفكرة) الَّذِي سَطَّرَ فِيهِ فِلْسَفَتَهُ، فَرَبَطَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْعَقْلِ؛ إِذْ رَأَى الْعَقْلَ أَدَاةَ يَدِ الْإِرَادَةِ وَتَابِعًا لَهَا. مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ الْآخَرَى: الْإِرَادَةُ فِي الطَّبِيعَةِ، وَالْمَشْكِلَتَانِ الْأَسَاسِيَتَانِ فِي فِلْسَفَةِ الْأَخْلَاقِ. [الْمُتَرَجِمُ]

(24) جون ديوي (1859-1952م). فيلسوف، وعالم نفس، ومُصَلِّحُ تَرْبَوِيٍّ أَمْرِيكِيٍّ، وَزَعِيمٌ مِنْ رُعَمَاءِ الْفِلْسَفَةِ الْبَرَاغَمَاتِيَّةِ، وَمِنْ مَوْلاَفَاتِهِ: عِلْمُ النَّفْسِ الْوُظِيفِي. وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ مَنْ أَطَالَ عُمُرَ الْفِلْسَفَةِ الْبَرَاغَمَاتِيَّةِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَعْمَلَ بِلِبَاقَةٍ كَلِمَتَيْنِ قَرِيبَتَيْنِ مِنَ الشَّعْبِ الْأَمْرِيكِيِّ، هُمَا الْعِلْمُ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ. مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ: عِلْمُ النَّفْسِ الْجَدِيدِ، وَالْمَدْرَسَةُ وَالْمُجْتَمَعُ، وَالْمَبَادِئُ الْأَخْلَاقِيَّةُ فِي التَّرْبِيَةِ، وَكَيْفَ نُفَكِّرُ، وَالفلسفة والحضارة. [الْمُتَرَجِمُ]

التي تَبْدُو مُتَشَابِهَةً كَمَا لَوْ أَنَّ تَوْسُعَاتِهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُتَشَابِهَةً. وَأَشْهُرُ حَالَةٍ لِذَلِكَ اسْتِعْمَالُ مِلْ Mill⁽²⁵⁾ لِـ 'مَرْغُوبٍ فِيهِ desirable' كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَوَسَّعَ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي يَتَوَسَّعُ بِهَا 'مِنْ الْمُمَكِّنِ أَنْ يُرَى visible' وَ'مِنْ الْمُمَكِّنِ أَنْ يُعْلَمَ knowable'. وَالثَّهْمَةُ فِي أَمْرِ هَذِهِ الْخُدْعَةِ يَنْبَغِي تَوَجُّهَهَا إِلَى اللَّغَةِ أَكْثَرَ مِنْ تَوَجُّهَهَا إِلَى مِلْ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهَا لَفَظِيَّةٌ. وَ'مَرْغُوبٌ فِيهِ' بِمَعْنَى 'يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَرْغُوبًا فِيهِ' يُمَكِّنُ اخْتِرَالَهُ فِي 'مِنْ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَرَعَبَ فِيهِ عَقْلٌ ذُو نِظَامٍ مُعَيَّنٍ'⁽²⁶⁾، لَكِنَّهُ، بِوَصْفِهِ رَمَزًا، لَا يُضَارَعُ 'مِنْ الْمُمَكِّنِ أَنْ يُرَى' الَّذِي بِمَعْنَى 'مِنْ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ مَا'.

أَمَّا الْخُدْعَةُ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِضْفَاءِ الصِّفَةِ الْمَادِّيَّةِ Hypostatic subterfuge، فَتَعْوِيقُهَا أَصْعَبُ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهَا إِسَاءَةٌ اسْتِعْمَالٍ لِتَسْيِيرٍ لُغَوِيٍّ أَسَاسِيٍّ. فَإِنْ أَرَدْنَا التَّوَقُّفَ عَنْ إِطْلَاقِ أَيِّ تَعْلِيلٍ عَامٍّ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَضَيِّقَ لُغَتَنَا وَنُكْتِفِهَا، لَكِنْ لَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ نَضْفِي الصِّفَةَ الْمَادِّيَّةَ عَلَى تَضْيِيقَاتِنَا. وَقَدْ أُجِيلَ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ مِنْ حَيْثُ اتِّصَالُهَا بِالْكُلِّيَّاتِ، أَمَّا مَدَى رَوَاجِ هَذِهِ الْمُمَارَسَةِ وَمَدَى تَأْثِيرِهَا [133] فَيُمْكِنُ تَبْيِينُهُمَا بِقَائِمَةِ الْأَلْفَاظِ الْآتِيَةِ: - الْفُضِيلَةُ، الْحُرِّيَّةُ، الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ،

(25) جون ستيورت ميل (1806-1873م). ابْنُ الْفِيلَسُوفِ جِيْمْسِ مِلْ. وَلِدَ بَلْنَدَن، وَلَمْ يَتَلَوْا الْعِلْمَ فِي الْمَدَارِسِ بَلْ عَلَّمَهُ أَبُوهُ. تَأَثَّرَ بِكُتَابَاتِ فِيلَسُوفِ النَّفْعِيَّةِ بَيْنْتَام، وَانْحَرَفَ فِي جَمَاعَةِ الرَّادِكَالِيِّينَ الْفَلَاسِفَةِ الَّتِي كَانَ أَبُوهُ مِنْ رُعْمَانِهَا. لَكِنْ سَرَعَانِ مَا أُصِيبَ بِرَدِّ فِعْلِ مُضَادٍّ لِلْآرَاءِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا أَبُوهُ وَالرَّادِكَالِيُونَ الْفَلَاسِفَةُ، وَوَقَفَ عَلَى كُتَابَاتِ سَان سِيْمُونِ وَأَوغِسْت كُونْتِ وَكُولِيرِجِ فَتَأَثَّرَ بِهَا، فَعَارَضَ الْمَذْهَبَ الْعَقْلِيَّ بِالْمَذْهَبِ الْحِسِّيِّ. وَالْمَذْهَبُ الْعَقْلِيُّ يَعْنِي عِنْدَهُ الْمَذْهَبَ الْحَدْسِيَّ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ قَدْ قُطِرَ عَلَى الْمَعَانِي وَالْمَبَادِي. وَلَمْ يَنْفِ الْحَدْسَ تَمَامًا بِوَصْفِهِ مُصَدِّرًا لِلْمَعْرِفَةِ، بَلْ قَصَدَ تَقْلِيلَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَدْعِي الْعَقْلُ الْعِلْمَ بِهَا مَا أَمَكَّنَ. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ: الْمَنْطِقُ، وَمَبَادِيُ الْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ، وَمَقَالٌ فِي الْحُرِّيَّةِ، وَالْمَذْهَبُ النَّفْعِيُّ، وَأَوغِسْت كُونْتِ وَالْوَضْعِيَّةُ. [الْمُتْرَجِمُ]

(26) قَدْ طَوَّرْنَا نَظْرِيَّةَ الْقِيَمَةِ هَذِهِ فِي كِتَابِنَا مَبَادِيُ التَّقْدِيرِ الْأَدَبِيِّ *Principles of Literary Criticism*، حَيْثُ تَخَلَّصْنَا مِنَ الْحُجَجِ الْمَطْرُوحَةِ بِالضَّدِّ مِنْهَا مِثْلُ 'الْمُغَالَاظَةِ الطَّبِيعِيَّةِ' النَّزْعَةِ 'naturalistic fallacy'.

السَّلْمُ، أَلْمَانِيَا، الدِّينُ، الْمَجْدُ. وَجَمِيعُ الْكَلِمَاتِ الْعَالِيَةِ الْقِيَمَةِ، بَلْ الَّتِي لَا غِنَى عَنْهَا، إِنَّمَا لَهَا الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ تُخَلِّطَ أَوْضَحَ الْمَسَائِلِ مَا لَمْ تُضَبِّطْ بِالقانونِ الثَّالِثِ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ، وَهِيَ الْخُدْعَةُ الْأَوْتَرَاكُوسِيَّةُ Utraquistic subterfuge⁽²⁷⁾، فَرُبَّمَا تَكُونُ قَدْ جَعَلَتِ الْحُجَّةَ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ سُوءًا مَقْبُولَةً أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ إِجْرَاءٍ جَدَلِيٍّ يُمَكِّنُ أَنْ يُمَارَسَ فِي حَقِّ الْبَشَرِيَّةِ الْمُفَعَّمَةِ بِالثَّقَةِ. فَقَدْ عُرِفَ مُنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ أَنَّ تَعْبِيرَ 'الإدراك الجسِّي' 'perception' إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَرِجِعُهُ فِيزِيَاثِيًّا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَهْنِيًّا. أَعْلَى مَا يَدْرِكُ يُحِيلُ، أَمْ عَلَى إِدْرَاكِ هَذَا الشَّيْءِ؟ فَكَذَلِكَ قَدْ تُحِيلُ 'مَعْرِفَةُ' عَلَى مَا يُعْرَفُ أَوْ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ. فَالْخُدْعَةُ الْأَوْتَرَاكُوسِيَّةُ تَكْمُنُ فِي اسْتِعْمَالِ أَلْفَاظٍ تَصْلُحُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لِكِلَا الْمَرِجِعَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ. وَالظُّهُورُ التَّمَوِّدَجِي لَهَا حِينَ يُسْتَحْدَمُ لَفْظُ 'جَمَالُ'، إِذْ يُحَالُ عَلَى نَحْوِ تَخْلِيْطِيٍّ عَلَى كُلِّ مِنْ صِفَاتِ الْمَوْضُوعِ الْجَمِيلِ وَعَلَى التَّأثيرَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ فِي الْمُشَاهِدِ. وَقَدْ تُودَعُ الْكَلِمَةُ نَفْسُهَا أحيانًا اثْنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْخُدْعِ. وَهَكَذَا تَكُونُ كَلِمَةُ 'جَمَالُ' فِي مُعْظَمِ الْمُنَاسَبَاتِ مَصْدَرٌ إِجْرَامٍ مُزْدَوِجٍ، أَيِ إِجْرَامٍ إِضْفَاءِ الصِّفَةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْإِجْرَامِ الْأَوْتَرَاكُوسِيَّةِ.

وَزِيَادَةٌ عَلَى هَذِهِ الْعُنُونَةِ لِلْحِيلِ الْجَدَلِيَّةِ يُمَكِّنُ وَضْعُ مَجْمُوعَةٍ إِضَافِيَّةٍ مِنْ قَوَاعِدِ التَّجَرِبَةِ تَكُونُ دَلِيلًا عَمَلِيًّا عَلَى وَفْقِ الْقَوَانِينِ السَّتَّةِ. وَفِي حَلَقَةٍ نِقَاشِيَّةٍ حَدِيثَةٍ لِلْجَمْعِيَّةِ الْأَرِسْطِيَّةِ لِلْفَعَالِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ، أُنْجِزَ مُعْظَمُهَا بِاسْتِعْمَالِ قَوَسِيِ الْاِقْتِيَّاسِ، لَمْ يَكُنْ مُفَاجِئًا أَنْ نَجِدَ الْبَرُوفِسُورَ كَارْفِيْثَ رِيدِ Carveth Read⁽²⁸⁾ يُعَلِّقُ مَرَّةً أُخْرَى

(27) الْخُدْعَةُ الْأَوْتَرَاكُوسِيَّةُ: عِبَارَةٌ طَوَّرَهَا أَوْغِدِنُ وَرِثَارْدَزُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِتَصِفَ اسْتِعْمَالَ لَفْظٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُحِيلَ إِمَّا عَلَى مَرِجِعِهِ الْفِيزِيَاثِيٍّ وَإِمَّا عَلَى مَرِجِعِهِ الذَّهْنِيِّ، وَيَبْقَى هَذَا الْإِبْهَامُ مُفْتَوَحًا لِتَأْوِيلِ الْقَارِئِ أَوْ الْمُسْتَمِعِ. وَقَدْ قَدَّمَا مِثَالًا لِذَلِكَ تَعْبِيرَ (الإدراك الجسِّي). [المُتَرْجِمُ]

(28) كَارْفِيْثَ رِيدِ (1848-1931م). فِيلَسُوفٌ، وَمِنْطَقِيٌّ بَرِيْطَانِيٌّ. أَهْمُ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْمِنْطَقُ: الْاسْتِدْلَالِي وَالْاسْتِقْرَائِي. [المُتَرْجِمُ]

يَقُولُ: "لَطَالَمَا أَدْرَكَ أَنَّ سَبَبَ سُوءِ الْفَهْمِ الْأَكْثَرُ شُبُوحًا يَكْمُنُ فِي اللَّبْسِ الْحَاصِلِ فِي الْأَلْفَاظِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نُحَقِّقُ إِلَّا الْقَلِيلَ جِدًّا مِنَ التَّقَدُّمِ فِي الْإِتْفَاقِ عَلَى التَّعْرِيفَاتِ. وَحَتَّى إِنْ بَدَأَ أَحْيَانًا أَنَا مُتَّفِقُونَ عَلَى اسْتِعْمَالِ لِكَلِمَةٍ مُهِمَّةٍ، نَشَأُ اهْتِمَامٌ جَدِيدٌ، أَوْ اكْتَسَبَ الْحَيَاةَ اهْتِمَامٌ قَدِيمٌ، ثُمَّ إِنْ اعْتَقَدَ أَنْصَارُهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ أَكْثَرُ قُوَّةً بِاسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ عَلَى نَحْوِ آخَرَ فَلَنْ يَتَرَدَّدُوا فِي تَغْيِيرِهِ". [134]

وَبَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ سِتِّينَ نَجِدُ البروفيسور لفجوي Lovejoy⁽²⁹⁾، فِي الْمُلْتَقَى السَّنَوِيِّ الْعَاشِرِ لِلْجَمْعِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، يُقَاطِعُ سِلْسِلَةَ إِسَاءَاتٍ فَهَمُ مُشَابِهَةٌ يَقُولُ: "إِذَا مَا أَرَدْنَا الْوُصُولَ إِلَى الْفَهْمِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْمَزِيدِ مِنَ التَّقَيُّدِ بِالتَّعْرِيفَاتِ. لَا بُدَّ مِنْ تَحْدِيدِ لَجَنَةٍ لِتَعْرِيفِ الْأَلْفَاظِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي سَتُسْتَعْمَلُ فِي النِّقَاشِ".

وَحِينَ نَنْظُرُ فِي مِقْدَارِ الزَّمَنِ الَّذِي نُمْضِيهِ هَذِهِ الْآيَّامَ فِي نِقَاشِ كِهَذَا وَفِي عَدَدِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَنْطَقُهَا فِي أَثْنَاءِ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ - التَّقْدِيرُ الْحِسَابِيُّ هُوَ أَنَا نَنْطَقُ مَا بَيْنَ 150 وَ 250 كَلِمَةً فِي الدَّقِيقَةِ - تَتَبَيَّنُ لَنَا أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ أَصْنَافٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ عَرْضَةً لِلتَّضْلِيلِ فِي الْجَدَلِ.

وَمِنْ حُسْنِ الْحِظِّ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ: "مَا يَبْدُو فِي عِلْمِ النَّفْسِ هُوَ 'كَائِنْ'". فَهَلْ مَا 'يَبْدُو' وَاقِعِيٌّ؟ يُجِيبُ بوزانكيه Bosanquet⁽³⁰⁾ يَقُولُ: "كُلُّ شَيْءٍ وَاقِعِيٌّ مَا دُمْنَا لَا نَتَنَاوَلُهُ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ". وَاعْتَرَفَ البروفيسور أَلِكْسَانْدَرُ Alexander⁽³¹⁾ قَائِلًا: "إِنِّي أَتَحَدَّثُ مِنْ غَيْرِ حَذَرٍ إِلَى حَدٍّ مَا عَنِ الْعَقْلِ بِوَصْفِهِ

(29) آرثر أونكين لفجوي (1873-1962م). فيلسوف أمريكي مؤثر، ومؤرخ فكري أسس الحقل المعروف بتاريخ الأفكار. درس الفلسفة في البدء في جامعة كاليفورنيا، ثم في جامعة هارفرد على يد وليام جيمس وجوزايا رويس. من مؤلفاته: القيد الوجودي الكبير، وتأملات في الطبيعة الإنسانية. [المترجم]

(30) برنارد بوزانكيه (1848-1923م). فيلسوف، ومُنظِّر سياسي إنجليزي. أثر في كثير من المفكرين الذين عادوا فنقدوا فكره فيما بعد، مثل برتراند رسل، وجون ديوي، ووليم جيمس. من أهم مؤلفاته: النظرية الفلسفية للدولة، ومبدأ الفردية والقيمة، وقيمة الفرد ومصيره. [المترجم]

(31) صاموئيل ألكساندر (1859-1938م). فيلسوف بريطاني أسترالي الأصل. كان لديه اهتمام =

شَيْئًا"، وَقَالَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَسَفِ: "قَدْ اسْتَعْمَلْتُ الْكَلِمَةَ التَّعِيسَةَ (ظَاهِرَةً
Phenomenon). وَقَدْ قَرَّرْتُ أَلَّا أَسْتَعْمِلَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْبَتَّةَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ غَيْرِ اعْتِنَاءٍ
بِتَعْرِيفِ مَعْنَاهَا. أَمَّا كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ السَّيِّدُ سَتَاوْتُ (32) Stout إِنِّي أَصِفُ
الْعَقْلَ وَكَأَنَّهُ لَيْسَ بِظَاهِرَةٍ فِيمَا لَا يُدْرِكُهُ فَهَمِي. لَقَدْ قَصَدْتُ بِالْكَلِمَةِ الْعَدَمَ تَقْرِيًّا."
وَيُذَكِّرُ هَذَا بِالْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ كروتشة Croce (33) بِشَأْنِ الْمُتَسَامِي Sublime (34)،

= يَعْلَمُ النَّفْسِ. مِنْ مَوْلَفَاتِهِ: النِّظَامُ الْأَخْلَاقِيُّ وَتَقْدُّمُهُ، وَلَوْكَ. [الْمُتَرْجِمُ]
(32) جورج فريدريك ستاوت (1860-1944م). فِيلَسُوفٌ، وَعَالِمٌ نَفْسٍ إِنْجِلِيزِيٌّ. دَرَسَ الْفِلَسُفَةَ
وَعَلَّمَ النَّفْسَ وَدَرَّسَهَا فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِج، وَكَانَ بَرْتَرَانْد رَسِل مِنْ بَيْنِ تَلَامِيذِهِ. كَانَ مُحَرَّرَ
الْمَجَلَّةِ الْفِلَسُفِيَّةِ الدَّاعِيَةِ الصَّبِيَّةِ Mind بَيْنَ سَنَتَيْ 1891 وَ1920. مِنْ مَوْلَفَاتِهِ: عِلْمُ النَّفْسِ
التَّحْلِيلِي. [الْمُتَرْجِمُ]

(33) بِنِيدِيَتُو كروتشة (1866-1952م). فِيلَسُوفٌ إِيطَالِيٌّ مِنْ أَتْبَاعِ الْمَدْرَسَةِ الْهَيْغَلِيَّةِ الْجَدِيدَةِ،
وَأَسَاتِذٌ فِي نَابُولِي بَيْنَ سَنَتَيْ 1902 وَ1920. تَأَثَّرَتْ فِلَسُفَتُهُ بِفِلَسُفَةِ الرُّوحِ عِنْدَ هَيْغل، لَكِنْ
الرُّوحَ عِنْدَهُ لَيْسَتْ هِيَ اللَّهَ أَوْ الْفِكْرَةَ، لَكِنَّهَا الْوَاقِعُ أَوْ الْخِبْرَةُ، وَتَارِيخُهَا هُوَ تَارِيخُ
الْخِبْرَةِ أَوْ الْمَعْرِفَةِ. وَالْخِبْرَةُ أَوْ الْمَعْرِفَةُ عِنْدَهُ أَرْبَعُ دَرَجَاتٍ؛ أَوَّلَاهَا: الْخِبْرَةُ الْإِدْرَاكِيَّةُ الَّتِي
يُدْرِكُ بِهَا مَا هُوَ جُزْئِيٌّ، وَهِيَ حَدْسِيَّةٌ عِيَانِيَّةٌ، مِنْ طَرِيقِ الْخِيَالِ، وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ الْجَمَالِيَّةُ،
وَمِيدَانُهَا عِلْمُ الْجَمَالِ؛ وَثَانِيَتُهَا: الْخِبْرَةُ الْإِدْرَاكِيَّةُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا مَا هُوَ كُلِّيٌّ، وَهِيَ
حَدْسِيَّةٌ عِيَانِيَّةٌ، أَيْ مَعْرِفَةُ الْكَلِمَاتِ، وَهِيَ مَنْطَقِيَّةٌ صُورِيَّةٌ، وَمِيدَانُهَا عِلْمُ الْمَنْطِقِ؛
وَالثَّلَاثُ: الْخِبْرَةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ غَايَاتٍ فَرْدِيَّةً، وَمِيدَانُهَا عِلْمُ الْأَقْتِصَادِ؛ وَرَابِعُهَا:
الْخِبْرَةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ غَايَاتٍ كُلِّيَّةً، وَمِيدَانُهَا عِلْمُ الْأَخْلَاقِ. وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ لِلنَّشَاطِ
الرُّوحِيِّ مَسْتَوِيَاتٌ أَرْبَعَةٌ هِيَ: الْجَمَالُ، وَالْحَقُّ، وَالْمَنْفَعَةُ، وَالْخَيْرُ. أَمَّا فِي فِلَسُفَةِ الْفَنِّ
فَيَرَى كروتشة أَنَّ الْفَنِّ رُؤْيَا وَحْدَسٌ كَمَوْضُوعٍ خَارِجِيٍّ (شَيْءٌ أَوْ شَخْصٌ)، أَوْ كَمَوْضُوعٍ
دَاخِلِيٍّ (عَاطِفَةٌ أَوْ مِزَاجٌ)، يُعَبِّرُ عَنْهُ الْفَنَّانُ بِاللُّغَةِ أَوْ اللَّوْنِ أَوْ النَّمِ أَوْ الْحَجَرِ. وَالْعَمَلُ
الْفَنِّيُّ عِنْدَهُ صُورَةٌ ذَهْنِيَّةٌ يُؤَلِّفُهَا الْفَنَّانُ وَيُعِيدُ مَتَذَوِّقُو الْفَنِّ تَأْلِيفُهَا، وَلَيْسَ الْفَنُّ سِوَى عَرَضِ
الشُّعُورِ مُحَسَّسًا فِي صُورَةٍ ذَهْنِيَّةٍ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلَفَاتِهِ: الْإِسْتِطْبَاقُ عِلْمًا لِلتَّعْبِيرِ وَعِلْمُ اللُّغَةِ
الْعَامَّةِ، وَالْمَنْطِقُ، وَمَا هُوَ حَقٌّ وَمَا هُوَ مِثٌّ فِي فِلَسُفَةِ هَيْغل، وَالْمُجْمَلُ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ.
[الْمُتَرْجِمُ]

(34) التَّسَامِي فِي عِلْمِ الْجَمَالِ: صِفَةُ الْعَظَمَةِ، الَّتِي قَدْ تَكُونُ فِيزِيَائِيَّةً، أَوْ أَخْلَاقِيَّةً، أَوْ فِكْرِيَّةً،
أَوْ مِتَابِيزِيْقِيَّةً، أَوْ جَمَالِيَّةً، أَوْ رُوحِيَّةً، أَوْ فَنِّيَّةً. وَيُحِيلُ الْمُصْطَلَحُ عَلَى عَظَمَةٍ تَتَوَفَّقُ كُلُّ
إِمْكَانٍ لِلْعَدَمِ، أَوْ الْقِيَاسِ، أَوْ التَّقْلِيدِ. وَيَرْجِعُ الْأَصْلُ اللَّاتِينِيُّ لِلْكَلِمَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ بِوَصْفِهَا
مُصْطَلَحًا أَدْبِيًّا إِلَى اسْتِعْمَالِهَا بِهَذَا الْمَعْنَى فِي مَبْحَثِ يُونَانِيٍّ مَجْهُولِ الْمُؤَلَّفِ اسْمُهُ =

إِذْ قَالَ: "الْمُتَسَامِي هُوَ كُلُّ شَيْءٍ يَدْعُوهُ عَلَى هَذَا التَّحْوِ أَنْاسٌ، أَوْ سَوْفَ يَدْعُوهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ هَذَا الْاسْمَ، أَوْ سَوْفَ يَسْتَخْدِمُونَهُ". وَالْوِظِيفَةُ الرَّئِيسَةُ لِمِثْلِ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ فِي النِّقَاشِ الْعَامِّ هِيَ أَنْ تَسْلُكَ سُلُوكَ الْمُهَيِّجَاتِ Irritants، إِذْ تَسْتِثِيرُ الْعَوَاطِفَ غَيْرَ ذَوَاتِ الصَّلَةِ بِتَحْدِيدِ الْمَرْجِعِ. وَفِي ذَلِكَ قَدْحٌ فِي الْوِظِيفَةِ الشَّعْرِيَّةِ لِلُّغَةِ الَّتِي سَنَعُودُ إِلَيْهَا.

إِنَّ لِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْعَى عِلْمَ تَحْسِينِ نَسْلِ اللُّغَةِ Eugenics of Language
مَجَالًا وَاسِعًا، لَيْسَ بِأَقْلَ مِنْ مَجَالِ عِلْمِ أَخْلَاقِ الْإِصْطِلَاحِ Ethics of Terminology.

وَبِإِلْمَاحِ السَّيِّدِ الْفَرِيدِ سِيدْغُوكِ Alfred Sidguick⁽³⁵⁾ إِلَى الْإِسْتِنصَالِ اللَّغَوِيِّ الْوَاعِي، [135] لَفَتَ الْإِنْتِبَاهَ تَحْتَ عُنْوَانِ "الْكَلِمَاتُ الْفَاسِدَةُ Spoilt Words" إِلَى الْأَلْفَافِ الْمُؤْلِسَةِ الَّتِي يَسْتَعْصِي عِلَاجُهَا. لَكِنَّهُ غَادَرَ هَذِهِ الْمُشْكِلَةَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مُكْتَفِيًا بِتَقْرِيرِهَا عَلَى هَذَا التَّحْوِ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللُّغَةَ أُوجِدَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ

= (فِي التَّسَامِي)، وَقَدْ كَانَ يُنسَبُ قَدِيمًا إِلَى عَالِمِ الْبَلَاغَةِ لُونْجِينُوسِ الَّذِي عَاشَ فِي رُومَا فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْمِيلَادِيِّ. وَتَرْجِعُ فِكْرُهُ التَّسَامِي إِلَى التَّفَرُّقَةِ الْخَطَابِيَّةِ الشَّائِعَةِ مِنْذُ زَمَنِ قَدَمَاءِ الْإِغْرِيْقِ الَّتِي تُعَيِّرُ ثَلَاثَةَ أَسَالِيبَ لِلْكَلامِ: التَّسَامِي، وَالتَّوَسُّطُ، وَالبَّسِيطُ. لَكِنَّ لُونْجِينُوسَ الْمَرْعُومَ أَخْرَجَ هَذِهِ التَّفَرُّقَةَ مِنْ مُجَرَّدِ تَقْسِيمٍ لِلْأَسَالِيبِ الْكَلَامِيَّةِ إِلَى التَّقْدِيرِ التَّقْدِي لِلْآثَارِ الْأَدَبِيَّةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ. وَالسُّمَةُ الْمُمَيِّزَةُ لِلتَّسَامِي عِنْدَهُ مُتَّصِلَةٌ بِالنَّاحِيَةِ الْوِجْدَانِيَّةِ لِلْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ، وَرَأَى أَنَّ الْفَنَ يَنْطَبِقُ بِخَاصَّةٍ عَلَى مَا سُمِّيَ بِالْعَبَقْرِيَّةِ الْمُبْدِعَةِ الْأَصْلِيَّةِ، عَلَى حَسَابِ الْإِلتِزَامِ بِقَوَاعِدِ النِّظْمِ الصَّارِمَةِ. وَيُلَحَظُ أَنَّهُ فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ يُسْتَعْمَلُ لَفْظُ (التَّسَامِي) فِي الْمَعْنَى الْمُشَارِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ أَيْضًا صِفَةً لِلْأُسْلُوبِ الْبَلِيغِ، وَأَنَّ فِكْتُورَ هُوغُو كَانَ يَسْتَعْمِلُهُ دَوْمًا بِمَعْنَى خَاصٍّ هُوَ كُلُّ مَا يُبَيِّرُ الْمَيُولَ التَّسَامِيَّةَ فِي النَّفْسِ لِيَشْمَلَ الْمَاسَاءَ وَالْجَمَالَ وَالْمِثَالِيَّةَ، وَيُخَالِفُ الْهَزْلِيَّ وَالْمَلْهَمَةَ وَالْفَنِّجَ. [الْمُتَرْجِمُ]

(35) الْفَرِيدُ سِيدْغُوكُ (1850-1943م). مَنَظِّقِي، وَفِيلَسُوفٌ إِنْجِلِيزِي. دَرَسَ فِي كَلْبِيَّةٍ لِنُكُولِنِ التَّابِعَةِ لِجَامِعَةِ أَوْكْسُفُورْد. أَكْثَرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ تَحْلِيلُهُ لِلْمُغَالَطَاتِ. عَارِضَ الْمَنْطِقِ الصُّورِيِّ وَوَجَّهَ أَهْتِمَامَهُ إِلَى الْمَنَافِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَعُودَ بِهَا دَرَاةُ الْمَنْطِقِ. مِنْ مَوْثِقَاتِهِ: الْمُغَالَطَاتُ - نَظَرَةٌ فِي الْمَنْطِقِ مِنَ الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ، وَالبَحْثُ عَنْ مَعْنَى، وَمُلْحُوظَاتُ نَقْدِيَّةٍ. [الْمُتَرْجِمُ]

النَّاسُ التَّفَكِيرَ، وَالَّذِينَ أَوْجَدُوها، بِحَسَبِ تَعْبِيرِ مِل، هُمْ 'العامةُ'، وما زالت تُصَلِّحُ على هذا النَّحْوِ بالشَّكْلِ الَّذِي نَسْتَعْمِلُها بِهِ فِي جَوَارِئِنا، على الرَّغْمِ مِنْ مِقْدَارِ الْأَسْفِ الَّذِي نَشْعُرُ بِهِ تَجَاهَ هذِهِ الْحَقِيقَةِ. وَمِمَّا يُشَكُّ فِيهِ كَثِيرًا مِقْدَارُ ما نُسْهِمُ بِهِ فِي زِيَادَةِ التَّخْلِيصِ الْمَوْجُودِ بِسَعِينِا إِلَى تَقْيِيدِ مَعْنَى هذِهِ التَّعَاسَاتِ. فَحِينَ نَتَذَكَّرُ أَنَّ التَّرَايُطَاتِ الْعَاطِفِيَّةَ وَغَيْرِها مِنَ التَّرَايُطَاتِ لَا تَتَجَمَّعُ حَوْلَ الْكَلِمَاتِ فَقَطْ، بَلْ إِنَّ فِكْتُورْ هُوغو Victor Hugo⁽³⁶⁾، مَثَلًا، (على ما أَشارَ إِلَيْهِ رِيبُو Ribot) رَأَى فِي كُلِّ حَرْفٍ تَمَثِيلًا رَمَزيًا لِجَانِبٍ أَساسِيٍّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ⁽³⁷⁾، نَكُونُ مُتَفَانِلِينَ، إِلَى حَدِّ ما، بِوَضْعِ ثِقَتِنَا فِي فاعِلِيَّةِ تَقْيِيدِ الْمَعْنَى فِي النَّقَاشِ. وَقَالَ ماكس مِلر Max Müller: "أَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَقًّا مِنَ الْمُفِيدِ جِدًّا لِلْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ أَنْ تُقْصَى لِبَعْضِ الْوَقْتِ جَمِيعُ الْأَلْفَاظِ مِنْ أَمْثالِ الانْطِبَاعَاتِ، وَالْأَحَاسِيسِ، وَالنَّفْسِ، وَالرُّوحِ، وَسائِرِها، وَلَا يُسَمَحُ لَهَا بِالْعُودَةِ ثَانِيَةً إِلَى حِينَ خُضُوعِها لِتَنْقِيَّةٍ شامِلَةٍ". وَقَدْ نَجَّحَ الدُّكْتُورُ سَارِغَنْتْ فِلُورَنْسْ Sargant Florence⁽³⁸⁾ فِي اسْتِخْدامِ هذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي تَحْلِيلِهِ الرَّائِعِ لِمِ اقْتِصادِيَّاتِ الْإِجْهادِ وَالْقَلَقِ *Economics of Fatigue and Unrest* (1924) بِالْتَّخْلُصِ التَّامِّ مِنَ لَفْظِي 'الْإِجْهادِ' وَالْقَلَقِ فِي

(36) فِكْتُورْ هُوغو (1802-1885م). أَدِيبٌ، وَشاعِرٌ فَرَنْسِيٌّ. يُعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ أَدْبائِ فَرَنْسا فِي الْحَقَبَةِ الرُّومانسيَّةِ. تُرْجِمَتْ مَوْلاَئُهُ إِلَى أَغْلَبِ اللُّغَاتِ الْمَنْطُوقَةِ. أَثَّرَ فِي الْعَصْرِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي عاشَ فِيهِ، وَتُعَدُّ الْحُرِّيَّةُ مِنْ أَهَمِّ الْجَوَانِبِ فِي حَيَاةِ كاتِبِ أَحَدَبِ نُوْتَرْدَامِ الْمَشْهُورِ؛ فَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي تَتَرَدَّدُ لَدَيْهِ كَثِيرًا. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَئِهِ: أَحَدَبُ نُوْتَرْدَامِ، وَالْبُؤْساءُ، وَغَمَّالُ الْبَحْرِ. [المُترجم]

(37) تُقَدِّمُ أَهَمِّيَّةَ الْحَظِّ فِي الْكِتابَةِ الصِّينِيَّةِ مِثَالًا لِلتَّطَلُّلِ الْجَمالِيِّ عَلَى نِظامِ لِلْعَلَماتِ الشَّرِّيَّةِ- حَتَّى فِي الْمَواضِعِ الَّتِي تَخْتَفِي فِيها الْجاذِبِيَّةُ التَّصَوُّريَّةُ لِلْعَلَماتِ أَنْفِهاً.

(38) فِيلِيبْ سَارِغَنْتْ فِلُورَنْسْ (1890-1982م). رَجُلٌ اقْتِصادِيٌّ أَمْرِيكِيٌّ. أَمَضَى مُعْظَمَ حَيَاتِهِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَةِ. وَلِدَ فِي نِيوجيرسي فِي الْوِلايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، وَتَخَرَّجَ فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِجِ فِي إِنْجِلْتِرا، وَحازَ دَرَجَةَ الدُّكْتُوراهِ مِنْ جَامِعَةِ كُولومبيا فِي نِيُورْكَ. وَفِي سَنَةِ 1921 عُيِّنَ مُحاضِرًا فِي الْاِقْتِصادِ فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِجِ. وَفِي سَنَةِ 1929 أَصْبَحَ أَسْتاذًا لِلتَّجَارَةِ فِي جَامِعَةِ بَرْمِنْغهامِ، حَيْثُ بَقِيَ حَتَّى بَلَغَ سِنَ الثَّقاعِدِ فِي سَنَةِ 1955. أَهَمُّ آثارِهِ كِتابُ (اِقْتِصادِيَّاتُ الْإِجْهادِ وَالْقَلَقِ). [المُترجم]

المراحل الأولى (من الفصل الأول إلى الفصل الحادي عشر) من بحثه.

"لا تُغَيِّرُوا أَبَدًا الأَسْمَاءَ القَوْمِيَّةَ؛ فقد وَهَبَ الله لِكُلِّ أُمَّةٍ أَسْمَاءً لَهَا قُوَّةٌ فِي العَوَامِيسِ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّفْسِيرِ". هذا ما قاله كاهنٌ كلدانيٌّ لَهُ بَصِيرَةٌ ثاقِبَةٌ. لَكِنْ فِي البُحُوثِ النَّثَرِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَجَنُّبَ الطَّلَاسِمِ يَجِبُ نَبْذُ كُلِّ مِنَ الأَلْفَاظِ المُهَيِّجَةِ Irritants والمُنْحَلَّةِ Degenerates بِلا هَوَادَةٍ؛ فَاَمَّا الأَلْفَاظُ المُهَيِّجَةُ فَلِقُدْرَتِهَا عَلَى اسْتِثَارَةِ عَوَاطِفِ مُرْعَجَةٍ، وَأَمَّا الأَلْفَاظُ المُنْحَلَّةُ فَلِتَعَدُّدِ مَرَاكِعِهَا المُتَرَابِطَةِ. [136] وما مِن دَاعٍ فِي هَذَا المَقَامِ إِلَى أَنْ نَجْمَعَ قَائِمَةَ المُحْتَوَيَاتِ المُنْقَحَةِ المُشْتَمَلَةِ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ ابْتِدَاءً بِـ'الظُّهُورِ Appearance' وانْتِهَاءً بِـ'الوَاقِعِ Reality'، أَوْ بِأَقْرَبِ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الحَرْفِ Z.

وَمِمَّا صِنِفَ آخَرُ مِنَ الكَلِمَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَوْضَعَ عَلَى نَحْوِ مُفِيدٍ خَارِجٍ مَدَى الخِلَافِ المشروع. إِذْ يَتَحَدَّثُ ماثيو أرنولد Matthew Arnold⁽³⁹⁾ عَنْ "تَعْبِيرَاتٍ تُطْرَحُ طَرَحًا، إِنْ جَاَزَ التَّعْبِيرُ، عَلَى مَوْضُوعٍ يَتَعَلَّقُ بِوَعْيِ المُتَكَلِّمِ لَيْسَ فِي المُتَنَاوَلِ تَمَامًا". وَمَا دُمْنَا نُدْرِكُ الوَظِيفَةَ الصَّحِيحَةَ لِهَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ المُسْتَجْدِيَّةِ Mendicants، عَلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُلْقَبَ بِهِ، فَإِنَّهَا سَتُسَبِّبُ القَلِيلَ مِنَ الإِشْكَالِ. وَيَنْبَغِي أَلَّا تُعَامَلَ مُعَامَلَةً قَاسِيَةً البَتَّةَ، والعِلاجُ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِضْفَاءِ نَوْعٍ مِنَ التَّثْبِيتِ عَلَى هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ.

وَيَنْبَغِي التَّفْرِيقُ بَيْنَ التَّعْبِيرَاتِ المُسْتَجْدِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُ افْتِرَاضُ امْتِلَاقِهَا غَرِيزَةً الاسْتِقْرَارِ، وَالتَّعْبِيرَاتِ البَدْوِيَّةِ Nomads الَّتِي كَانَ لُوكْ Locke أَوَّلُ مَنْ وَصَفَ أُسْلُوبَ حَيَاتِهَا بِقَوْلِهِ: -

"اعْتَادَ النَّاسُ مِنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا الكَلِمَاتِ الَّتِي يَسْهُلُ

(39) ماثيو أرنولد (1822-1888م). شاعرٌ، وناقدٌ، وكاتبٌ، ومُصَلِّحٌ تربويٌّ إنجليزيٌّ. لَمْ يَقْتَصِرْ نَشَاطُهُ عَلَى الأَدَبِ، بَلْ تَنَاوَلَتْ كِتَابَتُهُ الأَدَبَ وَالتَّارِخَ وَالسِّيَاسَةَ وَالاِلَهَوِيَّاتِ وَالعِلْمَ وَالفَنَ. اِهْتَمَّ فِي أَعْمَالِهِ بِوَضْعِ الإنسانِ الغَرِيبِ المعاصِرِ الَّذِي يُوَاجِهُ الحَيَاةَ مِنْ غَيْرِ دِينٍ. مِنْ مَوْلاَتِهِ: الثَّقَافَةُ والقَوَاضِي، ومَقَالَاتٌ فِي النِّقْدِ، والأَدَبِ والعَقِيدَةِ. [المُتَرَجِّم]

تَحْصِيلُهَا وَالْحِفَافُ عَلَيْهَا، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْ يَتَصَوَّرُوا الْأَفْكَارَ
الْمُتَكَمِّلَةَ الَّتِي تُعَبِّرُ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ عَنْهَا، وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ
طَوَالَ حَيَاتِهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُونَ كَلِمَاتِهِمْ مِنْ أَجْلِ التَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ غَيْرِ
الثَّابِتَةِ وَالْمُضْطَرِّبَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْمِلُوا هُمْ تَثْبِيتَ أَفْكَارٍ مُحَدَّدَةٍ فِي
عُقُولِهِمْ، مُقْتَنِعِينَ بِالْكَلِمَاتِ أَنْفُسِهَا الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْآخَرُونَ كَمَا لَوْ أَنَّ
الصَّوْتَ يَعْينُهُ يَحْمِلُ مَعَهُ بِالضَّرُورَةِ الْمَعْنَى يَعْينُهُ. (وَلَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ
النَّاسَ يُمَارِسُونَ ذَلِكَ فِي أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ، إِنَّهُمْ جِئْنَ يَقْدِمُونَ
عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ) يَجْعَلُ ذَلِكَ التَّوَجُّهُ خِطَابَهُمْ مَمْلُوءًا بِوَفَرَةٍ مِنْ
الضُّوْءِ الْفَارِغَةِ وَالرُّطَانَةِ- وَلَا سِيَّما فِي الْأُمُورِ الْأَخْلَاقِيَّةِ حَيْثُ لَا يُفَكِّرُ
كَثِيرًا إِلَّا فِي الْأَصْوَابِ الْمُجَرَّدَةِ لِلْكَلِمَاتِ، أَوْ، فِي الْأَقْلَى، فِي الْأَفْكَارِ
الْمُلْحَقَةِ بِهَا الَّتِي يَلْفُهَا الْكَثِيرُ مِنَ الشُّكِّ وَالْعُمُوضِ.

إِنَّ النَّاسَ يَتَنَاوَلُونَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَجِدُونَهَا مُسْتَعْمَلَةً وَسَطَ مَنْ يُجَاوِرُونَهَا،
وَمَا لَا يَبْدُونَ جَاهِلِينَ مَا يَرْمِزُ إِلَيْهِ مِنْهَا، فَيَسْتَعْمِلُونَهَا بِثِقَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُجْهِدُوا عُقُولَهُمْ بِشَأْنِ مَعْنَى ثَابِتٍ مُعَيَّنٍ يُحَقِّقُونَ بِهِ، زِيَادَةً عَلَى سُهُولِيَّتِهِ،
فَانْدَةً أَنَّهُمْ لَمَّا نَدَّرَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى صَوَابٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْخِطَابِ نَدَّرَ أَنْ
يَقْتَنِعُوا بِأَنَّهُمْ عَلَى خَطِئٍ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِإِخْرَاجِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ
الَّذِينَ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ أَفْكَارٌ ثَابِتَةٌ مِنْ أَخْطَائِهِمْ، كَمَثَلِ طَرْدِ مُتَشَرِّدٍ لَيْسَ لَهُ
مَقَرٌّ ثَابِتٌ مِنْ مَسْكَنِهِ. هَذَا مَا أَظُنُّ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، وَفِي وَسْعِ كُلِّ شَخْصٍ أَنْ
يَلْحَظَ نَفْسَهُ أَوْ الْآخَرِينَ: الْأَمْرُ كَذَلِكَ مَعَهُ أَوْ مَعَهُمْ أَمْ لَا؟.

وَمَا زَالَ مُمَكِّنًا إِلَى الْيَوْمِ أَنْ نَتَّفَقَ عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ قَلِيلًا مِنَ الشُّكِّ: الْأَمْرُ
كَذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَإِذَا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى تَمْيِيزِ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ الْبَدَوِيَّةِ بِسُرِّ أَكْبَرٍ فَعَلَيْنَا
أَنْ نُمْضِيَ [137] زَمَنًا أَقَلَّ فِي مَا يَرْتَضِيهِ النَّاسُ كَثِيرًا فِي زَمَنِ الْحَاضِرِ مِنْ
التَّنْقِيبِ الْمَسْعُورِ عَنِ الْقُبُورِ التَّذْكَارِيَّةِ الْخَالِيَةِ.

وَحِينَ نَلِجُ غَايَةَ الْكَلِمَاتِ الْمَسْحُورَةِ رُبَّمَا لَا تَقْتَصِرُ قَوَاعِدُنَا التَّجْرِبِيَّةُ عَلَى
تَمْكِينِنَا مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ الْعَفَارِيتِ الشَّرِيرَةِ مِثْلِ الْخُدَعَةِ الصَّوْتِيَّةِ، وَخُدَعَةِ إِضْفَاءِ

الصِّفَةِ المَادِّيَّةِ، وَالْخُدْعَةِ الأَوْتَرَاكُوسِيَّةِ، بَلْ تُقَدِّرُنَا عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ الظُّوَاهِرِ الْغَرِيبَةِ الْمُزَعَّجَةِ الأُخْرَى الَّتِي تُمَثِّلُ الأَلْفَاظَ الْمُهِيجَةَ، والأَلْفَاظَ المُسْتَجْدِيَّةَ، والأَلْفَاظَ البَدْوِيَّةَ نَمَازِجَ لَهَا. وَتَسَمِّدُ هَذِهِ الْقَوَانِينُ مَزِيَّتَهَا مِنَ الْقَوَانِينِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ تَهْذِيبًا وَالتِّي سَبَقَ أَنْ أَشْرْنَا إِلَى فَاعِلِيَّتِهَا.

عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُتَسَاءَلُ: مَا جَدْوَى مَعْرِفَةِ طَبِيعَةِ التَّعْرِيفِ؛ أَفَلَا تَكْمُنُ الْمُشْكِلَةُ فِي الْعُثُورِ عَلَى التَّعْرِيفِ الْمُحَدَّدِ الَّذِي سَيَكُونُ نَافِعًا؟ وَثَمَّةُ إِجَابَتَانِ عَنْ ذَلِكَ. إِحْدَاهُمَا أَنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ إِنَّمَا يَكْتَسِبُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى صِيَاغَةِ التَّعْرِيفَاتِ بِالمُمارَسَةِ، كَالْجِرَاحَةِ، وَالتَّشْخِصِ، وَالتَّلْبِخِ، وَلَكِنَّ مَعْرِفَةَ مَبَادِي تِلْكَ الصِّيَاغَةِ سَتُشْكَلُ عَوْنًا كَبِيرًا كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي هَذِهِ الْفُنُونِ. وَالإِجَابَةُ الأُخْرَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ لِلْمَبَادِي الْعَامَّةِ تَجْعَلُ أَيَّةَ مَهَارَةٍ مُكْتَسَبَةٍ فِي أَثْنَاءِ الدِّرَاسَةِ الْخَاصَّةِ لِأَحَدِ الْمَيَادِينِ مُتَاحَةً حَالًا حِينَ نَقْدِمُ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ مَيَادِينٍ أُخْرَى لَكِنَّهَا مُشَابِهَةٌ. وَتَظْهَرُ الأنْمَاطُ أَنْفُسُهَا لِلْعَلَاقَاتِ التَّعْرِيفِيَّةِ فِي جَمِيعِ مَوْضُوعَاتِ النِّقَاشِ الرَّئِيسَةِ - عِلْمِ الْجَمَالِ، وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ، وَالدِّينِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالْاِقْتِصَادِ، وَعِلْمِ النَّفْسِ، وَعِلْمِ الْجَمَاعِ، وَالتَّأْرِخِ، وَلِذَا كَانَ التَّمَكُّنُ النَّظَرِيُّ فِي أَيِّ نَمِطٍ مِنْهَا كَفِيلًا بِمَنْحِ الثَّقَةِ بِمُعَالَجَةِ الأنْمَاطِ الأُخْرَى. [138]

الفصل السابع

معنى الجمال

قد ذكرنا هذا في هذا المقام على سبيل المناسبة لأظهر كم هو مهم للناس أن يعرفوا كلماتهم حين تكون نعمة مناسبة داعية إلى ذلك. ولا بد أن يكون مراد الامتناع عن فعل ذلك إلى نقص كبير في الإبداع (ولا أقول المزيد عنه)؛ ما دام التعريف هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يعرف بها المعنى المحدد للكلمات المعنوية. - لوك Locke

"إن الخلافات لتتضاعف، حتى ليحيل أن كل شيء مشكوك فيه، ثم إن هذه الخلافات لتروض، حتى ليحيل أن كل شيء غير قابل للشك. وليس العقل هو من يقوّر بالغبية وسط كل هذا الضخ، بل الفصاحة، وما من داع إلى أن يئأس أي شخص من كسب الأنصار لأكثر الفرضيات نظراً، إن كان يمتلك ما يكفي من الفن لتمثيلها بالألوان المفضلة. فالنصر لا يحرره المدججون بالسلاح الذين يجيدون استخدام الرمح والسيف، بل يحرره عازفو الجيث، وطبالو، وموسيقيوه". - هيوم Hume.

من أجل اختيار قيمة الأطروحة المتعلقة بالتعريف، المذكورة في الفصل السابق، يجدر بنا انتخاب موضوع أبدي حتى الآن تأييداً مشهوراً على مناهج التعريف. والحق أن الكثير من أذكاء الناس قد عرّفوا عن الفكر الجمالي، ولا اهتمام لهم بالبحث في طبيعة الفن أو غرضه؛ لشعورهم بضالة احتمال التوصل إلى أي استنتاج محدد. وتبدو المصادر شديدة الاختلاف في أحكامها بشأن: أي الأشياء هي الجميلة؟ وإذا ما حدث أن اتفقت كلمتها فما من وسيلة لمعرفة: ما الذي تنفق عليه؟

فَمَا حَقِيقَةُ الْمَقْصُودِ بِالْجَمَالِ؟ فالبروفيسور بوزانكيه Bosanquet والدكتور سانتيانا Santayana⁽¹⁾، والسيد كروتشة Croce وكلايف بيل Clive Bell⁽²⁾، فضلاً عن رَسْكين Ruskin⁽³⁾ وتولستوي Tolstoi⁽⁴⁾، كُلُّهُمْ، بِحَزْمِيَّتِهِ وَحِمَاسِيَّتِهِ وَقَضَافِيَّتِهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ، يَتْرُكُ اسْتِنَاجَاتِهِ غَيْرَ مُتَرَابِطَةٍ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ مَعَ [139] اسْتِنَاجَاتِ سَابِقِيهِ. وَإِنَّ أَحْكَامَ الْخُبَرَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لَيْسَتْ أَقْلُ تَعَارُضًا. لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ سَبَبٍ لَافْتِرَاضٍ أَنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ، فَمَا مِنْ دَاعٍ إِلَى اسْتِغْرَابِ الْاِئْتِقَارِ إِلَى التَّرَاوِيحِ فِي تَعْلِيْقَاتِهِمْ. وَنَحْنُ نَعَجَلُ فِي افْتِرَاضٍ أَنَّ تَشَابُهَ اللُّغَةِ يَسْتَلْزِمُ تَشَابُهَ الْأَفْكَارِ وَتَشَابُهَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُفَكِّرُ فِيهَا. لَكِنْ لِمَ لَا يُوجَدُ إِلَّا مَوْضُوعٌ بِحَيْثُ وَاحِدٌ يُسَمَّى عِلْمُ الْجَمَالِ؟ لِمَ لَا يَكُونُ ثَمَّةَ

- (1) جورج أغسطس نيكولاس رويدي سانتيانا، المعروف بجورج سانتيانا (1863-1952م). فيلسوف، وكاتب، وشاعر، وروائي. نشأ وتلقَّى تعليمه في أمريكا، وعَرَفَتْ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ أَمْرِيكِيٌّ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَمْتَلِكُ جَوَازَ سَفَرٍ إِسْبَانِيًّا وَكَانَ مُوَاطِنًا إِسْبَانِيًّا طَوَالَ حَيَاتِهِ. كَتَبَ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَعَدَّ عَلَى الْعُمُومِ أَدِيبًا أَمْرِيكِيًّا. يُعَدُّ مِنَ الْبَرَاغَمَاتِيِّينَ مَعَ زَمِيلِهِ فِي جَامِعَةِ هَارْفَرْدِ وَلِيَم جَيْنِسَ وَجُوزَايَا رُوسِ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْإِحْسَاسُ بِالْجَمَالِ، وَحَيَاةُ الْعَقْلِ. [المُتَرْجِمُ]
- (2) آرثر كلايف بيل (1881-1964م). نَاقِدٌ فَنِّيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ، يَرْتَبِطُ اسْمُهُ بِالشَّكْلِيَّةِ وَبِجَمَاعَةِ بِلْمُزِيرِغ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْمَدِينَةُ، وَالْفَنُّ، وَالْأَصْدِقَاءُ الْقَدَامَى. [المُتَرْجِمُ]
- (3) جون رَسْكين (1819-1900م). شاعر، وناقدٌ فَنِّيٌّ، ومفكِّرٌ اجْتِمَاعِيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ. لَهُ عَدَدٌ مِنَ الْمُوَلَّفَاتِ وَالْأَعْمَالِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ، وَكَانَ لِكُتَابَاتِهِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي الْعَصْرَيْنِ الْفِكْتُورِيِّ وَالْإِدُورْدِيِّ. حَازَ شُهْرَةً وَاسِعَةً بَعْدَ تَأْيِيدِهِ أَعْمَالِ تِيرْنَر، وَمُنَافَحَتِهِ عَنِ الْمَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ فِي الْفَنِّ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: الرُّسَامُونَ الْمُعَاصِرُونَ. [المُتَرْجِمُ]
- (4) ليف نيكولايفتش تولستوي، وعُرفَ أَيْضًا بِلِيُو تولستوي (1828-1910م). مِنْ عَمَالِقِ الرُّوَائِيَّةِ الرُّوسِ، وَمِنْ أَعْمَدَةِ الْأَدَبِ الرُّوسِيِّ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، وَيَمُدُّهُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ مِنْ أَكْثَرِ الرُّوَائِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. مِنْ أَشْهُرِ مُؤَلَّفَاتِهِ: (الْحَرْبُ وَالسَّلَامُ) الَّتِي يَتَنَاوَلُ مَرَاكِلَ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَيَصِفُ الْحَوَادِثَ السِّيَاسِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ فِي أُورُشَايِمَ بَيْنَ سَنَتَيْ 1805 و1820؛ وَكِتَابُ (أَنَا كَارْنِينَا) الَّتِي عَالَجَ فِيهِ قِصَاصًا اجْتِمَاعِيَّةً وَأَخْلَاقِيَّةً وَفَلَسْفِيَّةً فِي صُورَةٍ مَأسَاوِيَّةٍ غَرَامِيَّةٍ بَطْلَتُهَا أَنَا كَارْنِينَا؛ وَكِتَابُ (مَا الْفَنُّ؟) الَّتِي أَوْضَحَ فِيهِ أَنَّ الْفَنَّ يَنْبَغِي أَنْ يُوجِّهَ النَّاسَ أَخْلَاقِيًّا، وَأَنْ يُحَسِّنَ أَحْوَالَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ بَسِيطًا يُخَاطَبُ عَامَّةُ النَّاسِ. [المُتَرْجِمُ]

مَيَادِينُ مُتَعَدِّدَةٌ يُبَحِّثُ فِي كُلِّ مِنْهَا عَلَى جِدَّةٍ، سَوَاءً أَكَانَتْ مُتَرَابِطَةً أَمْ غَيْرَ مُتَرَابِطَةً؟ بَلْ إِنَّ الْأَدِيبَ لَيَرَى حَتْمًا، إِذَا مَا أُعْطِيَ الرُّمْنَ الْكَافِي، أَنَا إِذَا أَنْشَدْنَا قَوْلَ الشَّاعِرِ⁽⁵⁾:

«الْجَمَالُ هُوَ الْحَقِيقَةُ، وَالْحَقِيقَةُ هِيَ الْجَمَالُ» - هَذَا كُلُّ مَا نَعْرِفُ وَمَا نَحْتَاجُ أَنْ نَعْرِفَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،

فَلَيْسَ مِنَ الصَّرُورِيِّ أَنْ نَكُونَ مُتَحَدِّثِينَ عَنِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الْكَاتِبُ الَّذِي يَقُولُ:

"قَدْ يَظُنُّ جِلْدُ الْكَرْكَدَنِ لِمَلَاءَمَتِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ نَادِرًا مَا يُشِيرُ إِلَى الْحَيَوِيَّةِ عُدَّ أَقْلُ جَمَالًا مِنَ الْجِلْدِ الَّذِي يَعْرِضُ مَشَاهِدَ مُتَنَوِّعَةٍ لِمُرُونَةِ الْعَصَلَاتِ".
مَا السَّبَبُ الدَّاعِي إِلَى افْتِرَاضِ إِمْكَانِ صِبَاغَةِ مَذْهَبٍ جَمَالِيٍّ وَاحِدٍ يَشْتَمِلُ عَلَى كُلِّ الْأَنْوَاعِ النَّفِيسَةِ لِمَا يُسَمَّى الْأَدَبُ؟

مَعَ ذَلِكَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَبْدُو مُثِيرًا لِلِاسْتِغْرَابِ، لَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ أَقْرَبَ بِهَذِهِ الصُّعُوبَةِ بِوُضُوحٍ وَأَدْرَكَ أَهَمِّيَّتَهَا سِوَى رُوبِرْتِ بْرُوكِ Rupert Brooke⁽⁶⁾،

(5) القائل هو جون كينس (1795-1821م)، وهو شاعرٌ إنجليزيٌّ مِنْ أَهَمِّ شُعْرَاءِ الْحَرَكَةِ الرومانتيكيَّةِ الإنجليزيَّةِ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ. وَقَدْ هَوَّجَتْ أَعْمَالُهُ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ الْقَصِيرَةِ، لَكِنَّ تَأْثِيرَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي شُعْرَاءِ مِثْلِ الْفَرِيدِ تَيْنِيسَنِ كَانَ هَائِلًا. وَتُعَدُّ سِلْسِلَةُ الْقَصَائِدِ الْغِنَائِيَّةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا كِينْسُ نُحْفًا فَنِّيَّةَ الْيَوْمِ، أَمَّا رِسَالَتُهُ بِشَأْنِ نَظَرِيَّتِهِ الْجَمَالِيَّةِ فِي الْقُدْرَةِ السَّلْبِيَّةِ، أَيْ قُدْرَةِ الْفَرْدِ عَلَى التَّصَوُّرِ وَالتَّفَكُّيرِ وَالْعَمَلِ خَارِجَ نِطَاقِ أَيِّ افْتِرَاضٍ قَبْلِيِّ لِقُدْرَةِ الْإِنْسَانِ الْمُحَدَّدَةِ سَلْفًا، فَتُعَدُّ أَكْثَرَ الرِّسَالَةِ الْمُحَقَّقَةِ بِهَا. [المُتَرَجِّم]

(6) رُوبِرْتُ تَشَوْتِرْ بْرُوكِ (1887-1915م). شَاعِرٌ إنجليزيٌّ مِنْ شُعْرَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى. مَاتَ مُبَكَّرًا وَهُوَ فِي الثَّامِنَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عُمرِهِ، فَصَارَ رَمَزًا لِلشُّبَابِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي الْحَرْبِ. اشتهر بِقَصَائِدِ الْحَرْبِ الَّتِي كَانَ أَهْمُهَا مَا جَاءَ فِي دِيَوَانِهِ (1914) وَقَصَائِدُ أُخْرَى الَّذِي نُشِرَ بَعْدَ مَوْتِهِ سَنَةَ 1915. وَقَدْ انْتَصَفَتْ تِلْكَ الْقَصَائِدُ الْإِبْدَاعِيَّةُ الرُّومَانْسِيَّةُ بِالْمَثَالِيَّةِ فِي رُؤْيَيْهَا أَنَّ الْحَرْبَ تَطْهِيرٌ لِلنَّفْسِ وَأَنَّ الْقِتَالَ وَالْمَوْتَ هُمَا الْمَوْتُ الْمَشْرُوفُ دَفْعًا عَنِ الْوَطَنِ. وَتُعَدُّ قَصِيدَتَاهُ (الْجُنْدِيَّةُ) وَالْعَاشِقُ الْكَبِيرُ أَفْضَلَ مِثَالَيْنِ لِهَذِهِ الرُّوحِ الرُّومَانْسِيَّةِ. =

إذ يقول⁽⁷⁾: "إنَّ أَحَدَ الْمَحَازِيرِ الَّتِي تَعْرِضُ لِمَنْ يَتَسَاءَلُونَ بِقَوْلِهِمْ: مَا الْفَنُّ؟ هُوَ مِثْلُهُمْ، شَأْنُهُمْ فِي ذَلِكَ شَأْنُ جَمِيعِ النَّاسِ، إِلَى الْعُثُورِ عَلَى مَا يَبْحَثُونَ عَنْهُ: الصِّفَةِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي الْفَنِّ... وَالَّذِينَ يَبْدَوُونَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مُعَرَّضُونَ لِأَنْ يَكُونُوا مَصْدَرُ إِزْعَاجٍ لَا يَحْتَمِلُ لِلنَّقَادِ وَالْفَنَّائِينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ... إِذْ إِنَّ هَذِهِ أَسْوَأُ طَرِيقَةٍ مِنْ بَيْنِ مَا هُوَ خَطَأٌ مِنْ طَرَائِقِ مُقَارَبَةِ مَوْضُوعِ 'الْفَنِّ' أَوْ حَتَّى أَيْ مِنْ أَنْوَاعِهِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهَا أَكْثَرُ الطَّرَائِقِ ضَرَرًا". وَيُوَصِلُ حَدِيثَهُ لِيُبَيِّنَ كَيْفَ "بَدَأُ كَرُوتَشَةُ بِسَدَاجَةِ إِلَى حَدِّ مَا بِمَا لَحِظَهُ مِنْ أَنَّ 'الْجَمَالِيَّ' اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ مِنْ مَسَائِلِ الْفَنِّ وَفِي الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. ثُمَّ انْطَلَقَ لِيَكْتَشِفَ الْمَعْنَى الَّذِي يَنْطَوِي عَلَيْهِ حَقًّا اسْتِعْمَالُهُ فِي كُلِّهِمَا. وَجَعَلَ [140] الشَّرْطَ الضَّرُورِيَّ الْوَحِيدَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَقْبَلَ بِهِ الْإِجَابَةُ الصَّحِيحَةُ بِشَأْنِ 'عِلْمِ الْجَمَالِ' هُوَ أَنْ تُفَسَّرَ كَيْفِيَّةً اسْتِمَالِهِ عَلَى كُلِّ مِنْ الْفَنِّ وَالْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. فَإِذَا قَدْ وَجَدَ هَذَا التَّفْسِيرَ، أَحْسَنَ بِالْإِطْمِنَانِ وَالرِّضَا". إِنَّ وَعْيَ الْمَحَازِيرِ اللَّغَوِيَّةِ الْحَيَوِيِّ الَّذِي مَكَّنَ رُوبَرْتِ بْرُوكَ مِنْ تَجَاوُزِ كَرُوتَشَةَ بِحِكْمَةٍ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي أَتَاحَ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَسْتَبِينَ نَقْطَةَ الضَّعْفِ فِي مَنَظُومَةِ الْبْرُوفيسُورِ مُورِ G. E. Moore⁽⁸⁾، وَأَنْ يُقَاوِمَ كَذَلِكَ الْمَنْطِقَ الْعَنِيدَ لِوَاقِعِييِّ كِيمْبِرِج، حِينَ كَانُوا فِي أَوْجِ تَأْثِيرِهِمْ آنَ ذَاكَ. وَيَقُولُ: "يَبْدُو لِي، مِنَ النَّاحِيَةِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ، أَنَّهُمْ مُحَكَّمُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِخْفَاقِ مِنْذُ الْبَدَايَةِ؛ ذَلِكَ بِأَنِّي، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، لَا أَقِرُّ بِدَعَاوَى كُلِّ مَنْ يَقُولُ: 'الْجَمَالُ مَوْجُودٌ لِأَنَّ الْمَرْءَ حِينَ يَقُولُ: "هَذَا جَمِيلٌ" لَا يَعْنِي أَنَّ "هَذَا مُحَبَّبٌ إِلَى النَّفْسِ"...' فَأَنَا غَيْرُ مُعْنِيٍّ بِمَا قَدْ يَغْنِيهِ النَّاسُ. إِذْ إِنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَعْنُونَ، وَعَنَوْا، أَكْثَرَ الْأَشْيَاءِ إِثَارَةً لِلذُّهُولِ. وَقَدْ يَكُونُ صَحِيحًا أَنَّ النَّاسَ حِينَ

= وَمِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ الشَّرِيَّةِ كِتَابُ (جون ويبستر والمسرح الإليزابيثي). [المترجم]

(7) فِي كِتَابِهِ (جون ويبستر والمسرح الإليزابيثي)، وَجَمِيعُ الْاِقْتِسَاسَاتِ الْقَامَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا الشَّاعِرِ مَصْدَرُهَا هَذَا الْكِتَابُ. [المترجم]

(8) جُورْجُ إِدْوَرْدُ مُورِ (1873-1958م). فِيلَسُوفٌ بَرِيطَانِيٌّ أَثَّرَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْفَلَسَافَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ الْمَعَاصِرِينَ. دَافَعَ عَنْ مَفَاهِيمِ الْفَهْمِ الْمُشْتَرَكِ، وَشَجَّعَ عَلَى دَرَسَةِ اللُّغَةِ الْاِعْتِيََادِيَّةِ بِوَصْفِهَا أَدَاةً لِلْفَلَسَفَةِ. وُلِدَ فِي لَنْدَنِ، وَكَانَ مُدَرِّسًا لِلْفَلَسَفَةِ فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِج، وَمُحَرِّرًا لِدَوْرِيَّةِ Mind الْفَلَسَفِيَّةِ مُدَّةَ ثَلَاثِينَ عَامًا تَقْرِيبًا. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ: مَبَادِئُ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَدِفَاعٌ عَنِ الْفَهْمِ الْمُشْتَرَكِ. [المترجم]

يَقُولُونَ: 'هَذَا جَمِيلٌ'، لَا يَعْنُونَ أَنَّ 'هَذَا مُحَبَّبٌ إِلَى النَّفْسِ'، فَقَدْ يَعْنُونَ أَنَّ الانْفِعَالَ الْجَمَالِيَّ مَوْجُودٌ. وَالتَّعْقِيبَانِ الْوَحِيدَانِ لَدَيَّ هُمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الانْفِعَالِ الْجَمَالِيِّ، وَأَنْتَهُمْ، فِي الْحَقِيقَةِ، مُخْطِئُونَ⁽⁹⁾.

وَتَعَاظِفُهُ الشَّخْصِيَّةُ، عَلَى مَا يَبْدُو فِي الْكِتَابِ الَّذِي نَقَّشْتُ مِنْهُ فِي الْأَقْلَ، إِنَّمَا هُوَ مَعَ وَجْهَاتِ النَّظَرِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي النَّمِطِ الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الْقَائِمَةِ الَّتِي سَتَذْكُرُ لَاحِقًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ مَنَحَ الْأَمْرَ حَقَّهُ مِنْ إِنْعَامِ النَّظَرِ، وَلَمْ تَتَّخِ لَهُ فُرْصَةً مُتَابِعَةً مَا وَعَدَتْ بِهِ مُقَارَبَتُهُ الرَّائِعَةَ.

وَكُلَّمَا مَرَرْنَا بِتَجَرِبَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ تُوسَمَ بِأَنَّهَا 'جَمَالِيَّةٌ'، أَيْ كُلَّمَا اسْتَمْتَعْنَا، أَوْ تَأَمَّلْنَا، أَوْ أَكْبَرْنَا مَوْضُوعًا أَوْ أَعْجَبْنَا بِهِ، فَتَمَّةُ أَجْزَاءِ لِلْحَالَةِ وَاضِحَةٌ الْاِخْتِلَافِ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ تَأْكِيدٍ. وَبِإِنتِخَابِنَا أَحَدَ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ أَوْ غَيْرَهُ نَطْوُرُ أَحَدَ الْمَذَاهِبِ الْجَمَالِيَّةِ الرَّئِيسَةِ أَوْ غَيْرَهُ. وَالْحَقُّ أَنَا بِإِخْتِيَارِنَا هَذَا نَكُونُ قَدْ [141] قَرَّرْنَا: أَيْ نَمِطُ رَئِيسٍ لِلتَّعْرِيفِ نَسْتَحْدِثُ؟ وَهَكَذَا يُمَكِّنُ أَنْ نَبْدَأَ مَعَ الْمَوْضُوعِ نَفْسِهِ، أَوْ مَعَ أَشْيَاءٍ أُخْرَى يَرْتَبِطُ بِهَا مِثْلُ الطَّبِيعَةِ، أَوْ الْعَبَرِيَّةِ، أَوْ الْكَمَالِ، أَوْ الْمِثَالِ، أَوْ الصُّدْقِ، أَوْ مَعَ آثَارِهَا فِينَا. يُمَكِّنُنَا أَنْ نَبْدَأَ مِنْ حَيْثُ نَشَاءُ، فَالْأَمْرُ الْمُهِمُّ هُوَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ وَنَكُونَ وَاضِحًا لَدَيْنَا: أَيْ هَذِهِ الْمُقَارِبَاتِ نَسْلُكُ؟ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ اخْتَرْنَا أَحَدَ الْمَجَالَاتِ فَإِنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي نَتَعَامَلُ مَعَهَا، الْمَرَاجِعَ الَّتِي نُحِيلُ عَلَيْهَا، لَنْ تَكُونَ، فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، الْمَوْضُوعَاتِ أَنْفُسَهَا فِي غَيْرِهِ. وَالْقَلِيلُ مِنَ الْأَشْخَاصِ مَنْ تُهْمُهُ الْمَجَالَاتُ كَافَّةً عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، لَكِنَّ بَعْضَ الْإِلْمَامِ بِهَا يَجْعَلُ، فِي الْأَقْلَ، اهْتِمَامَاتِ النَّاسِ أَكْثَرَ وَضُوحًا، وَالتَّقَاشُ مَعَهُمْ أَكْثَرَ نَفْعًا. إِنَّ الْاِخْتِلَافَاتِ فِي الرَّأْيِ وَالْاِخْتِلَافَاتِ فِي الْاهْتِمَامِ بِهِذِهِ الْأُمُورِ شَدِيدَةُ التَّرَابُطِ، لَكِنَّ آيَةَ مُحَاوَلَةٍ لِتَكُونِ قَرَضِيَّةً عَامَّةً، قَدْ تَكُونُ سَابِقَةً لِأَوَانِهَا فِي

John Webster and the Elizabethan Drama, pp. 1-7.

(9)

وَمِنِ الْوَاضِحِ أَنَّ رُوبَرْتِ بَرُوكَ لَمْ يَقْهَمْ أَنَّ الْحُجَّةَ، وَقَدْ قُنِذَتْ هُنَا، أَذِنَتْ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى الْبَقَاءِ لَا عَلَى الْوُجُودِ. عَلَى أَنَّ الْفَهْمَ الْمَشْتَرَكَ يُفْلِحُ أحيانًا حَيْثُ يُخْفِقُ الذِّكَاءُ الْمُنْطَلِقِي فِي تَحْقِيقِ غَايَتِهِ.

الوقت الحاضر، يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ بِفَكَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ.

وَعَلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَبَيَّنَ بِشَأْنِ مَنَهَجِ التَّعْرِيفِ الَّذِي نَسْتَخْدِمُهُ. وَفِي جَدُولِ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي بَيَّانٌ لِمَجَالِ الْمَنَاهِجِ النَّافِعَةِ، الَّتِي يُمَثِّلُ مُعْظَمُهَا مَذَاهِبَ تَقْلِيدِيَّةٍ فِي التَّعْرِيفِ، فِي حِينٍ يَجْعَلُ غَيْرُهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ قَبْلَ تَأْكِيدِهِ، الْمُعَالَجَةُ مُتَكَامِلَةٌ تَقْرِيبًا. وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ اسْتِعْمَالَاتِ 'الْجَمِيلِ' الْمُجْدُولَةُ هُنَا لَيْسَتْ كَامِلَةٌ التَّحْدِيدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَيُمْكِنُ أَيَّ تَعْرِيفٍ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا إِذَا مَكَّنَ الْقَارِئُ الذَّكِيَّ مِنْ تَعْيِينِ الْإِحَالَةِ الْمَعْنِيَّةِ. وَلَوْ تَوَخَّيْنَا الصِّيَاغَةَ التَّامَّةَ فِي أَيِّ مِنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ لَاسْتَلْزَمَتْ حَيْزًا أَكْبَرَ وَأَظْهَرَتْ أَنَّ مَجَالَ الْجَمِيلِ فِي بَعْضِهَا أَكْثَرُ امْتِدَادًا مِنْهُ فِي الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ، فِي حِينٍ أَنَّ بَعْضَ التَّقْيِيدَاتِ، كِتْلِكَ الَّتِي تَسْتَبْعِدُ الشَّرْطَةَ مِنَ التَّمْطِ الثَّامِنِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِ الْقَارِئِ فِي الْحَالِ.

1. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَمْتَلِكُ صِفَةَ الْجَمَالِ الْبَسِيطَةِ.
2. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَكُونُ لَهُ شَكْلٌ مُحَدَّدٌ. [142]
3. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَكُونُ مُحَاكَاةً لِلطَّبِيعَةِ.
4. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَنْشَأُ مِنْ اسْتِغْلَالِ نَاجِحٍ لَوْسِطٍ مَا.
5. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَكُونُ نِتَاجًا لِعَبْرِيَّةٍ.
6. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُظْهَرُ (أ) الصُّدْقُ، وَ(ب) رُوحَ الطَّبِيعَةِ، وَ(ت) الْمِثَالِ، وَ(ث) الثَّمُولِ، وَ(ج) التَّمْطِ.
7. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُؤَلَّدُ الْوَهْمُ.
8. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُؤَدِّي إِلَى نَتَائِجِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَرْغُوبٍ فِيهَا.
9. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَكُونُ تَعْبِيرًا.
10. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُسَبِّبُ الْبَهْجَةَ.
11. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُثِيرُ الْعَوَاطِفَ.
12. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يُعَزِّزُ عَاطِفَةً مُحَدَّدَةً.
13. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا - حِينَ يَتَضَمَّنُ عَمَلِيَّاتِ الْمُشَارَكَةِ الْوَجْدَانِيَّةِ.

14. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا- حِينَ يَزِيدُ الْحَيَوِيَّةَ.
15. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا- حِينَ يَجْعَلُنَا عَلَى تَمَاسٍّ مَعَ شَخْصِيَّاتٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ.
16. يَكُونُ الشَّيْءُ جَمِيلًا- حِينَ يُحْدِثُ انْسِجَامًا بَيْنَ الْبَوَائِعِ الْمُخْتَلِفَةِ
- Synaesthesia⁽¹⁰⁾.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُلَحَظَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ يُمَثِّلُ وَاحِدَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْعِلَاقَاتِ التَّعْرِيفِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي نَاقَشْنَاهَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ. وَهَكَذَا، فَتَعْرِيفَاتُ الْمَجْمُوعَةِ C، أَيْ التَّعْرِيفَاتُ الْمَحْصُورَةُ بَيْنَ 10-16، كُلُّهَا مَضُوعَةٌ مِنْ زَاوِيَةِ تَأْثِيرَاتِ الْأَشْيَاءِ فِي الشُّعُورِ، وَكَذَلِكَ حَالَاتُ التَّنْمِطِ السَّابِعِ. أَمَّا تَعْرِيفُ الْمَجْمُوعَةِ A، فَأَوَّلُهُمَا، أَيْ التَّنْمِطُ الْأَوَّلُ، يُمَثِّلُ حَالَةً تَسْمِيَّةً بَسِيطَةً. إِذْ نُسَلِّمُ بِصِفَةِ هِيَ الْجَمَالِ، فَتُسَمِّيْهَا، ثُمَّ نَكِلُ مُهِمَّةَ تَعْيِينِ هَذَا الْمَرْجِعِ الْخُرَافِيِّ إِلَى الْفَاعِلِيَّةِ السَّحَرِيَّةِ لِلْإِسْمِ الَّتِي اخْتَرْنَاهُ. وَالْحَقُّ أَنَّ بَحْثَ [143] الْجَمِيلِ مِنْ زَاوِيَةِ صِفَةِ جَوْهَرِيَّةٍ هِيَ الْجَمَالِ مِثَالُ مُتَنَازِلِ رُسُوحِ الْخُرَافَاتِ الْكَلِمِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ، وَلِلْمُجَازَفَاتِ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا أَيْ يَقَاشِ غَيْرَ مُمَحَّصٍ رَمَازِيًّا. أَمَّا التَّعْرِيفُ الثَّانِي، بِالشَّكْلِ، فَلَمَّا أَنْ يَكُونُ مَكَانِيًّا وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ زَمَانِيًّا، بِحَسَبِ الْفَنِّ الَّذِي يُطَبَّقُ عَلَيْهِ. فَإِنْ وَجَدْتَ آيَةً عِلَاقَةً أُخْرَى سِوَى هَاتَيْنِ الْعِلَاقَتَيْنِ فِي آيَةٍ مُنَاسِبَةٍ فَسَنَجِدُ عِنْدَ الْإِخْتِيَارِ أَنَّ التَّعْرِيفَ قَدْ غَيَّرَتْ نَقْطَةُ انْطِلَاقِهِ خِلَاسَةً وَأَصْبَحَ سَايَكُولُوجِيًّا حَقِيقَةً، وَهُوَ تَغْيِيرُ يَحْدُثُ بِسُهُولَةٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ مِنْ غَيْرِ أَيْ تَغْيِيرٍ فِي التَّرْمِيزِ ظَاهِرٍ فِي الْحَالِ. مِثَالُ صَارِخٍ عَلَى ذَلِكَ اسْتِعْمَالُ كَلِمَةِ 'عَظِيمٍ' فِي النِّقْدِ الْأَدْبِيِّ وَالْفَنِّي، إِذْ يُظْهِرُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ، أَيْ التَّحَوُّلَ، مِنْ غَيْرِ إِشَارَةٍ رَمَازِيَّةٍ، مِنْ 'الْمَوْضُوعِيِّ' إِلَى 'الذَّاتِيِّ'، عَلَى مَا جَرَتْ الْعَادَةُ فِي تَسْمِيَّتِهِمَا.

(10) يُمَكِّنُ الْوُقُوفُ عَلَى مُنَاقَشَةِ مُسْتَقْبَضَةِ لُوجِهَاتِ النَّظَرِ الْمُعَرَّفَةِ بِهَذِهِ الطَّرَاقِ فِي كِتَابِ أُسُسِ عِلْمِ الْجَمَالِ *The foundations of Aesthetics* لِمُؤَلِّفِي هَذَا الْكِتَابِ وَالسَّيِّدِ جِيمْسِ وُودِ James Wood (1921)، وَالطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ (1926)، وَعَلَى سَرْدٍ لِأَجْرِ الْأَعْمَالِ فِي ضَوْءِ التَّصْنِيفِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ فِي الْمَتْنِ فِي الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ *Encyclopedia Britannica*، الطَّبْعَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ، الْأَجْزَاءُ الْجَدِيدَةُ (1926)، مَادَّةُ 'عِلْمِ الْجَمَالِ'.

أما تعريفات المجموعة B فكلُّها مُعَقَّدٌ تَقْرِيْبًا .

ومن الواضِحِ أَنَّ كَلًّا مِنَ الْمُحَاكَاةِ (3)، والاستِغْلَالِ (4)، أي التَّعْرِيفِ بِالْإِحَالَةِ عَلَى قُدْرَاتِ الْوَسْطِ، مُرَكَّبٌ مِنْ عِلَاقَاتِ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمُشَاهَبَةِ، وَالْإِدْرَاكِ، وَالرَّغْبَةِ. فَالْحَقُّ أَنَّ التَّعْرِيفَ الْمُتَعَلِّقَ بِالْإِسْتِغْلَالِ خَيْرٌ مِثَالٌ يُمَكِّنُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ لِتَعْرِيفِ مُعَقَّدٍ يَسْهُلُ فَهْمُهُ بِصِغَتِهِ الْإِخْرَازِيَّةِ الْمَكْتَفَةِ، وَيَضَعُبُ تَحْلِيلَهُ أَوْ يَسْتَحِيلُ. عَلَى أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ قَدْ يُعْرَوْنَ بِالتَّسْلِيمِ بِمَزِيَّةٍ خَاصَّةٍ هِيَ الْإِسْتِغْلَالُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ عُقُوبَاتٍ، عَلَيْنَا أَنْ نَدْفَعُ ثَمَنَهَا بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفْنَاهُ مِنْ اخْتِصَارَاتٍ فِي تَرْمِيزِنَا .

وَتَقْدُمُ التَّعْرِيفَاتُ الْآخَرَى فِي الْمَجْمُوعَةِ B مُشْكِلَاتٍ مُشَابِهَةً فِي التَّحْلِيلِ. إِنَّ الدَّرَجَةَ الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا مَسَالِكُ التَّمْطِ الثَّامِنِ، أَوِ الْمَوَاقِفُ الْعَقْلِيَّةُ الْإِعْتِقَادِيَّةُ (التَّعْرِيفَاتِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ)، أَوِ الْإِسْتِحْسَانِيَّةُ (التَّعْرِيفِ الثَّامِنِ)، سِمَةٌ لَا فِتَّةَ لِلنَّظَرِ، وَهِيَ تُعَيِّنُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى تَفْسِيرِ مَبْلٍ وَجِهَاتٍ نَظَرٍ كَهَذِهِ إِلَى أَنْ تُصْبِحَ سَايَكُولُوجِيَّةً (الْمَجْمُوعَةُ C). وَهَكَذَا، يَمِيلُ التَّعْرِيفُ السَّادِسُ عَشَرَ إِلَى أَنْ يَشْغَلَ مَوْقِعَ التَّعْرِيفِ السَّادِسِ وَيَحُلَّ مَحَلَّهُ، أَمَّا التَّعْرِيفُ الْخَامِسُ عَشَرَ ذُو الشَّكْلِ الْوَاضِحِ الْمُهَذَّبِ فَكَثِيرًا مَا يَحُلُّ مَحَلَّ التَّعْرِيفِ الْخَامِسِ. وَهَذِهِ الْإِخْتِلَافَاتُ فِي الْإِحَالَةِ، حَتَّى فِي التَّعْرِيفَاتِ ذَاتِ [144] الرُّمُوزِ الْمُعَدَّةِ بِخَاصَّةٍ لِيَضْبُطَ مِثْلُ هَذَا التَّحْوِيلِ، تُعَيِّنُ عَلَى تَذَكِيرِنَا بِالْأَهْمِيَّةِ الْكُبْرَى لِلْقَانُونِ الرَّابِعِ فِي جَمِيعِ النِّقَاشَاتِ. وَلَا تَكْمُنُ فَائِدَةُ وُجُودِ نَظَرِيَّةٍ رَمَزِيَّةٍ لِلتَّعْرِيفِ فِي أَيِّ ضَمَانٍ لِمُقَاوَمَةِ اللَّبْسِ يُمَكِّنُهَا أَنْ تُقَدِّمَهُ، بَلْ فِي الْبَصِيرَةِ الَّتِي تَمْنَحُنَا إِتَاهَا، مَا دُمْنَا نَسْتَعْمِلُ الرُّمُوزَ، بِشَأْنِ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ، وَفِي مَا تُهَيِّئُهُ مِنْ وَسِيلَةٍ اسْتِبانَةٍ وَتَصْحِيحٍ لِتِلْكَ التَّجَوُّلَاتِ غَيْرِ الْإِرَادِيَّةِ لِلْإِحَالَةِ الَّتِي لَا يَسْلُمُ أَيُّ خُطَابٍ مِنْ حُدُوثِهَا فِيهِ .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ 'نِقَاطَ الْإِنْطِلَاقِ' فِي التَّعْرِيفَاتِ الْمَذْكُورَةِ آفَنًا، أَيْ انْسِجَامَ الْبَوَاعِثِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْعَاطِفَةِ الْمُحَدَّدَةِ، وَالنَّاتِجِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمَرْغُوبِ فِيهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، إِنَّمَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا هِيَ أَنْفُسُهَا بِعَمَلِيَّاتٍ تَعْرِيفٍ مُعَقَّدَةٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَغْرَاضٍ مَخْصُوصَةٍ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تَعْرِيفَاتُ 'الْجَمِيلِ' قَدْ صِيغَتْ لَهَا يُمَكِّنُ

افتراض أن نفاظ الانطلاق هذه مُتَّفَقٌ عليها، وأنَّ المَنَاهِجَ التي يُمكنُ أن يُضَمَّنَ بها اتفاقٌ كهذا هي أنفُسُها التي تُستَعْمَلُ معَ 'العاطفة' و'المُتعة'، كما تُستَعْمَلُ معَ 'الجميل' نفسه.

كذلك يُمكنُ أن نَنطَلِقَ من هذه التَّعْرِيفَاتِ أو من أيٍّ منها إلى الألفاظِ المُقَارِبَةِ (القُبْح، والحُسْن، والتَّسامي) أو التي تَتَّصِلُ بِهَا بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى (الفَن، والزُّخْرَفُ الجَمَالِي)، ومن أجلِ تَعْرِيفِ هذه الألفاظِ هي أيضًا يُمكنُ أن نَتَّخِذَ بَعْضَ المَيَادِينِ المُعَيَّنَةِ الآنَ لِلجَمِيلِ نِقاظَ انطِلاقٍ لَهَا ثُمَّ نَقُولَ: - عِلْمُ الجَمَالِ هوَ دِرَاسَةُ الجَمِيلِ، أو: - الفَنُّ هوَ المُحاوَلَةُ المَزْعُومَةُ لِإنتاجِ الجَمَالِ، أو قد نَرْجِعُ إلى نُقْطَةِ انطِلاقِنَا لِتَعْرِيفِ الجَمَالِ فنَقْصُرُ تَوْجِيهَ بَوْصَلَتِنَا عَلَيْهِ.

إنَّ المَيَادِينَ المُشارَ إليها في التَّعْرِيفَاتِ المذكورةَ آنفاً قد تكونُ في بَعْضِ الحالاتِ مُتساويةً الامتداد، كما في التَّعْرِيفَيْنِ الخَامِسِ والخَامِسَ عَشَرَ، أو قد تَتَدَاخَلُ جُزْئِيًّا، كما في التَّعْرِيفَيْنِ العَاشِرِ والثَّالِثَ عَشَرَ، أو قد تكونُ مُتَمَانِعَةً، وهذه حَالَةٌ لا تُدرِكُ هُنَا ولا في آيَةٍ دِرَاسَةٍ مُحْتَمَلَةٍ. وما يُقَرَّرُ تَسَاوِيَّ امتدادِ اثْنَيْنِ من هذه المَيَادِينِ، أو تَدَاخُلَهُمَا، أو تَمَانُعُهُمَا هوَ البَحْثُ المُفْصَّلُ في المَرَاجِعِ المُنْصَوِيَّةِ في المَيَادِينِ. والْحَقُّ أَنَّ مَدِيَّاتِ التَّدَاخُلِ بَيْنَ المَيَادِينِ تُولِّدُ المُشْكِلَاتِ الخاصَّةَ لِلْعُلُومِ التَّجْرِبِيَّةِ. وهكذا نَجِدُ، علي سبيلِ المِثَالِ، [145] أَنَّ الأشياءَ الجَمِيلَةَ المُعَرَّفَةَ بِوصفِها مُحَاكِياتِ لِلطَّبِيعَةِ (التَّعْرِيفُ الثَّالِثُ) لا تَتَطَابَقُ إِلَّا معَ الأشياءِ الجَمِيلَةِ المُعَرَّفَةِ بِوصفِها مُوَلَّدَاتِ لِلوَهْمِ (التَّعْرِيفُ السَّابِعُ)، بِشُروطِ صَارِمَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُوجَدُ من بَيْنِها شَرَطٌ لا يَكُونُ كذلكِ مُتَضَمِّنًا في مَدَى التَّعْرِيفِ الرَّابِعِ. إنَّ البَحْثَ في هذه الارتِباطَاتِ والشُّروطِ التي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا هوَ مُهِمَّةٌ عِلْمِ الجَمَالِ بِوصفِهِ عِلْمًا.

إنَّ أَفْضَلِيَّةَ الشَّكْلِ التَّوَسِيعِيِّ نَحْوِيًّا في التَّعْرِيفَاتِ تَكْمُنُ في أَنَّ الرُّمُوزَ التي نَسْتَعْمِلُهَا، بِصِيَاغَتِهَا على هذا النِّحْوِ، هي أَقَلُّ الرُّمُوزِ اِحْتِمَالًا لِإِبْهَامِ المُفْرَزَاتِ الحَاصِلَةِ، بِتَحْوِيلِ مَسَائِلَ تَدَوَّرَ حَوْلَ أُمُورٍ عَمَلِيَّةٍ إلى أَلْغَازٍ مُحِيرَةٍ تَتَعَلَّقُ بِرَبْطِ التَّعْبِيرَاتِ.

وَيُمْكِنُ تَوْجِيهَ الْعِنَايَةِ إِلَى جَمِيعِ مَا طَالَتُهُ هَذِهِ الْمُقَارِبَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنْ مَيَادِينٍ، وَمُعْظَمُهَا مُقْتَرَنٌ بِأَسْمَاءٍ لَامِعَةٍ فِي فَلْسَفَةِ الْقُرْنِ.

فَلْتَفَتَرِضْ، إِذَنْ، أَنَا انْتَحَبْنَا أَحَدَ هَذِهِ الْمَيَادِينِ وَرَعَيْنَاهُ بِكُلِّ مَا أَوْتَيْنَا مِنْ طَاقَةٍ، فَمَا دَوَاعِي انْتِخَابِنَا إِيَّاهُ دُونَ غَيْرِهِ؟ ذَلِكَ بِأَنَّا قَدْ نَفَعُ فِي الْخَطِّ إِنْ قَارَبْنَا الْمَوْضُوعَ بِرُوحِيَّةٍ زَائِرٍ حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَكُونُ فِي دَاخِلِ سِيَاحٍ مُعَيَّنٍ هِيَ مِنَ 'الرَّوَاجِفِ'، فَيَبْحَثُ، بِسَبَبِ ذَلِكَ، عَنِ الْخَاصِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الرَّوَاجِفَ يَوْصِفُهَا مَجْمُوعَةً تَنَمَّازُ مِنَ الْأَسْمَاكِ فِي حَوْضِهَا الْمَائِيِّ. مِثَالُ مُشَابِهٍ لِذَلِكَ: أَنَا نَدْخُلُ بَرْلِنغْتِن هَاؤُسَ Burlington House⁽¹¹⁾ مُفْتَرِضِينَ أَنَّ كُلَّ مَا جُمِعَ فِيهِ جَمِيلٌ، فَتُحَاوَلُ، عَلَى النُّحُوِّ نَفْسِهِ، أَنْ تُنْشِئَ خَاصِيَّةً مُشْتَرَكَةً. وَقَلِيلٌ مِنَ التَّأَمُّلِ فِي كَيْفِيَّةِ وَصُولِهَا إِلَى هُنَاكَ رُبَّمَا كَانَ سَيُثِيرُ شُكوكًا حَقِيقِيَّةً بِشَأْنِ مَا نَحْنُ بِصَدْدِهِ، لَكِنْ إِنْ أَضْرَرْنَا، مُتَابِعِينَ فِي ذَلِكَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُخْتَصِّصِينَ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ، فَقَدْ نَفْلِحُ حَتَّى فِي جَعْلِ اكْتِشَافِنَا لِخَاصِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ ذَاتِ صِلَةٍ يَدُو مَقْبُولًا.

قَدْ رَأَيْنَا فِي مَا سَبَقَ (ص 218-219) كَمْ هِيَ وَاسِعَةُ حُرِّيَّةُ التَّجَوُّلِ لِكَلِمَةٍ مُهَذَّبَةٍ مِثْلِ 'حَسَنٍ'، وَثَمَّةُ أَسْبَابٍ وَجِيهَةٍ لَافْتِرَاضِ أَنَّ كَلِمَةَ 'جَمَالٍ' لَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ إِخْلَاصًا لِنَوَاحِ إِحَالَةِ مَخْصُوصَةٍ وَاحِدَةٍ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ يَجِبُ دَوْمًا أَلَّا يَغِيبَ عَنَّا فِي النُّقَاشِ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي وُجُودِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الطَّرَاقِقِ الَّتِي يُمَكِّنُ [146] أَنْ يَكْتَسِبَ الرَّمْزُ بِهَا اسْتِعْمَالَاتٍ ثَانَوِيَّةً؛ فَأَيُّهُ مُمَازِلَةٌ وَأَيُّهُ مُشَابِهَةٌ قَدْ تَكُونَانِ سَبَبًا كَافِيًا لِحُدُوثِ تَوْشُّعٍ فِي 'الْمَعْنَى'، أَوْ تَحَوُّلٍ فِي الدَّلَالَةِ. وَلَيْسَ مَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا مِنْ أَنَّ مَا سَيَنْشَأُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ رَمَزَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ (يُنْتَظَرُ: ص 181) سَيَرْمِزُ إِلَى مَرَاجِعَ لَهَا خَاصِيَّةً مُشْتَرَكَةً ذَاتَ صِلَةٍ، بِأَكْبَرَ مِمَّا يَلْزَمُ مِنَ الْأَسْمِ الْمُشْتَرَكِ لِرُزْجَةِ أَبِي رَجُلٍ مَا وَرُزْجَةِ ابْنِهِ مِنْ أَنْ تُشَارِكَاهُ فِي وَجَعِ الْمَفَاصِلِ وَحُبِّ سِيَاحِ الْخَيْلِ.

(11) بَرْلِنغْتِن هَاؤُسَ: مَبْنَى مُجَلِّدٌ عَلَى سَاحَةِ بِيكَادِيلِي فِي لَنْدُنْ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ لَذَى عَامَّةِ النَّاسِ بِوَصْفِهِ مَكَانَ إِقَامَةِ الْمَعَارِضِ الْمُؤَقَّتَةِ لِلْأَكَادِمِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ. [الْمُتْرَجِمُ]

فَلِذَلِكَ إِنْ اسْتَعْمِلْتَ فِي النُّقَاشِ أَلْفَاظَ مِثْلُ الْجَمَالِ مِنْ أَجْلِ قِيَمَتِهَا الْإِنْفَعَالِيَّةِ، عَلَى مَا هُوَ مُعْتَادٌ، فَالتَّخْلِيضُ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةً، مَا لَمْ يُدْرَكْ دَوْمًا أَنَّ الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةَ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّعْرِيفِ، أَيْ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلإِسْتِدْالِ؛ لِعَدَمِ تَوَافُرِ كَلِمَةٍ تَحْفِيزِيَّةٍ أُخْرَى تَعْدِلُهَا تَأْثِيرًا. وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْإِسْتِعْمَالَاتِ غَيْرُ الْقَابِلَةِ لِلتَّعْرِيفِ هِيَ مَا أَدَّى كَثِيرًا إِلَى افْتِرَاضِ صِفَةٍ بَسِيطَةٍ لِلْجَمَالِ (التَّعْرِيفِ الْأَوَّلِ) لِتَفْسِيرِ الصُّعُوبَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، كَمَا افْتَرَحَ كَذَلِكَ أَنفَاً مَعَ كَلِمَةٍ حَسَنَ (ص 219). مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذَا مَا احْتَفِظَ بِلَفْظِ الْجَمَالِ بِوَصْفِهِ بَدِيلًا اخْتِرَائِيًّا، لِتَعْرِيفِ مَا وَسَطَ التَّعْرِيفَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي اسْتَخَرَجْنَاهَا، فَلَا يُمَكِّنُ تَسْوِيعُ هَذِهِ الْمُمَازَسَةِ إِلَّا بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً تُشِيرُ بِكَلِمَةٍ ذَاتِ سُلْطَةٍ إِلَى أَنَّ التَّجَرِبَةَ الْمُنتَخَبَةَ تُعَدُّ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، أَوْ اخْتِرَازًا مُتَدَنِّي الْمُسْتَوَى مُفِيدًا.

وَزِيَادَةً عَلَى تَزْوِيدِ آيَةِ أَلِيَّةٍ تَعْرِيفٍ عَامَّةٍ بِمَا يَلْزَمُهَا مِنْ حَالَةٍ اخْتِيَارٍ، قَدْ يَكُونُ النَّظَرُ فِي مُشْكَلَةِ الْجَمَالِ أَفْضَلَ مَا يُقَدَّمُ لِمَسْأَلَةِ الْوُضَائِفِ الْمُتَنَوِّعَةِ لِلُّغَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ يَكُونُ اهْتِمَامُهُمْ بِالْفَنِّ غَايَةً فِي الْمُبَاشَرَةِ كَثِيرًا مَا يَمِيلُونَ إِلَى التَّقْلِيلِ مِنْ شَأْنِ الْمُقَارَبَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِاحْتِمَالِ إِفْسَادِهَا التَّدْوُقَ. وَلَوْ قَلَّبْنَا هَذَا الرَّأْيَ عَلَى وُجُوهِهِ لِأَلْفِينَاهُ عَرَضًا نُمُوذَجِيًّا لِتَخْلِيضٍ مُتَعَلِّقٍ بِإِسْتِعْمَالَاتِ اللُّغَةِ حَاضِرٍ بِاسْتِمْرَارٍ فِي جَمِيعِ الدِّرَاسَاتِ، بِحَيْثُ سَيَكُونُ تَمْيِيزُهُ عُمُومًا وَاجِدَةً مِنْ أَهَمِّ النَّتَاجِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدِّمَهَا عِلْمُ الرَّمْزِيَّةِ.

وَلَوْ عَقَدْنَا مُوَازَنَةً بَيْنَ مَادَّةٍ نَقْدِيَّةٍ مُتَعَلِّقَةٍ [147] بِفَنٍّ مَا وَمَادَّةٍ تَعْلِيْقَاتٍ مُعْتَمَدَةٍ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ مُتَعَلِّقَةٍ، مَثَلًا، بِالْفِيزِيَاءِ أَوْ الْفِيسِيُولُوجِيَا لَصُدِمْنَا بِتَكَرُّرِ الْجُمْلِ، حَتَّى عِنْدَ أَفْضَلِ النُّقَادِ، بِمَا لَا يُمَكِّنُ فَهْمَهُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي نَجْهَدُ بِهَا لِفَهْمِ جُمْلِ الْفِيسِيُولُوجِيِّينَ. قَالَ لُونْجِنُوسُ Longinus⁽¹²⁾: «الْكَلِمَاتُ الْجَمِيلَةُ هِيَ

(12) لُونْجِنُوسُ: هُوَ الْاسْمُ الْمُسْتَعْمَلُ لِمُعَلِّمٍ إِغْرِيْقِيٍّ لِلْفَصَاحَةِ أَوْ النُّقْدِ الْأَدْبِيِّ، عَاشَ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ الْمِيلَادِيَيْنِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ فَقَطْ بِرِسَالَةِ (فِي التَّسَامِي)، وَهِيَ تُعْنَى بِتَأْثِيرِ الْكِنَايَةِ الْحَسَنَةِ، وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الرِّسَالَتِ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ. وَكَاتِبُهَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ؛ فَنَفِي مَخْطُوطَةٍ (بَارِيسِيْنُوسُ غَرِيْكُوسُ 2036) تُسَبِّتُ إِلَى دِيُونِيسِيُوسِ =

نُورَ الْعَقْلِ الْفِعْلِيُّ وَالْمُمَيَّزُ". وَيَزَى كوليرج Coleridge⁽¹³⁾ أَنَّ "على الفَنَانِ أَنْ يُحَاكِىَ مَا يَنْظُرُ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، مَا تَسْرِي فَأَعْلِيَّتُهُ فِي الشَّكْلِ وَالْمَظْهَرِ، فَيُخَاطِبُنَا بِهِ بِوَسَاطَةِ الرُّمُوزِ- رُوحِ الطَّبِيعَةِ". وَيَكْتُبُ الدُّكْتُورُ بَرَادَلِي Bradley⁽¹⁴⁾ قَائِلًا: "الشَّعْرُ رُوحٌ. لَا نَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي. لَا نَمْلِكُ أَنْ نَدْعُوهُ فَيَتَكَلَّمَ، وَلَا أَنْ يُجِيبَ بِلُغَتِنَا. لَا نَمْلِكُهُ، بَلْ يَمْلِكُنَا"⁽¹⁵⁾. وَكَانَ الدُّكْتُورُ مَكَّيْل Mackail⁽¹⁶⁾ أَكْثَرَ حِمَاسَةً، إِذْ قَالَ: "إِنَّ الشَّعْرَ، لِكُونِهِ مَادَّةٌ أَوْ طَاقَةٌ مُسْتَمِرِّينَ فِي الْأَصْلِ، حَرَكَةٌ مُتَّصِلَةٌ تَارِيخِيًّا، سِلْسِلَةٌ تَجَلِّيَّاتٍ تَكَامُلِيَّةٌ تَعَاقِبِيَّةٌ. فَكُلُّ شَاعِرٍ، بَدْءٌ مِنْ هُومِيرُوسِ Homer⁽¹⁷⁾ وَانْتِهَاءٌ بِيُومِنَا هَذَا، يُمَثِّلُ إِلَى حَدِّ مَا وَفِي نُقْطَةٍ مَا صَوَتْ حَرَكَةَ الشَّعْرِ

= أَوْ لُونَجِينُوسَ، وَقَدْ أَخْطَأَ نَاسِخٌ مِنَ الْعُصُورِ الْوُسْطَى فَذَكَرَ أَنَّهَا لِدِيُونِيسُوسِ لُونَجِينُوسِ. وَحِينَ طُبِعَتِ الرُّسَالَةُ نُسِبَتْ إِلَى قَاسِيُوسِ دِيُونِيسُوسِ لُونَجِينُوسِ (213-273م)، لَكِنَّ بَعْضَ الْمُتَرْجِمِينَ نَسَبُوا النَّصَّ إِلَى دِيُونِيسُوسِ الْأَلِيكَارَنَاسُوسِيِّ، وَهُوَ كَاتِبٌ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ بَعْدَ الْمِيلَادِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(13) صَامُوئِيلُ تَيْلَرُ كولِيرِج (1772-1834م). شَاعِرٌ، وَنَاقِدٌ إِنْجِلِيزِيٌّ، اشْتَغَلَ بِالْفَلَسَفَةِ. أَعْلَنَ مَعَ زَمِيلِهِ وَلِيمِ وَرْدْزُورْثِ بَدْءَ الْحَرَكَةِ الرُّومَانِيكِيَّةِ فِي إِنْجَلْتَرَا بِدِيُونِيسُوسِ الْمَشْتَرِكِ (قِصَاصٌ غِنَائِيَّةٌ). وَمِنْ آثَارِهِ الْأُخْرَى: قُبْلَا خَانَ، وَالسِّرَّةُ الْأَدْبِيَّةُ. [الْمُتَرْجِمُ]

(14) أَنْدَرُو سِيْسِلُ بَرَادَلِي (1851-1935م). بَاحِثٌ أَدْبِيٌّ إِنْجِلِيزِيٌّ. أَكْثَرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ مَا كَتَبَهُ عَنْ شِيكْسْبِيرِ. كَانَتْ حَصِيلُهُ عَمَلُهُ أَسْتَاذًا لِمَادَّةِ الشَّعْرِ فِي جَامِعَةِ أَوْكْسْفُورْدِ مَدَّةَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مُؤَلَّفِيهِ الرَّئِيسِينَ: التَّرَاجِيدَا الشِيكْسْبِيرِيَّةُ، وَمُحَاضَرَاتُ أَوْكْسْفُورْدِ فِي الشَّعْرِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(15) Oxford Lectures on Poetry, p. 27.

(16) جُونُ وَلِيمِ مَكَّيْلُ (1859-1945م). أَدِيبٌ، وَاشْتِرَاقِيٌّ اسْكُتْلَنْدِيٌّ. أَكْثَرُ مَا يُعْرَفُ بِهِ الْآنَ أَنَّهُ دَارِسٌ لِيَرْجِيلِ. وَكَانَ شَاعِرًا أَيْضًا، وَمُؤَرِّخًا أَدْبِيًّا. [الْمُتَرْجِمُ]

(17) هُومِيرُوسُ: شَاعِرٌ مَلْحَمِيٌّ اسْطُورِيٌّ إِغْرِيقِيٌّ، يُعْتَقَدُ أَنَّهُ مُؤَلِّفُ الْمَلْحَمَتَيْنِ الْإِغْرِيقِيَّتَيْنِ الْإِلْيَادَةِ وَالْأُدَيْسَةِ. وَقَدْ آمَنَ الْإِغْرِيقِيُّ عُمُومًا بِأَنَّهُ شَخْصِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ، لَكِنَّ الْبَاحِثِينَ الْمُحْدِثِينَ يَنْشَكِّكُونَ فِي هَذَا؛ إِذْ لَا تَوْجَدُ تَرْجُمَاتٌ مُوْتَوَقٌ بِهَا لِسِيرَتِهِ بَاقِيَةً مِنَ الْحَقِيقَةِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ. وَقَالَ هِيرُودُوتُسُ إِنَّهُ عَاشَ قَبْلَهُ بِأَرْبَعِمِئَةِ سَنَةٍ، وَهَذَا قَدْ يَعْنِي أَنَّهُ عَاشَ قَرِيبًا مِنْ سَنَةِ 850 ق.م، فِي حِينِ تَرَى مُصَادِرُ قَدِيمَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عَاشَ فِي حَقِيقَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ حَرْبِ طَرُودَاةِ الْمُفْتَرَضَةِ. وَيُعْتَقَدُ إِيْرَاتُوسْتِينِسُ الَّذِي جَاهَدَ لِإثْبَاتِ تَقْوِيمِ عِلْمِيٍّ لِأَحْدَاثِ حَرْبِ طَرُودَاةِ أَنَّهَا كَانَتْ بَيْنَ سَنَتَيْنِ 1184 وَ1194 ق.م. وَيَقُولُ الْفَرِيدُ هِيُوبِكُ: إِنَّ تَأْثِيرَ أَعْمَالِ =

وطائفة؛ فِيهِ يُصْبِحُ الشَّعْرُ فِي زَمَنِهِ مَرْتِيًا، وَمَسْمُوعًا، وَمُجَسَّدًا، وَيُمَثِّلُ مَا بَقِيَ مِنْ قَصَائِدِهِ مَا خُلِفَ لَنَا مِنْ سِجِلٍ لِذَلِكَ التَّجَسُّدِ الْجُزْنِيِّ وَالْوَقْتِيِّ... إِنَّ مَسِيرَةَ الشَّعْرِ... لِأَلَى الْخُلُودِ⁽¹⁸⁾.

وما مِنْ شَخْصٍ لَا يَرَعُبُ فِي إِضَاعَةِ وَقْتِهِ يُحَاوِلُ تَفْسِيرَ هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ مُدَّةً طَوِيلَةً بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي يُحَاوِلُ بِهَا، مَثَلًا، تَفْسِيرَ وَصْفِ لِلدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، مِنْ الْخَطِّ عَدُّهَا مِمَّا لَا يَسْتَحِقُّ الْاهْتِمَامَ. فَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهَا تَتَطَلَّبُ أُسْلُوبَ مُقَارَبَةٍ مُخْتَلِفًا. وَسَوَاءٌ أَوْعَى كُتَّابُ هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ أَمْ لَمْ يَعُوا يَتَمَيَّزُ اسْتِعْمَالُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُعَدُّ هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ نَمَازِجَ لَهُ تَمَيُّزًا كُلِّيًّا مِنَ الْاسْتِعْمَالِ الْعِلْمِيِّ. وَقَدْ تَرَدَّدَ هَذِهِ النُّقْطَةُ وَضُوحًا فِي حَالِ اسْتِعْمَالِ جُمْلٍ شِعْرِيَّةٍ فِي تَجَرِبَةٍ عِلْمِيَّةٍ. وَالْيَقِينِي فِي الْأَمْرِ أَنَّ نَمَّةَ اسْتِعْمَالٍ لِلْكَلِمَاتِ مُشْتَرَكًا وَمُهِمًّا يَخْتَلِفُ عَنْ [148] اسْتِعْمَالِهَا الْعِلْمِيِّ، أَوِ الرَّمْزِيِّ الصَّارِمِ، عَلَى مَا سَنُسَمِّيهِ.

وَلِكُلِّ عِبَارَةٍ فِي الْكَلَامِ الْيَوْمِيِّ الْعَتِيَادِيِّ عَدَدٌ مِنَ الْوِظَائِفِ لَا وَظِيفَةٍ وَاحِدَةً. وَفِي الْفَصْلِ الْأَخِيرِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ سَنُصَنِّفُ هَذِهِ الْوِظَائِفَ تَحْتَ خَمْسَةِ عُنَوَانَاتٍ، أَمَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْبَحْثِ فَلِإِنَّ الْقِسْمَةَ الثَّنَائِيَّةَ أَكْثَرُ مُلَاءَمَةً، أَيْ الْقِسْمَةَ عَلَى الْاسْتِعْمَالِ الرَّمْزِيِّ لِلْكَلِمَاتِ وَالْاسْتِعْمَالِ الْإِنْفِعَالِيِّ. فَالْاسْتِعْمَالُ الرَّمْزِيُّ لِلْكَلِمَاتِ هُوَ تَقْرِيرٌ، أَيْ تَسْجِيلُ الْإِحَالَاتِ، وَتَقْوِيَتُهَا، وَتَنْظِيمُهَا، وَتَوْصِيلُهَا. أَمَّا الْاسْتِعْمَالُ الْإِنْفِعَالِيُّ لِلْكَلِمَاتِ فَأَمْرُهُ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ اسْتِعْمَالُ الْكَلِمَاتِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْمَشَاعِرِ وَالْمَوَاقِفِ وَالْإِنَارَتِهَا، وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ بِدَائِيَّةً. فَيَقُولُنَا: "ارْتِفَاعُ بُرْجِ إيفيل 900 قَدَمٍ"، نَحْنُ نُنْشِئُ تَقْرِيرًا، وَنَسْتَعْمِلُ رُمُوزًا مُعَيَّنَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ نُسَجِّلَ إِحَالَةً مَا أَوْ نُوصِّلَهَا، وَيَكُونُ رَمَزُنَا صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا عَلَى نَحْوِ صَارِمٍ، وَمُمْكِنُ الْإِبْنَاتِ نَظَرِيًّا. لَكِنْ إِنْ قُلْنَا: "وَرَا!"، أَوْ "الشَّعْرُ رُوحٌ"، أَوْ "الْإِنْسَانُ دُودَةٌ"، فَرُبَّمَا لَا نَكُونُ بِذَلِكَ مُنْشِئِينَ تَقْرِيرَاتٍ، وَلَا حَتَّى تَقْرِيرَاتٍ

= هوميروس الذي شَكَّلَ تَطَوُّرَ الثَّقَافَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ وَأَثَّرَ فِيهَا قَدْ أَمَرَ بِهِ الْإِغْرِيقُ الذِّبْنَ عُدُوهُ مُعَلِّمُهُمْ. [الْمُتَرَجِّمُ]

كإِذْنَةٍ، بَلْ إِنَّ الاحْتِمَالَ الْأَكْبَرَ هُوَ أَنَا نَسْتَعْمِلُ الْكَلِمَاتِ مِنْ أَجْلِ اسْتِثَارَةِ to evoke مَوَاقِفَ مُعَيَّنَةٍ.

وَلِكُلِّ مِنْ هَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ الْمُتَضَادَّتَيْنِ، عَلَى مَا سَتَرَى، جَانِبَانِ، أَحَدُهُمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُتَكَلِّمِ، وَالْآخَرُ بِالْمُسْتَمِعِ. فَيَنْدَرُجُ فِي الْوُظَيْفَةِ الرَّمْزِيَّةِ كُلُّ مَنْ تَرْمِزُ الْإِحَالَةَ وَتَوْصِيلُهَا إِلَى الْمُسْتَمِعِ، أَيْ التَّسْبُبُ فِي أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِ إِحَالَةٌ مُشَابِهَةٌ. وَيَنْدَرُجُ فِي الْوُظَيْفَةِ الْانْفِعَالِيَّةِ كُلُّ مَنْ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعَوَاطِفِ، وَالْمَوَاقِفِ، وَالْأَمْرِجَةِ، وَالْمَقَاصِدِ، وَمَا إِلَيْهَا، عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ، وَتَوْصِيلُهَا إِلَى الْمُسْتَمِعِ، أَيْ اسْتِثَارَتِهَا عِنْدَهُ. وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فِعْلٍ مُلَانِمٍ يَشْمَلُ التَّعْبِيرَ expression والاستِثَارَةَ evocation مَعًا، ارْتَأَيْنَا أَنْ نَلْجَأَ كَثِيرًا فِي مَا سَيَأْتِي إِلَى اسْتِعْمَالِ تَعْبِيرٍ "يَسْتِثِيرُ" لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كِلَا جَانِبَيْ الْوُظَيْفَةِ الْانْفِعَالِيَّةِ؛ إِذْ لَا يُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى خَطَرِ سُوءِ الْفَهْمِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، لَا يَرْجِعُ سَبَبُ اسْتِعْمَالِ الْمُتَكَلِّمِ لِللُّغَةِ الْانْفِعَالِيَّةِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْحَالَاتِ إِلَى امْتِلَاكِهِ انْفِعَالًا يَرْعَبُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، بَلْ إِنَّ السَّبَبَ الْوَحِيدَ لِذَلِكَ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ كَلِمَةٍ تَسْتِثِيرُ انْفِعَالًا يَرْعَبُ فِي امْتِلَاكِهِ، كَمَا لَا يَصِحُّ عَزْوُ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ الْانْفِعَالِيَّةِ إِلَى أَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ لِلْمُتَكَلِّمِ [149] نَفْسِهِ أَنْ يُجَرِّبَ الْانْفِعَالَ الَّذِي يُحَاوِلُ اسْتِثَارَتَهُ.

صَحِيحٌ أَنَّ بَعْضَ عُنَاصِرِ الْإِحَالَةِ رُبَّمَا يَدْخُلُ فِي كُلِّ اسْتِعْمَالٍ لِلْكَلِمَاتِ تَقْرِيبًا، عِنْدَ جَمِيعِ الْبَالِغِينَ الْمُتَحَضِّرِينَ⁽¹⁹⁾ فِي الْأَقْلُ، وَمِنْ الْمُمَكِنِ عَلَى الدَّوَامِ أَنْ تُفِيدَ إِحَالَةً، إِنْ اقْتَصَرَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْإِحَالَةِ عَلَى الْأَشْيَاءِ إجمالاً. وَكَثِيرًا مَا تُوجَدُ الْوُظَيْفَتَانِ اللَّتَانِ نَحْنُ بِصُدُوهُمَا مَعًا، لَكِنَّهُمَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ،

(19) يُسْتَحْسَنُ هَذَا التَّحَقُّقُ هُنَا، وَلَوْ اقْتَصَرَ أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْرَاضِ التَّعْلِيمِيَّةِ؛ إِذْ تُفِيدُ بَعْضُ الْمَصَادِرِ أَنَّ نِسَبَةً تَسَعٍ وَتِسْعِينَ مِنْ مِثْلِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي التَّحَدُّثِ إِلَى طِفْلِ صَغِيرٍ لَا تَعْنِي لَهُ شَيْئًا، إِلَّا بِمَعْنَى أَنَّهَا تُسَرُّهُ بِوصفها تَعْبِيرًا عَنِ الْاهْتِمَامِ بِهِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَطْفَالَ قَبْلَ بُلُوغِهِمُ السَّنَةَ السَّادِسَةَ أَوِ السَّابِعَةَ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْإِمْسَاكَ بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوضِ عَلَى عُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَرُّبِهِ بِرُمُوزٍ إِدْرَاكِئِيَّةٍ حِسِّيَّةٍ، كَلِمَاتٍ كَانَتْ أَوْ غَيْرَهَا... وَمِنْ هُنَا تَنَاتَى رَغْبَةُ الطِّفْلِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي أَنْ يَتَحَدَّثَ أَوْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ، إِذَا مَا سُئِلَ أَنْ يَجْلِسَ هَادِتًا وَلَوْ بَضْعَ دَقَاقٍ" (W. E. Urwick, *The Child's Mind*, pp. 95, 102).

مُتَمَايِزَتَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ. فَمَا دَامَتِ الْكَلِمَاتُ تُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالاً عَاطِفِيًّا فَلَنْ يَثَارَ تَسَاوُلٌ بِشَأْنِ صِدْقِهَا عَلَى نَحْوِ صَارِمٍ. وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ الصَّدَقَ بِهَذَا الْمَنْحَى الصَّارِمِ كَثِيرًا مَا يَكُونُ مُتَمَتِّعًا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ. فَالكَثْرَةُ الْوَافِرَةُ مِنَ الشَّعْرِ تَتَأَلَّفُ مِنْ تَقَرُّرَاتٍ، تَنْظِيمَاتٍ رَمْزِيَّةٍ قَابِلَةٍ لِلصَّدَقِ وَالْكَذِبِ لَا تُسْتَعْمَلُ مِنْ أَجْلِ صِدْقِهَا أَوْ كَذِبِهَا بَلْ مِنْ أَجْلِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَسْتَتِيرُهَا قَبُولُهَا. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنْ حُسْنِ الْحِظِّ أَلَّا تَكُونَ لِلصَّدَقِ أَوْ الْكَذِبِ أَهَمِّيَّةُ الْبَتَّةِ فِي مَسْأَلَةِ الْقَبُولِ، أَوْ أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ تُنَاطَ بِالشَّاعِرِ مُهِمَّةٌ جَعَلَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ. فَبِاسْتِثَارَةِ الْمَوْقِفِ أَوْ الشُّعُورِ تَكُونُ أَهَمُّ وَظِيفَةٍ لِهَذِهِ اللُّغَةِ قَدْ نُفِّذْتُ، وَأَيُّهُ وَظِيفَةٌ رَمْزِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لِلْكَلِمَاتِ لَنْ تَكُونَ إِلَّا مُسَاعِدَةً وَثَانِيَّةً لِلْوِظِيفَةِ الْاسْتِثَارِيَّةِ.

هَذَا التَّمَايُزُ الدَّقِيقُ لِلْوِظِيفَتَيْنِ هُوَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ لِعَدَمِ شُبُوحِ إدْرَاكِ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا. وَأَفْضَلُ اخْتِيَارٍ لِلْوُقُوفِ عَلَى اسْتِعْمَالِنَا الْأَسَاسِيِّ لِلْكَلِمَاتِ: أَرَمْزِيٌّ هُوَ أَمْ انْفِعَالِيٌّ؟ هُوَ إِثَارَةٌ تَسَاوُلٍ مَفَادُهُ: "أَصَادِقُ هَذَا أَمْ كَاذِبٌ بِالْمَعْنَى الْعِلْمِيَّةِ الصَّارِمِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ؟". فَإِنْ كَانَ يُرَادُ هَذَا السُّؤَالُ ذَا صِلَةٍ فَالْإِسْتِعْمَالُ رَمْزِيٌّ، وَإِنْ كَانَ وَاضِحًا أَنْ لَا صِلَةَ لَهُ فَالْقَوْلُ، حَيْثُذِ، انْفِعَالِيٌّ.

لَكِنْ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنْ خَطَرَيْنِ عِنْدَ الْقِيَامِ بِهَذَا الْإِخْتِيَارِ. [150] فَتَمَّةٌ تَمَطُّ مُعَيَّنٌ مِنَ الْعُقُولِ لَا يُمْكِنُهُ بَعْدَ التَّفَكُّيرِ أَنْ يُقَرَّ بِأَنَّهُ يَسْتَعْمِلُ لُغَةً اسْتِثَارِيَّةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلِلذَلِكَ يَعُدُّ السُّؤَالُ السَّابِقُ ذَا صِلَةٍ فِي جَمِيعِ الْمُنَاسَبَاتِ. وَإِلَى هَذَا السَّبَبِ يُعْزَى انْصِرَافُ جُمْهُورٍ عَرِضٍ مِنَ الْقُرَّاءِ أَكْبَرَ مِمَّا يُفْتَرَضُ عُمُومًا عَنْ قِرَاءَةِ الشَّعْرِ. كَانَ هَذَا هُوَ الْخَطَرُ الْأَوَّلُ، أَمَّا الْخَطَرُ الثَّانِي فَأَشَدُّ أَهَمِّيَّةً. فَتَمَّةٌ مَعَانٍ تَنْطَبِقُ عَلَى التَّعْبِيرَاتِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ (صَادِقٌ⁽²⁰⁾) وَهِيَ مُنَاطَرَةٌ إِلَى حَدِّ مَا لِلْمَعْنَى الصَّارِمِ لِلصَّدَقِ وَالْكَذِبِ فِي التَّقَرُّرَاتِ الرَّمْزِيَّةِ (صَادِقٌ⁽²¹⁾).

(20) فِي الْأَصْلِ (True^E)، وَالـ(E) الصَّغِيرُ يُمَثِّلُ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنْ كَلِمَةِ (Emotive).
[الْمُتَرَجِّمُ].

(21) فِي الْأَصْلِ (True^S)، وَالـ(S) الصَّغِيرُ يُمَثِّلُ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنْ كَلِمَةِ (Symbolic).
[الْمُتَرَجِّمُ].

وَكثِيرًا مَا يَسْتَعْمِلُ التَّفَادُّ (صَادِقٌ) فِي كَلَامِهِمْ عَلَى الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ، حَيْثُ تَكُونُ الرُّمُوزُ الْبَدِيلَةُ هِيَ 'مُفْنِعٌ' فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، وَ'مُسْتَقِيمٌ' فِي أُخْرَى، وَ'جَمِيلٌ' فِي أُخْرَى، وَهَلُمَّ جَرًّا. وَعَادَةً مَا يُفَعَّلُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِدْرَاكِ أَنَّ (صَادِقٌ) وَ(صَادِقٌ) رَمَازَانِ مُخْتَلِفَانِ. ثُمَّ إِنَّ ثَمَّةَ اسْتِعْمَالٍ اسْتِثْنَائِيًّا خَالِصًا لـ(صَادِقٌ) - هُوَ اسْتِعْمَالُهُ لِإِثَارَةِ مَوَاقِفِ الْقَبُولِ أَوْ الْإِعْجَابِ، وَاسْتِعْمَالًا اسْتِثْنَائِيًّا خَالِصًا لـ(كَاذِبٌ) - هُوَ اسْتِعْمَالُهُ لِإِثَارَةِ مَوَاقِفِ الْارْتِيَابِ وَالْاسْتِنْكَارِ. وَحِينَ تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يَكُونُ بِالإِمْكَانِ اسْتِبْدَالُ غَيْرِهَا بِهَا إِلَّا عَرَضًا مَا دَامَتْ اسْتِثْنَائِيَّةً، وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ الْكَرَاهَةَ الشَّائِعَةَ لِلتَّخَلُّفِ عَنْ اسْتِخْدَامِهَا حَتَّى عِنْدَ الْإِدْرَاكِ التَّامِّ لِعَدَمِ مُلَاقَعَةٍ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ رَمَازَيْنِ شَدِيدَا الشَّابُهَ ظَاهِرِيًّا كَالرَّمَزَيْنِ (صَادِقٌ) وَ(صَادِقٌ) يُسْتَعْمَلَانِ مَعًا. وَفِي الْعُمُومِ، كَثِيرًا مَا يَكُونُ مَرَدُّ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ نَجَاةَ الْكَلِمَةِ، حَتَّى حِينَ يُقْرَأُ بِلَبْسِهَا الَّذِي هُوَ سِمَةٌ شَائِعَةٌ فِي النِّقَاشِ، إِلَى كِفَايَتِهَا الْإِنْفِعَالِيَّةِ لَا إِلَى آيَةٍ صُعُوبَةٍ حَقِيقِيَّةٍ فِي إِيجَادِ رُمُوزٍ بَدِيلَةٍ تُعَزِّزُ الْإِحَالَةَ نَفْسَهَا. عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ السَّبَبُ الْوَحِيدَ عَلَى الدَّوَامِ، عَلَى مَا سَنَرَى فِي الْفَصْلِ الْآخِيرِ حِينَ نَقْدِمُ عَلَى النَّظَرِ فِي حَالَةِ تَبَعِيَّةِ الْكَلِمَةِ.

هَذَا التَّبَايُنُ فِي وَظِيفَةِ الْكَلِمَاتِ بِوَصْفِهَا مُعَزِّزَةٌ لِلْإِحَالَةِ أَوْ حَامِلَةٌ لَهَا، وَالْكَلِمَاتُ بِوَصْفِهَا تَعْبِيرَاتٌ عَنْ مَوَاقِفَ أَوْ مُثِيرَاتٍ لَهَا، بَدَأَ يَحْطِى، مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ نَحْوِيَّةٍ بِشَكْلِ رَئِيسٍ، بِبَعْضِ الْاهْتِمَامِ فِي السَّنَوَاتِ الْآخِيرَةِ. عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِهْمَالَ لِتَأْثِيرَاتِ إِجْرَائِنَا اللَّغَوِيِّ فِي جَمِيعِ [151] فَعَالِيَاتِنَا الْآخَرَى الَّذِي يُمَيِّزُ اللَّغَوِيِّينَ كَثِيرًا قَدْ جَرَّدَ مِثْلَ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي اضْطُلِعَ بِهَا مِنْ مُعْظَمِ قِيَمَتِهَا. فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ فُون دِير غَابِيلِنتز G. von der Gabelentz⁽²²⁾، مَثَلًا، قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ "الْفَائِدَةَ الَّتِي يَجْنِيهَا الْمَرْءُ مِنَ اللُّغَةِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ شَيْءٍ مَا، وَإِنَّمَا تَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى التَّعْبِيرِ عَنِ النَّفْسِ"، لَا يَبْدُو أَنَّهُ قَدْ نَظَرَ فِي مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْرَهُ

(22) هانز جورج كونون فون دير غابيلينتز (1840-1893م). لِسَانِيُّ أَلْمَانِي. رُبَّمَا يُعَدُّ كِتَابُهُ (النَّحْوُ الصِّينِي) الَّذِي نَشَرَهُ سَنَةَ 1881 أَفْضَلَ نَظَرَةٍ عَامَّةٍ نَحْوِيَّةٍ شَامِلَةٍ لِلُّغَةِ الصِّينِيَّةِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ. [المُتَرْجِم]

مثل هذا الاختلاط في الوظائف من عاقبة وخيمة على النظرية وعلى شكل اللغة أيضاً. وإذا ذهبنا نستقري آخر ما كُتِبَ بشأن هذا الموضوع فسنجد ضالَّتنا في الفصل الذي خصَّصه فندريس Vendryes⁽²³⁾ لدراسة اللغة الوجدانية، والذي يتَمَسَّك فيه مؤلفه على نحو صارم بوجهة نظر التحوين. إذ يقول فيه: "لا ينفكَّ العنصر المنطقي والعنصر الانفعالي عن الاختلاط في اللغة. وإذا استثنينا اللغات الثقيفة، ولا سيما اللغات العلمية منها، تلك التي تُعدُّ خارج الحياة بطبيعتها، فإنَّ التعبير عن أية فكرة لا يخلو البتة من لون عاطفي". "وهذه العواطف لا تُهمُّ عالم اللغة إلا حين يُعبَّر عنها بوسيلة لغوية. لكنَّها، على العموم، تظلُّ خارج اللغة؛ فهي بمنزلة ضباب خفيف يغشى التعبير عن الفكرة من غير أن يُغيِّر شكلها التحوي"، إلى آخر كلامه. ويرى أنَّ ثمة منحيين أساسيين يهتَم اللغويُّ بالجانب العاطفي من اللغة من خلالهما، أحدهما أثره في انتظام الكلمات، والآخر تحديده للمفردات. فالكثير من الكلمات يُسقط أو يُستبقى لأسباب عاطفية. "ويمكن أن يُفسَّر عدم استقرار النحو بفعل الانفعال إلى حد كبير. فالمثل المنطقي الأعلى للنحو هو أن يكون لكل وظيفة تعبير، ولكل تعبير وظيفة واحدة فقط. ولتحقق هذا المثل ينبغي افتراض أنَّ اللغة ثابتة ثبات الجبر حيث يبقى الرمز منذ صياغته أول مرة ثابتاً لا يتغيَّر في جميع العمليات التي يُستعمل فيها. لكنَّ العبارات ليست رموزاً جبرية. فالانفعال يكسو عبارة الفكر المنطقية ويلونها على الدوام. فنحن لا نكرِّر العبارة نفسها مرَّتين البتة، ولا نستعمل الكلمة نفسها مرَّتين بالقيمة نفسها؛ إذ ليس ثمة إقعتان لغويتان متماثلتان تماماً تاماً. [152] ومردُّ ذلك إلى ظروف دائمة التعديل لأحوالنا العاطفية"⁽²⁴⁾.

وربَّما لا يكون من دواعي الإنصاف أن نطالب التحوين بشيء من الاهتمام

(23) جوزيف فندريس (1875-1960م). لِسَانِي فرنسي، وعميدُ كلية الآداب بجامعة باريس، وعضو المعهد الفرنسي، ورئيس الجمعية اللغوية بباريس. أشهر مؤلفاته: اللغة. [المُترجم]

(24) Le Langage (1922), pp. 163, 165, 182. E. T., Language (1924), Part II., Chapter

بِجَوَابِ أَوْسَعِ لِلْغَةِ. فَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ مَوْضُوعٍ صَعْبٍ وَمُضْنٍ يَكْفِيهِمْ لِيَسْمَعَلَ كُلُّ اهْتِمَائِهِمْ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَدْ يُتَوَقَّعُ الْمَزِيدُ مِنَ الْبَحْثِ الْمُدَقِّقِ مِنْ كِتَابٍ تَضَمَّنَ وَعْدًا أَدَّى إِلَى تَخَلِّي كُوتُورَا Couturat عن مشروعه المسمى "الوجيز في منطق اللغة". على أنه ما زال بإمكاننا أن نؤكد توافر الكثير من اللغويين، الذين يمثل السيد فندريس أحد أكثرهم تميزًا، أما المحققون في نظرية اللغة فيفتقر إليهم افتقارًا لافتًا للنظر⁽²⁵⁾.

إنَّ الْمُقَارَبَةَ الْفِكْرِيَّةَ لِهَذِهِ الْأَزْدَوَاجِيَّةِ فِي الْوُظَيْفَتَيْنِ الرُّمَازِيَّةِ وَالْإِنْفَعَالِيَّةِ قَدْ ظَهَرَتْ حَدِيثًا، عَلَى الصَّعِيدِ الْفَلَسَفِيِّ أَيْضًا، مُتَخَفَةً فِي مَظَاهِرٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَاشْتَهَرَتْ تَعْبِيرَاتٌ مِثْلُ الْحَدْسِ، وَالْفِكْرِ، وَالْعَاطِفَةِ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالْمَنْطِقِ، وَالْبَدَاهَةِ بِقُدْرَتِهَا عَلَى التَّسْبِيبِ فِي اضْطِرَابِ النَّقَاشِ وَتَقْوِيضِهِ. وَعَلَى الْعُمُومِ، فَكُلُّ تَعْبِيرٍ أَوْ عِبَارَةٍ، أَوْ دَافِعٍ حَيَوِيٍّ élan vital⁽²⁶⁾، أَوْ تَحْلِيلٍ مَنْطِقِيٍّ خَالِصٍ... يُمَكِّنُ اسْتِعْمَالَهُ

(25) يُمَكِّنُ اسْتِنَاءُ البروفيسور ديلاكروا Delacroix الذي يُخَصِّصُ لِلْمَوْضُوعِ حِزًّا لَا بَاسَ بِهِ فِي كِتَابِهِ *اللُّغَةُ وَالْفِكْرُ Le Langage et la Pensée* (1924)، لَكِنَّهُ يُعَامِلُ الْوُظَيْفَةَ الْإِنْفَعَالِيَّةَ بِرُوحٍ أَكَادِمِيَّةٍ خَالِصَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَنِّحَ آثَارَهَا الْبَعِيدَةَ الْمَدَى فِي النَّقَاشِ اعْتِبَارًا زَانِدًا عَلَى مَا مَنَحَهَا إِيَّاهُ مَنَاطِقَهُ الْوَضْعِيَّةَ (يُنْظَرُ: التَّرَكِيبُ الْمَنْطِقِيُّ لِلْغَةِ *The Logical Syntax of Language*، لِكَارْنَاب Carnap، 1937).

(26) عِبَارَةٌ رَوَّجَ لَهَا الْفَلَسُوفُ الْفَرَنْسِيُّ الْمَشْهُورُ هَنْرِي بَرِغْسُون (1859-1941م)، تَعَبَّرَ عَنْ نَظَرِيَّةٍ انْطَلَقَ فِيهَا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ مُنَاقِضَةٍ لِلنَّظَرِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ الْآلِيَّةِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ الَّتِي تُلْغِي وَجُودَ فِكْرَةِ الْحُرِّيَّةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ سَادَتْ فِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ عَشَرَ تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْوُجُودَ حَالَةٌ مَادِّيَّةٌ مُتَسَلِّسَةٌ مُتَرَابِطَةٌ؛ فَكُلُّ حَدَثٍ هُوَ نَتِيجَةُ لِحْدَثٍ آخَرَ سَبَقَهُ، فَقَالَ بَرِغْسُون: 'إِذَا كَانَ الْوُجُودُ بِكُلِّ مَا يَحْوِيهِ فِي لِحْظَةٍ مَعْيَنَةٍ هُوَ نَتِيجَةُ لآلِيَّةِ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا دُونَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ قُوَّةٌ مُدْرِكَةٌ تُشْئِي وَتَخْلُقُ وَتَخْتَارُ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ اللَّحْظَةُ السَّابِقَةُ أَثَرًا لِلَّتِي سَبَقَتْهَا وَهَكَذَا، فَسَتَرْجِعُ فِي التَّسْلُسِ إِلَى أَنْ نَصِلَ إِلَى السَّيِّدِ الْأَوَّلِ وَنَتَّخِذَ مِنْهُ سَبَبًا لِكُلِّ مَا طَرَأَ عَلَى الْكَوْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ'. وَيَرَى بَرِغْسُونُ أَنَّ الْعَالَمَ مَكُونٌ مِنْ جُزْأَيْنِ، أَحَدُهُمَا مَادِّيٌّ مَرْنِيٌّ، وَالْآخَرُ حَيَوِيٌّ مَخْفِيٌّ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ تَحْدُثُ حِينَمَا يَمْتَدُّ الْجُزْءُ الْحَيَوِيُّ فَيَتَّحِدُ أَوْ يَظْهَرُ فِي الْمَادَّةِ وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا وَلَكِنْ بِدَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَبِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَالْحَيَاةُ بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا إِرَادَةٌ حُرَّةٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْخِلَافُ وَالتَّغْيِيرُ الْمُسْتَمَرُّ. [الْمُتَرْجِمُ]

يُوصِفُهُ شِعَارًا⁽²⁷⁾ أو هِرَاوَةً أو يَوْصِفُهُ كِلَيْهِمَا مَعًا، إِذَا مَا أُرِيدَ أَلَّا تَكُونَ مُعَالَجَتُهُ كَارِثِيَّةً فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فَهْمٍ رَاسِخٍ وَوَاجٍ لِهَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ لِللُّغَةِ. إِذْ لَا فَائِدَةٌ تُرْتَجَى مِنْ تَعْقِيمِ آلَاتِنَا مِنْ غَيْرِ دِرَاسَةٍ عَادَاتِ الْجَرَائِمِ. بَلْ إِنَّ عِلْمَ الرِّيَاضِيَّاتِ أَيْضًا لَيْسَ خَالِيًا تَمَامًا مِنَ التَّعْقِيدَاتِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ، وَإِنْ بَدَأَ أَنَّ عِدَدًا مِنْ أَقْسَامِهِ خَالٍ مِنْهَا فَإِنَّ السُّهُولَةَ الَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا عُلَمَاءُ الرِّيَاضِيَّاتِ إِلَى صُوفِيَّيْنِ (حَتَّى عِنْدَمَا لَا يَكُونُ ثَمَّةُ شَيْءٍ يَبْتَدَأُ، مَا زَالَتْ هُنَاكَ خَاصِيَّةٌ قَابِلِيَّةٌ الْقِسْمَةِ عَلَى 107) [153] حِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَسْئَرِ هَذَا الْعِلْمِ، تُظْهِرُ مَا عَلَيْهِ حَقِيقَةُ الْحَالِ.

وَتَرَكُّزٌ وَاجِدَةٌ مِنْ أَشْهَرِ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ الْمُتَخَفِّفَةِ لِلْوُظَيْفَةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ لِلُّغَةِ فِي مَذْهَبِ بَرِغْسُونِ Bergson فِي طَبِيعَةِ الْمَعْرِفَةِ. وَمِمَّا يُقْتَبَسُ بِهَذَا الصَّدَدِ مِنْ أَحَدِ الْأَعْمَالِ الْحَدِيثَةِ الشَّارِحَةِ لِمَذْهَبِهِ: "أَنَّ مُهِمَّةَ الْفَلَسَفَةِ عِنْدَ بَرِغْسُونٍ مَعْرِفَةُ الْوَاقِعِ لَا تَفْسِيرُهُ. وَيَقْتَضِي تَنْفِيزُ هَذِهِ الْمُهْمَّةِ جُهْدًا عَقْلِيًّا مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ. غَيْرَ أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّصْنِيفَ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَزِيدَا مَعْرِفَتَنَا الْمُبَاشِرَةَ، يَنْخَوَانِ نَحْوَ الْحِطِّ مِنْهَا"⁽²⁸⁾. وَيَقُولُ بَرِغْسُونُ نَفْسُهُ: "مِنْ أَجْلِ أَنْ نَنْقِلَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْفِعْلِيَّةِ actual انتَحَبْنَا مِنَ الْمَسَاحَةِ الشَّاسِعَةِ الْمُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافَ لِمَعْرِفَتِنَا الْإِفْتِرَاضِيَّةِ virtual كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِنَا تَجَاهَ الْأَشْيَاءِ، وَأَهْمَلْنَا سَائِرَ مَا فِيهَا"⁽²⁹⁾. وَيُوَاصِلُ شَارِحُ مَذْهَبِهِ قَوْلَهُ: "إِنَّ الْمَوْقِفَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوبَ لِتَفْسِيرِ الْوَقَائِعِ يُعَارِضُ الْمَوْقِفَ الْعَقْلِيَّ الْمَطْلُوبَ لِمَعْرِفَتِهَا. فَإِذَا نُظِرَ إِلَى الْأَمْرِ مِنَ الزَّائِدَةِ الْبَسِيطَةِ لِلْمَعْرِفَةِ فَإِنَّ جَمِيعَ الْوَقَائِعِ مُتَسَاوِيَةٌ الْأَهْمِيَّةِ وَلَا يُمَكِّنُنَا تَمْيِيزُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي ذَلِكَ، أَمَّا فِي التَّفْسِيرِ فَبَعْضُ الْوَقَائِعِ أَهَمُّ بِكَثِيرٍ مِنْ بَعْضِهَا الْآخَرِ. فَلِذَا حِينَ نُرِيدُ التَّفْسِيرَ لَا الْمَعْرِفَةَ فَقَطْ نَمِيلُ إِلَى تَوْجِيهِ انْتِبَاهِنَا إِلَى هَذِهِ الْوَقَائِعِ ذَوَاتِ الْأَهْمِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَتَجَاوِزِ سَائِرِ الْوَقَائِعِ الْآخَرَى"⁽³⁰⁾.

(27) يُنْظَرُ الْقَوْلُ الْمَأْثُورُ لِنِيَتْسْCHE: "مَا الْكَلِمَاتُ الْمُتَرَبِّطَةُ بِالْقِيَمِ إِلَّا شِعَارَاتُ مَعْرُوسَةٍ فِي الْقَعِّ الَّتِي يُكْتَشَفُ فِيهَا نَعِيمٌ جَدِيدٌ - شُعُورٌ جَدِيدٌ".

K. Stephen, *The Misuse of Mind*, p. 19.

(28)

Bergson, *La Perception du Changement*, p. 12.

(29)

K. Stephen, *op. cit.*, p. 22.

(30)

إِنَّ عَمَلِيَّاتِ التَّفْسِيرِ الَّتِي وَصَفَهَا بَرغسون تُشَبِّهُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ مَا أَسَمَيْنَاهُ الْإِحَالَةَ حِينَ تَكُونُ مُعَزَّزَةً بِالرَّمْزِ. عَلَى أَنَّهُ بِسَبَبِ نَظَرِيَّةِ الْمُمَيِّزَةِ بِشَانِ الذَّاكِرَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُفِيدَ مِنَ الظَّوَاهِرِ التَّذَكُّرِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ أُسَاسِيَّةً، عَلَى مَا رَأَيْنَا، إِذَا مَا أُرِيدَ اجْتِنَابُ النَّزْعَةِ الصُّوفِيَّةِ حَتَّى فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ 'الْمَعْرِفَةِ'.

أَمَّا النُّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، أَيْ 'الْمَعْرِفَةُ الْإِفْتِرَاضِيَّةُ'، الْمَعْرِفَةُ الَّتِي هِيَ 'ذِمُّومَةٌ خَلَاقَةٌ'، وَالَّتِي هِيَ النُّوعُ الْوَحِيدُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ذَاتِ 'الْوَاقِعِ الْوَاقِعِيِّ الْوَاقِعِيَّةِ' الَّذِي يَسْمَحُ بِهِ الْبَرغسونيونَ، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَعْرِضُهُ بِهِ، فِيمَا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا صُوفِيَّةٌ. [154] وَلَا يَقْتَصِرُ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَيَّ وَصْفٍ لَهَا لَا بُدَّ أَنْ يُوقَعَ الشَّارِحَ فِي تَنَاقُضٍ ذَاتِيٍّ - وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ هَذَا عَاقِبَةُ أَيِّ تَنَصُّلٍ ذِي آلِيَّةٍ رَمَزِيَّةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ⁽³¹⁾ -، بَلْ يَمْتَدُّ كَذَلِكَ إِلَى أَنَّهَا تَتَطَلَّبُ إِيمَانًا مَبْدئيًّا بِوُجُودِ عَالَمٍ فَسِيحٍ مِنَ 'الْمَعْرِفَةِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ' هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ مَعْلُومٍ. مَعَ ذَلِكَ، فَالَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ، وَيَكْتَفُونَ بِأَنْ يَتَّبِعُوا نَصَحَ الْبَرغسونيينَ لَهُمْ بِإِهْمَالِ الْأَلْفَاظِ الْفِعْلِيَّةِ actual terms فِي الْأَوْصَافِ الْمُقَدِّمَةِ وَإِنْ يَسْتَبْدِلُوا بِهَا أَدَاءً 'فِعْلٍ تَرْكِيْبِيٍّ تَوْفِيقِيٍّ act of synthesis'، يَسْهُلُ إِفْنَاعُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَفْهَمُونَ الْمَقْصُودَ بِ'الْمَعْرِفَةِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ'، بَلْ بِأَنَّ فِي وَسْعِهِمْ امْتِلَاقَهَا.

وَقَدْ أَكَّدْنَا أَيْنًا (ص 168) أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي بِمَعْنَى الْإِحَالَةِ شَأْنٌ هُوَ غَايَةٌ فِي عَدَمِ الْمُبَاشَرَةِ، وَأَلَمَحْنَا إِلَى أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّا كَثِيرًا مَا نَشْعُرُ بِرَفْضِنَا الْإِقْرَارَ بِأَنَّ اتِّصَالَاتِنَا الذَّهْنِيَّةَ بِالْعَالَمِ غَيْرُ قَرِيبٍ وَلَا تَامٌ، بَلْ بِأَنَّهُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ بَعِيدٌ وَتَخْطِيطِيٌّ، رُبَّمَا تَتَقَلَّصُ كَرَاهَتُنَا هَذِهِ بِنَظَرِنَا فِي اتِّصَالَاتِنَا غَيْرِ الْمَعْرِفِيَّةِ. وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ هِيَ أَيْضًا فِي قِسْمِهَا الْأَعْظَمِ غَيْرُ مُبَاشَرَةٍ، لِكِنَّهَا قَابِلَةٌ لِقَدْرِ مِنَ الْاِكْتِمَالِ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ. وَكُلَّمَا أَصْبَحَتْ الْإِحَالَةُ أَوْضَحَ وَآكْثَرَ تَمَيُّزًا ضَعُفَتْ صِلَتُنَا بِمَا نُحِيلُ عَلَيْهِ نِسْبَةً إِلَى إِحَالَةِ مُشَابِهَةٍ لِكِنَّهَا أَكْثَرُ بَسَاطَةً، وَازْدَادَ السِّيَاقُ الْمُتَضَمِّنُ تَخْصُّصًا وَرَهَافَةً. وَفِي وَسْعِنَا أَنْ نُوَافِقَ بَرغسون فِي كُلِّ مَا قَالَهُ بِشَانِ الْمِيلِ إِلَى الْإِهْتِمَامِ

(31) يُنْظَرُ فِي ذَلِكَ مَا كَتَبَتْهُ السَّيِّدَةُ سْتِيفِن Stephen عن الموضوعِ بِتَأْلِيٍّ كَبِيرٍ، وَلَا سِيَّما الصَّفَحَاتِ 57-61 مِنْهُ.

التَّحْلِيلِيّ الْمُتَمَيِّزِ الْمُحَدَّدِ بِتَخْفِيفِ اتِّصَالِنَا بِمَا نُعْنَى بِهِ. وَأَكَّدَ بَرغسون، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، الدَّورَ الَّذِي تُؤَدِّيهِ اللُّغَةُ فِي تَقْوِيَةِ هَذَا الْمِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهِ. فَعِنْدَ التَّفَكِيرِ الْعَرَضِيِّ بِالْأَرَانِبِ قَدْ يَكُونُ السِّيَاقُ الْمُتَضَمِّنُ شَدِيدَ التَّعْقِيدِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ تَجَرِبَتِنَا الْمَاضِيَةِ مَعَ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ إِجْرَائِيٌّ. وَبِالتَّفَكِيرِ التَّمْيِيزِيِّ بِالْأَشْيَاءِ أَنْفُسِهَا عَلَى أَنَّهَا 'حَيَوَانٌ صَغِيرٌ' يُصْبِحُ سِيَّاقُنَا مُتَخَصِّصًا، وَإِنَّ السَّمَاءَ الْوَحِيدَةَ لِلْأَرَانِبِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَى تَضْمِينِهَا هِيَ السَّمَاءُ الَّتِي تُقَاسِمُهَا إِيَّاهَا الْأَعْضَاءُ الَّتِي تُشَارِكُهَا [155] فِي الصَّنْفِ الْمَعْنِيِّ. أَمَّا السَّمَاءُ الْأُخْرَى فَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَغِيبَ، لَكِنْ يُمَكِّنُ الْإِتِّفَاقَ عَلَى أَنَّ لَهَا مَبْلَأً قَوِيًّا لِلِاخْتِفَاءِ، وَفِي جَمِيعِ أَعْمَالِ التَّمْيِيزِ الْحَقِيقِيَّةِ الصُّعُوبَةِ تَتَأَكَّدُ أَفْضَلِيَّتُهُ إِسْقَاطُهَا.

وَفِي أَقْصَى الْوَعْيِ الْبَعِيدِ تَمَامًا مِنْ الْاهْتِمَامِ التَّحْلِيلِيِّ وَالتَّجْرِيدِيِّ لَا تَوْجَدُ حَالَةً مُمَكِّنَةً وَاحِدَةً بَلْ تَنُوعٌ مِنَ الْحَالَاتِ الْمُمَكِّنَةِ، تَبَعًا لِتَوَعُّدِ السِّيَاقَاتِ وَمَدَاهَا، الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا التَّجَرِبَةُ الْمَعْنِيَّةُ. وَالْحَالَةُ قَدْ تَكُونُ بَسِيطَةً بِالْقِيَاسِ إِلَى غَيْرِهَا كَمَا يَحْدُثُ حِينَ نَكُونُ مُنْشَغَلِينَ بِفَعَالِيَّةِ إِدْرَاكِ حِسِّيٍّ اعْتِيَادِيَّةٍ مِثْلَ رَمْيِ النَّرْدِ؛ أَوْ قَدْ تَكُونُ عَاطِفِيَّتُهَا طَاطِغَةً؛ أَوْ قَدْ نَسْتَشْعِرُ مَرَّةً أُخْرَى نَبْضَاتِ بَسِيطَةٍ بِفِعْلِ تَجَرِبَةٍ سَادَجَةٍ خَالِصَةٍ حِينَ نَقْفِرُ طَلَبًا لِلنَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ عِنْدَ تَدْفُقِ سَاقِي الدَّرَاجَاتِ الْبُخَارِيَّةِ. عَلَى أَنَّ نَمَّةَ أَطْوَارِا لِلْحَيَاةِ مَلْمُوسَةً، مُبَاشِرَةً، غَيْرَ عَقْلَانِيَّةٍ، لَهَا مِنْ التَّعْقِيدِ وَالثَّرَاءِ مَا لَا تُسَاوِيهَا فِيهِمَا أَيَّةُ فَعَالِيَّاتٍ عَقْلَانِيَّةٍ. وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَطْوَارِ تَشَخُّصٌ بِجَلَاءِ التَّجَارِبِ الْجَمَالِيَّةِ. إِنَّ الْكَثِيرِينَ مِمَّنْ يَرَوْفَهُمْ مَا دَعَبَ إِلَيْهِ بَرغسون مِنَ الْمُبَاشَرَةِ immediacy⁽³²⁾ وَالْحَاحِخِ عَلَى الْوَعْدِ بِكَتُورٍ تَنْتَظِرُ مَنْ يَسْتَعِيدُهَا، سَيَقِيرُونَ بِأَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ يَظْهَرُ لَهُمْ فِي مَظْهَرٍ مَنْ يَصِفُ مَا يَحْدُثُ حِينَ

(32) المعرفة الحدسية عند بَرغسون معرفة مُبَاشِرَةٌ؛ فِيهَا نُمُوقُ حُجُبِ الْأَلْفَاظِ وَشِبَاكِ الرُّمُوزِ، لِنُغُوصَ فِي طَيَّاتِ الْوَاقِعِ وَنَمْضِي مُبَاشَرَةً إِلَى بَاطِنِ الْحَقِيقَةِ. وَهَدَفُ بَرغسون هُوَ تَحْرِيرُ الْفِكْرِ الْفَلَسْفِيِّ مِنْ عِبْدِيَّةِ اللُّغَةِ بِاللَّجْوِ إِلَى الصُّورِ وَالتَّشْبِيهَاتِ، أَمْلًا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنْ يَتَجَاوَزَ الْمِيتَافِزِيْقَا اللَّفْظِيَّةَ الَّتِي تَقُومُ عَلَى اللُّغَةِ وَحْدَهَا، لِيَنْفُذَ إِلَى طَبِيعَةِ الْأَشْيَاءِ الْحَيَّةِ النَّابِضَةِ. وَحَرَصَ عَلَى أَنْ يُوَكِّدَ أَنَّ حَدْسَهُ أَقْرَبُ إِلَى التَّفَكِيرِ مِنْهُ إِلَى الْعَاطِفَةِ. فَالْحَدْسُ الْبَرغسونِي فِي صَمِيمِهِ اسْتِغْنَاءٌ عَنِ الرُّمُوزِ، وَإِدْرَاكٌ مُبَاشِرٌ لِلْوَاقِعِ. [المُتَرْجِم]

يَكُونُونَ فِي قِمَّةِ النَّجَاحِ فِي التَّأَمُّلِ الْفَنِيِّ. وَلَيْسَ بِإِمْكَانِنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ الْخَوْصُ فِي تَفْصِيْلَاتٍ مَا يُفْتَرَضُ أَنْ يَحْدُثَ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ مِنْ انْسِجَامِ الْبَوَاعِثِ الْمُخْتَلَفَةِ synæsthesis، مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ عِلْمِ النَّفْسِ الثَّقَلِيدِي شَيْئًا مَا⁽³³⁾. عَلَى أَنَّ مَا لَا يَنْقَاشُ فِيهِ مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ أَنَّ أَهَمَّ هَذِهِ الْحَالَاتِ إِنَّمَا تَسْتَمِدُّ قِيَمَتَهَا مِنْ الْأُسْلُوبِ الْمُتَمَيِّزِ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ الْبَوَاعِثُ الَّتِي تُشَكِّلُهَا تَجَرِبَةُ الْمَتَأَمِّلِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا هَذِهِ الْبَوَاعِثُ.

وَهَكَذَا، يُعْزَى تَكَامُلُ حَالَاتِ التَّأَمُّلِ الْجَمَالِيَّةِ وَثَرَاؤها، بِمَعْنَى مُحَدَّدٍ جِدًّا وَإِنْ لَمْ تُمَكِّنْ صِبَاغَتُهُ بِإِحْكَامٍ إِلَّا إِلَى حَدٍّ مَا، إِلَى فِعْلِ الذَّاكِرَةِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَا الذَّاكِرَةُ الْمُضَيِّقَةُ [156] وَالْمُخْصَصَةُ الَّتِي تَتَطَلَّبُهَا الْإِحَالَةُ، بَلْ هِيَ الذَّاكِرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِحُرِّيَّةٍ أَكْبَرَ عَلَى تَوْسِيعِ التَّحْسُّسِ وَتَضَخُّيمِهِ. وَنَكُونُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ غُرْضَةً لِحَافِزٍ أَكْثَرَ انْتِشَارًا وَأَكْثَرَ غَرَابَةً؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَوَانِعَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي خُطُوطِ سَبْرِ رُودُودِ أَعْمَالِنَا تَكُونُ قَدْ أَزِيلَتْ.

وَلَيْسَ بِمُسْتَعْرَبٍ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَالَاتُ قَدْ وُصِفَتْ كَثِيرًا بِأَنَّهَا حَالَاتٌ مَعْرِفِيَّةٌ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ جُزْئِيًّا إِلَى تَيَقُّنِ الْخِصَائِصِ الْمُحَسَّاتِ لِلْحَالَاتِ الَّتِي كُنَّا نَصِفُهَا، وَهُوَ مَنْحَى مِنَ الرَّاحَةِ وَالرِّضَا لَا يَخْتَلِفُ عَنِ الرِّضَا الَّذِي يَعْقُبُ جُهْدًا فِكْرِيًّا نَاجِحًا، وَإِنْ غُرِزِيٍّ إِلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا - وَجُزْئِيًّا إِلَى أَسْبَابٍ أُخْرَى. إِنَّ مِمَّا لَا يَكَادُ الْفِيلَسُوفُ يَقْوَى عَلَى دَفْعِهِ عَنْ نَفْسِهِ حِينَ يَكُونُ مِنْهَكِمَا فِي مَوْضُوعٍ يَجِدُ فِيهِ مُتَعَةً عَظِيمَةً، اسْتِعْمَالُ أَكْثَرِ الْكَلِمَاتِ قَابِلِيَّةً لِجَذْبِ الْإِنْتِبَاهِ وَإِثَارَةِ الْإِيمَانِ بِأَهْمِيَّةِ الْمَوْضُوعِ. وَهَكَذَا مِنَ الْمُحْتَمَلِ جِدًّا أَنْ يُطْلَقَ اسْمُ 'مَعْرِفَةٍ' عَلَى آيَةِ حَالَةٍ ذَهْنِيَّةٍ يَجِدُ فِيهَا أَيُّ شَخْصٍ مُتَعَةً عَظِيمَةً؛ إِذْ لَيْسَتْ ثَمَّةُ كَلِمَةٍ أُخْرَى فِي عِلْمِ النَّفْسِ لَهَا مَا لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ مَرَيَّةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ. فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ الذَّهْنِيَّةُ بَعِيدَةً تَمَامًا مِنْ مُشَابَهَةِ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ عَادَةً هَذَا الْاسْمُ فَإِنَّ 'الْمَعْرِفَةَ' الْجَدِيدَةَ سَتَكُونُ فِي مَوْضِعِ الْمُقَابِلِ لِلْحَالَاتِ الذَّهْنِيَّةِ الْأُخْرَى الَّذِي لَهُ الْمَرَيَّةُ عَلَيْهَا فِي كَوْنِهِ ذَا طَبِيعَةٍ

(33) بِإِمْكَانٍ مَنْ يَرَعُبُ فِي مُتَابَعَةِ الْمَسْأَلَةِ الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابِ عِلْمِ الْجَمَالِ Foundations of Aesthetics المذكور آنفاً.

أَكْثَرُ رُقِيًّا، وَأَكْثَرُ وَاقِعِيَّةً، وَأَكْثَرُ جَوْهَرِيَّةً. وَقَدْ شَاعَتْ فِي الْفَلَسَفَةِ عَلَى مَرِّ تَارِيخِهَا هَذِهِ الْإِغَارَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ عَلَى عِلْمِ الْجَمَالِ. وَمِنَ التَّمَاذِجِ الْحَدِيثَةِ لِذَلِكَ الْمِثَالُ التَّوْبِيحِيُّ لِكَاثَتِ، وَمُحَاوَلَةُ الْحَاقِ عِلْمِ الْجَمَالِ بِالْفَلَسَفَةِ الْمَثَالِيَّةِ.

لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّهُ إِذَا مَا أُزِيلَتِ الْمُشْكِلَاتُ الزَّائِفَةُ الَّتِي تُسَبِّبُهَا الْمُفْرَدَاتُ الْمُتَقَاطِعَةُ، وَنُبَذَ الْوَعْدُ الْمُوهِمُ بِسَمَاءٍ وَأَرْضٍ جَدِيدَتَيْنِ الَّذِي يَغْرِضُهُ الْبِرْغَسُونِيُّونَ عَرْضًا ضَعِيفًا شَيْئًا مَا، أَمَكْنَتْ إِزَالَةُ الْعُقْدَةِ فِي ثُنَائِيَّةِ الْحَدْسِيِّ-الْعَقْلِيِّ بِفَهْمِ الْوُظَيْفَةِ الْمُزْدَوِجَةِ، الرَّمْزِيَّةِ وَالْإِنْفِعَالِيَّةِ، لِكَلِمَةِ 'مَعْرِفَةٍ'. إِنَّ انْكَارَ أَنْ تَكُونَ 'الْمَعْرِفَةُ الْإِفْتَرَاضِيَّةُ' مَعْرِفَةً بِالْمَعْنَى الرَّمْزِيَّةِ لَا يَحْطُ مِنْ قَدْرِ الْحَالَةِ (الْحَالَةِ)، أَوْ مَجْمُوعَةِ الْحَالَاتِ، الْمُسْتَجَبِيَّةِ اسْتِجَابَةً خَرَّةً خَاصَّةً لِلْمُثِيرِ، اسْتِنَادًا إِلَى وَجْهِهِ النَّظَرِ الْمُتَبَتِّاءِ هُنَا [157]) الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا هَذَا الْاسْمُ. وَلَيْسَ فِي الْأَمْرِ سِوَى تَطْبِيقِ قَانُونٍ يُؤَيِّدُهُ كُلُّ مَنْ يُدْرِكُ وَظَانِفَ اللُّغَةِ، أَيْ إِنَّهُ فِي أَثْنَاءِ النِّقَاشِ، حَيْثُ يُفْتَرَضُ أَنْ تَكُونَ الْإِعْتِبَارَاتُ الرَّمْزِيَّةُ سَابِقَةً لِكُلِّ الْإِعْتِبَارَاتِ الْأُخْرَى، لَا تُسْتَغْلُ الْحَسَنَاتُ الْإِسْتِنَارِيَّةُ لِلتَّعْبِيرَاتِ إِلَّا حِينَ التَّثَبُّتِ مِنْ عَدَمِ إِمْكَانِ نَشْوءِ سَيِّئَاتٍ رَمْزِيَّةٍ.

غَيْرَ أَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مَزِيدٍ مِنَ الْوَعْيِ الْعَامِّ لِطَبِيعَةِ الْوُظَيْفَتَيْنِ إِذَا مَا أُريدَ مِنْهُمَا مِنْ أَنْ تَتَدَاخَلَا، وَلَا بُدَّ مِنَ الْكَشْفِ عَنْ جَمِيعِ التَّحْقِيقَاتِ اللَّفْظِيَّةِ بِخَاصَّةٍ، الَّتِي تُحَاوَلُ مِنْ خِلَالِهَا إِحْدَى الْوُظَيْفَتَيْنِ جَهْدَهَا أحيانًا تَمْرِيرَ نَفْسِهَا فِي صُورَةِ الْأُخْرَى. وَمِنَ الْمُحْتَمِّ اسْتِحَالَةُ ادِّعَاءِ قُدْرَةِ عِبَارَةٍ عِلْمِيَّةٍ مَا عَلَى تَقْدِيمِ 'رُؤْيَا لِلْوَاقِعِ' أَكْثَرَ إِلَهَامًا وَأَعَمَّقَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي تُقَدِّمُهَا عِبَارَةٌ عِلْمِيَّةٌ أُخْرَى. نَعَمْ، يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ أَعَمُّ أَوْ أَنْفَعُ، وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَمِنْ جِهَةِ أُخْرَى، مِنَ الْمُحْتَمِّ اسْتِحَالَةُ الْحَدِيثِ عَنِ الشَّعْرِ أَوْ الدِّينِ كَمَا لَوْ أَنَّهُمَا قَادِرَانِ عَلَى تَقْدِيمِ 'الْمَعْرِفَةِ'، وَلَا سِيَّما أَنَّ 'الْمَعْرِفَةَ' قَدْ اسْتَهْلَكْتَ مُصْطَلَحِيًّا مِنْ كِلَا الطَّرَفَيْنِ حَتَّى إِنَّهَا لَا يُرْجَى مِنْهَا كَبِيرُ نَفْعٍ. فَلَا شَأْنَ لِلْقَصِيدَةِ- أَوْ لِلدِّينِ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا بَلَغَهُ اسْتِغْلَالُ الْأَدْبَانِ بِوُضُوحٍ كَبِيرٍ لِلخَلْطِ فِي الْوُظَيْفَةِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ الْحَدِيثِ عَنْهُ، وَاعْتِمَادِهَا الْكَبِيرِ عَلَيْهِ، لِيَكُونَ عِبَارَةً عَنْ أَوْرَامٍ مَرَضِيَّةٍ وَاضِحَةٍ-

بالإحالة المُحدَّدة والمُوجَّهة. إنَّها لا تُخبرنا بِشَيْءٍ، أو يَنْبَغِي ألا تُخبرنا بِشَيْءٍ. إنَّ لها وَظِيفَةً مُخْتَلِفَةً، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أَقْلَ أَهْمِيَّةٍ، وَأَنَّهَا أَعْظَمُ حَيَوِيَّةٍ بِكَثِيرٍ - وَهِيَ اسْتِعْمَالُ تَعْبِيرٍ اسْتِثَارِيٍّ لَهُ صِلَةٌ بِأَمْرِ اسْتِثَارِيٍّ. فالذي تَفَعَّلَهُ، أو الذي يَنْبَغِي أَنْ تَفَعَّلَهُ، هو تَهْيِئَةُ مَوْقِفٍ مُلَانِمٍ⁽³⁴⁾ لِلتَّجَرِبَةِ. [158] غَيْرَ أَنَّ كَلِمَاتٍ نَحْوَ 'مُلَانِمٍ'، أو 'مُنَاسِبٍ'، أو 'مُوافِقٍ' وَمَتَى يَبَعَثُ عَلَى الْقَشْعَرِيرَةِ؛ لِقَلَّةٍ مَا فِيهَا مِنَ الطَّاقَةِ الْاسْتِثَارِيَّةِ أو لَانِعْدَامِهَا فِيهَا. لِذَلِكَ كَانَ الَّذِينَ يُمَثِّلُ الشَّعْرُ أَعْظَمَ اهْتِمَامَاتِهِمْ وَالَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهَمًا لِقِيَمَتِهِ الْمَرْكَزِيَّةِ وَالْحَاسِمَةِ، مَيَّالِينَ إِلَى الْاسْتِثَاءِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ اللَّغَةِ الَّتِي لَا تَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى مَوْضُوعِهِ. وَإِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَى مَوْقِفِهِمْ هَذَا مِنْ زَاوِيَةِ الْاسْتِثَارَةِ حَكَمْنَا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُسَوِّغٌ. وَلَكِنْ إِذَا مَا تَحَقَّقَ فَضْلُ مُلَانِمٍ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْوَضِيفَتَيْنِ فَسَيَتَّضِعُ أَنَّ الْغَرَضَ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْ أَجْلِهِ أَلْفَاظُ كَهَذِهِ، أَيْ تَقْدِيمَ وَصْفٍ رَمَازِيٍّ صَارِمٍ لَوَظِيفَةِ الشَّعْرِ، الَّذِي هُوَ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ⁽³⁵⁾ الشَّكْلُ الْأَسْمَى لِللُّغَةِ الْانْفِعَالِيَّةِ، لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُعَارِضَ التَّقْوِيمَ الشَّعْرِيَّ أو الْاسْتِثَارِيَّ لِلشَّعْرِ، الَّذِي هُوَ مَحْظُ اعْتِنَاءِ الشُّعْرَاءِ بِوصفِهِمْ شُعْرَاءَ.

ثُمَّ إِنَّ مُمَارَسَةَ إِحْدَى الْوَضِيفَتَيْنِ لَا يَلْزَمُ مِنْهَا إِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِنْ لَمْ تَكُنِ الْوَضِيفَتَانِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، تَدَاخُلُ مَعَ مُمَارَسَةِ الْوَضِيفَةِ الْأُخْرَى. إِنْ مَنَظَرُ أَشْخَاصٍ يَغِيظُهُمُ الْعِلْمُ لَوْلَعِهِمْ بِالشَّعْرِ (يَصْرُخُ د. هـ. لورنس D. H. Lawrence⁽³⁶⁾ قائلاً:

(34) كَانَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَقُولَ 'ذِي قِيَمَةٍ' بَدَلًا مِنْ 'مُلَانِمٍ'، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ قِيَمَةُ مَوْقِفٍ مَا تَتَوَقَّفُ جُزْئِيًّا عَلَى مَوَاقِفَ أُخْرَى مُمَكِّنَةٍ، وَجُزْئِيًّا عَلَى مَدَى انْتِجَاجِهَا عَلَى إِمْكَانِ حَدُوثِ مَوَاقِفَ أُخْرَى فِي ظُرُوفٍ أُخْرَى، فَضَّلْنَا اسْتِعْمَالَ تَعْبِيرِ 'مُلَانِمٍ'، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَضْمِينِ أَيْةٍ شَفَرَةٍ ضَبَقَتْ لِلْمَوَاقِفِ الْمُلَانِمَةِ لِيَتَّبِعِيَ فِي كُلِّ الْمُنَاسَبَاتِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ لَفْظُ 'مَوْقِفٍ' فِي كُلِّ هَذَا الْبَحْثِ بِمَنْحَى فِيهِ سَعَةٌ، لِيَشْمَلَ جَمِيعَ الظَّرَائِقِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِهَا أَنْ تَكُونَ الدَّوَاعِي مُهَيَّأَةً لِلْفِعْلِ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَوْضَاعُ الْمُمَيَّزَةُ الَّتِي لَا تُدِيرُ فِعْلًا صَرِيحًا، وَالَّتِي غَالِبًا مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهَا بِوَصْفِهَا 'أَمْرَجَةً جَمَالِيَّةً' أو 'عَوَاطِفَ جَمَالِيَّةً'.

(35) يُنْظَرُ: الْفَصْلُ الْعَاشِرُ، ص 358-359، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كِتَابُ مَبَادِيِ التَّقْدِيرِ الْأَدَبِيِّ *Principles of Literary Criticism*، الْفُصُولُ 23-35.

(36) دَفِيدُ هَرِبِرْتُ لورنس (1885-1930م). أَحَدُ أَهَمِّ الْأَدِبَاءِ الْبَرِيطَانِيِّينَ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. تَعَدَّدَتْ مَجَالَاتُهُ إِبداعِهِ مِنَ الرُّوَايَاتِ الطَّوِيلَةِ إِلَى الْقَصَصِ الْقَصِيرَةِ وَالْمَسْرَحِيَّاتِ وَالْقَصَائِدِ =

"مَهْمَا تَكُنِ الشَّمْسُ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا لَيْسَتْ كُرَّةً بَنْزِينِ مُسْتَعِيلٍ"، أَوْ مَنْظَرَ عُلَمَاءَ مُحَصِّنِينَ كُلِّيًا مِنْ تَأْثِيرَاتِ الْحَضَارَةِ، لَيْسَتْ حَقُّ الْمَزِيدِ مِنَ الْأَسْفِ حِينَ نُدْرِكُ كَمْ هُوَ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ. وَبَعْدَ أَنْ حَرَّرَ الْعِلْمُ نَفْسَهُ مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الْعَاطِفِيَّةِ، وَغَدَتْ الْفِيزِيَاءُ الْحَدِيثَةُ أَمْرًا تَبْدُو الْمَوَاقِفُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهِ زَائِدَةً عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى حَدِّ مَا، يَبْدُو الشُّعْرُ قَرِيبًا مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى شُرُوطِ عَظَمَتِهِ بِتَخْلِيهِ عَنِ هَاجِسِ الْمَعْرِفَةِ وَالصَّدْقِ الرَّمِزِيِّ. فَلَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ تُعْرِفَ حَقِيقَةُ الْأَشْيَاءِ لِتَتَّخَذَ مَوَاقِفَ مُلَائِمَةً تَجَاهَهَا، وَإِنَّ مَزِيَّةَ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَتِيرَهَا الْفَنُّ لَتَكْمُنُ فِي اتِّسَاعِهَا غَيْرِ الْاِعْتِيَادِيِّ. وَتَقَعُ مُهِمَّةُ وَصْفِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ وَتَنْظِيمِهَا عَلَى عَاتِقِ عِلْمِ الْجَمَالِ. وَمِنْ نَافِلَةِ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ تَقْوِيمَ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ يَجِبُ أَنْ يَسْتَدَ كُلِّيًا إِلَى آرَاءِ النَّقَرِ الْأَكْثَرِ أَهْلِيَّةً لِيَحْكُمُوا بِمَوْجِبِ مَدَى خِبَرَتِهِمْ وَدِقَّتِهَا وَتَحَرُّرِهِمْ مِنَ الشَّوَاغِلِ غَيْرِ ذَاتِ الصَّلَاةِ. [159]

= الشُّعْرِيَّةُ وَالْكِتَابَاتُ النَّقْدِيَّةُ. مِنْ آثَارِهِ الرُّوَائِيَّةُ: الطَّاوُوسُ الْأَبْيَضُ، وَالْمُعْتَدِي، وَأَبْنَاءُ وَعُشَاقٍ. وَمِنْ أَهَمِّ مَوْلفَاتِهِ فِي النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ كِتَابُهُ (دِرَاسَةُ لِتُومَاس هَارْدِي وَمَقَالَاتُ أُخَرَى). [الْمُتَرْجِمُ]

الفصل الثامن

المعنى عند الفلاسفة

بولونيوس Polonius: ما الذي تقرأه يا سيدي؟
هاملت Hamlet: كلمات، كلمات، كلمات.

«آو منك يا سلطة الكلمات العجيبة، في الإيمان البسيط
في وسعك اكتساء المعنى الذي نهوى»⁽¹⁾.

هكذا هي حال الشاعر، وإن النظر لا يبطل هذا التعليق الثاقب. ولرئما
افترض أن المناطق وعلماء النفس قد أولوا المعنى عناية خاصة لأهميته الجوهرية
في جميع القضايا التي هم معنيون بها. لكن ليس هذا ما يتضح⁽²⁾ لمن يدرس

(1) قائل هذا الشعر هو وليام وردزورث William Wordsworth (1770-1850م). وهو
شاعر رومانتيكي إنجليزي كبير. وُلد في أحد أجمل أقاليم إنجلترا على ضفاف منطقة
البحيرات الرائعة، فلا غرابة أن أصبح أكبر شاعر يتغنى بجمال الطبيعة. تخرج في جامعة
كيمبرج، وكان صديقاً حميماً للشاعر كوليرج، واشتركا في تأليف كتاب يحوي أشعاراً
رومانسية لهما سمياً (قصائد غنائية)، حاولا فيه استعمال اللغة الاعتيادية في شكل
شعري، وقد كتب له وردزورث مقدمة نقدية طويلة عُدت بمنزلة بيان الحركة الرومانتيكية
الإنجليزية. [المترجم]

(2) مما تجدر الإحالة عليه هنا الفقرة الآتية التي وردت في كتاب فلسفة الأشياء من خلال
دراسة فلسفة الكلمات *Nuces Philosophicae* لمؤلفه إدورد جونسن Edward Johnson،
وقد نُشر سنة 1842:

الحلقة النقاشية في دورية *Mind* (في عددها الصادر في أكتوبر/ تشرين الأول من سنة 1920 والأعداد التي تليه) بشأن 'معنى' المعنى".

وربما لا يكون ضرورياً أن نشير إلى أن هذه المقتطفات المختصرة من البحوث الفلسفية المطوّلة بما تسمح به حدود هذا الفصل لا يمكن أن تكفي لتمثيل ما يقدمه كاتب ما من وجهات نظر، مهما تكن، إن وجد شيء منها، بشأن الموضوع الذي من أجله يستعمل كلمة 'معنى'. على أن بعض الاقتباسات تُفصّل عن نفسها، ولكن حتى عندما لا يكون ثمة سُخف فعلي فإن اللجوء [160] إلى لفظ كهذا في الاستدلال الجاد، كما لو أن له استعمالاً ما مقبولاً، أو كما لو أن استعمال الكاتب كان واضحاً على الفور، يُعدُّ ممارسة مرفوضة.

وقد بدأ الدكتور شلر Schiller⁽³⁾ بإعلانه أن اللغة الإغريقية "بلغت من

A. = أ. أعترف باستغرابي عدم سؤالك لي البتة ولو مرة طوال هذه المدة عما أغني بكلمة معنى.
B. فما الذي تعني إذن بكلمة معنى؟
C. لا تعمل. فليس في وسعك معرفة معنى كلمة معنى إلا بالنظر في طبيعة الأفكار، وصلتها بالأشياء".

وبعد نصف قرن من ذلك اقتبست الليدي ويلي Welby شيئاً مما سطره هذا الكاتب، وذلك في دورية *Mind* (1896)، وشككت "أن المفاد Sense من حيث كونه معنى *meaning* لما يتخذ بعد البتة مركزاً ينطلق الحل منه، فالتنبه، والإدراك الحسي، والذاكرة، والحكم، وما إليها، لم تُمحص البتة من حيث علاقتها المشتركة بـ 'المعنى'". وبعد انصرام خمس وعشرين سنة أخرى نجد السيد ريسل يُقر ("On Propositions: What they are and how they mean". *Proc. Arist. Soc.* 1919) ويؤيده في ذلك الدكتور شلر Schiller في الحلقة النقاشية، "بأن المناطق لم يفعلوا إلا القليل تجاه تفسير العلاقة المُسمّاة 'المعنى'".

(3) فريدناند كاينغ سكوت شلر (1864-1937م). فيلسوف ألماني بريطاني. درس في جامعة أوكسفورد، ثم أصبح أستاذاً فيها. شُبّهت فلسفته بإرغامانية وليم جيمس، وإن كان شلر يُحيل عليها بوصفها (الفلسفة الإنسانية). وكان يضاؤً يَشِدُّه كلاً من الفلسفة الوضعية المنطقية والفلاسفة المرتبطين بها كبرتراند ريسل، والبنائية المطلقة التي كان ممثليها فرانيس هربرت برادلي. من آثاره: الفلسفة الإنسانية، ودراسات في الفلسفة الإنسانية، والمنطق الصوري، ومُشكلات الاعتقاد. [المُترجم]

النَّقْصِ حَدًّا جَعَلَ مِنَ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فِيهَا مُفْرَدَةً لِفِكْرَةٍ " الْمَعْنَى مُطْلَقًا، وَحِينَ وَاصَلَ الْحَدِيثَ مُبَيَّنًا وَجْهَهُ نَظَرِهِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ " الْمَعْنَى شَخْصِيٌّ فِي أُسَاسِهِ... فَمَا يَعْنِيهِ أَيُّ شَيْءٍ يَعْتَمِدُ عَلَى مَنْ يَعْنِيهِ " وَجَدَ مِنَ الصَّرُورِيِّ تَجَاوُزَ مَا يَرَاهُ السَّيِّدُ رَسِيلَ مِنْ أَنَّ " مُشْكِلَةً مَعْنَى الْكَلِمَاتِ تُخْتَزَلُ فِي مُشْكِلَةٍ مَعْنَى الصُّورِ ". وَرَدَّ السَّيِّدُ رَسِيلَ بِمُحَاوَلَتِهِ " إِضْفَاءَ الْمَزِيدِ مِنَ التَّحْدِيدِ عَلَى تَعْرِيفِ الْمَعْنَى بِتَقْدِيمِ فِكْرَةٍ "السَّبَبِيَّةُ التَّذْكُرِيَّةُ" mnemic causation⁽⁴⁾، فَتَجَحَّ بِذَلِكَ فِي تَطْوِيرِ وَصْفِ تَنْوِيرِيٍّ لِلْمِيتَافِزِيْقَا. وَأَوْضَحَ وَجْهَهُ نَظَرِهِ بِقَوْلِهِ: " إِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ تَحْقِيقَ الْعُمُومِ التَّامِّ، مِثْلَ كَلِمَةِ 'كِيَان' entity ' عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَالِيَةً مِنَ الْأَثَارِ التَّذْكُرِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ مِنَ الْمَعْنَى. لَكِنَّ الْأَمْرَ مُخْتَلِفٌ عِنْدَ الْمُمَارَسَةِ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَهَا تَرَابُطَاتٌ لَفْظِيَّةٌ تُؤَسِّسُ مَعْرِفَتَهَا دِرَاسَةً الْمِيتَافِزِيْقَا ". وَأَقْرَأَ السَّيِّدُ يُوَاكِيمَ Joachim⁽⁵⁾، الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَتَأَيَّ بِنَفْسِهِ عَنْ هَذَا النِّقَاشِ، بِأَنَّهُ يَجِدُ السَّيِّدَ رَسِيلَ 'يُؤَكِّدُ أَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَكُونُ فِي مَقْدُورِ أَحَدٍ أَنْ يُفَكِّرَ"، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَحْلِيلِ لَوْظِيْفَةِ الصُّورِ، مُنْبَهًا فِي الْهَامِشِ عَلَى حَقِيقَةِ أَنَّ الْمَعْنَى عِنْدَ السَّيِّدِ رَسِيلَ بَدَأَ (وَسَطَ أَشْيَاءَ أُخْرَى) 'عِلَاقَةً'، وَأَنَّ " الْعِلَاقَةَ 'نُشْيُ' الْمَعْنَى، وَأَنَّ الْكَلِمَةَ لَيْسَ 'لَهَا' مَعْنَى فَحَسَبُ، بَلْ إِنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِمَعْنَاهَا " .

(4) ترتبط فكرة السببية التذكيرية عند رَسِيلَ بِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْعَقْلَ وَالْمَادَّةَ كِلَاهُمَا بِمَنْزِلَةِ تَرْكِيبَاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ اسْتُمِدَّتْ مِنَ الْعُنَاصِرِ الَّتِي هِيَ فِي أَصْلِهَا مُعْطِيَاتُ الْجِسِّ الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ بِالْعَقْلِيَّةِ وَلَا بِالْمَادِّيَّةِ، وَإِنَّمَا تَعْتَمِدُ بِكَوْنِ بَعْضِ الْعُنَاصِرِ فِيهَا - كَالصُّورِ الذَّهْنِيَّةِ وَالْمَشَاعِرِ - لَا تَدْخُلُ إِلَّا فِي تَرْكِيبِ الْعُقُولِ. وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ مُعْطِيَاتِ الْجِسِّ أَنْفُسَهَا حِينَ تَرَابُطَ تَبَا لِقَوَانِينِ الْفِيزِيَاءِ تُكُونُ الْأَشْيَاءَ الْمَادِّيَّةِ، وَحِينَ تَرَابُطَ تَبَا لِقَوَانِينِ عِلْمِ النَّفْسِ تُعَيَّنُ عَلَى تَكْوِينِ الْعُقُولِ. وَهِيَ حِينَ تَكُونُ عَقْلِيَّةً تَقُومُ بِمُهَمَّاتٍ مِنْهَا مَا يَسْمِيهِ رَسِيلَ السَّبَبِيَّةُ التَّذْكُرِيَّةُ، وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الْفِعْلِ عَلَى الْبُعْدِ؛ لِأَنَّ الْخِبْرَاتِ الرَّاهِنَةَ تَسْتَتِيعُ صُورًا ذَهْنِيَّةً مِنَ الذَّاكِرَةِ [الْمُتَرْجِم]

(5) هَارُولْد هَنْرِي يُوَاكِيمَ (1868-1938م). فِيلَسُوفٌ مِثَالِيٌّ بَرِيطَانِيٌّ. يُعْرَفُ عَمُومًا بِتَأْسِيسِهِ نَظَرِيَّةَ تَمَاسُكِ الصَّدَقِ فِي كِتَابِهِ (طَبِيعَةُ الصَّدَقِ). وَكَانَ كَذَلِكَ دَارِسًا لَارِسْطُو وَسِينُوزَا. مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ الْأُخْرَى غَيْرِ (طَبِيعَةُ الصَّدَقِ): التَّجَرُّبَةُ وَالتَّأَمُّلُ الْمُبَاشِرَانِ، وَدِرَاسَاتُ مَنْطِقِيَّةٍ، وَقَوَاعِدُ دِيكَارْتِ لِتَوْجِيهِ الْعَقْلِ. [الْمُتَرْجِم]

واكتسب هذا الأمر كله طابعاً مُميّزاً على يد الدكتور شلر بعد ستة أشهر من ذلك (في أبريل/نيسان، 1921، ص 185)، بوصفه يُقدّم "السّمات الاعتيادية للدرس الفلسفي. أي إنه يبدو وكأنه نزاع ثنائي الأطراف، يستهدف كل طرف فيه شيئاً مُختلفاً، وهو عند الطرف الآخر مُخطئ للهدف وواقع في الوهم". وعند خوضه في التفصيلات يقتبس تعليقاً للسيد رسل مفاده أن "جميع الكلمات التي يحاول الدكتور شلر أن يصف بها [161] كياناته التي لا تُلاحظ تقتضي، مع ذلك، أنه يستطيع أن يلاحظها"، بوصفها حالة نموذجية لـ "هيمنة المعنى اللفظي على المعنى الفعلي، وهو ما لا يكاد يمكن تجاوزه في كتابات السيد برادلي Bradley⁽⁶⁾".

وأوضح السيد ألفريد سيدغوك Alfred Sidgwick (ص 285) في شهر يوليو/ تموز أن "المعنى يعتمد على النتائج، وأن الصدق يعتمد على المعنى"، وتدخل البروفيسور سترونغ Strong⁽⁷⁾ (ص 313) بوصفه 'واقعيًا نقديًا critical realist'⁽⁸⁾ ليردّ اعتراضات الدكتور شلر على السيد رسل وليجعل نظرية الأخير واضحة للسيد يواكيم. وقد أوضح هذا بتخيل انفجار. فحين نسمع ما ندعوه انفجاراً لا يكون الصوت قد اكتسب الكثير ليتحوّل إلى معنى... فما هو غير ملموس وغير مُحسّس يكون على الدوام معنى، على الوجه الذي يفيد ما لا يسبر غوره ولا يمكننا أن نأمل ما وراءه بل أن نقصده فقط... فإن تعني شيئاً ما هو أن تصوّره

(6) فرانيس هيربرت برادلي (1846-1924م). فيلسوف إنجليزي، دّرس في جامعة أوكسفورد، وعيّن أستاذاً فيها. كان هيجلياً وقف بالصد من الليبرالية والتفعية والتجريبية والوضع التي راجت في زمانه، وعارض برتراند رسل ووليم جيمس وجورج إدورد مور. أهم كتبه: دراسات أخلاقيّة، ومبادئ المنطق، والظاهر والحقيقة. [المترجم]

(7) تشارلز أوغسطس سترونغ (1862-1940م). فيلسوف، وعالم نفس. أمضى مرحلته المهنية الأولى مدرّساً في أمريكا، لكنه استقرّ فيما بعد في إيطاليا قرب فلورنسا حيث كتب معظم مؤلفاته بين سنتي 1918 و1936، ومنها: أصل الشعور، ومقالات في الأصل الطبيعي للعقل. [المترجم]

(8) سبق التعريف بالواقعية التّقدّية في الفصل الثاني. [المترجم]

أَوْ بِالْأَحْرَى أَنْ تُعَامِلَهُ بِوَصْفِهِ غَيْرَ مُنْكَشِفٍ كُلِّيًّا لِلْعَقْلِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ⁹.

وَيُجِيبُ الدُّكْتُورُ شِلَرُ عَنْ هَذِهِ النُّقْطَةِ بِأَنَّ الدُّكْتُورَ سَتْرُونِغَ يَقْصُرُ اهْتِمَامَهُ عَلَى الدَّوَامِ بِالْحَالَةِ "الَّتِي يُقَالُ فِيهَا عَنْ 'الشَّيْءِ' إِنَّهُ 'يَعْنِي كَذَا وَكَذَا'". وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا "يَفْرَضُ عَلَيْهِ أَعْبَاءُ اسْتِخْلَاصِ الْمَعْنَى الشَّخْصِيَّةِ، وَتَفْسِيرِ صِلَةِ 'الْمَعْنَى لِشَيْءٍ مَا بِأَغْرَاضٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَمَعَانٍ شَخْصِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ" (ص 445). ثُمَّ يَسْتَتِجُ (ص 447) أَنَّ "وُجُودَ الْمَعْنَى الشَّخْصِيَّةِ يَظَلُّ عَقَبَةً فِي طَرِيقِ الْعَقْلَانِيَّةِ". وَمِنْ الْمُفْتَرَضِ أَنَّ هَذَا الْجَدَلَ مَا زَالَ فِي تَنَامٍ.

وَبِالْتَّرَامُنِ مَعَ الْحَلْفَةِ النِّقَاشِيَّةِ فِي الْمَعْنَى الَّتِي ظَهَرَ فِي دَوْرِيَّةِ *Mind* كَانَ يَجْرِي بَحْثٌ فِي طَبِيعَةِ الْحُبْسَةِ فِي دَوْرِيَّةِ *Brain*⁽⁹⁾، وَفِي أَثْنَاءِ مُنَاقَشَةِ آرَاءِ الدُّكْتُورِ هِيد *Head*⁽¹⁰⁾ طَلَفَتْ عَلَى السَّطْحِ مَسْأَلَةُ الْمَعْنَى. وَقَدْ قَدَّمَ الدُّكْتُورُ هَرِبِرْتُ بَارَسَنْزُ *J. Herbert Parsons*⁽¹¹⁾ مُذَكَّرَةً خَاصَّةً أَوْحَتْ بِهَا مُعَالَجَةُ 'الْحُبْسَةِ الدَّلَالِيَّةِ' *semantic aphasia*⁽¹²⁾، وَهِيَ تُسَلِّطُ ضَوْءًا مُثِيرًا لِلْاهْتِمَامِ [162] عَلَى مِقْدَارِ الْعَوْنِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ أَنْ يَحْصَلَ عَلَيْهِ أَطِبَاءُ الْأَعْصَابِ مِنْ جُهِودِ الْفَلَّاسِفَةِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ. وَيَقَرُّرُ الدُّكْتُورُ بَارَسَنْزُ أَنَّ فِي أَدْنَى مُسْتَوَى لِلْأَحْيَاءِ "لَنْ يَكُونَ مِنْ دَوَاعِي الْحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ إِنْكَارُ وُجُودِ شَيْءٍ مِنَ الْمَنْحَى الْعَاطِفِيِّ - وَهَذَا هُوَ الْبَذَرَةُ الْأَوَّلِيَّةُ لـ 'الْمَعْنَى'". عَلَى أَنَّ فِي الْمُسْتَوَى الْإِدْرَاكِيِّ "تُمَيِّزُ مَادَّةُ الْحَيَاةِ غَيْرُ الْمُمَيَّزَةِ نَسْبًا إِلَى عَنَاصِرٍ عَاطِفِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ، وَيُعَادُ إِدْمَاجُهَا مَرَّةً أُخْرَى، لِيَتَحَوَّلَ بِذَلِكَ إِلَى تَرْكِيبِ تَوْفِيقِيٍّ هُوَ 'مَعْنَى' التَّجَرُّبَةِ الْمُعْطَاةِ. إِنْ غَمَرَ 'الْمَعْنَى' الْإِدْرَاكِيَّ بِالْمَنْحَى الْعَاطِفِيِّ مَصْدَرُهُ فَعَالِيَّةٌ غَرِيبَةٌ نَزْوَعِيَّةٌ". وَهَكَذَا، فِي خِتَامِ رَدِّ

1920. Vol. XLIII., Parts II. And IV.

(9)

(10) هنري هيد (1861-1940م). طبيب أعصاب إنجليزي. نَقَذَ عَمَلًا رِيَادِيًّا فِي النِّظَامِ

الجسدي-الجِنِّي والأعصابِ الجِنِّيَّةِ. [المُتَرْجِم]

(11) جون هربرت بارسنز (1868-1957م). طبيب بريطاني. من مؤلفاته: مقدمة لدراسة رؤية

اللون، وأمراض العين. [المُتَرْجِم]

"The Psychology of 'Meaning' in its Relation to Aphasia". *Ibid.*, p. 441.

(12)

الفعل المتكامل 'أصبح' المعنى 'غنياً ومُعَقَّدًا... وهذا 'المعنى' المُعَدَّلُ يَكُونُ مُخْتَرَنًا، وقابلاً للتجديد على الرغم من أنه قد هُبطَ بِهِ إلى أسفل عتبة الوعي... إنَّ الإدماج والتركيب التوفيقي لِمَادَّةِ الحِياةِ التي هي أكثر طواعيةً سَلَفًا يُنْشِئَانِ نَمَطًا مِنَ 'المعنى' أرقى وأكثر تعقيدًا'. وفي مَرَحَلَةٍ لاحِقَةٍ يَظْهَرُ تَأْثِيرُ البِئِئَةِ الاجتماعية، وفي عَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ الاجتماعي المُعَقَّدَةِ 'تَكُونُ النَتَائِجُ الكُلِّيَّةُ مُعَادِلَةً لِتَفَاعُلِ 'المعاني' القَدِيمَةِ والجَدِيدَةِ، لِشَيْءٍ عَدَدًا غَيْرِ مُتَنَاوٍ مِنْ 'معانٍ' أَكْثَرُ جِدَّةً، وَغَنًى، وَتَهْدِيدًا'. وفي هَذِهِ المَرَحَلَةِ 'تَتَوَلَّى الفَعَالِيَّاتُ الخَلَاقَةُ مَهْمَةً التَّأَثُّرِ فِي مُسْتَوًى أرقى'، و'تُظْهَرُ تَوَاصُلًا مَعَ البِئِئَةِ كَانَتْ غَائِبًا حَتَّى الْآنَ'. فَمَا يَصْطَلِعُهُ الطِّفْلُ مِنْ 'إِيمَاءَاتٍ لَا يَغْدُو مُجَرَّدَ عِلَامَاتٍ سَلْبِيَّةٍ لِفَعَالِيَّاتِهِ العَقْلِيَّةِ، بَلْ إِنَّهُ إِشَارَاتٌ فَعَالَةٌ لِمَشَاعِيرِهِ وَرَغَائِبِهِ. وَهَذَا هُوَ فَجْرُ اللُّغَةِ'.

ولربما كَانَ فِي إِمْكَانِ التَّحْلِيلِ التَّفْصِيلِيِّ لِحِوَارِ دَوْرِيَّةِ *Mind* النِّقَاشِي أَنْ يُسْهِمَ فِي إِضَاءَةِ الدَّرَبِ بِوَصْفِهِ تَمْهِيدًا لِصِيَاغَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّعْرِيفَاتِ، لَكِنْ أَلَيْتُهُ كَانَتْ مُحَيَّيَّةً لِلْأَمَالِ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُعْتَادٍ⁽¹³⁾، وَمَا دَامَتْ حَلَبَةُ الصَّرَاحِ المِيتَافِيزِيَّةِ لِلْعَالَمِ الْقَدِيمِ فِي آيَةٍ حَالَةٍ لَا بُدَّ أَنْ تُوجِي لِلْكَثِيرِينَ بِجَوِّ مِنَ الْجَدَلِ اللفْظِيِّ الْعَقِيمِ، فِيمَا كُنَّا أَنْ نَتَعَامَلَ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ [163] إِيْجَابِيَّةٍ مَعَ التَّخْلِيْطَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ حِينَ يُعْلِي الطَّرْفُ ذَلِكَ وَأَنْ نُتَوَّهَ هُنَا بِنَهْجِ النَّتَاجِ الْجَمَاعِيِّ الْأَحْدَثِ لِلْعَالَمِ الْجَدِيدِ. إِذْ إِنَّ كِتَابَ مَقَالَاتٍ فِي الْوَاقِعِيَّةِ النُّقْدِيَّةِ *Essays in Critical Realism*، الَّذِي ظَهَرَ فِي سَنَةِ 1920، يُعْتَلُّ جُهْدَ سَبْعَةٍ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ الْأَمْرِيكِيِّينَ⁽¹⁴⁾ نَفَّحَ كُلُّ مِنْهُمْ لُغَتَهُ وَدَقَّقَ فِيهَا حَتَّى لَقِيَتْ اسْتِحْسَانًا كُتَابِ الْمَقَالَاتِ الْآخَرِينَ جَمِيعًا. وَتُمَثِّلُ

(13) مَرَدُّ ذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ كَبِيرٍ إِلَى عَدَمِ انْجِمَامِ أَمْرِجَةِ الْمُتَحَاوِرِينَ. وَاسْتَبْدَلَ السِّيْدُ رَيْبِلُ الْآنَ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، بِإِسْهَامِهِ ذَاكَ الْفُصُولِ ذَاتِ الصَّلَةِ فِي كِتَابِهِ تَحْلِيلُ الْعَقْلِ *Analysis of Mind*، الَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ أَيْضًا (ص 137).

(14) أَوَّلُهُمْ دِيورْنَت دَرْكٍ وَعِنَاوَانُ بَحْثِهِ (مُقَارَبَةُ الْوَاقِعِيَّةِ النُّقْدِيَّةِ)، وَثَانِيَهُمْ آرْتَرُ أُونْكِينُ لَفْجُورِي وَعِنَاوَانُ بَحْثِهِ (بَيْنَ الْبِرَاغِمَاتِيَّةِ وَالْبِرَاغِمَاتِي)، وَثَالِثُهُمْ جِيمْسُ بَسِيْتُ بَرَاتٍ وَعِنَاوَانُ بَحْثِهِ (الْوَاقِعِيَّةُ النُّقْدِيَّةُ وَإِمْكَانُ المَعْرِفَةِ)، وَرَابِعُهُمْ آرْتَرُ كِينْتِنُ وَرُجَرُزُ وَعِنَاوَانُ بَحْثِهِ (مُشْكِلةُ الْقَلَطِ)، وَخَامِسُهُمْ جُورْجُ سَانْتِيَانَا وَعِنَاوَانُ بَحْثِهِ (ثَلَاثَةُ بَرَاهِينٍ لِلْوَاقِعِيَّةِ)، وَسَادِسُهُمْ رُوي =

هذه المقالات ثمرات عقدي زمني من الجدَل في حقلٍ جدليٍّ محدود، حيث 'مَكُنْتنا أَلْفَةً بَعْضُنا مَعانِي بَعْضٍ مِنْ فَهْم طرائقٍ لِلتَّعبيرِ كُنّا في البَدْءِ مَيّالِينَ إلى مُعارَضَتِها'. وقد فَصَّلَ القَوْلُ في المَسائِلِ الجَدَلِيَّةِ الرَّئِيسَةِ سَلَفًا مِنْ خِلالِ المُؤتمراتِ التي ابتَدَأَ انْعقادُها بَيْنَ سَنَتَي 1908-1909، في كِتابٍ ذي جُهدٍ جَماعيٍّ مُشابهٍ، اشْتَرَكَ في وَضْعِهِ سِتَّةٌ⁽¹⁵⁾ مِنَ الواقِعِيِّينَ الجُدُدِ Neo-realists⁽¹⁶⁾. وَمُكِنَ عَدَّ الحَصِيلَةَ النَّهائِيَّةَ عُصارَةَ جُهدِ لثَلَاثَةِ عَشَرَ مُحْتَصًا ذَابُوا جَمِيعًا على مُواصلَةِ تَطوِيرِ مُصطلحاتِهِم المُتبادِلَةِ على مَرأى مِنَ النَّاسِ مُدَّةً تَزِيدُ على عَقْدٍ مِنَ الزَّمَنِ.

وَلَيْسَتْ بِنّا حَاجَةً في هذا المَقامِ إلى أن نُعنى بِالكِتابِ السَّابِقِ إلّا بِقَدْرِ ما يَسْتَلزِمُهُ الأمرُ مِنَ التَّنبيهِ على أَنَّ المُقَدِّمَةَ، التي شَهِدَتْ تَشديدًا على الاستِعمالِ

= وود سيلرز وعنوان بحثه (المعرفة ومقولاتها)، وسابهم تشارلز أوغسطس سترونغ وعنوان بحثه (في طبيعة المعطى). [المترجم]

(15) عنوان الكتاب هو (الواقعية الجديدة- دراسات فلسفية جماعية)، وأوّل المشاركين في تأليفه والتر مارفن وعنوان بحثه (تخليص الميتافيزيقا من الاستمولوجيا)، وثانيهم رالف بارتن بيرى وعنوان بحثه (النظرية الواقعية لعدم التبعية)، وثالثهم إدورد غليسن سباولينغ وعنوان بحثه (دفاع عن التحليل)، ورابعهم وليم بيبيريل مونتاغ وعنوان بحثه (النظرية الواقعية للصدق والغلط)، وخامسهم إدون هولت وعنوان بحثه (مكانة التجربة الوهمية في العالم الواقعي)، وسادسهم والتر بتكن وعنوان بحثه (مقتضيات واقعية لعلم الأحياء). [المترجم]

(16) الواقعية الجديدة: فلسفة ظهرت في أمريكا في بدايات القرن العشرين بوصفها مُضادَّةً لِلْمِثَالِيَّةِ السائدة التي كانَ جُوزايا رويس يُدافعُ عنها، ومُتجاوِزَةً لِلبراغماتِيَّةِ لدى أحدِ أهمِّ فُرسانيها وهو وليم جيمس، ومُقتديَّةً بِنهجِ العُلَماءِ في العملِ الجَماعيِّ، ومُتَّخِذَةً التمدُّيَّةَ غايَةً ميتافيزيقيَّةً والتحليلَ منهجًا علميًّا. وزيادة على إسهاماتِ أصحابِها في مجالِ الاستمولوجيا كانَ أكبرُ إسهامٍ لِمؤسِّسِها رالف بارتن بيرى في مجالِ القِيَمِ والنظريةِ الاجتماعيةِ الذي يَظْهَرُ جليًّا في كتابَيْهِ (النظرية العامة للقيمة) و(آفاق القيمة)؛ إذ سعى إلى تقديمَ نظريَّةٍ توافقِيَّةٍ للخيرِ والسعادةِ يُطوِّرُ فيها الفِلسفَةَ النفعِيَّةَ في ضوءِ الأخلاقِ الكانتِيَّةِ، مُمَهِّدًا الطريقَ بِذلكَ لِلإسهامِ الذي قَدَّمَهُ الفيلسوفُ الأمريكيُّ المعاصرُ جون رولز في نظريَّةِ العدالة. [المترجم]

المُدَقَّقِي لِلْكَلِمَاتِ وَعَلَى أَهَمِّيَةِ التَّعْرِيفَاتِ الْوَاضِحَةِ، اشْتَمَلْتُ عَلَى التَّعْلِيلَاتِ الْآتِيَةِ:-

"فِي الْخِطَابِ الدَّقِيقِ يَجِبُ أَنْ يَخْضَعَ مَعْنَى كُلِّ تَعْبِيرٍ لِلْمُرَاجَعَةِ".

"إِنْ لَمْ نَسْتَطِعِ التَّعْبِيرَ عَمَّا نَعْنِي بِتَعْبِيرَاتٍ دَقِيقَةٍ فَلْنَتَصَرَّفْ، فِي الْأَقْلَى، إِلَى صَفْلِ الْأَدَبِ".

"إِنَّ الْمِثَالِيَّةَ لَمْ تَعْنِ شَيْئًا لِعَالَمِ النَّفْسِ الْفِعْلِيِّ".

- فِي حِينِ أَنَا نَجِدُ البروفيسور بِتْكين Pitkin⁽¹⁷⁾ يَغْتَرِضُ فِي الْمَقَالَةِ الْأَخِيرَةِ عَلَى نُقْطَةِ حَاسِمَةٍ هِيَ أَنَّ أَلِكْسَنْدَرَ Alexander وَنُنْ Nunn⁽¹⁸⁾ "يُعَامِلَانِ مَادَّةَ stuff الأغراضِ الْهَلُوسِيَّةِ وَحَدَّهَا عَلَى أَنَّهَا حَقِيقِيَّةٌ، تَارِكِينَ الْمَعَانِي غَيْرَ الصَّحِيحَةِ نِتَاجَاتٍ لِعَقْلِ تَفْسِيرِيٍّ إِلَى حَدِّ مَا".

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، أَي سَنَةِ 1912، لَمْ تَتَوَقَّفْ كَلِمَةُ 'مَعْنَى' عَنْ آدَاءِ دَوْرٍ حَاسِمٍ فِي أَيِّ خِلَافٍ، وَلَمَّا كَانَ الْوَاقِعِيُّونَ النَّقْدِيُّونَ قَدْ حَظُّوا بِمِثْلِ تِلْكَ الْفُرْصَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَجَنُّبِ آيَّةِ حَالَاتٍ لَبَسَ رُبَّمَا كَانَ الْوَاقِعِيُّونَ الْجَدُّ قَدْ وَقَعُوا فِيهَا، [164] أَمْكَنَّا، بِقَدْرِ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِالْوَاقِعِيَّةِ، أَنْ نَقْصُرَ أَنْفُسَنَا عَلَى جُھُودِهِمْ.

فَفِي الْبَدَءِ يَأْتِي البروفيسور دَرِيْكَ الْمُنْتَسِبُ إِلَى كَلِيَّةِ فَاسَار Drake of Vassar⁽¹⁹⁾، لِيَقُولَ:-

(17) وَالتَّر بُوغْتِن بِتْكين (1878-1953م). مُحَاضِرٌ أَمْرِيْكِيٌّ فِي الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمِ النَّفْسِ فِي جَامِعَةِ كُولومْبِيَا بَيْنَ سَنَتَيْ 1905 وَ1909. كَانَ يَنْشِئُ إِلَى مَدْرَسَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْجَدِيدَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ، وَيَكْتُبُ عَنْ عِلَاقَتِهَا بِعِلْمِ الْأَحْيَاءِ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَفَاتِهِ: الْحَيَاةُ تَبْدَأُ فِي سَنِّ الْأَرْبَعِينَ، وَسَايَكُولُوجِيَّةُ السَّعَادَةِ، وَمُقَدِّمَةٌ مُوجَزَةٌ فِي تَارِيخِ الْعَبَاءِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(18) تُوْمَاسُ بِيْرْسِي نُنْ (1870-1944م). تَرْبُويٌّ بَرِيْطَانِيٌّ، وَأَسَاتِذُ التَّرْبِيَةِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1913 وَ1936 فِي مَعْهَدِ التَّرْبِيَةِ فِي جَامِعَةِ لَنْدُن. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ: أَهْدَافُ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ وَمُنْجَزَاتُهُ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(19) دِيُورَنْتُ دَرِيْكَ (1878-1933م). أَسَاتِذُ الْفَلَسَفَةِ فِي كَلِيَّةِ فَاسَار فِي أَمْرِيْكََا. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَفَاتِهِ: مُشْكِلاَتُ الدِّينِ، وَأَمْرِيْكََا تَوَاجُهُ الْمُسْتَقْبَلُ. [الْمُتَرَجِّمُ]

"إِنَّ مَعْنَى 'الْوُجُودِ' نَفْسُهُ يَسْتَلْزِمُ مَحَلًّا مُّحَدَّدًا" (ص16).

"إِنَّ مَعْنَى لَفْظِ 'العَلَاَقَةِ' نَفْسُهُ يَتَضَمَّنُ الإِحَالَةَ عَلَى شَيْءٍ مَا مُتَعَلِّقٍ" (ص19).

وَتُسْتَعْمَلُ هَاتَانِ الْعِبَارَتَانِ لِتَقْوَدَا إِلَى وَجْهَةِ النَّظَرِ الْقَائِلَةِ إِنَّ الْمُعْطِيَّاتِ
الإِدْرَاكِيَّةَ "لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ وَجُودَاتٍ مُّمَاثِلَةً لِأَسْبَابِهَا"، وَإِنَّا "نَعُودُ فِي مَكَانٍ
مَا إِلَى الصِّفَاتِ".

ويُواصلُ البروفيسور لفجوي Lovejoy الْحَدِيثَ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ سَيَكُونُ مَشْرُوعًا
كَبِيرًا أَنْ "تُحَلَّلَ مَعَانِي" صِيَاغَاتِ الْبِرَاغِمَاتِيَّةِ، الَّتِي "بَدَأَتْ نَظَرِيَّةٌ تُعْنَى بِالشُّرُوطِ
الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ عَنِ الْمَفَاهِيمِ وَالْقَضَايَا الَّتِي تَخْضَعُ لَهَا إِنَّ لَهَا مَعْنَى، وَتُعْنَى
بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَوَقَّفَ عَلَيْهَا جَمِيعُ الْمَعَانِي". وَبَرَى أَنَّ الْبِرَاغِمَاتِيَّيْنَ
يُغْفِلُونَ الْحَقِيقَةَ الْوَاضِحَةَ وَهِيَ أَنَّ "الكَثِيرَ مِنْ مَعَانِينَا ارْتِجَاعِيٌّ
retrospective⁽²⁰⁾... فَلَيْسَ ثَمَّةَ خُدْعَةٍ مَنَظِقِيَّةٍ بِإِمَكَانِهَا تَحْوِيلُ مَعْنَى 'أَمْسٍ' إِلَى
مَعْنَى 'عَدَا... إِنَّهُ، فِي الْحَقِيقَةِ الْفِعْلِيَّةِ، مَعْنَى غَيْرِ قَابِلٍ فِي حَدِّ ذَاتِهِ لِلْإِنْجَازِ
التَّجْرِبِيِّ الْمُبَاشِرِ... وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ التَّجْرِبِ الْفِعْلِيِّ لِإِنْجَازِ هَذِهِ الْمَعَانِي
الْبَيِّنَةِ، لَدَيْنَا مِثْلٌ لَا يُقَاوَمُ إِلَى اعْتِقَادٍ أَنَّ بَعْضَهَا مَعَانٍ صَحِيحَةٌ حَقًّا... وَالْحُكْمُ هُوَ
سَيِّدُ نَفْسِهِ فِي تَحْدِيدِ مَا يَعْنِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فِي شَأْنِ تَحْدِيدِ إِنْجَازِ مَعَانِيهِ".

وَيُنصُّ البروفيسور برات Pratt⁽²¹⁾ عَلَى أَنَّ الْوَاقِعِيَّيْنَ الْجُدَّدَ "أَنْجَزُوا تَحْلِيلًا
نَافِعًا جَدًّا بِتَأْكِيدِهِمْ أَنَّ الْمُعْطِيَّاتِ الْمُقَدَّمَةَ لِفِكْرِنَا تَتَأَلَّفُ مِنْ مَعَانٍ أَوْ طِبَائِعٍ"،
لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفَرِّقُوا "بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي وَالْجُزْءِ الْحِسِّيِّ مِنْ حَالَاتِنَا الذَّهْنِيَّةِ مِنْ جِهَةِ

(20) لِلْكَلِمَةِ أَصْلٌ لَاتِينِيٌّ هُوَ كَلِمَةُ (retrospectare) الَّتِي تَعْنِي النَّظَرَ إِلَى الْوَرَاءِ. وَمَعْنَى الْكَلِمَةِ
الْعَامُّ هُوَ النَّظَرُ فِي الْأَحْدَاثِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ وَقَعَتْ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، تُسْتَعْمَلُ الْكَلِمَةُ فِي
الطَّبِّ لِلتَّعْيِيرِ عَنِ النَّظَرِ فِي التَّأْرِخِ الطَّبِّيِّ لِلْمَرِيضِ. [المُتَرَجِّم]

(21) جِيمْسُ بَرَات (1875-1944م). أَسَاتِذُ الْفَلَسَفَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ فِي كُلِّيَّةِ وَلِيمز
فِي أَمْرِيكََا. كَانَ رَئِيسَ الْجَمْعِيَّةِ الْإِهْوَائِيَّةِ الْأَمْرِيكَِيَّةِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1934 وَ1935. مِنْ
مُؤَلَّفَاتِهِ: سَايْكُولُوجِيَّةُ الْإِعْتِقَادِ الدِّينِيِّ، وَمَا الْبِرَاغِمَاتِيَّةُ؟ [المُتَرَجِّم]

والأغراض الوجودية الفيزيائية التي تُعزى إليها المعاني من جهة أخرى. فقد يَصِفُ عَدَدٌ مِنَ الْأَشْخاصِ تَصَوُّرَهُمْ لشيءٍ ما على نحوٍ مُخْتَلِفٍ، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ جَمِيعًا [165] "عَنُوا الشَّيْءَ نَفْسَهُ، أَوْ فَكَّرُوا فِي الشَّيْءِ نَفْسِهِ". ويُوَاصِلُ حَدِيثَهُ لِيُفَرِّقَ (ص 90) بَيْنَ الْمَعْنَى الَّذِي يُضَمِّرُهُ الشَّخْصُ فِي التَّصَوُّرِ "وَالصُّوَرِ الَّتِي هِيَ 'نَاقِلَةٌ' لِلْمَعْنَى. وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي نَجِدُهُ مُعْطًى مُبَاشَرَةً لِفِكْرَتِنَا"، وَيَرَى "أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ الْمُعْطَى كَثِيرًا مَا يَكُونُ قَابِلًا لِلتَّعْرِيفِ الدَّقِيقِ، أَيْ أَنَّ لَهُ طَبِيعَةً قَابِلَةً لِلتَّعْرِيفِ، أَوْ بِالْأَحْرَى أَنَّهُ طَبِيعَةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّعْرِيفِ". وَالْإِدْرَاكُ الْحِسِّيُّ، شَأْنُهُ شَأْنُ التَّصَوُّرِ، "لَا يَسْتَمِلُ عَلَى صُورٍ حِسِّيَّةٍ وَمُنْشَطَةٍ فَحَسَبُ، بَلْ عَلَى غُضْضٍ وَاسِعٍ مِنَ الْمَعْنَى أَيْضًا". وَالْمُعْتَادُ أَنْ تَكُونَ "جَمِيعُ الصِّفَاتِ الْمُحَسَّةِ sensed مُضْمَنَةً فِي الصِّفَاتِ الْمَعْنِيَّةِ meant". أَمَّا الْإِحَالَةُ الْخَارِجِيَّةُ (ص 92) "فَيُمْكِنُ عَدُّهَا جُزْءًا مِنْ مُعْطَى الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ أَوْ مَعْنَاهُ، لِكَيْتُهُ جُزْءٌ يَسْهُلُ تَمْيِيزُهُ". وَبِسَبَبِ رُدُودِ الْفِعْلِ الْمَاضِيَةِ فَإِنَّ مَجْمُوعَةَ الصِّفَاتِ "الَّتِي يَعِيهَا الشَّخْصُ نَغْنِي مُبَاشَرَةً أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ. فَنتِيجَةً لِكُلِّ تَجَارِبِ الشَّخْصِ الْمَاضِيَةِ أَصْبَحَتْ تَرْمِزٌ إِلَى كِيَانٍ فَعَالٍ". وَمَجْمُوعَةُ الصِّفَاتِ هَذِهِ "نَغْنِي أَوْ تَنْصَرُّنُ مُبَاشَرَةً عِنْدَ الْفَرْدِ حُضُورَ كِيَانٍ فَعَالٍ، وَإِلَى حَدِّ مَا، طَبِيعَتُهُ، وَهُوَ مَا يُسْتَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ وَاعِيًا لَهُ. إِنَّهَا، بِاخْتِصَارٍ، الْوَسِيلَةُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الْمَوْضُوعُ". وَفِي خِتَامِ حَدِيثِهِ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْوَاقِعِيِّينَ النَّقْدِيِّينَ "لَا يَدْعُونَ مَعْرِفَةً شَامِلَةً لِلطَّبِيعَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْكِيانَاتِ الْفِيزِيائِيَّةِ، قَدْ عَرَفْنَاهَا بِمَا يَكْفِي لِمَعْرِفَةٍ مَا نَغْنِي بِهَا، وَلِجَعْلِ ذَلِكَ الْمَعْنَى وَاضِحًا تَمَامًا لِلْجَمِيعِ إِلَّا لِمَنْ قَادَهُ ضَلَالُهُ إِلَى الْعَمَى".

وَيَشْكُو البروفيسور روجرز⁽²²⁾ Rogers المُنتَسِبُ إِلَى جَامِعَةِ يَيْل Yale، الَّذِي يُعْنَى بِمَوْضُوعِ الْعَلَطِ Error، إِخْفَاقَ بوزانكيه Bosanquet فِي فَهْمِ مَسْأَلَةِ "دَرَجَاتِ الصِّدْقِ" بِسَبَبِ "رَفْضِهِ الْمُزْعَجِ إِبْقَاءَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلَفَةِ لِلْأَلْفَافِ مَفْصُولًا

(22) آرثر كينين روجرز (1868-1936م). أستاذ للفلسفة، نال درجة الدكتوراه في الفلسفة في جامعة شيكاغو سنة 1898، والأستاذية في الفلسفة في جامعتي ميسوري وييل. من مؤلفاته: مقدمة موجزة للفلسفة المعاصرة، وحياء المسيح وتعاليمه. [المترجم]

بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِصَرَامَةٍ. وَلَا تَتَعَلَّقُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بِأَنْ يَعْنِيَ شَكْلُ الْكَلِمَاتِ نَفْسَهُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ لِلْأَنَاسِ مُخْتَلِفِينَ، وَإِنَّمَا يَنْجَاحُ أَيُّ مَعْنَى مُعْطَى عَلَى انْفِرَادٍ، مَهْمَا يَكُنْ هَذَا الْمَعْنَى، فِي مُنَاطَرَةِ الْحَقِيقَةِ" (ص 123). وَيُعَلِّقُ عَلَى إِسْهَامِ السَّيِّدِ يَوَاكِيمِ بِشَأْنِ الْأَشْيَاءِ مَنْظُورًا إِلَيْهَا مِنْ زَاوِيَةٍ كَوْنِهَا أَنْظِمَةً، بِأَنَّا "إِذَا مَا أَصَرَرْنَا عَلَى [166] تَعْرِيفِ مَعْنَى حَقِيقَةٍ مَا مِنْ زَاوِيَةٍ مَوْضِعِهَا فِي نِظَامٍ مَا، فَسَوْفَ تَتَوَقَّفُ، عَلَى نَحْوٍ طَبِيعِيٍّ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الْمَعْنَى خَارِجَ النِّظَامِ" (ص 125).

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّظَائِقِ "فَنَحْنُ نَفَرِّقُ، عَلَى نَحْوٍ طَبِيعِيٍّ، بِوُضُوحٍ بَيْنَ صِفَاتِ الْأَشْيَاءِ مُجَسَّدَةٍ فِي الْمَعَانِي الَّتِي نَعَزُّوْهَا إِلَيْهَا، وَالْوُجُودِ الْفِعْلِيِّ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ فِي الْأَشْيَاءِ أَنْفُسِهَا... فَتَطَابُقُ مَا يَتَعَدَّرُ تَمَيِّزُهُ" يَنْطَبِقُ عَلَى الْمَعَانِي الْمَنْطِيقِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ لَا عَلَى الْمَوْجُودَاتِ. إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ نَقُولَ عَنْ مَعَانٍ مُعَيَّنَةٍ إِنَّهَا الْمَعَانِي أَنْفُسُهَا - عَلَى الْآلَا نَسْتَطِيعُ تَبْيِينَ اخْتِلَافٍ بَيْنَهَا - لِسَبَبٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ "صِفَتَهَا" تُثَمِّلُ كُلَّ مَا فِيهَا، أَمَّا الْأَشْيَاءُ فَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ تَكُونَ مُتَسَاوِيَةً حِينَ تَكُونُ مُتَشَابِهَةً" (ص 131). وَيَعْتَقِدُ أَنَّ تَحْلِيلَ البروفيسور هولت Holt⁽²³⁾ يُقَدِّمُ "أَطْرُوحَةً تَقْرُبُ مِنَ الدَّقَّةِ بِشَأْنِ مَا يَقْصِدُ الْوَاقِعِيُّونَ التَّنْذِييُونَ أَنْ يُحِيلُوا عَلَيْهِ تَحْتَ مَوْضُوعِ الْجَوَاهِرِ essences أو الْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ. لَكِنَّ مُشْكِلَةَ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَهُ لَا تَكْمُنُ فِي حُضُورِ هَذِهِ الْمَعَانِي أَوْ الْمُعْطِيَّاتِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي إِحَالَتِهَا عَلَى الشَّيْءِ الْفِعْلِيِّ" (ص 133). وَتَتَلَشَّى الصُّعُوبَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعَلَطِ عِنْدَ البروفيسور بيرري Perry⁽²⁴⁾ إِذَا مَا سَلَّمْنَا

(23) إدوين بَسِيل هولت (1873-1946م). أَسْنَادُ الْفَلَسَفَةِ وَعِلْمُ النَّفْسِ فِي جَامِعَةِ هَارْفَرْد فِي أَمْرِيكََا بَيْنَ سَنَتَيْ 1901 وَ1918، وَأَسْنَادُ عِلْمِ النَّفْسِ الزَّائِرُ فِي جَامِعَةِ بَرْنِسْتِن فِي أَمْرِيكََا بَيْنَ سَنَتَيْ 1926 وَ1936. أُسِّسَ مَعَ آخَرِينَ فِي نَحْوِ سَنَةِ 1910 الْحَرَكَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ الَّتِي سُمِّيَتْ بِالْوَاقِعِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، اسْتِجَابَةً لانتقادات رويس لآراء ولِيم جِيَمْس فِي الْوَاقِعِيَّةِ. وَبَعْدَ حُضُورِهِ مُحَاضَرَةً فَرُودِ الْمَشْهُورَةِ فِي جَامِعَةِ كَلَارِك فِي سَنَةِ 1909 تَأَثَّرَ كَثِيرًا بِالتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ الَّذِي أَثَّرَ فِي كِتَابِهِ (الرَّغْبَةُ الْفَرُودِيَّة). وَمِنْ مَوْلَفَاتِهِ الْآخَرَى: مَفْهُومُ الشُّعُورِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(24) رالف بَارْتِن بيرري (1876-1957م). فِلَسُوفٌ أَمْرِيكِيٌّ. تَلَمَّذَ لِوَلِيم جِيَمْس وَحَرَّرَ مَقَالَاتِهِ =

بِالْفَرْقِ "بَيْنَ الشَّيْءِ بِوَصْفِهِ مَوْجُودًا أَمْتَلِكُ اعْتِقَادًا تَجَاهَهُ، وَالشَّيْءِ (بِوَصْفِهِ مُحْتَوًى ذَهْنِيًّا أَوْ مَعْنًى أَوْ مَاهِيَّةً) الَّذِي أَعْتَقِدُهُ تَجَاهَهُ". فَحِينَ نَكُونُ غَالِطِينَ يَكُونُ لَدَيْنَا 'مَعْنًى مَعْرُوضٌ أَمَامَ الْعَقْلِ"، وَنَفْتَرِضُ، خَطَأً، أَنَّهُ يُشَخَّصُ شَيْئًا حَقِيقِيًّا.

وَيُؤَكِّدُ الدُّكْتُورُ سَانْتِيَانَا Santayana أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَا لَوْ عَدِمْنَا أَجْسَادَنَا الْحَيَوَانِيَّةَ "لَخَسِرَ الْمَظْهَرُ الْخَارِجِيُّ مَقَرَّهُ وَبُورَتُهُ، وَلَوْ عَدِمْنَا الْمَوْضُوعَ الْخَارِجِيَّ لَخَسِرَ دَلَالَتُهُ"، يُمَكِّنُنَا، مَعَ ذَلِكَ، أَنْ نَأْخُذَ الْمَظْهَرَ الْخَارِجِيَّ مُطْلَقًا ثُمَّ "نَمْنَعُ كُلَّ رَدِّ فِعْلٍ أَوْ فَهْمٍ"، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ حَتَّى الْمُعْطِيَّاتِ الْكَامِنَةِ وَالْمُبَاشِرَةِ لِلْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ، "إِشَارَاتُهُ وَلَعْنَتُهُ الْمُجَرَّدَةُ حِينَ يُحَدِّثُ فِيهِ بَقَاءً"، لَهَا وَاقِعٌ جَمَالِيٌّ، "لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَعْنِي النَّوعُ الْخَاصُّ وَالْمَاكِرُ مِنَ الْوَاقِعِ إِذَا الْمَظْهَرِ الْخَارِجِيِّ وَاقِعًا أَسَاسِيًّا، مَاهِيَّةً substance، وَالْأَوَّلَى أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الْاسْمِ". وَيَقْدُمُ لَنَا الْجَوَاهِرُ = الْكُلِّيَّاتِ = الْمُعْطِيَّاتِ الْجَمَالِيَّةِ الْبَدِيعِيَّةِ - "رُمُوزَ [167] الْحِسِّ أَوْ الْفِكْرِ" (ص 165)، الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مُمَازِلَةً لِلْجَوَاهِرِ الْمُجَسَّدَةِ فِي الْمَاهِيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ "الْقَصْدَ وَالتَّجْسِيدَ يَظْلَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الْوُجُودِ، وَالْأَصْلَ، وَالزَّمَانَ، وَالْمَكَانَ، وَالْجَوْهَرَ، وَالْوُظْفَةَ، وَالْمُدَّةَ".

وَيَنْظُرُ البروفيسور سيلرز Sellars⁽²⁵⁾ الْمُتَنَسِّبُ إِلَى جَامِعَةِ مِشِغَن Michigan إِلَى فِكْرَةٍ أَنَّ مِيدَانَ التَّجَرِبَةِ الْفَرْدِيَّةِ "لَهُ بَنِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ، وَهِيَ تُخَلَّفُ مَعَ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّأَكِيدَاتِ" بِوَصْفِهَا "أَمْرًا لَا تُنْكَرُ حَقِيقَتُهُ". وَإِنَّ الْخَطَأَ الْأَسَاسِيَّ لِلْفِكْرِ الْحَدِيثِ جِدًّا هُوَ رَفْضُهُ إِدْرَاكُ "أَنَّ الشَّيْئَةَ وَالْإِدْرَاكَ الْحِسِّيَّ يَسِيرَانِ مَعًا جَنِبًا إِلَى جَنِبٍ"، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى يَكُونُ لَدَى الْمُدْرِكِ "مُضْمُونُ الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ، وَبِالضُّدِّ

= فِي التَّجَرِبِيَّةِ الرَّادِكَالِيَّةِ سَنَ 1912، وَأَصْبَحَ أَحَدَ قَادَةِ حَرَكَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْجَدِيدَةِ. مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: مُقَارَبَةُ الْفَلَسَفَةِ، وَالْأَتَجَاهَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ الرَّاهِنَةِ، وَالْأَمَلُ فِي الْخُلُودِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(25) رُوي وَود سِيلَرز (1880-1973م). فِيلَسُوفٌ أَمْرِيكِيٌّ نَهَجَ نَهْجَ الْوَاقِعِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ الدَّبِّيَّةِ. وَهُوَ وَالِدُ الْفِيلَسُوفِ وَلِفْرَد سِيلَرز. أَمَضَى مَعْظَمَ حَيَاتِهِ الْبَهِيَّةِ مُدْرَسًا فِي جَامِعَةِ مِشِغَن. مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: تَأْمَلَاتٌ فِي الْفَلَسَفَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ مِنَ الْدَاخِلِ، وَالطَّبِيعِيَّةُ التَّطَوُّرِيَّةُ. [الْمُتَرْجِمُ]

مِنْهُ تَمَامًا وَعَلَى نَحْوِ مُكَافِئِ عُقْدَةِ التَّحَكُّمِ الْحَرَكِيَّةِ الْمَوْصُولَةِ بِالْمَعْنَانِ وَالتَّوَقُّعَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ الْمُمَيِّزَةِ لِلْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ". وَيَرَى أَنَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ "تَحْلِيلُ مُتَأَنٍّ وَمُثَابِرٍ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَامِ تَدْرِيجِيًّا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُنْصَفُ فِيهِ الْبَيِّنَةُ وَالْمَعْنَانِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِتَجْرِبَةِ الْفَرْدِ" (ص 197). أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْرِفَةِ الْمَاضِيَّةِ 'فَيُمْكِنُنَا أَنْ نَعْنِي وَاقِعًا لَمْ يَعْذُ مَوْجُودًا عَلَى نَحْوِ مُسَاوٍ لِلْوَاقِعِ الْمَوْجُودِ فِي زَمَنِ الْقَصْدِ' (ص 215).

وَيُقَدِّمُ البروفيسور سِيلِرُزُ التَّفْرِيقَ الْآتِي:

"تَخْتَلِفُ مَعْرِفَةُ الْوَقَائِعِ الْأُخْرَى عَنْ مَعْرِفَةِ الْعَالَمِ الْفِيزِيَاثِيِّ. فَهِيَ مَعْرِفَةٌ مِنْ خِلَالِ تَطَابُقِ مَضْمُونٍ مُقَرَّرٍ، فِي حِينِ أَنْ مَعْرِفَةَ الْعَالَمِ الْفِيزِيَاثِيِّ هِيَ مَعْلُومَاتٌ عَنْ مُعْطِيَّاتٍ. لِذَا حِينَ أُؤَوَّلُ تَعْبِيرًا عَلَى وَجْهِ صَدِيقِي بِأَنَّهُ يَعْنِي الشُّرُورَ أَكُونُ قَدْ اسْتَعْمَلْتُ التَّعْبِيرَ زَمَرًا لِتَجْرِبَةٍ أَغْذَاهَا تَجْرِبَةٌ وَاحِدَةٌ لَهُ وَلِي فِي أُسَاسِيَّاتِهَا" (ص 217).

وَفِي الْخِتَامِ يَسْتَنْتِجُ البروفيسور سَتْرُونِغُ الَّذِي يَفْخَصُ طَبِيعَةَ 'الْمُعْطَى datum'، الَّذِي يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَا يُسَمِّيهِ سَانْتِيَانَا 'الْجَوْهَرُ essence'، (الَّذِي سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا الْوَاقِعِيَّةَ النَّقْدِيَّةَ تَعُدُّهُ مُعَادِلًا أَيْضًا لِـ 'الْمَعْنَى') أَنَّ الْمُعْطِيَّاتِ فِي طَبِيعَتِهَا 'لَيْسَتْ وَجُودَاتٍ، بَلْ هِيَ كُتْلِيَّاتٌ، أَيِ هِيَ الطَّبَائِعُ الْمُجَرَّدَةُ لِلْأَشْيَاءِ، عَلَى نَحْوِ يُمَكِّنُ مَعَهُ أَنْ يَسْتَوِيَ الْجَوْهَرُ الْمُجَسَّدُ وَالْجَوْهَرُ الْمُعْطَى". [168]

"فَمَا نُعْظَاهُ فِي الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ" نَحْنُ نَعْلَمُ (ص 235) "أَنَّهُ الْإِحْسَاسُ بِوَصْفِهِ مَعْنَى، أَوْ نَقُولُ، إِذَا مَا تَوَخَّيْنَا الْمَزِيدَ مِنَ الدَّقَّةِ، إِنَّ مَا يُعْطَى هُوَ الْمَعْنَى لَا الْإِحْسَاسُ... وَإِنَّ هَذِهِ الدَّلَالَةَ، أَوِ الْمَعْنَى، أَوِ الْجَوْهَرُ، لَيْسَتْ وَجُودًا وَلَيْسَتْ مَحْدُودَةً بِزَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلَكِنَّهَا، كَالْمَعْنَى حِينَ نَفَكِّرُ فِي كُتْلِيَّةٍ مَا، أَيِ فِي كِيَانٍ مَنْطِقِيٍّ خَالِصٍ، يُمَكِّنُ الْوُثُوقَ بِهَا تَمَامًا". وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، فَالْمُعْطَى 'لَيْسَ حَقِيقَةً مُحَسَّاةً عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ. فَلَيْسَ فِي وَسْعِنَا أَنْ نُحَسِّنَ بِهِ فِعْلِيًّا بِوَصْفِهِ شُعُورًا،

وكلُّ ما في وُسْعِنَا هُوَ أَنْ نَنْصَرِفَ إِلَيْهِ أَوْ أَنْ نَعْنِيَهُ... وَلَا يَنْبَغِي فَهْمُ الْمَعْنَى هُنَا بِوَصْفِهِ نَوْعًا مُمَيَّزًا مِنَ الشُّعُورِ، بَلْ بِوَصْفِهِ وَطَيْفَةٍ قَدْ تَحَرَّرَ الشُّعُورُ مِنْ عَيْنِهَا" (ص237).

وَلَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً هُنَا إِلَى أَنْ نُحَاوِلَ إِقَامَةَ رُبُطٍ بَيْنَ هَذِهِ الْاِسْتِعْمَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ لِللَّفْظِ تَكُونُ فِيهِ الدَّعَاوَى هِيَ الْإِنْجَازَ الْأَخِيرَ لِلتَّرْمِيزِ الْمُنْسَقِ. وَقَدْ أَثَارَتْ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةُ، عَلَى مَا كَانَ مُتَوَقَّعًا، جَدَلًا وَاسِعًا بِتَحْدِيثِهَا الْوَاقِعِيِّينَ الْجَدِّدَ، وَالْبَرَاغَمَاتِيِّينَ، وَالْمِثَالِيِّينَ، لَكِنَّ الْمَصْدَرَ الْحَتْمِيَّ الْوَحِيدَ لِسُوءِ الْفَهْمِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَهُوَ الْحُضُورُ الْكُلِّيَّ omnipresence لِللَّفْظِ الْمَعْنَى، مُرَّرَ مِنْ غَيْرِ تَحَدُّ يُذَكِّرُ. وَيَدُو أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ لَهُ مَوْضِعًا مِنْ غَيْرِ جِدَالٍ فِيهِ فِي مُفْرَدَاتِ الْفَلَسَفَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، لِيَسْتَعْمَلَ فِي جَمِيعِ مَوَاقِفِ الشُّكِّ⁽²⁶⁾، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ، لِحُسْنِ الْحَظِّ، مَا زَالَ يَبْدُو لِلْقَارِئِ الْبَرِيطَانِي غَرِيبًا فِي مُعْظَمِ سِيَاقَاتِهِ التَّمُودَجِيَّةِ.

وَمِنْ أَجْلِ أَلَّا يَظُنَّ قَلِيلُو الدَّرَايَةِ أَنَّ الْمِيتَافِيزِيْقِيِّينَ وَالْوَاقِعِيِّينَ النَّقْدِيِّينَ مُمَيَّزُونَ فِي مَنَهِجِهِمْ يُمَكِّنُنَا الْاِتِّجَاهُ صَوْبَ الْاِسْتِعْمَالِ الَّذِي أَضْفَاهُ عَالِمُ النَّفْسِ عَلَى الْكَلِمَةِ. فَقَدْ ظَلَّتْ كِتَابَاتُ الْبَرُوفِيسُورِ هُوغو مُونشْتِرِبِيرغ Hugo Münsterberg⁽²⁷⁾ مُدَّةً تَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً تُعَارِسُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي الْفِكْرِ فِي إِنْجِلْتِرَا وَفِي أَلْمَانِيَا لَا يَقِلُّ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ فِي أَمْرِيكَا. وَشَهِدَتْ أَلْمَانِيَا أَوَّلَ ظُهُورِ لِكِتَابِهِ الْقِيَمُ اللَّائِهَائِيَّةُ *Eternal Values* (1909)، ثُمَّ ظَهَرَ مُطَوَّرًا وَمُنَقَّحًا بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَزَعَمَ لِهَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُ قَدْ كُتِبَ بِأَنَاءٍ وَمَنْهَجِيَّةٍ، [169] اِحْتِجَاجًا عَلَى الْأَسْلُوبِ الْاِنْطِبَاعِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ فِي التَّفَلُّسُفِ، الَّذِي كَانَ الْكَثِيرُ مِنْهُ "قَدْ أَصْبَحَ

(26) مُثَّلٌ لِمُعَالَجَةِ الْبَرُوفِيسُورِ سِيلَرُزْ لَفْظَ 'الْمَعْنَى' فِي كِتَابَتِهِ الْمُسْتَقْلِلِينَ: الْوَاقِعِيَّةُ النَّقْدِيَّةُ *Critical Realism* (1916)، وَالطَّبِيعِيَّةُ التَّطَوُّرِيَّةُ *Evolutionary Naturalism* (1921) بِالْتَّعْلِيْقِ الْآتِي الْمَاخُوذِ مِنْ كِتَابِهِ الْأَوَّلِ (ص282): "إِنَّ الْمَعْرِفَةَ، بِوَصْفِهَا مَعْنَى، تَكُونُ سَابِقَةً لِلصَّدَقِ، الَّذِي هُوَ تَعَمُّقٌ اِنْعِكَاسِيٌّ لِلْحَسِّ الْمَعْرِفِيِّ فِي ضَوْءِ رُؤْيٍ مُثَارٍ".

(27) هُوغو مُونشْتِرِبِيرغ (1863-1916م). عَالِمُ نَفْسٍ أَلْمَانِي-أَمْرِيكِي. كَانَ أَحَدَ الرُّوَادِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ اِتِّطَبِيقِيٍّ. مِنْ مَوْلَافَاتِهِ: عِلْمُ النَّفْسِ وَالْحَيَاةِ، وَالْحَيَاةُ اللَّائِهَائِيَّةُ، وَالْعِلْمُ وَالْمِثَالِيَّةُ، وَالْقِيَمُ اللَّائِهَائِيَّةُ. [الْمُتَرْجِمُ]

مُعَايِدًا لِلْخَصِيصَةِ الْوَاقِعِيَّةِ لِلْفَلَسَفَةِ. وَهُوَ يَسْعَى إِلَى أَنْ يُؤَكِّدَ لَنَا بَدْءًا مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّادِقَ أَضْفَى عَلَى كِتَابِهِ الْهَدَفَ وَالْمَعْنَى الْوَاقِعِيَّ. وَظَهَرَتْ فِي صَفْحَةِ الْكِتَابِ الْأُولَى طَرِيقَتُهُ فِي تَقْرِيرِ إِمْكَانِ اخْتِلَافِ الْأَذْوَاقِ، وَمَفَادُهَا أَنَّ 'الْجَمَالِيَّاتِ فِي مَدْرَسَةٍ مَا قَدْ تَعْنِي الْقُبْحُ فِي أُخْرَى'؛ وَالْكَلِمَاتُ الَّتِي فِي الصَّفْحَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ أَنَّ 'الْإِقْرَارَ بِالْمِثَالِيَّةِ لَا يَعْنِي الْبَتَّةَ إِثْبَاتَ صِحَّتِهَا'، تُشِيرُ إِلَى أَنَّ التَّأَكِيدَ الْجَارِمَ وَالْبُرْهَانَ لَيْسَا شَيْئًا وَاحِدًا؛ وَنُعَلِّمُنَا فِي الصَّفْحَةِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ 'الْعَالَمَ يَتَطَلَّعُ إِلَى تَعْبِيرٍ جَدِيدٍ عَنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ وَالْوَقَاعِ'. وَفِي الصَّفْحَةِ الرَّابِعَةِ نَقْرَأُ أَنَّ الْعُلُومَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَثِّ عَلَى نَقْدِ أُسُسِهَا عَلَى أَنَّهُ 'يَعْنِي تَسْأُلُهَا عَنِ الْقِيَمَةِ الْوَاقِعِيَّةِ لِلْحَقِيقَةِ'، وَأَنَّ 'مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي خَطَرٍ' بِقَدْرِ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِالشُّؤُونِ الْعَمَلِيَّةِ، وَأَنَّ بِنَا حَاجَةً إِلَى 'فَلَسَفَةٍ جَدِيدَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ تَهَبَ الْمَعْنَى لِلْحَيَاةِ وَالْوَقَاعِ'. وَفِي الصَّفْحَةِ الْخَامِسَةِ نَجِدُ الْآتِيَّ-

'مَعْنَى مَا لَهُ قِيَمَةٌ يَجِبُ أَنْ يُحَدَّدَ نَظَرَتُنَا إِلَى الْعَالَمِ'.
'نَحْتَاجُ الْفَلَسَفَةَ إِلَى أَنْ تُدْرِكَ الْمَعْنَى الْأَسَاسِيَّ لِأَيِّ تَقْوِيمٍ'.
'الْفَيْلَسُوفُ يُعْنَى فِي بَحْثِهِ بِتَحْرِيٍّ مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَهُ الْمَعْنَى الْوَاقِعِيَّ لَوَقَائِعٍ مُعَيَّنَةٍ، وَمَا الَّذِي تَعْنِيهِ حَيَاةُ مَعْرِفَةٍ لِلْعَالَمِ مُطْلَقًا'.

وَعُنْوَانُ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ 'مَعْنَى الْقِيَمِ'، وَفِي الصَّفْحَاتِ السَّتِّ 74-79 مِنْهُ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ 'الْحَقِيقَةِ الْحَاسِمَةِ' يَتَرَدَّدُ ظُهُورُ لَفْظِ 'مَعْنَى' بِمَا لَا يَقِلُّ عَنْ سِتِّ عَشْرَةِ مَرَّةً. وَالْحَقِيقَةُ الْحَاسِمَةُ هِيَ أَنَّا نَطَالِبُ بِتَكَرُّرِ حَدُوثِ الْأَشْيَاءِ. 'نَحْنُ نَطَالِبُ بِأَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ عَالَمٍ؛ وَهَذَا يَعْنِي أَنْ تَكُونَ تَجَرِبَتُنَا أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ مُرُورٍ بِالتَّجَرِبَةِ. وَهَذَا هُوَ الصَّنِيعُ الْأَصِيلُ الَّذِي يَهْبُ لَوَاقِعِنَا مَعْنَى لَانِهَائِيًّا' (ص75). 'فَالْعَالَمُ يَغْدُو عَالَمًا بِتَكَرُّرِ حَدُوثِهِ عَلَى نَحْوِ مُتَطَابِقٍ، وَهَذَا التَّطَابُقُ يَعْنِي الْإِنْجَازَ، وَيَعْنِي الرِّضَا، وَيَعْنِي الْقِيَمَةَ' (ص79).

وَبِتَقَدُّمِ الصَّفْحَاتِ يُمَكِّنُ أَنْ يُلْحَظَ أَنَّ التَّطَابُقَ لَا يَسْتَبْعِدُ التَّغْيِيرَ؛ فَمِنْ الْمُسْلَمِ بِهِ أَنَّهُ مَهْمَا يَحْدُثُ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي شَيْءٍ مَا فَإِنَّهُ 'مَا زَالَ عَلَيْهِ أَنْ يُبْدِيَ تَطَابُقًا

في تَعْيَارِهِ بِإِظْهَارِ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَنْتَمِي إِلَى مَعْنَاهُ الذَّاتِيَّ . [170] وَالْحَقُّ أَنَّ "تَسَاوُلَنَا عَنْ صِحَّةِ الْقِيَمِ الْخَالِصَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنَى آخَرُ إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَالَمِ الصَّادِقِ هَذَا" ، عَالَمِ "تَجَارِبِنَا بِقَدْرِ مَا تُؤَكِّدُ ذَوَاتِهَا" ، و"لَا مَعْنَى لِانْكَارِ هَذَا التَّسَاوُلِ" .

إِنَّ إِتِمَامَ الْحِجَاجِ بِهَذِهِ الْمَادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ التَّوْفِيقِيَّةِ قَدْ يَعْنِي أَنَّهُ مَا دَامَ تَكَرَّرُ حَدُوثُهَا التَّطَابُقِيُّ يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ هُوَ 'مَعْنَى' أَيْ شَيْءٌ، وَمَا دَامَ 'مَعْنَى' أَيْ شَيْءٌ يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ هُوَ قِيَمَتُهُ، فَإِنَّ الْعِبَارَةَ الْمَذْكُورَةَ آيَفَا وَهِيَ أَنَّ "تَكَرَّرَ الْحُدُوثِ التَّطَابُقِيُّ يَعْنِي الْقِيَمَةَ" قَدْ تَطَهَّرَ مُسَاوِيَةً لِصِبْغَةِ أَنَّ الْمَعْنَى يَعْنِي الْمَعْنَى .

وَصِيَاغَتُهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ قَدْ تَجَعَّلَهَا تَخَسَّرَ مِنَ الْقُوَّةِ بِقَدْرِ مَا تَرْبُحُهُ مِنَ الْوُضُوحِ، وَلَكِنَّ صِيَاغَتَهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ تُوجِي بِإِمْكَانٍ أَنْ نَعْبُرَ سَرِيعًا إِلَى الْفَصْلِ الْأَخِيرِ الَّذِي يُلَخِّصُ فِيهِ عَالِمُ النَّفْسِ الذَّائِعِ الصَّبِيبِ نَظَرِيَّتَهُ الْكُلِّيَّةَ فِي الْقِيَمَةِ، مُتَنَبِّهِينَ فَقَطْ عَلَى مَا فِي الصَّفَحَاتِ الَّتِي تَتَخَلَّلُ ذَلِكَ مِنْ نَحْوِ التَّعْلِيلَاتِ الْآتِيَةِ: -

"إِنَّ إِرَادَةَ نَابُولِيُونِ، إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَفْهَمَهَا بِمَعْنَاهَا التَّارِيخِيَّ، لَا تَتَحَدَّرُ إِلَيْنَا بِوصْفِهَا شَيْئًا. إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ يُمَسَّكَ بِالْحَدَثِ إِمْسَاكًا تَامًا حِينَ يُفْهَمُ فِي ضَوْءِ مَعْنَى مُوَفِّقِهِ. وَلَوْ فَهِمْتَ إِرَادَةَ نَابُولِيُونِ فَهَمَّا تَامًا فِي ضَوْءِ مَعْنَاهَا مَا بَقِيَ شَيْءٌ تُتَبَّحُ فَهْمُهُ التَّحْقِيقَاتِ الْآخَرَى" (ص 144).

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعْنَى التَّارِيخِ .

"إِنَّ الْعَالَمَ بِمَعْنَاهُ الْمُفْرِطِ فِي الذَّائِيَّةِ غَايَةً فِي النَّفَاسَةِ، وَتَسْتَمِدُّ نَفَاسَتَهُ هَذِهِ مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّ وَهَجَ السَّعَادَةِ يُبَيِّرُ نَفُوسَ الْبَشَرِ" (ص 202).

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعْنَى السَّعَادَةِ .

"إِنَّ الشَّيْءَ الْوَاقِعِيَّ يَجِدُ مَعْنَاهُ فِي التَّوَقُّعِ الَّذِي يُثْبِرُهُ" .

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعْنَى الْوَاقِعِ .

"إِنَّ التَّوَأَقَ الدَّاخِلِيَّ لِرَعْبَاتِنَا يَهَبُ لِحَيَاتِنَا فِي الْخِتَامِ تَمَامَ مَعْنَاهَا... وَإِنَّ التَّعْمَاتِ الَّتِي تَهَبُ حَيَاتِنَا لَهَا الْمَعْنَى تُعَبِّرُ عَنْ إِرَادَةِ تَوْكُّدِ ذَاتِهَا" .

(ص 253).

وهذا ما يُفسَّرُ مَعْنَى كُلِّ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمُوسِيقَى .

ثُمَّ نَصِلُ فِي الْخِتَامِ إِلَى رِسَالَةِ الْفَصْلِ الْأَخِيرِ الَّذِي يُعَالِجُ الْقِيَمَ الْمُطْلَقَةَ. وفي هذا الفصل الذي يَسْتَغْرِقُ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ مِنَ الصَّفَحَاتِ تَرَدَّدَ كَلِمَةُ 'مَعْنَى' [171] بِمَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ مَرَّةً. وَعِنْدَ الْاقْتِرَابِ مِنَ الذَّرْوَةِ ('نَحْنُ نَقِفُ الْآنَ فِي مُوَاجَهَةِ قِيَمَةٍ مُطْلَقَةٍ جَدِيدَةٍ، الْمُطْلَقِ الْفَلَسَفِيِّ، الْمُطْلَقِ الْأَسَاسِيِّ الَّذِي يَحْمِلُ كُلَّ الْوَاقِعِ فِي ذَاتِهِ' ص 39) تُطْلَقُ عَلَيْنَا الْكَلِمَةُ الْمِفْتَاحُ فِي كُلِّ جُمْلَةٍ تَقْرِيئًا. وَجَاءَ فِي الصَّفْحَةِ 400 قَوْلُهُ: 'وَيُمْكِنُنَا سَلْفًا أَنْ نَتَبَيَّنَ وَجْهَةً نَظَرٍ وَاسِعَةً'. فَإِذَا مَا أَشْبِعَتْ رَغْبَتُنَا فِي التَّطَابُقِ 'فَلَيْسَ فِي وَسْعِهَا أَنْ يَكُونَ لَهَا أَيُّ مَعْنَى مُمَكِّنٍ لِلشُّوَالِ عَنْ قِيَمَةِ الْعَالَمِ' .

'إِنَّ تَجَرِبَتَنَا كُلَّهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ الْآنَ عَلَى وَحْدَتِهَا، وَرَاحَتِهَا، وَمَعْنَاهَا الثَّهَانِي... إِذْ يَدْخُلُ مَعْنَى الْقِيَمَةِ فِي عِلَاقَةٍ مَعَ التَّجَرِبَةِ الْعُلْيَا لِلذَّاتِ الْعُلْيَا... وَقَدْ نَفِصَلُ هُنَا لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ بَيْنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَالْعَالَمِ الْمُصَاحِبِ، وَالْعَالَمِ الدَّاخِلِيِّ، ثُمَّ نَنْظُرُ فِي كَيْفِيَّةِ تَوْسِيعِ كُلِّ عَالَمٍ مَعْنَاهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْوَاقِعِ الْأَعْلَى... وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَبْحٍ فِي 'مَادَّةِ stuff' الْعَالَمِ مَعْنَى إِلَّا حِينَ تُوجَدُ مَوَادُّ كَافِيَةٌ يُمَكِّنُ تَمْيِيزُهَا. فَحِينَ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ إِرَادَةً عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ لَنْ يَكُونَ بِالْإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيُّ مَعْنَى لِيَكْتَشِفَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْإِرَادَةِ... إِنَّ الْوُصُولَ إِلَى الْهَدَفِ يَعْنِي احْتِفَاطَ الْإِرَادَةِ بِمَوْضُوعِهَا فِي شَكْلِ جَدِيدٍ... إِنَّ مَعْنَى الْعَالَمِ هُوَ أَنْ يُتَّجَهَ إِلَى قَدْرِ أَكْبَرَ مِنَ الْإِتْجَاءِ الَّذِي يَظَلُّ، مَعَ ذَلِكَ، مُطَابِقًا لِذَاتِهِ... وَيَسْتَوِي فِي الصَّنِيعِ نَفْسِهِ مَا لَيْسَ بَعْدُ وَمَا لَنْ يَكُونَ بَعْدُ. فَعَلَاقَتُهُمَا الْمُتَبَادَلَةُ الْمُؤَقَّتَةُ تَهْبُ لِلصَّنِيعِ الْوَاحِدَةِ وَالْمَعْنَى' .

وَبَعْدَ عَشْرِ صَفَحَاتٍ مِنْ ذَلِكَ (ص 416) يُوَصِّلُ قَوْلُهُ: -

'إِنَّ النَّظَرَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ هَذَا الْارْتِبَاطِ الْمِيتَافِزِيْقِيِّ هُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الْمُنَاحَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعْنَى الْمُطْلَقِ لِفَعَالِيَّتِهَا الَّتِي لَا تَنْفَدُ... وَحِينَ يُصْبِحُ مَعْنَى الْعَمَلِ الْاجْتِمَاعِيِّ تَجَاهَ الْقِيَمِ مُعَمَّقًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمِيتَافِزِيْقِيَّةِ

يَجِبُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ تُقَوَّى بِالضَّدِّ مِنْهُ الْإِرَادَةُ الْمُعَاكِسَةُ الَّتِي تُذَمِّرُ الْقِيَمَ بِحَقِّهِ. إِنَّ إِرَادَةَ الْعَالَمِ الَّتِي تَهْبُ لِلْوَاقِعِ مَعْنَاهُ هِيَ مَبْدَأٌ أَبْطَلُهُ الْإِنْكَارُ الْوَاعِي لِلْقِيَمِ؛ إِذْ أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ فَجْأَةً بِلا مَعْنَى... فَكُلُّ مِنَّا عُضْوٌ فِي الْمَجْمُوعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، لِذَلِكَ يَكُمُنُ الْمَعْنَى الَّذِي تَحْمِلُهُ كُلُّ ذَاتٍ بِمُفْرَدِهَا فِي الْجُزْءِ الَّذِي تَضْطَلِعُ بِهِ فِي تَأْسِيسِ الْقِيَمِ... سَوْفَ نُشِيرُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْمَعْنَى الْأَكْثَرِ خُلُوصًا لِنَظَرَتِنَا إِلَى الْعَالَمِ. وَنَحْنُ نَقْدِمُ عَلَى فَهْمِ كَيْفِ ضُمْنِ كُلِّ مِنَ الْعَالَمِ وَالْبَشَرِيَّةِ وَالذَّاتِ فِي صَنِيعِ الذَّاتِ الْعُلْيَا نَحْوَ الْأَبْدِيَّةِ. نَحْوَ الْأَبْدِيَّةِ! لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الثَّقَلَةِ الْعُلْيَا الَّتِي مِنْهَا يَكْشِفُ مَعْنَى الْأَبْدِيَّةِ الثَّقَابَ عَنْ وَجْهِهِ... لِذَلِكَ يَكُونُ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلُ فِي الصَّنِيعِ وَاحِدًا وَهَذَا هُوَ وَحْدَةُ الْمَعْنَى الْأَبْدِيَّةِ... وَكُلُّ مَرَحَلَةٍ جَدِيدَةٍ تُدْرِكُ الْمَعْنَى الْمُطْلَقَ لِلْمَرَاكِجِ السَّابِقَةِ. لَكِنَّ هَذَا وَحْدَهُ كَانَ يَعْنِي لَنَا أَنَا نَتَقَدَّمُ... وَالصَّنِيعُ [172] يَعْنِي الْإِنْجَارَ وَالْتِمَامَ... مِنْ هُنَا نَفْهَمُ مَهْمَةً ذَاتِيَّتِنَا الْفَرْدِيَّةِ وَمَعْنَاهَا... فِلِحْيَاتِنَا مَعْنَى وَغَرَضُ. فَأَمَّا الْقَلْقُ بِشَأْنِ إِمْكَانٍ أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ الْأَعْلَى بِلا مَعْنَى فَمَعْنِي... وَأَمَّا مَا هُوَ بِلا مَعْنَى فَانْ يُؤْمَلُ مِنَ الْحَيَاةِ مَا يَفُوقُ إِنْجَارَ الْإِرَادَةِ الْعُلْيَا... وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الرِّغْبَةُ فِي التَّمَتُّعِ وَحْدَهَا هَدَفَ حَيَاتِنَا إِذَا مَا أُريدَ لَهَا الْإِحْتِفَاطُ بِالْمَعْنَى وَالْقِيَمَةِ مُطْلَقًا... إِنَّ مُجَرَّدَ الْقَفْرِ وَمُجَرَّدَ التَّحَوُّلِ الْمُفَاجِئِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أُخْرَى لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنَى الْبَتَّةَ... وَأَنْ يَفْصَحَ الْمَرْءُ عَنْ إِرَادَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا يَعْنِي لِكُلِّ شَخْصٍ أَنْ يُعَيَّنَ عَلَى بِنَاءِ الْعَالَمِ الْمُشْتَرَكِ نَفْسِهِ".

وعلى هذا المِنوالِ نَصِلُ فِي الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ (430)، وَهِيَ الصَّفْحَةُ الْآخِرَةُ فِي الْكِتَابِ، إِلَى خَاتِمَةٍ تُؤَكِّدُ أَنَّ "التَّقْدُّمَ، بِمَعْنَى التَّأَكِيدِ الذَّاتِيَّ لِلْإِرَادَةِ بِتَنْمِيَةِ الْإِرَادَةِ، يَظَلُّ لِلْبَشَرِيَّةِ، أَيْضًا، الْمَعْنَى الْمُطْلَقَ لِلْوَاجِبِ".

إِنَّ دِرَاسَةَ هَذِهِ الْمُقْتَضَفَاتِ فِي الطَّبَعَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ لِكِتَابِ مُونَشْتَرِبِرِغِ مُمَارَسَةٌ مَيِّزَةٌ فِي اللِّسَانِيَّاتِ الْمُقَارِنَةِ، وَإِنَّ إِسْهَامَ لَفْظِ 'مَعْنَى' فِي تَقْوِيَةِ الْإِحْتِجَاجِ وَاضِحٌ فِيهِ. وَقَدْ يَكُونُ ثَمَّةُ مَنْ يَضَعُ عَلَيْهِ تَصْدِيقٌ أَنَّ أَيَّ كَاتِبٍ مَسْؤُولٍ عَنْ مِثْلِ هَذَا

الاستثمار اللفظي الكبير بإمكانه أن يتمتع كذلك بسمة بوصفه مُفَكِّراً من الطراز الأول. على أن هناك محاولة معاصرة طامحة أخرى اضطلع بها منظر أمريكي من أجل أن يعالج أسس علم النفس معالجة دقيقة. وفي مقدمة هذا الكتاب⁽²⁸⁾ نجد حالة على ما ليمونشتربرغ من "إنجاز متألّق بشأن المشكلات الكبرى للفلسفة والعلوم الطبيعية والعقلية... ويمكن أن نقول صادقاً إن أمريكا خسرت بموته عالم النفس التنظيري الأول فيها". ولم تكن لدى البروفيسور مور Moore⁽²⁹⁾ الفرصة ليقتبس الكثير من الكتاب المميز المتّقى آنفاً، لكن مقتطفاته (ص 107-110) من كتابي مونشتربرغ: علم النفس العام والتطبيقي *Psychology General and Applied*، والعلاج النفسي *Psychotherapy*، تعجّ بذلك اللفظ. وقد أفسد مور، على ما كان متوقعاً، معالجة في أكثر نقاطها حسماً بسبب موقفه المنفتح من هذا اللفظ الحال المرتجل المقبول plausible nomad. [173]

وهو يرى أن علينا، من أجل أن نفهم طبيعة علم النفس بوصفه علماً، أن نتوخى الدقة في تمييز العلم من الميتافيزيقا، وأن الكلمة المفتاح لمشكلة الميتافيزيقا هي التأويل. فتأويل أي شيء يعني تحديد معناه. وإن تكن المسلمة الأساسية للعلم كله هي أن كل حقيقة لا بُدّ لها من سبب، فالمسلمة الأساسية للميتافيزيقا هي أن كل حقيقة لا بُدّ لها من معنى (ص 97). ويمكن أن يقال بعبارة أخرى إنه في الفلسفة، بوصفها مقابلاً للعلم، "لا تعامل أية حقيقة على أنها نتيجة لسبب ما متقدّم، بل على أنها التعبير عن معنى". فالعلم يجب أن يسبق الميتافيزيقا - فليس في وسعنا معرفة ما الذي تعنيه الوقائع ما لم نكن قد عرفنا ما الوقائع، وليس في وسعنا تأويل الوقائع ما لم نكن قد وصفناها.

ويعترض الناقد بقوله (ص 100): "لكن أليس صحيحاً أن أساس العملية الذهنية نفسه هو معناها؟". الإجابة هي أن ذلك ليس بصحيح. فقد قدّم تشينر

The Foundations of Psychology, by Jared Sparks Moore, 1921.

(28)

(29) جيرد سباركس مور (1879-1951م). فيلسوف أمريكي حديث. أهم مؤلفاته: أسس علم

النفس. [المترجم]

Titchener⁽³⁰⁾ سبب أسباب وجهته للسؤال الذي مفاده: لِمَ تكون العمليات الذهنية "غير ذات معنى في أساسها؟" (ص 101). ويلجئ الناقد (ص 102) بقوله: لكن اليسّ جميع تجاربنا "في طبيعتها الصّميّة تعني شيئاً ما؟ وهل نُجربُ مُطلقاً إحساساً 'غير ذي معنى'؟". وتأتي الإجابة سريعاً بأن ليس لدينا ما يدعو إلى اعتقاد أن العقل كان "مبدؤه أحاسيس لا معنى لها، ثمّ تطوّر إلى إدراكات حسّية لها معنى. بل يجب أن نفترض، على عكس ذلك، أن العقل كان ذا معنى منذ بدايته الأولى".

ولنا وقفة هنا عند السؤال الوثيق الصّلة بالموضوع، وهو: "فما هذا المعنى إذن من وجهة النظر السايكولوجية؟". وتُساوِ الإجابة من غير تردّد وبجُروف ماثلة - "المعنى من وجهة النظر السايكولوجية هو السياق". بيان ذلك: أنه في كلّ إدراكٍ حسّي، أو مجموعة من الأحاسيس والصّور، "تشكّل الصّور المترابطة ذهنياً كما لو أنها سياق أو 'هذاب' ⁽³¹⁾ fringe" يربط الكلّ معاً ويهبّ له معنى محدّداً، و"هذاب المعنى هذا هو الذي يجعل الأحاسيس غير مقتصرة على كونها 'مجرد' أحاسيس، بل زموراً لشيء فيزيائي". لذلك حين نرى برتقالة فإنّ الصّور السياقية للشّم والدّوق [174] هي التي تمكّننا من "تعرف" الشيء - أي أنها تهبّ معنى لإحساسيّ اللون والإشراق. فكذلك (ص 103) "لكلّ فكرة لبّ core أو نواة nucleus من الصّور، وهذاب من الصّور المترابطة... تهبّ للصّور النواة nuclear images معنى".

(30) إدورد برادفورد تشيشنر (1867-1927م). عالم نفس بريطاني. تلمذ لكونت عدّة سنوات.

أكثر ما عُرف به ما امتاز به من إسهام في علم النفس في وصف بنية العقل. من مؤلفاته: الموجز في علم النفس، وعلم النفس التجريبي. [المترجم]

(31) الهذاب في العربية: ما يقوم مقام الزرق في الشجر الذي لا ورق له. وهذاب النخل: سعفه. وكذلك ينصرف معناه إلى الفصائص المزرّكة التي تكون في حافة الثوب. وهو يؤدّي الفرض الذي تؤدّيه كلمة fringe الإنجليزية في هذا المقام. [المترجم]

خُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ:

"في جميع هذه الحالات يَكُونُ مَعْنَى الإدراكِ الحِسِّيِّ أو الفِكرَةِ 'مَحْمُولاً' بِوَسَاطَةِ الصُّوَرِ أو الأحاسيسِ السِّيَاقِيَّةِ، والذي يَهَبُ الْمَعْنَى لِكُلِّ تَجَرِبَةٍ إِنَّمَا هُوَ السِّيَاقُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَيْسَ دَقِيقًا الذَّهَابُ إِلَى أَنَّ مَعْنَى إحساسٍ مَا أو صُورَةَ رَمَازِيَّةٍ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ صُورِهِ أو أَحَاسِيسِهِ الْمُتَرَابِطَةِ لَا غَيْرَ؛ فَفِي ذَلِكَ انْتِهَاجٌ لِحُرْمَةِ مَبْدَأِ أَنَّ الْمَعْنَى لَا تَقَعُ فِي دَائِرَةِ اهْتِمَامِ عِلْمِ النَّفْسِ. وَكُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ مَعَانِي تَجَارِبِنَا تَكُونُ مُمَثَّلَةً فِي نِطاقِ الْعَمَلِيَّاتِ الذَّهْنِيَّةِ بِوَسَاطَةِ 'هَذَابِ عَمَلِيَّاتِ مُتَرَابِطَةٍ تَتَجَمُّعُ حَوْلَ الْمَجْمُوعَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ لِلْأَحَاسِيسِ أو الصُّوَرِ'. فَالْمَعْنَى يَعْنِي السِّيَاقَ مِنَ النَّاحِيَةِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ، لِكَيْتَهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ وَالمِيتافِيزِيقِيَّةِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ مُجَرَّدِ كَوْنِهِ سِيَاقًا سَايَكُولُوجِيًّا، أَوْ يُقَالُ مِنْ زَاوِيَةِ نَظَرٍ مُعَاكِسَةٍ إِنَّهُ مَهْمَا يَكُنِ الْمَعْنَى فَعِلْمُ النَّفْسِ غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهِ إِلَّا بِقَدْرِ قَابِلِيَّتِهِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مُمَثَّلًا فِي شَكْلِ تَصَوُّرٍ سِيَاقِيٍّ" (ص 103).

فِيمَا يَلِفَتْ النَّظَرُ مِنْ بَيْنِ مُقَارِبَاتٍ مُشْكِلَاتٍ تَأْوِيلِ الْعَلَامَاتِ الْأَطْرُوحَةِ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى (مِنَ النَّاحِيَةِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ) هُوَ السِّيَاقُ، وَأَنَّهُ مَحْمُولٌ بِوَسَاطَةِ السِّيَاقِ، وَأَنَّهُ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ السِّيَاقِ، وَأَنَّهُ يُعْبَرُ عَنْهُ بِوَسَاطَةِ الْوَقَائِعِ، وَأَنَّ عِلْمَ النَّفْسِ غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهِ - وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مَعْنِيٌّ بِهِ، بِقَدْرِ قَابِلِيَّتِهِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مُمَثَّلًا فِي شَكْلِ تَصَوُّرٍ سِيَاقِيٍّ⁽³²⁾. [175]

(32) فِي رِسَالَةِ نَشْرُوتِهَا دَوْرِيَّةِ *Mind* (أبريل/نيسان 1924)، لِكَيْتَهَا لِسَوْءِ الْحِطِّ أَصَابَهَا التَّحْرِيفُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ شَطَحَ فِيهَا الْقَلَمُ ("صُورَةُ نَوَاةٍ" بَدَلًا مِنْ صُورِ نَوَاةٍ، وَ"102" بَدَلًا مِنْ 103، وَ"193" بَدَلًا مِنْ 293، وَ"541" بَدَلًا مِنْ 544)، تَذَمَّرُ الْبَرْوفِسُورُ مُور، بَعْدَ أَنْ نَبَّهَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَخْطَاءٍ طِبَاعِيَّةٍ مِمَّا ذُكِرَ آنِفًا (وَقَدْ أَصْلَحَتْ الْآنَ)، مِنْ أَنَّ هَذَا النَّصَّ 'يَجْعَلُ وَضْعِي كُلَّهُ مُضْطَرِّبًا بِتَسْخِيفِهِ مَا قَدَّمْتُهُ' بِشَأْنِ الْمَعْنَى. وَقَالَ: 'خُلَاصَةُ الْأَمْرِ كُلُّهُ عِنْدِي هِيَ أَنَّ الْمَعْنَى 'أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ السِّيَاقِ' عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ 'مَحْمُولٌ' أَوْ 'مُمَثَّلٌ' فِي الذَّهْنِ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ 'لَا يُعْنَى عِلْمُ النَّفْسِ بِالْمَعْنَى، بَلْ يَقْصُرُ اهْتِمَامُهُ عَلَى تَمَثُّلَاتِهِ فِي الذَّهْنِ'. وَيَقُولُ أَيْضًا: 'لَمْ أَقُلْ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ إِنَّ الْمَعْنَى 'هُوَ السِّيَاقُ'، أَوْ إِنَّ عِلْمَ النَّفْسِ 'مَعْنِيٌّ' بِالْمَعْنَى بِعَيْنِهِ'. وَخُلَاصَةُ الْأَمْرِ كُلُّهُ عِنْدَنَا =

لَكِنَّ نَمَّةَ أُمُورًا أَشَدَّ غَرَابَةً لَا بُدَّ مِنْ مُتَابَعَتِهَا؛ إِذْ يُطْلُ عَلَيْنَا هُنَا الْمَعْنَى الصَّادِقُ- مُرْتَبِطًا بِجَرَسٍ مَا. "إِنَّ الْمَعْنَى الصَّادِقَ لِلْمُدْرِكِ الْحِسِّيِّ لِلْجَرَسِ هُوَ إِحَالَتُهُ عَلَى الْجَرَسِ الْمَوْضُوعِيِّ الْوَاقِعِيِّ"، وَتُمَثِّلُ هَذِهِ الْإِحَالَةُ فِي الذَّهْنِ بَوَسَاطَةِ صُورٍ سِيَاقِيَّةٍ "تُشَكِّلُ مَعْنَى تِلْكَ الْإِحَالَةِ 'مُحَوَّلًا إِلَى لُغَةٍ' عِلْمَ النَّفْسِ. فَالْمَعْنَى الصَّادِقُ لِفِكْرَةٍ مَا يَكُمُنُ فِي إِحَالَتِهَا الْمَنْطَقِيَّةِ عَلَى نِظَامِ أَفْكَارٍ مَوْضُوعِيٍّ" (ص104)، وَبَعْدَ قَلِيلٍ (ص111) نَقِفْ عَلَى أَنَّ "جَمِيعَ التَّجَارِبِ هِيَ تَعْبِيرَاتٌ عَنِ الْمَعَانِي الدَّاخِلِيَّةِ لِلذَّاتِ".

وَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ يُصَدَّقَ أَنَّ البروفيسور مُور كَانَ سَيَرْتَضِي اسْتِعْمَالَ مِثْلِ هَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ لَوْ أَنَّهُ حَاوَلَ الْبَحْثَ فِي سَايَكُولُوجِيَّةِ الْعَلَامَاتِ وَالرُّمُوزِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِ مِثْلِ هَذَا الْبَحْثِ إِلَّا أَنْ يُبَدِيَ لَهُ كَمٍ مِنْ عَمَلِهِ الْحَاضِرِ يَرْجِعُ فِي أَصْلِهِ إِلَى أَنَّ التَّوْفِيقَ لَمْ يُحَالِفْهُ فِي اخْتِيَارِهِ لِلرُّمُوزِ، وَفِي مَوْقِفِهِ مِنْهَا. وَالْحَقُّ أَنَّ الْجَادِيَّةَ الْمُتَوَاصِلَةَ لِمَذْهَبٍ مَا بَاطِنِيٍّ لِلْمَعْنَى تُذَكِّرُ بِالْوَسَائِلِ الْجَدَلِيَّةِ لِرِجَالِ الدِّينِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى، وَبِإِمْكَانِنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ مِنْ غَيْرِ مُقَدِّمَاتٍ أَنَّ الْاسْتِشْهَادَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ ذُو صِلَةٍ بِالَّذِينَ تَحْدِيدًا.

"قَدْ يَبْحَثُ عِلْمُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي التَّجَرِبَةِ الدِّيْنِيَّةِ بِحُرِّيَّةٍ كَالَّتِي يَبْحَثُ بِهَا فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِتَجَرِبَتِنَا الْخَاصَّةِ بِالْأَشْيَاءِ الْفِيزِيَاثِيَّةِ، لَكِنَّ أَحْكَامَهُ فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَا يُمْكِنُهَا التَّأَثُّرُ فِي مَسْأَلَةٍ مَعْنَى... هَذِهِ التَّجَارِبِ. إِنَّ مَسْأَلَةَ طَبِيعَةِ الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يُعَانِيهَا الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ فِي آيَةِ مَجَالَاتٍ لِلْفَعَالِيَّةِ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَسْأَلَةُ حَقِيقَةٍ، تَقْتَضِي وَصْفًا وَتَفْسِيرًا تَحْلِيلِيَّيْنِ مِنْ زَاوِيَةِ سَبَبِيَّةٍ: فَمُسْكِةُ الصَّحَّةِ أَوْ الْقِيَمَةُ الصَّدُوقِيَّةُ لِهَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَسْأَلَةُ مَعْنَى، يَقْتَضِي تَأْوِيلًا" (ص122).

= هِيَ أَنَّ البروفيسور مُور لَا يَقْتَضِي اسْتِعْمَالَانِيَّةٌ لِلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ إِضْاحِ أَيِّ مِنْهَا. وَلَمْ نَكُنْ مَعْنِيَيْنِ بِمُنَاقَشَةِ وَجْهَةِ نَظَرِهِ بَلْ يَعْزِضُ الْيَتِيَّةَ اللُّغَوِيَّةَ، وَنَحْنُ مُسْرُورُونَ إِذْ نَلْحَظُ أَنَّ الْجَمْلَ الَّتِي اقْتَبَسْنَاهَا مِنْ رِسَالَتِهِ تُعَزِّزُ هَذَا الْعَرْضَ.

أما الذين يُعَدُّونَ التَّأْوِيلَ عَمَلِيَّةً سَبِيَّةً خَالِصَةً، وَلَا يَرَوْنَ فِي تَأْوِيلِ مَعْنَى أَيْ شَيْءٍ إِلَّا تَفْسِيرًا لَهُ مِنْ زَاوِيَةٍ سَبِيَّةٍ (فِي حِينٍ أَنَّهُمْ يُمَيِّزُونَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ وَجْهًا مُتَمَيِّزًا جِدًّا [176] لِلْمَعْنَى يَكُونُ فِيهِ 'مَعْنَى' قَصِيدَةٍ مَا أَوْ دِينَ مَا الْعَاطِفَةَ الْمُسْتَتَارَةَ أَوْ الْمَوْقِفَ الْمُسْتَتَارَ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ أَوْ ذَلِكَ الدِّينِ)، فَلَا بُدَّ أَنَّ مَدَى مَا يَسْتَطِيعُ هَذَا الرَّمْزُ تَبْدِيلَ مَوْقِعِهِ مَعَ تَشْكَكَلَاتِهِ الْأُخْرَى سَيَقْدُمُ لَهُمْ مَادَّةٌ صَالِحَةٌ لِلتَّأْمُلِ.

على أَنَّ غَرَضَنَا هُنَا هُوَ، بِالْأُخْرَى، تَقْدِيمُ أَمِثَلَةٍ لاسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَدَبِيَّاتِ الْبَنَائِيَّةِ وَالْجَدَلِيَّةِ الرَّائِجَةِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَجْمَعَ مَعًا بِضْعَةً أَمِثَلَةً نُمَوِّدُجِيَّةٍ أُخْرَى.

إِذْ يَقُولُ البروفيسور برود Broad⁽³³⁾: "إِذَا مَا تَوَخَّيْنَا الصَّرَامَةَ قُلْنَا إِنَّ الشَّيْءَ يَكُونُ لَهُ مَعْنَى إِمَّا حِينَ يُمَكِّنُ تَعْرِفُهُ أَوْ الْعِلْمُ بِهِ أَحَدَنَا مِنَ الْاسْتِدْلَالِ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ وَإِمَّا حِينَ يَدْفَعُ أَحَدُنَا بِوَسَاطَةِ تَرَابُطِ الْأَفْكَارِ إِلَى التَّفَكُّيرِ فِي شَيْءٍ آخَرَ"⁽³⁴⁾.

(33) تشارلي دَنْبِر برود (1887-1971م). اِسْتِمُولُوجِي، وَمَوْرُخٌ لِلْفَلَسَفَةِ، وَفِيلَسُوفٌ فِي الْعُلُومِ وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ بَرِيطَانِي. وَكَتَبَ أَيْضًا عَنِ الْجَوَانِبِ الْفَلَسَفِيَّةِ فِي الْأَبْحَاثِ النَّفْسِيَّةِ. اِشْتَهَرَ بِاسْتِفْصَائِهِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِالْعَقْلِ وَالْهَدْوِ فِي الْحِجَاجِ فِي أَعْمَالِهِ وَمِثْلِ (الْإِدْرَاكُ الْحِسِّيُّ، وَالْفِيزِيَاءُ، وَالْوَاقِعُ)، وَ(الْفِكْرُ الْعِلْمِيُّ)، وَ(الْعَقْلُ وَمَكَانَتُهُ فِي الطَّبِيعَةِ). [الْمُتَرَجِّمُ]

Perception, Physics, and Reality, 1914, p. 97.

(34)

وَعِنْدَ مُرَاجَعَةِ كِتَابِ مَكْتَنَارَاتِ J. Ellis McTaggart الَّذِي عُتَوَانُهُ 'طَبِيعَةُ الْوُجُودِ' *Nature of Existence* فِي دُورِيَّةِ *The Hibbert Journal* (1921، ص 173)، يَلْحَظُ الدُّكْتُورُ بَرُودُ أَنَّ "مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مَكْتَنَارَاتِ قَدْ اقْتَبَسَ مِنْ كِتَابِ رَيْسِلِ مَبَادِئِ الرِّيَاضِيَّاتِ *Principles of Mathematics* الْمَذْهَبِ الَّذِي يَرَى أَنَّ التَّكْوَصَّ اللَّائِهَانِيَّ لَا يَكُونُ بَاطِلًا إِلَّا حِينَ يَتَعَلَّقُ بِمَعْنَى 'مَفْهُومٍ مَا'. وَيَرَى رَيْسِلِ (Mind, 1920, p. 401) أَنَّ 'الْمَعْنَى خَاصَّةً قَابِلَةٌ لِأَنَّ تُلْحَظَ لِكَيَانَاتٍ قَابِلَةٍ لِأَنَّ تُلْحَظَ'. وَيَذْهَبُ البروفيسور جون لايرد John Laird إِلَى أَمْعَدٍ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ يَرَى أَنَّ 'الْمَعْنَى قَابِلٌ لِأَنَّ يَدْرَكَ مُبَاشَرَةً شَائُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الصُّوَرِ وَاللَّوْنِ تَمَامًا... فَالْأَصْوَاتُ الْاِمْتِدَادِيَّةُ *continuants* [وَهِيَ الْأَصْوَاتُ غَيْرُ الْاِنْفِجَارِيَّةِ، أَيِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُطَالَ مَدَّةً تُطَقِّعُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَقَّفَتْ مَعَهَا تَبَارُ النَّفْسِ، كَأَصْوَاتِ الْاِنْفِجَارِيَّةِ f, s, n, r, l. وَتُقَابِلُهَا الْأَصْوَاتُ الْاِنْفِجَارِيَّةُ stop. الْمُتَرَجِّمُ] إِنَّمَا تُنْقَلُ لَنَا مِنْ خِلَالِ الْمَعْنَى الْأَسَاسِيِّ لِمَا نَدْرِكُهُ عَلَى نَحْوِ مُنْقَطِعٍ... إِنَّ =

لَكِنَّ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةَ 'الصَّارِمَةُ' جِدًّا لَمْ تَقَعْ مِنْ نَفُوسٍ فَلَا سِفَةَ الْكِتَابِ مَوْعِدًا حَسَنًا عَلَى الدَّوَامِ. يُوضِّحُ ذَلِكَ البروفيسور نيتلشيب Nettleship⁽³⁵⁾ بِقَوْلِهِ⁽³⁶⁾: "يُمْكِنُنَا، تَوَخُّيًا لِلتَّيْسِيرِ، أَنْ نُمَسِّكَ، ذَهْنِيًّا، بِجُزْءٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْحَقِيقَةِ عَلَى جِدَةٍ، وَلَيْكُنْ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، الْحَدُّ الْأَدْنَى مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي يُسَوِّغُ اسْتِعْمَالَنَا كَلِمَةَ الْمُثَلَّثِيَّةِ triangularity - في حينَ أَنْ فِي وَسْعِ اللُّورد هالْدَيْنِ Haldane⁽³⁷⁾ أَنْ يَكْتُبَ قَائِلًا⁽³⁸⁾: "إِنَّ الْمُدْرَكَ هُوَ شَيْءٌ فِي عَالَمِهِ، لَكِنْ مَا زَالَ كُلُّ مَا يَخْصُهُ هُوَ اسْتِمَالُ الْعَالَمِ عَلَيْهِ، أَمَّا مَا يَخْصُصُ مَعْنَى الْعَالَمِ فَهُوَ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ حُضُورَ الذَّهْنِ". وَفِي الْآتِي بَعْضُ مِنَ الْآرَاءِ الَّتِي قَدَّمَهَا مُفَكِّرٌ عَظِيمٌ التَّأثيرِ هُوَ البروفيسور رويس⁽³⁹⁾ Royce⁽⁴⁰⁾: -

"الْخُنُ الْمَعْنَى، وَفِكْرَةُ الْفَنَانِ، وَالتَّفَكُّيرُ فِي أَصْدِقَائِكَ الْغَائِبِينَ، كُلُّ أُولَئِكَ لَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى أَنَّ لَهَا مَعْنَاهَا الدَّاخِلِيَّ الْوَاضِحَ بِوَصْفِهِ مُلَبِّيًا لِقَرَضٍ وَاعٍ بِحُضُورِهَا الْفِعْلِيِّ، بَلْ إِنَّهَا كَذَلِكَ تَبْدُو، فِي الْأَقْل، أَنَّ لَهَا ذَلِكَ التَّوَعُّ الْآخَرَ مِنَ الْمَعْنَى، [177] وَهُوَ الْإِحَالَةُ مِنْ وَرَائِهَا عَلَى

= الْمَعْنَى الْمُدْرَكَ مُبَاشَرَةً فِي حَشْوِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ يَحْوِي بُدُورَ السَّبَبِيَّةِ فِي دَاخِلِهِ" (4)
Study of Realism, pp. 27, 29, 98).

(35) رِيتشارد لويس نيتلشيب (1846-1892م). فِيلَسُوفٌ إِنجِلِيزِيٌّ. تَخَرَّجَ فِي كُلِّيَّتِي أِينْغهام وباليول في جَامِعَةِ أوكسفُورد. خَلَّفَ كِتَابًا لَمْ يُتِمَّ عَنْ أَفْلَاطُون، وَنَشِرَ جُزْءٌ مِنْهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مَعَ مُحَاضَرَاتِهِ فِي الْمُنطِقِ وَبَعْضِ الْمَقَالَاتِ. كَانَ تَفَكُّيرُهُ مِثَالًا يُجَسِّدُ عَنَاصِرَ الْهِيْغَلِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَأَثِّرًا أَيْضًا عَلَى نَحْوٍ مَلْحُوظٍ بِالْمَقُولَاتِ الْكَانَتِيَّةِ. [المُتَرَجِّم]

(36) R. L. Nettleship, *Philosophical Remains*, I. p. 220.

(37) رِيتشارد بوردن هالْدَيْنِ (1856-1928م). مُحَاح، وَفِيلَسُوفٌ بَرِيطَانِيٌّ مُؤَثِّرٌ. مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِهِ: إِسْهَامُهُ فِي تَرْجُمَةِ كِتَابِ شُوِينْهَوَر (الْعَالَمُ إِرَادَةٌ وَفِكْرَةٌ). وَأَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ (عَهْدُ النَّسِيَّةِ) الَّذِي تَنَاوَلَ الْقَضَايَا الْفَلَسَفِيَّةَ لِلنَّظَرِيَّةِ النَّسِيَّةِ. [المُتَرَجِّم]

(38) The Reign of Relativity, 1921, p. 181.

(39) جُوزَايَا رُويس (1855-1916م). فِيلَسُوفٌ مِثَالِيٌّ مَوْضُوعِيٌّ أَمْرِيكِيٌّ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَفَاتِهِ: الْجَانِبُ الدِّينِيُّ لِلْفَلَسَفَةِ، وَرُوحُ الْفَلَسَفَةِ الْمَعَاصِرَةِ، وَالْعَالَمُ وَالْفَرْد. [المُتَرَجِّم]

(40) The World and the Individual, pp. 36, 176.

الأشياء... وأنا أقول إنَّ هذا المعنى الخارجي يبدو شديد الاختلاف عن المعنى الداخلي، ومتعالياً عليه تماماً".

"إنَّ المعنى الداخلي لفكرة ما يشكِّله غير الكامل لكن الواعي، أي الغرض المنجز نسبياً، هو وحده ولا شيء غيره ما يكون عليه المعنى الخارجي ظاهرياً حين يستوعب استيعاباً حقيقياً، أي التعبير الكلي عن الإرادة الفعلية المضمَّنة على نحوٍ مُنشَّط في سيرة الفكرة الواعية الخاطئة... فأن تكون لا يعني سوى التعبير عن تضمين المعنى الداخلي الكامل لنظام مُطلقٍ من الأفكار، وهو نظام، زيادةً على ذلك، مُتضمَّن حقاً في المعنى الداخلي الصادق لكلِّ فكرةٍ مُتناهيةٍ، مهما يكن نشطها.

فالشُّوق لا يعرفون إلا المعاني الداخلية، تماماً كما لا يُعنى الواقعيون إلا بالمعاني الخارجية".

وصرَّح الدكتور كينز Keynes "بأنَّ لدينا اطلاعاً مباشراً على الأفكار أو المعاني التي نمتلك تصوُّراتٍ لها والتي يمكن القول إننا نفهمها"، ثمَّ "إننا قادرون على العبور من الاطلاع المباشر على الأشياء إلى معرفة القضايا المتعلقة بالأشياء التي نحسُّ بها أو نفهم معناها"⁽⁴¹⁾. إنَّ الحاجة الماسة إلى مُصطلحٍ ناجعٍ تُساوي الحاجة الماسة إلى ذِواءٍ طارِدٍ للغازات في جدلٍ كَنَسِيٍّ⁽⁴²⁾، وإلى الدليل الذي يُرجع إليه في النقد الموسيقي⁽⁴³⁾، وإلى الإشارة إلى النقطة المحددة حيث

(41) J. M. Keynes, *A Treatise on Probability*, Part I., Fundamental Ideas, pp. 12, 13.

(42) "إنَّ هذا المجلس ليُدرِّك حجم ما يعود عليه من النفع بالبحث في معنى الإيمان وتعبيره". - The Upper House of Convocation, May 2nd, 1922.

(43) "لقد أصبح برنامج الأنسة A في الليلة الماضية مُثيراً بسبب ما ظهرت عليه من صحة وافرة ونضارة، نُقل تأثيرُهما إلينا بآليةٍ رائعة. وقد تَكشفَ لها سوناتةٌ بيتهوفن Beethoven's Sonata in A, Op. 101 عن معنى أعمق عند تمام نُضجها، غير أنَّ قراءتها الحالية كانت صادقةً على نحوٍ بليغ". - The Morning Post, June 24th, 1922.

يَخْتَلِفُ الْأَطِبَاءُ⁽⁴⁴⁾، وإلى زَيْتِ التَّشْحِيمِ لِعَجَلَةٍ مَغْرَلٍ شَخِصٍ مُؤْمِنٍ بِالنَّسَبِيَّةِ الْمُظْلَقَةِ⁽⁴⁵⁾. ويتساءلُ التَّرْبَوِيُّ قائلًا: "إن لم يكنْ بالإمكانِ مُطَابَقَةُ التَّرْبِيَةِ [178] وَمُجَرِّدِ التَّعْلِيمِ فَمَا هِيَ إِذَنْ؟ وما الذي يَعْنِيهِ هَذَا اللفظُ؟". "إجابتي هي أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَعْنِيَ ضَبْطًا تَدْرِيجِيًّا لِحَيَاةِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ الرُّوحِيَّةِ"⁽⁴⁶⁾. لذا ما الْمَعْنَى إِلَّا ذَلِكَ النَّوعُ مِنَ الْكَلِمَةِ الذي يُمكنُ أَنْ نَسِيرَ بِهِ الْأَغْوَارَ الْغَائِضَةَ لِنُفُوسِ الْأَسْمَاكِ. "فَلْنُوجِهْ اهْتِمَامَنَا إِلَى الْحَالَةِ الذَّهْنِيَّةِ لِلْسَّمَكِ الذَّهَبِيِّ... فَجَاءَ يَظْهَرُ فِي الرُّوْعِي غَضْرُ جَدِيدٍ- التَّنْظِيرُ الْوَاعِي لِمُثْبِرَاتِ الْعَيْنِ التي يُسَبِّهَا سُقُوطُ الْخُبْزِ فِي الْمَاءِ... فَالطَّعَامُ يَمْتَلُ لِلْسَّمَكِ شَيْئًا فِي مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَلَهُ مَعْنَى، لَكِنْ حِينَ يُؤْكَلُ الطَّعَامُ يَخْتَفِي الْمُدْرَكُ الْحِسِّيُّ وَالْمَعْنَى كِلَاهُمَا... وَيُمْتَلُ هَذَا مِثَالًا لِارْتِبَاطِ الْمُدْرَكِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَى"⁽⁴⁷⁾.

فإذا ما انتقلنا الآنَ إلى عِلْمِ النَّفْسِ الرَّسْمِيِّ فَسَنَجِدُ أَنَّ ثَمَّةَ سِتِّ مَقُولَاتٍ مُتَخَصِّصَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ تَسْتَدْعِي الْمَوَازَنَةَ:-

"إِنَّ مَوْضُوعَ الْإِدْرَاكِ الْبَسِيطِ هُوَ كُلُّ مَا يَعْنِيهِ الْعَقْلُ أَوْ يَقْصِدُ الْإِحَالَةَ عَلَيْهِ".

(44) "لقد بَلَّغَتْ قِلَّةُ الْعِلْمِ بِأَهْمِيَّةِ الْأَعْرَاضِ مَبْلَغَ عَدَمِ إِمْكَانِ الْعُتُورِ عَلَى وَصْفِ لِمَعْنَى هَذِهِ الْأَعْرَاضِ، وَكَلَيْتَهَا، وَذَلَالَتَهَا، وَيُمْتَلُ هَذَا خَلَلًا كَبِيرًا فِي الْمَعْرِفَةِ الطَّبِيبِيَّةِ" - Sir James

Mackenzie, *op. cit.*, p. 2.

(45) "إِنَّ الْكُلِّيَّةَ الْمَلْمُوسَةَ تَعْنِي أَنَّ الْوَاقِعَ، بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ مَعْنَى، لَهُ طَبِيعَةٌ الْمَفْهُومِ... فَالْكُلِّيَّةُ تَعْنِي حُضُورَ الْكُلِّ فِي كُلِّ جُزْءٍ... فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا هُوَ مُطْلَقٌ فِي عَالَمِنَا الْمَوْضُوعِيِّ فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُطْلَقَ مَوْجُودٌ فِي دَوَاجِلِنَا. عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي دَوَاجِلِنَا عَلَى وَفْقِ أَيِّ مَنْحَى مُجَرَّدٌ، أَيِّ مَنْحَى يَعَزِلُ ذَاتَ التَّجَرِبَةِ عَنْ مَوْضُوعِهَا... وَثَمَّةَ أَيْضًا تَنَاقُضٌ بَيْنَ الْجَوَاهِرِ الرُّوحِيَّةِ monads مُؤَسَّسَ سَلَفًا، وَذَلِكَ بِإِضْفَاءِ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ عَلَى هَذَا الْمُصْطَلَحِ الْجَدِيدِ" - H. Wildon Carr, *A Theory of Monads* (1922), pp. 299-300, 318.

Nicholas Murray Butler, *What is Education?* (1906), p. 17.

(46)

W. E. Urwick, *The Child's Mind* (1907), p. 68.

(47)

"إِنَّ رُؤْيَا كَلِمَةٍ سَكَّرَ تَعْنِي حَلَاوَتَهُ".

"إِنَّ الْكَلِمَةَ الْعَامَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي ثَلَاثُهَا مُطْلَقًا التَّعْبِيرَ عَنْ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْوَعْيِ هِيَ كَلِمَةُ مَعْنَى". (48).

"كُلُّ مَا هُوَ مَقْصُودٌ لَا يَظْهَرُ الْبَتَّةَ فِي الْحَالَةِ الذَّهْنِيَّةِ. فَالْمَضْمُونُ الذَّهْنِيُّ لَا يَعْني سِوَى مَا تُفَكِّرُ فِيهِ؛ فَهُوَ لَا يُعِيدُ تَوَلِيدَهُ وَلَا يُنْشِئُهُ". (49).

"لِلْإِدْرَاكَاتِ الْحِسِّيَّةِ مَعَانٍ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ حِسٍّ لَهُ مَعْنَى؛ فَالْحِسُّ إِنَّمَا يَحْدُثُ بِطَرَائِقَ وَضَفِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ: مِنْ حَيْثُ الشَّدَّةُ، أَوْ الْوُضُوحُ، أَوْ الْمَكَانُ، وَهَلُمَّ جَرًّا. أَمَّا الْإِدْرَاكَاتُ الْحِسِّيَّةُ فَكُلُّهَا لَهُ مَعْنَى؛ نَعَمْ إِنَّهَا تَحْدُثُ، أَيْضًا، بِطَرَائِقَ وَضَفِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَكِنَّهَا تَحْدُثُ عَلَى نَحْوِ تَكُونٍ بِهِ ذَاتَ مَعْنَى".
"فَتَكُونُ الْفِكْرَةُ تَعْنِي فِكْرَةً أُخْرَى هُوَ مَعْنَى تِلْكَ الْفِكْرَةِ الْأُخْرَى مِنَ النَّاحِيَةِ السَّايِكُولُوجِيَّةِ، إِنْ كَانَ هُوَ سِبَاقَ تِلْكَ الْفِكْرَةِ". (50).

"إِنَّ الْمَعْنَى التَّائِيْدِيَّ-الْإِرَادِيَّ لِشَيْءٍ مَا، أَوْ الْقِيَمَةَ، لَا يُصْبِحُ بَيْنًا إِلَّا فِي الْمُسْتَوَى الْمَعْرِفِيِّ. وَإِنَّ تَفْعِيلَ الْمَيْلِ التَّزْوِيعِي، إِمَّا بِالشُّعُورِ وَإِمَّا بِالرَّغْبَةِ، [179] مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْمَعْرِفِيَّةِ هُوَ مَا يَمْنَحُ الشُّعُورَ أَوْ الرَّغْبَةَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْقِيَمَةِ... إِذْ مَا الْمَعَانِي الْمُمَكِّنَةُ لِلْوَاقِعِ مُسْتَخْدَمًا فِي التَّقْوِيمِ التَّائْمِلِيِّ، أَوْ مَا اللَّامِحَةُ الْمَنْطَقِيَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي؟". (51).

"قَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى عِبَارَةً عَنْ شَيْءٍ مَا مَعْنِيٍّ، وَقَدْ يَكُونُ- الْمَعْنَى لَا غَيْرَ... فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَعْنَى، فِي تَأْوِيلِي، إِلَّا جُزْءًا مِنْ عَمَلِيَّةٍ بَيْنِيهَا فَلَمْ يَلُجْ فِي الثَّقَلِ مِنْ بَحْثِنَا الذَّائِبِ عَنْهُ وَسَطَ الْمَفْرَزَاتِ الْمَرْصُوصَةِ أَوْ الْمُرَكَّبَةِ

Stout, *Manual of Psychology*, pp. 104, 180, 183.

(48)

Pillsbury, *Fundamentals of Psychology*, p. 269.

(49)

Titchener, *A Text-book of Psychology*, p. 367; and *Experimental Psychology of the Thought-Processes*, p. 175.

(50)

Urban, *Valuation*, pp. 95, 387.

(51)

لِلْعَمَلِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ؟⁽⁵²⁾.

"إِنَّ الْمَعْنَى هِيَ الْجُزْءُ الْأَسَاسِي مِنْ فِكْرَةٍ أَوْ وَعْيٍ لِشَيْءٍ مَا... وَلَيْسَ لِلْمَعْنَى مُلَازِمٌ سَايَكُولُوجِيٌّ جَاهِزٌ فِي الذَّهْنِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بَدِيلًا لَهُ وَيُؤَدِّي عَنْهُ وَظَائِفُهُ"⁽⁵³⁾.

مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، يُمَكِّنُ النَّظَرُ فِي الْفِقْرَةِ الْآتِيَةِ مِنْ كَلَامِ الرَّاحِلِ البروفيسور بُتْنَام⁽⁵⁴⁾ J. J. Putnam⁽⁵⁵⁾، الَّذِي كَانَ مُنْتَسِبًا إِلَى جَامِعَةِ هَارْفَرْد، بِوَصْفِهَا عَيْنَةً لِلُّغَةِ الْمُحَلِّلِينَ النَّفْسِيِّينَ:-

"إِنَّ السَّيَرَ فِي الرَّيْفِ بِلا مِعْطَفٍ شَخْصِيٍّ يَبْدُو أَمْرًا غَيْرَ ذِي شَأْنٍ، وَهُوَ كَذَلِكَ حَقًّا، لَكِنَّ حَدُوثَ نَقْصٍ فِي الْمَلَايِسِ مُشَابِهٌ لِهَذَا فِي الْحُلْمِ قَدْ يَكُونُ حَدَثًا ذَا مَعْنَى أَوْسَعَ بِكَثِيرٍ... يَتَضَحُّ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ لَفْظَ 'جِنْسِي' بِتَعْرِيفِهِ بِمُفْرَدَاتِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ أَوْسَعَ مَعْنَى بِكَثِيرٍ مِنَ النَّصُورِ الْمُعْتَادِ لَهُ... وَالتَّنْقِطَةُ الْلاحِقَةُ تُحِيلُ عَلَى مَفْهُومِ 'التَّسَامِي' sublimation'. هَذِهِ الْحَصِيلَةُ مِنَ الْارْتِقَاءِ الْفَرْدِيِّ، كَمَا يُعَرِّفُهَا فِرَوِيد⁽⁵⁶⁾ Freud⁽⁵⁶⁾، تَحْمِلُ

(52) Lloyd Morgan, *Instinct and Experience*, pp. 277, 278.

(53) W. McDougall, *Body and Mind*, pp. 304, 311.

(54) جِيمْس جَاكْسُن بُتْنَام (1846-1918م). طَبِيبُ أَعْصَابٍ أَمْرِيكِيٍّ. أَكْثَرُ مَا عُرِفَ بِهِ دِفَاعُهُ الشُّجَاعُ غَيْرُ الْإِعْتِيَادِيِّ عَنِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ الْفِرَوِيدِيِّ بَيْنَ سَنَتَيْ 1905 و 1918 حِينَ كَانَتْ أَفْكَارُ فِرَوِيدَ غَيْرَ مُمْتَشِرَةٍ فِي أَمْرِيكََا وَسَيِّئَةُ السَّمْعَةِ وَمَكْرُوهَةٌ. مِنْ مَوْفَاتِيهِ: انْطِبَاعَاتُ شَخْصِيَّةٍ عَنْ فِرَوِيدَ، وَفِي بَعْضٍ مِنْ أَوْسَعِ قَضَايَا حَرَكَةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ، وَالدَّوَافِعُ الْإِنْسَانِيَّةُ. [المُتَرَجِمُ]

(55) *Addresses on Psycho-analysis*, 1921, pp. 146, 151, 306.

(56) سِيْغْمُونْدُ فِرَوِيدَ (1856-1939م). طَبِيبٌ نَسَاوِيٌّ مِنْ أَصْلِ يَهُودِيٍّ، اخْتَصَّ بِدِرَاسَةِ الطَّبِّ الْعَصَبِيِّ، وَبَعْدُ مُؤَسَّسَ عِلْمِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ. اشتهرَ بِنَظَرِيَّةِ الْعَقْلِ الْإِلَاحِيِّ، وَآلِيَّةِ الدِّفَاعِ عَنِ الْقَمْعِ، وَخَلَقَ الْمَمارِصَ السَّرِيرِيَّةَ فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لِعِلَاجِ الْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ بِالْحَوَارِ بَيْنَ الْمَرِيضِ وَالْمُحَلِّلِ النَّفْسِيِّ. وَمَعَ التَّقدُّمِ فِي مَجَالِ عِلْمِ النَّفْسِ ظَهَرَتْ عَدَّةٌ عَيُوبٍ فِي الْكَثِيرِ مِنْ نَظَرِيَّاتِهِ. لَكِنْ تَظَلُّ أَسَالِيبُهُ وَأَفْكَارُهُ مَهْمَةً، وَمَا زَالَتْ مُؤَثَّرَةٌ فِي عَدَدٍ =

مَعْنَى اجْتِمَاعِيًّا صَارِمًا⁽⁵⁷⁾...

إِنَّ النِّهَايَةَ الْمَنْطِقِيَّةَ لِلْمُعَالَجَةِ بِالتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ تَكُونُ بِاسْتِرْدَادِ الْإِحْسَاسِ الْكَامِلِ بِصِلَاتِ حَيَاةِ الشَّخْصِ وَمَعَانِيهَا.

إِنَّ إِحْسَاسَ الْمَرْءِ بِالْفَخْرِ بِأَسْرَرِهِ قَدْ يَكُونُ أَحَدَ أَعْرَاضِ إِطْرَاءِ الذَّاتِ التَّرْجِيئِيِّ narcissistic self-adulation، لَكِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ، شَأْنُهَا شَأْنُ جَمِيعِ الْعَلَامَاتِ وَالرُّمُوزِ الْأُخْرَى، مِنْ الْحَالَاتِ الَّتِي يَلْتَقِي فِيهَا مَعْنِيَانِ مُتَعَارِضَانِ....".

وَلِلْبَرَاغَمَاتِيِّينَ مُحَاوَلَةٌ جَرِيئَةٌ بِاتِّجَاهِ تَبْسِيطِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ. فَقَدْ كَتَبَ الْبَرْوفيسُورُ مِيلَرُ⁽⁵⁸⁾ MILLER⁽⁵⁹⁾ يَقُولُ: "إِنَّ مَا يُوَحَى بِهِ هُوَ الْمَعْنَى"، وَلَا يَقِلُّ مَا قَدَّمَهُ

= من العلوم الإنسانية والاجتماعية. من أهم مؤلفاته: تفسير الأحلام، وقلق في الحضارة، وموسى والتوحيد، وخمسة محاضرات في التحليل النفسي. [المترجم]

(57) قَدَّمَ فُرويدُ مَفْهُومَ التَّسَامِي فِي عِلْمِ النَّفْسِ، وَيَقْصِدُ بِهِ التَّنْفِيسَ عَنْ رَغْبَةٍ فِي مَا لَا يَقْبَلُهُ الْمَجْتَمَعُ أَوْ مَا لَا يَقْدِرُ الْفَرْدُ عَلَى فِعْلِهِ لِأَيِّ سَبَبٍ، مِنْ خِلَالِ سُلُوكٍ آخَرَ مَقْبُولٍ اجْتِمَاعِيًّا، كَأَنْ يَفْعَلَ الرَّاعِبُ فِي الْعُغْبِ جَزَازًا، أَوْ أَنْ يُنْفَسَ الْمَكْبُوثُ جَنَسِيًّا عَنْ شَهْوَتِهِ بِالْقَرْنِ أَوْ الرِّيَاضَةِ أَوْ حَتَّى التَّعَلُّمِ. وَقَدْ حَلَّلَ فُرويدُ نَتَاجِاتِ عَيْنِهِ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْمُبْدِعَةِ فِي الْفَنِّ وَالْأَدَبِ كَدَاوْنِشِي، وَفَانْ غُوخْ، وَدَسْتُويفْسْكِي، وَغَيْرِهِمْ، فَوَجَدَ أَنَّ إِبْدَاعَهَا لَمْ يَكُنْ بِفِعْلِ عَامِلِ الْفُطْرَةِ، بَلِ الْفَنَانُ عِنْدَهُ إِنْسَانٌ يُعَانِي الْمُصَابَ Neuroses الَّذِي هُوَ اضْطِرَابٌ عَصَبِيٌّ وَظِيفِيٌّ. وَقَدْ رَدَّ الْعُصَابَ إِلَى اضْطِرَابٍ فِي الْوُظُفَةِ الْجَنَسِيَّةِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الطَّاقَةُ الْجَنَسِيَّةُ أَوْ اللَّيْبِيدُو Libido. فَالْعُصَابُ هُوَ الَّذِي يَقِفُ وَرَاءَ إِبْدَاعِ الْفَنَانِ؛ إِذْ إِنَّ رَغْبَتَهُ فِي التَّخْلُصِ مِنْهُ جَعَلَتْهُ يَتَّجِهَ لِاشْعُورِيًّا بِاتِّجَاهِ مَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ فُرويدُ مُصْطَلَحَ التَّسَامِي Sublimation الَّذِي يَعْنِي التَّزَوُّةَ بِمِقْدَارٍ تَحْوُلُهَا إِلَى هَدَفٍ جَدِيدٍ غَيْرِ جِنْسِيٍّ؛ إِذْ تَنْصَبُّ عَلَى مَوْضُوعَاتٍ ذَاتِ قِيَمَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. [المترجم]

(58) إِرْفِنْغُ إِيْلغَرُ مِيلَرُ (1869-1962م). عَالِمُ نَفْسٍ أَمْرِيكِيٌّ. مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ: سَايْكُولُوجِيَةُ التَّفَكُّيرِ، وَدَلَالَةُ الْعُنْصُرِ الرِّيَاضِيِّ فِي فِلَسَفَةِ أَفْلَاطُونِ، وَالتَّرْبِيَةُ وَاحْتِيَاجَاتُ الْحَيَاةِ. [المترجم]

البروفيسور باودن⁽⁶⁰⁾ Bawden⁽⁶¹⁾ عن هذه الأطروحة بساطة، إذ يقول: "إنَّ الشعورَ هو التَّقويمُ الغامِضُ لقيمةٍ وَضَعَ ما، في حين أنَّ المعرفةَ إدراكٌ حسيٌّ واضحٌ ومُمَيَّزٌ لِمَعْنَاهُ". غيرَ أنَّ المُشكلةَ تَبَدُّأَ معَ المُحاولاتِ الأولى لتفصيل الكلام في ذلك. [180] إذ يقول البروفيسور ديوي Dewey⁽⁶²⁾: "إنَّ التَّجربةَ المَعْرِفِيَّةَ هي التي تَكُونُ واعيَّةً وِعِيًّا تَرَامُنِيًا لِمَعْنَى شَيْءٍ ما خارجَ ذاتِها. غيرَ أنَّ المَعْنَى والشَّيْءَ المَعْنِيَّ كِلَاهُمَا غُضِرَ في الحَالَةَ نَفْسِها... وَيَكُونُ أَحَدُهُما حَاضِرًا يوصِفُه غيرَ حَاضِرٍ بالطَّرِيقَةِ نَفْسِها التي يَكُونُ الآخَرُ حَاضِرًا بِها... وَيُمْكِنُنا القَوْلُ إنَّ رَاحَةَ وَرَدَةٍ ما تَكُونُ حَالَةً ذِهْنِيَّةً حِينَ يَكْتَفِيها مَعْنَى أو قَصْدٌ واعيٌّ".

إنَّ مُؤرِّخي الفلسفة⁽⁶³⁾ والطفولة⁽⁶⁴⁾، والمُصلِحين الاجتماعيين⁽⁶⁵⁾

(60) هنري هيث باودن (1871-1950م). فيلسوف أمريكي. أهم مؤلفاته: مبادئ البراغماتية، ومُحطَّط لِعِلْمِ النَفْس. [المترجم]

(61) H. Heath Bawden, *The Principles of Pragmatism*, p. 151.

(62) J. Dewey, *The Influence of Darwin upon Philosophy*, 1910, pp. 88, 104.

(63) "يُمْكِنُ القَوْلُ عُمومًا إنَّ الأفكارَ رُموزٌ تُعَبَّرُ عن لَحظةٍ فِعْلِيَّةٍ أو مَظْهَرٍ فِعْلِيٍّ لِتَجْرِبَةٍ ما، وتَقودُ إلى المَزِيدِ مِنَ التَّفَعُّيلِ لِمَا يَكُونُ، أو يَبْدُو، مُتَضَمَّنًا في وُجودِها أو مَعْنَاهَا ... وعَدَمُ وُجودِ فِكْرَةٍ وافيَّةٍ تَمَامًا يَعرِني أنَّ إِيحائيَّةَ التَّجْرِبَةِ لا تَنفُذُ". Forsyth, *English Philosophy*, 1910, pp. 180, 183

(64) "يَعُودُ جُزءٌ مِنَ تَعَلُّمِ الأَطْفالِ نَظَقَ الكَلِماتِ إلى اتِّخاِذِ أصواتٍ مِنَ عِنْدِ أَنْفُسِهِم وإِعطائِها مَعْنَى، وَجُزءٌ مِنْهُ إلى مُحاكاةٍ خالصةٍ ... وَكَوْنِ الطِّفْلِ يَخْتَرُعُ كُلَّما مِنَ الأصواتِ والمَعْنَى أَمْرٌ لا يُمْكِنُ القَطْعُ بِهِ ... لَكِن لا شَكَّ في أَنَّهُ يُغَيِّرُ مَعْنَى الكَلِماتِ". E. L. Cabot, *Seven Ages of Childhood*, 1921, pp. 22, 23, 24

(65) "مَعْنَى الزَّواجِ! ما أَسهَلُهُ حَقًّا عَلَيَّ وَعَلَيْكَ أن نَجْزِمَ بِمَعْنَاهُ المُحدِّدِ، وَلَكُم اسْتِنْفِدْ، مَعَ ذَلِكَ، مِنَ مُجْهُودِ يائِسَةٍ وَمُخَيَّبَةٍ مِنَ أَجْلِ اكْتِشافِهِ ... وَلَوْ أَنَّ الأَطْفالَ أَحاطُوا بِها عِلْمًا لَفَقَدُوا المَعْنَى الأساسِيَّ لِلزَّواجِ الإنسانيِّ. إنَّ مَعْرِفَةَ الحِياةِ خارِجَ نِطاقِ الإنسانيَّةِ لا تَرْتَبِنُا بِصِيرةٍ بِشأنِ ما يَعرِنيه الزَّواجُ لِلرِّجالِ والنِّساءِ ... وَمِن الواضِحِ أَنّا إِذا رَغَبنا في مَعْرِفَةِ مَعْنَى الزَّواجِ نَعَيِّنُ عَلَينا التَّفتِيشُ في المَنازِلِ التي تَكُونُ فيها الظُّروفُ إِيجابيَّةً ... وَيُمْكِنُنا أن نُقَدِّمَ، بِسَماخَةِ نَفْسِ، التَّقْدِيرَ المُستَحَقَّ لِلقِطْعةِ الأُمِّ. فالأُمومةُ، في الأصلِ، تَعرِني الكَثِيرُ في عَالَمِ الحَيَوانِ!" G. Spiller, *The Meaning of Marriage*, 1914, pp. 1-3.

والتَّخَوُّيَيْنَ⁽⁶⁶⁾ - لِكُلِّ شَرِيحَةٍ مِنْهُمْ اسْتِعْمَالُهَا الْخَاصَّةُ لِلْكَلِمَةِ، الَّتِي هِيَ اسْتِعْمَالَاتٌ وَاضِحَةٌ لِكِنَّهَا غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ. وَحَتَّى أَكْثَرُ الْمُفَكِّرِينَ وَضُوحًا يُحْجِمُونَ عَنِ الْمَزِيدِ مِنَ التَّحْلِيلِ. وَيُؤَدِّي 'الْمَعْنَى' دَوْرًا جَلِيلًا فِي جَمِيعِ كِتَابَاتِ البروفيسور مَور، وَنُكِّنَا أَنْ نَقْرَأَ فِي كِتَابِهِ مَبَادِئُ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ *Principia Ethica* قَوْلَهُ: -

"قَدْ يَكُونُ لِسُؤَالِنَا: 'مَا الْحَسَنُ؟' مَعْنَى آخَرُ. وَقَدْ نَكُونُ، فِي مَقَامِ ثَالِثٍ، غَيْرَ قَاصِدِينَ أَنْ نَسْأَلَ مَا الشَّيْءُ الْحَسَنُ أَوْ الْأَشْيَاءُ الْحَسَنَةُ، بَلْ أَنْ نَسْأَلَ كَيْفَ يُعْرَفُ 'الْحَسَنُ...' وَكَوْنُ الْمَقْصُودِ بِـ'حَسَنٍ' هُوَ، فِي الْحَقِيقَةِ، مَا عَدَا نَقِضُهُ [181] 'سَيِّئٌ'، هُوَ الْمَوْضُوعُ الْفِكْرِيُّ الْبَسِيطُ الْوَحِيدُ الْمُتَمَيِّزُ لِعِلْمِ الْأَخْلَاقِ.

وَلَا مَعْنَى الْبَيِّنَةُ لِقَوْلِنَا إِنَّ الْبُرْتُقَالَ كَانَ أَصْفَرَ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْأَصْفَرُ، فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ، يَعْنِي 'الْأَصْفَرُ' فَحَسْبُ... وَلَنْ نَبْلُغَ بِعِلْمِنَا مَبْلَغًا بَعِيدًا جِدًّا إِذَا كُنَّا مُصْرِّحِينَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ أَصْفَرَ يَعْنِي بِالضَّبْطِ مَا يَعْنِيهِ الْأَصْفَرُ. عَلَى أَنَّهُ فِي الْعُمُومِ قَدْ حَاوَلَ فَلَسِيفَةُ الْأَخْلَاقِ تَعْرِيفَ الْحَسَنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْرِكُوا مَا لَا بُدَّ أَنْ تَعْنِيَهُ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةُ⁽⁶⁷⁾.

(66) إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ حَدِيثُنَا صَارِمًا قُلْنَا إِنَّ الصُّورَةَ كَثِيرًا مَا يَكُونُ لَهَا مَعَ الْمَعْنَى دَوْرَانِ؛ فَبِهِيْ جُزْءُ الْمَعْنَى وَرَمَزٌ لِمَا بَقِيَ مِنْهُ. فَبَوَصَفِهَا جُزْءًا تُثَمِّلُ وَاحِدًا مِنْ تَفْصِيلَاتِ الْمَعْنَى. وَإِنْ وَاحِدًا مِنْ أَجْزَاءِ مَعْنَى كَلِمَةٍ مَا هُوَ إِحَالَتُهَا الثَّابِتَةُ عَلَى مُعَادِلٍ مَوْضُوعِيٍّ مَا... وَالْمَعْنَى وَحْدَهُ هُوَ مَا يَبْعُرُ مِنَ الذَّهْنِ إِلَى الذَّهْنِ. A. D. Sheffield, *Grammar and Thinking*, pp. 3-4.

Pp. 5, 14, 15.

(67)

وَنُكِّنَا أَنْ نُوَازِنَهُ بِمَنْهَجِ مُقَارَبَةِ البروفيسور بيرى Perry الَّذِي جَاءَ فِيهِ:

"مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَعْينَهُ إدْرَاكُ الْحَسَنِ إِذَا لَمْ يَغْنِ أَنْ مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ وَضَرُورِيٌّ، وَفِعْلِيٌّ وَوَاقِعِيٌّ هُوَ حَسَنٌ أَيْضًا؟

وَإِذَا كَانَ أَسَاسِيًّا لِمَعْنَى الْفَلَسَفَةِ وَجُوبُ انْتِشَاقِهِ مِنَ الْحَيَاةِ، فَأَسَاسِيٌّ لَهُ كَذَلِكَ وَجُوبُ رُجُوعِهِ إِلَيْهَا. لَكِنَّ هَذَا الرِّبْطَ لِلْفَلَسَفَةِ بِالْحَيَاةِ لَا يَعْنِي اخْتِزَالَهَا فِي مُفْرَدَاتِ الْحَيَاةِ كَمَا تُفْهَمُ فِي الْأَسْوَاقِ.

إِنَّ عَصْرَنَا الْحَاضِرَ مُنْشَغِلٌ عَنِ مَعْنَى الْحَيَاةِ بِسَبَبِ انْتِهَامِكِهِ بِإِنْجَازَاتِهِ الذَّائِبَةِ". R. B.

Perry, *The Approach to Philosophy*, pp. 422, 426, 427.

وليس علم الأخلاق وحده هو الذي تركزُ الافتراضات الفلسفية المهمة فيه على هذا الأساس الاعتيادي. يقول أحد الميتافيزيقيين المعاصرين⁽⁶⁸⁾: "معلوم أن الأشياء هي، إلى حد بعيد، بناءات، تركيب توفيقتي من عناصر ومعان حسية... والمفهوم ليس مجرد كلمة؛ إذ إنَّ له معنى... والكليّة، بوصفها موضوعاً لمعنى، ليست فعلاً عقلياً". ويؤكد آخر⁽⁶⁹⁾ يتحدث أيضاً عن "تحليل المعنى لعملية تعبير، من وجهة نظر تنطلق من المفاهيم" أن من المحال تصوّر "أنا نحن أنفسنا يمكن تحليلنا إلى معطيات حسية؛ ذلك بأن المعطيات الحسية "يعطيها" أو "يقدمها" المعنى الفعلي لللفظ". ثم "إنه لا شك في صدق أن 'الجسم' و'العقل' يستعملان في أكثر من معنى يمكن أن تلحق به دلالة معقولة"⁽⁷⁰⁾. والمعاني التي تلحق بها دلالة يستشهد بها أيضاً لوتز⁽⁷¹⁾ Lotze⁽⁷²⁾ الذي يذهب إلى أن "الشخصيات والأحداث التاريخية، على الرغم من كل الدلالة التي تلحق بمعناها، كثيراً ما لا تكون لها دلالة [182] في شكلها الخارجي الذي تظهر به"، والذي يُخبرنا أيضاً أنه في العِمارة الإسلامية "قد يكون القوس المدبب المرتفع الذي يشبه حدود الحصان غير ذي معنى إنساني على وجه الدقة، لكنه،

(68) D. H. Parker, *The Self and Nature*, 1917, pp. 158, 190.

(69) C. A. Richardson, *Spiritual Pluralism*, 1920, pp. 10, 40.

(70) *Ibid.*, p. 184.

(71) رودولف هيرمن لوتز (1817-1881م). فيلسوف، ومنطقي ألماني، وكانت لديه درجة طبيّة أيضاً. ذهب إلى أنه إن كان العالم الفيزيائي محكوماً بقوانين آلية أمكن تفسير العلاقات والتطورات في الكون بوصفها عمالاً لعقل عالمي. ومثلت دراساته الطبيّة عمالاً ريادية في علم النفس التجريبي الذي حمل لواء الدعوة إليه وأعلته في عدد من مؤلفاته مثل (علم النفس الطّبي) و(العالم الأصغر) وغيرهما من الآثار التي تظهر فيها محاولة الجمع بين الميتافيزيقا والعلم. ومن مؤلفاته الأخرى: معالِم الميتافيزيقا، ومعالِم فلسفة الدين، ومعالِم الفلسفة العملية، ومعالِم علم النفس، ومعالِم علم الجمال. [المترجم]

(72) *Outlines of Aesthetics*, in the English translation by Professor G. T. Ladd of Yale, p. 86.

بِالْأَحْرَى، يُذَكِّرُ بِالْإِفْتِاحِ الْعَظِيمِ لِشَقِّ مَا" (ص 66)، في حين أَنَّ الْمَنْظَرَ الطَّبِيعِيَّ في تَشْكِيلِ تَصْوِيرِيٍّ "لَهُ مَعْنَى يَفْتَصِرُ عَلَى كَوْنِهِ جُزْءًا مِنَ الْعَالَمِ الْفِعْلِيِّ فَحَسَبُ" (ص 82).

على أَنَّ عِلْمَ الْجَمَالِ اِزْدَهَرَ عَلَى الدَّوَامِ في الاستعمالاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، وقد كَانَ الْكُتَّابُ غَيْرُ الْمُتَفَلِّسِينَ في هَذِهِ النُّقْطَةِ أَكْثَرَ الْإِحَاحَا مِمَّا هُوَ مُعْتَادٌ في تَوْسِيلِهِمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ في جَمِيعِ النُّقَاطِ الْحَيَوِيَّةِ. إِذْ يَكْتُبُ فَاِنْ غَوْخ Van Gogh⁽⁷³⁾ قَائِلًا: "إِنَّ اللَّوْنَ يَوْصِفُهُ لَوْنًا يَعْنِي شَيْئًا مَا، وَلَا يَنْبَغِي إِغْفَالُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، بَلِ الْأَوَّلَى الْإِفَادَةُ مِنْهَا"⁽⁷⁴⁾. وَتَقْرَأُ أَنَّ الشَّاعِرَ أَيْضًا "قَالَ مَا كَانَ يَعْنِيهِ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ مَعْنَاهُ يُشِيرُ بَعِيدًا خَارِجَ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ بِالْأَحْرَى يَمْتَدُّ لِيَكُونَ شَيْئًا غَيْرَ مَحْدُودٍ يَتَرَكِّزُ فِيهِ فَقَطُ"⁽⁷⁵⁾.

وهكذا في تَصْعِيدِ تَكَرَّارِيٍّ إِذْ تُحَلِّقُ عَوَاطِفُ الْفِيلَسُوفِ الْبَاحِثِ في أَصْلِ الْكَوْنِ cosmologist في السَّمَاءِ:-

"حَوَّلَ الْفِكْرُ وَضَعَ الْحَيَاةَ كُلَّهُ وَوَهَبَ لِلْوَاقِعِ مَعْنَى جَدِيدًا... إِنَّ عَصْرَنَا هَذَا لَعَظِيمٌ في فُرْصِهِ لِلَّذِينَ يَنْتَزِعُونَ مِنَ الْحَيَاةِ مَعْنَى وَاقِعَةً"⁽⁷⁶⁾.

"كُلُّ تَفْكِيرٍ بِشَأْنِ مَعْنَى الْحَيَاةِ يَعُودُ بِنَا إِلَى الْغَرَائِزِ... وَحَالَمَا نُنْكِرُ الْإِحْسَاسَ فَإِنَّ آيَةً دَلَالَةً أُخْرَى سِوَى مَا يَنْتَمِي إِلَيْهِ يَوْصِفُهُ مُنْظَمًا لِلْفَعَالِيَّةِ، أَيِ الْقِيَمِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْحَيَاةِ الَّتِي أُشِيعَتْ مِنْذُ فَجْرِ الْحَضَارَةِ، تُصْبِحُ غَيْرَ ذَاتِ مَعْنَى تَمَامًا"⁽⁷⁷⁾.

(73) فِينِسْتِ وَلِيمُ فَاِنْ غَوْخ (1853-1890م). رَسَّامٌ هُولَنْدِيٌّ يُصَنِّفُ يَوْصِفُهُ فَنَائًا انْطِبَاعِيًّا. عَانِيَ نَوَابِتَ مَتَكَرِّرَةً مِنَ الْمَرَضِ الْعَقْلِيِّ، وَفِي أَثْنَانَهَا قَطَعَ جُزْءًا مِنْ أُذُنَيْهِ الْيُمْنَى. كَانَ مِنْ أَشْهُرِ فَنَائِيِ التَّصْوِيرِ التَّشْكِيلِيِّ الَّذِي أَتَّجَعُ إِلَيْهِ لِلتَّبْعِيْرِ عَنْ مَشَاعِرِهِ وَعَوَاطِفِهِ. رَسَمَ في آخِرِ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مِنْ عُمُرِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى 800 لَوْحَةٍ زِيَّتِيَّةٍ. [المُتَرْجِمُ]

(74) Letters of a Post-Impressionist, p. 29.

(75) A. C. Bradley, Oxford Lectures on Poetry, 1901, p. 26.

(76) R. Eucken, The Meaning and Value of Life, 1909, pp. 38, 147.

(77) I. Harris, The Significance of Existence, 1911, p. 319.

"تمامًا ومثلما يجدُ الفَتَانُ مَعْنَاهُ الخاصَّ بِهِ في صِرَاعِهِ النَّاجِحِ للتَّعبِيرِ عَنْهُ، تَعْلَمُ الذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ، على ما نَرَى، قَضَدَهَا الذَّاتِيَّ في عَمَلِيَّةٍ إِحْدَائِهِ... إِنَّ الجِدَّةَ تُمَثِّلُ لِلْعَالَمِ جُزْءًا مِنْ مَعْنَاهُ، وَيَضْدُقُّ هَذَا بِخَاصَّةٍ على نَحْوِ التَّجَرِبَةِ الَّتِي رَأَيْنَا أَنَّ التَّجَرِبَةَ الإِلَهِيَّةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا، حَيْثُ يَكُونُ الْمُسْتَقْبَلُ هُوَ الْمُنْصَرَّ الزَّمَنِي الْمُهَيِّمُ".⁽⁷⁸⁾

"اللهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ وَالْمِثَالُ مَعًا، لَا بِالْمَنْحَى السَّائِدِ مِنَ التَّحَاقِ قِيَمَةٍ مَا بِوَاقِعَةٍ أَوْ بِحَقِيقَةٍ، كَالْتَّحَاقِ النَّفْعِ بِمُخْبِرَتِي الْمُنْضِدِيَّةِ، بَلْ بِالْمَنْحَى الْمُتَمَيِّزِ الَّذِي يَلْتَحِقُ بِهِ الْمَعْنَى [183] بِمَا يَرْمِزُ إِلَيْهِ... فَالرَّمْزُ أَوْ الشُّعَارُ الْمَوْضُوعِيُّ مُنْسَوْبٌ وَمَعْرُوفٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى مِنْ أَجْلِ التَّعبِيرِ عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ.

إِنَّ الْوَاقِعَ فِي التَّحْلِيلِ الْأَخِيرِ هُوَ مَا نَعْنِيهِ بِالْوَاقِعِ. فَمَا الْوَاقِعُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ بِمَعزِلٍ عَنْ كُلِّ مَعْنَى لِلتَّجَرِبَةِ إِلَّا سُخِفَ أَوْ مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ".⁽⁷⁹⁾

"لَا يَكْتَسِبُ الْجَانِبُ الْفِعْلِيُّ لِكُلِّ دَقِيقَةٍ مِنَ الْوَعْيِ الْقِيَمَةَ أَوْ الْمَعْنَى إِلَّا بِوَصْفِهِ أَمَارَةً لِلْكُمُونِ الضَّخْمِ الْمُسْتَرِّ خَلْفَهُ ...

وَنَظَرِيَّاتٍ أَصْلُ الْكَوْنِ الَّتِي تُعْنَى بِسَيَرورة الْعَالَمِ كَثِيرًا مَا تَتَوَقَّفُ وَتُصْبِحُ غَيْرَ ذَوَاتٍ مَعْنَى بِرَفْضِهَا تَقْدِيمَ فِكْرَةِ اللَّانِهَائِيَّةِ".⁽⁸⁰⁾

"مِنْ أَجْلِ الْحَصُولِ عَلَى رُؤْيَا أَوْضَحَ لِهَذِهِ النُّتَائِجِ يَنْبَغِي لَنَا النَّظَرُ فِي مَجَالِ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى نَحْوِ أَوْضَحَ، وَالبَحْثُ فِي مَدَى إِمْكَانِهَا أَنْ تُحْمَلَ بَعِيدًا، كَمَا هِيَ الْحَالُ مَعَ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ... وَمِثْلَمَا يُتَبَيَّنُ لِي مَعْنَى الْكَلِمَةِ أَنْ أَعْلَمَ أَوْ، إِنَّ جَارَ التَّعبِيرِ، أَنْظَرَ فِي فِكْرِ إِنْسَانٍ آخَرَ، يُتَبَيَّنُ لِي مَعْنَى رُوحِي أَنْ أَنْظَرَ فِي ذَلِكَ الْوُجُودِ الَّذِي أَدْعُوهُ اللهُ... فَالْهُ يَغْنِي النَفْسَ الْأَزَلِيَّةَ أَوْ اللَّانِهَائِيَّةَ".⁽⁸¹⁾ [184]

W. Temple, *The Nature of Personality*, 1911, p. 107.

(78)

J. M. Baldwin, *Genetic Theory of Reality*, 1915, pp. 108, 227.

(79)

E. Belford Bax, *The Real, the Rational, and the Alogical*, 1920, pp. 233, 243.

(80)

Professor K. J. Spalding, *Desire and Reason*, 1922, p. 8.

(81)

الفصل التاسع

مَعْنَى الْمَعْنَى

يا أَبْتَ ! هذه كَلِمَاتُ فَطِيعَةٍ، لَكِنَّ وَقْتِي لَا يَتَّبِعُ الْآنَ لِعَبْرِ الْمَعَانِي . -

Melmoth the Wanderer الجوّال

إنَّ دراسةَ أقوالِ الفَلاسيقةِ تَشِي بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مَوْضِعَ ثِقَةٍ فِي مُعَالَجَاتِهِمْ لِلْمَعْنَى. فَلْتَنَرْ، بِمَعْنِيَةٍ مَا هَيَّؤُوهُ لَنَا مِنْ مَادَّةٍ: أَيْمَكُنْ إِحْرَارُ الْمَزِيدِ مِنَ النَّتَائِجِ الْمُسْرَفَةِ بِالْآلِيَّةِ الَّتِي فَضَّلْنَاهَا سَلَفًا؟

في الْبَدْءِ نَقُولُ: لَيْسَ صَعْبًا أَنْ نَصَوِّغَ تَعْرِيفَيْنِ يُنَاطِرَانِ التَّعْرِيفَاتِ الَّتِي فِي الْمَجْمُوعَةِ A فِي حَالَةٍ تَعْرِيفِ (الْجَمِيلِ). وَكَانَ إِضْفَاءُ الْفَلاسيقةِ بَعْدًا مَادِّيًّا عَلَى مَا يُعَرَّفُونَهُ سَهْلًا وَطَبِيعِيًّا بِوَسَاطَةِ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا اخْتِرَاعُهُمْ مَادَّةً مُمَيَّزَةً، خَاصِيَّةً جَوْهَرِيَّةً، وَقَوْلُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ: لَيْكُنْ كُلُّ مَا يَحُوزُ هَذِهِ حَاضِرًا لِلْمَعْنَى، وَالْآخَرُ اخْتِرَاعُهُمْ عِلَاقَةً خَاصَّةً غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّحْلِيلِ، وَقَوْلُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ: لِيُقَلَّ عَنْ كُلِّ مَا تَرِبُّهُ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ بِشَيْءٍ آخَرَ إِنَّ لَهُ مَعْنَى.

وَيُنَاحُ مَعَ ثَانِيِ التَّعْرِيفَيْنِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا بِدِيلٍ نَحْوِيٍّ يُعَاوِدُ الظُّهُورَ فِي جَمِيعِ التَّعْرِيفَاتِ الْمُفْتَرَحَةِ الْآخَرَى، وَيَمِيلُ مِيلًا كَبِيرًا إِلَى إِحْدَاثِ تَخْلِيطٍ فِي النَّقَاشِ. وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَعُدَّ الْمَعْنَى يَرْمِزُ إِلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَ A وَ B حِينَ يَكُونُ مَعْنَى A هُوَ B، أَوْ يَرْمِزُ إِلَى B. فَقِي أَوَّلَى الْحَالَتَيْنِ سَيَكُونُ مَعْنَى A هُوَ عِلَاقَتُهُ بِ B، وَفِي ثَانِيَتِهِمَا سَيَكُونُ مَعْنَاهُ هُوَ B. وَإِذَا مَا فُهِمَ هَذَا الْعُمُوضُ فَإِنَّهُ سَيُؤَدِّي إِلَى نُشُوءِ شَيْءٍ مِنْ

الصُّعُوبَةِ، لَكِنَّ تَجَنُّبَهُ بِاسْتِعْمَالِ الرَّمْزَيْنِ 'إِحَالَةً' وَ'مَرَجَعٌ' يُعَدُّ وَاحِدَةً مِنَ الْحَسَنَاتِ الْمُمَيِّزَةِ لِهَذِهِ الْمُفْرَدَاتِ. [185]

أَمَّا التَّعْرِيفَاتُ الْأُخْرَى فَتَشْبِهُ تَعْرِيفَاتِ (الْجَمِيلِ) كَذَلِكَ فِي أَنَّهَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ تَعْرِيفَاتٍ سَايَكُولُوجِيَّةً. عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَنْتَجَ مِنَ الْمِثَالَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ أَنَّ كُلَّ مُشْكِلَاتِ التَّعْرِيفِ تَنْشَأُ فِي حَقْلِ عِلْمِ النَّفْسِ. وَلَوْ كُنَّا نُحَاوِلُ تَعْرِيفَ 'السَّبَاحَةِ' أَوْ 'الْإِمْتِصَاصِ'، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَوَجَدْنَا أَنَّ التَّشْدِيدَ يَكُونُ عَلَى أَسَاسِ مَسَائِلِكِ لِلتَّعْرِيفِ مُخْتَلِفَةً تَمَامًا. وَمِنَ الْجَلِيِّ أَنَّ 'الْمَعْنَى' رَمَزٌ يَجِبُ أَنْ تَرْتَكِزَ بَعْضُ إِضَاحَاتِهِ عَلَى عِلْمِ النَّفْسِ، وَقَدْ اخْتِيرَ أَنْمُودُجُ الْجَمَالِ لِأَنَّ هَذَا الرَّمْزَ يَقَعُ كَذَلِكَ فِي الْمَازِقِ نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِدَرَجَةٍ أَقَلِّ عُمُقًا.

وَفِي الْآتِي قَائِمَةٌ تُمَثِّلُ التَّعْرِيفَاتِ الرَّئِيسَةَ الْمُفَضَّلَةَ لَدَى دَارِسِي الْمَعْنَى الْمَشْهُورِينَ. فَالْمَعْنَى هُوَ -

(الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى):

1. خَاصِيَّةٌ أَسَاسِيَّةٌ.

2. عِلَاقَةٌ بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى، فَرِيدَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّحْلِيلِ.

(الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ):

3. الْكَلِمَاتُ الْأُخْرَى الْمُلْحَقَةُ بِكَلِمَةٍ فِي الْمُعْجَمِ.

4. الدَّلَالَةُ الْإِيحَاطِيَّةُ Connotation لِلْكَلِمَةِ.

5. جَوْهَرٌ Essence.

6. فَعَالِيَّةٌ مُسَقَّطَةٌ عَلَى مَوْضُوعٍ مَا.

7.

أ. حَدَثٌ مَقْصُودٌ.

ب. إِرَادَةٌ.

8. مَوْضِعُ أَيِّ شَيْءٍ فِي نِظَامٍ مَا.
9. النَّتَاجُ الْعَمَلِيَّةُ لِشَيْءٍ مَا فِي تَجْرِبَتِنَا الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ.
10. النَّتَاجُ النَّظَرِيَّةُ الَّتِي يَسْتَلْزِمُهَا تَعْيِيرٌ مَا أَوْ الْمُتَضَمُّنَةُ فِيهِ.
11. الْعَاطِفَةُ الَّتِي يُثِيرُهَا أَيُّ شَيْءٍ.

(المجموعة الثالثة):

12. ذَلِكَ الَّذِي تَرْبِطُهُ فِعْلِيًّا بِالْعَلَامَةِ عِلَاقَةٌ مُخْتَارَةٌ.
- 13.

- أ. الْآثَارُ التَّذْكُرِيَّةُ لِمُؤْتَرٍ مَا. التَّرَابِطَاتُ الْمُكَتَسَبَةُ.
- ب. حَادِثَةٌ أُخْرَى ثَلَاثَتُهَا الْآثَارُ التَّذْكُرِيَّةُ لِأَيَّةٍ حَادِثَةٍ. [186]
- ت. ذَلِكَ الَّذِي تُؤَوِّلُ الْعَلَامَةُ بِوَصْفِهَا تَتَحَلَّى بِهِ.
- ث. مَا يُوجِي بِهِ Suggests أَيُّ شَيْءٍ.

وَفِي حَالَةِ الرُّمُوزِ:

14. ذَلِكَ الَّذِي يُجِيلُ عَلَيْهِ فِعْلِيًّا مُسْتَعْمِلُ رَمَزٍ مَا.
15. ذَلِكَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمِلُ رَمَزٍ مَا مُجِيلًا عَلَيْهِ.
16. ذَلِكَ الَّذِي يَعْتَقِدُ مُسْتَعْمِلُ رَمَزٍ مَا أَنَّهُ يُجِيلُ عَلَيْهِ.

أ. يُجِيلُ عَلَيْهِ.

ب. يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُجِيلُ عَلَيْهِ.

ت. يَعْتَقِدُ أَنَّ مُسْتَعْمِلَهُ يُجِيلُ عَلَيْهِ.

ولا حاجة بنا إلى أن نَشْغَلَ أَنْفُسَنَا بِالمجموعة الأولى. أما المجموعة الثانية فالأول فيها (أي الثالث) هو المعنى المُعْجَمِي، أو الدَّلَالَةُ عِنْدَ الفِيلولوجِيِّينَ،

وَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ عَلَى نِطاقٍ وَاسِعٍ جِدًّا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَظْهَرِهِ الْهَزْلِيِّ بِصِغَتِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَلَهُ فِي حَقْلِ الْفِيلُولُوجِيَا قِيَمَةٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا عَلَى مَا سَيُظْهِرُ لَنَا حِينَ نُنَاقِشُ فِي ضَوْءِ التَّعْرِيفِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْمَسَائِلَ الْمُتَشَابِهَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالِاسْتِعْمَالِ وَالتَّوَاضُّلِ الْجَيِّدَيْنِ.

وَالدَّلَالَةُ الْإِيحَائِيَّةُ (فِي التَّعْرِيفِ الرَّابِعِ) أَيْ 'الْمَعْنَى' فِي الْمَنْطِقِ التَّقْلِيدِيِّ، وَالْجَوْهَرُ (فِي التَّعْرِيفِ الْخَامِسِ) أَيْ 'الْمَعْنَى' عِنْدَ الْوَاقِعِيِّينَ النَّقْدِيِّينَ الَّذِينَ يُتَابِعُونَ الذِّكُورَ سَانتَيَانَا Santayana عَلَى مَا ذُكِرَ آنِفًا، يُمَكِّنُ تَنَاوُلَهُمَا مَعًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ 'الْجَوَاهِرَ' يُمَكِّنُ أَنْ تُعَدَّ عَلَى أَحْسَنِ نَحْوٍ دَلَالَةٌ إِيحَائِيَّةٌ مُضْفَى عَلَيْهَا الْبُعْدُ الْمَادِّيُّ عِنْدَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ وَاقِعِيَّتَهُمْ تَغْلِبُ نَقْدِيَّتَهُمْ.

وَمُصْطَلَحُ الدَّلَالَةِ الْإِيحَائِيَّةِ تَبْنَاهُ الْمَنَاطِقَةُ الَّذِينَ تَابَعُوا مِلْ Mill فِي مُمَارَسَةِ النِّقَاشِ كَمَا لَوْ أَنَّ ثَمَّةَ مَنْحَيَيْنِ أَوَّلِيًّا وَأَعْلَى يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ لِلرَّمْزِ عَلَى وَفْقِهِمَا إِنَّهُ يَعْنِي؛ الْأَوَّلُ أَنَّهُ يَعْنِي مَجْمُوعَةَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهَا عَلَى نَحْوٍ صَحِيحٍ، وَيُقَالُ عَنْ أَعْضَاءِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ إِنَّ الْكَلِمَةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ تَعْيِينِيَّةٌ أَوْ تُشِيرُ إِلَيْهَا، أَوْ إِنَّهَا دَلَالَتُهَا التَّعْيِينِيَّةُ؛ وَالثَّانِي أَنَّهُ يَعْنِي الْخَصَائِصَ الْمُسْتَعْمَلَةَ فِي تَحْدِيدِ اسْتِعْمَالِ رَمَزٍ مَا، الْخَصَائِصَ الَّتِي يَكُونُ بِمُقْتَضَاهَا أَيُّ شَيْءٍ [187] عُضْوًا فِي الْمَجْمُوعَةِ الَّتِي هِيَ الدَّلَالَةُ التَّعْيِينِيَّةُ؛ وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ يُقَالُ عَنْهَا إِنَّهَا الدَّلَالَةُ الْإِيحَائِيَّةُ لِرَمَزٍ مَا، أَوْ أحيانًا إِنَّهَا مَعْنَاهُ فَحَسْبُ. وَقَدْ لُخِّصَتْ عِلَاقَةُ الدَّلَالَةِ التَّعْيِينِيَّةِ بِالدَّلَالَةِ الْإِيحَائِيَّةِ تَلْخِيصًا مُلَاثِمًا عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: تُحَدِّدُ الدَّلَالَةُ الْإِيحَائِيَّةُ لِلْكَلِمَةِ دَلَالَتَهَا التَّعْيِينِيَّةَ الَّتِي تَعُودُ فَتُحَدِّدُ فَهَمَّهَا، أَيْ الْخَصَائِصَ الْمَشْتَرَكَةَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا. عَلَى أَنَّ مُصْطَلَحَ الدَّلَالَةِ الْإِيحَائِيَّةِ كَثِيرًا مَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْفَهْمِ نَفْسِهِ.

سَيَكُونُ وَاضِحًا لَدَى جَمِيعِ مَنْ يَنْظُرُ فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةَ مُصْطَلَعَةٌ جِدًّا. فَلَا يُمَكِّنُ اسْتِعْمَالُ الدَّلَالَةِ التَّعْيِينِيَّةِ وَلَا الدَّلَالَةِ الْإِيحَائِيَّةِ كَمَا لَوْ أَنَّ إِحْدَاهُمَا عِلَاقَةً بَسِيطَةً أَوْ جَوْهَرِيَّةً. فَلَوْ تَنَاوَلْنَا الدَّلَالَةَ التَّعْيِينِيَّةَ أَوَّلًا لَرَأَيْنَا أَنَّ لَيْسَ ثَمَّةَ كَلِمَةٍ لَهَا دَلَالَةٌ تَعْيِينِيَّةٌ بِمَعْرُوفٍ عَنْ إِحَالَةٍ مَا تَرْمِزُ إِلَيْهَا.

والعلاقات بينَ كَلِمَةٍ مَا والأشياء التي تَرْمِزُ إليها هذه الكَلِمَةُ غيرُ مُباشِرَةٍ (يُنْظَرُ: المَحْطَطُ في الفَصْلِ الأوَّلِ، ص 70)، وهي، على ما أَكْذَبْنَا، سَبِيئَةٌ. وإذا ما زِدْنَا على ذلكَ التَّعْقِيدَاتِ الأُخْرَى التي يُوَلِّدُهَا الاستِعْمَالُ الصَّحِيحُ حَصَلْنَا على نَتِيجَةٍ مُصْطَنَعَةٍ اصْطِنَاعًا تَعْدُو مَعَهُ مُحَاوَلَةُ اسْتِعْمَالِ 'التَّعْيِينِ' بِوَصْفِهِ اسْمًا لِعِلَاقَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ بَسِيطَةٍ شَيْئًا سَخِيفًا. والأمرُ أَدَهَى وأَمْرٌ في حَالَةِ 'الإِيحَاءِ'؛ فَالدَّلَالَةُ الإِيحَائِيَّةُ مَجْمُوعَةٌ مُتَخَبِّئَةٌ مِنَ الْخَصَائِصِ أَوِ الصِّفَاتِ، لَكِنَّ الْخَصَائِصَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ بِأَنْفُسِهَا فِي أَيْ مَكَانٍ، فَهِيَ كِيَانَاتٌ خَيَالِيَّةٌ أَوْ اِسْمِيَّةٌ نَخْتَلِقُهَا بِتَأْثِيرٍ مِنَ الْقِيَاسِ السَّيِّئِ الَّذِي نُعَامِلُ على وَفْقِهِ أَجْزَاءَ مُعَيَّنَةٍ مِنْ رُموزِنَا كَمَا لَوْ أَنَّهَا رُموزٌ تَائِمَةٌ فِي أَنْفُسِهَا. وَلَيْسَ لَدَيْنَا مَسْوُوعٌ، غَيْرُ هَذَا الْقِيَاسِ السَّيِّئِ، لِمُعَامَلَةِ الصِّفَاتِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ. فَلَيْسَ ثَمَّةَ كِيَانَاتٍ فِي الْعَالَمِ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا الْأَشْيَاءُ ذَاتُ الْخَصَائِصِ، الَّتِي لَا يُمَكِّنُ تَمْيِيزُهَا إِلَى خَصَائِصَ وَأَشْيَاءٍ إِلَّا رَمَازِيًا. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ هَذَا لَا يَجْعَلُ التَّرْمِيزَ، الَّذِي يَسِيرُ كَمَا لَوْ أَنَّ الْخَصَائِصَ وَالْأَشْيَاءَ مِمَّا يَقْبَلُ الْإِنْفِصَالَ، مِمَّا تَقِلُّ الرُّغْبَةُ فِيهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ اعْتِرَاضٍ على آيَةِ أَدَاةٍ رَمَازِيَّةٍ مَا دُمْنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا أَدَاةٌ، وَلَا نَفْتَرِضُ أَنَّهَا زِيَادَةٌ [188] مَعْرِفَةٍ لَنَا. أَمَّا مَا لَا مَسْوُوعَ لَهُ فَأَنْ تُصَيَّرَ الْوَسِيلَةُ التَّيْسِيرِيَّةُ حُجَّةً فَتَقَرَّرَ لَنَا طَبِيعَةُ الْكَوْنِ على طَرِيقَةِ 'جَوَاهِرِ' الدُّكْتُورِ سَانْتِيَانَا. وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، إِذَا نُظِرَ إِلَى الْكَلِمَاتِ بِوَصْفِهَا آيَةً لُغَوِيَّةً فَلَنْ يَكُونَ فِيهَا ضَيْرٌ، بَلْ سَيَكُونُ نَفْعُهَا عَمِيمًا. فَفِي بَسْطِنَا نَظَرِيَّةَ الْإِحَالَةِ السَّبِيئَةِ أَوِ السِّيَاقِيَّةِ، على سَبِيلِ الْمِثَالِ، قَدْ تَرَحَّضْنَا فِي اسْتِعْمَالِ لَفْظِي 'خَصِيصَةٍ' وَ'عِلَاقَةٍ' كَمَا لَوْ أَنَّهَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرْمِزَا إِلَى غَضْرَبَيْنِ مُسْتَقْلِلَيْنِ وَمُحْتَرَمَيْنِ فِي الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ. صَحِيحٌ أَنَّ ثَمَّةَ ضَرُورَةٍ لُغَوِيَّةً إِلَى إِجْرَاءِ كَهَذَا، لَكِنَّ إِعْلَاءَ شَأْنِهِ لِيَكُونَ ضَرُورَةً مَنْطِقِيَّةً لـ 'بَقَاءِ' غَنَاصِرِ كَهَذِهِ عَقْلَةً عَمَّا عَلَيْهِ حَالُ الْعَالَمِ.

وبِذَلِكَ، يُمَكِّنُ أَنْ نَبْدِئَ فَنَقُولَ إِنَّ الدَّلَالََةَ الإِيحَائِيَّةَ لِكَلِمَةٍ مَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْكِيَانَاتِ الْاِسْمِيَّةِ، لَكِنْ مَا زَالَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَرَّرَ أَيْ شَيْءٍ سَتَكُونُ هَذِهِ. أَحَدُ الْمَنَاجِجِ الْمُتَّبَعَةِ فِي ذَلِكَ اعْتِمَادُ اسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ؛ إِذْ إِنَّ "مَعْرِفَةَ اسْتِعْمَالِ لُغَةٍ مَا كَافِيَةٌ وَخَذَهَا لِلْعِلْمِ بِمَا تَعْنِيهِ عِبَارَةٌ مَا فِيهَا"، على مَا يَقُولُ السَّيِّدُ جُونْسَن

Johnson⁽¹⁾ في كتابه (المنطق *Logic*، ص 92). واستناداً إلى هذا المنهج، في حال اتباعه اتباعاً صارماً، ستصبح الدلالة الإيحائية للكلمة غير قابلة لأن تُميز من معناها على طريقة "الكلمات الأخرى الملحقة بكلمة في المعجم" (التعريف الثالث). غير أن ثمة منهجاً آخر ممكناً، وسيظهر اعتماده، على نحو أوضح، اصطناع الدلالة الإيحائية وقليل ما يمكن أن يوثق بها للأغراض المنطقية كالتعريف، على سبيل المثال. إذ يمكننا أن نعتبر جزئياً عن الصيغة التفسيرية المذكورة آنفاً على النحو الآتي: الحالة التي تستخدم (أو التي ترمز إليها) كلمة ما هي التي تُحدد مراجعتها (أي دلالتها التعيينية)، التي تعود فتقرر ما الحالات المختلفة التي يمكن أن تُصنع لها. ينشأ من ذلك أن الرمزَيْن اللذين يرمزان إلى إحاليتين متشابهتين ستكون لهما الدلالة الإيحائية نفسها. على أنه في هذا التفسير لإحالة يغدو أي شيء مرجعاً لما هو مُعطى من عملية أو فعل إحاليتين لا شيء إلا لخصائص معينة يصبح من خلالها عضواً مُكَملاً للسياق الذي يتضمن علامة العملية. وبذلك تكون الدلالة الإيحائية لإحالة ما (وبالتبع للكلمات التي [189] ترمز إليها) هي خصائص مرجعها الذي يُمقتضاهما يكون هو ما يُحال عليه. فإن كان حاضراً في أذهاننا أن هذه الخصائص ما هي إلا كيانات اسمية استطعنا أن نرى كم كان سهلاً على المناطق، في ظل الاختزال الهائل لـ 'الدلالة التعيينية' و'الدلالة الإيحائية' المُطبقتين على الكلمات، أن يتغاضوا عن الطبيعة السببية للعلاقات التي كانوا يُناقشونها بغير علم. ولا غرابة في أن تُستضعب محاولة تفسير علاقة المعنى بالدلالة التعيينية في عبارات من قبيل 'ملك فرنسا' بواسطة مناهج اختزالية كهذه⁽²⁾.

- (1) وليم إيرنست جونسن (1858-1931م). منطقى بريطاني. عُيّن مُحاضرًا في العلوم الأخلاقية في جامعة كيمبرج، وكان له تأثير كبير في مدرسة كاملة من مناطق كيمبرج منهم برود وكينز. أكثر ما يُعرف به كتابه (المنطق) الذي يقع في ثلاثة مجلدات، والذي قدّم في المجلد الثالث منه المفهوم المهمّ المُسمى القابلية للاستبدال. [المترجم]
- (2) كما هي الحال عند رسل فيما كتبه في دورية *Mind*، 1905، تحت عنوان 'في الدلالة =

وَتَمَّةُ نَقْطَةٍ أُخْرَى تُظْهِرُ عَلَى نَحْوِ مُضْجِكِ اصْطِنَاعِيَّةَ الْأَطْرَوحَةِ التَّفْلِيدِيَّةِ،
أَيِ اسْتِحَالَةَ تَطْبِيقِهَا عَلَى الْأَسْمَاءِ *names*، الَّتِي يُمَكِّنُ عَدُّهَا مِنْ غَيْرِ تَهَوُّرٍ مُفْرِطٍ
أَبْسَطَ الرُّمُوزِ الَّتِي تَطَوَّرَتْ عَنْهَا كُلُّ الْيَتِينَا الرَّمْزِيَّةِ الْأُخْرَى. فَقَدْ اسْتَنْجَحَ مِلْ Mill
أَنْ أَسْمَاءَ الْأَعْلَامِ لَا تَنْطَوِي عَلَى دَلَالَةٍ إِيحَائِيَّةٍ. وَيَتَّفِقُ السَّيِّدُ جُونِسُنْ مَعَهُ (و'مَعَ
جَمِيعِ الصَّفُوفَةِ مِنَ الْمَنَاطِقَةِ')، لَكِنَّهُ يُقَدِّمُ تَحَقُّظًا فَيَقُولُ⁽³⁾:

"لَا يَرْقَى هَذَا إِلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْأِسْمَ الْعَلَمَ يَكُونُ غَيْرَ دَالٍّ أَوْ غَيْرِ ذِي
مَعْنَى، بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّا نَجِدُ، عَلَى نَحْوِ سَالِبٍ، أَنَّ الْعَلَمَ لَا يَعْنِي مَا يَعْنِيهِ
أَيُّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ أَنْ تَعْنِيَهُ عِبَارَةٌ وَصْفِيَّةٌ أَوْ إِيحَائِيَّةٌ؛ وَنَجِدُ، عَلَى نَحْوِ مُوجِبٍ، أَنَّهُ
يَعْنِي عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُشِيرَ إِلَيْهِ عِبَارَةٌ وَصْفِيَّةٌ مُلَانِمَةٌ". فَحِينَذَاكَ
تَكُونُ الْحَاجَةُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ التَّحَوُّلاتِ⁽⁴⁾ [190] مَاسَّةً، لَكِنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا
لِتَدْمِيرِ 'الْمَعْنَى' بِوَصْفِهِ رَمَزًا مُفِيدًا.

أَمَّا التَّعْرِيفُ السَّادِسُ فَمَعَ أَنَّهُ يَرُوقُ أَتْبَاعَ مَذْهَبِ الْمُشَارَكَةِ الْوُجْدَانِيَّةِ،
وَالْكُرُوتِشْيَيْنِ، وَالْأَنَاوَحْدِيِّينَ، يُعَدُّ اسْتِعَارِيًّا عَلَى نَحْوِ بَاذِخٍ جَدًّا، بِمَا يَجْعَلُهُ
طَرِيقَةً غَرِيبَةً وَعَجِيبَةً لِلتَّعْبِيرِ بِالْكَلِمَاتِ عَنِ الْآرَاءِ الشَّدِيدَةِ الشُّبُهَةِ بِنَكَالِهَا الَّتِي يَنْطَوِي

= التَّعْبِيبِيَّةُ *On Denoting*. إِذْ قَالَ 'وَهَكَذَا، سَيَبْدُو أَنَّ 'C' وَ C كَيَانَانِ مُخْتَلِفَانِ بِحَيْثُ
يَدُلُّ 'C' دَلَالَةً تَعْبِيبِيَّةً عَلَى C، لَكِنَّ هَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا مَقْبُولًا؛ لِأَنَّ عِلَاقَةَ
'C' بِC مَا زَالَتْ غَامِضَةً تَمَامًا؛ وَأَيْنَ يُفْتَرَضُ بِنَا أَنْ نَجِدَ الْمُرْكَبَ التَّعْبِيبِيَّ 'C' الَّذِي
سَيَدُلُّ دَلَالَةً تَعْبِيبِيَّةً عَلَى C؟ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، إِذَا وُجِدَ C فِي قَضِيَّةٍ مَا فَلَيْسَتْ الدَّلَالَةُ
التَّعْبِيبِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ مَا يُوجَدُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَعَلَى وَفْقِ وَجْهِ النَّظَرِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدِيدِهَا يَكُونُ
C الدَّلَالَةُ التَّعْبِيبِيَّةُ فَحَسْبُ، أَمَّا الْمَعْنَى فَمَحَالٌ كُلُّيًّا عَلَى 'C'. وَهَذَا تَعْقِيدٌ لَا سَبِيلَ إِلَى
الْخُلَاصِ مِنْهُ، وَيَبْدُو أَنَّهُ يُنْبِئُ أَنَّ تَمْيِيزَ الْمَعْنَى وَالْدَّلَالَةِ التَّعْبِيبِيَّةِ كُلُّهُ كَانَ قَدْ بُنِيَ عَلَى
تَصَوُّرٍ خَطَأٍ. عَلَى أَيِّهِ حَالٍ، لَمْ تُوَدِّ التَّصَوُّرَاتُ الْجَدِيدَةُ الْمُصَمَّمَةُ لِإِنْفَازِ الْحَالَةِ إِلَّا إِلَى
مَزِيدٍ مِنَ التَّعْقِيدَاتِ الَّتِي يَجْهَدُ الْمَنَاطِقَةُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ أَجْلِ خَلِّهَا.

Logic, Vol. I., 1921, p. 96.

(3)

(4) 'كَلِمَةُ 'شَجَاعَةٌ' أَوْ عِبَارَةُ 'عَدَمُ الْإِنْكَمَاشِ مِنَ الْخَطَرِ' ذَاتُ طَبِيعَةٍ تَقْتَضِي الْإِلَّا يَكُونُ نَمَّةٌ
فَرَقٌ بَيْنَ مَا تَعْنِيهِ وَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ أَوْ تَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَةً تَعْبِيبِيَّةً. وَلَا يَنْشَأُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْنَى
وَالْإِشَارَةِ إِلَّا فِي الْعِبَارَاتِ الْمَبْدُوءَةِ بِأَدَاةٍ أَوْ بِتَعْبِيرٍ مُشَابِهٍ". الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص 92.

عليها التعريف الثالث عشر. والأسلوب الذي يُعبرُ به عنه الدكتور شلر Schiller وهو "أنَّ المعنى فعاليةٌ تُمارَسُ تجاهَ الأشياءِ، وتُسَقَطُ بِقُوَّةِ عليها، كأداةٍ 'a' يَبْهَمُ حقيقةَ موافقتهِ السَّبِيَّةِ التَّدْكِيرِيَّةِ التي يُقاومها بِعُنفٍ؛ إذْ إِنَّهُ حينَ يتحدَّثُ عن "مَطْلَبٍ لَنَا نَحْدُدُهُ فِي تَجَرِبَتِنَا" هو "انتخابُ الأشياءِ المُشِيرَةِ لِلْاهْتِمَامِ"، يَبْدُو وكأنَّهُ يَصِفُ بِلُغَةٍ حَمَاسِيَّةٍ الْعَمَلِيَّاتِ أَنْفُسَهَا (يُنْظَرُ: الْفَرْعُ (أ) مِنَ التَّعْرِيفِ الثَّالِثِ عَشَرَ، فَمَا دُونَهُ) التي لَا يَرْغَبُ الْبَيِّنَةُ فِي الْإِقْرَارِ بِهَا. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَ 'الْفِعْلِ' act و'الْعَمَلِيَّةِ' process، بِوَصْفِهِمَا مُصْطَلَحَيْنِ سَايَكُولُوجِيَّيْنِ أَاسَاسِيَّيْنِ خَطْوَةً تَعَقُّبُ مُنَاقَشَةَ مُسْتَفِضَّةٍ لِمُسْكِلةِ الْمَعْنَى. وَأَشَارَ الْبَرْوْفِسُورُ سْتروْنِج Strong فِي مَا أَسْهَمَ بِهِ فِي الْمَوْضُوعِ⁽⁵⁾ إِلَى أَنَّ لَدَيْنَا هُنَا، افْتِرَاضِيًّا، مِثَالًا لِمَازِيٍّ جَدَلِيٍّ شَائِعٍ، وَهُوَ أَنَّ يُسْتَعْمَلَ لِمَرَاجِعٍ مُتَمَازِلَةٍ رُموزٌ تُؤْخَذُ مِنْ أَنْظَمَةِ رُموزٍ مُخْتَلِفَةٍ لِكَيْهَاقِبَلَةً، إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ، لِلتَّقْلِيلِ.

وَنَتَقَلُّ الْآنَ إِلَى التَّعْرِيفِ السَّابِعِ الَّذِي يَنْشَأُ مِنْ دِرَاسَةِ تَعْلِيْقَاتِ نَحْوِ⁽⁶⁾:

لَمْ يَقْصِدُوا ضَرَرًا They meant no harm

هُوَ حَسَنُ الْقَصْدِ He means well

قَصَدْتُ الذَّهَابَ I meant to go

مَا قَصَدْتُهُ هُوَ مَا قُلْتُه What I meant was what I said

الْكُونُ الْآلِيُّ مُجَرَّدٌ مِنَ الْقَصْدِ A mechanistic universe is without meaning

فَإِذَا مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُحَلِّ كَلِمَةً 'يَقْصِدُ' intend، مَحَلَّ كَلِمَةٍ 'يَعْنِي' mean، كَمَا هِيَ الْحَالُ عَادَةً حِينَ تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْعِبَارَاتُ، فَسَيَكُونُ وَاضِحًا أَنَّ لَدَيْنَا نَوْعًا

(5) 'تَوْسِيعُ النَّظَرِيَّةِ الْجِسْمِيَّةِ-السُّلُوكِيَّةِ الَّذِي يَبْدُو ضَرُورِيًّا هُوَ، إِذْنِ، لِإِدْرَاكِ أَنَّ الصَّوْتِ يَوْصِفُهُ مَعْنَى يَنْمَازُ مِنَ الصَّوْتِ يَوْصِفُهُ حَالَةً جِسْمِيَّةً، وَيَنْمَازُ مِنْهُمَا مَعَا الشَّيْءِ الْمَعْنِي،

الَّذِي مِنْ غَيْرِ وُجُودِهِ لَنْ يَكُونَ لِهَذَا الْمَعْنَى مَعْنَى الْبَيِّنَةُ'. - Mind, July, 1921.

(6) الْجُمْلُ الَّذِي سَيُورِدُهَا الْمُؤَلِّفَانِ سَيَكُونُ فِيهَا الْفِعْلُ 'يَعْنِي' mean يَمَعْنَى الْفِعْلِ 'يَقْصِدُ' intend، لَا يَلْفِظُهُ. [الْمُتَرْجِمُ]

من 'المعنى' مُخْتَلِفًا تَمَامًا عَنْ أَيْ نَوْعٍ آخَرَ مُتَضَمِّنٍ حِينَ لَا يُمَكِّنُ اسْتِيدَالُ 'القَصْدِ' intention [191] عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ⁽⁷⁾. إِنَّ 'مَعْنَايَ' أَوْ 'قَصْدِي'، عَلَى مَا أَجْهَدُ نَفْسِي فِي إِنْشَائِهِ، هُوَ شَيْءٌ مَا مَرْغُوبٌ فِيهِ، وَهَذَا مَا يُمَيِّزُهُ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ أَوْ مُحَالٌ عَلَيْهِ (هُوَ 'المَقْصُودُ' أَوْ 'الْمُنْتَجَةُ نَحْوُهُ'، فِي اصْطِلَاحِ كُتَّابِ أَمْرِيكِيِّينَ مُعَيَّنِينَ). وَهَكَذَا، لَنْ يَكُونَ ثَمَّةُ تَنَاقُضٍ بَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَذَاكَ اللَّذِينَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعَالِجَهُمَا فِي جُمْلَةٍ مِنْ نَحْوِ قَوْلِنَا: "Dog" و"Chien" كِلَاهُمَا يَعْنِيَانِ الشَّيْءَ نَفْسَهُ. عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ تَلَاغِبًا بِالْأَلْفَاظِ هُنَا، وَمَصْدَرُ التَّخْلِيطِ الْخَطَرُ الَّذِي لَدُنْهَا هُوَ مُمَارَسَةُ الْمُتَنَازِعِينَ الَّذِينَ يُؤَلَّفُونَ بَيْنَ الْإِحَالَةِ reference والقَصْدِ intention فِي عِبَارَةٍ "مَا عَنَيْتُهُ كَانَ What I meant was" (= "مَا قَصَدْتُ أَنْ أَجِيلَ عَلَيْهِ كَانَ What I intended to refer to was" أَوْ "مَا قَصَدْتُ أَنْ تُجِيلَ عَلَيْهِ كَانَ What I intended you to refer to was"). وَتَزْدَادُ صُعُوبَةُ عَمَلٍ فَخْصٍ دَقِيقٍ لِلْمَوْضُوعِ قَيْدِ النِّقَاشِ تَعَاظُمًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مَا قَصَدْتُ أَنْ أَجِيلَ عَلَيْهِ أَوْ قَصَدْتُ أَنْ أَجِيلَ عَلَيْهِ قَدْ يَكُونُ مُخْتَلِفًا تَمَامًا عَمَّا أَحَلْتُ عَلَيْهِ فِعْلًا What I did refer to، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ

(7) تَقُودُ الْمُضَادَّةُ الْفِيلُولُوجِيَّةُ الْمُنَاطَقَةَ أحيانًا إِلَى الْجِدَالِ فِي هَذَا. إِذْ يَقُولُ جُوزِيفُ JOSEPH فِي كِتَابِهِ مُقَدِّمَةٌ لِلْمَنْطِقِ Introduction to Logic، ص 131: "كَلِمَةُ 'القَصْدُ' intention تُوجِي، عَلَى نَحْوِ طَبِيعِي، بِمَا تَقْصِدُ أَوْ تَعْنِي بِلَفْظٍ مَا". وَعَلَى مَدَى عَشْرِينَ عَامًا حَضَّتِ السَّيِّدَةُ وِليبي Welby الْفَلَايِفَةَ وَغَيْرَهُمْ، عَلَى نَحْوِ بَلِيغٍ، أَنْ يُوجِّهُوا اهْتِمَامَهُمْ إِلَى مَعْنَى الْمَعْنَى، وَلَا يَسِيْمًا فِي مَقَالَتِهَا فِي 'المَفَادِ، وَالْمَعْنَى، وَالتَّأْوِيلِ Sense, Meaning, and Interpretation' الَّتِي أَخْلَنَّا عَلَيْهَا آتِيًا (Mind, 1896, p. 187, etc.)، وَرُبَّمَا كَانَتْ قَدْ أَخْفَقَتْ فِي أَنْ تَحْمِلَ اقْتِنَاعًا رَاسِخًا بِذَلِكَ؛ إِذْ أَقْنَتْ نَفْسَهَا بِالْحَاجِ غَايِضٍ عَلَى الْمَعْنَى بِوَصْفِهِ قَصْدًا بَشَرِيًّا. وَلَمَّا كَانَتْ التَّمْيِيزَاتُ الصَّرُورِيَّةُ فِي هَذَا الْحَقْلِ مِمَّا لَا يُمَكِّنُ عَلَى الدَّوَامِ التَّوَضُّعَ إِلَيْهِ بِحَسِّ لُغَوِيٍّ مُهَذَّبٍ فَحَسَبَ، لَمْ تُقَدِّمِ التَّحْلِيلَ الصَّرُورِيَّ فِي كِتَابِهَا مَا الْمَعْنَى؟ What is Meaning، وَلَا فِي الَّذِي بَعْدَهُ دِرَاسَةُ الْمَعْنَى وَاللُّغَةِ Significs and Language (1911)، وَالَّذِي جَاءَ فِيهِ مَا يَأْتِي (ص 9): "الْمَسْأَلَةُ الْحَاسِمَةُ الْوَحِيدَةُ فِي كُلِّ تَعْبِيرٍ هِيَ صِفَتُهُ الْمُتَمَيِّزَةُ الْخَاصَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ أَوَّلًا بِالْمَفَادِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ بِهِ، ثُمَّ بِالْمَعْنَى بِوَصْفِهِ قَصْدًا لِلْمُسْتَعْمَلِ، ثُمَّ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ، بِالْمَعْرُزِ الْمُطْلَقِ، وَهَذَا الْآخِرُ هُوَ أَبَدُهَا أَثَرًا وَأَخْطَرُهَا"، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَزِيدُ فِيهِ الْقَضِيَّةُ تَخْلِيطًا أَصْدَاءَ عِبَارَاتٍ مَرَحَلَةٍ دِينِيَّةٍ مُوَعَّلَةٍ فِي الْقَدَمِ.

مِهْمَةٌ يَنْبَغِي أَنْ نَتَذَكَّرَهَا إِذَا مَا رَغَبْنَا فِي التَّوَصُّلِ إِلَى تَفَاهُمِ مُشْتَرَكٍ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى اتِّفَاقٍ أَوْ اخْتِلَافٍ.

وقد يُسْتَعْمَلُ قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ، عَلَى نَحْوِ طَبِيعِي تَمَامًا، مُرْتَبِطًا بِالِإِحَالَةِ مِنْ أَجْلِ الْخُرُوجِ بِتَعْرِيفَاتٍ مُعَقَّدَةٍ لِلْمَعْنَى لِأَغْرَاضٍ خَاصَّةٍ. فِيمَا جَاءَ فِي مَقَالَةِ حَدِيثَةِ قَوْلِ كَاتِبِهَا: 'هَلْ مَعْنَى جُمْلَةٍ مَا هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ فِي ذَهْنِ الْمُتَكَلِّمِ لَحْظَةً التَّكَلُّمِ، أَوْ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ فِي ذَهْنِ الْمُسْتَمِعِ لَحْظَةً الْاسْتِمَاعِ؟ لَا أَظُنُّه آيًّا مِنْهُمَا. [192] لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ فِي ذَهْنِ الْمُسْتَمِعِ؛ إِذْ قَدْ يُسَيِّئُ فَهْمَهُ غَرَضُ الْمُتَكَلِّمِ كُلِّيًّا. وَلَكِنَّهُ، كَذَلِكَ، لَيْسَ ذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ فِي ذَهْنِ الْمُتَكَلِّمِ؛ إِذْ قَدْ يَتَعَمَّدُ أَنْ يُخْفِيَ فِي كَلَامِهِ الْأَفْكَارَ الَّتِي فِي دِمَاغِهِ، وَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ مَا كَانَ فِي وَسْوَءِهِ أَنْ يَقَعَلَ ذَلِكَ لَوْ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ مُطَابِقٌ تَمَامًا لِذَلِكَ الَّذِي يَحْتَفِظُ بِهِ فِي دِمَاغِهِ. وَأَظُنُّ أَنَّ الصَّبَاغَةَ الْآتِيَةَ سَتَفِي بِالْمُرَادِ: مَعْنَى آيَةٍ جُمْلَةٍ هِيَ مَا يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا لِلْمُسْتَمِعِ مِنْهَا' (8).

وِعِبَارَةٌ 'أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا' فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مُتَنَاقِضَةٌ. إِذْ إِنَّهَا تَرْمِزُ إِلَى عِدَّةِ أُمُورٍ، أَوَّلُهَا: أَنْ يَكُونَ مُحَالًا عَلَيْهِ + وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ مُسْتَجَابًا لَهُ + وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ مُحَسَّسًا بِهِ تَجَاهَ الْمَرْجِعِ + وَرَابِعُهَا: أَنْ يَكُونَ مُحَسَّسًا بِهِ تَجَاهَ الْمُتَكَلِّمِ + وَخَامِسُهَا: أَنْ يَكُونَ مُفْتَرَضًا أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُحِيلُ عَلَيْهِ + وَسَادِسُهَا: أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَرْغَبُ فِيهِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا نَذْكُرُ هَذِهِ التَّعْقِيدَاتِ هُنَا لِتُظْهِرَ كَمْ هِيَ غَامِضَةٌ مُعْظَمُ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يَشِيعُ اعْتِقَادُ أَنَّهَا مُرْصِيَّةٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. فَكَلِمَةُ 'يَفْهَمُ'، مَثَلًا، مَا لَمْ تُعَالَجْ عَلَى نَحْوِ خَاصَرٍّ، هِيَ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْغُمُوضِ بِحَيْثُ لَا تُفِيدُ إِلَّا مُؤَقَّتًا أَوْ فِي مُسْتَوَيَاتٍ مِنَ الْخِطَابِ يَكُونُ الْفَهْمُ الْحَقِيقِيُّ فِيهَا لِلْمَوْضِعِ (بِمَعْنَى الْإِحَالَةِ) غَيْرَ مُمَكِّنٍ. وَسَيَكُونُ ثَمَّةُ تَصْنِيفٍ وَنِقَاشٍ لِلْوِظَائِفِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِلْكَلَامِ فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ. وَسَيُتَضَحُّ هُنَاكَ أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ هُوَ إِحْدَى الْوِظَائِفِ الْخَمْسِ

النَّظَامِيَّة لِللُّغَةِ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَكَّدَ بِإِفْرَاطٍ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُتَذَكَّرَ، أَنَّ أَهْمِيَّةَ هَذِهِ
الْوُظُفِيَّةِ، شَأْنُهَا شَأْنُ الْوُظَائِفِ الْأُخْرَى، تَتَفَاوَتْ تَفَاوُتًا عَظِيمًا مِنْ شَخْصٍ إِلَى
آخَرَ، وَمِنْ مُنَاسِبَةٍ إِلَى أُخْرَى.

إِنَّ إدْرَاكَ التَّعَدُّدِ الْوُظُفِيِّ لِللُّغَةِ الْاِعْتِيَادِيَّةِ أَاسَاسِيٌّ مِنْ أَجْلِ مُقَارَبَةٍ جَادَّةٍ
لِمُسْكِلَةِ الْمَعْنَى. وَلَا نَرْغَبُ هُنَا إِلَّا فِي التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ 'الْمَعْنَى' مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ
'ذَلِكَ الَّذِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يُحِيلَ الْمُسْتَمِعَ عَلَيْهِ'، وَأَنَّ 'الْمَعْنَى' مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ
'ذَلِكَ الَّذِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يُجَسَّ بِهَ الْمُسْتَمِعُ وَيَفْعَلَهُ'، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، مُتَمَايِزَانِ
بِوُضُوحٍ. [193] وَيَجِبُ إدْرَاكَ هَذِهِ التَّمَايِزَاتِ وَاسْتِعْمَالُهَا فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْأَحْوَالِ
الْكَلَامِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ دَقَّةً.

وَأَوَّلُهَا مَا يُعْنَى عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ بِمَا هُوَ خَطَأٌ مِنْ حَالَاتِ التَّوَجُّهِ الَّتِي رَأَيْنَا
فِي فَصْلِنَا الْأَوَّلِ أَنَّهَا شَائِعَةٌ كَثِيرًا. وَفِي حَالَةِ الْكِذْبَةِ النَّاجِحَةِ يُنْشِئُ الشَّخْصُ
الْمَخْدُوعُ الْإِحَالَةَ الَّتِي يَقْصِدُ الْخَادِعُ أَنْ يُنْشِئَهَا، وَإِذَا مَا عَرَفْنَا 'الْمَعْنَى' بِأَنَّهُ 'ذَلِكَ
الَّذِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ أَنْ يُحِيلَ عَلَيْهِ الْمُسْتَمِعُ' فَإِنَّ الصَّحِيحَةَ سَتَكُونُ قَدْ أَوَّلْتُ قَوْلَ
الْمُتَكَلِّمِ عَلَى نَحْوٍ صَحِيحٍ. إِذْ سَتَكُونُ قَدْ أَمْسَكْتَ بِمَعْنَاهُ. لَكِنْ لِنَتَأَمَّلَ حَالَةَ مُؤَوَّلٍ
أَكْثَرَ دَهَاءً، فَإِنَّهُ يُطَبِّقُ عَمَلِيَّةَ تَأْوِيلٍ أُخْرَى (تَرْتِكِزُ، مَثَلًا، عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِأَصُولِ
اللُّغَةِ) لِنُصِلَهُ إِمَّا إِلَى مُجَرَّدِ رَفْضِ الْإِحَالَةِ الْمَقْصُودَةِ، وَإِمَّا إِلَى إِحَالَةٍ أُخْرَى
تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ الْإِحَالَةِ الْمَقْصُودَةِ. فَإِنْ عَثَرَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْأَخِيرَةِ عَلَى الْإِحَالَةِ
الَّتِي صُمِّمَتِ الْإِحَالَةُ الْمُقْتَرَحَةُ الْكَاذِبَةُ لِنُصَرِّفَهُ عَنْهَا، فَكَثِيرًا مَا يُقَالُ عَنْهُ إِنَّهُ قَدْ
فَهِمَّ مُرَادَ الْمُتَكَلِّمِ، أَوْ قَدْ حَزَرَ 'مَعْنَاهُ الْحَقِيقِي'. وَيَنْبَغِي أَنْ يُلْحَظَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى
الْأَخِيرَ غَيْرَ رَمَزِيٍّ. فَالْمُسْتَمِعُ الْحَصِيفُ يَتَنَاوَلُ، فَحَسْبُ، سُلُوكَ الْمُتَكَلِّمِ، وَبِضْمِنِهِ
الْكَلِمَاتُ الَّتِي يُطْلِقُهَا، بِوُصْفِهِ مَجْمُوعَةً عَلَامَاتٍ تُؤَوَّلُ بِقَصْدٍ وَإِحَالَةٍ لَدَى
الْمُتَكَلِّمِ، لَا تَرْمِزُ إِلَيْهِمَا الْكَلِمَاتُ الْعَابِرَةُ فِي مُنَاسِبَةٍ مُعَيَّنَةٍ. فَضَارِبُ الْكُرَةِ الَّذِي
يَلْعَبُ 'الْكُرِيكِيَتِ' عَلَى نَحْوٍ صَحِيحٍ إِنَّمَا يُمَارِسُ ضَرْبًا مِنْ التَّأْوِيلِ مُمَازِلًا تَمَامًا.
إِذْ إِنَّهُ يُخَمِّنُ 'مَعْنَى' حَرَكَةِ رَامِي الْكُرَةِ بِإِهْمَالِ عَلَامَاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِمَّا هُوَ مَعْرُوضٌ
مِنْهَا.

وكلُّ حالات 'الازدواج'، سواء أكانت مُتَعَمِّدَةً (قَصْدِيَّةً) أم غير مُتَعَمِّدَةٍ، يُمكنُ تحليلُها بالطريقة نفسها⁽⁹⁾، مع العلم بأنَّ مثالَ خِدَاعِ الذَّاتِ الخاصِّ، الذي يتعلَّقُ بالأحكامِ الاستِبطانيَّةِ التي تُناقشُ لاحقاً، ذو أهميَّةٍ عَظِيمَةٍ لِلنَّظَرِيَّةِ بِعَامَةٍ. وَيَتَطَلَّبُ الأمرُ هُنَا حَدَرًا عَظِيمًا لِتَجَنُّبِ أَيِّ خَلْطٍ بَيْنَ إِحَالَاتِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُقْصُودَةِ أَوِ الْمُعْلَنَةِ، وإِحَالَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ. [194]

والحقُّ أنَّ هذا اللَّبَسَ الْمُخْصِصَ مِنْ أَشَدِّ مَا لَا يُرْغَبُ فِيهِ مِنَّا عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَامَلَ مَعَهُ مِنْهُ. وما لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ تَمَيِّزٍ وَاضِحٍ لَوَجْهِي الْعَمَلِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ الْإِحَالِيِّ وَالتَّائِيرِي-الْإِرَادِيِّ، فَلَنْ تَكُونَ مُنَاقَشَةُ عِلَاقَتِهِمَا مُمَكِّنَةً. وَالخَلْطُ فِي الْإِحَالَةِ، فِي أَحَدِ الْأَشْكَالِ الْخَاصَّةِ جَدًّا لِلْوَجْهِ الْأَخِيرِ، أَيِ 'الْقَصْدِ'، كَارِثِيٌّ. وَيُمْكِنُ عَرْضُ هَذِهِ النُّقْطَةِ بِتَلَاغِبٍ بِالْأَلْفَاظِ، فَيُقَالُ: إِنَّا كَثِيرًا مَا نَغْنِي مَا لَا نَغْنِيهِ، أَيِ إِنَّا نُجِيلُ عَلَى مَا لَا نَقْصِدُهُ، وَإِنَّا نُفَكِّرُ تَفَكِيرًا مُتَوَاصِلًا فِي أَشْيَاءَ لَا نُرِيدُ التَّفَكِيرَ فِيهَا. وَالْحَقُّ أَنَّ 'يَغْنِي'، بِوَصْفِهِ اخْتِرَالًا لِـ'يَقْصِدُ' أَنْ يُجِيلَ عَلَى، هُوَ مِنْ أَقْلٍ الْإِجْرَاءَاتِ الرَّمْزِيَّةِ الْمُمَكِّنَةِ تَوْفِيقًا.

والتَّفْرِيقُ بَيْنَ وَجْهِي الْعَمَلِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ نَظَرِيَّةِ السِّيَاقِ يُمَكِّنُ تَحْدِيدَهُ بِإِيجَازٍ، وَمِنْ ثَمَّ بِإِبْهَامٍ، عَلَى التَّحْوِ الْآتِي: إِذَا مَا أُعْطِيَتْ الْإِحَالَةُ الَّتِي أَنْشَأَهَا تَأْوِيلُ الْعَلَامَةِ السِّيَاقِ السَّايَكُولُوجِيِّ الَّذِي تَنْتَمِي إِلَيْهِ الْعَلَامَةُ، أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْإِحَالَةُ رَاسِخَةً كَذَلِكَ. غَيْرَ أَنَّ الْعَلَامَةَ الْوَاحِدَةَ (أَوِ الْعَلَامَاتِ ذَوَاتِ الْخِصَائِصِ الْمُتَشَابِهَةِ جَدًّا) يُمَكِّنُ أَنْ تَنْتَمِيَ إِلَى سِيَاقَاتٍ سَايَكُولُوجِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَتُمَثِّلُ أَشْكَالًا هَنْدَسِيَّةً مُعَيَّنَةً يُمَكِّنُ أَنْ تُرَى، 'سَاعَةً يَشَاءُ الْمَرْءُ' تَقْرِيبًا، مُنْحَسِرَةً عَنِ السَّطْحِ الَّذِي تُرَسِّمُ هَذِهِ الْأَشْكَالُ عَلَيْهِ أَوْ مُتَبَقَّةً مِنْهُ، نَمَازِجَ مَعْرُوفَةٍ وَمُلَانِمَةٍ لِذَلِكَ. فَلِذَا مَا أَتَرْنَا السُّؤَالَ الْآتِي: كَيْفَ تَكُونُ الْعَلَامَةُ مُنْتَمِيَةً إِلَى السِّيَاقِ الَّذِي تَنْتَمِي إِلَيْهِ؟ أَوْ كَيْفَ تَعْبُرُ مِنْ سِيَاقٍ إِلَى آخَرَ؟ كُنَّا قَدْ أَتَرْنَا أَسْئَلَةً تَعَلَّقُ بِالْوَجْهِ

(9) مِمَّا يُضِيهِ هَذِهِ النُّقْطَةُ مُعَالَجَةُ مَارْتِنَاك Martinak لِغُرْنِ الْخَطِيبِ، وَالدَّبْلُومَاسِي، وَالمُحْتَالِ، وَالكَاذِبِ، فِي كِتَابِهِ (دِرَاسَاتُ سَايَكُولُوجِيَّةٍ فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْنَى Psychologische Untersuchungen zur Bedeutungslehre، ص 82).

التأثيري-الإرادي. والحقائق المتعلقة بتشكيل العادة، وبالرغبة، وبالنعمة المؤثرة، التي يتركز عليها للإجابة عن هذه الأسئلة، حقائق مؤكدة إلى حد ما، ولكن، إلى حين اكتشاف حقائق أخرى وفرضية يمكن بواسطتها أن تؤوّل وتُنظّم، ما زال تأمل الأمر ممكناً إما بلغة حماسية، وإما بلغة تلقائية. ومما لم يحن بعد أو أن الإجابة عنه: أي نوع من اللغات يُقدّم على نحو علمي أكثر الرموز كفاية، أو: ألا يمكن وجود رموز محايدة؟ وفي هذه الأثناء، لا [195] غدر في جعل عبارة مضطربة لمشكلة غير محلولة وصعبة أداة رئيسة لجميع بحوثنا، وهذا ما سنفعله إذا ما سلّمنا بـ 'المعنى' على الوجه الذي نوقش به هنا بوصفه تصوّراً جوهرياً.

ونقول عن الفرع (ب) من التعريف السابق إن الذين لا يتضح لديهم مجال هذا التساوي: 'معناه مُحَقَّق' = 'لديه رَغَبَاتٌ مُحَدَّدَةٌ' كثيراً ما يجدون أنفسهم مسوقين إلى استنتاج أن كَوْن 'المعنى' = 'الرغبات' = 'الاختيار' (حدث ذهني)، وما إلى ذلك، إنما هو سايكولوجي تماماً، أو، على ما يحلو لهم كثيراً أن يُطلقوا عليه، هو شخصي خالص⁽¹⁰⁾. وكثيراً ما ينشأ مثل هذا اللبس اللغوي مرّة أخرى حين يُعدّ الكَوْن دليلاً على إرادة أو تصميم، وإذا ما أُحِلَّ 'المعنى' محلّ 'القصد' أو 'الغرض' ليمثل هذه الإرادة فحينئذ سيكوّن معنى أي شيء هو غرضه- على ما يتصوّره المتكلّم بوصفه مؤوِّلاً للخطّة المقدّسة، أو وظيفته عند غائبي البايولوجيين المُتَحَيِّزِينَ للدافع الحيوي *élan vital*. وعادة ما تتضمّن عبارة نحو: معنى الحياة (يُنظَرُ)، على سبيل المثال، مُعالِجَةُ البروفيسور مونشتربيرغ المذكورة آنفاً وجهة نظر كهذه، غير أن ثمة تأويلاً آخر ممكناً أحياناً، وذلك حين يساوى المعنى بـ 'المغزى' (في التعريف الثامن). فهنا لا تكون فكرة الغرض مُتَضَمِّنة على الدوام، ويُقال عن معنى أي شيء إنّه قد أمسك به حين فهم بوصفه مرتبطاً بأشياء أخرى، أو بوصفه يملك موقعه في نظام ما بمجمّله.

(10) ثمة منحي آخر لتقديم اللزمة الشخصية، وهي مساواة 'معنای' بـ 'افکاری' سواء أكانت عن شيء ما، أم لم تكن، كما يحدث حين تُصرّح إحدى المتناظرات بأن تعبيرها عن معناها كان ناقصاً، لكنها تدّعي أن الأفكار شخصية ودقيقة إلى حد لا يمكن معه 'التعبير' عنها بإفغاء البتّة.

وَيَقْدُمُ لَنَا السَّيِّدُ رَيْسِلْ أَمِثْلَةٌ جَيِّدَةٌ لِكَلَا هَذَيْنِ الْإِسْتِعْمَالَيْنِ، وَلَيْسَ ضَرُورِيًّا زِيَادَةُ الْقَوْلِ، عَلَى نَحْوِ مَا يَسْتَعْمِلُهُ هُنَا، إِنَّ كِلَيْهِمَا تَعْبِيرٌ مَحْمُودٌ وَمُرِيحٌ. وَفِي خَاتِمَةِ الْوَصْفِ الْخَالِدِ لِمَيْفِستوفيليس Mephistopheles لِتَارِيخِ كَوْنِنَا، نَقْرَأُ الْآتِي: "إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي يَقْدُمُهُ الْعِلْمُ لِثُؤْمِنْ بِهِ هُوَ، بِإِيجَازٍ، عَلَى هَذَا النَّحْوِ، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ عَبَثِيَّةً، أَكْثَرُ خَوَاءً مِنَ الْمَعْنَى" ⁽¹¹⁾. [196] وَنُورِدُ، مَرَّةً أُخْرَى، مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُعَالَجَةِ الْجَزَافِيَّةِ لِلرِّيَاضِيَّاتِ فِي الْكُتُبِ الْمَدْرَسِيَّةِ: "حُبُّ النَّظَامِ يُمَكِّنُ أَنْ يُطْلَقَ لَهُ الْعِنَانُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ كَمَا لَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي مَجَالِ آخَرَ. وَالْمُتَعَلِّمُ الَّذِي يَسْتَشْعِرُ هَذَا الْبَاعَثَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَفَرَّ بِمَصْصُوفَةٍ مِنَ الْأَمِثْلَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمَعْنَى، أَوْ يُلْهَى بِغَرَائِبِ مُسَلِّيَّةٍ" ⁽¹²⁾.

وَلَا يُهِمُّ نَوْعُ النَّظَامِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الشَّيْءُ، الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ ذُو 'مَعْنَى' بِهَذَا الْوَجْهِ، مُلَانِمًا. فَالْتَّصَامِيمُ أَوْ الْمَقَاصِيدُ، إِنْسَانِيَّةٌ كَانَتْ أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، تُشَكِّلُ فَرَعًا رَئِيسًا وَاحِدًا مِنَ ذَلِكَ النَّظَامِ، عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ كَثِيرًا غَيْرُهُ. فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، مِنْ النَّاسِ مَنْ قِيلَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا بَطْنِييِ الْإِمْسَاكِ بِـ'مَعْنَى' إِعْلَانِ الْحَرْبِ، وَتَعْبِيرِ آخَرَ، لَمْ يُفَكِّرُوا بِسَهُولَةٍ فِي كُلِّ أَنْوَاعِ الْعَوَاقِبِ الَّتِي كَانَتْ مُرْتَبِطَةً ارْتِبَاطًا سَبَبِيًّا بِذَلِكَ الْحَدَثِ. فَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْأَلَ عَنْ 'مَعْنَى' الْبَطَالَةِ.

وَسَيُوضِحُ الْإِلَاهُوتِيُّ 'مَعْنَى' الْخَطِيئَةِ بِشَرْحِ مُلَابَسَاتِ سُقُوطِ آدَمَ، وَتَارِيخِ الرُّوحِ وَمَصِيرِهَا. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، قَدْ يَنْقَلِبُ 'مَعْنَى' الْقُبُعَاتِ الْعَالِيَةِ فِي ذَهَنِ سَوْسِيُولُوجِيٍّ مَا حِينَ يُمَيِّزُهَا بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ ظَوَاهِرِ التَّفَاخُرِ الْمَفْضُوحِ.

يَقُولُ السَّيِّدُ سَتَانْلِي لِيئِز Stanley Leathes ⁽¹³⁾: "أَنَا أَشْكُ فِي كَوْنِ التَّوَارِيخِ

(11) اقْتِيَّاسٌ مِنْ مَقَالَةٍ لِلْفِيلَسُوفِ بَرْتَرَانْدِ رَيْسِلْ عَنْوَانُهَا (عِبَادَةُ إِنْسَانٍ خُرْ)، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِي كِتَابِهِ الَّذِي عَنْوَانُهُ (التَّصَوُّفُ وَالْمَنْطِقُ). [الْمُتَرَجِمُ]

(12) Op. cit., *Mysticism and Logic*, pp. 47 and 66.

(13) سَتَانْلِي مَوْرِدُونْت لِيئِز (1861-1938م). مُؤَرِّخٌ، وَمُتَوَلٍّ لِلخِدْمَاتِ الْمَدَنِيَّةِ بَرِيطَانِيٍّ، وَزَمِيلٌ كُلِّيَّةٌ تَرِينْتِي فِي جَامِعَةِ كِيمْبِرِج، وَمُحَاضِرٌ مَادَّةَ التَّارِيخِ، وَاحِدٌ مُحَرِّرِي تَارِيخِ كِيمْبِرِج الْمَعَاصِرِ. أَهَمُّ مَوْلَفَاتِهِ: مَا التَّرِيَّةُ؟ [الْمُتَرَجِمُ]

الرَّقْمِيَّةَ تَحِيلُ أَيَّ مَعْنَى لَدَى مُعْظَمِ الْأَطْفَالِ. وَقَدْ سَأَلْتُ مَرَّةً غُلَامًا فِي إِحْدَى مَدَارِسِ الْأَحَدِ: مُنْذُ كَمْ مِنَ الزَّمَنِ عَاشَ سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ؟ فَأَجَابَ: "مُنْذُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا"⁽¹⁴⁾. وَلَيْسَ التَّلَمُّزُ مِنَ أَنَّ التَّوَارِيخَ لَا 'تُوجِي' بِشَيْءٍ، بَلْ رُبَّمَا مِنْ أَنَّ 'مَعْزَاهَا' فِي الْقِيَاسِ الْعَامِّ لِلزَّمَنِ لَا تُمَسِّكُ بِهِ عُقُولُ الصِّبْيَانِ. وَبُشْبُهُ هَذَا مَا يُقَالُ عَنْ أَرْقَامِ الْمَسَافَاتِ لِلنُّجُومِ الْبَعِيدَةِ مِنْ أَنَّهَا لَا 'مَعْنَى' لَهَا عِنْدَنَا جَمِيعًا.

غَيْرَ أَنَّ 'الْمَعْنَى' بِهَذَا الْوَجْهَ مُبْهِمٌ لِبَهَامَا لَا يَكُونُ مَعَهُ ذَا نَفْعٍ كَبِيرٍ حَتَّى لِلْحُطْبَاءِ. هَلْ مَعْنَى الْبَطَالَةِ أَسْبَابُهَا أَوْ نَتَائِجُهَا، وَهَلْ تُؤْخَذُ نَتَائِجُهَا مِنْ زَاوِيَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ مِنْ زَاوِيَةٍ مَا يُعَانِيهِ مِنْهَا الْفَرْدُ الْعَاطِلُ عَنِ الْعَمَلِ؟ [197] اسْتِنَادًا إِلَى ذَلِكَ، شَاعَ تَقْدِيمُ تَقْيِيدَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ أَعَانَتْ عَلَى إِحْرَازِ أَوْجُوهٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا لـ 'الْمَعْنَى' بِوَصْفِهِ مَوْضِعًا فِي نِظَامٍ مَا، اِثْنَانِ مِنْهُمَا مُهِمَّانِ بِمَا يَكْفِي لِيَرْقِيَا إِلَى أَنْ يُمَثَّلَا تَعْرِيفَيْنِ مُسْتَقْلِلَيْنِ لِلْمَعْنَى، مَا دَامَ كُلُّ مِنْهُمَا قَدْ جُعِلَ حَجَرِ الزَّاوِيَةِ لِيُصْرَحَ مِثَافِيزِيْقِي، نَعْنِي بِهِمَا 'الْمَعْنَى' بِوَصْفِهِ نَتَائِجَ عَمَلِيَّةٍ، وَبِوَصْفِهِ نَتَائِجَ نَظَرِيَّةٍ. فَنَعْنِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ بِكَوْنِ 'الْمَعْنَى' بَقِيَّةَ النِّظَامِ الَّتِي يُؤْخَذُ مِنْهَا كُلُّ مَا لَهُ 'مَعْنَى'. وَسَتَقِفُ عَلَى نَوْعٍ آخَرَ أَضْيَقَ وَأَكْثَرَ عِلْمِيَّةً لِهَذَا 'الْمَعْنَى' قَيْدُ الِاسْتِعْمَالِ حِينَ نَنْظُرُ فِي الْعَلَامَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ.

أَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعْنَى مِنْ زَاوِيَةِ النِّتَائِجِ الْعَمَلِيَّةِ (فِي التَّعْرِيفِ التَّاسِعِ) فَيَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا رَئِيسًا بِالْبَرَاغِمَاتِيِّينَ. فَوَلِيمُ جِيمْسِ William James نَفْسُهُ يَرَى أَنَّ "مَعْنَى آيَةٍ قَضِيَّةٍ يُمَكِّنُ عَلَى الدَّوَامِ إِسْقَاطَهُ عَلَى نَتِيجَةٍ مَا مَخْصُوصَةٍ فِي تَجَرِبَتِنَا الْعَمَلِيَّةِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، عَلَى مُسْتَوَى الْكُمُونِ أَوْ عَلَى مُسْتَوَى الْفِعْلِ"⁽¹⁵⁾، أَوْ عَلَى مَا يُعْبَرُ عَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْبَرَاغِمَاتِيَّةِ Pragmatism (ص 201)، بِقَوْلِهِ: "الْأَفْكَارُ الصَّادِقَةُ هِيَ الَّتِي نَسْتَطِيعُ اسْتِعَابَهَا، وَتَأْيِيدَهَا، وَتَثْبِيتَهَا، وَتَحْقِيقَهَا. وَالْأَفْكَارُ الْكَاذِبَةُ هِيَ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ فِعْلَ ذَلِكَ مَعَهَا. وَهَذَا هُوَ الْفَارِقُ الْعَمَلِيُّ الَّذِي يُقَدِّمُهُ لَنَا امْتِلَاكُ أَفْكَارٍ صَادِقَةٍ. لِذَلِكَ، كَانَ هُوَ مَعْنَى الصِّدْقِ؛ إِذْ لَا يُعْرَفُ مُثَلٌّ لِلصِّدْقِ غَيْرُهُ".

What is Education?, p. 178.

(14)

W. James, The Meaning of Truth, p. 210.

(15)

يُمَاطِلُ ذَلِكَ مَا يَعْلَهُ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ كَلِمَةً 'يَعْنِي' فِي تَرْهِم مُرَادَفَةً لِـ 'يَتَضَمَّنْ' أَوْ 'يَسْتَلْزِمُ مَطِيقِيًا' (فِي التَّعْرِيفِ الْعَاشِرِ). بِذَلِكَ تَكُونُ جَمِيعُ النَّاتِجِ النَّظَرِيَّةِ لِوَجْهَةِ نَظَرٍ مَا أَوْ عِبَارَةً مَا، أَوْ أَيُّ مِنْهَا، مُنْصَوِيَّةً بِالتَّعْبِيرِ الْفَلَسْفِيِّ الشَّائِعِ فِي 'مَعْنَاهَا'، عَلَى نَحْوِ مَا يُقَالُ لَنَا (Mind, 1908, p. 491): "فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْإِلَاحُ عَلَى النَّاتِجِ وَحْدَهَا يَعْنِي جَهْلَ الْأَسْبَابِ عِنْدَ سِينُوزَا Spinoza⁽¹⁶⁾، يَكُونُ الْإِلَاحُ عَلَى الْأَسْبَابِ وَحْدَهَا يَعْنِي جَهْلَ النَّاتِجِ عِنْدَ الْبُرُوفِسُورِ لُورِي Laurie⁽¹⁷⁾".

أَمَّا التَّعْرِيفُ الْحَادِي عَشَرَ (الْعَاطِفَةُ) فَيَقْتَضِي وَقْفَةً قَصِيرَةً. إِنَّهُ وَجْهٌ مُحَدَّدٌ لِلْمَعْنَى لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَحِّمَ لِسَبَبِ اضْطِرَابٍ قَضَايَا أُخْرَى إِلَّا عِنْدَ الْأَدْبَاءِ. وَتَكُونُ نَمَّةٌ مُعَالِجَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ لِلِاسْتِعْمَالِ الْعَاطِفِيِّ لِلُّغَةِ [198] فِي الْفَصْلِ الْقَادِمِ، حَيْثُ سِيخْضَعُ مَا كَانَ قَدْ قِيلَ عَنِ هَذَا الْمَوْضُوعِ لِلتَّطْبِيقِ. وَفِي الْفَصْلِ السَّابِقِ بَعْضُ الْأَمْثِلَةِ التَّمُودِجِيَّةِ لِلِاسْتِعْمَالِ الْعَاطِفِيِّ لِلْمَعْنَى. وَكَثِيرًا مَا تَكُونُ الْكَلِمَةُ انْفِعَالِيَّةً مَحْضَةً (يُنْظَرُ: كَلِمَةُ 'حَسَنٌ' ص 219)، وَفِي هَذِهِ الْحَالَاتِ لَنْ يَجِدَ الْكَاتِبُ، إِنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِأَنَّهُ صَاحِبُ أُسْلُوبٍ، بَدِيلًا لَهَا، وَلَنْ يُحَاوِلَ الْقَارِئُ الْعَاقِلُ التَّوَصُّلَ إِلَى تَعْرِيفٍ رَمَزِيٍّ لَهَا.

وَالْفَحْصُ الْمُفْصَّلُ لِهَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْمَعْنَى يَكَادُ يَكُونُ مُسَاوِيًا لِلْبَحْثِ فِي الْقِيَمِ، كَمَا فِي مُحَاوَلَةِ الْبُرُوفِسُورِ أَوْرْبَانِ W. M. Urban⁽¹⁸⁾ فِي بَحْثِهِ الْهَائِلِ فِي

(16) بَارُوح سِينُوزَا (1632-1677م). فِيلَسُوفٌ هُولَنْدِيٌّ مِنْ أَهَمِّ فَلَاسِفَةِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. يُعَدُّ كِتَابُهُ (الْأَخْلَاقُ) الَّذِي أَلْفَهُ سَنَةَ 1677 مِنْ أَهَمِّ الْكُتُبِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ الْغَرْبِيَّةِ. وَمِنْ مَوْلاَفَاتِهِ الْآخَرَى: مَبَادِئُ فِلَسَفَةِ دِيكَارْتِ، وَرِسَالَةٌ فِي اللَّاهُوتِ وَالسِّيَاسَةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(17) هَنْرِي لُورِي (1837-1922م). صَحْفِيٌّ وَفِيلَسُوفٌ أَسْكَتْلَنْدِيٌّ. ذَرَسَ الْأَدَبَ وَالْفَلَسَفَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالْأَخْلَاقِيَّةَ فِي جَامِعَةِ إِدِينْبُورْغِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1856 وَ1860. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ كِتَابُ (الْفَلَسَفَةُ الْأَسْكَتْلَنْدِيَّةُ فِي تَطَوُّرِهَا الْمُحَلِّيِّ). وَمِنْ كُتُبِهِ الْآخَرَى الْمَهْمَةُ: (أَفْكَارُ فِي الْخُلُودِ) الَّذِي كَانَ فِي الْأَصْلِ آخِرَ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْمَحَاضِرَاتِ فِي الْأَخْلَاقِيَّاتِ الْكَانَتِيَّةِ؛ وَبَحْثٌ فِي أَفْكَارِ جُونِ سْتِيُورْتِ بِلْ عَنَوَانُهُ (مَنْاهِجُ الْبَحْثِ الْاسْتِقْرَائِيِّ) نُشِرَ فِي دُورِيَّةِ Mind سَنَةَ 1893. [الْمُتَرْجِمُ]

(18) وِلْبُورْ مَارْشَالْ أَوْرْبَانِ (1873-1952م). فِيلَسُوفٌ لُغَوِيٌّ أَمْرِيكِيٌّ، تَأَثَّرَ بِلِيرْنِسْتِ كَاسِيرِرْ. =

الموضوع، حيث تبدو 'الأخبار القيميَّة' في صورة 'معاني تأثيرية-إرادية مدخّرة'؛ إذ إنّ 'كَلِمَاتِ 'الله'، و'الحب'، و'الحرية' لها إحياء عاطفي حقيقي، وتُخَلَّف وراءها أثرًا لِمَعْنَى وجداني... ويمكننا أن نتحدّث، مُحَقِّقِينَ تَمَامًا، عَنِ الإِحياءِ العاطفي لِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِوَصْفِهِ الْمَعْنَى الْمُدْخَرِ لِرُدُودِ فِعْلِ عَاطِفِيَّةٍ سَابِقَةٍ، وَعَنِ التَّجَرُّدَاتِ الْوُجْدَانِيَّةِ الَّتِي تُشَكِّلُ الرِّوَابِطَ النَّفْسِيَّةَ لِهَذَا الْمَعْنَى بِوَصْفِهَا بِقَايَا مَشَاعِرِ حُكْمٍ سَابِقَةٍ⁽¹⁹⁾. وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّ وَلَعَ أَوْرَبَانَ بِتَصَاحِبِ تَقْنِيَّاتٍ مُوجِشَةٍ قَدْ حَالَ دُونَ تَعَرُّفِ أَشْمَلِ لَأَرَاءِ مُعْظَمِهَا سَلِيمٍ جِدًّا وَمَشْرُوحٍ بِاعْتِنَاءٍ تَامٍ.

ثُمَّ إِذَا انْتَقَلْنَا إِلَى الْمَجْمُوعَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ التَّعْرِيفَاتِ وَجَدْنَا أَوَّلَهَا التَّعْرِيفَ الثَّانِيَّ عَشَرَ الَّذِي يُجَسِّدُ مَذْهَبَ الْعَلَامَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ. فَمِنْ الْمُفْتَرَضِ عُمُومًا أَنَّ كُلَّ حَدِيثٍ مُفْرَدٍ يَرْتَبِطُ بِأَحْدَاثٍ أُخْرَى بِطَرَاثِقٍ مُخْتَلِفَةٍ. فَكُلُّ حَدِيثٍ مُفْرَدٍ يَتَعَلَّقُ فِعْلِيًّا، عَلَى نَحْوِ سَبَبِيٍّ أَوْ زَمَانِيٍّ أَوْ عَلَى نَحْوٍ آخَرَ، بِأَحْدَاثٍ أُخْرَى لِيَتَوَلَّدَ، بِمُعَامَلَتِنَا هَذَا الْحَدِيثَ بِوَصْفِهِ عِلَامَةً مُتَّصِلَةً بِعِلَاقَةٍ مَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، حَدِيثٌ آخَرُ يَكُونُ هُوَ مَعْنَاهُ، أَيْ الْمُتَعَلِّقُ الَّذِي يُعَلِّقُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ. وَهَكَذَا، يَكُونُ الْأَثَرُ الَّذِي يُخَلِّفُهُ إِشْعَالُ عُودِ الثَّقَابِ اتِّقَادًا، أَوْ دُخَانًا، أَوْ تَسَاقُطُ رَأْسِ الْعُودِ، أَوْ صَوْتُ كَشِيطِ فَحْسَبٍ، أَوْ تَعَجُّبًا. فِي هَذِهِ الْحَالَةِ [199] يَكُونُ الْأَثَرُ الْفِعْلِيُّ هُوَ مَعْنَى الْكَشِيطِ، إِذَا عُومِلَ بِوَصْفِهِ عِلَامَةً بِهَذَا الْخُصُوصِ، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ أَيْضًا.

وَعَلَى وَفْقِ هَذَا الْمَنْحَى يَتَحَدَّثُ الْمُحَلِّلُ النَّفْسِيُّ كَثِيرًا عَنْ مَعْنَى الْأَحْلَامِ. فَحِينَ يَكْتَشِفُ 'مَعْنَى' ظَاهِرَةً ذَهْنِيَّةً مَا، عَادَةً مَا يَكُونُ مَا عَثَرَ عَلَيْهِ جُزْءًا جَلِيًّا مِنَ السَّبَبِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَادِرًا مَا يُمَارِسُ أَيَّ اسْتِعْمَالٍ فِعْلِيٍّ آخَرَ لِلْكَلِمَةِ. لَكِنْ بِتَقْدِيمِهِ نَظَرِيَّاتٍ فِي الرِّعَابَاتِ اللَّوَاعِيَّةِ، أَيْ 'الْمَعْنَى' مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ شَيْئًا مَا مَقْصُودًا فِي اللَّوَاعِي، وَبِتَقْدِيمِهِ 'رُموزًا عَامَّةً'، مِلُوكًا، وَمَلِكَاةٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، أَيْ 'الْمَعْنَى' مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ خَاصِيَّةً جَوْهَرِيَّةً لِلرَّمْزِ، يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِسَهُولَةٍ مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُنَاقِشُهُ.

= وَكُتِبَ أَيْضًا فِي الدِّينِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَالْمِثَالِيَّةِ. أَهْمُ مَوْثِقَاتِهِ: التَّقْوِيمُ- طَبِيعَتُهُ وَقَوَانِينُهُ، وَالْمَشْكَالَاتُ الْأَنْطَرُولُوجِيَّةُ لِلْقِيَمَةِ، وَفَلَسَفَةُ اللُّغَةِ، وَالْكِنِيسَةُ وَالْفِكْرُ الْمَعَاوِرِ. [الْمُتَرْجِمُ]

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ، بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، إِنَّ لِلْعَلَاqَاتِ الْعَلَامِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ، عِنْدَهُ كَمَا عِنْدَ كُلِّ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ، الْأَهَمِّيَّةَ الْعَظْمَى.

وَيُعْبَرُونا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لِـ 'الْمَعْنَى' إِلَى التَّعْرِيفِ الثَّالِثِ عَشَرَ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْتَنَى بِتَمْيِيزِهِ، عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ الْأَطْرُوحَةَ التَّأْوِيلِيَّةَ الْمَذْكُورَةَ أَيْضًا. فَقَدْ أَكَّدَ أَنَّ كُلَّ تَفْكِيرٍ، كُلِّ إِحَالَةٍ، إِنَّمَا هُوَ تَكْيِيفٌ مَرْدُّهُ إِلَى سِياقَاتِ سَايَكُولُوجِيَّةٍ تَرْبِطُ عَنَاصِرَ فِي سِياقَاتٍ خَارِجِيَّةٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. فَمَهْمَا يَكُنْ تَكْيِيفُنَا 'كُلِّيًّا'، وَمَهْمَا يَكُنْ تَكْيِيفُنَا 'تَجْرِيدِيًّا' فَالْأَطْرُوحَةُ الْعَامَّةُ لِمَا يَحْدُثُ تَظَلُّ هِيَ الْأَطْرُوحَةُ نَفْسُهَا. بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ نَصِلُ إِلَى وَجْهِ وَاضِحٍ وَمُحَدَّدٍ لِـ 'الْمَعْنَى'. فَاسْتِنَادًا إِلَى هَذَا، يَكُونُ مَعْنَى A هُوَ ذَلِكَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ تُكْيِفُ الْعَمَلِيَّةُ الدُّهُنِيَّةُ الْمُؤَوَّلَةُ لِـ⁽²⁰⁾. وَهَذَا أَهَمُّ وَجْهِ يَكُونُ لِلْكَلِمَاتِ بِهِ مَعْنَى.

وَفِي حَالَةِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَسِيطَةِ، نَحْوِ تَمْيِيزِ صَوْتٍ مَا، لَا يَصْعَبُ شَرْحُ هَذَا التَّكْيِيفِ. أَمَّا التَّأْوِيلَاتُ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا، نَحْوُ مَا يُحَاوَلُ الْقَارِئُ إِنْجَازَهُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، فَتَقْدِيمُ بَيَانٍ مُفْصَّلٍ لَهَا يَكُونُ أَكْثَرَ صُعُوبَةً؛ وَمَرْدُّ ذَلِكَ جُزْئِيًّا إِلَى أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ تَكُونُ عَلَى مَرَاجِلَ، وَجُزْئِيًّا إِلَى أَنَّهُ لَمْ يُكْتَشَفْ حَتَّى الْآنَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْقَوَانِينِ السَايَكُولُوجِيَّةِ الْمُهِمَّةِ وَعَلَى نَحْوِ غَامِضٍ. حَالَةً مُشَابِهَةً لِذَلِكَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَبْلَ عَصْرِ نِيوتن Newton⁽²¹⁾ كَانُوا فِي شَكٍّ كَبِيرٍ [200] بِخُصُوصِ 'مَعْنَى' ظَوَاهِرِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ، وَاعْتَادُوا التَّسْلِيمَ بِعَلَاqَاتِ 'تَعَاُطِفٍ' وَ'تَأَلُّفٍ' مُمَيَّزَةٍ

(20) يُنْظَرُ الْفَصْلُ الثَّالِثُ الْمَذْكُورُ أَيْضًا ص 135-160.

(21) إِسْحَاقُ نِيوتن (1642-1727م). عَالِمٌ إِنْجِلِيزِيٌّ يُعَدُّ مِنَ أَلَمْعِ مِنْ أَسْمَاءِ فِي الْفِيزِيَاءِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ عِبْرَ الْعُصُورِ وَاحِدَ رَمُوزِ الثَّوْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ. أَشَسَ كِتَابُهُ (الْأَصُولُ الرِّيَاضِيَّةُ لِلْفَلَسَفَةِ الطَّبِيعِيَّةِ) مَعْظَمَ مَبَادِي المِيكَانِيكَ الكَلَّاسِيكِيَّةِ. وَصَاعَ قَانُونُ الْحَرَكَةِ وَقَانُونُ الْجَذْبِ الْعَامِّ، وَأَزَالَ آخِرَ الشُّكُوكِ بِشَأْنِ صِلَاحِيَّةِ نَظَرِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةِ الشَّمْسِ أَمْوُذَجًا لِلْكَوْنِ. وَكَانَ مَسِيحِيًّا مُتَدِينًا لَكِنْ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ تَقْلِيدِيٍّ؛ إِذْ رَفَضَ الْأَخْذَ بِالتَّعَالِيمِ الْمَقْدَّسَةِ لِلْإِنْجِلِيكَانِيَّةِ، رُبَّمَا لِأَنَّهُ رَفَضَ الْإِيمَانَ بِمَذْهَبِ الثَّالُوثِ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَفَاتِهِ: طَرِيقَةُ التَّفَاضُلِ، وَالْأَصُولُ الرِّيَاضِيَّةُ لِلْفَلَسَفَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَوَصَفُ تَارِيخِيٍّ لِتَحْرِيفَيْنِ مُهِمَّيْنِ لِلْكِتَابِ الْمَقْدَّسِ. [الْمُتَرْجِمُ]

من أجل أن يربطوا بينها وبين منازل القمر 'حاكم المياه'، ومكنت المعرفة المتزايدة لانساقات أكثر عمومية من الاستغناء عن أمثال هذه العلاقات الوهمية. فكذا، ستمكن معرفة أدق للقوانين السايكولوجية من معاملة علاقات مثل 'المعنى'، و'المعرفة'، و'العرضية'، و'الوعي'، و'الإدراك' على أنها أوهام لغوية كذلك، وأن يحل محلها الارتباطات القابلة لأن تلحظ.

وأكثر ما يعتاد من الاعتراضات على وجهة نظر كهذه هو اعتمادها المفرط على الاستيطان. والأحكام الاستيطانية، شأنها شأن سائر الأحكام، هي تأويلات. فسواء أكان حكمنا هو 'أنا أفكر في المطر'، أم كان، بعد أن أنظر إلى مقياس الضغط الجوي، هو 'ستمطر السماء'، نحن منسغلون بحالٍ علامية. وفي كلتا الحالتين نحن نجعل من تكيف ثانوي لتكيف سابق علامة، أو، على نحو أكثر اعتيادية، لجزء من التكيف أو ملازم له. مثال ذلك حالة الكلمات التي ترمز إلى الإحالة التي نحاول الحكم عليها في الاستيطان، أو حالة رمز ما غير لفظي في حالٍ عديم وجود كلمات، أو حالة المشاعر المبهمة المصاحبة للإحالة حتى في حالٍ عديم وجود كلمات. لا شك في أننا يمكن أن نستجيب مباشرة لاستجاباتنا الذاتية. ونحن نواصل فعل ذلك عبر سلسلة طويلة من النشاطات الاعتيادية والإدراكية، لكن استجابات كهذه، لكونها هي في أنفسها لاوعية أي واعية للأشياء، لا تقود إلى ما يقدم من الأحكام الاستيطانية ذليلاً مؤيداً لأي وجهة نظر بشأن طبيعة التفكير أو مضاداً لها. وما دامت هذه الأحكام يجب أن تبدو مستندة إلى فحص تأملي دقيق للوعي نفسه، فهي تأويلات تستمد علاماتها من كل عناصر الوعي المصاحبة للإحالات التي تتعلق بها. ومن المؤكد أن هذه العلامات لا يعتمد عليها وأنها صعبة التأويل؛ فهي كثيراً ما لا تكون سوى مشاعر باهتة غامضة. لذلك، نحن نميل إلى تقديم الترميز، آمليين بذلك أن نحوز من العلامات المزيد [201] وما هو أوضح. فعلى سبيل المثال، حين نحاول القيام بما يدعى تحليل الحكم بالاستيطان المباشر عادةً ما يؤدي إجراؤنا إلى تقديم رموز بديلة نجهد في إقناع أنفسنا بأنها ترمز إلى الإحالة نفسها. حينئذ سنقول إن أحد الرمزین هو ما نعينه بالآخر. ويمكن أن يلمس في معظم النقاشات المعاصرة للمبادئ

تَقْرِيرٌ مَا مُوجِبٌ أَوْ سَالِبٌ بِشَأْنِ هَذِهِ الصِّغَةِ هُوَ بِمَنْزِلَةِ خَطْوَةٍ أَسَاسِيَّةٍ فِي ذَلِكَ. لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ بِمَكَانٍ النَّظَرُ فِي نَوْعِ الْبُرْهَانِ الْمُتَوَافِرِ لِهَذِهِ التَّقْرِيرَاتِ.

وَعَادَةً مَا يُجَابُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الشَّأْنَ لَيْسَ شَأْنُ بُرْهَانٍ وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ اقْتِنَاعٍ قَوْرِيٍّ. غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْيَقِينِيَّاتِ الْمُبَاشِرَةَ تَخْتَلِفُ، عَلَى نَحْوِ سَمَى الصِّتِ، بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى، وَمِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ. وَالْحَقُّ أَنَّهَا مَشَاعِرٌ؛ وَلِذَلِكَ لَنْ نَجِدَ أَسْبَابَهَا، إِنْ أَمَكُنَ الْبَحْثُ فِيهَا، غَيْرَ ذَاتِ صِلَةٍ بِمَسْأَلَةِ صِحَّتِهَا. ثُمَّ إِنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ لِأَيِّ اقْتِنَاعٍ مُتَعَلِّقٍ بِكَوْنِ أَحَدِ الرَّمْزَيْنِ تَحْلِيلًا صَحِيحًا لِلآخَرِ، أَيْ بِتَطَابُقِ الْإِحَالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَرْمِزُ إِلَيْهِمَا كِلَا الرَّمْزَيْنِ، يَكْمُنُ فِي تَشَابُهِ أَيْ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِحَالَتَيْنِ الْمَعْنِيَّتَيْنِ الْأُخْرَى الَّتِي يُمَكِّنُ الْحَصُولُ عَلَيْهَا. وَمَا دَامَ مِنَ الْمُقَرِّ بِهِ كَثِيرًا أَنَّ التَّحْلِيلَاتِ غَيْرَ ذَاتِ صِلَةٍ فَسَيُحَكِّمُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى هَذِهِ بِأَنَّهَا مَشَاعِرٌ: - مَشَاعِرُ مُصَاحِبَةٍ لِلْإِحَالَاتِ، مَشَاعِرُ مُلَاءَمَةٍ أَوْ عَدَمِ مُلَاءَمَةٍ، تَنْشَأُ مِنَ الْارْتِبَاطَاتِ السَّبَبِيَّةِ لِلرَّمُوزِ بِالْإِحَالَاتِ، وَمَشَاعِرُ تَنْشَأُ مِنْ مُجَرَّدِ التَّشَابُهَاتِ وَالتَّبَايُنَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ لِلرَّمُوزِ. وَهَكَذَا، تُشَكِّلُ هَذِهِ الشَّبَكَةُ الْمَتَدَاخِلَةُ وَالْغَامِضَةُ مِنَ الْمَشَاعِرِ أَرْضِيَّةً لِيَقِينِيَّاتِنَا الْاسْتِبْطَانِيَّةِ. فَلَا غَرَابَةَ فِي أَنْ نَجِدَ مَهْمَةً تَنْقِيَّةً آرَأْنَا بِمَنْهَجِ الْفَحْصِ وَالتَّحْلِيلِ الْمُبَاشِرَيْنِ صَعَبَةً، أَوْ أَنَّ النَّتَاجِ الْمُنْتَحَصِلَةَ تُثِيرُ الْجَدَلَ.

وَالَّذِينَ حَاوَلُوا تَحْدِيدَ مَا يَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِدَقَّةٍ حِينَ يُمَارِسُونَ أَشْيَعَ الْأَحْكَامِ نَحْوَ 'أَنَا أَفَكْرٌ'، وَذَاكَ كُرْسِيٌّ'، وَهَذَا حَسَنٌ'، لَنْ يَفْجَلُوا فِي التَّرَاجُعِ فِي ذَلِكَ. [202] وَالْحَقُّ أَنَّهُ يُحْتَمَلُ جِدًّا أَنْ خَطَأْنَا فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ الثَّانَوِيَّةِ كَثِيرًا مَا يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ خَطْئِنَا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ؛ لِسَبَبٍ وَاضِحٍ هُوَ أَنَّ التَّحَقُّقَ غَايَةً فِي الصُّعُوبَةِ. فَلَا قِيَمَةَ لِنَبَيِّنَ أَيْ أَحَدٍ مِنْ إِحَالَتِهِ، أَيْ 'مُغْنَاهُ'، إِذَا كَانَ الدَّلِيلُ الْمُؤَيَّدُ⁽²²⁾ غَائِبًا، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الثَّقَةِ بِالنَّفْسِ يَصْعَبُ الْخُلَاصُ مِنْهُ.

(22) الْأَنْوَاعُ الْمُحَدَّدَةُ لِهَذَا الدَّلِيلِ الْمُؤَيَّدِ وَبِمَعْنَاهَا، أَيْ الْعَلَامَاتُ الْمُتَّحِدَةُ أَوْ الشُّلُوكُ ذُو الصَّلَاةِ، هِيَ أُمُورٌ مَطْرُوحَةٌ عَلَى بِسَاطِ الْبَحْثِ. فَمُعْظَمُ تَجَارِبِ تَرَاوِيحِ الْكَلِمَاتِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، تُدَارُ عَلَى أَسَاسِ افْتِرَاضَاتٍ مَشْكُوكٍ فِيهَا. لِذَلِكَ لَمْ تُنْشَرْ كَثِيرًا مُشْكَلَةٌ عِلَاقَةً =

وَسَبَبُ الأَهَمِّيَّةِ الكبيرة لِلرُّمُوزِ هُوَ أَنَّ الأحاسيسَ والصُّوَرَ غَيْرَ اللفظيَّةِ المُصاحِبَةِ للإحالاتِ علاماتٌ لا يُعوَّلُ عليها البتَّة. فنحنُ عادةً ما نَتَّخِذُ ترميزنا دليلاً لنا إلى المعنى الخاصِّ بنا، ونُصْبِحُ المَشاغِرُ العلاميَّةُ المُصاحِبَةُ مُندمِجَةً بِمَشاغِرِ رُمُوزنا اندماجاً لا يُمَيِّزُ معه شيءٌ مِن شيءٍ. على أَنَّ ما يُشعِرُ بِهِ في بعضِ الأحيان مِن أَنَّ جَمِيعَ الرُّمُوزِ المُتوافِرةِ التي يُحتَاجُ إليها لِتَرمِزَ إلى الإحالةِ لا تُلائِمُها، يُظهِرُ أَنَّ علاماتِ الشُّعُورِ الأخرى يُمكنُ إحرازها. وبذلك لا نَكونُ تحتَ رَحمةِ رُمُوزنا تَماماً.

وعلى الرَّغمِ مِن ذلك، ثَمَّةُ أسبابٌ واضحةٌ لتلكِ الثُّقَّةِ المُذهِلةِ بِالرُّمُوزِ بِوصفِها إشاراتٌ لِمَا نَعيْنِهِ، وهِيَ صِفَةُ مُميِّزةٌ لِمُفَكِّرِي الرِّياضيَّاتِ وغيرِهِم مِن المُفَكِّرينَ التَّجْريديِّينَ. فالرُّمُوزُ الدَّقِيقَةُ الاسْتِعمالِ في موضوعاتِ كَهِذِهِ أَبَدالٌ لا غِنَى عنها مِنَ المُصاحَباتِ الشُّعُوريَّةِ التي لا تُمَيِّزُ بِسَهولَةٍ تامَّةٍ. فالشُّعُورُ المُصاحِبُ، على سبيلِ المِثالِ، للإحالةِ على اثْنَتَيْنِ ومِثَّةٍ تُفاحَةٍ لا يُمكنُ تَمييزُهُ بِسَهولَةٍ مِن ذاكِ الذي يُصاحِبُ إحالةً على ثلاثٍ ومِثَّةٍ تُفاحَةٍ، وَمِن غَيْرِ الرُّمُوزِ ما كُنَّا لِنَسْتَطِيعَ تَمييزَ إحْدَى الإحالتَيْنِ مِنَ الأخرى. ففِي الفِكرِ التَّجْريديِّ عادةً وَعِنْدَ مُعْظَمِ المُفَكِّرينَ ما يُحدِّدُ إحالتنا هُوَ اتِّصالُ الرُّمُوزِ وَتَرا بَاطِها، بَدَلًا مِن أن تُحدِّدَ إحالتنا رُمُوزنا. [203] وَليسَ أَمَمانًا إِلَّا مُراقَبَةُ أَلَّا يُتَسَبَّبَ ذلكِ في انْتِهاكِ لِقَواعدِ مُعيَّنة لِلإِجْراءِ. وَبَعْضُ هَذِهِ القَواعدِ لَيسَ ذا أَهميَّةٍ كَبيْرةٍ، وهِيَ المُثَبِّتَةُ في الأقسامِ النِّحويَّةِ التي تُعالِجُ الاسْتِعمالَ الأدبيَّ وأَعْرافَ تَكوينِ الجُمْلَةِ. لَكنَّ بَعْضًا آخَرَ، مِنها لَهُ مَرتَلَةٌ مُختَلَفَةٌ جَدًّا ولا يَنْشَأُ إِلَّا مِن طَبيْعَةِ الأشياءِ في العُمومِ. بِتَعبيرِ آخَرَ، هَذِهِ القَواعدُ هِيَ قَوانينُ مَناطِقِيَّةٍ بِمَعْنَى أَنَّ أَيَّ نِظامٍ لِلرُّمُوزِ لا يُدْعَى لَهَا بِجَبِّ أن يَنهارَ بِوصفِهِ وَسيلَةٌ لِتَسجيلِ الإحالاتِ، ولا يُهْمُ ما أُنْشِئتُ هَذِهِ الإحالاتُ مِن

= العلامات غير اللفظية والعلامات اللفظية (أي الرموز) بعمليات الحكم التي هي علامات لها. ومادام أمرًا محتومًا للكثير جدًا من علم النفس التجريبي أن يصمد أو أن يسقط مع الافتراضات غير المخصصة تمامًا المتعلقة بقيمة الترميز بوصفه دليلًا على الإحالة التي تُدارُ عليها هذه التجارب، فستبدو هذه المشكلة مُستحقةً للاهتمام.

أجله. هذان الاحتياجان الجوهريان إلى نظام الرُّمُوزِ ومُجَرَّدِ قَوَاعِدِ الْكَلَامِ الْمُهَذَّبِ المذكورانِ آتِفًا تَعَرُّضًا تَارِيخِيًّا لِبَعْضِ التَّخْلِيطِ. وقد ناقشنا بعضًا مما يتعلَّقُ بِأَوَّلِهِمَا فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ، أَمَّا الْآخَرُ فَسِنَالُ حَظُّهُ مِنَ الذِّكْرِ وَالتَّعْلِيقِ حِينَ نَعَالِجُ الْأَحْوَالَ الرُّمُوزِيَّةَ فِي الْفَصْلِ الْآخِرِ مِنَ الْكِتَابِ.

وَلَمَّا كُنَّا رَهْنِ هَذِهِ الْمُتَطَلِّبَاتِ الْمُنَظَّمَةِ كُنَّا قَادِرِينَ، عَلَى نَحْوِ وَاسِعٍ بِوَسَاطَةِ رُمُوزٍ مُعْرِفَةٍ بِحَيْثُ يُنْظَرُ إِلَى أَحَدِهَا مِنْ زَاوِيَةِ الْآخَرِ، عَلَى تَرْكِيبِ الْإِحَالَاتِ، أَوْ، بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، عَلَى تَجْرِيدِ أَجْزَاءٍ مُشْتَرَكَةٍ لِإِحَالَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ - عَلَى التَّمْيِيزِ وَالْمُقَارَنَةِ وَالرَّبْطِ لِإِحَالَاتٍ فِي مُسْتَوَيَاتٍ، وَبِمُسْتَوَيَاتٍ، وَعَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنَ الْعُمُومِ. وَعَمَلِيَّةُ تَرْكِيبِ هَذِهِ الْأَوْجِهَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِنَ التَّكْيِيفِ لِتُكَوِّنَ حُكْمًا مُحَدَّدًا يُشَارُ إِلَيْهَا عُمُومًا بِوَصْفِهَا عَمَلِيَّةُ التَّفَكِيرِ، وَهِيَ الْفَعَالِيَّةُ الَّتِي يُحَافِظُ عَلَيْهَا عُمُومًا مِنْ خِلَالِ آيَةِ سِلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ بِاسْتِعْمَالِ الرُّمُوزِ. وَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ، بِوَصْفِهَا أَبَدَالًا مِنْ مَثِيرَاتٍ غَيْرِ مُتَوَافِرَةٍ فِي أَيِّ مِثَالٍ مُعْطًى، وَبِوَصْفِهَا مُحَرَّرَةً لِإِنْتِاجِ السَّلَاسِلِ الْمُوسَّعَةِ مِنَ التَّنْظِيمَاتِ، وَبِوَصْفِهَا مُنْشِئَةً لَوْسِيلَةٍ إِعَادَةِ تَرْتِيبِ هَذِهِ التَّنْظِيمَاتِ، قَوِيَّةٌ جَدًّا، وَآلِيَّةٌ جَدًّا، وَمُتَرَابِطَةٌ عَلَى نَحْوِ مُعَقَّدٍ جَدًّا بِحَيْثُ تُخْفِي عَنَّا مَا يَحْدُثُ إِخْفَاءً يَكَادُ يَكُونُ تَامًا. وَيَوُودُ الْأَمْرُ بِنَا إِلَى أَنْ نَنْظُرَ إِلَى أَنْفُسِنَا بِوَصْفِنَا مُرْتَبِطِينَ بِمَجْمُوعَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الْكِيَانَاتِ، وَالْخَصَائِصِ، وَالْقَضَايَا، وَالْأَعْدَادِ، وَالْوُظَائِفِ، وَالْكُلِّيَّاتِ، وَهَلُمَّ جَرًّا - بِالْعَلَاقَةِ الْفَرِيدَةِ الَّتِي هِيَ الْمَعْرِفَةُ. وَإِذَا مَا أُدْرِكَ أَنَّ هَذِهِ الْكِيَانَاتِ إِنَّمَا هِيَ إِجْرَاءَاتٌ رَمُوزِيَّةٌ فَلَرُبَّمَا كَانَ لَهَا نَفْعٌ عَظِيمٌ. أَمَّا مُحَاوَلَةُ [204] الْبَحْثِ فِيهَا بِوَصْفِهَا مَرَاجِعَ فَتَوَوَّلُ، عَلَى مَا رَأَيْنَا، إِلَى الْفَلَسَفَةِ، وَتُنْشِئُ نِطَاقَ الْفَلَاسِيفَةِ الَّتِي لَا يُسَاءَلُ.

سَلِحْظُ أَنَّ التَّعْرِيفَ الثَّانِي عَشَرَ وَالْفَرْعَ (ب) مِنَ التَّعْرِيفِ الثَّلَاثِ عَشَرَ بِشَأْنِ حَالَةِ التَّأْوِيلَاتِ الصَّادِقَةِ لِهَمَا النَّتِيجَةُ نَفْسُهَا. فَمَعْنَى عِلَامَةِ مَا (فِي الْفَرْعِ (ب) مِنَ التَّعْرِيفِ الثَّلَاثِ عَشَرَ) مُؤَوَّلَةٌ عَلَى نَحْوِ كَافٍ سَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي تَرْتَبِطُ بِهِ فِعْلِيًّا بِالْعَلَاقَةِ الْعَلَامِيَّةِ. لَكِنْ فِي حَالَةِ التَّأْوِيلِ الْكَاذِبِ سَيَكُونُ 'الْمَعْنَيَانِ' مُخْتَلِفَيْنِ. وَثَمَّةُ نُقْطَةٍ أُخْرَى جَدِيدَةٌ بِالاهْتِمَامِ، هِيَ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةَ تَنْفِي الْحَاجَةَ إِلَى آيَةِ 'نَفْثَرِيَّة' تَنَاطُرٍ لِلصَّدْقِ؛ مَا دَامَتِ الْإِحَالَةُ الْكَافِيَّةُ لَا تَتَّخِذُ مَرْجِعًا لَهَا شَيْئًا مَا يُنَاطَرُ

الواقعة أو الحدث الذي هو معنى علامة ما بمقتضى التعريف الثاني عشر، بل تتخذُ شيئاً ما مطابقاً له. وإن شئنا قلنا إن الإحالة تُناظرُ مرجعها، لكن ذلك سيكون اختياراً لبيان أوفى للإحالة، وهو الذي قدّمناه.

بوجود هذه الاعتبارات أمامنا نستطيع الآن فهم خصوصيات الرموز بثنائية 'المعنى' فيها للمتكلم والمستمع. والرمز، على ما سبق أن عرفناه (ينظر: ص 70، 71، فيما ذكر آنفاً)، يرمز إلى فعلٍ إحالي، أي إن أسبابه عند المتكلم، إلى جنب رغبتى التسجيل والتوصيل بلا شك، والمواقف المفترضة تجاه المستمعين، تُشكل أفعالاً إحالية. بذلك يصبح الرمز حين ينطق، بمقتضى كونه مسبباً بهذه الطريقة، علامة فعلٍ إحالي لدى المستمع. غير أن هذا الفعل قليل الأهميّة في نفسه إلا عند حدوث صعوبة في الفهم، وعادة ما يُنظر إلى الرمز بوصفه علامة لما يرمز إليه، أي ذلك الذي تُحيل عليه الإحالة التي يرمز الرمز إليها. وحين يكون هذا التأويل ناجحاً يتولد منه إنشاء المستمع إحالة تشبه من كل الأوجه ذات الصلة لتلك التي يُشئها المتكلم. وهذا هو ما يضيف على الرموز خصوصيتها بوصفها علامات. وبذلك يُمكن تعريف تعاملٍ لغويٍّ ما أو تواصلٍ ما بأنه استعمالٌ للرموز على نحو تكون فيه أفعال الإحالة التي تحدث عند المستمع مشابهة [205] في كل الأوجه ذات الصلة لتلك التي يرمز إليها عند المتكلم.

يتضح من وجهة النظر هذه أن العقبة التي تعترض طريق نظرية التواصل هي تقرير حدود السياقات السايكولوجية وتحليلها، وهي مشكلة استقراية مماثلة في الشكل تماماً لمشكلات العلوم الأخرى. على أنه بسبب صعوبة متابعة الأحداث السايكولوجية والطبيعة السطحية للاتساقات التي وقفت عليها حتى الآن، كانت المناهج المستخدمة في فحص حقيقة: أحدث تواصل أم لم يحدث، غير مُباشرة. وما دُمنا غير قادرين على أن نلاحظ الإحالات مباشرة فعلينا أن ندرسها من خلال العلامات، إما من خلال المشاعر المُصاحبة وإما من خلال الرموز. فأما المشاعر فَمِن الواضح أنها غير كافية، وأما الرموز فتُقدّم إشارة أشد حساسية بكثير⁽²³⁾.

(23) مَبْلَغُ تعويلنا على الرموز ليُبدى لنا ما نفعله يوضحه ما تُوقل حديثاً من قضية الأسقف =

لَكِنَّ الرُّمُوزَ تُضَلُّلُ أَيْضًا، فَيَنْبَغِي ابْتِكَارُ مَنَهَجٍ مَا لِلضَّبْطِ، وَمِنْ هُنَا تَأْتِي أَهَمِّيَّةُ التَّعْرِيفِ. وَحَيْثُمَا كَانَ ثَمَّةَ سَبَبٍ لِلْاعْتِمَادِ عَلَى الْقُوَّةِ الْإِشَارِيَّةِ لِلرُّمُوزِ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ اللُّغَةَ الْمُجَرَّدَةَ مِنْ كُلِّ الْعِبَارَاتِ الْبَدِيلَةِ سَتَكُونُ مَرْغُوبًا فِيهَا عِلْمِيًّا. لَكِنَّ فِي مُعْظَمِ الْأُمُورِ لَا تُسْتَطَاعُ السَّيْطَرَةُ عَلَى مَا يُمَكِّنُ مِنْ غَدْرِ الْكَلِمَاتِ إِلَّا بِالتَّعْرِيفَاتِ، وَكُلَّمَا ازدَادَ عَدَدُ الْعِبَارَاتِ الْبَدِيلَةِ الْمُتَوَافِرَةِ قَلَّ خَطَرُ التَّنَاقُضِ، عَلَى أَلَّا نَفْتَرِضَ الرُّمُوزَ حَائِزَةً 'الْمَعْنَى' لِنَفْسِهَا، فَنَمْلَأُ الْعَالَمَ بِالْكِيفَانَاتِ الْخَيَالِيَّةِ.

وَنَقُودُنَا مَسْأَلَةَ الْمُتَرَادِفَاتِ عَلَى نَحْوِ طَبِيعِيٍّ إِلَى النَّظَرِ فِي التَّعْرِيفِ الرَّابِعِ عَشَرَ (الاسْتِعْمَالُ الْجَيِّد). فَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا مَا تَسْتَلِزُّهُ صِحَّةُ التَّرْمِيزِ. فَالرَّمْزُ يَكُونُ صَحِيحًا حِينَ يُؤَلِّدُ إِحَالَةً تُشَبِّهُ تِلْكَ الَّتِي يَرْمِزُ إِلَيْهَا عِنْدَ أَيِّ مُؤَوِّلٍ مُنَاسِبٍ. وَبِذَلِكَ سَتَنْشَأُ لَأَيَّةٍ مَجْمُوعَةٌ مِنْ مُسْتَعْمِلِي الرُّمُوزِ مَلَاءَمَةٌ مُعَيَّنَةٌ لِشَيْءٍ مَا سَيَدْعَى [206] مَعْنَى خَاصًّا أَوْ اسْتِعْمَالًا جَيِّدًا. هَذَا الشَّيْءُ يَنْحُو مَنَحَى أَنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهُ بِوَصْفِهِ هُوَ مَعْنَى الْكَلِمَاتِ الْمَعْنِيَّةِ. وَالْمُثَبِّتُ هُوَ الْإِحَالَةُ الَّتِي يُنْشِئُهَا أَيُّ غُنْصَرٍ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ بِتَأْوِيلٍ رَمَازٍ مَا فِي آيَةٍ مُنَاسِبَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ فِي عَالَمِ الْخِطَابِ ذِي الصَّلَةِ. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ مِنَ الْمُهِّمِّ جِدًّا أَلَّا تَخْتَلِفَ هَذِهِ الْمَعَانِي إِلَّا فِي حُدُودٍ ضَيِّقَةٍ. غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمَشْرُوعِ لَنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَى الْإِحْتِفَاطِ بِمَعَايِيرٍ مُطَوَّرَةٍ لِلْمُوَازَنَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَرَى ضَرُورَةَ افْتِرَاضِ أَنْ تَكُونَ قَدْ أُسِّسَتْ تَأْسِيسًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ أَوْ أَنَّهَا بِطَبِيعَتِهَا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّغْيِيرِ. وَمَا يَشِيعُ اعْتِقَادُهُ كَثِيرًا مِنْ أَنَّ الْكَلِمَاتِ تَعْنِي عَلَى نَحْوِ ضَرُورِيٍّ مَا تَعْنِيهِ، مَنْشُؤُهُ غُمُوضٌ لَفْظٍ 'ضَرُورِيٍّ'، الَّذِي قَدْ يَرْمِزُ إِمَّا إِلَى حَقِيقَةٍ أَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ التَّوَاضُّلِ، وَإِمَّا إِلَى مَا يُفْتَرَضُ مِنْ حَيَازَةِ الْكَلِمَاتِ 'مَعَانِيٍّ' جَوْهَرِيَّةٍ. وَبِذَلِكَ احْتِجَّ بِأَنَّ مِثْلَ كَلِمَةٍ (حَسَنَ) لَا مُرَادِفَ لَهَا وَلَا يُمَكِّنُ اسْتِيدَالَهَا، بِحَيْثُ يَكُونُ لَدَى الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ اسْتِعْمَالًا جَيِّدًا فِكْرَةً لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرْمِزُوا إِلَيْهَا بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى - يَسْتَتَبِعُ هَذَا فِي مَذْهَبٍ أَوْلَتْكَ أَنَّهُ مَا

= الَّذِي أَضَاعَ تَذَكُّرَ الْقِطَارِ؛ إِذْ جَاءَ فِيهَا أَنَّ الْمُفْتَشِّرَ، الَّذِي كَانَ وَكَيْلَ كَنِيَسَةٍ أَيْضًا، قَالَ لَهُ: "الْأَمْرُ عَلَى مَا يُرَامُ تَمَامًا، يَا أَبَتِ!". فَزَدَ الْأَسْفُفُ قَائِلًا: "كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ إِذْ كَيْفَ سَاعَرِفْتُ وَجْهَتِي بِفَقْدِهَا؟".

دَامَتْ الْكَلِمَةُ مُسْتَعْمَلَةً يَقِينًا فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ فِكْرَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ مُتَّفَرِّدَةٍ وَبَسِطَةٍ، أَوْ، عَلَى مَا يُقَالُ أحيانًا، خَاصَّةٍ مُتَّفَرِّدَةٍ أَوْ إِبْخَارٍ مُتَّفَرِّدٍ، سَوَاءً أَحَازَهُ شَيْءٌ مَدَامَ لَمْ يُحْزَهُ. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ تَمَامًا يَمِيلُ عُلَمَاءُ الرِّيَاضِيَّاتِ إِلَى الْجَزْمِ بِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا هُوَ مَوْجُودٌ الْبَيِّنَةُ فَلَنْ نَعْدَمَ، بَعْدُ، خَاصَّةً '107 رَقْمًا'.

وَأَكْثَرُ مَا يُعْزَرُ هَذِهِ الثَّبَاتَاتُ فِي الْإِحَالَاتِ وَيُحَافِظُ عَلَيْهَا هُوَ اسْتِعْمَالُ الْمُعْجَمَاتِ، وَفِي أَغْرَاضٍ كَثِيرَةٍ يَكُونُ 'الْمَعْنَى الْمُعْجَمِيَّةُ' وَالْاسْتِعْمَالُ الْحَيُّ مُتَرَادِفَيْنِ. لَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُشَارَ إِلَى وَجْهِ أَكْثَرَ تَهْذِيبًا لِلْمَعْنَى الْمُعْجَمِيَّةِ. فَالْمُعْجَمُ قَائِمَةٌ مِنَ الرُّمُوزِ الْبَدِيلَةِ. إِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ يَقُولُ: "هَذَا يُمَكِّنُ اسْتِدْالَهُ بِذَاكَ فِي حَالَاتٍ كَذَا وَكَذَا". وَسَبَبُ إِمْكَانِ هَذَا الْاسْتِدْالِ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ وَعِنْدَ الْمُؤَلِّفِينَ الْمُنَاسِبِينَ تَكُونُ الْإِحَالَاتُ الْمُسَبِّتَانِ عَنِ الرَّمْزَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ. فَعَلَى ذَلِكَ تَكُونُ فَائِدَةُ الْمُعْجَمِ فِي تَأْشِيرِ التَّدَاخُلَاتِ بَيْنَ إِحَالَاتِ الرُّمُوزِ أَكْبَرَ مِنْهَا فِي تَعْرِيفِ حُقُولِهَا. [207]

وَيَنْشَأُ التَّعْرِيفَانِ الْأَخِيرَانِ فِي قَائِمَتِنَا (الْخَامِسَ عَشَرَ وَالسَّادِسَ عَشَرَ) مِنْ رَجْمِ هَذِهِ الصُّعُوبَةِ فِي ضَبْطِ الرُّمُوزِ بِوَصْفِهَا إشاراتٍ إِلَى الْإِحَالَةِ. وَعَلَى مَا رَأَيْنَا، قَدْ تَكُونُ الْإِحَالَةُ الَّتِي يَعْتَقَدُ مُسْتَعْمِلُ رَمَزٍ مَا، بِسَبَبِ ثِقَتِهِ بِالرَّمَزِ، أَنَّهُ يُنْشِئُهَا مُخْتَلِفَةً جِدًّا عَنِ تِلْكَ الَّتِي يُنْشِئُهَا فِعْلِيًّا، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ كَثِيرًا مَا تَكْشِفُ عَنْهَا الْمُقَارَنَةُ الْمَتَانِيَّةُ لِلْعِبَارَاتِ. فَكَذَلِكَ كَثِيرًا مَا تَكُونُ الْإِحَالَةُ الَّتِي يُنْشِئُهَا الْمُسْتَعْمِلُ مُخْتَلِفَةً جِدًّا عَنِ تِلْكَ الَّتِي يُنْشِئُهَا الْمُتَكَلِّمُ. وَرُبَّمَا تَكُونُ الْحَالَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا مَعْنَى رَمَزٍ مَا مَا يَعْتَقَدُ الْمُسْتَعْمِلُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُجِبُّ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْحَالَاتِ نَصِيًّا مِنْ قُرْصِ سُوءِ الْفَهْمِ. [208]

الفصل العاشر

الأخوال الرمزية

كثيرًا ما يُعدُّ المرءُ حكيماً لِكَلِمَةٍ نَفْوَةٍ بها، وكثيرًا ما يُعدُّ أحقَّ لِكَلِمَةٍ نَفْوَةٍ بها. فعلينا، حقًا، أن نكون على حذرٍ ممَّا نقول. -كونفوشيوس Confucius

سألَ آبا آمون Abba Ammon آبا سيسوس Abba Sisoes قائلاً: "حينَ أقرأ في الكتابِ المُقدَّسِ يَتَوَقَّ عَقْلِي إلى تَرْتِيبِ الكَلِمَاتِ بِحَيْثُ يَكُونُ لِكُلِّ سُؤَالٍ إِجَابَةٌ". فقالَ لَهُ الرَّجُلُ العَجُوزُ: "ليسَ هذا بِالأَمْرِ الضَّروريِّ؛ فَمَا مِن شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ الطَّلَبَ سِوَى نَقَاءِ القَلْبِ. لِذَلِكَ، لَيْسَ عَلَى المَرءِ أَنْ يُبَالِي كثيرًا بِمَا يَقُولُ". - بالاديوس، "كتاب الفردوس" Palladius, "The Book of Paradise"

يُمْكِنُ أَنْ نُقَدِّمَ الآنَ وَصْفًا مُوجِزًا لِنَظَرِيَّةِ التَّأْوِيلِ السِّيَاقِيَّةِ مُطَبَّقَةً عَلَى اسْتِعْمَالِ الكَلِمَاتِ. وَسَنَبْدَأُ أَوَّلًا بِمُرَاعَاةِ جَانِبِ المُسْتَمِعِ، ثُمَّ نَعْرِجُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَا هُوَ أَصْعَبُ وَهُوَ المُتَكَلِّمُ. فِيمَا يُمَثِّلُ خَطْوَةً تَمْهِيدِيَّةً لِأَيِّ فَهْمٍ لِلكَلِمَاتِ امْتِلَانًا بِالضَّرُورَةِ نَوْعًا بَسِيطًا جَدًّا مِنَ التَّأْوِيلِ يُمْكِنُ أَنْ نَدْعُوهُ تَمْيِيزًا جَسِيًّا، أَوْ إِدْرَاكًا جَسِيًّا. وَفِي هَذَا المُسْتَوَى⁽¹⁾ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّا نُمَيِّزُ بَعْضَ الأصْوَاتِ مِنْ بَعْضِ

(1) يُقَالُ عَنْ عَمَلِيَّةِ تَأْوِيلِيَّةٍ مَا إِنَّهَا فِي مُسْتَوَى أَعْلَى مِنْ عَمَلِيَّةٍ أُخْرَى حِينَ يَنْطَلُبُ حُدُودُهَا أَنْ يَكُونَ مُسَبَّوقًا بِحَدُوثٍ أُخْرَى (يُنْظَرُ الفَصْلُ الخَامِسُ، القَانُونُ الثَّالِثُ مِنْهُ). وَأَنْ يُقَالَ عَنْ المُسْتَوَى إِنَّهُ أَعْلَى أَوْ أَدْنَى مَسَالَةً غَيْرَ مَادِّيَّةٍ. وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ مِنَ البَحْثِ سَنَعُدُّهُ مُسْتَوَى أَعْلَى.

بوصفها أصواتاً (المسألة التي يكون فيها ما يُمَيِّزُ حَرَكََةً لأعضاء النطق، أو صورة لها أو لصوت ما، منظرَةً لذلك تماماً)، وبذلك نكون هنا مؤولينَ لعلامة أولية. ومن الواضح أن لا استعمال للكلمات مُمكنًا ما لم يُمَيِّزُ صوتٌ من آخر أو صورة من أخرى، على نحوٍ واعٍ أو غيرٍ واعٍ. وعادةً ما يكون التمييز [209] غيرٍ واعٍ؛ فاستعمال الكلمات عندنا يجري على مُقتضى العادة، على أنه يُمكنُ أن يُصيحَ وإعياً، كما يحدثُ عند تعلُّم لغةٍ أجنبية. ومن الفروق الأساسية أيضاً بين الشعر والنثر العلمي الصارم أنه يجِبُ علينا في الشعر أن نلتفتَ بِوعِي إلى الخصائص الحسية للكلمات، أما في النثر فلا يلزمنّا ذلك. على أن هذا الانتباه الواعي إلى الكلمات بوصفها أصواتاً يُفضي إلى تعويقِ تأويلاتنا الأخرى.

أما المرحلة التَّأويلية التي تلي ذلك فتتعلّقنا من مُجرّد تمييز العلامة الأولى بوصفها صوتاً من نوعٍ مُعيّنٍ إلى تمييزها بوصفها كلمة. ومَرَدُّ هذا التَّغْيِيرِ إلى تَغْيِيرٍ في السياق السايكولوجي للعلامة. ويُقتضي تمييز العلامة بوصفها صوتاً له خصيصة مُميّزة سباقاً بِشتمَلٍ على العلامة وعلى إحساسات صوتية ماضية أخرى تُشبهها سبهاً يَقلُّ ويَكثرُ. أما تمييزها بوصفها كلمة فيقتضي أن تُشكّلَ سياقاً مع تجاربٍ أخرى⁽²⁾ سوى الأصوات. وما زالَ علينا أن نتنبّهَ تجريبياً من الأسلوب المُحدّد الذي ننتهجه عند أولِ معرفةٍ لنا أنّ ثمةَ كلمات، أو اتّخاذنا من بعض الأصوات دُونَ غيرها كلمات، لكن حين نكون أطفالاً لا نُنجِزُ هذه الخطوة بِتخميننا فوراً أنّ الناسَ يتحدّثون إلينا. فقد طَوَّزنا، قبلَ زَمَنٍ طويلٍ من قُدرة هذا الحدس على أن يُصيحَ مُمكنًا، لغةً واسعةً ذاتَ خصوصيةٍ من خلال حقيقة أن أصواتاً مُعيّنة قد جاءت في سياقاتٍ بِتجاربٍ أخرى مُعيّنة على نحوٍ يكون معه حدوثُ الصوت علامةً تُؤوّلها استجابةً مُشابهةً للاستجابة التي تَسثيرها التجربة المُترابطة الأخرى. هذا التأويل يُمكنُ أن يكونَ أيضاً وإعياً أو غيرٍ واعٍ. وفي العادة يكون غيرٍ واعٍ، لكنّه يعودُ فيمِلُّ إلى أن يُصيحَ وإعياً في حالٍ ظهور

(2) آتينا هنا بلفظ عامٍ لِيشمَلِ الإحساسات، والصُورَ، والمشاعرَ، وما إليها، ورُبّما التعديلات غير الواعية لحالتنا الذهنية.

صُعوبَةٍ مَا. وَحِينَ نَفَهُمْ بِسُهُولَةٍ فَعَادَةً مَا نَكُونُ أَقْلًا وَعَيْنًا لِلْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ مَتَا حِينَ يُفَحِّصُ تَأْوِيلُنَا مِنْ خِلَالِ عَدَمِ اعْتِيَادِيَّةِ الْأُسْلُوبِ أَوْ غَرَابَةِ الْمَرْجِعِ.

ولهذه الاعتبارات أهميَّتها في مجالِ التَّعْلِيمِ. [210] إذ يَبْدُو الكثيرُ مِنَ الْأَطْفَالِ أَغْبَى مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَبَبِ سُوءِ تَأْوِيلِهِمْ لِلْكَلِمَاتِ بَلْ بِسَبَبِ إِخْفَائِهِمْ فِي تَمْيِيزِهَا أَوَّلًا بِوَصْفِهَا أَصَوَاتًا، وَكَذَلِكَ يَتَفَاوَتُ الْبَالِغُونَ تَفَاوُتًا كَبِيرًا فِي قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَمْيِيزِ الْأَصْوَاتِ الْمَفْظُوعَةِ حِينَ يُتَكَلَّمُ بِسُرْعَةٍ أَوْ بِلُكْنَةٍ؛ فَهَذِهِ الْقُدْرَةُ تُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي سُهُولَةِ اكْتِسَابِ اللُّغَاتِ.

وَبِمُتَمْيِيزِ الصَّوْتِ بِوَصْفِهِ كَلِمَةً تَبْدُو أَهْمِيَّةُ التَّمْيِيزِ السَّابِقِ لِلصَّوْتِ وَقَدْ تَقَلَّصَتْ. عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ مَا يَحْدُثُ بِالْفِعْلِ. صَحِيحٌ أَنَّ بِمَقْدُورِنَا تَمْيِيزَ كَلِمَةٍ مَا سِوَاءِ أَنْطَقْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ أَمْ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ، بِسُرْعَةٍ أَمْ بِطَوٍّ، بِنَغْمَةٍ صَاعِدَةٍ أَمْ بِنَغْمَةٍ هَابِطَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا. لَكِنْ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ اخْتِلَافٍ فِي نَطْقَيْنِ لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ بِوَصْفِهَا صَوْتَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ لَهُمَا مَعَ ذَلِكَ خَصِيصَةً مُشْتَرَكَةً⁽³⁾، وَإِلَّا مَا اسْتَطَعْنَا تَمْيِيزُهُمَا بِوَصْفِهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً. وَبِمُقْتَضَى هَذِهِ الْخَصِيصَةِ وَخَذَهَا يَكُونُ الصَّوْتَانِ فِي سِيَاقَيْنِ سَايَكُولُوجِيَّيْنِ مُتَشَابِهَيْنِ وَمِنْ ثَمَّ يُؤَوَّلَانِ عَلَى نَحْوِ مُتَشَابِهٍ. وَقَدْ نَكُونُ غَيْرَ قَادِرَيْنِ عَلَى تَبْيِينِ هَذِهِ الْخَصِيصَةِ الْمُشْتَرَكَةِ عَلَى نَحْوِ وَاعٍ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُثِيرَ اسْتِغْرَابَنَا. إِذْ يَبْدُو مَقْبُولًا، فِي الْعُمُومِ، أَنْ يُفْتَرَضَ أَنَّ مَرَاجِلَ التَّأْوِيلِ الَّتِي هِيَ أَبْسَطُ تَجَنُّحُ إِلَى التَّسْلُلِ خَارِجَ الْوَعْيِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنَشَأُ فِيهِ عَنْهَا تَطَوُّرَاتٌ أَكْثَرُ تَفْصِيلًا، عَلَى أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ بِنَجَاحٍ وَبُسْرٍ. وَإِنَّ الصُّعُوبَةَ أَوْ الْإِخْفَاقَ فِي أَيِّ مُسْتَوَى لِلتَّأْوِيلِ لَيُؤَدِّي فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ إِلَى عَوْدَةٍ ظُهُورِ الْمُسْتَوَيَاتِ الدُّنْيَا عَلَى مَسَرِّحِ الْوَعْيِ، وَإِلَى نَوْعٍ مِنَ الْإِنْهَمَاكِ بِهَا كَثِيرًا مَا يَكُونُ حَالَةً مُنَاوَنَةً لِلتَّأْوِيلَاتِ الْعُلْيَا الَّتِي أَفْضَى عَدَمُ اسْتِقْرَارِهَا إِلَى ظُهُورِ تِلْكَ الْمُسْتَوَيَاتِ الدُّنْيَا.

(3) يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ هَذِهِ الْخَصَائِصَ التَّاسِييَّةَ لِلْسِّيَاقَاتِ قَدْ تَكُونُ بِصِغَةِ 'أَنْ نَكُونُ A'، أَوْ B، أَوْ C، أَوْ مَا إِلَيْهَا.

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى مُستوى فهم البسيط من الأسماء والعبارات، وفي الإمكان تسجيل مدى لا بأس به للإحالة وتوصيله بهذه الوسيلة وحدها. وهذا النمط البسيط من الأنظمة الرمزية يكون كافياً في حالة المراجع البسيطة أو تجمعات المراجع البسيطة، لكنه يُخفق فوراً في حالة المراجع المعقدة، [211] أو مجموعات المراجع التي لها بنية أكثر تعقيداً من مجرد الاجتماع معاً. فمن أجل أن يُرمز إلى إحالات على مثل هذه المراجع المعقدة لا بُد من توافر رموز معقدة لها بنى متخصصة، مع أنه لا يبدو ضرورياً أن يعكس الرمز تعقيد المرجع أو أن يناظره على نحو وثيق جداً. وقد يكون هذا الناظر أوثق في اللغات البدائية. أما في اللغات المتطورة تطوّراً كبيراً فتكون الوسائل التي تتكوّن بها الرموز، أي التي تكتسب بها بنيتها بوصفها رموزاً، متعددة ومتنوعة. فقد تُعطى الرموز المعقدة التي لها المرجع نفسه أشكالاً بديلة حتى في حال عدم تغيير الرموز البسيطة المتضمنة، أي الأسماء names. إن دراسة هذه الأشكال قسم من أقسام النحو، لكن إن أريد أن تكون دراستها مثمرة فلا بُد من أن تولّى المشكلات السايكولوجية قدرًا من الاهتمام الحقيقي ومن الوعي أكبر مما اعتاد النحويون أن يتوفروا عليه.

ويمكننا الآن أن ننظر قليلاً في حالات أسهل لهذه الرموز المعقدة. ولنبدأ بحالة التضاد بين أسماء الأعلام والعبارات الوصفية. فقد رأينا أنّ الإحالات الخاصة تقتضي سياقات شكلها أبسط كثيراً من شكلها في الإحالات العامة، وأن فهم أية عبارة وصفية يقتضي سياقاً شكله أكثر تعقيداً. فمن أجل استعمال رمز مثل اسم لشخص - ولنذعه توماس Thomas - لا نحتاج إلا إلى أن يكون الاسم في سياق تجارب توماسية. وعادة ما يكون القليل من هذه التجارب كافياً لتأسيس هذا الاقتراح؛ ذلك بأن كل واحدة من هذه التجارب ستكون عوناً على تكوين السياق؛ إذ يندر أن نلقى أحداً ممن نعرف من غير أن نعلم أن له اسماً وحقيقة اسمه. وبالضد من ذلك حالة فهم اسم وصفي مثل 'أقربائي'؛ إذ إن التجارب المطلوبة هنا لن تكون واحدة في كل الحالات. فتارة يظهر الجد، وتارة أخرى تقدّم ابنه الأخ نفسها، لكن صلتها بنا لا تكون في جميع المناسبات سمة مهيمنة

بأية درجة، ولا [212] الصلة التي يوافقان على حملها للحفيد أو العم على التوالي علاقة واضحة. وهكذا، فإن وجود مدى من التجارب التي تختلف إحداها عن الأخرى اختلافاً كبيراً ضروري إذا ما أريد للسباق المطلوب أن يبنى.

وكلمة 'أقرباء'، في حقيقتها، إنما هي تجريد، بمعنى أن الإحالة التي ترمز إليها لا يمكن تكوينها ببساطة ومباشرة بواسطة تجمع واحد للتجارب، ولكنها نتيجة لتجمعات مختلفة من التجارب التي يمكن اختلاطها بنفسها عناصرها المشتركة من البقاء في عزلة. وعادة ما تكون عملية الانتخاب والإقصاء هذه فعالة في اكتساب المفردات وتطوير الفكر. ويندر أن تتكون الكلمات مباشرة في سياقات بتجريبية غير رمزية؛ فقد جرت العادة بأنها لا تتعلم إلا من خلال كلمات أخرى. فحينئذ تبدأ باستعمال اللغة مبكراً من أجل أن نتعلم اللغة، لكن لما كان الأمر لا يقتصر على اكتساب المترادفات أو التعبيرات البديلة كان مما هو مطلوب التشديد نفسه على التشابهات بين الحالات، واستبعاد اختلافاتها بسبب التعارض. بهذه الوسيلة نستطيع تطوير إحالات أكثر وأكثر تجريدية، وتغدو الاستعارة، وهي الترميز الأولي للتجريد، ممكنة. فالاستعارة، بمعناها العام جداً، هي استعمال إحالة واحدة لمجموعة أشياء بينها علاقة معطاة، من أجل تيسير تمييز علاقة مشابهة في مجموعة أخرى⁽⁴⁾. وفي تأويل اللغة الاستعارية يقال إن إحالة ما تستعير جزءاً من سياق إحالة أخرى في شكل تجريدي.

وثمة طريقتان يمكن أن تستولي بهما إحالة ما على جزء من سياق إحالة أخرى. إذ قد تُقرن إحالة على رَجُلٍ بإحالة على بحرٍ، لِنَشَأَ إحالة على مَلَايِينٍ. ولا تتطوي هذه الحالة على أية استعارة. أما حين نُعِدُّ العُدَّةَ، مِن جِهَةِ أُخْرَى، لِمُوَاجَهَةِ بَحْرِ مِنَ الْمُسْكِلَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْجُزْءَ مِنْ سِيَاقِ [213] الإحالة على البحر المقرون بسائر الإحالات يظهر في شكل تجريدي، أي إن خصائص البحر

(4) للوقوف على أشكال أخرى للاستعارة يُنظرُ كتابُ مبادئ النقد الأدبي *Principles of Literary Criticism*، الفصل الثاني والثلاثون.

ذَوَاتِ الصَّلَةِ لَا تَتَضَمَّنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ انْجِدَابُهُ نَحْوَ الْقَمَرِ⁽⁵⁾، أَوْ كَوْنُهُ مَلَاذًا لِلْأَسْمَاكِ. وَتَعْتَمِدُ الْقِيَمَةُ الشَّعْرِيَّةُ لِلْاسْتِعَارَةِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ بِهَا الْاسْتِمْرَارِيَّةُ الَّتِي لَا انْقِطَاعَ لَهَا لِلْأَمْوَاجِ الْإِحْسَاسِ بِالْبَاسِ الْحَاضِرِ سَلَفًا - كَمَا نَظْهَرُ ذَلِكَ جَيِّدًا أُسْطُورَةَ كُوتَشُولَيْنِ Cuchulain⁽⁶⁾.

وَالْحَقُّ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْاسْتِعَارَةِ يَسْتَلْزِمُ النَّوْعَ نَفْسَهُ مِنَ السِّيَاقَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُهَا الْفِكْرَةُ الْمُجَرَّدَةُ، وَالنَّقْطَةُ الْمُهِمَّةُ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْأَعْضَاءَ لَا تَمْتَلِكُ إِلَّا السَّمَةَ الْمُشْتَرَكَةَ ذَاتِ الصَّلَةِ، وَأَنَّ السَّمَاتِ غَيْرَ ذَوَاتِ الصَّلَةِ أَوْ الْعَرَضِيَّةُ يَنْفِي بَعْضُهَا بَعْضًا. وَكُلُّ اسْتِعْمَالٍ لِلصِّفَاتِ، وَحُرُوفِ الْجَرِّ، وَالْأَفْعَالِ، وَمَا إِلَيْهَا، يَعْتَمِدُ عَلَى هَذَا الْمَبْدِإِ. وَحُرُوفُ الْجَرِّ مُثْبِتَةٌ لِلْإِهْتِمَامِ عَلَى نَحْوِ مُمَيِّزٍ؛ فَأَنْوَاعُ السِّيَاقَاتِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَاضِحَةٌ الْاِخْتِلَافِ فِي نِطَاقِ الْأَعْضَاءِ وَتَنَوُّعِهَا. فَـ'داخل' 'inside' و'خارج' 'outside'، عَلَى مَا يَبْدُو، يَنْطَوِيَانِ عَلَى أَقْلٍ تَغْفِيدٍ فِي السِّيَاقِ، وَمِنْ ثَمَّ،

(5) الْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى مَا يَحْدُثُ فِي ظَاهِرَتِي الْمَدِّ وَالْجَزْرِ، وَهُمَا ظَاهِرَتَانِ طَبِيعَتَانِ تَحْدَثَانِ لِمَيَاةِ الْمُحِيطَاتِ وَالْبَحَارِ بِتَأْثِيرٍ مِنَ الْقَمَرِ؛ فَالْمَدُّ هُوَ الارتفاعُ الْوَقْتِي التدرُّجِي فِي مَنْسُوبِ مَيَاةِ سَطْحِ الْمَحِيطِ أَوْ الْبَحْرِ؛ وَالْجَزْرُ هُوَ الْانْخِفَاضُ الْوَقْتِي التدرُّجِي فِي مَنْسُوبِ مَيَاةِ سَطْحِ الْمَحِيطِ أَوْ الْبَحْرِ. وَتَنْشَأُ حَرَكَةُ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ بِفِعْلِ جَذْبِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِمَيَاةِ الْبَحَارِ وَالْمَحِيطَاتِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْقَمَرُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ كَانَتْ جَازِبَتُهُ أَكْبَرَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ حَجْمِهِ. وَثَمَّةُ عَامِلٌ آخَرُ يُسَهِّمُ فِي حُدُوثِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ هُوَ قُوَّةُ الظُّرُودِ الْمَرْكَزِيَّةِ الَّتِي يُسَبِّحُهَا دَوْرَانُ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا. [الْمُتَرْجِمُ]

(6) كُوتَشُولَيْنِ: بَطْلٌ مِنْ أَبْطَالِ الْأَسَاطِيرِ وَالْحِكَايَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الْإِيرْلَنْدِيَّةِ، وَهُوَ الشَّخْصِيَّةُ الرَّئِيسَةُ فِي مِلْحَمَةٍ قَطِيعِ كُولِي، وَهِيَ أَقْدَمُ مِلْحَمَةٍ تُكْتَبُ بِلُغَةِ قَوْمِيَّةٍ فِي غَرْبِ أَوْرَبَا. وَقَدْ نَمَتْ شَهْرَةُ كُوتَشُولَيْنِ فِي الْحِكَايَاتِ الشَّعْبِيَّةِ الْإِيرْلَنْدِيَّةِ وَرَاجَتْ حَتَّى صَارَ يُحْكَى عَنْهُ بِوَصْفِهِ مُدَافِعًا عَنْ إِيرْلَنْدَا كُلِّهَا. وَتَرْغُمُ الْأُسْطُورَةُ أَنَّ كُوتَشُولَيْنِ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ لِأَنَّهُ وَالِدُهُ لَوْ كَانَ إِلَهًا مِثْلَهُمَا مِنْ آلِهَةِ السَّلْتِينِ. وَأُطْلِقَ عَلَى كُوتَشُولَيْنِ هَذَا الْأَسْمَ، وَمَعْنَاهُ كَلْبٌ، لِأَنَّهُ عَرَضَ أَنْ يَحِلَّ مَحَلَّ كَلْبٍ جَرَّاسَةٍ شَرِسٍ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ فِي مَنْزِلِ كُولَان. وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَوْغِيدِن وَرِثَارْدَزْ بِمِصْدَاقِهِ مَا وَرَدَ فِي نَصِّ الْأُسْطُورَةِ مِنْ أَنَّ كُوتَشُولَيْنِ صَارَعَ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لِيَلْبَاهَا، إِلَى أَنْ سَقَطَ آخِرًا مِنْ قَرَطِ الْجُوعِ وَالتَّعَبِ، حَتَّى قِيلَ إِنَّهُ لَقِيَ حَتْفَهُ هُنَاكَ. [الْمُتَرْجِمُ]

على ما هو متوقَّع، يسهل الاحتفاظ بهما في حالات اضطراب وظائف الكلام. إن الجوانب الاستيعابية في القسم الأعظم من اللغة، والسلاسة التي يمكن أن تستعمل بها أية كلمة على نحو استيعابي، تمثل إشارة أخرى إلى الدرَجَة التي اكتسبت بها الكلمات سياقات من خلال كلمات أخرى، ولا سيما لدى الأشخاص المتعلمين. ومن جهة أخرى، فالذين هم غاية في البساطة ممن تكون مفرداتهم قليلة وجسيّة يقرَّبون إلى حدٍّ ما مما عرض آنفاً (ص325)؛ إذ إن القسم الأعظم من كلماتهم مكتسب على نحو طبيعي بارتباط مباشر بالتجربة. وكان لثباتهم على الدوام الكثير من خصائص أسماء الأعلام. وإلى ذلك تُعزى جزئياً سلامتهم النسبية من التخليلات، على أنه يُعزى إليه أيضاً موقفهم الساذج أو السحري من الكلمات. ومثل هؤلاء المستعملين للغة يمكن أن يقال عنهم إنهم تحت المستوى الذي يصبح فيه التخليط ممكناً، وهو الضريبة التي ندفعها لما نمتلكه من قدرٍ على التجريد.

في كلِّ ما قلناه حتى الآن كُنَّا نتعامل أساساً [214] مع المستمع، الذي يؤوِّل الرموز كما تقدَّم له. فعلينا بعد أن نفحص العمليات التي تُرمز بواسطتها الإحالات عند نشونها لدى المتكلم. وهذه الحالة مُعاكسة في بعض جوانبها للحالة السابقة، أمَّا في جوانب أخرى فما يحدث مختلف تماماً. فالكلمة لدى المستمع هي العلامة، ومن غيرها لا تحدث الإحالة المطلوبة. وقد تحدث لدى أنماط عقلية معينة عملية مماثلة تماماً عند المتكلم، مع اختلافٍ وحيد هو أنَّ الكلمات لا تُعطى من الخارج، بل تنشأ من خلال نوع من التسيب الداخلي. ففي هذه الحالة ليست ثمة عمليتان متميزتان، الإحالة والترميز، بل عملية واحدة فقط - الإحالة من خلال الرموز؛ فواقع الحال هو أنَّ الإحالة محكومة بالرمز.

على أنَّ الرمز يبدو عند معظم المفكرين أقلَّ جوهرية من الإحالة. فقد يستغنى عنه، ويُغيَّر في حدود معينة، وهو تابع للإحالة التي هو رمز لها. فالرمز عند هؤلاء، أي الفينة الاعتيادية، لا يكون جزءاً من السياق السايكولوجي الذي تتطلبه الإحالة إلا أحياناً. ولا شكَّ لدينا جميعاً في أنَّ ثمة إحالات لا يمكننا إنشاؤها إلا بالاستعانة بالكلمات، أي بالسياقات التي تكون الكلمات أعضاء

فيها، لكنَّ هذه قد تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأنماطِ الْعَقْلِيَّةِ لِلنَّاسِ وَمُسْتَوَيَاتِهَا، بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ لَيَصْدُقُ عَلَى الْفَرْدِ الْوَاحِدِ؛ إِذْ إِنَّ إِحَالَتَهُ الَّتِي قَدْ يَكُونُ فِي وَسْعِهَا الْاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْكَلِمَةِ فِي إِحْدَى الْمُنَاسَبَاتِ رَبُّمَا تَعَوَّدُ فَتَحْتَاجُ هِيَ نَفْسُهَا إِلَيْهَا، عَلَى نَحْوِ يَسْتَحِيلُ مَعَهُ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْهَا، فِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى. فَبِاخْتِلَافِ الْمُنَاسَبَاتِ قَدْ تَخْتَلِفُ السِّيَاقَاتُ الْمُحَدَّدَةُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالإِحَالَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ اخْتِلَافًا كَبِيرًا. وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ الإِحَالَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ فِيهِمَا مِنَ الشُّبْهِ فِي الْأَسَاسِيَّاتِ مَا يَكْفِي لِعَدِّهِمَا مُتَمَاثِلَتَيْنِ لِلْأَغْرَاضِ الْعَمَلِيَّةِ، قَدْ تَكُونَانِ مَعَ ذَلِكَ مُخْتَلِفَتَيْنِ اخْتِلَافًا كَبِيرًا جِدًّا فِي السَّمَاتِ الثَّانَوِيَّةِ. وَقَدْ تَتَضَمَّنُ السِّيَاقَاتُ الْفَعَالَةُ الْمَزِيدُ مِنَ الْأَعْضَاءِ الزَّائِدَةِ عَلَى الْعَدَدِ الْمُقَرَّرِ. غَيْرَ أَنَّ أَيًّا مِنْ هَذِهِ السَّمَاتِ الثَّانَوِيَّةِ قَدْ تُصْبِحُ عُضْصًا أَسَاسِيًّا بِدَلَالَةٍ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُجَرَّدَ حَالَةٍ تَكْمِيلِيَّةٍ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَغْيِيرٍ فِي السِّيَاقَاتِ الْمُوسَّعَةِ وَالَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا هَذِهِ السِّيَاقَاتُ الْمُضَيِّقَةُ. وَيَبْدُو أَنَّ حَدُوثَ هَذَا يَكُونُ [215] عِنْدَ التَّحْوِيلِ مِنَ حَالَةِ الْحُرِّيَّةِ الْكَلِمِيَّةِ، حِينَ لَا تَكُونُ الْكَلِمَةُ عُضْوًا أَسَاسِيًّا فِي سِيَاقِ الإِحَالَةِ، إِلَى حَالَةِ التَّعَيُّنِ الْكَلِمِيَّةِ، حِينَ تَكُونُ الْكَلِمَةُ كَذَلِكَ.

إِنَّ النَّتَاجَ الْعَمَلِيَّةَ لِهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، وَبَيْنَ الْمُنَاسَبَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْفَرْدِ الْوَاحِدِ، مُهِمَّةٌ. وَفِي النِّقَاشِ عَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بِاسْتِمْرَارٍ بَيْنَ الَّذِينَ لَيْسَتْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَعْدِيلِ مُفْرَدَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفْسِدُوا إِحَالَاتِهِمْ إِسْأَادًا شَامِلًا، وَالَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ حُرِّيَّةَ تَنْوِيعِ رُمُوزِهِمْ لِثَلَاثَةِ الْمُنَاسَبَةِ الْمَعْنِيَّةِ. وَفِي جَمِيعِ مُسْتَوَيَاتِ الْأَدَاءِ الْعَقْلِيِّ نَجِدُ أَشْخَاصًا يَفْهَمُونَ أَيَّ اقْتِرَاحٍ مُقَدَّمٍ لَهُمْ لِتَغْيِيرِ رُمُوزِهِمْ عَلَى أَنَّهُ اقْتِرَاحٌ لِلْإِرْتِدَادِ عَنْ اعْتِقَادَاتِهِمْ. فَاخْتِلَافُ الْقَوْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي اخْتِلَافَ التَّفْكِيرِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ كَلِمَاتِهِمْ أَعْضَاءَ أَسَاسِيَّةٍ فِي سِيَاقَاتِ إِحَالَاتِهِمْ. أَمَّا الَّذِينَ هُمْ لَيْسُوا مُقَيَّدِينَ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ بِرُمُوزِهِمْ فَإِنَّ هَذَا الْعَجْزَ عَنِ التَّخَلِّيِ الْحَالِيِّ عَنْ أَسَالِبِ التَّعْبِيرِ الْمُفَضَّلَةِ كَثِيرًا مَا يَبْدُو لَهُمْ غَبَاءٌ مُتَمَرِّكًا مُتَمَيِّزًا⁽⁷⁾. لَكِنَّهُ لَا يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلَى وَجْهَةٍ نَظَرٍ فَجَّةٍ وَخُرَافِيَّةٍ بِشَأْنِ عِلَاقَاتِ الْكَلِمَاتِ بِالْأَشْيَاءِ؛ إِذْ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ

(7) وَلَا يَتَبَنَّى أَنْ يُخَلِّطَ عَلَيْنَا بِعِنَادٍ ذَوِي الصُّفَةِ الرَّسْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِي غَالِبًا مَا يُقَدَّمُ بِصِغَةِ تَصْلُبٍ لِنَظَرِيٍّ، كَمَا فِي جِكَايَةِ الرُّنْجِي الَّتِي اعْتَادَ يِيرِسُ C. S. Peirce أَنْ يَقْصُهَا، وَالَّتِي =

مُسْتَعْدَيْنَ لإدراك أن مثل هذا التقيّد بكلماتٍ خاصّةٍ كما لو أنّ لها مَرِيَّةً مُطْلَقَةً وِطْلَسِيَّةً قد يَكُونُ مِنْ أَعْرَاضِ أَنَّ الْكَلِمَةَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ جُزْءٌ ضَرُورِيٌّ مِنْ سِيَاقِ الْإِحَالَةِ؛ إِمَّا لِأَنَّهَا كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ نُشُوءِ الْإِحَالَةِ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْعَلَامَاتِ غَيْرَ اللَّفْظِيَّةِ لَا تَكْفِي وَحْدَهَا لِتَقَادِي التَّخْلِيْطِ. مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، قَدْ يَكُونُ الْاسْتِعْدَادُ الْكَبِيرُ جَدًّا لَا اسْتِعْمَالِ أَيْ رَمَزٍ مُقْتَرَحٍ أَوْ كُلِّ رَمَزٍ مُقْتَرَحٍ [216] مِنْ أَعْرَاضِ الْقُدْرَةِ الضَّعِيفَةِ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْإِحَالَاتِ، بِمَا يُوحِي إِلَى الْمُتَابِعِ بِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يُنْشِئُ آيَةً إِحَالَةً ثَابِتَةً الْبَتَّةَ.

غَيْرَ أَنَّ عِلْمَ أَعْرَاضِ السُّلُوكِ اللَّغَوِيِّ عِلْمٌ مُعَقَّدٌ، وَلَا يُمَكِّنُ الْوُثُوقُ إِلَّا قَلِيلًا بِالمُشَاهَدَاتِ الَّتِي لَا يَتَيَسَّرُ التَّثَبُّتُ مِنْهَا بِمَعْرِفَةٍ وَاسِعَةٍ لِلسُّلُوكِ الْعَامِّ لِلْمَوْضُوعِ الْخَاصِّ لِلِاخْتِيَارِ. وَمَا عَرَضْنَا هَذِهِ الْأَمَثِلَةَ هُنَا إِلَّا لِتُشِيرَ إِلَى نَوْعِ الْعَمَلِ الَّذِي مَا زَالَ أَدَاؤُهُ ضَرُورِيًّا. إِنَّهُ ذَلِكَ النَّوْعُ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يُؤَدِّيهِ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ بِنَجَاحٍ كَبِيرٍ عَلَى نَحْوِ طَبِيعِيٍّ؛ إِذْ إِنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَحْكُمُونَ قَوْرًا عَلَى مُتَكَلِّمٍ مَا: أَجْدِيرُ هُوَ بِأَنْ يُصْعَى إِلَيْهِ؛ مِنْ مُجَرَّدِ مُرَاقَبَةِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَنْطَلِقُ بِهَا الْكَلِمَاتُ مِنْ قِمِهِ، وَبِصَرْفِ النَّظَرِ تَمَامًا عَنِ الْكَلِمَاتِ الْمَخْصُوصَةِ. وَدِرَاسَةُ سُلُوكِيَّاتِ السِّيَاسِيِّينَ وَالْوُعَاظِ مُفِيدَةٌ، عَلَى آيَةٍ حَالٍ، بِوَصْفِهَا تَدْقِيقًا لِلِاسْتِنَاجَاتِ الْمُتَعَجَّلَةِ جَدًّا. وَمِمَّا يُطَلَّبُ عَلَى الدَّوَامِ، عُمُومًا، تَمْيِيزُ الَّذِينَ تَحْكُمُ إِحَالَاتُهُمْ رُمُوزُهُمْ مِنَ الَّذِينَ تَحْكُمُ رُمُوزُهُمْ إِحَالَاتِهِمْ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ آيَفَا مِنْ أَنَّ حَالَتِي الْاسْتِقْلَالِيَّةَ الْكَلِمِيَّةَ وَالتَّبَعِيَّةَ الْكَلِمِيَّةَ، عَلَى مَا قَدْ تَسَمَّيَانِ بِهِ، يَنْدُرُ أَنْ تُوجَدَ

= جاء فيها: "تَعْلَمِينَ يَا مَاسَا أَنَّ الْجَنَرَالَ وَاشْنَطْنَ وَالْجَنَرَالَ جَاكْسْنَ كَانَا صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ. فَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ الْجَنَرَالَ وَاشْنَطْنَ لِلْجَنَرَالَ جَاكْسْنَ: 'كَمْ كَانَ يَبْلُغُ طُولُ جِصَانِي فِي ذَلِكَ يَا جَنَرَال؟'. فَقَالَ الْجَنَرَالَ جَاكْسْنَ: 'لَا عِلْمَ لِي يَا جَنَرَال. كَمْ طَوْلُهُ أَيُّهَا الْجَنَرَال؟'. فَقَالَ الْجَنَرَالَ وَاشْنَطْنَ: 'طَوْلُهُ سِتَّةَ عَشَرَ قَدَمًا'. فَقَالَ الْجَنَرَالَ جَاكْسْنَ: 'قَدَمًا) يَا جَنَرَال؟ (قَدَمًا) يَا جَنَرَال؟ لَا بُدَّ أَنَّكَ تَقْصِدُ (يَدًا) يَا جَنَرَال'. فَتَسَاءَلَ الْجَنَرَالَ وَاشْنَطْنَ قَائِلًا: 'هَلْ قُلْتُ (قَدَمًا) يَا جَنَرَال؟ هَلْ تَقْصِدُ أَنْ تَقُولَ إِنِّي قُلْتُ إِنَّ طَوْلَ جِصَانِي كَانَ سِتَّةَ عَشَرَ قَدَمًا؟ لَكِنْ إِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ (قَدَمًا)، إِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ (قَدَمًا)، فَإِنِّي مُتَسَكِّتٌ بِقَوْلِي هَذَا'."

إحداهما معزولة عن الأخرى، وأنَّ مُعْظَمَ الْمُتَكَلِّمِينَ يَتَحَوَّلُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى. وعلى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الصُّعُوبَةِ الْعَمَلِيَّةِ يُمَثَّلُ تَمَيُّزُ التَّبَعِيَّةِ الْكَلِمِيَّةِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ الْكَلِمِيَّةِ إِحْدَى نِقَاطِ الْإِنْطِلَاقِ فِي الْبَحْثِ اللَّغَوِيِّ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ أَعْرَاضَ الْكَلَامِ الْهَرَانِيَّ، أَوِ اللَّغْوِ، أَوِ الْبَيِّنَاتِيَّةِ psittacism أَوْ أَيُّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ أَنْ نَخْتَارَ أَنْ نُظَلِّقَ عَلَيْهِ اسْمَ الْمَرَضِ الْمُذْمَرِّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ مَا يُعَانِيهِ الْكَثِيرُ جِدًّا مِنْ فَعَالِيَةِ النَّاسِ التَّوَاصُلِيَّةِ، مُخْتَلِفَةً تَمَامًا فِي الْحَالَتَيْنِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ نَمَّةً تَمَيُّزُ فَإِنَّهَا تَكُونُ مُتَعَارِضَةً وَمُلبِسةً. وَمُعْظَمُ الْكُتَّابِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ سَدَفَعَهُمْ تَجَرِبَتُهُمُ الشَّخْصِيَّةُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِأَنَّ كَلَامَهُمْ فِي مُنَاسَبَاتٍ مُعَيَّنَةٍ يَخْرُجُ بَطْنًا وَثَقِيلًا وَمُؤَنَّرًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ إِذَا مَا كَانُوا فِي حَالَةٍ تَبَعِيَّةٍ كَلِمِيَّةٍ فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ الصَّرُورِيَّةَ الَّتِي لَا يَحْدُثُ أَيُّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ وُجُودِهَا تَحْدُثُ بِطَوِّهِ وَيَجِبُ انْتِظَارُهَا، فِي حِينٍ أَنَّ الْكَلِمَاتِ فِي مُنَاسَبَاتٍ أُخْرَى تَنُتَالُ انْتِشَالًا بِأَلْسِنَةٍ نَفْسِيَّةٍ؛ إِذْ إِنْ كَوْنُ الْكُتَّابِ أَوْ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي حَالَةٍ تَحَرُّرٍ كَلِمِيٍّ حِينِئِذٍ [217] يَجْعَلُهُمْ يَخْتَارُونَ أَكْثَرَ رَمَزِيَّاتِهِمْ مُلَاءَمَةً لِلْإِحَالَةِ وَلِلْمُنَاسَبَةِ، مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ مِنَ الْحَسِمِيَّةِ فِي التَّعْبِيرِ.

وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ التَّعَسُّفُ فِي تَعْيِينِ أَيِّ مِنْ هَاتَيْنِ الْعَمَلِيَّتَيْنِ الْكَلَامِيَّتَيْنِ عَلَى أَنَّهَا الْعَمَلِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الصَّحِيحَةُ أَوْ الْمُلَائِمَةُ. فَالتَّبَعِيَّةُ الْكَلِمِيَّةُ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يَجِبُ أَلَّا تُسَاوَى بِالْبَيِّنَاتِيَّةِ الْبَنَّةِ، أَوْ أَنْ تُعَدَّ بِالصَّرُورَةِ سَائِرَةً فِي انْتِجَاجِهَا. فَالْبَيِّنَاتِيَّةُ اسْتِعْمَالُ الْكَلِمَاتِ مِنْ غَيْرِ إِحَالَةٍ، وَفِكْرُهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ صَرُورِيَّةٌ لِلْإِحَالَةِ، عَلَى مَا يُلْحَظُ بِسُهُولَةٍ، لَيْسَتْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِشَارَةً إِلَى غِيَابِ الْإِحَالَةِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا مَا نَظَرْنَا فِي الْفَعَالِيَّاتِ الْأُخْرَى، كَتَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَرُكُوبِ الدَّرَاجَةِ، الَّتِي تُشَبِّهُ الْكَلَامَ فِي أَنَّهَا عَرْضَةٌ لِدَرَجَاتٍ ضَبْطٍ مُتَغَيِّرَةٍ، فَقَدْ نَجَدْنَا سَبَبًا لِلْحُكْمِ لِمَصْلَحَةِ إِجْرَاءِ كَلَامِيٍّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَزِيحًا مِنْ تَطَرُّفِي التَّبَعِيَّةِ الْكَلِمِيَّةِ وَالتَّحَرُّرِ الْكَلِمِيٍّ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الضَّبْطُ الْمُتَعَمَّدُ فِي أَقْصَى دَرَجَاتِهِ فِي مَوَاضِعَ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْمَقُولَاتِ الْجَادَّةِ، أَيْ إِنَّ السِّيَاقَ السَّيَاكُولُوجِيَّ الَّذِي تَكُونُ الْكَلِمَةُ مُلَائِمَةً فِيهِ وَالَّذِي تُعْزَى إِلَيْهِ الْإِحَالَةُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَضَمَّنَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَضَمَّنَهُ مِنْ تَنَوُّعِ الْأَعْضَاءِ. أَمَّا سَائِرُ التَّرْمِيزِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ لِتَوْجِيهِ الْأَنْظِمَةِ ذَاتِ السِّيَاقِ الصَّيْقَةِ الَّتِي تُدْعَى الْعَادَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، أَوْ آلِيَّاتِ الْكَلَامِ، أَوْ الْإِحْسَاسَاتِ اللَّغَوِيَّةِ.

وإنَّ عِلْمَ الأمراضِ لَيْسَلَطُ قَدْرًا لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ الضُّرِّ عَلَى اسْتِعْمَالِ الرُّمُوزِ، كما هِيَ الحالُّ عَلَى الدَّوامِ فِي البَحْثِ السَّايكولوجيِّ. وَيُمْكِنُ تَوَقُّعُ الكَثِيرِ مِنَ العَمَلِ الجاري الآنَّ عَلَى الحُبْسَةِ⁽⁸⁾.

وَمِنَ المُشِيرِ لِلاِهْتِمَامِ فِي هذِهِ الأَثْناءِ [218] النَّظَرُ فِي بَعْضِ الصُّعُوباتِ الَّتِي

(8) يُنْظَرُ بِخَاصَّةٍ: Henri Piéron, *Thought and the Brain*, (Int. Lib. Psych., 1926), Part

III., pp. 149-227, and Kinnier Wilson, *Aphasia (Psyche Miniatures)*, 1926

عَالَجًا الجَوَانِبَ الانْفِعَالِيَّةَ وَالرُّمُوزِيَّةَ مَعًا.

وَقَدْ مَيَّزَ الدُّكْتُورُ هنري هيد Henry Head أَرْبَعَةَ أَنْواعٍ مِنَ الاضطراباتِ الكلاميَّةِ، أُخِذَتْ أَسْمَاؤُهَا مِنْ "أَبْرَزْ غُيُوبِ اسْتِعْمَالِ الكَلِمَاتِ"، وَهِيَ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

(1) الحُبْسَةُ اللَّفْظِيَّةُ. "هِيَ، أَسَاسًا، اضطرابٌ فِي تَكْوِينِ الكَلِمَاتِ ... وَعِنْدَ عَوْدَةِ الكَلَامِ يُمَكِّنُ تَنْفِيزَ أَوَامِرَ مُقَدَّمَةٍ فِي كَلِمَاتٍ مَنْطُوقَةٍ أَوْ مَكْتُوبَةٍ، لَكِنَّ الأَوَامِرَ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ اسْتِدْعَاءَ كَلِمَةٍ مَّا أَوْ عِبَارَةٍ مَّا قَدْ تَنَفَّذَ عَلَى نَحْوِ سَبْعٍ".

(2) الحُبْسَةُ التَّخَوُّيَّةُ. فالمرِيضُ "يَعْمَلُ إِلَى التَّحَدُّثِ بِلُغَةٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ؛ إِذْ لَا يَقْتَصِرُ الأَمْرُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ عَلَى عَدَمِ اتِّزَانِ نُطْقِ الكَلِمَةِ، بَلْ يَكُونُ إيقَاعُ العِبَارَةِ مَعِيًا، وَيَكُونُ ثَمَّةُ نَقْصٍ فِي التَّماسِكِ التَّخَوُّيِّ ... وَمِنَ المُمَكِّنِ كِتَابَةَ الكَلِمَاتِ المُفَرَّدَةِ عَلَى نَحْوِ صَحِيحٍ، لَكِنَّ أَيْةَ مُحَاوَلَةٍ لِتَوْصِيلِ عِبَارَةٍ مَصْرُوعَةٍ سَتَكُونُ غَرَضَةً لَّان تَنْتَهِيَ بِالتَّخْلِيلِ".

(3) الحُبْسَةُ الأَسْمِيَّةُ. "هِيَ، فِي الأَسَاسِ، اسْتِعْمَالٌ مَعِيَبٌ لِلأَسْمَاءِ وَنَقْصٌ فِي اسْتِيعَابِ المَعْنَى الأَسْمِيِّ لِلْكَلِمَاتِ أَوْ الرُّمُوزِ الأُخْرَى". وَيَعْلَقُ الدُّكْتُورُ هيد بِهَذَا الصَّدَدِ بِقَوْلِهِ إِنَّ "فَصْلَ تَكْوِينِ الكَلِمَةِ عَنِ التَّنْسِيَةِ وَوُظَائِفِهَا المُتَّحِدَةِ مَعَهَا سِمَةً جَدِيدَةً تَمَامًا فِي تَصْنِيفِ الحُسْبَانِ". وَيَبْدُو هَذَا أَمْرًا غَيْرَ اعْتِيَادِيٍّ.

(4) الحُبْسَةُ الدَّلَالِيَّةُ. "فَالانْفِعَالُ يَنْطَوِي عَلَى عَوَازٍ فِي تَمْيِيزِ الدَّلَالَةِ النَّاتِجَةِ أَوْ القَصْدِ النَّاتِجِ لِلْكَلِمَاتِ وَالعِبَارَاتِ". فالمرِيضُ "يَفْقِدُ القُدْرَةَ عَلَى تَقْوِيمِ المَعَانِي المُطْلَقَةِ أَوْ غَيْرِ اللَّفْظِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ وَالعِبَارَاتِ، وَيُخَفِّقُ فِي تَمْيِيزِ المَقَاصِدِ والأَهْدَافِ لِلْفَعَالِيَّاتِ المَعْرُوضَةِ عَلَيْهِ".

وَمَهْمَا تَكُنِ القِيَمَةُ السَّرِيرِيَّةُ لِلتَّصْنِيفِ المَذْكُورِ آتِفًا فَإِنَّهُ، عَلَى أَيْةِ حَالٍ، مُفْنِعٌ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّظَرِيَّةِ، وَإِنَّ اسْتِعْمَالَاتِ الدُّكْتُورِ هيد لِكَلِمَةِ "مَعْنَى" تَتَضَمَّنُ المُحَادِثِينَ وَالإِبْهَامَاتِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ عَزْلُهَا عَنْ مُصْطَلَحٍ كَهَذَا. وَيَعْلَقُ كِنْيِيرُ وَلسن Kinnier Wilson (المصدرُ نَفْسُهُ:

ص 78) بِقَوْلِهِ: "إِنَّ التَّنْظِيمَ السَّايكولوجيَّ، إِلَى حِينِ إِحْرَازِ المَزِيدِ مِنَ التَّقَدُّمِ، مُعَرَّضٌ لِضَرَرٍ حَقِيقِيٍّ يَتِمَثَّلُ فِي فَقْدَانِ التَّوَاصُلِ مَعَ الوُظِيفَةِ الدَّمَاغِيَّةِ، وَلَا يَعْزُضُ ذَلِكَ تَعَاظُمَ الشَّرْعِيَّةِ العِلْمِيَّةِ المُدَّعَاةَ لَهُ".

تَحَدَّثُ فِي الْاسْتِعْمَالِ الْاَعْتِيَادِي لِلُّغَةِ. إِذْ تُوجَدُ عِدَّةُ مُسْتَوَيَاتٍ لِلْإِخْفَاقِ الْمُحْتَمَلِ تُنَاطَرُ تَدْرُجَاتِ التَّأْوِيلَاتِ الْمُبَيِّنَةِ آتِفًا. فَالْمُسْتَوَى الْأَوَّلُ هُوَ أَنْ نُخْفِقَ فِي تَمْيِيزِ كَلِمَةٍ مَا يَوْصِفُهَا صَوْتًا، حِينَ يُصَادَفُ أَنْ تُوجَّهَ الْكَلِمَةُ إِلَيْنَا وَنَحْنُ نُوشِكُ أَنْ نَنْطِقَ نَحْنُ أَنْفُسُنَا بِهَا. وَالْمُسْتَوَى الثَّانِي هُوَ أَنَّا إِنْ نَجَحْنَا فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ فَإِنَّ السِّيَاقَ الْمَطْلُوبَ لِتَمْيِيزِ الْكَلِمَةِ قَدْ يُفْلِتُ مِنَّا. وَمَرَدُّ هَذَا الْاضْطِرَابِ إِنَّمَا إِلَى تَضَارُبِ فِسيولوجِيٍّ، وَإِنَّمَا، عَلَى مَا قَدْ بَيَّنَّ الْمُحَلِّلُونَ التَّفْسِيوِيُّونَ، إِلَى تَضَارُبِ عَاطِفِيٍّ. وَقَدْ يَحْدُثُ الْإِخْفَاقُ فِي الْاسْمِ، وَتُقَدِّمُ هَذِهِ الْحَالَاتُ مُسَوِّغًا لِتَوْجِيهِ الْاِتِّهَامِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْعَاطِفِيِّ، وَقَدْ يَحْدُثُ فِي الْعِبَارَةِ الْوَصْفِيَّةِ، أَوْ فِي أَيِّ زَمَنِ مُجَرَّدٍ حَقًّا، فَمَا دَامَ الْأَمْرُ، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، قَدْ ضُمِّنَ الْكَثِيرَ مِنَ التَّكْيِيفَاتِ الدَّقِيقَةِ لِتَجَارِبِ وَاسِعَةٍ الْاِخْتِلَافِ لَيْسَ لَهَا إِلَّا جُزْءٌ مُشْتَرَكٌ هَزِيلٌ، فَإِنَّ الْإِخْفَاقَ فِي تَمْيِيزِ هَذَا الْجُزْءِ قَدْ يَصَحُّهُ إِخْفَاقٌ فِي عُمُومِ الْمِيدَانِ الْمُجَرَّدِ⁽⁹⁾. [219] تِلْكَ اللَّحْظَاتُ الدَّوْرِيَّةُ مِنَ الْعَبَاءِ الَّتِي قَدْ تَعَرَّضَ لَهَا أَيُّ مِنَّا، وَالَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا جَمِيعُ التَّعْلِيلَاتِ الْمُجَرَّدَةِ مُتَحَذِلَةً وَغَيْرَ مَفْهُومَةٍ، تَبْدُو فِي الْكَثِيرِ الْغَالِبِ مُحَدَّدَةً فِسيولوجِيًّا.

فَإِذَا مَا عَبَرْنَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مُسْتَوَى أَعْلَى فَلَرُبَّمَا لَا يَكُونُ ثَمَّةَ عَجْزٍ عَنْ

(9) كَانَ ثَمَّةَ خِلَافٍ طَوِيلٍ الْأَمَدِ فِي نَوْعِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَتَلَاشَى أَوَّلًا. وَهَكَذَا يُورِدُ رِيبُو Ribot فِي مُعَالَجَتِهِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ لِلذَّاكِرَةِ (Les Maladies de la Mémoire, Chapter III) عِدَّةً مِنَ الْحُجَجِ لِلنَّتِيجَةِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ "قَدْ الذَّاكِرَةُ يَتَطَوَّرُ مِنَ الْخَاصِّ إِلَى الْعَامِّ. إِذْ يُؤَثِّرُ، فِي الْبَدْوِ، فِي أَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ" ... إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ. لَكِنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّ دَرَجَةَ تَجْرِيدِيَّةِ الْكَلِمَةِ لَيْسَتْ أَقْلَ أَمْعِيَّةٍ فِي هَذَا الشَّانِ مِنْ عُمُومِيَّتِهَا، كَمَا يَجِبُ عَدَمُ نِسْبَانِ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ثَمَّةُ تَنْوَعٍ لِلْاضْطِرَابَاتِ الْوُظُفِيَّةِ الَّتِي تُوصَفُ، فِي غَيْرِ مُبَالَاةٍ، بِأَنَّهَا "قَدْ لِلذَّاكِرَةِ" وَخُبْسَةٌ. وَجَيْدُ رِيبُو فِي قَوْلِهِ: "إِنَّ عَالِمَ النَّفْسِ لَيَقِفُ عَاجِزًا إِلَى حِينَ إِحْرَازِ عِلْمِ التَّشْرِيحِ وَعِلْمِ وَظَائِفِ الْأَعْضَاءِ الْمَزِيدِ مِنَ التَّقَدُّمِ". عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْوَاضِحِ أَيْضًا أَنَّ أَيْةَ كَلِمَةٍ مُعْطَاةٍ قَدْ تَخْتَلِفُ مُسْتَوَيَاتُهَا مِنْ حَيْثُ التَّجَرُّدُ وَالْعُمُومُ بِاِخْتِلَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ. وَقَدْ يَصِحُّ فِي الْعُمُومِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ "الْجَدِيدَ مِنْهَا وَالْمُعَقَّدَ أَكْثَرَ غُرُضَةً لِذَلِكَ مِنَ الْقَدِيمِ مِنْهَا وَالْبَسِيطَ" (cf. Piéron, op. cit., *Thought and the Brain*, p. 165)، لَكِنَّ الْمَعْنَى بِذَلِكَ مِنْهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَدَّدَ فِي أَيْةٍ مُنَاسِبَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِلَّا بِالِاسْتِعَانَةِ بِنَظَرِيَّةِ السِّيَاقِ كَالَّتِي أَوْجِزْتُ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ آتِفًا.

فَهم الرُّموزِ التي هي مُكوِّناتٌ لِرُمزٍ مُعقَّدٍ، ومع ذلك قد نُخفِّقُ في تأويل الجُمْلَةِ كامِلَةٍ. وفي هذه الحالة يُقالُ عَنَّا إِنَّا لا نُقدِّرُ الشَّكْلَ المنطقيَّ لِلرُّمزيِّ. ويُمْكِنُ تعرِيفُ الشَّكْلِ المنطقيِّ هُنا بِما هو مُشتركٌ في رُموزٍ مُعقَّدةٍ مِن قَبيلِ "هَبَطَ كُروسو Crusoe⁽¹⁰⁾ مِن حُطامِ السَّفِينَةِ"، و"سَقَطَ دون كيشوت Quixote⁽¹¹⁾ مِن روسينانتي Rosinante⁽¹²⁾"، حيثُ يُمْكِنُ أَنْ تُخَصَّصَ المُكوِّناتُ لاسِتِدالِ كَلِمَةٍ بِكَلِمَةٍ. وَكُنَّا قد ذَهَبْنَا أَيْضًا إِلَى أَنَّ مُشكلةَ الشَّكْلِ المنطقيِّ تَتطلَّبُ المَزِيدَ مِنَ الاِهْتِمَامِ الَّذِي لا يُحتمَلُ أَنْ يَكُونَ مُتاحًا لَهَا فِي الاِفْتِراضاتِ المنطقيَّةِ الدَّارجَةِ. وإِنَّه لَأَمْرٌ كَارِثِيٌّ أَنْ نُعدَّ فِكْرَةً مُطلَقَةً؛ ذَلِكَ بِأَنَّ ما يَسْتَلزِمُهُ تَأويلُ رُمزٍ مُعقَّدٍ هو وَجوبُ أَنْ تُكوِّنَ سِياقاتُ الرُّموزِ التَّكوينيَّةُ معَ الرُّمزيِّ كامِلًا سِياقًا مِن نَمَطٍ أَعْلَى. وَكُلُّ تَرَمِيزٍ مُتَنقِلٍ

(10) روينسن كُروسو: الشَّخْصِيَّةُ الرُّبُوسَةُ فِي قِصَّةٍ تَحْمِلُ اسْمَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ كَتَبَهَا دَانِيال ديفو (1660-1730م) ونُشِرتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَنَةَ 1719. تُعدُّ أحيانًا الرُّوَايَةُ الأَوَّلَى فِي الإِنجِلِيزِيَّةِ. وَهِيَ سِيرَةٌ ذاتِيَّةٌ لِشَابٍّ إِنْجِلِيزِيٍّ يُغادِرُ إِنْجِلْترا فِي رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ يَسْطُو عَلَيْهَا القَراصِنَةُ، لَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ الهَرَبَ فِي زورَقٍ، وَيَلْتَحِقُ بِسَفِينَةٍ مُتَّجِهَةٍ إِلَى البرازيلِ، لَكِنَّهَا تَغْرَقُ فَيَمُوتُ جَمِيعُ رِفاقِهِ، لَكِنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ النِّجاةِ قَبْلَ أَنْ تَحْتَضِمَ السَّفِينَةُ وَتَغْرَقَ. فَيُقدَّرُ لَهُ العُزْلَةُ فِي جَزِيرَةٍ وَحِيدًا مُدَّةً طَوِيلَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقابِلَ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ. ثُمَّ بَعْدَ عَدَّةِ سَنَواتٍ يُقابِلُ أَحَدَ المُتَوَحِّشِينَ، وَيُعلِّمُهُ بَعْضَ ما وَصَلَ إِلَيْهِ الإِنسانُ المُتَحَضِّرُ وَيَجْعَلُهُ خادِمَهُ. وَفِي نَهايةِ القِصَّةِ يَعودُ روينسن كُروسو وَمَعَهُ خادِمُهُ إِلَى أَوْرُبا حَيْثُ العالَمُ المُتَحَضِّرُ. وَتَعْنِي هَذِهِ القِصَّةُ لِلكَثِيرِينَ حُلْمَ العُزْلَةِ عَنِ هَذَا العالَمِ الظالِمِ والعَيشِ فِي ظِلِّ الطَبِيعَةِ الرَحِيمَةِ. [المُترجِم]

(11) دون كيشوت: الشَّخْصِيَّةُ الرُّبُوسَةُ فِي رِوَايَةٍ لِلأَدِيبِ الإِسبانيِّ ميغيل دي ثيربانتس سايدرا (1547-1616م) تَنصُرُها فِي جُزْأَيْنِ بَيْنَ عَامَي 1605 و1615. تَدورُ أَحداثُ الرُّوَايَةِ حَوْلَ شَخْصِيَّةِ الِرنسو كِيخانو، وَهُوَ رَجُلٌ نَبِيلٌ قارِبُ الخَمِيسِينَ مِنْ عُمرِهِ، وَكانَ مُولَعًا بِقِراءَةِ كُتُبِ الفُروسِيَّةِ وَالشَّهامَةِ، فَقرَّرَ أَنْ يَتَرَكَ مَنزِلَهُ وَيُشدَّ الرِّحالَ كِفارِسِي شَهْمٍ يَبْحِثُ عَنِ مُغامِرَةٍ تَنْتَظِرُهُ، وَأَخَذَ يَجولُ البِلادَ حامِلًا مَعَهُ دِرْعًا قَدِيمَةً وَمُرْتَدِيًا خُوْدَةً بِالْيَدِ مَعَ حِصانِهِ الضَّعِيفِ روسينانتي. [المُترجِم]

(12) روسينانتي: اسْمُ حِصانِ دون كيشوت فِي رِوَايَةٍ (دون كيشوت) لِلأَدِيبِ الإِسبانيِّ ميغيل دي ثيربانتس سايدرا (1547-1616م). وَالْحَقُّ أَنَّ روسينانتي لَمْ يَكُنْ حِصانَ دون كيشوت فَحَسْبُ، بَلْ كانَ كَذَلِكَ حِصْنَهُ؛ إِذْ كانَ يَثلُّهُ: أَخْرَقَ، وَمُتَوَرِّطًا فِي مَهْمَةٍ تَفوقُ قَابلَتَهُ. [المُترجِم]

يَسْتَلْزِمُ هذا التَّحَابُكُ مِنَ السِّيَاقَاتِ لِتَكْوِينِ سِيَاقَاتٍ أَعْلَى، وَتَأْوِيلُ مِثْلِ هَذِهِ الرُّمُوزِ الْمُعَقَّدَةِ مُمَائِلٌ فِي طَبِيعَتِهِ لِتَأْوِيلِ الرُّمُوزِ الْبَسِيطَةِ إِلَّا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ هُوَ أَنَّ أَعْضَاءَ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى هِيَ فِي أَنْفُسِهَا سِيَاقَاتٌ. فَالْكَيْثَاتُ التَّجْرِيدِ، وَالِاسْتِعَارَةُ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، مُتَمَائِلَةٌ فِي الْحَالَتَيْنِ، وَالْمُسْتَوِيَّاتُ أَنْفُسُهَا الَّتِي يُمَكِّنُ فِيهَا الْإِخْفَاقُ تَتَكَرَّرُ فِيهِمَا. وَهَكَذَا يَسْتَطِيعُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ فَهَمَ رَمَزٍ مِنْ نَحْوِ قَوْلِنَا: "النَّارُ حَارَّةٌ"، وَإِنْ حَيَّرَتْهُمْ الْحَقَائِقُ الْإِسْنَادِيَّةُ أَوْ دَعَوَتْهُمْ إِلَى النَّظَرِ فِي الصِّفَاتِ الْعَلَاقِيَّةِ.

وَتُعَدُّ دِرَاسَةُ شَكْلِ الْبِنَاءِ لِلْإِحَالَاتِ الْمُعَقَّدَةِ [220] مَعَ شَكْلِ الْبِنَاءِ لِرُمُوزِهَا أَمْرًا أَسَاسِيًّا لِكُلِّ مِنَ الْمَنْطِقِ وَلِمَا يُدْعَى عَادَةً النَّحْوِ، الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُعَدَّ بِمَنْزِلَةِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ لِأَنْظِمَةِ الرُّمُوزِ. وَقَدْ نَالَ هَذَا الْعِلْمُ، لِأَسْبَابٍ وَاضِحَةٍ، مِنْ اهْتِمَامِ الْمُخْتَصِّينَ بِالتَّعْلِيمِ وَدَارِسِي اللُّغَاتِ مَا شَغَلَهُمْ عَنْ أَبْحَاثٍ أَوْسَعِ أَثَرًا. وَبِمِثْلِ النَّحْوِ، يَوْصِفُهُ عِلْمًا وَمِغَارِيًّا، إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى التَّحْلِيلِ اللَّفْظِيِّ لِللُّغَةِ التَّمُودِجِيَّةِ⁽¹³⁾، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ مُوجِبًا أَحْيَانًا، لَا يَتَوَسَّلُ بِمُدَّةٍ نَقْدِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ. وَلَمْ يُذَرِكْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ أَنَّ أَيَّ اسْتِعْمَالٍ لَا يَكُونُ جَيِّدًا إِلَّا لِعَالَمٍ خِطَابٍ مُعْطًى، وَلَمْ تَحْدُثْ مُقَارَبَةٌ جَادَّةٌ لِنَتِظِيمِ هَذِهِ الْفِثَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا الْكَلِمَاتُ.

(13) العبارة التي أوردتها المؤلفان للتعبير عن اللغة التمودجية هي *How the King Talks*، وترجمتها هي (لغة الملك). وقد تطرَّق الدكتور كمال بشر إلى هذا التَّمَطِّ اللُّغَوِيِّ فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ - مَدْخُلٌ): ص 190-191، إِذْ قَالَ: "المفروض أَنَّ اللُّغَةَ التَّمُودِجِيَّةَ هِيَ لُغَةُ الْخَاصَّةِ اجْتِمَاعِيًّا وَثَقَافِيًّا؛ لِشِدَائِهِمُ الْمُثُلَ الْعُلْيَا فِي السُّلُوكِ وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْحَيَاةِ. وَاللُّغَةُ فِي عُمُومِهَا ضَرَبٌ مِنَ السُّلُوكِ، وَاللُّغَةُ التَّمُودِجِيَّةُ مِثْلُ رَاقٍ مِنْهُ. هَذَا مَا يَحْدُثُ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْعَالَمِ لِحِسَابِنِ أَنَّ اللُّغَةَ التَّمُودِجِيَّةَ لُغَةُ فَوْقِيَّةٍ *High language*، يُنَمُّ تَوْظِيفُهَا عَنْ (فَوْقِيَّةٍ) مُسْتَحْدِمِيهَا مِنَ النَّاحِيَّتَيْنِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ. فَفِي إِنْجِلْتَرَا مِثْلًا يَفْخَرُ الْمَرءُ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ يَسْتَحْدِمُ اللُّغَةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ التَّمُودِجِيَّةَ *Standard English*، أَوْ لُغَةَ الْمَلِكِ *King's English*، أَوْ لُغَةَ (كَمْبَرِدج) أَوْ (أكسفورد) أَوْ مَا يُسَمَّى أَحْيَانًا الْإِنْجِلِيزِيَّةَ الْجَنُوبِيَّةَ *Southern English*. وَهِيَ تَسْمِيَّاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِمُسَمًى عَامٍّ وَاحِدٍ هُوَ اللُّغَةُ الصَّحِيحَةُ الْفَصِيحَةُ ذَاتُ الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ رَسْمِيًّا وَشَعْبِيًّا". [المترجم]

وإنَّ العِلْمَ الذي في وَسْعِهِ تَسْوِيعٌ وَجُودِهِ يَوْصِفُهُ نِظَامًا يُشِيعُ التَّبَصُّرَ بِطَبِيعَةِ
الْوَسْطِ اللُّغَوِيِّ لَا يَحْطَى بِتِلْكَ الْمَكَانَةِ فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ عِنْدَ الْمُعَلِّمِينَ أَوْ
الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. وَإِنَّ تَعْيِينَ اللِّجَانِ الْمُشْتَرَكَةِ الدَّائِمَةِ، الدَّارِجِ فِي
الْأَوْسَاطِ الفِيلُولُوجِيَّةِ، مِنْ أَجْلِ مُعَالَجَةِ أَوَّلِيَّاتِ هَذَا الْعِلْمِ، يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ مَا زَالَ
عَلَى حَالِهِ الَّتِي جَعَلَتْ سَمَارْت Smart⁽¹⁴⁾ يَصْرُحُ سَنَةَ 1831 قَائِلًا: "كَانَ اللَّهُ
فِي عَوْنِ الْأَطْفَالِ الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يُهَيِّوْنَ لِتَعَلُّمِ التَّعْرِيفَاتِ فِي أَوَّلِيَّاتِ النَّحْوِ".
لَكِنَّ مُشْكِلَاتِ النَّحْوِ التَّقْلِيدِيَّةِ، مِنْ نَحْوِ تَرْسِيخِ الِاسْتِعْمَالِ، وَتَحْلِيلِ الْجُمْلِ،
وَتَصْنِيفِ أَنْسَامِ الْكَلَامِ، هِيَ، فِي الْحَقِيقَةِ، مُشْكِلَاتٌ ثَانَوِيَّةٌ مَحْدُودَةٌ الْأَهَمِّيَّةِ.
وَهِيَ غَيْرُ مُهَيَّأَةٍ لِلْبَحْثِ مَا لَمْ تُكْتَشَفِ الْمُسْكِلَةُ الرَّئِيسَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِطَبِيعَةِ الْوَسْطِ
اللُّغَوِيِّ الَّتِي يَتَوَجَّهُ التَّرْمِيزُ إِلَيْهِ. فَإِذَا مَا أَمَكَّنَ السَّيْرُ بِهَذَا الْبَحْثِ الْأَسَاسِي إِلَى
مَدَى أَبْعَدَ قَلِيلًا جِدًّا فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُسْكِلَاتِ الْأَخِيرَةَ
الَّتِي أَهْدَرَ النَّحْوِيُّونَ فِي سَبِيلِهَا كُنُوزَ اقْتِصَادِ الْبَشَرِيَّةِ وَفُطْنَتِهَا مُصْطَنَعَةٌ خَالِصَةٌ فِي
حَالَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَمُنْشَغَلَةٌ بِنِقَاطِ تَفْصِيلِيَّةٍ فِي حَالَاتٍ أُخْرَى⁽¹⁵⁾.

إِنَّ الْمُسْكِلَاتِ التَّرْبَوِيَّةَ الْمُوسَّعَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ [221] بِاِكْتِسَابِ اللُّغَةِ فِي الطُّفُولَةِ كَثِيرًا
مَا اسْتَقْطَبَتْ الْاهْتِمَامَ، وَثَمَّةُ مَادَّةٌ نَافِعَةٌ وَافِرَةٌ جَمَعَهَا سَلِي Sully⁽¹⁶⁾ وَمِيومان
Meumann⁽¹⁷⁾

(14) بنيامين سمارت (1786-1872م). نَحْوِيٌّ بَرِيطَانِيٌّ. نَشَرَّ عِدَّةَ كُتُبٍ مِنْهَا: مُوجَزُ عِلْمِ
الْعَلَامَاتِ اللَّفْظِيَّةِ (السِّمَاتُولُوجِيَا Sematology)، أَوْ مَقَالَةٌ نَحْوُ تَأْسِيسِ نَظَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ
لِلنَّحْوِ، وَالْمَنْطِقِ، وَالْبَلَاغَةِ (سَنَةَ 1831)؛ وَثِمَّةٌ لِعِلْمِ الْعَلَامَاتِ اللَّفْظِيَّةِ (السِّمَاتُولُوجِيَا
Sematology) (سَنَةَ 1839)؛ وَالْفِكْرُ وَاللُّغَةُ: مَقَالَةٌ تُغْنِي بِتَجْدِيدِ فِلْسَافَةِ لُوكِ،
وَتَصْحِيحِهَا، وَتَأْسِيسِهَا الْاسْتِنَائِيَّ (سَنَةَ 1855). [المُتَرَجِّم]

(15) يُنْظَرُ: التَّذْيِيلُ A.

(16) جِيْمْسُ سَلِي (1842-1923م). عَالِمٌ نَفْسٍ إِنْجِلِيزِيٌّ. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: الْأَوْهَامُ،
وَالْخُطُوطُ الْعَامَّةُ لِعِلْمِ النَّفْسِ، وَذَلِيلُ الْمُعَلِّمِ لِعِلْمِ النَّفْسِ، وَمَقَالَةٌ فِي الضَّجْكِ. [المُتَرَجِّم]

(17) إِيرِنِسْتُ مِيومان (1862-1915م). عَالِمٌ نَفْسٍ وَمُدْرَسُ أَلْمَانِيٍّ. يُعَدُّ مُؤَسَّسَ عِلْمِ أَصُولِ
التَّدْرِيسِ التَّجْرِبِيِّ. حَاولَ اسْتِعْمَالَ نَتَائِجِ الدِّرَاسَاتِ السَّايْكُولُوجِيَّةِ لِتَكُونُ قَاعِدَةً لِنَظَرِيَّةِ
التَّعْلِيمِ وَمَعَارِسِهِ. أَهَمُّ آثَارِهِ: لُغَةُ الطُّفْلِ. [المُتَرَجِّم]

وأوشي O'Shea⁽¹⁸⁾ وبياجيه Piaget⁽¹⁹⁾، غير أنَّ عُلَمَاءَ النَّفْسِ ما زالوا يَخْرُجُونَ بِافْتِرَاضَاتٍ تَحُولُ دَوْنِ الاستِفَادَةِ مِنَ الْبَحْثِ. يَقُولُ مونشتربيرغ Münsterberg: "يَبْدَأُ الطِّفْلُ بِمُحَاكَاةِ الْكَلِمَاتِ الْمُنطَوِقَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْهَمَهَا، ثُمَّ يَفْهَمُهَا بَعْدَ ذَلِكَ". وَمَحْظُوظٌ هُوَ الطِّفْلُ الَّذِي يَبْلُغُ الْمَرْحَلَةَ الثَّانِيَةَ! لَكِنْ، لِسُوءِ الْحِظِّ، لَا يَفْعَلُ الصَّغِيرُ السَّادِجُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ كَانَتْ وَجْهَةٌ نَظَرٍ رُوسُو Rousseau⁽²⁰⁾ أَدَقُّ بِكَثِيرٍ فِي كِتَابِهِ نَظَرَاتٌ فِي التَّرْبِيَةِ *Thoughts on Education* الَّذِي جَاءَ فِيهِ: "يَبْدُو لِي أَنَّ مَا يُسَبِّبُ الْأَخْطَاءَ الْأَوَّلَى عِنْدَ الْأَطْفَالِ هُوَ عَدَمُ اهْتِمَامِنَا بِالطَّرِيقَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي يَفْهَمُونَ بِهَا الْكَلِمَاتِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْطَاءَ، وَإِنْ أَمَكَنْ التَّخَلُّصَ مِنْهَا، لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي أَدَائِهِمُ الْعَقْلِيَّ طَوَالَ مَا يَبْقَى مِنْ حَيَاتِهِمْ". إِنَّ مُجْمَلَ الْبَحْثِ فِي اكْتِسَابِ اللُّغَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا يَتَطَلَّبُ أَسَاسًا جَدِيدًا، وَيَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهُ عَلَى نَحْوٍ وَاقِعِيٍّ مَعَ النَّظَرِ إِلَى التَّطَوُّرِ الْحُرِّ لِلْقُدْرَاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ.

وَيُمْكِنُ التَّمثِيلُ لِنَوْعِ الْإِجْرَاءِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ بِتَنْظِيمِ الْمُسْتَوَيَاتِ الَّتِي يُصْبِحُ فِيهَا 'الْكُرْسِيُّ' وَ'الْحَسْبُ' وَ'الْأَلْيَافُ' وَمَا إِلَيْهَا رُمُوزًا صَحِيحَةً لِمَا نَقْعُدُ عَلَيْهِ، عَلَى مَا رَأَيْنَا فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ (ص 173-174). وَقَدْ أَشِيرَ هُنَاكَ إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي

(18) مايكل فينست أوشي (1866-1932م). أستاذ التربية في جامعة وسكونسن الأمريكية. من مؤلفاته: مُشْكِلَاتُ التَّعْلِيمِ الْيَوْمِيَّةِ، وَأَخْطَاءُ الطُّفُولَةِ وَالشَّبَابِ، وَالْخَطَوَاتُ الْأَوَّلَى فِي تَدْرِيبِ الطِّفْلِ، وَالْعَادَاتُ الصَّخِيَّةُ. [المُترجم]

(19) جان بياجيه (1896-1980م). عالِمُ نَفْسٍ، وفيلسوفٌ سويسريٌّ. طَوَّرَ نَظْرِيَّةَ التَّطَوُّرِ المعرفيِّ عِنْدَ الْأَطْفَالِ فِي مَا يُعْرَفُ الْآنَ بِعِلْمِ الْمَعْرِفَةِ الْوَرَائِثِيَّةِ. أَنشَأَ فِي سَنَةِ 1965 مَرْكَزَ نَظْرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ الْوَرَائِثِيَّةِ فِي جَنيفَ وَتَرَأَسَهُ حَتَّى وَفَاتِهِ سَنَةَ 1980. يُعَدُّ رَانْدَ الْمَدْرَسَةِ الْبَنِيَوِيَّةِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ: اللُّغَةُ وَالْفِكْرُ عِنْدَ الطِّفْلِ، وَالْحَكْمُ وَالِاسْتِدْلَالُ عِنْدَ الطِّفْلِ. [المُترجم]

(20) جان جاك رُوسُو (1712-1778م). كَاتِبٌ، وفيلسوفٌ سويسريٌّ. يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ كُتَّابِ عَصْرِ الْعَقْلِ، وَهُوَ مَرْحَلَةٌ مِنْ مَرَاكِلِ التَّارِيخِ الْأَوْرَبِيِّ امْتَدَّتْ مِنْ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ إِلَى أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّينَ. سَاعَدَتْ فِلَسَفَتُهُ فِي تَشْكِيلِ الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى انْدِلَاعِ الثَّوْرَةِ الْفَرَنسِيَّةِ؛ إِذْ أَثَّرَتْ مَوْلاَفَاتُهُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ. مِنْ أَهَمِّ مَوْلاَفَاتِهِ: نَظَرَاتٌ فِي التَّرْبِيَةِ، وَالْعَقْدُ الْاجْتِمَاعِيُّ أَوْ مَبَادِئُ الْحَقُوقِ السِّيَاسِيَّةِ. [المُترجم]

نشأت بها مجموعة التَّخيليات المعروفة بالميتافيزيقا من خلال الافتقار إلى هذه المقارَبة النَّحويَّة الصَّحيحة، التَّدقيق النَّقديّ لِلإجراء الرُّمزيّ. على النَّحو نفسه تُعدُّ تحليلاتنا لِلجمال والمعنى أمثلة نموذجيَّة لما كان يُمكن أن يُحقِّقه النَّحو منذ زمن طويل لو كان النَّحويُّون قد توفَّروا فقط على بصيرة أفضل بشأن احتياجات الاتِّصال العقلائيّ، وعلى إحساس أكثر حيويَّة بالأهميَّة العمليَّة لِعَلِمهم. ولِفِرط الانهماك الطَّبِيعيِّ لِلنَّحويِّ بِالتَّفصيلات المُعقَّدة لموضوع واسع، ولكونه مُتقناً لآليَّة جليَّة ومجموعة مُصطلحات شبيهة فلسفيَّة مُفصَّلة، وقَفَ ثابتاً إلى حدٍّ ما بِعباء حَجَرَ عثرة في طريق الذين يرومون مقارَبة حلول الأسئلة الآتيَّة - كيف تُستعملُ الكلمات؟ [222] وكيف يَنبغي أن تُستعمل؟ والنَّحويُّ يدرس كذلك أسئلة مُشابهة إلى حدٍّ ما بادئ الرَّأي، أي نحو - أيُّ الكلمات تُستعملُ حينَ كذا؟ وأيُّها يَنبغي أن تُستعملُ حينَ كذا؟ وهو يزدري الرَّأي الذي يذهبُ إلى أنَّ عمله قد يكون محدوداً الأهميَّة لكونه قد ضلَّ سبيلَ قضيَّته. باختصار، لا يُمكن البدء بِفحصٍ معياريٍّ لِلكلمات من غيرِ فحصٍ معياريٍّ لِلتَّفكير، ولا يُمكن النَّظرُ في تساؤلٍ مُهمٍّ بشأن الاستعمالِ اللفظيِّ من غيرِ إثارة تساؤلاتٍ بشأن المَرَبَّة أو المُستوى، والصدِّق أو الكذِّب لِلإحالاتِ الفِعليَّة التي يُمكن أن تُستخدِم ذلك. ومن غيرِ المُمكن دراسة الرُّموز بِمعزِلٍ عن الإحالات التي ترمِزُ إليها، وإذا ما أقرَّ ذلك فليس ثَمَّة نُقطة يُمكن أن يتوقَّف عندها فحُصنا لهذه الإحالات على نَحو آين، من غيرِ استيفاءٍ لِأكملِ تحقيقٍ مُمكن.

فإذا ما عُذنا الآن إلى تعقيداتِ الإحالات ورُموزها فسَنجدُ أنَّ مُحاولَةَ تلمُّسِ التَّنَاطُرِ تُؤدِّي إلى تَبَيُّنِ مجموعَتَيْنِ مُتمايزَتَيْنِ من الاعتباراتِ بِوصفها مبادئ هاديَّة. أمَّا أولاهما، أي دراسة الإحالة، فنحنُ حتَّى الآن مُشغِلون بها. فالصورة الرُّمزيَّة تُختلِف بِاختلافِ الإحالة. غيرَ أنَّ ثَمَّة أسباباً أخرى لِاختلافها كُنَّا قد تَطَرَّفنا إلى شيءٍ منها آيناً (ص 249-250). فَكَلِماتُنا، زيادةً على رَمزها إلى الإحالة، علاماتٌ كذلك لِلعواطفِ، أو المواقِفِ، أو الأمزجة، أو الطَّبع، أو الاهتمام، أو الوَضْعِ الذَّهنيِّ الذي تَحْدُثُ فيه الإحالات. إنَّها علاماتٌ بِهذه الطَّريقة لِأنَّها مُتَّجَمَّة مع هذه المواقِفِ والاهتماماتِ في سياقاتٍ مُعيَّنة أكثر

فَضَافِيَّةً، وَكَثَرِ إِحْكَامًا. وَهَكَذَا، حِينَ نَنْطِقُ جُمْلَةً مَا نَكُونُ مُنْشِينَ لِمَا لَا يَقُلُّ عَنْ حَالَيْنِ عَلَامِيَّتَيْنِ، كَمَا أَنَا حِينَ نَسْمَعُهَا نَكُونُ فِي مُوَاجَهَتَيْهِمَا. فَأَمَّا إِحْدَى هَاتَيْنِ الْحَالَيْنِ فَتَأْوِيلُهَا مِنَ الرُّمُوزِ إِلَى الْإِحَالَةِ، وَمِنْهَا إِلَى الْمَرْجِعِ؛ وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَتَأْوِيلُهَا مِنَ الْعَلَامَاتِ اللَّفْظِيَّةِ إِلَى الْمَوْقِفِ، وَالْمِزَاجِ، وَالْاهْتِمَامِ، وَالغَرَضِ، وَالرَّغْبَةِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَخُصُّ الْمُتَكَلِّمَ، وَمِنْ ثَمَّ إِلَى الْحَالِ، وَالظُّرُوفِ، وَالشُّرُوطِ الَّتِي يَنْشَأُ فِيهَا الْقَوْلُ.

وَأَوَّلَى هَاتَيْنِ الْحَالَيْنِ حَالِ رَمِيزِيَّةٍ عَلَى مَا بَيَّنَّ آتِفًا، وَثَانِيَتُهُمَا مُجَرَّدُ حَالٍ عَلَامِيَّةٍ لَفْظِيَّةٍ [223] كَالْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي كُلِّ إِدْرَاكِ حِسِّيٍّ اعْتِيَادِيٍّ، سَوَاءٌ أَكَانَ تَنْبُؤًا، أَمْ مَا إِلَى ذَلِكَ. وَيَجِبُ تَفَادِي الْخَلِطِ بَيْنَ الْاِثْنَتَيْنِ، وَإِنْ عَسَرَ فِي الْغَالِبِ تَمْيِيزُهُمَا. وَبِذَلِكَ، يُمَكِّنُ أَنْ يَنْجَحَ تَأْوِيلُنَا مِنَ الرَّمْزِ إِلَى الْإِحَالَةِ، ثُمَّ نَتَّخِذُ هَذِهِ الْإِحَالَةَ عَلَامَةً لِمَوْقِفٍ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ قَدْ يَكُونُ مُمَائِلًا أَوْ غَيْرَ مُمَائِلٍ لِلْمَوْقِفِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَتَّجِعَ فِي تَأْوِيلِهِ مُبَاشَرَةً مِنْ نُطْقِهِ بِوَصْفِهِ عَلَامَةً لَفْظِيَّةً.

إِنَّ تَنْظِيمَ الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَاسِعٌ يُمَكِّنُ أَنْ تُمَيَّزَ فِيهِ فُرُوعٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ النُّقَاطَ الْآتِيَّةَ، مَعَ التَّرْمِيزِ الضَّارِمِ الَّذِي مِنَ الْمُلَانِمِ عَدَهُ الرَّقْمُ (1)، تَشْمَلُ وَظَائِفَ اللُّغَةِ الرَّئِيسَةَ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً تَوَاضُلِيَّةً.

(2) ثَمَّةُ أَحْوَالٌ تَنْشَأُ مِنْ مَوَاقِفِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ مُسْتَمْعِيهِ، كَالْوُدِّيَّةِ أَوْ الْعِدَائِيَّةِ. وَفِي اللُّغَةِ الْمَكْتُوبَةِ يَضِيعُ، بِالصَّرُورَةِ، الْكَثِيرُ مِنْ أَوْضَحِ الْعَلَامَاتِ لِهَذِهِ الْمَوَاقِفِ⁽²¹⁾. وَيَجِبُ أَنْ يُسْتَبْدَلَ بِنَمِطِ الصَّوْتِ وَنَعْمَتِهِ إِجْرَاءَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، كَالصَّيْغِ

(21) إِنَّ حَيَاةَ النُّعَامِ الصَّوْتِيَّةِ بِوَصْفِهَا عِلَامَاتٌ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْمَوَاقِفِ، بَلْ تَشْرِكُهَا فِي ذَلِكَ الْعَنَاصِرُ الرُّمُزِيَّةُ وَالنَّحْوِيَّةُ. وَتُعَدُّ الثَّبَرَاتُ فِي اللُّغَةِ الْعَبْرِيَّةِ مَثَالًا جَيِّدًا لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي قَدْ تُحَاوَلُ بِهَا لَعْنَةُ مَكْتُوبَةٍ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى مُمَيَّزَاتِهَا الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْكَلَامِ مِنْ خِلَالِ الْوَقْفِ وَالتَّنْغِيمِ. وَثَمَّةُ أَصْنَافٌ أَرْبَعَةٌ رَئِيسَةٌ مِنَ الثَّبَرَاتِ الْمُفَيِّزَةِ تُمَائِلُ إِلَى حَدِّ مَا الْوَقْفَاتُ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ نَوَجِدُ إِحْدَى عَشْرَةَ نَبْرَةً رَابِطَةً تُظْهَرُ أَنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تُلْحَقُ بِهَا وَثِيقَةُ الْارْتِبَاطِ فِي الْمَعْنَى بِالْكَلِمَةِ الَّتِي تَلِيهَا. وَقَدْ أَذَى إِغْفَالُهَا إِلَى وُجُودِ عَدِيدٍ مِمَّا هُوَ خَطَأٌ مِنَ التَّرْجَمَاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ، مَعَ ذَلِكَ، تَرْجَمَاتٍ كِلَاسِيكِيَّةً، كَمَا فِي النَّصِّ الْآتِي =

العُرفية، والمُبالغات، والعبارات التّهوينية، والصُور الكلامية، ورسم خط تحت الكلمة، وسائر ما هو مألوف في آلية كتابة الرسائل. ومن الواضح أن ترتيب الكلمات له أهمية خاصة في هذا الشأن، ولكن، على ما سترى، ما من إجراء أدبي عام يمكن أن يُخصّص لأي من وظائف الكلام يكون من المؤكّد أن الوظائف الأخرى ستستعيره في مناسبة ما. لذلك يمكن أن يؤتى بآية تحويلات رمزية [224] لهذه الوظيفة. فعلى سبيل المثال، كثيراً ما تُستعمل العبارة المضغوطة أو الشديدة الاختصار، حتى في حال كونها غير مناسبة من الناحية الإحالية، علامة ملاحظة للمستمع أو احترام له، أو لتفادي الظهور في مظهر التخلف أو التّسامخ الذي يمكن أن تولّده العبارة الموسّعة. ويُخاطب المتكلّم، على نحو طبيعي، حسداً من المستمعين بلغة مختلفة عن التي يستخدمها في الحديث الاعتيادي؛ إذ إن موقفه قد تغيّر.

(3) على نحو مشابه، يُحدّد موقفنا من مرجعنا الرّموز التي نستعملها تحديداً جزئياً. وهنا تحدث مرة أخرى حالات مُعقّدة قد يتعدّد فيها التّيقن من أن موقفنا هو نفسه المبيّن، أو أنّه مُشارٌ إليه فحسب من خلال علامات لفظية. وتقدّم الأحكام الجمالية بِخاصة هذه الصّعوبة، وكثيراً ما لا يستطيع المتكلّم نفسه أن يُحدّد أيها يحدث. فالتأكيد، والإسهاب، وكل أشكال التّقوية يمكن، بل يشيخ، استعمالها لهذه الأسباب، مع أنّها تُستعمل على حدّ سواء من أجل تأثيراتها في المستمعين (4)، أو بوصفها نقاطاً حماسية، أو مُتكات، أو إسنادات في حال حصول صعوبة في الإحالة (5).

= من سفر إشعيا 11، 3: "إِنَّ صَوْتَهُ لَيَصْرُخُ فِي الْبَرِّيَّةِ، أَنْ هَيْئَ طَرِيقَ الرَّبِّ". فالصّوت، على ما تُبيّنه النسخة المُنفّحة من الكتاب المقدّس، ليس في البرّيّة، لكنّه يصرُخ قائلاً: "هَيْئَ فِي الْبَرِّيَّةِ طَرِيقَ الرَّبِّ". وكذلك جاء في سفر التكوين 3، 22: "قَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: احْذَرُوا، فَقَدْ أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ كَأَحَدِنَا؛ يَعْلَمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ"، في حين أنّ التّبرّ الملاّم يُقدّم القراءة الآتية: "احْذَرُوا الْإِنْسَانُ الَّذِي أَصْبَحَ كَأَحَدِنَا، سَيَعْلَمُ الْخَيْرَ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ". (Cf. Saulez, *The Romance of the Hebrew Language*, p. 99).

(4) كثيراً ما يُحدّد بنية رموزنا قصداً، أي الآثار التي نسعى جاهدين إلى إنشائها بأقوالنا. فإذا ما رغبنا في انتحار مُستمعٍ ما فبإمكاننا، حين يَقْضِي الأمر، أن نَوَجّه إليه بالتعليقات أنفسها سواء أكان دافع رغبتنا في هذا الفعل اهتماماً خيراً بجهنّمه أم كان مقّناً لصفاته الشخصية. وهكذا، لا ينبغي خلط التعديل الرمزيّ الناجم عن التأثير المقصود بالتعديل الرمزيّ الناجم عن الموقف المفترض نجا محاور ما، على الرغم من أنهما، لا شك، كثيراً ما يتطابقان.

(5) زيادة على الصدق أو الكذب تتمتع الحالات بخصيصّة من الممكن تسميتها، من حيث المشاعر المصاحبة، اليُسْر أو العُسْر. فقد تكون ثمة إحالتان صادقتان لمرجع واحد، لكنهما تختلفان اختلافاً كبيراً في هذا اليُسْر، وهذا ما قد يظهر أثره في رمزيّتهما. فالرمزان: "يبدو أنني أتذكّر صعودي جبل إيفرست Everest"، و"أنا صعدت إيفرست"، ربّما لا يرمزان، أحياناً، [225] إلى اختلاف في الإحالة، وبذلك لا يعزى اختلافهما إلا إلى درجاة عُسْر تذكّر هذه التجربة غير الشائعة. من جهة أخرى، قد يكون هذا، لا شك، اختلافاً رمزيّاً حقيقياً لا يقتصر أمره على الإشارة إلى الاختلاف في العُسْر، بل إنه يفصح عنه. ولا ينبغي خلط هذا اليُسْر أو العُسْر باليقين أو الظن، أو بدرجاة الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، التي تندرج، على نحوٍ طبيعي، تحت النقطة (3) المتعلقة بالموقف من المرجع. وكلّ من هذه الوظائف غير الرمزيّة قد تستخدم الكلمات إما بطاقة رمزيّة من أجل إحراز الغاية المطلوبة من خلال الحالات المؤلّدة عند المستمع، وإما بطاقة غير رمزيّة حين تُكتسب الغاية من خلال التأثيرات المباشرة للكلمات.

وإذا ما اختبر القارئ أيّة جملة تقريباً فسيجد أن الانجراف الذي تُظهره عن التعبير الرمزيّ الخالص الذي تحكمه طبيعة الإحالة التي يرمز إليها، مرّده إلى عوامِل تعويقيّة مصدرها واحدة أو أكثر من المجموعات الأربع المذكورة آنفاً. وأكثر من ذلك أن ما يبدو أنه الاختلاف نفسه يكون مرّده أحياناً إلى عامل ما، وأحياناً أخرى إلى عامل آخر. ويمكن أن يقال بعبارة أخرى إن طوائع المادّة الكلاميّة في الأحوال الرمزيّة تكون أقلّ ممّا هي عليه في حالة المواقف الإنسانيّة، في غاياتها ومسايعها، أي في النظام التأثيريّ-الإراديّ؛ ولذلك تكون

التَّعْدِيْلَاتُ اللُّغَوِيَّةُ أَنْفُسُهَا مَطْلُوبَةٌ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا وَقَدْ تَنْجُمُ عَنْ أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. مِنْ هُنَا تَأْتِي أَهْمِيَّةُ دِرَاسَةِ الْجُمْلَةِ فِي الْفِقْرَةِ، وَالْفِقْرَةِ فِي الْفَصْلِ، وَالْفَصْلِ فِي الْكِتَابِ، إِذَا مَا أَرَدْنَا لِرُمُوزِنَا أَلَّا تَكُونَ مُضَلَّلَةً، وَلِتَحْلِيلِنَا أَلَّا يَكُونَ اعْتِبَاطِيًّا.

وَمِمَّا يُثِيرُ الْعَجَبَ إِلَى حَدٍّ مَا أَنَّ النَّحْوِيِّينَ لَمْ يُؤْلُوا تَعَدُّدَ الْوُظَائِفِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُؤَدِّيَهَا اللُّغَةُ إِلَّا الْقَلِيلَ جِدًّا مِنَ الْاهْتِمَامِ. وَقَدْ نَاقَشْنَا آيْنًا (ص 253) الْأُسْلُوبَ الْفَاتِرَ الَّذِي اعْتَرَفُوا بِهِ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرَ بِوُجُودِ جَانِبٍ وَجْدَانِيٍّ فِي مُشْكِلَاتِهِمْ. لَكِنْ حَتَّى هَذَا التَّمْيِيزُ نَادِرًا مَا كَانَ يُبَيِّنُ بَوْضُوحَ. وَالْوُظَائِفِ الْآتِيَّةُ تَبْدُو وَظَائِفَ شَامِلَةً-

(1) تَرْمِيزُ الْإِحَالَةِ، [226]

(2) التَّعْيِيرُ عَنْ مَوْقِفٍ مِنَ الْمُسْتَمِعِ،

(3) التَّعْيِيرُ عَنْ مَوْقِفٍ مِنَ الْمَرْجِعِ،

(4) إِنْشَاءُ التَّأْثِيرَاتِ الْمَقْصُودَةِ،

(5) تَعْزِيزُ الْإِحَالَةِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ لَا يَضَعُ بَذِكْرٍ عَوَامِلَ أُخْرَى تُعَدِّلُ شَكْلَ الرُّمُوزِ أَوْ بِنْيَتِهَا. فَالْفَوَاقِ، مَثَلًا، قَدْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، أَوْ الْتِهَابُ الْحَنْجَرَةِ، أَوْ قِصْرُ الْأَصَابِعِ؛ وَكَذَلِكَ الْبُعْدُ عَنِ الْمُسْتَمْعِينَ، وَأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ خَصِيصَةُ الْمُنَاسَبَةِ؛ أَوْ إِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ مُسْتَثَارًا أَوْ مُهْتَاجًا لِسَبَبٍ مَا دَخِلَ فَقَدْ يَظْهَرُ فِي أُسْلُوبِهِ مَا يَعْكِسُ هَذَا الْإِنْفِعَالَ. وَإِنْ مُجَمَّلَ التَّأْرِخِ اللُّغَوِيِّ الْمَاضِي لِكُلِّ مِنَ الْفَرْدِ وَالْجِنْسِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ الْفَرْدُ يُمَارِسُ بِوُضُوحٍ تَأْثِيرًا هَائِلًا؛ فَالْأَسْكَنْدَرِيُّونَ لَا يَتَكَلَّمُونَ الْأَلْمَانِيَّةَ عَلَى نَحْوِ طَبِيعِيٍّ. غَيْرَ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ التَّأْثِيرَاتِ فِي الشَّكْلِ اللُّغَوِيِّ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَخِيرَ لَهُ الْأَهْمِيَّةُ الْعَظْمَى لِللُّغَوِيِّ الْمُقَارِنِ، لَيْسَتْ وَظَائِفَ لُغَوِيَّةً بِالْمَعْنَى الْمَقْصُودِ هُنَا⁽²²⁾. إِنْ وَضَعَ الْحِجَابَ الْحَاجِزَ أَوْ الْحَنْجَرَةَ أَوْ الْأَصَابِعِ، أَوْ سَمْعِيَّاتِ الْكَنِيسَةِ

(22) يَجِبُ أَلَّا يَحْدُثَ خَلَطٌ بَيْنَ الْوَسِيلَةِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ بِهَا الْكُتَّابُ إِحْرَازَ غَايَتِهِمْ، وَالْغَايَاتِ =

أو أَرْضِيَّة الْمُتَنَزَّهِ، لا تَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ اهْتِمَامِ نَظَرِيَّةِ اللُّغَةِ؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْفِيلُولُوجِيَا الْمُقَارِنَةَ كَثِيرًا مَا تُعَدُّ فِي نَفْسِهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى مُجْمَلِ مِيدَانِ الْعِلْمِ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ تَنْتَمِي أَسَاسًا إِلَى التَّارِيخِ. وَنَحْنُ لَا نُقَلِّلُ بِقَوْلِنَا هَذَا مِنْ شَأْنِ طَرَاةِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تُمَدُّنَا بِهَا وَأَهْمِيَّتِهَا. [227] غَيْرَ أَنَّ الْوُظَائِفَ الَّتِي نَفَحْصُهَا هُنَا هِيَ الْفَعَالَةُ بِالضَّرُورَةِ فِي كُلِّ تَوَاضُلٍ، أَيِ الطَّرَائِقِ الَّتِي يُؤَدِّي بِهَا الْعَمَلُ الْكَلَامِيُّ إِلَى الْاسْتِعْمَالِ الْأَسَاسِيِّ الَّتِي يَصْلُحُ لَهَا الْكَلَامُ.

وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ قَائِمَتُنَا شَامِلَةً أَمْ لَمْ تَكُنْ، فِيمَا لَا شَكَّ فِيهِ، عَلَى أَيْةٍ حَالٍ، أَنَّ هَذِهِ الْوُظَائِفَ لَا يُمَكِّنُ تَقْلِيلَ عَدِّهَا مِنْ غَيْرِ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْوُضُوحِ وَفِي إِسْقَاطِ اعْتِبَارَاتِ هِيَ فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ أَسَاسِيَّةٍ فِي فَهْمِ تَفْصِيلِ السُّلُوكِ اللَّغَوِيِّ.

فَفِي التَّرْجُمَةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، أَدَّى الْاِفْتِقَارُ إِلَى مِثْلِ هَذَا التَّحْلِيلِ لِمِطْرَائِقِ اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ إِلَى تَخْلِيطٍ كَبِيرٍ. إِذْ كَانَ اللَّغَوِيُّونَ، بِفِعْلِ مَا لَمَسُوهُ مِنْ إِخْفَاقَاتٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى لِتَرْجَمَاتٍ ظَاهِرُهَا الدَّقَّةُ، عَلَى أَنَّ الْاِسْتِعْدَادَ لِقَبُولِ آرَاءِ الْفَلَاسِيفَةِ فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، وَمُفْرَدَاتِهِمُ الْغَامِضَةِ أَيْضًا. وَهَكَذَا يَقُولُ سَابِير

= أَنْفُسِهَا. يَقُولُ وَالتَّرَبُّتُ Walter Pater: "الْحَشْوُ! إِنَّ الْفَنَانَ الْحَقِيقِي لَيَحْشَى ذَلِكَ كَمَا يَحْشَى الْعَذَاءُ انْتِفَاحَ عَضَلَاتِهِ. فَالْحَقُّ أَنَّ الْفَنَّ كُلَّهُ إِنَّمَا يَكْمُنُ فِي التَّخْلُصِ مِنَ الْحَشْوِ، ابْتِدَاءً مِنَ اللَّسَّاتِ الْأَخِيرَةِ لِمَنْ يَنْقُشُ عَلَى الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ نَافِضًا عَنْهَا آخِرَ ذُرَّةٍ غُبَارٍ مَرِيئَةٍ، رُجُوعًا إِلَى أَقْدَمِ نُبُوَّةٍ بِشَأْنِ الْعَمَلِ الْمَصْفُورِ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ، الَّذِي يَكْمُنُ فِي مَكَانٍ مَا مِنَ الْكُنْهَةِ الْحَجَرِيَّةِ غَيْرِ الْمَصْفُورَةِ، اسْتِنَادًا إِلَى خَيَالٍ مَايَكِلُ أَنْجَلُو Michelangelo". أَوْ كَمَا عَلَّقْتُ سِدْنِي سَمِثُ Sydney Smith بِفِطْنَةٍ كَبِيرَةٍ بِقَوْلِهَا إِنَّ الْأُسْلُوبَ الثَّرِيَّ غَالِبًا مَا يُمَكِّنُ تَحْسِينَهُ بِشَطَبِ أَيْةٍ كَلِمَةٍ زَائِدَةٍ مِنْ كُلِّ جُمْلَةٍ حِينَ تُكْتَبُ. عَلَى أَنَّ الْبُرُوفِيسُورَ كُونِنْغْتُنَ Conington (*Miscellaneous Writings*, Vol. I, p. 197., Edited by J. A. Symonds, 1872) "نَمَّةٌ مُنَاسِبَاتٍ يُسَمَحُ فِيهَا أحيانًا بِقَدْرِ مُعَيَّنٍ مِنَ الْحَشْوِ فِي الثَّرَى الْإِيقَاعِيِّ لَا لِسَبَبٍ سِوَى تَقْوِيَةِ تَوَازُنِ الْعِبَارَةِ بِإِزَاءِ الْعِبَارَةِ، وَلَا سِتْرَاجِ التَّأثيرِ الْإِيقَاعِيِّ الْعَامِّ" - وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مَقْصُودَةٌ. وَهَمَا يَكُنِ الْأَمْرُ فَلِأُسْلُوبٍ، وَالتَّوَازُنِ، وَالإِيقَاعِ، وَمَا إِلَيْهَا، لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ فِي أَنْفُسِهَا، لَكِنَّهَا قَدْ تَسْتَحْدِمُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَيَّةٍ وَطَيْفَةٍ مِنَ الْوُظَائِفِ.

Sapir⁽²³⁾: 'جميع تأثيرات الفنان الأدبي أُحصيت أو شُعرَ بها حَدسيًا بالنظر إلى 'العَبَرِيّة' الشَّكْلِيّة لِلْعَبْرَةِ الخاصّة بِهِ؛ إذ إنَّها لا يُمكن نَقْلُها مِن غير أن تتعرَّض لِلخَسَارَةِ أو التَّعْدِيلِ. لِذَلِكَ كَانَ كروتشَة مُحِقًّا تَمَامًا فِي قَوْلِهِ إِنَّ الْعَمَلَ الْفَنِّيَّ الْأَدَبِيَّ لَا يُمكن أَنْ يُترَجَمَ الْبَتَّة. وَمَعَ ذَلِكَ، يُترَجَمُ الْأَدَبُ فَعْلِيًّا، وَبِكِفَايَةِ مُدْهِشَةٍ أحيانًا⁽²⁴⁾. وهكذا، يَبْدُو أَنَّ مُشْكَلَةَ سَنَسْأُ، وَالْحَلُّ الْمُقْتَرَحُ لَهَا يَكْمُنُ فِي "أَنَّ فِي الْأَدَبِ نَوْعَيْنِ أَوْ مُسْتَوَيْنِ لِلْفَنِّ مُتَضَافَرَيْنِ مُتَمَازَيْنِ- أَحَدُهُمَا فَنٌّ عَامٌّ غَيْرُ لُغَوِيٍّ يُمكن نَقْلُهُ بِلا خَسَارَةٍ إِلَى وَسْطِ لُغَوِيٍّ أَجْنَبِيٍّ، وَالْآخَرُ فَنٌّ لُغَوِيٌّ خَاصٌّ غَيْرُ قَابِلٍ لِلنَّقْلِ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ تَمْيِيزَهُمَا صَحِيحٌ تَمَامًا، عَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّا لَا يُمكننا الحُصُولُ عَلَى الْمُسْتَوَيْنِ خَالِصَيْنِ عِنْدَ الْمُمَارَسَةِ. فَالْأَدَبُ يَتَحَرَّكُ فِي اللُّغَةِ بِوصْفِهِ وَسَطًا، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْوَسْطَ يَتَضَمَّنُ طَبَقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا تُمَثِّلُ مَضْمُونَ اللُّغَةِ الْكَامِنِ- سِجِلُنَا الْحَدِثِيَّ الْخَاصَّ بِالتَّجْرِيبَةِ-، وَتُمَثِّلُ الْآخَرَى تَعْدِيلًا خَاصًّا لِلُّغَةِ مُعْطَاة- الْكِيفِيَّةَ الْمُحَدَّدَةَ لِسِجِلُنَا الْخَاصَّ بِالتَّجْرِيبَةِ. فَالْأَدَبُ الَّذِي يَسْتَمِدُّ عَوْنَهُ الرَّئِيسَ- لَا الْكُلِّيَّ الْبَتَّة- مِنَ الْمُسْتَوَى الْأَخْفَضِ، لِنَقْلُ إِنَّهُ مَسْرُوحِيَّةٌ لِشَيْكْسْبِير Shakespeare⁽²⁵⁾، يَكُونُ قَابِلًا لِلتَّرْجَمَةِ [228] مِن غَيْرِ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ جَدًّا فِي

(23) إدورد سابير (1884-1939م). عالِمٌ أَمْرِيكِيٌّ مُتَخَصِّصٌ فِي الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا وَاللِّسَانِيَّاتِ. بَحَثٌ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالشَّخْصِيَّةِ، وَأَسْهَمَ فِي تَأْسِيسِ فَرْعَيْنِ جَدِيدَيْنِ لِلْبَحْثِ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيِّ، هُمَا: الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا اللُّغَوِيَّةُ، وَتَحْلِيلُ دَوَرِ اللُّغَةِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ؛ وَالْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا النَّفْسِيَّةِ، وَتَنْظَرُ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الثَّقَافَةِ وَالشَّخْصِيَّةِ. وَاسْتَحْدَتْ وَسَائِلَ تُمَكِّنُ الْعُلَمَاءَ مِن إِعَادَةِ بِنَاءِ التَّارِيخِ الثَّقَافِيِّ وَالْحَضَارِيِّ عَلَى الرَّغْمِ مِن انْدثَارِ الْأَثَارِ الْمَكْتُوبَةِ. وَكَانَ إِسْهَامُهُ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ فِي مَجَالِ دِرَاسَةِ التَّرَاكِبِ اللُّغَوِيَّةِ، وَتَارِيخِ اللُّغَاتِ، وَتَحْلِيلِ أَوْجُوهِ الشَّبَّهِ وَالِاخْتِلَافِ بَيْنَ اللُّغَاتِ. وَكَانَ رائِدًا فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، مِنْهَا عِلْمُ اللُّغَةِ الْعِرَاقِيِّ الَّذِي يَبْحُثُ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ؛ وَعِلْمُ اللُّغَةِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يَبْحُثُ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الذَّهْنِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِاللُّغَةِ. وَعَالِجَتْ مَعْظَمَ دِرَاسَاتِهِ الْوَصْفِيَّةَ لِغَلَاظِ مَجْتَمَعِ الْهِنْدِ الْحَمْرِ فِي أَمْرِيكَا وَثِقَافَتِهِ. حَوَّثَ أَثَارُهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَقَالَاتِ، وَكُتَابًا مُوسَّعًا عَنَوَانُهُ (اللُّغَةُ: مَقْدَمَةٌ لِدِرَاسَةِ الْكَلَامِ). [الْمُتَرَجِمُ]

Op. cit., Language, pp. 237-239.

(24)

(25) وِلِيَم شَيْكْسْبِير (1564-1616م). الشَّاعِرُ، وَالْكَاتِبُ الْإِنْجِلِيزِيُّ الَّذِي يُصَنَّفُ بِوصْفِهِ أَعْظَمُ =

خَصَائِصِهِ. فَإِنْ كَانَ تَحَرُّكُهُ فِي الْمُسْتَوَى الْأَعْلَى أَكْبَرَ- وَالْمِثَالُ الْمُنَاسِبُ لِذَلِكَ إِحْدَى الْقَصَائِدِ الْغِنَائِيَّةِ لِسُونِبِيرِن Swinburne⁽²⁶⁾ - فَإِنَّهُ يَكُونُ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّرْجُمَةِ عَمَلِيًّا. وَمِنْ أَجْلِ تَوْضِيحِ هَذَا التَّمَايُزِ تُعْقَدُ مُوَازَنَةٌ بَيْنَ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ؛ إِذْ يُقَالُ عَنِ الصَّدَقِ الْعِلْمِيِّ إِنَّهُ غَيْرُ شَخْصِيٍّ، "إِنَّهُ، فِي آسَاسِهِ، غَيْرُ مَطْبُوعٍ بِالْوَسْطِ اللُّغَوِيِّ الَّذِي يَجِدُ فِيهِ التَّعْبِيرَ... وَمَعَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَعْبِيرٌ مَا، وَهَذَا التَّعْبِيرُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرًا لُغَوِيًّا. وَالْحَقُّ أَنَّ إدْرَاكَ الصَّدَقِ الْعِلْمِيِّ هُوَ فِي نَفْسِهِ عَمَلِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْفِكْرَ لَيْسَ إِلَّا اللَّغَةُ مُجَرَّدَةٌ مِنْ كِسْوَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ". وَالْأَدَبُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، "شَخْصِيٌّ وَمَلْمُوسٌ... فَحَدْسُ الْفَنَانِ، وَهُوَ التَّعْبِيرُ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ كَرُوتْشَة، يَتَشَكَّلُ قُوْرًا مِنْ تَجْرِبَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ عَامَّةٍ... بَلْ إِنَّ الْفَنَانَيْنِ الذَّيْنِ تَتَحَرَّكُ أَرْوَاحُهُمْ بِسَعَةِ فِي الْمُسْتَوَى غَيْرِ اللُّغَوِيِّ (الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: فِي الطَّبَقَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْعَامَّةِ)، لَيَجِدُونُ صُعُوبَةً مُعَيَّنَةً فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ". وَمِنْ الْمُفْتَرَضِ أَنَّ وِثْمَانَ Whitman وَآخَرِينَ، إِنْ جَاَزَ التَّعْبِيرُ، "يُنَاضِلُونَ فِي سَبِيلِ التَّوَصُّلِ إِلَى لُغَةٍ فَنِيَّةٍ عَامَّةٍ، عِلْمٌ جَبْرٌ أَدَبِيٌّ... وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ تَعْبِيرُهُمُ الْفَنِيُّ مُتَكَلِّفًا، وَيَبْدُو أحيانًا مِثْلَ تَرْجَمَةٍ عَنْ أَصْلٍ مَجْهُولٍ- وَالْحَقُّ أَنَّ هَذَا مَا هُوَ عَلَيْهِ بِالضَّبِطِ".

فَإِنْ حَاوَلْنَا التَّعَامُلَ مَعَ صُعُوبَاتِ التَّرْجَمَةِ مِنْ زَاوِيَةِ "الْعَبَقْرِيَّةِ الشَّكْلِيَّةِ" وَ"الْمَضْمُونِ الْكَامِنِ" لِلْوَسْطِ اللُّغَوِيِّ، وَ"الطَّبَقَةِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ" الَّتِي يَتَحَرَّكُ فِيهَا 'الْحَدْسُ'، فَإِنَّ ظُهُورَ الْمُعْصِيَّاتِ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ. لَكِنَّ إدْرَاكَ غِنَى الْوَسْطِ الَّذِي يَكُونُ

= كَاتِبٍ بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَأَعْظَمُ كَاتِبٍ مَسْرُحِيٍّ عَلَى مَسْتَوَى الْعَالَمِ، وَكَثِيرًا مَا يُعَدُّ الشَّاعِرَ الْوِطْنِيَّ لِلْإِنْجِلْتِرَا. سَبَرَ فِي مَسْرُحِيَّاتِهِ أَغْوَارَ النَفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَحَلَّلَهَا فِي بِنَاءٍ مُتَنَاسِقٍ جَعَلَهَا أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالسَّمْفُونِيَّاتِ الشَّعْرِيَّةِ. مِنْ أَشْهُرِ آثَارِهِ الْكُومِيدِيَّةُ: كُومِيدِيَا الْأَخْطَاءِ، وَتَاجِرُ الْبِنْدَقِيَّةِ، وَمِنْ أَشْهُرِ آثَارِهِ التَّرَاجِيدِيَّةُ: رُومِيُو وَجُولِيَّت، وَيُولِيُوسُ قَيْصَر، وَهَامِلْت، وَعُظِيل، وَمَاكِث، وَالْمَلِكُ لِير. [المُتَرْجِم]

(26) الْغِيرِنُون تشارلز سُونِبِيرِن (1837-1909م). شَاعِرٌ، وَكَاتِبٌ مَسْرُحِيٍّ، وَرِوَايِيٌّ، وَنَاقِذٌ إِنْجِلِيزِيٌّ. مِنْ آثَارِهِ الشَّعْرِيَّةِ الدِّرَامِيَّةِ: الْأُمُّ الْمَلِيكَةُ، وَمَارِي سْتِيُورْت، وَالْأَخَوَات. [المُتَرْجِم]

تَحْتَ تَصَرُّفِ الشَّعْرِ، والذي سيكونُ مَوْضِعَ اهْتِمَامِنَا عَمَّا قَرِيبَ، يُتَبَحُّ لَنَا الاستِغْنَاءُ عَنِ الْمُسَاعَدَةِ الْمَشْكُوكِ فِيهَا لِإِدْيَالِكْتِكِ مَدِينَةِ نابولي. والحقُّ أنَّ التَّرْجَمَةَ قَدْ تَنَجَّحَ أَوْ تُخَفِّقُ لِعِدَّةِ أَسْبَابٍ وَاضِحَةٍ تَمَامًا. فَإِنَّ أَيَّْ اسْتِعْمَالٍ رَمَازِيٍّ خَالِصٍ لِلْكَلِمَاتِ مِنَ الْمُمْكِنِ إِعَادَةُ إِنْتاجِهِ إِنْ كَانَتْ قَدْ طُوِّرَتْ تَمَيِّزَاتٌ رَمَازِيَّةٌ مُتَشَابِهَةٌ فِي مُفْرَدَاتِ اللَّغَتَيْنِ. وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى إِسْهَابَاتٍ أَوْ إِلَى رُموزٍ جَدِيدَةٍ سَتَكُونُ قَائِمَةً، وَإِنَّ دَرَجَةَ التَّنَاطُرِ الْمُمْكِنِ لِمِمَّا يُمَكِّنُ التَّثَبُّتَ مِنْهُ بِسُهولةٍ. مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، [229] كُلَّمَا ازدَادَ تَضَمُّنُ الوُظَانِفِ الانْفِعَالِيَّةِ أَصْبَحَتْ مُهِمَّةُ إدماجِها فِي مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الْمُفْرَدَاتِ أَقْلَ يَسْرًا. ثُمَّ إِنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَ اسْتِعْمَالُ التَّأثيرَاتِ الْمُبَاشِرَةِ لِلْكَلِمَاتِ فِي اللُّغَةِ الْأَصْلِ مِنْ خِلَالِ الْإيقاعِ، وَالصَّفَةِ الصَّائِغَةِ، وَمَا إِلَيْهِمَا، ازدَادَتْ صُعُوبَةُ تَأْمِينِ تَأثيرَاتٍ مُشَابِهَةٍ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا فِي حَالَةِ وَسْطِ صَوْتِيٍّ مُخْتَلِفٍ. وَهَكَذَا، لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ مَنْهَجٍ مُكَافِئٍ، وَيَمِيلُ هَذَا إِلَى تَعْوِيقِ الْوُظَانِفِ الْأُخْرَى حَتَّى إِنْ مَا يُدْعَى 'نَجَاحُ' التَّرْجَمَةِ كَثِيرًا مَا يَكُونُ مَرَدُّهُ الْأَسَاسُ إِلَى خُصَائِصِهَا الْجَوْهَرِيَّةِ الذَّائِيَّةِ. وَإِذَا مَا كَانَ ثَمَّةَ فَهْمٍ لِكُلِّ مِنَ وَظَانِفِ اللُّغَةِ وَمَوَارِدِهَا التَّفْنِيَّةِ فَإِنَّ النِّقْدَ التَّرْجَمِيَّ يُقَدِّمُ مِنْهَجًا لِإِدْرَاسَةِ اللُّغَةِ آسِرًا وَمَوْجَّهًا عَلَى نَحْوِ مُتَمَيِّزٍ.

إِنَّ وَجْهَةَ النَّظَرِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ الْكَلَامَ يُقَدِّمُ حَالًا عِلَامِيَّةً مُرَكَّبَةً لَا مُفْرَدَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْيَانِ تَقْرِيبًا تُسَلِّطُ إِضَاءَةً جَدِيدَةً عَلَى عِدَّةِ مُشْكَلَاتٍ فِي النَّحْوِ التَّقْلِيدِيٍّ. فَمُعَالَجَةُ تَكْوِينِ الْجُمْلَةِ وَالتَّرْكِيبِ بِخَاصَّةٍ يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهَا تَعَامُلًا جَدِيدًا. وَإِنْطِلَاقًا مِنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ يُمَكِّنُ أَنْ نَعُدَّ أَنْموذَجًا لِذَلِكَ الْفِيلُولُوجِيٍّ⁽²⁷⁾ الْقَانِعَ بِمَجَرَّدِ وَظِيفَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُزْدَوِجَةٍ فِي تَعْرِيفَاتِهِ لِلْكَلِمَةِ وَالْجُمْلَةِ.

الْكَلِمَةُ رَمَزٌ صَوْتِيٌّ إِفْصَاحِيٌّ فِي حَالَةِ دَلَالَةٍ تَعْيِينِيَّةٍ عَلَى شَيْءٍ مَا يُتَخَدَّثُ عَنْهُ.

Dr. A. Gardiner in art. Cit., *The British Journal of Psychology* (General Section), Vol. XII, Part iv., April, 1922. See, however, his *The Theory of Speech and Language*, 1932, p. 98.

الْجُمْلَةُ رَمَزٌ صَوْتِيٌّ إِنْصَاحِيٌّ فِي حَالَةِ تَجْسِيدِ مَوْقِفٍ إِرَادِيٍّ لِلْمُتَكَلِّمِ مِنَ الْمُسْتَمِعِ.

وَمَا دَعَاهُ الدُّكْتُورُ غَارْدِنَرُ Gardiner⁽²⁸⁾ 'مَوْقِفًا إِرَادِيًّا' يَبْدُو أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ فِي النُّقْطَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ قَائِمَتِنَا لِلْوِظَائِفِ. وَمِنْ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عُمُومًا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ الْإِقْرَارُ بِكَوْنِ أَيِّ اسْتِعْمَالٍ كَلَامِيٍّ مُحَاوَلَةً لِتَحْقِيقِ التَّوَاضُّلِ مَا لَمْ تُرَاعَ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ.

إِنَّ الْفَائِدَةَ الَّتِي يَجْنِيهَا النَّحْوِيُّونَ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْمُعْرِفَةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ غَيْرُ وَاضِحَةٍ. وَالَّذِي يُهْمُّ هُوَ مَا يُلْحَقُ عَلَيْهِ الْكَاتِبُ، مُحَقِّقًا، مِنَ التَّبَايُنِ بَيْنَ وَظِيفَتِي الْكَلَامِ الْمَذْكُورَتَيْنِ. وَلَيْسَتْ الْوِظَائِفُ الْأُخْرَى [230] الَّتِي تَتَّبَعِي مُرَاعَاتُهَا فِي أَيِّ تَحْلِيلٍ شَامِلٍ لِلُّغَةِ بِأَقْلٍ تَبَايُنًا.

وَيُتَّهَمُ أَحْيَانًا الَّذِينَ يَكْتُبُونَ فِي عِلْمِ النَّفْسِ بِأَنَّهُمْ يُغْفِلُونَ جَانِبَ الْمُسْتَمِعِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْإِنْهَمَاكَ فِي 'التَّعْبِيرِ' بِوَصْفِهِ الْوِظِيفَةَ الرَّئِيسَةَ لِلُّغَةِ⁽²⁹⁾ كَانَ كَارِثِيًّا. لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ إِغْفَالِ الْمُسْتَمِعِ الَّذِي حَدَثَ بِتِلْكَ الْوَسِيلَةِ بِقَدَرٍ مَا كَانَ بِسَبَبِ الْأَثَرِ التَّخْدِيرِيِّ الْغَرِيبِ لِكَلِمَةِ 'التَّعْبِيرِ' نَفْسِهَا. فَتَمَّةٌ تَعْبِيرَاتٌ مُعَيَّنَةٌ فِي الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ يَبْدُو أَنَّهَا تَجْعَلُ أَيَّ تَقْدِمٍ مُسْتَحِيلًا. إِذْ إِنَّهَا تُذْهِلُ الْعَقْلَ الْمُسَائِلَ وَتُخَيِّرُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ تُرْضِيهِ بِطَرِيقَةٍ مَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا مُضْذَرٌّ يَأْسٍ لِلَّذِينَ يَوَدُّونَ مَعْرِفَةَ مَا قَدْ قَالُوا، هِيَ مُضْذَرٌّ بَهْجَةٍ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يَكُونُ اهْتِمَامُهُمُ الرَّئِيسُ بِالْكَلِمَاتِ تَفَادِيِ الْمُسْكِلاتِ. فَكَلِمَةُ 'التَّعْبِيرِ' إِحْدَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَ'يُجَسَّدُ' كَلِمَةٌ أُخْرَى، وَقَدْ كُنَّا مُنْذُ قَلِيلٍ مُنْشَغِلِينَ بِمُعَالَجَةِ كَلِمَةِ 'مَعْنَى' بِالتَّفْصِيلِ. وَالْمَطْلُوبُ هُوَ بَحْثٌ فَاجِصٌ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي تُخْفِيهَا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ، وَإِنَّ تَحْلِيلَنَا لَيُظْهِرُ أَنَّ تَقْدِيمَ الْمُسْتَمِعِ لَا يَقَعْلُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْ تَسْلِيطِ الضُّوءِ عَلَى الْقَضِيَّةِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، حِينَ عُنِيَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ وَغَيْرُهُمْ بِحَقِيقَةِ أَنَّ الْكَلَامَ يَدُلُّ ضِمْنًا عَلَى

(28) أَلَن هِنْدِرْسَن غَارْدِنَر (1879-1963م). مِنْ أَوَائِلِ الْعُلَمَاءِ الْبَرِيطَانِيِّينَ الْمُهْتَمِّينَ بِالْآثَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي بَدَايَا الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ وَأَوَاسِطِهِ. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ: مِصْرُ الْقَرَاعِنَةِ، وَالنَّحْوُ الْمِصْرِي، وَنَفْثَرِيَّةُ الْكَلَامِ وَاللُّغَةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(29) يُنْظَرُ مِثَالًا لِذَلِكَ: Wundt, *Völkerpsychologie*, 3rd ed., I., p. 43.

المُسْتَمِيع لم يَكُونُوا عَنِ الإِلْحَاحِ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ. ففِي سَنَةِ 1900 كَتَبَ ديتريتش Dittrich⁽³⁰⁾، صَاحِبُ أَحَدِ كِرَاسِي الأَسْتَاذِيَّةِ القَلِيلَةِ المُمَيَّزَةِ فِي المَوْضُوعِ، يَقُولُ: "مِنَ الأُمُورِ الأَسَاسِيَّةِ لِلْعِلْمِ اللُّغَوِيِّ أَلَا يَتَقَصَّرُ شَأْنُ اللُّغَةِ عَلَى التَّعْبِيرِ، بَلْ أَن يَشْمَلَ التَّأثِيرَ، وَأَن يَكُونَ التَّوَاصُلُ مِنْ أَسَاسِيَّاتِهَا، وَأَلَا يُهْمَلُ ذَلِكَ فِي تَعْرِيفِهَا". وَاسْتِنَادًا إِلَى ذَلِكَ ضَمَّنَ فِي تَعْرِيفِهِ الكَلِمَاتِ الآتِيَةَ: "بِالْقَدْرِ الَّذِي يُمَكِّنُ شَخْصًا وَاحِدًا آخَرَ فِي الأَقْلُ أَن يُحَاوِلَ الفَهْمَ"⁽³¹⁾. وَقَدْ يُشَكُّ فِي مَا يُمَكِّنُ أَن تُقَدِّمَهُ زِيَادَةُ كَلِمَاتٍ كَهَذِهِ لِعِلْمٍ مَا، غَيْرَ أَنَّ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ فَوْنَ هَمْبُولْتِ von Humboldt⁽³²⁾ قَدْ ذَهَبَ بَعِيدًا جِدًّا فِي هَذَا الاتِّجَاوِ حِينَ قَالَ⁽³³⁾: "لَا يَفْهَمُ المَرْءُ نَفْسَهُ إِلَّا حِينَ يَخْتَبِرُ عَمَلِيًّا وَضُوحَ كَلِمَاتِهِ عِنْدَ الآخَرِينَ". [231] وَقَدْ اشتهَرَ أَيْضًا تَاكِيدُ شتاينتال Steinthal الدَّورَ الَّذِي يُؤَدِّيهِ المُسْتَمِيعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ وَتَطَوُّرِهَا⁽³⁴⁾، وَإِنَّ دُو سوسيرَ فِي مُعَالَجَتِهِ التَّمَوُّذِجِيَّةِ لَوُظَائِفِ الكَلَامِ الَّتِي كَانَتْ، عَلَى مَا رَأَيْنَا فِي فَصْلِنَا الأَوَّلِ، غَيْرَ مُرْضِيَةٍ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، قَدْ بَلَغَ بِالأَمْرِ مَبْلَغَ رَسْمِ صُورٍ لِلْمُسْتَمِيعِ وَهُوَ يُصْغِي إِلَى المُتَكَلِّمِ، مِمَّا بِذَلِكَ 'الدَّائِرَةُ اللُّغَوِيَّةُ'⁽³⁵⁾. وَأَتَمَّ مَارْتِنَاك Martinak⁽³⁶⁾ دَائِرَةَ مُشَابَهَةِ لِلْعَلَامَاتِ الإِرَادِيَّةِ فِي صُورَةِ مُحْطَظٍ مِنْ

(30) أوتمار ديتريتش (1865-1951م). لغوي، وفيلسوف ألماني في جامعة لايبزغ. من مؤلفاته: مُشكِلاتُ سايكولوجية اللغة. [المُترجم]

(31) O. Dittrich, *Die Probleme der Sprachpsychologie*, pp. 11-12.

(32) فريدريش ولهم كرسنتين كارل فرديناند فون همبولت (1767-1835م). فيلسوف، وديپلوماسي بروسي. كَانَ صَدِيقًا لِغُوتَةِ وِثْلَر، وَبُذَكَرَ غَالِبًا بِوصْفِهِ لِسَانِيًّا. كَانَتْ لَهُ إِسْهَامَاتٌ مُهِمَّةٌ فِي حَقْلِ فِلْسَافَةِ اللُّغَةِ وَالتَّعْلِيمِ نَظَرِيًّا وَعَمَلِيًّا، وَوَضَعَ أَسَاسِيَّاتِ نِظَامِ التَّعْلِيمِ فِي بَرُوسِيَا، وَهُوَ النِّظَامُ الَّذِي أَخَذَتْهُ أَمْرِيكَا وَاليَابَانُ. مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ: الكِتَابَةُ وَعِلَاقَتُهَا بِالْكَلَامِ، وَأَفْكَارُ مُقْتَرَحَةٍ لِتَصْنِيفِ حُدُودِ فَاعِلِيَّةِ الدَّوْلَةِ، وَمِهْمَةُ المَوْزُخِ. [المُترجم]

(33) *Sprachphilosophische Werke*, edited by Steinthal (1884), p. 281.

(34) *Abriss der Sprachwissenschaft*, Vol. I., 2nd ed. (1881), p. 374.

(35) *Op. cit.*, *Cours de Linguistique Générale* (1916), p. 28.

(36) إدورد مارتيناك (1859-1943م). فيلسوف، وعالم نفس، ولغوي ألماني. مِنْ أَهَمِّ أَتَارِهِ: دِرَاسَاتُ سَايْكُولُوجِيَّةٍ فِي نَظَرِيَّةِ المَعْنَى. [المُترجم]

خِلَالَ تَفْيِذِ الْمُسْتَمْعِ إِرَادَتَهُ⁽³⁷⁾، فِي حِينِ أَنَّ بِالْدُون Baldwin⁽³⁸⁾ كَانَ قَدْ خَصَّصَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ صَفْحَةً مِنَ الْمَجْلَدِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ الْفِكْرُ والأشياء *Thought and Things* لِتَأْثَرِ اللُّغَةِ بِوُظَائِفِهَا فِي الْإِتِّصَالِ، وَعِلَاقَاتِ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُسْتَمْعِ فِي مَا أَسَمَاهُ 'الإخبار بِوصفه تَوْضِيحًا' وَالْإخبار بِوصفه عَرْضًا⁽³⁹⁾.

غَيْرَ أَنَّ أَهَمَّ إِدْرَاكِ عَمَلِيٍّ لِحَقِيقَةِ أَنَّ لِلُّغَةِ عِدَّةَ وَظَائِفَ يُمَكِّنُ أَنْ نَجِدَهُ فِي الْهُجُومِ الْكَبِيرِ الَّذِي شَتَّهَ بَرُونُو Brunot⁽⁴⁰⁾ عَلَى الْإِجْرَاءَاتِ النَّحْوِيَّةِ السَّائِدَةِ⁽⁴¹⁾. وَقَبْلَ ذَلِكَ، فِي سَنَةِ 1903، كَانَ عَمِيدُ مَوْسَسَةِ الْمَنْحِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ قَدْ افْتَنَعَ بِضَرُورَةِ التَّخْلِيِّ عَمَّا يُسَمَّى 'أَقْسَامِ الْكَلَامِ'، إِنَّمَا بِوصفه مَنَهَجٌ مُقَارَبِيٌّ، وَإِنَّمَا فِي التَّدْرِيسِ الْفِعْلِيِّ، وَفِي سَنَةِ 1908، بِصِفَتِهِ أَسْتَاذًا فِي جَامِعَةِ السُّورْبُونِ، دَوَّنَ اقْتِنَاعَهُ هَذَا بِوُضُوحٍ وَقُوَّةٍ. وَظَلَّ مُدَّةَ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةً، فِي عَشْرَةِ تَنْقِيحَاتٍ، مَشْغُولًا بِهَذَا الْمَوْضُوعِ الْخِلَافِيِّ، وَيَقُولُ فِي ذَلِكَ: "بَعْدَ كُلِّ تَنْقِيحٍ كُنْتُ أَعُودُ إِلَى الْإِسْتِنَاجِ نَفْسِهِ - أَنْ لَا تَعَامَلَ مَعَ النِّظَامِ الْقَدِيمِ، وَلَا إِعَادَةً لِتَجْمِيعِ حَقَائِقِ اللُّغَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَا مُرْضِيَيْنِ مَا دَامَ التَّصْنِيفُ عَلَى أَسَاسِ أَقْسَامِ الْكَلَامِ سَارِيَّ

(37) *Op. cit.*, *Psychologische Untersuchungen zur Bedeutungslehre* (1901), p. 65.

(38) جِيمْس مَارْك بِالْدُون (1861-1934م). فِيلَسُوفٌ، وَعَالِمٌ نَفْسٍ أَمْرِيكِيٌّ. تَخَرَّجَ فِي جَامِعَةِ بَرِنْسْتِن تَحْتَ إِشْرَافِ البروفيسورِ الْأَسْكُتْلَنْدِيِّ جِيمْس مَكْشُوش، وَكَانَ أَحَدَ مَوْسِسِي قِسْمِ عِلْمِ النَّفْسِ فِي الْجَامِعَةِ. كَانَتْ لَهُ إِسْهَامَاتٌ مَهْمَةٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ، وَالتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ، وَنَظَرِيَّةِ النَّشْوءِ. مِنْ أَهَمِّ أَثَارِهِ: عُنَاصِرُ عِلْمِ النَّفْسِ، وَقِسْمَةُ الْعَقْلِ، وَالْفِكْرُ وَالْأَشْيَاءُ. [المُتَرَجِم]

(39) Vol. II., p. 152.

(40) فَرْدِينَانْدُ يُوْجِينِ جَان بَابْتِيسْتِ بَرُونُو (1860-1938م). لِسَانِيٌّ وَفِيلُولُوجِيٌّ فَرَنْسِيٌّ، وَمُحَرِّرُ الْكِتَابِ الْمَهْمِ (تَارِيخُ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مِنْذُ نَشَائِهَا حَتَّى سَنَةِ 1900). أَصْبَحَ سَنَةَ 1891 مُحَاضِرًا فِي جَامِعَةِ السُّورْبُونِ وَسَنَةً إِحْدَى وَثَلَاثُونَ سَنَةً. وَهَنَاكَ بَدَأَ إِجْنَازَ كِتَابِهِ الْمَشْرُوكَ مَعَ زَمِيلِهِ اللَّسَانِيِّ لُويسِ بَتِي دُو جُولِيْفِيلِ، فَأَتَمَّ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ تَارِيخِهِ الضَّخِيمِ، الْمَخْصُصَ لِفَرَنْسِيَّةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى. وَقَدْ طُبِعَ مِنْ تَارِيخِهِ هَذَا تِسْعَةُ أَجْزَاءٍ فِي حَيَاتِهِ، وَاكْتَمَلَ فِي ثَلَاثَةِ عَشْرِ جُزْءًا. وَتَشَرَّكَ كَذَلِكَ كِتَابًا عَنْ نَحْوِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الْفُصْحَى، وَعِدَّةُ بَحُوثٍ تُدَافِعُ عَنِ الْهَجَائِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ الْمُبَسَّطَةِ. [المُتَرَجِم]

(41) *La Pensée et la langue* (1922).

المفعول. يَجِبُ أن نَعزِمَ على ابتكارِ مَنَاجِحٍ لِدِرَاسَةِ اللُّغَةِ غَيْرِ مَصَوَّغَةٍ عَلَى أَاسَاسِ العَلَامَاتِ، بَلْ عَلَى أَاسَاسِ الأَفْكَارِ". وَتَخْتَلِفُ البروفيسور برونو عن مُعْظَمِ اللُّغَوِيِّينَ فِي أَنَّهُ يَعْنِي تَمَامًا أَنَّ التَّحْلِيلَ السَّايكُولُوجِيَّ الخَالِصَ لِلْحَالَةِ الكَلَامِيَّةِ يَكْمُنُ وَرَاءَ هَذِهِ [232] المُقَارَبَةِ الوَظِيفِيَّةِ لِلُّغَةِ، وَمِنَ المُثِيرِ لِلْاهْتِمَامِ أَنَّ نَجْدَ بَيَانَةِ الشَّامِلِ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِالمُصْطَلَحِ الفَرَنَسِيِّ مُطَابِقًا لِلقِسْمَةِ الخُمَاسِيَّةِ المُقْتَرَحَةِ أَيْضًا.

وَمُكِنُّنَا الآنَ أَنْ نُحَدِّدَ بِدِقَّةٍ أَكْبَرَ صِلَةَ الإِحَالَةِ بِالرَّمْزِ، الَّتِي هِيَ غُرْصَةُ لِعَوَامِلِ التَّعْوِيقِ هَذِهِ. فَإِحَالَةُ الرَّمْزِ الَّتِي نَرَاهُ الآنَ مَا هِيَ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ عَدَدٍ مِنَ الأَلْفَاظِ الَّتِي لَهَا صِلَةٌ بِشَكْلِ الرَّمْزِ. بَلْ إِنَّهَا لَيْسَتْ الْعَامِلُ الْمُهِينَ فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ، وَكُلَّمَا كَانَ الكَلَامُ المَبْحُوثُ أَكْثَرَ بِدَائِيَّةً بَدَأَ هَذَا الْعَامِلُ أَقْلًا أَهْمِيَّةً. وَمَعَ ذَلِكَ، مَا دُمْنَا نَحْتَاجُ إِلَى تَعْزِيزَاتٍ وَعَلَامَاتٍ تُمَيِّزِيَّةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَزِيدِ رَهَافَةٍ تَعَامُلَاتِنَا مَعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرَةِ مُبَاشَرَةً— أَيْ الَّتِي لَيْسَتْ فِي سِيَاقَاتٍ شَدِيدَةِ القُرْبِ وَالبَسَاطَةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى تَجْرِبَتِنَا الْحَاضِرَةِ—، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَزِيدِ التَّعْقِيدِ أَوْ التَّهْذِيبِ فِي إِحَالَتِنَا، تُصْبِحُ هَذِهِ الوَظِيفَةُ الرَّمْزِيَّةُ الصَّارِمَةُ لِلْكَلِمَاتِ بِسُهُولَةٍ أَكْثَرَ أَهْمِيَّةً مِنْ أَيْةٍ وَظِيفَةٍ أُخْرَى. وَلِذَا كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُبْدَأَ فِي أَيْةٍ أَطْرُوحَةٍ تَتَعَلَّقُ بِوَثَائِفِ الكَلِمَاتِ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْعِتْيَادِيِّ بِالتَّرْمِيزِ الصَّارِمِ.

فَفِي الْحَالَاتِ الْعِتْيَادِيَّةِ لَا يَقْتَصِرُ الإِمْكَانُ عَلَى شَكْلِ رَمْزِيٍّ وَاحِدٍ فَقَطْ، بَلْ يُمَكِّنُ وُجُودَ عَدَدٍ مِنَ أَشْكَالِ الرُّمُوزِ بِقَدْرِ تَعَلُّقِ الأَمْرِ بِالإِحَالَةِ الَّتِي عَلَيْهَا أَنْ تَصَحَّبَهَا. وَيُمَكِّنُ أَنْ تُصَحَّبَ الإِحَالَةُ بِA، أَوْ B، أَوْ C، أَوْ D، وَهِيَ رُمُوزٌ بِأَشْكَالٍ أَوْ بَنِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ غُضُوٌّ مُمَكِّنٌ فِي السِّيَاقِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الإِحَالَةُ، بِمَعْنَى أَنَّ انْصِوَاءَهُ لَا يُغَيِّرُ مِنَ الإِحَالَةِ شَيْئًا. وَهَذَا المَدَى مِنَ الأشْكَالِ المُمَكِّنَةِ هُوَ الَّتِي يُمَكِّنُ الرَّمْزَ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ الكَثِيرَ جِدًّا مِنَ المَنَافِعِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَامَةً فِي الكَثِيرِ جِدًّا مِنَ الأَحْوَالِ المُتَمَايِزَةِ الَّتِي هِيَ مَعَ ذَلِكَ مُتَرَامِنَةٌ.

فَلْتَفَتَرَضِ الآنَ أَنَّ المُتَكَلِّمَ، زِيَادَةً عَلَى مُهِمَّتِهِ الإِحَالِيَّةِ، يَتَّخِذُ مَوْقِفًا مَا مِنْ مُسْتَوِيعِهِ، وَلِنَقُلْ إِنَّهُ الوُدِّيَّةُ قَدْ يَكُونُ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَشْكَالِ الرَّمْزِيَّةِ A، B، C، D، وَلِنَقُلْ إِنَّهُ D، مَا هُوَ أَكْثَرُ مُنَاسِبَةً لِلظَّلِّ الْخَاصِّ بِهَذَا المَوْقِفِ مِنَ الْأَشْكَالِ

الْأُخْرَى، بِمَعْنَى أَنَّهُ غَضُوْ مُمَكِّنٌ فِي سِيَاقِ الْمَوْقِفِ، أَيْ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ تِلْكَ الْمَجْمُوعَةِ مِنَ الرُّمُوزِ الَّتِي لَا يَتَسَبَّبُ نُطْقُهَا فِي تَغْيِيرِ الْمَوْقِفِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا هُوَ مُتَضَمَّنٌ [233] فَإِنَّ D سَيُنْطَلَقُ، مَا دَامَ أَيُّ تَعْلِيلِي مُنَاسِبٍ آخَرَ يَتَضَمَّنُ، افْتِرَاضًا، بَعْضَ التَّغْيِيرِ فِي الْإِحَالَةِ.

وَلِنَفْتَرِضَ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَشْعُرُ، مَثَلًا، بِالِاسْتِزَارِ مِنْ مَرَجِعِهِ. فَإِنَّ هَذَا سَيُؤَدِّي، عَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، إِلَى تَعْدِيلِ إِضَافِي فِي الرَّمْزِ. وَكَذَلِكَ نَفْعُلْ، مَرَّةً أُخْرَى، أُمْنِيَّاتِ الْمُتَكَلِّمِ، وَرَغَبَاتِهِ، وَمَقَاصِدُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَثَرِ تَعْلِيلَاتِهِ. وَكَثِيرًا مَا تُرْضِي التَّعْدِيلَاتُ أَنْفُسَهَا هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ كِلَتَيْهِمَا، وَلَكِنْ أحيانًا حِينَ يَتَعَارَضُ لِسَبَبٍ مَا، مَثَلًا، مَوْقِفُ الْمُتَكَلِّمِ الذَّاتِي وَالْمَوْقِفُ الَّذِي يَتَمَنَّى أَنْ يُشَبِّهَهُ، يَجِبُ أَنْ تَزُولَ السِّيَاقَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْمَوَاقِفِ الْكَلِمِيَّةِ، وَيُصْبِحُ التَّرْمِيزُ الْحَصِيفُ أَصْعَبَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، كَثِيرًا مَا يَنْبَغِي لَوْضُوحِ الْمُتَكَلِّمِ أَوْ لِمَعْمُودِهِ فِي الْإِحَالَةِ أَنْ يُخْفَى أَوْ أَنْ يَخْضَعَ لِلتَّسْوِيَةِ. وَمُمَكِّنٌ، عَلَى مَا بَيَّنَّا آنِفًا، أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ تَصْنِيفٍ لِيَقْبِيهِ أَوْ ظَنُّهُ، وَلِشَكِّهِ أَوْ دَرَجَةِ اعْتِقَادِهِ، هُوَ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْعَامَّةِ مِنَ الْمَرَاجِعِ.

فَمُعْظَمَ مَا يُكْتَبُ أَوْ مَا يُقَالُ إِذَنْ مِمَّا يَكُونُ مُمْتَرِّجًا أَوْ بَلَغِيًّا فِي مُقَابِلِ اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ الْخَالِصِ، أَوِ الْعِلْمِيِّ، أَوِ الرَّمْزِيِّ الضَّارِمِ، يَكْتَسِبُ شَكْلَهُ بِوَصْفِهِ نَتِيجَةً لِّتَسْوِيَةٍ. وَأحيانًا فَقَطْ يَتَأَخَّرُ تَرْمِيزُ يَكُونُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْقِدَ شَيْئًا مِنْ دِقَّتِهِ الرَّمْزِيَّةِ، مُنَاسِبًا أَيْضًا (لِمَوْقِفِ الْكَاتِبِ مِنْ جُمْهُورِهِ)، وَمُثْلَانِمَا (لِمَرَجِعِهِ)، وَحَصِيفًا (رُبَّمَا لِيُنْشِئَ التَّأَثِيرَاتِ الْمَرْغُوبَ فِيهَا)، وَشَخْصِيًّا (دَالًّا عَلَى ثَبَاتِ إِحَالَتِهِ أَوْ قَلْبِهَا). وَالِاحْتِمَالَاتُ تَقِفُ بِالضَّدِّ تَمَامًا مِنْ إِمْكَانِ وُجُودِ وَفَرَةٍ مِنَ الرُّمُوزِ الَّتِي لَهَا الْقُدْرَةُ عَلَى أَدَاءِ هَذَا الْقَدْرِ الْكَبِيرِ مِنَ الْمَهْمَاتِ. وَنَتِيجَةً لِذَلِكَ يُضْحَى بِبَعْضِ هَذِهِ الْوُظَائِفِ فِي مُعْظَمِ الْأَقْوَالِ. ففِي قَوْلِنَا 'صَبَاحُ الْخَيْرِ' 'good morning' وَمَعَ السَّلَامَةِ 'good-bye' تُهْدَرُ الْوُظَيْفَةُ الْإِحَالِيَّةُ، أَيْ أَنَّ هَاتَيْنِ الْعَلَامَتَيْنِ اللَّفْظِيَّتَيْنِ لَيْسَتَا رَمْزَيْنِ، وَيَكْفِي مَنَا كَوْنُهُمَا مُنَاسِبَتَيْنِ. وَكَذَلِكَ عِبَارَاتُ التَّعْجُبِ وَالْإِيمَانِ لَيْسَتْ بِرُمُوزٍ، فَكُلُّ مَا يَبْتَغَى بِهَا أَنْ تُرْضِيَ شَرْطَ الْمَلَأَمَةِ، وَهُوَ وَاحِدٌ

من أسهل الشروط في المستوى المتدني من اللطف الذي تُطوّر هذه العلامات العاطفية لتكون إياه. ويبدو أن السياقات الوحيدة المطلوبة هنا [234] هي التي تكون بأبسط نظام ممكن في علم النفس، كبساطة سياق أنين وجع الضرس. ويجب أن تُلَبّي الطلبات أو الأوامر شروط الإحالة والغرض، ولكنها يُحتمل، والحق أنه كثيراً ما يجب، أن تتفادى كلاً من المناسبة والملاءمة بالمعنيين المذكورين آنفاً، كما هي الحال، مثلاً، في الكثير من الأوامر العسكرية. ومن جهة أخرى، في وسع التهديدات الاستغناء بسهولة عن الإحالة، أي أن تكون غير ذات معنى، وألا يحكمها إلا الغرض المقصود. والأسئلة والطلبات تُشبه الأوامر في الجوانب المذكورة آنفاً ولا تختلف عنها إلا في الوسيلة التي يُبحث من خلالها عن التأثيرات المرغوب في إحداثها.

تقودنا هذه الأمثلة المتعلقة بإسقاط واحدة أو أكثر من وظائف اللغة، على نحو طبيعي، إلى أكثر الحالات لفناً للنظر وخضوعاً للنقاش وهي حالة الاختلاف والافتراق، أي بين النثر والاستعمالات الشعرية للغة. فمن هذه الزاوية لا يكون التمايز بينهما مرمزاً على نحو مرضٍ؛ ذلك بأن أفضل ما يُعرف به الشعر لأكثر الأغراض عمومية وأهمية يكون بالصلة بالحالة، أو بالحالات، العقلية التي يُولدُها 'الشعر' في قراء مناسبين، ومن غير أية صلة بالوسيلة اللفظية المحددة. لذلك، يمكننا أن نستبدل بُنَيَّة النثر والشعر بُنَيَّة الاستعمالين الرمزي والانفعالي للغة. ففي اللغة الرمزية الصارمة تكون التأثيرات الانفعالية للكلمات، مباشرة كانت أو غير مباشرة، غير ذات صلة باستخدامها. أما اللغة الاستثنائية، من جهة أخرى، فيُعنى فيها بكل الوسائل التي يُمكن بواسطتها أن تُثار المواقف، والأمزجة، والرغبات، والمشاعر، والعواطف في المستمعين إثارة لفظية. وقد سبق أن بحثنا بشيء من التفصيل (ص 260-261) أهمية التفريق بين هذين الاستعمالين للغة، ويمكن أن نأتي هنا بعدد قليل من الاعتبارات الإضافية التي تتعلّق بالوسائل التي تضمّن بها اللغات الاستثنائية حدوث تأثيراتها.

وكتيراً ما وصّف الأدباء هذه الآثار الثانوية للكلمات، من غير أن يفعلوا

الكثير لدراساتها دراسة تفصيلية. إذ يَكْتُب لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn⁽⁴²⁾، مثلاً، قائلاً إِنَّهُ يَرَى أَنَّ "الكَلِمَاتِ لَهَا لَوْنٌ، وَتَكُونُ [235] خَصِيصَةً. وَلَهَا وَجْهٌ، وَقِيَاةٌ، وَتَصَرُّفَاتٌ، وَإِمَاءَاتٌ، وَلَهَا طَبَائِعٌ، وَأَمْرِجَةٌ، وَشُدُوزَاتٌ، وَلَهَا صِبْغَاتٌ، وَنَعَمَاتٌ، وَشَخْصِيَّاتٌ. أَنَا أَكْتُبُ لِأَصْدِقَائِي الْأَعْزَاءِ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْا اللَّوْنَ فِي الْكَلِمَاتِ، وَأَنْ يَشْمُوا عِطَرَ الْمَقَاطِعِ فِي طَوْرِ الْإِزْهَارِ، وَأَنْ يُضْدَمُوا بِشُدُوزِ الْكَلِمَاتِ الْفَاتِنِ اللَّطِيفِ. وَفِي التَّرْتِيبِ الْأَبَدِيِّ لِلْأَشْيَاءِ سَيَعْرِفُ النَّاسُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ لِلْكَلِمَاتِ حَقُوقَهَا".

إِنَّ الْكَلِمَاتِ أَوْ تَنْظِيمَاتِ الْكَلِمَاتِ لَتَسْتَدْعِي مَوَاقِفَ عَلَى نَحْوِ مُبَاشِرٍ كَالْأَصْوَاتِ، وَعَلَى نَحْوِ أَقَلِّ مُبَاشَرَةٍ بِطَرَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ خِلَالِ مَا يُدْعَى عَلَى نَحْوِ قُضْفَاضٍ 'تَرَابُطَاتٍ'. وَتَأْثِيرَاتُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَنْجُمُ مُبَاشَرَةً (أَيِ غُضُوبًا) عَنْ خَصَائِصِهَا الصَّوْتِيَّةِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تَأْفِهُةً، وَلَا تُصْبِحُ مُهِمَّةً إِلَّا مِنْ خِلَالِ تَأْثِيرَاتٍ تَرَاكُمِيَّةٍ وَتَخْدِيرِيَّةٍ كَالَّتِي يُسَبِّبُهَا الْإِيقَاعُ وَالْقَافِيَةُ. وَأَهَمُّ مِنْهَا الْمُصَاحِبَاتُ الْعَاطِفِيَّةُ الْفُورِيَّةُ النَّاجِمَةُ عَنْ تَجَرِبَةٍ سَابِقَةٍ لَهَا فِي ارْتِبَاطَاتِهَا التَّمَوُّدَجِيَّةِ. وَإِذَا مَا أُرِيدَ الْحُصُولُ عَلَى هَذِهِ الْمُصَاحِبَاتِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى اسْتِدْعَاءِ الْارْتِبَاطَاتِ أَنْفُسِهَا. وَلَدُنَّا، نَالِيًا، تَأْثِيرَاتٌ يُلَمَحُ إِلَيْهَا اعْتِيَادِيًا بِوَصْفِهَا الْعَوَاطِفِ النَّاجِمَةِ عَنْ التَّرَابُطَاتِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ خِلَالِ اسْتِدْعَاءِ الْمَوَاقِفِ كَامِلَةٍ. وَقَدْ قَصَرْنَا اهْتِمَامَنَا، حَتَّى الْآنَ، عَلَى اللُّغَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، لَكِنْ تَمَيَّزَ الْوُظِيفَةُ وَتَنَوَّعَتْ أَنْفُسُهَا بِنَشْأَنِ فِي حَالَةِ اللُّغَاتِ غَيْرِ اللَّفْظِيَّةِ. فَحِينَ نَنْظُرُ إِلَى لَوْحَةٍ مَا، كَمَا أَنَّنَا حِينَ نَقْرَأُ قَصِيدَةً، يُمَكِّنُنَا أَنْ نَتَّخِذَ أَحَدَ مَوْقِفَيْنِ اثْنَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا. إِذْ يُمَكِّنُنَا الْإِذْعَانُ لَهَا بِوَصْفِهَا مُثِيرًا، مُرْجِيْنَ الْعِنَانَ لِخَصَائِصِهَا اللَّوْنِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا الشَّكْلِيَّةِ لِتَفَعَّلَ فَعَلُهَا الْعَاطِفِيَّ فِينَا. وَيُمَكِّنُنَا اتِّخَاذَ مَوْقِفٍ مُغَايِرٍ بِتَأْوِيلِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا (كَلِمَاتِهَا). وَلَيْسَ أَوَّلُ

(42) باترك لافكاديو هيرن (1850-1904م). كَاتِبٌ عَالَمِيٌّ يُونَانِيٌّ الْأَصْلَ. أَهَمُّ مَا عُرِفَ بِهِ مَوْلَعَاتُهُ عَنِ الْيَابَانِ، وَلَا سَيِّمًا مُخْتَارَاتُهُ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْيَابَانِيَّةِ وَقَصَصِ الْأَشْيَاحِ. وَهُوَ مَعْرُوفٌ أَيْضًا فِي أَمْرِيكََا بِكَتَابَاتِهِ عَنْ نِيوْأُورْلِيَانِزِ الَّتِي تَسْتَبْدُ إِلَى إِقَامَتِهِ فِيهَا عَشْرَ سَنَوَاتٍ. [المترجم]

هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ تَمْهِيدًا لَا غِنَى عَنْهُ لِثَانِيهِمَا. وَافْتِرَاضُ الْأَمْرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَعْنِي الْخَطَأَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا. وَقَدْ أَسَدَى السَّيِّدُ كَلَايْف بِيْل Clive Bell خِدْمَةً نَافِعَةً بِتَنْبِيهِهِ عَلَى أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ قَدْ اعْتَادُوا الْمُبَوَّرَ، فِي حَالَةِ اللُّوْحَاتِ، إِلَى ثَانِي هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ مُهْمِلِينَ أَوَّلَهُمَا كُلِّيًّا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِهْمَالِ يُجَرِّدُ اللُّوْحَةَ مِنْ جُزْئِهَا الْأَسَاسِيِّ. وَقَدْ أَسَدَى البروفيسور سَيْنْتْسْبِيرِي Saintsbury⁽⁴³⁾ خِدْمَةً مُشَابِهَةً لِلْقُرَّاءِ الْمُتَعَجِّلِينَ. [236]

لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَوَّلَ هَذَيْنِ الْمَوْقِفَيْنِ، أَيِ التَّسْلِيمِ لِلْعَمَلِ الْفَنِّيِّ بِوَصْفِهِ مُتَبَرِّكًا، بِهِ حَاجَةٌ إِلَى التَّشْجِيعِ، إِنَّ الْمَوْقِفَ الثَّانِيَّ، أَيِ الْمُتَعَلِّقَ بِالتَّأْوِيلِ، لَا يَقِلُّ عَنْهُ أَهَمِّيَّةً. عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ يُصْبِحُ نِقَادُ كِلَا الْمَوْقِفَيْنِ مُتَحَمِّسِينَ جِدًّا لِلْمَوْقِفِ عَلَى وَجْهِ اللَّصْذِقِ. وَيَجِبُ عَلَيْنَا فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ، بَعْدَ أَنْ نَسْمَحَ لِلْأَشْكَالِ الْخَالِصَةِ أَنْ تُؤَثِّرَ فِينَا، أَنْ نَنْطَلِقَ إِلَى التَّأْوِيلِ إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْمَحَ لِلْوَحْيِ أَوْ الْقَصِيدَةِ بِأَنْ تُؤَلِّدَ نَتِيجَتَهَا الْكَامِلَةَ. فَإِذَا مَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَسَيَكُونُ ثَمَّةُ خَطَرَانِ فِي مَقْدُورِ الْحِسِّ السَّلِيمِ أَنْ يَتَفَادَاهُمَا. أَحَدُهُمَا خَطَرُ التَّدَاعِيَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلَا دَاعِيٍّ إِلَى الْخَوْصِ فِي تَعْيِينِ مُتَعَلِّقِهَا. وَالْآخَرُ خَطَرُ خَلْطِ اسْتِثَارَةِ مَوْقِفٍ مَا مِنْ حَالَةٍ مَا بِالْوَصْفِ الْعِلْمِيِّ لَهُ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْاسْتِعْمَالَيْنِ لِلْعَقَةِ الْمُخْتَلِفَيْنِ جِدًّا يَظْهَرُ وَاضِحًا جِدًّا فِي حَالَةِ الْكَلِمَاتِ. غَيْرَ أَنَّ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَاهُ يَنْطَبِقُ بِالدَّرَجَةِ نَفْسِهَا عَلَى التَّضَادِّ بَيْنَ الْفَنِّ وَالتَّصْوِيرِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ. إِنَّهُ الْفَرْقُ بَيْنَ طَرَائِقِ إِظْهَارِ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يُفِيدُ مِنَ الْاضْطِرَابَاتِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي تُؤَلِّدُهَا مَنَظُومَاتٌ مُعَيَّنَةٌ، مِنْ أَجْلِ إِعَادَةِ الْحَالَةِ الْكُلِّيَّةِ لِرُؤْيَةِ الْمَوْضُوعِ أَوْ سَمَاعِهِ جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ مَعَ الْعَوَاطِفِ الَّتِي يُشْعَرُ بِهَا تَجَاهَهُ، وَبَيْنَ الْإِظْهَارِ الْعِلْمِيِّ الْخَالِصِ، أَيِ الرَّمْزِيِّ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى تَوْجِيهِ الْمَوْقِفِ الْمُسْتَنَارِ صَوْبَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُعَيَّنَةِ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لاسْتِثَارَتِهِ، وَلَكِنَّهُ غَالِبًا مَا

(43) جورج إدورد بيتمن سينتسبيري (1845-1933م). كَاتِبٌ، وَمُؤَرِّخٌ أَدِيبِيٌّ، وَنَاقِدٌ إِنجِلِيزِيٌّ. مِنْ أَتَارِهِ: مَقَالَاتٌ فِي الْأَدَبِ الْإِنجِلِيزِيِّ، وَمَقَالَاتٌ فِي الرُّوَائِيَّاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَانْطِبَاعَاتٌ مُصَحَّحَةٌ. [المُتَرَجِّمُ]

يَكُونُ تَعْدِيلًا أَكْثَرَ عُمُومِيَّةً. وَمِمَّا يَزِيدُ هَذِهِ الْفُرُوقَ وَضُوحًا النَّظْرُ فِيهَا فِي مِيدَانِ مُشَابِهٍ جَدًّا هُوَ الرَّسْمُ، حَيْثُ لَا تَدْخُلُ الْعَوَاطِفُ بِطَرِائِقَ مُخْتَلِفَةٍ وَإِنَّمَا فَقَطْ بِزِيَادَةِ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّمَايُزِ بَيْنَهَا تَبَعًا لِلطَّرَاقِقِ الَّتِي تَدْخُلُ بِهَا. وَمِثْلَمَا يُمَكِّنُنَا تَمْيِيزُ الْآثَارِ الْعَاطِفِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ لِصِفَاتِ الصَّوْتِ وَنَبْرَاتِهِ، يُمَكِّنُنَا بِالصَّبْطِ تَمْيِيزُ الْآثَارِ الْمُبَاشِرَةِ الْمُشَابِهَةِ لِلْوَنِ وَالشَّكْلِ. فَمِثْلَمَا يُمَكِّنُ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، أَنْ تُعَارِضَ الصَّفَةُ الصَّائِغَةُ وَالصَّامِتَةُ الْإِبْقَاعَ، يُمَكِّنُ أَنْ يُعَارِضَ اللَّوْنُ الشَّكْلَ، أَيْ أَنَّ بِإِمْكَانِهِمَا أَنْ يَسْتَتِيرَا عَوَاطِفَ مُتَعَارِضَةٍ. وَعَلَى نَحْوِ مُشَابِهِهِ، مِنْ الْمَقَرَّرِ أَنَّ الْأَلْوَانَ تَكْتَسِبُ تَأْثِيرَاتِهَا الْعَاطِفِيَّةَ مِنْ خِلَالِ التَّجَرِبَةِ، التَّأْثِيرَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ [237] الَّتِي هِيَ لَيْسَتْ التَّأْثِيرَاتِ الْعَاطِفِيَّةَ لِتَرَابُطَاتِهَا. فَقَرَدُ الْإِسْكِيمُو Eskimo⁽⁴⁴⁾ وَقَرَدُ الْمُوْر Moor⁽⁴⁵⁾، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، يَخْتَلِفُ تَأْثُرُهُمَا بِطَرِيقَةِ التَّلَوِينِ الْبَرِيطَانِيَّةِ؛ إِذْ إِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَأْلَفُ اخْتِيَارَاتٍ لَوْنِيَّةً مُخْتَلِفَةً، بِصَرْفِ النَّظَرِ تَمَامًا عَنْ تَرَابُطَاتِهَا.

وَطَبِيعِيٌّ أَنْ تُهْمَلَ التَّأْثِيرَاتِ الْعَاطِفِيَّةُ فِي الْاِسْتِعْمَالِ الْعِلْمِيِّ لِلُّغَةِ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ بِإِدْخَالِ هَذِهِ التَّأْثِيرَاتِ يُمَكِّنُ أَنْ تُصْبِحَ اللُّغَةُ مُلَانِمَةً لِأَدَاءِ وَظِيفَةِ مُزْدَوِجَةٍ. فَإِنْ شِئْنَا، مَثَلًا، أَنْ نَصِفَ كَمْ تَبْدُو حَرَكَةُ السَّاعَةِ بَطِينَةً حِينَ يَكُونُ صَبْرُنَا قَدْ نَفِدَ، فَإِنَّمَا أَنْ نَصِفَ سَايَكُولُوجِيًّا خَوَاصَّ امْتِدَادِ إِحْسَاسِنَا بِالزَّمَنِ، مُسْتَعْمِلِينَ الرُّمُوزَ مُمَثِّلَةً لِعَنَاصِرِ الْحَالَةِ، وَمُطَرِّجِينَ الْاِسْتِثَارَاتِ الْعَاطِفِيَّةَ لِهَذِهِ الرُّمُوزِ، وَإِنَّمَا أَنْ نُسْتَعْمَلَ الرُّمُوزَ مُمَثِّلَةً لِمَجْمُوعَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ فَحَسْبُ، وَبِذَلِكَ نَعُدُّهَا لِتُعِيدَ لَدَى الْمُسْتَعْمِلِ الْعَوَاطِفَ الْمُلَانِمَةَ. وَتَكْشِفُ الْمُمَازَسَةُ

(44) الْإِسْكِيمُو: شَعْبٌ يَسْكُنُ شِمَالَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ. وَالْكَلِمَةُ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ كَلِمَةٍ هِنْدِيَّةٍ-أَمْرِيكِيَّةٍ

تَعْنِي أَكْلِي اللَّحْمِ النَّثْيِ أَوْ النَّاطِقِينَ بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ. [الْمُتَرْجِمُ]

(45) الْمُوْر، أَوْ الْمُوْرِيُونُ: مُصْطَلَحٌ يُطْلَقُ عَلَى جَمِيعِ سُكَّانِ شِمَالِ إِفْرِيقِيَا مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزِ عِرْقِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ أَوْ نَفَاقِيٍّ وَاضِحٍ. وَبُعْتَقْدُ أَنَّ أَصْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ الْكَلِمَةُ الْيُونَانِيَّةُ mauros الَّتِي تَعْنِي الْأَسْوَدَ أَوْ الشَّدِيدَ الظُّلْمَةِ. وَيُسْتَعْمَلُ الْغَرْبُ كَلِمَةَ الْمُوْرِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى الْبَشَرِ ذَوِي الْبَشَرَةِ السَّمْرَاءِ فِي شِمَالِ إِفْرِيقِيَا، الَّذِينَ اشْتَرَكُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِ إِسْبَانِيَا أَوْ اسْتِيطَانِهَا. وَلَا حَقًّا عَمَّ الْغَرْبُ اسْتِعْمَالَ الْكَلِمَةِ، فَاطْلَقَهَا الْأَوْرُوبِيُّونَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي إِسْبَانِيَا وَلَوْ كَانَ إِسْبَانِيَّ الْأَصْلِ. [الْمُتَرْجِمُ]

عن أنَّ هذين المنهجين في استعمال اللغة يكونان متضادين في معظم الحالات، وإن لم يكن ذلك فيها جميعاً؛ فقد أكد البروفيسور مكينزي Mackenzie⁽⁴⁶⁾ أنَّ شيلي Shelly⁽⁴⁷⁾ حين كتب يقول:

"إلى الجحيم أيتها الروح المرحّة فلم تكوني قط طيراً".

"لم يقصد أن ينكر حقاً انتماء طائر القبرة إلى فصيلة الطيور"، ويمكننا أن نقول، على نحوٍ معاكس، إنَّ العبارة ذات الكفاية الرمزية قد يكون لها القليل من التأثير العاطفي. نعم، تحدث استثناءات، لكن هذا التضاؤ هو من العموم بحيث يسوّغ التضاؤات المعتادة بين التحليل والحس، وبين العلم والفر، وبين النثر والشعر. وإنما مردها إلى حقيقة أنَّ من النادر جداً أن يكون نسق الرموز الذي يُعيد حالة ما باستثارة عواطف مشابهة للعواطف المضمنة في الأصل، رمزاً كافياً لها. لذلك كان كلُّ من السيد برغسون والتحليليين على صواب؛ إذ إنَّ كلاً منهما يتمسك بأهميّة إحدى وظيفتي اللغة. وهم مخطئون فقط في عدم رؤيتهم بوضوح أن لا بُدَّ من أن تكون للغة هاتان الوظيفتان. ويبدو الأمر كما لو أنَّ نزاعاً قد نشب بشأن الفم: ألكلام هو أم لتناول الطعام؟

ويمّا لا يمكن إنكاره أنَّ التعقيدات وحالات اللبس التي في استعمال اللغة لأغراض الاستثارة [238] ليست بأقلَّ من تلك التي تُعانيها اللغة العلمية. ولكن

(46) جون ستيورت مكينزي (1860-1935م). فيلسوف هيجلي بريطاني. حاصر في الاقتصاد السياسي في كليّة أونز في جامعة مانشستر بين سنتي 1890 و 1893، وأصبح في سنة 1895 أستاذ المنطق والفلسفة في كاردف. من آثاره: مقدّمة في الفلسفة الاجتماعية، ومحاضرات في الإنسانية، وعناصر الفلسفة البنائية. [المترجم]

(47) بيرس بيش شيلي (1792-1822م). شاعر إنجليزي رومانتكي مهم. يُعدُّ واحداً من أفضل الشعراء الغنائيين الإنجليز. يُعرف بقصائده القصيرة: أوزيمانداس، وأغنية للريح الغربية، وإلى قبرة. ومع ذلك تتضمن أعماله المهمة قصائده الطويلة مثل: ثورة الإسلام، وأدوناي، وبروميثيوس طليقاً. [المترجم]

حِينَ يَخْتَلِفُ شَخْصَانِ فِي مَا يُسَمَّى فِي الاسْتِعْمَالِ الْعَادِيّ تَسْمِيَةً صَحِيحَةً تَمَامًا "تَأْوِيلَهُمَا" لِقَصِيدَةٍ أَوْ لِلوَحَةِ، فَالْإِجْرَاءُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَعَ حِينَئِذٍ مُغَايِرُ تَمَامًا لِلْإِجْرَاءِ الَّذِي يُنْصَحُ بِهِ حِينَ يَخْتَلِفَانِ فِي تَأْوِيلَهُمَا لِتَعْلِيلَاتٍ فِيزِيَاثِيٍّ مَا. وَمَعَ ذَلِكَ، نَمَّةٌ شَبَّهَ أَسَاسِيٌّ فِي الْحَالَتَيْنِ مَرْدَّةٌ إِلَى حَقِيقَةٍ أَنَّ كِلَيْتَهُمَا حَالٌ عِلَامِيَّةٌ، وَإِنْ تَكُنْ ثَانِيَتُهُمَا وَحْدَهَا رَمَازِيَّةٌ بِالْمَعْنَى الصَّارِمِ لِلْكَلِمَةِ.

وَيُمْكِنُ تَمْيِيزُ الْفَرْقِ بَيْنَ الاسْتِعْمَالَيْنِ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ دَقَّةٍ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: فِي الْكَلَامِ الرَّمْزِيِّ تَكُونُ الْاِعْتِبَارَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ صِحَّةَ التَّرْمِيزِ وَصِدْقُ الْإِحَالَاتِ. وَفِي الْكَلَامِ الْاسْتِثْنَائِيِّ يَكُونُ الْاِعْتِبَارُ الْأَسَاسِيُّ خَصِيصَةً الْمَوْقِفِ الْمُثَارِ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ يُمَكِّنُ اسْتِعْمَالَ الْعِبَارَاتِ الرَّمْزِيَّةِ وَسَبِيلَةَ لاسْتِثْنَاءِ الْمَوَاقِفِ، وَلَكِنْ حِينَ يَقَعُ هَذَا الْاسْتِعْمَالُ سِيلَحَظُ أَنَّ صِدْقَ الْعِبَارَاتِ أَوْ كَذِبَهَا لَا أَهْمِيَّةَ لَهُ إِذَا كَانَتْ مَقْبُولَةً لِلْمُسْتَمِعِ.

إِنَّ الْوَسَائِلَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَشِيرَ الْكَلِمَاتُ بِهَا الْمَشَاعِرَ وَالْمَوَاقِفَ مُتَعَدِّدَةٌ وَتُهَيِّئُ مَجَالَ دِرَاسَةٍ مُغْرِبًا لِعُلَمَاءِ نَفْسِ الْأَدَبِ. فَيَوْصِفُهَا أَصَوَاتًا، وَحَرَكَاتٍ نُطْقِيَّةً، وَكَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ عِدَّةِ شَبَكَاتٍ تَرَابُطٍ دَقِيقَةٍ، أَيْ سِيَاقَاتٍ حُدُوثِهَا فِي الْمَاضِي، يُمَكِّنُهَا أَنْ تُؤَثِّرَ مُبَاشَرَةً فِي الْبَوَاعِثِ الْمُنْتَظَمَةِ لِلْأَنْظِمَةِ التَّأَثِّرِيَّةِ-الْإِرَادِيَّةِ. وَلَكِنْ مَا يَقُوقُ كُلَّ أَوْلَنِكَ أَهْمِيَّةً، إِذْ يَعْمَلُ عَلَى تَقْوِيَةِ هَذِهِ التَّأَثِّرَاتِ الثَّانَوِيَّةِ وَضَبْطِهَا وَتَوْحِيدِهَا، هُوَ التَّأَثِّرَاتُ الْإِيقَاعِيَّةُ وَالْعَرُوضِيَّةُ لِأَنْسَاقِ الْكَلِمَةِ. وَإِذَا مَا افْتَرَضَ مَنَطِقِيًّا أَنَّ الْإِيقَاعَاتِ وَلَا سِيَّمًا الْأَوْزَانُ لَهَا تَأَثِّرَاتٌ تَخْدِيرِيَّةٌ بِدَرَجَةٍ قَلِيلَةٍ فَإِنَّ الْفَرْقَ الْمَلْحُوظَ جِدًّا فِي الْقُوَّةِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الْمَنْسُوقَةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نِظَامٌ تَكَرَّرِيٌّ، يَسْهُلُ تَفْسِيرُهُ. إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ دَرَجَةُ مُعَيَّنَةٍ مِنْ قُرْطِ الْحَسَاسِيَّةِ افْتِرَاضًا مُلَانِمًا لِتَفْسِيرٍ أَعَمَّقُ لِمَزِيدِ الْحَسَاسِيَّةِ الْمُصَاحِبَةِ لِلْقِرَاءَةِ الْعَرُوضِيَّةِ تَجَاهَ الْخَصِيصَتَيْنِ الصَّائِغَتَيْنِ وَالصَّامِتِيَّةِ، وَ[239]لِلتَّأَثِّرِ الْبَارِدِ أَوْ الصَّفِيحِيِّ لِلْمَقَاطِعِ أَنْفُسِهَا حِينَ تَكُونُ فِي الشَّعْرِ الْحُرِّ. فَالْعَاطِفِيُّ، وَالْمُبَالِغَةُ فِي الْمَشَاعِرِ الْاِعْتِقَادِيَّةِ، وَإِخْفَاءُ الْمَلَكَاتِ التَّقْدِيرِيَّةِ، وَإِخْمَادُ الْمَوْقِفِ التَّسْأُلِيِّ 'هَلْ هَذَا كَذَلِكَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ؟'، كُلُّ أَوْلَنِكَ خَصَائِصُ مُمَيَّزَةٌ لِلتَّجَارِبِ الْعَرُوضِيَّةِ،

وهي مُلائمةٌ لِافتراضِ التَّخديرِ. فإذا ما زدنا على هذه التَّأثيراتِ لِلوزنِ قُدراَتِه على التَّصويرِ غيرِ المُباشرِ (كَدلالةِ الكَلِماتِ "يَتَمائِلُ"، و"يَتَقَلَّبُ"، و"ثَقِيلُ"، و"يَنْدَفِعُ"، و"مُحَطَّمُ"، حينَ تُطبَّقُ في الإيقاعاتِ)، وقُدراَتِه على التَّحكُّمِ المُباشرِ بِالانفعالاتِ (كَدلالةِ الكَلِماتِ "يَهْذِهْذُ"، و"يُثِيرُ"، و"وَقُورُ"، و"مَرِحُ")، وقُدراَتِه على التَّوحيِدِ (على ما يُظهِرُ اسْتِعْمالُه في مُستَوَى مُتَدَنٍّ بِوصفِهِ تَذَكُّرًا فَحَسَبُ)، فَلَن يَفاجِئنا أَن نَلْفِيَه واسِعَ الحُضورِ جِدًّا في الاستِعْمالِ الاسْتِثْرائِيِّ لِلْكَلامِ.

وَلَيْسَتْ بِنا حَاجَةٌ في هذا المَقامِ إلى التَّفكُّرِ التَّفصِيلِيِّ في وَسائِلِ الإثارةِ غيرِ المُباشِرةِ المُمكنَةِ مِن خِلالِ الكَلِماتِ. فَمِن خِلالِ العِبارَةِ؛ وَمِن خِلالِ إثارةِ التَّحْيِيلِ (كثيرًا ما تَتِمُّ في المُستَوياتِ المُتَدَنِّيةِ لِلتَّهْذِيبِ بِاسْتِعْمالِ الاسْتِعْارةِ)؛ وَمِن خِلالِ الاسْتِعْارةِ نَفْسِها - ولا تُسْتَعْمَلُ هُنا كما تُسْتَعْمَلُ في التَّرميزِ الصَّارِمِ لِتُظهِرَ سِمَةً بَنائِيَّةً في الإحالةِ أو لِتُؤَكِّدْها، بل لِتُهَيِّئَ، وكثيرًا ما يَكُونُ ذلكَ تَحْتَ غِطاءٍ مِن دَعْوَى هذا التَّفْسيرِ، تَصاحُباتِ لِإِحالاتٍ جَدِيدَةٍ وَمُفاجِئَةٍ ومُدْهِشَةٍ مِن أَجلِ إحداثِ التَّأثيراتِ المُركَّبَةِ مِنَ التَّضادِّ، والتَّعاضُّضِ، والانسِجامِ، والتَّفاعُلِ، والتَّوازُنِ التي يُمكنُ الحُصولُ عليها بِهذهِ الطَّريقةِ، أو تُسْتَعْمَلُ بِسِاطَةٍ أَكْبَرَ لِتُعْديِلَ النِّعْمَةَ الانفعاليَّةَ أو ضَبطَها؛ وَمِن خِلالِ التَّداعي؛ وَمِن خِلالِ الإحياءِ؛ وَمِن خِلالِ الكَثِيرِ مِنَ الرِّوايِطِ الدَّقِيقَةِ لِأَحْوالِ التَّذَكُّرِ، تَسْتَطِيعُ الكَلِماتُ أَن تُمارِسَ تأثيرًا عَميقًا بِصَرَفِ النِّظَرِ تَمامًا عَنِ آيَةٍ إِعانَةٍ مِنَ العَواطِفِ، أو الحاجاتِ، أو الرِّغباتِ، أو الظُّروفِ المَخْصُوصَةِ لِلْمُسْتَمِيعِ. فإذا ما حَدَّثَتْ، زِيادَةً على ذلكَ، إِعانَةً مِن أَوْلئِكم فليسَ ثَمَّةَ حَدٍّ لِمَداهِا الاسْتِثْرائِيِّ على ما انْضَحَّ كَثِيرًا على مَدَى التَّارِيخِ.

إِنَّ السِّمَةَ المُميِّزَةَ لِلهذهِ الأشْكالِ مِنَ الاسْتِثْارةِ التي تَحْدُثُ في الفُنونِ، حَيْثُ يَكُونُ الانْقِطاعُ عَنِ مِثْلِ هذهِ الظُّروفِ الشَّخْصِيَّةِ المَخْصُوصَةِ ضَروريًّا لِتَحقيقِ العُمومِ، هِيَ المَرْجُ المُتَواصِلُ بَيْنَ الوَسائِلِ المُباشِرةِ وَغَيْرِ المُباشِرةِ. [240] على أَنَّ إِهْمالَ الوَسائِلِ المُباشِرةِ المُتاحَةِ في الشَّعْرِ أو الاسْتِخفافِ بِها شائِعٌ عِنْدَ الذِّينِ لا يَسْتَعْمِلونَ هذا الوَسَطَ، وكثيرًا ما يُؤدِّي إلى مُحاولاتٍ لِإِخراجِ الشَّعْرِ مِن جُمْلَةٍ

الْفُنُون بِحُجَّةٍ أَنَّ جاذِبَتَهُ تَكُونُ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ فَقَطْ، مِنْ خِلَالِ الْأَفْكَارِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ ذَاتَ طَبِيعَةٍ حَسِّيَّةٍ. وَلَيْسَ مِنْ سَبَبٍ لِهَذَا الْخِلَافِ إِلَّا الْجَهْلُ وَحَدُّهُ.

وَمِنْ الضَّرُورِيِّ، لِسَوْءِ الْحَظِّ، تَاكِيدُ أَهْمِيَّةِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْوُظُفِيَّتَيْنِ لِلْكَلَامِ. إِذْ إِنَّ الْخَلْطَ بَيْنَهُمَا يُؤَدِّي إِلَى خِلَافَاتٍ يُوَضَّعُ بِمُوجِبِهَا الْفِكْرُ وَالْعَاطِفَةُ، وَالْعَقْلُ وَالشُّعُورُ، وَالْمَنْطِقُ وَالْحَدْسُ، أَحَدُهَا مَعَ الْآخَرِ فِي تَقَابُلٍ مُصْطَنِعٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سُهُولَةِ إِدْرَاكِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ تَنْتَهَكَ إِحْدَى هَاتَيْنِ الْوُظُفِيَّتَيْنِ حَتَّى الْوُظُفِيَّةِ الْآخَرَى⁽⁴⁸⁾. وَمَعَ ذَلِكَ، فَثَمَّةُ مَجْمُوعَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ مِنَ الرُّمُوزِ التَّسْجِيلِيَّةِ قَدْ نَمَتْ لِكِلْتَا الْوُظُفِيَّتَيْنِ - فَثَمَّةُ مَجْمُوعَةٍ صِدْقٍ وَوَاقِعِيَّةٍ وَشُمُولٍ لِلْكَلَامِ الرَّمْزِيِّ، وَمَجْمُوعَةٍ صِدْقٍ وَوَاقِعِيَّةٍ وَشُمُولٍ لِلْكَلَامِ الْاِسْتِثْنَائِيِّ. وَهَذَا التَّنَاطُرُ الشَّكْلِيُّ مُضِلٌّ لِلْغَايَةِ؛ إِذْ إِنَّ كَلِمَتِي (الصَّدَقُ)⁽⁴⁹⁾ وَ(الصَّدَقُ)⁽⁵⁰⁾ مُتَمَايِزَتَانِ كُلِّيًّا بِوَصْفِهِمَا رَمْزَيْنِ؛ فَأُولَاهُمَا تُحَدِّدُ مِنْ زَاوِيَةِ الْإِحَالَةِ، فِي حِينٍ أَنَّ الثَّانِيَةَ مُعَادِلَةٌ لِلْمُلَانِمِ وَالْأَصِيلِ، وَلَا تَقْتَضِي إِحَالَةً. وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُتَحَمِّسِينَ لِلْأَدَبِ يَسْتَنْفِدُونَ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا كُلَّ وُجُودِهِمُ الْعَقْلِيَّ الْفَعَالِ وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِي قَضِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ ثُنَائِيَّتِهِمْ فِي الْحَدْسِ وَالْمَنْطِقِ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

إِنَّ التَّخْلِيطَ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ بِسَبَبِ الْاعْتِمَادِ غَيْرِ الْمُمَحْصِصِ عَلَى الْكَلَامِ، مَعَ تَخْلِيطَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ تُثِيرُ حَقًّا اهْتِمَامًا شَدِيدًا، هُوَ وَحَدُّهُ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِمُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ فِي الرَّمْزِيَّةِ. وَحِينَ نَتَذَكَّرُ التَّسْأُلَاتِ الْعَقِيمَةَ وَالْحَيْرَةَ الَّتِي تُسَبِّبُهَا الْأُمُورُ غَيْرُ ذَاتِ الصَّلَةِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ الْجَوْهَرِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ لَا عِنْدَ الْأَطْفَالِ

(48) لِلْوُقُوفِ عَلَى اسْتِعْمَالِ مُثِيرٍ لِهَذَا التَّفْرِيقِ فِي مُعَالَجَةِ اضْطِرَابَاتِ الْكَلَامِ، يُنْظَرُ: Kinnier

Wilson, *op. cit.*, Aphasia (1926), pp. 53-62.

(49) فِي الْأَصْلِ (Truth^٥)، وَالـ(S) الصَّغِيرُ يُمَثِّلُ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنْ كَلِمَةِ (Symbolic). [الْمُتَرَجِّمُ]

(50) فِي الْأَصْلِ (Truth^E)، وَالـ(E) الصَّغِيرُ يُمَثِّلُ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنْ كَلِمَةِ (Emotive). [الْمُتَرَجِّمُ]

فقط وإنما عند كُلِّ مَنْ يَسْعَى إِلَى الْعُبُورِ إِلَى مَا وَرَاءَ مُجَرَّدِ تَبَاذُلِ الْإِحَالَاتِ الْمَقْبُولَةِ وَالْمَالُوفَةِ، [241] لَنْ نُحْدَعَ فَنَعْتَقِدَ أَنَّ اقْتِرَاحَ الْبَحْثِ الْجَادِّ فِي اللُّغَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُرَحَّةً أَوْ حَذَلَفَةً- كَمَا يَعْتَقِدُ الَّذِينَ لَمْ يُعْنِهِمُ الْفِكْرُ قَطُّ، فَلَمْ يَجِدُوا مِنْ ثَمَّ أَيَّةَ صُعُوبَةٍ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ. إِنَّ وَجْهَةَ النَّظَرِ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ اللُّغَةَ لَا تَتَسَبَّبُ فِي صُعُوبَاتٍ كَهَذِهِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا كُلُّ الْأَشْخَاصِ الْأَذْكِيَاءِ إِمَّا بِالْمُلَاحَظَةِ وَإِمَّا بِالتَّجَرُّبَةِ الشَّخْصِيَّةِ. أَمَّا وَجْهَةُ النَّظَرِ الْمُضَادَّةُ الَّتِي تَرَى أَنَّ الصُّعُوبَاتِ هَائِلَةٌ حَتَّى إِنَّهَا لَا يُمَكِّنُ التَّغَلُّبَ عَلَيْهَا فَيَجِبُ رَفْضُهَا لِأَسْبَابٍ مُشَابِهَةٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا أَكْثَرُ جِدَارَةً بِالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ. وَمَا تَفَعَّلَهُ اللُّغَةُ فِي الْأَصْلِ يُشْكَلُ أَرْضِيَّةُ الْأَمَلِ بِأَنَّهَا قَدْ تُجْعَلُ بِمُرُورِ الْوَقْتِ تُنْفَذُ وَظَائِفُهَا عَلَى نَحْوِ تَامٍ. وَمِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ لَا بُدَّ مِنْ تَضَاوُرِ نَظَرَيْتِي الْعَلَامَاتِ وَالتَّعْلِيمِ. فَمَا مِنْ مَنْظُومَةٍ رَسْمِيَّةٍ لِلْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ، وَمَا مِنْ مُطَالَبَاتٍ بِإِصْلَاحِ الْإِسَاءَاتِ فِي مُعَامَلَةِ اللُّغَةِ، يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا صَدَى مَا لَمْ تَطُورِ الْعَادَاتُ الَّتِي تُمَكِّنُ مِنْ اسْتِعْمَالِ حُرِّ اللُّغَةِ. فَمَا يُطْلَبُ مِنَ اللُّغَةِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى صَرَامَةِ التَّعْرِيفِ وَصَلَابَةِ التَّعْبِيرِ، بَلْ يُحْتَاجُ كَذَلِكَ إِلَى الْمُرُونَةِ، وَالسَّلَاسَةِ، وَالْحُرِّيَّةِ فِي التَّوْسِيعِ السَّرِيعِ فِي حَالِ اقْتَضَى الْأَمْرِ التَّوْسِيعِ. وَلَا يُمَكِّنُ تَطْوِيرُ هَذِهِ الْقَابِلِيَّاتِ إِلَّا مِنْ خِلَالِ التَّدْرِيبِ الَّذِي هُوَ مُخَصَّصُ الْآنَ لِأُمُورٍ يَسْتَلِزِمُ فَهْمُهَا وَجُودَ لُغَةٍ ذَاتِ كِفَايَةٍ.

إِنَّ عِلْمًا جَدِيدًا، هُوَ عِلْمُ الرَّمْزِيَّةِ، مُهِئًا الْآنَ لِلظُّهُورِ، وَسَتَأْتِي مَعَهُ آيَّةٌ تَعْلِيمِيَّةٌ جَدِيدَةٌ. فَاللُّغَةُ هِيَ أَهْمُ أَدَاةٍ نَمْتَلِكُهَا. وَفِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ نَحْنُ نَحَاوِلُ اكْتِسَابَ مَعْرِفَةٍ اسْتِعْمَالِهَا وَإِشَاعَتِهَا بِالْمُحَاكَاةِ، وَبِالْحَدْسِ، أَوْ بِالْقَاعِدَةِ التَّجْرِبِيَّةِ، رَاضِينَ بِجَهْلِنَا لِطَبِيعَتِهَا. وَلَا يَرْجِعُ الْفَضْلُ إِلَى جُهُودِ الطِّفْلِ وَحْدَهُ فِي زَمَنِ هَذَا فِي امْتِلَاكِهِ عُدَّةٍ تَفْضُلُ بِمَرَاتٍ مَا كَانَ يَمْتَلِكُهُ أَرَسْطُو مِنْهَا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّطْوِيرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ثَمَرَةً تَضَاوُرٍ فِي الْجُهِودِ. أَمَّا الَّذِينَ لَمْ تُقْنِعْهُمْ حُلُولُ الْمُسْكِلاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُقَدَّمَةِ فِي صَفَحَاتِ هَذَا الْكِتَابِ فَعَسَى أَنْ يَكْتَشِفُوا خَيْرًا مِنْهَا. عَلَى أَنَّهُ إِنْ يَكُنْ ادِّعَاؤُنَا تَقْدِيمَ تَوْجِيهِ جَدِيدٍ سَائِفًا فَإِنَّ النَّتَاجَ الْعَمَلِيَّةَ الْبَعِيدَةَ الْمَدَى الَّتِي نَاقِشْنَاهَا قَابِلَةٌ لِلتَّحَقُّقِ أَصْلًا. [242]

مُلَخَّصُ الْكِتَابِ

في ختام نقاشٍ طويلٍ يتضمَّنُ فحْصًا تفصيليًا للكثيرِ من المُشكلاتِ المُستَقْلَةِ، وأمثلةٌ مُفَصَّلَةٌ لِتطبيقاتِ المَنهجِ، وإيضاحاتٍ تاريخيَّةٍ ونُقودًا خاصَّةً لِتَزَعَّاتٍ فاسِدةٍ، يُستَحَسَنُ إثباتُ مُختَصَرٍ مُوجِزٍ لِلْمَوْضوعاتِ الرَّئيسَةِ التي عُولِجَتْ في الكتابِ مِن أَجْلِ تَقْدِيمِ انطباعٍ عامٍ بِشأنِ مَجالِ الرِّمزيَّةِ ومُهمَّتها. ولا يُمكنُنا تَفادي الخَسارَةَ في المَنظورِ التي تُحْتَمُّ وَقوعُها قائِمةُ المُحتَوَّياتِ التي يُحالُ عليها القارئُ إلَّا بِاستِبعادِ كُلِّ إلماحٍ إلى مَوْضوعاتٍ كَثيرةٍ لَيْسَتْ بِأَقْلَ أَهميَّةٍ مِن المَوْضوعاتِ المَذكُورَةِ هُنا.

1. - الأفكارُ، والكَلِماتُ، والأشياء

إنَّ أَثَرَ اللُغَةِ في الفِكرِ غايةٌ في الأهميَّةِ. والرِّمزيَّةُ هِيَ دِراسَةُ هذا الأَثَرِ، الذي لا تَقِلُّ قُوَّتُهُ مِن حَيْثُ ارْتِباطُهُ بِالحَيَاةِ اليوميَّةِ عَن قُوَّتِهِ في أَكثَرِ مَسائِلِ الفِكرِ استِغلاقًا.

وإذا ما أُريدَ إنْشاءُ أيَّةِ عِبارَةٍ أو تأويلُها فلا بُدَّ مِن وُجودِ ثَلَاثَةِ عَوامِلَ:

1. عَمَلِيَّاتٌ ذَهْنِيَّةٌ.

2. رَمَزٌ.

3. مَرَجِعٌ ما- شَيْءٌ ما يُفَكَّرُ 'فيه'.

إنَّ المُشكِلةَ النَّظريَّةَ لِلرِّمزيَّةِ هِيَ-

كَيْفَ تَرْتِبطُ هَذِهِ العَوامِلُ الثَّلَاثَةُ فيما بَيْنِها؟

أما المُشكِلةُ العَمليَّةُ، ما دُمنا مُضْطَرِّينَ إلى اسْتِعمالِ الكَلِماتِ في النِّقاشِ

والججاج، فهي-

إلى أي مدى تُحَرِّفُ نِقَاشُنَا نَفْسَهُ الْمَوَاقِفَ الْمُعْتَادَةُ تَجَاهَ الْكَلِمَاتِ،
والافتراضاتِ الْمُعْشَشَةُ الَّتِي مَصْدَرُهَا نَظَرِيَّاتٌ لَمْ تُعْذِ بِتَمَسُّكِهَا عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ
لَكِنْ مَا زَالَتْ يُسَمِّحُ لَهَا بِتَوَجُّهِهِ مُمَارَسَتِنَا؟

وَأَخْطَرُ هَذِهِ الْاِفْتِرَاضَاتِ شَأْنًا مَصْدَرُهُ النَّظَرِيَّةُ السَّحَرِيَّةُ لِلْاِسْمِ بِوَصْفِهِ جُزْءًا
مِنَ الشَّيْءِ، النَّظَرِيَّةُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ ارْتِبَاطًا مُتَاصِلًا بَيْنَ الرُّمُوزِ وَ[243] الْمَرَاجِعِ.
وَيُؤَدِّي هَذَا الْإِرْثُ عِنْدَ الْمُمَارَسَةِ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْمَعْنَى لِلْكَلِمَاتِ. إِنَّ اسْتِثْوَالَ
هَذِهِ الْعَادَةِ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقَهُ إِلَّا بِدِرَاسَةِ لِلْعَلَامَاتِ عُمُومًا تَقُودُ إِلَى نَظَرِيَّةٍ إِحَالِيَّةٍ
لِلتَّعْرِيفِ يُمْكِنُ أَنْ نَتَجَنَّبَ بِهَا الْمَشْكِلَاتِ الْوَهْمِيَّةَ النَّاجِمَةَ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ
الْخُرَافَاتِ. وَحِينَ يُتَخَلَّصُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ تُصْبِحُ جَمِيعُ الْمَوْضُوعَاتِ أَقْرَبَ مَنَازِلًا
وَأَكْثَرَ إِمْتَاعًا.

2. - سُلْطَةُ الْكَلِمَاتِ

لِسِحْرِ الْكَلِمَاتِ مَكَانَةٌ خَاصَّةٌ فِي السَّحْرِ عُمُومًا. وَمَا لَمْ نُدْرِكْ كُنْهُ الْمَوَاقِفِ
الْفِطْرِيَّةِ تَجَاهَ الْكَلِمَاتِ حَتَّى السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ أَخْفَقْنَا فِي فَهْمِ الْكَثِيرِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ
بِسُلُوكِ الْمَنَاطِقَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصُّوفِيِّينَ الْمُعَاصِرِينَ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَوَاقِفَ أَنْفُسَهَا
مَا زَالَتْ مُلِحَّةً عَلَى نَحْوِ خَفِيِّ وَغَيْرِ مُغْلَنِ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ بِإِمْكَانِ نَظَرِيَّةِ
الْعَلَامَاتِ تَسْلِيْطُ الضُّوءِ عَلَى أَصُولِ هَذِهِ الْاِعْتِقَادَاتِ السَّحَرِيَّةِ وَالْحَاجِهَا.

3. - الْأَحْوَالُ الْعَلَامِيَّةُ

مَا يَحْدُثُ فِي كُلِّ عَمَلِيَّةٍ تَفْكِيرٍ هُوَ أَنَا نُوَوِّلُ عِلَامَاتٍ.

وَفِي الْحَالَاتِ الْوَاضِحَةِ يُقَرَّرُ بِذَلِكَ عَلَى الْفَوْرِ. أَمَّا الْحَالَاتُ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ
تَعْقِيدًا كَالَّتِي فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَالنَّحْوِ فَلَا تَتَضَمَّنُ إِلَّا أَشْكَالًا أَكْثَرَ تَعْقِيدًا لَهَا
الْفَعَالِيَّةُ نَفْسَهَا.

وَيَحْجُبُ كُلَّ ذَلِكَ عَنَّا الْاِسْتِعْمَالُ غَيْرُ الْمُمَحَّصِ لِلرُّمُوزِ، بِتَفْضِيلِهِ تَحْلِيلَاتِ

لِـ'الْمَعْنَى' وَ'التَّفْكِيرِ' شُغْلُهَا الرَّئِيسُ الْأَوْهَامُ النَّاجِمَةُ عَنْ 'الانْكِسَارِ اللُّغَوِيِّ'
'linguistic refraction'.

لِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا الْبَدْءُ بِالتَّأْوِيلِ.

فَتَأْوِيلُنَا لِأَيَّةٍ عَلامَةٍ يُمَثَّلُ رَدُّ فَعْلِنَا السَّايَكُولُوجِيَّ تَجَاهَهَا، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي
تَحْدُدُهُ بِهِ تَجْرِبَتُنَا الْمَاضِيَّةُ فِي أَحْوَالِ مُشَابِهَةٍ، وَتَجْرِبَتُنَا الْحَاضِرَةُ.

فَإِذَا مَا ثُبَّتَ هَذَا بِالذِّقَّةِ الْلاَزِمَةِ مِنْ حَيْثُ السِّيَاقَاتُ السَّبَبِيَّةُ وَالْمَجْمُوعَاتُ
الْمُتَرَابِطَةُ حَصَلْنَا عَلَى أُطْرُوحَةٍ لِلْحُكْمِ وَالْاِعْتِقَادِ وَالتَّأْوِيلِ تَضَعُ سَايَكُولُوجِيَّةَ
التَّفْكِيرِ فِي الْمُسْتَوَى نَفْسِهِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ سَائِرُ [244] الْعُلُومِ الْاِسْتِقْرَائِيَّةِ،
وَتَخْلُصُ مِنْ ثَمَّ مِنْ 'مُشْكِلَةِ الصِّدْقِ'.

إِنَّ نَظْرِيَّةَ التَّفْكِيرِ الَّتِي تَنْبِذُ الْعِلَاقَاتِ الْخَفِيَّةَ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْمَعْلُومِ وَتُعَالِجُ
الْمَعْرِفَةَ بِوَصْفِهَا شَأْنًا سَبَبِيًّا خَاصُّعًا لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الْاِعْتِيَاديِّ، لَا بُدَّ أَنْ تَرُوقَ كُلُّ
مَنْ يَنْتَحِ عَنْ الْفَهْمِ الْمَشْتَرَكِ.

وَتَكُونُ الْأَحْوَالُ الْعَلَامِيَّةُ مَرْبُوطَةً عَلَى الدَّوَامِ بِقِيُودٍ، وَيُمَثَّلُ الْإِدْرَاكُ الْحِسِّيُّ
مَجَالًا أَفْضَلَ دِرَاسَةً لِأَبْسَطِ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ هَذِهِ الْقِيُودِ الْعَلَامِيَّةِ.

4. - الْعَلَامَاتُ فِي الْإِدْرَاكِ الْحَقِيقِيِّ

إِنَّ يَقِينِيَّةَ مَعْرِفَتِنَا لِلْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ قَدْ عَانَتْ الْكَثِيرَ عَلَى أَيْدِي الْفَلَاسِفَةِ مِنْ
خِلَالِ اِفْتِقَارِهِمْ إِلَى نَظْرِيَّةٍ لِلْعَلَامَاتِ، وَمِنْ خِلَالِ اَلْغَايِ جُعِلَتْ مُمَكِّنَةً بِاِعْتِيَادِنَا
تَسْمِيَةَ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَجَلٍ مِنْ غَيْرِ تَهْنِئَةٍ مَنَاحِجِ التَّعْيِينِ.

وَمُفَارَقَاتُ الْبَسَاتِ الْمُدَوَّرَةِ حَقِيقَةً الَّتِي تَبْدُو بَيِّضِيَّةً، وَهَلُمَّ جَرًّا، مَرَدُّهَا إِلَى
إِسَاءَاتِ اسْتِعْمَالِ لِلرُّمُوزِ، وَلَا سِيَّمًا الرَّمْزُ 'مُعْطَى datum'.

فَمَا 'نَرَاهُ' حِينَ نَنْظُرُ إِلَى مِنْصَدَةٍ هُوَ، أَوَّلًا، تَعْدِيلَاتٌ لِشَبَكِيَّتِنَا. فَهَذِهِ هِيَ

علاماتنا الأولى. ونحن نؤوّل هذه العلامات ونصل إلى مجالات للرؤيّة حدودها سطوح المناضيد وما أشبهها. وباتخاذنا تصديقاتنا بها علامات من الدرّجة الثانية وهكذا دواليك يُمكننا أن نواصل تأويلنا إذ نصل إلى نتائج تُمثلُ مناضيد، وخشبًا، وأليافًا، وخلايا، وجزيئات، وذرات، وألكترونات، وما إليها. والمراحل الأخيرة لهذا الجهد التأويلي تُمثلُ الفيزياء. فليس ثمة دراسة تُدعى 'الفلسفة' في وسعها أن تزيدَ عِلْمَ الفيزياء شيئًا أو أن تُصحّحه، وإن كان من الممكن أن تُسهِمَ الرُّمُوزِيَّة في التّصنيف المنهجي لمستويات الخطاب التي تكونُ فيها 'المنضدة' ونظام الجزيئات، رُموزًا ملائمة.

إنّ منهج استتصال التّخليطات في هذا المجال يظلّ مطلوبًا حيثما طبّقت الفلسفة. [245] وستتبدّل هذا المنهج جزئيًا إلى نظرية العلامات، وجزئيًا إلى قواعد الترميز التي يتكفّل الفصل اللاحق بمناقشتها.

5. - قوانين الرُّمُوزِيَّة

إنّ قواعد الرُّمُوزِيَّة أو أعرافها أساسيّة لكلّ تواصل، وجوهريّة كذلك لأية أطروحة لمنهج علمي.

بعض هذه القواعد تكون واضحة بما فيه الكفاية حين تُعرَض، ولكنها، ربّما لهذا السبب، كانت تُهمَلُ على العموم. وبعض آخر منها كانت قد صاغها على نحوٍ لافِتٍ للنظرٍ مناطقةً معيّنون حتّى الآن بِمدى ضيّقٍ من المُشكلات التّقليديّة. على أنّها حين عُرِضَتْ جميعًا كاملةً بالصّيغ التي يتضمّنُها الخطاب النظامي وُجِدَ أنّ حلول الكثير من المُشكلات المُعمّرة مُتوافرةً بالفعل.

من أمثلةِ نحو هذه المُشكلات ما يتعلّق منها بالصّدق، والواقع، والكليات، والمُجرّدات، والوقائع السّالِبة، والمثلثات المُستقيمة، والمربّعات المُستديرة، وهلمّ جرّا.

إنّ القواعد أو المُسلّمات التي نحنُ بِصددها والتي نحتاجُ إلى الصّياغة احتياجًا ماسًا سيّ قواعِد، تَظْهَرُ بِوصفها قوانين الرُّموز. وهي مُستمدّة من طَبِيعَةِ

العمليات الذهنية، ولكيها، لكونها مطلوبة من أجل ضبط الترميز، تُعرض من زاوية الرموز والمراجع.

ومتابعة هذه القوانين تضمن أسلوبًا ثريًا واضحًا، وإن لم يكن بالضرورة مفهومًا للأدباء.

6. - التعريف

نحتاج في أي نقاش أو تأويل للرموز إلى وسيلة لتعيين المراجع. والإجابة عن السؤال الذي مفاده: إلام تشير أية كلمة أو يشير أي رمز، تكمن في تعويض رمز أو رموز تفهم على نحو أفضل.

ومثل هذا التعويض هو المقصود بالتعريف. فهو يتضمن المجموعة المختارة من المراجع المعلومة بوصفها نقاط انطلاق، و[246] تشخيص الكلمة المعروفة بارتباطها بهذه النقاط.

إن مسالك التعريف، أي العلاقات الشائعة الاستعمال كثيرًا لهذا الغرض، قليلة العدد، وإن كان بإمكان المتخصصين في الفكر التجريدي استخدامها. والحق أن بالإمكان تعميمها عمليًا تحت ثمانية عناوات. إن اعتياد هذه المسالك التعريفية لا يفضي إلى الاطمئنان في السلوك الجدلي والحجاجي فحسب بل إنه يهيئ وسيلة للهرب من متاهة التصنيفات المتضادة التي ولدها الاختلاف الكبير في وجهات النظر الممكنة.

7. - معنى الجمال

يمكن إيضاح تطبيق هذا الإجراء في الممارسة بتناول أحد أكثر موضوعات البحث إثارة للخيرة، أي علم الجمال.

فكثيرًا ما عُرِفَ الجمال واختُلفَ في تعريفه - وكذلك كثيرًا ما صُرحَ بعدم قابليته للتعريف. على أنا إذا ما بحثنا عن العلاقات التعريفية المميزة وجدنا أن التعريفات المقترحة حتى الآن تبلغ نحوًا من ستة عشر تعريفًا.

ثُمَّ إِنَّ كَلَامَ مِنْ هَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ يُقَدِّمُ مَدَى مُمَيِّزًا مِنَ الْمَرَاجِعِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَدْرُسَ أَيًّا مِنْ هَذِهِ الْمَدَيَاتِ مَنْ يَسْتَهْوِيهِمْ هَذَا الْمَدَى الْمُعَيَّنُ. فَإِذَا مَا اخْتَرْنَا الْاسْتِمْرَارَ فِي اسْتِعْمَالِ لَفْظِ الْجَمَالِ بِوصفه بديلاً اختزالياً لِلتَّعْرِيفِ الَّذِي نُفَضِّلُهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ اللَّبْسِ الْمُحِيطِ الَّذِي كَشَفْنَا عَنْهُ (وَجَمِيعُ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالاً خَرّاً غُرَضُهُ لِلْبَسِ مُشَابِهٌ) فَإِنَّمَا نَفْعَلُ ذَلِكَ عَلَى أُسَاسٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْمَنْفَعَةِ وَمُحْتَمَلِينَ مَحَاضِيرَ جَمِيعِ التَّخْلِيطَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يُولَدَهَا مِثْلُ هَذَا السُّلُوكِ.

وَلِـ'الْجَمَالِ'، زِيَادَةٌ عَلَى اسْتِعْمَالَاتِهِ الرَّمْزِيَّةِ، اسْتِعْمَالَاتٍ انْفِعَالِيَّةٍ. وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ هَذِهِ الْاسْتِعْمَالَاتُ الْانْفِعَالِيَّةُ مَسْؤُولَةً عَنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الَّتِي تَرَى أَنَّ الْجَمَالَ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّعْرِيفِ مَا دَامَ، بِوصفه لَفْظًا انْفِعَالِيًّا، لَا يَسْمَحُ بِبَدِيلٍ لَفْظِيٍّ مُقْنِعٍ. وَإِنَّ مَصْدَرَ التَّخْلِيطِ الْكَبِيرِ فِي النَّفَاسِ وَالْبَحْثِ لَهُوَ الْإِخْفَاقُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْاسْتِعْمَالَيْنِ الرَّمْزِيِّ وَالْانْفِعَالِيِّ. [247]

8. - الْمَعْنَى عِنْدَ الْفَلَسَافَةِ

إِذَا مَا اتَّجَهْنَا بِالْمَبَادِي أَنْفُسِهَا صَوَّبَ 'الْمَعْنَى' نَفْسِهِ وَجَدْنَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَرَءِ مُتَشَعِّبَةً جِدًّا فِي كِتَابَاتِ صَفْوَةِ الْفَلَسَافَةِ. وَتُظْهِرُ النَّفَاسَاتُ الْأَخِيرَةُ فِي دَوْرِيَّتِي *Brain* و *Mind* عَجَزَ الْمُخْتَلِفِينَ الْمُتَخَصِّصِينَ عَنِ التَّعَامُلِ مَعَ حَالَاتِ اللَّبْسِ الَّتِي يُفَرِّزُهَا اللَّفْظُ. إِنَّ الْإِجْرَاءَ الَّذِي اتَّخَذَهُ أَكْثَرُ الْمُفَكِّرِينَ الْأَمْرِيكِيِّينَ تَمَكُّنًا وَعَمَلِيَّةً، أَيِ الْوَاقِعِيِّونَ التَّقْدِيرِيُّونَ فِي سَنَةِ 1921، يَكْشِفُ عَنْ قَدَرٍ مُمَازِلٍ مِنْ عَدَمِ الْكِفَايَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَسْلَمْ فِيهِ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى يَدِ شَخْصِيَّةٍ مَرَجِعِيَّةٍ مُؤَثَّرَةٍ جِدًّا هِيَ الْبَرْوفيسور مونسْتَرِيرغ كَذَلِكَ مِنَ الْاعْتِرَاضَاتِ. وَالْحَقُّ أَنَّ الدِّرَاسَةَ الْمُتَأَنِّيَّةَ لِمُمَارَسَاتِ الْكُتَّابِ الْمَرْمُوقِينَ مِنْ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ تَقُودُنَا إِلَى اسْتِنْتَاجِ مَفَادِهِ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُفْتَرَضُ ضَمِينًا مِنْ أَنَّ اللَّفْظَ مَفْهُومٌ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ لَيْسَ ثَمَّةَ مَبْدَأٍ يَحْكُمُ اسْتِعْمَالَهُ، وَلَا وُجُودَ لِأَيِّ آيَةٍ يُمْكِنُ بِوَسَاطَتِهَا تَجَنُّبُ التَّخْلِيطِ.

9. - مَعْنَى الْمَعْنَى

على أَنَّهُ حِينَ تُقَارَبُ الْمُشْكِلَةُ مُقَارَبَةً عِلْمِيَّةً نَجِدُ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُمَيَّزَ مَا لَا يَقُولُ عَنْ سِتِّ عَشْرَةَ مَجْمُوعَةً مِنَ التَّعْرِيفَاتِ تُمَيِّزًا مُثَمِّرًا فِي حَقْلِ يَتَطَلَّبُ أَعْلَى مُسْتَوَيَاتِ الدَّقَّةِ صَرَامَةً.

وقد تَكُونُ عَاقِبَةُ اللَّبْسِ فِي حَالَاتٍ أُخْرَى وَخِيَمَةً عَلَى الْمَوْضُوعِ الْمَخْصُوصِ الَّذِي يَحْدُثُ فِيهِ، أَمَّا هُنَا فَإِنَّ اللَّبْسَ يَجْعَلُ مَا هِيَ التَّقَاشُ نَفْسِهِ مَشْكُوكًا فِيهَا. ذَلِكَ بِأَنَّ كُلَّ رَأْيٍ بِشَأْنِ أَيْ شَيْءٍ إِنَّمَا يَفْتَرِضُ سَلَفًا وَجِهَةً نَظَرٍ مَا مُتَعَلِّقَةٌ بِـ'الْمَعْنَى'، وَأَنَّ إِحْدَاثَ تَغْيِيرٍ فِعْلِيٍّ فِي وَجِهَةِ النَّظَرِ بِشَأْنِ هَذِهِ النُّقْطَةِ الْمُعَيَّنَةِ يَسْتَلْزِمُ عِنْدَ صَاحِبِ الْفِكْرِ الْمَتَمَاسِكِ إِحْدَاثَ تَغْيِيرٍ فِي جَمِيعِ مَا لَدَيْهِ مِنْ وَجِهَاتٍ نَظَرٍ.

وَمِنَ الْمُمْكِنِ مُعَالَجَةُ تَعْرِيفَاتِ الْمَعْنَى تَحْتَ ثَلَاثَةِ عُنُونَاتٍ. يَتَضَمَّنُ أَوَّلُهَا الْأَوْهَامَ الْمُؤَلَّدَةَ لَعُوبًا؛ وَيَضُمُّ ثَانِيهَا الْاسْتِعْمَالَاتِ الْعَارِضَةَ وَالشَّاذَّةَ فِي مَجْمُوعَاتٍ وَتُمَيِّزُهَا؛ وَيَشْتَمِلُ ثَالِثُهَا عَلَى الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ وَالرَّمْزِيَّةِ عُمُومًا.

وَنَمَّةً أَثَرُ لَا فِتْ لِلنَّظَرِ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَرَضِ يَتِمَثَّلُ فِي [248] أَنَّهُ يُجْبِرُنَا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ لَفْظِ 'الْمَعْنَى' نَفْسِهِ، وَأَنْ نَسْتَبْدِلَ بِهِ إِمَّا أَلْفَاظًا أُخْرَى مِثْلَ 'الْقَصْدِ'، أَوْ 'الْقِيَمَةِ'، أَوْ 'الْمَرْجِعِ'، أَوْ 'الْعَاطِفَةِ'، الَّتِي يُسْتَعْمَلُ مُرَادِفًا لَهَا، وَإِمَّا الرَّمْزَ الْمُوسَّعَ الَّذِي يَنْبَغِي، خِلَافًا لِلتَّوَقُّعِ، عَقِبَ مُشْكِلَةٍ صَغِيرَةٍ.

إِنَّ الدِّرَاسَةَ الْمُتَأَنِّيَّةَ لِهَذِهِ التَّوَسُّعَاتِ تَتْرُكُ مَجَالًا قَلِيلًا لِلشَّكِّ فِي أَنَّ مَا عَدَّهُ الْفَلَاسِيفَةُ وَالْمِيتَافِيزِيُونُونَ، زَمَنًا طَوِيلًا، فِكْرَةً مُسْتَعْلِقَةً وَمُطْلَقَةً، مِمَّا يَقَعُ تَمَامًا فِي دَائِرَةِ اخْتِصَاصِهِمْ وَدَائِرَةِ اخْتِصَاصِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ الْوَصْفِيِّينَ الَّذِينَ وَافَقُوا عَلَى تَبْنِي مُصْطَلَحٍ مُشَابِهِ، قَدْ كَانَ مَادَّةَ دَرَسٍ وَتَحْلِيلٍ مُفَصَّلَيْنِ اضْطَلَعَتْ بِهِمَا عُلُومٌ خَاصَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ مُدَّةً تَزِيدُ عَلَى نِصْفِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ. وَفِي غُضُونِ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ أَحَلَّ كُلُّ مِنَ التَّطَوُّرَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ، وَالْبَحْثِ الْفَيْسِيُولُوجِيِّ فِي الذَّاكِرَةِ وَالْوَرَاثَةِ 'مَعْنَى' الْعَلَامَاتِ مَحَلًّا لَا يَنْطَرِّقُ إِلَيْهِ فِيهِ شَكٌّ، وَقَدْ بَيَّنَّ هُنَا أَنَّ الْفِكْرَ وَاللُّغَةَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَالَجَا مُعَالَجَةً وَاحِدَةً.

10. - الأخوال الرمزية

هكذا تكون المرحلة الأولى من مراحل تطوُّر الرمزية بوصفها علماً قد اكتملت، وقد تبين أنها تمهيد أساسي لجميع العلوم الأخرى. ونجِبُ عليها، بمعِية أقسام من النحو والمنطق لا تُعْدها زائدة عن الحاجة، أن تُمدَّ كلاً ممَّا كان يندرج تحت عنوان فلسفة الرياضيات، وما يُعدُّ حتى الآن ميتا-فيزيقيا - مُتَمِّمة عمل العالم في كلِّ من غايَتَي بحثِهِ.

ويحتاج كلُّ تأويل حاسم للرموز إلى فهم الحال الرمزية، والتفريق الرئيس في هذا المقام يكون بين الحالة التي لا تكون الإحالة فيها مُمكنة إلا بِوساطة الرموز (التبعية الكلمية) والحالة التي يُمكن أن يكون فيها اختيار حرٍّ للرموز (الاستقلالية الكلمية). وإنَّ فَحَصَ العمليَّات اللغوية في حالتَي تمامِها وانحلالِها [249] يَجِبُ أن ينطلق من هذا التمييز أيضاً. ومِمَّا لَهُ مَزِيدُ أَهْمِيَّةٍ أن يُلْحَظَ أنَّ الكلمات لها وظائف أخرى سِوَى وَظيفَةِ التَّرميز الصَّارِم. ودراسة هذه الأوجه الاستثنائية تقود، على نحوٍ طبعيٍّ، إلى أطروحة تتعلَّق بِمَوَارِدِ اللغة الشعريَّة وبِالوسيلة التي يُمكنُ بها تمييزُ هذه اللغة من العبارة الرمزية أو العلمية. فتقنيَّة الرمزية إحدى الأدوات الأساسية لِعِلمِ جمالِ الأدب.

ويُمكنُ الوقوف على أهميَّتها العمليَّة عند تطبيقها في التَّعليم وفي النقاش بعامة؛ ذلك بأنَّه عند إدراك تأثير اللغة في الفكر، وعند التخلُّص من الأوهام التَّاجِمة عَمَّا هوَ خَطَأٌ مِنَ الاعتقادات اللغوية، تُصبحُ السَّيْلُ قاصِدةً إلى مَنَاهِجٍ لِلتَّأويل أكثرَ إبداعاً وإلى فنٍّ لِلجِوار يُمكنُ بِمُقْتَضَاهُ أن يَسْتَمِيعَ المُتواصِلون بِشيءٍ غيرِ الأحجارِ والعقاربِ المألوفة. [250]

التَّذْيِيلُ A في النُّحُو

"المُجَرَّدَاتُ الْمُبْهَمَةُ، والتَّعْرِيفَاتُ الطَّنَانَةُ مَعَ أَنَّهَا فِي الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ عَقِيمَةٌ، والقَوَاعِدُ الكَادِبَةُ، وقَوَائِمُ الْأَشْكَالِ غَيْرُ الْمُسْتَاعَةِ: مَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا أَنْ يُقَلِّبَ بِضَعِ صَفَحَاتٍ لِأَيِّ كِتَابٍ مَدْرَسِيٍّ لِيَجِدَ عَيْنَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنْ هَذِهِ الْخَطَايَا الْمُنَافِيَةِ لِلْعَقْلِ، وَالصَّدَقِ، وَالتَّرْبِيَةِ". كَانَتْ هَذِهِ كَلِمَاتٌ قَاسِيَةٌ تَتَضَمَّنُ إِدَانَةَ الْقِسْمِ الْأَعْظَمِ مِنَ التَّعْلِيمِ النَّحْوِيِّ الْمُعَاصِرِ، لِكِنَّ البرُوفيسور بَرُونُو، عَلَى مَا قَدْ رَأَيْنَا آتِفًا فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ (ص 350-351)، بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنْ نَشْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ⁽¹⁾ أَمْضَاهَا فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَمَلِ فِي التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ، لَمْ يَرَ مَا يَدْعُوهُ إِلَى إِجْرَاءٍ تَعْدِيلٍ عَلَيْهَا. وَإِذَا مَا نَظَرْنَا فِي مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ فِي تَضَاعِيفِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ مِنْ خَلِيطٍ مِنَ الْخُرَافَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالْفَلَسَفَةِ الْعَتِيقَةِ، وَالْمَنْطِقِ الَّذِي أُسِيءَ فَهْمُهُ، يُؤَدِّي مَهْمَةً نَظَرِيَّةً لِلْوُظُفَةِ اللَّفْظِيَّةِ، فَلَنْ يُفَاجِئَنَا شُعُورٌ أَوْسَعُ الْفِيلُولُوجِيِّينَ أَطْلَاعًا بِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ كَلِمَاتٍ قَاسِيَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي فِي حَقِّ الزَّادِ النَّحْوِيِّ الَّذِي مَا زَالَ يَطْلُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ يَتَغَدَّى عَلَيْهِ.

وَبَعْدَ أَنْ قَدَّمَ بَرُونُو أَمِلَّةً لِلتَّصْنِيفِ النَّحْوِيِّ الشَّائِعِ مُعَلِّقًا عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: "أوه! هَذِهِ التَّصْنِيفَاتُ النَّحْوِيَّةُ! يَا لَهَا مِنْ نَمَازِجَ نَضَعُهَا لِغُلُومٍ أُخْرَى!"، تَابَعَ كَلَامُهُ قَائِلًا:

"يُمَثِّلُ هَذَا الْخِطَابُ اللَّفْظِيَّ نَلْحَظُهُ فِي التَّحْلِيلِ الَّذِي يُوصَفُ بِـ'النَّحْوِيِّ'، وَهَذَا أَنْمُودَجٌ لَهُ⁽²⁾: حَمَلُوا كُلَّ ذَاكَ الَّذِي وَجَدَ هُنَاكَ.

L'Enseignement de la Langue Française, p. 3.

(1)

(2) أَجْرَيْنَا عَلَى الْأَنْمُودَجِ الَّذِي سَاقَهُ بَرُونُو هُنَا قَدْرًا يَسِيرًا مِنَ التَّعْدِيلِ لِيَكُونَ مَفْهُومًا لِلْقَارِئِ =

فَ(كُلِّ) كَلِمَةً لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِإِضَافَتِهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَهِيَ مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ لِتَحْدِيدِ ذَلِكَ (١١)؛

و(ذَاكَ) اسْمٌ إِشَارَةٌ لَا يَتَعَرَّفُ إِلَّا بِقَيْدِ الْحُضُورِ، وَهُوَ هُنَا لِتَعْيِينِ مَادَّةٍ (١) الْمَفْعُولِ بِهِ الْمُبَاشِرِ لِلْفِعْلِ حَمَلُوا؛

و(الَّذِي) اسْمٌ مَوْصُولٌ لِلشَّخْصِ الثَّالِثِ الْغَائِبِ، يَعُودُ عَلَيْهِ ضَمِيرُ نَائِبِ الْفَاعِلِ لِلْفِعْلِ وَجَدَ؛

و(وُجِدَ) فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ لِتَعْيِينِ (١٩) مَا هُوَ هُنَاكَ، نَائِبُ الْفَاعِلِ فِيهِ ضَمِيرٌ شَخْصِيٌّ (١٩) لِلشَّخْصِ الثَّالِثِ الْغَائِبِ.

(مَنْهَجُ الْامْتِحَانَاتِ لِسَنَةِ 1908 ص 302)

يَا لَجَمَالِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْكَلَامِ! تَصَوَّرُوا: مَا هُوَ غَيْرُ مُعْرَفٍ تُوَكَّلُ إِلَيْهِ مَهْمَةُ التَّعْرِيفِ! [251]

فَاسْمُ الْإِشَارَةِ ذَاكَ يَحُلُّ بِالضَّرُورَةِ مَحَلَّ اسْمٍ يُلَوِّحُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْكُرَ! وَالاسْمُ الْمَوْصُولُ، الَّذِي أَخَذَ إِمكَانَ الشَّخْصِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ الْمُبَاشِرِ، أَيْ الْمَادَّةُ الَّتِي نَتَحَدَّثُ عَنْهَا وَالَّتِي أَخَذَ فِعْلُهَا صِيغَةَ الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ وَجَدَ، هُوَ الَّذِي فِي النِّهَايَةِ قَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ!!

وَكَانَ تَعْلِيْقُهُ الْأَخِيرُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: "يَتَابُ الْمَرَّةَ مِنَّا إِشْفَاقٌ عَمِيقٌ حِينَ يُفَكِّرُ فِي مِثَالِ الْأَلْفِ مِنَ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يُجَبِّرُونَ عَلَى أَنْ يُقَاسُوا تَعْلِيمًا قَائِمًا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَنْحِرَافَاتِ" (3).

= العربي؛ إذ إنَّ إيرادَ تَرْجَمَةِ حَرْفِيٍّ لَهُ بِصُورَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا فِي الْأَصْلِ الْقَرَنِيِّ الَّذِي سَاقَهُ بِهِ أَوْغِدِينَ وَرِيتْشَارْدَزْ يَجْعَلُ إدْرَاكَ الْمُتَلَقِّي الْعَرَبِيِّ الْفِكْرَةَ الْمُرَادَّةَ مِنْهُ الَّتِي قَصَدَ بَرُونُو إِصْلَاحَهَا إِلَى قَارِيٍّ كَلَامِيٍّ غَايَةً فِي الْعُسْرِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَنْمُودَجَ قَدْ سَبَقَ عَلَى أُسَاسٍ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ وَالْفَصَائِلِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ الْقَرَنِيَّةِ. عَلَى أَنَّ مَا أَجْرَيْنَاهُ مِنْ تَعْدِيلٍ لِهَذَا الْأَنْمُودَجِ لَا يَمَسُّ جَوْهَرَهُ، بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَسْهِيلِ إدْرَاكَ الْفِكْرَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ. [الْمُتَرْجِمُ]

وقد كَانَ سَعْيُ اللِّجَانِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَخَصِّصَةِ فِي الْمُصْطَلَحِ النَّحْوِيِّ فِي بُلْدَانِ مُخْتَلِفَةٍ مُتَّجِهَا صَوْبَ التَّخْلُصِ مِنْ أَكْثَرِ هَذِهِ السَّخَافَاتِ انْتِشَارًا، مُنْذُ زَمَنِ مُؤْتَمَرَاتِ سَنَةِ 1906 فِي الْمُتَحَفِ التَّعْلِيمِيِّ فِي بَارِيس. وَكَانَتْ تَوْصِيَاَتُ لَجْنَةِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ قَدْ صَدَرَتْ سَنَةَ 1911، وَتَبَذَلُ الْجَمْعِيَّاتُ اللُّغَوِيَّةُ الْمُخْتَلِفَةُ الْآنَ جُهْدًا مِنْ أَجْلِ تَطْبِيقِهَا. عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّطْبِيقِ تَكْتِفُهُ مُشْكَلَتَانِ مُتَمَايِزَتَانِ. تَمَثَّلُ إِحْدَاهُمَا فِي التَّخْلُصِ مِنَ السَّخَافَاتِ الْوَاضِحَةِ فِي الْمُصْطَلَحِ النَّحْوِيِّ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّغْبَةِ فِي الْحَصُولِ عَلَى مُصْطَلَحٍ مُنْفَجٍّ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِقِيَمَةِ عَمَلِ اللِّجْنَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ فَتَمَّةٌ خِلَافَ قَلِيلٍ بِشَأْنِ ذَلِكَ إِلَى حَدِّ مَا. أَمَّا الْمُسْكَلَةُ الْأُخْرَى فَتَتَعَلَّقُ بِـ "أَهْمِيَّةِ أَنْ يُتَبَنَّى فِي كُلِّ تَدْرِيسٍ لِلنَّحْوِ مِنَ الْبِدَايَةِ مُصْطَلَحٌ قَابِلٌ لِلِاسْتِخْدَامِ، بِأَقْلَ قَدَرٍ مِنَ التَّغْيِيرِ، لِيَقْبَى بِأَغْرَاضِ أَيَّةِ لُغَةٍ أُخْرَى تُتَعَلَّمُ فِيمَا بَعْدُ"⁽⁴⁾. صَحِيحٌ أَنَّ "الْمُصْطَلَحَ الْمُطَّرَدَ يَظْهَرُ بِجَلَاءٍ الْمَبَادِئَ الْبِنَائِيَّةَ الْمُشْتَرَكَةَ لِكُلِّ اللُّغَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ الْخَصَائِصِ، وَأَنَّ التَّنَوُّعَ غَيْرَ الضَّرُورِيِّ فِي الْمُصْطَلَحَاتِ يُخْفِي الْوَحْدَةَ الْحَقِيقِيَّةَ"⁽⁵⁾، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ إِصْرَارَ النُّحَاةِ الْهِنْدُوأَوْرُوبِيِّينَ عَلَى التَّشَابُهَاتِ الْبِنَائِيَّةِ الْمُفْتَرَضَةِ كَانَ عَائِقًا أَسَاسِيًّا أَمَامَ عُلَمَاءِ الْأَعْرَاقِ فِي دِرَاسَتِهِمْ لِلْكَلَامِ الْبِدَائِيِّ، ذَلِكَ الْفَرْعُ الْأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً فِي مَوْضُوعِ بَحْنِهِمْ. وَمِنْ الْمُفِيدِ أَنْ يَكُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مِنَ اللُّغَاتِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا اللُّغَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ نِظَامٌ لِتَعْيِينِ التَّشَابُهَاتِ⁽⁶⁾، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ خَطَرٍ إِمَّاكَانِ

(4) Report of Government Committee on Classics, p. 163.

(5) Report of Government Committee on Modern Languages, p. 55.

(6) كَتَبَ البروفيسور جيسپرسن Jespersen يَقُولُ فِي خِلَافِهِ الَّذِي سَحَبِلُ عَلَيْهِ فِي نِهَايَةِ هَذَا التَّنْذِيلِ: "لَا أَعْتَرِضُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْمُصْطَلَحِ الْمُطَّرَدِ، لَكِنِّي أَعْتَرِضُ بِقُوَّةٍ عَلَى تَرْيِيفِ حَقَاقِ نَحْوِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّذِي كَثِيرًا مَا يَكُونُ نَتِيجَةً لِلْمَعْكَوفِ عَلَى نَحْوِ اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ ... فَلَجْنَةُ الْمُصْطَلَحِ النَّحْوِيِّ تَجْعَلُ اللُّغَاتِ الْخَمْسَ الْمُعَالَجَةَ تَبْدُو أَكْثَرَ تَشَابُهًا فِيمَا بَيْنَهَا مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوَاقِعِ. وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَالَاتٍ خَمْسٍ فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سُخْفَ ذَلِكَ كَانَ قَدْ تَبَيَّنَ جَلِيًّا لِمَادِفِ Madvig مُتَكَرِّرًا مُنْذُ سَنَةِ 1841. وَيُعَلِّقُ البروفيسور سوننشاين Sonnenschein بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ هُمْ اللَّجْنَةُ تَبْسِيرَ النَّحْوِ لَا جَعْلَهُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا فَقَدْ فَعَلُوا هُنَا مَا هُوَ مُعَاجِزٌ تَمَامًا لِمَا اسْتَهْدَفُوهُ". وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ =

أَنْ يُعَدَّ الاطِّرَادُ [252] المُشَدَّدُ عَلَيْهِ عَلَى هَذَا التَّحْوِ حَتِيماً فِي اللُّغَةِ كُلِّهَا، وَفِي الْفِكْرِ نَفْسِهِ حَقًّا. لِذَلِكَ كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ تَظْهَرَ حَتَمِيَّاتُ التَّعْبِيرِ الْمَرْعُومَةُ تِلْكَ بِوَصْفِهَا انْعِكَاسَاتٍ لِلطَّبِيعَةِ الْفِعْلِيَّةِ لِلْأَشْيَاءِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهَا أَنْفُسِهَا.

وَمِنَ الْمَشْكُوكِ فِيهِ مَدَى نَظَرِ الشُّحَاةِ بِوُضُوحٍ فِي مُشْكِلَةٍ تَنَاطَرِ الرُّمُوزِ الْكَلِمِيَّةِ وَالْأَشْيَاءِ، عَلَى مَا أَثَارَهُ السَّيِّدُ بَرْتَرَانْدَ رَيْسِلِ فِي مُقَدِّمَتِهِ لِكِتَابِ فِتْغَنْشْتَاينِ Wittgenstein الَّذِي عُنْوَانُهُ رِسَالَةٌ مَنْطِيقِيَّةٌ فَلَسَفِيَّةٌ *Tractatus Logico-Philosophicus*. وَقَدْ أَحْصَيْتُ هُنَاكَ أَرْبَعَ مُشْكِلَاتٍ لُغَوِيَّةٌ:

'فَالْمُشْكِلَةُ الْأُولَى تَتَعَلَّقُ بِحَقِيقَةٍ مَا يَحْدُثُ فِي عَقُولِنَا حِينَ نَسْتَعْمِلُ اللُّغَةَ قَاصِدِينَ أَنْ نَعْنِي شَيْئًا مِمَّا مِنْ خِلَالِهَا، وَهَذِهِ الْمُشْكِلَةُ مَرَّجُعُهَا إِلَى عِلْمِ النَّفْسِ. وَالْمُشْكِلَةُ الثَّانِيَّةُ تَنْصِلُ بِحَقِيقَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْأَفْكَارِ، أَوِ الْكَلِمَاتِ، أَوِ الْجُمَلِ، وَمَا تُحِيلُ عَلَيْهِ أَوْ تَعْنِيهِ، وَهَذِهِ الْمُشْكِلَةُ مَرَّجُعُهَا إِلَى نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ. أَمَّا ثَالِثَةُ الْمُشْكِلَاتِ فَلَهَا عُلُقَةٌ بِاسْتِعْمَالِ الْجُمَلِ لِتَنْقِلَ مَا هُوَ صِدْقٌ بَدَلًا مِنْ نَقْلِ مَا هُوَ كَذِبٌ، وَهَذِهِ الْمُشْكِلَةُ مَرَّجُعُهَا إِلَى الْعُلُومِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَتَعَامَلُ مَعَ مَوْضُوعِ دَرَسِ الْجُمَلِ الْمَعْنِيَّةِ. وَأَمَّا الْمُشْكِلَةُ الرَّابِعَةُ فَتَتَعَلَّقُ بِالسُّؤَالِ الَّذِي مَفَادُهُ: مَا الْعِلَاقَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ وَاقِعَةٍ مَّا (جُمْلَةٍ مَثَلًا) وَوَاقِعَةٍ أُخْرَى لِتَكُونَ قَابِلَةً لِأَنْ تُصَبِّحَ رَمَزًا لِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ الْأُخْرَى؟ وَهَذِهِ الْمُشْكِلَةُ الْأَخِيرَةُ مُشْكِلَةٌ مَنْطِيقِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي تُمَثِّلُ مَحَظَّ عِنَايَةِ السَّيِّدِ فِتْغَنْشْتَاينِ. فَهَوُا مَعْنِي بِشُرُوطِ الرُّمُوزِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، أَيِ الرُّمُوزِيَّةِ الَّتِي 'تَعْنِي' فِيهَا الْجُمْلَةُ شَيْئًا مَّا مُحَدَّدًا تَمَامًا'.

وَنَحْنُ مَعْنِيُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِالسُّؤَالِ الرَّابِعِ، وَكَثِيرًا مَّا بَدَأَ إِجْرَاءَ الشُّحَاةِ- فِي مُعَالَجَتِهِمُ الْمُسْتَدَّ إِلَيْهِ وَالْمُسْتَدَّ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ-، سَوَاءً أَكَانُوا عَلَى عِلْمٍ تَامٍ

= نَحَازُ إِلَى الْمِيزَاتِ التَّصْنِيفِيَّةِ أَوِ التَّعْلِيمِيَّةِ لِـ 'الحالات' cases مِنْ أَجْلِ الْإِتِّفَاقِ عَلَى أَنَّ الْبَحْثَ الْفِيلُوسُوفِيَّ فِي مَبْدِئِ الْإِطْرَادِ لَمْ يَكُنْ عَمِيقًا جِدًّا.

أم لم يكونوا، أَنَّهُ يَفْتَرَضُ ضَمِينًا إِبَاجَةً فَتَغْنِشَتَانِ بِقَوْلِهِ: 'إِنَّ تَشَكُّلَ الْأَشْيَاءِ فِي الْحَالَةِ الْمَعْنِيَّةِ يُنَاطِرُ تَشَكُّلَ الْعَلَامَاتِ الْبَسِيطَةِ فِي الْعَلَامَةِ الْقَضَوِيَّةِ propositional sign' ⁽⁷⁾. هذا الاستنتاج غير المقبول يَسْتَنِدُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ الْاِعْتِبَاطِيَّةِ بَيْنَ الْعَلَاَقَةِ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ 'الرَّمْزِ إِلَى 'standing for'، الَّتِي سَبَقَتْ مُنَاقَشَتَهَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ، وَالتَّمثِيلِ representation. وجاء في الكتاب، فِي الْقَضِيَّةِ 2,16 مِنْهُ، مَا يَأْتِي: 'مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ وَاقِعَةً مَا رَسَمًا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا شَيْءٌ مَا مُشْتَرَكٌ مَعَ مَا تَرُسَّمُهُ'، وجاء فِيهِ أَيْضًا 2,171: 'بِإِمْكَانِ الرَّسْمِ أَنْ يُمَثِّلَ كُلَّ وَاقِعٍ لَهُ شَكْلُهُ... 2,182، وَكُلُّ رَسْمٍ هُوَ رَسْمٌ مَنْطِقِيٌّ كَذَلِكَ... 3، وَإِنَّ الرَّسْمَ الْمَنْطِقِيَّ لِلْوَقَائِعِ هُوَ الْفِكْرَةُ... 3,1، وَفِي الْقَضِيَّةِ يُعَبَّرُ عَنِ الْفِكْرَةِ إِدْرَاكِيًا مِنْ خِلَالِ الْحَوَاسِّ... 3,12، وَأَنَا أَطْلُقُ عَلَى الْعَلَامَةِ الَّتِي نُعَبَّرُ عَنِ الْفِكْرَةِ مِنْ خِلَالِهَا اسْمَ [253] الْعَلَامَةِ الْقَضَوِيَّةِ. 3,2، وَبِمُكِنِّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْأَفْكَارِ فِي الْقَضَايَا بِطَرِيقَةٍ تُنَاطِرُ بِهَا عَنَاصِرُ الْعَلَامَةِ الْقَضَوِيَّةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهَا الْأَفْكَارُ'. وَإِذَا مَا فَهِمْتَ كُلَّ كَلِمَةٍ فِي هَذَا النَّصِّ فَهَمَّا خَاصًّا أَلْفِي أَنْ هَذِهِ الْأُطْرُوحَةُ لِلْحَالِ الرَّمِزِيَّةِ تُشَبِّهُ بَيَانَاتِ الْحُكَمَاءِ قَبْلَ سُقْرَاطَ، ثُمَّ إِنَّ تَسْمِيَتَهَا أُطْرُوحَةً 'مَنْطِقِيَّةً' لَا سَايَكُولُوجِيَّةً تَسْوِغٌ غَيْرُ مُقْنِعٍ عُمُومًا.

وَيَنْطَوِي هَذَا الْحِجَاجُ عَلَى خَطَوَتَيْنِ. تَدَّعِي إِحْدَاهُمَا أَنَّهَا تَضَمَّنُ بَنِيَّةً مُشْتَرَكَةً فِي الْأَفْكَارِ وَالْأَشْيَاءِ مِنْ أَجْلِ إِضْحَاحِ كَيْفِيَّةِ إِمْكَانِ أَنْ تَكُونَ فِكْرَةً مَا 'عَنْ' شَيْءٍ مَا. وَلَكِنْ إِذَا مَا نُظِرَ إِلَى هَذَا الْاِفْتِرَاضِ لِلتَّنَاطُرِ فِي الْبَنِيَّةِ فِي ضَوْءِ النَّظَرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَغَيْرَ مُحْتَمَلٍ بِنِسْبَةٍ عَالِيَةٍ ⁽⁸⁾. أَمَّا الْخَطْوَةُ الْأُخْرَى الْمُتَمَثِّلَةُ

Tractatus, Prop. 3.21.

(7)

(8) هُوَ لَا يَكَادُ يَقُلُّ فِي عَدَمِ مَقْبُولِيَّتِهِ عَنِ الْإِيمَانِ الْمُشَابِهِ بِالتَّنَاطُرِ الصَّارِمِ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَشْيَاءِ، الَّذِي كَثِيرًا مَا يَظْهَرُ فِي كِتَابَاتِ فِيلُولُوجِيَّ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، وَالَّذِي رُبَّمَا كَانَ قَدْ قَرَّرَهُ مُؤَكَّدًا إِيَّاهُ بِشِدَّةٍ دُونَالْدْسُون (Donaldson) (The New Cratylus, p. 69) يَقُولُ: 'نَحْنُ نَجِدُ فِي الْآلِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِللُّغَةِ النَّظِيرَ الدَّقِيقَ لِلظَّوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي اعْتَنَى كُتَّابُ عِلْمِ النَّفْسِ اعْتِنَاءً تَامًّا بِتَجْمِعِهَا وَتَصْنِيفِهَا. فَنَحْنُ نَجِدُ أَنَّ بَنِيَّةَ الْكَلَامِ الْإِنْسَانِي هِيَ الْاِنْعِكَاسُ التَّامُّ أَوْ الصُّورَةُ التَّامَّةُ لِمَا نَعْرِفُهُ عَنْ نِظَامِ الْعَقْلِ: فَالْوَصْفُ وَاجِدٌ، وَتَرْتِيبُ =

في التشديد على التناظر بين بنية العلامة القصوى وبنية الوقائع فهي حتى أكثر جرأة وافتقاراً إلى الأساس. ولا شك أننا في الحالات البسيطة، كما في حالة عمل المخططات وفي الرموز الكيميائية والموسيقية، يمكننا ضمان درجة معينة من التناظر؛ ذلك بأن عناصر مثل هذه اللغة التي تعتمد على المحاكاة تشبه العلامات البسيطة، على ما قد أشرنا إليه في الفصل المذكور آنفاً. وقد شهدت حالة الرموز الكيميائية والموسيقية جهداً متروياً لأجيال من العلماء في سبيل قسر رموزهم على أن تكون في حالة تناظر بسيط مع الأشياء التي ترمز إليها. ومرة أخرى نقول إنه في أي لسان بدائي قد يأتي زمان تبدي فيه لغة القوم، من خلال ما تضيفه من تميزات بسيطة وسط الأشياء التي تحيط بهم، مجموعة مشابهة من التميزات. على أن التناظر في هذه الحالة يتحقق من خلال مناصرة الحالات للأشياء ومناصرة أنواع الكلمات لأنواع الحالات. لكن من الواضح أن لغة كهذه لا يمكنها أن تواكب التميزات الإضافية في فكرهم وتعقيده المتنامي. ومن المستحسن أن تكون لغة أنواع جديدة من الكلمات وبنى لفظية جديدة للجوانب والبنى الجديدة التي يرغبون في تمييزها. لذلك وجب إجهاد الآلية القديمة واللجوء [254] إلى الكيانات الخيالية، الناجمة عن عناصر وبنى لغوية لم تعد تؤدي وظيفتها الملائمة وإنما أصبحت تخدم، بغير كفاية، أغراضاً لم تنشأ من أجلها في الأصل. وهكذا تبدو كلمة 'طاقة Energy' في الفيزياء الحديثة الكلمة الخطأ للمراجع المعنوية، وليس من المحتمل أن تكون أية كلمة أخرى تنتمي إلى أي من أبواب النحو المعروفة أكثر ملاءمة منها. ومثل هذا سبباً في بعض صعوبات نظرية الكم.

إن محاولة تعميم الحالات الاستثنائية التي يحدث فيها تناظر جزئي بين

= الخصائص واحد، ومجموعة المصطلحات التي تستعمل فيهما واحدة، ويمكن أن نجعل من رسالة في فلسفة العقل رسالة في فلسفة اللغة بمجرد افتراض أن كل ما يقال في أولهما عن الأفكار بوصفها ذاتية يقال مرة أخرى في آخرهما عن الكلمات بوصفها موضوعية.

الرُّمُوزِ والمَرَايِعَ وجَعَلَهَا حَتِيئَةً فِي كُلِّ تَوَاضُلٍ أَمْرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ. وَلَا يُمَكِّنُ حَسْمَ مَدَى التَّنَاطُرِ فِي أَيَّةِ حَالَةٍ مُعْطَاةٍ إِلَّا بِوَسَاطَةِ تَحْقِيقِ تَجْرِبِيٍّ، لَكِنَّ نَتِيجَةَ مِثْلِ هَذَا التَّحْقِيقِ غَيْرُ مَشْكُوكٍ فِيهَا. وَقَدْ يَمْنَحُ هَذَا التَّنَاطُرُ أَنْظِمَةَ الرُّمُوزِ الْعِلْمِيَّةِ نِطَاقًا وَدَقَّةً مُتَعَاظِمِينَ تَعَاظِمًا وَاسِعًا، وَيَجْعَلُهُمَا طَبْعَيْنِ لِلْعَمَلِيَّاتِ الْاسْتِدْلَالِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مُمَكِّنًا إِلَّا حِينَ يَكُونُ مَقْصُورًا عَلَى أَبْسَطِ السَّمَاتِ وَأَكْثَرِهَا نِظَامِيَّةً، كَالْعَلَاقَاتِ الْعَدَدِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ. وَعَادَةً مَا تَسْتَعْنِي اللُّغَةُ الْاِعْتِيَادِيَّةُ عَنْ ذَلِكَ، فَتَحْسُرُ بِذَلِكَ عَلَى مُسْتَوَى الدَّقَّةِ لِكِنَّهَا تَرْتَجِعُ عَلَى مُسْتَوَيَاتِ الْمُرُونَةِ، وَالسُّهُولَةِ، وَالْيُسْرِ. ثُمَّ إِنَّ الْحَسَارَةَ لَيْسَتْ بِالْقَدْرِ الْكَبِيرِ الْمُتَحَيَّلِ أحيانًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ إِجْهَادَنَا لِلُّغَةِ يُمْكِّنُنَا مِنَ النَّجَاحِ فِي إِنْشَاءِ الْإِحَالَاتِ وَالتَّوَاضُّلِ بِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الصَّفَةِ الْمُضِلَّةِ لِرُمُوزِنَا إِذَا مَا أُخِذَتْ حَرْفِيًّا⁽⁹⁾. وَرَأَى بَعْضُ الْبَاحِثِينَ، مِثْلُ فِتْغِنِشْتَاينَ نَفْسِهِ، أَنَّ إِمْكَانَ هَذَا التَّنَاطُرِ وَعَدَمَ إِمْكَانِ فَعْلٍ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ يُؤَدِّي إِلَى الْاِسْتِثْنَاءِ مِنَ اللُّغَةِ، وَإِلَى صُوفِيَّةٍ مُضَادَّةٍ لِلْمِيتَافِيزِيقَا. فِي حِينٍ أَنَّ بَاحِثِينَ آخَرِينَ، مِثْلَ بَرِغْسُونِ Bergson⁽¹⁰⁾، رَأَوْا أَنَّ عَدَمَ الْإِمْكَانِ الْمَزْعُومِ لِهَذَا التَّنَاطُرِ [255] الْمُسْتَنَدِ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْمُفْتَرَضَةِ لِلْوَاقِعِ، يُؤَدِّي إِلَى نَمَطٍ آخَرَ مِنَ الْاِسْتِثْنَاءِ، وَإِلَى مِيتَافِيزِيقَا صُوفِيَّةٍ.

(9) أَخَذُ اسْتِعَارَةً مَا أَوْ مَا أَضْفَى عَلَيْهِ بُعْدُ مَادِّي مَآخِذًا 'حَرْفِيًّا' يَعْنِي إِغْفَالُ حَقِيقَةِ أَنَّ الرُّمُوزَ أَوْ الْمُكْمَلُ الرُّمُوزِيَّ لَا يُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالًا أَصْلِيًّا. يُنْظَرُ: الْفَصْلُ الْخَامِسُ، الْقَانُونُ الثَّالِثُ مِنْهُ.

(10) Introduction to Metaphysics, pp. 40-41. 'يَعْمَلُ التَّحْلِيلُ عَلَى الدَّوَامِ فِي مَا هُوَ ثَابِتٌ، فِي حِينٍ أَنَّ عَمَلَ الْحَدْسِ يَتَمَوَّضِعُ فِي التَّحْرُكِ، أَوْ، بِمَا يؤولُ إِلَى الْأَمْرِ نَفْسِهِ، فِي الْاِسْتِمْرَارَةِ. وَمُنَا يَكْمُنُ الْخَطُّ الْفَاصِلُ الْمُمَيِّزُ جَدًّا بَيْنَ الْحَدْسِ وَالتَّحْلِيلِ. فَمَا هُوَ وَاقِعِيٌّ، وَمُجَرَّبٌ، وَمَلْمُوسٌ يُمَيِّزُ بِحَقِيقَةِ أَنَّهُ التَّغْيِيرُ بَعْنِيهِ، وَيُمَيِّزُ الْعُنْصُرَ بِحَقِيقَةِ أَنَّهُ ثَابِتٌ. وَيَكُونُ الْعُنْصُرُ ثَابِتًا بِالْتَّعْرِيفِ، أَوْ بِأَن يَكُونَ مُحْطَطًا، أَوْ بِإِعَادَةِ بِنَاءِ مُبْسَطَةٍ، أَوْ بِمُجَرِّدِ زَمَنِ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ يَنْظُرَةٍ سَاكِتَةٍ لَوَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ ... وَيَكْمُنُ الْخَطُّ فِي اعْتِقَادِ أَنْ يَمْتَدُّونَا إِعَادَةَ بِنَاءِ الْوَاقِعِ بِهَذِهِ الْمُحْطَطَاتِ'.

وَمِنَ الْمُثْبِرِ فِيمَا يَبْصُلُ بِهَذِهِ الْمَذَاهِبِ الصُّوفِيَّةِ وَيَتَسَوَّبُهَا اللَّغَوِيُّ تَذَكُّرُ مُشْكَلَةِ الْفَلَسَفَةِ الْمَدْرِسِيَّةِ scholastic الْمُتَعَلِّقَةِ بِ: الْخَاصِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ الْمُمَكِّنِ تَسْمِيَتُهَا. وَلَمْ يَرْتَضِ بُونَاونتورا S. Bonaventura عَقِيدَةَ الْكُهَّانِ الَّتِي تَرَى أَنَّ الْإِلَهَ مِنْ غَيْرِ الْمُمَكِّنِ =

وقد تبدو هذه الكليات في نظر النحوي بعيدة، لكنه، مع ذلك، لا يستطيع تكوين رأي بشأن العلاقات التي بين اللغة والحقيقة، أو تكوين قاعدة لدراسة الوظيفة اللغوية الصحيحة بالمعنى الذي عرفت به في الفصل العاشر (التي، لا شك، تختلف عن وظائف الكلمات عند تكوين الجمل) من غير إثارة هذه المسائل.

ويمكننا أن نتخذ من مشكلة القضية proposition وعلاقة الموضوع بالمحمول مثلاً نموذجياً لوظيفة لغوية افترض أنها مستمدة من سمة أساسية من سمات الواقع، وأنها قابلة للمعالجة المباشرة بالفهم المشترك من غير لجوء إلى نظرية إحالية. وما دامت جميع وجهات النظر التقليدية المتعلقة بهذا الأمر ترجع إلى أرسطو فيجدر بنا أن نستذكر الطريقة التي حدثت بها مقارنتها أول مرة. إذ يذكر أوضح شراح فلسفته المعاصرين أن ما تدل عليه الكلمات عند أرسطو (مفردة كانت أم مركبة) هو تنوع في الميول العقلية⁽¹¹⁾، أو في الوقائع التي تمثلها. لكن دالة حد ما تميز في نقطة مهمة من دالة الحدود المفترضة التي ندعوها قضية. إن الاسم، أو الفعل الذي ينتمي إلى الكتلة التي تدعى اللغة يرتبط بتحليل واحد أو بفكرة واحدة، من غير أي فعل واع افتراضي أو انفصالي، في عقول المتكلمين والمستمعين: فحين يلفظ يوقف مدة معينة تدفق الأفكار المترابطة، ويحمل العقل على التفكير ملياً في هذه المجموعة المخصوصة التي تدعى معناه. ولكن كلاً من الاسم والفعل، إذا ما أخذ بمفرده، لا يفعل شيئاً فوق ذلك؛ فما من أحد منهما يؤكّد، أو ينفي، أو يوصل أية معلومة صادقة أو

= "تسميته"، فمن ثمّ قدّم ثلاثة أسباب نابعة من طبيعة اللغة نفسها لهذا الاستنتاج السالب؛ أوّلها (أنّ الله غير محدود واللغة محدودة)؛ وثانيها (أنّ الله لا شكل له)، وثالثها (أنّ الله جوهر خالص لا صفة له).

(11) حيثما وجد الفلاسفة المذرييون عند تعليقهم على كتاب في التأويل (المباراة) *De Interpretatione* الإحالة على الميول النفسية، وضّموا على نحو مُميّز بدلاً منها التصورات العقلية بوجوه ثنائية الاسميّة-الواقعيّة (c.f. Duns Scotus *D.I.*, III., § 3).

كاذِبَةٍ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَرْبِطَ الْاِثْنَيْنِ مَعًا عَلَى نَحْوِ مَا، لِنَكُونَنَّ قَضِيَّةً. وبذلك تكون دلالة القضية مُتَمَيِّزَةً بِوُضُوحٍ مِنْ دَلَالَةِ كُلِّ مِنْ غُنْصَرَيْهَا الْمُكَوِّنَيْنِ لَهَا. فَهِيَ تُوَصَّلُ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْوَاقِعُ، الَّذِي قَدْ يَكُونُ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّهَا تُضْمَنُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ، وَتُثْبِتُ عِنْدَ الْمُسْتَمِعِ، حَالَةَ الْاِعْتِقَادِ أَوْ عَدَمِ الْاِعْتِقَادِ، الَّتِي لَا تَلْحَقُ بِالاسْمِ أَوْ الْفِعْلِ عِنْدَ انْفِرَادِهِمَا. وَهَذَا الْمَوْضِعُ هُوَ مَا يُمَيِّزُ الْقَضِيَّةَ مِنَ الْأَسْأَلِ الْآخَرَى لِلْكَلِمَاتِ (كُجْمَلَتِي الدَّعَاءِ وَالِاسْتِفْهَامِ اللَّتَيْنِ لَا تُفِيدَانِ صِدْقًا وَلَا كَذِبًا)، وَمِنْ جُزْأَيْهَا الْمُكَوِّنَيْنِ لَهَا كَذَلِكَ. [256] وَلِكُلِّ مِنْ هَذَيْنِ الْجُزْأَيْنِ، الْاسْمِ وَالْفِعْلِ، دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ، لِكِنَّهُمَا الْغُنْصَرَانِ النَّهَائِيَانِ لِلْكَلامِ؛ إِذْ إِنَّ أَجْزَاءَ الْاسْمِ أَوْ الْفِعْلِ لَا دَلَالَةَ لَهَا الْبَتَّةَ.⁽¹²⁾

وَيُمْكِنُ أَنْ يُتَلَمَّسَ فِي هَذَا النَّصِّ كُلُّ الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ اللَّذَيْنِ اِكْتَنَفَا مَا قَدَّمَهُ كُلُّ مِنَ النُّحَاةِ وَالْمَنَاطِقَةِ مُنْذُ زَمَنِ أَرِسْطُو. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ مَوْطِنَ الشُّكِّ هُوَ: أَعْلَى 'الْمُيُولِ الْعَقْلِيَّةِ' تَدُلُّ الْكَلِمَاتُ أَمْ عَلَى الْوَقَائِعِ الَّتِي 'تُمَثِّلُهَا'، وَالْخَلْطُ بَيْنَ الصِّفَةِ التَّفْهِيمِيَّةِ لِلْقَضِيَّةِ (الَّتِي تُسَعْمَلُ هُنَا مُرَادَفَةً لِلْجُمْلَةِ) وَحَالَاتِ الْاِعْتِقَادِ وَعَدَمِ الْاِعْتِقَادِ الَّتِي قَدْ تَحْدُثُ مُتَّصِلَةً بِهَا.

فَأَمَّا الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِلْخَلْطِ فَقَدْ عَالَجْنَاهُ بِتَفْصِيلٍ تَامٍ، وَأَمَّا الثَّانِي فَيَتَطَلَّبُ الْمَزِيدَ مِنَ الْاهْتِمَامِ إِذَا مَا أُريدَ اجْتِنَابُهُ. إِذْ لَمْ يَفْعَلِ الْبَحْثُ السَّايِكُولُوجِي الْحَدِيثُ، وَلَا سِيَّما فِي مَجَالِ طَبِيعَةِ الْإِيحَاءِ وَتَأْثِيرَاتِ الْعَقَائِرِ فِي الْمَشَاعِرِ، شَيْئًا لِإِبْطَالِ وَجْهَةِ نَظَرِ وَلِيمِ جِيَمْسِ William James بِشَأْنِ عِلَاقَةِ الْاِعْتِقَادِ بِالْإِحَالَةِ. إِذْ "إِنَّ الْاِعْتِقَادَ أَوْ الْإِحْسَاسَ بِالْوَاقِعِ هُوَ، فِي طَبِيعَتِهِ الذَّاهِلِيَّةِ، نَوْعٌ مِنَ الشُّعُورِ مُلْتَحِمٌ بِالْعَوَاطِفِ أَكْثَرَ مِنَ التَّحَامِيهِ بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ". وَالْاِعْتِقَادُ وَعَدَمُ الْاِعْتِقَادِ يَوْصِفُهُمَا مُقَابِلَيْنِ لِلشُّكِّ 'يُمَيِّزُهُمَا اتِّكَافُهُمَا عَلَى الْجَانِبِ الْعَقْلِيِّ الْخَالِصِ'، وَهُمَا "مُرْتَبِطَانِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِفَعَالِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ لَاحِقَةٍ"⁽¹³⁾. فَكَانَ الْاِعْتِقَادُ وَعَدَمُ الْاِعْتِقَادِ، وَالشُّكُّ وَالتَّسْأُولُ، هِيَ مَا يُسَمَّى هَذِهِ الْأَيَّامَ الْخُصَائِصَ التَّأْثِيرِيَّةَ-

Grote, Aristotle, Vol. I., 157.

(12)

Principles of Psychology, Vol., II., p. 284.

(13)

الإرادية للحالات العقلية، وبذلك تكون قابلةً نظريًا للفصل عن الحالات التي تُلْحَقُ بها. أي إنَّ الإحالة الواحدة قد يصحبها الاعتقاد تارة، وعدم الاعتقاد أو الشك تارة أخرى. من أجل ذلك، وبالقدر الذي تكون به اللغة مُعَدَّلَةً بِطَبِيعَةِ الْمَشَاعِرِ الاعتقادية الحاضرة، تأتي هذه التعديلات تحت عنوان التعبير عن الموقف من المرجح، وهذه هي الوظيفة الثالثة لِللُّغَةِ الْمُبَيَّنَّةِ فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ.

هذا الفصل يُعَيِّنُ كَثِيرًا عَلَى إِجْرَاءِ تَحْلِيلٍ وَاضِحٍ لَهُمْ خَصِيصَةً لِلْقَضِيَّةِ، أَيْ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَبْدُو أَنَّهَا تَرْمِزُ بِهَا إِلَى التَّفْهِيمِ، أَيْ تَرْمِزُ إِلَى مَوْضُوعِ فِكْرِي تَامٍ، وَهِيَ خَصِيصَةٌ تَفْتَقِرُ إِلَيْهَا أَجْزَاءُ الْجُمْلَةِ الْبَسِيطَةِ. فَالاسْمُ بِمُفْرَدِهِ أَوِ الْفِعْلُ بِمُفْرَدِهِ يَخْتَلِفُ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى عَنِ النَّتِيجَةِ الْكُلِّيَّةِ الْحَاصِلَةِ بِضَمِّ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ عَلَى نَحْوٍ مُنَاسِبٍ، وَهَذَا الْاِخْتِلَافُ كَانَ النُّقْطَةُ الْمَحَوْرِيَّةُ الَّتِي لَمْ يَقْتَصِرْ أَمْرُ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا عَلَى التَّحْلِيلِ النَّحْوِيِّ، بَلْ كَانَ طَرَفًا فِي ذَلِكَ أَيْضًا الْمَنْطِقُ وَالْفَلَسَفَةُ مِنْذُ زَمَنِ أَرِسْطُو.

وقد تَفَاقَمَ الْخَلْطُ بِتَقْدِيمِ مُشْكِلَةِ الصُّدْقِ فِي وَضْعٍ غَيْرِ مُحْلُولٍ. إِذْ عُدَّتِ الْقَضَايَا بِلا اسْتِثْنَاءٍ تَقْرِيبًا الْمَوْضُوعَاتِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي [257] تُطَبَّقُ فِيهَا كَلِمَتَا 'صِدْق' و'كَذِب' عَلَى نَحْوِ مُلَانِم، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْإِجْمَاعُ قَدْ حَاجَبَهُ إِلَى حَدٍّ مَا اخْتِلَافَاتُ وَجْهَاتِ النَّظَرِ بِشَأْنِ أَمْرِ هُوَ: الْقَضَايَا الصَّادِقَةُ هِيَ الَّتِي تُعْبَرُ عَنْ اعْتِقَادَاتٍ صَادِقَةٍ، أَمْ الْاعْتِقَادَاتُ الصَّادِقَةُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مَوْضُوعَاتُهَا قَضَايَا صَادِقَةً؟ وَفِي خِصْمِ هَذِهِ الْخِلَافَاتِ تُهَيِّئُ التَّحَوُّلَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ لِرَمْزِ 'الْقَضِيَّةِ'، بِرَمْزِهَا تَارَةً إِلَى الْجُمْلَةِ، وَتَارَةً ثَانِيَةً إِلَى الْمَرْجِعِ، وَتَارَةً ثَالِثَةً إِلَى خَصِيصَةِ عِلَاقِيَّةٍ لِإِعْلَالِ ذِهْنِيٍّ أَوْ لِعَمَلِيَّةٍ ذِهْنِيَّةٍ، مِيدَانًا شَائِقًا لَاكِتْشَافِ عِلْمِ الرَّمْزِيَّةِ. وَلَكِنْ فِي ضَوْءِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَيْضًا فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ بِشَأْنِ تَحْلِيلِ الْفُرُوقِ الَّتِي تُمَيِّزُ الرُّمُوزَ الْمُعَقَّدَةَ مِثْلَ 'الثَّلْجِ' يُبْرَدُ مِنْ الرُّمُوزِ الْبَسِيطَةِ مِثْلَ 'الثَّلْجِ' وَ'يُبْرَدُ' اللَّذَيْنِ يُؤَلْفَانِيهِ، نَجِدُ أَنَّ التَّعْقِيدَاتِ الظَّاهِرَةَ النَّاجِمَةَ عَنْ تَقْدِيمِ الصُّدْقِ لَا تُنْشِئُ صُعُوبَةً مَا. فَمَا هِيَ إِلَّا إِعَادَةٌ تَسْمِيَّةٌ مُحِيرَةٌ لِلْمُشْكِلَةِ بِفِعْلِ الشَّائِظِ غَيْرِ التَّامِّ.

وَتُفِيدُ نَظَرِيَّةُ الْعَلَامَاتِ أَنَّ مَا مِنْ إِحَالَةٍ، مَهْمَا تَكُنْ بَسِيطَةً، إِلَّا وَهِيَ صَادِقَةٌ

أو كاذبة، وأن ليس ثَمَّةَ فَرْقٍ في هذا بين الإحالة التي يُرمزُ إليها بِـ'الثَّلَجِ' والتي يُرمزُ إليها بِـ'الثَّلَجِ يُرْدُ'. وَيَتَّبَعِي أَنْ يُصَانَ هذا الإطلاقُ مِنَ التَّأْوِيلِ الفائقِ التَّسْرِيعِ. إِذ يَسْهُلُ اسْتِعْمَالُ كَلِمَاتٍ مُفْرَدَةٍ عَلَى نَحْوِ لَا تَكُونُ فِيهِ رُمُوزًا، وَمِنْ ثَمَّ لَا تَرْمِزُ إِلَى شَيْءٍ البَتَّةَ. فَإِذَا مَا كَانَ ذَلِكَ فَلَا شَكَّ فِي إِمكانِ نُشُوءِ صُورٍ مُبَعَثَةٍ وَمَاجِرِيَّاتٍ ذَهْنِيَّةٍ أُخْرَى، وَمَا لَمْ نَكُنْ حَدِيرِينَ فِي اسْتِعْمَالِنَا مُصْطَلَحَ 'مَعْنَى' فَقَدْ نَفَرَضُ حِينَئِذٍ أَنَّ الكَلِمَاتِ غَيْرَ الرَّمْزِيَّةِ الْمُتَنَاوِلَةِ عَلَى هذا النَحْوِ لَهَا مِنَ المَعْنَى تَمَامًا مِثْلُ مَا لَهَا مِنْهُ وَبِالْقَدْرِ نَفْسِهِ حِينَ تَكُونُ حَاضِرَةً عَلَى نَحْوِ رَمْزِيٍّ فِي القَضِيَّةِ. إِنَّ الكَلِمَةَ المَفْرَدَةَ، اسْمًا كَانَتْ أَمْ فِعْلًا، لَا يَكُونُ لَهَا مَعْنَى عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ هُنَا إِلَّا حِينَ تُؤْخَذُ عَلَى نَحْوِ تَدْخُلُ بِهِ فِي تَنَافُسٍ إِحَالِيٍّ مِنَ النَّوعِ الاعْتِيَادِيِّ، وَلَا تَكُونُ مُكُونًا رَمْزِيًّا (عَلَى النَحْوِ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ مِنَ المُمَكُونِ الانْفِعَالِيِّ) لِقَضِيَّةٍ إِلَّا إِذَا أُخِذَتْ عَلَى هذا النَحْوِ. وَكُلُّ كَلِمَةٍ نَظَرُ فِيهَا عَلَى هذا النَحْوِ تَكُونُ، بِوَصْفِهَا رَمْزًا لِإِحَالَةٍ عَلَى حَالَةٍ مَا، قَابِلَةٌ لِلصَّدَقِ وَالْكَذِبِ، وَهِيَ بِهَذَا لَا تَخْتَلِفُ بِحَالٍ عَنِ الجُمْلَةِ المُسْتَعْمَلَةِ رَمْزِيًّا لِأَغْراضِ التَّقْرِيرِ.

لِذَلِكَ مَازَالَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ: أَيْنَ يَكْمُنُ الفَرْقُ المُمَيِّزُ بَيْنَ الكَلِمَاتِ المَفْرَدَةِ والجُمْلَةِ؟ وَسَنَجِدُ، عَلَى مَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ مِنَ طَبِيعَةِ الحَالِ الرَّمْزِيَّةِ، أَنَّ ثَمَّةَ عِدَّةَ فُرُوقٍ لَا فَرْقًا وَاحِدًا، وَأَنْ لَيْسَ أَحَدُ هَذِهِ الفُرُوقِ بِكَثِيرِ الحُضُورِ وَلَا بِحَتَمِيٍّ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَعْضَهَا يُمكنُ القَوْلُ إِنَّهُ مُتَضَمَّنٌ عَلَى نَحْوِ طَبِيعِيٍّ⁽¹⁴⁾. فإِحَالَاتِ الرُّمُوزِ، فِي المَقَامِ الأوَّلِ، [258] كَثِيرًا مَا تَخْتَلِفُ بِنَائِثًا. فَلَمَّا كَانَ لِإِحَالَةِ 'القُبَرَاتِ تَتَرَنَّمُ' مُكُونَانِ اثْنَانِ اخْتَلَفَتْ عَنِ إِحَالَةِ 'القُبَرَاتِ'، كَمَا اخْتَلَفَتْ عَنْهَا إِحَالَتَا 'القُبَرَاتِ المُحَلَّقَةِ' وَ'قَطِيرَةِ القُبَرَةِ'، لِكونِهِمَا إِحَالَتَيْنِ ثَنَائِيَّتَيْنِ أَيْضًا. لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هذا الفَرْقُ أَساسِيًّا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُعْظَمَ الإِحَالَاتِ المُعَقَّدَةِ تَسْتَعْمِلُ، فِي الحَقِيقَةِ، الصُّورَةَ القَضَوِيَّةَ. أَحَدُ أَسْبَابِ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الصُّورَةِ هُوَ أَنَّهَا الوَسِيلَةُ

(14) يُعَيِّرُ شِفِيلْد Sheffield في كِتَابِهِ (النَّحْوُ وَالتَّفَكُّرُ Grammar and Thinking، ص 34) هَذِهِ الوَظِيفَةَ المُرَكَّبَةَ لِلتَّرَكِيبِ الاسْمِيِّ-الفِعْلِيِّ بِوَصْفِهَا سِمَةً مُهِمَّةً لِلتَّحْلِيلِ، وَإِنْ احْتِمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِعْمَالُهُ كَلِمَةً 'مَعْنَى' قَدْ حَجَبَ قِيَمَةَ تَمْيِيزَاتِهِ عَنِ الثَّحَاةِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ.

الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا اجْتِمَاعُ الْإِحَالَاتِ الْمُكَوَّنَةِ فِي الْحَالَاتِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا اللَّبْسُ مُمَكِّنًا. فَالْجُمْلَةُ هِيَ الْآلِيَّةُ الرَّمْزِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِكِنَّهَا لَيْسَتْ الْوَحِيدَةُ الَّتِي بِهَا يُجْعَلُ اجْتِمَاعُ الْإِحَالَاتِ وَاضِحًا. وَهَذَا هُوَ مَا يُوصَفُ عَادَةً بِأَنَّهُ الْوُظَيْفَةُ 'الْتَرَكِيْبِيَّةُ' لِلْقَضِيَّةِ⁽¹⁵⁾، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ غَيْرُ مُرْضٍ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَنْسَاقَ اللَّفْظِيَّةَ الَّتِي لَيْسَتْ عَلَى الصُّورَةِ الْقَضَوِيَّةِ مِثْلَ 'فَطِيرَةِ الْقُبْرَةِ' أَوْ 'فَطِيرَةِ الْقُبْرَةِ هَذِهِ'⁽¹⁶⁾ - مُسَاوِيَةً لَهَا فِي تَرَكِيْبِيَّتِهَا. وَقَدْ كَانَ التَّعْبِيرُ عَنْ جَمِيعِ الْقَضَايَا فِي الْمَنْطِقِ بِصِيْغَةِ الْمَوْضُوعِ-الرَّابِطَةِ-الْمَحْمُولِ مُوَاضَعَةً الْغَايَةَ مِنْهَا اجْتِنَابَ اللَّبْسِ، وَإِنْ كَانَ الْمَنَاطِقَةُ الْمُعَاصِرُونَ قَدْ رَأَوْا أَنَّ الْقَضَايَا الْعِلَاقِيَّةَ تَقْتَضِي مُوَاضَعَاتٍ أَكْثَرَ تَفْصِيْلًا.

غَيْرَ أَنَّ لِلْجُمْلَةِ كَذَلِكَ أَدَاءً انْفِعَالِيًّا بِطَرَائِقٍ مُخْتَلِفَةٍ⁽¹⁷⁾. فَهِيَ الْمَنْحَى التَّقْلِيدِي لِلْمُخَاطَبَةِ، مَا دَامَ الْمُسْتَمِيعُونَ يَتَوَقَّعُونَ إِشَارَةً خَاصَّةً إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ إِحَالَةٍ

(15) Cf. e.g., Baldwin's treatment in *Thought and Things*, Vol. II., Experimental Logic, p. 262.

(16) C.f. C. Dickens, *Works*, Autograph Edition, 1903, Vol. I., p.16.

(17) يُعَاوِذُ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ وَالْمُسْنَدُ الظُّهْرَ عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ فِي كِتَابَاتِ الْمُشْتَغِلِينَ بِعِلْمِ النَّفْسِ اللُّغَوِيِّ الْمُعَاصِرِينَ فِي لَيْبَزْغِ Leipzig، البروفيسور ديتريش Dittrich وأتباعه. إِذْ يَبْدُو أَنَّ الـ *Generalsubjekt* أَوْ الـ *Protosubjekt* يُطَابِقُ عَلَى نَحْوِ كَبِيرِ الْمَرْجِعِ فِي اصْطِلَاحِنَا، فِي حِينِ أَنَّ الـ *Generalprädikat* أَوْ الـ *Protoprädikat* هُوَ الْمَوْقِفُ (التَّصْدِيقُ، أَوْ الشُّكُّ، أَوْ الرَّغْبَةُ، أَوْ أَيُّهُ عَاطِفَةٌ أُخْرَى) الْمُبْتَنَى تَجَاةَ هَذِهِ الْحَالَةِ. وَيُمَثِّلُ الـ *Protosubjekt* ثَابِتًا (Dittrich, in his *Probleme*, p. 61)، فِي حِينِ يُمَثِّلُ الـ *Protoprädikat* مُتَغَيِّرًا. وَبِالْقِيَاسِ إِلَى هَذَيْنِ الْمَكُونَيْنِ يُعَدُّ 'الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ' وَالْمُسْنَدُ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَلَأَمَةُ، وَالْأَسْمُ وَالْفِعْلُ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ. فَقَوْلُنَا: "Fall in Home Rails"، عَلَى وَفْقِ هَذَا الرَّأْيِ، يُمَثِّلُ جُمْلَةً، وَالـ *Protosubjekt* الْخَاصُّ بِهَا هُوَ "fall in Home Rails"، وَالـ *Protoprädikat* هُوَ شُعُورٌ بِالتَّصْدِيقِ. وَبِذَلِكَ تَكُونُ الْجُمْلَةُ غَيْرَ مُشْتَبِلَةٍ عَلَى مُسْنَدٍ إِلَيْهِ [فَاعِلٍ] مُعَبَّرٍ عَنْهُ: فَـ 'fall' يُعَدُّ *Prädikativum* لِإِشَارَتِهِ لِأَشْخَصِيًّا. وَيُقَالُ إِنَّ السَّبَبَ فِي كَوْنِ فَاعِلِ 'fall' غَيْرَ مُعَبَّرٍ عَنْهُ هُوَ أَنَّهُ لَيْسَ ذَا فَائِدَةٍ هُنَا، وَيَجِبُ، عَلَى وَفْقِ هَذَا الرَّأْيِ، الْبَحْثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِلتَّقْوِيطِ falling، فِي الْأَسَاسِ *Aussagegrundlage*. وَلَسْنَا مُعَيَّنِينَ هُنَا بِهَذِهِ التَّفْصِيْلَاتِ، وَنُحِيلُ الْقَارِئَ عَلَى التَّذْيِيلِ D وَعَلَى كِتَابِ دِيتْرِشٍ لِلْأَطْلَاعِ عَلَى مُصْطَلَحَاتِ غُومْبِيرِزِ Gomperz الَّتِي يَسْتَنْدُ =

تُشَأُّ قَبْلَ أَنْ يُصِيحُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى نَحْوِ إدْرَاكِيٍّ. ثُمَّ إِنَّهَا الْعَلَامَةُ اللَّفْظِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ لِحُضُورِ الْإِعْتِقَادِ، أَيْ مَشَاعِرِ الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ أَوْ الشَّكِّ، عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ؛ وَمُثِيرَةٌ لِمَشَاعِرِ مُشَابَهَةٍ عِنْدَ [259] الْمُسْتَمِعِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا قَدْ تُعْبَرُ كَذَلِكَ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُتَكَلِّمِ وَرَغَائِهِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، الَّتِي سَيَتَبَاهَا الْمُسْتَمِعُ.

وَبُجُودُ هَذَا الْبَيَانِ لِلْجُمْلَةِ بَيْنَ أَيْدِينَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَنْظُرَ فِي وَجْهِهِ النَّظَرِ التَّقْلِيدِيَّةِ، مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِتَمْيِيزِ الْأَسْمِ مِنَ الْفِعْلِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِضُرُورَةِ رِبْطِهِمَا مَعًا فِي كُلِّ تَقْرِيرٍ. وَهَنَّاكَ مَا يَدْعُو إِلَى افْتِرَاضِ أَنْ فَصَلَ الْأَسْمَاءُ عَنِ الْأَفْعَالِ فِي اللُّغَاتِ الْبَدَائِيَّةِ يَعْكِسُ تَمْيِيزَ أَفْعَالِ الْمُتَكَلِّمِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحِيطَةِ بِهِ. وَفِي مَرَحَلَةٍ تَالِيَةٍ اسْتُعْمِلَ هَذَا التَّقْسِيمُ لِلْمَادَّةِ النَّحْوِيَّةِ، بِوَسَاطَةِ قِيَاسِ شَكْلِيٍّ طَبِيعِيٍّ، عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ مِنْ أَجْلِ تَعْيِينِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ أَوْ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْحَالَاتِ، وَالصِّفَاتِ، وَالتَّغْيِيرَاتِ الَّتِي 'تَنْتَمِي' أَوْ 'تَحْدُثُ' لِهَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ. وَقَدْ احْتِجَّ بِأَنَّ هَذِهِ الْكِيَانَاتِ الْمُفْتَرَضَةَ تَوْجَدُ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ ذَوَاتِ الْأَصْلِ اللَّغَوِيِّ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ ثُنَائِيَّةَ الْجُزْئِيِّ وَالْكُلِّيِّ، وَالشَّيْءِ وَالْخَاصِّيَّةِ، وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالْمُسْنَدِ، وَالْأَسْمِ وَالصِّفَةِ، وَالْأَسْمِ وَالْفِعْلِ، الْمُضْطَرَبِّ فِي تَسْمِيَّتِهَا فِي كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ، مِنْ أَنْ تَظْهَرَ بِمَظْهَرِ أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ أُسَاسِيَّةً الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُعْنَى بِهَا الْفِكْرُ⁽¹⁸⁾. وَلَمْ يَكُنِ الْجُزْئِيُّ وَلَا الْكُلِّيُّ مُتَصَوِّرَيْنِ عَلَى نَحْوِ مُتَفَصِّلٍ عِنْدَ أَرِسْطُو، وَلَا نُلْفِي كَثِيرًا فِي مَذْهَبِهِ فِي الْقَضِيَّةِ اسْتِعْمَالًا لِهَذِهِ الِامْتِافِيزِيْقَا. فَفِي افْتِرَاضِهِ الْقَائِمِ عَلَى أَنَّ الْكَلِمَاتِ 'تُنَاطَرُ' الْوَاقِعَ لَيْسَ فِي وَسْعِ الْأَسْمِ وَحَدَهُ بِرَمْزِهِ إِلَى الْجُزْئِيِّ، وَلَا الْفِعْلِ وَحَدَهُ بِرَمْزِهِ إِلَى الْكُلِّيِّ، أَنْ يَكُونَ لُهُمَا فِي أَنْفُسِهِمَا 'مَعْنَى' تَامٌ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ مِثَالٍ أَفْضَلَ

= إِلَيْهَا هَذَا النِّظَامُ. وَيَكْفِي أَنْ نَلْحَظَ أَنَّ هَذَا الْاسْتِعْمَالَ لِلْمُصْطَلَحَيْنِ التَّقْلِيدِيَّيْنِ 'الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ' وَ'الْمُسْنَدِ' قَدْ يُسَبِّبُ حَيْرَةً الَّذِينَ لَيْسُوا عَلَى دِرَاجَةٍ كَافِيَةٍ بِكِتَابَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْمُشْتَرَكَاتِ بَيْنَ الْاسْتِعْمَالِ الْجَدِيدِ وَالْاسْتِعْمَالِ الْمَالُوفِ سَابِقًا. (18) بِذَلِكَ يَكُونُ سَابِرٌ مُعْتَرَا عَنْ وَجْهِهِ نَظَرٍ شَدِيدَةٍ الشُّبُوحِ فِي أَوْسَاطِ الْفِيلُولُوجِيِّينَ، حِينَ يَكْتُوبُ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَ خَصِيصَةٍ كَوْنِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ، بِقَوْلِهِ: 'لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلٍ شَيْءٍ بِشَأْنِ مَوْضُوعِ الْخِطَابِ هَذَا حَالِ اخْتِيَارِهِ ... وَمَوْضُوعُ الْخِطَابِ هُوَ اسْمٌ ... وَمَا مِنْ لَفْظٍ تُخْفِقُ تَمَامًا فِي تَمْيِيزِ الْأَسْمِ وَالْفِعْلِ' (op. cit., p. 126).

من تأثير كلٍّ من اعتقاد أنَّ الكلمات المختلفة وأنساق الكلمات المختلفة لا بدُّ أن ترمز إلى أنواع مختلفة من المراجع، واعتقاد أنَّ الأنواع المختلفة من المراجع تقتضي أنواعاً مختلفة من الكلمات. وقد رأينا أنَّ كلا هذين الافتراضين لا يقوم على أساس.

بل إنَّا لو سلَّمنا بِصِدْقِ المزاعم المذكورة آنفاً لكانت نصيحتنا للنحاة بأن يجتنبوا كلَّ ما له صلة بالأساسيات، ويقتصروا على التصنيفات المعروفة بـ'البديهية'. على أنه ينبغي لنا أن نتذكَّر أنَّ 'البديهية' في الأمور اللغوية ما هي في نفسها إلا نظرية فضفاضة ومضطربة، وبعض تمثلاتها شاخص في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وزيادة على ذلك، فإنَّ التميزات الحالية والمصطلحات كذلك التي يقرِّحها النحاة للاستخدام لا تمثل إرث الفلسفة الأرسطية فحسب [260]، بل تمثل إرث ذلك 'القرن من النحو الميتافيزيقي'، الذي نبه البروفيسور هيل⁽¹⁹⁾ Hale⁽²⁰⁾ على أنه تابع خطأ تطبيق نظرية المقولات الكانتيّة في النحو الذي اضطلع به هيرمان Hermann⁽²¹⁾ سنة 1801. فلمَّا لم يكن بالإمكان البتة الاستغناء عن البحث المُدقِّق في سايكولوجية اللغة، إن كان ما نحصل عليه من

(19) وليام غاردنر هيل (1849-1928م). عالم كلاسيكي أمريكي. تخرَّج في جامعة هارفرد سنة 1870، ودرَّس فيها بعد التخرُّج الفلسفة في فصل دراسي بين سنتي 1874 و 1876. ودرَّس الفيلولوجيا الكلاسيكية في لايبزغ وغوتينغن بين سنتي 1876 و 1877، وأصبح مدرِّساً للغة اللاتينية في هارفرد بين سنتي 1877 و 1880، وأستاذ اللغة اللاتينية ورئيس قسمها في جامعة شيكاغو في سنة 1892. أكثر ما يُعرف به كونه مدرِّساً أصيلاً لمسائل النحو. من مؤلفاته: تعاقب الأزمنة، والنحو اللاتيني. [المترجم]

(20) St Louis Congress (1904) *Proceedings*. Cf. the same author's "The Heritage of Unreason in Syntactical Method" in the Classical Association's *Proceedings*, 1907.

(21) يوهان غوتفريد جاكوب هيرمان (1772-1848م). عالم، وفيلولوجي كلاسيكي ألماني. ذهب إلى أنَّ المعرفة الدقيقة للفتن الإغريقية واللاتينية هي الطريق الوحيد للفهم الواضح للحياة العقلية للعالم القديم، والهدف الرئيس، إن لم يكن الوحيد، للفلسفة. وجّه اهتمامه المبكر إلى المقاييس الشعرية الكلاسيكية، ونشر عدَّة مؤلفات في هذا الموضوع. قدَّم في بعضها نظرية علمية تستند إلى المقولات الكانتيّة. [المترجم]

عِلْمٌ قَدِيمٌ وَمُحْتَرَمٌ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْتِينَا مِنْ مُجَرَّدِ وَضْعِ مَعَايِيرَ لِمِقْدَارٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَسْمَاءٍ مُلَانِمَةٍ لِمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ، كَانَ مِنَ الْمُهْمِ مُوَاجَهَةُ الْمَسْأَلَةِ مُبَاشَرَةً. وَلَا يَدُورُ فِي خَلْدِنَا هُنَا الْبَتَّةُ أَنْ نُقَلِّلَ مِنْ شَأْنِ جُهودِ النُّحَاةِ الْجَادَّةِ الرَّائِمَةِ إِلَى تَقْدِيمِ نِظَامٍ مُعَيَّنٍ خَارِجٍ عَنِ الْقَوَاضِي الْحَالِيَّةِ، أَوْ أَنْ نَسْتَخِفَّ بِالزَّمَنِ وَالْجَهْدِ اللَّذَيْنِ يُسْتَفْتَدَانِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ. وَمِنْ الْأَمْثِلَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِنَوْعِ الْمَنْظُومَةِ الْمُصْطَلَحِيَّةِ الْمُطَوَّرَةِ مَا اكْتَنَفَ انْقِسَامَ الرَّأْيِ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْأُولَى فِي أَوْرَبَا، الَّذِي كُشِفَ عَنْهُ حَدِيثًا⁽²²⁾ بِشَأْنِ صِحَّةِ مُصْطَلَحِي 'المُكَافِي' الْإِفْرَاضِيّ subjunctive-equivalent⁽²³⁾، وَ'الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ مَنْظُورِ الْمَاضِي' future in the past⁽²⁴⁾ (اللَّذَيْنِ أَقْرَهُمَا تَقْرِيرُ لَجْنَةِ الْمُصْطَلَحِ النُّحَوِيِّ Report of the Committee on Grammatical Terminology، ص 35-36) عِنْدَ إِيضَاحِ جُمْلَةٍ 'لَوْ عَرَفْتُ عُنْوَانَهُ لَكَتَبْتُ إِلَيْهِ I should write to him if I knew his address'. وَلَكِنْ إِنْ سَلَّمْنَا جَدَلًا بِإِمْكَانِ اسْتِخْلَاصِ مَنْظُومَةٍ مُصْطَلَحِيَّةٍ جَدِيدَةٍ بِالاحْتِرَامِ مِنْ رُكَّامِ الْأَلْفَاظِ الْمَدْرَسِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ الْآنَ، فَمَا الْإِنْجَارُ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ؟ فَمَا

(22) تُنْظَرُ رِسَالَةُ الْبَرُوفِسُورِ جِيسْبِرْسِنِ Jespersen الَّتِي كَتَبَهَا مُعَارِضًا بِهَا الْبَرُوفِسُورُ سُونِنِشَايْنِ Sonnetschein (Times Literary Supplement, June 29, 1922, p. 428). وَمِنْ مُسْوَدِّ الْحِظِّ أَنَّ مُؤَلِّفَ هَذَا الْكَاتِبِ الَّذِي عُنْوَانُهُ فِلَسْفَةُ النُّحُو Philosophy of Grammar (1925) يُخَفِّقُ فِي مُنَاقَشَةِ أَيِّ مِنَ الْمَشْكِلاتِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ أَسَاسِيَّةٍ وَالَّتِي تَنْجُمُ عَنِ الْمُقَارَبَةِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ لِلغَةِ، وَلَا سِيَّما الْجَوَانِبَ النَّقْدِيَّةَ لِإِصْلَاحِ اللُّغَةِ.

(23) الْمُكَافِي الْإِفْرَاضِيّ: عِبَارَةٌ فِعْلِيَّةٌ تُكُونُ فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِوُجُودِ مُسَاعِدٍ صِيغِيّ modal auxiliary أي فِعْلٍ مُسَاعِدٍ يُبَيِّنُ مَوْقِفَ الْمُتَكَلِّمِ أَيْ صِيغَةَ الْفِعْلِ مِثْلَ shall, should, may, might، وَتَعْمَلُ بِطَرِيقَةٍ مُشَابِهَةٍ لِلصِّيغَةِ الْإِفْرَاضِيَّةِ (الشَّرْطِيَّةِ) الَّتِي هِيَ صِيغَةٌ لِلْفِعْلِ تَدُلُّ عَلَى الْإِفْرَاضِ مِثْلَ were فِي قَوْلِنَا: If I were you,.... وَهِيَ تُقَابِلُ صِيغَةَ الْإِخْبَارِ وَصِيغَةَ الْأَمْرِ. [المُتَرْجِم]

(24) الْمُسْتَقْبَلُ مِنْ مَنْظُورِ الْمَاضِي: اسْتِعْمَالُ would أَوْ was/were going to لِلْإِحَالَةِ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ مَنْظُورِ نِقْطَةٍ فِي الْمَاضِي، أَيْ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ اعْتِقَادٍ فِي الْمَاضِي لِحُدُوثِ شَيْءٍ مَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ. مِثَالُ ذَلِكَ: عَلِمْتُ أَنَّكَ سَتُسَاعِدُهُ I knew you would help him أَوْ: عَلِمْتُ أَنَّكَ كُنْتَ سَتَذْعَبُ إِلَى الْحَفْلِ I knew you were going to go to the party.

كُنَّا لِنَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ تَسْمِيَةِ أَشْكَالِ الْكَلَامِ الرَّئِيسَةِ، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا لَا يُسَوِّغُ اقْتِصَارَ النَّحْوِ الْحَالِيِّ عَلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَاكْتِسَابِ الْاحْتِرَامِ لِلْإِسْتِعْمَالِ التَّمَوِّدِيِّ لِلتَّعْبِيرَاتِ الْمُسَمَّاةِ. فَلَيْسَ مَا يَعِيبُ النَّحْوُ تَخَلُّفَ مُصْطَلَحَاتِهِ بَلْ مَا يَعِيبُهُ هُوَ قِلَّةُ الْإِهْتِمَامِ الَّتِي يُبْدِيهَا النَّحَاةُ تَجَاهَ أَقْسَامِ هِيَ أَقَلُّ عُقْمًا لِكِنَّهُمْ لَا يَأْلَفُونَهَا كَثِيرًا فِي الْمَجَالِ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَشْمَلُهَا. فَقَالِي ذَلِكَ مَرَدُّ مَا يَشِيعُ كَثِيرًا مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنَ النَّحْوِ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ أَنْ يَخْتَفِيَ مِنَ الْمُنْهَاجِ الدَّرَاسِيِّ بِوصْفِهِ 'مَوْضوعًا subject'، وَمَعَهُ كُلُّ الدَّرَاسَةِ النَّظَرِيَّةِ لِللُّغَةِ بِوصْفِهَا أَدَاةً لِلتَّوَاضُّلِ، فَمَا كَانَ لِإِصْلَاحِهِ أَنْ يَتَأَخَّرَ كَثِيرًا⁽²⁵⁾.

إِنَّ فَهْمَ وَظَائِفِ اللُّغَةِ، أَيْ الطَّرَائِقِ الْكَثِيرَةِ [261] الَّتِي تَهْدِينَا بِهَا اللُّغَةُ الطَّرِيقَ أَوْ تُضِلُّنَا بِهَا عَنْهُ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْهَدَفُ الْأَسَاسِيُّ لِكُلِّ تَعْلِيمٍ صَحِيحٍ. فَبِاللُّغَةِ يَصِلُ إِلَيْنَا كُلُّ ثَرَاتِنَا الْفِكْرِيِّ وَالْكَثِيرِ مِنْ ثَرَاتِنَا الْاجْتِمَاعِيِّ. وَمُجْمَلُ نَظَرِيَّتِنَا إِلَى الْحَيَاةِ، وَسُلُوكِنَا، وَشَخْصِيَّتِنَا، تَتَأَثَّرُ تَأَثُّرًا شَدِيدًا بِمَا يُمَكِّنُنَا الْإِنْتِفَاعَ بِهِ مِنَ الْوَسِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلاتِّصَالِ بِالْوَاقِعِ. وَإِنَّ الْإِسْتِعْمَالَ الْفَضْفَاضَ وَالْمُخَادِعَ لِللُّغَةِ لَا يُؤَدِّي إِلَى الْاضْطِرَابِ الْفِكْرِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ إِلَى التَّهَرُّبِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْجَوْهَرِيَّةِ أَوْ إِلَى قَبُولِ الصَّيْغِ الزَّائِفَةِ. وَلَمْ تَكُنِ الْكَلِمَاتُ فِي زَمَنِ مَا وَسِيلَةً شَانِعَةً لِإِخْفَاءِ الْجَهْلِ وَلِإِقْنَاعِ النَّاسِ، بَلْ أَنْفُسِنَا، بِأَنَّ لَنَا آرَاءَ فِي حِينِ أَنَّا لَا نَفْعَلُ سِوَى الْإِهْتَزَازِ مَعَ الْأَصْدَاءِ اللَّفْظِيَّةِ، أَكْثَرَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

كَمْ مِنَ النَّحْوِيِّينَ مَا زَالُوا يَعُدُّونَ عِلْمَهُمْ مُمَسِّكًا بِمِفْتَاحِ الْمَعْرِفَةِ؟ كَثِيرًا مَا غَدَا عَنْدهُمْ مُجَرَّدَ تَمَرِينٍ يَقْيِي ذِي مَدَى مَحْدُودٍ جَدًّا، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الدَّرَاسَةُ الْمُلهِمَةُ لِمَسَائِلِ اكْتِسَابِ الصَّدَقِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مُؤَسَّسِي هَذَا الْعِلْمِ كَانُوا عَلَى قَدَرٍ لَا بَأْسَ بِهِ مِنْ سُوءِ إِدْرَاكِ الطَّاقَاتِ الْفِعْلِيَّةِ لِللُّغَةِ، لَكِنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَهْمِيَّتَهَا. وَقَدْ فَحَصْنَا فِي أَثْنَاءِ دِرَاسَتِنَا الْوَسِيلَةَ الَّتِي يُمَكِّنُنَا أَنْ نَحْتَرِّزَ بِهَا مِنَ الْفِخَاخِ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي تُسَبِّبُهَا الْكَلِمَاتُ. وَيَجِبُ أَنْ تُنَاطَ بِالنَّحْوِ مُهِمَّةٌ تَهَيِّئُ كُلَّ

(25) ثَمَّةُ مُحَاوَلَةٍ وَاعِدَةٍ لِتَجَنُّبِ الْجِهَازِ الْمُصْطَلَحِيِّ النَّحْوِيِّ جُمْلَةً فِي التَّعْلِيمِ بِإِسْتِعْمَالِ الْمُخَطَّطَاتِ،

صَاحِبَتُهَا هِيَ الْإِسْتِثْنَاءُ لِإِزَابِيلْ فَرَاي Isabel Fry فِي كِتَابِهَا بِفَتْحِ اللُّغَةِ A Key to Language =

مُسْتَعْمِلٍ لِلرُّمُوزِ لَا كِتْشَافٍ هَذِهِ الْفِخَاخِ وَالْأَوْهَامِ. فَالتَّدْرِيبُ عَلَى التَّحْوِيلِ (ص 198-199)، وَعَلَى التَّوْسِيعِ بِخَاصَّةٍ (ص 183)؛ وَعَلَى آيَةِ الْاسْتِبْدَالِ (ص 206)، وَطَرَائِقِ مَنَعَ سُوءِ الْفَهْمِ وَإِزَالَتِهِ فِي مُسْتَوَيَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ (ص 339)؛ وَعَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرَّمْزِيِّ وَالْإِنْفِعَالِيِّ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالتَّعْبِيرَاتِ (ص 249-250)؛ وَعَلَى تَعَرُّفِ وَطَائِفِ اللَّغَةِ الْخَمْسِ الرَّئِيسَةِ (ص 340-341) - كُلُّ أُولَئِكَ مِنَ التَّمْهِيدَاتِ الَّتِي لَا غِنَى عَنْهَا إِذَا مَا أَرَدْنَا ضَمَانَ اسْتِعْمَالِ صَحِيحٍ لِلَّغَةِ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لِلتَّوَاصُلِ، وَمِنْ ثَمَّ مُهِمَّةٌ مُنَوَّطَةٌ بِالنَّحْوِ [262].

= (1925). وَيُمْكِنُ التَّجَاوُزُ فِي تَوْسِيعِ هَذَا الْمَنْهَجِ لِشِمْلِ مَا يُنَاقَشُ هُنَا مِنْ مُشْكِلَاتٍ لِلتَّحْلِيلِ اللَّغَوِيِّ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا.

التذيل B

في السياقات

في حالة التَّوَقُّع البَسِيطَةِ، حِينَ يَكُونُ كُلُّ مِنَ الْعَلَامَةِ وَالْمَرْجِعِ مِنَ الْأَحَاسِيسِ، يُمَكِّنُ التَّعْيِيرُ عَنِ النَّظَرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلْإِحَالَةِ الَّتِي سَبَقَ تَقْدِيمُ مُوجَزٍ عَنْهَا فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ، ص 136 فَمَا بَعْدَهَا- يُنْظَرُ بِخَاصَّةِ الصَّفَحَتَيْنِ 139، و145- عَلَى النِّحْوِ الْآتِي:-

لِيَكُنْ i عَمَلِيَّةٌ ذَهْنِيَّةٌ أَوْ حَدَثًا ذَهْنِيًّا.

فَإِذَا حَدَثَ أَنْ سَبَقَ i إِحْسَاسٌ s (صَوْتُ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ)، عَلَى نَحْوِ يَكُونُ فِيهِ:-

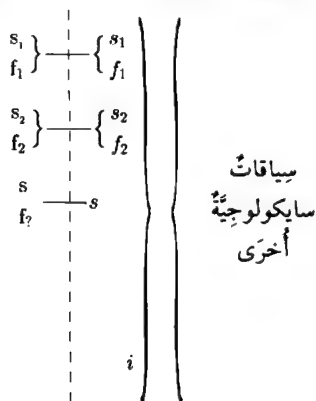
s لَهُ صِفَةٌ مَا هِيَ S (أَنْ يَكُونَ صَوْتًا خَشِنًا، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ) وَهِيَ صِفَةٌ تَأْسِيسِيَّةٌ لِسَيَاقَاتٍ 'تَقَارُبٍ' Proximity (السِّيَاقُ فِي حَالَتِنَا مُرَدُّوْجٌ) مُحَدَّدَةٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَتِهَا التَّأْسِيسِيَّةِ الْآخَرَى F (أَنْ يَكُونَ إِحْسَاسًا بِالتَّوَهُجِ) وَبِالدَّلَالَةِ التَّعْيِينِيَّةِ عَلَى أَعْضَاءِ لِمَثَلِ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ هِيَ $s_1, f_1, s_2, \dots, f_2$ ($s_1, f_1, s_2, f_2, \dots, s, i$ مُكَوَّنَةٌ سِيَاقًا مُحَدَّدًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِ I ، ثُمَّ يُقَالُ إِنَّ i تَأْوِيلٌ لـ s فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِ S ، وَإِنَّ I هُوَ صِفَتُهَا ذَاتُ الصِّلَةِ بِ s ، وَإِنَّ s عِلَامَةٌ. فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ i اعْتِقَادٌ أَنَّ شَيْئًا مَا سَيَحْدُثُ هُوَ إِحْسَاسٌ بِالتَّوَهُجِ وَهُوَ فِي حَالَةٍ تَقَارُبٍ مَعَ s .

فَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ مَا (لِيَكُنْ f) يُكُونُ مَعَ s اسْتِنَادًا إِلَى SF سِيَاقٍ تَقَارُبٍ مُحَدَّدًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِ s ، فَحِينَئِذٍ يُقَالُ إِنَّ f هُوَ مَرْجِعٌ i بِوصْفِهِ تَأْوِيلًا لـ s مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَيُلَحَظُ أَنَّ f لَهُ بِوَسَاطَةِ التَّعْرِيفِ صِفَةُ F وَأَنَّهُ فِي حَالَةٍ تَقَارُبٍ مَعَ s .

فإن كَانَ لِشَيْءٍ مَا هَذِهِ الْخَوَاصُّ فَحِينَئِذٍ يُقَالُ إِنَّ i تَأْوِيلُ صَادِقٌ لِدَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدَ، لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا لَهُ الْخَوَاصُّ الْمَطْلُوبَةُ فَحِينَئِذٍ يُقَالُ إِنَّ i تَأْوِيلُ كَاذِبٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْوَجْهِ نَفْسِهِ.

فَإِذَا مَا أَرَدْنَا التَّعْبِيرَ عَنِ الْأَمْرِ بِلُغَةٍ أَكْثَرَ تَحَرُّرًا مِنَ اللُّغَةِ الرَّسْمِيَّةِ قُلْنَا إِنَّا حِينَ نَتَوَقَّعُ إِحْسَاسًا بِالِاتِّقَادِ، نَتَبَجَّعُ لِسَمَاعِ صَوْتِ كَشِطِّ عُودِ ثِقَابٍ، يَكُونُ اعْتِقَادُنَا عَمَلِيَّةً هِيَ غُضُوٌّ فِي سِيَاقٍ سَايَكُولُوجِيٍّ تُوَحِّدُهُ عِلَاقَةٌ تَذَكُّرِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ، مِنْ عَنَاصِرِهَا الْأُخْرَى الْإِحْسَاسَاتُ الْمَاضِيَّةُ [263] بِحَالَاتِ الْكَشِطِّ وَالِاتِّقَادِ، وَتُؤَخِّدُ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ أَنْفُسَهَا فِي سِيَاقَاتٍ مُزْدَوِجَةٍ عِلَاقَةٌ تَقَارُبٍ. فَإِنْ كَانَ الْكَشِطُّ مُرْتَبِطًا بِوَسَاطَةِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ بِالِاتِّقَادِ كَانَ اعْتِقَادُنَا صَادِقًا، وَكَانَ هَذَا الْإِحْسَاسُ هُوَ مَرَجِعُ اعْتِقَادُنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ اتِّقَادٍ يَرْتَبِطُ بِهِ الْكَشِطُّ عَلَى هَذَا النَّحْوِ كَانَ اعْتِقَادُنَا كَاذِبًا. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ بَحَثْنَا (الفصل الثالث) مَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ الْمَرَجِعُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، إِنْ كَانَ ثَمَّةَ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

وَفِي الْآتِي مُحَظَّطٌ يَصُورُ الْأَطْرُوحَةَ الْمَذْكُورَةَ آفَاقًا نُقَدِّمُهُ لِلَّذِينَ يَرَوْنَ فِي الْمُحَظَّطَاتِ نَفْعًا عِنْدَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الْمُعَقَّدَةِ، وَهُوَ لَيْسَ بِمُضَلِّلٍ، بَلْ إِنَّهُ يُسَلِّطُ بَعْضَ الضَّوءِ عَلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّعْقِيدَاتِ الَّتِي لَمْ تُضْمَنْ هُنَاكَ. وَالْحَطُّ الْمُتَقَطُّ الْمَرَكَزِيُّ فِي الْمُحَظَّطِ يَفْصِلُ السِّيَاقَاتِ السَّايَكُولُوجِيَّةَ عَنِ السِّيَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ؛ أَمَّا الْأَقْوَاسُ وَالْخُطُوطُ الْمُتَّصِلَةُ فَتُشِيرُ إِلَى السِّيَاقَاتِ؛ وَتُمَثِّلُ s ، f ، وَمَا إِلَيْهِمَا، الْمُثِيرَاتِ. وَأَمَّا s ، f ، وَمَا إِلَيْهِمَا، فَتُمَثِّلُ الْإِحْسَاسَاتِ الْمُنَاطِرَةَ:



وَيُلَحَظُ أَنَّ الْأُطْرُوحَةَ الْمَذْكُورَةَ آتِفًا لَا تَتَعَامَلُ إِلَّا مَعَ السِّيَاقَاتِ الَّتِي يَكُونُ أَعْضَاؤُهَا مِنَ الْأَحَاسِيسِ. وَقَدْ ضُمِّنَ فِي الْمُخَطَّطِ السِّيَاقَاتُ 'الْإِنَارِيَّةُ-الْحِسِّيَّةُ' أَيْضًا. وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ أَيَّةُ أَمْثَلَةٍ فَعَلِيَّةٍ لِلتَّأْوِيلِ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا بِمَرَاجِلَ مِنْ أَيِّ بَيَانٍ أَوْ مُخَطَّطٍ يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ كِتَابِيًّا. وَالْقَوْسُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ سِيَاقَاتٍ سَايَكُولُوجِيَّةً أُخْرَى يُشِيرُ إِلَى أَحَدِ أَسْبَابِ ذَلِكَ. فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مَعْنَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ أَحَدَ السِّيَاقَاتِ يَتَوَقَّفُ بِهِ عَلَى السِّيَاقَاتِ الْأُخْرَى. وَمِثَالٌ مَلْمُوسٌ لِذَلِكَ: فَعَالِيَّةٌ مَاكِئَةٌ وَضَعِ النُّوُدُ الَّتِي مِنَ الْمُمَكِّنِ مُعَالَجَتُهَا بِوَصْفِهَا سِيَاقًا مُرَدُّوَجًا بَسِيطًا (وَضَعُ عُمَلَةٍ نَقْدِيَّةٍ-ظُهُورُ قِطْعَةٍ حَلَوَى) عَلَى أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ أَطْرَادٍ فِي تَكَرُّرِ حَدُوثِ سِيَاقَاتٍ مُرَكَّبَةٍ وَاسِعَةٍ تَتَضَمَّنُ [264] نُموَّ شَجَرِ الْكَاكَاوِ، وَالثَّقَلِ النَّوْعِيِّ لِلنُّحَاسِ الَّذِي صُنِعَتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ النَّقْدِيَّةُ، وَالْفَحْصُ الْمُنْتَظَمُ لِلآلَةِ المِيكَانِيكِيَّةِ. وَعِلْمُ النَّفْسِ مَعْنِيٌّ عَلَى الدَّوَامِ بِأَحْوَالٍ مُشَابِهَةٍ، لَكِنْ تَحْلِيلَ السِّيَاقَاتِ الْمُتَضَمِّنَةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَكْثَرُ صُعُوبَةٍ. فَمِنْ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ فِي عِلْمِ النَّفْسِ، حَقًّا، اكْتِشَافُ السِّيَاقَاتِ الَّتِي يَكُونُ عَدَدُ أَعْضَائِهَا قَلِيلًا. بَلْ إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلْسِّيَاقِ الْإِنَارِيِّ-الْحِسِّيِّ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ مُحَدَّدًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَةِ الْإِحْسَاسِ، مِنْ أَنْ يَتَضَمَّنَ عَلَى نَحْوِ اعْتِبَادِيٍّ أَعْضَاءَ سَايَكُولُوجِيَّيْنِ آخَرَيْنِ، يَكُونُ مِنْ ضَمَنِهِمْ إِحْسَاسَاتٌ أُخْرَى وَشُرُوطٌ تُلْمَحُ إِلَيْهَا حِينَ نَسْتَعْمِلُ كَلِمَةَ 'انْتِباه.' [265]

التذييل C

نَظَرِيَّةُ العَلَامَاتِ عِنْدَ أَيْنِسِيدِمُوسِ Aenesidemus

إِنَّ مَا نَعْرِفُهُ عَنْ آراءِ أَيْنِسِيدِمُوسِ مُسْتَمَدٌّ أَساسًا مِنَ الإِحَالَاتِ الْمُقْتَضِبَةِ عَلَيْهِ فِي كِتَابَاتِ سَكْسْتُوسِ أَمْبِرِقُوسِ Sextus Empiricus، غَيْرَ أَنَّ الْكِتَابَ الرَّابِعَ مِنْ مُؤَلَّفِهِ الْمَفْقُودِ الَّذِي عُنوانُهُ مَعَالِمُ الْيُورُونَةِ كَانَ مُخَصَّصًا لِنَظَرِيَّةِ العَلَامَاتِ. وَقَدْ لَحَظَ سَكْسْتُوسُ مَبَاحِثَهُ الرَّئِيسَةَ فِي مَا بَيْنَ 97-134 مِنْ قَرَضِيَّاتِهِ Hypotheses، وَإِنْ كَانَ لَا يَتَضَحُّ عَلَى الدَّوَامِ مِقْدَارُ مَا زَادَهُ سَكْسْتُوسُ نَفْسُهُ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ. وَيَذْهَبُ أَيْنِسِيدِمُوسُ، اسْتِنَادًا إِلَى مَا نَقَلَهُ عَنْهُ فُوتِيُوسُ⁽¹⁾ Photius⁽²⁾، إِلَى أَنَّ الْأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَرْتَبِيَّةِ لَا يُمكنُ الْكَشْفُ عَنْهَا بِوَسَاطَةِ عِلَامَاتٍ مَرْتَبِيَّةٍ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِعِلَامَاتٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ضَرَبٌ مِنَ الْوَهْمِ. وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْمَذْهَبَ نَصٌّ فِي كِتَابِ سَكْسْتُوسِ⁽³⁾ يُبْذِرُ مُهَاجِمَةً لآراءِ الْأَبِقُورِيِّينَ⁽⁴⁾. وَيَجْرِي الْحِجَاجُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

(1) فُوتِيُوسُ (810-893م). الْبَطْرِيرُكُ الْمَسْكُونِيُّ فِي الْفُسْطَنْطِينِيَّةِ بَيْنَ سَنَتَيْ 858 وَ867، وَبَيْنَ سَنَتَيْ 877 وَ886. وَيُعْرَفُ فِي الْكَنَائِسِ الْأُورْثُودُوكْسِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ بِاسْمِ الْقَدِّيسِ فُوتِيُوسِ الْعَظِيمِ. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ الْبَيْبْلْيُوثِيكا Bibliothica الذي هُوَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَقْبِيَّاسَاتِ وَالْإِخْتِصَارَاتِ لِمَتْنَيْنِ كِتَابًا لِكُتَّابِ كَلَامِيكِيِّينَ، تُعَدُّ أَصُولَ الْكَثِيرِ مِنْهَا الْآنَ فِي حُكْمٍ مَا قَدْ فُقِدَ. [المُترجم]

Biblioth., 170, p. 12.

(2)

Adv. Math., VIII., 215 sqq. (3)

[اسْمُ الْكِتَابِ كَامِلًا هُوَ Adversus Mathematicos وَتَرَجَمَتْهُ هِيَ (الرُّدُّ عَلَى عُلَمَاءِ الرُّيَاضِيَّاتِ). الْمُترجم]

(4) نِسْبَةٌ إِلَى أَبِيقُور (270-341 ق.م)، وَهُوَ فِيلَسُوفٌ إِغْرِيقِيٌّ رَأْسُ مَدْرَسَةِ فِلَسْفِيَّةٍ سُمِّيَتْ بِاسْمِهِ. وَقَدْ انْتَصَرَ اِهْتِمَامُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ إِلَى الْأَخْلَاقِ، فَقَالُوا إِنَّ أَساسَهَا اللَّذَّةُ، وَإِنَّ =

‘إِنْ بَدَتْ الظَّوَاهِرُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا لِكُلِّ الْمُشَاهِدِينَ ذَوِي التَّكْوِينِ الْمُتَشَابِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ إِنْ كَانَتْ الْعَلَامَاتُ عِبَارَةً عَنِ ظَوَاهِرٍ، فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ الْعَلَامَاتُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا لِكُلِّ الْمُشَاهِدِينَ ذَوِي التَّكْوِينِ الْمُتَشَابِهِ. وَهَذَا الْمُقْتَرَحُ الْإِفْتِرَاضِي هُوَ مِنَ الْبَدِيهَاتِ؛ فَإِذَا مَا سَلَّمَ بِالْمُقَدِّمَةِ لِحَقِّهَا النَّتِيجَةُ. فَالَّذِي لَدَيْنَا، عَلَى مَا يُتَابَعُ سَكْسْتوس سَرْدَهُ، (1) أَنَّ الظَّوَاهِرَ تَبْدُو بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا لِكُلِّ الْمُشَاهِدِينَ ذَوِي التَّكْوِينِ الْمُتَشَابِهِ. لَكِنْ (2) الْعَلَامَاتُ لَا تَبْدُو بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا لِكُلِّ الْمُشَاهِدِينَ ذَوِي التَّكْوِينِ الْمُتَشَابِهِ. إِنْ صِدَقَ الْقَضِيَّةُ (1) يَسْتَدِلُّ إِلَى الْمُشَاهَدَةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْبَيْضَ لَا تَبْدُو بِيَضًا لِلْمُصَابِ بِالْبَرَقَانِ أَوْ لِمَنْ عَيْنُهُ مُحْتَنَنَةٌ بِالدَّمِ، لَا يَخْتَلِفُ فِي بَيَاضِهَا اثْنَانِ مِمَّنْ أَعْيُنُهُمْ سَلِيمَةٌ، أَيْ كُلُّ الْمُشَاهِدِينَ ذَوِي التَّكْوِينِ الْمُتَشَابِهِ. أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدَقِ الْقَضِيَّةِ (2) فَإِنَّ قَرْنَ الطَّبِّ يُقَدِّمُ أَمِثْلَةً حَاسِمَةً بِشَأْنِهِ. فَأَعْرَاضُ الْحُمَى، وَاحْتِقَانِ الرَّجْوِ، وَتَعَرُّقِ الْجِلْدِ، وَدَرَجَةِ الْحَرَارَةِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّبْنُّصِ الْمُتَسَارِعِ، حِينَ يَلْحَظُهَا الْأَطِبَّاءُ ذَوُو التَّكْوِينِ الذَّهْنِيِّ الْمُتَشَابِهِ لَا يُؤَوَّلُونَهَا تَأْوِيلًا وَاحِدًا. وَهَذَا يُورِدُ سَكْسْتوسُ بَعْضًا مِنَ النُّظَرِيَّاتِ الْمُتَعَارِضَةِ الَّتِي تَبْنَاهَا الْمُعَلِّمَاءُ فِي زَمَانِهِ. إِذْ يَرَى هِيرُوْفِيلُوسُ Herophilus⁽⁵⁾ فِي هَذِهِ الْأَعْرَاضِ [266] أَمَارَةً عَلَى دَمٍ بِمَوَاصِفَاتٍ جَيِّدَةٍ؛ أَمَّا إِيرَاسِئِرَاتُوسُ Erasistratus⁽⁶⁾ فَيَرَى فِيهَا عَلَامَةً عَلَى مُرُورِ الدَّمِ مِنَ الْأَوْرَدَةِ إِلَى الشَّرَايِينِ؛ وَأَمَّا

= اللذة هي هدف الإنسان في حياته. وما دامت اللذة هي غاية الحياة فالمعرفة لا تتحقق إلا من طريق الحواس التي تُرشد المرء إلى تحديد طبيعة الشيء، فيُصدرُ حكمه بعد الإدراك الحسي. والفلسفة في منظور هذه المدرسة تسعى إلى الحصول على السعادة باستعمال العقل؛ فالمنطق هو الذي يُسلم الإنسان إلى اليقين الذي به يطمئن العقل، الذي يقود إلى تحقيق السعادة. [المُترجم]

(5) هيروفيلوس (335-280 ق.م). طبيب إغريقي عُذَّ أَوَّلَ مُخْتَصُّصٍ فِي الشَّرِيحِ. وَيُعَدُّ هُوَ وَإِيرَاسِئِرَاتُوسُ مُؤَسِّسِي مَدْرَسَةِ الطَّبِّ الْعَظِيمَةِ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. [المُترجم]

(6) إِيرَاسِئِرَاتُوسُ (304-250 ق.م). عَالِمٌ بِالشَّرِيحِ وَطَبِيبٌ مَلِكِيٌّ إِغْرِيْقِيٌّ عَظِيمٌ. أَسَّسَ مَعَ زَمِيلِهِ الطَّبِيبِ هِيرُوْفِيلُوسِ مَدْرَسَةً لِلشَّرِيحِ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. [المُترجم]

أسكليبيادس Asclepiades⁽⁷⁾ فَإِنَّهَا تَذُلُّ عِنْدَهُ عَلَى ضَغْطٍ شَدِيدٍ لِلْكَرِّيَّاتِ فِي الْأَنْسِجَةِ الْخِلَالِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ الْكَرِّيَّاتُ وَالْأَنْسِجَةُ الْخِلَالِيَّةُ لَا تَقَعُ فِي مُتَنَاولِ الْجَسِّ بَلْ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا الْعَقْلُ؛ لِقَرَطٍ صَغِيرٍهَا اللَّامُتَنَاهِي. وَبَعْدَ أَنْ اسْتَمَدَّ سَكْسْتُوسُ هَذَا الْجَجَاجَ مِنْ أَيْنِسِيدِيمُوسَ طَوْرَهُ بِطَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ مَنْ قَدَّمَ الْأَمِيلَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا⁽⁸⁾.

عَلَى أَنَّ سَكْسْتُوسَ لَمْ يَكْتَفِ بِإِبْطَالِ إِسْهَامِ الْأَبِقُورِيِّينَ بِشَأْنِ الْعَلَامَاتِ بِوَصْفِهَا أَشْيَاءَ مَعْقُولَةٍ. إِذْ رَاحَ يُهَاجِمُ رَأْيَ الرُّوَاقِيِّينَ وَيُظْهِرُ عَدَمَ إِمْكَانِ فَهْمِ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِ الْعَقْلِ أَوْ الْفِكْرِ. وَرُبَّمَا لَمْ يَذْهَبَ أَيْنِسِيدِيمُوسُ نَفْسُهُ إِلَى أَبْعَدَ مِنَ الْبَرَهَةِ (بِكَلِمَاتِ فُوتِيُوس) عَلَى أَنَّ "لَيْسَ ثَمَّةُ عِلَامَاتٍ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ لِمَا هُوَ غَامِضٌ وَكَامِنٌ"، وَهُنَاكَ مَنْ يَعْتَقِدُ احْتِمَالًا أَنْ يَكُونَ سَكْسْتُوسُ نَفْسُهُ هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَسَاسِيُّ لِلتَّفْرِيقِ الشَّائِعِ فِي أَوْسَاطِ مُتَأَخَّرِي فَلَاسِفَةِ الشُّكِّ Sceptics⁽⁹⁾ بَيْنَ صِنْفَيْنِ مِنَ الْعَلَامَاتِ- الْعَلَامَاتِ 'التَّذْكَارِيَّةِ' commemorative، وَالْعَلَامَاتِ 'الدَّلِيلِيَّةِ' demonstrative⁽¹⁰⁾. وَاسْتِنَادًا إِلَى هَذَا التَّفْرِيقِ 'ثَمَّةُ عِلَامَاتٍ تَعْمَلُ عَلَى

(7) أسكليبيادس (125-40 ق.م). فيلسوف، وطبيب إغريقي. حاول بناء نظرية جديدة للمرض تستند إلى تدفق الذرات في مسامات في الجسم. تطلعت علاجاته إلى تجديد الانسجام من خلال استعمال الجمية، والتمرين، والسباحة. [المترجم]

R. D. Hicks, *Stoic and Epicurean*, p. 390. (8)

(9) نسبة إلى مذهب الشك، وهو مذهب يرى أن المعرفة الحقيقية في حقل معين هي معرفة غير مُحَقَّقَةٍ أَوْ مُؤَكَّدَةٍ، ومعنى الكلمة في الإغريقية الفحص والتفكير. ويُعدُّ بيرو Pyrrho (360-275 ق.م) الذي صحب الإسكندر في رحلته إلى الهند من أشهر الشكوكيين. ويقوم هذا المذهب على نظريته قحواها أنا وإن كنا نعرف ظواهر الأشياء فلا نستطيع معرفة حقائقها الباطنية، وأنه لما كان الشيء الواحد يظهر بمظاهر مختلفة لعدد من الأشخاص تعذرَّت معرفة الصواب في وجهات النظر. ولما كنا لا نستطيع التثبت من طبيعة الشيء ولا إصدار الحكم الصائب عليه اقتضى الأمر التوقف والامتناع عن أي عمل. [المترجم]

Ibid., p. 391: the source being *Pyrrh. Hyp.*, II., 100; cf. the context, 99-102; (10) *Adv. Math.*, VIII., 148-158.

وَفِي قَانُونِ الدَّعَايِ، مُذَكَّرَةٌ لِأَنَّا بِأَنَّ ثَمَّةَ تَجَرِبَةٍ سَابِقَةٍ شَهِدَتْ ارْتِبَاطَ ظَاهِرَتَيْنِ مَعًا، كَارْتِبَاطِ الدُّخَانِ بِالنَّارِ، وَالثَّدْبَةِ بِالْجُرْحِ، وَالطَّعْنَةِ فِي الْقَلْبِ بِالمَوْتِ اللاحِقِ. فَإِنْ عَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ لِاحْدَى الظَّاهِرَتَيْنِ إِيهَامٌ مُوقَّتٌ ففَاتَتْ الرُّغْيَ المُبَاشِرَ أَخَذَتْ الأُخْرَى عَلَى عَاتِقِهَا، إِنْ كَانَتْ حَاضِرَةً، مَهْمَةً اسْتِدْعَائِهَا، وَلَا تَشْرِبُ عَلَيْنَا فِي تَسْمِيَتِنَا الظَّاهِرَةَ الحَاضِرَةَ عِلَامَةً sign وَالظَّاهِرَةَ الغَائِبَةَ مُوقَّتًا الشَّيْءَ المَدْلُولَ عَلَيْهِ the thing signified. وَلَا إِشْكَالَ لَدَى سَكْسْتوسِ بِشَأْنِ مُصْطَلَحِ 'العِلَامَةِ' المَفْهُومَةِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ، أَيْ أَنَّهَا تَذْكَارِيَّةٌ أَوْ مُذَكَّرَةٌ. وَبِمُسَاعَدَتِهَا يُصْبِحُ التَّنْبُّؤُ مُسَوِّغًا؛ إِذْ بِإِمْكَانِنَا تَوَقُّعُ النَّارِ مِنَ الدُّخَانِ، وَالجُرْحِ مِنَ الثَّدْبَةِ، وَالاقْتِرَابِ مِنَ المَوْتِ مِنَ الطَّعْنَةِ القَاتِلَةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّا فِي كُلِّ هَذِهِ الحَالَاتِ نَنْطَلِقُ اسْتِنَادًا إِلَى تَجَرِبَةٍ مَاضِيَةٍ. لَكِنْ سَكْسْتوسُ يَدَّخِرُ عِدَاءَهُ لِصِنْفِ آخَرَ مِنَ العِلَامَاتِ مِنَ المُمْكِنِ تَسْمِيَتِهَا العِلَامَاتِ الدَّلِيلَةِ. فَحِينَ لَا يَكُونُ ثَمَّةُ حُدُوثِ البَيِّنَةِ فِي تَجَرِبَةٍ فَعْلِيَّةٍ لِاحْدَى الظَّاهِرَتَيْنِ الَّتِي يُفْتَرَضُ أَنْ تَكُونَ الشَّيْءَ المَدْلُولَ عَلَيْهِ، بَلْ كَانَتْ تَنْتَمِي كُلِّيًّا، بِطَبِيعَتِهَا الدَّائِيَّةِ، إِلَى مَنْطِقَةِ المَجْهُولِ، يَذْهَبُ الجَزْمِيُّونَ dogmatists مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ إِنْ تَحَقَّقَتْ شُرُوطُ مُعَيَّنَةٍ أَشَارَتْ الظَّاهِرَةُ الأُخْرَى، الَّتِي سَمَّوْهَا عِلَامَةً، إِلَى وُجُودِهَا وَكَانَتْ دَلِيلًا عَلَيْهِ. مِثَالُ ذَلِكَ، عَلَى وَفْقِ مَذْهَبِ الجَزْمِيِّينَ، أَنَّ حَرَكَاتِ الجَسَدِ تُشِيرُ إِلَى وُجُودِ النَّفْسِ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ [267]؛ فَهِيَ عِلَامَتُهُ. وَ'العِلَامَةُ' إِذَنْ بِهَذَا المَعْنَى الأَخِيرِ لَهَا، أَيْ العِلَامَةُ الإِشَارِيَّةُ أَوْ الدَّلِيلِيَّةُ، هِيَ الَّتِي يُنَازِعُ سَكْسْتوسُ فِي وُجُودِهَا وَيَأْخُذُ عَلَى عَاتِقِهَا مَهْمَةً دَحْضِهَا⁽¹¹⁾.

(11) نَقَلَ عَادِلُ فَاخُورِي فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ الدَّلَالَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ - دِرَاسَةٌ مُقَارَنَةٌ مَعَ السِّمَاءِ الحَدِيثَةِ) نَصًّا مِنْ كِتَابِ تودوروف (نَظَرِيَّاتُ الرَّمْزِ) يُثَبِّتُ قَرِيبًا مِنَ النِّصِّ الَّذِي نَقَلَهُ أَوْغِدِن وَرْتشاردز عَنِ سَكْسْتوسِ أَمْبِرِقُوسِ، إِذْ قَالَ عَادِلُ فَاخُورِي فِي الصَّفَحَتَيْنِ 24 وَ25 مِنْ كِتَابِهِ: 'يُمَيِّزُ الرُّوَاقِيُّونَ، حَسَبَ سَكْسْتوسِ أَمْبِرِقُوسِ Sextus Empiricus صِنْفَيْنِ مِنَ العِلَامَاتِ اسْتِنَادًا إِلَى تَمْيِيزِ صِنْفَيْنِ مِنَ الأُمُورِ: الأُمُورِ الغَامِضَةِ لِفَتْرَةٍ، والأُمُورِ غَيْرِ المُتَبَيَّنَةِ بِطَبِيعَتِهَا. (فَهَذِهِ الأُمُورُ يُمَكِّنُ إدْرَاقَهَا بِعِلَامَاتٍ، لَكِنْ لَيْسَ بِالعِلَامَاتِ ذَاتِهَا، بَلِ الأَوَّلَى تُدْرِكُ بِعِلَامَاتٍ تَذْكِرَةٍ commemoratifs ou de rappel، والأُخْرَى بِعِلَامَاتٍ كَشَفٍ أَوْ تَدْلِيلٍ. تُسَمَّى عِلَامَةً تَذْكِرَةً العِلَامَةُ الَّتِي، إِذَا مَا لَوَحِظْتُ بِالْوَقْتِ ذَاتِهِ الَّذِي لَوَحِظَ فِيهِ =

فإنَّ صَحَّ مثلُ هذا التَّأويلِ لآرائِهِم اتَّضَحَ أَنَّ فَلَاسِفَةَ الشُّكِّ، بِإِسْهَامِهِم المتعلِّقِ بِالْعَلَامَاتِ المُذَكَّرَةِ، كَانُوا قَرِيبِينَ جِدًّا مِنْ صِيَاغَةِ نَظَرِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ لِلِاسْتِقْرَاءِ الْعِلْمِيِّ، فِي حِينٍ أَنَّ فِلَسَفَتَهُمُ الشُّكِّيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْعَلَامَاتِ الدَّلِيلِيَّةِ تَرَفَّى إِلَى أَنْ تَكُونَ إِنْكَارًا لِلِمَكَانِ الْاسْتِدْلَالِ عَلَى الْمُتَعَالِي *transcendental*. فإِذَا مَا أُعْطِينَا حَقِيقَةً مَا أَوْ، عَلَى وَفْقِ مَا يُسَمِّيهِ الرُّوَاقِيُونُ، 'عَلَامَةً' مَا فَلَنْ يَكُونَ فِي وَسْعِنَا أَنْ نُحَدِّدَ طَبِيعَةَ الشَّيْءِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ تَحْدِيدًا قَبْلِيًّا. وَلَا غَرَابَةً فِي أَنْ نُلْفِي الْمُصْطَلَحَاتِ الرَّئِيسَةَ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْبَحْثِ تُعَانِي تَخْلِيطَاتٍ مَا زَالَتْ مُلَازِمَةً يُمَكِّنَاتِهَا الْمُعَاصِرَةِ؛ فَلَيْسَ بِالِإِمْكَانِ أَنْ تُوجَدَ عِلَامَاتٌ لِأَشْيَاءٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحَالَ عَلَيْهَا، لَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَالَ عَلَى أَشْيَاءٍ غَيْرِ مُجَرَّبَةٍ.

وَإِذَا مَا اكْتُشِفَتْ مَدِينَةُ هِيرَكِيُولَانِيُوم *Herculaneum*⁽¹²⁾ فَإِنَّ رِسَالَةَ فِيلُودِيمُوس *Philodemus*⁽¹³⁾ الْمَفْقُودَةَ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ النَّظَرِيَّةِ الْاَبِقُورِيَّةِ لِلْعَلَامَاتِ وَالِاسْتِدْلَالِ الَّتِي قَدْ يُعْتَرُ عَلَيْهَا، وَالْوَنَائِقُ الْمُشَابِهَةُ الْآخَرَى أَيْضًا ذَوَاتِ الصَّلَةِ

= الشَّيْءِ الْمَدْلُولُ، تَبَعَتْ بِنَا، حَالَمَا تَقَعُ تَحْتَ حَوَاسِنَا مَهْمَا كَانَ الْمَدْلُولُ غَايِضًا، إِلَى أَنْ نَتَذَكَّرَ مَا لَوْجِظَ مَعَهَا، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَقَعْ بِوُضُوحٍ تَحْتَ حَوَاسِنَا، كَحَالِ الدُّخَانِ وَالنَّارِ. أَمَّا عِلَامَةُ الْكُتِفِ، كَمَا يَقُولُونَ، فَهِيَ الَّتِي لَمْ تُلَاحَظْ بِوُضُوحٍ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ مَعَ الشَّيْءِ، لَكِنَّهَا بِمُقْتَضَى طَبِيعَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا تُشِيرُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي هِيَ عِلَامَةٌ لَهُ، مِثْلَمَا أَنَّ حَرَكَاتِ الْجِسْمِ هِيَ عِلَامَةٌ عَلَى النَّفْسِ (رَاجِعِ النَّصَّ فِي: Todorov, Theories du Symbole, p. 24). [المُتَرَجِّم]

(12) هِيرَكِيُولَانِيُوم: مَدِينَةُ رُومَانِيَّةٌ قَدِيمَةٌ فِي جَنُوبِ إِيطَالِيَا بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ بُومِي الْأَثَرِيَّةِ. تَعَرَّضَتْ لِلْخَمَارِ بَعْدَ أَنْ ثَارَ بُرْكَانُ فِيزُوفِ الْهَائِلُ سَنَةَ 79م الَّذِي أَدَّى إِلَى تَدْمِيرِهَا وَتَدْمِيرِ جَارَتِهَا بُومِي. [المُتَرَجِّم]

(13) فِيلُودِيمُوس (110-28 ق.م). شَاعِرٌ، وَفِيلَسُوفٌ وُلِدَ فِي غَادَارَا (أَمَ قَيْسَ فِي الْأُرْدُنِ حَالِيًا)، وَتَوَفَّى فِي هِيرَكِيُولَانِيُوم قُرْبَ مَدِينَةِ نَابُولِي. دَرَسَ الْفَلَسَفَةَ الْاَبِقُورِيَّةَ فِي أَثِينَا عَلَى يَدِ الْفِيلَسُوفِ زِينُونِ الصِّدْلِيِّ، ثُمَّ سَافَرَ إِلَى رُومَا حَيْثُ تَعَرَّفَ الْقَائِدَ السِّيَاسِيَّ كَالْبُورْنِيُوسَ بِيْزُونَ وَأَهْدَى إِلَيْهِ كِتَابَهُ (الْمَلِكُ الصَّالِحُ عِنْدَ الشَّاعِرِ هُومِيْرُوسَ)، فَقَدَّمَ لَهُ بِيْزُونُ دَارَةً يَمْلِكُهَا فِي هِيرَكِيُولَانِيُوم، فَأَقَامَ فِيهَا مَدْرَسَةً لِلْفَلَسَفَةِ الْاَبِقُورِيَّةِ. وَقَدْ زَارَهُ فِيهَا الْخَطِيبُ الرُّومَانِيُّ الْمَشْهُورُ شِيْشُرُونُ، وَقَالَ إِنَّهُ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ. [المُتَرَجِّم]

بهذا الجدَلِ الرَّائع، قَدْ تُسَلِّطُ الْمَزِيدَ مِنَ الصُّوءِ عَلَى مَا أُحْرِزَ مِنْ تَقَدُّمٍ فِي تِلْكَ الْأَزِمَةِ الْمُبَكَّرَةِ بِاتِّجَاهِ أُطْرُوحَةِ عَقْلَانِيَّةٍ بِشَأْنِ الْكَوْنِ، فَتُمْكِّنُنَا بِذَلِكَ مِنْ إِدْرَاكِ شَيْءٍ عَمَّا كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُنْجِزَهُ فَلَسَفَةُ شَكِّيَّةٍ سَلِيمَةٍ لَوْ لَمْ تَكُنِ الْاهْتِمَامَاتُ الدِّينِيَّةُ مُهَيِّمَةً تَمَامًا عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ طَوَالَ الْحُقُبَةِ الزَّمَنِيَّةِ الْلاحِقَةِ الَّتِي امْتَدَّتْ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا. [268]

التذيل D

مَعَ عَدَدٍ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ

إِنَّ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ أَطْلَاعٌ كَافٍ عَلَى أَدَبِيَّاتِ الْمَعْنَى سَيَسْتَشْعِرُونَ صُعُوبَةَ إدْرَاكِ كَمَ هِيَ غَرِيبَةٌ وَمُتَنَاقِضَةٌ لِللُّغَاتِ الَّتِي اعْتَقَدَ أَكْثَرُ الْمُفَكِّرِينَ تَمَيُّزًا أَنَّهَا مُلَانِمَةٌ لِنَتَبَّاتِهَا مُحَاوَلَاتُهُمْ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْعَلَامَاتِ، وَالرُّمُوزِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالْأَشْيَاءِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا عِدَّةَ أُمَثِلَةٍ بِإِيجَازٍ، رُبَّمَا يَكُونُ، عَلَى ضَرُورَتِهِ، قَدْ جَعَلَ الْمُنْصَفِينَ يَتَسَاءَلُونَ: أَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْجَوْرِ الْعَارِضِ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نُلْحِقُ بِهَا هُنَا أُمَثِلَةً أَكْثَرَ طَوْلًا يُمَكِّنُ أَنْ يُحْكَمَ عَلَيْهَا بِمَوْضُوعِيَّةٍ، سَطَرَتْهَا أَقْلَامُ أَكْثَرِ الْمُتَخَصِّصِينَ تَبَرُّزًا الَّذِينَ تَعَامَلُوا مَعَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ. وَالْمَامُولُ أَنْ تُسَهِّمَ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ فِي تَسْوِيعِ مَا أَكْثَرُهُ فِي مُسْتَهْلٍ كِتَابِنَا مِنْ ضَرُورَةِ إِيجَادِ مُقَارَبَةٍ جَدِيدَةٍ.

18. هوسيرل Husserl

يُمْكِنُ أَنْ نَبْذَأَ بِمَا قَدْ تَكُونُ أَشْهُرَ مُحَاوَلَةٍ مُعَاصِرَةٍ تَتَعَامَلُ بِشُمُولِيَّةٍ مَعَ قَضِيَّةِ الْعَلَامَاتِ وَالْمَعْنَى، وَهِيَ مُحَاوَلَةُ البروفيسور إدموند هوسيرل Edmund Husserl. وَمِنْ الْمُهِّمِ لِفَهْمِ مُصْطَلَحَاتِ هوسيرل مَعْرِفَةُ أَنَّ كُلَّ مَا كَتَبَهُ إِنَّمَا هُوَ تَطْوِيرٌ لِمَا الْمَنْهَجِ الظَّاهِرَاتِيَّ وَالْفَلَسَفَةِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ⁽¹⁾ اللَّذِينَ كَانَ قَدْ أَخَذَ عَلَى عَاتِقِهِ مَهْمَةً

(1) إِشَارَةٌ إِلَى مُحَاضَرَاتِهِ الْأَرْبَعِ الَّتِي أَلْقَاهَا فِي جَامِعَةِ لَنْدُنْ، وَالَّتِي طُبِعَتْ فِيهَا بَعْدُ بِعُنْوَانِ (خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الدَّرَاسِيِّ الْمُشْتَمِلِ عَلَى أَرْبَعِ مُحَاضَرَاتٍ فِي "الْمَنْهَجِ الظَّاهِرَاتِيَّ وَالْفَلَسَفَةِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ" (مُحَاضَرَاتُ الْكَلْبَةِ الْجَامِعَةِ فِي لَنْدُنْ). وَيَلْفُتْ عُنْوَانُ الْمُحَاضَرَاتِ النَّظَرُ إِلَى أَنَّ ظَاهِرَاتِيَّةَ هوسيرل تَجَمُّعٌ بَيْنَ الْمَنْهَجِ وَالْمَذْهَبِ مَعًا؛ فَأَمَّا الْمَنْهَجُ فَيَتَجَلَّى فِي الْجَهْدِ الْمُسْتَمِرِّ وَالْمَعَانَاةِ الدَّائِيَةِ لِخَدْسِ الْمَاهِيَّاتِ وَتَأْسِيسِ الْعِلْمِ الْكُلِّيِّ؛ وَأَمَّا الْمَذْهَبُ فَيَتَمَثَّلُ فِي الْمُبَاحِثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالذَّاتِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَالْأَنَا الْمُتَعَالِيِ وَالنَّجَارِبِ الْمُرتَبِطَةِ بِهِ، وَهِيَ =

التَّفْصِيلِ فِيهِمَا مُنْذُ سَنَةِ 1910، بِوَصْفِهِ أَسَاتِذَ الْفَلَسَفَةِ، فِي غُوتِنِجِن Göttingen أَوَّلًا ثُمَّ فِي فَرَايبُورْغ Freiburg لاحقًا. وَفِي شَهْرِ يُونِيو/حَزِيرَانَ مِنْ سَنَةِ 1922، فِي فَصْلِ دِرَاسِيٍّ أَلْقَى فِيهِ مُحَاضَرَاتٍ فِي جَامِعَةِ لَنْدَن، قَدَّمَ عَرْضًا لِمَنْهَجِهِ أَمَامَ حُضُورٍ إِنْجِلِيزِيٍّ كَبِيرٍ، وَالْجُمْلُ الْآتِيَّةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْخُلَاصَةِ Syllabus الإيضاحيةِ الَّتِي سَعَى فِيهَا جَاهِدًا، هُوَ أَوْ مُتَرَجِّمُهُ الرَّسْمِيُّ، إِلَى تَبْيَانِ مَنْهَجِهِ وَمُفْرَدَاتِهِ مَعًا.

"مِمَّا قَدْ أَصْبَحَ مُمَكِّنًا وَيَجْرِي الْعَمَلُ عَلَيْهِ الْآنَ عِلْمٌ اسْتِدْلَالِيٌّ جَدِيدٌ مُسْتَخْلَصٌ تَمَامًا مِنَ الْحَدْسِ الظَّاهِرَاتِيِّ الْمَلْمُوسِ (Anschauung)، وَهُوَ عِلْمُ الظَّاهِرَاتِيَّةِ الْمُتَعَالِيَةِ الَّذِي يَبْحَثُ فِي مَجْمُوعِ الْإِمْكَانَاتِ الْبِنَالِيَّةِ الَّتِي تَقَعُ فِي إِطَارِ [269] الذَّاتِيَّةِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ، طَبَقًا لِصِيغِهَا التَّمْطِيَّةِ وَقَوَانِينِهَا الْوُجُودِيَّةِ.

وَفِي الْخَطِّ الْمُلَائِمِ لِتَفْسِيرِهَا يَكْمُنُ تَطْوِيرُ الظَّاهِرَاتِيَّةِ 'الْخَالِصَةِ الْآنَا egological' (تُحَالُ عَلَى الْآنَا ego ذِي التَّفْسِيرِ الْفَلَسَفِيِّ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ) فِي أَصْلِهَا إِلَى ظَاهِرَاتِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُتَعَالِيَّةٍ تُحِيلُ عَلَى تَعْدُدِيَّةِ ظَاهِرَةٍ لِمَوْضُوعَاتٍ وَاعِيَّةٍ يَتَوَاصَلُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ. وَيَقُودُ التَّطْوِيرُ الْمُتَوَاصِلُ نِظَامِيًّا لِلظَّاهِرَاتِيَّةِ بِالضَّرُورَةِ إِلَى مَنْطِقِ شُمُولِيٍّ كُلِّيٍّ مَعْنِيٍّ بِالْمُتَلَاوِمَاتِ الْآتِيَّةِ: الْفِعْلِ الْمَعْرِفِيِّ، وَالذَّلَالَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَالْمَوْضُوعِيَّةِ الْمَعْرِفِيَّةِ".

وَيُوضِّحُ هُوسِيرِلُ أَحَدَ اسْتِنْتِجَاتِهِ وَهُوَ أَنَّ "مَذْهَبَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ الْمُتَعَالِيِ transcendental monadism الَّذِي يَنْشَأُ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الْإِحَالَةِ الْاسْتِذْكَارِيَّةِ عَلَى الذَّاتِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ يَحْمِلُ مَعَهُ صِفَةً قَبْلِيَّةً مُتَمَيِّزَةً مُضَادَّةً لِلْمَوْضُوعِيَّاتِ الْمُكُونَةِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِمُقْتَضِيَّاتِ الْجَوْهَرِ لِلْمُونَادَاتِ الْمُفْرَدَةِ وَلِشُرُوطِ الْإِمْكَانِ لِعَالَمٍ مِنَ الْمُونَادَاتِ 'الْمُمَكِّنَةِ مَعًا compossible'. وَإِلَى هَذَا الْبَحْثِ 'الْمِيتافيزيقي' تَنْتَمِي

= الْمِيدَانُ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ حَدْسُ الْمَاهِيَّاتِ وَالَّذِي سَيَقِيمُ عَلَيْهِ هُوسِيرِلُ الْعِلْمَ الْكُلِّيَّ الْيَقِينِيَّ. [الْمُتَرَجِّمُ]

ضَرُورَةُ الْجَوْهَرِ لِـ 'الانْسِجَامِ الْمُتَنَاعِمِ' لِلْمُونَادَاتِ مِنْ خِلَالِ عِلَاقَتِهَا بِعَالَمِ مَوْضُوعِي يُكُونُ تَبَادُلًا فِيهَا، وَالْمُشْكِلَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْعَائِيَةِ وَبِمَعْنَى الْعَالَمِ وَتَارِيخِ الْعَالَمِ، وَمُشْكِلَةُ اللَّهِ".

على هذا النحو كَانَتِ الصَّيْغُ الَّتِي رَغِبَ هُوسِيَرِلُ أَنْ يُقَارِبَ مِنْهَا مِنْ خِلَالِهَا، وَفِي الْحَقْلِ الْأَضْيَقِ لِلْمَعْنَى كَانَ تَلْمِيذُهُ البروفيسور غَيْسَرُ J. Geyser⁽²⁾ الْأُسْتَاذُ فِي جَامِعَةِ مُونَشْتَرِ Münster قَدْ أَخَذَ عَلَى عَاتِقِهِ مَهْمَةً انْتِخَابِ الْأَسَاسِيَّاتِ عَلَى نَحْوِ مُشَابِهِ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْفَلَسَفَةُ فِي سُبُلِهَا الْحَدِيثَةِ وَالْقَدِيمَةِ *Neue und alte Wege der Philosophie* الَّذِي أَخْلَصَهُ لِتَلْخِيصِ إِسْهَامَاتِ هُوسِيَرِلِ الرَّئِيسَةِ فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ فِي كِتَابِيهِ بُحُوثِ مَنْطِقِيَّةٍ *Logische Untersuchungen*، وَأَفْكَارًا: نَحْوُ ظَاهِرِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَفَلَسَفَةٍ ظَاهِرِيَّةٍ *Ideen zu einer reinen Phenomenologie*.

وَيَذْهَبُ هُوسِيَرِلُ إِلَى أَنَّ وَظِيفَةَ التَّعْبِيرِ إِنَّمَا تُعَدَّلُ مُبَاشَرَةً وَفَوْرًا لِمَا يُوصَفُ عَادَةً بِأَنَّهُ مَعْنَى *meaning* (Bedeutung) أَوْ مَفَاذُ *sense* (Sinn) الْكَلَامِ أَوْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ. وَالسَّبَبُ الْوَحِيدُ لِتَسْمِيَةِ الصَّوْتِ الْكَلِمِيِّ 'تَعْبِيرًا' 'expression' هُوَ كَوْنُ الْمَعْنَى الْمُرْتَبِطِ بِذَلِكَ الصَّوْتِ الْكَلِمِيِّ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ مَا (Ideen, p. 256 f). "وَبَيْنَ الْمَعْنَى وَمَا يُعْنَى، أَوْ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ، ثَمَّةُ عِلَاقَةٌ أَسَاسِيَّةٌ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْنَى هُوَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمَعْنِيِّ مِنْ خِلَالِ مَضْمُونِهِ الذَّاتِي (Gehalt). وَيَكْمُنُ الْمَعْنِيُّ (dieses Bedeutete) فِي 'مَوْضُوعِ' object 'الفِكْرَةِ أَوْ الْكَلَامِ. لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ - الْكَلِمَةِ، وَالْمَعْنَى، وَالْمَوْضُوعِ' ⁽³⁾. [270]

(2) جوزيف غَيْسَرُ (1869-1948م). فِيلَسُوفُ أَلْمَانِيٍّ مِنْ فَلَاسَفَةِ الْوَاقِعِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ. حَازَ دَرَجَةَ الدِّكْتُورَاهِ فِي الْفَلَسَفَةِ مِنْ جَامِعَةِ بُون سَنَةَ 1898. عَارَضَ مِنْذُ شِبَابِهِ مَا عَدَّهُ اتِّجَاهَيْنِ لِلْفَلَسَفَةِ الْمَتَاخِرَةِ، أَحَدُهُمَا الْإِتِّجَاهُ الْعَقْلِيُّ الشَّدِيدُ التَّلَوُّنُ بِالنَّسْبَةِ التَّارِيخِيَّةِ، وَالْآخَرُ الْإِتِّجَاهُ الْكَانْتِي الْمِثَالِي الْمُغْرَقُ فِي التَّجْرِيدِ. وَحَاوَلَ جَاهِدًا أَنْ يَجْعَلَ الْفَلَسَفَةَ تَسْأَلُ الْأَسْئَلَةَ الْمُسْتَقَلَّةَ تَمَامًا عَنْ أَيِّ مَوْقِفٍ وَقْتِيٍّ وَأَنْ تُجِيبَ عَنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ عَلَى نَحْوِ مَوْضُوعِي وَاقِعِي نَقْدِيٍّ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: عِلْمُ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ أَرِسْطُو، وَمُقَرَّرٌ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْعَامِ، وَالْفَلَسَفَةُ فِي سُبُلِهَا الْحَدِيثَةِ وَالْقَدِيمَةِ. [المُتَرَجِم]

فَأَمَّا الْمَوْضُوعُ فَهُوَ مَا يَقُولُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ شَيْئًا مَا، وَأَمَّا الْمَعْنَى فَهُوَ مَا يَقُولُهُ عَنْهُ. فَيَرْتَبِطُ الْقَوْلُ حِينَئِذٍ بِالْمَوْضُوعِ بِوَسَاطَةِ الْمَعْنَى. لَكِنْ هُوَ سِيرَلٌ يُنْصُ صَرَاخَةً عَلَى أَنَّ 'الْمَوْضُوعَ' لَا يُطَابِقُ (zusammenfällt) الْمَعْنَى الْبَتَّةَ* (L.U., II., i., p. 46). وَهُوَ يَجْعَلُ مُرْتَكِّزَ هَذَا الْجَزْمِ حَقِيقَةً 'أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَعْنَى وَاحِدٌ لَكِنْ مَوْضُوعَاتِهَا مُخْتَلِفَةٌ، ثُمَّ قَدْ يَكُونَ لَهَا مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ لَكِنْ الْمَوْضُوعُ وَاحِدٌ'. (Ibid., p. 47). 'فَتَعْبِيرًا 'الْمُثَلَّثُ الْمُسَاوِي الزُّوَايا equiangular والمُثَلَّثُ الْمُسَاوِي الْأَضْلَاعُ 'equilateral'، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَهُمَا مَعْنَيَانِ مُخْتَلِفَانِ، لَكِنَّهُمَا اسْمَانِ يُطْلَقَانِ عَلَى الْمَوْضُوعِ نَفْسِهِ. وَقَدْ يَحْدُثُ الْعَكْسُ، أَيْ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمَوْضُوعُ لَكِنْ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَذَلِكَ حِينَ يُوصَفُ كُلُّ مِنْ بُوْسِيْفَالُوسِ Bucephalus⁽⁴⁾ وَحِصَانِ الْعَرَبِيِّ cart-horse بِأَنَّهُ 'حِصَانٌ horse'. وَلَا يَغْدُو مَعْنَى تَعْبِيرٍ مَا مَوْضُوعًا إِلَّا حِينَ يَرْتَدُّ فِعْلُ فِكْرَةٍ مَا إِلَيْهَا عَلَى نَحْوِ انْعِكَاسِي⁽⁵⁾.

وَيُوضَحُ هُوَ سِيرَلٌ مَفَادَ التَّعْبِيرِ 'الْمَعْنَى'، الَّذِي ذَكَرَ غَيْسَرُ (ص 33) أَنَّهُ عَادَةً مَا يُرَادُفُ 'الْمَفْهُومَ' (was meist als Begriff bezeichnet wird)، بِالْمُؤَاوَنَةِ بَيْنَ حَالَتَيْنِ. فَعِنْدَ الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ لِمَوْضُوعٍ أَيْضَ يُمَكِّنُ أَنْ يُرَضِّينَا إِدْرَاكُهُ حِسِّيًّا وَفِي نَهَائِيَةِ الْأَمْرِ تَمَيِّزُ شَيْءٍ مَا أَوْ غَيْرِهِ فِيهِ. وَلَيْسَ ثَمَّةَ ضَرُورَةٌ لَوْجُودِ التَّعْبِيرِ وَالْمَعْنَى مِنْ أَجْلِ أَدَاءِ هَذِهِ الْوُظُفَةِ. غَيْرَ أَنَّ بَامَكَانَا أَيْضًا أَنْ نَجَاوِزَ ذَلِكَ إِلَى فِكْرَةٍ: 'هَذَا أَيْضَ'. فَالْمُدْرِكُ قَدْ زَادَ، فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، عَلَى الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ فِعْلًا عَقْلِيًّا يُعَبِّرُ وَيُعْنِي الشَّيْءَ الْمُدْرَكَ حِسِّيًّا وَالشَّيْءَ الَّذِي قَدْ مُيِّزَ فِيهِمَا قَدْ أَدْرَكَ حِسِّيًّا، أَيْ الْغَرَضُ. لِذَلِكَ إِذَا مَا أَرَدْنَا صِيَاغَةً عَامَّةً قُلْنَا إِنَّ التَّعْبِيرَ شَكْلٌ يَرْفَعُ الْمَفَادَ 'إِلَى مَمْلَكَةِ' 'اللُوغُوسِ Logos' الْمَفْهُومِيِّ وَمِنْهُ إِلَى مَا هُوَ 'عَامٌّ' (Ideen, p. 257). إِنَّ وُظُفَةَ التَّعْبِيرِ، هَذَا الْمَقْصِدِ الْمُمَيِّزِ، 'تَسْتَفِيدُ نَفْسَهَا بِالتَّعْبِيرِ، وَبِهَذَا الَّذِي هُوَ

(4) بُوْسِيْفَالُوسُ: حِصَانُ الْإِسْكَانْدَرِ الْأَكْبَرِ (323-356 ق.م)، وَاحِدُ أَشْهَرِ خُيُولِ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

Geyser, op. Cit., p. 29.

(5)

داخِلٌ حَدِيثًا مِمَّا لَهُ شَكْلٌ مَفْهُومِيٌّ" (Ibid., p. 258). ووظيفةُ 'التعبير'، بعد ذلك، وظيفةٌ محاكاةٌ لا وظيفةٌ إنتاج.

ويَصِفُ هوسيرل بِكَلِمَتَيْ 'تعبير' و'معنى'، في المَقَامِ الأوَّلِ، المَفَاهِيمَ، وَلَكِنَّهُ يَصِفُ بِهِمَا أَيْضًا الْأَحْكَامَ وَالِاسْتِتَاجَاتِ، فيقولُ: "على المَنَظَرِ الخَالِصِ، حَيْثُمَا تَعَامَلُ مَعَ المَفَاهِيمِ وَالْأَحْكَامِ وَالِاسْتِتَاجَاتِ، أَنْ يَتَعَامَلَ حَضْرِيًّا مَعَ هَذِهِ الْوَحْدَاتِ المِثَالِيَّةِ، الَّتِي نُسَمِّيُهَا هُنَا المَعَانِي" (L.U., II., i., p. 916). وعلى العُمومِ، "واضِحٌ أَنَّ المَنَظَرَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْرِفَةُ المَعَانِي فِي حَدِّ ذَاتِهَا: أَنْوَاعُهَا وَاخْتِلَافَاتُهَا الْأَسَاسِيَّةُ، والقَوَانِينِ الْمُخْلَصَةُ لَهَا كَذَلِكَ (أَيِ المِثَالِيَّةِ). ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِلَى هَذِهِ الفُرُوقِ الْأَسَاسِيَّةِ تَنْتَمِي أَيْضًا الفُرُوقُ الَّتِي بَيْنَ المَعَانِي، الَّتِي لَهَا مَوْضُوعَاتٌ objects والَّتِي لَا مَوْضُوعَاتٍ لَهَا، الصَّادِقَةُ والكاذِبَةُ..." (Ibid., p. 92). وَلِكُلِّ فِكْرَةٍ مَدَى مُعَيَّنٌ مُلَانَمٌ مِنْ أَعْمَالِ التَّعْبِيرِ أَوْ المَعْنَى، الَّتِي لَا تُطَابِقُ الكَلِمَةَ الحِسِّيَّةَ وَلَا [271] مَوْضُوعَاتِ الإدْرَاكِ. "وَلَا يَسْهُلُ أَنْ يُدْرَكَ بِوُضُوحٍ أَنَّهُ، فِي الحَقِيقَةِ، بَعْدَ تَجْرِيدِ الطَّبَقَةِ الصُّوْرِيَّةِ-الكَلِمِيَّةِ الحِسِّيَّةِ يُلْفَى تَرْتِيبٌ طَبَقِيٌّ مِنَ النُّوعِ الَّذِي نَفْتَرِضُهُ هُنَا، أَيْ أَنَّهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ- حَتَّى فِي حَالَةِ الفِكْرَةِ اللَّفْظِيَّةِ المُجَرَّدَةِ، الفَارِغَةِ، غَيْرِ الوَاضِحَةِ- نَمَّةٌ طَبَقَةٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ المَعْنَى، وَطَبَقَةٌ فَرَعِيَّةٌ لِلْمَعْنَى المُعَبَّرِ عَنْهُ. وَأَقْلُ مِنْ ذَلِكَ سُهولةٌ فَهْمُ الِارْتِبَاطَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الطَّبَقَاتِ" (Ideen, p. 259).

وَيُتَابِعُ هوسيرل مُفَرِّقًا بَيْنَ مَا يُسَمِّيهِ 'مَقَاصِدَ المَعْنَى' (Bedeutungsintentionen) وَمَا يُسَمِّيهِ 'المَعَانِي المُدْرَكَةُ' (erfüllte Bedeutungen)؛ وَيَبْنِي أَعْمَالُ 'مَنْحِ المَعْنَى' وَأَعْمَالُ 'إِدْرَاكِ المَعْنَى' (L.U., i., p. 38)؛ وَبَيْنَ المُعَالَجَةِ السَّابِكُولُوجِيَّةِ لِلْمَعْنَى وَالمُعَالَجَةِ المَوْضُوعِيَّةِ-الظَّاهَرِيَّةِ لَهُ⁽⁶⁾. فَفِي المَنْظُورِ الظَّاهَرَاتِي، حِينَ نَسْأَلُ عَنْ مَعْنَى تَعْبِيرِ 'العَدَدِ الأوَّلِي' prime-number⁽⁷⁾، إِنَّمَا

Geyser, p. 22.

(6)

(7) العَدَدُ الأوَّلِي: هُوَ عَدَدٌ طَبِيعِيٌّ أَكْبَرُ قَطْعًا مِنْ (1)، وَلَا يَقْبَلُ القِسْمَةَ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى (1) فَقَط. وَيُذَعَى كُلُّ عَدَدٍ طَبِيعِيٍّ أَكْبَرُ قَطْعًا مِنْ (1) وَغَيْرِ أوَّلِيٍّ عَدَدًا مُؤَلَّفًا. فَالعَدَدُ (5)، =

نُحِيلُ على (meinen) هذا التعبير في نفسه وفي حَدِّ ذاته، لا في خصوصيته (Besonderheit)، بوصفه يتحدَّث به قَرْدٌ ما في مُحَاضَرَةٍ ما، أو بوصفه موجوداً في كتاب كذا وكذا المكتوب بطريقة كذا وكذا. والأحرى أَنَا سنكتفي بسؤال: ما الذي يعنيه التعبير 'الرَّقْمُ الأولي'؟ كما أَنَا لا نَسأل: ما الذي كَانَ يعنيه في هذه اللحظة أو تلك التعبير الذي يُفَكِّرُ به المرء كذا وكذا أو يُجَرِّبُهُ؛ بل نَسأل عن معناه عموماً في حَدِّ ذاته وفي نفسه. ويُعبَّرُ هوسيرل عن هذه الحالة بقوله إنَّ الشَّانَ في مثل هذه الأسئلة يتعلَّقُ بالتعبير والمعنى 'في صورتَيْهما الفعلية'، 'بوصفَيْهما نوعاً'، و'بوصفَيْهما فكرة'، و'بوصفَيْهما وَحْدَةٌ مثالية'؛ ذلك بِأَنَّ المُحَالَ عليه هو معنى واحد وهو المعنى نفسه، وتعبير واحد وهو التعبير نفسه، على أيِّ نحو فُكِّرَ فيهما أو تُكَلِّمَ بهما (L.U., II., i., p. 42 f). من ثَمَّ لا بُدَّ من أن يكون للمعاني أي الموضوعات المثالية وجود، ما دُمنا نُسَيِّدُ إليها بِصِدْقٍ - مثال ذلك قولنا إنَّ الأربعة رَقْمٌ رَوجِيٌّ (Ibid., p. 125)، لكنَّ وجودها لا يَعْتَمِدُ على كونها يُفَكَّرُ فيها. إنَّ لها وجوداً خالِداً مثالياً⁽⁸⁾. 'يُمْكِنُ أن نُجَابَ عن سؤال: ما المعنى؟ مباشرة كما نُجَابُ مُباشرةً عن سؤالنا عن اللون أو النغمة. على أَنَّهُ لا يُمْكِنُ تعريفُهُ بِأَكْثَرٍ من ذلك؛ ذلك بِأَنَّهُ قِيَمَةٌ مُطْلَقَةٌ وَصِفِيَّةٌ. فكلُّما أُنْمِنَّا تَعْبِيرًا ما أو فَهْمًا عَنْ لَنَا شَيْئًا ما وَكُنَّا وَاِعِينَ فَعَلِيًّا لِمَعْنَاهُ'. والفروقُ بَيْنَ المعاني تُقَدِّمُ إلينا مُباشرةً كذلك، وفي وَسْعِنَا تَصْنِيفُها في ظَاهِرَاتِيَّةِ المعنى، بِوصفها 'رَمِيزِيَّةٌ-فَارِغَةٌ'، و'مُدْرَكَةٌ حَدْسِيَّةٌ'، وما إلى ذلك؛ وإنَّ العَمَلِيَّاتِ التي مِن قِبَلِ التَّعْيِينِ والتَّمْيِيزِ، والعَزْوِ، وتَعْيِيمِ التَّجْرِيدِ، تَهَبُ لَنَا 'المفاهيمَ المنطِيقِيَّةَ الأساسِيَّةَ التي هي لَيْسَتْ سِوَى تَصَوُّرَاتٍ مثاليَّةٍ للتَّمْيِيزَاتِ الأولِيَّةِ لِلْمَعْنَى' (Ibid., p. 183).

[272]

= مثلاً، عددٌ أوليٌّ لأنَّهُ لا يقبلُ القِسْمَةَ إلَّا على (1) وعلى (5)، في حين أن العدد (6) عددٌ مؤلَّفٌ لأنَّهُ يقبلُ القِسْمَةَ على (1) و(2) و(3) و(6). [المترجم]

28. برتراند رَسِل Bertrand Russell

يُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَى أَشْهَرِ رَأْيٍ بِهَذَا الشَّانِ لِلسَّيِّدِ رَسِلِ (وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقْرَأَ الْآنَ، عَلَى آيَةٍ حَالٍ، مُتَّصِلًا بِإِسْهَامِهِ السَّايَكُولُوجِيِّ الَّذِي لَقِيَ قَبُولًا أَكْثَرَ وَالَّذِي تَطَرَّفْنَا إِلَيْهِ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَبِمَقَالَاتِهِ فِي دَوْرِيَّةِ *Monist* بَيْنَ سَنَتَيْ 1918-1919) فِي الصَّفْحَةِ السَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ كِتَابِهِ مَبَادِئُ الرِّيَاضِيَّاتِ *Principles of Mathematics*. وَهُوَ مَعْنَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِصِلَةٍ مَذْهَبِهِ فِي الصِّفَاتِ بِأَرَاءِ تَقْلِيدِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ بِشَأْنِ طَبِيعَةِ الْقَضَايَا *propositions*، وَبِنَظَرِيَّةِ بَرَادْلِيِّ *Bradley*⁽⁹⁾ الَّتِي مَفَادُهَا "أَنَّ جَمِيعَ الْكَلِمَاتِ تَرْمِزُ إِلَى أَفْكَارٍ لَهَا مَا يُسَمِّيهِ مَعْنَى، وَأَنَّ كُلَّ حُكْمٍ يَنْظُوي عَلَى شَيْءٍ مَا، هُوَ الْمَوْضُوعُ الصَّادِقُ لِلْحُكْمِ" الَّذِي لَيْسَ بِفِكْرَةٍ وَلَيْسَ لَهُ مَعْنَى. وَيَقُولُ السَّيِّدُ رَسِلُ: "امْتِلَاكُ الْمَعْنَى فِكْرَةٌ مُرَكَّبَةٌ تَرْكِيبًا تَخْلِيطِيًّا مِنْ عُنَاصِرٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَسَايَكُولُوجِيَّةٍ. فَجَمِيعُ الْكَلِمَاتِ لَهَا مَعْنَى، عَلَى الْوَجْهِ الْبَسِيطِ الَّذِي فَحَوَاهُ أَنَّهَا رُمُوزٌ تُمَثِّلُ شَيْئًا مَا غَيْرَ ذَوَاتِهَا. لَكِنَّ الْقَضِيَّةَ *proposition*، مَا لَمْ تَكُنْ لَعُوقَةً، لَا تَشْتَمِلُ هِيَ نَفْسُهَا عَلَى كَلِمَاتٍ، بَلْ تَشْتَمِلُ عَلَى كِيَانَاتٍ يُشَارُ إِلَيْهَا بِالْكَلِمَاتِ. وَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ الْمَعْنَى، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَلِمَاتِ بِهِ مَعْنَى، غَيْرَ ذِي صِلَةٍ بِالْمَنْطِقِ. لَكِنَّ الْمَفَاهِيمَ الَّتِي مِنْ قَبِيلِ رَجُلٍ يَكُونُ لَهَا مَعْنَى عَلَى وَجْهِ آخَرَ: فَهِيَ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ، رَمْزِيَّةٌ بِطَبِيعَتِهَا الْمَنْطِقِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ لَهَا الْخَاصِيَّةَ الَّتِي أَدْعُوهَا دَلَالَةُ التَّعْيِينِ *denoting*. أَيْ إِنَّهُ إِذَا مَا ظَهَرَ رَجُلٌ فِي قَضِيَّةٍ مَا (فِي قَوْلِنَا، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: 'قَابَلْتُ رَجُلًا فِي الشَّارِعِ') فَإِنَّ الْقَضِيَّةَ لَا تَدُورُ حَوْلَ فِكْرَةِ الرَّجُلِ، بَلْ إِنَّهَا تَدُورُ حَوْلَ شَيْءٍ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا، شَيْءٍ فِعْلِيٍّ ذِي قَدَمَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَفْهُومُ دَلَالَةً تَعْيِينِيَّةً. بِذَلِكَ يَكُونُ لِلْمَفَاهِيمِ الَّتِي مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَعْنَى بِمَنْحَى غَيْرِ سَايَكُولُوجِيٍّ. وَبِهَذَا الْمَنْحَى، حِينَ نَقُولُ: 'هَذَا رَجُلٌ'، نَحْنُ نُنْشِئُ قَضِيَّةً يَكُونُ الْمَفْهُومُ فِيهَا، بِمَنْحَى مَا، مُلْحَقًا بِمَا لَيْسَ بِمَفْهُومٍ. وَلَكِنْ حِينَ يَفْهَمُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا النَّحْوِ لَا يَكُونُ لِلْكِيَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِجُونِ *John* مَعْنَى، عَلَى مَا يُؤَكِّدُ السَّيِّدُ بَرَادْلِيُّ، بَلْ إِنَّهُ لَا يَحُورُ الْمَعْنَى مِنْ

المفاهيم إلا ما كان يَدُلُّ دَلَالَةً تَعْيِينِيَّةً. اَعْتَقِدُ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْخَلِطِ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَرَدُّهُ إِلَى فِكْرَةٍ أَنَّ الْكَلِمَاتِ تَقَعُ فِي قَضَايَا، وَمَرَدُّ هَذِهِ هِيَ أَيْضًا إِلَى فِكْرَةٍ أَنَّ الْقَضَايَا عَقْلِيَّةٌ فِي أُسَاسِهَا وَأَنَّهَا تَقْتَضِي مُطَابَقَتَهَا مَعَ الْإِدْرَاكَاتِ".

38. فريجة Frege

قَدَّمَ فريجة نَظَرِيَّتَهُ فِي الْمَعْنَى فِي كِتَابِهِ تَذْوِينُ الْمَفْهُومِ *Begriffsschrift* ⁽¹⁰⁾، وَكِتَابِهِ أُسُسُ الْحِسَابِ *Grundlagen der Arithmetik* ⁽¹¹⁾، وَفِي مَقَالَتَيْهِ "الْمَفْهُومُ وَالْمَوْضُوعِ *Begriff und Gegenstand* ⁽¹²⁾، وَ"الْمَعْنَى وَالْإِشَارَةُ *Sinn und Bedeutung* ⁽¹³⁾. وَنَحْنُ هُنَا نَتَابِعُ خُلَاصَةً مُلَائِمَةً عَرَضَهَا السَّيِّدُ رَسِلُ فِي الصَّفْحَةِ 502 مِنْ كِتَابِهِ الْمَبَادِي *Principles* ⁽¹⁴⁾ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ فريجة

(10) الْعُنْوَانُ الْكَامِلُ لِهَذَا الْكِتَابِ هُوَ (تَذْوِينُ الْمَفْهُومِ: لُغَةٌ صُورِيَّةٌ لِلْفِكْرِ الْخَالِصِ عَلَى مَنَوَالِ لُغَةِ الْحِسَابِ). [الْمُتَرْجِمُ]

(11) الْعُنْوَانُ الْكَامِلُ لِهَذَا الْكِتَابِ هُوَ (أُسُسُ الْحِسَابِ: تَحْقِيقُ مَنْطِقِيٍّ-رِیَاضِيٍّ فِي مَفْهُومِ الْعَدَدِ). [الْمُتَرْجِمُ]

(12) تَعْيِيرُ الْمَفْهُومِ مِنَ الْمَوْضُوعِ فِي فِلْسَفَةِ اللُّغَةِ يُمَكِّنُ عَزْوَهُ إِلَى فريجة الَّذِي ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ فِكْرَةٍ مُفْرَدَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنْ تَعْبِيرٍ (اسْمِ عِلْمٍ، أَوْ تَعْبِيرٍ عَامٍّ مَعَ أَدَاةِ التَّعْرِيفِ) يَدُلُّ عَلَى مَوْضُوعٍ، مَعَ مَحْمُولٍ (الرَّابِطَةُ "is" مَعَ تَعْبِيرٍ عَامٍّ مَصْحُوبٍ بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ أَوْ بِصِفَةٍ) يَدُلُّ عَلَى مَفْهُومٍ. فَبِذَلِكَ تَكُونُ جُمْلَةُ "سُقْرَاطُ فِلْسُوفٌ" مُكَوَّنَةً مِنْ "سُقْرَاطُ" الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمَوْضُوعِ سُقْرَاطُ، وَ"فِلْسُوفٌ" الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَفْهُومٍ أَنَّ يَكُونُ الْمَرْءُ فِلْسُوفًا. وَقَدْ شَكَّلَتْ هَذِهِ الْأَطْرُوحَةُ افْتِرَاقًا وَاضِحًا عَنِ الْمَنْطِقِيِّ التَّعْبِيرِيِّ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي كَانَتْ كُلُّ قَضِيَّةٍ فِيهِ (أَي جُمْلَةٍ) تَتَكَوَّنُ مِنْ تَعْبِيرَيْنِ عَامَّيْنِ تَصِلُ بَيْنَهُمَا الرَّابِطَةُ "is". [الْمُتَرْجِمُ]

(13) عُنْوَانُ الْمَقَالَةِ هُوَ (فِي الْمَعْنَى وَالْإِشَارَةِ). وَهُمَا جَانِبَانِ مُخْتَلِفَانِ لِيَبْعَضِ مَعَانِي التَّعْبِيرَاتِ عِنْدَ فريجة؛ فِإِشَارَةُ التَّعْبِيرِ هِيَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ التَّعْبِيرُ، فِي حِينِ أَنَّ مَعْنَى التَّعْبِيرِ هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا التَّعْبِيرُ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضُوعِ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَ فريجة مُصْطَلَحَ الْإِشَارَةِ مَعَ أَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ عَلَى نَحْوِ رَئِيسٍ، وَمَعَ الْجُمْلِ عَلَى نَحْوِ أَقْلٍ. [الْمُتَرْجِمُ]

(14) الْعُنْوَانُ الْكَامِلُ لِهَذَا الْكِتَابِ هُوَ (مَبَادِي الرِّیَاضِيَّاتِ)، وَقَدْ أَلْفَهُ بَرْتَرَانْدُ رَسِلُ سَنَةَ 1903م، وَقَدَّمَ فِيهِ مُفَارَقَتَهُ الْمَشْهُورَةَ وَاحْتِجَّ لِأَطْرُوحَتِهِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ الرِّیَاضِيَّاتِ وَالْمَنْطِقَ مُطَابِقَانِ. [الْمُتَرْجِمُ]

"تكثرُ فيه التَّمييزاتُ [273] الدَّقِيقَةُ، وَيجْتَنِبُ جَمِيعَ المُغَالطاتِ المُعتادةِ التي تَكْتَنِفُ كِتاباتِ المُشتَغِلِينَ بِالْمَنْطِقِ". إِنَّ التَّفْرِيقَ الذي أَتى بِهِ فَرِيحةٌ بَيْنَ الْمَعْنَى (Sinn) meaning والإِشارةِ (Bedeutung) indication يُعَادِلُ، على وَجهِ التَّقْرِيبِ لا الدَّقِيقَةِ، تَفْرِيقَ السَّيِّدِ رَسِلَ بَيْنَ الْمَفْهُومِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وما يُشِيرُ إِلَيْهِ الْمَفْهُومُ (Principles §96). ولم يَنْظُرِ الْعَمَلَانِ الْأَوَّلَانِ لِفَرِيحةٍ مِنْ أَعْمَالِهِ الْمَذْكُورَةِ آتِفًا على هَذَا التَّفْرِيقِ، لِكُنْهُ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ الثَّالِثِ B.u.G، وَتَعَامَلْ مَعَهُ تَعَامُلًا خَاصًّا فِي عَمَلِهِ الْآخِرِ S.u.B. وقد رَأَى أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْ مُطَابَقَةِ أَسمَاءِ الْمَوْضُوعَاتِ قَبْلَ الْقِيَامِ بِالتَّفْرِيقِ (Bs., p. 13)، فَيَقُولُ إِنَّ كَوْنَ "A مُطَابِقًا لـ B" يَعْنِي أَنَّ الْعَلَامَةَ A وَالْعَلَامَةَ B لُهُمَا الدَّلَالَةُ نَفْسُهَا (Bs., p. 15) - وهذا تَعْرِيفٌ، مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِ السَّيِّدِ رَسِلَ، "يَلْزَمُ مِنْهُ الدَّوْرُ مِنَ التَّاحِيَةِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْأَقْل". لِكُنْهُ يُفَسِّرُ الْمُطَابَقَةَ، لَاحِظًا، تَفْسِيرًا يَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مُمَائِلًا لِمَا فَسَّرَهَا بِهِ السَّيِّدُ رَسِلَ فِي كِتَابِ الْمَبَادِي Principles, §64. إِذْ يَقُولُ: "إِنَّ الْمُطَابَقَةَ تَسْتَلْزِمُ الْانْعِكَاسَ الَّذِي تُسَبِّبُهُ الْأَسْئَلَةُ الْمُلْحَقَةُ بِهَا الَّتِي لَا تَسْهَلُ تَمَامًا الْإِجَابَةُ عَنْهَا. أَعْلَاقَةُ هِيَ؟ أَعْلَاقَةُ هِيَ بَيْنَ مَوْضُوعَاتِ Gegenstände أَمْ عِلَاقَةُ بَيْنَ أَسمَاءٍ أَوْ عِلَاقَاتٍ لِمَوْضُوعَاتِ Gegenstände؟" (S.u.B., p. 25). وَتُبَاعِ قَائِلًا إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقَ الْمَعْنَى، الَّذِي يَتَضَمَّنُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يُعْطَى بِهَا، مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهِ (أَي مِنْ Bedeutung). فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ لـ 'نَجْمِ الْمَسَاءِ' وَ'نَجْمِ الصُّبْحِ' إِشَارَةٌ وَاحِدَةٌ، لِكِنْ مَعْنَاهُمَا لَيْسَ وَاحِدًا. فَالْكَلِمَةُ تَرْمِزُ إِلَى إِشَارَتِهَا عَلَى نَحْوِ اعْتِيَادِيٍّ؛ فَلِذَا مَا رَغِبْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ مَعْنَاهَا كَانَ عَلَيْنَا اسْتِعْمَالُ عَلَامَتِي الْاِقْتِسَاسِ أَوْ آليَاتِ أُخْرَى مُشَابِهَةٍ. وَإِشَارَةُ اسْمِ الْعَلَمِ هِيَ الْمَوْضُوعُ object الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ؛ وَالْمَظْهَرُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ ذَاتِي تَمَامًا؛ وَبَيْنَ الْاِثْنَيْنِ يَكْمُنُ الْمَعْنَى، الَّذِي هُوَ لَيْسَ ذَاتِيًّا، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَوْضُوعُ. فَاسْمُ الْعَلَمِ يُعَبِّرُ عَنْ مَعْنَاهُ، وَيُشِيرُ إِلَى إِشَارَتِهِ.

وَيَمْضِي السَّيِّدُ رَسِلَ بِقَوْلِهِ: "إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ فِي الْإِشَارَةِ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ مِنْ نَظَرِيَّتِي، يَدُلُّ عَلَى هَذَا حَقِيقَةً أَنَّ كُلَّ اسْمٍ عِلْمٍ يُفْتَرَضُ أَنْ يَكُونَ لَهُ هَذَانِ الْجَانِبَانِ. وَيَبْدُو لِي أَنَّ أَسمَاءَ الْأَعْلَامِ الْمُشْتَقَّةَ مِنَ الْمَفَاهِمِ بِوَسَاطَةِ أَدَاةِ التَّعْرِيفِ الَّتِي وَحَدَهَا الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ لَهَا مَعْنَى، أَمَّا الْكَلِمَاتُ الَّتِي عَلَى شَاكِلَةِ

جون John فليس لها إلا أن تُشير من غير أن يكون لها معنى. وإذا ما تَقَبَّلَ المرءُ، كما أَفْعَلُ أنا، إمكان أن تكون المفاهيم موضوعات وأن يكون لها أسماء أعلام، فمن الواضح تمامًا أنَّ ما لها من أسماء أعلام سَتُشير إليها، عادةً، من غير أن يكون لها معنى بَيِّنٌ، أما الرَّأْيُ المُضَادُّ فَلَا يَبْدُو مُسْتَحِيلًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمُنطَقِيَّةِ وَإِنْ كَانَ يُؤَدِّي إِلَى نكوصٍ لا نِهَآيَةَ لَهُ¹⁵.

4§. غومبيرز Gomperz⁽¹⁵⁾

طَوَّرَ غومبيرز H. Gomperz وجهة نظره في المُجلَّد الثاني من كتابه [274] *رؤية العالم Weltanschauungslehre* (1908)، الذي خُصَّصَ الجُزءُ الأوَّلُ منه لِعِلْمِ الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ الْمُسَمَّى السِّمَاسِيُولُوجِيَا Semasiology. وقد تَبَنَّاها البروفيسور ديتريتش Dittrich في كتابه مُشكلات سايكولوجية اللغة *Probleme der Sprach-psychologie* (1913)، الذي تَرَكِّزُ الخُلاصةُ الآتيةُ على ما قَدَّمَهُ:-

في كُلِّ عِبَارَةٍ تَامَّةٍ (Aussage) يُمكننا أن نَمَيِّزَ: أ. الأصوات *sounds* (Aussage-laute)، أي الشَّكْلَ الصَّوْتِيَّ لِلْعِبَارَةِ، أو بِالْأَحْرَى *(Lautung) phonesis*. ب. المَضمونَ *(Aussage-inhalt) import*، أي مَفَادَ *sense* (Sinn) العِبَارَةِ؛ ج. الأساسَ *foundation* (Aussagegrundlage)، أي الواقِعَةَ الفِعْلِيَّةَ (Tatsache) التي تُنسَبُ إليها العِبَارَةُ. ويُمكن تصوُّرُ العِلاقاتِ بَيْنَ هَذِهِ العَنَاصِرِ الثَّلَاثَةِ عَلَى النِّحْوِ الآتِي: الأصواتُ *(phonesis)* هِيَ التَّعْبِيرُ (Ausdruck) عَنِ المَضمونِ واسْمُ (Bezeichnung) الأساسِ، في حين أن المَضمونَ هُوَ تَأْوِيلُ (Auffassung) الأساسِ. فَبِالْقَدْرِ الذي تُعَالِجُ بِهِ الأصواتُ عَلَى أَنَّهَا تَعْبِيرَاتٌ عَنِ المَضمونِ تُضَمُّ إِلَى العِبَارَةِ (Aussage). وَبِالْقَدْرِ الذي يُعَالِجُ بِهِ الأساسُ عَلَى أَنَّهُ الواقِعَةُ التي يَنْظُرُ عَلَيْهَا المَضمونُ يُمكنُ أن يُسَمَّى الواقِعَةُ المَفْصَحُ عنها (ausgesagte Sachverhalt)، أو الواقِعَةُ فَحَسْبُ. وتُدْعَى العِلاَقَةُ القَائِمَةُ بَيْنَ العِبَارَةِ والواقِعَةِ

(15) هاينريخ غومبيرز (1873-1942م). فيلسوف نمساوي، ابنُ الفيلسوفِ تيودور غومبيرز. من مؤلفاته: *رؤية العالم، ودراسات فلسفية*. [المُترجم]

المُعَبَّر عنها المَعْنَى (Bedeutung)⁽¹⁶⁾.

وَبَرَى غومبيرز أَنَّ الأصَوَاتَ الَّتِي تُطَابِقُ عِبَارَةً تَامَّةً، نَحْو "هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ"، لَهَا وَظِيفَةٌ تُمَثِّلِيَّةٌ خُمَاسِيَّةٌ. فَالْعِبَارَةُ، بِوَصْفِهَا صَوْتًا، يُمَكِّنُ أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ تَحْتَ خَمْسَةِ بُنُودٍ:-

1. أَنَّهَا تُمَثِّلُ نَفْسَهَا، بِوَصْفِهَا مُجَرَّدَ صَجِيحٍ، عَلَى مَا يُدْرِكُهُ مِنْهَا أَيُّ شَخْصٍ لَا يَعْرِفُ هَذِهِ اللَّغَةَ.

2. أَنَّهَا تُمَثِّلُ حَالَةَ مُعَيَّنَةٍ (Tatbestand)، 'هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ'، الْمَعْنَى الَّذِي عَادَةً مَا تُسْتَعْمَلُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْهُ، مَضمُونُ الْفِكْرَةِ الَّتِي يُفَكَّرُ فِيهَا كُلُّ مَنْ يَنْطَلِقُهَا أَوْ يَسْمَعُهَا.

3. أَنَّهَا، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، تُمَثِّلُ وَاقِعَةً 'هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ'، أَيُّ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ الْوَاقِعِ يُمَكِّنُ أَنْ تَنْطَوِي عَلَيْهِ فِكْرَةُ 'هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ' وَيُشِيرُ إِلَيْهِ هَذَا الصَّوْتُ. (قَدْ يَتَنَوَّعُ هَذَا تَنَوُّعًا كَبِيرًا - فَقَدْ يَكُونُ زُرُورًا، أَوْ نَسْرًا، أَوْ مُجَرَّدَ شَيْءٍ مَا يَتَحَرَّكُ).

4. أَنَّهَا تُمَثِّلُ الْقَضِيَّةَ: 'هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ'، بِوَصْفِهَا قَوْلًا دَالًّا، مِنْ خِلَالِهِ يُعَبِّرُ الصَّوْتُ، الَّذِي يُصْبِحُ بِذَلِكَ صَوْتًا لُغَوِيًّا، عَنِ الْمَعْنَى أَوْ الْحَالَةِ لِـ 'هَذَا الطَائِرُ يَطِيرُ'، وَبِمَعْنَى هَذَا الْمَعْنَى يُكَوِّنُ الْعِبَارَةَ.

5. أَنَّهَا تُمَثِّلُ الْوَاقِعَةَ (Sachverhalt) الَّتِي تُفَصِّحُ عَنْهَا الْقَضِيَّةُ، وَالَّتِي تُمَيِّزُ بِوُضُوحٍ مِنْ كُلِّ مِنَ الْأَسَاسِ وَمِنْ الْمَضمُونِ. 'فَالْقَضِيَّةُ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْإِنْفِصَاحِ عَنْ [275] حُضُورِ جُزْءٍ مِنَ الْوَاقِعِ الْفِيزِيَاثِيِّ يُمَكِّنُ التَّفَكِيرُ فِيهِ بِوَصْفِهِ يَمْتَلِكُ خَاصِيَّةً أَوْ بِوَصْفِهِ عَمَلِيَّةً، بِوَصْفِهِ إِيْجَابِيًّا أَوْ سَلْبِيًّا active or passive، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. لَكِنَّهَا تُفَصِّحُ عَنْ حَدُوثٍ عَمَلِيَّةٍ فِيزِيَاثِيَّةٍ يُمَيِّزُ فِيهَا مَوْضُوعٌ حَيَوِيٌّ، أَيُّ طَائِرٌ، وَفَعَالِيَّةٌ (طَائِرَانِ)، وَحُضُورٌ قَوْرِيٌّ لِلْمَوْضُوعِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِـ 'هَذَا'، بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، مَا

تفصيح عنه القضية هو 'طيران هذا الطائر'. ويستوي هذا أيضًا في كونه جزءًا من الواقع الفيزيائي، لكنه ذو لفظ أحادي المعنى. وهو ليس جزءًا من الواقع الفيزيائي بالمعنى العام فحسب، بل إنه عملية فيزيائية على نحو أكثر تحديدًا، وفعالية فيزيائية على نحو محدد تمامًا. لكن هذه مجرد محمولات ما كان ليتمكن الأصوات في حد ذاتها الإفصاح عنها... بعبارة أخرى، يمكن أن يكون الأساس واحدًا للقضايا الثلاث: 'هذا الطائر يطير'، و'هذا طائر'، و'أنا أرى مخلوقًا حيًا'، في حين أن الواقعة التي تُعبر عنها هذه القضايا الثلاث تكون مختلفة في كل مناسبة. إذ إن القضية الأولى تفصيح عن 'طيران هذا الطائر'، أما الثانية فتفصيح عن 'أن ثمة طائرًا هو هذا'، وأما الثالثة فتفصيح عن 'رؤيتي أنا مخلوقًا حيًا'. فإن كان الأساس لهذه القضايا واحدًا هو الأساس نفسه، في حين أن الواقعة المفصّح عنها ليست واحدة هي الواقعة نفسها، فلا يمكن أن تُدمج الواقعة في الأساس. كما لا يجب تطابق الواقعة مع المضمون أو المعنى (Inhalt oder Sinn)، الذي هو ليس شيئًا ما فيزيائيًا، بل إنه مجموعة تحديدات منطقيّة (Bestimmungin) .

ويذكر ديتريتش أنه من كل ما سبق تنشأ الصفة العلاقية المميزة لذلك العنصر من عناصر العبارة الذي يدعى المعنى. ولا يمكن أن يطابق المعنى مجرد الاسم (Bezeichnung designation). ويؤكد أن الصوت الواحد نفسه، 'top' مثلًا، يمكن أن يكون اسمًا لأساسات مختلفة جدًا، وإذا ما قصرنا المعنى على العلاقة بين العلامة وما يُسمى، وهو ما يفعله مارتيناك Martinak، فلن نصل إلى تعريف مُنِيع. وقد يكون التأويل (Auffassung)، على نحو مشابه، علاقة متعددة-واحدة، ثم إن استعمال مصطلح المعنى للتعبير عن هذه العلاقة يؤدي إلى إسقاط العنصر اللغوي. كما لا يمكن أن يطابق المعنى علاقة التعبير (Ausdruck). وأخيرًا، يظهر المعنى بوصفه علاقة محدّدة لكنها معقّدة، تتركز على نظرية الانطباعات الكلية (Totalimpression) وعلى التجارب

العاطفية المشتركة التي تُمَيِّزُ أتباعَ التجريبية الانفعالية⁽¹⁷⁾ pathempiricists⁽¹⁸⁾.
 "وفي وَسْطِ الصُّوَبِ، أَيَّا يَكُنْ، [276] أَنْ يَكُونَ اسْمًا لِأَيِّ أَاسَاسٍ، لَكِنْ لَيْسَ
 فِي وَسْطِهِ أَنْ يَغْنَى إِلَّا حِينَ يُصْبِحُ عِبَارَةً مِنْ خِلَالِ تَكْوِينِ مَضمُونِ عَامٍ-نَمْطِي، ثُمَّ
 إِنَّ هَذَا يُصْبِحُ أَاسَاسًا (Grundlage) لِوَاقِعَةٍ مَا (Sacverhalt)⁽¹⁹⁾."

(17) التَّجْرِبِيَّةُ الانْفِعَالِيَّةُ: فلسفةٌ لِغومبيرز تَرَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَفَاهِيمِ يَجِبُ أَنْ تَسْتَبْدَ إِلَى الْمَشَاعِرِ.
 وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ اسْتِجَابَةً لِأَرْمَةِ "المُحَايَنَةِ Immanence"؛ إِذْ ارْتَأَتْ وَاحِدِيَّةَ مَاخِ
 عَدَمِ وَجُودِ فَرْقٍ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْحَالَاتِ الذَّهْنِيَّةِ، وَعَدَمَ الذَّهَابِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَحَاسِيْسِ مِنْ
 "الْوَعْيِ"، أَوْ "الخِبْرَةِ"، أَوْ "المَوْضُوعَاتِ". وَأَصْبَحَتِ الذَّاتُ مَوْضِعَ إِشْكَالٍ. فَعَلَى
 نَحْوِ مَا انْدَمَجَ دَقَقُ الْأَحَاسِيْسِ فِي وَعْيِ "العَالَمِ بِوصْفِهِ حَدَثًا مُنْظَمًا". لَكِنْ كَيْفَ حَدَثَ
 ذَلِكَ؟ أَمَّا غومبيرز فَقَدْ تَمَسَّكَ بِالتَّجْرِبِيَّةِ؛ فَالْمَفَاهِيمُ مُتَجَذَّرَةٌ فِي الْخِبْرَةِ. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ
 قَبْلَ غومبيرز نَقَدَ كَانَتْ لِهَيُومِ الَّذِي مَفَادُهُ أَنَّ الْمَفَاهِيمَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَمَثُّلٍ لِلْخِبْرَةِ؛
 فَالْعَالِيَّاتُ التَّلَقَّائِيَّةُ لِلذَّاتِ تُعَدُّ الْخِبْرَةَ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّهِدِ الْإِدْرَاكُ الْكَائِنِي الْقَوِيَّ مُمَكِّنًا.
 إِذْ ذَهَبَ غومبيرز إِلَى أَنَّ الْمَشَاعِرَ- وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَا الْعَوَاطِفَ الْحَيَّةَ، بَلْ هِيَ الْمَشَاعِرُ
 الْإِدْرَاكِيَّةُ- تَمْنَحُ الْخِبْرَةَ أَشْكَالًا وَتُوَلِّدُ تَمَثُّلَاتٍ. فَاسْتِنَادًا إِلَى الْمَفْهُومِ التَّجْرِبِيِّ الْانْفِعَالِيِّ
 لِلشَّكْلِ يَكُونُ كُلُّ الشَّكْلِ شُعُورًا، حَتَّى إِنَّ جَمِيعَ مَحْتَوِيَّاتِ الْخِبْرَةِ فِي الْوَعْيِ تَكُونُ مُمَثَّلَةٌ
 مِنْ خِلَالِ الْأَفْكَارِ، فِي مُقَابِلِ جَمِيعِ أَشْكَالِهَا الَّتِي تَكُونُ مُمَثَّلَةٌ مِنْ خِلَالِ الْمَشَاعِرِ. وَإِنَّ
 مَا يُقَرَّرُ حُدُودَ الْوَعْيِ هُوَ تَقْدُّمُ الْكَائِنِ الْحَيِّ. فَقَدْ انْتَقَلَتِ التَّجْرِبِيَّةُ الْانْفِعَالِيَّةُ مِنْ عِلْمِ
 الْمَعْرِفَةِ إِلَى عِلْمِ النَّفْسِ وَعِلْمِ الْأَحْيَاءِ. [المُتَرَجِّم]

(18) بِشَأْنِ هَذِهِ الْوَجْهَةِ يَقُولُ الذَّكَتُورُ بِيك E. H. F. Beck، الَّذِي تُعَدُّ رِسَالَتُهُ الَّتِي عُتَوَّنُهَا
 الْعِبَارَاتُ الْمَجْهُولَةُ الْفَاعِلِ Die Impersonalien [كَعِبَارَةٍ "إِنَّهَا تُمَطِّرُ It is raining".
 الْمُتَرَجِّمُ] تَطْبِيقًا لِلتَّحْلِيلِ الْغومبيرزي-الذَّيْرِتشي، وَالَّذِي نَدِينُ لَهُ يَقِينًا بِمَا قَدَّمَهُ لَنَا مِنْ
 الْمُقَابِلَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آيَفَا: "إِنَّ التَّشْدِيدَ يَقَعُ عَلَى الْانْطِبَاعِ الْعَاطِفِيِّ الْكُلِّيِّ
 Gesamteindrucksgefühl. فَالْمُتَكَلِّمُ وَالْمُسْتَمِعُ يَشْتَرِكَانِ فِي تَجَارِبٍ عَاطِفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَشْتَرِكُ
 فِي الْمَوْضُوعِ وَالْانْعِكَاسَاتِ. فَنِي كُلِّ اتِّصَالٍ فَعَالٍ يُعِيدُ الْانْعِكَاسَ- صَوْتًا كَانَ أَوْ إِيْمَاءَةً
 أَوْ رَمَزًا مَكْتُوبًا- تَعْيِينَ التَّجْرِبَةِ الْمُشْتَرَكَةِ (النَّمْطِيَّةِ-العَامَّةِ) الْعَاطِفِيَّةِ الَّتِي يُرْجَعُ بِهَا إِلَى
 أَاسَاسِهَا. لِذَلِكَ كَانَتْ الْعَلَامَةُ- الَّتِي قَدْ تَحُلُّ لَفْظَهَا مَحَلَّ الصُّوَبِ بِسَبَبِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ
 مَدَى أَوْسَعٍ- هِيَ الشَّيْءُ الْمَذْكُورُ causa cognoscendi، عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ، لِحَالَةٍ عَاطِفِيَّةٍ
 مُعَيَّنَةٍ، وَأَسَاسًا لَهَا فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ."

5. بالدون Baldwin

يُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَى أَفْضَلِ دِرَاسَةِ لِمَنْحَى البروفيسور بالدون فِي مُعَالَجَةِ قَضِيَةِ الْمَعْنَى فِي كِتَابِهِ الْفِكْرُ وَالْأَشْيَاءُ *Thought and Things*. إِذْ تَنَاوَلَ الْجُزْءَ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ مَا يُسَمِّيهِ 'الْمَنْطِقُ التَّجْرِبِيُّ' *Experimental Logic*، وَقَدْ خُصَّصَ الْفَصْلُ السَّابِعُ مِنْهُ لِتَطَوُّرِ الْمَعْنَى الْمَنْطِقِيِّ. إِذْ 'يَبْدُو أَنَّ أَكْثَرَ مَنَهِجِنَا الْإِجْرَائِيَّةَ وَاعِدِيَّةً هُوَ أَنْ نَأْخُذَ مُخْتَلِفَ الْمَنَاحِي وَالْمَرَاجِلِ لِتَطَوُّرِ الْحَمْلِ *predication*، فَنَسْأَلُ كُلَّاهُ مِنْهَا عَلَى جِدَّةٍ بِشَأْنِ مَعْنَاهَا الْبِنَائِيِّ أَوِ التَّمْيِيزِيِّ، مَا يَخُصُّهَا مِنْ 'ما what' - أَيِ مَا تَعْنِيهِ الْآنَ، بِوَصْفِهَا فِقْرَةً ذَاتَ مَعْرِفَةٍ مُسَيِّقَةٍ *contextuated* وَمُنَاحَةٍ اجْتِمَاعِيًّا. فَمَا هِيَ مَوْضُوعُ الْحُكْمِ. فَلِذَا مَا انْتَهَيْنَا مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ، أَمْكَنَّا التَّسْأُلَ عَنْ آلِيَّةِ اسْتِعْمَالِ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى: أَيِ 'مُقْتَرَحٍ' أَنَّ الْمَعْنَى يُوجِي أَوْ يَقْصِدُ حِينَ يُعْتَبَرُ اعْتِبَارًا آلِيًّا. وَمِنْ الْمُمْكِنِ تَسْمِيَةَ التَّسْأُلِ الْأَخِيرِ بِالتَّسْأُلِ الْمُتَعَلِّقِ بِ'لِمَ why' الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَعْنَى: أَيِ الْغَرَضِ أَوِ الْغَايَةِ الشَّخْصِيَّةِ أَوِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُتَاحُ الْمَعْنَى لِلْمُعَالَجَةِ التَّجْرِبِيَّةِ. وَإِذَا مَا اسْتَعْمَلْنَا عِبَارَةَ 'التَّفَكُّيرِ الْإِتِّخَابِيِّ'، كَمَا فَعَلْنَا سَابِقًا، لِلْعَمَلِيَّةِ الْكَلِّيَّةِ الَّتِي تَنْمُو عَلَى وَفْقِهَا الْمَعْنَى فِي الْمَنْحَى الْمَنْطِقِيِّ: أَيِ عَمَلِيَّةِ 'التَّحْدِيدِ النَّظَامِيِّ' الَّتِي سَبَقَ وَضَعُ تَخْطِيطِ لَهَا فِي الْفَصْلِ الْمَاضِي - أَمْكَنَّا حِينَئِذٍ أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ مَعْنَى مُعْطَى هُوَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ حَمْلٌ بِوَصْفِهِ إِضَاحًا لِـ مُقْتَرَحٍ، وَحَمْلٌ بِوَصْفِهِ مُقْتَرَحًا لِـ إِضَاحٍ. فَبِوَصْفِهِ إِضَاحًا لِصَاحِبِ الْإِعْتِقَادِ فَإِنَّهُ يَقْتَرِحُهُ لِآخَرٍ، وَبِوَصْفِهِ مُقْتَرَحًا فَإِنَّ الْمُتَسَائِلَ يُقَدِّمُهُ إِلَى مُسْتَمِعٍ إِضَاحِهِ. ثُمَّ يُمْكِنُنَا أَنْ نَمْضِيَ قُدَّامًا مَعَ هَذَا الْمَنْهَجِ ...".

وَفِي الْفَصْلِ السَّابِعِ، بَعْدَ أَرْبَعِينَ صَفْحَةً مِنْ هَذَا الْكَلَامِ، "نَقِفُ عَلَى اسْتِثْنَائَاتٍ مُعَيَّنَةٍ أَمْكَنَ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا سَلَفًا فِي عِبَارَاتٍ تُعِيدُنَا إِلَى تَفْرِيقِنَا الْأَسَاسِيِّ بَيْنَ الْإِسْتِلْزَامِ *Implication* وَالتَّسْلِيمِ *Postulation*"، عَلَى النَّحْوِ الْآتِي -:

'عُرِفَ الْإِسْتِلْزَامُ بِأَنَّهُ الْمَعْنَى الَّذِي تُرْسَخُهُ وَتَخْتَصِرُهُ عَمَلِيَّاتُ حُكْمٍ لَمْ

يُخَلَّفُ فِيهَا أَيُّ قَصْدٍ افْتِزَاضِيٍّ أَوْ مُشْكِلٍ. بِعِبَارَةِ أُخْرَى، مَا الْاسْتِلْزَامُ [277] إِلَّا الْمَعْنَى الَّذِي يُنْقَلُ بِوَسَاطَتِهِ الْاعْتِقَادُ، أَيُّ مَوْقِفُ الْإِقْرَارِ فِي الْحُكْمِ. تَحْتَ هَذَا الْعُنْوَانِ نَجِدُ نَوْعَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى: أَحَدُهُمَا هُوَ مَوْضُوعُ الْحَمْلِ، أَيُّ مَضْمُونُ الْفِكْرَةِ، وَالْآخَرُ هُوَ مُسَلَّمَةُ presupposition الْحُكْمِ، أَيُّ مَجَالُ التَّحْكُمِ الَّذِي يَتَعَدَّدُ فِيهِ الْحَمْلُ أَوْ يَصِحُّ

وَبَعْدَ ذَلِكَ (ص 299) يُثَارُ سَوْأَلُ مَفَادُهُ: 'عَلَى أَيِّ وَجْهِ يُمَكِّنُ، بَعْدُ، أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى الْكُلِّيُّ الْمُشْتَرَكُ فَرْدِيًّا؟'. وَالْإِجَابَةُ تَكُونُ 'بِإِبَاعِدِ الْمَعْنَى الْفَرْدِيِّ مِنَ الْمَعْنَى الْمَنْطِيقِيِّ، إِنْ قَصَدْنَا بِالْفَرْدِيِّ نَمَطًا مِنَ الْمَعْنَى يَفْتَقِرُ إِلَى الْاشْتِرَاكِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا مَا نُقِلَ مَعْنَى فَرْدِيٍّ فِي حُكْمٍ مَا فَالْمَعَالِمُ الَّتِي جَعَلَتْهُ فَرْدِيًّا هِيَ بِالتَّحْدِيدِ الَّتِي تُعَمِّمُ فِي أَحَدٍ مَنَاحِي الْاشْتِرَاكِ- وَهَذَا مَا يَحْدُثُ بِاسْتِمْرَارٍ فِي تَجَارِبِ مُخْتَلَفَةٍ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ أَوْ لِأَشْخَاصٍ مُخْتَلِفِينَ. وَقَدْ تَرَاوَجَ قَصْدُ الْفَرْدِيَّةِ الَّذِي لَا يَسْمَحُ بِأَيِّ تَعْمِيمٍ إِلَى نِطَاقِ التَّقْوِيمِ الْمُبَاشِرِ أَوْ التَّجْرِبَةِ الْقَوْرِيَّةِ'. وَيَذْكُرُ أَنْ يُضَاحَ هَذَا لَا يَنْظُورُ عَلَى صُعُوبَةٍ مَا. 'فَلْتَفَتَرَضْ أَنْتِي أَقْرَأُ الْعِبَارَةَ الْآتِيَةَ: 'هَذِهِ هِيَ الْبُرْتُقَالَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَهَا هَذَا اللَّوْنُ'. فَإِنِّي بِفِعْلِي هَذَا أَمْنَحُ الْبُرْتُقَالََةَ مَعْنَى مُشْتَرَكًا بِطَرِيقَتَيْنِ. فَالَّذِي أَعْنِيهِ أَنْ بِاسْتَطَاعَتِكَ أَنْ تَجِدَ أَنَّهَا الْوَحِيدَةُ الَّتِي بِحَوْرَتِي، أَوْ أَنْ بِاسْتَطَاعَتِي أَنَا بِنَفْسِي أَنْ أَجِدَ أَنَّهَا هِيَ نَفْسُهَا بِتَكَرَّارٍ تَجَرِّبَتِي عَلَيْهَا'.

وِخْتَامًا (ص 423) يُجِيبُ بِالْدَوْنِ عَنِ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْبَرُوفِسُورُ مُور A. W. Moore⁽²⁰⁾ بِشَأْنِ مُصْطَلَحَاتِهِ، فَيَقُولُ مُوضِّحًا ذَلِكَ: 'إِنَّ نِسْبَاتِنَا هِيَ مَعَانٍ مُتَضَادَّةٌ، وَثَنَائِيَّاتٌ، وَوَسَائِلُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَإِنَّ تَوْسُطَ mediation هَذِهِ

(20) أَوْسَن وَبِسْتَر مُور (1866-1930م). فِيلَسُوفٌ بَرَاغَمَاتِيٌّ أَمْرِيكِيٌّ. كَانَ رَئِيسَ الْجَمْعِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْغَرِبِيَّةِ سَنَةَ 1911، وَرَئِيسَ الْجَمْعِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ سَنَةَ 1917. حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الدِّكْتُورَاهِ مِنْ جَامِعَةِ شِيكََاغُو سَنَةَ 1898 إِبَّانَ وَجُودِ جُونِ دِيوِي فِيهَا. وَحِينَ غَادَرَ دِيوِي إِلَى جَامِعَةِ كُولُومْبِيَا سَنَةَ 1904 أَصْبَحَ مُور مَدْرَسَ مَاذَتِي الْمِتَافِيزِيْقَا وَالْمَنْطِقِ فِي جَامِعَةِ شِيكََاغُو، وَاسْتَأَذَ الْفَلَسَفَةَ سَنَةَ 1909. مِنْ آثَارِهِ: الْوُجُودُ وَالْمَعْنَى وَالْوَاقِعُ فِي مَقَالَةٍ لُوكَ وَفِي الْأِسْتِمُولُوجِيَا الْحَاضِرَةِ، وَالْبَرَاغَمَاتِيَّةُ وَنَقَادُهَا. [الْمُتَرَجِّمُ]

الْمُتَضَادَاتِ وَالثَّنَائِيَّاتِ وَالْوَسَائِلِ وَالْغَاءِهَا إِلَى النِّهَايَةِ يُزِيلُ الْحَالَاتِ النَّسَبِيَّةَ وَيُقَدِّمُ 'الْمُطْلَقُ' الْمَقْبُولَ الْوَحِيدَ. وَهَذَا هُوَ 'الْمُطْلَقُ' الَّذِي لِلتَّجَرِبَةِ أَهْلِيَّةُ الْوُصُولِ إِلَيْهِ. فَإِنْ سَأَلْتُ: لِمَ لَا يَتَطَوَّرُ هَذَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى حَالَاتٍ نِسَبِيَّةٍ جَدِيدَةٍ؟ كَانَتْ إِجَابَتِي أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ يَفْعَلُ ذَلِكَ، أَمَّا فِي الْمَعْنَى فَلَا. ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْنَى هُوَ الْحَالَةُ الْكُلِّيَّةُ لِجَمِيعِ حَالَاتِ التَّوَسُّطِ الَّتِي مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. فَإِنْ كَانَ التَّوَسُّطُ الْمُتَحَقِّقُ فِي الْجَمَالِيِّ تَوَسُّطًا ذَا مَعْنَى نَمِطِي فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ تَطَوُّرِ 'الدِّينَامِيكِيَّةِ' الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّ قِيَمَتَهُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُسْقِطُ سَلَفًا أَيْ مُطَالَبَاتٍ جَدِيدَةٍ بِالتَّوَسُّطِ قَدْ تَنْشِئُهَا ثَنَائِيَّاتٌ جَدِيدَةٌ. فَالْجَمَالِيُّ، إِذَنْ، لَا يَكُونُ مُطْلَقًا إِلَّا بِمَعْنَى أَنَّ بِمَقْدُورِ الْمُصْطَلَحِ أَنْ يَعْنِيَ أَيْ شَيْءٍ: إِنَّهُ تَقْدِمْي كُلِّيٌّ، كَمَا أَنَّهُ مُكْتَفٍ أَوْ عِلَاقِيٌّ. إِنَّهُ يَتَوَسَّطُ تَوْلَدَاتِ الْقُدْرَةِ التَّكْوِينِيَّةِ كَمَا يَتَوَسَّطُ الثَّنَائِيَّاتِ السَّائِكَةِ*. ثُمَّ يَلْتَقِثُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى، يَقُولُ:

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِـ'الْمَعْنَى' فَأَنَا أَرَى أَنَّهُ بَعْدَمَا يَنْشَأُ الْمَعْنَى بِإِزَاءِ مُجَرَّدِ الْمَضْمُونِ الْحَاضِرِ، يَعُودُ مَضْمُونُ الضَّرُورَةِ [278] مِنْ خِلَالِ التَّضَادِّ أَيْضًا لِيُصْبِحَ مَعْنَى، مَا دَامَ فِي إِمْكَانِ الْوَعْيِ حِينَئِذٍ أَنْ يَقْصِدَهُمَا كِلَاهُمَا أَوْ يَعْنِيَهُمَا، أَوْ أَحَدَهُمَا، أَوْ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا. وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ عِنْدَ نَشُوءِ مَعْنَى تَنْشَأُ مَعَانٍ (بِصِبْغَةِ الْجَمْعِ). إِنَّ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْمَضْمُونِ فِي حُضُورِهِ الْمُجَرَّدِ يَعْنِي جَعْلَهُ مَعْنَى - بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْوَعْيُ قَادِرًا فِي وَقْتٍ مَا عَلَى أَنْ يَعْنِيَ 'ذَلِكَ فَقَطْ لَا أَيْ شَيْءٍ آخَرَ'. فَمِنْ ثَمَّ يَحُلُّ اسْتِعْمَالُ 'الْمَعْنَى' لِمَا يُوْجَدُ فِي الذَّهْنِ (كَمَا فِي عِبَارَةِ 'أَنَا أَغْنِي كَذَا وَكَذَا 'I mean so and so') مَحَلَّ اسْتِعْمَالِهِ لِمَا يَقْتَضِرُ عَلَى مَا يُلْحَقُ بِالْمَضْمُونِ (كَمَا فِي عِبَارَةِ 'إِنَّهُ يَعْنِي الْكَثِيرَ 'It means much'). فَحِينَ أَقُولُ (عَلَى الْوَجْهِ السَّابِقِ): 'أَنَا أَغْنِي الدَّجَاجُ' لَا أَقْصِدُ أَنْ أَقْصُرَ 'الْمَعْنَى' عَلَى مَا يُوجِي بِهِ الدَّجَاجُ خَارِجَ نِطَاقِ الصُّورَةِ الْمُجَرَّدَةِ. بَلْ أَقْصِدُ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، الظَّائِرَ كُلَّهُ.

وَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَذْكُرَ كَذَلِكَ أَنَّ بِيرْسَ C. S. Peirce، الَّذِي يَتَّبِعُهُ حَدِيثُنَا إِلَيْهِ الْآنَ، أَشَادَ فِي كِتَابَاتِهِ إِشَادَةً كَبِيرَةً بِمُصْطَلَحَاتِ الْبَرْوفيسُورِ بِالْدُونِ.

68. بيرس C. S. Peirce

تُعَدُّ مُحَاوَلَةُ الْمَنْطِقِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ بِيرْس إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ أَكْثَرَ الْمُحَاوَلَاتِ صَرَامَةً وَتَفْصِيلًا لِتَقْدِيمِ أُطْرُوحَةٍ بِشَأْنِ الْعَلَامَاتِ وَمَعْنَاهَا، وَهُوَ الَّذِي اسْتَقَى مِنْهُ وَلِيم جِيمْس William James فِكْرَةَ الْبَرَاغْمَاتِيَّةِ وَمُصْطَلَحِهَا، كَمَا أَنَّ شُرودَر Schroeder⁽²¹⁾ قَدْ طَوَّرَ جَبْرَ الْعِلَاقَاتِ الثَّنَائِيَّةِ الَّذِي قَدَّمَهُ. وَمِمَّا يُؤَسِّفُ عَلَيْهِ أَنَّ مَنَظُومَتَهُ الْمُصْطَلَحِيَّةَ كَانَتْ هَائِلَةً إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَرَعِبْ مَعَهَا إِلَّا الْقَلِيلُ فِي تَخْصِيصِ الزَّمَنِ الْلازِمِ لَامْتِلَاكِ نَاصِيَتِهَا، فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يُقَيِّضْ لِعَمَلِهِ أَنْ يَكْتَمِلَ قَطُّ. وَقَدْ كَتَبَ إِلَى اللَّيْدِيِّ وَيْلْبِيِّ Welby⁽²²⁾ فِي شَهْرِ دَيْسَمْبَر/كَانُونِ الْأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ 1908 يَقُولُ: "أَنَا الْآنَ أَعْمَلُ جَاهِدًا لِأُخْرِجَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ كِتَابًا فِي الْمَنْطِقِ يَسْتَهْوِي بَعْضَ الْعُقُولِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ نَافِذَتِي لِتَقْدِيمِ خَيْرِ حَقِيقَتِي"، وَبِفَضْلِ السَّيْرِ تشارلز وَيْلْبِيِّ Charles Welby⁽²³⁾ أُعِيدَ إِظْهَارُ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الرِّسَالَةِ الْمُتَبَادَلَةِ الَّتِي تَسُلْطُ الضُّوءَ عَلَى مَقَالَاتِهِ الْمَنْشُورَةِ بِشَأْنِ الْعَلَامَاتِ.

(21) فَرِيدِرِشْ وَلِهْلَمْ كَارْل إِيرِنِسْت شُرودَر (1841-1902م). عَالِمُ رِيَاضِيَّاتِ الْأَمَانِيِّ مَعْرُوفٌ عَلَى نَحْوِ رَئِيسِ بَعْمَلِهِ فِي الْمَنْطِقِ الْجَبْرِيِّ. وَهُوَ شَخْصِيَّةٌ رَئِيسَةٌ فِي الْمَنْطِقِ الرِّيَاضِيِّ الَّذِي رُبَّمَا يَكُونُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ سَمَّاهُ بِهَذَا الْاسْمِ. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ كِتَابُهُ الصَّخْمُ (مُحَاضَرَاتٌ فِي عِلْمِ جَبْرِ الْمَنْطِقِ) فِي ثَلَاثَةِ مَجْلَدَاتٍ. [الْمُتَرَجِمُ]

(22) فِكْتُورِيَا وَيْلْبِي (1837-1912م). فِيلَسُوفَةٌ لُغَوِيَّةٌ، وَمُوسِيقِيَّةٌ، وَرَسَامَةٌ بَرِيطَانِيَّةٌ. أَوَّلُ مَا نَشَرَتْهُ كَانَتْ عَنِ الدِّيانَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، وَفِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ كَانَتْ تَنْشُرُ مَقَالَاتٍ فِي أَهَمِّ دُورِيَّاتِنِ أَكَادِمِيَّتَيْنِ لُغَوِيَّتَيْنِ إِنْجِلِيزِيَّتَيْنِ وَهُمَا Mind و Monist، وَنَشَرَتْ أَوَّلَ كِتَابٍ فِلَسْفِيِّ لَهَا سَنَةَ 1903 وَعنوانُهُ (مَا الْمَعْنَى؟ - دِرَاسَاتٌ فِي تَطَوُّرِ اللُّغَةِ). وَفِي سَنَةِ 1911 أَسَهَمَتْ فِي الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ بِمَقَالَتِهَا الْمَطْوَلَةِ الَّتِي عَنوانُهَا Signifies وَهُوَ الْاسْمُ الَّذِي أَطْلَقَتْهُ عَلَى نَظَرِيَّتِهَا فِي الْمَعْنَى. وَبَدَأَ أَوْغِدِن بِمُرَاسَلَتِهَا فِي سَنَةِ 1910، وَقَدْ تَأَثَّرَتْ كِتَابَاتُهُ الْلاحِقَةُ تَأَثُّرًا كَبِيرًا جَدًّا بِنَظَرِيَّاتِهَا، وَإِنْ حَاوَلَ التَّقْلِيلُ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي أَشْهَرِ كِتَابٍ لَهُ وَهُوَ كِتَابُنَا هَذَا (مَعْنَى الْمَعْنَى). [الْمُتَرَجِمُ]

(23) تشارلز غلين إيرل ويلبي (1865-1938م). كَانَ مَوْظَفًا حُكُومِيًّا مَدَنِيًّا بِرِيطَانِيَا، ثُمَّ أَصْبَحَ سِيَاسِيًّا مُنْتَمِيًّا إِلَى حِزْبِ الْمُحَافِظِينَ. كَانَ الْابْنُ الثَّانِي لِلْسِّيَاسِيِّ الْمُنْتَمِي إِلَى حِزْبِ الْمُحَافِظِينَ السَّيْرِ وَلِيم وَيْلْبِي غَرِغُورِي وَزَوْجَتِهِ فِكْتُورِيَا الَّتِي كَانَتْ مِنْ فِلَاسُفَةِ اللُّغَةِ وَابْنَةُ تشارلز سِتُورْت وَورْتلي. [الْمُتَرَجِمُ]

وفي بحث يرجع تأريخه إلى الرابع عشر من شهر مايو/مايس من سنة 1867 (Proc. Am. Acad. Arts and Sci. (Boston), VII (1868), 295) عرّف بيرس المنطق بأنه التعاليم الخاصة بالشروط الصورية الخاصة بصديق الرمز، أي بإحالة الرمز على موضوعاتها. وبعد حين، لما أدرك "أن العلم يكمن في البحث لا في 'التعاليم' - ذلك بأن تأريخ الكلمات، لا تأصيلها etymology، هو المفتاح لمعانيها، ولا سيما في حالة الكلمات المشبعة بفكرة التقدم كالعلم"، بدأ يعي، كما جاء في كتابته سنة 1908، مقدار الزمن الطويل الذي سيكون فيه أولئك الذين عكفوا على دراسة "الإحالة العامة للرموز على موضوعاتها مضطرين إلى عمل أبحاث بشأن إحالاتها على عوامليها المؤولة Interpretans⁽²⁴⁾ أيضاً، فضلاً

(24) العامل المؤول: جزء من النظرية العلامة الثلاثية عند بيرس؛ فالعلامة عنده هي: شكل مثلث (ماترول) Representamen (ويقابل الدال عند سوسير)، يُحيل على موضوع Object (ولا مقابل له عند سوسير)، عبر عامل مؤول Interpretant (ويقابل المدلول عند سوسير)، وهذه الحركة (سلسلة الإحالات) هي ما يُشكل عند بيرس ما يُسميه Semeiosis أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة. فالعامل المؤول هو أثر العلامة في شخص ما يقرأها أو يفهمها، فهو لا يشير إلى الشخص المؤول Interpreter بل إلى المعنى الذي نستجده أو نستخرجه من العلامة. ولا يذكر بيرس الشخص المؤول على نحو مباشر في أنموذجه الثلاثي لمكونات العلامة. ويُقسم بيرس العامل المؤول على ثلاثة أقسام: المباشر، والدائميكي، والنهائي. فالعامل المؤول المباشر يُعَيّن المستوى المعنوي الذي تترجمه العلامة مباشرة، ويكشف عنه من خلال إدراك العلامة نفسها، وهو ما نُسَميه عادة معنى العلامة. إن وظيفته الأساسية هي تقديم نقطة الانطلاق للدلالة، فنقولنا: شجرة طويلة، يُدرك بوصفه إحالة على نبات له جذور عميقة وأغصان تشق السماء وهو موصوف بالطول. أما العامل المؤول الدائميكي فيتشكل من خلال استحضاره معطيات معرفية غير معطاة مباشرة مع العلامة. فهو كل ناول يمنح الذهن العلامة إياه. وهو يؤسس على أنقاض العامل المؤول المباشر ولا يمكن أن يوجد إلا بوجود الأول، فتمه نخرج من دائرة التعيين لندخل دائرة التأويل بمفهومي الواسع. وأما العامل المؤول النهائي فلا يُشكل مستوى دلالي بالمعنى الحرفي للكلمة؛ إذ إنه غير مستقل عن حركة العامل المؤول الدائميكي وما يترجمه من إحالات، إلا أنه يعد قوة مضادة تكبح جماح هذا المؤول وتضع قطار التأويل فوق سكة بعينها. فوظيفته الرئيسة هي الوقوف في وجه القوة التأويلية المدمرة التي يطلق عنها العامل المؤول الدائميكي. [المترجم]

عَنِ الْخَصَائِصِ الْآخَرَى لِلرُّمُوزِ، وَلَا يَقْتَصِرُ ذَلِكَ عَلَى الرُّمُوزِ وَحْدَهَا [279] بَلْ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَصْنَافِ الْعَلَامَاتِ. فَعَلَى مُسْتَوَى الزَّمَنِ الْحَاضِرِ سَيَكُونُ مَنْ يُعِدُّ أَبْحَاثًا فِي إِحَالَةِ الرُّمُوزِ عَلَى مَوْضُوعَاتِهَا مُجَبَّرًا عَلَى إِعْدَادِ دِرَاسَاتٍ أُصِيلَتْ فِي جَمِيعِ فُرُوعِ النَّظَرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْعَلَامَاتِ⁽²⁵⁾. وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ اسْمَ السِّمِّيُوطِيْقَا Semiotic، وَطَوَّرَ جَوَانِبَهَا الْأَسَاسِيَّةَ فِي مَقَالَةٍ فِي مَجَلَّةِ Monist، سَنَةِ 1906، عُنَوَانُهَا 'مُقَدِّمَةٌ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْبَرَاغْمَاتِيكِيَّةِ'⁽²⁶⁾ Prolegomena to an Apology for Pragmaticism.

(25) حَذَفَ أَوْغِدِن وَرِثَارْدَزْ شَيْئًا مِنْ نَصِّ بِيرْس، وَفِي الْآتِي النَّصُّ كَامِلًا مِنْ غَيْرِ حَذْفٍ مِنْ كِتَابٍ: تشارلز س. بيرس: كِتَابَاتٌ مُخْتَارَةٌ (الْقِيَمُ فِي عَالَمِ الْمُضَادَّةِ) Charles S. Peirce: Selected Writings (Values in a Universe of Chance)، ص 402-403: 'فِي بَحْثٍ لِي يَرْجِعُ تَارِيخُهُ إِلَى الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ مَآيُو/مَآيِسَ مِنْ سَنَةِ 1867 (Proc. Am. Acad. Arts a Sci. (Boston), 1867, VII, 295) كُنْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْمَنْطِقَ بِأَنَّهُ التَّعَالِيمُ الْخَاصَّةُ بِالشُّرُوطِ الصُّورِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِصَدَقِ الرُّمُوزِ، أَيْ بِإِحَالَةِ الرُّمُوزِ عَلَى مَوْضُوعَاتِهَا. وَبَعْدَ جِهِنٍ، لَمَّا أَدْرَكْتُ أَنَّ الْعِلْمَ يَكْمُنُ فِي الْبَحْثِ لَا فِي 'التَّعَالِيمِ' - ذَلِكَ بِأَنَّنِي تَارِيخَ الْكَلِمَاتِ، لَا تَأْصِيلَهَا etymology، هُوَ الْبِفَتْاحُ لِمَعَانِيهَا، وَلَا سِيَّمًا فِي حَالَةِ الْكَلِمَاتِ الْمُشْبَعَةِ بِفِكْرَةِ التَّقَدُّمِ كَالْعِلْمِ، وَحِينَ أَدْرَكْتُ تَبَعًا لِذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ حُطُوطُ التَّحْدِيدِ lines of demarcation وَسَطَ مَا نُسَبِّهُ عُلُومًا، نَظَرًا إِلَى التَّمَوُّ الْمُتَسَارِعِ لِلْعُلُومِ وَامْكَانِ الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْاِكْتِشَافَاتِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، تِلْكَ الْحُطُوطُ لِلتَّحْدِيدِ الَّتِي لَيْسَ فِي وَسْعِهَا إِلَّا أَنْ تُمَثَّلَ الْفَوَاصِلُ بَيْنَ مَجْمُوعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الرُّجَالِ الَّذِينَ يَبْذِلُونَ أَعْمَارَهُمْ فِي سَبِيلِ تَقَدُّمِ مُخْتَلِفِ الدِّرَاسَاتِ، رَأَيْتُ أَنَّ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَى اِكْتِشَافِ الصُّدْقِي بِشَأْنِ الْإِحَالَةِ الْعَامَّةِ لِلرُّمُوزِ عَلَى مَوْضُوعَاتِهَا سَيُضْطَرُّونَ، زَمَنًا طَوِيلًا، إِلَى أَنْ يَبْحَثُوا كَذَلِكَ فِي إِحَالَتِهَا عَلَى عَوَائِلِهَا الْمُؤَوَّلَةِ Interpretans، فَضْلًا عَنِ الْخَصَائِصِ الْآخَرَى لِلرُّمُوزِ، وَلَا يَقْتَصِرُ ذَلِكَ عَلَى الرُّمُوزِ وَحْدَهَا بَلْ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَصْنَافِ الْعَلَامَاتِ. فَعَلَى مُسْتَوَى الزَّمَنِ الْحَاضِرِ سَيَكُونُ مَنْ يُعِدُّ أَبْحَاثًا فِي إِحَالَةِ الرُّمُوزِ عَلَى مَوْضُوعَاتِهَا مُجَبَّرًا عَلَى إِعْدَادِ دِرَاسَاتٍ أُصِيلَتْ فِي جَمِيعِ فُرُوعِ النَّظَرِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْعَلَامَاتِ؛ فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أَنْ أَجْعَلَ عُنْوَانَ كِتَابِ الْمَنْطِقِ الَّذِي أَكْتُبُهُ 'الْمَنْطِقُ بِوَضْفِهِ السِّمِّيُوطِيْقَا'، لَوْلَا خَشْيَتِي مِنْ أَنْ يَقْتَرَضَ كُلُّ مَنْ يَطْرُقُ هَذَا الْعُنْوَانَ سَمْعُهُ أَنَّهُ تَرْجَمَةٌ لِلْعُنْوَانِ الْأَلْمَانِيِّ 'Logic, als Semeiotik dargestellt'، وَهَذَا مَا لَا يَنْسَجِمُ مَعَ خِلَافِي (الَّذِي يَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنْ أَنْ يَكُونَ أَزْدِرَاءً) لِلْمَنْطِقِ الْأَلْمَانِيِّ'. [الْمُتَرْجِمُ]

(26) اشْتَقَّ بِيرْسُ مُصْطَلَحَ (الْبَرَاغْمَاتِيكِيَّةِ) بَعْدَ تَوْشُّعِ الْبَرَاغْمَاتِيِّينَ، وَلَا سِيَّمًا وِلْيَمِ جِينْسَ، فِي اسْتِعْمَالِ الْمُصْطَلَحِ الْأَصْلِيِّ (الْبَرَاغْمَاتِيَّةِ) الَّذِي كَانَ بِيرْسُ قَدْ اشْتَقَّهُ مِنْ كَلِمَةٍ يُونَانِيَّةٍ قَدِيمَةٍ حَتَّى يَضْمَبُ تَدَاوُلَهُ إِلَّا فِي مَا يُرِيدُهُ هُوَ لَهُ. [الْمُتَرْجِمُ]

وَقَدْ نَصَّ هُنَاكَ عَلَى أَنَّ الْعَلَامَةَ "لَهَا مَوْضُوعٌ" *Object* (27) وَعَامِلٌ مُؤَوَّلٌ *Interpretant*، وَهَذَا الْآخِرُ هُوَ مَا تُنْشِئُهُ الْعَلَامَةُ فِي الْعَقْلِ التَّقْرِيْبِيِّ أَيْ الْمُؤَوَّلِ *Interpreter* بِوَسَاطَةِ تَحْدِيدِ الْآخِرِ بِشُعُورٍ، أَوْ مُمَارَسَةٍ، أَوْ عِلَامَةٍ، يَكُونُ تَحْدِيدُهَا هُوَ الْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ. لَكِنْ يَبْقَى أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ ثَمَّةَ مَوْضُوعَيْنِ عَادَةً، وَأَكْثَرَ مِنْ عَامِلَيْنِ مُؤَوَّلَيْنِ اثْنَيْنِ. أَيْ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّزَ الْمَوْضُوعَ الْمُبَاشِرَ *Immediate Object*، وَهُوَ الْمَوْضُوعُ كَمَا تُمَثِّلُهُ الْعَلَامَةُ نَفْسُهَا الَّذِي بِذَلِكَ يَعْتَمِدُ وُجُودُهُ عَلَى تَمَثُّلِهِ فِي الْعَلَامَةِ، مِنْ الْمَوْضُوعِ الدَّائِنِمِيكِيِّ *Dynamical Object*، وَهُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي يَحْتَالُ بِطَرِيقَةٍ مَا لِتَحْدِيدِ الْعَلَامَةِ لِتَمَثُّلِهَا. أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ فَعَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّزَ، عَلَى نَحْوِ مُمَائِلٍ، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الْمُبَاشِرَ *Immediate Interpretant*، وَهُوَ الْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ كَمَا يُكْشَفُ عَنْهُ فِي الْفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلْعَلَامَةِ نَفْسِهَا وَيُسَمَّى عَادَةً "مَعْنَى" الْعَلَامَةِ، فِي حِينِ أَنَّ عَلَيْنَا فِي الْمَقَامِ الثَّانِي أَنْ نَلْحَظَ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الدَّائِنِمِيكِيِّ *Dynamical Interpretant*، وَهُوَ الْأَثَرُ الْفِعْلِيُّ الَّذِي تُحَدِّدُهُ الْعَلَامَةُ حَقًّا بِوَصْفِهَا عِلَامَةً. وَآخِرًا، هُنَاكَ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ مُؤَقَّتًا اسْمَ الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ النَّهَائِيِّ *Final Interpretant*، وَهُوَ يُحِيلُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَمِيلُ الْعَلَامَةُ إِلَى تَمَثُّلِ نَفْسِهَا بِهَا لِتُنْسَبَ إِلَى مَوْضُوعِهَا. وَأَنَا أَقِرُّ بِأَنَّ

(27) الْمَوْضُوعُ عِنْدَ بِيرْسِ هُوَ مَا يُمَثِّلُهُ الشَّكْلُ الْمُمَثَّلُ (الْمَاثُولُ)، سَوَاءَ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ الْمُمَثَّلُ وَاقِعِيًّا، أَوْ مُتَخَيَّلًا، أَوْ قَابِلًا لِلتَّخَيُّلِ، أَوْ لَا يُمَكِّنُ تَخَيُّلَهُ الْبَتَّةَ. وَمَوْضُوعُ الْعَلَامَةِ عِنْدَهُ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تَقْتَرِضُهَا الْعَلَامَةُ كَيْ تَأْتِيَ بِمَعْلُومَاتٍ إِضَافِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ. وَيُمَيِّزُ بِيرْسُ صِنْفَيْنِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ: الْمَعْرِفَةُ الْمُبَاشِرَةُ، وَالْمَعْرِفَةُ غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ؛ فَالْمَعْرِفَةُ الْمُبَاشِرَةُ هِيَ الْمُعْطَاةُ مِنْ خِلَالِ الْفِعْلِ الْمُبَاشِرِ لِلْعَلَامَةِ؛ أَمَّا غَيْرُ الْمُبَاشِرَةِ فَالَّتِي تُدْرِكُ مِنْ طَرِيقِ مَا هُوَ مُفْتَرَضٌ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ الْبَعِيدِ لِلْعَلَامَةِ. وَيُطْلَقُ بِيرْسُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ الْأُولَى اسْمَ (الْمَوْضُوعِ الْمُبَاشِرِ)، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَيُسَمِّيَهَا (الْمَوْضُوعَ الدَّائِنِمِيكِيَّ). فَالْمَوْضُوعُ الْأَوَّلُ مُعْطَى مِنْ خِلَالِ الْعَلَامَةِ مُبَاشَرَةً، أَمَّا الثَّانِي فَهُوَ حَصِيلَةٌ لِسِرُورَةٍ سِمِيَّائِيَّةٍ يُسَمِّيَهَا بِيرْسُ التَّجَرُّبَةَ الضَّمْنِيَّةَ. مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُنَا: شَجَرَةٌ طَوِيلَةٌ؛ فَالْمَوْضُوعُ الْمُبَاشِرُ هُوَ وَصْفُ الشَّجَرَةِ بِالطُّوْلِ، وَهُوَ أَمْرٌ يُدْرِكُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِاللُّغَةِ، أَمَّا دَلَالَةُ الشَّجَرَةِ عَلَى الْخَضْبِ أَوْ الْجَنْسِ أَوْ الْوَطَنِ أَوْ الدِّينِ أَوْ أَيِّ مَضْمُونٍ آخَرَ فَأَمْرٌ يَطْلُبُ مَعْرِفَةً لِلتَّفَاقُفِ الَّتِي تُصَاغُ فِيهَا هَذِهِ الْعِبَارَةُ. [الْمُتَرْجِمُ]

تَصَوُّرِي لِهَذَا الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ الثَّالِثِ مَا زَالَ يَكْتَفُهُ بَعْضُ الْعُمُوسِ* .

ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِحَالَةٌ عَلَى "التَّقْسِيمَاتِ الْعَشْرَةِ لِلْعَلَامَاتِ الَّتِي بَدَأَ لِي أَنَّهَا تَقْتَضِي أَنْ أَدْرُسَهَا دِرَاسَةً خَاصَّةً. ثَلَاثَةٌ مِنْهَا تَتَعَلَّقُ بِخَصَائِصِ الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ، وَثَلَاثَةٌ بِخَصَائِصِ الْمَوْضُوعِ. وَهَكَذَا فَإِنَّ التَّقْسِيمَ عَلَى آيَقُونَاتِ Icons⁽²⁸⁾، وَمُؤَشِّرَاتِ Indices⁽²⁹⁾، وَرُمُوزِ Symbols⁽³⁰⁾، يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَلَاqَاتِ الْمُمَكِّنَةِ الْمُخْتَلَفَةِ لِلْعَلَامَةِ بِمَوْضُوعِهَا الدَّائِنِمِكِيِّ* . وَثَمَّةُ عَلَامَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ الْعَلَامَةِ نَفْسِهَا، يُوضِّحُهَا كَلَامُهُ الْآتِي :-

"إِنَّ الْمَنْحَى الْعَامَّ فِي تَقْدِيرِ حَجْمِ الْمَوْضُوعِ فِي مَخْطُوطٍ أَوْ فِي كِتَابٍ مَطْبُوعٍ يَكُونُ بِإِحْصَاءِ عَدَدِ الْكَلِمَاتِ. وَفِي الْعَادَةِ أَنْ يَبْلُغَ مَجْمُوعُ ذَلِكَ نَحْوَ عَشْرِينَ 'thes' فِي الصَّفْحَةِ الْوَاحِدَةِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا تُمَثِّلُ عَشْرِينَ كَلِمَةً. عَلَى أَنَّهُ يَمْنَحِي آخَرَ لِكَلِمَةٍ 'كَلِمَةً' لَا يُوْجَدُ غَيْرُ 'the' وَاحِدَةٍ فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَمُحَالٌ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مَرْتِيَّةً فِي صَفْحَةٍ مَا، أَوْ أَنْ

(28) الْآيَقُونَةُ: هِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْمَاثُولِ وَالْمَوْضُوعِ عِلَاقَةً تَشَابُهِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، فَهِيَ تَذُلُّ عَلَى مَوْضُوعِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَرْسُمُهُ أَوْ تُحَاكِيهِ. وَهِيَ عِلَاقَةُ تَحْيِيلِيَّةٌ؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ فَهْمُ الْآيَقُونَةِ مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ حَدَثَ وَعْيٌ مِنْ قَبْلُ لِنَظِيرِهَا الْمَشَابِهِ لَهَا، كَالصُّوْرَةِ الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ؛ فَهِيَ وَرَقَةٌ مَطْبُوعَةٌ (دَالٌّ) تُحِيلُ عَلَى شَخْصٍ مَا (مَوْضُوعٍ) عَلَى وَفْقِ مَبْدَأِ التَّشَابُهِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(29) الْمُؤَشِّرُ: هُوَ الْعَلَامَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْمَاثُولِ وَالْمَوْضُوعِ عِلَاقَةً سَبَبِيَّةً مُنَطَقِيَّةً، فَهِيَ تَخْتَصُّ بِعِلَاقَةِ الْمُجَاوِزَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَوْضُوعِ، وَهِيَ ذَاتُ طَائِعٍ بَصَرِيٍّ فِي مُجْمَلِهَا، كَارْتِبَاطِ الدُّخَانِ بِالنَّارِ، أَوِ الْأَعْرَاضِ الطَّبِيبِيَّةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى وُجُودِ عِلَّةٍ عِنْدَ الْمَرِيضِ، وَالْآثَارِ الَّتِي نَرَاهَا عَلَى الرَّمَالِ وَالَّتِي تَذُلُّ عَلَى مُرُورِ أَنْاسٍ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ. وَتَسْتَعِيرُ هَذِهِ الْعَلَامَةُ اسْمَهَا عِنْدَ بِيرْسٍ مِنَ السَّبَابَةِ الَّتِي تُحِيلُ عَلَى الْمُشَارِ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِ التَّجَاوُرِ الطَّبِيعِيِّ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(30) الرَّمْزُ: هُوَ الْعَلَامَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْمَاثُولِ وَالْمَوْضُوعِ عِلَاقَةً عُرْفِيَّةً؛ فَلَيْسَ بَيْنَهُمَا تَشَابُهُ، أَوْ صِلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، أَوْ تَجَاوُرٌ، كَارْتِبَاطِ الْحَمَامَةِ الْبَيْضَاءِ بِالسَّلَامِ، وَالشَّمْسِ بِالْحَرَرَةِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

تَكُونُ مَسْمُوعَةً فِي صَوْتٍ مَا؛ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ شَيْئًا مُفْرَدًا أَوْ حَدَثًا مُفْرَدًا. إِنَّهَا لَا وُجُودَ لَهَا؛ إِنَّهَا [280] تُحَدِّدُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَهَا وُجُودٌ، فَحَسْبُ. وَاقْتَرَحُ إِطْلَاقَ اسْمِ نَمَطِ *Type*⁽³¹⁾ عَلَى هَذِهِ الصِّغَةِ الدَّالَّةِ الْمُحَدَّدَةِ. وَسَأُغَايِرُ فَأُطْلِقُ اسْمَ الْأَمَارَةِ *Token*⁽³²⁾ عَلَى حَدَثٍ مُفْرَدٍ يَحْدُثُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَتُحَدِّدُ هُوِيَّتَهُ بِذَلِكَ الْحَدَثِ الْوَحِيدِ، أَوْ عَلَى مَوْضُوعٍ مُفْرَدٍ لَشَيْءٍ مَا فِي مَكَانٍ مَا مُفْرَدٍ فِي لَحْظَةٍ مَا زَمَنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ مِثْلُ هَذَا الْحَدَثِ دَالًّا إِلَّا بِحُدُوثِهِ فِي زَمَنِ حُدُوثِهِ وَمَكَانِهِ، مِثْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَوْ تِلْكَ فِي سَطْرِ مُفْرَدٍ فِي صَفْحَةٍ مُفْرَدَةٍ فِي نُسَخَةٍ كِتَابٍ مُفْرَدَةٍ. أَمَّا الْخَصِيصَةُ الدَّالَّةُ غَيْرُ الْمُحَدَّدَةِ مِثْلُ نَعْمَةِ الصَّوْتِ، فَمِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ تَسْمِيَتِهَا نَمَطًا وَلَا أَمَارَةً، لِذَا اقْتَرَحُ تَسْمِيَتَهَا طَابَعًا *Tone*⁽³³⁾. وَمِنْ أَجْلِ إِمْكَانِ اسْتِعْمَالِ النَّمَطِ يَنْبَغِي أَنْ يُجَسَّدَ فِي أَمَارَةٍ تَكُونُ عَلَامَةً لِلنَّمَطِ، وَمِنْ ثَمَّ لِلْمَوْضُوعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّمَطُ. وَأَنَا اقْتَرَحُ أَنْ تُسَمَّى هَذِهِ الْأَمَارَةُ لِلنَّمَطِ مِثَالِ النَّمَطِ. بِذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ نَحْصَلَ عَلَى عَشْرِينَ مِثَالًا لِلنَّمَطِ 'the' فِي الصَّفْحَةِ".

وَكَانَ مَبْعَثُ اهْتِمَامٍ بِيرِسَ الْخَاصُّ بِالتَّمْيِيزَاتِ الْمُسَمَّاءِ عَلَى النُّحُوِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا إِسْهَامُهَا فِي الْإِيضَاحِ وَالتَّطْوِيرِ لِإِنْشَاءِ الْأَخْطُوطَاتِ الْوُجُودِيَّةِ *Existential Graphs*⁽³⁴⁾، الَّتِي عَلَى وَفْقِهَا تُجَهَّزُ الْمُحَظَّطَاتُ "لِتَجَرَّبَ عَلَيْهَا، فِي

(31) النَّمَطُ يُسَاوِي الْعَلَامَةَ الْقَانُونِيَّةَ عِنْدَ بِيرِسَ، وَسَيَانِي إِضَاحُهَا. وَيَخْتَصُّ إِحْصَاءُ عَدَدِ الْأَنْمَاطِ عِنْدَ بِيرِسَ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَلِمَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَيِّ مِنَ النُّصُوصِ، بِتَحْدِيدِ عَدَدِ الْكَلِمَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي النَّصِّ، مُغْفِلًا أَيَّ تَكَرُّارٍ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ. [المُتَرَجِّم]

(32) الْأَمَارَةُ تُسَاوِي الْعَلَامَةَ الْعَيْنِيَّةَ عِنْدَ بِيرِسَ، وَسَيَانِي إِضَاحُهَا. وَيَخْتَصُّ إِحْصَاءُ الْأَمَارَاتِ عِنْدَ بِيرِسَ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَلِمَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَيِّ مِنَ النُّصُوصِ، بِتَحْدِيدِ الْعَدَدِ الْإِجْمَالِيِّ لِلْكَلِمَاتِ، بِصَرَفِ النَّظَرِ عَنْ أَنْوَاعِهَا وَأَنْمَاطِهَا. [المُتَرَجِّم]

(33) الْقَطَائِعُ يُسَاوِي الْعَلَامَةَ الْكَيْفِيَّةَ عِنْدَ بِيرِسَ، وَسَيَانِي إِضَاحُهَا. وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ ذِكْرُ الْقَطَائِعِ فِي هَذِهِ الْقِسْمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ لِلْعَلَامَةِ عِنْدَ بِيرِسَ، وَكُنْتُ عَلَى النَّصِّ عَلَى النَّمَطِ وَالْأَمَارَةِ. [المُتَرَجِّم]

(34) الْأَخْطُوطُ الْوُجُودِيُّ: نَمَطٌ مِنَ التَّمثيلِ الْيَاقِينِي التَّخْطِيطِي أَوْ الْبَصَرِيِّ لِلتَّعْبِيرَاتِ الْمُنطِقِيَّةِ، =

حَلْ أَكْثَرِ مُعْضَلَاتِ الْمَنْطِقِ صُعُوبَةً". وَيَقُولُ: "عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُحَظَّظَ لَهُ، فِي الْعَادَةِ، سِمَاتٌ رَمْزِيَّةٌ هُوَ فِي جُمْلَتِهِ أَيْقُونَةٌ فِي صُورٍ عِلَاقَاتٍ فِي بَنِيَّةٍ مَوْضُوعِيَّهَا". وَيُمْكِنُ التَّعْبِيرُ بِالصُّطْلَحِ نَفْسِهِ فَيُقَالُ إِنَّ آثَارَ الْأَقْدَامِ الَّتِي وَجَدَهَا كروسو Crusoe فِي الرُّمَالِ "كَانَتْ مُؤَشِّرًا Index لَهُ عَلَى وُجُودِ مَخْلُوقٍ مَا، فِي حِينِ أَنَّهَا بِوصفِهَا رَمَزًا اسْتَدَعَتْ فِكْرَةَ رَجُلٍ مَا". وَبِشَأْنِ الْمَادَّةِ الْمُعَادِ إِتِنَاجُهَا هُنَا نَحْنُ غَيْرُ مُعْنِيَيْنِ بِالتَّطْبِيقَاتِ الْخَاصَّةِ الَّتِي اضْطَلَعَ بِهَا مُؤَلِّفُهَا فِي نَظَرِيَّتِهِ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِ الْمُتَوَاصِلِ عَلَى الطَّبِيعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ لِيَحِثَّهُ وَرَغْبَتِهِ فِي تَجَنُّبِ عِلْمِ النَّفْسِ يُمَكِّنُ أَنْ يُذَكِّرَ هُنَا الْمَزِيدَ مِنَ التَّقْسِيمَاتِ الثَّلَاثِيَّةِ⁽³⁵⁾ الَّتِي تَسْتَقْطِبُ الْاهْتِمَامَ الْعَامَّ. فَقَدْ عَرَفَ الْمَنْطِقُ *Logic* فِي مَقَالَةٍ لَهُ فِي دَوْرِيَّةِ *Monist* (Vol. VII., 1896-7, p. 25) بِوصْفِهِ يَتَعَامَلُ مَعَ قَضِيَّةِ "الشُّرُوطِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُطَوَّقَ لَهَا التَّقْرِيرُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُنَاطَرَ 'الْوَاقِعُ'؛ وَكَانَ دَنْزَرْ سَكُوتَس Duns Scotus⁽³⁶⁾ قَدْ أَطْلَقَ هُوَ أَيْضًا اسْمَ النَّحْوِ التَّائِمِلِيِّ *Speculative Grammar* عَلَى "دِرَاسَةِ خَوَاصِّ الِاعْتِقَادَاتِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا بِوصفِهَا اعْتِقَادَاتٍ؛ أَمَّا ثَالِثًا فَإِنَّ "دِرَاسَةَ تِلْكَ الشُّرُوطِ الْعَامَّةِ الَّتِي فِي

= اقْتَرَحَهُ بِيرْسُ الَّذِي كَتَبَ فِي مَنْطِقِ الْأَخْطُوطَاتِ مُبَكَّرًا مِنْذُ سَنَةِ 1882، وَوَضَلَ تَطْوِيرَ هَذَا الْمَنْهَجِ حَتَّى وَفَاتِهِ سَنَةَ 1914. وَقَدْ اقْتَرَحَ بِيرْسُ ثَلَاثَةَ أَنْظِمَةٍ مِنَ الْأَخْطُوطَاتِ الْوُجُودِيَّةِ، هِيَ: الْأَلْفَا، وَالْبِيْنَا، وَالْغَامَا. [الْمُتَرْجِمُ]

(35) "يَبْدُو أَنَّ كُلَّ مَا يُشَكِّلُ صِفَةً مُمَيَّزَةً لِلطَّبِيعَةِ الثَّلَاثِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْعَلَامَةِ يَكُونُ خَاصِيًا لِلْقِسْمَةِ الثَّلَاثِيَّةِ".

(36) جُونُ دَنْزَرْ سَكُوتَس (1266-1308م). وُلِدَ فِي اسْكُوتْلَنْدَا، وَالتَّحَقَّقَ بِالرَّهْبَنِ الْفِرَانْسِيكِيِّ، وَدَرَسَ فِي أَوْكْسْفُورْدَ وَبَارِيَسَ. يُعَدُّ أَحَدَ أَهَمِّ ثَلَاثَةِ فَلَاسِفَةِ لَاهُوتِيَيْنِ فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى الْمُتَوَسِّطَةِ. وَكَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَالْفِكْرِ الْعِلْمَانِيِّ. مِنَ الْمَعْتَقَدَاتِ الَّتِي اشتهَرَتْ بِهَا أَحَادِيثُهُ تَسْمِيَةُ الْكَائِنَاتِ، الَّتِي تُفِيدُ أَنَّ الْوُجُودَ هُوَ أَكْثَرُ الْمَفَاهِيمِ الْمَجْرُودَةِ لَدَيْنَا، وَيُمْكِنُ تَطْبِيقُهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَوْجُودٍ؛ وَالتَّمْيِيزُ الشَّكْلِيُّ، وَهُوَ طَرِيقَةٌ لِتَمْيِيزِ الْجَوَانِبِ الْمُخْتَلَفَةِ لِلشَّيْءِ نَفْسِهِ؛ وَفِكْرَةُ الْمَاهِيَّةِ، وَهِيَ الْخَاصِيَّةُ الْمُفْتَرَضُ وَجُودُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ فَرْدِيٍّ يَجْعَلُهُ فَرْدِيًّا. وَأَسْهَبَ سَكُوتَسُ أَيْضًا فِي مُنَاقَشَةِ مَعْقَدَةِ لَوْجُودِ اللَّهِ. وَقَدْ مُنِحَ وَسَامُ الْعُصُورِ الْوُسْطَى (الدُّكْتُورُ الْبَارِعُ)، لِنَهْجِهِ الدَّقِيقِ وَالْبَارِعِ فِي الْفِكْرِ. مِنْ آثَارِهِ الْفَلَسَفِيَّةِ: الْمَذْكُرَاتُ الْبَارِيئِيَّةُ، وَمَسَائِلُ فِي مِيتافِزِيكَا أَرِسْطُو، وَرِسَالَةُ فِي النَّفْسِ. [الْمُتَرْجِمُ]

صَوْنَهَا تُقَدِّمُ الْمُسْكِلةَ نَفْسَهَا لِلْحَلِّ، ثُمَّ الَّتِي فِي صَوْنِهَا يَقُودُ أَحَدُ التَّسَاوُلَاتِ إِلَى الْآخِرِ " تَظْهَرُ بِوَصْفِهَا بِلَاغَةً كُليَّةً *Universal Rhetoric*. وَنَجِدُ فِي مَا كَتَبَهُ إِلَى اللَّيْدِي وَيَلْبِي تَعْلِيْقًا لَهُ مَفَادُهُ أَنَّ الـ 'Significs'، وَهُوَ الْمُصْطَلَحُ الَّذِي اسْتَعْمَلْتُهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ دِرَاسَةِ الْمَعْنَى، "يُنْمِ اسْمُهُ عَلَى أَنَّهُ ذَلِكَ الْفَرْعُ مِنَ السِّمِّيوطيقَا الَّذِي يَبْحَثُ فِي عِلَاقَةِ الْعَلَامَاتِ بِالْعَوَامِلِ الْمُؤَوَّلَةِ (الَّذِي [281] كُنْتُ فِي سَنَةِ 1867 قَدْ اقْتَرَحْتُ لَهُ، بِوَصْفِهِ مَقْصُورًا عَلَى الرُّمُوزِ، اسْمَ الْبِلَاغَةِ الْكُليَّةِ)". وَقَدْ حَثَّهَا حَثًا قَوِيًّا عَلَى إِعْدَادِ دِرَاسَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَنِ السِّمِّيوطيقَا وَعَنْ أَخْطُوطَاتِهِ ("أَرْجُو أَنْ تُعْطِيَ دِرَاسَةً عَنْ أَخْطُوطَاتِي الْوُجُودِيَّةِ؛ إِذْ إِنَّهَا، فِي رَأْيِي، تُنْبِئُ، عَلَى نَحْوِ رَانِعٍ جَدًّا، الْكَشْفَ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَالْمَنْهَجِ الصَّحِيحَيْنِ لِلتَّحْلِيلِ الْمَنْطِقِيِّ- أَيْ لِلتَّعْرِيفِ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ اكْتِشَافٌ كَيْفِيَّةٌ فِعْلُهَا لِذَلِكَ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ، إِلَى حِينِ كِتَابَةِ عَرْضِي لِذَلِكَ الْفَرْغِ")؛ وَفِي رِسَالَةٍ لَهُ كَتَبَهَا فِي سَنَةِ 1904، قَبْلَ مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ مِنْ نَشْرِ مَقَالَتِهِ الرَّئِيسَةِ فِي دَوْرِيَّةِ *Monist*، تَنَازَلَ تَصْنِيفَ الْعَلَامَاتِ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَسْطِ.

وَقَدْ قَدَّمَ لِمُلْحُوظَاتِهِ فِيهَا بِتَأْكِيدِهِ أَنَّ "لِلْعَلَامَةِ مَوْضُوعَيْنِ: مَوْضُوعَهَا كَمَا هُوَ مُمَثَّلٌ، وَمَوْضُوعَهَا فِي نَفْسِهِ. كَمَا أَنَّ لَهَا ثَلَاثَةَ عَوَامِلَ مُؤَوَّلَةٍ: عَامِلُهَا الْمُؤَوَّلُ كَمَا هُوَ مُمَثَّلٌ أَوْ كَمَا يُقْصَدُ أَنْ يُنْفَهَمَ، وَعَامِلُهَا الْمُؤَوَّلُ كَمَا هُوَ مُنْتَجَجٌ، وَعَامِلُهَا الْمُؤَوَّلُ فِي نَفْسِهِ". وَيُمْكِنُ أَنْ تُقَسِّمَ الْعَلَامَاتُ بِاعْتِبَارِ طَبِيعَتِهَا الْمَادِّيَّةِ الدَّائِيَّةِ، وَبِاعْتِبَارِ عِلَاقَاتِهَا بِمَوْضُوعَاتِهَا، وَبِاعْتِبَارِ عِلَاقَاتِهَا بِعَوَامِلِهَا الْمُؤَوَّلَةِ.

'فِبِاعْتِبَارِ نَفْسِهَا تَكُونُ الْعَلَامَةُ ذَاتَ طَبِيعَةٍ مَظْهَرِيَّةٍ، فِعْنَدَثِ اسْمُهَا عَلَامَةٌ كَيْفِيَّةٌ (نُوعِيَّةٌ) *qualisign* (37)؛ أَوْ تَكُونُ مَوْضُوعًا مُفْرَدًا أَوْ حَدَثًا مُفْرَدًا، فِعْنَدَثِ اسْمُهَا عَلَامَةٌ عَيْنِيَّةٌ (مُتَفَرِّدَةٌ) *sinsign* (38) (وَالْمَقْطَعُ *sin* هُوَ الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ

(37) حِينَ تَكُونُ الْعَلَامَةُ مُجَرَّدَ ظَاهِرَةٍ أَوْ كَيْفِيَّةٍ بَحْتَهُ تُسَمَّى عَلَامَةً كَيْفِيَّةً. فَكُلُّ قَوَامٍ مَادِّيٍّ لِلْعَلَامَةِ هُوَ كَيْفِيَّةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ الصِّفَاتِ الْجِسْمِيَّةِ كَالْأَلْوَانِ، وَالْأَنْعَامِ، وَالرَّوَانِحِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. [الْمُتَرْجِمُ]

(38) حِينَ تَكُونُ الْعَلَامَةُ شَيْئًا أَوْ حَدَثًا فَرْدِيًّا حَاصِلًا فِي الْخَارِجِ تُسَمَّى عَلَامَةً عَيْنِيَّةً. فَهَكَذَا مَثَلًا تُشَكِّلُ إِحْدَى الْكَلِمَاتِ فِي سَطْرِ مَا مِنْ صَفْحَةٍ كِتَابٍ مَخْصُوصٍ عَلَامَةً عَيْنِيَّةً، وَلَوْ وَجِدَتْ =

في Semel، singular، وما إلى ذلك)؛ أو تكون ذات طَبِيعَةٍ مِنْ نَمِطٍ عَامٍّ، وهي ما أَدْعُوهُ عَلَامَةً قَانُونِيَّةً (عُرْفِيَّةً) ⁽³⁹⁾ legisign. فَحِينَ نَسْتَعْمِلُ لَفْظَ 'كَلِمَةٍ' فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ، قَائِلِينَ إِنَّ 'the' 'كَلِمَةٍ' وَاحِدَةٌ، وَإِنَّ 'an' 'كَلِمَةٍ' ثَانِيَّةٌ، تَكُونُ 'الكَلِمَةُ' عَلَامَةً قَانُونِيَّةً (عُرْفِيَّةً). لَكِنْ حِينَ نَقُولُ عَنْ صَفْحَةٍ فِي كِتَابٍ إِنَّهَا تَشْتَبِلُ عَلَى مِثْلَيْنِ وَخَمْسِينَ 'كَلِمَةً'، مِنْ ضَمَنِهَا عِشْرُونَ هِيَ 'thes'، تَكُونُ 'الكَلِمَةُ' عَلَامَةً عَيْنِيَّةً (مُفْرَدَةً). وَعِنْدَ تَجْسِيدِ الْعَلَامَةِ الْعَيْنِيَّةِ الْعَلَامَةِ الْقَانُونِيَّةِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ أَسْمُهَا نُسخَةٌ مُطَابِقَةٌ replica لِلْعَلَامَةِ الْقَانُونِيَّةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَلَامَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْعَلَامَةِ الْكَيْفِيَّةِ، عِلْمًا بِأَنَّ كِلَيْتَهُمَا لَيْسَتْ شَيْئًا مُفْرَدًا، هُوَ أَنَّ الْعَلَامَةَ الْقَانُونِيَّةَ لَهَا هُويَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ تَسْمَحُ فِي الْعَادَةِ بِتَنَوُّعٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَظَاهِرِ. وَبِذَلِكَ يَكُونُ &، and، وَالصُّوْتُ جَمِيعًا كَلِمَةً وَاحِدَةً. فِي حِينِ أَنَّ الْعَلَامَةَ الْكَيْفِيَّةَ لَيْسَتْ لَهَا هُويَّةٌ. إِنَّهَا مُجَرَّدُ صِفَةٍ لِمَظْهَرٍ مَا، وَلَا تَكُونُ الصِّفَةُ نَفْسَهَا تَمَامًا مَعَ مَظْهَرٍ ثَانٍ. وَلَهَا، بَدَلًا مِنَ الْهُويَّةِ، مُشَابَهَةٌ كَبِيرَةٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَخْتَلِفَ كَثِيرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُسَمَّى عَلَامَةً كَيْفِيَّةً مُخْتَلِفَةً تَمَامًا.

أَمَّا تَقْسِيمَاتُهُ الرَّئِيسَةُ الْأُخْرَى لِلْعَلَامَاتِ فَيَسْرُحُهَا بِقَوْلِهِ: "بِاعْتِبَارِ عِلَاقَاتِ الْعَلَامَاتِ بِمَوْضُوعَاتِهَا الدَّائِنِمِيكِيَّةِ أَقْسِمُهَا عَلَى آيَقُونَاتٍ، وَمُؤَشِّرَاتٍ، وَرُمُوزٍ (وهي قِسْمَةٌ كُنْتُ قَدْ قَدَّمْتُهَا فِي سَنَةِ 1867). وَأَنَا أَعْرِفُ الْآيَقُونَةَ بِأَنَّهَا عَلَامَةٌ يُحَدِّدُهَا مَوْضُوعُهَا الدَّائِنِمِيكِيُّ بِمُقْتَضَى طَبِيعَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ. مِثَالُ ذَلِكَ آيَةُ عَلَامَةِ كَيْفِيَّةٍ مِثْلُ الرُّوْيَةِ، أَوِ الْعَاطِفَةِ الَّتِي تَهْيِجُهَا مَقْطُوعَةٌ [282] مُوسِيقِيَّةٌ تُعَدُّ مُثَمِّلَةً لِمَا قَصَدَ بِهَا مُؤَلِّفُهَا. وَمِثَالُ ذَلِكَ عَلَامَةٌ عَيْنِيَّةٌ مِثْلُ مُحْطَطٍ مُفْرَدٍ، كَأَنَّ يَكُونُ مُنْحَنَى

= أَلْفَافُ النُّسخِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. وَكَذَلِكَ كُلُّ نَصِيَّةٍ إِشَارَةٍ ضَوْئِيَّةٍ هِيَ فِي مَكَانِهَا عَلَامَةٌ، مَهْمَا تَكَرَّرَتْ هَذِهِ النِّصْبُ فِي شَارِعٍ مَا. [المُتَرَجِّم]

(39) حِينَ تَكُونُ الْعَلَامَةُ ذاتَ طَبِيعَةٍ عَامَّةٍ تُسَمَّى عَلَامَةً قَانُونِيَّةً. وَهِيَ، خِلَافًا لِلْكَيْفِيَّةِ وَالْعَيْنِيَّةِ، لَا تَرْتَبِطُ بِتَحْقِيقِ مَخْصُوصٍ لَهَا، بَلْ تَبْقَى هِيَ نَفْسُهَا فِي جَمِيعِ تَجَلِّيَّاتِهَا. فَكَلِمَةُ (بَيْتٍ) مِثَالًا هِيَ عَلَامَةٌ قَانُونِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، بِقَضِ النَّظَرِ عَنْ تَعَدُّدِ لَفِظِهَا أَوْ كِتَابَتِهَا. وَمِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ: أَلْفَاظُ اللُّغَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالرُّمُوزُ الرِّيَاضِيَّةُ وَالْكِيمِيَاةُ، وَغَلَامَاتُ السَّيْرِ. وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَبَيَّنَ مِمَّا مَضَى أَنَّ الْعَلَامَةَ الْعَيْنِيَّةَ لَيْسَتْ سِوَى تَحْقِيقِ فَرْدِيٍّ لِلْعَلَامَةِ الْقَانُونِيَّةِ. [المُتَرَجِّم]

لتوزيع الأغلاط. وأُعرِفَ المؤسَّرُ بِأنَّه علامةٌ يُحدِّدُها موضوعُها الدائِمِيكيُّ بِمُقْتَضَى كَوْنِهَا على عَلاقَةٍ وإِقْعِيَّةٍ بِهِ. مثال ذلك اسمُ العَلمِ (علامةٌ قانونيَّةٌ)، وُحدوثُ عَرَضٍ ما لِمَرَضٍ ما (العَرَضُ نَفْسُهُ علامةٌ قانونيَّةٌ، وهو نَمَطٌ عامٌ لَهُ خَصِيصَةٌ مُخْتَلِفَةٌ. أمَّا الُحدوثُ في حالةٍ مَخْصُوصَةٍ فَعَلامةٌ عَيْنِيَّةٌ). وأُعرِفَ الرَّمزُ بِأنَّه علامةٌ لا يُحدِّدُها موضوعُها الدائِمِيكيُّ إِلَّا على الوَجهِ الذي تُؤوِّلُ على وَفْقِهِ. فَبِذلك يَكُونُ اعْتِمادُها على عَرَفٍ، أو على عَادَةٍ⁽⁴⁰⁾، أو على تَخْلُصٍ طَبِيعِيٍّ مِنْ عَامِلِهَا الْمُؤَوِّلِ أو مِنْ مِيدَانٍ عَامِلِهَا الْمُؤَوِّلِ (الذي يَكُونُ العَامِلُ الْمُؤَوِّلُ مُحَدِّدًا لَهُ). وكلُّ رَمَزٍ هُوَ، بِالضَّرُورَةِ، علامةٌ قانونيَّةٌ؛ إذ لا دِقَّةٌ في تَسْمِيَةِ نُسَخَةٍ مِنْ عَلامَةٍ قانونيَّةٍ رَمَزًا".

وَمُمكِنُ أَنْ تَكُونَ العَلامَةُ، بِاعتِبَارِ موضوعِها المُباشِرِ، علامةً صِفَةً⁽⁴¹⁾، أو حَقِيقَةً⁽⁴²⁾، أو قانونٍ⁽⁴³⁾؛ أمَّا بِاعتِبَارِ عَلاقَتِها بِعامِلِهَا الْمُؤَوِّلِ المَدلولِ عليه فيقالُ إنَّها تَكُونُ تَصَوُّرًا Rheme⁽⁴⁴⁾، أو تَصْدِيقًا Dicent⁽⁴⁵⁾، أو حُجَّةً Argument⁽⁴⁶⁾.

(40) جاء في مقالتي في دَوْرِيَّةِ Monist (1906): "الرَّمزُ يُنْشِئُ العَادَةَ، وَمُمكِنُ الاستِغناءُ عَنْهُ عِنْدَ تَطْبِيقِ آيَةٍ عَادَةٍ عَقْلِيَّةٍ فِي الأَقْل". (ص 495). وكذلك: "لَيْسَ فِي وَسْعِ الرُّمُوزِ الخَالِصَةِ تَمَامًا أَنْ تَذَلَّ إِلَّا على الأشياءِ المألوفةِ، ولا تَذَلَّ على هَذِهِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الذي تَكُونُ بِهِ مألوفةً".

(41) هِيَ الخَاصَّةُ بِالتَّصَوُّرِ، وسَيأتي الكَلامُ عليه. [المُترجم]

(42) هِيَ الخَاصَّةُ بِالتَّصْدِيقِ، وسَيأتي الكَلامُ عليه. [المُترجم]

(43) هُوَ الخَاصُّ بِالْحُجَّةِ، وسَيأتي الكَلامُ عليها. [المُترجم]

(44) التَّصَوُّرُ: كُلُّ عَلامَةٍ مُفَرَّدَةٍ أو مُرَكَّبَةٍ لا تَصْلُحُ لَأَنْ تَكُونَ حُكْمًا بَلْ تَكُونَ حَدًّا فِي الحُكْمِ فَحَسْبُ. فَهِيَ مِنْ ثَمَّ لا تَحْتَمِلُ الصَّدَقَ ولا الكَذِبَ. مِنْ ذَلِكَ المَحْمُولَاتُ البَسيطةُ مِثْلُ (أَسْمَر)، والمَحْمُولَاتُ المُرَكَّبَةُ مِثْلُ (طَوِيلُ الشَّعْرِ). [المُترجم]

(45) التَّصْدِيقُ: كُلُّ عَلامَةٍ قَابِلَةٍ لِلْحُكْمِ، أَيْ تَقْبَلُ الصَّدَقَ أو الكَذِبَ. فَهِيَ بِهَذَا المَعْنَى مُرَكَّبٌ يَصِيحُ السُّكُوثُ عليه. [المُترجم]

(46) الحُجَّةُ: تَأْلِيفٌ مِنَ العَلامَاتِ لا يَتَعَلَّقُ بِسِوَى القَوَاعِدِ. وَهِيَ أَكْمَلُ العَلامَاتِ؛ فَمِنْ حَيْثُ البِنْيَةُ تُعَدُّ الحُجَّةُ صَحِيحَةً، أَيْ دائِمَةً الصَّدَقِ. وَمِثَالُ الحُجَجِ الأَفِيسَةُ المنطَقيَّةُ، نَحْوُ: (أ) هُوَ (ب)، و(ب) هُوَ (ج)، إِذَنْ (أ) هُوَ (ج). [المُترجم]

وهذه القِسْمَةُ تُنَاطِرُ القِسْمَةَ القَدِيمَةَ عَلَى: حَدِّ Term، وَقَضِيَّةِ Proposition، وَحُجَّةِ Argument، لِكَيْهَا عُدَّتْ لِيُمْكِنَ تَطْبِيقُهَا عَلَى العَلَامَاتِ عُمُومًا. فَالْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ اسْمٌ نَوْعِ class-name أَوْ اسْمٌ عَلَمٍ. وَأَنَا لَا أَعُدُّ الاسْمَ العَامَّ common noun⁽⁴⁷⁾ أَحَدَ أَقْسَامِ الكَلَامِ الضَّرُورِيَّةِ ضَرُورَةً أُسَاسِيَّةً. فَالْحَقُّ أَنَّهُ لَمْ يَكْتَمِلْ تَطَوُّرُهُ بِوَصْفِهِ قِسْمًا مِنْ أَقْسَامِ الكَلَامِ إِلَّا فِي اللُّغَاتِ الْآرِيَّةِ Aryan⁽⁴⁸⁾ وَفِي لُغَةِ الباسك Basque⁽⁴⁹⁾ - وَرُبَّمَا فِي لُغَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ. وَهُوَ فِي اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ Semitic⁽⁵⁰⁾، عُمُومًا، فِعْلِيٌّ فِي شَكْلِهِ، وَعَادَةً مَا يَكُونُ فِعْلِيًّا فِي مَادَّتِهِ أَيْضًا⁽⁵¹⁾.

(47) الاسْمُ العَامُّ: هُوَ الاسْمُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى اسْمِ الْجِنْسِ لِلْأَشْيَاءِ أَوْ الْمَفَاهِيمِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اسْمِ شَخْصٍ أَوْ مُفْرَدٍ. وَالْأَسْمَاءُ الْعَامَّةُ قَدْ تَكُونُ أَسْمَاءً غَيْرَ مَعْدُودَةٍ أَوْ أَسْمَاءَ مَعَانٍ مِثْلَ (طَحِين) وَ(شَجَاعَةٌ)، أَوْ أَسْمَاءَ مَعْدُودَةٍ أَوْ اسْمَ وَحْدَةٍ قَابِلَةٍ لِلْجَمْعِ مِثْلَ (مِنْضَدَّة) وَ(صُنْدُوق). [المُتَرْجِم]

(48) اللُّغَاتُ الْآرِيَّةُ: هِيَ لُغَاتُ الْآرِيِّينَ الَّذِينَ شُعُوا بِهَذَا الاسْمِ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، وَهُمْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الشُّعُوبِ النَّاظِقَةِ بِاللُّغَاتِ الْهِنْدِيَّةِ-الْأُورُوبِيَّةِ؛ اعْتِمَادًا عَلَى وُجُودِ قَرَابَةٍ بَيْنَ تِلْكَ اللُّغَاتِ. لَكِنَّ مُصْطَلَحَ (آرِي) يُسْتَعْمَلُ الْيَوْمَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْفَرْعِ الشَّرْقِيِّ بِخَاصَّةٍ أَيْ الْهِنْدِي-الْإِيرَانِيٍّ مِنْ أَسَرَةِ اللُّغَاتِ الْهِنْدِيَّةِ-الْأُورُوبِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ مُصْطَلَحٌ لُغَوِيٌّ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَتَضَمَّنُ بِالضَّرُورَةِ خِصَاصَتَهُ إِثْنِيَّةً أَوْ عِرْقِيَّةً أَوْ ثَقَافِيَّةً أَوْ قَوْمِيَّةً مُحَدَّدَةً. [المُتَرْجِم]

(49) لُغَةُ الْبَاسْكَ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى أَسَرَةٍ لُغَوِيَّةٍ لَا يُعْرَفُ عَنْهَا الْكَثِيرُ، وَلَا يَزَالُ الْبَحْثُ عَنْ أَصْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ أَمْرًا غَيْرَ مُجْدٍ. وَمُعْظَمُ مُتَكَلِّمِي هَذِهِ اللُّغَةِ ثُنَاثِيُو اللُّغَةِ وَمَنْ يَتَكَلَّمُونَ، فَضْلًا عَنِ الْبَاسْكَ، اللُّغَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ أَوْ اللُّغَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ، وَهُمْ عُمُومًا يَقِطُنُونَ إِقْلِيمَ الْبَاسْكَ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِحُكْمٍ ذَاتِيٍّ وَيُضَمُّ الْمَقَاطِعَ الْإِسْبَانِيَّةَ الْمُسَمَّاةَ غِيوزوكوا وَجُزَاءَ مِنْ فُزَكَيَا وَجُزَاءَ مِنْ آلَافَا. وَيَعِيشُ بَعْضُ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْبَاسْكَ فِي الْمَنْطِقَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْجَزْءِ الْفَرَنْسِيِّ مِنَ الْبِيرِينَةِ. [المُتَرْجِم]

(50) اللُّغَاتُ السَّامِيَّةُ: تُعَدُّ مِنْ فُرُوعِ أَسَرَةِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ-الْحَامِيَّةِ، أَوْ مَا يُعْرَفُ بِاللُّغَاتِ الْإِفْرَوَاسِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ الْمَوْرُخُ الْأَلْمَانِيُّ أَوْغِسْتُ فُونْ شِلْتِسِر (1735-1809م) أَوَّلَ مَنْ اسْتَعْمَلَ مُصْطَلَحَ (اللُّغَاتُ السَّامِيَّةُ) لِلُّغَاتِ الَّتِي مَوْطِنُهَا الْأَصْلِيُّ بِلَادُ الرَّاغِبَيْنِ وَبِلَادُ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَشَمَالِ إِفْرِيقِيَّةٍ. وَهِيَ مِنْ أَقْدَمِ لُغَاتِ الْعَالَمِ. [المُتَرْجِم]

(51) لَعَلَّ الْإِشَارَةَ هُنَا إِلَى أَسْمَاءِ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَا فِي هَامِشٍ قَرِيبٍ أَنَّهَا مِنْ أَقْسَامِ الْأَسْمَاءِ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ أَكْثَرَ مَا تَصَرَّفَ إِلَيْهِ هُوَ الْمَصَادِرُ الَّتِي تُثَمِّلُ أَحْدَاثَ الْأَفْعَالِ، وَتُشَبِّهِ الْأَفْعَالَ فِي الشَّكْلِ وَالْمَادَّةِ. [المُتَرْجِم]

وَهُوَ كَذَلِكَ فِي مُعْظَمِ اللُّغَاتِ عَلَى حَدِّ عِلْمِي. وَلَيْسَ فِي مَا أَعَدَدْتُهُ مِنْ جَبْرِ كُلِّيٍّ لِلْمَنْطِقِ اسْمٌ عَامٌّ.

وَيُعْرَفُ التَّصَوُّرُ بِأَنَّهُ 'عَلَامَةٌ مُثَلَّةٌ فِي عَامِلِهَا الْمُؤَوَّلِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَتْ خَصِيصَةً أَوْ سِمَةً (أَوْ يَوْصِفُهَا كَذَلِكَ)'. إِنَّهُ آيَةٌ عَلَامَةٌ غَيْرُ صَادِقَةٍ وَلَا كَاذِبَةٍ، مِثْلُ مُعْظَمِ الْكَلِمَاتِ الْمُفْرَدَةِ مَا عَدَا كَلِمَتَيْ 'نَعَمْ' وَ'لَا'، اللَّتَيْنِ تَكَادَانِ تَكُونَانِ خَاصَّتَيْنِ بِاللُّغَاتِ الْمُعَاصِرَةِ.

أَمَّا التَّصَدِيقُ فَيُعْرَفُ بِأَنَّهُ 'عَلَامَةٌ مُثَلَّةٌ فِي عَامِلِهَا الْمُؤَوَّلِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَتْ عَلَى صِلَةٍ وَاقِعِيَّةٍ بِمَوْضُوعِهَا (أَوْ يَوْصِفُهَا كَذَلِكَ إِنْ كَانَتْ تَقْرِيرِيَّةً)'. وَالْقَضِيَّةُ، عَلَى مَا حَرَّصَ أَنْ يُبَيَّنَ فِي دَوْرِيَّةِ *Monist* (1905، ص 172)، لَا تَعْنِي عِنْدَهُ مَا تَعْنِيهِ Satz فِي الْأَلْمَانِيَّةِ، بَلْ 'إِنَّهَا مَا يُعْزَى إِلَى أَيِّ تَقْرِيرٍ، سَوَاءً أَكَانَ ذَهْنِيًّا وَخِطَابًا ذَاتِيًّا أَمْ كَانَ تَعْبِيرًا خَارِجِيًّا، تَمَامًا كَمَا يُعْزَى إِلَى إِمْكَانٍ إِلَى تَحَقُّقِهِ'. وَقَدْ عُرِفَ هُنَا بِوَصْفِهِ رَمَزًا تَصَدِيقِيًّا. [283]

'وَلَيْسَ التَّصَدِيقُ تَقْرِيرًا، بَلْ هُوَ عَلَامَةٌ قَابِلَةٌ لِأَنْ تُقَرَّرَ. أَمَّا التَّقْرِيرُ فَتَصَدِيقٌ. وَاسْتِنَادًا إِلَى وَجْهَةِ نَظَرِي الْحَاضِرَةِ (وَقَدْ أَزْدَادُ تَبْصُرًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ) فَإِنَّ الْفِعْلَ التَّقْرِيرِيَّ act of assertion لَيْسَ فِعْلًا دَلَالِيًّا خَالِصًا. إِنَّهُ عَرَضٌ لِحَقِيقَةٍ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مُعَرَّضًا لِلْعُقُوبَاتِ الَّتِي يَلْفَاقُهَا الْكَاذِبُ فِي حَالِ كَوْنِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي قَرَّرَهَا غَيْرَ صَادِقَةٍ. أَمَّا الْفِعْلُ الْحُكْمِيُّ act of judgment فَهُوَ إدْرَاكٌ ذَاتِيٌّ اعْتِقَادِيٌّ؛ وَيَكْمُنُ الْاعْتِقَادُ فِي الْقَبُولِ الْمُتَعَمِّدِ لِلْقَضِيَّةِ بِوَصْفِهَا قَاعِدَةً لِلْسُلُوكِ. لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ قَابِلٌ لِلشُّكِّ. فَهُوَ إِنَّمَا يُمَثِّلُ سُؤَالَ مَفَادُهُ: أَيُّ الْآرَاءِ يُقَدِّمُ أَبْسَطَ رُؤْيَا لَطَبِيعَةِ الْقَضِيَّةِ؟ فَيَذَاهِبِي إِلَى أَنَّ التَّصَدِيقَ لَا يُقَرَّرُ لَا جَرَمَ أَنِّي أَتَبَنَّى أَنْ لَا حَاجَةَ بِالْحُجَّةِ إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ بِهَا أَوْ أَنْ تُؤَكَّدَ فِعْلِيًّا. فَأَنَا، لِذَلِكَ، أَعْرِفُ الْحُجَّةَ بِأَنَّهَا عَلَامَةٌ مُثَلَّةٌ فِي عَامِلِهَا الْمُؤَوَّلِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ لَا بِوَصْفِهَا عَلَامَةً لِهَذَا الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ، أَيْ النَّتِيجَةِ، بَلْ كَمَا لَوْ كَانَتْ عَلَامَةً لِلْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ، أَوْ رُبَّمَا كَمَا لَوْ كَانَتْ عَلَامَةً لِحَالَةِ الْعَالَمِ الَّذِي تُحِلُّ عَلَيْهِ وَالَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْمُقَدَّمَاتُ مُسَلَّمًا بِهَا'.

وَيُمْكِنُ أَنْ تَرُوقَ الْعَلَامَةُ عَامِلَهَا الْمُؤَوَّلَ الدَّائِمِيكِيَّ بِثَلَاثِ طَرِائِقٍ: -

1. يُمَكِّنُ أَنْ تُسَلَّمَ الْحُجَّةُ فَقَطْ إِلَى عَامِلِهَا الْمُؤَوَّلِ، بِوَصْفِهَا شَيْئًا مَا يُقَرُّ بِمَعْقُولِيَّتِهِ.

2. يُمَكِّنُ أَنْ تُدْفَعَ الْحُجَّةُ أَوْ التَّصْدِيقُ بِقُوَّةٍ إِلَى الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ بِوَسَاطَةِ فِعْلِ الْحَاحِي act of insistence.

3. يُمَكِّنُ أَنْ تُقَدَّمَ الْحُجَّةُ أَوْ التَّصْدِيقُ إِلَى الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ لِعَرَضِ التَّأَمُّلِ، وَلَا يُتَاحُ لِلتَّصَوُّرِ إِلَّا هَذَا الْإِمْكَانُ.

"وَأَخِيرًا، بِاعْتِبَارِ عِلَاقَاتِ الْعَلَامَاتِ بِعَامِلِهَا الْمُؤَوَّلِ الْمُبَاشِرِ، تُقَسَّمُ عِنْدِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، هِيَ: -

1. الْعَلَامَاتُ الْقَابِلَةُ لِلتَّأْوِيلِ بِالْأَفْكَارِ أَوْ بِعَلَامَاتٍ أُخْرَى مِنَ النَّوعِ نَفْسِهِ فِي سِلْسِلَةٍ لَا نِهَائِيَّةٍ.

2. الْعَلَامَاتُ الْقَابِلَةُ لِلتَّأْوِيلِ بِالتَّجَارِبِ الْفِعْلِيَّةِ.

3. الْعَلَامَاتُ الْقَابِلَةُ لِلتَّأْوِيلِ بِصِفَاتِ الْمَشَاعِرِ أَوْ الْمَظَاهِرِ.

وَالنَّيْجَةُ أَنَّ ثَمَّةَ عَشْرَةِ أَصْنَافٍ رَئِيسَةٍ مِنَ الْعَلَامَاتِ: -

1. عِلَامَاتٌ كَيْفِيَّةٌ؛ 2، عِلَامَاتٌ عَيْنِيَّةٌ آيَقُونِيَّةٌ؛ 3، عِلَامَاتٌ قَانُونِيَّةٌ آيَقُونِيَّةٌ؛ 4، آثَارٌ أَوْ عِلَامَاتٌ عَيْنِيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصَوُّرِيَّةٌ؛ 5، أَسْمَاءُ أَعْلَامٍ أَوْ عِلَامَاتٌ قَانُونِيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصَوُّرِيَّةٌ؛ 6، رُمُوزٌ تَصَوُّرِيَّةٌ؛ 7، عِلَامَاتٌ عَيْنِيَّةٌ تَصْدِيقِيَّةٌ (مِثَالُهَا صُورَةُ شَخْصِيَّةٍ أُسْطُورِيَّة)؛ 8، عِلَامَاتٌ قَانُونِيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصْدِيقِيَّةٌ؛ 9، قَضَايَا أَوْ رُمُوزٌ تَصْدِيقِيَّةٌ؛ 10، حُجَجٌ.

إِنَّ هَذِهِ الْمُعَالَجَةَ لِلتَّفْرِيقِ الْمَنْطِقِيِّ الْمَأْلُوفِ بَيْنَ الْحَدِّ، وَالْقَضِيَّةِ، وَالْحُجَّةِ، تَخْتَلِفُ شَيْئًا مَا عَنْ [284] الْعَرَضِ الَّذِي قَدَّمَهُ فِي مَقَالَتِهِ فِي دَوْرَةِ *Monist* (1906)، حَيْثُ أَوْضَحَ أَنَّ "الْعُضُوبَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ يُوسَّعَا تَوْسِيعًا كَبِيرًا"، وَحَيْثُ قُدِّمَتْ لَنَا قِسْمَةٌ أُخْرَى هِيَ *Semes* (تَصَوُّرَاتٌ)، وَ *Phemes* (تَصْدِيقَاتٌ)، وَ *Delomes* (حُجَجٌ).

"أنا أَقْصِدُ بِـ Seme كُلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِي أَيِّ غَرَضٍ بَدِيلًا لِمَوْضُوعٍ هُوَ مُثَلٌّ أَوْ عَلَامَةٌ لَهُ عَلَى وَجْهِ مَا. فِي الْمَنْطِقِ يَكُونُ الْحَدُّ، الَّذِي هُوَ اسْمُ نَوْعٍ، مُسَاوِيًا لـ Seme. وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْحَدُّ 'قَنَاءَ الْإِنْسَانِ' هُوَ Seme. أَمَّا مَا أَقْصِدُهُ بِـ PHEME فَعَلَامَةٌ مُكَافِئَةٌ لِجُمْلَةٍ نَحْوِيَّةٍ، اسْتِفْهَامِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ أَمْرِيَّةً أَوْ تَقْرِيرِيَّةً. عَلَى آيَّةٍ حَالٍ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا نَوْعٌ مِنَ الْأَنْثَرِ الْإِلْزَامِيِّ فِي مُؤَوَّلِهَا. وَأَمَّا الْعُضْوُ الثَّلَاثُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِيَّةِ فَاسْتَعْمِلَ لَهُ أحيانًا كَلِمَةُ Delome (تُلَفِّظُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ deeloam، وَأَصْلُهَا δέλωμα)، وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةُ حُجَّةٍ Argument مُلَبِّيَّةٍ لِلْحَاجَةِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ. وَهِيَ عَلَامَةٌ لَهَا شَكْلٌ يَمِيلُ إِلَى أَنْ يُمَارَسَ فِعْلًا تَجَاهَ الْمُؤَوَّلِ مِنْ خِلَالِ مَا لَدَيْهِ مِنْ تَحَكُّمٍ ذَاتِيٍّ، لِتُمَثِّلَ عَمَلِيَّةَ تَغْيِيرٍ فِي الْأَفْكَارِ أَوْ الْعَلَامَاتِ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تُولَّدُ هَذَا التَّغْيِيرَ عِنْدَ الْمُؤَوَّلِ".

وَيَذْكُرُ أَنَّ الْأَخْطُوطَ تَصْدِيقُ PHEME، وَيَقُولُ: "وَهُوَ، فِي اسْتِعْمَالِي حَتَّى الْآنَ فِي الْأَقْل، قَضِيَّةٌ. وَالْحُجَّةُ تُمَثِّلُهَا سِلْسِلَةٌ مِنَ الْأَخْطُوطَاتِ".

وَيَلِي ذَلِكَ نِقَاشٌ بِشَأْنِ "الْمُدْرِكِ الْجِسْمِيِّ Percept، وَقَدْ كَانَ فِي التَّحْلِيلِ الْأَخِيرِ الْمَوْضُوعِ الْمُبَاشِرِ لِكُلِّ مَعْرِفَةٍ وَلِكُلِّ فِكْرٍ".

"وَهَذَا الْمَذْهَبُ لَا يُعَارِضُ الْبَيِّنَةَ الْبِرَاغِمَاتِيكِيَّةَ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الْمُبَاشِرَ لِكُلِّ فِكْرٍ مُلَاتِمٌ هُوَ السُّلُوكُ Conduct. وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ أَكْثَرُ أَسَاسِيَّةً لِلتَّوَصُّلِ إِلَى نَظَرِيَّةٍ مَعْرِفَةٍ سَلِيمَةٍ مِنَ التَّفْرِيقِ الدَّقِيقِ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ لِلْمَعْرِفَةِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ مَا هُوَ أَكْثَرُ أَسَاسِيَّةً لِلتَّوَصُّلِ إِلَى أَفْكَارٍ جُغْرَافِيَّةٍ سَلِيمَةٍ مِنَ التَّفْرِيقِ الدَّقِيقِ بَيْنَ خَطِّ الْعَرْضِ الشَّمَالِيِّ وَخَطِّ الْعَرْضِ الْجَنُوبِيِّ، وَلَيْسَ أَحَدُ التَّفْرِيقَيْنِ بِأَكْثَرَ أَسَاسِيَّةً مِنَ الْآخَرِ. وَكَوْنُنَا نَعْيِ مُدْرَكَاتِنَا الْجِسْمِيَّةَ نَظَرِيَّةً مُسَلَّمَةً بِهَا فِي مَا يَبْدُو لِي، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ وَاقِعَةً إِدْرَاكِيَّةً جِسْمِيَّةً مُبَاشِرَةً. فَالْوَاقِعَةُ الْإِدْرَاكِيَّةُ الْجِسْمِيَّةُ الْمُبَاشِرَةُ لَيْسَتْ مُدْرَكًا جِسْمِيًّا، وَلَا هِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْمُدْرِكِ الْجِسْمِيِّ؛ فَالْمُدْرِكُ الْجِسْمِيُّ تَصَوُّرٌ Seme، فِي حِينِ أَنَّ الْوَاقِعَةَ الْإِدْرَاكِيَّةَ الْجِسْمِيَّةَ الْمُبَاشِرَةَ أَوْ بِالْأَحْرَى الْحُكْمَ الْإِدْرَاكِيَّ الْجِسْمِيَّ الَّذِي تَكُونُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ عَامِلُهُ الْمُؤَوَّلَ الْمُبَاشِرَ

تَصْدِيقُ PHEME أي العَامِلُ الْمُؤَوَّلُ الدَّائِنَمِيكِيُّ الْمُبَاشِرُ لِلْمُدْرَكِ الْحِسِّيِّ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ الْمُدْرَكُ الْحِسِّيُّ مَوْضُوعَهُ الدَّائِنَمِيكِيُّ، وَالَّذِي يُمَيِّزُ مِنَ الْمَوْضُوعِ الْمُبَاشِرِ بِقَدْرِ مِنَ الصُّعُوبَةِ غَيْرِ قَلِيلٍ (عَلَى مَا يُظْهِرُ تَارِيخُ عِلْمِ النَّفْسِ)، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا لِهَذَا التَّمْيِيزِ مِنْ دَلَالَةٍ كَبِيرَةٍ. لَكِنْ، مِنْ أَجْلِ أَلَّا نَقْطَعَ سِلْسِلَةَ أَفْكَارِنَا، نَنْجِهُ إِلَى أَنْ نَلْحَظَ أَنَّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْمَوْضُوعُ الْمُبَاشِرُ [285] لِلْمُدْرَكِ الْحِسِّيِّ غَايَةً فِي الْعُمُوضِ يُبَادِرُ الْفِكْرَ الطَّبِيعِيَّ لِتَعْبِوضِ هَذَا التَّقْصِ (وَهُوَ يَكَادُ يَبْلُغُ هَذِهِ الْغَايَةَ) عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: - إِنَّ ثَمَّةَ عَامِلًا مُؤَوَّلًا دَائِنَمِيكِيًّا سَابِقًا لِمَجْمَلِي مُرَكَّبِ الْمُدْرَكَاتِ الْحِسِّيَّةِ يَكُونُ هُوَ التَّصَوُّرُ Seme لِعَالَمِ أَبَدِيٍّ مُثَلِّ فِي فِكْرِ غَرِيزِيٍّ بِوَصْفِهِ مُحَدَّدًا لِلْمَوْضُوعِ الْمُبَاشِرِ الْأَصْلِيِّ لِكُلِّ مُدْرَكٍ حِسِّيٍّ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ مِمَّا مَضَى أَنِّي لَا أَتَحَدَّثُ حَدِيثًا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ النَّفْسِ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِمَنْطِقِ الْعَمَلِيَّاتِ الذَّهْنِيَّةِ. وَالْعَوَامِلُ الْمُؤَوَّلَةُ الْحَاصِلَةُ تُشْئِي تَصَوُّرَاتِ Semes جَدِيدَةً لِعَوَالِمٍ نَاجِمَةٍ عَنْ ضَمَائِمٍ مُخْتَلِفَةٍ إِلَى عَالَمِ الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. عَلَى أَنَّهَا جَمِيعًا عَوَامِلُ مُؤَوَّلَةٍ لِلْمُدْرَكَاتِ الْحِسِّيَّةِ.

وَأَخِيرًا، وَعَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ، لَدَيْنَا تَصَوُّرُ Seme لِمَا هُوَ أَعْلَى الْعَوَالِمِ الَّذِي يُعَدُّ مَوْضُوعًا لِكُلِّ قَضِيَّةٍ صَادِقَةٍ، وَالَّذِي إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُسَمِّيَهُ تَسْمِيَةً كُلِّيَّةً أَطْلَقْنَا عَلَيْهِ الْاسْمَ الْمُضَلَّلَ شَيْئًا مَا 'الصَّدَقُ The Truth'.

فَلْنَعُدِ الْآنَ، وَقَدْ قَرَعْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَلْنَطْرَحْ هَذَا السُّؤَالَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ الْإِدْرَاكِيُّ الْحِسِّيُّ الَّذِي هُوَ تَصْدِيقُ PHEME عَامِلًا مُؤَوَّلًا دَائِنَمِيكِيًّا مُبَاشِرًا لِلْمُدْرَكِ الْحِسِّيِّ الَّذِي هُوَ تَصَوُّرُ Seme؟ ذَلِكَ بِأَنَّ هَذَا، بِلَا شَكٍّ، لَيْسَ هُوَ الْمَعْمُودُ مِنْ أَمْرِ التَّصَوُّرَاتِ Semes. وَجَمِيعُ النَّمَاذِجِ الَّتِي تَخْطُرُ بِبَالِي فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لِيُمَثِّلَ هَذَا الْفِعْلَ لِلتَّصَوُّرَاتِ Semes هِيَ امْتِلَءُ لِلْمُدْرَكَاتِ الْحِسِّيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي وُجُودِ امْتِلَءٍ أُخْرَى. وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ جَمِيعُ الْمُدْرَكَاتِ الْحِسِّيَّةِ تَعْمَلُ بِطَاقَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، كَانَتْ تِلْكَ الْأَمْتِلَةُ، مَعَ ذَلِكَ، مُبَيَّنَةً لِكُونِهَا مُدْرَكَاتٍ حِسِّيَّةٍ. عَلَى أَنِّي أَسْتَمِيحُكَ أَتِيهَا الْقَارِئُ غَدْرًا وَأَرْجُو أَنْ تُقَلِّبَ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى وَجْهِهِ مَعَ نَفْسِكَ، لِتَرَى بَعْدَ ذَلِكَ - وَهَذَا مَا أَتَمْنَى التَّوَصُّلَ إِلَيْهِ - أَتُؤَافِقُ رَأْيَكَ، الَّذِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَحْوِ مُسْتَقِلٍّ، رَأْيِي؟ وَالَّذِي أَرَاهُ هُوَ أَنَّ الْآيَقُونََةَ

الإدراكية الحسّية الخالصة - ومن الواضح أنّ الكثير من علماء النفس المُظَمَّاء حقيقةً كانوا يظنّون أنّ الإدراك الحسّي هو مرورٌ لِلصُّورِ أمامَ عَيْنِ الْعَقْلِ، كما لو أنّ المرءَ يسيرُ في معرضٍ لِلصُّورِ - لا يُمكنُ أن يكونَ لها تصديقٌ PHEME يُمثّلُ عاملها المؤوّل الدائميكيّ المباشر. وأوّد، لأكثرَ من سبب، أن أُخبرَكَ بما يدفَعُنِي إلى هذا الاعتقاد، وإن بدا لي أن لا مَطَمَعَ اليَوْمَ في تقديرِكَ لِمَا أَقَدَمُهُ مِن أسباب. على أنّي ما زِلْتُ أرْعَبُ في أن تفهَمَ عَنِّي بِالْقَدْرِ الذي تُعرِفُ بِهِ، وقد أكونُ مُخْطِئًا في ذلك، أنّي لَسْتُ غارِقًا في لُجَّةٍ ذِهْنِيَّةٍ بِحَيْثُ أَتَنَاولُ الْحَقِيقَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ بِخَفَّةٍ حِينَ أَجْزِمُ بِأَنَّ نَمَّةَ أسبابًا خَطِيرةً دَفَعَتْنِي لِأَتَبْنَى رَأْيِي، كما أنّي حَرِيصٌ على أن يُعْلَمَ أنّ هذه الأسبابَ لَيْسَتْ سايكولوجيّةً بَتَّةً، بل إنّها مَنْطِيقِيَّةٌ خالصةٌ. فمَوْجَزُ السَّبَبِ وَمُلَخَّصُهُ، إذن، أنّه مِن غَيْرِ الْمَنْطِيقِيّ لَأَيَقُونَةُ خالصةٌ أن يكونَ لها تصديقٌ PHEME يُمثّلُ عاملها المؤوّل، وأزى أنّ من المُحالِ على الفِكرَةِ غَيْرِ الخاضِعَةِ لِلتَّحَكُّمِ الذَّائِيّ، كما لا يَخْضَعُ لِذَلِكَ بِوُضُوحِ الْحُكْمِ الإدراكيّ الحسّي، أن تكونَ غَيْرَ مَنْطِيقِيَّةٍ. وأحسبُ أنّ هذا السَّبَبَ قد يُثيرُ فيكَ السُّخْرِيَّةَ [286] أو الِاسْتِغْثَارَ، أو كِلَيْهِمَا مَعًا، وإن يَكُنْ ذلكَ فإِنَّهُ لا يَفْدَحُ في ذِكائِكَ عِنْدِي".

وَنَمَّةٌ رِسَالَةٌ لافِتَةٌ لِلنَّظَرِ يَرِجِعُ تَارِيخُهَا إِلَى الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ مَارَس/أَذَار مِنْ سَنَةِ 1909، تَتَضَمَّنُ نِقَاشًا لِلثَّلَاثِيَّةِ التَّأْوِيلِيَّةِ الَّتِي تَبَنَّتْهَا اللَّيْدِي وَيَلْبِي. فَقَدْ كَتَبَ بِيرْسُ يَقُولُ: "أَقِرُّ بِأَنِّي لَمْ أَذْرِكُ، قَبْلَ أَنْ أَطْلِعَ عَلَى مَقَالَتِكَ فِي الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، كَمْ هِيَ أَسَاسِيَّةٌ حَقًّا قِسْمَتُكَ الثَّلَاثِيَّةُ عَلَى: مفادِ Sense، وَمَعْنَى Meaning، وَمَعْرِزَى Significance. ولا يُتَوَقَّعُ لِمَفَاهِيمَ بِهِذِهِ الْأَهْمِيَّةِ أَنْ تُعْرَفَ تَعْرِيفًا تَامًا مُدَّةً طَوِيلَةً... وَأَنَا أَرَى الْآنَ أَنَّ قِسْمَتِي (عَلَى أَنْوَاعِ الْعَامِلِ الْمُؤوَّلِ الثَّلَاثِيَّةِ) تَكَادُ تُطَابِقُ قِسْمَتِكَ، وَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ إِنْ كَانَتْ كِلَتَاهُمَا صَحِيحَةً. وَلَسْتُ عَلَى وَغْيِ الْبَتَّةِ بِأَيِّ تَأْثَرٍ لِي بِمَا كَتَبْتَنِي عِنْدَ وَضْعِي لِثَلَاثِيَّتِي". بَلْ إِنَّهُ لَا يَعْتَقَدُ وُجُودَ تَذَكُّرٍ غَيْرِ وَاعٍ، وَيَقُولُ: إِنِّي أَشْعُرُ مِنْ نَمَّةٍ بِ"بَعْضِ الْابْتِهَاجِ لِأَنِّي أَلْفِي فِكْرَتَيْنَا تَكَادَانِ تَتَّفِقَانِ".

ثُمَّ يُتَابِعُ لِتَسَاءَلٍ عَنِ مَدَى هَذَا الْإِتْفَاقِ. إِذْ يَقُولُ: "يَبْدُو أَنَّ التَّعَارُضَ

الأكبر يكمن في العامل المؤول الدائميكي عندي مقارناً بـ 'المعنى' عندك. فهذا الأخير، على ما يتبين لي، يكمن في الأثر الذي يقصد المتكلم (ملفوظاً كان كلامه أو مكتوباً) بالعلامة أن تحدثه في ذهن المؤول. أما العامل المؤول الدائميكي عندي فيكمن في الأثر المباشر الذي تحدثه العلامة فعلياً في مؤولها. فهما يتفقان في كونهما أثرين للعلامة في عقل مفرد، على ما اعتقد، أو في عدد من العقول المفردة الفعلية من خلال ممارسة فعل مستقل على كل منها. وأعتقد أن ما أطلق عليه اسم العامل المؤول النهائي مماثل تماماً لما تسميته مغزى، أي إنه الأثر الذي يمكن أن تحدثه العلامة في أي عقل تسمح أوضاعه لها بتنفيذ كامل تأثيرها. وأما ما أسميه عاملاً مؤولاً مباشراً فأعتقد أنه يكاد يطابق 'المفاد' عندك، إن لم يطابقه تماماً؛ فالذي أفهمه أن السابق هو الأثر الكلّي غير المحلّل الذي للعلامة أهليّة إحدايه، وقد اعتدت مطابقة هذا مع الأثر الذي تحدثه العلامة أولاً أو الذي قد تحدثه في العقل، من غير أي تفكير فيها. ولا يحضرني أنك قد حاولت مرة أن تعرفني مصطلحك 'المفاد'، ولكن ما أفهمه من تأمل ما ذكرته أنه الأثر الأول الذي يمكن أن تحدثه العلامة في عقل له الأهلية الجيدة لاستيعابها. وما دُمت تقولين إنه مفادِي Sensal وليس فيه عنصر إرادي فانا أفترض أنه ذو طبيعة 'انطباعية'. فهو بذلك، بقدر ما أستطيع أن أرى، مماثل تماماً للعامل المؤول المباشر عندي. وقد استقيت كلماتك من الكلام الدارج من أجل التعبير عما اخترته، في حين أنني تجنبتُها وشرعتُ أستحدث مصطلحات مناسبة، على ما أعتقد، لاستعمالات العليّة. ويمكن أن أصفّ العامل المؤول المباشر عندي بأنه قريب جداً من أن يكون أثراً لعلامة [287] يمكن أن تجعل الشخص قادراً على أن يقرّر: أقابله العلامة للتطبيق في أي مجال لهذا الشخص معرفة كافية له، أم غير قابلة لذلك؟".

أما المعنى والقصد فيتابع حديثه قائلاً بشأنهما: "أنا أفترض أن عاملي المؤول بأصنافه الثلاثة هو شيء ما يقدم زيادة أساسية لأي شيء يتصرف بوصفه علامة. فإذا ما نظرنا في العلامات والأعراض الطبيعية وجدناها لا يتكلم بها، فإذ لك لا يكون لها معنى، إن عرفت المعنى بأنه ما يقصده المتكلم. وأنا لا أبيع

لِنَفْسِي الْحَدِيثَ عَنْ 'أَعْرَاضِ اللّٰهِ الْقَادِرِ'، مَا دَامَ كُلُّ مَا يَشَاؤُهُ يَتَحَقَّقُ. وَيَبْدُو لِي الْقَصْدُ، وَإِنْ جَازَ أَنْ أَكُونَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ، فَاصِلًا زَمَنِيًّا بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَإِعْدَادِ السَّلْسَلَةِ الَّتِي تُظْهِرُ الرَّغْبَةَ. لَكِنَّ الَّذِي يَظْهَرُ لِي هُوَ أَنَّ الرَّغْبَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَّا إِلَى مَخْلُوقٍ مُّتَنَاهٍ'. ثُمَّ يَخْلُصُ إِلَى مَا يَأْتِي:-

"إِنَّ أَفْكَارَكَ بِشَأْنِ الْمَفَادِ، وَالْمَعْنَى، وَالْمَعْرَى يَبْدُو لِي أَنَّ مَصْدَرَهَا تَحْسُّسٌ مُّذْهِلٌ لِلدِّرَاقِ الْحِسِّيِّ لَا اسْتَطِيعَ مُنَافَسَتَهُ، فِي حِينِ أَنَّ الْمَرَاتِبَ الثَّلَاثَ لِلْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ عِنْدِي قَدْ أُنْجِزَتْ بِأَنْ يُسْتَنْتَجَ مِنْ تَعْرِيفِ الْعَلَامَةِ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِأَنْ يُلْحَظَ، ثُمَّ بِأَنْ يُبَحَثَ عَنْ ظُهورِهِ. فَمَا الْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ الْمُبَاشِرُ عِنْدِي فَمُتَضَمِّنٌ فِي حَقِيقَةٍ أَنَّ كُلَّ عِلَامَةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهَا قَابِلِيَّتُهَا التَّأْوِيلِيَّةُ الْمُمَيِّزَةُ قَبْلَ أَنْ تَحْوِزَ أَيُّ مُؤَوَّلٍ. وَأَمَّا الْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ الدَّائِمِيكِي عِنْدِي فَهُوَ الَّذِي يُجَرَّبُ فِي كُلِّ فِعْلٍ تَأْوِيلِيٍّ وَيَكُونُ مُخْتَلِفًا عَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ فِي أَيِّ فِعْلٍ تَأْوِيلِيٍّ آخَرَ؛ وَأَمَّا الْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ النِّهَائِي فَهُوَ النَّتِيجَةُ التَّأْوِيلِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يَتَحَتَّمُ عَلَى كُلِّ مُؤَوَّلٍ أَنْ يَبْلُغَهَا، إِنْ رُوِيَ الْعِلَامَةُ مُرَاعَاةً كَافِيَةً. فَالْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ الْمُبَاشِرُ تَجْرِيدٌ يَكْمُنُ فِي الْإِمْكَانِ؛ وَالْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ الدَّائِمِيكِي حَدَثٌ فِعْلِيٌّ مُفْرَدٌ؛ وَالْعَامِلُ الْمُؤَوَّلُ النِّهَائِي هُوَ مَا يُقْضَى الْفِعْلِيُّ إِلَيْهِ".

وَقَدْ نَالَ مَفْهُومُ 'الْعَامِلِ الْمُؤَوَّلِ' عِنْدَ بِيرْسٍ مَزِيدًا مِنَ الْإِيضَاحِ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا فِي نِهَآيَةِ سَنَةِ 1908، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ اقْتَبَسْنَا مِنْهَا بَعْضَ الْفِقَرَاتِ. وَقَدْ أَكَّدَ فِيهَا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَسَائِلِ التَّأْوِيلِ لَا غِنَى عَنِ الْإِبْتِدَاءِ بِتَحْلِيلِ دَقِيقٍ وَوَاسِعٍ لَطَبِيعَةِ الْعَلَامَةِ. إِذْ يَقُولُ: 'أَنَا أَعْرِفُ الْعَلَامَةَ بِأَنَّهَا أَيُّ شَيْءٍ يُحَدِّدُهُ شَيْءٌ آخَرُ يُدْعَى مَوْضُوعَهُ، وَيَكُونُ مُحَدَّدًا لِأَنَّهُ فِي شَخْصٍ مَا، وَهُوَ الَّذِي أُسَمِّي أَثَرَهُ عَامِلَهُ الْمُؤَوَّلَ، بِحَيْثُ يَكُونُ السَّابِقُ، بِذَلِكَ، هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ الْآخِرَ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ. وَقَدْ أَقْحَمْتُ عِبَارَةَ 'فِي شَخْصٍ مَا' اسْتِزْوَاءَ لِسِيرْبِيرُوسِ Cerberus⁽⁵²⁾؛

(52) سيربِيرُوس: كَلْبٌ أُسْطُورِيٌّ عَادَةً مَا يَكُونُ بِثَلَاثَةِ رُؤُوسٍ فِي الْأَسَاطِيرِ الْإِغْرِيقِيَّةِ =

ذَلِكَ بِأَنِّي قَدْ يَتَسَنَّى مِنْ جَعَلِ مَفْهُومِي الْأَوْسَعِ الْخَاصُّ بِي مَفْهُومًا. فَأَنَا أَمَيِّزُ ثَلَاثَةَ عَوَالِمَ تُمَيِّزُهَا [288] ثَلَاثَةُ أَنْمَاطٍ وَجُودِيَّةٍ. أَحَدُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ الثَّلَاثَةِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا لَهُ وَجُودٌ بِنَفْسِهِ وَحَدَهُ، إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَا فِي هَذَا الْعَالَمِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا لَوَعِي وَاحِدٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَابِلًا لِأَنْ يَكُونَ حَاضِرًا عَلَى هَذَا النَحْوِ لَوُجُودِهِ كُلِّهِ. وَسَمَى مَوْضُوعَاتِ هَذَا الْعَالَمِ أَفْكَارًا أَوْ مُمَكِّنَاتِ Ideas or Possibles، وَمَوْضُوعَاتِ الْعَالَمِ الثَّانِي أَوْ الْفِعْلِيِّ وَقَائِعِ Facts، وَمَوْضُوعَاتِ الثَّالِثِ مُقْتَضِيَاتِ Necessitants.

إِنَّ الْمَنْحَى الْوُجُودِيَّ لِلْعَلَامَاتِ قَدْ يَكُونُ 'مُمَكِّنًا' (مِثَالُهُ مُسَدَّسٌ مُحَدَّدٌ بِمَخْرُوطٍ أَوْ حَوْلَ مَخْرُوطٍ)؛ أَوْ 'فِعْلِيًّا' (كَمَا فِي حَالَةِ مِقْيَاسِ الضَّغْطِ الْجَوِّيِّ)؛ أَوْ 'مُقْتَضًى' (مِثْلُ كَلِمَةِ 'ال' the، أَوْ آيَةٍ كَلِمَةٍ أُخْرَى فِي الْمُعْجَمِ). وَهُوَ يُسَمَّى الْعَلَامَةُ 'الْمُمَكِّنَةُ'، عَلَى مَا جَاءَ فِي مَقَالَتِهِ فِي دَوْرِيَّةِ Monist، طَابَعًا ('مَعَ أَنِّي أَفَكِّرُ فِي أَنْ أُسْتَبْدِلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ كَلِمَةَ 'مُعْلَمَ Mark')؛ وَالْعَلَامَةُ 'الْفِعْلِيَّةُ' أَمَارَةٌ؛ وَالْعَلَامَةُ 'الْمُقْتَضَاةُ' نَمَطًا.

"وَمِنَ الْمُعْتَادِ وَالْمُلَانِمِ التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَوْضُوعَيْنِ لِلْعَلَامَةِ: غَيْرِ الْمُبَاشِرِ الَّذِي يَكُونُ خَارِجَ الْعَلَامَةِ، وَالْمُبَاشِرِ الَّذِي يَكُونُ دَاخِلَ الْعَلَامَةِ. وَعَامِلُهَا الْمُؤَوَّلُ هُوَ كُلُّ مَا تَنْقُلُهُ الْعَلَامَةُ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْحَصُولِ عَلَى مَعْرِفَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ مِنْ طَرِيقِ التَّجَرِبَةِ الْمُصَاحِبَةِ. وَالْمَوْضُوعُ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ هُوَ الْمَوْضُوعُ الَّذِي يَكُونُ خَارِجَ الْعَلَامَةِ، وَأَنَا أَسْمِيهِ الْمَوْضُوعَ الدَايْنَمِيدِيَّ Dynamoid. وَيَجِبُ أَنْ تُشِيرَ الْعَلَامَةُ إِلَيْهِ بِلَمَحَةٍ، وَهَذِهِ اللَّمَحَةُ، أَوْ مَا دُتُّهَا، هِيَ الْمَوْضُوعُ الْمُبَاشِرُ".

وَحِينَ يَكُونُ الْمَوْضُوعُ الدَايْنَمِيدِيَّ 'مُمَكِّنًا' تَكُونُ الْعَلَامَةُ ذَاتَ طَبِيعَةٍ

= وَالرُّومَانِيَّةِ. كَانَ مِنْ نَسْلِ إِيْتَشِيدِنَا، وَهِيَ مُهَجَّنَةٌ نَصَفُهَا امْرَأَةٌ وَنَصَفُهَا الْآخَرُ أَفْعَى، وَتَايْفُونٌ وَهُوَ وَحْشٌ هَائِلٌ كَانَ يَخْشَاهُ حَتَّى الْآلِهَةُ الْإِغْرِيقِيَّةُ. [الْمُتَرْجِمُ]

تَجْرِيدِيَّة (مثل كَلِمَة جَمال)، وَحِينَ يَكُونُ 'فِعْلِيًّا' تَكُونُ الْعَلَامَةُ ذَاتَ طَبِيعَةٍ مَادِّيَّة (مثل أَيْ مِقْيَاسٍ لِلضَّغْطِ الْجَوِّيِّ أَوْ قِصَّةٍ مَكْتُوبَةٍ ذَاتِ آيَةٍ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ)، أَمَّا 'الْعَلَامَةُ' الَّتِي يَكُونُ مَوْضُوعُهَا الدَّائِنَمُودِيُّ مُقْتَضَى فَلَيسَ لَدَيْ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ تَسْمِيَّةٌ لَهَا أَفْضَلُ مِنَ 'الْجَمْعِيَّةِ' Collective، وَهَذِهِ التَّسْمِيَّةُ لَيْسَتْ بِالشَّوْءِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَبْدُو عَلَيْهِ، وَذَلِكَ إِلَى حِينَ أَنْ تُتَّحَ الْفُرْصَةُ لِدِرَاسَةِ الْأَمْرِ، لَكِنْ مِنْ دَوَاعِي الْحَرْقِ وَالْحَيْرَةِ الْكَثِيرَةِ لِشَخْصٍ مِثْلِي يُفَكِّرُ فِي نِظَامٍ لِلرُّمُوزِ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا عَنْ الْكَلِمَاتِ أَنْ تُتَرْجَمَ الْفِكْرَةُ إِلَى كَلِمَاتٍ! فَإِنْ كَانَ الْمَوْضُوعُ الْمُبَاشِرُ 'مُمْكِنًا' (أَيِ إِنْ كَانَ الْمَوْضُوعُ الدَّائِنَمُودِيُّ مُشَارًا إِلَيْهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ، دَوْمًا، عَلَى نَحْوِ غَامِضٍ بَعْضُ الشَّيْءِ، مِنْ طَرِيقِ صِفَاتِهِ، وَمَا إِلَيْهَا) دَعَوْتُ الْعَلَامَةَ 'وَاصِفَةً' Descriptive؛ وَإِنْ كَانَ الْمُبَاشِرُ حَدِثَةً دَعَوْتُ الْعَلَامَةَ 'مُعَيِّنَةً' Designative؛ وَإِنْ كَانَ الْمَوْضُوعُ الْمُبَاشِرُ مُقْتَضَى دَعَوْتُ الْعَلَامَةَ 'رَابِطَةً' Copulant؛ إِذْ إِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ عَلَى الْمُؤَوَّلِ أَنْ يُعَيَّرَ الْمَوْضُوعُ تَمَيِّزًا كَبِيرًا يُمَكِّنُ مَعَهُ أَنْ تُمَثَّلَ الْعَلَامَةُ اقْتِضَاءً مَا " .

وَلَيْسَ فِي وَسْعِ الْمُمَكِّنِ أَنْ يُحَدِّدَ سِوَى الْمُمَكِّنِ، كَمَا أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَدِّدَ الْمُقْتَضَى سِوَى الْمُقْتَضَى. وَيَتَابِعُ قَائِلًا: " مِنْ هُنَا يَنْشَأُ مِنْ تَعْرِيفِ الْعَلَامَةِ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَوْضُوعُ الدَّائِنَمُودِيُّ مُحَدَّدًا لِلْمَوْضُوعِ الْمُبَاشِرِ، الَّذِي يُحَدِّدُ الْعَلَامَةَ نَفْسَهَا،

الَّتِي تُحَدِّدُ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الْمَحْتَوَمَ Destinate، [289]

الَّذِي يُحَدِّدُ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الْفَعَالَ Effective،

الَّذِي يُنْشِئُ الْعَامِلَ الْمُؤَوَّلَ الصَّرِيحَ Explicit،

كَانَتْ التَّقْسِيمَاتُ الثَّلَاثِيَّةُ السَّنَّةُ، بَدَلًا مِنْ أَنْ تُحَدِّدَ 729 صِنْفًا مِنَ الْعَلَامَاتِ، عَلَى مَا كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ كَانَتْ مُسْتَقِلَّةً، لَا تُؤَلَّدُ سِوَى 28 صِنْفًا، وَإِنِّي لَأَعْتَقِدُ بِقُوَّةٍ (إِنْ لَمْ أَقُلْ: أَكَادُ أَسْتَحْسِنُ) أَنَّ ثَمَّةَ أَرْبَعَةِ تَقْسِيمَاتٍ ثَلَاثِيَّةٍ أُخَرَى لِلْعَلَامَاتِ لَهَا رُتَبَةٌ الْأَهَمِّيَّةِ نَفْسُهَا لَا تُؤَلَّدُ سِوَى 66 صِنْفًا بَدَلًا مِنْ

أَنْ تُؤَلَّدَ 59049 صِنْفًا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أَوَّلَ هَذِهِ التَّقْسِيمَاتِ الثَّلَاثِيَّةِ الْآخَرَى هُوَ الْمَبْنِي عَلَى: الْآيَقُونَاتِ (أَوْ Simulacra)، وَالْمُؤَشِّرَاتِ، وَالزُّمُوزِ، أَمَّا التَّقْسِيمَاتُ الثَّلَاثَةُ الْآخَرَى فَتُحِيلُ عَلَى الْعَوَامِلِ الْمُؤَوَّلَةِ. وَأَنَا مُطْمَئِنٌّ إِلَى حَدِّ مَا إِلَى أَنَّ أَحَدَهَا يُقَسَّمُ عَلَى: الْإِعْزَازِيَّاتِ Suggestives، وَالطَّلَبِيَّاتِ Imperatives، وَالْإِخْبَارِيَّاتِ Indicatives، حَيْثُ تَتَضَمَّنُ الطَّلَبِيَّاتُ الْاسْتِفْهَامِيَّاتِ Interrogatives. أَمَّا التَّقْسِيمَانِ الْآخِرَانِ فَاعْتَقِدُ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِتَأْكِيدِ الْعَلَامَاتِ لِعَوَامِلِهَا الْمُؤَوَّلَةِ مِنْ طَرِيقِ: الْغَرِيزَةِ Instinct، وَالتَّجَرِبَةِ Experience، وَالشَّكْلِ Form. أَمَّا الْآخَرُ فَافْتَرِضُ أَنَّهُ مَا سَمَّيْتُ (فِي مَقَالَتِي (1906) فِي دَوْرِيَّةِ Monist) أَطْرَافَهُ: تَصَوُّرَاتِ Semes، وَتَصْدِيقَاتِ Phemes، وَحُجَجًا Delomes⁽⁵³⁾. [290]

(53) لَمْ تُظْهِرْ حَتَّى الْآنَ طَبْعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ Collected Works لِـمُؤَلِّفَاتِ بِيرْس، وَهِيَ الْآنَ فِي طَوْرِ النُّشْرِ فِي مَطْبَعَةِ جَامِعَةِ هَارْفَرْد، مَا يُحْتَمُّ إِجْرَاءُ تَعْدِيلٍ أَوْ تَوْسِيعٍ لِلتَّحْلِيلِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا، 4-8، 155-6، 1939، pp. Cf. J. Buchler, *Charles Peirce's Empiricism*, and Vol. XVIII, 1943, art. cit., "Word and 180-5; also *Psyche*, 1935, pp. 5-7, and Magic".

التذييل E

في الوقائع السالبة

يُمْكِنُ أَنْ يُقَارَبَ بَحْثُ الْوَقَائِعِ مِنْ عِدَّةِ زَوَايا، لَكِنْ قَدْ تَكُونُ أَفْضَلُ بِدَايَةٍ هِيَ النَّظَرُ فِي الْخِلَافِ بِشَأْنِ الْوَقَائِعِ السَّالِبَةِ الَّتِي مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْقَضَايَا فِيهَا تَكُونُ مُتَأَزِّمَةً. فَفِي سَنَةِ 1917 نَشَرَ السِّيَّدُ رَافَائِيلُ دِيمُوسُ Raphael Demos⁽¹⁾ فِي دَوْرِيَّةِ Mind نَتَائِجَ اسْتِبْانَةٍ شَمِلَ بِهَا أَذْكَى مَنْ يَعْرِفُ مِنْ غَيْرِ ذَوِي الْمَثُولِ الْفَلَسَفِيَّةِ- وَقَحَاوَاهَا: هَلْ وَاجِبَةٌ أَحَدُهُمْ بِصِفَةِ شَخْصِيَّةٍ وَاقِعَةٌ سَالِبَةٌ وَلَوْ مَرَّةً؟ فَجَاءَتْ إِجَابَاتُهُمْ جَمِيعًا مُتَّفِقَةً عَلَى أَنَّ "كُلَّ حَالَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ عَبَّرَ عَنْهَا مِنْ خِلَالِ قَضِيَّةٍ سَالِبَةٍ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ ذَاتَ طَبِيعَةٍ مُوجِبَةٍ، عَلَى نَحْوِ لَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِهِمْ أَنْ يَسْتَوْعِبُوهُ".

وَبِسَبَبِ رَغْبَةِ الْكَاتِبِ فِي عَدَمِ مُعَارَضَةِ هَذَا الْحُكْمِ التَّجْرِيئِيِّ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَجِيهِ غَامِرٍ فِي مُفَاتَشَةِ الاسْتِنْتِاجِ التَّقْلِيدِيِّ الَّذِي مَفَادُهُ أَنَّ الْوَقَائِعَ السَّالِبَةَ مُكُونٌ أَسَاسِيٌّ فِي الْعَالَمِ، وَاسْتَبْدَلَ بِهِ نَظْرِيَّةَ التَّنَاقُضِ بَيْنَ الْقَضَايَا الَّتِي يُفَسِّرُ عَلَى وَفْقِهَا نَحْوُ قَوْلِنَا: "جُونُ لَيْسَ فِي إِنْجَلْتِرَا" بِأَنَّهُ وَصَفَ لِقَضِيَّةٍ مُوجِبَةٍ ("جُونُ فِي بَارِيْسَ") مُنَافِيَّةٍ لِلْقَضِيَّةِ الْمَوْجِبَةِ الْمُنْفِيَّةِ فِي الْأَصْلِ ("جُونُ فِي إِنْجَلْتِرَا"). وَقَدْ أُغْرِي مُؤَلِّفَا كِتَابِ مَبَادِي الرِّيَاضِيَّاتِ Principia Mathematica⁽²⁾ بِهَذِهِ الْمُغَامَرَةِ

(1) رَافَائِيلُ دِيمُوسُ (1892-1968م). أَحَدُ الْفَلَسَفَةِ الْمُتَخَصِّصِينَ فِي فِلْسَفَةِ أَفْلَاطُونِ. دَرَسَ فِي جَامِعَةِ هَارْفَرْدِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1919 وَ1962، وَحَرَّرَ الْأَعْمَالَ الْكَامِلَةَ لِأَفْلَاطُونِ فِي سَنَةِ 1936، وَأَلَّفَ كِتَابَ (فِلْسَفَةُ أَفْلَاطُونِ) فِي سَنَةِ 1939. [المُتَرَجِّم]

(2) كِتَابٌ فِي ثَلَاثَةِ مَجْلَدَاتٍ فِي أَسْئِ الرِّيَاضِيَّاتِ، أَلَفَهُ الْفَرِيدُ نُوْرْتُ وَابْتِهَيْدُ وَبِرْتَرَانْدُ رَيْسِلُ، وَطُبِعَ فِي السَّنَوَاتِ: 1910، وَ1912، وَ1913. وَيَتَّبَعِي عَدَمَ الْخَلِيطِ بَيْنَ هَذَا الْكِتَابِ وَالْكِتَابِ الَّذِي قَدْ يَحْمِلُ فِي التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعُنْوَانَ نَفْسَهُ الَّذِي انْفَرَدَ بِرْتَرَانْدُ رَيْسِلُ بِتَالِفِهِ سَنَةَ 1903. [المُتَرَجِّم]

المنطقيَّةِ إغراءً شديداً اضطرَّ مَعَهُ إِلَى فَحْصِ الْحُجَّةِ بِدِقَّةٍ وَالْخُرُوجِ مِنْهَا بِالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَيَكُونُ 'مُنافِيَةً' incompatible 'مُطابِقَةً' لـ 'غَيْرِ مُوافِقَةٍ' not compatible 'سَمَحَ التَّأْوِيلُ نَفْسُهُ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ بِوَاقِعَةٍ سَالِبَةٍ، هَذَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رَغْبَتِهِمَا الَّتِي لَا يَكَادَانِ يَسْتَطِيعَانِ لَهَا كَبْحًا فِي التَّمْلُصِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْوَقَائِعِ السَّالِبَةِ الَّتِي لَحِظًا أَنَّهَا مُودَعَةٌ فِي صَدْرِ كُلِّ إِنْسَانٍ. وَلَوْ أُعِيدَ اسْتِعْمَالُ التَّأْوِيلِ مِنْ أَجْلِ التَّخْلُصِ مِنْ ذَلِكَ، لَسَمَحَ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ بِمُتَطَفِّلٍ آخَرَ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

عَلَى أَنَّهُ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُلْحَظَ أَنَّهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ كَانَتْ لَدَى السَّيِّدِ جُونسن W. E. Johnson مُدَاخَلَةٌ عَلَى صَفَحَاتِ دَوْرِيَّةِ Mind تَضَمَّنَتْ الْقَوْلَ الْآتِي: 'لَيْسَ فِي وَسْعِنَا إِلَّا أَنْ نَقُولَ إِنَّ 'مُنافِيَةً incompatible' تُعْنِي 'مُنافِيَةً لِمُوافِقَةٍ incompatible with compatible' - أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ: إِنَّ الْمُنَافِيَّةَ عِلَاقَةٌ مُوجِبَةٌ مُطْلَقَةٌ مِثْلَمَا أَنَّ الْمُوَافِقَةَ عِلَاقَةٌ مُوجِبَةٌ مُطْلَقَةٌ'. [291] وَقَدْ كَانَ مُتَوَقِّعًا أَنْ تُوجَدَ تَحَرُّكَاتٌ أُخْرَى فِي هَذَا الْاِتِّجَاهِ، وَبِمَكْنِ الْوُقُوفِ عَلَى بَعْضِهَا، حَقًّا، فِي كِتَابِ البروفيسور إيتن Eaton⁽³⁾ الَّذِي عُتَوَاتُهُ الرَّمْزِيَّةُ وَالصَّدْقُ Symbolism and Truth (1925).

عَلَى أَنَّ مَذْهَبَ الرَّمْزِيَّةِ يُتَبَحُّ لَنَا أَنْ نَحْسِمَ الْخِلَافَ بِهِدْوٍ يَجْذِبُ الْاِتِّبَاهَ إِلَى مَوْضِعِ النِّزَاعِ. إِذْ يُمْكِنُنَا حِينَئِذٍ تَطْبِيقُ نَظَرِيَّةِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْمَذْهَبُ ثُمَّ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا كَانَ سَبَبَ الْخِلَافِ.

فَالْخِلَافُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَرَاجِعِ الَّتِي لَهَا رُومُزٌ مُعَقَّدَةٌ مُعَيَّنَةٌ، وَهِيَ الرُّومُزُ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْبِيرِ 'غَيْرِ not' أَوْ مَا يُكَافِئُهُ. إِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِتَحْدِيدِ: 'أَوَاقِعَةٍ سَالِبَةٍ negative fact' تُعَدُّ مِثْلُ هَذِهِ الرُّومُزِ أَمْ 'لَيْسَتْ بِوَاقِعَةٍ not a fact'؟ وَبِالنتائج الْمُفْتَرَضَةِ لِهَذَا الْقَرَارِ. وَيُتَبَحُّ لَنَا الرُّجُوعُ إِلَى لَفْظِ (الوَاقِعَةِ) أَفْضَلَ يُضَاحِ لِلْمَسْأَلَةِ، إِذَا مَا تَرَكْنَا الْآنَ مُشْكِلَةَ (السَّالِبَةِ) جَانِبًا.

(3) رالف مونرو إيتن (1892-1932م). فِيلْسُوفٌ أَمْرِيكِيٌّ عُرِفَ بِدِرَاسَةِ عِلَاقَةِ نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِالْمَنْطِقِ وَالْمِيتَافِيزِيْقَا مَعَ إِدْمُونْدِ هُوسِيرِلِ وَالمَدْرَسَةِ الظَّاهِرَاتِيَّةِ لِلْفَلَسَفَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَلَا سِيَّامَا مَدْرَسَةَ فَرَايِبُورْغِ. أَهَمُّ مَوْلاَفَاتِهِ كِتَابُ (الرَّمْزِيَّةُ وَالصَّدْقُ-مُقَدِّمَةٌ لِنَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ). [المُتَرَجِّمُ]

إِنَّ الْقَضِيَّةَ، أَوِ الرَّمْزَ الْمُعَقَّدَ "مات تشارلز الأول على المِسْتَقَّة" تُسْتَعْمَلُ لِلإِحَالَةِ عَلَى مَرَجِعٍ مُعَقَّدٍ مُعَيَّنٍ. وَكُلَّمَا كَانَتْ ثَمَّةَ صِيغَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَيْسَ لَهَا مَرَجِعٌ أَحْفَقَتْ فِي أَنْ تَكُونَ رَمْزًا وَكَانَتْ هُراءَ. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَسْمَحُ الْمُؤَرِّخُونَ بِانْتِمَاءِ الْمَرَجِعِ إِلَى نِظَامٍ مِنَ الْمَرَاكِجِ يُطْلَقُونَ عَلَيْهِ اسْمُ 'أَحْدَاثٍ تَارِيخِيَّةٍ'.

فكَذَلِكَ يُقَالُ عَنِ الْعَلَامَةِ الْمُعَقَّدَةِ "أَصْبَحَ الإسْكَندَرُ السَّادِسُ صَائِدَ فَرَّانٍ" إِنَّ لَهَا مَرَجِعًا يَسْتَبْعِدُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنَ النِّظَامِ التَّارِيخِيِّ. وَهُمْ يَقَعْلُونَ ذَلِكَ بِحُجَّةٍ أَنَّ جَمِيعَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُنَاسِبَهَا هَذَا الْمَرَجِعُ مَشْغُولَةٌ بِمَرَاكِجٍ أُخْرَى. فَيَقُولُونَ حِينَئِذٍ (إِنْ كَانُوا رَمَزِينَ) إِنَّ هَذَا الْمَرَجِعَ يَنْتَمِي إِلَى نِظَامٍ آخَرَ⁽⁴⁾؛ فإِذَا أَنْ يَكُونَ نِظَامُ الْأَحْدَاثِ الْجَهَنَّمِيَّةِ لِرابيليه Rabelais⁽⁵⁾، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ نِظَامًا آخَرَ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْخَيَالِيَّةِ، أَوِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الْخِيَالِ - وَكُلُّهَا 'تَارِيخِي' بِالْمَعْنَى الْأَوْسَعِ لِلْأَحْدَاثِ الَّتِي وَقَعَتْ.

فإِنْ كَانَ الْمَرَجِعُ لِرَمْزٍ مُعْطًى مُنْتَمِيًا إِلَى النِّظَامِ الَّذِي نَبَحْتُ عَنْهُ فِيهِ فِعَادَةً مَا نَقُولُ: "الرَّمْزُ" (مَاتَ تشارلز الأول على المِسْتَقَّة) يُعَبَّرُ عَنْ وَاقِعٍ، أَوْ "إِنَّهُ لَوَاقِعٌ أَنَّهُ قَدْ (الرَّمْزُ)"، وَفِي أَحْيَانٍ أَكْثَرَ نَقُولُ: "الرَّمْزُ - أَيِ تشارلز الأول، إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ) صَادِقٌ". فَهَذِهِ الْأَقْوَالُ لَهَا الْمَرَجِعُ نَفْسُهُ، وَهُوَ الْمَرَجِعُ الَّذِي يُحَالُ عَلَيْهِ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ كِفَايَةٍ بِوَسَاطَةِ الرَّمْزِ الْمُعَقَّدِ: - 'يَنْتَمِي الْمَرَجِعُ إِلَى النِّظَامِ

(4) بِشَأْنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ بِهَا هُنَا الرَّمْزَانِ 'مَوْضِعٌ' وَ'مَرَجِعٌ' تُنْظَرُ الصَّفْحَةُ 198 مِنَ الْفَصْلِ الْخَامِسِ. وَإِذَا مَا قُلْنَا إِنَّ الْمَرَجِعَ يُحَدِّدُ لَهُ 'نِظَامٌ' فَإِنَّ 'النِّظَامَ' هُنَا اخْتِزَالٌ لِأَجْزَاءِ الْإِحَالَةِ الَّتِي بِمُسَاعَدَتِهَا تُحَاوَلُ التَّحَقُّقُ. وَأَكْثَرُ الْأَنْظِمَةِ شُبُوحًا فِي الْإِسْتِعْمَالِ هِيَ 'التَّارِيخِيَّةُ'، وَ'الْفِعْلِيَّةُ'، وَ'الْفِيزِيَاثِيَّةُ'، وَ'السَّايَكُولُوجِيَّةُ'، وَ'الْخَيَالِيَّةُ'، وَ'الْحُلُمُ'. وَبَعْضُ الْأَنْظِمَةِ تُولَدُ مُشْكِلاتٍ صَغِيرَةٍ خَاصَّةً، بِمِثْلِ 'النِّظَامِ الدِّرَامَاتِيكِيِّ'.

(5) فرانسوا رابيليه (1494-1553م). كَاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ كُتَّابِ عَصْرِ النَهْضَةِ، وَطَبِيبٌ، وَرَاهِبٌ، وَعَالِمٌ بِالْيُونَانِيَّةِ. يُعَدُّ أَحَدَ أَعْظَمِ الْكُتَّابِ عَلَى مُسْتَوَى الْعَالَمِ، وَأَحَدَ مُؤَسِّسِي أَسْلُوبِ الْكِتَابَةِ الْأُورُوبِيِّ الْحَدِيثِ. أَهَمُّ مَوْلَفَاتِهِ سِلْسَلَةُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْهَزْلِيَّةِ عَنْوَانُهَا (غَارْغَاتُوا وَبَاتَاغَرُويل)، وَهِيَ تَرْوِي قِصَّةَ عِمْلَاقَيْنِ: أَبِ اسْمِهِ غَارْغَاتُوا، وَابْنِ لَهُ اسْمُهُ بَاتَاغَرُويل، وَمُغَامَرَاتِهِمَا، بِأَسْلُوبٍ مُنْعَجٍ، وَمُبَالِغٍ، وَسَاخِرٍ. [الْمُرْجِمُ]

المُحَدَّد لَهُ (بِالسِّيَاقِ أَوْ عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ) بِوَسَاطَةِ الإِحَالَةِ". [292]

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِنْ كَانَ الْمَرْجِعُ مُتَمَيِّناً إِلَى نِظَامٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي نَبَحْتُ عَنْهُ فِيهِ فحَيْثُذُ نَمِيلُ إِلَى أَنْ نَقُولَ، إِنْ كَانَتْ دِرَاسَتُنَا بِهَذَا النِّظَامِ كَافِيَةً:-

(1) الْقَوْلُ إِنْ تَشَارَلَزَ الْأَوَّلُ مَاتَ فِي فِرَاشِهِ مُضَادًّا لِلوَاقِعِ.

(2) (الرَّمْزُ، أَيْ 'تَشَارَلَزَ الْأَوَّلُ، إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ') لَا يُعْبَرُ عَنْ وَاقِعٍ.

(3) (الرَّمْزُ) يُعْبَرُ عَمَّا لَيْسَ بِوَاقِعٍ.

(4) إِنَّهُ لَيْسَ بِوَاقِعٍ أَنَّ (الرَّمْزَ).

(5) إِنَّهُ لَوَاقِعٌ أَنَّ (الرَّمْزَ، مَعَ 'غَيْرِ not' مُقَدَّمَةً عَلَى نَحْوِ مُنَاسِبٍ).

وَيُمْكِنُ أَنْ يُلْحَظَ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمَرْجِعَ نَفْسَهُ. إِنَّهَا تُوضِحُ التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تَخْضَعُ لَهَا الْعَلَامَاتُ لِتُهَيِّئَ تَيْسِيرًا لُغَوِيًّا وَلِتَكُونَ مَصْدَرُ شَقَاءٍ لِلْمَنَاطِقَةِ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَكْثَرُ الْأَقْوَالِ إِثَارَةً لِلْفُضُولِ. إِذْ إِنَّهُ شَكْلٌ مَضْغُوطٌ لِيَتَوَسَّعَ مَا، وَهُوَ تَوَسَّعٌ فِي الْإِتِّجَاهِ إِلَى نَظَرِيَّةِ السَّيِّدِ دِيمُوسَ كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ الْخَامِسَ هُوَ تَحَوُّلٌ فِي مَصْلَحَةِ خَصْمِهِ. فَبَدَلًا مِنْ 'لَوَاقِعٍ' يُمْكِنُ أَنْ نَضَعُ 'لَصَادِقٌ' أَوْ 'لَصِدْقٌ'، وَبَدَلًا مِنْ 'لَيْسَ بِوَاقِعٍ' يُمْكِنُ أَنْ نَضَعُ 'كَاذِبٌ' أَوْ 'لَيْسَ صَادِقًا'. وَفِي وَسْطِ الْفِيلُولُوجِيَّيْنِ الْمُؤَلِّعَيْنِ بِالْإِحْصَاءَاتِ أَنْ يُحْصَوْا مَا يَكُونُ تَحْتَ تَصَرُّفِنَا حَيْثُذُ مِنَ الْأَبْدَالِ الَّتِي تُجَنَّبُنَا الرِّتَابَةَ فِي كِتَابَاتِنَا النَّثْرِيَّةِ. وَفِي الْآتِي عِلَامَةٌ مُعَقَّدَةٌ أَكْثَرُ كِفَايَةً مَعَ الْمَرْجِعِ الَّذِي تُحِيلُ عَلَيْهِ جَمِيعُ تِلْكَ الْأَقْوَالِ:-

إِنَّ مَرْجِعَ (الرَّمْزِ) يَنْتَهِي إِلَى نِظَامٍ آخَرَ لِلْمَرَاجِعِ غَيْرِ الَّذِي هُوَ مُحَدَّدٌ لَهُ (عَلَى نَحْوِ سِيَاقِي أَوْ عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ).

وَأَصَحُّ مِنْ ذَلِكَ إِسْقَاطُ الْمُكْمَلَيْنِ الرَّمَزِيَّيْنِ 'مَرْجِعٍ' أَوْ 'نِظَامٍ'، لِيَكُونَ النَّتِيجَةُ:- إِنْ الإِحَالَةُ الَّتِي تَسْتَعْمِلُ (الرَّمْزَ)، لَهَا مِنَ الْإِحَالَاتِ الْجُزْئِيَّةِ مَا لَا تَقْوَى مُجْتَمِعَةً عَلَى تَكْوِينِ إِحَالَةٍ لَأَيِّ حَدَثٍ.

فَالوَاقِعَةُ، إِذَنْ، هِيَ مَرْجِعٌ يَنْتَهِي إِلَى النِّظَامِ الْمُحَدَّدِ لَهُ. وَهَذَا التَّعْرِيفُ

لـ'الواقعة' يحلُّ 'مشكلة الوقائع السالِبة' التي كُنّا قد ابتدأنا بها. ولا يُمكنُ أن يحلّها سواه. إنّ المرجع الجزئيّ للرّمز المُعقّد (1) 'تشارلز الأوّل لم يمتّ على المُشَنَّق' هو المرجعُ الجزئيّ كذلك للرّمز المُعقّد (2) 'تشارلز الأوّل مات على المُشَنَّق'، لكنّ بتحديد مُختلف. ويُمكنُ أن يُقالَ بِعبارة أوضح إنّ الشّكل المُوسّع لـ(1) هو: 'مرجع الرّمز 'تشارلز الأوّل مات على المُشَنَّق' ينتمي إلى نظام آخر غير نظام الأحداث التاريخيّة'. والشّكل المُوسّع لـ(2) هو: 'مرجع الرّمز 'تشارلز مات على المُشَنَّق' ينتمي إلى نظام الأحداث التاريخيّة'. وما دام المُؤرّخون يَجِدُون مرجع 'تشارلز الأوّل مات على المُشَنَّق' في النّظام التّاريخيّ ففي وسعنا أن نقولَ إنّ (1) كاذبٌ و(2) صادقٌ، لكنّنا بذلك لا نفعلُ سوى استعمالِ أقوالٍ بديلة.

والحالة المَعكوسة للرّمزين (1) 'تشارلز الأوّل لم يمتّ [293] في فراشه' و(2) 'تشارلز الأوّل مات في فراشه' نعالجُ بالطريقة نفسها. إذ يتوسّع (1) ليُصبح 'مرجع 'تشارلز الأوّل مات في فراشه' ينتمي إلى نظام آخر غير نظام الأحداث التاريخيّة'. ويتوسّع (2) ليُصبح 'مرجع 'تشارلز الأوّل مات في فراشه' ينتمي إلى نظام الأحداث التاريخيّة'. ويَجِدُ المُؤرّخون 'المَوْضِع' في النّظام التّاريخيّ الذي يُمكنُ أن يشغله هذا المرجعُ مشغولاً بمرجع آخر. لذا في وسعنا أن نقولَ إنّ (1) صادقٌ و(2) كاذبٌ، أو إنّ (1) يُحيلُ على واقعة و(2) لا يُحيلُ على واقعة، أو يُحيلُ على ما ليسَ بِواقعة أو على واقعة سالِبة، لكنّنا بِقولنا ذلك لا نفعلُ سوى استعمالِ اختِزالاتٍ مُتنافسة، مُطوّرة لأغراضِ التّيسير اللغويّ.

إنّ قطعة الحبلِ يُمكنُ أن تُربط الرّزمة الواحدة سواء أكانت لها عقدة أم لم تكن. وليست ثمة زيادةٌ تَميّز للرّزم التي يُصادفُ أن تُربط بِحبلٍ يشتملُ على عُقْد. فهي ليست 'رّزماً تشتملُ على عُقْد' ولا 'رّزماً مَعقودة'، بل إنّها رّزَمٌ صادقةٌ فَحَسْبُ. على نحوٍ مشابهٍ يَنبغي أن يكونَ واضحاً أنّه على الرّغم من أنّ القضايا التي تشتملُ على عناصرٍ سالِبةٍ تَخْتَلِفُ، بِوصفها قضايا، عن التي تخلو من (الأغيارِ nots) لا يَتَضَمَّنُ التّمايزُ فروقاً مُناظرةً في الموضوعاتِ المُحالِ عليها،

أو صنفًا خاصًا من الموضوعات السالِبة. ولا شك في أن هذا يَصْدُقُ على حَدِّ سَوَاءٍ في حالة عَدَمِ اسْتِعْمَالِ العُنْصُرِ السَّالِبِ إِلَّا بِوَصْفِهِ إشارَةً إلى عَلاقَةٍ بَيْنَ الرُّمُوزِ، كما في المُسَلِّمَةِ الرَّابِعَةِ لِبَيَانُو Peano⁽⁶⁾ "الصَّفَرُ لَيْسَ رَقْمًا تَالِيًا لِأَيِّ رَقْمٍ"، وفي حالة الموضوعات التي يُصَادَفُ أَتْنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحِيلَ عَلَيْهَا بِوَسِيلَةٍ لُغَوِيَّةٍ أُخْرَى. وَحِينَ نُنَازِعُ بِشَأْنِ إِيْجَابِ واقِعَةٍ مَا أَوْ سَلْبِهَا، أَوْ بِشَأْنِ وُجُودِ 'وَقَائِعٍ' سَالِيَةٍ، إِنَّمَا نَخُوضُ فِي نَقْدِ الْأَسَالِبِ الثَّرَوِيَّةِ الْمُتَنَافِسَةِ.

وَقَدْ يَكُونُ أَفْضَلُ مَا يُشِيرُ إِلَى قِيَمَةِ إِهْمَالِ مِثْلِ هَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ حِكَايَةً رَمِيزِيَّةً تَخْصُصُ الْأُمِّيَا-

قَالَتِ الْمَشِيئَةُ Will: "تَحَقَّقِي، عَزِيزَتِي الْأُمِّيَا"، فَتَحَقَّقَتِ الْأُمِّيَا، وَلَمْ يَكُنْ التَّحَوُّلُ يَسِيرًا بَلْ كَانَتْ هُنَاكَ عِدَّةُ عَقَبَاتٍ حَيْثُ أَخَذَ الزَّمَنُ الْجَامِيعُ يَنْمُو وَيَنْمُو. وَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ ظَهَرَ الْإِنْسَانُ Homo. كَيْفَ How كَانَ ذَلِكَ؟ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي. وَسَمَّى الْإِنْسَانُ التَّحَوُّلَ ارْتِقَاءً Progress، وَالْكَيفُ إِلَهَا God... فَالْكَلَامُ كَانَ عَلَى الدَّوَامِ مَصْدَرٌ رَاحَةٌ Comforter. وَحِينَ شَرَعَ الْإِنْسَانُ يَدْرُسُ أَقْسَامَ الْكَلَامِ نَسَجَ لِنَفْسِهِ شَبَكَةً مِنَ الْكَلِمَاتِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَصْغَى إِلَى نَفْسِهِ، وَأَطْرَقَ مُفَكِّرًا فَابْتَكَرَ مُجَرَّدَاتٍ، تَجْسِيدِيَّةً وَتَمْجِيدِيَّةً. فَبِذَلِكَ نَشَأَتِ الْكَنِيسَةُ وَالْدَّوْلَةُ وَالْكِفَاحُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؛ فَكَثِيرًا مَا تَسَبَّبَ الْإِنْسَانُ فِي مَوْتِ الْبَشَرِ فِي سَبِيلِ مُجَرَّدَاتٍ مُجَسَّدَةٍ وَمُمَجَّدَةٍ، وَسَارَ الْأَبْنَاءُ عَلَى دَرْبِ آبَائِهِمْ؛ [294] فَهَذَا مَا تَرَبَّوْا عَلَيْهِ. وَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ شَرَعَ الْإِنْسَانُ يَنْكِصُ عَمَّا كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بِهِ.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ظَهَرَ الْعَقْلُ Reason، الَّذِي قَالَ: "مَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى فِعْلِ مَا فَعَلْتَ؟".

(6) جِيوسِيبي بِيَانُو (1858-1932م). عَالِمٌ رِيَاضِيَّاتٍ إِيطَالِيٌّ. اشْتَهَرَ بِمُسَلِّمَاتِهِ الَّتِي تُعْرَفُ بِمُسَلِّمَاتِ بِيَانُو، وَهِيَ فِي عِلْمِ الْمَنْطِقِ الرِّيَاضِيِّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُسَلِّمَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَعْدَادِ الطَّبِيعِيَّةِ أَوْجَدَهَا بِيَانُو فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ. وَقَدْ اسْتَعْمِلَتْ هَذِهِ الْمُسَلِّمَاتُ كَمَا هِيَ وَمِنْ غَيْرِ تَعْدِيلَاتٍ تُذَكِّرُ فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَبْحَاثِ الرِّيَاضِيَّةِ أَهْمُهَا التَّثْبُتُ مِنْ اتِّسَاقِ نَظَرِيَّةِ الْأَعْدَادِ وَكَمَالِهَا. مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفَاتِهِ: مَبَادِئُ الْحِسَابِ عَلَى وَفْقِ مَنَهْجٍ جَدِيدٍ، وَالْكِتَابُ الْأَسَاسُ فِي الْمَنْطِقِ الرِّيَاضِيِّ. [المُتَرَجِّمُ]

فقال الإنسان: "عَرَّرَ بِي الْكَلَامُ".

فأجابهُ العقلُ بِقَوْلِهِ: "فاذْهَبِ الْآنَ وابْحَثْ عن مَذْهَبِ الرَّمْزِيَّةِ لِيُظْهَرَ لَكَ مَدَى تَمَسُّكِكَ بِالْأَوْهَامِ وَتَخْلِيكَ عن الْعَقْلِ"⁽⁷⁾.

يَبْدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يُضْغِ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ، وَتَعَاظَمَتْ خَطِيئَتُهُ بِأَنْ كَانَ مُتَكَبِّراً وَعَنِيداً أَيْضاً. إِذْ قَالَ بِوصْفِهِ فِيلْسُوفًا وَرَجُلًا اقْتِصَادًا: "سَتَجِدُهُ صَوَّبَ إِيْلَاءِ هَذَا الْأَمْرِ اهْتِمَامًا مُتَأَنِّيًا". وَتَسَاءَلَ بِوصْفِهِ مُحَارِبًا عَائِدًا: "مَاذَا قُلْتَ يَا جَدَّتِي بِشَأْنِ الْحُرُوبِ الْعَالَمِيَّةِ؟". وَبِصِفَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْخَالِصَةِ ظَلَّ يَنْشُرُ بِوَقَارٍ مُفْرَدَاتٍ مُلْبِسَةً- وَمَا انْفَكَّتِ الشَّبَكَةُ تَشْتَدُّ وَأَخَذَ الْإِنْسَانُ يَزْدَادُ عِيًّا.

ثُمَّ أَبْدَى الْعَقْلُ شَفَقَةً نَحْوَهُ، وَمَنَحَهُ الضَّمِيرَ اللُّغَوِيَّ، وَقَالَ بِرِفْقٍ مَرَّةً أُخْرَى: "انْظُرِي الْآنَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَكُنْ رَجُلًا! تَخْلُصُ مِنْ شَبَكَةِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي نَسَجَتْهَا، لِئَلَّا تَخْتَنِقَ بِهَا. وَاَنْظُرِي! إِلَى مَذْهَبِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي يُفْسِرُ كُلَّ شَيْءٍ. مَا قَوَائِنُ الْعِلْمِ؟ أَلَيْسَتْ هِيَ اخْتِزَالُكَ التَّصَوُّرِيَّ الشَّخْصِيَّ؟".

فاحمَرَّ وَجْهُ الْإِنْسَانِ خَجَلًا.

فَتَسَاءَلَ الْعَقْلُ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا: "مَا الْعَدْدُ؟ أَلَيْسَ هُوَ فِتْنَةٌ مِنَ الْفِتَنَاتِ؟ أَوْ لَيْسَتْ الْفِتَنَاتُ أَنْفُسُهَا هِيَ تَخْيِيلَاتُكَ الشَّخْصِيَّةِ الْمُرَبِّحَةِ؟ وَتَأْمَلُ قِمَّةَ الْجَبَلِ

(7) الأَصْلُ الْإِنْجِلِيزِيٌّ لِهَذِهِ الْفِقْرَةِ هُوَ: "Go to now and seek the doctrine of Symbolism which showeth that the bee buzzeth not in the Head but in the Bonnet". وَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ لَهَا هِيَ: "فاذْهَبِ الْآنَ وابْحَثْ عن مَذْهَبِ الرَّمْزِيَّةِ الَّتِي يُظْهَرُ أَنَّ النُّحْلَ لَا يَطْنُ فِي الرَّأْسِ وَلَكِنْ فِي الْقُبَّعَةِ". وَالتَّعْبِيرَانِ bee in one's head و bee in one's bonnet يُقْصَدُ بِهِمَا فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ انْشِغَالُ الْعَرءِ بِمَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الْغَرِيبَةِ الْمُتَوَهِّمَةِ انْشِغَالًا يَذْهَبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهَا. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْمُؤَلِّفِينَ قَدْ سَاقَا هَذَيْنِ التَّعْبِيرَيْنِ فِي الْفِقْرَةِ السَّابِقَةِ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ؛ فَالْحَدِيثُ مُوجَّهٌ مِنَ الْعَقْلِ إِلَى الْإِنْسَانِ الَّتِي ضَلَّ سَبِيلَ الْعَقْلِ وَاتَّبَعَ أَوْهَامًا مُحَضَّةً مَنَشُوهًا عَادَاتٍ كَلَامِيَّةً ضَالَّةً أَوْصَلَتْهُ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ تَعَاسُؤٍ وَشَقَاءٍ. [المُتَرْجِمُ]

Mountain Top⁽⁸⁾ - إنها لا تَوُزُّ ولا تَدُورُ it Hums not neither does it Spin .
فَكَفَّ إِذَنْ عَنِ الاسْتِمَاعِ إِلَى صَجِيجِ الْأَزِيرِ. وَلَا تُرْهِقُ نَفْسَكَ فِي حَلِّ خُيُوطِ
الشَّبَكَةِ الَّتِي لَمْ تُغْزَلْ spun قَطُّ .

فَأَجَابَ الْإِنْسَانُ بِقَوْلِهِ: 'صَحِيحٌ' .

فَعِنْدَئِذٍ طَفِقَ الْعَقْلُ وَالْإِنْسَانُ يُعْنِيَانِ التَّرْنِيمَةَ 1923 'المَجْدُ لِلْإِنْسَانِ فِي
الْأَعَالِي'⁽⁹⁾؛ فَالْإِنْسَانُ سَيِّدُ الْكَلِمَاتِ - سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَعِشْرِينَ وَتِسْعِينَ وَأَلْفٌ .

وَمَا زَالَ صَوْتُ التَّرْنِيمَةِ يَرِنُ فِي آذَانِنَا .

وَبِذَلِكَ انْتَهَى تَحَقُّقُ الْأُمِّيَا إِلَى تَحَقُّقِ الْعَلَطِ .

'صَحَّحَ الْإِلَهُ حِينَ خَلَقَ الصَّحَارَى' ، هَذَا مَا قَالَهُ مَثَلُ إِفْرِيقِي قَدِيمٍ - لَكِنْ

قَدْ يَكْتَشِفُ الْإِنْسَانُ بَعْدَ فَوَائِدِ الْغُبَارِ . [295]

(8) سَبَقَ أَنْ أَشْرَحْنَا إِلَى أَنَّ كَلِمَةَ top فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ قَدْ يَنْصَرِفُ مَعْنَاهَا إِلَى الْقِيَمَةِ وَإِلَى اللَّغْبَةِ
الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا وَتُضَدِّدُ أَزِيرًا. فَالْمُؤَلِّفَانِ يَسْتَعْمِلَانِ هَذِهِ الْمَادَّةَ اللَّغَوِيَّةَ الَّتِي هِيَ مِنَ
الْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ لِاحْدَاثِ الْمَفَارَقَةِ الْمَطْلُوبَةِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(9) إِشَارَةٌ إِلَى الْآيَةِ 14 مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا: 'الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ،
وَبِالنَّاسِ الْمَسْرُورَةِ'. [الْمُتَرْجِمُ]

المُلْحَقُ الأوَّل

مُشْكَلَةُ الْمَعْنَى فِي اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ

بِقَلَمِ برونسلاف مالينوفسكي⁽¹⁾

Bronislaw Malinowski, Ph.D., D. Sc.

أستاذ الأنثروبولوجيا السابق في جامعة لندن

1. الحاجة إلى عِلْمٍ لِلرَّمْزِيَّةِ وَالْمَعْنَى كالذي قَدَّمَهُ أوغدين ورتشاردز في هذا المُؤَلَّفِ. هذه الحاجة تُنَمِّثُ بِالصُّعُوبَاتِ الَّتِي واجَّهَهَا عُلَمَاءُ الْأَعْرَاقِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ.

(1) برونسلاف كامبر مالينوفسكي (1884-1942م). أنثروبولوجي بولندي، ومن أهم الرُّوَادِ فِي الْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا التَّطْبِيقِيَّةِ. حَصَلَ عَلَى دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاهِ فِي الْفَلَسَفَةِ مِنْ جَامِعَةِ جَاجِيُولُونِيَا سَنَةَ 1908، وَكَانَتْ الرِّيَاضِيَّاتُ وَالْعِلْمُ الْفِيْزِيَّائِيَّةُ مَحَوْرَ اِهْتِمَامِهِ. تَدَهَوَّرَتْ حَالَتُهُ الصَّحِيَّةُ فِي أَثْنَاءِ دِرَاسَتِهِ، وَفِي أَثْنَاءِ تَعَامُلِهِ قَرَّرَ أَنْ يَتَخَصَّصَ فِي الْأَنْثْرُوبُولُوجِيَا بَعْدَ أَنْ قَرَأَ كِتَابَ جَيْمِس فَرِيْزَر (الْغَصْنُ الذَّهَبِيّ). فَدَرَسَ عِلْمَ الْأَعْرَاقِ فِي جَامِعَةِ لَايْبَزَغِ عَلَى عَالِمِ الْأَقْتِصَادِ كَارْل بُوخِر وَعَالِمِ النَّفْسِ فِلْهَلْم فُونْت. وَانْتَقَلَ سَنَةَ 1910 إِلَى إِنْجِلْتَرَا حَيْثُ دَرَسَ عَلَى يَدِ وَيسْتَرْمَارِك. وَسَافَرَ سَنَةَ 1914 إِلَى بَابُوا غِينِيَا الْجَدِيدَةِ حَيْثُ أَجْرَى بَعْضَ الْأَبْحَاثِ الْمِيدَانِيَّةِ فِي مَنطِقَةِ مَایِلُو ثُمَّ فِي مَنطِقَةِ جُزُرِ تَرُورِيَانْد. وَفِي رَحْلَتِهِ إِلَى تِلْكَ الْمَنطِقَةِ تَأَهُ وَضَاعَ أَثْرُهُ، وَانْدَلَعَتْ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى، فَالَقَتْ الْقَوَاتُ الْأُسْتِرَالِيَّةُ الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَخَيَّرَتْهُ بَيْنَ أَنْ يُنْفَى إِلَى جُزُرِ تَرُورِيَانْد وَأَنْ يُحْتَجَزَ حَتَّى انْتِهَاءِ الْحَرْبِ، فَاخْتَارَ النَّفْيَ، وَذَهَبَ إِلَى جُزُرِ تَرُورِيَانْد وَحِيدًا، وَأَجْرَى أَبْحَاثَهُ الْمِيدَانِيَّةَ فِيهَا، وَمَا زَالَتْ النَّتَاجُ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ وَالْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي اتَّبَعَهَا ذَوَاتِ أَثَرٍ كَبِيرٍ =

2. تحليل لِكَلَامٍ بِدَائِي يُظْهِرُ مُشْكِلَاتِ الْمَعْنَى الْمُعَقَّدَةِ الَّتِي تَنْقُلُنَا مِنْ دِرَاسَةِ اللِّسَانِيَّاتِ وَحَدَّهَا إِلَى دِرَاسَةِ الثَّقَافَةِ وَعِلْمِ النَّفْسِ الاجْتِمَاعِيِّ. هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَعِلْمِ الْأَعْرَاقِ تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَسْتَنْيرَ بِنَظَرِيَّةٍ لِلرَّمُوزِ مُطَوَّرَةٍ فِي سَطُورِ الْعَمَلِ الْحَالِيِّ.

3. مَفْهُومُ 'سِيَاقِ الْحَالِ Context of Situation'. اخْتِلَافٌ فِي الرُّؤْيَى اللِّسَانِيَّةِ الْمُتَاحَةِ أَمَامَ الْفِيلُولُوجِيِّ الَّتِي يَدْرُسُ اللُّغَاتِ الْمَيَّتَةَ وَالتَّقْوِشَ، وَأَمَامَ عَالِمِ الْأَعْرَاقِ الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَاطَلَ مَعَ اللِّسَانِ الْبِدَائِيِّ الْحَيِّ الَّتِي لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا فِي التَّطْعِ الْفِعْلِيِّ. جَدْوَى دِرَاسَةِ الْمَوْضُوعِ الْحَيِّ أَكْبَرُ مِنْ جَدْوَى دِرَاسَةِ بَقَايَاهُ الْمَيَّتَةِ. 'الْحَالُ الْعَلَامِيَّةُ' الَّتِي قَدَّمَهَا الْكَاتِبَانِ تُطَابِقُ 'سِيَاقِ الْحَالِ' الْمَطْرُوحَ هُنَا.

4. عَدُّ اللُّغَةِ، فِي وَظِيفَتِهَا الْبِدَائِيَّةِ، ضَرْبًا مِنَ الْعَمَلِ *mode of action*، لَا بِإِمضاءِ لِلْفِكْرِ *countersign of thought*. تَحْلِيلُ لِحَالٍ كَلَامِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ وَسَطِ الْهَمْجِيِّينَ. الْاسْتِعْمَالَاتُ الْبِدَائِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْكَلَامِ: الْكَلَامُ الْعَمَلِيُّ، وَالْمُعَالَجَةُ الشَّعَائِرِيَّةُ لِلْكَلِمَاتِ، وَالْحِكَايَةُ، وَ'الْإِتِّصَالُ الْإِرْتِبَاطِيُّ phatic communion' (الْكَلَامُ فِي حَالَةِ الْخُلُطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ).

5. مُشْكِلَةُ الْمَعْنَى فِي اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ. تَكْوِينُ عَقْلِيٍّ لِلْمَعْنَى بِإِدْرَاكِ وَاعٍ غَيْرِ بِدَائِيٍّ. وَجْهَةٌ نَظَرٍ بَابُولُوجِيَّةٍ بِشَأْنِ الْمَعْنَى فِي رُدُودِ الْفِعْلِ الصَّوْتِيَّةِ غَيْرِ الْإِفْصَاحِيَّةِ، [296] الَّتِي تَكُونُ تَعْبِيرِيَّةً، وَدَالَّةً، وَمُرْتَبِطَةً بِالْحَالِ. الْمَعْنَى فِي الْحَقَبِ الْمُبَكَّرَةِ لِلْكَلَامِ الْإِفْصَاحِيِّ. مَعْنَى الْكَلِمَاتِ مُتَجَدِّزٌ فِي فَعَالِيَّتِهَا الْبَرَاغْمَاتِيَّةِ. أُصُولُ الْمَوْقِفِ السُّحْرِيِّ تَجَاةَ الْكَلِمَاتِ. الْإِبْثَاتُ الْإِنْثَوِغْرَافِيُّ

= في الدراسات الإنسانية التطبيقية إلى يومنا هذا. وفي سنة 1922 حصل ماينوفسكي على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا وأصبح أستاذًا في مدرسة الاقتصاد في لندن. وفي العام نفسه أصدر كتابه (مستكشفو غرب المحيط الهادئ) الذي حظي بمكانة عالية مرموقة، وأصبح ماينوفسكي بسببه من أشهر الأنثروبولوجيين في العالم. ومن آثاره الأخرى: الأسطورة في علم النفس البدائي، والجريمة والعرف في المجتمع الهمجوي. [المترجم]

والتشويهي لآراء أوغدين ورتشاردز في المعنى والتعريف.

6. مُشْكِلَةُ الْبِنْيَةِ النَّحْوِيَّةِ. أَيْنَ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ الْأَنْمُوذَجُ الْأَصْلِيُّ لِلْفَصَائِلِ النَّحْوِيَّةِ. رَفَضُ التَّفْسِيرَاتِ 'الْمَنْطَقِيَّةِ' وَ'النَّحْوِيَّةِ الْخَالِصَةِ'، وَجُودُ فَصَائِلَ وَإِيعِيَّةٍ فِي النُّظَرَةِ الْبَرَاغِمَاتِيَّةِ لِلرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ، تُنَاطِرُ الْفَصَائِلَ الْبِنَائِيَّةَ لِلْعَةِ. مِثَالُ ذَلِكَ طَبِيعَةُ الْأَسْمِ وَأَقْسَامُ الْكَلَامِ الْآخَرَى.

(1)

اللُّغَةُ، بِوُضَائِفِهَا الْأَدَبِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الْمُطَوَّرَةِ، أَدَاءٌ لِلْفِكْرِ وَلِتَوْصِيلِ الْفِكْرِ. وَقَدْ كَانَتْ الْإِسْتِعْمَالُ الْمُلَاطَمَ لِهَذِهِ الْأَدَاءِ هُوَ الْهَدَفُ الْأَوْضَحُ لِدِرَاسَةِ اللُّغَةِ. وَقَدْ كَانَتْ الْبَلَاغَةُ، وَالنَّحْوُ، وَالْمَنْطِقُ تُدْرَسُ فِي الْمَاضِي، وَمَا زَالَتْ، تَحْتَ عُنْوَانِ الْفُنُونِ، وَغَالِبًا مَا تُدْرَسُ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ عَمَلِيَّةٍ مَعْيَارِيَّةٍ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ وَضْعَ الْقَوَاعِدِ، وَاخْتِيَارَ صِيغَتِهَا، وَإِحْرَازَ الْكَمَالِ فِي الْأَسْلُوبِ مَوْضُوعَاتُ دِرَاسِيَّةٍ مُهِمَّةٌ وَشَامِلَةٌ، وَلَا سِيَّمًا أَنَّ اللُّغَةَ تَنُمُو وَتَتَطَوَّرُ بِتَطَوُّرِ الْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ، بَلْ تَقُودُ هَذَا التَّقَدُّمَ بِمَعْنَى مُعَيَّنٍ.

عَلَى أَنَّ كُلَّ الْفَنِّ الَّذِي يَحْتَاجُ بِالْمَعْرِفَةِ لَا بِالْإِلْهَامِ يَجِبُ أَنْ يُحَوَّلَ نَفْسُهُ فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ إِلَى دِرَاسَةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّا نُسَاقُ مِنْ كُلِّ زَوَايَا الْمُقَارَبَةِ إِلَى نَظَرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ لِلْعَةِ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ سَبَقَ أَنْ كَانَتْ لَنَا فِي مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مَا، جَنَّبًا إِلَى جَنْبِ مَعَ فُنُونِ اللُّغَةِ، مُحَاطَاتٍ عَرَضِيَّةٍ أَوْ حَلٍّ لِمُشْكِلَاتٍ نَظَرِيَّةٍ خَالِصَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لُغَوِيَّةٍ الشَّكْلِ وَالْمَعْنَى، جَرَتْ مُقَارَبَتُهَا الرَّئِيسَةُ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ سَايَكُولُوجِيَّةٍ. وَيَكْفِي، فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَنْ نَذْكُرَ أَسْمَاءَ هَمْبُولْت W. von Humboldt، وَلَا زَارُوس Lazarus⁽²⁾ وَشَتَاينْتَال Steinthal، وَوِثْنِي Whitney⁽³⁾، وَمَاكْس مُلَر Max Müller،

(2) موريتز لازاروس (1824-1903م). فيلسوف، وعالم نفس ألماني. أهمُّ مبادئ من مبادئ فلسفته أَنَّ الْحَقِيقَةَ يَجِبُ أَلَّا يُبَحِّثَ عَنْهَا فِي الْمَجْرَدَاتِ الْمِيتَافِزِيكِيَّةِ، بَلْ فِي الْبَحْثِ السَايَكُولُوجِيِّ، وَأَنَّ هَذَا الْبَحْثَ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقْتَصِرَ بِنَجَاحٍ عَلَى الْوَعْيِ الْفَرْدِيِّ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ الْمَجْتَمَعُ كُلُّهُ. مِنْ مَوْثِقَاتِهِ: عِلْمُ الْأَخْلَاقِ فِي الْيَهُودِيَّةِ، وَتَقْدِيسُ الْحَيَاةِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ. [الْمُتَرْجِمُ]

(3) وليم دوايت وِثْنِي (1827-1894م). لِسَانِي، وَفِيلُولُوجِي، وَمُعْجَمِيٌّ أَمْرِيكِي حَرَزَ مُعْجَمَ =

وَمِستيلي Misteli⁽⁴⁾، وسويت Sweet⁽⁵⁾، وفونت Wundt⁽⁶⁾، وباول Paul⁽⁷⁾،
وفنك Finck⁽⁸⁾، وروزفادوفسكي Rozwadowski⁽⁹⁾، وفيغينر Wegener⁽¹⁰⁾،

= القرن. ذهب سنة 1850 إلى ألمانيا ودرس السنسكريتية ثلاث سنوات، وأصبح سنة 1854 أستاذ السنسكريتية في جامعة بيل، وكذلك الفيلولوجيا المقارنة سنة 1869. من مؤلفاته: اللغة ودراسة اللغة، والداروينية واللغة، وحياء اللغة ونموها- موجز لعلم اللغة. [المترجم]

(4) فوانز مستيلي (1841-1903م). لسانى، وفيلولوجى كلاسيكى سويسرى. درس الفيلولوجيا الكلاسيكية في جامعة زيورخ، وعمل بعد ذلك مدرّسا ليونانية واللاتينية. وأصبح منذ سنة 1874 أستاذاً مشاركاً للسانيات المقارنة في قسم الفيلولوجيا الكلاسيكية في جامعة بازل، ثم أستاذاً في سنة 1877. من أهم مؤلفاته كتاب (موجز في اللسانيات). [المترجم]

(5) هنري سويت (1845-1912م). فيلولوجى، وأصواتى، ونحوى إنجليزى. تخصص في اللغات الجرمانية، ولا سيما الإنجليزية القديمة. وألّف كتباً في الأصوات والنحو وتعليم اللغات. من آثاره: الدراسة العملية للغات، وموجز في علم الأصوات، وتاريخ اللغة. [المترجم]

(6) فلهلم فونت (1832-1920م). عالم نفس ألماني. يُعدّ مؤسس علم النفس التجريبي. تلمذ للفسيولوجى الكانتى هيلمهولتز، وأصبحت الفلسفة عنده محاولة لفهم الظواهر الطبيعية ووصفها، أي إنه رفض الميتافيزيقا التي كانت سائدة في أفكار أساتذته، بل كان أول من أسس معملًا تجريبيًا لعلم النفس سنة 1879 في لايبزغ على غرار المعامل التجريبية لعلم الطبيعة. أهم مؤلفاته كتاب (مبادئ علم النفس الفسيولوجي) في ثلاثة مجلدات. [المترجم]

(7) هيرمان أوتو تيودور باول (1846-1921م). لسانى، ومُعجمى ألماني، ومن النحويين الجدد المبرزين. أهم مؤلفاته كتاب (مبادئ تاريخ اللغة). [المترجم]

(8) فرانز نيكولاس فنك (1867-1910م). فيلولوجى ألماني. كان أستاذاً للسانيات العامة في جامعة برلين. من أهم مؤلفاته كتاب (لهجة آران- إسهام في الكشف عن الإيرلندية الغربية). [المترجم]

(9) جان ميشال روزفادوفسكي (1867-1935م). لسانى بولندي. أصبح سنة 1903 عضو الأكاديمية البولندية للعلوم. درس اللسانيات المقارنة والتاريخية للغات الهندوأوروبية والسلافية باجًا في مشكلات الفيلولوجيا الكلاسيكية. من أهم مؤلفاته كتاب (تكوين الكلمة وعلم الدلالة). [المترجم]

(10) فيليب فيغينر (1848-1916م). مدرّس للكلاسيكيات، ومُدير مدرسة للنحو، ولسانى =

وأورتييل Oertel⁽¹¹⁾، ومارتي Marty⁽¹²⁾، وجيسبرسن Jespersen⁽¹³⁾ وآخرين، لِنُظْهِرَ أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ وَلَا بِغَيْرِ الْمُهْمِ. إِذْ نَجِدُ فِي جَمِيعِ مُؤَلَّفَاتِهِمْ، زِيَادَةً عَلَى قَضَايَا النُّحْوِ الشُّكْلِيِّ، مُحَاوَلَاتٍ لِتَحْلِيلِ الْعَمَلِيَّاتِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي نِطَاقِ الْاهْتِمَامِ بِالْمَعْنَى. لَكِنْ مَا نَعْرِفُهُ عَنْ عِلْمِ النَّفْسِ وَعَنِ الْمَنَاهِجِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ آخِذٌ فِي التَّحْسِينِ، وَفِي غُضُونِ السَّنَوَاتِ الْآخِيرَةِ أَحْرَزَ، حَقًّا، تَقْدَمًا سَرِيعًا جِدًّا. [297] وَتُسَهِّمُ الْعُلُومُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ الْآخَرَى، وَلَا سِيَّمَا عِلْمُ الْاجْتِمَاعِ وَالْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا، بِنَصِيبِهَا مِنَ الْمَشْكَلَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بِمَا تُثْبِتُهُ لَنَا مِنْ فَهْمٍ أَعَمَّقَ لِلطَّبِيعَةِ وَلِلثَّقَافَةِ الْإِنْسَانِيَّتَيْنِ. ذَلِكَ بِأَنَّ مَسَائِلَ اللُّغَةِ هِيَ، حَقًّا، أَهَمُّ مَوْضُوعَاتِ الدِّرَاسَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَكْثَرُهَا مَرَكِّزِيَّةً. وَبِذَلِكَ، يَتَلَقَّى عِلْمُ اللُّغَةِ، بِاسْتِمْرَارٍ، إِسْهَامَاتٍ بِمَوَادٍّ وَخَوَافِزَ جَدِيدَةٍ مِنْ مَنَاهِجَ جَدِيدَةٍ. وَأَحَدُ أَهَمِّ الْخَوَافِزِ الَّتِي تَلْقَاهَا حَدِيثًا عَلَى هَذَا النُّحْوِ كَانَ مَصْدَرُهُ الدِّرَاسَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لِلرُّمُوزِ وَلِلْمُعْطَيَاتِ الرِّيَاضِيَّاتِ الَّتِي تَأَلَّقَ فِي إِنْجَازِهَا فِي كِيمْبِرِج تَأَلَّفًا كَبِيرًا السَّيِّدُ بَرْتَرَانْدَ رَسِلَ

-
- = سايكولوجي ألماني. دَرَسَ الْفِيلُولُوجِيَا الْكَلَّاسِيكِيَّةَ وَالْأَلْمَانِيَّةَ، وَاللِّسَانِيَّاتِ الْمَقَارَنَةَ، وَالْفَلَسَفَةَ. كَانَ مَوْضُوعُ أَطْرُوحِيهِ لِلدَّكْتُورَاةِ (تَارِيخُ أَنْظِمَةِ الْحَالَاتِ الْإِغْرِيقِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ). دَرَسَ الْفِيلُولُوجِيَا عَلَى مَوِيزَتِ هَاوِيتٍ وَلِبَرْنِسْتِ كُورْتِيُوسَ، وَالْفَلَسَفَةَ عَلَى فَرِيدِرِشِ أَدُولْفِ تَرِينْدَلْنِيرِغَ، وَتَلَمَّذَ كَذَلِكَ لِللِّسَانِيِّ الْعَامِّ وَعَالِمِ النَّفْسِ هِيرْمَانِ شْتَايْنْتَالِ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: أبحاثٌ فِي الْمَسَائِلِ الْأَسَاسِيَّةِ لَاسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ. [المُتَرَجِّمُ]
- (11) هَانز أورتيل (1868-1952م). أَسْتَاذٌ لِلِّسَانِيَّاتِ وَالْفِيلُولُوجِيَا الْمَقَارَنَةِ أَلْمَانِي. دَرَسَ اللُّغَةَ السَّنْسْكْرِيتِيَّةَ عَلَى وَتْنِي، وَدَرَسَ فِي جَامِعَةِ بِيَلْ بَيْنَ سَنَتَيْ 1891 وَ1917. وَفِي سَنَةِ 1914 سَافَرَ إِلَى أَلْمَانِيَا. أَهَمُّ مُؤَلَّفَاتِهِ كِتَابُ (مُحَاضَرَاتُ فِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ). [المُتَرَجِّمُ]
- (12) مَارْتِنِ أَنْطُونِ مَاورُوسِ مَارْتِي (1847-1914م). فِيلَسُوفٌ لُغَوِيٌّ، وَعَالِمٌ نَفْسٍ، وَأَنْطُولُوجِيٌّ سويسريٌّ. يُعَدُّ خَلِيفَةً فَرَانزِ بَرْتِنَانُو، وَتَمَيَّزَ إِسْهَامُهُ الْفَلَسَفِيَّ بِتَطْبِيقِهِ عِلْمِ النَّفْسِ الْوَصْفِيِّ الَّذِي طَوَّرَهُ بَرْتِنَانُو فِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ بِإِزَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ التِّيَّارَاتِ الْمَشْهُورَةِ فِي اللِّسَانِيَّاتِ وَفَلَسَفَةِ اللُّغَةِ فِي زَمَانِهِ. وَقَدْ تَأَثَّرَ لِسَانِيُو مَدْرَسَةُ بَرَاغَ بِأَعْمَالِهِ. مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ: بُحُوثٌ فِي أَسْسِ النُّحْوِ الْعَامِّ وَفَلَسَفَةِ اللُّغَةِ، وَفَلَسَفَةُ اللُّغَةِ. [المُتَرَجِّمُ]
- (13) أَوْتُو جيسبرسن (1860-1943م). لِسَانِيٌّ دِنْمَارْكِيٌّ مُتَخَصِّصٌ فِي نَحْوِ اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. أَهَمُّ آثَارِهِ كِتَابُ (اللُّغَةُ: طَبِيعَتُهَا، وَتَطَوُّرُهَا، وَأَصُولُهَا). [المُتَرَجِّمُ]

Bertrand Russell والدكتور وايتهيد Whitehead⁽¹⁴⁾.

وفي الكتاب الذي بين أيدينا ينقل السيدان أوغدن ورتشاردز دراسة العلامات إلى حقل اللسانيات، حيث تكون لها أهمية أساسية. والحق أنهما يؤسسان علماً جديداً للرمزية من المؤكد أنه سيهيئ أكثر المعايير قيمة لنقد أغلاط معينة في الميتافيزيقا والمنطق الشكلي الخالص (تنظر الفصول: الثاني، والسابع، والثامن، والتاسع). ومن جهة أخرى، لا تمثل الفلسفة الوجه الوحيد للنظرية، بل إن لها أهميتها العملية في التعامل مع القضايا العلمية الخالصة الخاصة المتعلقة بالمعنى، والنحو، وعلم النفس، وعلم أمراض الكلام. وأخص من ذلك أن الأبحاث المهمة المتعلقة بالحسنة التي يظطلع بها الدكتور هنري هيد Henry Head⁽¹⁵⁾ والتي تؤذن بتسليط إضاءة جديدة كلياً على تصوراتنا للمعنى، يبدو أنها تسير باتجاه النظريات الدلالية أنفسها المتضمنة في الكتاب الحاضر⁽¹⁶⁾. وقد نشر الدكتور غاردنر A. H. Gardiner⁽¹⁷⁾، وهو أحد أعظم الخبراء في الخط الهيروغليفى والنحو المصرى القديم- الذي يقدم له تحليلاً جديداً-، عددًا من المقالات الرائعة في المعنى، قارب فيها القضايا أنفسها التي بحث فيها السيدان أوغدن ورتشاردز والتي وجدًا لها الحلول على نحو معجب جدًا، وإن النتائج الشخصية التي خرجوا بها لا تبدو لي غير منسجمة⁽¹⁸⁾. وأخيرًا، أنا أيضًا في

(14) يعني كتاب (مبادئ الرياضيات Principia Mathematica). [المترجم]

(15) هنري هيد (1861-1940م). طبيب أعصاب إنجليزي. قاد عملاً رياديًا في النظام الجسدي الحسي والأعصاب الحسية. من آثاره: التغيرات الذهنية المصاحبة لمرض الأمعاء، وعواقب إصابة الأعصاب السطحية للإنسان. [المترجم]

(16) تنظر المقالات التمهيدية في دورية Brain التي يحبل عليها الكاتبان أيضًا في الفصل العاشر.

(17) ألن هندرسن غاردنر (1879-1963م). عالم بريطاني معني باللغة المصرية القديمة. أهم إسهاماته في الفيلولوجيا المصرية القديمة كتابه (نحو اللغة المصرية). [المترجم]

(18) تنظر مقالات الدكتور غاردنر في دورية Man، يناير/كانون الثاني 1919، وفي دورية The British Journal of Psychology، أبريل/نيسان 1922.

مُعَالَجَتِي لِقَضِيَّةِ اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ مِنْ بابو-ميلانيزيا Papuo-Melanesia أَلْفَيْتُ نَفْسِي فِي حَقْلِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْعَامِّ⁽¹⁹⁾. عَلَى أَنِّي حِينَ كَانَ لِي شَرَفُ الاِطْلَاعِ عَلَى مَا أَتَى بِهِ الْكِتَابُ الْحَاضِرُ مِنْ أُدِلَّةٍ ذُهِلْتُ لِمَا وَجَدْتُ فِيهِ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ تُقَدِّمُ إِجَابَاتٍ جَيِّدَةً جِدًّا عَنْ جَمِيعِ مُشْكِلَاتِي وَحُلُولاً لِلصُّعُوبَاتِ الَّتِي وَاجَهْتُنِي، وَقَدْ سَرَّنِي أَنْ أَجِدَ أَنَّ الْوَضْعَ الَّذِي [298] أَوْصَلْتَنِي إِلَيْهِ دِرَاسَةُ اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ لَمْ يَكُنْ مُخْتَلِفًا عَنْ ذَلِكَ اخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا. لِذَلِكَ أَسْعَدْتَنِي كَثِيرًا إِتَاحَةُ الْكَاتِبِينَ الْفُرْصَةَ لِي لِأَعْرِضَ مُشْكِلَاتِي، وَلَأَوْجِزَ مَا تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ حُلُولٍ تَجْرِبِيَّةٍ لَهَا، جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ مَعَ نَظَرِيَّاتِهِمَا الرَّائِعَةِ. وَمِمَّا زَادَنِي سُورًا بِقَبُولِ ذَلِكَ مَا أَوْمَلُهُ مِنْ إِظْهَارِ أَهَمِّيَّةِ الضُّوءِ الَّذِي تُسَلِّطُهُ نَظَرِيَّاتُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى مُشْكِلَاتِ اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ.

إِنَّهُ لَرَانِعٌ أَنْ يَبْدَأَ بِاجْتِوَانِ كُلِّ عَلَى حِدَةٍ، كَالسَّيِّدَيْنِ أَوْغِدِنَ وَرِتْشَارْدَزَ، وَالدُّكْتُورِ هِيدَ، وَالدُّكْتُورِ غَارْدِنَرِ، وَإِتَايَ، مِنْ مُشْكِلَاتٍ مُحَدَّدَةٍ وَمَلْمُوسَةٍ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا، ثُمَّ يَنْتَهَوِا إِلَى بِنَاءِ ذِي نَظَرِيَّاتٍ دَلَالِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ تَرْتَكِزُ عَلَى اعْتِبَارَاتٍ سَايَكُولُوجِيَّةٍ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَتَائِجُهُمْ مُتَمَاثِلَةً تَمَامًا وَلَا مُفَرَّزَةً بِمُصْطَلَحَاتٍ وَاحِدَةٍ.

لِذَلِكَ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُبَيِّنَ كَيْفَ أَلْفَيْتُ نَفْسِي، فِي حَالَتِي الشَّخْصِيَّةِ بِوَصْفِي مُشْتَغِلًا بِالْأَعْرَاقِ يَدْرُسُ الْعَقْلِيَّةَ الْبِدَائِيَّةَ وَالثَّقَافَةَ الْبِدَائِيَّةَ وَاللُّغَةَ الْبِدَائِيَّةَ، مَسُوقًا نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ تُنَازِرُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ نَظَرِيَّاتِ الْكِتَابِ الْحَاضِرِ. فِي أَثْنَاءِ أَبْحَاثِي الْإِنْثَوِغْرَافِيَّةِ وَسَطَ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الْمِيلَانِيزِيَّةِ فِي غِنِيَا الشَّرْقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَنْجَزْتُهَا بِوَسَاطَةِ اللُّغَةِ الْمَحَلِّيَّةِ حَضْرًا، جَمَعْتُ عَدَدًا لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ النُّصُوصِ: صِيغًا سِحْرِيَّةً، وَفِقْرَاتٍ شَعْبِيَّةً، وَحِكَايَاتٍ، وَمُقْتَضَفَاتٍ مِنْ مُحَادَثَاتٍ، وَعِبَارَاتٍ لِمَنْ اخْتَرْتُ مِنْ رُؤَاةِ اللُّغَةِ informants. وَحِينَ حَاوَلْتُ، عِنْدَ اسْتِغَالِي بِهِذِهِ الْمَادَّةِ

(19) تُنْظَرُ مَقَالَتِي عَنْ "الأدوات التصنيفية في لغة كيريويونا" "Classificatory Particles in the Language of Kiriwina", *Bulletin of School of Oriental Studies*, Vol. II., and *Argonauts of the Western Pacific*, chapter on "Words in Magic- Some Linguistic Data".

اللُّغَوِيَّةُ، أَنْ تُرْجِمَ مَا لَدَيْهِ مِنْ نُصُوصٍ إِلَى اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَأَنْ أَدَوْنَ عَرَضًا مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ وَنَحْوَهَا، وَاجْتَهَنِي صُعُوبَاتُ أُسَاسِيَّةٍ. وَحِينَ حَاوَلْتُ اسْتِرْشَادَ أَنْحَاءِ اللُّغَاتِ الْأَوْقِيَانُوسِيَّةِ الْبَاقِيَةِ وَمُفْرَدَاتِهَا لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الصُّعُوبَاتُ بَلْ إِنَّهَا، بِالْأَحْرَى، أَزْدَادَتْ. وَكَانَ مُعْظَمُ كُتَابِهَا تَبْشِيرِيَّيْنِ كَتَبُوا مَا كَتَبُوهُ لِغَايَةِ عَمَلِيَّةٍ هِيَ تَيْسِيرُ مَهْمَةٍ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ، وَقَدْ تَابَعُوا فِي كِتَابَتِهَا قَاعِدَةَ التَّجْرِبَةِ. فَعِنْدَ كِتَابَةِ مُفْرَدَاتِ لُغَةٍ مَا، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، يَلْجَأُونَ إِلَى إعْطَاءِ أَفْضَلِ تَقْرِيْبٍ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِلْكَلِمَةِ الْمَحَلِّيَّةِ.

لَكِنْ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنَ التَّرْجَمَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْكَلِمَةِ تَقْدِيمَ مُعَادِلِهَا التَّقْرِيْبِي الَّذِي يَبْقَى بِالْأَغْرَاضِ الْعَمَلِيَّةِ، بَلِ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَبَيِّنَ بِدِقَّةٍ: أَتَنَاظَرُ كَلِمَةً مَحَلِّيَّةً فِكْرَةً مُوجُودَةً، وَلَوْ جُزْئِيًّا، عِنْدَ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ، أَمْ تَتَنَاوَلُ تَصَوُّرًا أَجْنَبِيًّا تَمَامًا؟ وَكَوْنُ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ مُوجُودَةً فِي اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِعَدَدٍ كَبِيرٍ أَمْرٌ وَاضِحٌ. فَجَمِيعُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَصِفُ النِّظَامَ الْاجْتِمَاعِيَّ الْمَحَلِّيَّ، وَجَمِيعُ التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي تُحِيلُ عَلَى اعْتِقَادَاتٍ مَحَلِّيَّةٍ، وَعَلَى عَادَاتٍ وَاحْتِفَالَاتٍ وَطُقُوسٍ سِحْرِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ- جَمِيعُ مَا كَانَ نَحْوَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ كَمَا أَنَّهُ لَا وُجُودَ لَهُ فِي أَيِّ لُغَةٍ أُورُوبِيَّةٍ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُتَرْجَمَ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِاللُّجُوءِ إِلَى مُعَادِلَاتِهَا الْمُتَخَيَّلَةِ- فَمِنْ الْوَاضِحِ عَدَمُ إِمْكَانِ إِيْجَادِ الْمُعَادِلِ الْوَاقِعِيِّ-، [299] بَلْ بِإِيْضَاحٍ مَعْنَى كُلِّ مِنْهَا مِنْ خِلَالِ وَصْفِ إِنْثُوغْرَافِيٍّ ذَقِيقٍ لِيَعْلَمَ اجْتِمَاعُ هَذِهِ التَّجْمُعَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَثَقَافَتِهَا، وَتَقَالِيدُهَا.

غَيْرَ أَنَّ ثَمَّةَ صُعُوبَةٍ أَبْعَدَ أَثَرًا، وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ خَفَاءً، وَهِيَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ بِتَمَامِهَا الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِهَا اللُّغَةُ الْمَحَلِّيَّةُ مُخْتَلِفَةٌ عَنِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُ بِهَا لُغَاتِنَا. إِذْ يَفْتَقِرُ مُجْمَلُ الْبِنَاءِ النَّحْوِيِّ فِي الْإِلْسَانِ الْمَحَلِّيِّ إِلَى الدَّقَّةِ وَالتَّحْدِيدِ اللَّذَيْنِ يَتِمَتُّ بِهِمَا بِنَاؤُنَا النَّحْوِيُّ، وَإِنْ كَانَ مُعَبَّرًا تَمَامًا بِطَرَائِقٍ مَخْصُوصَةٍ مُعَيَّنَةٍ. ثُمَّ إِنَّ ثَمَّةَ أَدَوَاتٍ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّرْجَمَةِ إِلَى الْإِنْجِلِيزِيَّةِ تُضْفِي نَكْهَةً خَاصَّةً عَلَى الْأُسْلُوبِ الْمَحَلِّيِّ. وَتَنْظُوي بِنْيَةَ الْجُمْلِ عَلَى بَسَاطَةٍ مُفْرِطَةٍ تُخْفِي قَدْرًا لَا بَاسَ بِهِ مِنَ

التَّعْبِيرِيَّة، كَثِيرًا مَا تُحَرِّزُ بِوَسَاطَةِ الْمَوْقِعِ وَالسِّيَاقِ. وَإِذَا مَا عُذْنَا إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَاتِ الْمُتَعَزِّلَةِ، أَمْكَنَّا أَنْ نَقُولَ إِنَّ اسْتِعْمَالَ الاسْتِعَارَةِ، وَالْبِدَايَاتِ الْمُفْتَرَنَةِ بِالتَّجْرِيدِ وَالتَّعْمِيمِ، وَالْعُمُوضِ الْمُرْتَبِطِ بِحِسِّيَّةِ تَعْبِيرِيَّةٍ مُفْرَطَةٍ - كُلُّ تِلْكَ السَّمَاتِ تُغْيِي آيَةً مُحَاوَلَةً لِتَرْجُمَةِ بَسِيطَةٍ وَمُبَاشِرَةٍ. فَعَلَى عَالِمِ الْأَعْرَاقِ أَنْ يَنْقُلَ هَذَا الْاِخْتِلَافَ الْعَمِيقَ وَالذَّقِيقَ فِي آيٍ وَاحِدٍ فِي اللُّغَةِ وَفِي الْمَوْقِفِ الذَّهْنِيِّ الْكَامِنِ وَرَاءَهَا وَالْمُعَبَّرِ عَنْهُ مِنْ خِلَالِهَا. لَكِنَّ ذَلِكَ يَقُودُنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ إِلَى الْمَشْكِلَةِ السَّايِكُولُوجِيَّةِ الْعَامَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَعْنَى.

(2)

إِنَّ هَذَا الْعَرَضَ الْعَامَّ لِلصُّعُوبَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي تُحْدِقُ بِعَالِمِ الْأَعْرَاقِ فِي مِيدَانِ عَمَلِهِ يَجِبُ إِيضَاحُهُ بِمِثَالٍ مَلْمُوسٍ. فَتَخَيَّلْ أَنَّكَ قَدْ نَقَلْتَ فَجَاءَ إِلَى جَزِيرَةٍ مَرَجَانِيَّةٍ فِي الْمُحِيطِ الْهَادِئِ، وَأَنَّكَ تَجْلِسُ وَسَطَ حَلَقَةٍ مِنَ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ مُسْتَمِعًا إِلَى حَدِيثِهِمْ. وَلِنَذْهَبَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلِنَفْتَرِضْ وُجُودَ مُفَسِّرٍ مِثَالِي يُمَكِّنُهُ، قَدْرًا مَا يَسْتَطِيعُ، أَنْ يَنْقُلَ مَعْنَى كُلِّ قَوْلٍ يَنْطِقُونَ بِهِ، كَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، لِيَحُورَ الْمُسْتَمِعُ جَمِيعَ الْمُعْطَيَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُتَوَافِرَةِ. أَفَسَيُمَكِّنُكَ ذَلِكَ مِنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ أَوْ حَتَّى فَهْمِ قَوْلٍ مُفْرَدٍ مِنْهُ؟ لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ لَنْ يَكُونَ.

فَلِنُنْظِرْ نَظْرَةً عَلَى نَصِّ يُمَثِّلُ قَوْلًا فَعَلِيًّا مُسْتَمَدًّا مِنْ حَدِيثِ لِسُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ لِيَجُزُرُ تروبريانند Trobriand Islands فِي الشَّامَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْ غِينِيَا الْجَدِيدَةِ. فَسَيَبْضُحُ جَلِيًّا مِنْ تَحْلِيلِنَا لَهُ مَدَى الْعَجْزِ الَّذِي يُمَنَى بِهِ الْمَرءُ فِي مُحَاوَلَتِهِ الْكَشْفَ عَنْ مَعْنَى عِبَارَةٍ مِنْ خِلَالِ اللُّغَةِ فَقَطْ، وَسُنْدِرُكُ أَيْضًا نَوْعَ الْمَعْرِفَةِ الْإِضَافِيَّةِ الصَّرُورِيَّةِ، زِيَادَةً عَلَى الْمُعَادَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ، مِنْ أَجْلِ جَعْلِ الْقَوْلِ مَفْهُومًا.

فَهَا أَنَا ذَا أَوْرَدُ عِبَارَةً فِي لُغَةٍ مَحَلِّيَّةٍ مُقَدَّمًا تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا أَقْرَبَ مُعَادِلٍ لَهَا فِي الْإِنْجَلِيزِيَّةِ:

<i>Tasakaulo</i>	<i>kaymatana</i>	<i>yakida;</i>	
We run	front-wood	ourselves;	
نحنُ نَجْرِي [300]	خَشَبُ أَمَامِي	أَنْفُسَنَا	
<i>Tawoulo</i>	<i>ovanu;</i>	<i>tasivila</i>	<i>tagine</i>
We paddle	in place;	we turn	we see
نحنُ نُجَدِّفُ	فِي الْمَكَانِ	نحنُ نَلْتَفِتُ	نحنُ نَرَى
<i>Soda;</i>	<i>isakaula</i>	<i>káuuya</i>	
Companion ours; he runs		rear-wood	
صَاحِبُ لَنَا	يَجْرِي	خَشَبُ خَلْفِي	
<i>Oluvieki</i>	<i>similaveta</i>	<i>Pilolu</i>	
Behind	their sea-arm	Pilolu	
خَلْفَ	ذِرَاعُهُمُ الْبَحْرِي	بِلُولُو	

إنَّ التَّرْجُمَةَ الْإِنْجَلِيزِيَّةَ الْحَرْفِيَّةَ لِهَذَا الْقَوْلِ تَبْدُو بِادِي الرَّأْيِ لُغْزًا أَوْ خَلِيطًا مِنْ كَلِمَاتٍ لَا مَعْنَى لَهُ، لَا يُشْبِهُ، يَقِينًا، عِبَارَةً دَالَّةً مُبَيَّنَّةً. بَلْ إِنَّ الْمُسْتَمِيعَ، الَّذِي نَفْتَرِضُ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللُّغَةَ لِكُنْهُ يَجْهَلُ ثِقَافَةَ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ، إِذَا مَا أَرَادَ أَنْ يَفْهَمَ الْإِتِّجَاهَ الْعَامَّ لِهَذِهِ الْعِبَارَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ إِخْبَارِهِ أَوَّلًا بِالْحَالِ الَّتِي نُطَقَّتْ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ. إِذْ إِنَّهُ سَيَحْتَاجُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَى أَنْ تُوضَعَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ مِنَ الثَّقَافَةِ الْمَحَلِّيَّةِ. وَالْعِبَارَةُ فِي حَالَتِنَا هَذِهِ تُحِيلُ عَلَى قِصَّةٍ لِحِمْلَةٍ تِجَارِيَّةٍ فِي مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ لِهَؤُلَاءِ الْمَحَلِّيِّينَ، تُشَارِكُ فِيهَا عِدَّةُ زَوَارِقٍ بِرُوحِ تَنَافُسِيَّةٍ. وَهَذِهِ السُّمَّةُ الْأَخِيرَةُ تُفَسِّرُ كَذَلِكَ الطَّبِيعَةَ الْعَاطِفِيَّةَ لِلْعِبَارَةِ: فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَقْرِيرٍ لَوَاقِعَةٍ، لَكِنُّهَا عِبَارَةُ فَخْرٍ، وَقِطْعَةٌ مِنْ تَعْمِيدِ الذَّاتِ، تَعَكُّسُ خَصِيصَةٍ مُمَيَّزَةٍ تَمَامًا لِثِقَافَةِ التُّرُوبِرِيَانْدِيِّينَ بِعَامَّةٍ وَلِمُقَايَسَتِهِمُ الْإِحْتِفَالِيَّةَ بِخَاصَّةٍ.

إِنَّ تَحْصِيلَ الْمَعْرِفَةِ التَّمْهِيدِيَّةِ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ الْمُؤَدِّي إِلَى إِمْكَانِ

الحُصُولِ عَلَى فِكْرَةٍ بِشَأْنِ تَعْبِيرَاتِ اصْطِلَاحِيَّةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْفَخْرِ وَالتَّبَارِي مِثْلِ *kaymatana* (خَشَبٌ أَمَامِي)، و *kaiuuya* (خَشَبٌ خَلْفِي). وَإِنَّ اسْتِعْمَالَ الْخَشَبِ اسْتِعَارِيًّا لِلزُّورَقِ يَقُودُنَا إِلَى مِيدَانِ آخَرَ لِسَايَكُولُوجِيَّةِ اللُّغَةِ، لِكِنَّا نَكْتَفِي فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ بِتَاكِيدِ أَنَّ 'أَمَام' أَوْ 'زُورَقِ أَمَامِي' وَ'زُورَقِ خَلْفِي' تَعْبِيرَاتٌ مُهِمَّةٌ عِنْدَ أَقْوَامِ تَسْتُولِي الْفَعَالِيَّاتِ الثَّانَفِيَّةِ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهَا عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنْ اهْتِمَائِهِمْ. وَقَدْ أَضْفَيْتُ عَلَى مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مَسَحَةً عَاطِفِيَّةً مَخْصُوصَةً لَا يُمَكِّنُ إدْرَاكُهَا إِلَّا بِالْإِطْلَاعِ عَلَى خَلْفِيَّةِ سَايَكُولُوجِيَّتِهِمْ الْقَبْلِيَّةِ فِي الْإِحْتِفَالِ، فِي حَيَاتِهِمْ، وَتِجَارَتِهِمْ، وَمُغَامَرَتِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي يُوصَفُ فِيهَا الْمَلَاخُونَ الَّذِينَ فِي الْمُقَدِّمَةِ بِأَنَّهُمْ يَلْتَفِتُونَ مُتَحَلِّلِينَ رِفَاقَهُمْ وَقَدْ خُلِفُوا وَرَاءَهُمْ عَلَى ذِرَاعِ الْبَحْرِ فِي بِلُورُو، تَقْتَضِي بَحْثًا خَاصًّا فِي الْإِحْسَاسِ الْجُغْرَافِيِّ لِلْمَحَلِّيِّينَ، وَفِي اسْتِعْمَالِهِمْ التَّخِيلَ أَدَاةَ لُغَوِيَّةً، وَفِي الْاسْتِعْمَالِ الْخَاصِّ لِضَمَائِرِ التَّمْلِكِ (*their sea-arm Pilolu*).

كُلُّ ذَلِكَ يُظْهِرُ الْاعْتِبَارَاتِ الْوَاسِعَةَ وَالْمُعَقَّدَةَ الَّتِي تَقُودُنَا إِلَيْهَا مُحَاوَلَةٌ تَقْدِيمِ تَحْلِيلٍ وَافٍ لِلْمَعْنَى. فَبَدَلًا مِنَ التَّرْجَمَةِ، أَيْ مِنْ أَنَّ نَكْتَفِي بِإِحْلَالِ كَلِمَةِ إِنْجَلِيزِيَّةٍ مَحَلٌّ أُخْرَى مَحَلِّيَّةً، نُوَاجِهُنَا عَمَلِيَّةً طَوِيلَةً وَغَيْرَ بَسِيطَةِ الْبَيِّنَةِ [301] تَتَضَمَّنُ وَصْفَ مَيَادِينٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الْعُرْفِ، وَالسَايَكُولُوجِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالنِّظَامِ الْقَبْلِيِّ، وَمِمَّا يَنْسَجِمُ مَعَ تَعْبِيرٍ مِنَ التَّعْبِيرَاتِ أَوْ غَيْرِهِ. وَمَا نَرَاهُ هُوَ أَنَّ التَّحْلِيلَ اللَّغَوِيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَقُودُنَا إِلَى دِرَاسَةِ جَمِيعِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي يَشْمَلُهَا الْعَمَلُ الْمِيدَانِيُّ الْإِنْشُغْرَافِيُّ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ التَّعْلِيلَاتِ الْمَذْكُورَةَ آتِفًا بِشَأْنِ التَّعْبِيرَاتِ الْمَخْصُوصَةِ (*front-wood, rear-wood, their sea-arm Pilolu*) هِيَ بِالصَّرُورَةِ مُقْتَضِبَةٌ وَتَقْرِيبِيَّةٌ. لَكِنِّي تَعَمَّدْتُ اخْتِيَارَ قَوْلِي يَنْسَجِمُ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَعْرَافِ سَبَقَ أَنْ وَصِفْتُ وَصَفًا تَامًّا⁽²⁰⁾. وَفِي مَقْدُورِ قَارِي ذَلِكَ الْوَصْفِ أَنْ يَفْهَمَ النَّصُّ الَّذِي أَوْزَدْنَاهُ فَهَمًّا تَامًّا، وَأَنْ يَقُومَ كَذَلِكَ الْحِجَاجُ الْحَاضِرَ.

See *op. cit.*, *Argonauts of the Western Pacific- An account of Native Enterprise* (20) and *Adventure in the Archipelagoes of Melanesian New Guinea*, 1922.

وزيادةً على الصُّعوباتِ التي تُواجهُها في تَرْجَمَةِ الْكَلِمَاتِ الْمُفْرَدَةِ، وَهِيَ صُعوباتٌ تَقُودُ مُبَاشَرَةً إِلَى عِلْمِ الْأَعْرَاقِ الْوَصْفِيِّ، ثُمَّ صُعوباتٌ أُخْرَى مُرْتَبِطَةٌ بِمُشْكِلَاتٍ أَكْثَرَ انْجِصَارًا فِي اللُّغَةِ لَا يُمَكِّنُ حَلُّهَا إِلَّا بِالِاسْتِنَادِ إِلَى التَّحْلِيلِ السَّايَكُولُوجِيِّ. وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّفْرِيقَ الْأَوْقِيَانُوسِيَّ الْمُفَيِّزَ بَيْنَ الضَّمَانِ الْإِشْتِمَالِيَّةِ inclusive pronouns والضَّمَانِ الْإِقْصَائِيَّةِ exclusive pronouns⁽²¹⁾ يَتَطَلَّبُ تَفْسِيرًا أَعَمَّقَ مِنْ أَيِّ تَفْسِيرٍ يَفْتَضِرُّ عَلَى الْعِلَاقَاتِ النَّحْوِيَّةِ وَحَدَهَا⁽²²⁾. ثُمَّ إِنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُحِيرَةَ الَّتِي تُلْحَقُ بِهَا بَعْضُ الْجُمَلِ الْمُتَرَابِطَةِ بِوُضُوحٍ بَنَصْنَا بِمُجَرَّدِ الْمُجَاوَزَةِ تَتَطَلَّبُ مَا هُوَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْإِحَالَةِ الْبَسِيطَةِ إِذَا مَا أُريدَ الْكَشْفُ عَنْ كُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَهْمِيَّةٍ وَذِلَالَةٍ. وَهَاتَانِ السَّمَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ وَقَدْ بَحِثْنَا كَثِيرًا، وَإِنْ كُنْتُ، اسْتِنَادًا إِلَى مَا لَدَيَّ مِنْ أَفْكَارٍ، أَرَى أَنَّ ذَلِكَ الْبَحْثَ لَمْ يَكُنْ عَلَى نَحْوِ شَامِلٍ.

عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ مُمَيَّزَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ يَكَادُ النُّحَاةُ يُهْمِلُونَهَا كُلِّيًّا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا تَفْتَحُ الْبَابَ أَمَامَ تَسْأُلَاتٍ مُفِيدَةٍ لِلْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِ سَايَكُولُوجِيَّةِ الْأَقْوَامِ الْمُتَوَحِّشِينَ. وَسَأَوْضِحُ هَذَا مِنْ خِلَالِ نَقْطَةٍ تَقَعُ عَلَى الْخَطِّ الْفَاصِلِ بَيْنَ عِلْمِي النَّحْوِ وَالْمُعْجَمِ وَيُمَثِّلُهَا جَيِّدًا الْقَوْلُ الْمُقْتَبَسُ.

فَفِي اللُّغَاتِ الْهِنْدُوأَوْرُوبِيَّةِ الْعَالِيَةِ التَّطَوُّرِ يُمَكِّنُ أَنْ يُرَسَّمَ خَطٌّ فَاصِلٌ حَادٌّ بَيْنَ الْوُظَيْفَتَيْنِ النَّحْوِيَّةِ وَالْمُعْجَمِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ. إِذْ يُمَكِّنُ غَزْلَ مَعْنَى جَذَرِ كَلِمَةٍ مَا عَنْ الْمَعْنَى الْمُعَدَّلِ لِعَارِضٍ تَضْرِيْفِيٍّ أَوْ لِعِلَّةٍ تَحْدِيدِيَّةٍ نَحْوِيَّةٍ أُخْرَى. وَبِذَلِكَ نَحْنُ نَفَرِّقُ فِي كَلِمَةٍ يَجْرِي بَيْنَ مَعْنَى الْجَذَرِ - إِزَاحَةُ شَخْصِيَّةٍ سَرِيعَةً - [302] وَالتَّعْدِيلِ فِي

(21) ضَمَانُ الْجَمْعِ الْإِشْتِمَالِيَّةِ وَالْإِقْصَائِيَّةِ تُشِيرُ إِلَى احْتِمَالِ شُمُولِ الْحُضُورِ بِالْكَلَامِ أَوْ إِقْصَائِهِمْ. وَلَا تَفَرَّقُ اللُّغَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ فِي الضَّمَانِ. مِثَالُ ذَلِكَ: We have a They have not given a clear picture of what, party to attend this evening happened to us [المُترجم]

(22) See the important Presidential Address by the late Dr W. H. R. Rivers in the *Journal of the Royal Anthropological Institute*, Vol. LII., January-June, 1922, p. 21, and his *History of Melanesian Society*, Vol. II., p. 486.

الرَّزْمَن، وَصِبِيَّةُ الْفِعْلِ، وَالتَّحْدِيد، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، الَّذِي تُعَبَّرُ عَنْهُ الصَّبِيَّةُ النَّحْوِيَّةُ الَّتِي نَجِدُ الْكَلِمَةَ عَلَى وَفْقِهَا فِي السِّيَاقِ الْمُغْطَى. أَمَّا اللُّغَاتُ الْإِندِائِيَّةُ فَالْفَرْقُ فِيهَا لَيْسَ وَاضِحًا بَتَّةً وَكَثِيرًا مَا تَخْتَلِطُ فِيهَا الْوُظُفَتَانِ النَّحْوِيَّةُ وَالْمُعْجَمِيَّةُ عَلَى التَّوَالِي عَلَى نَحْوِ مُدْهَشٍ.

وَفِي اللُّغَاتِ الْمِيلَانِيزِيَّةِ أَذَوَاتُ نَحْوِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ تُسْتَعْمَلُ فِي تَصْرِيفِ الْأَفْعَالِ وَهِيَ تُعَبَّرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغُمُوضِ عَنْ عِلَاقَاتِ الرَّزْمَن، وَالتَّحْدِيدِ، وَالتَّنَابُعِ. وَإِنَّ أَوْضَحَ الْأَشْيَاءِ وَأَسْهَلَهَا إِنْجَارًا لِلْأَوْرُبِيِّ الَّذِي يَرَعُبُ فِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ لُغَةً كَهَذِهِ اسْتِعْمَالًا تَقْرِيبِيًّا لِأَغْرَاضِ عَمَلِيَّةٍ هُوَ أَنْ يَكْتَشِفَ أَقْرَبَ مُقَارَبَةٍ لِتِلْكَ الصَّبِيغِ الْمِيلَانِيزِيَّةِ فِي لُغَاتِنَا ثُمَّ يَسْتَعْمِلَ الصَّبِيغَةَ الْإِندِائِيَّةَ بِالطَّرِيقَةِ الْأَوْرُبِيَّةِ. فَفِي اللُّغَةِ التَّرُوبِرِيَانْدِيَّةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، الَّتِي اقْتَبَسْنَا مِنْهَا مِثَالَنَا الْمَذْكُورَ آتِفًا، تَوْجَدُ أَدَاةٌ ظَرْفِيَّةٌ هِيَ *boge* تُوَضَّعُ قَبْلَ الْفِعْلِ الْمُعَدَّلِ لِتَمْنَحَهُ، عَلَى نَحْوِ غَايِضٍ بَعْضَ الشَّيْءِ، إِمَّا مَعْنَى حَدَثٍ مَاضٍ وَإِمَّا مَعْنَى حَدَثٍ مُحَدَّدٍ. وَيُعَدَّلُ الْفِعْلُ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، بِتَغْيِيرٍ فِي الضَّمِيرِ الشَّخْصِيِّ الْمَبْدُوءِ بِسَاقِفَةٍ *prefixed personal pronoun*. فَالْجَذْرُ *ma* (يَأْتِي *come*)، أَوْ يَتَحَرَّكُ إِلَى هُنَا *move hither*) إِنْ اسْتُعْمِلَ مَعَ الضَّمِيرِ الْمُسَبِّقِ لِلشَّخْصِ الثَّلَاثِ *i* - كَانَتْ لَهُ الصَّبِيغَةُ *ima* وَكَانَ مَعْنَاهُ (تَقْرِيبًا) هُوَ يَأْتِي *he comes*⁽²³⁾. أَمَّا مَعَ الضَّمِيرِ الْمُعَدَّلِ *ay* - أَوْ بِتَأْكِيدٍ أَشَدَّ *lay* - فَيَكُونُ مَعْنَاهُ (تَقْرِيبًا) هُوَ قَدْ أَتَى *he came* أَوْ *he has come*. وَيُمْكِنُ أَنْ يُتَرْجَمَ التَّعْبِيرُ *boge ayna* أَوْ التَّعْبِيرُ *boge layma* عَلَى نَحْوِ تَقْرِيبِيٍّ بِقَوْلِنَا: هُوَ قَدْ أَتَى سَلَفًا *he has already come*، وَقَدْ جَعَلَهُ اسْمُ الْمَفْعُولِ *boge* أَكْثَرَ تَحْدِيدًا.

غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَّا مُعَادِلًا تَقْرِيبِيًّا يُنَاسِبُ بَعْضَ الْأَغْرَاضِ الْعَمَلِيَّةِ كَالْمُتَاجِرَةِ مَعَ الْمَحَلِّيِّينَ، وَالْوَعْظِ التَّبَشِيرِيِّ، وَتَرْجَمَةِ الْأَدْبِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ إِلَى

(23) مَعْلُومٌ أَنَّ التَّرْجَمَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْمَقْبُولَةَ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ هِيَ: يَأْتِي، مِنْ غَيْرِ دَاعٍ إِلَى ذِكْرِ الضَّمِيرِ، وَإِنَّمَا أَثْبَتْنَا الضَّمِيرَ هُنَا تَوْخِيًّا لِلْمُطَابَقَةِ النَّحْوِيَّةِ وَلِبَيَانِ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي الْجُمْلَةِ بَعْدَ التَّعْدِيلِ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ الْكَاتِبُ. وَمَا قِيلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ يَضْدُقُّ عَلَى سَائِرِ مَا سَأْتِي مِنْ جُمَلٍ. [الْمُتَرْجِمُ]

اللُّغَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ. وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ الْمَهْمَّةَ الْأَخِيرَةَ لَا يُمَكِّنُ إِنْجَارَهَا بِأَيَّةِ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّقَّةِ. وَفِي الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَالتَّوَالِيَّاتِ لِللُّغَاتِ الْمِيلَانِزِيَّةِ الَّتِي دَوَّنَتْ الْإِرْسَالِيَّاتِ التَّبَشِيرِيَّةُ مُعْظَمُهَا لِأَغْرَاضٍ عَمَلِيَّةٍ كَانَتْ التَّعْدِيلَاتِ النَّحْوِيَّةُ لِلْأَفْعَالِ قَدْ اكْتَفِيَتْ بِإِثْبَاتِهَا بِوَصْفِهَا مُعَادِلَةً لِلصَّيْغِ الْفِعْلِيَّةِ فِي اللُّغَاتِ الْهِنْدُوأَوْرُوبِيَّةِ. وَحِينَ شَرَعْتُ، أَوَّلَ أَمْرِي، اسْتَعْمَلْتُ اللُّغَةَ التَّرْوِيرِيَّانْدِيَّةَ فِي عَمَلِي الْمِيدَانِي كُنْتُ أَجْهَلُ تَمَامًا أَنَّهُ قَدْ تَكُونُ ثَمَّةُ فِخَاخٍ فِي تَنَاوُلِ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ لِلْأَقْوَامِ الْهَمَجِيِّينَ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ قِيَمَتِهَا السُّطْحِيَّةِ، فَتَهَجَّتْ نَهْجَ الْإِرْسَالِيَّاتِ التَّبَشِيرِيَّةِ فِي اسْتِعْمَالِ أُسْلُوبِ التَّصْرِيفِ فِي اللُّغَةِ الْمَحَلِّيَّةِ.

عَلَى أَنِّي عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا، وَقَدْ تَوَصَّلْتُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ مِنْ خِلَالِ خَطِّ عَمَلِي تَدَاخَلَ قَلِيلًا مَعَ عَمَلِي الْمِيدَانِي فَأَجْبَرْتَنِي عَلَى فَهْمِ أُسْلُوبِ التَّصْرِيفِ فِي اللُّغَةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ سَلَبَنِي رَاحَتِي. فَقَدْ أَلْفَيْتُنِي مَشْغُولًا دَفْعَةً وَاحِدَةً بِتَسْجِيلِ مَلْحُوظَاتٍ عَنْ مُعَامَلَةٍ تِجَارِيَّةٍ مُثِيرَةٍ لِإِهْتِمَامٍ جَدًّا حَدَثَتْ فِي قَرْيَةٍ مُحَاضِيَّةٍ لِلْبَحْرِ لِلتَّرْوِيرِيَّانْدِيِّينَ، بَيْنَ صَيَّادِي السَّاحِلِ [303] وَمُزَارِعِي الْجَزِيرَةِ⁽²⁴⁾. وَقَدْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَابَعَ بَعْضَ التَّحْضِيرَاتِ الْمُهْمَةِ فِي الْقَرْيَةِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ أَشَأْ أَنْ يَقُوتَنِي وَصُولُ الزَّوَارِقِ عَلَى السَّاحِلِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ مَشْغُولًا بِتَسْجِيلِ الْأَحْدَاثِ وَتَصْوِيرِهَا وَسَطَ الْأَكْوَاخِ إِذَا بِكَلِمَةٍ تَذَهَبُ فِي الْأَجْوَاءِ: 'هُمُ قَدْ أَتَوْا سَلَفًا they have come already - boge laymayse'. فَتَرَكْتُ عَمَلِي فِي الْقَرْيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُتِمَّهُ وَانْدَفَعْتُ مُسْرِعًا لِأَقْطَعَ نَحْوَ رُبْعِ مِيلٍ إِلَى الشَّاطِئِ، لِكَيْنِي خَبِثْتُ وَخَزَيْتُ أَنْ وَجَدْتُ الزَّوَارِقَ بَعِيدَةً جَدًّا وَهِيَ تُجَذِّفُ بِبُطْءٍ إِلَى الْأَمَامِ بِاتِّجَاهِ السَّاحِلِ! وَبِذَلِكَ كُنْتُ قَدْ أَتَيْتُ قَبْلَ الْمَوْعِدِ بِعَشْرِ دَقَاقٍ، وَهِيَ مُدَّةٌ كَافِيَةٌ لِقُتُوتِ عَلَيَّ مَصَالِحِي فِي الْقَرْيَةِ!

وَقَدْ احْتَجَجْتُ إِلَى بَعْضِ الْوَقْتِ وَإِلَى قَدْرِ أَكْبَرَ مِنَ التَّمَكُّنِ الْعَامِّ مِنَ اللُّغَةِ قَبْلَ أَنْ أَقِفَ عَلَى طَبِيعَةِ الْخَطِّ الَّذِي وَقَعْتُ فِيهِ وَعَلَى الْاسْتِعْمَالِ الْمُلَامِ

(24) كَانَتْ احْتِفَالِيَّةً Wasi، وَهِيَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ مُقَابَضَةِ الْخَضِرَاوَاتِ بِالسَّمَكِ. يُنْظَرُ: op.

cit., Argonauts of the Western Pacific, pp. 187-189 and plate xxxvi.

للكلمات والصيغ للتعبير عن دقاتي التتابع الزماني. فالجذر *ma* الذي يعني يأتي *come*، أو يتحرك إلى هنا *move hither* لا يتضمن المعنى الذي تستعمل عليه كلمة يصل *arrive* عندنا. كما أنه ليس ثمة مُحَدَّدٌ نحوي يمنحه التحديد الخاص والزماني الذي نعبر عنه بقولنا: 'هُم قَدْ أَتَوْا *they have come*، وَهُمْ قَدْ وَصَلُوا *they have arrived*'. فالصيغة *boge laymayse*، التي سمعناها في ذلك الصباح الذي لا ينسى في القرية البحرية، تعني عند المحليين 'هُم كَانُوا قَدْ تَحَرَّكُوا سَلَفًا إِلَى هُنَا *they have already been moving hither* ولا تعني عندهم 'هُم قَدْ أَتَوْا سَلَفًا إِلَى هُنَا *they have already come here*'.

ومن أجل الوصول إلى التحديد المكاني والزماني الذي نحوزه باستعمال صيغة الزمن الماضي المُحَدَّدِ يلجأ المحليون إلى تعبيرات حسيّة ومُحَدَّدَةٍ. ففي الحالة التي مثلنا بها كَانَ عَلَى الْقُرَوِيِّينَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا كَلِمَةً تَرْسُو *to anchor*، لِيَنْقِلُوا حَقِيقَةً أَنَّ الزَّوَارِقَ قَدْ وَصَلَتْ. فَهُم قَدْ أَرْسَوْا زَوَارِقَهُمْ سَلَفًا 'They moor لِيَنْقِلُوا حَقِيقَةً أَنَّ الزَّوَارِقَ قَدْ وَصَلَتْ. فَهُم قَدْ أَرْسَوْا زَوَارِقَهُمْ سَلَفًا' *boge aycotasi*، have already moored their canoes، يعنينا ما افترضت أنهم عَبَرُوا عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ *boge laymayse*. أَيِ إِنَّ الْمَحَلِّيَّيْنَ يَسْتَعْمِلُونَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ جَذْرًا مُخْتَلِفًا بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكْتُفُوا بِإِجْرَاءٍ تَعْدِيلٍ نَحْوِيٍّ.

فَلْنَعُدِ الْآنَ إِلَى نَصْنَا السَّابِقِ؛ إِذْ إِنَّ فِيهِ مِثَالًا آخَرَ يُبَيِّنُ بِالْخَصِصَةِ الْمُمَيَّزَةِ التي نَحْنُ بِصَدْدِهَا. فَالتَّعْبِيرُ الطَّرِيفُ 'نَحْنُ نُجَذِّفُ فِي الْمَكَانِ *we paddle in place* لا يُمَكِّنُ فَهْمَهُ عَلَى النَّحْوِ الْمُلَانِمِ إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ أَنَّ وَظِيفَةَ كَلِمَةِ نُجَذِّفُ *paddle* هُنَا لَيْسَتْ وَصَفَ مَا يَفْعَلُهُ الْمَلَّاحُونَ بَلْ وَظِيفَتُهَا الْإِشَارَةُ إِلَى قُرْبِهِمِ الْحَالِي مِنَ الْقَرْيَةِ فِي وَجْهَةِ سَفَرِهِمْ. وَكَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْمِثَالِ السَّابِقِ تَمَامًا فَإِنَّ لِصِيغَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي لِكَلِمَةِ يَأْتِي *to come* ('هُم قَدْ أَتَوْا *they have come*'), التي نَسْتَعْمِلُهَا فِي لُغَتِنَا لِإِبْلَاحِ حَقِيقَةِ الْوُصُولِ، مَعْنَى آخَرَ فِي اللُّغَةِ الْمَحَلِّيَّةِ وَجِبَّ أَنْ يُسْتَبَدَّلَ بِهِ جَذْرٌ آخَرُ يُعَبِّرُ عَنِ الْفِكْرَةِ، لِذَلِكَ لَيْسَ بِالْإِمْكَانِ اسْتِعْمَالُ الْجَذْرِ الْمَحَلِّيِّ *wa*، أَيِ يَتَحَرَّكُ إِلَى هُنَاكَ *to move thither*، [304] (تَقْرِيبًا) فِي صِيغَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي الْمُحَدَّدِ لِإِبْلَاحِ مَعْنَى 'يَصِلُ إِلَى هُنَاكَ *arrive there*'، بَلْ يُسْتَعْمَلُ جَذْرٌ خَاصٌّ يُعَبِّرُ

عن الفعلِ الواقِعِي لِلتَّجْدِيفِ لِيَدُلَّ عَلَى عِلَاقَتِي الزُّورَقِ الْأَمَامِيِّ الْمَكَائِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ بِالزُّورَاقِ الْأُخْرَى. وَأَضْلُ هَذَا التَّصْوِيرِ وَاضِحٌ. فَكُلُّمَا وَصَلَ الْمَحْلِيُّونَ قَرِيبًا مِنْ شَاطِئِي إِحْدَى قُرَى مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَطُورُوا الْأَشْرِعَةَ وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا الْمَجَادِيفَ بِسَبَبِ غُمَقِ الْمَاءِ حَتَّى فِي الْمَنَاطِقِ الْقَرِيبَةِ جِدًّا مِنَ الشَّاطِئِ، وَكُونَ الْإِبْحَارِ مُسْتَحِيلًا. فَالتَّجْدِيفُ 'to paddle' يَعْنِي 'الْوُصُولُ إِلَى الْقَرِيَّةِ الَّتِي وَرَاءَ الْبَحَارِ' 'to arrive at the overseas village'. وَيُمْكِنُ أَنْ يُزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَلِمَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ (فِي in) وَ(الْمَكَانَ place) فِي هَذَا التَّعْبِيرِ 'نَحْنُ نُجَدِّفُ فِي الْمَكَانِ 'we paddle in place' لَا بُدَّ مِنْ إِعَادَةِ تَرْجُمَتِهِمَا تَرْجَمَةً إِنْجِلِيزِيَّةً حُرَّةً إِلَى قُرْبِ الْقَرِيَّةِ 'near the village'.

وَبِمُسَاعَدَةِ نَحْوِ هَذَا التَّحْلِيلِ الْمُقَدَّمِ قَبْلَ قَلِيلٍ يُمَكِّنُ جَعْلُ هَذَا الْقَوْلِ أَوْ أَيِّ قَوْلٍ بِدَائِيٍّ آخَرَ مَفْهُومًا. وَفِي حَالَتِنَا يُمَكِّنُنَا تَلْخِيصُ نَتَائِجِنَا وَتَجْسِيدُهَا فِي تَعْلِيْقٍ حُرٍّ أَوْ إِعَادَةِ صِيَاغَةِ حُرَّةٍ لِلْمَوْضُوعِ عَلَى وَفْقِ الْآتِي:

يَجْلِسُ عَدَدٌ مِنَ الْمَحْلِيِّينَ مَعًا. أَحَدُ هَؤُلَاءِ كَانَ قَدْ عَادَ قَبْلَ قَلِيلٍ مِنْ حَمَلَةٍ فِي مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ، فَيُقَدِّمُ وَصْفًا لِلْإِبْحَارِ وَبُهَايِي بِأَفْضَلِيَّةِ زُورَقِهِ. وَنُخْبِرُ الْحَاضِرِينَ بِكَيْفِيَّةِ تَصَدُّرِ زُورَقِهِ فِي الْإِبْحَارِ أَمَامَ جَمِيعِ الزُّورَاقِ الْأُخْرَى عِنْدَ غُوبِ الدَّرَاقِ الْبَحْرِيِّ لِيَلُؤُوا (بَيْنَ الْأَرَاضِي التُّورِبِيَانَدِيَّةِ وَالْأَمْفِلِيَّتِيَّةِ Amphetts). وَحِينَ كَانَ مَلَاخُو الْمُقَدَّمَةِ يَقْتَرِبُونَ مِنْ وَجْهَةِ سَفَرِهِمْ نَظَرُوا وَرَاءَهُمْ فَرَأَوْا رِفَاقَهُمْ بَعِيدِينَ خَلْفَهُمْ، لَا يَزَالُونَ عِنْدَ الدَّرَاقِ الْبَحْرِيِّ لِيَلُؤُوا.

فِيَوْضِعِ الْقَوْلِ بِهَذِهِ الصِّغَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا إجمالاً فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، وَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ الدَّقِيقُ لِإِظْلَالِ الْمَعْنَى وَتَفْصِيلَاتِهِ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مَعْرِفَةِ عَادَاتِ الْمَحْلِيِّينَ وَسَايَكُولُوجِيَّتِهِمْ فَضلاً عَنْ مَعْرِفَةِ الْبِنَاءِ الْعَامِّ لِللُّغَةِ.

وَبِمَا لَا يَكُونُ ضَرُورِيًّا أَنْ أُشِيرَ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَا قُلْتُهُ فِي هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْبَحْثِ مَا هُوَ إِلَّا إِضَاحٌ يَسْتَنِدُ إِلَى أَنْمُودَجٍ مَلْمُوسٍ لِلْمَبَادِي الْعَامَّةِ الَّتِي أَبْدَعَ أَوْغْدِن وَرْتشاردز فِي عَرْضِهَا فِي الْفُصُولِ: الْأَوَّلِ، وَالثَّالِثِ، وَالرَّابِعِ مِنْ مُؤَلَّفِهِمَا. وَالَّذِي حَاوَلْتُ إِضَاحَهُ بِتَحْلِيلِ نَصِّ لُغَوِيٍّ بِدَائِيٍّ هُوَ أَنَّ اللُّغَةَ مُتَجَذَّرَةٌ أُسَاسًا فِي

الواقع الثقافي للناس، وحياتهم القبلية، وأعرافهم، وأنها لا يمكن تفسيرها من غير إحالة مُستمرة على هذه السياقات للكلام اللفظي التي فيها مزيد سعة. إن النظريات التي جسدها كلٌّ من مُحَطِّط أوغدين ورتشاردز في الفصل الأول، ومُعَالَجَتُهُمَا لـ 'الحال العلامية' (الفصل الثالث)، وتحليلهما للإدراك الحسي (الفصل الرابع) تشمل كلَّ تفصيلات أنموذجي وتُجَمِّلُها. [305]

(3)

إذا ما رَجَعْنَا مَرَّةً أُخْرَى إلى قولِ المَحَلِّيِّينَ الذي ذَكَرْنَاهُ آتِفًا فَلَنْ تَكُونَ بِنَا حَاجَةً إلى أن نُشَدِّدَ تَشْدِيدًا خَاصًّا على أَنَّ مَعْنَى آيَّةِ كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ في اللُّغَةِ الْبِدَائِيَّةِ يَعْتمِدُ اعْتِمَادًا كَبِيرًا جِدًّا على سِيَاقِهَا. فَالْكَلِمَاتُ 'خَشَب wood'، وَ'يَجْدُفُ paddle'، وَ'مَكَان place' يَنْبَغِي أن تُتَرْجَمَ تَرْجَمَةً حُرَّةً مِنْ أَجْلِ إظهارِ مَعَانِيهَا الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تُنْقَلُ إلى المَحَلِّيِّينَ بِوَسَاطَةِ السِّيَاقِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ كَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى عِبَارَةِ 'نَحْنُ نَصِلُ قَرِيبًا مِنْ الْقَرْيَةِ (التي هِيَ وَجْهَةٌ سَفَرِنَا) we arrive near the village (of our destination) الَّذِي يَعْنِي حَرْفِيًّا: 'نَحْنُ نَجْدُفُ فِي الْمَكَانِ we paddle in place' لَا يُحَدِّدُ إِلَّا بِتَنَاوُلِهِ فِي سِيَاقِ الْقَوْلِ كَامِلًا. ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ كَذَلِكَ لَا يُصْبِحُ بَيِّنًا إِلَّا حِينَ يُوضَعُ فِي سِيَاقِ الْحَالِ⁽²⁵⁾ الْخَاصِّ بِهِ، إِنْ جَازَ لِي أَن أبتَكِرَ تَعْبِيرًا يُشِيرُ مِنْ جِهَةٍ إلى أَنَّ مَفْهُومَ السِّيَاقِ يَنْبَغِي تَوْسِيعُهُ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إلى أَنَّ الْحَالَ الَّتِي تُقَالُ فِيهَا الْكَلِمَاتُ لَا يُمكنُ التَّغَاضِي عَنْهَا بِوَصْفِهَا غَيْرَ ذَاتِ صِلَةٍ بِالتَّعْبِيرِ اللَّغَوِيِّ. وَعَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ فِي الْكِيفِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا تَوْسِيعُ مَفْهُومِ السِّيَاقِ فِعْلِيًّا، إِنْ أُرِيدَ لَهُ أَنْ يُمِدَّنَا بِكَامِلٍ مَا فِيهِ مِنْ نَفْعٍ. وَالْحَقُّ أَنَّ

(25) يَذْكُرُ الذُّكْتُورُ مُحَمَّدُ السَّعْرَانُ أَنَّ سِيَاقَ الْحَالِ مُصْطَلَحٌ أَنْثْرُوبُولُوجِي، يَرْجِعُ أَصْلُ اسْتِعْمَالِهِ إِلَى مَقَالٍ لِلْأَسْتَاذِ أ. م. هُوكَارْت، لَكِنَّ مَالِنُوسْكِي أَضْفَى عَلَيْهِ مَعْنَى خَاصًّا، ثُمَّ تَطَوَّرَ هَذَا الْمُصْطَلَحُ تَطَوُّرًا آخَرَ بِاسْتِعْمَالِ الْأَسْتَاذِ فِيرْت لَهُ فِي دِرَاسَتِهِ اللَّغَوِيَّةِ. يُنْظَرُ: عِلْمُ اللُّغَةِ - مُقَدِّمَةٌ لِلْقَارِئِ الْعَرَبِيِّ: ص 252. وَالْمَعْنَى الْخَاصُّ عِنْدَ مَالِنُوسْكِي الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الذُّكْتُورُ السَّعْرَانُ هُوَ أَنَّهُ لِحِظَ أَنَّ الْأَقْوَالَ فِي اللُّغَاتِ غَيْرِ الْمَالُوفَةِ لَا تَكُونُ مَفْهُومَةً إِلَّا حِينَ يُحَالُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أُطْلِقَتْ فِيهَا. [المُتَرْجِمُ]

عليه أن يُفَجَّرَ قُبُودُ الاقتصارِ على اللسانياتِ وأن يُزَجَّ بِه في تحليلِ الأحوالِ العامة التي يتحدَّثُ باللغةِ على وَفْقِهَا. فإذا ما انطلقنا على هذا النحو من فكرةِ السياقِ التي فيها مَزِيدُ سَعَةٍ وَصَلْنَا مَرَّةً أُخْرَى إلى نتائجِ القسمِ السَّابِقِ من هذا البَحْثِ، أي إنَّ دراسةَ أَيْةٍ لُغَةٍ يتحدَّثُ بِهَا قَوْمٌ يَعِيشُونَ في أحوالٍ تَخْتَلِفُ عن أحوالنا ولَهُم ثقافةٌ مُخْتَلِفَةٌ عن ثقافتنا يَجِبُ أن يَرْتَبِطَ إنجازُها بِدراسةِ ثقافتِهِمْ وبيئَتِهِمْ.

غيرَ أنَّ المفهومَ الموسَّعَ لِسِياقِ الحالِ يُقدِّمُ لنا أَكْثَرَ من ذلك. إذ يجعلُ الفَرْقَ بينِ لِسَانِيَّاتِ اللُّغَاتِ المِيتَةِ واللُّغَاتِ الحَيَّةِ واضِحًا في المَدَى والمَنْهَجِ. فالْمَادَّةُ التي كَوْنَتْ دِرَاسَتَنَا اللُّغَوِيَّةَ كُلَّهَا تَقْرِيبًا حَتَّى الْآنَ تَعُودُ إلى لُغَاتِ مِيتَةٍ. وَهِيَ حَاضِرَةٌ في صُورَةٍ وَثَائِقٍ مَكْتُوبَةٍ، مَعزُولَةٍ على نَحْوِ طَبِيعِيٍّ، وَمُجَرَّدَةٌ من أَيِّ سِياقٍ لِلْحَالِ. وَالْحَقُّ أَنَّ العِبَارَاتِ المَكْتُوبَةَ إِنَّمَا تُدَوِّنُ لِنَكُونُ مُكْتَفِيَةً بِذَاتِهَا وَمُفَسَّرَةً لِذَاتِهَا. إذ إنَّ المَخْطُوطَ المَدْفُونِ، وَقُصَاصَةَ القَوَانِينِ أو المُدْرَكَاتِ القَدِيمَةِ، والفَصْلَ أو العِبَارَةَ في كِتَابٍ مُقَدَّسٍ، أو، إن أَخَذْنَا مِثَالًا أَكْثَرَ مُعَاَصِرَةً، نَصَّ الفِيلَسُوفِ أو المُوَرِّخِ أو الشَّاعِرِ الإغْرِيقِيِّ أو اللاتِينِيِّ - كُلُّ أُولَئِكَ بِلا اسْتِثْنَاءٍ قَدْ أُلْفَ من أَجْلِ نَقْلِ رِسَالَتِهِ إلى الأَجْيَالِ من غَيْرِ عَوْنٍ، وَكَانَ عَلَيْهِ أن يَحْتَوِيَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ في ضِمَنِ نِطاقِهِ الخاصِّ بِهِ.

فَلْنَأْخُذْ أَكْثَرَ الحَالَاتِ وَضُوحًا، وَهِيَ حَالَةُ كِتَابِ عِلْمِيٍّ مُعَاَصِرٍ يَعْتَرِّمُ كَاتِبُهُ مُخَاطَبَةَ جَمِيعِ الأَفْرَادِ مِنَ القُرَّاءِ الَّذِينَ يُنْعِمُونَ النَّظَرَ في الكِتَابِ وَالَّذِينَ يَتَوَقَّروْنَ على المَرَانَةِ العِلْمِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ. فَإِنَّهُ [306] يُحَاوِلُ التَّأثيرَ في عَقُولِ قُرَّائِهِ في اتِّجَاهَاتٍ مُعَيَّنَةٍ. وَحِينَ يَكُونُ نَصُّ الكِتَابِ المَطْبُوعُ مَعْرُوضًا أَمَامَ القَارِئِ فَإِنَّ الأخيرَ يَخْضَعُ، بِتأثيرٍ مِنَ المُؤَلِّفِ، إلى سِلْسِلَةٍ مِنَ العَمَلِيَّاتِ - فَهُوَ يُفَكِّرُ، وَيَتَأَمَّلُ، وَيَتَذَكَّرُ، وَيَتَخَيَّلُ. فَالْكِتَابُ يَكْفِي بِنَفْسِهِ لِتَوْجِيهِ ذَهَنِ القَارِئِ إلى مَعْنَاهُ، وَقَدْ يُغْرِنَا هَذَا بِأنْ نَقُولَ على نَحْوِ مَجَازِيٍّ إِنَّ المَعْنَى مُخْتَوًى كُلِّيًّا في الكِتَابِ أو إِنَّ الكِتَابَ يَحْمِلُهُ.

لَكِنْ حِينَ نَنْتَقِلُ مِنْ لُغَةٍ مُتَحَضَّرَةٍ مُعَاَصِرَةٍ، مُعْظَمُ تَفَكُّرِنَا بِهَا يَكُونُ مِنْ

زاوية سِجَلَاتٍ مَكْتُوبَةٍ، أَوْ مِنْ لُغَةٍ مَيَّتَةٍ لَمْ يَبْقَ لَهَا وُجُودٌ إِلَّا فِي الثَّقُوسِ، إِلَى لِسَانٍ بَدَائِيٍّ لَمْ يَعْرِفْ قَطُّ اسْتِعْمَالَ كِتَابِيًّا وَكُلُّ مَا فِيهِ مِنْ مَادَّةٍ لَا تَحْيَا إِلَّا مِنْ خِلَالِ كَلِمَاتٍ مُجَنِّحَةٍ تَنْتَقِلُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ- يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا عَلَى الْقَوْرِ أَنَّ تَصَوُّرَ الْمَعْنَى مُخْتَوًى فِي الْقَوْلِ تَصَوُّرٌ زَائِفٌ وَلَا طَائِلَ وَرَاءَهُ. فَالْعِبَارَةُ الْمَقُولَةُ فِي الْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ غَيْرُ مَفْصُولَةِ الْبَيِّنَةِ عَنِ الْحَالِ الَّتِي تُقَالُ فِيهَا. ذَلِكَ بِأَنَّ لِكُلِّ عِبَارَةٍ لَفْظِيَّةٍ يَقُولُهَا الْإِنْسَانُ هَذَا وَوُظِيفَةً يَتِمَثَّلَانِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ فِكْرَةٍ مَا أَوْ شُعُورٍ مَا حَقِيقَتَيْنِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَفِي تِلْكَ الْحَالِ، وَمِنْ الضَّرُورِيِّ، لِسَبَبٍ أَوْ لآخَرَ، أَنْ تُجْعَلَ مَعْلُومَةٌ لِشَخْصٍ أَوْ لِأَشْخَاصٍ- بِمَا يَخْدُمُ أَغْرَاضَ فِعْلِ مُشْتَرِكٍ، أَوْ تَأْسِيسَ رَوَابِطٍ تَشَارِكُ اجْتِمَاعِي خَالِصٍ، وَإِلَّا كَانَتْ مَهْمَّتُهُمَا تَحْرِيرَ الْمُتَكَلِّمِ مِنَ الْمَشَاعِيرِ أَوْ الْإِنْفِعَالَاتِ الْعَنِيفَةِ. وَمِنْ غَيْرِ وُجُودِ مُثِيرٍ مُلِحٍّ فِي اللَّحْظَةِ الْمَعْنِيَّةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ عِبَارَةٌ مَنْطُوقَةٌ. لِذَلِكَ يَرْتَبِطُ الْقَوْلُ وَالْحَالُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ فِي كُلِّ حَالَةٍ ارْتِبَاطًا لَا انْفِصَامَ لَهُ، وَلَا يُمَكِّنُ الْاسْتِغْنَاءَ عَنْ سِيَاقِ الْحَالِ فِي سَبِيلِ فَهْمِ الْكَلِمَاتِ. وَتَمَامًا كَالشَّأْنِ فِي وَاقِعِ اللُّغَاتِ الْمَنْطُوقَةِ أَوْ الْمَكْتُوبَةِ، حَيْثُ لَا تَكُونُ الْكَلِمَةُ الْمُجَرَّدَةُ مِنَ السِّيَاقِ اللَّغَوِيِّ إِلَّا مَحْضُ خَيَالٍ وَغَيْرِ رَامِزَةٍ إِلَى شَيْءٍ فِي نَفْسِهَا، فَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي وَاقِعِ اللِّسَانِ الْحَيِّ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ؛ إِذْ إِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا فِي سِيَاقِ الْحَالِ.

فَمِنْ الْوَاضِحِ تَمَامًا الْآنَ أَنَّ وَجْهَةَ نَظَرِ الْفِيلُولُوجِيِّ الَّذِي لَا يَتَعَامَلُ إِلَّا مَعَ بَقَايَا اللُّغَاتِ الْمَيَّتَةِ لَا بُدَّ أَنْ تُخَالَفَ وَجْهَةَ نَظَرِ عَالِمِ الْأَعْرَاقِ الَّذِي لَيْسَتْ لَدَيْهِ مُعْطَيَاتُ الثَّقُوسِ الْمُتَحَجَّرَةِ الرَّاسِخَةِ فَلِذَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَتَكَاءُ عَلَى الْوَاقِعِ الْحَيِّ لِلُّغَةِ الْمَنْطُوقَةِ الْمُنْدَقَفَةِ. فَعَلَى الْفِيلُولُوجِيِّ أَنْ يُعِيدَ بِنَاءَ الْحَالِ الْعَامَّةِ- أَيْ ثِقَافَةَ قَوْمٍ مَاضِينَ- مِنَ الْعِبَارَاتِ الْبَاقِيَّةِ، أَمَّا عَالِمُ الْأَعْرَاقِ فَيُمَكِّنُهُ أَنْ يَدْرُسَ مُبَاشَرَةً الْأَوَاضَاعَ وَالْأَحْوَالَ الْمُمَيَّزَةَ لثِقَافَةٍ مَا وَأَنْ يُؤَوَّلَ الْعِبَارَاتِ مِنْ خِلَالِهَا. وَأَنَا أَرْعُ الْآنَ أَنَّ الْمَنْظُورَ الَّذِي يَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ عَالِمُ الْأَعْرَاقِ هُوَ الْمَنْظُورُ الْمُتَلَانُّمُ وَالْوَاقِعِيُّ لِتَكْوِينِ التَّصَوُّرَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ وَلِدْرَاسَةِ حَيَاةِ اللُّغَاتِ، فِي حِينِ أَنْ وَجْهَةَ نَظَرِ الْفِيلُولُوجِيِّ خَيَالِيَّةٌ وَغَيْرُ مُتَلَانِمَةٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللُّغَةَ فِي أَصُولِهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى [307] مَجْمُوعٍ مَنْطُوقٍ خُرَّ لِأَقْوَالٍ مِنْ قَبِيلِ الَّتِي نَجِدُهَا الْآنَ فِي اللِّسَانِ الْبَدَائِيٍّ.

وَجَمِيعُ الْأُسُسِ وَالْخَصَائِصِ الْمُمَيِّزَةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْكَلَامِ الْإِنْسَانِيِّ قَدْ اِكْتَسَبَتْ شَكْلَهَا وَصَفَتُهَا فِي الْمَرَحَلَةِ التَّطَوُّرِيَّةِ الْمُلَامَنَةِ لِلدِّرَاسَةِ الْإِنْتِغَرَفِيَّةِ لَا فِي الْحَقْلِ الْفِيلُولُوجِيِّ. وَلَيْسَ تَعْرِيفُ الْمَعْنَى، وَإِبْضَاحُ الْخَصَائِصِ النَّحْوِيَّةِ وَالْمُعْجَمِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِللُّغَةِ اعْتِمَادًا عَلَى الْمَادَّةِ الَّتِي تُزَوِّدُنَا بِهَا دِرَاسَةُ اللُّغَاتِ الْمَيَّتَةِ بِالشَّيْءِ الْبَعِيدِ عَنِ الْاسْتِحَالَةِ فِي ضَوْءِ حِجَابِنَا. وَمَعَ ذَلِكَ لَعَلَّنَا لَا نُبَالِغُ إِذَا مَا قُلْنَا إِنَّ دِرَاسَةَ اللُّغَاتِ الْمَيَّتَةِ كَانَتْ مَصْدَرُ الْإِلْهَامِ لِمَا يَسْبُغُهُ تِسْعَةُ وَتِسْعُونَ مِنْ مِثْنٍ مِنْ حَجْمِ الْعَمَلِ اللُّغَوِيِّ الْكُلِّيِّ أَوْ، فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ، مِنْ حَجْمِ السَّجَلَاتِ الْمَكْتُوبَةِ الْمُجَرَّدَةِ تَمَامًا مِنْ أَيْ سِيَاقٍ لِلْحَالِ. وَسَوْفَ أُبَيِّنُ فِي الْأَقْسَامِ اللَّاحِقَةِ مِنْ بَحْثِي هَذَا، فِي الْأَقْلَى، أَنَّ الْمَنْظُورَ الَّذِي يَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ عَالِمُ الْأَعْرَاقِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى تَقْدِيمِ الْعُمُومِيَّاتِ بَلْ يُقَدِّمُ النَّتَاجَ الْإِبْجَائِيَّةَ الْمَلْمُوسَةَ.

وَأَوَدُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ أَوَازِنَ مَرَّةً أُخْرَى بَيْنَ وَجْهِهِ النَّظَرِ الَّتِي تَوْصَلُنَا إِلَيْهَا لِلتَّوْ وَالنَّتَاجِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا السَّيِّدَانِ أَوْغِدِن وَتَشَارْدَز. وَقَدْ كَتَبْتُ مَا كَتَبْتُهُ آيَفَا بِمُصْطَلَحَاتِي الْخَاصَّةِ بِي رَغْبَةً مَنِي فِي إِعَادَةِ تَتَبُّعِ خُطُوبِ بَحْثِي عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ قَبْلَ أَنْ أُنْعَرَفَ الْكِتَابَ الْحَاضِرَ. لَكِنْ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ سِيَاقَ الْحَالِ الَّذِي أُشَدُّدُ عَلَيْهِ هُنَا مَا هُوَ إِلَّا الْحَالُ الْعَلَامِيَّةُ عِنْدَ الْمُؤَلِّفَيْنِ. إِنَّ كَيْفَاهُمَا مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ عَدَمِ إِمْكَانِ تَقْدِيمِ نَظَرِيَّةٍ لِلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ دِرَاسَةِ لَأَيَّةِ الْإِحَالَةِ، وَهُوَ مَا كَانَ مُرْتَكِّزًا أَسَاسِيًّا لِجَمِيعِ اسْتِدْلَالَيْهِمَا فِي مُؤَلَّفَيْهِمَا، كَانَ كَذَلِكَ لُبُّ مَا حَاجَبْتُ عَلَيْهِ فِي الْفِقرَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ. فَالْفُصُولُ الْاِفْتِتَاحِيَّةُ مِنْ كِتَابَيْهِمَا تُظْهِرُ عَظَمَ مَا تَرْتَكِبُهُ مِنَ الْخَطِّ حِينَ نَعُدُّ الْمَعْنَى كِيَانًا وَاقِعِيًّا مُحْتَوًى فِي كَلِمَةٍ أَوْ قَوْلٍ. وَتُظْهِرُ الْمُعْطِيَّاتِ وَالتَّعْلِيْقَاتِ الْاِنْتِغَرَفِيَّةِ وَالتَّأْرِيخِيَّةِ الْمُمْتِعَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الْفَصْلُ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ الْأَوْهَامِ وَالْأَخْطَاءِ الْمُضَاعَفَةِ النَّاجِمَةِ عَنِ الْمَوْقِفِ الزَّائِفِ مِنَ الْكَلِمَاتِ. إِذْ إِنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ الَّذِي نَعُدُّ فِيهِ الْكَلِمَةَ كِيَانًا وَاقِعِيًّا تَحْتَوِي مَعْنَاهَا كَمَا يَحْتَوِي صُنْدُوقُ النَّفْسِ الْجُزْءَ الرُّوحِيِّ مِنَ الْإِنْسَانِ أَوْ الشَّيْءِ، قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ مُسْتَمَدُّ مِنَ الْاسْتِعْمَالِ الْبِدَائِيَّةِ السَّحَرِيَّةِ لِللُّغَةِ وَأَنَّهُ يَصُبُّ مُبَاشَرَةً فِي أَكْثَرِ أَنْظِمَةِ الْمِيتَافِيزِيْقَا أَهْمِيَّةً وَتَأْثِيرًا. فَبِذَلِكَ يُحَرِّزُ الْمَعْنَى، 'الْجَوْهَرُ' الْوَاقِعِيُّ لِلْكَلِمَةِ، وَجُودًا وَاقِعِيًّا فِي عَالَمِ الْمُثَلِّ الْأَفْلَاطُونِيِّ، وَيُصْبِحُ الْوُجُودُ الْكُلِّيُّ الْقَائِمُ فِعْلِيًّا عِنْدَ

الواقعيَّين الوَسْطِيَّيْنِ. إِنَّ إِسَاءَةَ اسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَسْتَبْدُ دَوْمًا إِلَى تَحْلِيلِ زَائِفٍ لَوْظِفَتِهَا الدَّلَالِيَّةُ يُؤَدِّي إِلَى كُلِّ الاضطرابِ الأنطولوجيِّ فِي الفَلَسَفَةِ، حَيْثُ يُعْتَرَى عَلَى الْحَقِيقَةِ بِاسْتِخْرَاجِ الْمَعْنَى مِنَ الْكَلِمَةِ، الَّتِي هِيَ وَعَاوُهُ الْافْتِرَاضِيَّ.

وَيُقَدَّمُ تَحْلِيلُ الْمَعْنَى فِي اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ تَأَكِيدًا مُدْهِشًا لِنَظَرِيَّاتِ السَّيْدِينِ أَوْغِدِن وَرِشَارْدز. ذَلِكَ بِأَنَّ الْإِدْرَاكَ الْوَاضِحَ لِلْمُضَلَّعَةِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ [308] التَّأْوِيلِ اللُّغَوِيِّ وَتَحْلِيلِ الثَّقَافَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا اللُّغَةُ يُظْهَرُ عَلَى نَحْوٍ مُفْنِعٍ أَنْ لَيْسَ لِلْكَلِمَةِ وَلَا لِمَعْنَاهَا وُجُودٌ مُسْتَقِلٌّ وَمُكَتَفٍ بِذَاتِهِ. وَتَثْبُتُ وَجْهَةُ النَّظَرِ الْإِنْشَوْرَافِيَّةِ تَجَاهَ اللُّغَةِ مَبْدَأُ النَّسْبِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ عَلَى مَا قَدْ تَسَمَّى بِهِ، أَيَّ أَنَّ الْكَلِمَاتِ يَجِبُ الْآ تَعَامَلُ إِلَّا بِوَصْفِهَا رُومَزًا وَأَنَّ سَايَكُولُوجِيَّةَ الْإِحَالَةِ الرَّمْزِيَّةِ يَجِبُ أَنْ تُسَخَّرَ لِتَكُونَ قَاعِدَةً لِكُلِّ عِلْمٍ لِلُّغَةِ. وَلَمَّا كَانَ كُلُّ عَالَمٍ 'الْأَشْيَاءِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا' يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ مُسْتَوَى الثَّقَافَةِ، وَبِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ الْجُغْرَافِيَّةِ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، كَانَتْ النَّتِيجَةُ أَنَّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ يَجِبُ عَلَى الدَّوَامِ أَنْ يُجْمَعَ، لَا مِنَ التَّأْمُلِ السَّلْبِيِّ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بَلْ مِنْ تَحْلِيلِ وَظَافَتِهَا بِالرُّجُوعِ إِلَى الثَّقَافَةِ الْمُعْطَاةِ. فَلِكُلِّ قَبِيلَةٍ بِدَائِيَّةٍ أَوْ بَرَبَرِيَّةٍ، كَمَا لِكُلِّ نَمَطٍ مِنْ أَنْمَاطِ الْحَضَارَةِ، عَالَمٌ مِنَ الْمَعَانِي وَلَا يُمَكِّنُ تَفْسِيرُ مُجْمَلِ الْجِهَازِ اللُّغَوِيِّ لِهَذِهِ الْأَقْوَامِ- أَيَّ مُسْتَوْدَعِ كَلِمَاتِهِمْ وَنَمَطِ نَحْوِهِمْ- إِلَّا بِرَبْطِهِ بِمُتَطَلِّبَاتِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ.

وَفِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ يُقَدَّمُ الْكَاتِبَانِ تَحْلِيلًا لِسَايَكُولُوجِيَّةِ الْإِحَالَةِ الرَّمْزِيَّةِ، يُمَثِّلُ مَعَ الْمَادَّةِ الَّتِي جُمِعَتْ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي أَكْثَرَ مُعَالَجَاتِ الْمَوْضُوعِ الَّتِي وَقَفْتُ عَلَيْهَا إِقْنَاعًا. وَأَوْدُ أَنْ أُعْلَقَ بِقَوْلِي إِنَّ اسْتِعْمَالَ الْكَاتِبَيْنِ كَلِمَةَ 'السِّيَاقِ' مُنْسَجِمٌ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُتَطَابِقٍ، مَعَ اسْتِعْمَالِي لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي تَعْبِيرِ 'سِيَاقِ الْحَالِ'. وَلَيْسَ فِي وَسْعِي الدُّخُولُ هُنَا فِي مُحَاوَلَةٍ تَنْمِيطِ مَنْظُومَتِنَا الْمُصْطَلَحِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِنَا وَبِجِبُّ أَنْ أُتَبَّحَ لِلْقَارِئِ اخْتِبَارَ نِسْبِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ فِي هَذَا الْمِثَالِ الْبَسِيطِ.

(4)

لَقَدْ كَانَ تَعَامُلِي الرَّئِيسُ، حَتَّى الْآنَ، مَعَ أَبْسَطِ مُشْكِلَاتِ الْمَعْنَى، وَهِيَ الْمُسْكِلَاتُ الْمُتَّصِلَةُ بِتَعْرِيفِ الْكَلِمَاتِ الْمُفْرَدَةِ وَبِالْمَهْمَةِ الْمُعْجَمِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ اسْتِحْضَارَ مُفْرَدَاتِ لِسَانِ أَجَنَّبِيٍّ أَمَامَ الْقَارِئِ الْأَوْرُبِيِّ. وَقَدْ كَانَتْ النَّتِيجَةُ الرَّئِيسَةُ لِتَحْلِيلِنَا أَنَّ مِنَ الْمُحَالِ تَرْجَمَةَ كَلِمَاتٍ لُغَةً بِدَائِيَّةٍ أَوْ لُغَةً تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا عَنْ لُغَتِنَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ تَقْرِيرٍ مُفْصَّلٍ عَنْ ثَقَافَةٍ مُسْتَعْمِلِيهَا يُقَدِّمُ، بِذَلِكَ، الْمِقيَاسَ الْمُشْتَرَكَ الضَّرُورِيَّ لِلتَّرْجِمَةِ. لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ إِمْكَانِ الْاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْمِهَادِ الْإِنْثُوغَرَاْفِيِّ فِي الْمُعَالَجَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِلُّغَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُكْتَفَى بِهِ الْبَيِّنَةُ، وَإِنَّ مُشْكِلَةَ الْمَعْنَى بِهَا حَاجَةٌ إِلَى نَظَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهَا. وَسَاحَاوُلُ أَنْ أُبَيِّنَ، مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ إِلَى اللُّغَةِ مِنَ الْمَنْظُورِ الْإِنْثُوغَرَاْفِيِّ وَاسْتِعْمَالِ تَصَوُّرِنَا لِسِيَاقِ الْحَالِ، أَنَّ بِإِمْكَانِنَا تَقْدِيمَ خُطُوطٍ عَرِضِيَّةٍ لِنَظَرِيَّةٍ دَلَالِيَّةٍ [309] نَافِعَةٍ فِي مَجَالِ اللُّغَاتِ الْبِدَائِيَّةِ وَمُسَلِّطَةٍ لِشَيْءٍ مِنَ الضُّوءِ عَلَى لُغَةِ الْبَشَرِ عُمُومًا.

فَلْنُحَاوِلْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ نُكَوِّنَ، مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِنَا، رَأْيًا بِشَأْنِ طَبِيعَةِ اللُّغَةِ. فَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّ غِيَابَ الرُّؤْيَةِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُحَدَّدَةِ بِشَأْنِ وَظِيفَةِ اللُّغَةِ وَطَبِيعَةِ الْمَعْنَى هُوَ السَّبَبُ فِي الْعَقْمِ النَّسْبِيِّ لِلتَّنْظِيرِ اللَّغَوِيِّ الْمُتَمَازِ فِي الْأَحْوَالِ الْأُخْرَى. وَإِنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُبَاشِرَةَ الَّتِي يُوَاجِهُ بِهَا الْكَاتِبَانِ هَذِهِ الْمُسْكِلَةَ الْأَسَاسِيَّةَ وَالْحِجَاجَ الْمُتَمَازَ الَّذِي يَحْلَانِهَا بِهِ يُشْكِلَانِ الْقِيَمَةَ الدَّائِمَةَ لِعَمَلِيَّهِمَا.

وَقَدْ أَوْضَحْتُ دِرَاسَةَ النَّصِّ الْمَحَلِّيِّ الْمُقْتَبَسِ آتِفًا أَنَّ الْقَوْلَ لَا يَغْدُو مَفْهُومًا إِلَّا حِينَ نُؤَوِّلُهُ مِنْ خِلَالِ سِيَاقِ الْحَالِ الْخَاصِّ بِهِ. فَإِنَّ تَحْلِيلَ هَذَا السِّيَاقِ يُقَدِّمُ لَنَا لَمَحَةً عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْهَمْجِيِّينَ الَّذِينَ تَرَبَّطُوهُمْ وَشَائِعُ مُتَبَادَلَةٍ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالظُّلُمُوحَاتِ، وَمِنْ الْإِنَارَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ الْعَاطِفِيَّتَيْنِ. وَقَدْ كَانَتْ ثَمَّةَ إِحَالَةٍ تَبْجُحِيَّةٍ عَلَى فَعَالِيَّاتٍ تِجَارِيَّةٍ تَنَافُسِيَّةٍ، وَعَلَى حَمَلَاتٍ احْتِفَالِيَّةٍ فِي مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ، وَعَلَى مُرَكَّبٍ مِنَ الْعَوَاطِفِ، وَالظُّلُمُوحَاتِ، وَالْأَفْكَارِ، مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ لَدَى جَمَاعَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُسْتَمْعِينَ مِنْ خِلَالِ انْغِمَاسِهِمْ فِي الثَّقَالِيدِ الْقَبْلِيَّةِ وَكَوْنِهِمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ مُمَثِّلِينَ فِي مُنَاسَبَاتٍ كَالْتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي حِكَايَتِنَا. وَقَدْ كَانَ فِي وَسْعِي، بَدَلًا مِنْ

تَقْدِيمِ حِكَايَةٍ، أَنْ أوردَ نَمَازِجَ لُغَوِيَّةٍ هِيَ، بَعْدَ، أَعْمَقُ وَأَكْثَرُ مُبَاشَرَةٍ فِي تَجْدُّرِهَا فِي سِيَاقِ الْحَالِ.

فَلِنَأْخُذْ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، اللُّغَةَ الَّتِي تَتَحَدَّثُ بِهَا مَجْمُوعَةُ مَحَلِّيَّيْنَ مُنْهَمِكَيْنِ فِي إِحْدَى مُطَارَدَاتِهِمُ الْأَسَاسِيَّةِ بَحْثًا عَنْ مَوَارِدِ الرِّزْقِ- صَيْدِ الْحَيَوَانَاتِ، أَوْ صَيْدِ الْأَسْمَاكِ، أَوْ فِلَاحَةِ الْأَرْضِ؛ أَوْ مُنْهَمِكَيْنِ فِي إِحْدَى تِلْكَ الْفَعَالِيَّاتِ الَّتِي تُعَبِّرُ بِهَا الْقَبِيلَةُ الْهَمَجِيَّةُ عَنْ أَشْكَالٍ مِنَ الطَّاقَةِ إِنْسَانِيَّةٍ فِي أُسَاسِهَا- كَالْحَرْبِ، أَوْ اللَّعِبِ أَوْ الرِّيَاضَةِ، أَوْ أَدَاءِ احْتِفَالِيٍّ أَوْ عَرْضٍ فَنِّيٍّ كَالرَّقَصِ أَوْ الْغِنَاءِ. وَالْمُمَثِّلُونَ فِي أَيِّ مَشْهَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ إِنَّمَا يُمَارِسُونَ فَعَالِيَّةً ذَاتَ غَرَضٍ، وَيَحْتَشِدُونَ جَمِيعًا لِتَحْقِيقِ هَدَفٍ مُحَدَّدٍ؛ وَعَلَيْهِمْ جَمِيعًا أَنْ يُثْمَلُوا بِطَرِيقَةٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا طَبَقًا لِقَوَاعِدَ أَرْسَاها الْعُرْفُ وَالتَّقْلِيدُ. وَفِي كُلِّ ذَلِكَ يُشْكَلُ الْكَلَامُ الْوَسِيلَةَ الضَّرُورِيَّةَ لِلْجَمَاعَةِ؛ فَهِيَ الْأَدَاةُ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ الْاسْتِغْنَاءَ عَنْهَا مِنْ أَجْلِ خَلْقِ الرُّوَاطِطِ الْآيِنِيَّةِ وَالَّتِي يَسْتَحِيلُ إِحْدَاثُ نَشَاطٍ اجْتِمَاعِيٍّ مُوَحَّدٍ مِنْ غَيْرِ وُجُودِهَا.

ثُمَّ لِنَنْظُرِ الْآنَ فِي نَمَطِ الْحَدِيثِ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ التَّمَثِيلَ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ، وَفِي طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِهِ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ نُضْفِيَ عَلَى تَوْجُّهِنَا طَابَعًا مَلْمُوسًا مُنْذُ الْبِدَايَةِ سَنُحَاوِلُ نَعْقَبَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ صَيَادِي الْأَسْمَاكِ فِي بُحَيْرَةِ مَرَجَانِيَّةٍ، يَتَرَبَّصُونَ بِأَسْمَاكِ الْمِيَاهِ الضَّحَلَةِ، مُحَاوِلِينَ اصْطِيَادَهَا بِشَبَكَاتِ صَيْدٍ وَاسِعَةٍ، وَنَقْلَهَا فِي حَقَائِبِ شَبَكِيَّةٍ صَغِيرَةٍ- وَهُوَ مِثَالٌ وَقَعَ اخْتِيَارِي عَلَيْهِ كَذَلِكَ لِطَوْلِ الْإِنِّي الشَّخْصِيِّ لِذَلِكَ الْإِجْرَاءِ⁽²⁶⁾. [310]

إِذْ تَنْزَلُّ الرُّوَارِقُ بِنِظَرٍ وَمِنْ غَيْرِ ضَجِيجٍ، يُسَيِّرُهَا رِجَالٌ مُنْخَصَّصُونَ فِي هَذِهِ الْمَهْمَةِ وَيُلْجَأُ إِلَيْهِمْ عَلَى الدَّوَامِ لِأَدَائِهَا. وَثَمَّةُ خُبْرَاءَ آخَرُونَ عَلَى إِدْرَايَةِ بِقَاعِ الْبُحَيْرَةِ وَمَا فِيهِ مِنْ حَيَاةٍ نَبَاتِيَّةٍ وَحَيَوَانِيَّةٍ، فِي حَالِ تَرْقُبٍ لِلْأَسْمَاكِ. وَيَلْمَحُ أَحَدُهُمْ

(26) تُنْظَرُ مَقَالَةٌ كَاتِبُ هَذِهِ السُّطُورِ الَّتِي عُنوانُهَا "صَيْدُ السَّمَكِ وَسِخْرُهُ فِي جُزُرِ تروبريانْد

'Fishing and Fishing Magic in the Trobriand Islands'، فِي دُورِيَّةِ Man، 1918.

الطَّرِيْدَةِ. فَتُطْلَقُ عَلاَمَاتُ أَوْ أَصَوَاتُ أَوْ كَلِمَاتُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا. وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْطَلُبُ الْأَمْرُ أَنْ يُنْطَقَ بِجُمْلَةٍ تَنْضَحُ بِإِحَالَاتٍ عُزْفِيَّةٍ عَلَى قَنَوَاتِ الْبَحِيرَةِ أَوْ مُسَطَّحَاتِهَا النَّبَاتِيَّةِ؛ وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ حِينَ تَكُونُ الْمِيَاءُ الصَّحْلَةَ قَرِيبَةً وَمَهْمَةُ الْإِصْطِيَادِ سَهْلَةً تُطْلَقُ صَرْخَةٌ مُتَعَارَفَةٌ بِصَوْتٍ غَيْرِ عَالٍ جَدًّا. ثُمَّ يَتَوَقَّفُ الْأُسْطُولُ كُلُّهُ وَيُصَفِّتُ نَفْسَهُ - كُلُّ زَوْرَقٍ وَكُلُّ رَجُلٍ فِيهِ يُؤَدِّي مُهْمَتَهُ الْمَوْكُولَةَ إِلَيْهِ - طَبَقًا لِنِظَامٍ مَعْهُودٍ. غَيْرَ أَنَّ الرُّجَالَ، لَا شَكَّ، يُطْلِقُونَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ مَهْمَتِهِمْ صَوْتًا بَيْنَ الْفَيْتَةِ وَالْفَيْتَةِ يُعَبِّرُ عَنْ حَمَاسَةٍ فِي الْمُطَارَدَةِ أَوْ نَفَادٍ صَبْرٍ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ صُعُوبَةٍ مَهْنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ فَرَحَةٍ عِنْدَ الْإِنْجَازِ أَوْ خَبِيَّةٍ أَمَلٍ عِنْدَ الْإِخْفَاقِ. وَتُسْمَعُ، مَرَّةً أُخْرَى، كَلِمَةٌ أَمْرَةٌ هُنَا وَهَنَّا، تُمَثِّلُ تَعْبِيرًا أَوْ تَفْسِيرًا عُزْفِيًّا يُعِينُ عَلَى جَعْلِ سُلُوكِهِمْ مُتَنَاعِمًا تَجَاةَ الرُّجَالِ الْآخَرِينَ. فَالْمَجْمُوعَةُ كُلُّهَا تَعْمَلُ بِطَرِيقَةٍ مُتَّفَقَةٍ عَلَيْهَا، يُحَدِّدُهَا عُرْفٌ قَبْلِيٌّ قَدِيمٌ، وَيَأْلَفُهَا الْمُتَمَثِّلُونَ تَمَامًا عِزَّ تَجَرِبَةٍ حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ. وَبَعْضُ الرُّجَالِ فِي الزَّوَارِقِ يُلْقُونَ الشُّبَاكَ الْوَاسِعَةَ الْمُطَوَّقَةَ فِي الْمَاءِ، وَآخَرُونَ يَغْطَسُونَ وَيَسْوَقُونَ الْأَسْمَاكَ إِلَى دَاخِلِ الشُّبَاكِ بِخَوْضِهِمْ فِي مِيَاءِ الْبَحِيرَةِ الصَّحْلَةَ. وَثُمَّ آخَرُونَ كَذَلِكَ يَنْتَظِرُونَ بِشَبَاكِهِمِ الصَّغِيرَةِ، اسْتِعْدَادًا لِلْإِسْمَاكِ بِالْأَسْمَاكِ. وَتَتَّبِعُ ذَلِكَ مَشْهَدٌ مُفْعَمٌ بِالْحَيَوِيَّةِ، مِلْؤُهُ الْحَرَكَةُ؛ فَالآنَ وَالْأَسْمَاكَ فِي حَوَازَةِ الصِّيَادِينَ تَرَاهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِصَوْتٍ عَالٍ، وَيُنْفُسُونَ عَنْ مَشَاعِرِهِمْ. فَتَجُوبُ الْمَكَانَ عِبَارَاتٌ هَتَافِيَّةٌ قَصِيرَةٌ مُوجِيزَةٌ، يُمَكِّنُ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهَا كَلِمَاتٌ نَحْوُ: 'اسْحَبْ' 'Pull in'، وَ'اَتْرُكْ' 'Let go'، وَ'نَحْوِلْ أَبْعَدْ' 'Shift further'، وَ'ارْفَعْ الشَّبَكَةَ' 'Lift the net'، أَوْ تَعْبِيرَاتٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَصِيَّةٌ عَلَى التَّرْجُمَةِ تَمَامًا إِلَّا بِوَصْفٍ دَقِيقٍ لِلأَدَوَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ، وَلِلْمَنْحَى الْعَمَلِيِّ.

إِنَّ كُلَّ اللُّغَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْمُطَارَدَةِ مَمْلُوءَةٌ بِالتَّعْبِيرَاتِ الْعُزْفِيَّةِ، وَبِالْإِحَالَاتِ الْمُقْتَضَبَةِ عَلَى مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْبَيْئَةِ الْمُحِيطَةِ، وَبِالْإِشَارَاتِ الْخَاطِفَةِ إِلَى التَّحْوِيلِ - كُلُّ أُولَئِكَ يَسْتَنِدُ إِلَى أَنْمَاطِ سُلُوكِيَّةٍ مُتَعَارَفَةٍ، يَأْلَفُهَا الْمُشَارِكُونَ جَدًّا مِنْ خِلَالِ خَيْرَاتِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ. وَكُلُّ قَوْلٍ يُطْلَقُ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِسِيَاقِ الْحَالِ وَبِالْهَدَفِ مِنَ الْمُطَارَدَةِ؛ سَوَاءٌ كَانَ إِشَارَاتٍ قَصِيرَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِحَرَكَاتِ الطَّرِيْدَةِ، أَوْ إِحَالَاتٍ عَلَى الْأَقْوَالِ الْمُعْبَّرَةِ عَنِ الْبَيْئَةِ الْمُحِيطَةِ، أَوْ تَعْبِيرًا عَنِ

الشُّعُورِ وَالْعَاطِفَةُ الْمُقَيَّدَيْنِ بِوَثَاقَةِ بِالسُّلُوكِ، أَوْ كَلِمَاتٍ أَمْرِيَّةً، أَوْ تَعَالُفًا عَمَلِيًّا. إِنَّ بِنِيَّةَ كُلِّ هَذِهِ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ مَمْرُوجَةٌ مَزْجًا لَا فِكَاكَ مِنْهُ بِسَيَرُورَةِ الْفَعَالِيَّةِ الَّتِي أُودِعَتْ فِيهَا تِلْكَ الْأَقْوَالُ، وَمُعْتَمِدَةً عَلَيْهَا. وَإِنَّ الْمُفْرَدَاتِ، وَمَعْنَى الْكَلِمَاتِ الْمَخْصُوصَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ بِعُرْفِيَّتِهَا الْمُمَيِّزَةِ لَيْسَتْ بِأَقْلَ تَبَعِيَّةٍ لِلْعَمَلِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللُّغَةَ الْعُرْفِيَّةَ، فِي أُمُورِ الْمُطَارَدَةِ الْعَمَلِيَّةِ، لَا تَكْتَسِبُ مَعْنَاهَا [311] إِلَّا مِنْ خِلَالِ الْمُشَارَكَةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي هَذَا النَّمَطِ مِنَ الْمُطَارَدَةِ. إِنَّ تَعَلُّمَهَا لَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ التَّأَمُّلِ بَلْ مِنْ خِلَالِ الْمُمَارَسَةِ.

وَلَوْ كُنَّا قَدْ تَنَاوَلْنَا أَيَّ مِثَالٍ آخَرَ سِوَى صَيْدِ السَّمَكِ لَتَوَصَّلْنَا إِلَى نَتَائِجٍ مُشَابِهَةٍ. فِدِرَاسَةُ أَيِّ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الْكَلَامِ الْمُسْتَعْمَلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعَمَلٍ حَيَوِيٍّ يَكْثِفُ عَنِ الْمُمَيِّزَاتِ النَّحْوِيَّةِ وَالْمُعْجَمِيَّةِ أَنْفُسُهَا: أَيِ اعْتِمَادِ مَعْنَى كُلِّ كَلِمَةٍ عَلَى تَجَرِبَةٍ عَمَلِيَّةٍ، وَبِنِيَّةِ كُلِّ قَوْلٍ عَلَى حَالٍ آتِيَةٍ قِيلَ فِيهَا. وَبِذَلِكَ يَقْدُونَا النَّظَرُ فِي الْاسْتِعْمَالَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُرتَبِطَةِ بِأَيَّةِ مُطَارَدَةٍ عَمَلِيَّةٍ إِلَى اسْتِنْتَاكِ أَنَّ اللُّغَةَ فِي أَشْكَالِهَا الْبِدَائِيَّةِ يَجِبُ النَّظَرُ فِيهَا وَدِرَاسَتُهَا بِإِزَاءِ خَلْفِيَّةِ الْفَعَالِيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَبِوَصْفِهَا ضَرْبًا مِنَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ فِي الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ. وَعَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الْأَصْلِ لَمْ تَكُنْ تُسْتَعْمَلُ الْبَتَّةَ فِي أَوْسَاطِ الْأَقْوَامِ الْبِدَائِيَّةِ غَيْرِ الْمُتَحَضِّرِينَ مُجَرَّدَ مِرَآةٍ عَاكِسَةٍ لِلْأَفْكَارِ. فَالطَّرِيقَةُ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا بِهَا الْآنَ عِنْدَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي عَلَى مُؤَلِّفِ كِتَابٍ مَا أَوْ مَخْطُوطٍ بَرَزِيٍّ أَوْ مَخْطُوطٍ مَنُحَوِّتٍ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا، إِنَّمَا هِيَ وَظِيفَةُ لُغَوِيَّةٍ مُتْكَلِّفَةٍ جِدًّا وَثَانَوِيَّةٍ. فَبِهَذِهِ الْوَظِيفَةِ تَعْدُو اللُّغَةُ قِطْعَةً تَأْمِلِيَّةً مُتْكَلِّفَةً، وَسِجِلًا لِلْحَقِيقَةِ أَوْ الْفِكْرِ. أَمَّا وَظِيفَةُ اللُّغَةِ فِي الْاسْتِعْمَالَاتِ الْبِدَائِيَّةِ فَأَنْ تَكُونَ رَابِطًا فِي فَعَالِيَّةٍ إِنْسَانِيَّةٍ مُتَّقِيٍّ عَلَيْهَا، وَأَنْ تَكُونَ قِطْعَةً مِنَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ. إِنَّهَا ضَرْبٌ عَمَلِيٌّ لَا أَدَاءُ تَأْمَلٍ⁽²⁷⁾.

(27) يَقُولُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ السَّعْرَانُ فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ اللُّغَةِ - مُقَدِّمَةٌ لِلْفَارِغِيِّ الْعَرَبِيِّ): ص 251: "لَقَدْ وَصَلَ مَالِيْنُوسْكِي إِلَى أَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ، كَمَا يَرَى التَّعْرِيفُ التَّقْلِيدِيَّ، وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ تَوْصِيلِ الْأَفْكَارِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ أَوْ التَّبْعِيْرِ عَنْهَا أَوْ تَقْلُهَا، فَبِثَلْ هَذَا لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ وَظِيفَةً وَاحِدَةً مِنْ وَظَائِفِ اللُّغَةِ، وَرَأَى أَنَّ اللُّغَةَ، كَمَا يُمَارِسُهَا الْمُتْكَلِّمُونَ فِي أَيِّ =

وَقَدْ تَوَصَّلْنَا إِلَى هَذِهِ الِاسْتِنَاجَاتِ بِنَاءً عَلَى مِثَالٍ يَسْتَعْمِلُ فِيهِ اللُّغَةُ قَوْمٌ مُرْتَبِطُونَ بِشُغْلٍ عَمَلِيٍّ تَكُونُ فِيهِ الْأَقْوَالُ كَامِنَةً فِي الْعَمَلِ. وَقَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا الِاسْتِنَاجِ بِأَنَّ ثَمَّةَ اسْتِعْمَالَاتٍ لُغَوِيَّةٍ أُخْرَى كَذَلِكَ حَتَّى وَسَطَ الْأَقْوَامِ الْبِدَائِيَّةِ الَّذِينَ قَدْ حَرَمُوا الْكِتَابَةَ أَوْ آيَةً وَسِيلَةً لِلتَّشْيِيبِ الْخَارِجِيِّ لِلنُّصُوصِ اللَّغَوِيَّةِ. عَلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ تَاكِيدَ أَنَّهُ حَتَّى هَؤُلَاءِ قَدْ بَثُّوا نُصُوصًا فِي أُغْنِيَاتِهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ، وَخُرَافَاتِهِمْ، وَأَسَاطِيرِهِمْ، وَفِي صِبْغِهِمُ الشَّعَائِرِيَّةَ وَالسَّحَرِيَّةَ الَّتِي هِيَ أَهَمُّ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ. فَهَلْ تَصِحُّ اسْتِنَاجَاتُنَا بِشَأْنِ طَبِيعَةِ اللُّغَةِ حِينَ تُوَاجَهُ بِهَذَا الِاسْتِعْمَالِ لِلْكَلامِ؟ وَهَلْ فِي وَسْعِ آرَائِنَا أَنْ تَظَلَّ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ حِينَ نُحَوِّلُ نَظَرَنَا مِنَ الْكَلَامِ الْعَمَلِيِّ إِلَى الْحِكَايَةِ الْحُرَّةِ أَوْ إِلَى اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ فِي الْإِتِّصَالِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْخَالِصِ، حِينَ لَا يَكُونُ غَرَضُ الْكَلَامِ إِحْرَازَ هَدَفٍ مَا بَلْ يَكُونُ غَرَضُهُ تَبَادُلَ الْكَلِمَاتِ بِوصْفِهِ غَايَةً فِي نَفْسِهِ تَقْرِيبيًّا؟

وَكُلُّ مَنْ تَابَعَ تَحْلِيلَنَا لِلْكَلامِ الْعَمَلِيِّ وَعَقَّدَ مُوَازَنَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُنَاقَشَةِ النُّصُوصِ

= جماعة من الجماعات، إنما هي نوع من السلوك، ضرب من العمل، إنها تؤدي وظائف كثيرة غير التوصيل". وقد أحال الدكتور السمران في ختام فقرته هذه على كتابه (اللغة والمجتمع: رأي ومنهج)، وهذا أنا ذا أنقل ما ورد فيه إتماماً للإفادة وإظهاراً لقيمة الملحق الذي كتبه مالمينوفسكي لكتاب (معنى المعنى)، إذ جاء فيه ص 17 ما يأتي: "ولقد كان لمالمينوفسكي (انظر الملحق الذي كتبه لكتاب معنى المعنى The Meaning of Meaning من تأليف العالمين النفسانيين الإنجليزيين C. K. Ogden و I. A. Richards)، العالم الأنثروبولوجي، فضل كبير في تغيير النظر إلى اللغة؛ فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي جرى الاصطلاح على تسميتها بالمجتمعات (البدائية) أو (الطيرية) أو (الوحشية) أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع. ومن هنا كانت نظريته الهامة في اللغة، والتي كانت بين عوامل تطوّر النظر إلى علم اللغة. وصل مالمينوفسكي بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات إلى أن وظيفة اللغة ليست أنها مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل، بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنظم، هي أنها جزء من السلوك الإنساني، إنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر (Malinowski, op. cit., p. 312) واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصراً على الجماعات (البدائية)، بل إنه يلاحظ في أرقى الجماعات تمدناً". [المترجم]

الْحِكَايَةِ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي سَيَقْتَنِعُ بِأَنَّ الْاِسْتِنَاجَاتِ الْحَالِيَّةَ تَنْطَبِقُ عَلَى الْكَلَامِ الْحِكَايِيِّ أَيْضًا. فَحِينَ يُخْبَرُ بِالْحَوَادِثِ أَوْ تُنَاقَشُ وَسَطَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُسْتَمِيعِينَ فَتَمَّةً، أَوَّلًا، الْحَالُ الْآيِّيَّةُ الَّتِي تُشَكِّلُهَا الْمَوَاقِفُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَالْعَاطِفِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ لِلْأَشْخَاصِ الْحَاضِرِينَ. وَفِي ضِمَنِ هَذِهِ الْحَالِ تَخْلُقُ الْحِكَايَةُ [312] رَوَاطِظَ وَعَوَاطِفَ جَدِيدَةً بِوَسَاطَةِ الْجَاذِبِيَّةِ الْعَاطِفِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ. وَفِي الْحِكَايَةِ الْمُقْتَبَسَةِ يُؤَلِّدُ تَبَاهِي الْمَرْءِ أَمَامَ خَلِيطٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ مِنْ عَدِيدِ الزَّائِرِينَ وَالْغُرَبَاءِ مَشَاعِرَ الْفَخْرِ أَوْ الْجُزْيِ، وَالنُّصْرِ أَوْ الْحَسَدِ. وَفِي كُلِّ حَالٍ يَكُونُ الْكَلَامُ الْحِكَايِيُّ، عَلَى مَا نَجِدُهُ عَلَيْهِ فِي التَّجَمُّعَاتِ الْبِدَائِيَّةِ، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَنْحَى لِفِعْلِ اجْتِمَاعِيٍّ لَا مُجَرَّدَ انْعِكَاسٍ لِلْفِكْرِ.

وَالْحِكَايَةُ مُرْتَبِطَةٌ كَذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بِحَالٍ تُحِيلُ عَلَيْهَا - وَهِيَ فِي نَصْنَا السَّابِقِ أَدَاءٌ لِإِحَارٍ تَنَافُسِيٍّ. وَتَكُونُ الْكَلِمَاتُ فِي هَذِهِ الْعَلَاقَةِ دَالَّةً بِسَبَبِ تَجَارِبِ الْمُسْتَمِيعِينَ سَابِقَةٍ، وَيَعْتَمِدُ مَعْنَاهَا عَلَى سِيَاقِ الْحَالِ الْمُحَالِ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُ هَذِهِ الْإِحَالَةُ بِالذَّرَجَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَكُونُ بِهَا فِي حَالَةِ الْكَلَامِ الْعَمَلِيِّ وَلَكِنْ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا. وَالْفَرْقُ فِي الذَّرَجَةِ مُهِمٌّ؛ فَالْكَلَامُ الْحِكَايِيُّ إِنَّمَا يُخَرِّزُ فِي وَظِيفَتِهِ، وَلَا يُحِيلُ عَلَى الْعَمَلِ إِلَّا عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، لَكِنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَكْتَسِبُ بِهَا مَعْنَاهُ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا إِلَّا مِنَ الْوِظِيفَةِ الْمُبَاشِرَةِ لِلْكَلَامِ الْعَمَلِيِّ. وَإِذَا مَا اسْتَعْمَلْنَا مُصْطَلَحَاتِ هَذَا الْكِتَابِ قُلْنَا: إِنَّ الْوِظِيفَةَ الْإِحَالِيَّةَ لِحِكَايَةٍ مَا ثَانَوِيَّةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى وَظِيفَتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِنْفِعَالِيَّةِ، عَلَى مَا مَرَّ تَصْنِيفُ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِينَ فِي الْفَصْلِ الْعَاشِرِ.

إِنَّ حَالَةَ اللُّغَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي الْإِتِّصَالِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْخُرِّ غَيْرِ الْهَادِفِ تَقْتَضِيهِ اهْتِمَامًا خَاصًّا. فَحِينَ يَجْلِسُ عَدَدٌ مِنَ النَّاسِ مَعًا إِلَى نَارِ الْقَرِيَّةِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ جَمِيعِ أَشْغَالِ النَّهَارِ، أَوْ حِينَ يَتَحَدَّثُونَ لِيَتَحَقَّقُوا مِنْ أَعْبَاءِ الْعَمَلِ، أَوْ حِينَ يَضْحَبُ عَمَلًا لَهُمْ يَدَوْنًا مَخْضًا زُرَّةً لَا تَمُتُ بِصِلَةِ الْبَتَّةِ لِمَا يَقَعْلُونَهُ - مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ عَلَيْنَا التَّعَامُلَ هُنَا مَعَ ضَرْبٍ مُخْتَلِفٍ مِنْ ضُرُوبِ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ، أَيْ مَعَ نَمَطٍ آخَرَ لَوْظِيفَةِ الْكَلَامِ. فَاللُّغَةُ هُنَا لَا تَعْتَمِدُ عَلَى مَا يَحْدُثُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، بَلْ إِنَّهَا

لَتَبْدُو مُجَرَّدَةً مِنْ أَيْ سِيَاقٍ لِلْحَالِ. إِذْ لَا يُمَكِّنُ رِبْطُ مَعْنَى آيَةٍ مَقُولَةٍ بِسُلُوكِ الْمُتَكَلِّمِ أَوْ الْمُسْتَمِعِ، وَلَا بِالْغَرَضِ مِنْ أَعْمَالِهِمَا.

إِنَّ الْعِبَارَةَ الْمُهَذَّبَةَ، الَّتِي تُسْتَعْمَلُ وَسَطَ الْقَبَائِلِ الْهَمْجِيَّةِ تَمَامًا كَمَا تُسْتَعْمَلُ فِي قَاعَةِ اسْتِقْبَالِ أَوْزُبِيَّةٍ، لَتُؤَدِّي وَظِيفَةً يَكَادُ مَعْنَى الْكَلِمَاتِ فِيهَا يَكُونُ مُنْبَتُّ الصَّلَةِ بِهَا تَمَامًا. فَالسُّؤَالُ عَنِ الصَّحَّةِ، وَالتَّعْلِيلُ عَلَى الطَّقْسِ، وَالتَّشْدِيدُ عَلَى حَالَةِ الْأَشْيَاءِ شَدِيدَةُ الْوُضُوحِ - كُلُّ مَا هُوَ نَحْوُ ذَلِكَ لَا يُتَبَادَلُ مِنْ أَجْلِ الْإِخْبَارِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ رِبْطِ النَّاسِ بِفِعْلٍ مَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، وَلَا مِنْ أَجْلِ التَّعْبِيرِ عَنْ آيَةٍ فِكْرَةٍ، بَلَا شَكٍّ. بَلْ إِنِّي أَرَى أَنَّهُ لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ يُقَالَ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ تُؤَدِّي مَهْمَةً تَأْسِيسَ عَاطِفَةٍ مُشْتَرَكَةٍ؛ إِذْ إِنَّ هَذِهِ عَادَةً مَا تَكُونُ غَائِبَةً فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ الدَّارِجَةِ فِي الْإِتِّصَالِ، وَحَيْثُمَا أَوْحَتْ بِالظُّهُورِ، كَمَا فِي التَّعْبِيرَاتِ التَّعَاطُفِيَّةِ، كَانَتْ زَائِفَةً فِي أَحَدِ جَوَانِبِهَا عَلَى نَحْوِ صَرِيحٍ. فَمَا الْغَرَضُ، إِذَنْ، مِنْ وُجُودِ عِبَارَاتٍ نَحْوِ: 'كَيْفَ حَالُكَ؟' 'How do you do?'، وَ'أَه، هَا أَنْتَ ذَا' 'Ah, here you are'، وَ'مِنْ أَيْنَ قُدُومُكَ؟' 'Where do you come from?'، [313] وَ'إِنَّهُ لَيَوْمٌ جَمِيلٌ' 'Nice day to-day' - وَكُلُّهَا يُؤَدِّي غَرَضًا وَاحِدًا فِي مُجْتَمَعٍ أَوْ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهَا صِنْعٌ نَجِيَّةٌ أَوْ تَوَدُّدٌ.

أَعْتَقِدُ أَنَّ بَحْثَنَا فِي وَظِيفَةِ الْكَلَامِ فِي الْمُخَالَطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُحَضَّصَةِ يَقُودُنَا إِلَى أَحَدِ الْجَوَانِبِ الْأَسَاسِيَّةِ لِطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْمُجْتَمَعِ. فَفِي دَاخِلِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِثْلٌ مَعْرُوفٌ إِلَى الْاجْتِمَاعِ، إِلَى أَنْ يَكُونَ فِي رِفْقَةٍ، يَسْتَمْتِعُ بَعْضُهَا بِصُحْبَةِ بَعْضٍ. وَالكَثِيرُ مِنَ الْغَرَائِزِ وَالْمَيُولِ الْدَاخِلِيَّةِ كَالْخَوْفِ أَوْ الْمُشَاكَسَةِ، وَجَمِيعُ أَنْمَاطِ الْعَوَاطِفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ كَالطُّمُوحِ، وَالْغُرُورِ، وَالرَّغْبَةِ فِي حِيَازَةِ الْقُوَّةِ وَالثَّرْوَةِ، تَعْتَمِدُ عَلَى الْمِثْلِ الْأَسَاسِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ مُجَرَّدَ حُضُورِ الْآخَرِينَ حَاجَةً لِلْإِنْسَانِ، وَتَرْتَبِطُ بِهَذَا الْمِثْلِ⁽²⁸⁾.

(28) أَنَا أَتَعَمَّدُ تَجَنُّبَ اسْتِعْمَالِ تَعْبِيرِ غَرِيزَةِ التَّجَمُّعِ Herd-instinct؛ لِإِيْمَانِي بِأَنَّ الْمِثْلَ الَّذِي نَحْنُ بِصُدُودِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى، عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ، غَرِيزَةً. ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ أَسَاءَ اسْتِعْمَالُ مُصْطَلَحِ غَرِيزَةِ التَّجَمُّعِ فِي مُؤَلَّفِ سوسيولوجي حَدِيثٍ أَصْبَحَ، مَعَ ذَلِكَ، شَائِعًا بِمَا فِيهِ =

وَالكَلَامُ هُوَ الْعَلَاقَةُ الْمُتَبَادِّلَةُ الْحَمِيمَةُ لِهَذَا الْمَثَلِ؛ ذَلِكَ بِأَنْ صَنَعَ رَجُلٌ مَا لَيْسَ عَامِلًا أَطْمِئِنَّا لِرَجُلٍ آخَرَ طَبِيعِيٍّ، بَلْ إِنَّهُ، بِعَكْسِ ذَلِكَ، شَيْءٌ مَا مُثِيرٌ لِلذَّعْرِ وَخَطِرٌ. وَالشَّخْصُ الْغَرِيبُ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ التَّحَدُّثُ بِاللُّغَةِ يُمَثَّلُ عَدُوًّا طَبِيعِيًّا لِجَمِيعِ رِجَالِ الْقَبِيلَةِ الْهَمَجِيِّينَ. وَلَا يَقْتَصِرُ مَا تَعْنِيهِ قَلَّةُ الْكَلَامِ عِنْدَ الْعَقْلِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ، سِوَاهُ أَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوْسَاطِ الْهَمَجِيِّينَ أَمْ فِي أَوْسَاطِ طَبَقَاتِنَا الْمُتَعَلِّمَةِ، عَلَى الْجَفَاءِ، بَلْ إِنَّهَا تُفَسَّرُ مُبَاشَرَةً بِأَنَّهَا سُوءُ خُلُقٍ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا فِي حَالَةِ الْخُلُقِ الْمَحَلِّيِّ لِكِنَّةِ، بِوصفه قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ، يَظَلُّ صَادِقًا. وَمُمَثَّلُ كَسْرِ الصَّمْتِ وَتَبَادُلِ الْكَلِمَاتِ الْفِعْلِ الْأَوَّلِ لِتَأْسِيسِ أَوَاصِرِ الصُّحْبَةِ، الَّتِي لَا تَكْتَمُلُ إِلَّا بِاقْتِسَامِ الْخُبْرِ وَالتَّشَارُكِ فِي الطَّعَامِ. إِنَّ التَّعْبِيرَ الْإِنْجِلِيزِيَّ الْمُعَاصِرَ: 'إِنَّهُ لَيَوْمٌ جَمِيلٌ' 'Nice day to-day، أَوْ الْعِبَارَةَ الْمِيلَانِيزِيَّةَ: 'مِنْ أَيْنَ قُدُومُكَ؟' 'Whence comest thou؟، إِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِمَا لِيَتَجَاوَزَ التَّوَثُّرُ الْغَرِيبُ وَالْمُزْعِجُ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ الرِّجَالُ فِي حَالِ صَمَتِهِمْ حِينَ يُوَاخِهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَبَعْدَ إِطْلَاقِ الصُّيغَةِ الْأُولَى يَحْدُثُ انْتِشَالٌ لُغَوِيٌّ مِنْ تَعْبِيرَاتٍ تَفْضِيلٍ أَوْ كُرْهِ غَيْرِ هَادِفَةٍ، وَتَقْرِيرَاتٍ عَنْ وَقَائِعٍ غَيْرِ ذَوَاتِ صَلَوةٍ، وَتَعْلِيقَاتٍ عَلَى مَا هُوَ شَدِيدُ الْوُضُوحِ. وَلَا تَخْتَلِفُ هَذِهِ الثَّرْوَةُ الَّتِي نَجِدُهَا فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْبِدَائِيَّةِ عَنْ ثَرَاتِنَا إِلَّا قَلِيلًا. إِذْ نَجِدُ دَوْمًا تَشْدِيدَ التَّأَكُّيدِ وَالْقَبُولِ نَفْسَهُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ مَمْرُوجًا بِخِلَافِ عَارِضٍ يَخْلُقُ أَوَاصِرَ الْكَرَاهِيَةِ. أَوْ تَقْرِيرَاتٍ شَخْصِيَّةً لَأَرَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَتَارِيخِ حَيَاتِهِ، يُصْغِي إِلَيْهَا الْمُسْتَمِعُ بِشَيْءٍ مِنَ الْكِنُحِ وَبِنَفَادٍ صَبْرٍ مُغْلَفٍ قَلِيلًا، مُنْتَظِرًا دَوْرَهُ فِي الْكَلَامِ. ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَوَاصِرَ الْمُؤَلَّدَةَ فِي هَذَا الْاسْتِعْمَالِ لِلْكَلَامِ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُسْتَمِعِ لَيْسَتْ تَامَّةُ التَّنَاطُرِ؛ فَالرَّجُلُ النَّشِيطُ لُغَوِيًّا يَسْتَوِلِي عَلَى الْحِصَّةِ الْكُبْرَى مِنَ الْاسْتِمْتَاعِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَعْظِيمِ الذَّاتِ. لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْاسْتِمْتَاعَ الْمَوْجَّهَ إِلَى نَحْوِ تِلْكَ [314] الْأَقْوَالِ لَا يَنْظَوِي فِي الْعَادَةِ عَلَى حِمَاسَةٍ كَالَّتِي تَنْظَوِي عَلَيْهَا حِصَّةُ الْمُتَكَلِّمِ نَفْسَهَا، إِنَّهُ أَسَاسِيٌّ تَمَامًا لِتَحْقِيقِ اسْتِمْتَاعِهِ، وَيَتَحَقَّقُ التَّبَادُلُ بِتَغْيِيرِ الْأَدْوَارِ.

وليس ثمة مجال للشك في أننا هنا بإزاء نمط جديد من الاستعمال اللغوي. وأنا أميل إلى تسميته اتصالاً ارتباطياً *phatic communion*، يدفعني إلى ذلك شيطان الابتكار الاصطلاحي. وهو نمط من الكلام تتولد فيه أواصر الاتحاد بتبادل الكلمات فحسب. فلنلق عليه نظرة من زاوية النظر التي نحن معنيون بها هنا، ولتساءل: ما الضوء الذي يسلطه على وظيفة اللغة أو طبيعتها؟ هل تستعمل الكلمات في ما أسميه اتصالاً ارتباطياً في المقام الأول لنقل المعنى، المعنى الذي هو، رمزياً، لها؟ الإجابة: لا، بلا شك! فهي تؤدي وظيفة اجتماعية، وهذا هو هدفها الرئيس، ولكنها ليست نتيجة تأمل عقلي، كما أنها لا تستدعي بالضرورة، تأمل المستمع. ويمكننا أن نقول مرة أخرى إن اللغة لا تعمل هنا بوصفها وسيلة لنقل الفكر.

ولكن هل يمكننا عدّها ضرباً عملياً؟ وبأية علاقة نفي يتصورنا الحاسم لسياق الحال؟ ومن الواضح أن الحال الخارجية لا تدخل مباشرة في تقنية التكلم. ولكن ما الذي يمكن أن يعدّ حالاً حين يثرثر عدد من الناس معاً من غير ما هدف؟ إنه يكمن في هذا الجو من المخالطة الاجتماعية وفي حقيقة التشارك الشخصي لهؤلاء الناس. لكن هذا ينجّزه الكلام في الواقع، والحال في جميع هذه الحالات يولدها تبادل الكلمات، والمشاعر المحددة التي تشكل المخالطة الاجتماعية المرحّة، وتبادل الأقوال الذي يؤلف الثروة الاعتيادية. والحال الكلية تكمن في ما يحدث لغوياً. فكل قول هو فعل يحقق الهدف المباشر الذي هو ربط المستمع بالمتكلم برباط من عاطفة أو أخرى. ومرة أخرى، لا تبدو لنا اللغة بوظيفتها هذه أداة للتأمل، بل تبدو ضرباً من العمل.

وأود أن أزيد، حالاً، على ما قلت أنه إن تكن الأمثلة المطروحة قد أخذت من الحياة الهمجية، فإمكاننا أن نجد بين ظهرانينا حالات مناظرة تماماً لكل نمط من الاستعمال اللغوي قد ناقشناه حتى الآن. فنسيج الكلمات الرباط الذي يوحد طاقم سفينة حين يسوء الطقس، والمصاحبات اللفظية لمجموعة جنود في المعركة، واللغة العرفية التي تسير موازية لانفعال عملي معين أو لمطاردة

رِياضِيَّة- كُلُّ أَوْلَئِكَ يُشَبِّهُ فِي الْأَسَاسِ اسْتِعْمَالَاتِ الْبِدَائِيَّةِ لِلْكَلامِ الَّتِي يُزَاوِلُهَا الْمَرْءُ فِي أَثْناءِ الْعَمَلِ، وَقَدْ كَانَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يُقَامَ بَحْثُنَا عَلَى مِثَالِ مُعَاصِرٍ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ. وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارِي أَنْفًا عَلَى مِثَالٍ مِنْ مُجْتَمَعٍ هَمَجِيٍّ لِإِرَادَتِي تَأْكِيدَ أَنَّ طَبِيعَةَ الْكَلَامِ الْبِدَائِيَّ هِيَ عَلَى هَذَا التَّحْوِ لَا عَلَى نَحْوِ آخَرَ.

وَنَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى لِنَقُولَ إِنَّا فِي مَا هُوَ خَالِصٌ مِنَ الْمُخَالَطَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْثَرَاوَةِ نَسْتَعْمِلُ اللَّغَةَ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا [315] الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا بِهَا الْهَمَجِيُّونَ وَيُصْبِحُ كَلَامُنَا 'اتِّصَالًا ارْتِبَاطِيًّا'، وَهُوَ الَّذِي أَخْضَعْنَاهُ لِلتَّحْلِيلِ أَنْفًا، وَالَّذِي يُؤَدِّي مَهْمَةً تَأْسِيسٍ أَوَّاصِرٍ الْوَحْدَةَ الشَّخْصِيَّةَ وَسَطَ أَنْاسٍ أَدَّى مَحْضَ الْحَاجَةِ إِلَى الصُّحْبَةِ إِلَى وُجُودِهِمْ مَعًا، وَلَا يُؤَدِّي أَيَّ غَرَضٍ لَهُ صِلَةٌ بِتَوْصِيلِ الْأَفْكَارِ. وَيُعَلِّقُ الْمُؤَلِّفَانِ بِقَوْلِهِمَا: "مِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَعَرَضِهِ أَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَلْتَفِتُوا كَثِيرًا، وَأَنَّ حَدِيثَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لَيْسَ مَقْبُولًا فَحَسَبُ، بَلْ إِنَّ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ اللَّطْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ قَوْلَ شَيْءٍ مَا حَتَّى حِينَ لَا يَكَادُ يُوجَدُ مَا يُقَالُ" (29). وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ ضَرُورِيًّا أَنْ يَكُونَ ثَمَّةُ مَا يُوصَّلُ، أَوْ رُبَّمَا يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ ثَمَّةُ مَا يُوصَّلُ. فَمَا دَامَتْ ثَمَّةُ كَلِمَاتٍ تُتَبَادَلُ فَإِنَّ الْاِتِّصَالَ الْارْتِبَاطِيَّ يَجْلِبُ الْهَمَجِيَّيْنَ وَالْمُتَحَضِّرِينَ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ إِلَى دَاخِلِ الْجَوِّ اللَّطِيفِ لِلِاتِّصَالِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمُهَذَّبِ.

وَلَا تُسْتَخْدَمُ اللَّغَةُ لِتَأْطِيرِ الْأَفْكَارِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا إِلَّا فِي اسْتِعْمَالَاتٍ مُعَيَّنَةٍ خَاصَّةٍ جَدًّا فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُتَحَضِّرِ، وَهِيَ أَرْقَى اسْتِعْمَالَاتِهَا. فَنَبِي النَّتَاجِ الشُّعْرِيِّ وَالْأَدَبِيِّ تُسْتَعْمَلُ اللَّغَةُ لِتَجْسِيدِ الْمَشَاعِرِ وَالْعَوَاطِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلِلتَّعْبِيرِ عَنْ حَالَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وَعَمَلِيَّاتٍ ذَهْنِيَّةٍ بِطَرِيقَةٍ مُرَهَفَةٍ وَمُفْنَعَةٍ. وَفِي النَّتَاجَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَلَسَفِيَّةِ تُسْتَعْمَلُ أَنْمَاطٌ مِنَ الْكَلَامِ غَايَةً فِي التَّطَوُّرِ وَالتَّخْصُّصِ لِضَبْطِ الْأَفْكَارِ وَلِجَعْلِهَا مِلْكًَا مُشَاعًا لِلشُّعُوبِ الْمُتَحَضِّرَةِ.

عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ نَعُدَّ اللَّغَةَ حَتَّى فِي وَظِيفَتِهَا هَذِهِ مُجَرَّدَ فَضْلَةٍ

(29) اقْتِباسٌ مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ لِلْكِتَابِ الْحَاضِرِ.

عاكسة للفكر. وإن تصوّر الكلام بوصفه مُؤدّيًا لمهمة ترجمة العمليات الداخلية للمتكلّم إلى المستمع ليس إلا تصوّرًا أحاديّ الجانب ولا يُقدّم لنا، حتّى بالنظر إلى استعمال الكلام التي هي غاية في التطوّر والتخصّص، إلا نظرة جزئية، لا شك في أنها ليست أكثر النظرات صلة بالموضوع.

وإذا ما أردنا إعادة تثبيت الوضع الرئيس الذي وصلنا إليه في هذا القسم أمكننا أن نقول إنّ للغة بوظيفتها البدائية وبصورتها الأصلية صفة براغماتيّة أساسًا، وإنها منحنى سلوكي، وعنصر لا غنى عنه في الفعل الإنسانيّ الجماعي. أما النظرة المعاكسة التي تراها وسيلة لتجسيد الفكر أو للتعبير عنه فتعني اتّخاذ وجهة نظر أحاديّة الجانب باتّجاه إحدى أكثر وظائفها ثانويّة وتخصّصًا.

(5)

قد حاولت تأسيس وجهة النظر هذه بشأن طبيعة اللغة بوساطة تحليل مفصّل للنماذج، بالإحالة على وقائع ملموسة وفعلية. لذلك أنا مطمئنٌ إلى أنّ التفريق الذي أوضحته بين 'المنحنى العملي' و'وسيلة التفكير' لن يظلّ عبارة فارغة، بل إنّهُ قد تلقى مضمونه من الوقائع المُقدّمة. على أنّه ليس ثمة ما يؤسّر [316] القيمة الإيجابية والطبيعية التجريبية لمبدأ عام على أكمل وجه كما يكون ذلك حين يُوضع على المحكّ العملي في حلّ مشكلات محدّدة ذوات توصيف صعب ومُعيّر شيئًا ما.

ولدينا في اللسانيات موضوع من هذا القبيل صعب المراس هو مشكلة المعنى. وقد يكون جرأة مني أن أعالج هذا الموضوع بطريقة تجريدية وعامة وبطموح فلسفيّ أيا يكن، بعدما أظهر أوغدين ورتشاردز (في الفصلين الثامن والتاسع) أنّه ذو طبيعة خطيرة جدًا. غير أنّي أودّ أن أقرّبه من خلال طريق التجريبية الإثنوغرافية الضيق وأن أظهر كيف يبدو إذا ما نُظر إليه من منظور الاستعمالات البراغماتيّة للكلام البدائيّ.

وقد أتاح لنا هذا المنظور تصنيف الكلام البشريّ في خانة الضروب الفعالة

لِلسُّلُوكِ الْبَشَرِيِّ لَا فِي خَانَةِ الضُّرُوبِ التَّأْمِلِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ. لَكِنَّ هَذِهِ النَّظَرَةَ الْخَارِجِيَّةَ وَهَذَا التَّصَوُّرَ الْمُجْمَلَ يَجِبُ أَنْ يُرْفَدَا بَعْدَ بِاعْتِبَارَاتٍ تَحْلِيلِيَّةٍ أَكْثَرَ تَفْصِيلاً، إِذَا مَا أَرَدْنَا الْوُصُولَ إِلَى فِكْرَةٍ أَوْضَحَ بِشَأْنِ الْمَعْنَى.

وَقَدْ دَرَسَ الْكَاتِبَانِ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا سَايَكُولُوجِيَّةَ الْأَحْوَالِ الْعَلَامِيَّةِ وَاكْتِسَابَ الدَّلَالَةِ بِوَسَاطَةِ الرُّمُوزِ. وَلَيْسَتْ بِي حَاجَةٌ إِلَى تَكَرَّارِ تَحْلِيلِهِمَا الذِّكْرِيَّ أَوْ تَلْخِيصِهِ، وَإِنِّي لِأَرَاهُ مُفْنِعًا تَمَامًا وَمُرْضِيًا وَيُسَكِّلُ حَجَرَ الزَّائِيَةِ لِنَظَرِيَّتِهِمَا اللَّغَوِيَّةِ. وَمَعَ ذَلِكَ أَوَدُّ أَنْ أَتَابِعَ نُقْطَةً وَاحِدَةً فِي حِجَاغِهِمَا، نُقْطَةً وَثِيقَةً الصَّلَةِ بِتَّصَوُّرِنَا الْبِرَاغِمَاتِي لِللُّغَةِ.

إِذْ يَرْفُضُ الْكَاتِبَانِ، وَحَقٌّ لَّهُمَا ذَلِكَ، تَفْسِيرَاتِ الْمَعْنَى بِالْإِبْحَاءِ، وَالتَّرَايُطِ، وَالْإِدْرَاكِ الْوَاعِي، مُؤَكِّدَيْنِ أَنَّ هَذِهِ التَّفْسِيرَاتِ غَيْرُ فَاعِلَةٍ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْأَفْكَارَ الْجَدِيدَةَ يُشَكِّلُهَا الْإِدْرَاكُ الْوَاعِي وَمَا دَامَتِ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ تُنَشِئُ مَعْنَى جَدِيدًا وَتَتَلَقَّى فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ اسْمًا جَدِيدًا فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ الْوَاعِي عَمَلِيَّةٌ تَخْلُقُ الدَّلَالَةَ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَحْدُثُ إِلَّا فِي أَكْثَرِ اسْتِعْمَالَاتِ اللَّغَةِ تَطَوُّرًا وَتَهْذِيبًا لِلْأَغْرَاضِ الْعِلْمِيَّةِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا جَدًّا مِنْ بَحْثِنَا السَّابِقِ أَنَّ هَذَا التَّمَطُّ مِنْ صِيَاغَةِ الْمَعْنَى ثَانَوِيٌّ جِدًّا وَلَا يُمَكِّنُ اتِّخَاذَهُ نَمَطًا تُدْرَسُ فِي ضَوْئِهِ الدَّلَالَةُ وَتُفَسَّرُ. وَلَا يَفْتَصِرُ ذَلِكَ عَلَى الْهَمْجِيِّينَ، بَلْ يَنْطَبِقُ كَذَلِكَ عَلَى حَيَاتِنَا اللَّغَوِيَّةِ. ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَرْءَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُ لُغَتَهُ اسْتِعْمَالًا عِلْمِيًّا، قَدْ سَبَقَ أَنْ طَوَّرَتِ الْأَشْكَالُ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ ابْتِدَائِيَّةٍ لَوَظَائِفِ الْكَلِمَاتِ مَوْقِفَهُ تَجَاهَ اللَّغَةِ وَرَسَخَتْهُ فِيهَا. فَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ أَصْلًا بِاِكْتِسَابِ مُفْرَدَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ عَالِيَةِ الْاصْطِنَاعِ مِنْ خِلَالِ الْإِدْرَاكِ الْوَاعِي - الَّذِي لَا يَحْدُثُ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا بِدَرَجَةٍ مَحْدُودَةٍ جِدًّا - كَانَ قَدْ تَعَلَّمَ اسْتِعْمَالَ كَلِمَاتٍ وَتَرَائِيكِ، فَاسْتَعْمَلَهَا، ثُمَّ شَبَّ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا، [317] وَكَانَ مَعْنَاهَا قَدْ تَشَكَّلَ فِي ذِهْنِهِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ ابْتِدَائِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ الزَّمَنُ؛ إِذْ إِنَّهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ اسْتِعْمَالَاتٍ مُبَكَّرَةٍ؛ وَهِيَ أَكْثَرُ عُمُومِيَّةٌ؛ إِذْ إِنَّ الْقِسْمَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْكَلِمَاتِ يَتَلَقَّى مَعْنَاهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؛ وَهِيَ أَكْثَرُ أُسَاسِيَّةٌ؛ مَا دَامَتْ تُحِيلُ عَلَى أَكْثَرِ اسْتِعْمَالَاتِ الْكَلَامِ أَهْمِيَّةً وَهَيْمَنَةً - تِلْكَ الْاسْتِعْمَالَاتِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا

بوصفها مشتركة عند الأقوام البدائيين والمتحضرين.

ويجب أن نواصل الآن تحليل هذه الطريقة لتشكيل المعنى بتفصيل أكبر، مُحيلين على وجهة نظرنا البراغماتية للغة. ويمكن تحقيق ذلك على خير وجه بواسطة الاعتبارات الوراثة، وبواسطة تحليل استعمالات الأطفال للكلمات، والأشكال البدائية، والدلالة، واللغة ما قبل العلمية في أوساطنا. وسوف تبدو بعض لمحات تشكيل المعنى في مرحلتَي الرضاعة والطفولة أكثر أهمية بتعاطف مِثْلِ عِلْمِ النَّفْسِ الْمُعَاَصِرِ إِلَى أَنْ يَغْزُو إِلَى الْعَادَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ تَأْثِيرًا مُتَوَاصِلًا فِي تَوَجُّهَاتِ الْبَالِغِينَ.

إنَّ إطلاق الصَّوْتِ العاطفي غير الإنصاحي والكلام الإنصاحي يُمثِّلُ تنظيمًا بايولوجيًا ذا أهمية كبيرة للصغار والبالغين من بين شرائح بني الإنسان، وهو يَضْرِبُ بِجُذُورِهِ عَمِيقَةً فِي التَّنْظِيمِ الْعَرِيزِيِّ وَالسَّايكُولُوجِيِّ لِلْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ. فالأطفال، والهمجيون، والبالغون المتحضرون على حد سواء يكون لهم رد فعل بتعبير مفلوظ تجاه أحوال معينة - سواء كان ما وَلَدَتْهُ هذه الأحوال أَلَمًا جَسَدِيًّا أَوْ كَرْبًا ذَهْنِيًّا، خَوْفًا أَوْ عَاطِفَةً، فَضُولًا شَدِيدًا أَوْ فَرَحَةً غَامِرَةً. إِنَّ رُدُودَ الْأَفْعَالِ الصَّوْتِيَّةِ هَذِهِ هِيَ جُزْءٌ مِنَ التَّعْبِيرِ الْبَشَرِيِّ عَنِ الْعَوَاطِفِ، وَقَدْ بَيَّنَّ دَارْوِنُ Darwin⁽³⁰⁾ وغيره أنها بذلك تَتَوَقَّرُ عَلَى قِيَمَةٍ بَقَاءٍ أَوْ أَنَّهَا فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ هِيَ أَنْفُسُهَا آثَارٌ لِتِلْكَ الْقِيَمِ. وَكُلُّ مَنْ يَكُونُ عَلَى اتِّصَالٍ بِالرُّضْعِ وَبِالْأَطْفَالِ الصَّغَارِ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُعْبَرُونَ مِنْ غَيْرِ أَدْنَى لَبْسٍ عَنْ أَمْرَجَتِهِمْ، وَعَوَاطِفِهِمْ، وَحَاجَاتِهِمْ، وَرَغَبَاتِهِمْ. وَإِذَا مَا وَجَّهْنَا اهْتِمَامَنَا الْآنَ إِلَى تَفْوَهَاتِ الْأَطْفَالِ الرُّضْعِ الَّتِي مِنْ هَذَا

(30) تشارلز روبرت دارون (1809-1882م). عالم تاريخ طبيعي بريطاني. اكتسب شهرته بوصفه واضعًا لنظرية التطور التي تنص على أن جميع المخلوقات الحية على مر العصور تنحدر من أسلاف مشتركة. واقترح نظرية تتضمن أن هذه الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناجمة عن عملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي، وكذلك الصراع من أجل البقاء له التأثير نفسه الذي يلاختيار الصناعي الذي يسهم في التكاثر الانتقائي للكائنات الحية. أهم مؤلفاته الذي شرح فيه نظريته كتابه (أصل الأنواع) الذي نشره سنة 1859. [المترجم]

النَّمَطِ أَمْكَنَّا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ صَوْتٍ مِنْهَا تَعْبِيرٌ عَنْ حَالَةٍ عَاطِفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ الْمُحِيطِينَ دَلَالَةً مُعَيَّنَةً؛ وَإِنَّهُ مُرْتَبِطٌ بِالحَالِ الْخَارِجِيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِنِظَامِ الطِّفْلِ وَالْمُشْكِلَةِ لَهُ- وَهِيَ الْحَالُ الَّتِي تَجْعَلُ الطِّفْلَ جَائِعًا أَوْ خَائِفًا أَوْ مَسْرورًا أَوْ مُهْتَمًّا.

وَكُلُّ ذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى الْأَصْوَاتِ غَيْرِ الْإِفْصَاحِيَّةِ الَّتِي يُطْلَقُهَا الطِّفْلُ الرُّضِيعُ، كَالْقَرَقَرَةِ، وَالْعَوِيلِ، وَالصُّرَاخِ، وَالصَّبَاحِ، وَالْبُكَاءِ. وَيَعْتَبَرُ ذَلِكَ بَعْدَ حِينٍ تَقَوُّهَاتٍ غَيْرِ إِفْصَاحِيَّةٍ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ مَقَاطِعُ- غُو *gu*، وَمَا *ma*، وَمَا *ba*، وَمَا إِلَيْهَا- تُرَدَّدُ لَا عَلَى التَّعْيِينِ، مَعَ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مُخْتَلِطَةً بِهَا وَمُبْهَمَةٌ لَهَا. وَهَذِهِ الْأَصْوَاتُ تَعْمَلُ بِطَرِيقَةٍ مُنَاطِرَةٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ حَالَاتٍ نَفْسِيَّةٍ غُضُوبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وَعَلَى [318] تَصْرِيفِ شَيْءٍ مِنْ طَاقَةِ الطِّفْلِ. إِنَّهَا عَلَامَةٌ صَحَّةٍ وَشَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الثَّمَرِينَ الَّتِي لَا غِنَى عَنْهُ. إِنَّ إِطْلَاقَ الْأَصْوَاتِ فِي الْمَرَحَلَتَيْنِ الْمُبَكِّرَةِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ التَّطَوُّرِ اللَّفْظِيِّ يُمَثِّلُ إِحْدَى فَعَالِيَّاتِ الطِّفْلِ الرَّئِيسَةِ الْمُلِحَّةِ وَالْإِنْفِعَالِيَّةِ، وَهَذَا مَا نَعْرِفُهُ كُلُّ الْيَوْمِ مِنَ التَّجَارِبِ السَّارَةِ وَغَيْرِ السَّارَةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ!

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَصَوَّرَ تَشْكِيلَ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْمَرَاهِلِ الْمُبَكِّرَةِ؟ هُنَا، فِي هَذِهِ الْمُقَارَبَةِ الْمُخْتَلِفَةِ شَيْئًا مَا، تُطْلَقُ النَّظَرَةُ الْبَرَاغِمَاتِيَّةُ لِلْعَمَلِ بِرَأْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى. فَالطِّفْلُ يَتَصَرَّفُ مِنْ خِلَالِ الصَّوْتِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ، وَهُوَ يَتَصَرَّفُ بِطَرِيقَةٍ تَكُونُ مُعَدَّلَةً عَلَى وَفْقِ الْحَالِ الْخَارِجِيَّةِ، وَعَلَى وَفْقِ الْحَالَةِ الذَّهْنِيَّةِ لِلطِّفْلِ، وَتَكُونُ مَفْهُومَةً كَذَلِكَ لِلْبَالِغِينَ الْمُحِيطِينَ بِهِ. وَبِذَلِكَ تَكُونُ دَلَالَةُ الصَّوْتِ، وَمَعْنَى التَّفَوُّهِ هُنَا مُطَابِقِينَ لِلْإِسْتِجَابَةِ الْفَعَالَةِ لِمَا فِي الْبَيْنَةِ وَلِلتَّعْبِيرِ الطَّبِيعِيِّ عَنِ الْعَوَاطِفِ. وَتُسْتَمَدُّ مَعْنَى مِثْلِ هَذَا الصَّوْتِ مِنْ أَحَدٍ أَقْدَمِ أَشْكَالِ الْفَعَالِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَكْثَرِهَا أَهَمِّيَّةً.

وَحِينَ تَبْدَأُ الْحَالَةُ الْإِفْصَاحِيَّةُ لِلصَّوْتِ يَتَطَوَّرُ عَقْلُ الطِّفْلِ بِطَرِيقَةٍ مُوَازِيَةٍ وَيُصْبِحُ مُهْتَمًّا بِعَزْلِ الْأَشْيَاءِ عَنْ مُحِيطِهَا، وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ الْعَنَاصِرِ صِلَةً، الَّتِي لَهَا ارْتِبَاطٌ بِطَعَامِ الطِّفْلِ وَرَاحَتِهِ، قَدْ أَفْرَدَتْ سَلَفًا. وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُصْبِحُ الطِّفْلُ وَاعِيًا لِلْأَصْوَاتِ الَّتِي يُصْدِرُهَا الْبَالِغُونَ وَالْأَطْفَالُ الْآخَرُونَ فِي الْجَوَارِ، وَيُطَوَّرُ مِيلًا إِلَى مُحَاكَاتِهَا. إِنَّ وُجُودَ الْوَسْطِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمُحِيطِ بِالطِّفْلِ عَامِلٌ ذُو أَهَمِّيَّةٍ

بايولوجيَّةٍ أساسِيَّةٍ فِي تَنْشِئَةِ الصَّغَارِ وَهُوَ كَذَلِكَ غُنْصُرٌ لَا غِنَى عَنْهُ فِي تَكْوِينِ الْكَلَامِ. وَبِذَلِكَ سِرْعَانِ مَا يَجِدُ الطِّفْلُ الَّذِي يَبْدَأُ بِنُطْقِ مَقَاطِعِ مُعَيَّنَةٍ هَذِهِ الْمَقَاطِعِ تَرَدَّدُ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَالِغِينَ، بِمَا يُمَهِّدُ الطَّرِيقَ لِنُطْقِ أَوْصَحَ وَأَكْثَرَ إِبَانَةً.

وَسَيَكُونُ مِمَّا يُشِيرُ الْإِهْتِمَامَ كَثِيرًا الْوُقُوفُ عَلَى احْتِمَالِ حِيَازَةِ الْأَصْوَاتِ الْمَنْطُوقَةِ الْمُبَكَّرَةِ مَعْنَى 'طَبِيعِيًّا' وَمَدَى ذَلِكَ، أَي مَعْنَى مُسْتَبْدًا إِلَى صِلَةٍ طَبِيعِيَّةٍ بَيْنَ الصَّوْتِ وَالْمَوْضُوعِ. وَالْحَقِيقَةُ الْوَحِيدَةُ ذَاتُ الصِّلَةِ هُنَا نَاجِمَةٌ عَنْ مَلْحُوظَةٍ شَخْصِيَّةٍ. فَقَدْ لَحِظْتُ عِنْدَ مُتَابَعَتِي لِطِفْلَيْنِ أَنَّهُ فِي مَرَحَلَةٍ بَدَأَ تَكْوِينِ الْمَقَاطِعِ الْمُتَمَايِزَةِ يَظْهَرُ الصَّوْتُ الْمُكَرَّرُ مَا، مَا، مَا... حِينَ يَكُونُ الطِّفْلُ غَيْرَ رَاضٍ عُمُومًا، وَحِينَ تَكُونُ ثَمَّةُ حَاجَةٍ أَسَاسِيَّةٍ لَمْ تَلَبَّ أَوْ ثَمَّةُ مَصْدَرٍ إِزْعَاجٍ عَامٍ يَغْمُهُ. فَالصَّوْتُ يَجْذِبُ الْمَوْضُوعَ الْأَهَمَّ فِي مُحِيطِهِ، أَي الْأُمَّ، وَيُظْهِرُهَا تُشْفَى الْحَالَةُ الذَّهْنِيَّةُ الْمُؤَلِّمَةُ. فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ دُخُولُ الصَّوْتِ مَآ... تَمَامًا فِي مَرَحَلَةٍ بَدَأَ الْكَلَامِ الْإِنْفَصَاحِيَّ - بِذِلَالَتِهِ الْعَاطِفِيَّةِ [319] وَقُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِحْضَارِ الْأُمِّ لِلنَّجْدَةِ - هُوَ مَا وَلَدَ فِي عَدِيدٍ كَبِيرٍ مِنْ لُغَاتِ الْبَشَرِ الْجَذَرُ مَا *ma* لِكَلِمَةِ *mother* (31)؟

وَكَيْفَمَا يَكُنْ ذَلِكَ، وَسَوَاءُ أَكَانَ اكْتِسَابُ الطِّفْلِ بَعْضَ مُفْرَدَاتِهِ الْمُبَكَّرَةِ بِعَمَلِيَّةٍ عَفَوِيَّةٍ أَمْ جَاءَتْهُ كُلُّهَا مِنَ الْخَارِجِ، فَالطَّرِيقَةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ بِهَا الْمُفْرَدَاتُ الْأُولَى لِلْكَلامِ الْإِنْفَصَاحِيَّ هِيَ النُّقْطَةُ الْمُثِيرَةُ لِلْإِهْتِمَامِ حَقًّا الَّتِي لَهَا صِلَةٌ بِنَا فِيمَا نَحْنُ بِصَدْرِهِ.

إِنَّ الْكَلِمَاتِ الْأُولَى - مَآ، أَوْ دَادَا، أَوْ بَابَا، وَالتَّعْبِيرَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى طَعَامٍ، أَوْ شَرَابٍ، أَوْ أَلْعَابٍ، أَوْ حَيَوَانَاتٍ مُعَيَّنَةٍ - لَا تُحَاكِي وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ

(31) إِنَّ الشَّاطِرَ بَيْنَ الْأَصْوَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ وَأَقْرَبِ تَعْبِيرَاتِ النَّسَبِ أَمْرٌ مَشْهُورٌ (cf. Westermarck, *History of Human Marriage*, Vol. I., pp. 242-245). وَإِنِّي لَأَرَى هُنَا، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ التَّعْمَةَ الْعَاطِفِيَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ لِأَخِذِ تِلْكَ الْأَصْوَاتِ، وَهُوَ مَا *ma*، وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْأُمِّ، تَسْبِيَابًا فِي ظُهُورِهَا مُكَوَّنَتَيْنِ بِذَلِكَ مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ مَعْنَى تَمَطُّ مَآ *mama* مِنَ الْكَلِمَاتِ. وَالرَّأْيُ الْمُعْتَادُ هُوَ أَنَّ الْبَالِغِينَ هُمْ مَنْ يُضْفِي الْمَعْنَى عَلَيْهَا عَلَى نَحْوِ مُصْطَلَحٍ، وَأَنَّهُ لَا شَكَّ فِي أَنَّ التَّعْبِيرَاتِ الَّتِي مَصْدَرُهَا ثَرْتَرَةُ الْأَطْفَالِ الرُّضْعِ قَدْ انْتَقَاها الْأَشْخَاصُ الرَّاشِدُونَ وَتَبَيَّنَا اسْتِعْمَالُهَا* (Westermarck, *loc. Cit.*, p. 245).

لِلوَصْفِ، أَوِ التَّسْمِيَةِ، أَوِ التَّعْيِينِ. فَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْمُبَكِّرَةُ، شَأْنُهَا شَأْنُ مَا سَبَقَهَا مِنْ تَعْبِيرَاتٍ عَنِ الْمَشَاعِرِ غَيْرِ إِفْصَاحِيَّةٍ، تَأْتِي لِتُسْتَعْمَلَ بِتَأْثِيرِ ضَغْطِ أَحْوَالِ مُؤَلِّمَةِ أَوْ عَوَاطِفِ جَيَاشَةِ حِينَ يَصْرُخُ الطِّفْلُ طَلَبًا لِوَالِدَتِهِ أَوْ يُسَعِدُ لِرُؤْيَيْهَا، حِينَ يُثِيرُ الضَّجِيجَ ابْتِغَاءَ الطَّعَامِ أَوْ يَرْدُدُ جَذَلًا أَوْ اسْتِثَارَةً اسْمَ لُغْبَةٍ يُؤَثِّرُهَا فِي مُحِيطِهِ. هُنَا تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ بِمَنْزِلَةِ رَدِّ الْفِعْلِ الدَّالِّ، الْمُعَدَّلِ عَلَى وَفْقِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ، وَالْمُعَبَّرِ عَنِ الْحَالَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَالْمَفْهُومِ لَدَى الْوَسْطِ الْبَشَرِيِّ.

وِلِهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْآخِيرَةُ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى مِنَ النَّتَائِجِ الْمُهَمَّةِ جِدًّا. فَالطِّفْلُ الْبَشَرِيُّ، يَضَعُفُوهُ فِي نَفْسِهِ وَعَدَمَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُقَاوَمَةِ صُعُوبَاتِ حَيَاتِهِ الْمُبَكِّرَةِ وَأَخْطَارِهَا، مُزَوَّدٌ بِتَنْظِيمَاتٍ عِنَايَةٍ وَمُسَاعَدَةٍ مُتَكَامِلَةٍ جِدًّا، نَاجِمَةٌ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْغَرِيزِيَّةِ لِلْأُمِّ، وَالْأَبِ أَيْضًا لَكِنْ بِدَرَجَةِ أَقْلٍ. فَالطِّفْلُ يُمَارِسُ فِعْلَهُ فِي الْعَالَمِ الْمُحِيطِ بِهِ مِنْ خِلَالِ الْأَبْوَانِ اللَّذِينَ يَعُودُ فِيمَارِسُ فِعْلَهُ فِيهِمَا مَدْفُوعًا بِمَا يُغْرِيه، بِالْإِغْرَاءِ اللَّفْظِيِّ بِصُورَةٍ رَثِيَسَةٍ. فَحِينَ يُثِيرُ الطِّفْلُ ضَجَّةً طَلَبًا لِشَخْصٍ مَا، يُنَادِيهِ فَيُظْهِرُ أَمَامَهُ. وَحِينَ يُرِيدُ طَعَامًا أَوْ شَيْئًا مَا أَوْ حِينَ يَرُغِبُ فِي إِزَالَةِ شَيْءٍ أَوْ تَرْتِيبِ غَيْرِ مُرَبِّحٍ، لَيْسَ لَهُ مِنْ وَسِيلَةٍ غَيْرِ الصَّخَبِ، وَقَدْ ثَبَتَ لَدَى الطِّفْلِ أَنَّ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ الْعَمَلِيَّةَ نَاجِعَةٌ جِدًّا.

لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْكَلِمَاتُ تُمَثِّلُ لِلطِّفْلِ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِلتَّعْبِيرِ بَلْ كَانَتْ ضُرُوبًا عَمَلِيَّةً نَاجِعَةً. فَالْتُّطْقُ بِاسْمِ شَخْصٍ مَا عَالِيًا بِصَوْتٍ مُثِيرٍ لِلشَّفَقَةِ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَحْوِيلِ هَذَا الشَّخْصِ إِلَى الْحَالَةِ الْمَادِّيَّةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُنَادَى عَلَى الطَّعَامِ، فَمَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ - فِي مُعْظَمِ الْحَالَاتِ. وَهَكَذَا لَا بُدَّ لِلتَّجَرِبَةِ الطُّفُولِيَّةِ مِنْ أَنْ تُخَلَّفَ فِي ذَهْنِ الطِّفْلِ انْطِبَاعًا عَمِيقًا بِأَنَّ لِلْاسْمِ سُلْطَةً عَلَى الشَّخْصِ أَوْ الشَّيْءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ. [320]

وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ التَّنْظِيمَ الْأَسَاسِيَّ بَايُولُوجِيًّا لِلْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ يَجْعَلُ الْكَلِمَاتِ الْمُبَكِّرَةَ النَّطْقِ الَّتِي يُطْلِقُهَا الْأَطْفَالُ تَوَلَّدَ الْأَثَرُ عَيْنُهُ الَّذِي تَعْنِيهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ. فَالطِّفْلُ يَنْظُرُ إِلَى الْكَلِمَاتِ بِوَصْفِهَا قُوَى فَعَالَةً، فَهِيَ تَمْنَحُهُ سَيْطَرَةً أَسَاسِيَّةً عَلَى الْوَاقِعِ، وَتَزَوِّدُهُ بِالْوَسِيلَةِ الْمُؤَثِّرَةِ الْوَحِيدَةِ لِتَحْرِيكِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى، وَجَذْبِهَا،

ورَدَّها، وإحداثِ تَغْيِيرَاتٍ فِي كُلِّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِهِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَا تَقَدَّمَ لَيْسَ وَصْفًا لَوَجْهَاتِ نَظَرٍ وَاعِيَةٍ لِلطِّفْلِ بِشَأْنِ اللُّغَةِ، لَكِنَّهُ الْمَوْقِفُ الْمُتَضَمِّنُ فِي سُلُوكِهِ.

وَبِمُتَابَعَةِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ بِهَا الْكَلَامُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ الطُّفُولَةِ نَجِدُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُعَرِّزُ هَذِهِ الْعَلَاقَةَ الْبَرَاغِمَاتِيَّةَ بِالْمَعْنَى. فَالْكَلِمَاتُ تَعْنِي، فِي كُلِّ مَا يَمُرُّ بِهِ الطِّفْلُ مِنْ تَجَارِبٍ، بِالْقَدْرِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ فَاعِلَةً لَا بِالْقَدْرِ الَّذِي تَجْعَلُ بِهِ الطِّفْلَ يَفْهَمُ أَوْ يُدْرِكُ إدْرَاكًا وَاعِيًا. إِنَّ لَا سِتِمَاعَهُ بِاسْتِعْمَالِ الْكَلِمَاتِ وَبِالتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهِ فِي تَكَرُّارِ مُتَوَاصِلٍ، أَوْ بِالتَّسْلِي بِكَلِمَةٍ مَا، صِلَةٌ بِمَوْضِعِنَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَكْشِفُ بِهِ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْفَعَّالَةِ لِلاِسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ الْمُبَكِّرِ. وَسَيَكُونُ مِنَ الْخَطِّ أَنْ يُقَالَ إِنَّ هَذَا الْاسْتِعْمَالَ الْعَابَثَ لِلْكَلِمَاتِ 'لَا مَعْنَى لَهُ'. لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ مُجَرَّدٌ مِنْ أَيْ غَرَضٍ فِكْرِيٍّ، لَكِنَّهُ يَتَوَقَّرُ، دَوْمًا، عَلَى قِيَمَةٍ عَاطِفِيَّةٍ، وَهُوَ أَحَدُ النِّشَاطَاتِ الْمُفْضَلَةِ لَدَى الطِّفْلِ؛ إِذْ يُقَارَبُ بِهِ هَذَا الشَّخْصَ أَوْ الشَّيْءَ أَوْ ذَاكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي بَيْتِهِ. فَحِينَ يَحْتَفِي الطِّفْلُ بِالشَّخْصِ أَوْ الْحَيَوَانِ الْقَرِيبِ، أَوْ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ أَوْ اللَّعَبِ، بِوَابِلٍ مِنْ تَكَرُّرَاتِ الْاسْمِ، يُؤَسَّسُ بِذَلِكَ صِلَةٌ حُبٍّ أَوْ كُرْهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الشَّيْءِ. وَعَلَى مَرِّ الزَّمَنِ، حَتَّى بُلُوغِ سِنِّ مُتَقَدِّمَةٍ إِلَى حَدِّ مَا، يَظَلُّ اسْمُ الشَّيْءِ الْوَسِيلَةَ الْأَوَّلَى الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْذِبَ هَذَا الشَّيْءَ، أَيْ يَجْعَلَهُ يَظْهَرُ بِصُورَةٍ مَادِّيَّةٍ.

فَإِذَا مَا نَقَلْنَا هَذَا التَّحْلِيلَ إِلَى أَحْوَالِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ الْإِدَائِيِّ فَمِنَ الْمُفْضَلِ أَلَّا نَنْعِمَ فِي التَّأَمُّلَاتِ الْخَيَالِيَّةِ أَسَاسًا، الَّتِي هِيَ، لِخَيَالِيَّتِهَا، غَيْرُ مُجْدِيَّةٍ، وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِبِدَايَاتِ الْكَلَامِ، بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ نُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى الْاسْتِعْمَالِ الْإِعْتِيَادِيَّةِ لِللُّغَةِ الَّتِي نَشَاهِدُهَا بِمُتَابَعَاتِنَا التَّجْرِبِيَّةِ لِلْهَمْجِيِّينَ. فَإِذَا مَا عُدْنَا إِلَى الْأُمُثِلَةِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَجْمُوعَةِ مُحَلِّينَ مُتَهَمِكِينَ فِي مُطَارَذَةِ عَمَلِيَّةٍ رَأَيْنَاهُمْ يُسْتَعْمِلُونَ كَلِمَاتٍ غُرْفِيَّةً، وَأَسْمَاءَ أَدَوَاتٍ، وَفَعَالِيَّاتٍ مُمَيَّزَةً. فَالْكَلِمَةُ، الَّتِي تُمَثِّلُ أَدَاةَ مُهِمَّةٍ، تُسْتَعْمَلُ عَلَى نَحْوِ عَمَلِيٍّ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْاسْتِعْمَالِ التَّعْلِيْقُ عَلَى طَبِيعَتِهَا أَوْ التَّأَمُّلُ فِي خَوَاصِّهَا، بَلِ الْغَرَضُ مِنْهُ جَعْلُهَا تَظْهَرُ، أَوْ تَسْلِيْمُهَا إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، أَوْ تَوْجِيهِ شَخْصٍ آخَرَ إِلَى اسْتِعْمَالِهَا الْمُلَاطَمِ.

وَمَعْنَى الشَّيْءِ تُكُونُهُ تَجَارِبُ اسْتِعْمَالَاتِهِ الْفَعَالَةِ وَلَا يُؤْلَدُهُ التَّأَمُّلُ الذَّهْنِيُّ. وَهَكَذَا حِينَ يَتَعَلَّمُ الْهَمَجِيُّ فَهَمَّ مَعْنَى كَلِمَةٍ مَا لَا تُنْفَذُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ بِالشُّرُوحِ، وَلَا بِسِلْسِلَةِ أَفْعَالٍ إِدْرَاكِيَّةٍ وَاعِيَّةٍ، بَلْ يَتَعَلَّمُ مُعَالَجَتِهِ. فَالَّذِي نَعْنِيهِ الْكَلِمَةُ لِلْمَحَلِّيِّ هُوَ الْاسْتِعْمَالُ الْمُثْلَثُ لِلشَّيْءِ الَّذِي تَرْمِزُ إِلَيْهِ، تَمَامًا كَمَا نَعْنِي الْأَدَاءَ شَيْئًا مَا [321] حِينَ تُمَكِّنُ مُعَالَجَتُهَا وَلَا نَعْنِي أَيْ شَيْءٍ حِينَ لَا تَتَوَافَرُ تَجْرِبَتُهُ فَعَالَةً لَهَا. كَذَلِكَ الْحَالُ مَعَ الْفِعْلِ، أَيْ الْكَلِمَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ عَمَلًا، فَهُوَ يَتَلَقَّى مَعْنَاهُ مِنْ خِلَالِ مُشَارَكَةِ فَعَالَةٍ فِي هَذَا الْعَمَلِ. فَالْكَلِمَةُ تُسْتَعْمَلُ حِينَ يَكُونُ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُؤْلَدَ عَمَلًا، لَا أَنْ تُصِفَهُ، وَلَا أَنْ تُتَرْجَمَ الْأَفْكَارَ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الْأَخِيرَةُ هِيَ أَقْلٌ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ اسْتِعْمَالِهَا. فَلِلْكَلِمَةِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، فِي نَفْسِهَا سُلْطَةٌ، فَهِيَ وَسِيلَةٌ لِلِإِتْيَانِ بِالْأَشْيَاءِ، وَهِيَ مُعَالَجَةٌ لِلْأَفْعَالِ وَالْأَشْيَاءِ، لَا تَعْرِيفٌ لَهَا.

وَنَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى لِنَقُولَ إِنَّ النَّظَرَةَ إِلَى الْمَعْنَى نَفْسَهَا تَنْشَأُ مِنَ الْاسْتِعْمَالِ الْفَعَالَةِ لِلْكَلَامِ فِيمَا بَيْنَنَا، حَتَّى بَيْنَ مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنَّا فِي مُنَاسَبَاتٍ نَادِرَةٍ نِسْبًا اسْتِعْمَالِ اللَّغَةِ بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ أَوْ أَدَبِيَّةٍ. وَإِنَّ مَا لَا يُخْصَى مِنَ الْخُرَافَاتِ - الْخَوْفِ اللَّادِرِيِّ مِنَ التَّجْدِيفِ أَوْ، فِي الْأَقْلَى، التَّفَوُّرِ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ، وَالْكُرْهِ الْفَعَالِ لِلْغَةِ الْمَاجِنَةِ، وَسُلْطَةِ الْحَلِيفِ - لَيُظْهِرُ أَنَّ مَا يَرِبُطُ الرَّمْزَ بِالْمَرْجِعِ فِي الْاسْتِعْمَالِ الْاِعْتِيَادِيِّ لِلْكَلِمَاتِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ مُوَاضِعَةٍ.

إِنَّ الْأُمِّيَّينَ فِي التَّجْمُعَاتِ الْمُتَحَضَّرَةِ يُعَامِلُونَ الْكَلِمَاتِ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا عَلَى نَحْوِ يَقْرُبُ كَثِيرًا مِنْ مُعَامَلَةِ الْهَمَجِيِّينَ لَهَا وَنَظَرَتِهِمْ إِلَيْهَا، أَيْ أَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِالْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ اتِّصَالًا وَثِيقًا. وَإِنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا الْمَعْرِفَةُ اللَّفْظِيَّةَ - الْأَمْثَالَ، وَالْأَقْوَالَ، وَالْأَخْبَارَ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - يَوْصِفُهَا الشَّكْلُ الْوَحِيدَ لِلْحِكْمَةِ، لِنُضْفِي صِفَةً مُحَدَّدَةً عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ الضَّمْنِيِّ. لَكِنِّي فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنتَهَكُ حُرْمَةَ مَجَالٍ قَدْ أُوضِحَ وَحُلِّلَ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ قَرَأَ الْفُصُولَ الْمُتَالِفَةَ لَدَى أَوْغِدِن وَرِثَارْدَزْ وَأَدْرَكَ الْمُنْحَى الرَّئِيسَ لِحِجَاغِهِمَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَقَ أَنْ اتَّضَحَ لَهُ أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْقِسْمِ مِنْ بَحْثِنَا هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْهَامِشِ لِمَتْنِ حِجَاغِهِمَا الْأَسَاسِيِّ فِي أَنَّ

الموقف البدائي السحري من الكلمات مسؤول عن قدر كبير من عموم استعمال اللغة أو إساءة استعمالها، ولا سيما في الفكر الفلسفي. وقد مكنتنا المادة الغنية في الفصل الثاني، وفي سحر الكلمة، وأمثلة الفصول السابع والثامن والتاسع، والكثير مما يعرض ذكره، من معرفة كم هي عميقة جذور اعتقاد أن للكلمة سلطة ما على الشيء، وأنها تسيطر الشيء طبيعته، وأنها، بما تستعمل عليه من 'معنى'، مجانية للشيء أو حتى مماثلة له أو لنمطه النموذجي.

ولكن ما مصدر هذا الموقف السحري؟ هنا نمدد دراسة المراحل المبكرة للكلام يد العون، ويمكن أن يكون عالم الأعراق ذا نفع لفيلسوف اللغة. وقد وقفنا على هذا الموقف المفرط السحري من الكلمات عند دراسة التكوين الطفولي للمعنى والمعنى عند الهمجيين والأميين. فالكلمة تمنح السلطة، وتُمكن الشخص من ممارسة تأثير في الشيء أو الفعل. ويتبين معنى الكلمة من رجم الإلف، من رجم القدرة على الاستعمال، من رجم ملكة الصّحْب المباشر [322] كما في حالة الطفل، أو التوجيه العملي كما في حالة الرجل البدائي. فالكلمة تستعمل دوماً بارتباط مباشر فعّال بالواقع الذي تغنيه. والكلمة تُمارس فعلاً في الشيء، والشيء يُطلق الكلمة في ذهن البشري. والحق أن هذا يكاد يكون جوهر النظرية التي تُشكل أساس استعمال السحر اللفظي. ونحن نجد هذه النظرية مركزة على تجارب سايكولوجية واقعية في الأشكال البدائية للكلام.

وقبل بدء بواكير الفكر الفلسفي تنطلق الممارسة والنظرية للسحر الذي يغدو موقف الإنسان فيه من الكلمات راسخاً ومُشكلاً من خلال معرفة وعرف خاصين. وإن أفضل فهم نحوزه لهذه النظرة التقليدية المطوّرة للسلطة الحية التي تُمارسها الكلمات الملائمة على أشياء معينة إنما يكون من خلال دراسة الممارسات السحرية الفعلية والسحر اللفظي وكذلك بواسطة تحليل أفكار الهمجيين بشأن السحر. وباختصار، يمكن القول إن هذه الدراسة إنما تُعزّز تحليلنا النظري في هذا القسم من البحث. ونحن نجد في الصّنع السحري غلبة للكلمات التي تنطوي على شد عاطفي عالٍ، وللتعبيرات العرفية، وللصّنع الأمرية القويّة، وللأفعال التي تُعبّر عن الأمل، والنجاح، والإنجاز. ولا بُدّ أن هذا القدر كافٍ في هذا

المَوْضِعِ، وَنُحِيلُ الْقَارِئَ الَّذِي يَرَعْبُ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَلَى الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَعَلَى الْفُصُولِ الَّتِي تَتَطَرَّقُ إِلَى 'السَّحْرِ' وَإِلَى 'سُلْطَةِ الْكَلِمَاتِ فِي السَّحْرِ' فِي كِتَابِي الَّذِي افْتَبَسْتُ مِنْهُ آيَفَا⁽³²⁾.

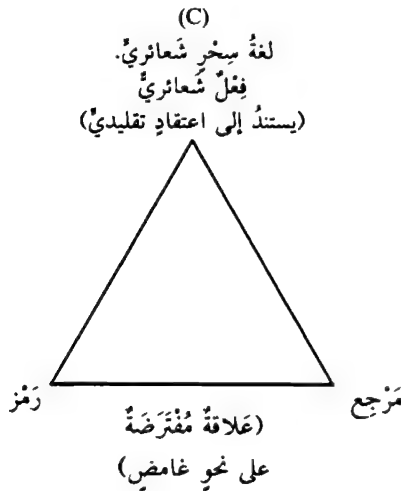
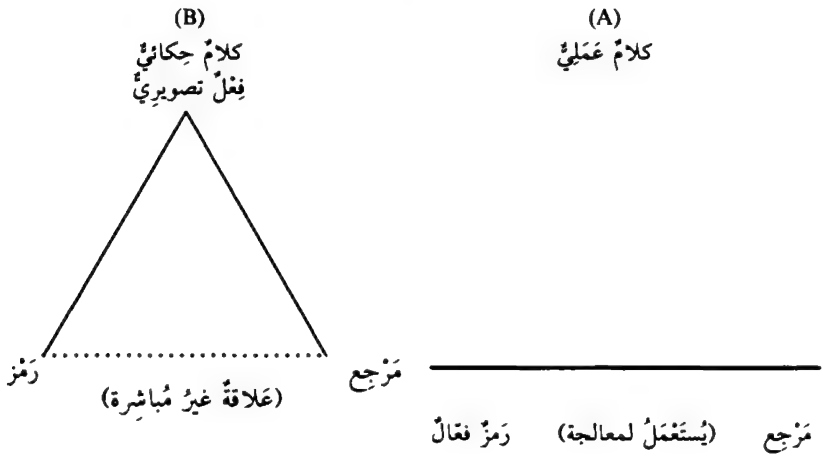
وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُهْمِّمْ تَأْوِيلُ نَتَائِجِ تَحْلِيلِنَا لِلْمَرَاكِحِ الْمُبَكَّرَةِ جِدًّا لِلْمَعْنَى فِي ضَوْءِ الْمُخَطَّطِ الَّذِي تُعْمَلُ فِيهِ الْعَلَاقَاتُ بَيْنَ الرَّمْزِ، وَالْفِعْلِ الْفِكْرِيِّ، وَالْمَرْجِعِ بِمُثَلِّثٍ فِي مُسْتَهْلِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ. وَيَفِي هَذَا الْمُخَطَّطُ بِتَمَثِيلِ الْعَلَاقَاتِ الْمَذْكُورَةِ آيَفَا فِي الْأَسْتِعْمَالَاتِ الْمُطَوَّرَةِ لِلْكَلامِ. وَمَا يُمَيِّزُ هَذَا الْمُثَلَّثَ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْمُؤَشِّرَةَ بِحَظِّ مُنْقَطِعِ تُمَثُّلِ الْعَلَاقَةِ الْمَنْسُوبَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الرَّمْزِ وَالشَّيْءِ الَّذِي يُحِيلُ عَلَيْهِ، أَيْ مَرْجِعِهِ كَمَا يُسَمِّيهِ الْكَاتِبَانِ. وَفِي وَظَائِفِ الْكَلَامِ الْمُطَوَّرَةِ، كَالَّتِي تُسْتَعْمَلُ، أَوْ يَجِبُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي أَقْلٍ تَقْدِيرٍ، فِي الْفِكْرِ الْفَلَسْفِيِّ أَوِ اللُّغَةِ الْعِلْمِيَّةِ (وَلِأَنَّ اهْتِمَامَ الْكَاتِبَيْنِ الْأَسَاسِيَّ فِي هَذَا الْكِتَابِ مُوجَّهٌ صَوَّبَ هَذِهِ الْوِظَائِفِ) لَا يُجَسَّرُ خَلِيجَ الْمَعْنَى، عَلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ، إِلَّا الْفِعْلُ الْفِكْرِيُّ- الْحَظُّ الْمَائِلُ لِضَلْعِي الْمُثَلَّثِ.

فَلْنُحَاوِلْ أَنْ نُعْمَلَ بِمُخَطَّطَاتٍ مُشَابِهَةٍ مَرَاكِحِ الْمَعْنَى الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ تَبْكِيرًا. فَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى، حِينَ يَكُونُ التَّقْوَةُ مُجَرَّدَ رَدِّ فِعْلِ صَوْتِي مُعَبَّرٍ وَدَالٍ وَمُرْتَبِطٍ بِالْحَالِ، لَكِنَّهُ لَا يَنْطَوِي عَلَى أَيِّ فِعْلِ فِكْرِيٍّ، يُقْلَصُّ الْمُثَلَّثُ إِلَى دَرَجَةِ الْاِقْتِصَارِ عَلَى قَاعِدَتِهِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى الْارْتِبَاطِ الْوَاقِعِيِّ- الَّذِي [323] يَكُونُ بَيْنَ رَدِّ الْفِعْلِ الصَّوْتِيِّ وَالْحَالِ. وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ بَعْدُ أَنْ يُصْطَلَحَ عَلَى أَوَّلِهِمَا بِالرَّمْزِ وَلَا عَلَى ثَانِيهِمَا بِالْمَرْجِعِ.

إِنَّ بَدَايَاتِ الْكَلَامِ الْإِفْصَاحِيَّ، حِينَ تَبْدَأُ الْمَرَاجِعُ بِالتَّوَازِي مَعَ ظُهُورِهِ بِالْإِنْشَاقِ مِنَ الْحَالِ، مَا زَالَتْ تُعْمَلُ بِحَظِّ مَوْصُولٍ مُنْفَرِدٍ ذِي عِلَاقَةٍ تَبَادُلِيَّةٍ فِعْلِيَّةٍ (الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ). وَلَمَّا يُضْهِجُ الصَّوْتُ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ رَمَزًا وَاقِعِيًّا بَعْدُ؛ لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِهِ بِمَعْرِزٍ عَنْ مَرْجِعِهِ.

المرحلة الثانية			المرحلة الأولى		
صوت فعال	(ذو علاقة	مرجع	رُدْ	حال	(مرتبط
(شبه إفساحي	تربطية		فعل		مباشرة بـ)
أو إفساحي)	بـ)		صوتي		

المرحلة الثالثة



وعَلَيْنَا أَنْ نُفَرِّقَ فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّالِثَةِ بَيْنَ الاسْتِعْمَالَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الثَّلَاثَةِ لِلُّغَةِ:
الْعَمَلِيَّةِ، وَالْحِكَايَةِ، وَالشَّعَائِرِيَّةِ. وَالْمُحَظَّطُ الْمَعْرُوضُ يُقَدَّمُ إِضَاحًا وَافِيًا لِكُلِّ
مِنْهَا، ذَلِكَ الْمُحَظَّطُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتَنَاوَلَ بِرَبِطِهِ بِتَحْلِيلِنَا السَّابِقِ. وَيُمَثِّلُ مُثَلَّثًا
أَوْغِدِينَ وَرِتْشَارْدَزَ الْمَرَحَلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ مَرَاكِجِ اللُّغَةِ الْمُطَوَّرَةِ، وَإِنَّ عِلَاقَتَهَا
النُّشُونِيَّةَ بِمَا سَبَقَ مِنْ مَرَاكِجِ مُتَوَاضِعَةٍ قَدْ تُفَسِّرُ شَيْئًا مِنْ بَنِيَّتِهَا التَّكْوِينِيَّةِ. فَتَقُولُ
بَادِيٌّ ذِي بَدْءٍ: إِنَّ إِمْكَانَ تَوْسِيعِ مُحَظَّطِ الْكَاتِبِينَ أَوْ الْعُودَةِ بِهِ إِلَى الاسْتِعْمَالَاتِ
الْكَلَامِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ يُقَدَّمُ دَلِيلًا إِضَافِيًّا عَلَى صِحَّتِهِ وَكِفَايَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ الطَّبِيعَةَ الْمُصَنَّنَةَ
لِجَمِيعِ قَوَاعِدِ مُثَلَّثَاتِنَا تَقْرِيبًا تُفَسِّرُ سَبَبَ إظهارِ الْحَطِّ الْمُتَقَطِّ فِي الْمُحَظَّطِ الْأَخِيرِ
هَذَا التَّائِبِيَّ وَسَبَبَ مُطَاوَعَتِهِ لِمَا لَحِقَهُ مِنْ نَقْصٍ. وَإِنَّ الْحَيَوِيَّةَ الْمُفْرِطَةَ لِلْمَوْقِفِ
السَّحَرِيِّ مِنَ الْكَلِمَاتِ يُوَضِّحُهَا مَا أَنْجَزْنَاهُ مِمَّا نَعُدُّهُ هَامِشًا لِنَظَرِيَّةِ الْكِتَابِ هَذَا،
وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى الْإِحَالَةِ عَلَى الاسْتِعْمَالَاتِ الْبِدَائِيَّةِ لِلُّغَةِ عِنْدَ
الْهَمْجِيِّينَ وَمِنْ غَيْرِ شَكٍّ عِنْدَ إِنْسَانٍ مَا قَبْلَ التَّأْرِيخِ، بَلْ بِمَصَادِيقِهَا الدَّائِمَةِ كَذَلِكَ
فِي الاسْتِعْمَالَاتِ الطُّفُولِيَّةِ لِلُّغَةِ وَفِي الْآلِيَّةِ عَيْنِهَا الَّتِي يَكْتَسِبُ بِهَا الْمَعْنَى كُلُّ كَائِنٍ
مُفْرَدٍ.

وَتَمَّةٌ لَوَازِمُ أُخْرَى يُمَكِّنُ اسْتِنْتَاجُهَا مِنْ نَظَرِيَّتِنَا بِشَأْنِ الْمَعْنَى الْبِدَائِيَّةِ.
فَبِذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ نَجِدَ فِيهَا تَعَزِيزًا إِضَافِيًّا لِتَحْلِيلِ الْكَاتِبِينَ لِلتَّعْرِيفِ. فَمِنْ الْوَاضِحِ
أَنَّهُمَا مُحَقِّقَانِ فِي ذَهَابِهِمَا إِلَى أَنَّ التَّعْرِيفَ 'الْلَفْظِيَّ' وَالْوَاقِعِيَّ يَجِبُ أَنْ يَصْدُقَا
فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ جَعَلَ مِثْلَ هَذَا التَّمْيِيزِ الْمُصْطَنَعِ تَمْيِيزًا
جَوْهَرِيًّا قَدْ خَلَقَ مُشْكَلَةً زَائِفَةً. فَالْمَعْنَى، عَلَى مَا قَدْ رَأَيْنَا، لَا يَكْتَسِبُهُ الشَّخْصُ
الْبِدَائِيَّ بِتَأْمُلِ الْأَشْيَاءِ، أَوْ بِتَحْلِيلِ الْأَحْدَاثِ، وَلَكِنْ بِالْإِطْلَاعِ الْعَمَلِيِّ وَالْفِعَالِ
عَلَى الْأَحْوَالِ ذَوَاتِ الصَّلَةِ. فَالْمَعْرِفَةُ الْوَاقِعِيَّةُ لِلْكَلِمَةِ إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِمُمَارَسَةِ
اسْتِعْمَالِهَا الْمُلَانِمِ فِي حَالٍ مُعَيَّنَةٍ. فَالْكَلِمَةُ، شَأْنُهَا شَأْنُ آيَةٍ أَدَاةٍ يَبْتَكِرُهَا
الْإِنْسَانُ، لَا تَعْدُو ذَاتَ دَلَالَةٍ إِلَّا بَعْدَ اسْتِعْمَالِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا عَلَى نَحْوِ مُلَانِمٍ فِي
كُلِّ أَنْوَاعِ الظُّرُوفِ. فَبِذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَمَّةٌ تَعْرِيفٌ لِكَلِمَةٍ مِنْ غَيْرِ وُجُودِ

الواقع الذي تَغْنِي حُضُورَهُ. وَقَوْلُ مَرَّةً أُخْرَى إِنَّهُ مَا دَامَ الرُّمُزُ الدَّالُّ ضَرُورِيًّا لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعَزَلَ فِقْرَةً مِنْ فِقَرَاتِ الْوَاقِعِ وَيُمِسِّكَ بِهَا فَلَيْسَ ثَمَّةَ تَعْرِيفٍ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيفٍ لِلْكَلِمَةِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. فَلَيْسَ التَّعْرِيفُ فِي أَكْثَرِ أَشْكَالِهِ بِدَائِيَّةٍ وَجَوْهَرِيَّةٍ سِوَى رَدِّ فِعْلِ صَوْتِيٍّ، أَوْ كَلِمَةٍ مَنْطُوقَةٍ مَوْصُولَةٍ بِجَانِبٍ مِنْ حَالِ ذَاتِ صِلَةٍ بِوَسَاطَةِ فِعْلِ إِنْسَانِيٍّ مُلَاتِمٍ. وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ تَعْرِيفَ التَّعْرِيفِ هَذَا لَا يُحِيلُ عَلَى نَمَطِ الِاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ نَفْسِهِ الَّذِي بَحَثُهُ الْكَاتِبَانِ فِي هَذَا الْكِتَابِ. عَلَى أَنَّ مِمَّا يُثِيرُ الْاهْتِمَامَ أَنْ نَجِدَ اسْتِنْتَاجَاتِهِمَا الَّتِي تَوْصِلُنَا إِلَيْهَا بِدِرَاسَةِ [325] أَنْمَاطِ أَرْقَى مِنَ الْكَلَامِ تَصْدُقُ عَلَى حَقْلِ الِاسْتِعْمَالَاتِ الْبِدَائِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ.

(6)

قَدْ حَاوَلْتُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ تَضْيِيقَ مَجَالِ كُلِّ الْمُسْكِلاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْمَدْرُوسَةِ. فَبَدِئْتُ ذِي بَدْءٍ وَاجْهِنَا مَبْدَأَ احْتِيَاجِ دِرَاسَةِ اللُّغَةِ إِلَى مِهَادِ إِثْنُوغِرَافِيٍّ لِلثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ اللِّسَانِيَّاتِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قِسْمًا مِنْ عِلْمٍ عَامٍّ لِلثَّقَافَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا الْقِسْمُ الْأَهَمُّ. ثُمَّ كَانَتْ ثَمَّةَ مُحَاوَلَةٍ لِإِظْهَارِ أَنَّ هَذَا الِاسْتِنْتَاجَ الْعَامَّ يَقُودُنَا إِلَى وَجْهَاتٍ نَظَرٍ أَكْثَرَ تَحْدِيدًا بِشَأْنِ طَبِيعَةِ اللُّغَةِ، تَوْصِلُنَا فِيهَا إِلَى تَصَوُّرٍ لِلْكَلَامِ الْبَشَرِيِّ بِوَصْفِهِ ضَرْبًا مِنَ الْعَمَلِ لَا إِمْضَاءَ لِلْفِكْرِ. وَشَرَعْنَا بَعْدَ ذَلِكَ نَبْحَثُ فِي الْأَصُولِ وَالْأَشْكَالِ الْمُبَكَّرَةِ لِلْمَعْنَى، بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ الْبِدَائِيُّ قَدْ مَارَسَهُ بِهَا. وَقَدْ فَسَّرْنَا هَذَا جُذُورَ الْمَوْقِفِ السُّحْرِيِّ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَأَظْهَرْنَا. وَهَكَذَا تَقَلَّلْنَا عِبْرَ سِلْسِلَةٍ مِنَ الِاسْتِنْتَاجَاتِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَكْثَرُ وَاقِعِيَّةً وَتَحْدِيدًا مِنْ سَابِقِهِ.

وَأَوْدُ الْآنَ أَنْ أَعْرِجَ عَلَى مُشْكِلَةٍ أُخْرَى، هِيَ بَعْدُ أَكْثَرُ تَحْدِيدًا وَوَاقِعِيَّةً مِنَ الْأَخْرِيَّاتِ، وَهِيَ مُشْكِلَةُ بِنْيَةِ اللُّغَةِ.

فَلِكُلِّ لِسَانٍ بَشَرِيٍّ بِنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ تَخْصُهُ. وَلَدَيْنَا أَنْمَاطٌ مِنَ اللُّغَاتِ الْعَازِلَةِ ⁽³³⁾isolating، وَالْإِلْصَاقِيَّةِ ⁽³⁴⁾agglutinative، وَالتَّالِيفِيَّةِ ⁽³⁵⁾polysynthetic، وَالْإِنْدِمَاجِيَّةِ ⁽³⁶⁾incorporating، وَالتَّصْرِيفِيَّةِ ⁽³⁷⁾inflectional. وَمُمْكِنٌ فِي كُلِّ مِنْهَا أَيْ يُتَوَصَّلَ إِلَى الْعَمَلِ وَالتَّعْبِيرِ اللَّغَوِيِّينَ طَبَقًا لِقَوَاعِدَ مُعَيَّنَةٍ، مُصَنَّفَةً عَلَى وَفْقِ فَصَائِلَ مُعَيَّنَةٍ. هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْبِنَائِيَّةِ بِاسْتِثْنَاءِهَا وَشُدُودَاتِهَا، وَالتَّصْنِيفَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُدرَجَ عَنَاصِرُ اللُّغَةِ فِي ضَمَنِهَا، هِيَ مَا نُسَمِّيهِ 'الْبِنْيَةُ النُّحْوِيَّةُ' لِلُّغَةِ.

وَعَادَةً مَا تُعَدُّ اللُّغَةُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صَحِيحًا عَلَى مَا قَدْ تَبَيَّنَ لَنَا، التَّعْبِيرُ عَنِ الْفِكْرِ بِوَسَاطَةِ الْأَصْوَاتِ الْكَلَامِيَّةِ؛ لِذَلِكَ كَانَتْ الْفِكْرَةُ الْوَاضِحَةُ هِيَ أَنَّ الْبِنْيَةَ اللَّغَوِيَّةَ نَتِيجَةُ لِقَوَاعِدِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنَّ 'كُلَّ مَقُولَةٍ نُحْوِيَّةٍ هِيَ تَعْبِيرُ

(33) اللُّغَةُ الْعَازِلَةُ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِيهَا مِنْ مَوْرِفِمٍ وَاحِدٍ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ جُذُورَ كَلِمَاتِهَا لَا تَقْبَلُ الرِّوَانَدَ. وَعَازِلِيَّةُ اللُّغَةِ مَسْأَلَةٌ دَرَجَةٍ؛ فَهَمَّةُ لُغَاتٍ عَازِلَةٍ تَمَامًا؛ وَأُخْرَى عَازِلَةٌ نَوْعًا مَا؛ وَأُخْرَى غَيْرُ عَازِلَةٍ بِنْتَةٍ. وَمِنَ اللُّغَاتِ الْعَالِيَةِ الْعَازِلِيَّةِ الصِّينِيَّةُ وَالْفِينَتَانِيَّةُ. وَتُسَمَّى اللُّغَةُ الْعَازِلَةُ أَيْضًا لُغَةً تَحْلِيلِيَّةً *analytic language*. [المُترجم]

(34) اللُّغَةُ الْإِلْصَاقِيَّةُ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي غَالِبًا مَا تَتَكَوَّنُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِيهَا مِنْ عِدَّةٍ مَوْرِفَاتٍ، وَكُلُّ مَوْرِفٍ وَاحِدٍ يُمَثِّلُ مَوْرِفِيًّا وَاحِدًا. وَتَمْتَارُ هَذِهِ اللُّغَةُ بِاسْتِعْمَالِ السُّوَابِقِ وَاللُّوَاحِقِ وَإِضَافَتِهَا إِلَى الْجَذْرِ لِتَغْيِيرِ الْمَعْنَى. وَمِنَ امْتِلَاطِهَا اللُّغَاتُ الْأُورَالِيَّةُ *Uralic languages* كَالْهَنْغَارِيَّةِ وَالْفِنْلَنْدِيَّةِ. وَتُقَابَلُهَا اللُّغَةُ الْعَازِلَةُ. [المُترجم]

(35) اللُّغَةُ التَّالِيفِيَّةُ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي تَتَجَدُّ فِيهَا عِدَّةُ كَلِمَاتٍ لِتَكُونَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُمَثِّلُ جُمْلَةً كَامِلَةً أَوْ فِكْرَةً كَامِلَةً. وَتُسَمَّى أَيْضًا لُغَةً الْكَلِمَاتِ الْجُمْلِيَّةِ *holophrastic language* أَوْ اللُّغَةُ غَيْرَ الْمُفْرَدَاتِيَّةِ *wordless language*. وَتُوجَدُ امْتِلَاطٌ لَهَا فِي أَسْتْرَالِيَا، وَسِيْبِيرِيَا، وَبَابُوَا غِينِيَا الْجَدِيدَةِ. [المُترجم]

(36) اللُّغَةُ الْإِنْدِمَاجِيَّةُ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي تُظْهِرُ الْعَلَاَقَاتِ النُّحْوِيَّةَ بِوَسَاطَةِ الْمَوْرِفِمَاتِ الْمُقْبَدَةِ، وَتَتَدِمِجُ فِيهَا الْكَلِمَاتُ لِتَكُونَنَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُؤَدِّي مَعْنَى الْجُمْلَةِ. وَتُوجَدُ امْتِلَاطٌ لَهَا فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ، وَسِيْبِيرِيَا، وَأَسْتْرَالِيَا الشَّمَالِيَّةِ. [المُترجم]

(37) اللُّغَةُ التَّصْرِيفِيَّةُ: هِيَ اللُّغَةُ الَّتِي تَنْقِصُ كَلِمَاتُهَا إِلَى مَوْرِفِمَاتٍ بِطَرِيقَةٍ اعْتِبَاطِيَّةٍ غَيْرِ ثَابِتَةٍ كَاللَاتِينِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْعَلَاَقَاتِ النُّحْوِيَّةَ بَيْنَ كَلِمَاتِ الْجُمْلَةِ تُظْهِرُهَا حَرَكَاتُ إِعْرَابِيَّةٍ. [المُترجم]

عَنْ مَقُولَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ. لَكِنْ مِمَّا لَا يَسْتَدْعِي كَبِيرَ إِعْمَالٍ فِكْرَ إِدْرَاكِ أَنَّ نَشْدَانَ مِثْلَ هَذَا التَّنَاغُمِ الْاِقْتِرَانِيَّ التَّامَّ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْمَنْطِقِ مُتَقَاتِلٌ جِدًّا، وَأَنَّهُمَا عَلَى الْمُسْتَوَى الْفِعْلِيِّ 'كَثِيرًا' مَا يَنْحَرِفُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنَّهُمَا فِي الْوَاقِعِ فِي خِصَامٍ مُسْتَمِرٍّ وَأَنَّ اللُّغَةَ كَثِيرًا مَا تُسِيءُ مُعَامَلَةَ الْمَنْطِقِ، حَتَّى يَصِلَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا إِلَى أَنْ تَهْجُرَهُ⁽³⁸⁾. [326]

بِذَلِكَ نَكُونُ فِي مُوَاجَهَةٍ مَازِقٍ: فَلَمَّا أَنْ تَكُونَ مَقُولَاتُ النَّحْوِ مُسْتَمَدَّةً مِنْ قَوَانِينِ الْفِكْرِ، فَحِينَئِذٍ سَنَحَارُ فِي تَفْسِيرِ سَبَبِ سُوءِ تَكْيِيفِ أَحَدِهِمَا مَعَ الْآخَرِ؛ فَإِنْ كَانَتِ اللُّغَةُ قَدْ تَرَعَّرَعَتْ فِي كَنْفِ الْفِكْرِ فَلِمَ لَمْ يَطْبَعُهَا بِطَابِعِهِ إِلَّا قَلِيلًا؟ وَإِمَّا أَنْ نَنْجُو إِلَى الظَّرْفِ الْآخَرِ مِنَ الْمَازِقِ كَمَا يَفْعَلُ مُعْظَمُ النَّحْوِيِّينَ مِنْ أَجْلِ التَّخْلُصِ مِنْ هَذِهِ الصُّعُوبَاتِ. إِنَّهُمْ يُشِيحُونَ بِوُجُوهِهِمْ بِعَجْرَفَةٍ عَنِ الْعَنْبِ الْحَامِضِ⁽³⁹⁾ لِأَيِّ سَبَرٍ أَوْ فَلَسَفَةٍ لِلُّغَةِ أَعَمَّقَ، وَيَكْتَفُونَ بِتَاكِيدِ أَنَّ النَّحْوَ يَحْكُمُ بِمُقْتَضَى حَقِّهِ الدَّاتِيَّ بِجَنَةِ إِلَهِيَّةٍ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، وَأَنَّ إِمْبِرَاطُورِيَّةَ النَّحْوِ يَجِبُ أَنْ تَنْظَلَ فِي غُرْلَتِهَا الرَّائِعَةِ، بِوَصْفِهَا سُلْطَةً قَاهِرَةً عَلَى الْفِكْرِ، وَالتَّرْتِيبِ، وَالنِّظَامِ، وَالْفَهْمِ الْمَشْتَرَكِ.

وَكِلْنَا الْوَجْهَتَيْنِ - أَيِ الَّتِي تَلَجَأُ إِلَى الْمَنْطِقِ مُلْتَمِسَةً مِنْهُ الْعَوْنَ، وَالْآخَرَى الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ حُكْمِ اسْتِقْلَالِيٍّ لِلنَّحْوِ - مُخَالَفَةً لِلْحَقَائِقِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ وَمَصِيرُهَا الرَّفْضُ. وَلَيْسَ مِنْ قِلَّةِ السُّخْفِ أَنْ نَفْتَرِضَ، مَعَ التَّحْوِيِ الْمُتَصَلِّبِ، أَنَّ النَّحْوَ قَدْ تَرَعَّرَعَ بِوَصْفِهِ عُشْبَةً بَرِيَّةً ضَارَّةً يَقْدُرَاتِ بَشَرِيَّةٍ لَا لِعَرَضِ الْبَتَّةِ سِوَى وُجُودِهِ الدَّاتِيَّ. إِنَّ التَّوَلَّدَ التَّلْقَانِيَّ لِلْفِطَاعَاتِ الَّتِي لَا مَعْنَى لَهَا فِي دِمَاغِ الْإِنْسَانِ لَا يَقْرُهَا عِلْمُ النَّفْسِ بِسَهُولَةٍ - إِلَّا إِذَا كَانَ الدِّمَاغُ يَعُودُ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، إِلَى مُتَخَصِّصِ عِلْمِيٍّ مُتَصَلِّبٍ. وَسَوَاءٌ أَتَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِمَبَادِيٍّ عَامَّةٍ أَمْ بِنَزَعَاتٍ مُنْفَرِدَةٍ، فَإِنَّ جَمِيعَ اللُّغَاتِ

(38) اقْتَبَسْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ كِتَابِ سُوَيْتِ H. Sweet الَّذِي عُنوانُهُ (مُقَدِّمَةٌ لِتَارِيخِ اللُّغَةِ Introduction to the History of Language) لِأَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ أَحَدَ أَذْكَى مُفَكِّرِي اللُّغَةِ.

وَمَعَ ذَلِكَ حَتَّى هُوَ لَا يَجِدُ بَدِيلًا، فَلَمَّا قَانُونُ الْمَنْطِقِ وَإِمَّا الْقَوْصَى فِي اللُّغَةِ.

(39) يُشِيرُ هَذَا التَّعْبِيرُ، الَّذِي يَرْجِعُ أَصْلُهُ إِلَى قِصَّةِ إِسْوَ (التَّعَلُّبُ وَالْعَنْبُ)، إِلَى التَّظَاهُرِ الزَّانِفِ بِعَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِ مَا يُرِيدُهُ الْإِنْسَانُ لِكِنَّةٍ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَصُولَ عَلَيْهِ. [الْمُتَرْجِمُ]

تُبْدِي قَدْرًا مِنَ الْإِتْفَاقِ الْجَوْهَرِيِّ فِي الْبِنْيَةِ وَوَسِيلَةَ التَّعْبِيرِ النَّحْوِيِّ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ الْكَبِيرَةِ بَيْنَهَا. وَمِنْ دَوَاعِي مُنَافَاةِ الْعَقْلِ وَالْجَبَنِ أَنْ يُتَخَلَّى مُنْذُ الْبَدْءِ عَنْ أَيِّ بَحْثٍ عَنْ قُوَى أَعَمَّقَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ وَلَدَتْ هَذِهِ السَّمَاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ الْعَامَّةَ الْمُشْتَرَكَةَ لِلُّغَةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا فِي نَظَرِيَّتِنَا لِلْمَعْنَى أَنَّ اللُّغَةَ تُؤَدِّي أَعْرَاضًا مُحَدَّدَةً، وَأَنَّهَا تَعْمَلُ بِوَصْفِهَا أَدَاءً تُسْتَعْمَلُ وَتُكَيَّفُ لِهَدَفٍ مُحَدَّدٍ. هَذَا التَّكْيِيفُ، أَيُّ هَذَا الْإِرْتِبَاطُ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْإِسْتِعْمَالِ الَّتِي وَضَعَتْ مِنْ أَجْلِهَا، قَدْ خَلَّفَ آثَارَهُ فِي الْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ. لَكِنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّا يَجِبُ أَلَّا نَنْظُرَ فِي دَائِرَةِ التَّفَكِيرِ الْمَنْطِقِيِّ وَالتَّأَمُّلِ الْفَلَسْفِيِّ مُلْتَمِسِينَ فِيهِمَا مَا يُسَلِّطُ الضُّوْءَ عَلَى هَدَفِ الْكَلَامِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُبَكِّرِ وَأَعْرَاضِهِ، فَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ النُّظَرَةُ الْمَنْطِقِيَّةُ الْخَالِصَةُ لِلُّغَةِ مُسَاوِيَةً لِلنُّظَرَةِ النَّحْوِيَّةِ الْخَالِصَةِ فِي عَدَمِ النَّفْعِ.

وَتَمَّةُ فَصَائِلُ وَاقِعِيَّةٍ تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا التَّقْسِيمَاتُ النَّحْوِيَّةُ وَتُفَرِّغُ فِي قَوَالِبِ عَلَى وَفْقِهَا. لَكِنَّ هَذِهِ الْفَصَائِلَ الْوَاقِعِيَّةَ لَيْسَتْ مُسْتَمَدَّةً مِنْ أَيِّ نِظَامٍ فَلَسْفِيٍّ بِدَائِيٍّ مَبْنِيٍّ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي الْعَالَمِ الْمُحِيطِ وَعَلَى التَّأَمُّلَاتِ الْفَجْئَةِ، نَحْوِ مَا يَعْرِضُهُ بَعْضُ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيِّينَ إِلَى الرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ. فَاللُّغَةُ بَيْنِيَّتُهَا تَعَكِّسُ الْفَصَائِلَ الْوَاقِعِيَّةَ الْمُسْتَمَدَّةَ مِنَ الْمَوَاقِفِ الْعَمَلِيَّةِ لِلطِّفْلِ وَلِلرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ أَوِ الطَّبِيعِيِّ [327] مِنَ الْعَالَمِ الْمُحِيطِ. وَإِنَّ الْفَصَائِلَ النَّحْوِيَّةَ بِكُلِّ خُصُوصِيَّاتِهَا، وَاسْتِثْنَاءِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ حَالَاتٍ تَمَرُّدٍ مُتَطَاوِلَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى الضُّبْطِ، هِيَ انْعِكَاسٌ لِلنُّظَرَةِ الْعَمَلِيَّةِ غَيْرِ النِّظَامِيَّةِ الْمُؤَقَّتَةِ الَّتِي يَفْرُضُهَا كِفَاحُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَجْلِ الْوُجُودِ بِالْمَعْنَى الْأَوْسَعِ لِلْكَلِمَةِ. وَمِنْ غَيْرِ الْمُجْدِي أَنْ نَأْمُلَ أَنْ نَعْدُو قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُعَيِّدَ بِدَقَّةٍ بِنَاءَ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْبِرَاغِمَاتِيَّةِ لِلْعَالَمِ الَّتِي لَدَى الْبِدَائِيِّ، أَوِ الْهَمْجِيِّ، أَوِ الطِّفْلِ، أَوْ أَنْ نَسْتَبْعِنَ بِالتَّفْصِيلِ ارْتِبَاطَهَا بِالنَّحْوِ. لَكِنْ بِالْإِمْكَانِ الْوُقُوفُ عَلَى خُطُوطٍ عَرِيضَةٍ وَتَوَافُقٍ عَامٍّ، وَإِنَّ إدْرَاكَ هَذَا لَيَحَرِّزُنَا، عَلَى أَيِّةٍ حَالٍ، مِنْ أَغْلَالِ الْمَنْطِقِ وَمِنْ عُقَمِ النَّحْوِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ اللُّغَةُ أَكْثَرَ تَطَوُّرًا وَتَأَرِيخُهَا الْإِرْتِقَائِيَّ أَطْوَلَ كَانَتْ أَكْثَرَ تَجْسِيدًا لِلْأَطْوَارِ الْبِنَائِيَّةِ. وَإِنَّ الْمَرَاجِلَ الْمُتَعَدَّدَةَ لِلتَّقَافَةِ - الْهَمْجِيَّةِ، فَالْبَرَبَرِيَّةِ، فَشِبْهَ الْمُتَحَضَّرَةِ، فَالْمُتَحَضَّرَةِ؛ وَالْأَنْمَاطَ الْمُخْتَلِفَةَ لِلْإِسْتِعْمَالِ -

البراغماتي، فالجكائي، فالشعائري، فالمدري، فالديني - لا بُدَّ لِكُلِّ مِنْهَا أَنْ يَتَرَكَ بَصْمَتَهُ. وَحَتَّى التَّهْدِيبُ النَّهَائِي الضَّخْمُ، لَكِنْ غَيْرُ الْكُلِّيِّ النَّفُوذِ، لِلِاسْتِعْمَالِ الْعِلْمِيِّ لَنْ يَكُونَ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَمْحُوَ الْبَصَمَاتِ السَّابِقَةَ. فَالْخُصُوصِيَّاتُ الْبِنَائِيَّةُ الْمُتَعَدِّدَةُ لِلُّغَةِ الْمُتَحَضَّرَةِ الْحَدِيثَةِ تَحْمِلُ، عَلَى مَا يَبَيِّنُ أَوْغِدِن وَرِثَارْدَز، كَمِّيَّةً مِيتَةً هَائِلَةً مِمَّا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْاسْتِعْمَالِ الْمُمَاتِ، مِنْ الْخُرَافَةِ السُّحْرِيَّةِ وَالْعُمُوضِ الصُّوفِيِّ.

فَإِنْ صَحَّحَتْ نَظَرِيَّتُنَا فَإِنَّ الْخُطُوطَ الْعَامَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلنَّحْوِ مَرَدُّهَا الرَّئِيسُ إِلَى أَكْثَرِ اسْتِعْمَالَاتِ اللُّغَةِ بِدَائِيَّةً. ذَلِكَ بِأَنَّ هَذِهِ الْاسْتِعْمَالَاتِ تُهَيِّجُنَ عَلَى مَرَحَلَةِ النَّشْأَةِ وَعَلَى أَكْثَرِ الْمَرَاهِلِ مُرُونَةً فِي التَّطَوُّرِ اللَّغَوِيِّ، وَتُخَلِّفُ أَقْوَى الْبَصَمَاتِ. وَالْفَصَائِلُ النَّحْوِيَّةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الْاسْتِعْمَالِ الْبِدَائِيِّ تَكُونُ مُتَمَاثِلَةً كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الْبَشَرِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ السَّطَحِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ. ذَلِكَ بِأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْجَوْهَرِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ وَاحِدَةً وَأَنَّ الْاسْتِعْمَالَاتِ الْبِدَائِيَّةَ لِلُّغَةِ مُتَمَاثِلَةٌ. وَلَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ قَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الْوُظِيفَةَ الْبَرَاغِمَاتِيَّةَ لِلُّغَةِ مُتَوَاصِلَةٌ فِي أَرْقَى مَرَاكِزِهَا، وَلَا سِيَّمَا مِنْ خِلَالِ الْاسْتِعْمَالِ الطِّفُولِيِّ وَمِنْ خِلَالِ انْغِمَاسِ الْبَالِغِينَ فِي أَنْمَاطٍ سَاجِجَةٍ مِنَ التَّفَكُّيرِ وَالتَّحَدُّثِ. فَتَأْتُرُ اللُّغَةُ بِالفِكرِ قَلِيلًا، لَكِنْ الْفِكرُ، عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، كَثِيرُ التَّأْثِيرِ بِهَا؛ لِاحْتِيَاجِهِ أَنْ يَسْتَعِيرَ مِنَ النَّشَاطِ أَدَاتُهُ، أَعْنِي اللُّغَةَ. خُلَاصَةُ الْأَمْرِ أَنَّ فِي اسْتَطَاعَتِنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْفَصَائِلَ النَّحْوِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي تَشْمَلُ جَمِيعَ لُغَاتِ الْبَشَرِ لَا يُمَكِّنُ فَهْمَهَا إِلَّا بِالإِحَالَةِ عَلَى النَّظَرَةِ الْبَرَاغِمَاتِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ الْبِدَائِيِّ، وَإِنَّ الْفَصَائِلَ الْبِدَائِيَّةَ الْبَرَبْرِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ خَلَقَتْ، مِنْ خِلَالِ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ، آثَارًا عَمِيقَةً فِي الْفَلَسَفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُتَأَخَّرَةِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّمَثِيلِ لِذَلِكَ بِتَحْلِيلِ مُفْصَلٍ لِوَاحِدَةٍ، فِي الْأَقْلَى، مِنْ مُشْكِلاتِ النَّحْوِ الْمَلْمُوسَةِ، وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارِي عَلَى مُشْكِلةِ أَقْسَامِ الْكَلَامِ لِئَلَّا يَطُولَ بِنَا الْبَحْثِ. فَعَلَيْنَا [328]، لِذَلِكَ، الرُّجُوعُ إِلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ تَطَوُّرِ الْأَفْرَادِ أَوِ الْبَشَرِيَّةِ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ فِيهَا مُغْرَمًا بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَلَا مَعْنِيًا بِتَصْنِيفِ الظَّوَاهِرِ لِلْأَغْرَاضِ الْمَعْرِفِيَّةِ إِلَّا بِالْقَدْرِ الَّذِي تَدْخُلُ بِهِ فِي تَعَامُلَاتِهِ الْمُبَاشِرَةِ مَعَ أَحْوَالِهِ الْمَعِيشِيَّةِ. فَلَا بُدَّ لِلطِّفْلِ، وَلِلْإِنْسَانِ الْبِدَائِيِّ، وَلِلْقَدْرِ الْبَسِيطِ مِنْ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ بِوَصْفِهَا وَسِيلَةً لَا

غَنَى عنها لِلتَّأثيرِ فِي البيئَةِ الاجتماعيَّةِ. وَفِي كُلِّ ذَلِكَ يَتَطَوَّرُ مَوْقِفُ مُحَدِّدٍ جَدًّا، نَمَطٌ مِنْ لَحْظِ فِقْرَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الْوَاقِعِ، مِنْ عَزْلِهَا خَارِجًا ثُمَّ رَبِطُهَا - مَوْقِفٌ لَا يُؤْطَرُّهُ أَيُّ نِظَامٍ فِكْرِيٍّ، لَكِنْ يُفَصِّحُ عَنْهُ السُّلُوكُ، وَتُجَسِّدُهُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْبِدَائِيَّةِ حُرْمَةُ الْإِنْجَازَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَأْتِي اللُّغَةُ فِيهَا أَوَّلًا وَفِي الْمُقَدِّمَةِ.

وَلَنَبْذَأُ بِعِلَاقَةِ الطِّفْلِ بِبَيْتِهِ. فِي الْمَرَاكِحِ الْأَوَّلَى تَكُونُ نَشَاطَاتُهُ وَسُلُوكُهُ مَحْكُومَةً بِاحْتِيَاجَاتِ الْكَائِنِ الْحَيِّ. فَهُوَ يَتَحَرَّكُ بِتَأثيرِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَالرَّغْبَةِ فِي الدَّفْنِ وَفِي نَظَافَةِ مُعَيَّنَةٍ، وَالْأَحْوَالِ الْمُلائِمَةِ لِلرَّاحَةِ وَالتَّوْمِ، وَالْقَدْرِ الْوَافِي مِنْ حُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ، وَأَخِيرُهَا لَا آخِرُهَا الْحَاجَةُ إِلَى الصُّحْبَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِلَى مُعَامَلَةِ الْبَالِغِينَ لَهُ. وَفِي مَرَحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ جَدًّا لَا يُبْدِي الطِّفْلُ رَدًّا فِعْلًا إِلَّا تَجَاهَ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ، بَلْ لَا يَكَادُ يُمَيِّزُ أَقْرَبَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَى رَاحَتِهِ وَيُعِدُّونَهُ بِالطَّعَامِ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَدُومُ طَوِيلًا. فَبَدَأَ حَتَّى مِنْ الْأُسْبُوعَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ تَبَدُّأَ بَعْضُ الظَّوَاهِرِ وَبَعْضُ الْوَحْدَاتِ بِالظُّهُورِ مِنْ وَسْطِ الْبَيْتَةِ الْعَامَّةِ. فَوُجُوهُ الْبَشَرِ تَبَدُّأَ بِإِثَارَةِ اهْتِمَامٍ خَاصٍّ - إِذْ يَلْتَفِتُ الطِّفْلُ مُبْتَسِمًا وَيُطْلِقُ أَصْوَاتًا جَدَلَةً. وَيَبْدَأُ فِي تَمْيِيزِ الْأُمِّ أَوِ الْمُرْضَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا كَانَ قَدْ مَيَّزَ حَتَّى قَبْلَ ذَلِكَ مَوْضُوعَاتِ الطَّعَامِ أَوْ نَاقِلَاتِهِ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ التَّأثيرَ الْعَاطِفِيَّ الْأَقْوَى يُمارَسُ عَلَى الطِّفْلِ مِنْ خِلَالِ شَخْصِيَّةٍ وَالدِّيَةِ، وَفِقْرَاتِ الطَّعَامِ تِلْكَ أَوْ نَاقِلَاتِهِ. وَكُلُّ مَنْ قَدْ تَشَرَّبَ بِمَبَادِي فِرَوِيدِ يَشْعُرُ بِمَيْلٍ إِلَى الْبَحْثِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَنْ صِلَةٍ مُبَاشِرَةٍ. فِي مَرَحَلَةٍ الصَّغَرِ عِنْدَ الْبَشَرِ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي أَيِّ صِنْفٍ مِنَ الثَّنَدِيَّاتِ، يَرِيطُ الطِّفْلُ بِأُمِّهِ كُلَّ غَوَاطِفِهِ تَجَاهَ الطَّعَامِ. فَهِيَ عِنْدَهُ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَاءُ تَغْذِيَةٍ. لِذَلِكَ إِنْ أَتَى الْغِذَاءُ مِنْ مَصْدَرٍ آخَرَ - وَجِبَ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ أَطْفَالَ الْهَمَجِيِّينَ يُعَذِّونَ مَا يُمَضَّعُ مِنْ طَعَامٍ نَبَاتِيٍّ مُنْذُ الْوِلَادَةِ تَقْرِيبًا، زِيَادَةً عَلَى الرِّضَاعَةِ - فَإِنَّ الْمَشَاعِرَ الرَّقِيقَةَ الَّتِي يَسْتَجِيبُ الطِّفْلُ بِمُقْتَضَاهَا لِرِعَايَةِ الْأُمِّ قَدْ تَمَنَّدَتْ إِلَى وَسَائِلِ إِمدَادٍ غِذَائِيٍّ أُخْرَى. وَإِذَا مَا رَأَى الْمَرْءُ مِنَّا مَشَاعِرَ الْحُبِّ الَّتِي يُبْدِيهَا طِفْلٌ مُعَاصِرٌ يُغْذَى عَلَى رُجَاجَةِ الْحَلِيبِ تَجَاهَ رُجَاجَتِهِ، وَالْمُلَاطَفَاتِ الرَّقِيقَةَ وَالْإِبْتِسَامَاتِ الْمُعْرَمَةَ الَّتِي يَمْنَحُهَا

إِيَّاهَا، تَبْدَى لَهُ أَنَّ تَمَاطُلَ الاسْتِجَابَةِ لِمُرُودَاتِ الطَّعَامِ الاصْطِنَاعِيَّةِ مِنْهَا وَالطَّبِيعِيَّةِ يَبْدُو مُتَضَمِّنًا لِتَمَاطُلٍ فِي الْمَوْقِفِ الذَّهْنِيِّ لَدَى الطِّفْلِ. فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، نَكُنْ قَدْ اكْتَسَبْنَا مَا يُبَصِّرُنَا [329] بِعَمَلِيَّةٍ مُبَكَّرَةٍ جِدًّا تَتِمَّلُ بِشَخْصَنَةِ الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ الَّتِي تُولَدُ بِمُقْتَضَاهَا الْأَشْيَاءُ ذَاتِ الصَّلَةِ وَالْمُهْمَةِ فِي الْبَيْئَةِ الاسْتِجَابَةِ الْعَاطِفِيَّةِ نَفْسَهَا الَّتِي يُولَدُهَا الْأَشْخَاصُ ذَوُو الصَّلَةِ. وَمَهْمَا يَبْلُغُ صِدْقُ هَذَا الْعَرَضِ الْمُتَعَلِّقِ بِالتَّمَاطُلِ الْمُبَاشِرِ فَلَا شَكَّ فِي وُجُودِ سَبَبٍ كَبِيرٍ بَيْنَ الْمَوْقِفِ الْمُبَكَّرِ مِنْ أَقْرَبِ الْأَشْخَاصِ وَالْمَوْقِفِ الْمُبَكَّرِ مِنْ أَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُلَبِّي الْحَاجَاتِ الْغِذَائِيَّةَ.

وَحِينَ يَبْدَأُ الطِّفْلُ بِمُعَالَجَةِ الْأَشْيَاءِ، وَبِاللَّعِبِ بِمَوْجُودَاتِ مُحِيطِهِ، يُمَكِّنُ أَنْ تُلَحَظَ سِمَةٌ مُثِيرَةٌ لِلْاهْتِمَامِ فِي سُلُوكِهِ، مُرْتَبِطَةٌ كَذَلِكَ بِالْمِثْلِ الْغِذَائِيِّ الْأَسَاسِيِّ لَدَى الطِّفْلِ. فَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي قِمِهِ. وَهُوَ، لِذَلِكَ، يَشُدُّ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَحْنِيَ الْأَشْيَاءَ الطَّرِيَّةَ وَاللَّدَنَةَ وَيَطْوِيَهَا، أَوْ يُحَاوِلُ أَنْ يُفَكِّكَ أَشْيَاءَ صُلْبَةً إِلَى أَجْزَاءٍ. وَفِي الْعَاجِلِ الْقَرِيبِ تُصْبِحُ الْأَشْيَاءُ الْمَعْرُوزَةُ الْقَابِلَةُ لِلتَّفَكِّكِ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ وَقِيَمَةٍ تَفُوقَانِ كَثِيرًا الْأَهْمِيَّةَ وَالْقِيَمَةَ اللَّتَيْنِ تَحْطِي بِهِمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي لَيْسَ فِي الْوَسْعِ مُعَالَجَتُهَا بِكُلِّيَّتِهَا. وَبِلُغِ الطِّفْلِ وَاسْتِطَاعَتِهِ تَحْرِيكَ الْأَشْيَاءِ بِحَرَكَةٍ أَكْبَرَ يَتَطَوَّرُ هَذَا الْمَيْلُ إِلَى الْعَزْلِ وَالْإِفْرَادِ الْفِيْزِيَاءِيِّ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ. وَيَكْمُنُ هَذَا فِي عُمُقِ الْمَيْلِ الْإِتْلَافِيِّ الْمَشْهُورِ لَدَى الْأَطْفَالِ. وَهَذَا الْأَمْرُ مُثِيرٌ لِلْاهْتِمَامِ بِصَدْدِ مَا نَحْنُ فِيهِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُظْهَرُ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمَلَكَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِإِفْرَادِ الْعَوَامِلِ الْبَيْئِيَّةِ ذَاتِ الصَّلَةِ - الْأَشْخَاصِ، وَالْمَوْضُوعَاتِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالتَّغْذِيَّةِ، وَالْأَشْيَاءِ - مَا يُنَاطَرُهَا فِي السُّلُوكِ الْجَسَدِيِّ لِلطِّفْلِ. وَمَرَّةً أُخْرَى نَجِدُ هُنَا فِي دِرَاسَةِ هَذَا التَّفْصِيلِ السُّلُوكِيَّ مَا يُعَزِّزُ نَظَرَتَنَا الْبِرَاغِمَاتِيَّةَ لِلتَّطَوُّرِ الْعَقْلِيِّ الْمُبَكَّرِ.

وَفِي الْإِمْكَانِ أَيْضًا أَنْ نَقِفَ عَلَى مَيْلٍ إِلَى شَخْصَنَةِ أَشْيَاءٍ تُثِيرُ اهْتِمَامًا خَاصًّا. وَلَا أَعْنِي بِمُصْطَلَحِ 'شَخْصَنَةِ' هُنَا أَيَّةَ نَظَرِيَّةٍ أَوْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ ذَاتِيَّةٍ لِلطِّفْلِ. وَإِنَّمَا أَعْنِي، كَمَا فِي حَالَةِ أَصْنَافِ الطَّعَامِ، أَنَّ فِي وَسْعِنَا أَنْ نَلْحَظَ لَدَيْهِ نَمَطًا مِنَ السُّلُوكِ لَا يُمَيِّزُ أَصْلًا الْأَشْخَاصَ مِنَ الْأَشْيَاءِ. فَالطِّفْلُ يُجِبُّ بَعْضَ لُغَيْهِ وَيَكْرَهُ بَعْضَهَا، وَيَغْضَبُ مِنْهَا إِذَا صَعَبَ عَلَيْهِ تَنَاوُلُهَا، وَهُوَ يُعَانِقُهَا وَيَقْبَلُهَا وَيُبْدِي أَمَارَاتِ

الرُّؤْدُ تَجَاهَهَا. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْأَشْخَاصَ يَظْهَرُونَ أَوَّلًا مِنْ حَيْثُ الزَّمَنُ وَفِي
الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْ حَيْثُ الْأَهَمِّيَّةُ. وَلَكِنْ حَتَّى هَذَا لَا يَنْجُمُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّ الْعَلَاqَةَ بِهِمْ
هِيَ نَوْعٌ مِنْ نَمَطٍ لِمَوْقِفِ الطِّفْلِ تَجَاهَ الْأَشْيَاءِ.

وَقَمَّةُ نُقْطَةِ مِهْمَةٍ أُخْرَى هِيَ الْاهْتِمَامُ الْكَبِيرُ بِالْحَيَوَانَاتِ. وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُؤَكِّدَ
مِمَّا لَحِظْتُهُ شَخْصِيًّا أَنَّ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ مِنَ الْعُمُرِ بِضْعَةَ أَشْهُرٍ مِمَّنْ لَيْسَ
لَدَيْهِمْ أَيُّ اهْتِمَامٍ مُتَطَوِّلٍ بِالْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْحَيَّةِ يُحَاكُونَ حَرَكَاتِ الطَّائِرِ مُدَّةً مِنَ
الزَّمَنِ. وَكَذَلِكَ كَانَ اسْمُهُ إِحْدَى الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَفْهَمُهَا الطِّفْلُ مُبَكَّرًا، وَمِصْدَاقُ
ذَلِكَ بَحْثُهُ عَنِ الطَّائِرِ حِينَ يُذَكَّرُ اسْمُهُ. وَمَعْلُومٌ مِقْدَارُ مَا تَحْظِي بِهِ الْحَيَوَانَاتُ مِنْ
اهْتِمَامٍ فِي مَرَاكِجِ الطُّفُولَةِ الْمُتَأَخَّرَةِ. وَلِهَذَا الْأَمْرُ أَهْمِيَّتُهُ لَدَيْنَا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ
وَلَا سِوَا الطَّائِرِ بِحَرَكَاتِهِ التَّلَقُّائِيَّةِ، وَبِسَهُولَةِ انْتِقَائِهِ مِنْ مُحِيطِهِ، وَبِتَذْكِيرِهِ الْأَكِيدِ
[330] بِالْأَشْخَاصِ، يُمَثِّلُ مَوْضُوعًا مِثَالِيًّا لِإِنَارَةِ اهْتِمَامِ الطِّفْلِ، اسْتِنَادًا إِلَى
نَظَرِيَّتِنَا.

وَيَقِفْنَا تَحْلِيلُنَا لِهَمْجِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ فِي عِلَاقَتِهِ بِالْبَيْئَةِ عَلَى نَظِيرٍ وَاضِحٍ
لِلْمَوْقِفِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ قَبْلَ قَلِيلٍ. فَالْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ يَهْمُهُ بِالْقَدْرِ الَّذِي يُثْمِرُ بِهِ
أَشْيَاءَ نَافِعَةٍ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ التَّفَعُّعَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هُنَا بِمَعْنَاهُ الْأَوْسَعِ، وَأَنَّهُ لَا
يَقْتَصِرُ عَلَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَلْتَهِمَهُ الْإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ طَعَامًا، وَبِاسْتِعْمَالِهِ بِوَصْفِهِ مَأْوًى
وَأَلَّةً، بَلْ يَتَضَمَّنُ كُلَّ مَا يُثِيرُ فَعَالِيَاتِهِ فِي اللَّعِبِ، وَالشَّعَانِ، وَالْحَرْبِ، وَالْإِنْتِاجِ
الْقَنِيِّ.

وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الدَّالَّةِ تَظْهَرُ لِلْهَمْجِي وَحْدَاتٍ مَعْرُوزَةٍ مُمَكَّنَةٍ أَمَامَ خَلْفِيَّةٍ
غَيْرِ مُمَيَّزَةٍ. وَحِينَ كُنْتُ أَتَحَرَّكُ بِصُحْبَةِ الْهَمْجِيِّينَ فِي أَيِّ وَسْطٍ طَبِيعِيٍّ - كَالْإِبْحَارِ
فِي الْبَحْرِ، أَوِ الْمَشْيِ عَلَى الشَّاطِئِ أَوْ فِي الْغَابَةِ، أَوِ النَّظَرِ فِي السَّمَاءِ الْمُضَاءَةِ
بِالنُّجُومِ - كَثِيرًا مَا كَانَ يُثِيرُ انْتِبَاهِي مِثْلُهُمْ إِلَى عَزَلِ الْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي تُهْمُهُمْ،
وَمُعَامَلَتِهِمْ مَا عَدَا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ خَلْقِيَّةٌ لَا غَيْرُ. فَقَدْ كَانَ يَلْفُظُ نَظْرِي فِي غَابَةِ نَبْتَةٍ
أَوْ شَجَرَةٍ، لَكِنْ حِينَ السُّؤَالِ عَنْهَا أَخْبِرَ بِالْقَوْلِ: 'أَه، إِنَّهَا مُجَرَّدُ شَجَرَةٍ.' فَمَا
لَا يُؤَدِّي دَوْرًا فِي الْعُرْفِ أَوْ التَّغْدِيَةِ مِنْ حَشَرَةٍ أَوْ طَائِرٍ يُطَرِّدُ بِالْقَوْلِ: 'Mauna'

'wala'- 'مُجَرَّدُ حَيَوَانٍ طَائِرٍ'. لَكِنْ إِنْ كَانَ الشَّيْءُ، عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ، نَافِعًا بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى اخْتِيرَ لَهُ اسْمٌ، وَقَدْ تَعْرِيفُ تَفْصِيلِيٌّ بِاسْتِعْمَالَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ، وَبِذَلِكَ يُفْرَدُ الشَّيْءُ بِوُضُوحٍ. وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يَحْدُثُ مَعَ النُّجُومِ، وَسِمَاتِ الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ، وَالْمُضَوِّيَّاتِ، وَالْأَسْمَاكِ، وَالْأَصْدَافِ. وَفِي كُلِّ مَكَانٍ نَمَّةٌ مِثْلُ إِلَى غَزَلٍ مَا يَتَّصِلُ بِغُرْفِ الْإِنْسَانِ، أَوْ شَعَائِرِهِ، أَوْ نَفْعِهِ، وَإِلَى جَعْلِ كُلِّ مَا عَدَاهُ كَوْمَةً غَيْرَ مُمَيَّزَةٍ. وَلَكِنْ حَتَّى فِي ضَمَنِ هَذَا الْمِثْلِ يُلْحَظُ تَفْصِيلٌ لِلْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ الْمَعْرُولَةِ السَّهْلَةِ الْمُعَالَجَةِ. وَإِنَّ اهْتِمَامَهُم بِالْحَيَوَانَاتِ أَكْبَرُ نَسْبًا مِنْ اهْتِمَامِهِم بِالنباتاتِ؛ وَبِالْقِشْرِيَّاتِ أَكْبَرُ مِنْهُ بِالْمُضَوِّيَّاتِ؛ وَبِالْحَشَرَاتِ الطَّائِرَةِ أَكْبَرُ مِنْهُ بِالزَّاحِفَةِ مِنْهَا. فَمَا يَسْهُلُ غَزْلُهُ يَكُونُ مُفْضَلًا. وَفِي الْمَنْظَرِ الطَّبِيعِيِّ كَثِيرًا مَا يُخْتَارُ لِلتَّفْصِيلَاتِ الصَّغِيرَةِ أَسْمَاءٌ وَنُجَعُ مَعَهَا التَّهَجُّ نَفْسُهُ، وَتَكُونُ مَثَارَ الْاهْتِمَامِ، فِي حِينِ تَظَلُّ امْتِدَادَاتٍ وَاسِعَةً مِنَ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ تَسْمِيَةٍ وَلَا إِفْرَادٍ.

وَيُسَكِّلُ اهْتِمَامُ الْبِدَائِيِّ الْبَالِغُ بِالْحَيَوَانَاتِ نَظِيرًا لِإِفْتَا لِلنَّظَرِ لِمَوْقِفِ الطُّفْلِ، وَإِنَّ الْأَسْبَابَ السَّايَكُولُوجِيَّةَ لِكُلَيْهِمَا مُتَشَابِهَةٌ عَلَى مَا أَعْتَقَدُ. وَفِي جَمِيعِ مَظَاهِرِ الطُّوَلَمِيَّةِ، وَعِبَادَةِ الْحَيَوَانِ، وَالتَّأَثِيرَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي مَا هُوَ بِدَائِيٌّ مِنْ ثَرَاتٍ شَعْبِيٍّ، وَاعْتِقَادَاتٍ، وَشَعَائِرٍ، يَجِدُ اهْتِمَامُ الْهَمَجِيِّ بِالْحَيَوَانَاتِ لَهُ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ.

فَلْنُعِدِ الْآنَ تَثْبِيَتَ طَبِيعَةِ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَضَعُ فِيهَا الْعَقْلُ الْبِدَائِيُّ الْأَشْخَاصَ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْأَشْيَاءَ. وَهَذِهِ الْفَصِيلَةُ الْمَجْهُ الْخَرَاءُ [331] غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ، لَكِنْ يُحَسُّ بِهَا بِقُوَّةٍ، وَيُعَبَّرُ عَنْهَا جَيِّدًا فِي السُّلُوكِ الْبَشَرِيِّ. وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَعَايِيرٍ انْتِقَائِيَّةٍ مِنَ النَّفْعِ الْبَايُولُوجِيِّ زِيَادَةً عَلَى أَغْرَاضٍ وَقِيمٍ أُخْرَى سَايَكُولُوجِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ. وَإِنَّ الْمَوْضِعَ الْمُمَيَّزَ الَّذِي يَشْغَلُهُ الْأَشْخَاصُ فِيهَا يُلَوِّنُهَا عَلَى نَحْوِ يَجْعَلُ الْأَشْيَاءَ وَالْحَيَوَانَاتِ تَدْخُلُ فِيهَا بِصِفَةِ تَشْخِصِيَّةٍ. وَكُلُّ فِقَرَاتِ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ تُفْرَدُ كَذَلِكَ، وَتُعَزَّلُ، وَتُعَامَلُ بِوَصْفِهَا وَحْدَاتٍ. وَتُعَزَّلُ النَّظَرَةُ الْعَمَلِيَّةُ لِلرَّجُلِ الْبِدَائِيِّ فَصِيلَةً مِنَ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُشَخَّصَةِ خَارِجَ نِطَاقِ الْخَلْفِيَّةِ غَيْرِ الْمُمَيَّزَةِ. وَيَتَضَعُ عَلَى الْفَوْرِ أَنَّ هَذِهِ الْفَصِيلَةَ تُطَابِقُ مَبْدِئًا الْجَوْهَرِ- وَلَا سِيَّمَا

الجَوْهَرُ الأَرِسْطِيّ Aristotelian ousia. لَكِنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا لَا تَدِينُ بِشَيْءِ الْبَتَّةِ لِأَيِّ فِكْرٍ فَلَسْفِيٍّ مُتَقَدِّمٍ أَوْ مُتَأَخِّرٍ. إِنَّهَا الرَّجْمُ الْفَجْجُ الْأَخْرَقُ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُسْتَخْرَجَ مِنْهُ مُخْتَلِفُ التَّصَوُّرَاتِ عَنِ الْجَوْهَرِ. وَالَّذِينَ يُفَضِّلُونَ التَّسْمِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةَ عَلَى الْبَسِيطَةِ مِنْهَا فِي وَسْعِهِمْ تَسْمِيَّتُهَا الْجَوْهَرَ الْأَوَّلِيَّ، أَوْ protousia.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْنَا أَنَّ نُشُوءَ الصَّوْتِ الدَّالِّ الْإِفْصَاحِيَّ يَأْتِي مُوَازِيًا لِمَوَاقِفِ الطِّفْلِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُبَكِّرَةِ، وَرُبَّمَا لِمَوَاقِفِ الْإِنْسَانِ فِي الْمَرَاجِلِ الْأُولَى مِنْ تَطَوُّرِهِ. وَإِنَّ فَصِيلَةَ الْجَوْهَرِ الْأَوَّلِيِّ الشَّدِيدَةَ الْوُضُوحِ فِي التَّوَجُّهِ الْعَقْلِيِّ الْمُبَكِّرِ تَقْتَضِي وَتَسْتَقْبِلُ أَصَوَاتًا إِفْصَاحِيَّةً لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُخْتَلِفِ فِقْرَاتِهَا. وَإِنَّ صِنْفَ الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ لِتَسْمِيَةِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُشْخَصَةِ يُشَكِّلُ فَصِيلَةً نَحْوِيَّةً بِدَائِيَّةً مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَحْضَةِ noun-substantives⁽⁴⁰⁾. وَبِذَلِكَ يُرَى هَذَا الْقِسْمُ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ مُتَجَذِّرًا فِي ضُرُوبِ السُّلُوكِ الْفَعَّالَةِ وَفِي الْإِسْتِعْمَالَاتِ الْفَعَّالَةِ لِلْكَلَامِ، وَمُلْحَظًا عِنْدَ الطِّفْلِ وَالْإِنْسَانِ الْهَمْجِيِّ، وَمُقْتَرَضًا عِنْدَ الْإِنْسَانِ الْبِدَائِيِّ.

وَلْتُعَالِجْ بَعْدَ ذَلِكَ، بِإِخْتِصَارٍ، الصَّنْفَ الْمُهِّمَ الثَّانِيَّ مِنَ الْكَلِمَاتِ - الْكَلِمَاتِ الْعَمَلِيَّةِ أَوْ الْأَفْعَالِ. إِذْ يَتَأَخَّرُ ظُهُورُ الْفَصِيلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي التَّوَجُّهِ الْعَقْلِيِّ لِلطِّفْلِ، وَتَكُونُ أَقْلَ عِلْبَةً فِي التَّوَجُّهِ الْعَقْلِيِّ لِلْإِنْسَانِ الْهَمْجِيِّ. وَبِوَافِقِ ذَلِكَ حَقِيقَةُ أَنَّ الْبِنْيَةَ النَّحْوِيَّةَ لِلْأَفْعَالِ أَقْلُ تَطَوُّرًا فِي لُغَاتِ الْهَمْجِيِّينَ. وَالْحَقُّ أَنَّ النَّشَاطَ الْبَشَرِيَّ يَتَرَكَّزُ حَوْلَ الْأَشْيَاءِ. وَيَعْيِي الطِّفْلُ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْيِيَ، الطَّعَامُ أَوِ الشَّخْصُ الْمُسَعِفُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَطِيعَ، أَوْ يَحْتَاجَ إِلَى، أَنْ يَقُلَّكَ الْفِعْلُ مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ يُصْبِحَ وَاعِيًا لِأَفْعَالِهِ الشَّخْصِيَّةِ. وَكَذَلِكَ يَكُونُ انْتِشَاقُ الْحَالَاتِ الْجَسَدِيَّةِ لِلطِّفْلِ مِنَ الْحَالِ أَقْلَ بِكَثِيرٍ مِنْ انْتِشَاقِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدْخُلُ فِيهَا. وَبِذَلِكَ لَا يُمَكِّنُنَا الْوُقُوفُ عَلَى فَكِّ الطِّفْلِ التَّعْمِيرَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي بَيْتِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَغَيَّرُ إِلَّا فِي مَرَحَلَةٍ لَا حِقَّةَ

(40) يُعَدُّ الـ substantive فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْفَصِيلَةَ الْأَسْمِيَّةَ الْوَاسِعَةَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَشَعَّلَهَا الْأِسْمُ، أَوْ مَا يُؤَدِّي وَظِيفَةَ الْأِسْمِ مِنْ ضَمِيرٍ أَوْ صِفَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتٍ أَوْ عِبَارَاتٍ تَعْمَلُ عَمَلُ الْأِسْمِ. لِذَلِكَ ظَهَرَ مُصْطَلَحُ «الْأِسْمِ الْمَحْضِ noun-substantive» لِيُعَبِّرَ عَنِ الْفَصِيلَةِ الْأَسْمِيَّةِ الَّتِي يَشَعَّلُهَا الْأِسْمُ لَا غَيْرُهُ. [المُتَرَجِّمُ]

مِنْ مَرَاكِجِ تَطَوُّرِهِ. وَيَحْدُثُ هَذَا فِي مَرَحَلَةٍ يَبْدَأُ الطِّفْلُ فِيهَا بِاسْتِعْمَالِ الْأَصْوَاتِ الْإِفْصَاحِيَّةِ. إِذْ يَبْدَأُ بِالتَّعْبِيرِ عَنْ نَشَاطَاتٍ كَالْأَكْلِ، وَالشَّرْبِ، وَالِاسْتِرَاحَةِ، وَالْمَشْيِ؛ وَعَنْ حَالَاتٍ جَسَدِيَّةٍ كَالنُّوْمِ، وَالْجُوعِ، وَالرَّاحَةِ؛ وَعَنْ أَمْرَجَةٍ كَالْحُبِّ وَالْكُرْهِ. [332] وَنَحْنُ أَنْ نَقُولَ عَنْ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ مِنَ النَّشَاطِ، وَالْحَالَةِ، وَالْمَزَاجِ إِنَّهَا تُسَلِّمُ نَفْسَهَا لِلْأَمْرِ وَكَذَلِكَ لِلْإِشَارَةِ أَوْ لِلْوَصْفِ، وَإِنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِعُنْصُرِ التَّغْيِيرِ، أَيْ الزَّمَنِ، وَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَى صِلَةٍ وَثِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِشَخْصِي الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُسْتَمِعِ. وَنَحْنُ أَنْ نُلْخِظَ خَصَائِصَ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ أَنْفُسَهَا فِي نَظَرَةِ الْهَمَجِيِّينَ؛ إِذْ يُبْدُونَ اهْتِمَامًا كَبِيرًا بِكُلِّ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي تَعُودُ إِلَى الْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ، وَبِأَطْوَارِ النَّشَاطِ الْبَشَرِيِّ وَأَنْمَاطِهِ، وَبِحَالَاتِ الْجَسَدِ الْبَشَرِيِّ وَالْأَمْرَجَةِ الْبَشَرِيَّةِ. وَتُتَبَيَّنُ لَنَا هَذِهِ الْإِشَارَةُ الْمُخْتَصَرَةُ أَنْ تُبَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّ الْمَرَاكِجَ الْبِدَائِيَّةَ مِنَ الْكَلَامِ الْبَشَرِيِّ كَانَتْ قَدْ شَهِدَتْ وُجُودَ فَصِيلَةٍ وَاقِعِيَّةٍ دَخَلَتْ فِيهَا جَمِيعُ فِقَرَاتِ التَّغْيِيرِ الْقَابِلَةِ لِلتَّعْدِيلِ الْعَرَضِيِّ، حَامِلَةً خَصِيصَةَ الْمَزَاجِ الْبَشَرِيِّ وَالْإِرَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمُتَّصِلَةً أَتْصَالًا غَيْرَ مُنْقَطِعٍ بِالنَّشَاطِ الشَّخْصِيِّ لِلْإِنْسَانِ.

وَحِينَ نَنْظُرُ إِلَى صِنْفِ الْكَلِمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى فِقَرَاتِ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ نَجِدُ تَنَاطُرًا كَبِيرًا بَيْنَ الْفَصِيلَةِ وَالْقِسْمِ الْمُعَيَّنِ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ. فَالْكَلِمَةُ الْعَمَلِيَّةُ، أَوْ الْفِعْلُ، قَابِلَةٌ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ لِلتَّعْدِيلَاتِ النَّحْوِيَّةِ الْمُعَبَّرَةِ عَمَّا هُوَ عَرَضِيٌّ مِنْ عِلَاقَةٍ أَوْ أَمْرَجَةٍ أَوْ مَنَاحٍ فِي الْقَوْلِ، وَيَرْتَبِطُ الْفِعْلُ كَذَلِكَ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالضَّمَائِرِ، وَهِيَ صِنْفٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ يُنَاطَرُ فَصِيلَةٌ وَاقِعِيَّةٌ أُخْرَى.

وَلَا بُدَّ مِنْ كَلِمَةٍ بِشَأْنِ الضَّمَائِرِ. إِذْ مَا الْفَصِيلَةُ الْوَاقِعِيَّةُ لِلسُّلُوكِ الْبَشَرِيِّ الْبِدَائِيَّ وَالْعَادَاتِ الْكَلَامِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ الَّتِي تُنَاطَرُ صِنْفُ الْكَلِمَاتِ الصَّغِيرِ الْحَجْمِ وَالشَّدِيدِ الْحَيَوِيَّةِ؟ مَعْلُومٌ أَنَّ الْكَلَامَ هُوَ أَحَدُ الصُّرُوبِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلنَّشَاطِ الْإِنْسَانِيِّ، لِذَلِكَ كَانَ فَاعِلُ الْكَلَامِ، أَيْ الْمُتَكَلِّمُ، يَقِفُ مَوْقِفَ الْمُتَصَدِّرِ فِي الرُّؤْيَةِ الْبِرَاغِمَاتِيَّةِ لِلْعَالَمِ. وَمَرَّةً أُخْرَى، لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ مُرْتَبِطًا بِالسُّلُوكِ الْجَمَاعِيِّ كَانَ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُحِيلَ دَوْمًا عَلَى الْمُسْتَمِعِ أَوْ الْمُسْتَمِيعِينَ. فَبِذَلِكَ يَحْتَلُّ الْمُتَكَلِّمُ وَالْمُسْتَمِعُ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ، الْمَوْقِعَيْنِ الرَّكْنِيَّيْنِ الْأَسَاسِيَّيْنِ فِي مَنْظُورِ الْمُقَارَبَةِ اللَّغَوِيَّةِ. يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ صِنْفٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ خَاصٌّ وَمَحْدُودٌ جِدًّا يُنَاطَرُ فَصِيلَةٌ

وَأَقِيعَةً مُسْتَعْمَلَةً عَلَى الدَّوَامِ وَسَهْلَةً الرِّبْطِ بِالكَلِمَاتِ الْعَمَلِيَّةِ، لَكِنَّهَا مُشَابِهَةٌ فِي طَبِيعَتِهَا التَّحْوِيَّةِ لِلْأَسْمَاءِ - وَهِيَ الْقِسْمُ الْكَلَامِيُّ الَّذِي يُدْعَى الضَّمَانَرِ وَالَّذِي لَا يَتَّصِفُ إِلَّا بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ لَكِنَّهَا كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَهِيَ فِي الْعَادَةِ كَلِمَاتٌ قَصِيرَةٌ طَبِيعَةً تَظْهَرُ مُرْتَبِطَةٌ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالأَفْعَالِ، لَكِنْ عَمَلُهَا قَرِيبٌ مِنْ عَمَلِ الْأَسْمَاءِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا الْقِسْمَ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلَامِ يُنَاطِرُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ فَصِيلَتُهُ الْوَاقِعِيَّةُ. وَيُمْكِنُ تَتَبُّعُ هَذَا التَّنَاطُرِ فِي تَفْصِيْلَاتٍ أُخْرَى أَكْثَرُ إِثَارَةً لِلْاهْتِمَامِ - كَالْمَوْضِعِ الْخَاصِّ غَيْرِ التَّمَاثُلِيِّ لِضَمِيرِ الشَّخْصِ الْغَائِبِ، وَمُشْكَلَةُ الْأَجْنَاسِ وَالْأَدَوَاتِ التَّصْنِيفِيَّةِ *classificatory particles*⁽⁴¹⁾، الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ فِي الشَّخْصِ الْغَائِبِ⁽⁴²⁾. [333]

عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ نُقْطَةٍ يَنْبَغِي لَنَا بَعْدُ أَنْ نَعْرِجَ عَلَيْهَا تَتَعَلَّقُ بِخَصِيصَةٍ مُشْتَرَكَةٍ فِي الْأَسْمَاءِ وَالضَّمَانَرِ، وَتُعَالِجُ تَصْرِيفَ مُخْتَلِفِ حَالَاتِ الْاسْمِ. وَالْفَصِيلَةُ الْوَاقِعِيَّةُ لِهَذِهِ الْأَخِيرَةِ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْوَحْدَاتِ الْمُشَخَّصَةِ لِلْبَيْتَةِ. وَالْمَوْقِفُ الْأَوَّلُ مِنْ فِقَرَاتِ هَذِهِ الْفَصِيلَةِ عِنْدَ الطِّفْلِ هُوَ التَّمْيِيزُ الْمُسْتَنِدُ إِلَى التَّفْعِ الْبَابُولُوجِيِّ وَإِلَى مُتَعَةِ إِدْرَاكِهَا. وَتَحْتَفِي بِهَا الطِّفْلُ الرِّضِيعُ مِنْ خِلَالِ أَصْوَاتٍ دَالَّةٍ، أَوْ يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ بِكَلِمَاتٍ إِفْصَاحِيَّةٍ عِنْدَ ظُهُورِهَا، وَيُنَادِي عَلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ. وَبِذَلِكَ تُخَضَّعُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ، أَيِ الْأَسْمَاءُ، لَاسْتِعْمَالٍ مُحَدَّدٍ هُوَ التَّسْمِيَّةُ وَالْمُنَادَاةُ. وَيُنَاطِرُ ذَلِكَ صِنْفٌ ثَانَوِيٌّ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَحْضَةِ يُمْكِنُ أَنْ يُدْعَى حَالَةَ الْاسْمِ الْعَامِّ *appellative*

(41) اللُّغَاتُ التَّصْنِيفِيَّةُ: هِيَ اللُّغَاتُ الَّتِي تُضَيَّفُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ أَدَاءٌ زَائِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى نَوْعِ الْكَلِمَةِ. وَيَنْطَبِقُ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى مَجْمُوعَةِ لُغَاتِ الْبَاتُو الَّتِي تُضَيَّفُ سَابِقَةً إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَوْعِهَا. [الْمُتَرْجِمُ]

(42) تُنَظَرُ مَقَالَةٌ كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ بِشَأْنِ 'الْأَدَوَاتِ التَّصْنِيفِيَّةِ' *Classificatory Particles* فِي

دُورِيَّةِ *Bulletin of Oriental Studies*, Vol. II.

لِإِشِيرِ الْكَاتِبِ إِلَى الْحَالَةِ غَيْرِ التَّمَاثُلِيَّةِ لِضَمِيرِ الشَّخْصِ الْغَائِبِ فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ بِانْصِرَافِهِ إِذَا إِلَى الْمَذْكَرِ *he* وَإِنَّمَا إِلَى الْمَوْثَبِ *she*، فِي حِينِ أَنَّ الضَّمِيرَ فِيهَا يَكُونُ تَمَاثُلِيًّا عِنْدَ اسْتِعْمَالِهِ لِلْمُتَكَلِّمِ بِجِنْسِيهِ الْمَذْكَرِ وَالْمَوْثَبِ *I*، وَلِلْمُخَاطَبِ بِجِنْسِيهِ الْمَذْكَرِ وَالْمَوْثَبِ *you*. [الْمُتَرْجِمُ]

case⁽⁴³⁾، وهو يُشبهُ بعضَ استِعمالَاتِ النَّداءِ والرَّفْعِ في التَّصْرِيفِ الْهِنْدُوأُورُوبِيِّ.

ويُصْبِحُ هذا في الاستِعمالَاتِ اللَّغَوِيَّةِ التي هي أَكْثَرُ تَطَوُّراً إِضافةً عَمَلِيَّةً أَكْثَرُ فَعَالِيَّةً. إِذْ تَدْخُلُ الْكَلِمَةُ الشَّيْئَةُ في ارتباطٍ أَكْثَرُ وثَاقَةً مَعَ الْكَلِمَةِ الْعَمَلِيَّةِ. فيُسَمَّى الْأَشْخَاصُ بِأَسْمَائِهِمْ أو بِتَسْمِيَّاتٍ صَمِيرِيَّةٍ مُرْتَبِطَةٍ بِمَا يَقَعْلُونَهُ: 'أَنَا أَذْهَبُ'، أو 'أَنْتَ تَأْتِي'، أو 'فُلَانٌ يَشْرَبُ'، أو 'حَيَوَانٌ يَرْكُضُ'، وما إلى ذلك. وبِذلكِ يُسْتَعْمَلُ اسْمُ الشَّخْصِ أو الشَّيْءِ الْمُشْخَصِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وبِوَجْهِ مُخْتَلِفٍ لِلْمَعْنَى بِوَصْفِهِ فَاعِلاً، أو بِوَصْفِهِ فَاعِلاً لِلْحَدِثِ بِالمَعْنَى الاصْطِلَاحِيَّةِ. وهذا هو الاستِعمالُ الْمُنَاطِرُ لِحالَةِ الفاعِلِيَّةِ التي يُوَضَّعُ فيها الاسمُ على الدَّوامِ بِوَصْفِهِ فاعِلَ الْإِسْنَادِ. ويُمكنُ أَنْ يُقالَ إِنَّ ثَمَّةَ صِنْفًا مِنَ الصَّمَانِرِ، هي الصَّمَانِرُ الشَّخْصِيَّةُ: أَنَا، وَأَنْتَ، وَهُوَ، يُنَاطِرُ هذه الحالةَ في الْأَسْمَاءِ.

وَيُنْفَذُ الْعَمَلُ مُتَّصِلاً بِأَشْيَاءَ مُعَيَّنَةٍ. إِذْ تُعالِجُ أَشْيَاءَ وَأَشْخَاصَ. فَتَظْهَرُ أَسْمَاءُ هذه الْأَشْيَاءِ وهؤلاءِ الْأَشْخَاصِ، حِينَ تَرْتَبِطُ بِكَلِمَةٍ عَمَلِيَّةٍ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ، في حالةِ الْمَفْعُولِيَّةِ، وتُسْتَعْمَلُ الصَّمَانِرُ في هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، أي ما يُدْعَى الصَّمَانِرُ الْمَفْعُولِيَّةُ أو الانْعِكَاسِيَّةُ objective or reflexive.

وما دَامَتِ اللَّغَةُ ضَارِبَةً بِأَطْنَابِهَا في الْاهْتِمَامِ الْعَمَلِيِّ لِلْإِنْسَانِ بِالْأَشْيَاءِ وَالْأَشْخَاصِ فَثَمَّةُ عِلَاقَةٌ أُخْرَى ذاتُ أَهْمِيَّةٍ أَساسِيَّةٍ، هي التي في وَسْعِ الشَّخْصِ أَنْ يَعْرضَ فيها ادِّعاءٌ مُحدِّداً لِعِلَاقَةٍ بِشَخْصٍ آخَرَ أو بِشَيْءٍ آخَرَ، أو لِاسْتِحْوَازِ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ أو على شَيْءٍ آخَرَ. فِبِاعتِبَارِ أَقْرَبِ النَّاسِ في الْبَيْتَةِ تُوجَدُ أَوَاصِرُ النَّسَبِ وَالصَّدَاقَةِ. وبِاعتِبَارِ الْأَشْيَاءِ تَظْهَرُ عَاطِفَةُ التَّمَلُّكِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ. وَالْعِلَاقَةُ بَيْنَ اسْمَيْنِ يَتَعَلَّقُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ كما يُنسَبُ شَيْءٌ أو شَخْصٌ إلى شَيْءٍ آخَرَ أو إلى شَخْصٍ آخَرَ، أو كما يَمْلِكُ شَيْئاً أو شَخْصاً شَيْءٌ آخَرَ أو شَخْصٌ آخَرَ، يُمكنُ أَنْ تُدْعَى عِلَاقَةُ الْإِضاْفَةِ أو التَّمَلُّكِ، ويُمكنُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا في جَمِيعِ لُغَاتِ الْبَشَرِ

(43) الاسمُ العامُّ appellative: هو اسمٌ يَدُلُّ على الْفَرْدِ أو أَمْنَالِهِ، مثْلُ tree, boy. وَيُسَمَّى أَيْضاً في الْإِنْجِلِيزِيَّةِ common noun. [المُترجم]

يُوصِفُهَا مَنْحَى وَاضِحًا لِلرِّبْطِ بَيْنَ اسْمَيْنِ. وَتُطَابِقُ هَذِهِ الْحَالَةُ كَذَلِكَ حَالَةَ الْإِضَافَةِ فِي اللُّغَاتِ الْأَوْرُبِيَّةِ فِي أَكْثَرِ اسْتِعْمَالَاتِهَا تَمَيُّزًا. وَإِذَا مَا عُدْنَا إِلَى الصَّمَاثِرِ مَرَّةً أُخْرَى فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا صِنْفًا خَاصًّا مِنْ صَمَاثِرِ التَّمْلِكِ الَّتِي تُعَبَّرُ عَنِ الْعَلَاقَةِ. [334]

وَأَخِيرًا يَتَمَيَّزُ مِنْ بَيْنِ الضُّرُوبِ الْعَمَلِيَّةِ ضَرْبُ عَمَلِيٍّ مُعَيَّنٍ تَجَاهَ الْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ فِي الْخَارِجِ، وَهُوَ الَّذِي تُحَدِّدُهُ الْحَيَاثَاتُ الْمَكَائِيَّةُ. وَمِنْ غَيْرِ مَزِيدِ خَوْصٍ فِي تَفْصِيلِ هَذَا الْمَوْضُوعِ اقْتَرَحُ إِمْكَانَ افْتِرَاضِ صِنْفٍ ثَانَوِيٍّ مُحَدَّدٍ مِنَ الْاسْتِعْمَالَاتِ الْاسْمِيَّةِ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ - وَهُوَ الَّذِي يُنَاطِرُ حَالَةَ الْجَرِّ.

وَمِنِ الْوَاضِحِ أَنَّ ثَمَّةَ فَصَائِلَ أُخْرَى يُؤَلِّدُهَا الْمَوْقِفُ النَّفْعِيُّ لِلْإِنْسَانِ، تَتَعَلَّقُ بِنُحُوتِ الشَّيْءِ وَصِفَاتِهِ، وَمُمَيِّزَاتِ الْحَدِثِ، وَالْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَالْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَحْوَالِ، وَمِنِ الْمُمْكِنِ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ الصِّفَةَ، وَالظَّرْفَ، وَحَرْفَ الْجَرِّ، وَأَدَاءَ الْعَطْفِ، تَسْتَنِدُّ إِلَى هَذِهِ الْفَصَائِلِ الْوَاقِعِيَّةِ. وَبِاسْتِمْرَارِنَا فِي مُعَالَجَةِ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ دَلَالِيًا مِنْ جِهَةٍ وَالسَّمَاتِ الْبِنَائِيَّةِ لِللُّغَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يُمَكِّنُ كَذَلِكَ أَنْ نَتَابَعَ لِنُقَسِّرَ هَذِهِ الْأَخِيرَةَ بِالْإِحَالَةِ عَلَى الْوَقَائِعِ الْوَاقِعِيَّةِ لِلطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْبِدَائِيَّةِ.

عَلَى أَنَّ هَذَا الْعَرْضَ الْمَوْجَزَ كَافٍ لِلإِشَارَةِ إِلَى الْمَنْهَجِ وَالْحِجَاجِ اللَّذَيْنِ امْكُنَ بِهِمَا تَأْسِيسُ عِلْمٍ دَلَالَةٍ نُشَوْنِي بِدَائِيٍّ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - عِلْمٍ يُبَيِّنُ الطَّبِيعَةَ الْوَاقِعِيَّةَ لِلْفَصَائِلِ النَّحْوِيَّةِ بِالْإِحَالَةِ عَلَى الْمَوْقِفِ الْبِدَائِيِّ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْوَقَائِعِ. وَإِنِّي لَأَعْتَقِدُ أَنَّ نَتَائِجَ عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْبِدَائِيِّ هَذَا، حَتَّى بِالْقَدْرِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا بِهِ، وَثِيقَةُ الصِّلَةِ بِالنَّتَائِجِ الَّتِي تَوْصَلَ إِلَيْهَا أَوْغِدِنَ وَرِثَارْدَز. فَمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ الْمَوْقِفَ الزَّائِفَ مِنَ اللُّغَةِ وَوُظَائِفَهَا يُمَثَّلُ إِحْدَى الْعَقَبَاتِ الرَّئِيسَةِ فِي طَرِيقِ تَقَدُّمِ الْفِكْرِ الْفَلَسَفِيِّ وَالتَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ، وَفِي طَرِيقِ النُّمُوِّ الْمُتَوَاصِلِ لِلْاسْتِعْمَالَاتِ الْعَمَلِيَّةِ لِللُّغَةِ فِي الصَّحَافَةِ، وَالْكِتَابَةِ الْقَصِيرَةِ، وَالرَّوَايَةِ. وَقَدْ حَاوَلْتُ فِي هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْبَحْثِ وَفِي سَابِقِهِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ الْفَجِّ وَغَيْرِ السَّلِيمِ مِنَ اللُّغَةِ وَالْمَعْنَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا. وَحَاوَلْتُ أَنْ أَظْهَرَ بِوُضُوحٍ كَيْفِيَّةَ نُشُوئِهِ وَسَبَبَ اسْتِمْرَارِهِ، بَلْ إِنِّي لِأَحَاوِلُ تَتَبِعَ آثَارِهِ فِي تَفْصِيلَاتِ الْبَيِّنَةِ النَّحْوِيَّةِ.

بَقِيَ لَدَيْنَا أَمْرٌ وَاحِدٌ نَذْكُرُهُ. فَقَدْ حَدَّثَ فِي الْعَمَلِيَّاتِ الْمُتَأَخِّرَةِ لِلْاسْتِعْمَالِ

والتَّفَكُّيرِ اللَّغَوِيَّيْنِ تَحْوِيلٌ غَيْرُ مُمَيَّزٍ وَمُجْمَلٌ لِلْجُذُورِ وَالْمَعَانِي مِنْ فَصِيلَةٍ نَحْوِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى. فَاسْتِنَادًا إِلَى وَجْهَةٍ نَظَرِنَا بِشَأْنِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْبِدَائِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ جَذَرٍ دَالٌّ مَوْضِعُهُ أَصْلًا، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَوْضِعًا وَاحِدًا فَقَطْ، فِي فَصِيلَتِهِ اللَّفْظِيَّةِ الْمُلَاتِمَةِ. فَبِذَلِكَ تَكُونُ الْجُذُورُ الَّتِي تَعْنِي 'رَجُلًا'، وَ'حَيَوَانًا'، وَ'شَجَرَةً'، وَ'حَجَرًا'، وَ'مَاءً'، جُذُورًا اسْمِيَّةً أَسَاسًا. أَمَّا الْجُذُورُ الَّتِي تَعْنِي 'يَنَامُ'، وَ'يَأْكُلُ'، وَ'يَذْهَبُ'، وَ'يَأْتِي'، وَ'يَسْقُطُ'، فَفِعْلِيَّةٌ. لَكِنْ يَتَطَوَّرُ اللَّغَةُ وَالْفِكْرُ بِنَبْيِ النَّشَاطِ الذَّائِبِ لِلِاسْتِعَارَةِ، وَالتَّعْمِيمِ، وَالْقِيَاسِ، وَالتَّجْرِيدِ، وَالِاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيَّةِ الْمُشَابِهَةِ أَوْاصِرَ بَيْنَ الْفَصَائِلِ وَيَمْحُو الْخُطُوطَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَهَا، مُتَبَحًا بِذَلِكَ لِلْكَلِمَاتِ وَ[335] الْجُذُورِ حُرِّيَّةَ الْحَرَكَةِ فِي جَمِيعِ مَيَادِينِ اللَّغَةِ. وَأَشَدُّ مَا تَنْضَحُ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ الْكَلِمَةُ الْحُضُورِ لِلْجُذُورِ فِي اللُّغَاتِ التَّحْلِيلِيَّةِ، كَالصِّينِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، لَكِنْ يُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا حَتَّى فِي أَشَدِّ اللُّغَاتِ بِدَائِيَّةً.

وَقَدْ أَوْضَحَ السَّيِّدَانِ أَوْغِدِن وَرِتْشَارْدز بِطَرِيقَةٍ فَائِقَةٍ الْإِقْنَاعَ الْإِلْحَاحَ الْمُفْرَطَ لِلْمُغَالَطَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ شَاهِدَةٌ عَلَى مَا لِمَعْنَاهَا الدَّائِيَّةِ مِنْ وَاقِعٍ أَوْ مُتَضَمِّنَةٍ لَهُ. وَثَمَّةَ لَمَحَةٍ مُتَوَارِيَّةٍ خَلْفَ الْمَشَاهِدِ الْبِدَائِيَّةِ لِتَكْوِينِ الْجُذُورِ، وَخَلْفَ وَاقِعِيَّةِ الْفَصَائِلِ الْبِدَائِيَّةِ وَانْهَارِهَا الْمَاكِرِ الْإِلْحَاحِ، تُقَدِّمُ وَثِيقَةً إِضَافِيَّةً مُهِمَّةً تُعَزِّزُ آرَاءَ الْمُؤَلِّفَيْنِ. وَقَدْ أَكْسَبَتْ هَجْرَةَ الْجُذُورِ إِلَى أَمَاكِنَ غَيْرِ مُلَاتِمَةٍ الْوَاقِعَ الْخَيَالِيَّ لِلْمَعْنَى الَّذِي أَضْفِي عَلَيْهِ طَابَعٌ مَادِّيٌّ تَمَاسُكًا ذَاتِيًّا. فَمَا دَامَتِ التَّجَرِبَةُ الْمُبَكَّرَةُ تُثَبِّتُ الْوُجُودَ الْاسْمِيَّ لِأَيِّ شَيْءٍ يُوْجَدُ فِي فَصِيلَةِ الْجَوْهَرِ الْأَوَّلِيِّ أَوْ الـ Protousia، وَالتَّحْوِيلَاتِ اللَّغَوِيَّةِ الْإِلْحَاحَةِ تَوَلَّدَ هُنَاكَ جُذُورًا مِثْلَ 'ذَهَابٍ' وَ'رَاحَةٍ'، وَ'حَرَكَةٍ'، وَمَا إِلَى ذَلِكَ، فَالِاسْتِنْتَاجُ الْوَاضِحُ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْكِيَانَاتِ أَوْ الْأَفْكَارَ التَّجْرِيدِيَّةَ تَعِيشُ فِي عَالَمٍ وَاقِعِيٍّ خَاصٍّ بِهَا. وَالصِّفَاتُ غَيْرُ الصَّارَةِ مِثْلُ 'حَسَنٍ'، أَوْ 'سَيِّئٍ'، الَّتِي تُعَبَّرُ عَنِ الرِّضَا بِصِفِ الْحَيَوَانِيِّ لِلْمَهْمَجِيِّ فِي حَالٍ مَا أَوْ عَدَمِ رِضَاهُ، فَتَدْخُلُ مِنْ ثَمَّ غَنَوَةً إِلَى الْحَظِيرَةِ الْمَحْجُوزَةِ لِلْقَوَالِبِ الْخَرَقَاءِ الْمَصُوعَةِ عَلَى نَحْوِ مَبْدَثِي، الْخَاصَّةِ بِالمَادَّةِ الْبِدَائِيَّةِ، تُحَوَّلُ إِلَى 'حُسْنٍ'، وَ'سُوءٍ'، وَتَخْلُقُ عَوَالِمَ دِينِيَّةً مُتَكَامِلَةً، وَأَنْظِمَةً فِكْرِيَّةً وَدِينِيَّةً. وَلَا شَكَّ فِي أَنَا يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ نَظَرِيَّةَ أَوْغِدِن وَرِتْشَارْدز وَوَجْهَةَ النَّظَرِ الْمُبْدَأَةَ هُنَا تَنْبَيَّانِ بِالْحَاحِ

كَبِيرٌ أَنَّ اللُّغَةَ وَجَمِيعَ الْعَمَلِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ لَا تَسْتَمِدُّ سُلْطَتَهَا إِلَّا مِنْ عَمَلِيَّاتٍ وَاقِعِيَّةٍ تَحْدُثُ فِي إِطَارِ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِبَيْتِهِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنِّي سِوَى أَنْ عَرَّجْتُ عَلَى مَسْأَلَةِ التَّحْوِيلَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَمِنْ الصَّرُورِيِّ تَقْدِيمُ تَفْسِيرٍ لَهَا مِنْ خِلَالِ الْعَمَلِيَّاتِ السَّايَكُولُوجِيَّةِ وَالسَّوسِيُولُوجِيَّةِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَرَبَرِيَّةِ وَشِبْهِ الْمُتَحَضَّرَةِ، تَمَامًا كَمَا قَدَّمْنَا تَفْسِيرًا لِلْسَّانِيَّاتِ الْبِدَائِيَّةِ بِتَحْلِيلِ عَقْلِ الْإِنْسَانِ الْبِدَائِيِّ - وَكَمَا يُقَدَّمُ مُؤَلَّفًا هَذَا الْكِتَابِ تَفْسِيرًا لِفَضَائِلِ لُغَةِ الْيَوْمِ وَنَقَائِصِهَا بِتَحْلِيلِهَا الْبَارِعِ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ عُمُومًا. [336]

المُلْحَقُ الثَّانِي

أَهْمِيَّةُ وُجُودِ نَظَرِيَّةٍ لِلْعَلَامَاتِ وَنَقْدِ لِلُّغَةِ

فِي دِرَاسَةِ الطَّبِّ

بِقَلَمِ كُروكشانك

F. G. Crookshank, M.D., F.R.C.P

على الرَّغْمِ مِنَ التَّقَدُّمِ الْكَبِيرِ الَّذِي حَقَّقَهُ فَنَّ الطَّبِّ فِي مَنَاحٍ كَثِيرَةٍ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِفَادَةِ مُمَارِسِي هَذَا الْفَنِّ الْوَاسِعَةِ مِنَ الْخَزِينِ الْهَائِلِ لِلْوَقَائِعِ الَّتِي تُدْعَى وَقَائِعَ عِلْمِيَّةٍ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ النَّفْعِ الْعَمِيمِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ الْمُعَذَّبَةِ؛ وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَطِبَّاءَ لَدَيْنِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْإِطْلَاعِ عَلَى عُلُومٍ مُعَيَّنَةٍ لَهَا حُدُودٌ تَشْتَرِكُ جُزْئِيًّا مَعَ فَنِّ الطَّبِّ، لَمْ يَغْدُ لَدَيْنَا الْيَوْمَ أَيُّ عِلْمٍ لِلطَّبِّ بِالْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّةِ.

صَحِيحٌ أَنَّ الْمُلَاحَظَةَ وَالْفِكْرَ قَادَا الْأَطِبَّاءَ إِلَى تَكْوِينِ تَعْمِيمَاتٍ حَظِيثٍ بِالْقَبُولِ، لَكِنْ لَمْ يَغْدُ ثَمَّةَ وُجُودٍ لِمُدَوَّنَةٍ نِظَامِيَّةٍ أَوْ مَنَهْجِيَّةٍ، أَوْ نَظَرِيَّةٍ مَصُوغَةٍ، يُمَكِّنُ تَبَيُّنَهَا مِنْ أَجْلِ إِرْسَاءِ دَعَائِمِ عِلْمِ الطَّبِّ، وَ(بِالتَّعْبِيرِ الْمَهْجُورِ الْيَوْمَ) إِنْشَاءِ قِسْمٍ تَكْمِيلِيٍّ لِلْفَلَسَفَةِ الطَّبِّيَّةِ.

وَسَبَبُ قَوْلِي 'لَمْ يَغْدُ' أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي أَنْ وُجِدَ عِلْمٌ لِلطَّبِّ (أَوْ لِلشِّفَاءِ) كَهَذَا، مَهْمَا يَكُنْ مِنْ حَاجِمٍ وَمَشْرُوعِيَّةٍ لِإِزْدِرَائِنَا لِـ'الْوَقَائِعِ'، وَالتَّعْمِيمَاتِ، وَالنَّظَرِيَّةِ، الَّتِي بُنِيَ عَلَى أَسَاسِهَا فِي أَزْمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَالْيَوْمَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَفَرَةٍ مَا نُسَمِّيهِ وَقَائِعَنَا الْمُلَاحَظَةَ بِدِقَّةٍ، وَتَكَامُلٍ مَنَاجِيْنَا الْعِلْمِيَّةِ، يَجْدُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ وَيُحَاضِرُونَ فِي الطَّبِّ ضَرُورَةَ إِطْلَاقِ صَرَخَةٍ احْتِجَاجِيَّةٍ مَفَادُهَا أَنَّ الطَّبِّ لَيْسَ أَحَدَ الْعُلُومِ الْمُنضَبِطَةِ وَلَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ الْبَتَّةَ.

وَرُبَّمَا لَا يَقِفُ أَسَاتِذَةُ الطَّبِّ وَمُمَارِسُوهُ عَلَى الدَّوَامِ لِيَتَفَكَّرُوا: مَا الْعِلْمُ الْمُنْضَبِطُ، وَأَيُّ الْعُلُومِ مُنْضَبِطَةٌ، وَلِمَ كَانَتْ كَذَلِكَ؟ لَكِنَّ الْاِحْتِجَاجَ يَبْدُو ذَرِيعَةً لِإِعْفَاءٍ مَنْ يَكْتُبُونَ فِي الطَّبِّ مِنْ وَاجِبِي تَعْرِيفِ مُصْطَلَحَاتِهِمْ، وَتَثْبِيتِ مُقَدِّمَاتِهِمِ الْمَنْطِيقِيَّةِ، فِي حِينٍ أَنَا نُنْزَعُ، لُزُومًا، لِنَقْبَلِ الْاِسْتِنْتَاجَ الَّذِي مَفَادُهُ أَنَّ الْوَقَائِعَ الْمُتَرَاكِمَةَ وَالتَّعْميمَاتِ الْمَقْبُولَةَ الَّتِي هِيَ مَحْطُ اِهْتِمَامِ الْأَطِبَّاءِ لَيْسَ بَيْنَهَا [337] تَعَالُقٌ أَوْ تَوَاقُفٌ، لِذَا لَا يُمكنُ تَرْبِيئُهَا عَلَى وَفْقِ أَيِّ أُسْلُوبٍ تَنْظِيمِيٍّ، أَوْ رِبْطُهَا مَعًا مِنْ خِلَالِ آيَةٍ نَظَرِيَّةٍ عَامَّةٍ، كَمَا هِيَ الْحَالُ مَعَ تِلْكَ الَّتِي يُعَالِجُهَا الْفَلَائِكِيُّونَ، وَالْكِيمِيائِيُّونَ، وَعُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ عَالَمَ الطَّبِّ يَبْدُو بِذَلِكَ أَنَّهُ يُنْشِئُ نَوْعًا مِنَ الْأَلْسَاشِيَا Alsatia⁽¹⁾، أَيْ الْمُقَاطَعَةِ الْمُحَاطَةِ بِأَرْضٍ أَجْنَبِيَّةٍ فِي الْكُونِ، الَّتِي لَا يُسَمَحُ بِاسْتِغْلَالِهَا إِلَّا لِقَلِيلٍ مِنَ الْمُجَازِينَ.

هُنَا يَكْمُنُ أَغْلَبُ مَا يَبْعَثُ عَلَى الْاِهْتِمَامِ، وَلَيْسَ مِمَّا يُثِيرُ الْاِمْتِعَاضَ وَلَا الْفُضُولَ عَدَمُ كَوْنِ الطَّبِّ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَقُودُ مُلَاحَقَتَهَا إِلَى دَرَجَةِ الدُّكُورَاهِ فِي الْعِلْمِ، وَأَنَّ ثَمَّةَ فَجْوَةٍ وَاسِعَةٍ رَاسِخَةً بَيْنَ الدَّرَاسَاتِ 'الْعِلْمِيَّةِ' وَ'الطَّبِّيَّةِ' الَّتِي يَصْطَلِحُ بِهَا كُلُّ مِنَ الطَّبِيبِ وَالْجَرَّاحِ النَّاشِئِينَ.

وَتَفْسِيرُ عَدَمِ الْمُبَالَغَةِ هَذَا غَامِضٌ، وَقَدْ يَكُونُ اسْتِقْصَاءُ الْبَحْثِ فِيهِ غَيْرَ ذِي صِلَةٍ، لَكِنَّ الْوَضْعَ الْحَالِيَّ لِلطَّبِّ يَقْتَضِي الْفَحْصَ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إجمالاً إِنَّ مِنَ الصَّرُورِيِّ وَجُودَ شَيْءٍ مِنَ الْبَيَانِ وَمُحَاوَلَةٍ لِتَعْرِيفِ الْأَسَاسِيَّاتِ مِنْ أَجْلِ الْمُلَاحَقَةِ النَّاجِحَةِ لِأَيِّ مِنَ الْعُلُومِ الْمَعْرُوفَةِ، وَلَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ عَرَضٍ نَظَامِيٍّ الْبَتَّةَ لِأَيِّ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ مِنْ غَيْرِ تَبْنِي نُقْطَةِ انْطِلَاقٍ مَا تَكُونُ قَدْ حُدِّدَتْ، عَلَى مَا قَدْ ضُمِّنَ أَوْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْ رُبَّمَا تُبَيَّنَتْ، مِنْ خِلَالِ مَا

(1) أَلْسَاشِيَا: يَنْصَرِفُ هَذَا الْاسْمُ فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَى مَنطَقَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا مَنطَقَةٌ مِنْ مَنَاطِقِ لَنْدُنْ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، كَانَتْ مَلَاذًا لِلْمُجْرِمِينَ وَالْأَبْيَينَ، وَالْأُخْرَى مَنطَقَةٌ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِفَرَنْسَا مَشْهُورَةٌ بِتَبْيِذِهَا. [الْمُتَرْجِمُ]

سَبَقَ مِنْ فَحْصٍ وَبَحْثٍ وَقَرَارٍ تَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ الْأَشْيَاءِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمَنَاهِجَنَا فِي الْفِكْرِ وَالتَّوَاضُّلِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنِّي أَتَّفَقُ مَعَ مُؤَلَّفِي هَذَا الْكِتَابِ تَمَامًا حِينَ يَذْهَبَانِ إِلَى أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ كَثِيرًا مَا أَخْفَقُوا حَدِيثًا فِي تَقْدِيرِ أَهْمِيَّةِ الْإِتْفَاقِ بِشَأْنِ الْعَلَامَاتِ وَالرُّمُوزِ الَّذِي كَانَ حَاضِرًا بِقُوَّةٍ فِي أَذْهَانِ الْفَلَسَافَةِ الْمَدْرَسِيِّينَ، وَلَا شَكَّ فِي عَدَمِ إِمْكَانِ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْمُشْتَغِلِينَ مَتَا بِالْعِلْمِ يُحْسِنُونَ دَوْمًا اخْتِيَارَ مَا يَتَّبِعُونَ مِنْ نِقَاطِ الْإِنْطِلَاقِ. وَلَكِنْ حَرِيٌّ بِنَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، أَنْ نَنْطَلِقَ بِجُرْأٍ وَعِزَمٍ، لَا أَنْ نَهْمَ عَلَى وُجُوهِهَا هُنَا وَهُنَاكَ مُعْلِنِينَ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ سَبِيلٍ وَلَا مَا يَهْدِي إِلَيْهَا، وَمَهْمَا تَكُنْ دَرَجَةُ الْخَلَلِ فِي الشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمَبَادِيِ وَالتَّعْرِيفَاتِ الْأُولَى فِي كُتُبِنَا الْمَنْهَجِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ فَإِنَّ الشَّارِحِينَ الْمَنْهَجِيِّينَ يُفْرُونَ، فِي الْأَقْلَى، بِضَرُورَةٍ مُنَاقَشَةِ الْأَسَاسِيَّاتِ وَبِمُلَاءَمَتِهَا. أَمَّا قَضِيَّةُ الْأَطْبَاءِ فَأَخْطَرُ.

فَالطَّبُّ فِي يَوْمِنَا هَذَا قَدْ أَوْ حِرْفَةٌ تُلْحَقُ بِمُمَارَسَتِهِ، بِلَا شَكَّ، عُلُومٌ مُعَيَّنَةٌ، لَكِنَّهُ خَسِرَ ادِّعَاءَ عَدُوِّهِ عِلْمًا؛ بِسَبَبِ رَفْضِ أَسَاتِذَتِهِ وَمُمَارِسِيهِ أَنْ يُعَرِّفُوا الْأَسَاسِيَّاتِ أَوْ يُثَبِّتُوا الْمَبَادِيِ الْأُولَى، وَأَنْ يَعُدُّوا، بِلُغَةٍ وَاضِحَةٍ، الْعَلَاقَاتِ الَّتِي بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَفْكَارِ وَالْكَلِمَاتِ مُتَضَمِّنَةً فِي تَوَاضُّلَاتِهِمْ مَعَ الْآخَرِينَ. [338]

وَيَبْلُغُ صِدْقُ مَا قُلْنَا مَبْلَغٌ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كُتُبَنَا الْمَنْهَجِيَّةَ مُتَحَمَّةٌ بِبَيِّنَاتٍ 'الْأَمْرَاضِ'، وَكَيْفِيَّةِ تَمْيِيزِ مِثْلِ هَذِهِ 'الْأَشْيَاءِ'، وَمُعَالَجَتِهَا، وَقَمْعِهَا، كَانَ مَا قَالَهُ الرَّاجِلُ الدُّكْتُورُ مِيرْسِيير Mercier⁽²⁾ مُسَوِّغًا تَمَامًا حِينَ صَرَّحَ، فِي أَحَدِ بَحْثِيهِ النَّفِيسَةِ الَّذِي هُوَ لَيْسَ بِأَقْلَهَا جِدَّةً، بِأَنَّ 'الْأَطْبَاءَ لَمْ يَصُوغُوا تَعْرِيفًا لِلْمَقْصُودِ بِمَا هُوَ مَرَضٌ 'a disease'، وَتَابَعَ كَلَامَهُ لِيَقُولَ إِنَّ الزَّمَنَ الَّذِي يَقْتَضِي تَعْرِيفَ الْأَفْكَارِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلطَّبِّ قَدْ حَانَ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ تَارِيخِهِ (Science Progress, 1916-17).

(2) تشارلز آرثر ميرسيير (1851-1919م). مُحَلِّلُ نَفْسِيٍّ بَرِيطَانِيٍّ، وَخَبِيرٌ رِيَادِيٌّ فِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ الشَّرْعِيِّ وَالْجَنُونِ. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ: الْمَذْهَبُ الرُّوحِيُّ وَالسَّيْرُ أَوْلَفَر لُوج، وَتَجَارِبُ الرُّوحِ، وَالْجِهَازُ الْعَصْبِيُّ وَالْعَقْلُ، وَالْجَرِيمَةُ وَالْجَنُونُ، وَالْجَرِيمَةُ وَالْمَجْرِمُونَ. [الْمُتَرْجِمُ]

فَمَا قَالَه الدُّكْتُور ميرسيير كَانَ مُسَوَّغًا تَمَامًا لِأَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ عَنِ الطَّبِّ فِي يَوْمِنَا هَذَا. وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِوُجُودِ 'فُضُولِ تَمْهِيدِيَّةِ' كَالْفَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ عِنْدَ فيرنيل Fernel⁽³⁾ (1557-1485) وَالَّذَيْنِ عُنَوَانُهُمَا عَلَى التَّوَالِي 'تَوْجِيهِ قُرْنِ الطَّبِّ نَظَرِيَّةً وَمُمَارَسَةً'، وَ'تَشْخِصُ الْمَرَضِ مِنْ حَيْثُ الْأَعْرَاضُ وَالْحَالَةُ الذَّهْنِيَّةُ'، مَا كَانَ لِيَفُوتَهُ الْإِلْحَاحُ عَلَى أَنَّهُ حِينَ كَانَ الطَّبِّ عِلْمًا، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَقْلٌ 'عِلْمِيَّةٌ' مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، كَانَتْ ثَمَّةُ مُحَاوَلَاتٍ لِإِنْجَازِ بَعْضِ التَّعْرِيفَاتِ، وَتَأْكِيدِ لِبَعْضِ الْمَبَادِي، وَإِقْرَارِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالْأَحْدَاثِ.

أَمَّا الْيَوْمَ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَرَائِكُمْ مَا لَا يُحْصِيهِ عَدٌ مِمَّا نَدْعُوهُ 'وَقَائِعٌ' أَوْ سِجَلَاتٍ لِلْوَقَائِعِ، مَا مِنْ كِتَابٍ مِنْهَجِيٍّ حَالِيٍّ يَنْطَلِقُ عَلَى مُحَاوَلَةٍ لِتَعْرِيفِ الْمَقْصُودِ بِ'مَا هُوَ مَرَضٌ a disease'، وَإِنْ لَمْ يَخْلُ الْأَمْرُ أحيانًا مِنْ مُحَاوَلَةٍ لِنَوْعٍ مِنَ التَّعْرِيفِ لِكَلِمَةِ 'مَرَضٌ disease' وَلَأَمْرَاضٍ مَخْصُوصَةٍ. خُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ مَا نَلْحَظُهُ عِنْدَ الْأَشْخَاصِ الْمَرَضَى مِنْ جِهَةٍ، وَمَا نَكُونُهُ مِنْ أَفْكَارٍ عَامَّةٍ بِشَأْنِ أَمْرَاضٍ مُتَشَابِهَةٍ عِنْدَ أَشْخَاصٍ مُخْتَلِفِينَ، مَعَ مَا نَفِيْدُ مِنْهُ مِنَ 'مُكْمَلَاتٍ لِعَوِيَّةٍ' مِنْ أَجْلِ أَغْرَاضٍ تَوَاضِعِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَمْرِ نَفْسِهِ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

صَحِيحٌ أَنَّ السَّيْرَ كِلْفُورْدَ أَلْبُوت Clifford Allbutt⁽⁴⁾ لَمْ يَكْفَ عَنْ شَرْحِ هَجْمَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَجَالٍ مُنْعَزِلٍ شَيْئًا مَا، عَلَى 'الْكِيَانَاتِ الْمَرَضِيَّةِ' الَّتِي يُخْبِرُنَا بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا أَمْرَاضٌ، وَيُمْكِنُ الْوُقُوفُ فِي دَوْرِيَّةِ *British Medical Journal*، فِي عَدِيدِهَا الصَّادِرِ فِي الثَّانِي مِنْ سِبْتَمْبَرِ/أَيْلُولِ سَنَةِ 1922، فِي

(3) جان فرانسوا فيرنيل (1497-1558م). طَبِيبٌ فَرَنْسِيٌّ. قَدَّمَ مُصْطَلَحَ (الْفِسيُولُوجِيَا) لِيُوصَفِ دِرَاسَةَ وَظِيفَةَ الْجِسْمِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ وَصَفَ الْقَنَاةَ الشَّوْكِيَّةَ. وَلَمْ أَرُ مِنْ أَثْبَتَ سَنَتِي الْوِلَادَةَ وَالْوَفَاةَ اللَّتَيْنِ أَوْرَدَهُمَا أُوغْدِنُ وَرِتْشَارْدُزُ فِي الْمَتْنِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

(4) توماس كِلْفُورْدُ أَلْبُوت (1836-1925م). طَبِيبٌ إِنْجِلِيزِيٌّ، وَهُوَ مُخْتَرَعُ الْمِحْرَارِ الطَّبِّيِّ. مِنْ أَهَمِّ آثَارِهِ تَحْرِيرُ كِتَابِ (نِظَامِ الطَّبِّ). [الْمُتَرَجِّمُ]

الصَّفْحَةِ 401 مِنْهُ، عَلَى بَعْضِ انتِقَادَاتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ بِأَقْلَهَا لَذَاعَةً.

لَكِنَّ الْقِلَّةَ النَّادِرَةَ مِنَ الشُّجْعَانِ الَّذِينَ تَطَلَّعُوا (وَأِنْ كَانُوا أَقَلَّ انتِقَائِيَّةً فِي لُغَتِهِمْ، وَرُبَّمَا أَقَلَّ تَمَكُّنًا فِيهَا) إِلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَقَائِقِ أَنْفُسِهَا الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا السَّيَرِ كِلْفُورْدَ كَانَ نَمَّةً مَقْيَاسٌ قَاسٍ لِلتَّعَامُلِ مَعَهُمْ.

فَقَدْ كَانَ يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ نَظَرَةً اِزْدِرَاءً بِوَصْفِهِمْ تُجَارًا، لَا بِ'الْوَقَائِعِ الْمَلْمُوسَةِ' وَالْحُجَّةِ الْحَيَادِيَّةِ الْمُتَلَانِمَةِ لِطَبِّ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، بَلْ بِتَفَاهُاتٍ مُسَهَّيَّةٍ وَبِشْيءٍ مَا يُدْعَى مِتَافِزِيْقًا عَلَى سَبِيلِ الْاِحْتِقَارِ. ذَلِكَ بِأَنَّ 'الْأَطِبَّاءَ الْمَجَانِينَ' هُمْ وَحْدَهُمْ مَنْ يُحْتَمَلُ فِي أَرْمِئِنَا الْعِلْمِيَّةِ هَذِهِ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِالْفَلَسَفَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْسِرُوا سُمْعَتَهُمْ بِوَصْفِهِمْ مُمَارِسِينَ لِلطَّبِّ!

وَقَدْ يَكُونُ مِمَّا يَشْهَدُ عَلَى الْعَصْرِ عَدَمُ الْحُضُورِ الْفَاعِلِ، فِي مَا لَحِقَ مِنْ قَضَايَا، لِلْمَقَالَةِ الرَّائِعَةِ [339] الَّتِي قَدَّمَ بِهَا السَّيَرِ كِلْفُورْدَ الْبُوتِ لِلطَّبَّعَةِ الْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ نِظَامُ الطَّبِّ *System of Medicine* فِي سَنَةِ 1896، وَالَّتِي نَاقَشَ فِيهَا، بِأَسْلُوبٍ قَدْ، مَوْضُوعَاتٍ كَالشَّخِصِصِ، وَالْأَمْرَاضِ، وَالْأَسْبَابِ، وَالْأَنْمَاطِ، وَالْمَنْظُومَةِ الْمُصْطَلَحِيَّةِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ. إِذْ يَنْدُرُ أَنْ نَجِدَ لِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرًا الْآنَ، وَقَدْ تَكُونُ قِرَاءَتُهَا أَكْثَرَ نُذْرَةً. لَكِنَّهَا كَانَتْ لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ، الَّذِي كَانَ فِي سَنَةِ 1896 طَبِيبًا مُبْتَدِئًا، بِمَنْزِلَةِ الْكَشْفِ الَّذِي ظَلَّ يَشْعُرُ تَجَاهَهُ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ بِالْأَمْتَانِ الْمُتَطَامِنِ.

صَحِيحٌ أَنَّ جَمِيعَ مُدَرِّسِي الطَّبِّ وَأَسَاتِذَتِهِ - إِلَّا الَّذِينَ تُعَوِّزُهُمُ الثَّقَافَةُ النَّظَرِيَّةُ مَعَ كَوْنِهِمْ 'ذَوِي كِفَايَةٍ'، أَوْ الَّذِينَ هُمْ دَجَالُونَ مَعَ كَوْنِهِمْ 'غَيْرَ ذَوِي كِفَايَةٍ' - يَعْتَمِدُونَ فِي تَوْصِيلِ أَبْحَائِهِمْ إِلَى زُمَلَانِهِمْ، وَمَادَّتِهِمْ الدِّرَاسِيَّةِ إِلَى طُلَّابِهِمْ، عَلَى مَا يُفِيدُونَهُ مِنَ الرُّمُوزِ، وَعَلَى مَا يَفْهَمُونَهُ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَفْكَارِ وَالْأَشْيَاءِ، أَيْ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ نَضْبُ الْأَوْتَانِ فِي السُّوقِ⁽⁵⁾. لَكِنَّ إِحْدَى نَتَائِجِ الْإِهْمَالِ الَّذِي

(5) صَنَّفَ الْفِيلَسُوفُ فِرَانْسِيْسُ بِيكَنْ فِي كِتَابِهِ (الْأَلِيَّةُ الْجَدِيدَةُ لِاِكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ *Novum Organum*) الْمُنَاطَلَاتِ الْفِكْرِيَّةَ فِي زَمَنِهِ فِي أَرْبَعِ خَانَاتٍ سَمَّاها أَوْتَانًا. وَأُطْلِقَ عَلَى =

وَقَعَتْ فِيهِ عَادَةٌ تَقْدِيمِنَا لِكُتُبِنَا الْمَنْهَجِيَّةِ بِنِقَاشِ تَمْهِيدِيٍّ يُمَكِّنُ أَنْ يُثِيرَ الْمُفَكِّرَ وَالذَّكِّيَّ، إِنْ لَمْ يُقْنِعْهُمَا، هِيَ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ الْآنَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِمَّنْ يَفْهَمُونَ الْفُرُوقَ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالْأَشْيَاءِ، أَوِ الْعَلَاqَاتِ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَهَا عِنْدَ تَوْصِيلِ الْأَقْوَالِ.

صَحِيحٌ أَنَّ فِي الْفَهْمِ الْمَشْتَرَكِ مَنَاجَاةً لِلَّذِينَ يُمَارِسُونَ فَتْنَهُمْ تَجْرِيئًا مِنْ الْكَشْفِ وَالْحَطِّ الْفَادِحِ: أَيُّ مَا دَامُوا لَا يَسْعَوْنَ إِلَى نَشْرِ أَحَادِيثِهِمِ الْعَارِضَةِ فِي دَوْرِيَاتِنَا الطَّبِيعِيَّةِ أَوْ يُحَرِّزُونَهُ؛ ذَلِكَ بِأَنْ أَشْنَعَ أَمِثْلَةَ التَّخْلِيطِ وَالْحَطِّ الَّتِي تَنْشَأُ بِسَبَبِ إِهْمَالِ الْأَسَاسِيَّاتِ يُمَكِّنُ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا بِالضَّبْطِ فِي أَكْثَرِ دَوْرِيَاتِنَا مُحَافَظَةً وَفِي تَعَامُلَاتٍ أَكْثَرَ مُجْتَمَعَاتِنَا فَخَامَةً.

وَيَتَحَقَّقُ هَذَا عَلَى نَحْوِ مَخْصُوصٍ حِينَ تَكُونُ آيَةُ تَجْرِبَةٍ أَوْ فِكْرَةٍ 'جَدِيدَةٍ' غُرُضَةً لِلنَّقَاشِ، وَمِنْ ثَمَّ لِلتَّمَثُّلِ أَوْ الرَّقْصِ؛ وَقَدْ كَانَتْ حَالَةً خَاصَّةً جِدًّا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ تِلْكَ الَّتِي عَادَتْ بِأَفْكَارِ كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ فِي سَنَةِ 1918 إِلَى الْوَرَاءِ إِلَى مَا كَانَ قَدْ تَعَلَّمَهُ مِنَ السَّيْرِ كِلْفُورْدِ أَلْبُوتِ فِي سَنَةِ 1896، وَهُوَ مَا قَادَهُ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى إِضْمَارِ تَقْدِيرٍ صَادِقٍ جِدًّا لِمَا اسْتَهْذَفَهُ مُؤَلِّفًا هَذَا الْكِتَابِ وَلِمَا أَنْجَزَاهُ.

= الخانة الأولى مِنْهَا اسْمُ (أَوْتَانِ الْقَبِيلَةِ Idols of the Tribe)، وَعَلَى الثَّانِيَةِ اسْمُ (أَوْتَانِ الْكَهْفِ Idols of the Cave)، وَعَلَى الثَّالِثَةِ اسْمُ (أَوْتَانِ السُّوقِ Marketplace)، وَعَلَى الرَّابِعَةِ اسْمُ (أَوْتَانِ الْمَسْرَحِ Idols of the Theater). وَمَا يُهْمُنَا مِنْهَا هُنَا أَوْتَانُ السُّوقِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْمَثْنِ. فَمَا يَقْصِدُهُ فَرَانِيسُ يَكِينُ بِأَوْتَانِ السُّوقِ هُوَ الْأَوْهَامُ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ وَضْعِ أَلْفَاظٍ لِأَشْيَاءٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ أَوْ لِأَشْيَاءٍ غَايِبَةٍ أَوْ مُتَنَاقِضَةٍ، أَيِ إِنَّهَا الْأَغْلَاطُ النَّاجِمَةُ عَنِ الدَّلَالَةِ الزَّافِفَةِ الَّتِي تُنْمِطُهَا الْكَلِمَاتُ. فَبِذَلِكَ يَكُونُ يَكِينُ قَدْ سَبَقَ عِلْمَ الدَّلَالَةِ الْمُعَاصِرَ. وَهُوَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْاِعْتِقَادَ الْعَامَّ هُوَ أَنَّ الْبَشَرَ يَصُوغُونَ أَفْكَارَهُمْ فِي كَلِمَاتٍ مِنْ أَجْلِ إِصَالِ آرَائِهِمْ إِلَى الْآخَرِينَ، لَكِنْ كَثِيرًا مَا تَنْشَأُ الْكَلِمَاتُ بِوَصْفِهَا أَبْدَالًا مِنَ الْأَفْكَارِ وَيَعْتَقِدُ الْبَشَرُ أَنَّهُمْ قَدْ غَلَبُوا فِي نِقَاشٍ مَا لِأَنَّهُمْ بَدَّوْا خُصُومَهُمْ كَلَامِيًّا. إِنْ تَوَاضَّلَ تَأْثِيرُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالًا مُتَنَوِّعًا مِنْ غَيْرِ التِّفْثَاتِ إِلَى مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ يُكَيِّفُ الْفَهْمَ وَيُوَلِّدُ الْمُغَالَطَاتِ. فَكَثِيرًا مَا تَخُونُ الْكَلِمَاتُ أَهْدَافَهَا الْخَاصَّةَ، مِنْهُمُ الْأَفْكَارَ أَنْفُسَهَا الَّتِي صُمِّمَتْ لِلتَّبْيِيرِ عَنْهَا. [المُتَرَجِم]

وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُمَكِّنُ تَحْقِيقَ غَرَضٍ نَافِعٍ إِذَا مَا كَانَتْ نَمَّةٌ مُحَاوَلَةً لِتَقْدِيمِ إِضَاحٍ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْخَاصَّةِ، وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ بِذَلِكَ تَوَجُّهُ الْاهْتِمَامِ نَحْوَ الصُّعُوبَاتِ الْحَاضِرَةِ فِي النِّقَاشِ وَالْحَدِيثِ الطَّبِيِّينِ، لَكِنْ قَبْلَ الْبَدْءِ بِأَيِّ إِضَاحٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ لَا بُدَّ مِنْ كَلِمَةٍ مُجَمَّلَةٍ بِشَأْنِ مَا يَكْتَنِفُ النِّقَاشَ الْآنَ مِنْ تَخْلِيطِ مَرَدُّهُ إِلَى الْإِخْفَاقِ الْمُتَوَاصِلِ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْأَطْرَافِ الَّتِي كُنْتُ قَدْ سَمَّيْتُهَا [340] فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَسْمَاءَ، وَأَفْكَارًا، وَأَحْدَاثًا (Influenza: Essays by Several Authors, Heinemann, 1922)، وَهِيَ الَّتِي يَدْعُوهَا مُؤَلِّفًا هَذَا الْكِتَابِ كَلِمَاتٍ، وَأَفْكَارًا، وَأَشْيَاءَ.

فَأَوَّلُ مَا يُعْنَى بِهِ الْمُشْتَغِلُونَ بِالطَّبِّ فِي الْمُمَارَسَةِ الْيَوْمِيَّةِ لِفَنِّهِمْ هُوَ اعْتِلَالُ الصَّحَّةِ الَّذِي يَلْحَظُونَهُ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ مُخْتَلِفُ الْأَشْخَاصِ مِنْ أَجْلِ مُعَالَجَتِهِ. وَيُمَيِّزُ اعْتِلَالُ الصَّحَّةِ مِنْ خِلَالِ مَظَاهِرَ مُعَيَّنَةٍ، عَادَةً مَا تُسَمَّى أَعْرَاضًا، يُحَسُّ بِهَا عَلَى الْفَوْرِ مَن يُعَانِيهَا، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ مَن يُشَاهِدُهَا. وَيُوجَدُ غَيْرُ ذَلِكَ أَيْضًا، وَمِنْهُ مَا يُدْعَى 'عَلَامَاتٍ جَسَدِيَّةٍ'، مِمَّا يَقْتَضِي أَنْ يَبْحَثَهُ الْأَطِبَاءُ السَّرِيرِيُّونَ بَحْثًا مُتَأَنِّيًا، وَيَسْتَظْلِمُ سَائِرُ ذَلِكَ (مِمَّا لَهُ أَهْمِيَّةٌ اسْتِدْلَالِيَّةٌ أَوْ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ فَقَط) اللَّجُوءَ إِلَى الْمَنَاهِجِ الْمُخْتَبَرَةِ وَمُلْحَقَاتِهَا.

عَلَى أَنَّهُ يَتَجَاوَزُ الْخُبْرَةَ حُدُودَ الْفُرْصَةِ الْفَرْدِيَّةِ كَانَ مِنْ دَوَاعِي الرَّاحَةِ مَدَّةً طَوِيلَةً، مِنْ أَجْلِ إِحَالَةٍ وَتَوَاضُلٍ سَرِيعَيْنِ، إِدْرَاكُ حَقِيقَةٍ أَنَّ نَمَّةً مَجْمُوعَاتٍ مُتَشَابِهَةً مِنْ مَظَاهِرِ اعْتِلَالِ الصَّحَّةِ تَحْدُثُ وَيَتَكَرَّرُ حُدُوثُهَا مِنْ خِلَالِ تَكْوِينِ إِحَالَاتٍ عَامَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَجْمُوعَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ. هَذِهِ الْإِحَالَاتُ الْعَامَّةُ تُؤَسَّسُ مَفَاهِيمَ مَرَضِيَّةٍ، أَوْ، عَلَى نَحْوٍ أَكْثَرَ بَسَاطَةً، أَمْرَاضًا، وَتُرْمِزُ إِلَيْهَا أَسْمَاءُ هِيَ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، أَسْمَاءُ الْأَمْرَاضِ. لَكِنْ يَتَقَدَّمُ الزَّمَنُ وَالِاتِّسَاعُ الْحَاصِلُ فِي مَجَالِ خُبْرَاتِنَا (أَوْ مَرَاجِعِنَا) وَتَعَقُّبُهَا نَجِدُ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَرَاجِعَ إِحَالَاتِنَا وَأَنْ نُعِيدَ تَنْظِيمَ مَجْمُوعَاتِ الْمَرَاجِعِ الَّتِي تَخْصُنَا. حِينَئِذٍ يَغْدُو إِشْرَاكُ تَرْمِيزِنَا حَتْمِيًّا وَيَكُونُ عَلَيْنَا أحيانًا تَهْيِئَةُ رَمَزٍ جَدِيدٍ لِلْإِحَالَةِ الْمُرَاجَعَةِ، فِي حِينِ أَنَا نَسْتَبْقِي أحيانًا أُخْرَى رَمَزًا قَدِيمًا لِمَا هُوَ إِحَالَةٌ جَدِيدَةٌ حَقًّا.

وعَادَةً مَا تُوصَفُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتُ بِأَنَّهَا اكْتِشَافُ مَرَضٍ جَدِيدٍ، أَوْ إِضَاحُ

الطَّبِيعَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِمَرَضٍ قَدِيمٍ، وَحِينَ يَكُونُ تَنْفِيزُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ دَقِيقًا، وَكَافِيًا، وَصَحِيحًا تَكُونُ لَهَا فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا عَلَى مُسْتَوَى الْمُمَارَسَةِ، إِذْ تَجْعَلُ الْإِضَافَاتِ فِي الْخِبْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ لِلْقَلِيلِ مِنَ النَّاسِ مُبَسَّرَةً لِجَمِيعِهِمْ. وَلَكِنْ حِينَ يُنْقَلُ اسْمُ مَا عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ مِنَ الْإِحَالَةِ الَّتِي يَرْمِزُ إِلَيْهَا إِلَى مَرَاجِعَ مَخْصُوصَةٍ، وَهَذَا مَا يَحْدُثُ كَثِيرًا جَدًّا، يُصْبِحُ تَفَادِي حُدُوثِ التَّخْلِيطِ فِي الْفِكْرِ وَرُبَّمَا فِي الْمُمَارَسَةِ أَمْرًا غَيْرَ مُمَكِّنٍ.

وَقَدْ نُقِلَ حَدِيثًا تَضْرِيحُ رَجُلٍ طَبِّ مُمَيِّزٍ بِأَنَّهُ عُلَمَاءُ الْجَرَائِمِ قَدْ أَظْهَرُوا حَدِيثًا أَنَّ النَّزْلَةَ الْوَافِدَةَ influenza هِيَ حُمَى التَّايْفُوِيدِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَا قِيلَ هُوَ أَنَّ نَمَّةَ حَالَاتٍ مُعَيَّنَةٍ كَانَتْ يُظَنُّ أَنَّهَا قَدْ شُخِّصَتْ تَشْخِصًا مُلَانِمًا عَلَى أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ النَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ أَظْهَرَ الْبَحْثُ الْبَكْتِيرِيُّ أَنَّ التَّشْخِصَ الْأَصَحَّ لَهَا هُوَ أَنَّهَا حُمَى التَّايْفُوِيدِ. لَكِنْ سَرَعَانِ مَا حُوِّلَ هَذَا الْإِعْلَانُ فِي الدَّوَائِرِ الصُّحُفِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ يَنْصَرُّ أَنَّ مَرَضَ 'النَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ' هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَرَضُ 'حُمَى التَّايْفُوِيدِ'، وَأَعِدَّتْ فِقْرَةٌ مُلَانِمَةٌ [341] تُذِيعُ نَبَأَ الْاِكْتِشَافِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا تُعْلِنُ أَنَّ السَّيِّدَ فَنِسِنْتَ كَرْمَلَزَ Vincent Crummles⁽⁶⁾ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ بَرُوسِيًّا.

صَحِيحٌ أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ تُصَوِّرُ التَّخْلِيطَ الَّذِي يَسُودُ الْعَقْلَ الْاِعْتِيَادِيَّ؛ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الْخَطِّ الطَّبِيِّ الْمُبْتَدَلِ أَنْ يُتَحَدَّثَ، وَأَنْ يُكْتَبَ، وَأَخِيرًا أَنْ يُفَكَّرَ وَكَأَنَّ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تُسَمِّيَهَا، هَذِهِ الْإِحَالَاتِ الْعَامَّةُ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَيْهَا، أَشْيَاءٌ مُنْفَرِدَةٌ لَهَا وَجُودَاتٌ خَارِجِيَّةٌ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُظَنَّ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ طَبِّ مُتَّقِفٍ يَعْتَقِدُ حَقًّا أَنَّ 'مَا هُوَ مَرَضُ 'a' disease شَيْءٌ مَادِّيٌّ، وَإِنْ كَانَ الْأَسْلُوبُ الْمُسْتَعْمَلُ حَالِيًا يُقَدِّمُ الذَّرِيعَةَ لِمِثْلِ هَذَا الْاِفْتِرَاضِ.

عَلَى أَنَّ 'الْأَمْرَاضَ' تَعْنِي بِلُغَةِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ 'كَيَانَاتٍ مَرَضِيَّةً'، وَيَعْتَقِدُ طُلَّابُ

(6) فَنِسِنْتَ كَرْمَلَزَ: مِنْ شَخْصِيَّاتِ رِوَايَةِ تشارلز ديكنز الَّتِي عُنوانُهَا (يَكُولَاسُ يَكْلِبِي)، وَتُمَثِّلُ رَئِيسَ مَجْمُوعَةِ كَرْمَلَزَ الْمَسْرُوحَةِ. [المُتَرْجِم]

الطَّبِّ، بِحَقِّقٍ، أَنَّ هَذِهِ 'الْكِيَانَاتِ' تُوجَدُ عَلَى نَحْوِ مَا فِي الطَّبِيعَةِ وَقَدْ اكْتَشَفَهَا أَسَاسِيذُهُمْ كَمَا اكْتَشَفَ كُولُومْبِسُ Columbus⁽⁷⁾ أَمْرِيكََا.

أَمَّا مُدْرُسُو الطَّبِّ، مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَيُظْهِرُونَ بِمَظْهَرٍ مَنْ يُشَاطِرُ الِاعْتِقَادَ الضَّمْنِيَّ الَّذِي مَفَادُهُ أَنَّ جَمِيعَ الظَّوَاهِرِ السَّرِيرِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ، أَوِ الْقَابِلَةِ لِأَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً، قَابِلَةٌ لِلِإِبْجَازِ، وَيَنْبَغِي إِبْجَازُهَا، فِي عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْفَنَاتِ أَوِ الْإِحَالَاتِ الْعَامَّةِ، بِوَصْفِهَا عَدَدًا كَبِيرًا جِدًّا مِنْ 'الْأَمْرَاضِ'، وَإِنَّ الْعَدَدَ الْحَقِيقِيَّ لِهَذِهِ الْفَنَاتِ، أَوِ الْإِحَالَاتِ، أَوْ 'الْأَمْرَاضِ' قَدْ حَدَدْتُهُ سَلَفًا بَنِيَّةُ الْكَوْنِ فِي آيَةٍ لِحَظَةٍ مُعْطَاةٍ.

وَالْحَقُّ أَنَّ 'الْأَمْرَاضَ' تَعْنِي لِهَؤُلَاءِ السَّادَةِ وَقَائِعَ أَفْلَاطُونِيَّةٍ: كَلِّيَّاتِ قَبْلِيَّةِ الْوُجُودِ. وَهَذَا الِاعْتِقَادُ غَيْرُ الْمُعْلَنِ الَّذِي لَوْ أُقِرَّ بِهِ صَرَاحَةً لَكَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يُتَغَاضَى عَنْهُ، قَدْ وَرَّثَنَا إِيَّاهُ جَالِينُوسُ Galen⁽⁸⁾، وَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ أَفْكَارَنَا بِشَأْنِ هَذَا الْمَرَضِ، أَوْ ذَاكَ، أَوْ 'الْمَرَضِ' الْآخَرِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً تَمَامًا وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ خَطَأً تَمَامًا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالتَّيْسِيرِ الدَّهْنِيِّ. بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَكُونُ الْأَمْرَاضُ الَّتِي يُفْتَرَضُ وُجُودُهَا فِي آيَةٍ لِحَظَةٍ قَابِلَةً - عَلَى مَا يُعْتَقَدُ - لِيُمَثِّلَ هَذَا الِاسْتِنزَافَ الْقُوِّيَّ شَأْنَهَا فِي ذَلِكَ شَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْأَهْلِيَّةِ فِي الْجُزْرِ الْبَرِيطَانِيَّةِ وَسُكَّانِ لَنْدَنَ. وَلَا يُقَرَّرُ فِي أَيِّ مَكَانٍ بِأَنَّ الْغَرَضَ الْخَالِصَ لِتَجْمِيعِنَا لِلْحَالَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ بِوَصْفِهَا حَالَاتٍ لِمَرَضٍ وَاحِدٍ إِنَّمَا هُوَ التَّسْوِيعُ وَالتَّيْسِيرُ، وَأَنَّهُ عُرْضَةٌ فِي آيَةٍ لِحَظَةٍ لِلِاسْتِبدَالِ أَوِ التَّنْظِيمِ، وَالْأَمَلُ مَعْقُودٌ عَلَى أَنَّا سَنَعْلَمُ يَوْمًا مَا جَمِيعُ الْأَمْرَاضِ الَّتِي هِيَ 'مَوْجُودَةٌ'، وَجَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ.

(7) كْرِسْتُوفَرُ كُولُومْبِسُ (1451-1506م). رَحَّالَةٌ إِيْطَالِيٌّ مَشْهُورٌ، يُنْسَبُ إِلَيْهِ اكْتِشَافُ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ (أَمْرِيكََا). [المُترجم]

(8) جَالِينُوسُ (130-200م). كَاتِبٌ، وَطَبِيبٌ إِغْرِيقِيٌّ مَشْهُورٌ. كَانَ مُتَخَصِّصًا فِي عِلْمِ التَّشْرِيحِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَوَصَّلَ إِلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْكَسْرِ فِي الْعَمُودِ الْفِقْرِيِّ وَانْقِطَاعِ الْحَبْلِ الشَّوْكِيِّ وَالشَّلَلِ، وَبَعْتَقَدُ أَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ اسْتَعْدَمَ قِيَاسَ النَّبْضِ فِي تَشْخِصِ الْحَالَاتِ. [المُترجم]

في غُضُونِ ذَلِكَ أَصَبَحَتْ خَطِيئَةُ، أَوْ عَادَةُ، عَدَّ 'الأمراض' وَقَائِعَ بِالْمَعْنَى الْمُبْتَدَلِ لِلْكَلِمَةِ شَانَعَةً عَلَى نَحْوِ لَمْ يَثْرَ مَعَهُ أَيُّ تَعْلِيْقٍ مُضَادٍّ حِينَ قِيلَ حَدِيثًا فِي وَثِيْقَةٍ رَسْمِيَّةٍ (Forty-eight Ann. Rep. Local Govt. Board, 1918-19, Med. Supplement, p. 76) إِنَّهُ 'مِنِ الْوَاضِحِ، فِي حُدُودِ الْخَبْرَةِ الْمَحْدُودَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ بِمَرَضِ الْإِلْتِهَابِ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبَّبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ encephalitis lethargica، أَنَّ خَوَاصُّهُ الْبَايُولُوجِيَّةَ مُتَغَيِّرَةٌ...'. [342]

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ هَذَا الْعَزْوُ لِـ'الْخَوَاصِّ الْبَايُولُوجِيَّةِ' إِلَى مَرَضٍ مَا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ زَلَّةٍ قَلَمٍ حَقِيقَةُ أَنَّ الْعِبَارَةَ قَدْ كَرَّرَهَا الْكَاتِبُ نَفْسُهُ عَلَى نَحْوِ يُشْعِرُ بِنَوْعٍ مِنَ الرُّضَا عَنْهَا فِي دَوْرِيَّةِ *Annual Report of the Chief Medical Officer of the Ministry of Health, 1919-20, on p. 366*

إِنَّ الْإِسْهَابَ فِي أَيِّ تَحْذِيرٍ مِمَّا تَسْتَعْمِلُهُ الْمَنْشُورَاتُ الرَّسْمِيَّةُ مِنْ صَبَغٍ تَعْبِيرِيَّةٍ 'وَاقِعِيَّةٍ' عَلَى نَحْوِ سَخِيفٍ مِثْلِ تِلْكَ الصَّبْغَةِ يَدُو، بِالنَّظَرِ إِلَى الْقَوْلِ الْمُقْنِعِ جِدًّا الَّذِي أَدْلَى بِهِ السَّيرُ كِلْفُورْدُ الْبُوتِ، أَمْرًا فَائِضًا عَنِ الْحَاجَةِ. عَلَى أَنَّ التَّحْذِيرَ يَكُونُ ضَرُورِيًّا حِينَ نَجِدُ شَخْصًا صَاحِبَ يَدٍ بِيضَاءِ كَالسَّيرِ جِيمْسُ مَكِينِزِي James Mackenzie⁽⁹⁾ يُصْرِّحُ بِأَنَّ 'الْمَرَضَ لَا يَكْشِفُهُ سِوَى الْأَعْرَاضِ الَّتِي يُسَبِّبُهَا'. وَيَقُولُ الْوَاقِعِيُّونَ إِنَّ الْمَرَضَ، وَالْأَمْرَاضَ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ 'أُمُورًا وَاقِعِيَّةً' إِنْ كَانَتْ عَوَامِلَ تُسَبِّبُ الْأَعْرَاضَ. وَهَكَذَا يُصْبِغُ السَّيرُ جِيمْسُ مَكِينِزِي، الَّذِي أَلْعَ بِشِدَّةٍ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْبَحْثِ فِي الْأَعْرَاضِ، وَالَّذِي احْتَجَّ بِقُوَّةٍ عَلَى خُضُوعِنَا لِاسْتِدَادٍ مَا هُوَ مُجَرَّدُ أَسْمَاءٍ، حَلِيفًا غَيْرَ وَاعٍ لِلَّذِينَ يَنْهَمِكُونَ فِي التَّفْتِيشِ عَنِ الْمَادَّةِ الْجَوْهَرِيَّةِ الْغَامِضَةِ الَّتِي لَهَا 'خَوَاصُّ بَايُولُوجِيَّةٌ'، وَالَّتِي 'تُولَدُ' أَعْرَاضًا.

وَاسْتِدَادُ الْأَسْمَاءِ فِي الطَّبِّ الْمُعَاصِرِ لَيْسَ أَقَلُّ أَدَى مِنَ الصَّبْغَةِ الْمُعَاصِرَةِ لِلْوَاقِعِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمَدْرَسِيَّةِ. فَالتَّشْخِصُ، الَّذِي صَرَّحَ السَّيْدُ بَرْنَارْدُ شَو Bernard

(9) جِيمْسُ مَكِينِزِي (1853-1925م). طَبِيبٌ اسْكُوتْلَنْدِيٌّ مُتَخَصِّصٌ فِي أَمْرَاضِ الْقَلْبِ. مِنْ أَهَمِّ مَوْثِقَاتِهِ: أَمْرَاضُ الْقَلْبِ، وَالْأَعْرَاضُ وَتَفْسِيرُهَا. [الْمُتَرَجِّمُ]

Shaw⁽¹⁰⁾ في مكانٍ ما يوجب أن يكون المقصود به اكتشاف كل ما ليس على ما يُرام عند مريض مخصوص وأسبابه، كثيرًا ما يعني في الممارسة التلقظ الشكلي والمطواع للإسم الذي يُعدُّ ملائمًا ويُعفي من الحاجة إلى إجراء المزيد من البحث. وعلى المدى البعيد كثيرًا ما يُعامل التقدير الدقيق لـ 'الحالة الراهنة' للمريض بوصفه ناجمًا عن جهلٍ لأنه لا ينسجم مع الاستعمال الصادق لأحد الرموز اللفظية القليلة المتاحة لنا بوصفها أسماء أعلام لأمراض خاصة.

ويمكن أن يُشار في هذا الصدد إلى ما كان من الجيش من استعمالٍ قسريٍّ لرموزٍ لفظيةٍ معينةٍ في الحرب الأخيرة.

وقد تسبَّب الاستعمالُ الحَصيفُ، الذي يجري تحت الضغط وفي أحيانٍ خاصةٍ، لمُكَمَّلَاتٍ لغويةٍ مثل P.U.O. (حُمى مجهولة الأصل pyrexia of unknown origin)، و N.Y.D. (غير مُشخص بعد not yet diagnosed) في إمكان التَّجَنُّبِ الدائمِ للمظهرِ المزعجِ للتقارير الرسمية المُستَمَلَّةِ على تشخيصاتٍ غير مرغوبٍ فيها، وإمكان سهولةٍ تكثيرٍ ما يُرغَّبُ فيه من اعتقادٍ غيابِ أنواعٍ مُعيَّنةٍ من المَرَضِ. ولا شك في أن الأعراضَ الرسميةَ تستوجب وجودَ شيءٍ من اتِّساقِ الممارسة في استعمالِ الرموز، لكن لا ينبغي لنا أن ننسى أن الإحصاءات الرسمية التي ينبغي أن تكشف لنا، نظريًا، عما يحدث، أو عما حدث في ميدان التجربة السريريَّة، هي في الواقع أكثرُ بقليلٍ من كونها تحليلاتٍ لِتَكَرُّرِ حَدُوثِ أَشْكَالٍ أو استعمالاتٍ مُعيَّنةٍ في الترميز. [343] بل إن هذا النَّقْدَ ليزدادُ قوَّةً حين نتذكَّرُ أن الإحصاءات الرسمية كثيرًا ما تنطوي على إحالةٍ على الترميز الذي لم تُحدِّدْ له ممارسةً رسميةً، صحيحةً كانت أو اعتباطيةً. وهكذا نشرَّت وزارةُ الصِّحَّةِ

(10) جورج برنارد شو (1856-1950م). مؤلَّفٌ إيرلنديٌّ مشهورٌ. وُلِدَ في دبلن، وانتقلَ إلى لندن حين أصبحَ في العشرينات. ألَّفَ ما يزيدُ على سِتِّينَ مسرحيةً. تشتملُ أعمالُه على جرعٍ كوميديةٍ. كانَ أحدَ مؤسسي الاشتراكية الفايئة، وكانت نظريته التطوُّر والوصول إلى السورمان تشغله. ويُعدُّ أحدَ أشهرِ الكُتَّابِ المسرحيين في العالم. من أهمِّ مسرحياته: بيوت الأراميل، والإنسان والسورمان، وسيدتي الجميلة. [المُترجم]

فِي غُضُونِ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ جَدَاوِلَ إِحْصَائِيَّةٍ رُحِبَ بِهَا بِوَصْفِهَا مُظْهِرَةً لِلْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ شُبُوحٍ مَا يُدْعَى الْإِلْتِهَابَ الدِّمَاغِيَّ الْمُسَبَّبَ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ فِي سَنَوَاتٍ مُتَعَابِقَةٍ وَفِي مَوَاسِمَ مُخْتَلِفَةٍ، وَلِلْفَرْقِ بَيْنَ حَالَاتِ الشُّبُوحِ هَذِهِ وَتِلْكَ الْمُتَعَلِّقَةِ بِـ'أَمْرَاضٍ مُشَابِهَةٍ' مُعَيَّنَةٍ.

وَلَيْسَ الدَّرْسُ الْحَقِيقِيُّ الْمُسْتَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْإِحْصَاءَاتِ هُوَ أَنَّ 'الْخَوَاصَّ' الْبَايُولُوجِيَّةَ 'لَأَيِّ' مِنْ هَذِهِ 'الْأَمْرَاضِ' مُتَغَيِّرَةٌ، بَلْ هُوَ أَنَّ الْمُسْتَعْلِينَ بِالطَّبِّ يَرْمِزُونَ إِلَى حَوَادِثٍ سَرِيرِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي أَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَفِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَأَنَّ مُمَارَسَةَ الطَّبِيبِ نَفْسِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ قَدْ تَغَيَّرَتْ مُنْذُ سَنَةِ 1918 اسْتِجَابَةً لِلتَّغْيِيرِ الْحَاصِلِ فِي أَفْكَارِهِ بِشَأْنِ مَجْمُوعَةِ 'الْأَمْرَاضِ الْمُشَابِهَةِ' الْمَعْيَنَةِ.

خُلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْإِحْصَاءَاتِ الطَّبِيبِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بِاسْتِعْمَالِ الرُّمُوزِ لِلْإِحَالَاتِ الْعَامَّةِ، سَوَاءً أَكَانَ الرَّمْزُ صَحِيحًا وَالْإِحَالَاتُ كَافِيَةً أَمْ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَشْيَاءِ، أَوِ الْوَقَائِعِ، أَوِ الْأَحْدَاثِ. وَلَيْسَتْ لَهَا قِيَمَةٌ أُسَاسِيَّةٌ إِلَّا بِوَصْفِهَا تَحْلِيلَاتٍ لِتَكَرُّارِ الرُّمُوزِ، مَا لَمْ يُتَّفَقْ عَلَى عِلَاقَةِ الرُّمُوزِ بِالْإِحَالَةِ وَعِلَاقَةِ الْإِحَالَةِ بِالْمَرَاجِعِ بَعْدَ ذَلِكَ التَّفَاقُشِ الْمُنَافِي بِشِدَّةٍ لِلْعَقْلِ الطَّبِيبِيِّ وَالْمَوْسُومِ عُمُومًا بِأَنَّهُ تَقْطِيعُ كَلِمَاتٍ غَيْرِ مُجْدٍ. عَلَى أَنَا إِذَا رَغَبْنَا فِي أَنْ نُقَبِّلَ تَحْلِيلَاتِ الْإِشْعَارَاتِ الْمَرَضِيَّةِ بِوَصْفِهَا دَلِيلًا عَلَى مَا حَدَثَ فِي الْمِيدَانِ السَّرِيرِيِّ، فَلَا شَكَّ فِي أَنَّا يَجِبُ أَنْ نَتَصَرَّفَ نَتَصَرَّفَ الْمُحَاسِبِينَ الْجَيِّدِينَ، فَتُقَارَنَ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي الْكُتُبِ بِالْعُمَلَةِ الْحَاضِرَةِ فِي الْيَدِ وَشَوَاهِدِ الصَّفَفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ.

وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِمَسْأَلَةِ الْقِيَمِ الْإِحْصَائِيَّةِ مَسْأَلَةُ الْبَحْثِ حِينَ تَمُوتُ الدَّوْلَةُ أَوْ تَدْعُمُهُ مَالِيًّا، وَتَتَحَكَّمُ بِهِ أَوْ تُوجِّهُهُ الْهَيَّآتُ الرَّسْمِيَّةُ. فَمِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ يَكَادُ مِثْلُ هَذَا الْبَحْثِ يَتَّخِذُ دَوْمًا الشَّكْلَ الظَّاهِرِيَّ لِلْبَحْثِ فِي الْأَمْرَاضِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْبَحْثَ الرَّسْمِيَّ الْمُخْلِصَ فِي الطَّبِيبَةِ وَالْعِلَاقَةِ لِلْإِحَالَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي نُسَمِّيهَا 'أَمْرَاضًا' سَيَدُرُّ بَعْضُ النَّفْعِ، لَكِنْ مَا يَتَخِيلُهُ عَامَّةُ النَّاسِ وَيَرْغَبُونَ فِيهِ هُوَ السَّأُولُ عَمَّا يَحْدُثُ. وَلَيْسَ الْفَرْصُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْإِيحَاءُ بِأَنَّ مِثْلَ هَذَا السَّأُولِ يُهْمَلُ كُلِّيًّا عَلَى مُسْتَوَى الْمُمَارَسَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَثِيرًا مَا يَحْدُثُ أَنَّ

ما يَقَعُ وما يُظْهِرُ الأَثَرَ الرَّسْمِيَّ الأَكْبَرَ فِي البَاحِثِينَ لَيْسَ هُوَ التَّسَاوُلُ عَنْ الأَمْرَاضِ وَلَا عَنْ الأَحْدَاثِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ تَبْلُغُ قِلَّةُ نَفْعِهِ مَا تَبْلُغُهُ قِلَّةُ نَفْعِ البَحْثِ فِي أَسْبَابِ الحَرْبِ الَّذِي تَضْطَلِعُ بِهِ لَجَنَةٌ مِنْ ضَبَاطِ الاسْتِخْبَارَاتِ تُسَخِّرُ جَهْدَهَا لِلْكَشْفِ عَنْ سُجَنَاءِ مُعْتَقَلِينَ فِي [344] الحَنَاقِ وَلِيُوصِفَ أَسْلِحَتَهُمْ وَتَجْهِزَاتِهِمْ.

إِنَّ الشَّيْءَ العَرَفِيَّ، كَالرَّصَاصَةِ، هُوَ مَا يَحْمِلُ عُقُولَ 'النَّاسِ العَمَلِيِّينَ' عَلَى الاقْتِنَاعِ؛ فَلِذَلِكَ حِينَ يُناقِشُ عُلَمَاءُ الوَبَائِيَّاتِ إِحَالَاتٍ عَامَّةً مُعَيَّنَةً يُسْئَلُونَهَا 'تَكُونِيَّاتٍ وَبَائِيَّةً' يَلْجَأُ البَاحِثُونَ الصَّارِمُونَ وَالْعَمَلِيُّونَ إِلَى إِنْتَاجِ شَيْءٍ مِثْلَ ذَلِكَ، عَلَى طَبَقٍ أَوْ صَحْنٍ كَبِيرٍ، يُشْبِهُ رَأْسَ يَوْحَنَّا المَعْمَدَانِي⁽¹¹⁾ (cf. Sir Thomas

Horder: *Brit. Med. Journal*, 1920, i., p. 235)

زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ وَفَوْقَهُ يَبْلُغُ تَحَكُّمُ الاسْتِعْمَالِ الانْفِعَالِي لِلُّغَةِ بِالعُقُولِ مَبْلَغًا يَجْعَلُ العِبَارَاتِ الَّتِي تُوجِي بِأَنَّ الوجودَ 'الوَاقِعِي' لِلْأَمْرَاضِ عِبَارَةً عَنْ مَوْضُوعَاتٍ تَصَوُّرِيَّةٍ مَعزُولَةٍ، تَقُودُ الأَطْبَاءَ إِلَى التَّفَكُّيرِ بِهَذِهِ الأَمْرَاضِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا تُبْعَدُ عَنَّا بِوَسَاطَةِ فِخَاخِ الأَسْلَاحِ الشَّائِكَةِ، أَوْ 'تُسَحِّقُ' مِنْ خِلَالِ قُوَى فِيزِيَائِيَّةٍ تُسْتَخْدَمُ بِلا رَحْمَةٍ. وَلَا يَقْتَصِرُ فَعْلَانَا عَلَى إِضْفَاءِ الطَّابِعِ المَادِّيِّ عَلَى هَذِهِ المُجَرَّدَاتِ، بَلْ إِنَّا نُشَخِّصُهَا حِينَ نُوَاصِلُ الحَدِيثَ عَنْ 'العَدُوِّ الوَحْشِيِّ لِلْجِنْسِ البَشَرِيِّ، الَّذِي يُهَاجِمُ سَوَاحِلَنَا' كُلَّمَا تَسَبَّبَ تَغْيِيرٌ فِي أَحْوَالِ الأنوَاءِ الجَوِّيَّةِ بِتَقْلِيلِ مُقَاوَمَةِ الشَّعْبِ لِطَفِيلِيَّاتِهِ الاعْتِيَادِيَّةِ، وَكَثُرَتْ حَالَاتُ السُّعَالِ والزُّكَامِ تَبَعًا لِذَلِكَ.

(11) يَوْحَنَّا المَعْمَدَانِي: هُوَ مَنْ عَمَّدَ السَّيِّدَ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ النِّصَارَى. وَيَذْكُرُ الإنجِيلُ أَنَّهُ وُلِدَ مِنْ أَبَوَيْنِ تَقِيَّتَيْنِ هُمَا زَكَرِيَّا وَآلِيصَابَات. أَمَّا عِنْدَ المُسْلِمِينَ فَهُوَ النَّبِيُّ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. أَمَّا قِصَّةُ رَأْيِهِ فِي المَسِيحِيَّةِ فَهِيَ أَنَّ المَلِكَ هِيرُودُسَ تَزَوَّجَ هِيرُودَا زَوْجَةً أَخِيهِ. وَكَانَ هِيرُودُسُ يَخَافُ أَنْ يَمْنَعَهُ يَوْحَنَّا مِنَ الزَّوْجِ بِزَوْجَةِ أَخِيهِ لِأَنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ، لِذَلِكَ سَخَّنَهُ، وَكَانَتْ هِيرُودَا تَحْقِيقُ عَلَى يَوْحَنَّا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. وَفِي عِيدِ مِيلَادِ المَلِكِ هِيرُودُسَ دَعَا العِظْمَاءَ إِلَى عِشَاءٍ فَاخِرٍ، وَدَخَلَتْ ابْنَتُهُ سَالُومِي لِتَرْقُصَ، فَسَرَّ المَلِكُ وَقَالَ لَهَا: اطْلُبِي مَا تَشَاقِينَ، فَشَاوَرَتْ الصَّبِيَّةَ أُمُّهَا هِيرُودَا، ثُمَّ طَلَبَتْ رَأْسَ يَوْحَنَّا المَعْمَدَانِيِّ عَلَى طَبَقٍ. فَارْسَلُ المَلِكُ سَيَافًا يَأْتِيهِ بِرَأْسِ يَوْحَنَّا. فَأَتَتْ بِرَأْسِهِ إِلَى الصَّبِيَّةِ الَّتِي سَلَّمَتْهُ إِلَى أُمِّهَا. وَدُفِنَ الرَّأْسُ فِي دِمَشَقَ. [المُتَرَجِم]

ثُمَّ يَأْتِي رَدُّ فِعْلِ حَنْمِيٍّ؛ إِذْ يُصْرَحُ أَحَدُ الشُّكُوكِيِّينَ الْمُشَاكِسِينَ، مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ فِي مَا يَعْنِيهِ، بِأَنَّ 'النَّزْلَةَ الْوَافِدَةَ' لَيْسَتْ سِوَى بِطَاقَةٍ تَعْرِيفِيَّةٍ، فِي حِينَ يَرَى آخَرُ مُضْطَرِبُ التَّفْكِيرِ 'أَنَّهَا' لَيْسَتْ مَرَضًا، بَلْ هِيَ مَجْمُوعَةٌ أَعْرَاضٍ مُتَلَازِمَةٌ، أَوْ تَجْمُوعُ أَعْرَاضٍ.

فَالَّذِي يَحْدُثُ أَنَّهُ فِي أَثْنَاءِ الْمُنَاقَشَةِ (لِلنَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ) يُعَامِلُ أَحَدُهُمُ الْاسْمَ بِوَصْفِهِ مُجَرَّدَ صَوْتٍ رِيحِ الْأَعْمَاءِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ آخَرُ عَلَى أَنَّهُ اسْمٌ لِإِحَالَةٍ عَامَّةٍ غَامِضَةٍ أَوْ غَيْرِ مُحَدَّدَةٍ، وَيَرَى فِيهِ ثَالِثٌ اسْمًا لِمَوْضُوعٍ لَهُ وَجُودٌ خَارِجِيٌّ وَوَاقِعِيٌّ، إِنْ لَمْ يَقُلْ: مَادِيٌّ.

وَلَنْ يُنَاقِشَ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ صِحَّةَ التَّرْمِيزِ الْمُتَضَمِّنِ، وَلَا كِفَايَةَ الْإِحَالَةِ، فِي حِينَ أَنَّ شَخْصًا مَا سِيلْمُحُ، يَقِينَا، إِلَى أَنَّ الْوَقَائِعَ الْمُوجِبَةَ أَوْ السَّالِبَةَ الْمَزْعُومَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِ'النَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ' يُمَكِّنُ إِثْبَاتَهَا أَوْ دَحْضَهَا بِفَحْصِ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ مِنَ 'الْحَالَاتِ' الَّتِي يُعْلَمُ كَوْنُهَا 'حَالَاتٍ' نَزْلَةً وَافِدَةً، وَهِيَ مَرَضٌ لَهُ، بِحُكْمِ الْفَرَضِيَّةِ الْمَوْضُوعَةِ، خَوَاصُّ وَصِفَاتٍ مُحَدَّدَةٍ تُحْدِثُ جَبَلٍ يُفْرِسَتْ أَوْ وَزَنٍ رَطَلٍ مِنَ الرُّصَاصِ، وَلَا يَتَطَلَّبُ إِلَّا أَنْ يَكْتَشِفَهُ خُبْرَاءُ مُعْتَمِدُونَ عَلَى نَحْوِ مُلَاتِمٍ وَيَأْخُذُوا قِيَاسَهُ.

وَيُوَاجِهُ أَيُّ لُجُوءٍ إِلَى التَّعْرِيفِ بِالاسْتِشْهَادِ بِمَقُولَةِ جُون هَنْتِر John Hunter⁽¹²⁾ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ التَّعْرِيفَاتِ هِيَ أَكْثَرُ شَيْءٍ اسْتِحْقَاقًا لِلْغِنَى مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَتُقَابَلُ أَيُّهُ مُطَالَبَةٌ بِالضَّبْطِ فِي اللَّغَةِ أَوْ الْفِكْرِ بِالْقَسَمِ بِأَنَّ الطَّبَّ لَيْسَ عِلْمًا مُنْضَبِّطًا.

وَتَمَّةُ اتِّفَاقٍ عَامٍّ، فِي الْأَقْلِّ، عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ.

لَكِنْ هَلْ يُرَضِينَا أَنْ نَتْرَكَ الْأَمْرَ عَلَى هَذِهِ الشَّائِكَةِ؟ وَهَلْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَكُونَ [345] رَاضِينَ بِأَنْ نَتْرَكَهُ عَلَى هَذِهِ الشَّائِكَةِ؟ وَهَلْ نُدْعِي لِمَا يُلْمَحُ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ

(12) جُون هَنْتِر (1728-1793م). جَرَاحٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ. يُعَدُّ أَحَدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَالْجَرَاحِينَ فِي زَمَانِهِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

عُمَقُ التَّفَكُّيرِ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ عِدَّةِ الطَّيِّبِ؟ وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ الاسْتِعْمَالَ الصَّحِيحَ لِلْعَلَامَاتِ جُزْءٌ أَساسِيٌّ مِنْ آليَّةِ الْمُفَكَّرِ كَمَا أَنَّ الاسْتِعْمَالَ الصَّحِيحَ لِإِبْرَةِ الزَّرْعِ الْبَلَاتِينِيَّةِ وَالْمَصَصُ جُزْءٌ أَساسِيٌّ مِنْ آليَّةِ عَالِمِ الْبِكْتِيرِيَا؛ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْجَلَ مِنَ الاعْتِرَافِ بِأَنَّ الْفِكْرَ، وَالتَّعْبِيرَ عَنِ الْفِكْرِ، يَتَطَلَّبَانِ مِنَ الْجَرْفِيَّةِ الْكَبِيرَةِ مَا لَا يَقِلُّ عَمَّا يَتَطَلَّبُهُ مِنْهَا تَقْطِيعُ شَرَائِخٍ مِنْ أَنْبُوبِ شَغْرِيٍّ وَمُعَالَجَتُهُ بِبِرَاعَةٍ. وَمَعَ ذَلِكَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَتَوَافَرُ فِيهِ الْمُقَرَّرَاتُ الَّتِي تَوْضِحُ الْآلِيَّةَ الْمُخْتَبِرِيَّةَ وَالَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا الطُّلَّابُ، لَا نَجِدُ وَاحِدًا مِنْهَا مُحْصَصًا لِإِبْصَاحِ الْمَبَادِي الْأَسَاسِيَّةِ لِلطَّبِّ، وَالْأَخْطَاءِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْفِكْرِ وَالتَّوَاضُّلِ.

فِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ بَدَأَ لِلْكَاتِبِ الْحَالِي قَبْلَ سَنَةٍ أَوْ سَتَيْنِ أَنَّهُ قَدْ يَتَوَصَّلُ إِلَى نَتِيجَةٍ نَافِعَةٍ إِذَا مَا حَاوَلَ إِزَالَةَ بَعْضِ مَصَادِرِ التَّخْلِيطِ، الْمُسَخَّصَةِ آتِفًا، بِوَسَاطَةِ الْكِتَابَةِ مِنْ زَاوِيَةِ الْجَدَلِ الْكَبِيرِ لِلْفَلَسَفَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ، مُؤَشِّرًا كَيْفَ يَقُومُ مَقَامَ الْمَدْرَسِيِّ الْأَسْمِيِّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الشُّكُوكِي الَّذِي يَقُولُ إِنَّ 'النِّزْلَةَ الْوَافِدَةَ' مَا هِيَ إِلَّا اسْمٌ، أَمَّا الْمَدْرَسِيُّ الْوَاقِعِيُّ فَيُمَثِّلُهُ الْيَوْمَ مَنْ يُلْقِنُ أَنَّ النِّزْلَةَ الْوَافِدَةَ 'كِيَانٌ مَرَضِيٌّ'.

لِلذَلِكَ كَانَتْ ثَمَّةُ مَقَالَةٍ أَوْ مَقَالَتَيْنِ اسْتَمَرَّتْ إِعَادَةُ طَبْعِهِمَا مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، وَقَدْ تَضَمَّنَا اقْتِرَاحَ أَنَّ السَّلَامَةَ تَكْمُنُ فِي تَبْنِي الْوَضْعِ التَّصَوُّرِيِّ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى وَلِيمِ الْأُوكَامِيِّ William of Occam فِي الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ Encyclopedia Britannica (11th ed., arts. 'Occam' and 'Scholasticism'). إِذْ نُخْبِرُ هُنَاكَ (Vol. 24, p. 355) أَنَّ 'إِضْفَاءَ الطَّابِعِ الْمَادِّيِّ عَلَى الْمُجَرَّدَاتِ هُوَ الْخَطَأُ الَّذِي يَسْتَمِرُّ أَوَّكَامَ فِي مُكَافَحَتِهِ'، وَأَنَّهُ يَرَى أَنَّ 'الْكُلِّيَّةَ لَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَفْهُومٍ عَقْلِيٍّ يَدُلُّ أَحَادِيثًا عَلَى عِدَّةِ مُفْرَدَاتٍ'، وَأَنَّهُ 'لَيْسَتْ لَهُ حَقِيقَةٌ وَرَاءَ حَقِيقَةِ الْفِعْلِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُؤَلِّدُهُ، وَحَقِيقَةُ الْمُفْرَدَاتِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا'.

أَمَّا نَحْنُ، مَعَاشِرَ الْأَطِبَّاءِ، فَأَكْثَرُ مَا يَسْتَحِذُ عَلَى اهْتِمَامِنَا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ هُوَ الْإِحَالَاتُ الْعَامَّةُ الَّتِي نَدْعُوهَا أَمْرَاضًا خَاصَّةً، وَمُفْرَدَاتُنَا الَّتِي نَأْلِفُهَا هِيَ الْأَعْرَاضُ وَ'الْحَالَاتُ' الَّتِي تُرَافِقُهَا، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْإِضْفَاءُ لِلطَّابِعِ الْمَادِّيِّ عَلَى الْمُجَرَّدَاتِ

هُوَ الْخَطَأُ عَيْنَهُ الَّذِي كَافَهُهُ السَّيْرُ كِلْفُورْدُ الْبُوتِ طَوَالَ عُمْرِهِ، فِي حِينِ أَنَّ الرُّوحَ
الَّتِي أَلْهَمَتْ أَوَكَامَ- "رُوحٌ تَرْتَابُ فِي الْمَجَرَّدَاتِ، وَتُوسِّعُ مَجَالَ الْمُلَاحَظَةِ
الْمُبَاشِرَةِ، وَالْبَحْثِ الْاسْتِقْرَائِيِّ"- هِيَ الرُّوحُ الَّتِي مَا زَالَتْ تُوجِّهُ عَمَلَ جَمِيعِ
الْأَطِبَّاءِ السَّرِيرِيِّينَ الْحَقِيقِيِّينَ. هَذِهِ الرُّوحُ هِيَ رُوحُ أَبُقْرَاطِ Hippocrates⁽¹³⁾ نَفْسِهِ،
الَّذِي "وَصَفَ الْأَعْرَاضَ عِنْدَ الْأَشْخَاصِ لَا الْأَعْرَاضَ الْمَرْسُومَةَ لِتُطَابِقَ أَشْكَالاً
مِثَالِيَّةً مُعَيَّنَةً مِنَ الْمَرَضِ" (آدَمَزْ Adams⁽¹⁴⁾). غَيْرَ أَنَّ الْوَاقِعِيَّةَ اللَّاَوَاعِيَّةَ لـ"بَاحِثِنَا"
الْمُعَاصِرِينَ فَاقَتْ بِمَرَاكِحَ فَلَسَفَةِ سَيِّدِهِمْ غَيْرِ الْمُعْلَنِ، [346] الْأَفْلَاطُونِيّ الْجَدِيدِ
الْعَظِيمِ جَالِينُوسٍ؛ فَهُمْ يَصِفُونَ الْكِيَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ، حَتَّى هُوَ، سَيُحْجَمُ عَنْهَا، مِنْ
غَيْرِ تَرَدُّدٍ أَوْ شَكٍّ.

عَلَى أَنَا حَتَّى لَوْ تَجَنَّبْنَا مُغَالَطَاتِ الْوَاقِعِيِّينَ لَوَجَبَ عَلَيْنَا مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَتَجَبَّبَ
الْإِقْتِنَاعَ بِالْإِقْتِصَارِ عَلَى تَجْمِيعِ الْمُفْرَدَاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَعَلَى الْإِذْعَانِ بِكَسَلٍ مِنْ
نَاحِيَةٍ أُخْرَى لِبَعْضِ إِزْعَاجَاتِ التَّعْبِيرِ التَّصَوُّرِيِّ الْمُسَخَّصَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ (يُنْظَرُ
أَيْفَا: ص 190-192). وَقَدْ يَرْجِعُ سَبَبُ نُشُوءِ بَعْضِ هَذِهِ الْإِزْعَاجَاتِ إِلَى نَقْصِ
الْخَبَرَةِ لَدَى الشَّارِحِينَ الْقَلِيلِي الْخَبَرَةِ (وَمِنْهُمْ كَاتِبُ هَذِهِ السُّطُورِ) لَا إِلَى ضَعْفِ
مُتَأَصِّلٍ فِي النَّزْعَةِ التَّصَوُّرِيَّةِ Conceptualism؛ لَكِنْ يُمَكِّنُ الْإِعْرَافَ بِهَا، وَيُمَكِّنُ
أَنْ نَضْمَ جُهِودَنَا إِلَى جُهِودِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي مُحَاوَلَتِهِمَا تَهْيِئَةَ طَرِيقَةٍ أَكْثَرَ تَمَيُّزًا.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ النِّتَةِ فِي مَا يَأْتِي مِنْ هَذَا الْبَحْثِ لِلتَّعْبِيرِ بِلُغَةٍ
هَذَيْنِ الْمُؤَلِّفِينَ عَنِ الصُّعُوبَاتِ الَّتِي (عَلَى وَفْقِ التَّعْبِيرِ الْعَاطِفِيِّ) تَكْتَنِفُ سَبِيلَ
الطَّبِيبِ الْمُفَكِّرِ، مِنْ الْمُؤَمِّلِ أَنْ يُؤَدِّيَ عَرَضُ حَالَةٍ خَاصَّةٍ إِلَى أَنْ يُعَزَّزَ، مِنْ وَجْهَةٍ
نَظَرِ الطَّبِيبِ، مَا قَدْ قَالَاهُ فِي مُطَالَبَتِهِمَا بِالتَّبْنِيِ الْعَامِّ لِنَظَرِيَّةٍ لِلْمُرْمُوزِيَّةِ.

(13) أَبُقْرَاطُ (460-370 ق.م). طَبِيبٌ إِغْرِيقِي قَدِيمٌ. يُعَدُّ أَبَا الطَّبِّ، وَأَعْظَمُ أَطِبَّاءِ عَصْرِهِ،
وَأَوَّلُ مُدَوِّنِ لِكُتُبِ الطَّبِّ، وَمُخْلَصُ الطَّبِّ مِنْ آثَارِ الْفَلَسَفَةِ وَظُلُمَاتِ الطُّقُوسِ السَّحَرِيَّةِ.

وَهُوَ صَاحِبُ فِكْرَةِ الْقَسَمِ الْمَشْهُورِ الَّتِي يُؤَدِّيهِ الْأَطِبَّاءُ قَبْلَ مُرَاوَلَةِ بَيْتِهِ الطَّبِّ. [الْمُتَرْجِمُ]

(14) فِرَانْسِيْسْ آدَمَزْ (1796-1861م). طَبِيبٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ تَرَجَّمَ عَدَدًا مِنَ الْأَعْمَالِ الطَّبِّيةِ الْيُونَانِيَّةِ
إِلَى اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَمِنْ ضَمَنِهَا أَعْمَالُ أَبُقْرَاطِ. [الْمُتَرْجِمُ]

والحالة الخاصة التي سَنَعْرِضُهَا الْآنَ هِيَ الَّتِي كُنَّا قَدْ ذَكَرْنَاهَا آنِفًا بِوَصْفِهَا قَدْ وَجَّهَتْ اهْتِمَامَ الْكَاتِبِ الْحَالِي تَوْجِيهًا مُحَدَّدًا، قَبْلَ بَضْعِ سَنَوَاتٍ، إِلَى الْمَسَائِلِ الَّتِي نَاقَشَهَا هَذَا الْكِتَابُ؛ وَالشُّعُورُ الْحَاضِرُ هُوَ أَنَّ الصُّعُوبَاتِ أَنْفُسَهَا لَنْ تَخْتَفِيَ مَا لَمْ تُوضَّحِ الْمَسَائِلُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ لِلْعَلَامَاتِ وَنَقْدِهَا لِاسْتِعْمَالِ اللَّغَةِ، سَوَاءً أَكَانَتْ الْآرَاءُ الَّتِي يَتَّبِعُهَا كَاتِبُ هَذِهِ السُّطُورِ بِشَأْنِ الْحَلِّ الْحَقِيقِيِّ لِلصُّعُوبَاتِ صَحِيحَةً أَمْ كَانَتْ غَيْرَ صَحِيحَةٍ.

فَقَبْلَ نَحْوِ ثَمَانِينَ سَنَةً لَحَظَ جِرَاحُ مُتَخَصِّصٍ فِي كُسُورِ الْعِظَامِ اسْمُهُ هَايَنَةُ Heine⁽¹⁵⁾ يَعْمَلُ قَرِيبًا مِنْ شَتِوتغارتِ إصَابَةً عَدِيدٍ مِنَ الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ بِشَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الشَّلَلِ فِي طَرَفٍ أَوْ أَكْثَرٍ، يَكَادُ يَكُونُ غَيْرَ مُزْمِنٍ، وَأَنَّهُ كَانَ يَغْقُبُ ذَلِكَ فَقْدَانًا لِلْقُوَّةِ وَاضِحٌ وَمُسَبَّبٌ لِلْهَزَالِ. وَقَدْ عَرَفَ مَنْ قَبْلُنَا مُبَكِّرًا هَذَا النَّوعَ مِنَ الْمَرَضِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَنْلُ عَلَى أَيْدِيهِمْ حَظًا وَافِرًا مِنَ الْوَصْفِ كَمَا نَالَ عِنْدَ هَايَنَةِ. وَبِاسْتِقْطَابِ أَطْرُوحَةِ هَايَنَةِ الْاهْتِمَامِ الْعَامِّ، وَبِتَأْكِيدِ مَلْحُوظَاتِهِ عُمُومًا، أُقِرَّ بِإِحَالَةِ عَامَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، أَوْ 'مَرَضٍ'، أُطْلِقَ عَلَيْهِ فِي إِنْجِلْتْرَا اسْمُ 'شَلَلِ الْأَطْفَالِ الشُّوكِيِّ' Infantile Spinal Paralysis؛ إِذْ أُقِرَّ بِأَنَّ الشَّلَلَ وَالْهَزَالَ كَانَا يَتَّبَعَانِ تَضَرُّرَ الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ. وَقَدْ أَدَّى ازْدِيَادُ الْخِبْرَةِ، وَفَحْصُ الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ فِي الْحَالَاتِ الَّتِي تُوقِفَتْ بَعْدَ مُرُورِ زَمَنِ قَلِيلٍ عَلَى بَدَايَةِ الشَّلَلِ، إِلَى تَوْسِيعِ مَعْرِفَتِنَا لِلْحَالَاتِ، وَضُمْنَتِ الْأَعْرَاضِ عَلَى نَحْوِ مُحَدَّدٍ فِي الْأَضْرَارِ الَّتِي تَلْحَقُ مَا يُسَمَّى بِالْقُرُونِ الْأَمَامِيَّةِ لِلْمَادَّةِ الرَّمَادِيَّةِ لِلْحَبْلِ الشُّوكِيِّ. وَقَدْ عُذَّتِ الْأَضْرَارُ فِي الْبَدَايَةِ الَّتِيهَابَا حَادًّا، وَرُمِزَ إِلَى الْمَفْهُومِ السَّرِيرِيِّ-الْمَرَضِيِّ بِتَعْبِيرِ 'الْتِهَابِ الْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ' الشُّوكِيَّةِ الْأَمَامِيَّةِ الْحَادَّةِ Acute Anterior Poliomyelitis. [347]

(15) جاكوب هَايَنَةُ (1800-1879م). اخْتِصَاصِيٌّ فِي تَقْوِيمِ الْعِظَامِ أَلْمَانِيٌّ. أَكْثَرُ مَا اشتهَرَ بِهِ دِرَاسَتُهُ لِشَلَلِ الْأَطْفَالِ الَّتِي أَنْجَزَهَا سَنَةَ 1840، وَالَّتِي كَانَتْ الْقَرِيرَ الطَّبِّيَّ الْأَوَّلَ عَنْ هَذَا الْمَرَضِ الَّذِي غَالِبًا مَا يُعْرَفُ بِاسْمِ مَرَضِ هَايَنَةِ-مِيدِن، اعْتِرَافًا بِفَضْلِ جَاكُوبِ هَايَنَةِ وَكَارِلِ أَوْسْكَارِ مِيدِن فِي هَذَا الْمَجَالِ. [الْمُتَرْجِمُ]

وَبَعْدَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، كَانَ ثَمَّةَ كَشْفٍ حَاسِمٍ لِمِدِينِ Medin⁽¹⁶⁾، وَهُوَ سُويْدِيٌّ كَانَتْ لَهُ مَلْحُوظَاتٌ مُوسَّعَةٌ عَلَى مُسْتَوَى التَّطْبِيقِ، مَفَادُهُ أَنَّ الْحَالَاتِ الَّتِي مِنَ النَّوْعِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ حَدَّثَتْ مُرْتَبِطًا بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ، أَوْ عَلَى نَحْوِ وَبَائِيٍّ، وَكَذَلِكَ بِارْتِبَاطٍ وَبَائِيٍّ بِحَالَاتٍ أُخْرَى كَانَتْ أَعْرَاضُهَا دِمَاعِيَّةً وَنَاجِمَةً عَنْ أَضْرَارٍ تَقَعُ فِي الدِّمَاغِ.

وَسَارَ وَحْمَانِ Wickman⁽¹⁷⁾ تَلْمِيزُ مِيدِنْ بِهَذِهِ الْمَلْحُوظَةِ شَوْطًا أَبْعَدَ. إِذْ أَدْرَكَ التَّرَاطُفَ الْوَبَائِيَّ لِلْحَالَاتِ ذَوَاتِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي وَصَفَهَا هَايَنَةَ وَمِيدِنْ بِحَالَاتِ ذَوَاتِ أَنْمَاطٍ سَرِيرِيَّةٍ أُخْرَى، وَكُلُّهَا يُبْدِي وَظِيفَةً مُضْطَرِبَةً لِقِسْمٍ مَا مِنْ أَقْسَامِ الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ الْمَرْكَزِيِّ. وَأَظْهَرَ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ بِاخْتِلَافِ السِّنِينَ، أَوْ بِاخْتِلَافِ الْأَوْبِنَةِ، سَادَتْ أَنْمَاطٌ مُخْتَلِفَةٌ لِلْحَالَةِ، وَإِنْ اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الْحَالَاتِ فِي الطَّبِيعَةِ الْعَامَّةِ لِلْأَضْرَارِ الَّتِي وَقَفَتْ عَلَيْهَا بِالْفَحْصِ الْقَائِمِ عَلَى تَشْرِيحِ الْجُثَّةِ.

وَقَدْ أَطْلَقَ اسْمَ مَرَضِ هَايَنَةَ-مِيدِنْ عَلَى الْإِحَالَةِ الْعَامَّةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي مَكَّنَتْهُ عِبْقَرِيَّتُهُ السَّرِيرِيَّةُ مِنْ إِنْشَائِهَا، مُسْتَأْنِفًا مَدَى وَاسِعًا مِنْ حَالَاتِ ذَوَاتِ مَنْحَى سَرِيرِيٍّ مُخْتَلِفٍ يَعْتَمِدُ عَلَى تَمَرُّكِزٍ مُخْتَلِفٍ لِلْعَمَلِيَّةِ الْحَادَّةِ فِي الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ.

وَفِي مُؤَلَّفٍ لَاجِئٍ لَهُ وَسَّعَ قَاعِدَةً هَذَا الْمَفْهُومِ الشَّرَكِيَّ الْعَظِيمِ كَذَلِكَ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّهُ فِي بَدَايَةِ حَالَاتِ مَرَضِ هَايَنَةَ-مِيدِنْ (عَلَى مَا تَصَوَّرَهُ) كَثِيرًا مَا ظَهَرَتْ أَعْرَاضُ نَزْلِيَّةٍ catarrhal (أَوْ تُشَبِّهُ النُّزْلَةَ الْوَافِدَةَ) حَادَّةٌ وَكَانَ حَدُوثُهَا وَثِيقَ الْارْتِبَاطِ بِحَالَاتٍ أُخْرَى ذَوَاتِ طَبِيعَةٍ نَزْلِيَّةٍ حَادَّةٍ لَمْ تُبْدِ آيَّةَ عِلَاقَةٍ مِنْ عِلَاقَاتِ الْأَضْطِرَابِ الْعَصَبِيِّ. وَقَدْ عَدَّ هَذِهِ الْحَالَاتِ حَالَاتٍ 'مُجْهَضَةٌ' لِمَرَضِ هَايَنَةَ-مِيدِنْ.

(16) كارل أوسكار ميدن (1847-1927م). طبيب أطفال سويدي. أكثر ما اشتهر به دراسته لشلل الأطفال الذي يُعرف باسم مرض هايئة-ميدن. [المترجم]

(17) أوتو آيفر وثمان (1872-1914م). طبيب سويدي. اكتشف سنة 1907 الطابع الوبائي والمُعْدِي لمرض شلل الأطفال. نشر سنة 1905 أطروحته للدكتوراه عن شلل الأطفال. كان تلميذ اختصاصي أمراض الأطفال كارل أوسكار ميدن. [المترجم]

غَيْرَ أَنَّ وَكْمَانَ وَاصَلَ مَسِيرَهُ فِي سُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ؛ فَفِي إِنْجَلْتِرَا، حَيْثُ كَانَ مَا أَنْجَزَهُ هُوَ وَمَا أَنْجَزَهُ مِيدَنَ أَيْضًا لَمَّا يَنَالَا بَعْدَ حَظُّهُمَا مِنَ الدِّرَاسَةِ، كَانَ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُمَكِّنِ أَنْ تَكُونَ حَالَةُ اضْطِرَابٍ عَصَبِيٍّ نَاجِمَةً عَنِ التَّهَابِ فِي الدِّمَاغِ حَالَةً مِنْ حَالَاتِ الْإِلْتِهَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ الشُّوكِيَّةِ الْأَمَامِيَّةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْعَالَمُ كُلُّهُ أَنَّهُ مَرَضٌ يُصِيبُ جُزْءًا مَحْدُودًا فَقَطْ مِنَ الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ!

وَقَدْ عُدَّ الْحَدِيثُ عَنْ مَرَضٍ جَدِيدٍ يُدْعَى مَرَضَ هَايَنَة-مِيدَنَ مُحَاوَلَةً تَافِهَةً مِنْ جَانِبِ بَعْضِ الْأَجَانِبِ لِلْعَصْرِ مِنْ مَقَامِ الْمُتَابِعِينَ الْإِنْجِلِيزِ الَّذِينَ تَبَنَوْا وَجِهَاتِ النَّظَرِ السَّائِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ مِيدَنَ وَوَكْمَانَ أَبْحَاثُهُمَا. وَقَدْ قِيلَ إِنَّ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ حَالَاتِهِمَا الدِّمَاغِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حَالَاتٍ لِمَرَضٍ مُخْتَلِفٍ تَمَامًا، وَهُوَ مَرَضٌ يُصِيبُ الدِّمَاغَ لَا الْحَبْلَ الشُّوكِيَّ. وَابْتِكِرَ حِينَئِذٍ اسْمُ الْإِلْتِهَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدِّمَاغِ Acute Polio-encephalitis لِيَقْبِي بِمُقْتَضَيَاتِ الْحَالِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّحْذِيرَاتِ الْمُبَكِّرَةِ الَّتِي أَطْلَقَهَا شْتْرُومْبِيل (18) Strümpell بِالضَّدِّ مِنْ آيَةٍ مُضَاعَفَةٍ غَيْرِ ضَرُورِيَّةٍ لِلْأَمْرَاضِ. وَإِنَّ تَبَنِيَّ هَذَا التَّفْرِيقِ الْمُصْطَنَعِ كُلًّا بَيْنَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَمَّى طَرَفِي نِطَاقِ هَايَنَة-مِيدَنَ أَكْثَرُ مَا بَعْدَ حِينٍ وَجَدَ أَنَّ إِعَادَةَ الْإِنْتِاجِ التَّجْرِبِيَّةَ لِلْأَعْرَاضِ وَالْأَضْرَارِ فِي الْقِرْدَةِ (نَتِيجَةٌ لِتَطْعِيمِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ بِأَجْزَاءٍ مِنْ أَنْسِجَةِ مَرِيضَةٍ مَأْخُودَةٍ مِنَ الْبَشَرِ) كَانَتْ أَقْلَ نَجَاحًا حِينَ تُؤْخَذُ مَادَّةُ التَّطْعِيمِ مِنَ الدِّمَاغِ مِنْهَا حِينَ تُؤْخَذُ مِنَ الْجِبَالِ الشُّوكِيَّةِ. وَفِيمَا بَعْدَ كَانَتْ الْحَاجَةُ مَا زَالَتْ قَائِمَةً إِلَى الْإِشْعَارِ الْمُنْفَصِلِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ مُمَارِسُو الطَّبِّ عَنْ حَالَاتِ 'الْإِلْتِهَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ'، وَ'الْإِلْتِهَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدِّمَاغِ'، وَقَدْ كَانَ مَا حَظِي بِهِ إِنْجَارُ وَكْمَانَ مِنَ التَّقْدِيرِ ضَيَالًا جَدًّا حَتَّى فِي سَنَةِ 1918، حَتَّى إِنَّ السَّيْرَ آرْتَرَ نِيُوشُولَمَ Arthur Newsholme (19)، الَّذِي كَانَ

(18) إِرْنِسْت أَدُولْف غُوسْتَاَف غُوتْفْرِيد فُون شْتْرُومْبِيل (1853-1925م). طَبِيبُ أَعْصَابِ أَلْمَانِي. [الْمُتَرْجِمُ]

(19) آرْتَرَ نِيُوشُولَم (1857-1943م). خَبِيرٌ بَرِيطَانِيٌّ رِيَادِيٌّ فِي الصِّحَّةِ الْعَامَّةِ فِي الْعَهْدِ الْفِكْتُورِي. [الْمُتَرْجِمُ]

آنذاك الْمَسْؤُولُ الطَّبِي الرَّئِيسَ فِي مَجْلِسِ الْحُكُومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ، كَتَبَ عَنْ "الأشكالِ الْكَثِيرَةِ لِلْمَرَضِ- أَوْ لِمَجْمُوعَةِ الْأَمْرَاضِ- الَّتِي يُلَصِّقُ بِهَا عُلَمَاءُ تَصْنِيفِ الْأَمْرَاضِ الْآنَ الْبِطَاقَةَ غَيْرَ الْمُمَيَّزَةِ 'مَرَضِ هَايْنَة-مِيدَن 'Heine-Medinische Krankheit'".

(Report of an Inquiry into an Obscure Disease, Encephalitis Lethargica: [348]

Reports to the Local Government Board on Public Health and Medical

Subjects, New Series, No. 121.)

وَالْحَاجَةُ قَائِمَةٌ حَتَّى فِي يَوْمِنَا هَذَا إِلَى إِشْعَارٍ مُنْفَصِلٍ بِشَأْنِ هَذَيْنِ 'الْكِيَانَيْنِ'، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُمَارِسَ الطَّبِّ لَمْ يُزَوِّدْ بِمَا يَدُلُّهُ عَلَى مَسَارِ الْأَحْدَاثِ حِينَ تَكُونُ أَعْرَاضُ إِصَابَةِ الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ وَالْذِّمَاغِ كِلَيْهِمَا حَاضِرَةً فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، وَهَذَا مَا يَحْدُثُ كَثِيرًا جَدًّا.

لَكِنْ لِنَعُدَّ إِلَى الْوَرَاءِ. فَقَدْ بَدَأَ الْأَطِبَّاءُ فِي أَمْرِيكَ قَبْلَ الْحَرْبِ الْعُظْمَى يُمَيِّزُونَ سَلَاسِلَ كَامِلَةً مِنَ الْحَالَاتِ وَالْأَوْبِنَةِ ذَوَاتِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي كَانَتْ وَحْدَانِ أَمِينًا جَدًّا فِي وَصْفِهَا، وَالَّتِي أَسِيءَ فَهْمُهَا إِسَاءَةً بِالْعَمَلِ فِي إِنْجِلْتَرَا. وَبَلَّغَتْ هَذِهِ الْأَوْبِنَةُ ذُرُوتَهَا فِي الْإِنْتِشَارِ الْوَاسِعِ فِي نِيُيُورِكْ وَمَا حَوْلَهَا لَمَّا عُرِفَتْ بِاسْمِ الْوَبَاءِ الْكَبِيرِ فِي سَنَةِ 1916.

وَجَمِيعُ الْخَصَائِصِ الْمُمَيَّزَةِ الَّتِي لَخَّصَهَا وَحْدَانِ فِي إِحَالَتِهِ الْعَامَّةِ الْكَبِيرَةِ وَرَمَزَ إِلَيْهَا بِمَرَضِ هَايْنَة-مِيدَن كَانَتْ الْأَطِبَّاءُ الْأَمْرِيكِيُّونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ عَرَفُوهَا وَدَرَسُوهَا، لَكِنَّهُمْ، لِسُوءِ الْحِظِّ، اسْتَبَقُوا اسْمَ 'الْإِثْيَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ'، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ ذَلِكَ جَرَى عَمَلًا بِمَبْدَأِ تَفْسِيرِ الْكَلِمَةِ بِعَكْسِ مَا تُوجِي بِهِ، مَا دَامَ وَصَفُ الْأَضْرَارِ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْمَادَّةِ الرَّمَادِيَّةِ بَلْ شَمِلَ الْمَادَّةَ الْبَيْضَاءَ لِلْذِّمَاغِ وَالْحَبْلَ الشُّوكِيَّ أَيْضًا.

وَلَمْ تَجْرِ، لِحُسْنِ الْحِظِّ، مُحَاوَلَةُ التَّفْرِيقِ السَّخِيفَةِ بَيْنَ 'الْإِثْيَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ' وَ'الْإِثْيَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الذِّمَاغِ'.

عَلَى أَنَّ الْأَطِبَّاءَ فِي أَمْرِيكَ ذَهَبُوا، فِيمَا عَدَا مَسْأَلَةَ التَّرْمِيزِ، إِلَى أَعْدَ حَتَّى

مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَكُثْمَان؛ إِذْ إِنَّ الدُّكْتُورَ دَرَبَر Draper⁽²⁰⁾، الَّذِي قَدْ يَكُونُ أَكْثَرُ الْمُعَقِّبِينَ اقْتِدَارًا، كَانَ قَدْ قَدَّمَ مَفْهُومَهُ بِشَأْنِ الْإِلْتِهَابِ الْحَادِّ لِلْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَدُ أَنْوَاعِ مَرَضٍ مُعْدٍ عَامٌّ يَكُونُ حَدُوثُ الشَّلَلِ فِي أَثْنَائِهِ عَرَضِيًّا وَطَارِئًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْجِهَازَ الْعَصَبِيَّ، عَلَى مَا يُتَابَعُ قَوْلُهُ، لَا يَكُونُ طَرَفًا فِي ذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ، وَذَلِكَ حِينَ يُمَكِّنُ أَنْ تُصِيبَ الْأَضْرَارُ أَيَّ جُزْءٍ مِنَ الْجِسْمِ. (cf. Ruhräh and Mayer, *Poliomyelitis in all its Aspects*, 1917).

إِنَّ تَصَوُّرَ دَرَبَر، الَّذِي هُوَ أَوْسَعُ بِكَثِيرٍ حَتَّى مِنْ تَصَوُّرِ وَكُثْمَان، مُسَوِّغٌ تَمَامًا بِقَدْرِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ حِينَ يُنْظَرُ فِي الْخَبَرَاتِ مُجْتَمِعَةً.

وَمَبْعَثُ الشُّكِّ الْوَحِيدُ (وَهُوَ الَّذِي أَعْلَمُ أَنَّ الدُّكْتُورَ دَرَبَرَ نَفْسَهُ يُشَاطِرُنِي إِتَاهُ) هُوَ التَّسَاوُلُ الَّذِي مَفَادُهُ: أَلَا يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ مَعَ ذَلِكَ إِحَالَةً أَوْ مَفْهُومًا تَرْكِيبيًّا أَوْسَعَ، إِذَا مَا أُريدَ التَّعَامُلُ بِكِفَافِيَّةٍ مَعَ مِلْحُوظَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الْمَجَالِ السَّرِيرِيِّ أَكْثَرَ جِدَّةً مِنْ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ فِي سَنَةِ 1916؟

وَكَيْفَمَا يَكُنِ الْأَمْرُ (وَسَوْفَ نُنَاقِشُ هَذِهِ النُّقْطَةَ) فَإِنَّ اسْتِبْقَاءَ الْأَطِبَّاءِ فِي أَمْرِيكَ تَرْمِيزًا لَا صِحَّةَ لَهُ الْبَتَّةَ كَانَ أَمْرًا مُؤَسِّفًا جِدًّا. ذَلِكَ بِأَنَّا نَحْنُ الْإِنْجِلِيزُ كُنَّا، بَيْنَ سَنَتَيْ 1916-1917، مُشْغِلِينَ انْشِغَالًا لَمْ تَنْحُ لَنَا مَعَهُ دَقَّةُ التَّفْكِيرِ، وَلَمَّا تَنَاهَى إِلَى سَمْعِنَا ظُهُورُ وَبَاءٍ مُعَيَّنٍ فِي نِيُيُورْكَ يُدْعَى الْإِلْتِهَابُ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ لَهُ مَظَاهِيرُ مُغَايِرَةٍ تَمَامًا لِلْمَظَاهِيرِ الَّتِي اعْتَدْنَا نَعْرِفُهَا بِوَسَاطَةِ هَذَا الْأِسْمِ، عَدَدْنَا الْكَثِيرَ مِنَ التَّقَارِيرِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا مِنْ نِزَوَاتِ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ.

وَالْحَقُّ أَنَّهُ فِي سَنَةِ 1918 أَخْبَرَنِي أَحَدُ أَكْثَرِ اخْتِصَاصِيِّينَا تَبْرِيرًا أَنَّ فِي وَسْعِهِ، بَعْدَ تَجَرِبَةٍ شَخْصِيَّةٍ لَهُ فِي نِيُيُورْكَ فِي سَنَةِ 1916، أَنْ يَجْزِمَ بِأَنَّ مُعْظَمَ الْحَالَاتِ الَّتِي عُدَّتْ مِنْ حَالَاتِ الْإِلْتِهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ (أَيَّ بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ دَرَبَر) لَمْ تَكُنْ سِوَى حَالَاتٍ نَزَلَتْ وَافِدَةً! وَقَدْ صِغَ هَذَا

(20) جورج دَرَبَر (1880-1959م). كَانَ الطَّبِيبَ الشَّخْصِيَّ لِرئيسِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ فِرَانْكِلِن رُوزْفِلْت تَقْدِيرًا لِعِلْمِهِ بِمَرَضِ شَلَلِ الْأَطْفَالِ. [المُترجم]

التَّصْرِيحُ بِطَرِيقَةِ الْمُضِيِّ فِي أَيِّ أَمْرٍ إِلَى حَدِّ الشَّخْفِ، لَكِنَّ مُحَدِّثِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ بروشتروم Broström في الخارج، وهَمَيْر Hamer في الدَّاخل، تَبَنَّى طَوَالَ سَنَوَاتٍ كَوْنَ التَّهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ (بِالْمَعْنَى الْقَدِيمِ) مَظْهَرًا لِلْإِصَابَةِ بِالنَّرْلَةِ الْوَافِدَةِ فِي الْجِهَازِ الْعَصَبِيِّ. [349]

وَفِي أَوَاخِرِ سَنَةِ 1917، وَأَوَائِلِ سَنَةِ 1918، بَدَأَ كَاتِبُ هَذِهِ السُّطُورِ (الَّذِي كَانَ آنَ ذَاكَ يَسْتَمْتِعُ بِفُرْصَةٍ غَيْرِ اعْتِيَادِيَّةٍ شَيْئًا مَا لِدِرَاسَةِ الْمَرَضِ جُمْلَةً) يَلْحَظُ حَدُوثَ حَالَاتٍ مُمَيَّزَةٍ لَهَا طَبِيعَةٌ عَصَبِيَّةٌ وَمُشَبَّهَةٌ لِلنَّرْلَةِ الْوَافِدَةِ قَادَتْهُ إِلَى أَمْرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا التَّنَبُّؤُ بِأَنَّ سَنَةَ 1918 سَتَكُونُ سَنَةً طَاعُونٍ، وَالْآخَرُ أَنَا نُوشِكُ أَنْ نُعَانِيَ وَبَاءً مِنْ مَرَضٍ هَائِلَةٍ-مِيدَنِ الدَّمَاعِيِّ، أَوْ مِنْ نَمَطٍ 'التَّهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدَّمَاعِ'.

وَالْحَقُّ أَنَّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ كَانَتْ جَمِيعُ 'أَنْمَاطِ' مَرَضِ هَائِلَةٍ-مِيدَنِ تَقْرِيبًا الَّتِي وَصَفَهَا وَكُثْمَانُ مَعْرُوفَةٌ فِي لَنْدَنَ، وَإِنْ كَانَ الشُّبُوعُ لِلْأَنْمَاطِ الدَّمَاعِيَّةِ (Crookshank, *Lancet*, 1918, i., pp. 653, 699, 751).

غَيْرَ أَنَّ هَذَا الشُّبُوعَ قَدْ أَغْفَلَ، جُمْلَةً، لِلْأَسَفِ، وَصُرِفَ الْاهْتِمَامُ إِلَى عَدَدٍ قَلِيلٍ نِسْبًا مِنَ الْحَالَاتِ الَّتِي لَهَا أَعْرَاضٌ شَدِيدَةٌ مِنْ نَمَطٍ غَيْرِ مَالُوفٍ كَانَ يُظَنُّ بِإِدْيِ الرَّأْيِ أَنَّهَا حَالَاتٌ مِمَّا يُدْعَى 'التَّسَمُّمُ الشُّجْقِيُّ' botulism (وَقَدْ أُلْمِحَ إِلَى أَنَّهَا نَاجِمَةٌ عَنْ تَسَمُّمٍ بِالْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ الَّتِي تُرْسِلُهَا أَلْمَانِيَا بِنَيْتٍ شَرِّ مَبِيتَةٍ. وَإِنْ تَارِيخُ الْمَفْهُومِ الَّذِي يُرْمَزُ إِلَيْهِ بِ'التَّسَمُّمِ الشُّجْقِيِّ' هُوَ، فِي نَفْسِهِ، ضَخْمٌ يَقُوفُ التَّصَوُّرَ، وَيَسْتَحِقُّ الْفَحْصَ.

فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَكَافِيًا لِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ التَّجَارِبِ أَوْ الْمَرَاجِعِ، لَكِنَّ لِذَلِكَ شَأْنَا آخَرَ. فَالْمَعْلُومُ هُوَ أَنَّ اسْمَ 'التَّسَمُّمِ الشُّجْقِيِّ' كَانَ قَدْ اسْتُعْمِلَ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا فِي حَالَاتٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُمَاطَلَتِهَا سَرِيرِيًّا لِلْوَصْفِ الْمُقَدَّمِ لِحَالَاتِ التَّسَمُّمِ الشُّجْقِيِّ، لَا عِلَاقَةَ لَهَا، مَعَ ذَلِكَ، بِالتَّسَمُّمِ بِالْمُنْتَجَبَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَوْعِ الْعُصَيَّاتِ الْمُسَمَّاةِ عُصَيَّةَ التَّسَمُّمِ الشُّجْقِيِّ *B. botulinus* -الَّتِي هِيَ الْعِلَّةُ التَّصَوُّرِيَّةُ لِلتَّسَمُّمِ الشُّجْقِيِّ.

أما أنَّ هذا الشَّكْلَ مِنَ التَّسَمُّ قَدْ كَانَ لَهُ صَدَى فِي مَجَالِ التَّجَرِبَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ، فَأَمْرٌ لَنَا بِصَدِّ تَأْكِيدِهِ هُنَا وَلَا نَفِيهِ، لَكِنَّ مِنَ الْمُقَرَّرِ الْآنَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنَّ الْحَالَاتِ الدَّمَاعِيَّةَ الْمُمَيَّزَةَ فِي ربيعِ سَنَةِ 1918 التي سَبَقَ الإِلِمَاحُ إِلَيْهَا لَا شَأْنَ لَهَا الْبَتَّةَ بِهَذِهِ الْمُعْصِيَةِ الْمَشْهُورَةِ وَمَا تَوَلَّدَهُ، خُرَافَةٌ كَانَ ذَلِكَ أَمْ حَقِيقَةً قَائِمَةً. عَلَى أَنِّي، قَبْلَ أَنْ يُهَجَرَ التَّشْخِصُ الْخَطَأَ لِلتَّسَمِّ السُّجُفِيِّ، كُنْتُ قَدْ عَبَّرْتُ عَنْ وَجْهَةِ النَّظَرِ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ هَذِهِ الْحَالَاتِ تَقَعُ فِي نِطاقِ مَرَضٍ هَايَنَةٍ-مِيدَنَ، أَوْ الْإِحَالَةِ الْعَامَّةِ، وَتُمَثَّلُ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ، 'نَمَطًا' مُتَطَرِّفًا مِنْ هَذَا 'الْمَرَضِ'. وَقَدْ تَبَيَّنَ هَذَا الرَّأْيُ الرَّاجِلُ السَّيَرِ وَلِيَمِ أَوْسَلَرُ William Osler⁽²¹⁾، وَكَذَلِكَ (وَلِنْ كَانَ ذَلِكَ مَصْحُوبًا بِدَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ التَّحْفِظِ) الدُّكْتُورُ دَرِيَّيرَ الَّذِي طُلِبَ مِنْهُ، إِبَانَةً عَمَلِهِ فِي فَرَنْسَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَنْ يُعَدَّ تَقْرِيرًا عَنِ الْمَوْضُوعِ. وَقَدْ طَوَّرْتُ أَفْكَارِي الشَّخْصِيَّةَ فِيمَا بَعْدُ فِي سَنَةِ 1918 حِينَ تَتَبَعْتُ فِي مُحَاضَرَاتِي فِي جَامِعَةِ تَشَادُوكِ Chadwick نُمُوَّ مَفْهُومِ هَايَنَةٍ-مِيدَنَ وَأَظْهَرْتُ قَابِلِيَّتَهُ، إِذَا مَا وُسِّعَ قَلِيلًا فَقَطْ، لِأَنْ يُطَبَّقَ عَلَى الْحَالَاتِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدِّدِهَا، فَمَا لَقِيتُ أَفْكَارِي تِلْكَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ التَّأْيِيدِ الْعَامِّ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مَجْلِسَ الْحُكُومَةِ الْمَحَلِّيَّةِ، الَّذِي هَجَرَ سَرِيعًا النِّسْبَةَ إِلَى التَّسَمِّ السُّجُفِيِّ، اكْتَشَفَ أَنَّ ثَمَّةَ شَخْصًا اسْمُهُ فُون إِكُونُومُو Von Economo⁽²²⁾، وَهُوَ طَبِيبٌ أَمْرَاضٍ عَقْلِيَّةٍ أَسْتِرَالِيٍّ، كَانَ قَدْ وَصَفَ حَالَاتٍ ذَوَاتِ طَبِيعَةٍ مُمَازِلَةٍ قَبْلَ سَنَةٍ مِنْ ذَلِكَ التَّأْرِيخِ بِأَنَّهَا حَالَاتٌ لِمَرَضٍ جَدِيدٍ هُوَ: الْإِلْتِهَابُ الدَّمَاعِيُّ الْمُسَبَّبُ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ. وَسَبَبُ اخْتِيَارِ هَذَا الْاسْمِ أَنَّ الْإِلْتِهَابَ الدَّمَاعِيَّ كَانَ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْمَشْهُورَةِ، وَالْإِلْتِهَابُ أَجْزَاءَ مِنَ الدَّمَاغِ كَانَ مِنَ الْأَضْرَارِ الْمَشْهُورَةِ.

(21) وَلِيَمِ أَوْسَلَرُ (1849-1919م). طَبِيبٌ كَنْدِيٌّ، يُعَدُّ وَاحِدًا مِنْ أَعْظَمِ رُمُوزِ الطَّبِّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، حَتَّى إِنَّهُ وَصِفَ بِأَبِي الطَّبِّ الْحَدِيثِ. وَكَانَ كَذَلِكَ اخْتِصَاصِيًّا فِي عِلْمِ الْأَمْرَاضِ، وَمُؤَرِّخًا، وَكَاتِبًا، وَمُحَاورًا. أَلَّفَ كِتَابًا ظَلَّ مُهِمًّا طَوَالَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْذُ تَأْلِيفِهِ هُوَ (أَسَاسِيَّاتُ الطَّبِّ). [الْمُتَرَجِّمُ]

(22) كُونِسْتَانْتِينُ فَرِيهَرُ فُون إِكُونُومُو (1876-1931م). مُحَلِّلٌ نَفْسِيٌّ، وَطَبِيبٌ أَعْصَابٍ رُومَانِيٌّ مِنْ أَصْلِ يُونَانِيٍّ. أَكْثَرُ مَا عُرِفَ بِهِ اكْتِشَافُهُ مَرَضِ الْإِلْتِهَابِ الدَّمَاعِيِّ الْمُسَبَّبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ. [الْمُتَرَجِّمُ]

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَالَاتُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ الَّتِي سُمِّيَتْ فِي الْبَدْءِ 'التَّسَمُّمُ السُّجْقِيُّ' مُطَابِقَةً إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ لِتِلْكَ الَّتِي شَاهَدَهَا فُون إِيكُونومو، سَادَ شُعُورٌ بِأَنَّهَا كَانَتْ حَالَاتٍ لِلْمَرَضِ الَّذِي وَصَفَهُ، اسْتِنَادًا إِلَى قَاعِدَةِ بَانْغْلُوس Bangloss⁽²³⁾ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ خِلَافَ مَا هِيَ عَلَيْهِ. وَسَادَ شُعُورٌ أَيْضًا بِأَنَّهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مِنْ حَالَاتِ الْتِهَابِ الْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ-لِلْأَسْبَابِ الَّتِي سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا. وَكَانَتْ لِلْسِيرِ آرْتِر نِيُوشُولَمِ إِحَالَاتٌ اسْتِخْفَافِيَّةٌ [350] عَلَى مَرَضٍ هَائِنَةٍ-مِيدِن، وَارْتَنَاهَا مَا اقْتَرَحَهُ أَحَدُ مُسَاعِدِيهِ مِنْ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ الْحَالَاتِ الَّتِي كَانَ يُظَنُّ فِي الْمَاضِي أَنَّهَا حَالَاتٌ لِذَلِكَ الدَّاءِ كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ حَالَاتِ الْإِلْتِهَابِ الدَّمَاغِيِّ الْمُسَبَّبِ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ، وَإِنْ كَانَ السَّيَرِ آرْتِر قَدْ قَالَ أَيْضًا إِنَّ الْحَالَاتِ الْمَعْنِيَّةَ كَانَتْ قَدْ أَتَتْ فِي ضِمْنِ الْحُدُودِ الْوَاسِعَةِ لِلتَّعْرِيفِ الْمَقْبُولِ عُمُومًا لِمَرَضٍ هَائِنَةٍ-مِيدِن " (Report of an Inquiry into an Obscure Disease, etc., pp. 2, 36)

كَانَ يَنْبَغِي، إِذَنْ، أَنْ يَكُونَ الْمَرَضُ هُوَ الْإِلْتِهَابُ الدَّمَاغِيُّ الْمُسَبَّبُ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ، وَبِذَلِكَ خُلِقَ هَذَا الْكِيَانُ، وَأُضِيفَ مَرَضٌ آخَرُ يَجِبُ الْإِشْعَارُ بِهِ إِلَى قَائِمَةِ 'الْأَمْرَاضِ الْمُشَابِهَةِ' الَّتِي يَتَصَدَّرُهَا الْإِلْتِهَابُ الْحَادُّ لِلْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، وَالْإِلْتِهَابُ الْحَادُّ لِلْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدَّمَاغِ.

(23) الدكتور بَانْغْلُوس وفلسفتهُ هما النقطَةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي سُخْرِيَةِ الْكَاتِبِ الْفَرَنْسِيِّ الْمَشْهُورِ فُولْتِير (1694-1778) فِي رِوَايَتِهِ (كَانْدِيد) الَّتِي أَلْفَهَا رَدًّا عَلَى نَزْعَةِ التَّفَاوُلِ لَدَى الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ لَابِيِتْز الَّذِي قَالَ: 'كُلُّ شَيْءٍ عَلَى خَيْرِ حَالٍ فِي أَحْسَنِ عَالَمٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ'، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْعَالَمَ كَامِلٌ وَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ مَا هُوَ إِلَّا وَسِيلَةٌ لِلْمُعْزِيدِ مِنَ الْخَيْرِ. فَهَذِهِ الْفِلَسَفَةُ قَدْ حَوَكَيْتْ مُحَاكَاةً سَاخِرَةً بِاعْتِنَاقِ الدُّكْتُورِ بَانْغْلُوسِ لَهَا، وَهُوَ يُعْتَلُّ دَوْرَ مُعَلِّمٍ كَانْدِيدٍ وَمُرَبِّيٍّ فِي الرُّوَايَةِ. وَيَنْكَشِفُ الْجَانِبُ السَّاخِرُ فِي الرُّوَايَةِ مِنْ خِلَالِ إِثْبَاتِ الرَّائِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَرَاكُمُ فِيهِ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبُ أَمَامَ مَصَائِرِ الشَّخْصِيَّاتِ، فَيَسَخُطُ كَانْدِيدٌ مِنْ مُرَبِّيِّهِ بَانْغْلُوسِ الَّذِي هُوَ صُورَةٌ رَوَائِيَّةٌ لِلْفِيلَسُوفِيِّينَ لَابِيِتْز وَرُوسُو اللَّذَيْنِ يَسَخَرُ فُولْتِيرُ مِنْ أَفْكَارِهِمَا وَأَطْرَاحَتِهِمَا، وَمِنْ ثَمَّ يَبْدَأُ كَانْدِيدٌ حَيَاةً جَدِيدَةً وَقَدْ تَوَصَّلَ إِلَى أَنَّ تَعَالِيمَ بَانْغْلُوسِ هَرَاءٌ. [الْمُتَرْجِمُ]

على أَنَّهُ كَانَ قَدْ أُلْحَجَ بِحُبِّهِ إِلَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يُمَكِّنُ بِهَا تَحْدِيدُ تَمَيِّزِ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ 'الْمُتَقَلِّبَةِ'، الَّتِي يُحَاكِي بَعْضُهَا بَعْضًا عَلَى نَحْوِ مُزْعِجٍ جَدًّا، هِيَ الْاعْتِمَادُ عَلَى الْأَشْكَالِ الرَّسْمِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَبْلُغُ عَنْ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ عَلَى أُسَاسِهَا!

وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْاسْتِهْزَاءُ مُنْصِفًا؛ إِذْ إِنَّ السُّلْطَانَ الرَّسْمِيَّةَ كَانَتْ قَدْ ذَكَرَتْ، يَقِينًا، أَنَّ التَّهَابَ الْمَادَّةَ السَّنَجَابِيَّةَ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ يَحْدُثُ فِي الصَّيْفِ، وَيُصِيبُ الْأَطْفَالَ، وَيَتَعَلَّقُ بِالْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، فِي حِينِ أَنَّ الْإِلْتِهَابَ الدَّمَاعِيَّ الْمُسَبَّبَ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ يَحْدُثُ فِي الشِّتَاءِ، وَيُصِيبُ الْبَالِغِينَ، وَيَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الدِّمَاغِ؛ وَيَبْدُو أَنَّ مُحَاوَلَةَ التَّمْيِيزِ هَذِهِ مَا زَالَتْ مُتَبَنَّةً، وَإِنْ كَانَ قَدْ قِيلَ إِنَّ 'التَّمْيِيزَ الْإِعْيَاطِيَّ لِلتَّهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدِّمَاغِ بِوَصْفِهِ مَرَضًا يَجِبُ الْإِشْعَارُ بِهِ، ثَبَتَ أَنَّهُ مِقْيَاسٌ مُفِيدٌ وَقَدْ قَدَّمَ لَنَا نَوْعًا مِنَ الْحُلِّ الْوَسْطِيِّ لِلْحَالَاتِ الْبَيْنِيَّةِ' (Report C.M.O. to the Minister of Health, 1920, p. 64).

وَقَدْ يَظْهَرُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْإِحْفَاطِ بِالْإِحَالَةِ الْعَامَّةِ 'التَّهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدِّمَاغِ' هُوَ تَقْدِيمُ حُلٍّ وَسْطٍ لِلْحَالَاتِ الَّتِي لَا تُكُونُ مُلَاطَمَةً فِي الْفَصَائِلِ الْأُخْرَى - وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ إِقْرَارًا بِعَدَمِ كِفَايَتِهَا - عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْإِقْرَارِ الْمُتَقَدِّمِ بِأَنَّ 'مَا يُسَبِّبُهَا' هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يُسَبِّبُ التَّهَابَ الْمَادَّةَ السَّنَجَابِيَّةَ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ (Annual Report of C.M.O. to the Minister of Health, 1919-20, p. 260).

غَيْرَ أَنَّ الصُّعُوبَةَ الْعَمَلِيَّةَ تَكْمُنُ فِي أَنَّهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْقَرَارَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، كَثِيرًا مَا يَسْتَحِيلُ تَمَامًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَنْطَقِيَّةِ الْحُكْمُ عَلَى حَالَةٍ مَا بِأَنَّهَا تَنْتَمِي إِلَى إِحْدَى الْفَصِيلَتَيْنِ - التَّهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ وَالْإِلْتِهَابِ الدَّمَاعِيَّ الْمُسَبَّبَ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ - بِسَبَبِ حُدُوثِ بَعْضِ الْحَالَاتِ الشُّوكِيَّةِ فِي الشِّتَاءِ وَأَحْيَانًا عِنْدَ الْبَالِغِينَ، فِي حِينِ تَحْدُثُ بَعْضُ الْحَالَاتِ الدَّمَاعِيَّةِ فِي الصَّيْفِ وَلَا يَنْدُرُ حُدُوثُهَا عِنْدَ الْأَطْفَالِ. وَقَدْ حُلَّ هَذِهِ الصُّعُوبَةُ الْعَمَلِيَّةُ حَلًّا لَقِيَّ قَبُولًا وَاسِعًا الدُّكْتُورُ نِيْتِير Netter⁽²⁴⁾ مِنْ بَارِيسَ، وَهُوَ مُؤَيَّدٌ مُتَحَمِّسٌ لِعَقِيدَةِ وُجُودِ 'كِيَانَاتٍ' مُنْفَصِلَةٍ.

(24) جوست أرنولد نيتير (1855-1936م). طبيب فرنسي، اختصاصي في الصَّحَّةِ الْعَامَّةِ، =

وَيُسَهَّبُ نَيْتِيرَ فِي تَفْسِيرِ حَقِيقَةِ أَنَّ الْحَالَاتِ تُمَيِّزُ بِسُهُولَةٍ أَقَلَّ مِنْ سُهُولَةٍ تَمَيِّيزِ الْأَوْصَافِ الرَّسْمِيَّةِ، بِتَأْكِيدِهِ أَنَّ الْمَرَضَيْنِ يُحَاكِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ وَأَنَّ لِلْإِتهَابِ الدِّمَاغِيِّ شَكْلَ الْإِتهَابِ لِلْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، وَأَنَّ لِإِتهَابِ الْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ شَكْلَ الْإِتهَابِ دِمَاغِيٍّ، مُوفِيًا بِذَلِكَ بِأَحْكَامِ فَلَسَفَةِ بَانْغُلُوسَ مَرَّةً أُخْرَى. غَيْرَ أَنَّ الْحَلَّ الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ نَيْتِيرَ يَبْدُو نَفْعُهُ فِي الْحَقِيقَةِ كَنَفْعِ تَصْنِيفِ كَوْمَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ اللَّعِبِ إِلَى 'حُمْرٍ بِلَاطِيَّةٍ red court'، وَ'سُودٍ مُجَرَّدَةٍ black plain'.

فَعِنْدَ ظُهُورِ مَلِكِ الْبِسْتُونِيِّينَ فِي وَرَقِ اللَّعِبِ يَغْدُو سَهْلًا عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ، بَدَلًا مِنَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ قَدْ قُدِّمَتْ فِتْنَةٌ يَتَعَذَّرُ الدِّفَاعُ عَنْهَا، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ 'وَرَقَةٌ حُمْرَاءُ بِلَاطِيَّةٌ' مِنَ النَّمِطِ 'الْأَسْوَدُ'، وَأَنْ يَدَّعِي تَقْوِيَّ هَذَا الْوَضْعِ بِظُهُورِ الدِّينَارِيِّينَ فِي وَرَقِ اللَّعِبِ - وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُمَا 'وَرَقَتَانِ سَوْدَاوَانِ مُجَرَّدَتَانِ black plain' مِنَ النَّمِطِ 'الْأَحْمَرِ red' (25). هَذَا هُوَ مَنْطِقُ الطَّبِّ الْيَوْمِ.

فَلَيْسَ مِمَّا يُثِيرُ الْاسْتِغْرَابَ، فِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ، أَنْ يَغْدُو التَّخْلِيضُ أَكْثَرَ اضْطِرَابًا، وَأَنْ يُشْعِرَ الْأَطْبَاءَ [351] بِالْحَالَاتِ بِمَا يَرْتَوُونَ مِنَ الْعِبَارَاتِ، وَأَنْ

= وَطَبُّ الْأَطْفَالِ، وَعِلْمُ الْجَرَائِمِ. أَصْبَحَ أَسْتَاذًا فِي كَلِيَّةِ الطَّبِّ فِي سَنَةِ 1882. عُرِفَ بِإِنْجَازَاتِهِ فِي مَجَالَاتِ الْإِتهَابِ السَّحَايَا الدِّمَاغِيَّةِ-الشُّوكِيِّ، وَشَكْلِ الْأَطْفَالِ، وَأَمْرَاضِ الْمُكَوَّرَاتِ الرُّثْوِيَّةِ، وَالْإِتهَابِ الدِّمَاغِ، وَدَاءِ الْمَنْطَقَةِ. وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ طَبَّقُوا عِلْمَ الْجَرَائِمِ فِي مَجَالِ الطَّبِّ السَّرِيرِيِّ. [الْمُتَرْجِمُ]

(25) تَتَأَلَّفُ مَجْمُوعَةُ وَرَقِ اللَّعِبِ مِنْ أَوْرَاقٍ بِلَوْنَيْنِ، هُمَا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ وَاللَّوْنُ الْأَسْوَدُ، لَكِنْ كِلَا اللَّوْنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْفِيثَاتِ نَفْسِهَا مِنَ الرَّقْمِ (2) إِلَى الْأَصْ Ace. وَالَّذِي يُرِيدُ الْكَاتِبُ أَنْ يَبَيِّنَهُ أَنَّهُ مِنْ دَوَاعِي النِّقْصِ فِي الْقَوْلِ أَنْ يُذَكَّرَ أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةُ إِلَّا أَوْرَاقُ حُمْرٍ وَجْهِيَّةٍ red face cards وَأَوْرَاقُ سُودَ لَاوَجْهِيَّةٍ (رَقْمِيَّةٌ numbered)؛ فَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ تَوَجَّدَ أَيْضًا أَوْرَاقُ سُودَ وَجْهِيَّةٍ وَأَوْرَاقُ حُمْرٍ رَقْمِيَّةٍ. وَتُسَمَّى الْأَوْرَاقُ الْوَجْهِيَّةُ بِلَاطِيَّةٍ court لِأَنَّهَا مَلِكِيَّةٌ royal، وَتُسَمَّى الْأَوْرَاقُ الرَقْمِيَّةُ مُجَرَّدَةٌ plain لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهَا أَوْرَاقُ اعْتِيَادِيَّةٌ وَأَكْثَرُ عُمُومِيَّةٌ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مَلِكِيَّةً (وَتَكُونُ عَادَةً أَدْنَى مَنْزِلَةً مِنْ فِتْنَةِ الْأَوْرَاقِ الْمَلِكِيَّةِ). [الْمُتَرْجِمُ]

يُطَالَبُ مَسْؤُولُو وَزَارَةِ الصِّحَّةِ بِتَقْدِيمِ تَفْسِيرٍ لِعَدَمِ قَطْعِيَّةِ إِحْصَاءَاتِهِمُ الْمُسَبِّبِ لِلْخَيْرَةِ مِنْ خِلَالِ زَعْمِهِمْ حَدُوثَ تَغْيِيرٍ فِي الْخَصَائِصِ الْبَايُولُوجِيَّةِ لِلْمَرَضِ!

وَمِمَّا هُوَ أَكْثَرُ إِشْكَالًا الْمُهْمَّةُ غَيْرُ الْمَرْغُوبِ فِيهَا الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَنْ تُطْرَحَ مِنَ الْإِحْصَاءَاتِ حَالَاثُ 'الْإِلْتِهَابِ الدَّمَاغِيِّ الْمُسَبِّبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ' الَّتِي تَتَأَبَّى عَلَى أَنْ تَتَكَشَّفَ عَنْ اسْتِغْرَاقٍ فِي النَّوْمِ!

عَلَى أَنَّ الْجَانِبَ الْمُهْمَّ حَقًّا فِي الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ الْمُتَشَتِّلَةِ بِعَدَمِ الْقَطْعِيَّةِ وَبِالتَّخْلِيصِ التَّاجِمَيْنِ عَنْ كَرَاهَةِ مُوَاجَهَةِ الْمَسَائِلِ الْأَسَاسِيَّةِ وَبَحْثِ الْمَقْصُودِ بِمَا هُوَ مَرَضٌ 'a disease'، هُوَ أَنَّ الْمُلَاحَظَةَ مَكْبُوحَةً، وَالتَّوَاضُّلَ صَعْبًا، وَالتَّقَاشُّ غَيْرُ مُجْدٍ، وَالتَّعْمِيمَ مُحَالًا. وَنُحَسِّنُ أَنْ يُقَالَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ إِنَّ اللَّوْمَ إِنَّمَا يُوجَّهُ إِلَى الْمُحَقِّقِينَ الرَّسْمِيِّينَ الَّذِينَ كَانَتْ شُؤُونُ سَنَةِ 1918 فِي عَهْدِهِمْ، فَلَمْ يَنْظَلِقُوا انْطِلَاقًا مُلَانِمًا لِلنَّحْتِ فِي جُمْلَةِ الظُّرُوفِ ذَاتِ الصَّلَةِ، جُمْلَةً حُزَمَةً وَرَقِ اللَّعِبِ، بَلْ قَصَرُوا اهْتِمَامَهُمْ عَلَى الْحَالَاتِ الَّتِي تَسْتَقْطُبُ أَكْبَرَ قَدَرٍ مِنَ الْاهْتِمَامِ، الْأَسْمَى مِنْ وَرَقِ اللَّعِبِ. وَكَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ الْبَدْءُ بِمُنَاقَشَةِ جَمِيعِ الْمَرَاجِعِ الْمُتَاحَةِ، لَكِنْ مَا يُظْهِرُهُ عُنْوَانُ التَّقْرِيرِ الرَّسْمِيِّ - بَحْثٌ فِي مَرَضٍ غَامِضٍ، الْإِلْتِهَابِ الدَّمَاغِيِّ الْمُسَبِّبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ - هُوَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي هِيَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ قَدْ سُلِّمَ بِهَا ابْتِدَاءً. وَقَدْ افْتَرَضَ أَنَّ ثَمَّةَ كِيَانَيْنِ مَوْجُودَيْنِ - الْإِلْتِهَابِ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، وَالْإِلْتِهَابِ الدَّمَاغِيِّ الْمُسَبِّبِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ -، وَاسْتَمَرَّ الْبَاحِثُونَ حِينَئِذٍ فِي تَسَاؤِلِهِمْ: 'أَشْيَاءٌ وَاحِدٌ هَذَا الْكِيَانَانِ أَمْ شَيْئَانِ مُخْتَلِفَانِ؟ وَانْتَهَى بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا الشَّيْءَ نَفْسَهُ. وَلَا شَكٌّ فِي أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةُ مَنْ يُجَادِلُ فِي وُجُودِ فَرْقٍ بَيْنَ الْإِحَالَتَيْنِ، لَكِنْ الْمُحَقِّقِينَ الرَّسْمِيِّينَ لَمْ يُنَاقِشُوا كِفَايَةً الْإِحَالَتَيْنِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَرْجِعَيْنِ، أَوْ حَسَنَاتِ الْإِحْفَاطِ بِالْإِحَالَةِ الْمُفْرَدَةِ (عَلَى مَا اقْتَرَحَ بَعْضُنَا) الَّتِي يُرْمَزُ إِلَيْهَا بِمَرَضٍ هَائِلَةٍ-مِيدَن. وَلَوْ أَتَتْجَهَ صَوْبَ الْوَجْهَةِ الْأَخِيرَةِ لَجَبْنَا أَنْفُسَنَا مُشَاهِدَةً الْمَنْظَرِ الْكَثِيبِ لِلْمُسْتَعْلِينَ بِالْعِلْمِ وَهُمْ يُقَرِّفُونَ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِصِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ 'كِيَانَاتٍ'؛ إِذْ عَدُّوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُمَيَّزًا بِسِمَةٍ خَاصَّةٍ تَكُونُ أَحْيَانًا حَاضِرَةً فِيهَا جَمِيعًا. (Crookshank, British Medical Journal, 1920, ii., 916)

وَمَعَ ذَلِكَ سَارَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوالِ: وَبِوَسَاطَةِ تَقْرِيرٍ بِشَأْنِ تَصَامِيمِ مَلِكَةِ

الإسباتيينِ واثْنَيْنِ مِنَ الْقُلُوبِ فِي وَرَقِ اللَّعِبِ أَصْبَحْنَا مَدْعُوعَيْنِ لِنَعْلَمَ خِصَائِصَ الْمَجْمُوعَتَيْنِ: مَجْمُوعَةُ الْأُورَاقِ 'الْحُمْرِ الْبِلَاطِيَّةِ'، وَمَجْمُوعَةُ الْأُورَاقِ 'السُّودِ الْمُجَرَّدَةِ'!

فَالَّذِينَ يُلْقَوْنَ بِأَبْصَارِهِمْ مِنَّا، إِنْ جَاَزَ التَّعْبِيرُ، صَوَّبَ جَمِيعَ الْحَالَاتِ الشَّائِعَةِ، فَيَرَوْنَ بِذَلِكَ النِّظَامَ، وَالتَّسْلُسَ، وَالِاسْتِمْرَارِيَّةَ، زِيَادَةً عَلَى الْحَاجَةِ إِلَى الْإِحَالَةِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ جَمِيعِ أَعْضَاءِ السَّلْسِلَةِ الْوَاحِدَةِ، يُلْقَوْنَ مِنَ الْإِزْدِرَاءِ مَا يَلْفَاهُ مَنْ يُصَرِّحُ بِأَنْ طَرَفَيِ الطَّنِيفِ يُمَانِلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ! وَنَحْنُ نَرْعَبُ فِي أَنْ نَضَعَ تَجَارِبَنَا تَحْتَ أَقْلٍ عَدَدٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْإِحَالَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَنْسَجِمُ مَعَ الْأَشْغَالِ الْعَمَلِيَّةِ فِي التَّوَاضُلِ: فَيَقَالُ لَنَا إِنَّمَا نَخْلِطُ الْكِيَانَاتِ الْمُتَفَصِّلَةَ، أَيْ الْأَمْرَاضَ الَّتِي هِيَ مُتَشَابِهَةٌ لِكِنْهَا فَرِيدَةٌ، وَلَيْسَتْ مُتَمَاثِلَةً! وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يَتَجَلَّى مَا هُوَ أَكْثَرُ شِنَاعَةً فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْنَا فِي كَوْنِنَا قَدْ تَوَصَّلْنَا إِلَى أَنَّ أَطِبَّاءَ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ كَانُوا عَلَى حَقٍّ فِي ذَهَابِهِمْ مَذْهَبَ بَرُوشْتروم وَهَيْمَرِ الْيَوْمِ الَّذِي يَقْضِي بِأَنَّ الْحَالَاتِ الْعَصَبِيَّةَ الَّتِي أَدْرَجَهَا وَكْمَانٌ فِي ضَمَنِ الْإِحَالَةِ هَابِنَةَ-مِيدَن، مَعَ مَا تُسَمِّيهَا وَزَارَةُ الصِّحَّةِ حَالَاتِ 'الْإِلْتِهَابِ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبَّبِ لِلِاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ'، نَحْدُثُ حَدُوثًا وَبَاطِنًا فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا التَّرَلَّاتِ التَّنْفُيسِيَّةِ وَالْمَعْدِيَّةِ-الْمِعْوِيَّةِ الَّتِي نُسَمِّيهَا التَّرَلَّةَ الْوَافِدَةَ (Cf. *op. cit.*, *Influenza: Essays by Several* [352] Authors).

فَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ الْمَسْؤُولُونَ الرَّسْمِيُّونَ إِنَّهُ مِمَّا لَا يُصَدَّقُ أَنْ تَكُونَ التَّرَلَّةُ الْوَافِدَةُ، وَالتَّهَابُ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ الشُّوكِيِّ، وَالتَّهَابُ الْمَادَّةِ السَّنَجَابِيَّةِ لِقَشْرَةِ الدِّمَاغِ، وَالْإِلْتِهَابُ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبَّبُ لِلِاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ، كُلُّهَا 'شَيْئًا وَاحِدًا'! فَالْحَالَاتُ الَّتِي نَطْلُقُ عَلَيْهَا نَحْنُ اسْمَ التَّرَلَّةِ الْوَافِدَةِ هِيَ كَيْسَتْ تِلْكَ الَّتِي نَطْلُقُ عَلَيْهَا أَيًْا مِنَ الْأَسْمَاءِ الْآخَرَى، وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ الْعُثُورُ عَلَى عِلَاقَةٍ مَا بَيْنَ الْحَالَاتِ الَّتِي نَطْلُقُ عَلَيْهَا هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ إِلَّا عِلَاقَتِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ! (Cf.

Rep. C.M.O. to Min. of Health, 1919-20, p. 48)

عَلَى أَنَّ مِنْ دَوَاعِي الْإِنْصَافِ أَنْ نَذْكَرَ أَنَّه فِي وَثِيقَةٍ أَحْدَثَ

(Min. of Health: Reps. on Pub. Health, etc., No. II, Encephalitis Lethargica)
 لَمْ نَعُدْ نَقِفْ عَلَى اقْتِرَاحِ أَنَا فِي سَنَةِ 1918 نَشْهَدُ وِلَادَةَ مَرَضٍ جَدِيدٍ: وَكَانَ
 الْحَدِيثُ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، عَنْ وِلَادَةِ تَصَوُّرٍ جَدِيدٍ. لَكِنْ، أَثْمَةُ فَرْقٍ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؟
 وَفِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ تَعُودُ الْوَاقِعِيَّةُ الْمَدْرَسِيَّةُ لِتَتَصَدَّرَ الْمَشْهَدُ؛ إِذِ اسْتَحْضِرَتْ مَقُولَةُ
 البروفيسور ماكنتوش MacIntosh⁽²⁶⁾ الَّتِي مَفَادُهَا أَنَّ "الالتهابَ الدِّمَاغِيَّ الْمُسَبَّبَ
 لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ مَرَضٌ... مُغَايِرٌ لِلْأَدْوَاءِ الْمُشَابِهَةِ"، وَحَظِّتْ بِالقَبُولِ (loc.
 Cit., p. 126)، فِي حِينِ أَنَّ الْمَجَلَّةَ الطَّبِيَّةَ الْبَرِيطَانِيَّةَ British Medical Journal
 (1922, ii., p. 654) صَرَّحَتْ بِأَنَّ التَّقْرِيرَ الَّذِي نَحْنُ بِصَدْدِهِ يُظْهِرُ أَنَّ الْإِلْتِهَابَ
 الدِّمَاغِيَّ الْمُسَبَّبَ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ وَالتَّيْهَابَ الْمَادَّةِ السَّنْجَابِيَّةِ فِي الْحَبْلِ
 الشُّوكِيِّ لهُمَا هُوَيْتَانِ مُتَفَصِّلَتَانِ!

وَرُبَّ سَائِلٍ يَسْأَلُ: هَلْ يَفْتَقِرُ مَا يَعْنِيهِ مَنْ يَكْتُبُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عَلَى أَنَّ
 الْمَفَاهِيمَ هِيَ مَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا؟ نَحْنُ نَقْرُ بِهَذَا الْقَدْرِ: لَكِنَّا نَشْكُ فِي صِحَّتِهَا، أَوْ
 كِفَايَتِهَا. بَلْ تَبْدُو صِحَّتُهَا وَكِفَايَتُهَا أَكْثَرَ عُرْضَةً لِلْخَطَرِ الْمُحْدِقِ مِنْ ذِي قَبْلُ حِينَ
 يَسْتَعِيرُ الْمُدَافِعُ الرَّسْمِيُّ فِي الْكِتَابَةِ عَنْ حَالَاتٍ وَأَوْبَةِ مُعَيَّنَةٍ فِي أَسْتْرَالِيَا بَيْنَ سَنَتَيْ
 1917-1918 يَدْرِجُهَا بَعْضُنَا تَحْتَ مِظَلَّةِ هَايَنَة-مِيدَن، لَكِنَّهَا لَا تَنَاطُرُ أَيًّا مِنْ
 الْإِحَالَاتِ الرَّسْمِيَّةِ الْمُفْضَلَةِ. وَقَدْ هَجَرَ مُمَثِّلُ وَزَارَةِ الصَّحَّةِ مُؤَقَّتًا كُلَّ مَا يُقَالُ عَنْ
 الصِّفَاتِ الْمُتَمَيِّزَةِ الْمُتَقَلَّبَةِ، وَالْخَوَاصِ الْبَايُولُوجِيَّةِ الْمُتَغَيِّرَةِ، وَالْحُلُولِ الْوَسِيطِ،
 لِيُصْرِّحَ بِأَنَّ الْحَالَةَ الْأَسْتْرَالِيَّةَ "تَبْدُو مُتَمَيِّزَةً تَمَامًا مِنْ" الْإِلْتِهَابِ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبَّبِ
 لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ، وَ(افْتِرَاضِيًّا) مِنْ جَمِيعِ الْكِيَانَاتِ الْآخَرَى، الْكِيَانَاتِ

(26) جيمس ماكنتوش (1882-1948م). طَبِيبٌ بَرِيطَانِيٌّ. وُلِدَ فِي مَدِينَةِ أَيْرْدِين وَتَخَرَّجَ فِي
 جَامِعَتِهَا سَنَةَ 1905، ثُمَّ أَمَضَى مُدَّةَ مُعَيَّنَةٍ فِي مَعْهَدِ بَاسْتُور فِي بَارِيس قَبْلَ أَنْ يَعودَ إِلَى
 أَيْرْدِين سَنَةَ 1908. وَتَحَوَّلَ فِي السَّنَةِ نَفْسِهَا إِلَى مُسْتَشْفَى لَنْدُن وَبَقِيَ هُنَاكَ حَتَّى أَصْبَحَ
 أَسْتَاذًا لِعِلْمِ الْأَمْرَاضِ وَمُدِيرًا لِمَعْهَدِ بَلَانْد-سْتَن فِي مُسْتَشْفَى مِيدْلَسْكِس فِي سَنَةِ 1920.
 مِنْ الْمَنَاصِبِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي تَقَلَّدَهَا مَنَصَّبُ رَئِيسٍ مَا أَصْبَحَ يُعْرَفُ فِيهَا بَعْدَ بِمَعْهَدِ الْعُلُومِ
 الْمُخْبَرِيَّةِ الطَّبِيَّةِ. نَشَرَتْ مُنْفَرَدًا وَمُشَارِكًا، مَا يَرِيبُ عَلَى مَنَةِ بَحْثٍ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِمَرَضِ
 الزُّهْرِيِّ، وَبِالنَّزْلَةِ الْوَاقِدَةِ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ. [المُترجم]

الْمُنْفَصِلَةِ، والأدواءُ المُشَابِهَةِ، والأمراضُ الْفَرِيدَةُ. ولذلك، بِسَبَبِ تَلَاشيِ الْخَوْفِ مِنَ النَّضْلِ الْحَادِّ لَأَوْكَامِ مَرَّةٍ أُخْرَى، تَكَرَّرَتْ مُضَاعَفَةُ الْكِيَانَاتِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.

زِيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ أَقْرَبُ بِالْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يُسَوَّغَ اسْتِيقَاءُ الرَّمْزِ 'الالتهابِ الدِّمَاغِيِّ' الْمُسَبِّبِ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ 'نَفْسُهُ لِاحَالَةٍ يَنْبَغِي، مَهْمَا يَكُنْ تَرْكِيبُهَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَنْ تَصْلُحَ لِمَرَاجِعِ كَثِيرًا مَا لَا تَكُونُ مُسَبِّبَةً لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ وَعَادَةً مَا تَكُونُ أَكْثَرَ مِنَ الْتِهَابِ دِمَاغِي. وَيُقَالُ إِنَّ اسْتِيقَاءَ هَذَا الْاسْمِ يُسَوِّغُهُ حَقُّ الْبُكُورَةِ وَ"حُظُّ الْأَبُوتَةِ الْمَشْهُورَةِ": "إِلْبَاسُ الْمَفْهُومِ لِبُوسَا مِنَ اللَّغَةِ الشَّائِعَةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ"، وَ"رُبَّمَا يَكُونُ مَرْدُّ ذَلِكَ، جُزْئِيًّا، إِلَى أَسْبَابٍ تَتَعَلَّقُ بِحُسْنِ الْوَقْعِ فِي الْأُذُنِ" (Ibid., p. 1).

وَحِينَ يَعُودُ الطَّبُّ لِيُصْبِحَ عِلْمًا مَرَّةً أُخْرَى قَدْ نُطَالِبُ مَسْئُولِيْنَا الرَّسْمِيِّينَ بِأَكْثَرِ مِنْ 'أَسْبَابٍ تَتَعَلَّقُ بِحُسْنِ الْوَقْعِ فِي الْأُذُنِ' عِنْدَ مُنَاقَشَةِ دَقَّةِ التَّرْمِيزَاتِ، لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ مِثَالٍ وَاجِدٍ مُمْتَارٍ هُنَا لِـ'الْأَسْبَابِ' الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِحُسْنِ الْوَقْعِ فِي الْأُذُنِ: وَهُوَ: أَنَّهُ 'لَيْسَ ثَمَّةَ دَلِيلٍ قَرِيبٍ يُعَوِّلُ عَلَيْهِ يَصُبُّ فِي مَصْلَحَةِ تَطَابُقِ النَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ وَالْإِلْتِهَابِ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبِّبِ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ'.

فَهْنَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّا لَيْسَتْ لَدَيْنَا أَذْنَى إِشَارَةٌ إِلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَعْمِلُ بِهِ الْكَاتِبُ الرَّسْمِيُّ عِبَارَتَيْ 'النَّزْلَةِ الْوَافِدَةِ'، وَالْإِلْتِهَابِ الدِّمَاغِيِّ الْمُسَبِّبِ لِلْاسْتِغْرَاقِ فِي النَّوْمِ- وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُ: أَكَانَ فِي ذِهْنِهِ الْأَسْمَاءُ (الرُّمُوزُ)، أَمْ كَانَ فِي ذِهْنِهِ الْمَفَاهِيمُ (الْإِحَالَاتُ)- قَدْ نَوَافِقُهُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ. وَمِمَّا لَا يُصَدِّقُ أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ دَلِيلٍ يُعَوِّلُ عَلَيْهِ يَصُبُّ فِي مَصْلَحَةِ تَطَابُقِ الْمُخْتَلِفِ مِنَ الْأَسْمَاءِ، أَوْ الْمَفَاهِيمِ، أَوْ الْأَحْدَاثِ. [353]

وَرُبَّمَا أَوْ مِنْ قَرِيبًا يَتَطَابَقُ طَرَفِي الْعَصَا. وَمَعَ ذَلِكَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِقْرَارِي التَّامِّ وَالصَّرِيحِ بِأَنَّ أَحَدَ طَرَفِي الْعَصَا هُوَ غَيْرُ الطَّرَفِ الْآخَرِ؛ وَأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ مُتَمَيِّزٌ مِنْهُ (وَإِنْ يَكُنْ 'مُشَبِّهًا' لَهُ)؛ وَأَنَّ لَهُ هُويَّةً مُنْفَصِلَةً، وَأَنَّهُ طَرَفٌ قَرِيدٌ، أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي سَاحِقٌ فِي تَقْدِيمِ تَقْوِيمِ، لِلجِهَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، لِوَجْهِ النَّظَرِ الَّتِي إِنْ جَازَ

أَنْ تَكُونَ غَيْرَ حَكِيمَةٍ فَلَيْسَتْ فِي جَوْهَرِهَا غَيْرَ مَعْقُولَةٍ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ.

يَبْدُو وَاضِحًا إِذَنْ أَنَّهُ فِي ظِلِّ ظُرُوفِ الْبَحْثِ الَّتِي تَفَرِّضُهَا عَادَاتُ الْفِكْرِ وَالتَّعْبِيرِ الْحَاضِرَةُ، قَلِيلًا مَا يَكُونُ النِّقَاشُ مُثْمِرًا: فِي الطَّبِّ، عَلَى أَيَّةِ حَالٍ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ ضَغْطَ الْخِبْرَةِ الْمُتْرَاكِمَةِ سَيُؤَدِّي فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَى تَكْوِينِ إِحَالَاتٍ وَرُمُوزٍ سَلِيمَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ مَا وَعَمَلِيَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ قَدْ أَنْشِئْتَ وَاخْتِيرْتَ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ عِلْمِيٍّ، وَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْأَحْدَاثِ السَّرِيرِيِّ وَالْوَبَائِيَّةِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا هُنَا: أَي، إِنْ لَمْ يُفْهَمِ الْفَهْمُ الْمَشْتَرَكُ، عَلَى مَا هُوَ مُعْتَادٌ، بِالْعِلْمِ الزَّائِفِ وَبِمُجَرِّدِ اللَّغَةِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ.

لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُوجَدَ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ، طَرِيقَةٌ أَفْضَلُ وَأَسْرَعُ: - أَي أَنْ نَخْصِمَ أَمْرَنَا مِنْذُ الْبِدَايَةِ بِشَأْنِ الْمَسَائِلِ الَّتِي يُعَالِجُهَا هَذَا الْكِتَابُ.

فَقَدْ كَانَ لَدَى كَاتِبِ هَذِهِ الشُّطُورِ مَا يُشْبِهُ الْغَرَضَ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ مُؤَلِّفًا نَظَرِيَّةَ الْعَلَامَاتِ هَذِهِ؛ إِذْ حَاوَلَ، قَبْلَ نَحْوِ سِتِّ سَنَوَاتٍ أَوْ سَبْعٍ، فِي مُلْتَقَى لِلْقِسْمِ الْوَبَائِيِّ فِي الْجَمْعِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ لِلطَّبِّ، أَنْ يَشْرَحَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالْأَحْدَاثِ، أَوْ (عَلَى مَا يُمَكِّنُ قَوْلُهُ عَلَى نَحْوِ آخَرٍ) بَيْنَ الْكَلِمَاتِ، وَالْأَفْكَارِ، وَالْأَشْيَاءِ. وَلَمْ يَلْقَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْإِسْتِحْسَانِ، وَأَخْبَرَهُ أَحَدُ أَكْثَرِ الْمُدِيرِينَ الطَّبِّيِّينَ تَمَيِّزًا بِأَنَّ الْعَالِمَ الْمَسِيحِيَّ هُوَ وَحْدَهُ مَنْ يُمَكِّنُهُ الشَّكُّ فِي وَاقِعِيَّةِ أَلَمِ الضَّرْسِ، عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ. وَقَالَ إِنَّ ضَرْسَهُ كَانَ يُؤْلِمُهُ فِي لَحْظَةِ التَّكَلُّمِ، وَلِذَلِكَ كَانَ عَلَى يَقِينٍ تَامٍ مِنْهُ. وَقَدْ انْتَهَى النِّقَاشُ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنْ الْبَحْثُ الَّذِي أَلْقَيْتُ حِينَئِذٍ أُعِيدَ طَبْعُهُ فِي كِتَابٍ يَضُمُّ مَقَالَاتٍ فِي النَّزْلَةِ الْوَاقِدَةِ سَبَبَتْ الْإِحَالََةُ عَلَيْهِ، مَعَ بَعْضِ الْمُحَاوَلَاتِ الْأُخْرَى لِإِيضَاحِ الْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ.

وَلَيْسَ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي أَهْمِيَّةِ مَا يَجْنِيهِ الطَّبُّ، إِنْ أُريدَ لِلطَّبِّ أَنْ يَسْتَعِيدَ مَكَانَتَهُ وَسَطَ الْعُلُومِ، مِنْ مَزِيدِ التَّنْقِيبِ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِنَحْوِ طَرِيقَةِ الْمُقَارَنَةِ الَّتِي تَوَخَّاهَا الْكَاتِبُ الْحَالِيُّ، وَالَّتِي لَقِيَتْ الْمَزِيدَ الْجَمَّ مِنَ الْإِعْتِبَارِ عَلَى يَدَيِ السَّيِّدِينَ أَوْغِدِنَ وَرِثَارْدَز.

وإنَّ تَحَقُّقَ الْعَرَضِ مِنْ هَذَا التَّعْلِيقِ مُرْتَهَنٌ بِإِقْنَاعِ أَاسَاتِدَةِ الطَّبِّ وَمُمَارِسِيهِ بِحَاجَةِ الطَّبِّ إِلَى نَظَرِيَّةٍ لِلْعَلَامَاتِ، مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ مُشْكِلَةٍ حَيَّةٍ مِنْ مُشْكِلَاتِ الْيَوْمِ، لِكِنَّ الْمُؤَمَّلَ، فِي مُؤَلَّفِ مُسْتَقْبَلِي فِي هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ، أَنْ يُمَكِّنَ تَضْمِينُ دِرَاسَةِ [354] لِلْمَوْضُوعِ كُلِّهِ تَحْتَ عُنْوَانِ نَظَرِيَّةِ التَّشْخِصِ الطَّبِّيِّ.

على أَنَّهُ فِي غُضُونِ ذَلِكَ عَمَدَ الدُّكْتُور سَايْمَنْ فليڪسَنَر Simon Flexner⁽²⁷⁾، الْبَاحِثُ وَالْمَرْجِعُ الذَّائِعُ الصَّبِي، وَالْمُنْتَسِبُ إِلَى مَعْهَدِ رُوكِفَلَر Rockefeller، مُفَصِّحًا عَنْ حَقِيقَةِ مَوْقِفِهِ، إِلَى تَقْدِيمِ نَفْسِهِ، فِي الْمَجَلَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ لِلْعُلُومِ الطَّبِّيَّةِ *American Journal of the Medical Sciences* لِشَهْرِ أِبْرِيلِ/نَيْسَانَ مِنْ سَنَةِ 1926، "بَوَصْفِهِ شَخْصًا يَرَى أَنَّ التَّزَلُّةَ الْوَافِدَةَ الْوَبَائِيَّةَ وَالتَّهَابَ الدُّمَاغِ الْوَبَائِيَّ كِيَانَانِ مُتَمَايِزَانِ" [355].

(27) سَايْمَنْ فليڪسَنَر (1863-1946م). طَبِيبٌ، وَعَالِمٌ، وَأَسَاتِذُ عِلْمِ الْأَمْرَاضِ التَّجْرِييِّ فِي جَامِعَةِ بِنْسَلْفَانِيَا بَيْنَ سَنَتَيْ 1899 وَ1903. كَانَ أَوَّلَ مُدِيرٍ لِمَعْهَدِ رُوكِفَلَرِ لِلْبَحَاثِ الطَّبِّيَّةِ بَيْنَ سَنَتَيْ 1901 وَ1935، وَغُضُوًا فِي مَجْلِسِ أَمْنَاءِ مُؤَسَّسَةِ رُوكِفَلَرِ. [الْمُتَرْجِمُ]

مَسْرَدُ الْمُصْطَلَحَاتِ

- Abidhamma: 109 أبدهاما
 Abstractions, growth of: 146-147, 206-207, 327 نُشوء التَّجْرِيدَاتِ
 Acquaintance: 128 اِطْلَاعُ
 Adaptation: 135-136, 160, 314-315 تَكَيُّفُ
 Adequacy: 70, 193 كَهَانَةُ
 Adjectives: 192, 301, 328, 405 صِيغَاتُ
 Affective resonance: 116 رَنِينٌ وَجْدَانِيٌّ
 American Indians: 65 الهِنْدُو الْأَمْرِيكِيُّونَ
 Amnesia: 334 فَقْدُ الذَّاكِرَةِ
 Amœba: 442-444 أَمِيْبَا
 Aphasia: 267, 333 الخُبْسَةُ
 Apperception: 132 الإدْرَاكُ الوَاعِي
Argonauts of the Western Pacific: 113 مُسْتَكَشِفُو غَرْبِ الْمُحِيطِ الْهَادِيّ
 Assertion: 205, 380 تَقْرِيرُ
 Associationism: 132 التَّرَابُطِيَّةُ
 AUM: 112 مَذْقَبُ الْكَلِمَةِ الْمُقَدَّسَةِ
 Beauty: 207, 217, 229, 238, 297-298, 339 جَمَالُ
 Behaviourism: 72, 84 السُّلُوكِيَّةُ
 Being, the world of: 97, 131, 146, 178, 185, 254, 301, 320, 404 عَالَمُ الْوُجُودِ
 Beliefs: 150, 342, 380 اَعْتِقَادَاتُ
 Buddhism: 109 الْبُودِيَّةُ
 Carapace: 116 بَرَزُخُ
 Cause: 133, 136, 140, 145, 160, 196, 212, 375 سَبَبُ
 Children: 81, 94, 113, 144, 147, 148, 168, 250, 324, 337, 361, 371 أَطْفَالُ
 Chinese: 104 صِيْنِيٌّ
 Colour: 160, 168, 170, 196, 295, 356 لَوْنُ
 Communication: 69, 79, 89, 175, 319, 384 تَوَاصُلُ
 Compounding of references: 150, 154, 327 تَرْكِيبُ الْإِحَالَاتِ
 Concepts: 66, 96, 128, 153, 190, 402 مَفَاهِمُ
 Connotation: 179, 182, 204, 300 دَلَالَةُ إِحَاشِيَّةٍ
 Contexts: 133, 145, 151, 196, 389 سِيَاقَاتُ
 Conversation: 67, 74, 216, 220, 475 جَوَازُ
 Correctness: 70, 193, 320 صِحَّةُ
 Correspondence between thoughts, words and things: 59, 69, 186, 326, 375 التَّنَاطُرُ بَيْنَ الْأَفْكَارِ، وَالْكَلِمَاتِ، وَالْأَشْيَاءِ
 Datum: 168 مُعْطًى
 Definition: 63, 74, 181, 201, 204, 216, 241 تَعْرِيفُ
 Degenerates: 234 أَلْفَاظُ مُنْحَلَّةٌ
 Denotation: 300 دَلَالَةُ تَعْيِينِيَّةٍ
 Dictionary meaning: 223, 299, 321 مَعْنَى مُتَعَجِّمِيٍّ
 Differential equations: 160 مُعَادَلَاتُ تَفَاضُلِيَّةٍ
 Discussion: 69, 74, 206, 209, 214, 246, 305, 330, 363 يَفَاضُ
 Double Language hypothesis: 84 فَرْضِيَّةُ اللُّغَةِ الْمزدُوجَةِ
 Education: 199, 217, 325, 336, 361, 370 تَرْبِيَّةٌ، تَعْلِيمُ
 Emotive language: 69, 217, 247, 254, 382 لُغَةٌ انْفِعَالِيَّةٌ
 Engrams: 133 اِنْغْرَامَاتٌ، أَتَارٌ بَاقِيَّةٌ
 Essence: 132, 274, 300 جَوْهَرُ
 Ethnologists: 64, 65 عُلَمَاءُ الْأَعْرَاقِ الْبَشَرِيَّةِ
 Expansion: 172, 183, 195, 199 تَوَسُّعُ
 Expectation: 143, 145 تَوَقُّعُ
 Expression: 309, 348 تَعْبِيرُ
 External world: 81, 140, 166 الْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ
 Fairies: 189 جِنِّيَّاتُ
 Falsity: 145, 149 كَذِبُ
 Fictions: 189, 301 تَخَيُّلَاتُ
The Foundations of AEsthetics: 243, 258 أَسْسُ عِلْمِ الْجَمَالِ

- Functions of language: 69, 218, 247, 347
 وظائف اللغة
 Generality: 145
 عموم
 Genus: 183, 201
 جنس، نوع
 Gestalt: 135
 جشالت
 Gesture language: 74, 208
 لغة إيمائية
 Good: 218, 246, 320
 حسن، خسر، خير
 Good use: 320, 336
 استعمال جيد
 Grammar: 66, 124, 180, 186, 192, 203, 252, 317, 326, 337, 343, 348, 371
 نحو
 Graphomania: 124
 هوس الكتابة
 Greek: 102, 264
 إغريقي
 Hebrew: 57, 340
 عبراني
 Hypostatization: 191, 228, 297, 377
 إضفاء الصفة المادية
 Ideas: 65, 81, 153, 309
 أفكار، مثل
 Images: 84, 137, 142, 148, 282, 317
 صور
 Imputed relations: 209
 علاقات منسوبة
 Indo-European languages: 65, 373
 اللغات الهندوأوروبية
 Influenza: 117
 النزلة الوافدة
 Initial signs: 168, 324
 علامات أولية
 Intension: 204
 مفهوم
 Intention: 143, 304, 342, 403
 قصد
 Interpretation: 75, 133, 138, 144, 159, 166
 تأويل
 Introspection: 81, 127, 145, 315
 استبطان
 Intuition: 254, 259, 360
 حدس
 Irritants: 232
 ألفاظ مهيجة
 Judgment: 127
 حكم
 Laws of thought: 197
 قوانين الفكر
 Levels of interpretation: 174, 183, 323, 334
 مستويات التأويل
 Listener: 348, 383
 مستمع
 Logic: 61, 113, 175, 215, 254
 منطق
 Logical form: 151, 153, 335
 شكل منطقي
 Logos: 98
 لوجوس
 Lying: 76, 307
 كذب
 Materialism: 169
 مادية
 Mathematics: 95, 177, 197, 215, 255, 317, 321
 رياضيات
 The Meaning of Psychology: 73, 84, 133, 149
 معنى علم النفس
 Medicine: 82, 117, 192, 505
 طب
 Mendicants: 234
 ألقاط مستجديّة
 Metaphor: 204, 327, 336, 359, 377
 استعارة
 Metaphysics: 73, 90, 114, 164, 196, 187, 311, 339, 377, 384
 ميتافيزيقا
 Metre: 358
 وزن
 Misdirection: 76, 307
 تضليل
 Mysticism: 113, 177, 255, 377
 صوفيّة
 Negative facts: 101, 151, 437
 وقائع سلبية
 Nomads: 234
 ألقاط بدويّة
 Nominal entities: 301
 كيانات اسميّة
 Nominalism: 118, 166, 378
 الاسميّة
 Onomancy: 105
 محاكاة صوتيّة
 Onomatopoeia: 70, 105
 المحاكاة الصوتيّة
 Perception: 84, 127, 163
 إدراك جسديّ
 Phantom problems: 135, 147, 315
 مشكلات وهميّة
 Philology: 58, 66, 347
 الفيلولوجيا
 Philosophy: 183, 259, 318
 فلسفة
 Phonetic subterfuge: 227
 خدعة صوتيّة
 Physics: 72, 193, 204, 261, 358, 376
 الفيزياء
 Physiology: 334
 الفسيولوجيا
 Places as verbal entities: 72
 الامكنة بوصفها كيانات لفظيّة
 Places of referents: 182, 197, 439
 مواضع المراجع
 Poetry: 234, 251, 353
 شعر
 Pragmatism: 291, 311
 البرجماتيّة
 Primitive language: 59, 65, 86, 326, 373, 445
 لغة بدائيّة
 Principles of Literary Criticism: 39, 133, 227, 260, 327
 مبادئ النقد الأدبيّ
 Probability: 156
 احتمال
 Proper names: 326, 405
 أسماء أعلام
 Propositions: 128, 157, 193
 قضايا
 Prose and poetry: 353, 357
 النثر والشعر
 Prose-styles: 199, 352, 458
 الأساليب النثرية
 Psitticism: 332
 الببغاويّة
 Psycho-analysis: 72, 85, 290, 313, 334
 التحليل النفسي
 Psychology: 67, 72, 138, 374, 390
 علم النفس
 Pyrrhonism: 111
 البيرونيّة
 Pythagoreans: 99, 100
 الفيثاغوريون
 Realists: 96, 128, 169, 191, 240, 269
 واقعيون
 Reference: 68, 69, 143, 145, 180, 209, 249, 307, 339, 389, 465
 إحالة

- Referent: 68, 154, 197, 389 مَرَجِعْ
 Reflex, conditioned: 149 انْعِكَاسٌ مُشْرُوطٌ
 Refraction, linguistic: 186, 188 انْكِسَارٌ لُّغَوِيٌّ
 Relativity: 72 النِّسْبِيَّةُ
 Representation: 71 تَمَثُّلٌ
 Rhythm: 347 إيقاعٌ
 Scepticism: 126 الشُّكُّ
Science and Poetry: 39 العلمُ والشُّعرُ
 Semantics: 59, 60 عِلْمُ الدَّلَالَةِ
 Semantic shift: 223-224 تَحَوُّلٌ دَلَالِيٌّ
 Semiotic: 422 السِّمْبُولِيكَا
 Sentences and words: 380-381 جُمْلٌ وَكَلِمَاتٌ
 Separation, method of: 242 مَنَهْجُ الْفَصْلِ
 Significance: 305, 309, 430 مَغْرَضٌ، دَلَالَةٌ
 Signification: 299 دَلَالَةٌ
 Significs: 305, 422 عِلْمُ دِرَاسَةِ الْمَعْنَى
 Signs: 80, 110, 131, 140, 164, 169, 315, 339, 393 عِلَامَاتٌ
 Simulative and non-simulative language, distinguished: 71, 376
 اللُّغَاتُ الْمَحَاكِيَّةُ وَغَيْرُ الْمَحَاكِيَّةِ الْمُتَمَايِزَةُ
 Solipsism: 80 الْأَنَاوَحِدِيَّةُ
 Speaker: 329 مُتَكَلِّمٌ
 Spiritualists: 169, 188 رُوحِيُونَ
 Subject and predicate: 187, 378, 382
 المَوْضُوعُ وَالْمَحْمُولُ
 Subject-object relation: 127 عِلَاقَةٌ ذَاتِيَّةٌ - مَوْضُوعِيَّةٌ
 Subsistence: 69, 301 بَقَاءٌ ذَاتِيٌّ
 Substitution: 63, 181, 321 اسْتِبْدَالٌ، تَعْوِيضٌ
 Sufism: 112 الصُّوفِيَّةُ
 Suggestion: 124, 132 إِبْجَاطٌ
 Symbolic accessories: 188 مُكَمَّلَاتٌ رَمَازِيَّةٌ
 Symbolic devices: 184, 188, 318, 382 إِجْرَاءَاتٌ رَمَازِيَّةٌ
 Symbolization: 70, 73, 317 رَمِيزٌ
 Symbols: 68, 73, 85, 177, 317, 339 رَمُوزٌ
 Synæsthesia: 258 انْسِجَامُ الْبَوَاحِشِ الْمُخْتَلِفَةِ
 Synonyms: 181, 220, 320 مُتَرَادِفَاتٌ
 Thinking: 127, 318 تَفَكُّيرٌ
 Translation of foreign languages: 344 مَرَجَمَةُ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ
 Translation of propositions: 198 تَحْوِيلُ الْقَضَايَا
 Triangle of reference: 70 الْمُثَلَّثُ الْإِحَالِي
 Truth: 70, 145, 184, 193, 251, 318, 380 صِدْقٌ
 Uniform recurrence: 140 تَكَرُّرٌ خَدُودِيٌّ مُطَرِّدٌ
 Universal language: 119 لُفَّةٌ عَالَمِيَّةٌ
 Universals: 124, 146, 153, 185 كَلِّيَّاتٌ
 Universe of discourse: 194, 203-204, 215 عَالَمُ الْخُطَابِ
 Urteil, das: 129 تَسْوِيعُ الْحُكْمِ
 Urtier, das: 190 أَوْرْتِيرٌ، الْحَيَوَانُ الْأَصْلِيُّ
 Ultraquistic subterfuge: 229 خُدْعَةٌ أَوْتَرَاكُوسِيَّةٌ
 Verbal shorthand: 71, 73, 158, 185 اخْتِزَالٌ لَفْظِيٌّ
 Verbomania: 113, 124 هَوَسُ الْأَلْفَاظِ
 Word-freedom and word-dependence: 122, 330 الْحُرِّيَّةُ الْكَلِمِيَّةُ وَالتَّعَبُّيَّةُ الْكَلِمِيَّةُ
Word Magic: 39, 113, 122 سِحْرُ الْكَلِمَةِ
 Yoga system: 112 نِظَامُ الْيُوغَا

مَسْرَدُ الْأَعْلَامِ

Abbott, E. A.: 78	ا.ا. ابوت	Brooke: 239-240	بروك
Abbott, Lyman: 75	ليمان ابوت	Brunot: 350, 371	برونو
Adonai: 93	آدوناي	Budge: 90	بج
Adrian VI.: 108	ادريان السادس	Butler: 288	بترلر
Aenesidemus: 111, 164, 393	اينيسيديموس	Byron: 123	بايرن
Æschylus: 106	اسخيلوس	Cabot: 292	كابوت
Alexander: 214, 230, 270	ألكساندر	Cæsar: 107	قيصر
Allah: 92	الله	Campbell: 123	كامبيل
Allendy: 101	اليندي	Carnap: 254	كارناب
Ammonius: 103	امونيوس	Carr: 288	كار
Andronicus: 105	اندرونيوس	Cassirer: 122	كاسيرر
Anselm: 121	أنسيلم	Cecil, Lord Hugh: 38	اللورد هغ سيبيل
Antisthenes: 35	أنتستينيس	Chaucer: 224	تشوسر
Aristotle: 35, 100, 103, 110, 197, 202, 361	أرسطو	Cicero: 107	شيشرون
Arnold: 234	ارنولد	Clodd: 90	كلود
Augustus: 108	أوغسطس	Coleridge: 248	كوليرج
Ausonius: 106	اوسونيوس	Conan Doyle: 188	كونان دويل
Bacon: 118, 182	بيكن	Condillac: 119	كوندياك
Baldwin: 35, 81, 140, 296, 350, 412-414	بالدين	Confucius: 93, 323	كونفوشيوس
Baudelaire: 163	بودلير	Conington: 344	كوننغتون
Bawden: 292	باوين	Cornford: 89, 98	كورنفورد
Bax: 296	باكس	Coué: 112, 123	كوي
Beck: 411	بيك	Couturat: 177, 254	كوتورا
Bell, Clive: 238, 355	كلايف بيل	Croce: 231, 238, 240, 345	كروتشة
Bentham: 42, 120	بينثام	Crookshank: 117-118, 192, 505	كروكشانك
Bentley: 57	بنتلي	Cuchlain: 328	كوتشولين
Bergson: 123, 255, 357, 377	برغسون	Das, Bhagavan: 112	بهاغافان داس
Berkeley: 116, 119, 170	باركلي	Dasgupta: 112	داسغوبتا
Boas: 65	بواز	Delacroix: 64, 254	ديلاكروا
Bonaventura: 377	بونافنتورا	Delgarno: 121	دلغارنو
Bosanquet: 230, 238, 272	بوزانكيه	Demos: 437, 440	ديموس
Bradley, A. C.: 248, 295	ا.س. برادلي	De Quincey: 108	دي كوينسي
Bradley, F. H.: 266, 405	ف.ه. برادلي	De Saussure: 61-64, 349	دو سوسير
Bréal: 59-60	بريال	Dewey: 227, 292	ديوي
Broad: 285	برود	Dickens: 382	ديكنز

Dionysius Thrax: 35	ديونيسيوس ثراكس	Humboldt: 349	هَمبُولت
Dittrich: 349, 382, 408	ديتريتش	Hume: 56, 237	هيوم
Donaldson: 375	دونالدسن	Husserl: 35, 129, 399-404	هوسيرل
Drake: 270	دَرَيك	Ingraham: 125	إنغراهام
Duns Scotus: 202, 378, 421	دَنْز سكوتس	Jackson, General: 331	الْجَنَرَال جاكسن
Eaton: 137, 176, 438	إيتن	Jahweh: 93	يَهْوَه
Erdmann, K. O.: 36, 117	ك.او. إيردمان	James, H.: 56	هـ. جَيمس
Eucken: 295	يوكين	James, W.: 114, 311, 379, 415	و. جَيمس
Farrar: 106	فَارَار	Jelliffe: 85	جِيلْف
Florence, P. Sargent: 233	ف. سارغنت فلورنس	Jespersen: 25, 373, 385	جيسبيرسن
Forsyth: 292	فورسيث	Jesus: 75	المسيح
Foucher: 111	فوشير	Joachim: 265, 273	يواكيم
Frazer, J. G.: 88, 92	ج. ج. فَرَزِر	Johnson: 263	جونسن
Frege: 177, 406	فريجة	Johnson, W.E.: 192, 302-303, 438	و.إ.جونسن
Freke: 122	فريك	Joseph: 305	جوزيف
Friend: 93	فريند	Jowett: 95	يويت
Fry, Isabel: 386	إيزابيل فراي	Julia: 108	جُوليا
Gallus, Aelius: 110	أليوس غالوس	Kant: 165-166, 259, 384	كانت
Gardiner: 306, 347, 450	غاردينر	Keith: 112	كَيْث
Gellius: 110	جيليوس	Keynes, Lord: 128, 156, 287	اللورد كَيْنز
Geyser: 401-402	غَيْسِر	Kühmann: 166	كِيتمان
Goethe: 190	غوثه	Labeo, Antistius: 110	أَنْتِستِيوس لابيو
Gomperz, H.: 382, 408-411	هـ. غومبيرز	Ladd: 294	لاد
Gomperz, T.: 103	ت. غومبيرز	Laird: 173, 285	لايرد
Gregory of Naz.: 110	غريغوري النَّزِينَزِي	Lange: 132	لانغ
Grote: 378	غروته	Lao Tse: 57	لاو تسِي
Guignebert: 114	غوينبيرت	Laurie: 312	لوري
Haldane: 286	هالْدَيْن	Lawrence, D. H.: 260	د. هـ. لورنس
Hale: 384	هَيْل	Leathes: 310	ليثز
Harris, I.: 295	إ. هاريس	Leibnitz: 35, 58, 119, 175, 202	لايبنتز
Hartley: 132	هارتلي	Lersch: 110	ليرش
Head: 267, 333, 450	هيد	Lewis, Sir G. C.: 56	السَّيْر ج. ك. لويس
Hearn, Lafcadio: 354	لافكاديو هيرن	Liguori, Alfonso de: 76	ألفونسو دي ليفوري
Hegel: 95	هيفل	Lipps: 129	ليپس
Helmholtz: 165-166	هيلمهولتز	Lloyd Morgan: 134, 290	لويد مورغان
Henry VIII.: 31, 91	هنري الثَّامِن	Locke: 23, 35, 119, 234, 237	لوك
Heracleitus: 100	هيراقليطس	Longinus: 247	لونجينوس
Hermann: 384	هيرمان	Lotze: 294	لوتزة
Herodotus: 92	هيرودوتس	Lovejoy: 230, 271	لَفْجوي
Hicks: 111, 395	هكس	Maccoll: 111	ماكول
Hobbes: 118, 201	هوبز	Macculloch: 90	ماكولوخ
Hoernlé: 173	أويرنليه	McDougall: 290	مكدوغال
Holt: 136, 273	هولت	Mackail: 248	مَكَّيْل
Hopkins: 93	هوبكنز	Mackenzie, Sir J.: 288	السَّيْر ج. مَكِينزِي
Hugo, Victor: 87, 233	فِكْتور هُوغو	Mackenzie, J. S.: 56, 357	ج. س. مَكِينزِي

McTaggart: 285	مكتفارت	Perry: 273, 293	بيري
Madvig: 373	مادفيغ	Philodemus: 397	فيلوديموس
Mahaffy: 67	ماهامافي	Photius: 393	فوتئوس
Maier: 105-106	ماير	Piéron: 334	بيرون
Malinowski: 25, 36, 71, 113, 445	مالينوفسكي	Pike: 91	بايك
Margoliouth: 105	مارغوليوت	Pillsbury: 289	بلسبيرى
Martinak: 308, 349, 410	مارتيناك	Pitkin: 270	بيتكن
Marty: 35	مارتي	Plato: 35, 97, 99	أفلاطون
Mauthner: 35, 104, 120	ماونثر	Plotinus: 108	أفلوطين
Meinong: 35, 130	ماينونغ	Poincaré: 56	بوانكاريه
Mervoyer: 108	ميرفوير	Powell: 180	بويل
Meumann: 337	ميومان	Praçastapada: 193	براساستابادا
Meyrick: 77	ميرك	Prantl: 106	برانتل
Mill, James: 179	جيمس ميل	Prasad, Rama: 112	راما براساد
Mill, J. S.: 56, 179, 228, 300, 303	ج. س. ميل	Pratt: 271	برات
Miller: 132	مير	Putnam: 290	بوتنام
Montague: 78	مونتاغ	Ramsey: 187	رامسي
Moore, A. W.: 413	أ. و. مور	Read: 229	ريد
Moore, G. E.: 205, 219, 240, 293	ج. إ. مور	Reid: 173	ريد
Moore, G. F.: 91	ج. ف. مور	Rhys Davids: 109	ريس ديفيدز
Moore, J. S.: 281	ج. س. مور	Ribot: 115-116, 233, 334	ريبو
Moses: 94	موسى	Richardson: 294	ريتشاردسن
Müller, Max: 35, 121, 233	ماكس مالر	Rignano: 114, 117, 178	رينانو
Münsterberg: 276, 338, 368	مونستربيرغ	Rogers: 272	روجرز
Nansen: 202	نانسين	Rotta: 103	روتا
Nettleship: 286	نيتلشيب	Rougier: 170, 202	روجير
Newman: 78	نيومان	Rousseau: 338	روسو
Newton: 314	نيوتن	Royce: 286	رويس
Nicholson: 112	نيكلسن	Ruskin: 238	رسكين
Nietzsche: 56, 255	نيتشة	Russell, B.: 35, 96-97, 130, 136-137, 144, 151, 186, 264-266, 285, 302, 310, 374, 405, 449	ب. رسل
Nunn: 270	نن	Sachs: 201	ساكس
Occam, William of: 118, 164	وليم الاوكامي	Saintsbury: 355	سنتسبيري
O'Shea: 338	أوشي	Santayana: 238, 274, 300-301	سانتايانا
Osiris: 92	اوزيريس	Sapir: 66, 192, 344-345, 383	سابير
Palladius: 323	بالاديوس	Saulez: 341	ساوليز
Parker: 294	باركر	Schiller: 264, 266, 304	شيلر
Paramenides: 101	بارمينيديس	Schlesinger: 31	شليسنجر
Parsons: 267	بارسنز	Schopenhauer: 227	شوبنهاور
Pater: 344	بيتر	Schroeder: 415	شرودر
Patrick: 188	باترك	Schuster: 56, 175	شوستر
Paul of Tarsus: 87	بولس الطرسوسي	Scipio: 107	شيبيو
Pavlov: 149	بافلوف	Sell: 92	سيل
Peano: 442	بيانو	Sellars: 274-275	سيلرز
Pear: 37	بير	Semon: 132-133	سيمون
Peirce: 35, 58, 121, 330, 419-435	بيرس		

Severus: 108	سيفيروس	Tolstoi: 238	تولستوي
Sextus: 111, 393-396	سكستوس	Tooke, Horne: 35, 119-120	هورن توك
Shakespeare: 190, 263	شكسبير	Trendelenburg: 102-103	تريندلينبرغ
Sheffield: 293, 381	شفيلد	Urban: 289, 312	أوربان
Shelley: 357	شيلي	Urwick: 250, 288	أوروك
Sidgwick, A.: 232, 266	أ. سيدغوك	Vaihinger: 189	فايهنغر
Silberer: 122	سيلبيرر	Valcknaer: 127	فالكتير
Sinclair: 75	سينكلير	Van Ginneken: 130	فان جنيكين
Smart: 337	سمارت	Van Gogh: 295	فان غوخ
Smith, Sydney: 344	سيدني سميث	Vendryes: 253-254	فندريس
Smith, Whately: 188	وُتلي سميث	Von der Gabelentz: 252	فون دير غابيلينتز
Sonnenschein: 373, 385	سونينشايين	Washington, General: 331	الجنرال واشنطن
Sophocles: 106	سوفوكليس	Watson: 84	واطسن
Sorbière: 111	سوربيير	Weeks: 164	ويكس
South: 87	ساوث	Welbey, Sir C.: 415	السير تى. ويلبي
Spalding: 296	سبالدينغ	Welbey, Lady V.: 29, 264, 305, 415, 422, 430	اللديي ف. ويلبي
Spencer: 56, 201	سينسِر	Westermarck: 77	ويسترمارك
Spiller: 292	سپلر	Whewell: 102	هيوويل
Spinoza: 312	سينوزا	Whitehead: 63, 193, 215, 450	وايتهيد
Steinthal: 35, 106, 121, 349	شتاينثال	Whitman, Walt: 87, 346	والث وتمان
Stephen, K.: 255-256	ك. ستيفن	Whittaker: 109	وُتاكِر
Stout: 35, 231, 289	ستاوت	Wilde: 201	وايلد
Strong: 266, 275, 304	سترونغ	Wilkins: 121	ولكنز
Sulla: 105	سُلا	Wilson, Kinnier: 333, 360	كينير ولسن
Sully: 337	سلي	Wittgenstein: 178, 374-375	فيتغنشتاين
Taine: 36, 120, 179	تَيْن	Wolff: 166	ولف
Taylor: 101	تيلر	Wolseley, Lord: 77	اللورد وولسلي
Temple: 296	تيمبل	Wood, James: 243	جيمس وود
Thales: 98	ثاليس	Wundt: 35, 348	فونت
Theophrastus: 105-106	ثيوفراستوس	Yeats: 123	بيتس
Thucydides: 77	ثيوسيديديس		
Titchener: 140, 281-282, 289	تيتشير		



مَعْنَى الْمَعْنَى

دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية

"اللغة أهم أداة من أدوات الحضارة".

هذا ما يقرره المؤلفان بجرأة في تصديرهما لكتاب معنى المعنى، وهو أثر كلاسيكي ظل محتفظاً بأهميته - وتحديه - لدراسة اللغة، والأدب، والفلسفة منذ أن طبع أول مرة.

إن الكثير مما يتعلق باللغة ما زال لا يحظى بفهم فاعل، لما يلقاه من تشويه بفعل موقفنا المعتاد - الذي كثيراً ما يشتم بسمية اللامبالاة - تجاه الكلمات، أو بفعل الافتراضات المتكئة التي تستند إلى نظريات غير موثوق بها. فما العلاقة بين الكلمات وما تحيل عليه الكلمات؟ وبين الكلمات والطريقة نفسها التي نفكر بها؟ وهل يمكن أن يؤدي فهم هذه الأمور إلى مزيد من الدقة في التواصل؟ إن القراء المعنيين بهذه الأسئلة يجدون أنفسهم في مفترق طرق اللسانيات ونظرية التواصل، والنقد الأدبي والفلسفة - وهي مجموعة مترابطة متعددة الاختصاصات يقتضيها حقل السيميوطيقا المتزايد التأثير - وسيثبت كتاب معنى المعنى أنه مصدر أساسي في ذلك، كما أثبت ذلك على مدى العقود الستة الأخيرة.

وتعرض مقدمة أمبرتو إيكو، الروائي والسيميوطيقي، لا يحكم المصادفة، المبرز، منطوقاً ساحراً لهذا المؤلف الريادي الذي يواصل إقلاق الإخلاد العقلي وتحفيز الفكر والنقاش.

موضوع الكتاب علم الدلالة

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com

ISBN 978-9959-29-862-7



دار المَدَانِي
توزيع
الإسلامي
حصري

9 789959 298627